
alexandra.ahlamontada.com
منتدى مكتبة الأسكندرية
الكسندر فادييف
الحرس الفتي

الكسندر فادييف

الحرس الفتي

رواية

الجزء الاول

موسكو • دار التقدم

ترجمة الدكتور سامى عماره

Александр Фадеев
МОЛОДАЯ ГВАРДИЯ
КНИГА I
На арабском языке

Ф $\frac{70302-394}{014(01)-81}$ 532—81

4702010200

رواية البسالة والبطولة

حظيت رواية «الحرس الفتى» التى خلدت الاحداث البطولية للحرب الوطنية العظمى ، بشهرة فائقة لم تقتصر على الاتحاد السوفييتى فقط ، بل وتعدت نطاقه بعيدا .

ولقد كتب الكسندر فادييف هذه الرواية ، حيث سجل احداث تلك الايام فى حينها بما يعكس ابعادها ومآسيها وروح ذلك العصر الخالد .

جرت احداث «الحرس الفتى» فى اوج فترة الحرب الوطنية ، حين راحت غالبية الكتاب السوفييت تأخذ مكانها على الجبهة جنبا الى جنب مع بقية فصائل الشعوب السوفييتية . كانوا يحملون السلاح ، حيث لقى ما يربو عن اربعمائة كاتب – ثلث اعضاء اتحاد الكتاب – حتفهم على ارض المعركة . وكانوا يحاربون بالقلم ، حيث ظهر فى سنوات الحرب اشهر ما كتبه ميخائيل شولوخوف ، والكسى تولستوى ، وقسطنطين سيمونوف ، والكسندر تفاردوفسكى وغيرهم من فنانى الكلمة . وكان الكسندر فادييف من اولئك الذين انخرطوا فى العمل كمراسلين عسكريين . وبدأت مقالاته عن الجبهة تجد مكانا لها على صفحات «البرافدا» بانتظام ، وكذلك فى الاذاعة . وكانت هذه المقالات معبرة عن المعين الاول للالهام الادبى – عن الاهتمام الفائق الصادر من القلب بالمآثر البطولية لاولئك الذين هبوا يواجهون بصدورهم ، الفاشية المستأسدة والرغبة الجارفة فى سحقها .

كان فادييف فى زيارة لموسكو فى صيف عام ١٩٤٣ ، قصد خلالها اللجنة المركزية لمنظمة الكومسومول . وهناك وجدهم يناقشون امر وثائق وصلت على التو من مدينة كراسنودون – مدينة عمال المناجم الصغيرة – تتحدث عن تنظيم سرى للكومسومول «الحرس الفتى» . وسلم المجتمعون هذه الوثائق الى فادييف يسألونه :

— من ترشحونه من الادباء لكتابة رواية عن شباب كراسنودون ؟ او ربما ترغبون انتم يا الكسندر الكسندروفيتش فى القيام بهذا العمل ؟

وتعلل فادييف بانشغاله باعمال الجبهة ، وبارهاقه صحيا ، ووعد بالتفكير فى مسالة المرشح المطلوب ، وبالحديث فى ذلك الامر مع نيكولاى تيخونوف وبوريس جورباتوف . واخذ الوثائق للاستفاضة فى دراستها . ولما لم يتلقوا ردا منه طيلة اسبوعين ، اتصلوا به تليفونيا لترد زوجته :

— لقد سافر الكسندر الكسندروفيتش الى كراسنودون ، واخذ معه كل الوثائق . . .

ولم يكن تصرف فادييف هذا مثارا للدهشة ، لانه عاش طيلة حياته بنمط مقاتل الثورة الذى كان نفسيا على استعداد للقيام باى عمل يوكل اليه . واذ نشأ فادييف فى اسرة ثوريين محترفين ، فقد اختار منذ صباه طريق النضال من اجل ارساء نظام جديد . وعن ذلك كتب فادييف فيما بعد يقول : «لم يكن صعبا علينا اختيار طريقنا . لقد تلقينا تعليمنا لقاء النقود المعدودة التى كان يتقاضاها والداى . كان ابى وامى الممرض والممرضة ، يعملان فى قرية نائية ، ويفلحان بنفسهما الارض . وهكذا كان حال العديد من رفاقى فى المدرسة . ومن ثم فقد كانت حياة العمال والفلاحين قريبة الى نفوسنا .

وانضممنا الى صفوف الثورة تجتاحنا آمال الصبا ، نحمل ما كتبه ماكسيم جوركي ونيكراسوف فى حقائبنا المدرسية . وكانت الرغبة الجارفة لتحرير الارض تتملكنا ، حيث فرض الادميرال كولتشاك فى سيبيريا والشرق الاقصى الروسى سلطة اقسى وطأة من تلك السلطة القديمة . كما وكانت روح الوطنية تسيطر علينا لان نعال المتدخلين قد وطأت ارضنا الحبيبة .

انني ككاتب ، ادين بالكثير لتلك الفترة» . وقد انضم الكسندر فادييف الى حزب البلاشفة فى السابعة عشرة من عمره . وسرعان ما انخرط فى فصائل الفدائيين المقاتلة فى سبيل تحرير الشرق الاقصى ، حيث بدأ طريقه مقاتلا عاديا ، واختتمه قوميسارا للواء . وكم افادت مدرسة النضال الفدائى كثيرا كاتب المستقبل ! فقد قاتل

جنبا الى جنب مع كثير من مشاهير الحركة الثورية . ومن يدرى ، فربما تكون شخصية سيرجى لازو القائد الاسطورى لفدائى الشرق الاقصى ، او شخصية فسيفولود سيبيرتسيف قريب الكاتب ، اللذين اسرتهما عصابات البيض ووضعتها احياء وقودا للقاطرة ، قد تمثلتا امامه حين كتب «بدم قلبه» عن البطولة الفائقة لوطنيى كراسنودون .

وينتقل فادييف من جوار اتون نيران النضال فى ادغال سيبيريا ومن صحبته للبندقية الى القلم ، الى ممارسة الادب . لكن ذلك لم يحدث كطفرة مفاجئة . فقد التحق فى البداية بمعهد موسكو للتعدين ، حتى يعود فيما بعد مهندسا — كما كان يتوقع قبلا — الى مناجم مدينة بريموريه . وجمع الكسندر فادييف ما بين الدراسة فى المعهد والعمل الحزبى . وفى عام ١٩٢٤ انتقل الى القوقاز فى عمل حزبى . ولم يختر فادييف الادب كمهنة اساسية له الا فى عام ١٩٢٦ ، حين فرغ من كتابة روايته «الهزيمة» . وجمع ذلك الرجل ذو الطبع الحيوى ما بين الادب والنشاط الاجتماعى السياسى . واختير اكثر من مرة عضوا فى الهيئات القيادية للحزب وللدولة السوفييتية ، وكان عضوا نشيطا فى حركة انصار السلام العالمية . وكان يترأس اتحاد الكتاب السوفييت على مدى ثلاثين عاما . وكان فادييف الوسيم ذو القوام الفتى والشعر الابيض صديقا للكثيرين من المشاهير اعتبارا من فيدين وتفاردوفسكى حتى فريدريك جوليو كورى وبابلو نيرودا . وعكست طرق الابداع لدى فادييف مختلف مراحل طريق المجتمع السوفييتى ، وغدت مؤلفاته سجلا ادبيا للمآثر المجيدة التى قام بها ابناء وبنات الشعب السوفييتى .

واشتهرت اول روايات فادييف «الهزيمة» — عن الحرب الاهلية فى الشرق الاقصى — كواحدة من احسن روايات الادب السوفييتى الفتى . ففى هذه الرواية تمثلت الحقيقة المرة للواقع المعاصر الى جانب الامل فى انسان جديد ، والروح الحماسية للنضال من اجله . ولقد سجل فادييف تطويرا لهذا الموضوع فى روايته الثانية : «الاخير من اوديجيه» . فقد كان يرى الانسان الجديد متمثلا فى ابطال الحرب الوطنية .

وها هو الكاتب يرى ويحصل على المادة التى تسجل مآثر

الانسان الجديد . وقد ذكر فادييف «ان هذه المادة قادرة على ان تصهر الحجر !» .

وانطلق فادييف قاصدا كراسنودون تحت تاثير فكرة ابداعية ملكت كل حواسه . وعاش هناك فترة طويلة ليضيف بمشاهداته وانطباعاته ما يستكمل به المعلومات التى تضمنتها الوثائق .

وحقا كانت كراسنودون مسرحا لاحداث عجيبة ، لاحداث كانت تحمل فى نفس الوقت طابعا مميزا اتسمت به البلاد السوفييتية .

ففى خريف ١٩٤٢ اقتحم المحتلون الالمان المدينة ، حيث اعلنوا فى احتفال كبير ارساء «النظام الجديد» . وفى ذلك الحين تشكلت بالمدينة منظمة سرية من اعضاء الكومسومول تسمى «الحرس الفتى» ضمت حوالى مائة شاب وفتاة . واعتبر الالمان المحتلون انفسهم سادة المدينة ، بينما راح شباب «الحرس الفتى» يعلقون الاعلام الحمراء لترفرف فوق رؤوس الفاشيست فى ايام الاعياد السوفييتية .

وفى الوقت التى راحت اجهزة دعاية جوبلز تعلن «انهيار» اول دولة اشتراكية فى العالم ، كان سكان المدينة يطالعون المنشورات التى اعدتها هيئة اركان «الحرس الفتى» ، حيث تسجل المقاومة الشعبية المتنامية فى وجه المحتلين . وراح الفدائيون الشباب يحصلون على السلاح ، ويشنون هجماتهم الجسورة على العدو وينتقمون بلا رحمة من الخونة . ومن الجدير بالذكر انه بين المنظمات السرية التى شكلها المواطنون السوفييت المناضلون ضد الفاشية اثناء الحرب وفى المدن والقرى الرازحة مؤقتا تحت نير الاحتلال ، كانت ايضا مجموعات شبابية على نمط مجموعة كراسنودون .

وكان فتية كراسنودون يقاتلون كالابطال ويستشهدون ايضا كالابطال . وحين القى رجال الجستابو القبض عليهم جميعا تقريبا ، نتيجة وشاية احد الخونة لم يهتز منهم احد ، ولم يتسلل الروع الى قلبه ، وراحوا جميعا يواجهون الموت مرفوعى الهامة ، تردد شفاههم اغنية الثورة .

ولم ينس الوطن ابناءه وبناته الاوفياء . ففى الخامس عشر من شهر سبتمبر عام ١٩٤٣ صدر مرسوم مجلس السوفييت الاعلى ينص على منح الاوسمة لابطال «الحرس الفتى» ، وللكثير منهم بعد استشهادهم . ولقد منح قادة اركان «الحرس الفتى» : كل من اوليج

كوشيفوى وايفان زيمنوخوف وسيرجى تولينين واوليانا جروموفا وليوبوف شيفتسوفا بعد استشهادهم لقب بطل الاتحاد السوفييتى .

ولقد ساعدت لقاءات فادييف مع اقارب واصدقاء ابطال «الحرس الفتى» على ان يرسم وان يشكل وعيه صورة كاملة لنضال واستشهاد هؤلاء الابطال . وعايش فادييف عاما وتسعة اشهر هؤلاء الابطال ووهب حياته كلها لروايته الجديدة . وقد كتب بعد ذلك يقول : «اننى استطيع القول دون مبالغة اننى رسمت ابطال كراسنودون بحب بالغ ، ومنحتهم الكثير من دم قلبى» .

وظهرت رواية «الحرس الفتى» على صفحات الجرائد والمجلات فى غضون عام ١٩٤٥ ، ثم ظهرت كاملة فى طبعة خاصة فى عام ١٩٤٦ . وسرعان ما حظيت بشهرة فائقة (وقد ظهرت بعد ذلك على شاشة السينما ، وعلى المسرح كمسرحيات درامية وكاوبرا) .

وغدت «الحرس الفتى» ذروة لذلك الحماس الاخلاقى والجمالى الذى ساد المجتمع السوفييتى وراح ينتظر من يجسده ادبيا . ذلك لان فادييف استطاع ان يجيد رسم صورة لاولئك الابطال الحقيقيين ، للمنابع الاجتماعية والاخلاقية للمقاومة الشعبية التى هبت تواجه المحتلين الفاشيست .

وكانت هذه المنابع ماخوذة من واقع النظام المعيشى للاشتراكية . ولقد اثبت فادييف بشكل لا يرقى اليه الشك ان النمط السوفييتى للحياة ، هو النمط الوحيد الذى يلائم شعبنا ، وان المثل الشيوعية هى المثل القريبة والمحببة لكل الشعب من صغيره الى كبيره .

ويجد القارئ نفسه حين يتصفح كتاب فادييف ، فى عالم رحب لحياة حرة ترفرف عليها السعادة ، حيث يعيش المواطنون السوفييت ، فى عالم يكدحون فيه بشرف ، فى عالم الجمال الاخلاقى . وكما الزنبقة التى كانت تنظر اليها اوليا جروموفا ، وكما البرارى الغارقة فى بحر من اشعة الشمس ، والتى كانت تقطعها الفتيات فى خطوات سريعة ، كان ذلك الواقع الرائع الفريد الذى اعتاده الشباب السوفييتى ، الذى شب فى احضان الاشتراكية ، تسوده علاقات الصداقة الحقة ، وروح الجماعة والعون المتبادل . وكان فى «النظم» الفاشية ثمة ما يجعل الشعب ينظر اليها كشىء يتسم بالوحشية والبعد

عن الواقع . فقد كان سكان كراسنودون يعتبرون «خدمة الالمان . . . شيئا غير طبيعى وغير مريح كالسير على اربع» . وغدت ضرورة الدفاع عن النمط السوفييتى للحياة ، اولى مطالب الانسان السوفييتى .

وكما ابدع المؤلف ، ارتبطت فى المجتمع السوفييتى بخيوط من الدماء تقاليد الآباء، والاخوة الكبار بأعمال وافكار الشباب . ولقد اطلق اوليج كوشيفوى على نفسه اسم «كاشوك» — وهو لقب زوج امه الذى شارك فى نضال الانصار ايام الحرب الاهلية . وقد تصدرت هذه الرواية كلمات اغنية رددتها الالسنة ابان سنوات الثورة : «الى الامام يا رفاق هبوا كى نلاقى الفجر !» . كانت الفتيات فى السجن يرددن اغنيات الماضى الثورية ، وكان فتيان وفتيات «الحرس الفتى» يرددونها حين يقتادونهم لينفذوا فيهم حكم الاعدام .

لقد عكست الرواية احد المشاهد الخالدة للحرب الوطنية مثلها مثل الشمس التى انعكست فى نقطة مياه ، عكست روح وطابع العصر الثورى بأسره الذى كان فادييف معبرا عنه . وعبثا ينسى البعض ما فى «الحرس الفتى» من تعميم فنى بلغة الكاتب . وكانت الطبعة الاولى للرواية تفرد مكان الصدارة عن حق لنماذج «الحرس الفتى» ، كما افردت مكانا هاما للجيل السابق للحديث عن نشاط الجيش الاحمر ، ولتأمل احداث الحرب . واحقاقا للحق نقول ان نماذج البلاشفة القدماء لم تجد المكان اللائق بها فى الطبعة الاولى ، وتحت تأثير النقد ادخل الكاتب فيما بعد بعض التغييرات على خطوط الرواية . ويرجع سبب ذلك الى ان فادييف حين عكف على كتابة الرواية لم يكن يعلم شيئا عن قادة العمل السرى الذين كانوا يعملون فى الخفاء . ولم يكتب عنهم شيئا الا فيما بعد . بيد ان مهمة الكاتب كانت من البداية وضع تصور كامل لاحداث شاركت فيها كل قطاعات الشعب وكل الاجيال .

وإذ راح فادييف يعمل على تعديل بعض خطوط الرواية على اساس الوثائق التى اذيعت فى نهاية الاربعينات عن اللجنة الحزبية فى كراسنودون والتى كانت تعمل فى الخفاء ، ظهرت طبعة عام ١٩٥١ تضم نماذج مختلفة للشيوعيين ليوتيكوف ، وبروتسينكو وغيرهما . كما عكست الرواية الصورة الحقيقية لدور الحزب الشيوعى فى الحرب الوطنية . ولم يعد ذلك بالنفع على الصورة العامة لحركة الفدائيين

فقط . فقد استبعد الكاتب السمات المصطنعة والدعائية التى اتسمت بها شخصيات شباب «الحرس الفتى» ، مما يجعل القارىء يرى كيف يكمّل اعضاء كومسومول كراسنودون وقادتهم المحنكون كل منهم الآخر .

وتعمق فادييف فى السمات المميزة لذلك الجيل الذى وهب نفسه وحياته للقضية العامة .

«ان تلك السمات التى لا يمكن على ما يبدو ، ان تتوافق مثلما لا يتوافق الحلم والواقع ، رحلة الخيال والحياة العملية ، حب الخير والقسوة ، سعة الصدر والحساب الرشيد ، الحب الجارف لمباهج الحياة والزهد فى ملذاتها ، كل هذه السمات المتناقضة ظاهريا قد خلقت وجها ليس له مثيل لهذا الجيل» .

بيد ان الكاتب لم يكن ينوى الاقتصار على رسم صورة عامة فحسب ، اذ جعل الرواية متحفا عامرا بشتى صور الوطنيين الشباب الذين ينتمى كل منهم الى الجيل الذى سبق الاشارة اليه ، الى جانب كونهم فى نفس الآن شخصيات فريدة متباينة رائعة .

فقد كان اوليج كوشيفوى انيقا وسيما تشع من شخصه «النضارة والقوة والطيبة والصفاء الروحى . . .» وقد توافقت الاخلاقيات العالية والصراحة فى شخص اوليج مع الموهبة التنظيمية الرائعة والغريبة على مثل صبى فى هذه السن ، ومع الفطنة العملية .

اما سيريوجكا تيولينين ، محبوب فادييف كما ذكر بنفسه ، فلم يكن شبيها على الاطلاق بأوليج كوشيفوى . فقد كان عاجزا عن السيطرة على نفسه ، تغمره جراة لا يحكمها منطق ، يندفع دائما نحو العمل .

كذلك كان الامر بالنسبة للوبا شيفتسوفا «سيريوجكا تيولينين ذاته فى ملابس الفتيات» : طاقة لامحدودة ، وحماس فائق النظير ونشاط هائل . «كانت اعماق روحها جياشة بشىء متعدد الالوان ، يرقص ويغنى تارة ، ليتاجج كما النيران على حين غرة تارة اخرى . ثمة شىء حى كان يجعلها لا تعرف الى الراحة سبيلا . كانت متعطشة لبلوغ المجد ، تراودها رغبة جارفة فى التضحية بذاتها . كانت البسالة اللامحدودة والشعور بالسعادة الطفولية المشاكسة الثاقبة تدعوها وتلح فى الدعوة عليها للتقدم نحو الامام والارتقاء الى الاعلى

حتى تحفل حياتها دائما بالجديد ، وما يمكن ان تصبو اليه نفسها» . سارت الى ساحة الاعدام مرفوعة الهامة بشكل يدعو الى الفخر . وعندما ارادوها ان تركع حتى يطلقون الرصاص على ظهرها ، استدارت لوبا لتواجه رصاصة الفاشيست التى انهت حياتها .

وكانت اوليانا جروموفا البطلة الثانية للرواية على نفس القدر من البسالة . بيد انها لم تكن تشبه لوبا شيفتسوفا من حيث مكونات شخصيتها . فقد كانت اوليانا ذات طابع متزن هادىء تملك زمام السيطرة على نفسها . كانت تملك قدرا هائلا من الرغبات الحقيقية التى لم تكن تظهر الا فى لحظات المد الروحى . لقد كان الجوهر الداخلى لاوليا جروموفا يتفق مع مظهرها الخارجى .

«. . . كانت الفتاة الهيفاء فارعة القامة ذات ضفيرتين سوداوين كثتين ، وعينين تشعان ضوء قويا ناصعا تارة ، وتبدوان مفعمتين بقوة غامضة تارة اخرى . . .» .

بيد ان فادييف بالرغم من اعجابه بابطاله الفتيان لم يشأ وصفهم باية سمات تجعلهم بعيدين عن ارض الواقع . وكانت **غرابة الشىء المألوف** هى جوهر رومانتيكية فادييف . فقد كان ابطاله البسطاء المتواضعون الذين لا يوجد ما يميزهم عن اقرانهم ، اناسا ذوى امكانيات اخلاقية عالية .

لقد كان فادييف ذلك الفنان الفريد ، قريبا فى ذات الوقت من جوركى فى سعيه للتركيز على هذه الامكانيات وعلى قوة وجمال السمات الجديدة للانسان المناضل المحب للعمل .

وذكر فادييف ذات مرة : «ان الحرس الفتى هم بالطبع شباب وفتيات سوفييت طليعيون وفى نفس الوقت متواضعون بسطاء . . . لكن الحياة ، كما تعلمون ، تكون «ملطخة» بالكثير من توافه الامور وعوارضها . . . وليس الفنان ملزما على الاطلاق بسردها ، ولا سيما اذا تطلب الامر تصوير المرء خلال فترة حرجة وحادة من فترات حياته حين تتجلى اقوى الجوانب فى شخصيته . اولا تعلمون ان المرء الحقيقى يبدو فى اجل جوانب شخصيته حين يقف وجها لوجه امام المحن الكبيرة ؟

وبذا يتضح ان القضية ليست فى المثالية ، بل فى طريقة تصوير الانسان . انكم حين تودون رسم شخصية انسان تحبونه ، وتصوير

واقعه وسماته الحقيقية لا يعنى ان يكون ذلك الزاما بغض الطرف عن سلبياته ، بل يعنى الا تصرف طريقة تصوير هذه السلبيات القارىء عن حب هذا المرء» .

لقد واصل فادييف فى رواية «الحرس الفتى» النضال الذى خاضه طوال حياته ضد اعداء الثورة والنظام السوفييتى . وقد وصف الكاتب بغضب ، وان تجنب التطرف فى سرد التفاصيل ، التعذيب والتنكيل الذى تعرض له الوطنيون السوفييت على يد المحتلين ، والاهوال داخل اسوار سجون الجستابو ، وعمليات الاعدام الرهيبة . لقد فضح التشابه العضوى لتلك الاساليب الفاشية مع الاساليب التى تعترف بشرعيتها الامبريالية العالمية . يقول فينبونج رجل «اس اس» الالمانى فى حديث له مع «جنتلمان» امريكى تصوره جدلا ، ان كل منهما يسرق ويشرى ، بيد ان «رجال الاعمال» يفعلون ذلك «قانونيا» ، بينما الالمان الفاشست ياتون ذلك بقوة السلاح .

لقد تجلت بشكل رائع شهامة المواطنين السوفييت فى مقاومتهم للفاشية المتوحشة . كما ان كون انتهاء الرواية باستشهاد ابطالها الفتيان يجعل الالم يعتصر قلب القارىء بشكل بالغ . لكن قائمة اسماء ابطال «الحرس الفتى» الشهداء التى تختتم بها الرواية صفحاتها لا تعنى فقدان الامل . ان «الحرس الفتى» مأساة كبيرة تجعل القارىء اكثر نقاء روحيا وتساميا لانها تمجد البسالة والصمود البشرى ، وتدعو الى المقاومة المتفانية للشر ، والى النضال فى سبيل المثل العليا السامية . وفى ذلك انسانية الرواية النضالية الواقعية .

ان رواية فادييف ظاهرة ادبية شاذة فريدة . ففيها تتجسد الحقيقة المرة للحياة وتعمر بالتفاصيل الغزيرة ، وتعكس التصاعد الرومانسى للرواية ، وصفاء نفسى رقيق وعاطفة وجدانية جياشة وتامل فلسفى عميق عن الحياة وعن الناس وعن النفس . انها عبارة عن مواقف نفسية من وحى خيال المؤلف ، عن تغير النفس البشرية كما تصور فادييف ذلك . . والى جانب ذلك انها تسجيل وثائقى صارم .

واذ تتبع الكاتب سير الاحداث الواقعية ، لم ير ممكنا عرقلة سيرها الطبيعى وتغيير طباع البشر . بيد ان فادييف اكد فى ذات

الوقت انه «لم يسجل التاريخ الحقيقي للحرس الفتى ، بل كتب رواية لا تفترض الخيال وحسب ، بل وتشترط وجوده» .

ولم يستطع فادييف حين سجل ملحمته الاقتصار على الشخصيات التاريخية فقط ، بل وضم اليها من وحي خياله عددا من النوعيات (شولجا وبروتسينكو وستاخوفيتش وغيرهم كثيرين) .

واذا تعرضنا لموضوع الشخصيات الحقيقية والخيالية ، نجد من الضروري الاشارة الى نموذج منها كان محل غموض وتفسيرات متضاربة . هذا النموذج هو ستاخوفيتش ، ذلك الشخص الذي خان «الحرس الفتى» ، وتمثل في فيكتور تريتياكيفيتش الذي اشار اليه السفاحون الهتلريون بوصفه احد الخونة حين مثلوا امام المحكمة السوفييتية . ولم يقتصر فادييف على مجرد تسمية هذه الشخصية باسم آخر ، بل صنع منه نموذج الخائن . ولا يمكن لنا سوى تسجيل اعجابنا باحساس الفنان الحقيقي الذي لم يتقبل الاقوال المجردة من الدليل والخاصة بتريتياكيفيتش . ومضى ستة عشر عاما ليتضح لنا ان الهتلريين قد افتروا كذبا على هذا الشاب . وفي حقيقة الامر كان فيكتور متماسكا صامدا حين استجوابه ولقي حتفه كما الابطال . ولم يخن «الحرس الفتى» سوى شخص يدعى جينادي بوتشيبتسوف الذي ابتاعه الفاشيست بوعودهم له بالمكافآت . واكتشاف الحقيقة التاريخية لا يعني باي حال من الاحوال اعادة النظر في تقديراتنا لاي من شخصيات الرواية التي نسجها المؤلف طبقا لقانون التعميم الفني .

لقد اعطت قوة التعميم الفني طول العمر لابطال فادييف . ان ابطال «الحرس الفتى» يواصلون حتى يومنا هذا خدمة قضية الحرية ، واعلى مثل التقدم الاجتماعي . ان كلمتي «الحرس الفتى» تتحدان دوما مع النضال من اجل حرية وسعادة الشعب . لقد اطلق الشباب الكوريون اسم «الحرس الفتى» على منظمتهم السرية المكافحة من اجل حرية واستقلال وطنهم . كما اطلق هذا الاسم على فصائل جيش التحرير الشعبي الفيتنامي . ان اصحاب الارادة الحرة الطيبة في كل انحاء العالم يعلنون بكل فخر ان مآثر الابطال من امثال «الحرس الفتى» تلهمهم في احلك لحظات نضالهم .

وليس عبثا ان نجد الحرس الفتى متمثلا اليوم في حياة البلاد

السوفييتية . ففي مدرسة كراسنودون لا يتمتع بحق الجلوس على المقاعد التي كان يجلس عليها اوليج كوشيفوي ورفاقه سوى اكثر التلاميذ نموذجية . ان شباب «الحرس الفتى» مسجلون في سجلات فرق عمال المناجم وعمال البناء في كراسنودون وتخصص رواتبهم التي تمنح لهم لدعم صندوق السلام .

وتمر السنون وعشرات السنين وتظل ذكرى الابطال باقية لا تخبو بل على العكس تعيش في قلوب المعاصرين وفي ارواحهم ، ويرجع الفضل الكبير في ذلك الى الكسندر فادييف ملهم الانسان المعاصر .

فيتالي اوزيروف

الحرس الفتى

الجزء الاول

الى الامام يا رفاق هبوا كي نلاقي الفجر
وبالحراب والرصاص شقوا دربكم في الصخر
وليعل في ذرى الاكوان سلطان العمل
وليصبح الجميع اسرة وحدها العمل
الحرس الفتى للعمال والزراع هبّ للقتال !

نشيد الشباب

الفصل الاول

– هوه . . هوه . . فلتنظرى يا فاليا الى هذه الاعجوبة ! رائعة ! كما المنحوتة ! انها ليست من المرمر او الالاباستر ، انها شىء حى . . لكن يا لها من باردة ! وكم هى رفيعة رقيقة ! ما من يد بشرية تستطيع ان تصنع مثلها ! انظرى كيف تستقر على سطح الماء ، نظيفة ، دقيقة لا تبالى . . انظرى الى صورتها المنعكسة كم يصعب تحديد ايهما اروع . . الصورة ام الاصل ؟ والوانها ؟ فلتنظرى . . انها ليست بيضاء . . لا انها بيضاء على نحو يتدرج الى الاصفر والوردى والسماوى . كما انها تبدو من الداخل كاللؤلؤة ، يعشى الابصار لونها المشبع بالندى . لا . . ان البشر لم يجد بعد مثل هذه الالوان ، ولم يتوصل بعد الى تسميات لها !

هذا ما تفوهت به الفتاة ذات الضفيرتين المتموجتين السوداوين التى اطلت على النهر من بين شجيرات الصفصاف فى بلوزتها الناصعة البياض وقد اتسعت عيناها الرائعتان فجأة تحت وقع الضوء المتدفق ودمعتا لدرجة غدت معها اشبه بتلك الزنبقة الطافية على المياه الداكنة .

واجابتها فاليا التى اطلت على النهر فى أثرها :

– اهذا وقت الغزل ! يا لك من عجيبة يا أوليا !

وقد كانت فاليا عريضة الفكين بعض الشىء ، فطساء الانف قليلا ، لكن الصبا والوجه الذى ينم عن طيبة أضفيا عليها ملاحة ووسامة . وراحت الفتاة دون ان تنظر الى الزنبقة تجيل النظر قلقة بحثا على الشاطىء عن الفتيات اللواتى تخلفت عنهن وتناديهن :

– اوو . .

واجابتها اصوات قريبة :

– اوو . . اوو . . وو . .

وصاحت فاليا وهى تنظر الى صديقتها فى حب وتندر :

– اقبلن . . لقد وجدت اوليا زنبقة .

وفى تلك اللحظة تعالت اصوات قصف مدفعية ، كالرعـــد بعيدة ، من هناك . . مـن الشمـــال الغربى بالقـــرب من فوروشيلوفجراد .

– مرة اخرى !

– نعم مرة اخرى – اجابتها اوليا بصوت لا يكاد يسمع بينما خبت جذوة الضوء الذى كان يتدفق من عينيها .

وقالت فاليا :

– ايمكنهم اقتحامها هذه المرة ؟ ! يا الهى . هل تذكرين كيف عانينا فى العام الماضى ؟ بيد ان كل شىء انتهى رغما عن ذلك على ما يرام . صحيح انهم لم يكونوا قريبين هكذا فى العام المـــاضى . أتسمعين القصف ؟

وسكتت الفتاتان تصيخان السمع .

وانطلقت اوليا تقول بصوت متحشرج تنم نبراته عن القلق :

– عندما اسمع ذلك القصف وارى السماء ناصعة ، واغصان الاشجار ، وادوس باقدامى الحشائش التى بعثت الشمس بالدفء اليها وترامت رائحتها طيبة ، اشعر بالم بالغ وكانما فارقنى كـــل ذلك الى الابد . . الى الابد . يبدو ان روحى تحجرت من جراء هذه الحرب . عوّدتها على الا تتقبل ما من شانه ان يجعلها رقيقة . وفجاة يتدفق الحب وتنساب الشفقة حيال كل شىء ! اوتعرفين يا فاليا انه ليس لدى غيرك افاتحه فى ذلك .

وتقارب وجهاهما بين الشجيرات قريبا قريبـــا حتى اختلطت انفاسهما معا ، وراحتا تحدقان النظر كل فى عينى الاخرى .

كانت فاليا ذات عينين صافيتين عريضتين تتسمان بالطيبـــة تستقبلان نظرات صديقتها فى طاعة وولع . بينما كانت عينا اوليا واسعتين عسليتين طويلتى الاهداب ناصعتى البياض ، ذاتا حدقتين سوداوين لا تعرف كنههما ، ينبعث من اعماقهما على ما يبدو ، ذلك الضوء القوى الرطب .

وعلى وجهى الفتاتين كانت تنعكس كما الظلال المتراقصة اوراق الاشجار التى تمايلت بعض الشىء تحت وقع قصف المدفعية المدوى بعيدا والمؤثر حتى فى ذلك المنخفض .

وراحت اوليا تتساءل بصوت خفت نبرته :

– الا تذكرين كيف كان مساء الامس طيبا فى البرارى . . هل تذكرين ؟

وهمست فاليا :

– اجل ، وهل تذكرين غروب الشمس ؟

– نعم ، نعم . ان الجميع يلعنون برارينا . يقولون انها مملة صهباء . . اكمات ثم اكمات لا تصلح للسكنى . ومع ذلك احبها . اذكر ايام كانت امى ما تزال فى كامل قواها ، تعمل احيانـــا فى حقول البطيخ ، بينما كنت انا الصغيرة جدا استلقى على ظهرى احدق فى السماء ، وافكر الى اى حد منها يستطيع نظرى الوصول . . هل تذكرين . . الى اعلى الأعالى ! وبالامس داخلنى الألم حين رحنا نتطلع الى الاصيل ثم الى الخيول المبتلة والى المدافع والعربات والجرحى . . . ان المقاتلين يسيرون وقد انهكت قواهم وعلاهم الغبار . لقد ادركت تماما ان ذلك ليس على الاطلاق اعادة حشد قوات بل انه انسحاب مريع . . نعم مريع . ولذا كانوا يتحرجون النظر الينا . هل لاحظت ذلك ؟

واومات فاليا براسها فى صمت .

وقالت اوليا وثمة ضوء كئيب باهت يتساقط على عينيها :

– اننى ما ان القيت بنظرى على البرارى حيث صدحنا بالكثير من الاغانى ، والى الغروب ، حتى امسكـــت نفسى بالكاد عن ذرف الدموع . وهل رايتنى اذرف الدمع كثيرا ؟ وهل تذكرين كيـــف راحت الظلمة تلف المكان ؟ . . انهم يسيرون ، يسيرون تكتنفهم ظلمة الليل ، بينما يدوى هذا الهدير وتبدو هذه الومضات والهالات فى الافق ، ومن المؤكد ان يكون ذلك فى روفينكى حيث يبدو الاصيل ثقيلا ارجوانيا . انك تعلمين اننى لا ارهب شيئا فى هذه الدنيا ، اننى لا اخاف نضالا او مصاعبا او آلاما ، بيد أننى تواقة لمعرفة ما يجدر بنا عمله . . فثمة شىء رهيب يجثم فوق أرواحنا .

وعلقت فاليا على ذلك قائلة ، وقد اغرورقت عيناها بالدموع :

– اوه . . كم كانت حياتنـــا طيبـــة . . اليس كذلك يا اوليتشكا ؟

واجابت اوليا :

— لقد كان كل البشر على سطح البسيطة قادرين على العيش فى هناء لو كانوا يريدون ذلك او يدركونه . — واستطردت تقول عندما سمعت اصوات الصديقات ، بترنم وفى صوت طفولى يتباين تماما عن صوتها الحقيقى ، بينما ارتسمت على عينيها امارات تعبر عن شقاوة :

— لكن ما العمل ، ما العمل ؟ !

وانتزعت حذاءها الذى كانت قد انتعلته فى قدمين عاريتين ، وامسكت طرف جونلتها الداكنة بيدين صغيرتين لفحتهما الشمس واندفعت الى المياه فى جسارة .

وصاحت فتاة نحيفة لدنة القوام تعكس عيناها امارات جسارة صبيانية ، فيما هى خارجة على التو من وراء الشجيرات :

— ايتها الفتيات ! . فلتنتظرن . . زنبقة !

وزعقت تقول : «لا . . انها لى» وهى ترفع ذيل جونلتها بكلتا يديها فى حركة فجائية لتبدو قدماها الحافيتان اللتان لفحتهما الشمس ، وتقفز الى المياه لتطرطش على نفسها واوليا بمروحة من المياه ذات اللون الكهرمانى .

وقالت ضاحكة حين تعثرت وغاصت احدى قدميها فى الأعشاب المائية :

— أو . . هوه . . ان المكان هنا لعميق !

وهرولت الفتيات — وكان عددهن ستا — الى الشاطىء يصحن فى جلبة . وكن جميعا مثلهن مثل اوليا وفاليا وساشا النحيفة التى قفزت الى المياه منذ لحظات ، يرتدين جونلات قصيرة وبلوزات بسيطة . وكان لونهن الطبيعى قد تغير حيث تركت رياح دونيتسك الساخنة وشمسها الحارقة بصماتهما كما لو كان ذلك عن عمد لتغدو احداهن ذهبية ، والاخرى قمحية والثالثة محمصة اللون كالخارجة توا من جرن المعمودية .

وكما كل فتيات البسيطة ، حين يجتمع منهن اكثر من اثنتين ، رحن يتحدثن بصوت عال دون ما ضابط لا تستمع احداهن للاخرى ، وبعصبية بالغة كانما كن يرغبن فى ان يستمع العالم اجمع الى كل كلمة يتفوهن بها .

— . . . لقد قفز بالمظلة . . يا الهى ! انه جميل مجعد الشعر . . اشقر . . اما عيناه فكانتا مستديرتين صغيرتين .

— اننى لا استطيع العمل كممرضة . . حقا اقول . . اننى لا اطيق منظر الدم !

— هل تظنين حقا انهم سوف يتخلون عنا ! اى كلام تقولينه ! ان هذا شىء غير معقول !

— اوه يا لها من زنبقة .

— يا ماياتشكا . . يا ايتها الغجرية ، ماذا انت فاعلة ان تخلوا عنا ؟

— فلتنتظرى . . يا لها ساشا !

— انا اقع فى حبه ؟ ماذا تقولين . . ماذا تقولين !

— اولكا ، يا ايتها الطائشة ، الى اين تزحفين ؟

— سوف تغرقن ، ايتها المجنونات !

كن يتحدثن بلكنة اهل الدونباس الجافة بعض الشىء والتى تشكلت من اختلاط لهجة المحافظات الروسية الوسطى واللهجة الشعبية الاوكرانية ولهجة قوزاق الدون ولكنة سكان موانىء بحر آزوف — ماريوبول وتاجانروج وروستوف على الدون . بيد انه مهما كان حديث الفتيات فى كل انحاء الارض ، فان كل ما يتفوهن به يبدو جميلا لطيفا .

— اوليتشكا ، هل انت فى حاجة اليها ايتها الدرة ؟ — هذا ما ندا عن فاليا وهى ترمق فى قلق بعينيها الواسعتين ، اللتين تتسمان بالطيبة ، كيف غمرت المياه ليس فقط سمانتى رجلى زميلتها بل ووصلت حتى ركبتيها البيضاوين .

واذ راحت تتحسس اوليا باحدى قدميها قاع النهر الحافل بالنباتات المائية وترفع ذيل جونلتها حتى بدت من تحته اطراف سروالها الاسود ، تقدمت ومالت بقدها الفارع لتتلمس الزنبقة بيدها الاخرى . وسقطت احدى ضفيرتيها السوداوين ذات النهاية الموبرة الى الماء ، بيد انها فى تلك اللحظة بذلت آخر ما فى وسعها لتمسك باناملها الزنبقة وتقتلع ساقها الطويلة جدا .

وقالت ساشا وهى تحدق صاحبتها بعينيها الكستنائيتين الصبيانيتين وتقف فى المياه التى بلغت سمانتى قدميها :

— برافو أولكا ، انك جديرة بعملك هذا للحصول على لقب بطل الاتحاد . . ليس الاتحاد السوفييتى باسره بل لنقل اتحادنـــا نحن الفتيات ، من حى «بيرفومايكا» . هاتى الزهرة .

واذ امسكت ساشا جونلتها بين ركبتيها ، وثبتت بيديهـــا الرقيقتين الماهرتين الزهرة فى شعر أوليا الاسود المتموج قائلة :

— كم يناسبك هذا . انني احسدك . — وفجأة توقفت تقول وهى ترهف السمع :

— انصتى . . ثمة اصوات تتردد فى مكان ما . . هل تسمعنني ايتها الفتيات ، يا للعنة !

وهرولت ساشا واوليا تخرجان من المياه نحو الشاطئ .

ورفعت كل الفتيات رؤوسهن يتسمعن هديرا متقطعا ، تارة رفيعا ، واخرى خافتا ، فى محاولة منهن لاكتشاف مكان الطائرة فى الجو القائظ .

— انها ليست طائرة واحدة . . بل ثلاث !

— اين هى . . اين ؟ اننى لا أرى شيئا .

— اننى ايضا لا ارى شيئا . . اننى اسمع اصواتها فقط .

وكانت اصوات المحركات المتذبذبة تختلط فى هدير واحـــد متصل رهيب ، وآخر متقطع خافت احيانا . وكانت الطائرات تهدر فوق رؤوس الفتيات دون ان تظهر للعيان ، الا ان ظلال اجنحتها مرقت لتغشى أوجه الفتيات .

— من المؤكد انها متجهة الى كامينسك لقصف المعبر . . .

— او الى ميلليروفو .

— اية ميلليروفو ! لقد سلّموها . . الم تستمعى الى نشرة الاخبار يوم امس ؟

— الامر سيان . ان المعارك تدور فى الجنوب .

— وماذا علينا ان نفعل ايتها الفتيات ؟ . .

هكذا تساءلت كل منهن وهى تنصت رغمـــا عنها الى قصف المدفعية الذى يترامى على البعد وبدا وكأنه يقترب منهن .

وايا كانت الحرب رهيبة او عصيبة ، وايا كانت جسامـــة الخسائر وهول المعاناة التى تصيب البشر ، فان الصبا بما يتسم به من فتوة وحب للحياة ، ومن انانية ساذجة غير شريرة ، وعشق

للمستقبل والحلم به ، لا يريد ولا يستطيع ان يرى فى خطر عام ومعاناة شاملة ، خطرا او معاناة يمكن ان يحيقان به هو شخصيا حتى تلسعه نيرانهما وتعكر صفو حياته المرحة .

لقد فرغت اوليا جروموفا وفاليا فيلاتوفا وساشا بونداريفا وكل الفتيات الاخريات هذا العام من دراستهن فى المدرسة الثانوية فى حى بيرفومايكا .

والانتهاء من الدراسة الثانوية حدث هام فى حياة كل شاب ، اما الانتهاء من هذه الدراسة فى سنوات الحرب فحدث غير عادى .

ومنذ بدء الحرب فى الصيف الماضى راح تلاميذ الصفـــوف المتقدمة فى المدارس ، وهم الصبية والفتيات كما كانوا يدعونهم آنذاك ، راحوا يعملون فى المزارع التعاونية والحكومية المجاورة لمدينة كراسنودون وفى المناجم وفى مصنـــع بناء القاطرات فى فوروشيلوفجراد ، بل وسافر البعض الى مصنـــع الجرارات فى مدينة ستالنجراد الذى تحول الى صناعة الدبابات .

وفى الخريف اقتحم الالمان حوض الدونباس واحتلوا مدينتى تاجانروج وروستوف على الدون . ولم يبق من كل اوكرانيا سوى مقاطعة فوروشيلوفجراد وحدها التى لم تطاها قدم المانى ، وحيث تراجعت سلطة كييف مع وحدات الجيش . امّا مؤسسات مقاطعتى فوروشيلوفجراد وستالينو — يوزوفكا سابقا — فقـــد تمركزت اليوم فى مدينة كراسنودون .

وقبل ان يتوغل الخريف بعيدا عن بدايته وحتى استقرت جبهة القتال فى جنوب البلاد راح النازحون من مناطق الدونبـــاس التى احتلها الالمان يعبرون شوارع كراسنودون يثيرون فيها القاذورات التى خلفتها الامطار والتى تضاعفت على ما يبدو بعد الكمية التى حملها هؤلاء النازحون فى نعالهم . وكان تلاميذ المدارس قد فرغوا من استعدادهم للنزوح الى مقاطعة ساراتوف ، بيد ان عمليـــة التهجير توقفت حيث جرى وقف زحف الالمـــان بعيـــدا عن فوروشيلوفجراد ، واستعادة روستوف على الدون من الالمان الذين لقوا هزيمتهم شتاء بالقرب من موسكو ، وبدا الجيش الاحمـــر هجومه مما جعل الناس يأملون فى الخلاص .

وقد تعود التلاميذ على اقامة الغرباء — العاملون فى المؤسسات

النازحة ومقاتلو وقادة وحدات الجيش الاحمر النازحون للاقامة او لفترة راحة اثناء طريقهم الى الجبهة – فى مساكنهم المريحة فى كراسنودون وفى منازلهم المتفرقة فى حى «بيرفومايكا» وبيوتهم المبنية بالطوب الاخضر فى حى «شانغهاى» ، فى هذه الشقق الصغيرة التى بدت مهجورة فى الاسابيع الاولى للحرب حيث هجرها الاب او الاخ الى الجبهة .

وقد تعلم هؤلاء التلاميذ التمييز بين مختلف انواع القوات والرتب العسكرية وانواع الاسلحة وماركات الموتوسيكلات وعربات النقل والركوب سواء كانت سوفييتية او اجنبية من تلك التى غنموها من العدو . وكانوا يعرفون الدبابات من النظرة الاولى، وليس فقط حين كانت هذه الدبابات تقف فى الشارع طلبا للراحة فى ظلال اشجار الحور فى خضم هواء حار انبعث من رقائقها الحارقة، بل وحين كانت تهدر فى طريق فوروشيلوفجراد ، او حين يجرونها عبر الطرق المفضية الى الغرب ، الموحلة خريفا والمغطاة بالثلوج شتاء .

وكانوا يميزون بين الطائرات السوفييتية والالمانية ليس من منظرها فقط بل وبمجرد سماع هدير محركاتها . كانوا يعرفونها فى الجو «الاحمر» المترب الذى الهبته حرارة الشمس ، وبين النجوم ليلا فى سماء دونيتسك السوداء .

وكانوا يقولون فى هدوء :

– هذه طائراتنا «لاج» (او «ميج» او «ياك») .

– وها هى طائرات «الميسير» !

– ها هى «يو–٨٧» فى طريقها الى روستوف على الدون – وذلك بلهجة تنم عن غير مبالاة .

ولقد تعودوا على النوبات الليلية فى فصائل الدفاع الجوى والوقاية الكيميائية ، وعلى الحراسة وهم يحملون الاقنعة الواقية على اكتافهم فى المناجم وعلى اسطح المدارس والمستشفيات . ولم تكن الرهبة تساور احدا حين يتعالى هدير القصف البعيد يهز ارجاء الجو ، وتروح اشعة المصابيح العاكسة تتعامد كما الابر بعيدا فى سماء ليل فوروشيلوفجراد وهالات لهب الحرائق تظهر فى الافق تارة هنا واخرى هناك . كما لم يكن ثمة من يفزع حين تروح

قاذفات العدو تقصف فى وضح النهار ارتال عربات النقل فى البرارى ، وحين تفرقع المدافع والرشاشات فى المواقع الممتدة بمحاذاة الطريق الذى انتشرت على جانبيه الخيول هاربة والمقاتلون اتقاء للضربات ، بحيث بدا كنهر يشقه لنش سريع .

لقد احبوا الطريق الطويل الى حقول المزارع التعاونية ، والفوا ترديد الاغنيات باعلى اصواتهم تنقلها الرياح بعيدة عن عربات النقل التى تقلهم فى البرارى . لقد احبوا موسم الحصاد الصيفى واعواد القمح التى تئن من وطأة ثقل السنابل ، واحاديث الروح الودية والضحكات التى تتردد فجأة فى اعماق الليل الهادى' فى مكان ما وسط غبار الشوفان . لقد عشقوا الليالى الساهدة على اسطح المنازل حين يستقر كف الفتاة الداق' ساعة واثنتين وثلاث بين يدى الفتى الخشنتين ، وبينما يفرد الفجر اجنحته على التلال الشاحبة ويتالق الندى على الاسقف الرمادية الوردية وتتساقط من على اوراق اشجار الاقاصيا الى اراضى الحدائق وتتعالى رائحة جذور الزهور الذابلة المعطنة ، ودخان الحرائق التى اشتعلت بعيدا ، كما تتعالى اصوات الديكة كما لو ان شيئا لم يحدث .

وها هم قد انتهوا من دراستهم فى هذا الربيع وتوادعوا مع اساتذتهم ومنظماتهم لتطل عليهم الحرب تحدق فى اعينهم كما لو كانت تنتظرهم خصيصا فى هذا الميعاد .

ففى ٢٣ يونيو تراجعت قواتنا عند محور خاركوف . وفى الثالث من يوليو تعالى كالرعد نبأ انسحاب قواتنا من مدينة سيفاستوبول بعد دفاع عنها دام ثمانية اشهر .

ستارى اوسكول وروسوش وكانتيميروفكا ومعارك غربى فورونيج واخرى عند مشارفها ؛ وفى الثانى عشر من شهر يوليو – ليسيتشانسك . وفجأة ودون مقدمات تتدفق عبر كراسنودون وحداتنا المنسحبة .

وكانت ليسيتشانسك على مقربة قريبة . وليسيتشانسك تعنى ان الغد سوف يكون فى فوروشيلوفجراد ، وبعد غد هنا فى كراسنودون . . فى «بيرفومايكا» ، فى الشوارع التى نعرف كل ركن فيها والعامرة باشجار الياسمين والليلاك التى كساها التراب وقد برزت من خلف الاسوار الخشبية ، فى حدائق الاجداد العامرة

باشجار التفاح ، فى البيوت المغلقة القارّة حيث سترة الاب معلّقة
على مسمار فى الحائط ، سترته التى علّقها بنفسه عند عودته من
العمل فى المنجم وقبل ان يغادر المنزل الى قسم التجنيد العسكرى ،
فى نفس البيت الذى غسلت ارضيته يدا الام الحانيتان المعروقتان
الى درجة اللمعان ، وسقتا تلك الوردة الصينية المستقرة على
حافة النافذة وبسطتا على المائدة مفرشا تزين الزهور حواشيه ،
وتفوح منه رائحة غاية فى العذوبة – فلربمـــا يحل ذلك الالمانى
الفاشى !

وفى فترة الراحة استقر فى المدينة كما لو كان الى ابد الدهر
رجال الامداد والتموين الحصفاء العالمون ببواطن الامور . وكان
هؤلاء يتبادلون النكات مع أهل المدينة ، يلاعبونهم الكوتشينة ،
ويذهبون الى السوق يبتاعون البطيخ ، ويشرحون عن طيب خاطر
الوضع على الجبهات العسكريـــة بل واحيانا كانوا يتنازلون عن
ماكولاتهم المحفوظة لاعداد حساء الكرنب على الطريقة المحلية . وفى
نادى جوركى التابع للمنجم رقم ١ وكذلك فى نادى لينين الموجود
بحديقة المدينة كان يتجول كثير من الملازمين المرحيـــن محبى
الرقص ، الذين يصعب عليك معرفة ما اذا كان ذلك عن لباقة ام
عن شقاوة . وكان هؤلاء يظهرون فى المدينة تارة ، ليختفون اخرى.
بيد انهم كانوا دائما كثيرين ، وقـد تعودت فتيات البلدة على
وجوههم المتغيرة التى لوحتها الشمس والتى تبدو عليها سيماء
البسالة ، لدرجة انهن كن يعتبرنهم من ذويهن .

وفجاة ودون مقدمات لم يبق لهم جميعا أثر .

وفى محطة فيرخنيدوفاتايا ، تلك المحطة الصغيرة الآمنـة ،
حيث كان كل ساكن كراسنودون يعتبر نفســه فى منزله بمجرد
وصوله اليها بعد عودته من مامورية او رحلة او من اجازة الصيف
بعد انتهاء العام الدراسى ؛ فى هذه المحطة وفى كل المحطــات
الصغيرة الممتــدة على طول خط ليخايـــا – موروزوفسكايا –
ستالينجراد كان يتجمع الافراد وتكوم المعدات والذخيرة والعربات
والحبوب .

وكان صياح الاطفال والنسوة ينبعث من تلك النوافذ التى
تظللها نباتات الاقاصيا واشجار الحور ، حيث كانت الامهــات

يعددن اطفالهن للرحيل برفقة بيت الاطفال او المدرسة ؛ وحيث
كن يودعن الابنـة او الابن ، وحيث الزوج او الاب الذى يودع
اسرته قبيل رحيله عن المدينــة مع منظمته او تنظيمه . اما فى
البيوت الاخرى المغلقة تماما كان يسود هدوء اقسى من بكاء الام ،
حيث ان ذلك يعنى اما ان البيت خلا تماما من سكانه او لم يبق
فيه سوى عجوز ودّعت كل افراد اسرتها ، وحيدة حزينة لا تقوى
حتى على البكاء وقد تحجر الألم فى قلبها .

وكانت الفتيات يستيقظن فى الصباح على الاصــوات البعيدة
للمدافع ، يتشاجرن مع ذويهن فى محاولة منهن لاقناعهم بالرحيل
فورا وتركهن وحدهن ؛ بينما يروح الآباء والامهات يرددون ان
حياتهم قد انقضت وعلى الفتيات اعضـاء الكومسومول ان يرحلن
بعيدا عن الآلام والكوارث . وكانت الفتيات تتناول طعام الافطار
بسرعة ، ليذهبن بعد ذلك للتزاور بحثا عن اخبار جديدة . واذ
كانت الفتيات يتجمعن كسرب الطيور يعانين من وطاة حرارة الجو
والفراغ القاتل ، ويجلسن فى غرفة معتمة فى ضيافة احداهن تارة ،
وتحت شجرة تفاح فى الحديقة تارة اخرى ، وفى وهدة وافرة الظلال
على شاطئ النهر تارة ثالثة يعانين من هواجس خفية لا تستطيع
قلوبهن او عقولهن ادراك كنهها .

وما هو الامر يفرض نفسه متفجرا .

فقد اعلنت احداهن بصوت حاد ، وهى فتاة صغيرة ذات وجه
عريض وانف مدبب وشعر ناعم برّاق وضفيرتين قصيرتيـــن
معقوصتين بارزتين الى الامام :

– لقد سلموا فوروشيلوفجراد ، سلّموهـــا ويخفون الامر
عنا !

وكان لقب تلك الفتاة فيريكوفا ، بينما تدعى هى زينا . بيد
انه لم يكن هناك منذ سنوات طفولتها من يدعوها باسمهـــا . .
كانوا جميعا ينادونها : فيريكوفا ؛ فيريكوفا دائما .

وردت مايا بيجليفانوفا ، وهى فتاة سمراء كالغجريـــة منذ
المولد جميلة ذات عينين سوداوين ، وقد ضغطت فى كبرياء على
شفتها السفلى :

– كيف تفكرين يا فيريكوفا على هذا النحو ؟ ما داموا لم يذكروا لنا شيئا ، فان هذا يعني انهم لم يسلمونها بعد !

وكانت مايا قبل تخرجها من المدرسة فى ربيع هذا العام سكرتيرة منظمة الكومسومول ، تعودت ان تصحح للجميع اقوالهم وان تقوّم من تربيتهم ، وبوجه عام كانت تود ان يكون كل شيء صحيحا طوال الوقت .

– اننا نعرف كل ما تستطيعين قوله : «انكن لا تعرفن الديالكتيك ايتها الفتيات !» – هذا ما تفوهت به فيريكوفا على نحو تقلد به مايا لدرجة ان الجميع انفجرن بالضحك ، واستطردت تقول وقد برقت عيناها المتلاصقتان وبرزت ضفيرتاها كقرنين :

– هل تظنون انهم سوف يواجهوننا بالحقيقة . . يا للسذاجة! لقد منحناهم ثقتنا . . والآن نفقد ثقتنا فيهم . من المحتمل ان يكونوا قد سلموا روستوف ثانية ، ولا مفر امامنا . بينما المفر امامهم هم !

وعلقت مايا على ذلك قائلة وهى تحاول الحديث بصوت عادى:

– غريب تفكيرك يا فيريكوفا ! كيف لك ان تقولى هذا ؟ انك عضو فى الكومسومول ! انك مرشدة طلائع !

وتدخلت شورا دوبروفينا تقول :

– لا تجادلينها الحديث !

وكانت شورا فتاة صموتة تكبر الاخريات سنا ، ذات تسريحة صبيانية وعينين فاتحتين تضفيان على شكلها شيئا من الغرابة ، تدرس بجامعة خاركوف . وعندما احتل الالمان خاركوف فى العام الماضى قبيل الدراسة ، عادت شورا دوبروفينا الى كراسنودون ، حيث يقطن ابوها صانع الاحذية . وكانت تكبر الاخريات بحوالى اربعة اعوام ، بيد انها لم تكن تفارقهن ابدا ؛ تحب خفية مايا بيجليفانوفا ، وتصحبها دائما اينما كانت «كالخيط مع الابرة» ، على حد قول الفتيات .

وقالت شورا تخاطب مايا :

– لا شأن لك بها . ما دامت قد اتخذت لنفسها هذا الرداء ، فلن تغيّرينه لها انت بأى حال من الاحوال .

وقالت فيريكوفا الصغيرة دون ان تعير مايا انتباها :

– لقد ساقونا طوال الصيف نحفر الخنادق . . وكم من الجهد ضيّعناه فى هذا العمل ؟ لقد اصابنى المرض شهرا بسبب ذلك . ومن يستخدم هذه الخنادق اليوم ؟ . . انها اليوم منبت للحشائش . . أليس ذلك حقا ؟

ورفعت ساشا الفتاة النحيفة كتفيها النحيلتين متظاهرة بالدهشة وهى تلتهم بعينيها المستديرتين فيريكوفا ، وراحت تطلق صفارة طويلة .

الآ انه على ما يبدو لم تؤثر كلمات فيريكوفا على الفتيات اللواتى رحن يصغين اليها بقدر ما اثرت عليهن حالة الغموض التى سادت الموقف آنذاك .

وقالت تونيا ايفانيخينا وهى تنظر وجلة تارة الى فيريكوفا واخرى الى مايا :

– لا . . ان الوضع جد عصيب !

وكانت تونيا اصغرهن ، ذات ساقين طويلتين وانف ضخم وشعر غزير داكن اللون تختفى بعض خصله وراء اذنيها الكبيرتين . هذا بينما كانت الدموع تترقرق فى مآقيها .

وقد بدا كل شيء رهيبا لا سبيل الى تصحيحه من وجهة نظر تونيا ايفانيخينا منذ ان افتقدت شقيقتها الكبرى ليليا التى كانت تحبها ، والتى ذهبت الى الجبهة لتعمل ممرضة فى بداية الحرب . ومنذ ذلك الحين لم تكن الدموع تفارق مقلتيها .

هذا بينما كانت اوليا هى الوحيدة التى لم تشارك الفتيات حديثهن ، بل وبدت كما لو كانت لا تشاطرهن همومهن . كانت منصرفة الى حل نهاية ضفيرتها الطويلة التى غمرتها مياه النهر ، والى عصرها ثم تضفيرها . واذ راحت تعرض قدميها المبللتين الى الشمس الواحدة بعد الاخرى ، وقفت لبعض الوقت مطأطأة رأسها الذى تزينه تلك الزنبقة البيضاء التى كانت تتناسب مع شعرها وعينيها ، كما لو كانت تستمع الى نفسها . وعندما جفت قدماها راحت تمسهما بكفها الطويلة ثم جففت اصابعها وكعبيها وبحركة خفيفة مألوفة دسّت قدميها داخل حذائها .

وقالت ساشا وهى الفتاة النحيفة القوام :

– آه . . يالى من حمقاء . . ! اننى لست أدرى سر عدم

التحاقى بالمدرسة المهنية التخصصية . — واستطردت تقول فى سذاجة وهى ترمى الجميع بنظرة لامبالية : — لقد عرضوا على الالتحاق بالمدرسة التخصصية التابعة لمفوضية الشعب للشئون الداخلية ، وكان يمكننى البقاء هنا ، فى مؤخرة الالمان ، ولم تكنّ لتعرفن شيئا حول هذا الموضوع . لقد كان يمكن ان تمتن كمدا بينما استطيع الآن اعير الامر انتباها : «ما هذا الهدوء الذى يعترى ساشا» . لقد اتضح اننى باقية هنا بتكليف من مفوضية الداخلية . — وفجأة اطلقت زفرة وهى تنظر الى فيريكوفا واستطردت تقول :

— لقد كنت قادرة على خلب لب هؤلاء الحمقى من الجستابو حسبما اريد !

ورفعت اوليا راسها وراحت تحدق النظر فى ساشا ، بينما اصابت الرجفة وجهها ولست ادرك بالتحديد ، شفتيها ام انفها الرقيق .

وقالت فيريكوفا بلهجة غاضبة :

— اننى سوف ابقى دون حاجة لمفوضية الشئون الداخلية . وما دام امرى لا يهم احدا ، فسوف ابقى لاعيش كما كنت اعيش قبل ذلك . وماذا فى ذلك ؟ اننى تلميذة ، وطبقا للمفاهيم الالمانية تلميذة المدرسة الثانوية ، وعلى اى حال فهم قوم مثقفون ، فماذا هم فاعلون بى ؟

وفجأة صاحت مايا وقد علا الاحمرار وجهها :

— اية تلميذة ثانوى ؟

— تلميذة ثانوى . . يا سلام — قالتها ساشا وهى تقلد فيريكوفا مما دفع الفتيات الى ان ينفجرن بالضحك .

وفى تلك اللحظة دوى صوت رهيب هز الارض والسماء وصمّ آذانهن ، وجعل اوراق الاشجار تتساقط وكذلك التراب الذى تراكم على جذوعها ، حتى المياه اصابها تموج خفيف .

وعلا الشحوب أوجه الفتيات ، ورحن لعدة ثوان يحدقن النظر كل فى وجه الاخرى . وتساءلت مايا :

— أحقا يكون قد القى بحمولته فى مكان ما ؟ !

وقالت تونيا ايفانيخينا التى كانت دائما اول من تدرك قرب الكارثة ، وقد اتسعت عيناها :

— لقد مرّت الطائرات منذ فترة ، ولم نسمع هدير غيرها .

وفى تلك اللحظة زلزل الضاحية دوى انفجارين — الاول على مسافة قريبة ، بينما كان الآخر الذى اعقبه بثوان على مسافة ابعد قليلا .

ودون اتفاق اندفعت الفتيات يهرولن الى المستعمرة ، تمرق اقدامهن بين الشجيرات دون ان يند عن احداهن اى صوت .

الفصل الثانى

راحت الفتيات يقطعن برارى الدونيتس التى احرقتها اشعة الشمس وداستها قطعان الخرفان والأغنام لدرجة جعلت الغبار يتصاعد من تحت الاقدام . ولم يكن لامرئ ان يصدق ان اولئك الفتيات كن منذ لحظات فى احضان الطبيعة الخضراء . وكان الوادى حيث انساب النهر وعلى شاطئيه شريطان ضيقان من اشجار الغابات ، عميقا لدرجة ان نظر الفتيات اللواتى ما ان ابتعدن حوالى ثلاثمائة — اربعمائة خطوة ، لم يبلغ واد او نهر او غابة ، حيث وكانما ابتلعتها البرارى .

ولم تكن هذه برارى مستوية كبرارى استراخان او سال ، بل كانت غارقة فى التلال والوهاد ، بينما ارتفعت بعيدا عند الجنوب وعند الشمال قمما تناطح السحاب تحيط بغور عميق يرتع فى ارجائه هواء لا تطاق سخونته ، وكانما فى طبق سماوى اللون .

وتارة هنا واخرى هناك تراءت على سطح هذه البرارى الزرقاء المحروقة ، وعلى التلال وفى المنخفضات مستعمرات المناجم والاكواخ بين الحقول الصفراء والخضراء الداكنة وغير الداكنة لنباتات القمح والذرة وعبّاد الشمس والبنجر ، وابنية المناجم المنعزلة ، وقد تكومت الى جوارها مخلفات المناجم داكنة الزرقة عالية تبدو على نحو مخروطى .

وعلى طول الطرق الممتدة بين القرى والمناجم ، كانت تتحرك

مجموعات النازحين عسى ان تصل الى الطرق المؤدية الى كامينسك او الى ليخايا .

وتعالت الى الاسماع هنا فى البرارى المكشوفة اصوات معركة ضارية تدور على البعد ، وبالادق معارك كثيرة ، صغيرة وكبيرة تحتدم فى الغرب ، وفى الشمال الغربى وفى مكان ما بعيدا فى الشمال . وتصاعد دخان الحرائق البعيدة بطيئا الى السماء ، واحيانا سحبا تفرقت فى الافق تارة هنا واخرى هناك .

وما كادت الفتيات يبتعدن عن الغابة حتى وقع نظرهن على ثلاث بؤر من الدخان – بؤرتان قريبتان والثالثة بعيدة – فى حدود المدينة التى لم تكن قد ظهرت بعد من خلف التلال . وكان هذا دخانا رماديا خفيفا لم يكن ليسترعى الانتباه ، لو لم تتعالى اصوات هذه الانفجارات ، ولو لم تشم الفتيات تلك الرائحة التى تشبه رائحة الثوم والتى كانت تتعالى اكثر كلما اقتربن من المدينة .

واعتلت الفتيات التل الدائرى المواجه لمستعمرة بيرفومايسكايا لتتراءى امام اعينهن المستعمرة المنتشرة مساكنها بين الروابى والوهاد ، وطريق فوروشيلوفجراد الممتد بطول سلسلة التل الطويل الذى يفصل ما بين المستعمرة ومدينة كراسنودون . كما تراءت بطول هذا الطريق الوحدات العسكرية وقوافل المهاجرين ، وكذلك العربات التى راحت تمرق على الطريق مطلقة آلات التنبيه بشكل مزعج . وكانت تلك العربات ما بين مدنية وعسكرية خضراء اللون للتمويه ، مصابة برضوض يعلوها التراب ، عربات نقل وركوب واسعاف . .كما وكانت تتصاعد بطول الطريق اعمدة الغبار الاصفر التى أثارتها الاقدام والعجلات .

وهنا حدث المستحيل ، وما لا يدرك كنهه انسان فقد تمايل بناء المنجم رقم ١ المشيد بالاسمنت المسلح ، والذى كان اعلى أبنية المدينة ، حيث كان يتراءى للاعين من الجانب الآخر من الطريق .. وقد غطت المروحة الكبيرة من التربة التى كانت ترفرف عاليا فوق الصخرة ، هذا المبنى للحظة ، كما تعالى دوى يملأ الفضاء، ويهز الارض تحت اقدام الفتيات مما اثار الرعب فى قلوبهن. وعندما انقشع الغبار وصفا الجو لم يكن هناك اثر لذلك المبنى .

لقد كان المخروط الترابى العالى لا يزال ثابتا مكانه ، داكنا يلمع تحت وهج اشعة الشمس ، بينما كانت ثمة اعمدة من الدخان الاصفر المشوب بالقاذورات تخيم فوق مكان ذلك المبنى . وفوق الطريق ومستعمرة بيرفومايسكايا التى تعكر صفوها ، والمدينة التى لا تراها الاعين من ذلك المكان وفوق كل العالم المحيط خيّم صوت متصل اشبه بالأنين الذى تشوبه اصوات بشرية بعيدة ما بين باكية ولاعنة ومتاوهة من شدة الألم .

وانهار كل هذا ، العربات المارقة ، والبشر السائر قافلة لا نهاية لها ، وهذا الانفجار الذى هز الارض والسماء وبناء المنجم الذى لم يعد له أثر ، فوق كاهل الفتيات شعورا مروعا رهيبا فى لحظة واحدة . وفجأة تفجرت كل المشاعر المختزنة فى داخلهن فى شعور واحد يصعب التعبير عنه اعمق واقوى من الخوف على النفس – شعور بالفناء . . شعور بالنهاية !

– انهم يفجرون المناجم ايتها الفتيات !

صاحت احداهن ، وكانت على ما يبدو تونيا ايفانيخينا ، لكنها كانت صيحة أشبه بنباح تفجرت عنه روح كل منهن .

– انهم يفجرون المناجم يا فتيات !

ولم تند عنهن اية كلمة خلاف ذلك ، لم تستطع اى منهن التفوه بشىء . وتفرقت المجموعة ، لتهرول غالبيتها الى منازلهن بالمستعمرة ، بينما تعجلت مايا واوليا وساشا الخطى عبر الممر القريب الذى يقطع الطريق الى المدينة ، يقصدن لجنة المنطقة للكومسومول .

بيد انه فى تلك اللحظة التى راحت فيها الفتيات يتفرقن مجموعتين دون اتفاق مسبق ، امسكت فاليا فيلاتوفا على حين غرة بيد صديقتها الحبيبة لتقول متوسلة بصوت وجل :

– اوليتشكا . . اوليتشكا ! الى اين انت ذاهبة ؟ هيا بنا الى المنزل . . . – وتوقفت قليلا ثم استطردت تقول – من الجائز ان تحدث امور اخرى . . .

والتفتت اوليا بجذعها اليها ونظرت صامتة اليها ، لا . . ليس اليها بل يعبرها الى الافق البعيد . . البعيد ، ترتسم فى

عينيها السوداوين نظرة جامحة ، كما لو كانت تطير . ومن المؤكد ان الطيور تتسم حين تحلق بمثل هذه النظرة .

— فلتنتظرى يا اوليتشكا ! — هذا ما قالته فاليا متوسلة وهى تمسك بها بيد ، بينما راحت الاخرى تنتزع الزنبقة بحركة سريعة من شعرها الاسود الداكن الاجعد والقت بها الى الارض .

وقد حدث هذا بسرعة لدرجة لم تستطع معها اوليا التفكير فقط فى السبب الذى دعا فاليا لاتيان مثل هذا التصرف ، بل ولم تلحظ حتى ذلك . وها هما وبلا وعى تتصرفان كل منهما فى اتجاه يخالف الاخرى لاول مرة طوال سنى صداقتهما .

نعم ، لم يكن هذا امر يصدقه عقل ، الا انه كان الواقع ، فعندما عبرت الفتيات الثلاث وعلى راسهن مايا بيجليفانوفا الطريق تاكدن من عدم وجود بناء المنجم رقم ١ الجميل الانيق بكل اجهزة الرفع الخاصة به ؛ ولم تكن هناك سوى اعمدة الدخان الرمادى الاصفر ترتفع عاليا الى السماء تفوح منها رائحة نفاذة اشبه برائحة الثوم .

وتعالى دوى انفجارات جديدة تهز الارض والسماء هنا وهناك .

وكانت احياء المدينة الملاصقة للمنجم الاول ، تفصلها عن وسط المدينة وهدة عميقة يجرى فى عمقها جدول عكر المياه ، عامر بنبات السُعْد . وقد كانت هذه المنطقة شان وسط المدينة عامرة بالمبانى ذات الطابق الواحد المشيدة من الاحجار والمجهزة لاستقبال من اسرتين الى ثلاث ، وذلك ان اغفلنا الوهدة باكواخها الطينية المقامة على سفوحها بطول الجدول . وكانت هذه البيوت مغطاة بالقرميد او بالاسبستوس ، تتصدر كل منها حديقة مقسمة الى جزئين يزرع احدهما بالخضروات بينما يزرع الآخر بالزهور . هذا علاوة على ان البعض راح يزرع الكرز او زهور الليلاك او الياسمين ، وراح البعض الآخر يزرع الاقاصيا الصغيرة والقيقب فى الداخل امام السور المدهون بعناية . وبين هذه البيوت والحدائق امتدت قوافل العمّال والموظفين ، الرجال والنسوة وسط عربات النقل المحملة بمتاع مؤسسات وهيئات كراسنودون .

كما خرج من بيته كل «ساكن غير منضبط» ، كما يقال ، ينظر بعضهم بشعور ملؤه الالم واحيانا بدافع حب الاستطلاع من

داخل حدائقهم الى النازحين ، بينما راح البعض الآخر يجر اقدامه بالشارع بمحاذاة القوافل يحمل صرر الملابس ، او يجر عربات يد محمّلة بمتاعه الذى يعتليه الصغار . كما كانت بعض النسوة يحملن صغارهن على اياديهن اما المراهقون الذين جذب الانفجار انتباههم فقد هرولوا تجاه المنجم رقم ١ ، بيد ان حلقة من رجال الميليشيا كانت تحاصر المكان ولم تسمح لهم بالاقتراب منه . وفى الطريق قابلهم سيل من البشر الهارب من المنجم والذى انضمت اليه النسوة الفلاحات قادمات من الشوارع الملاصقة للسوق يحملن سلال الخضر والاطعمة ، وكذلك العربات التى تجرها الخيول والثيران .

وكان الناس يجرون اقدامهم فى صمت ، تكسو الكآبة وجوههم ، يفكرون فى امر واحد شغل كل حواسهم لدرجة بدوا معها وهم يسيرون فى القافلة كما لو كانوا لا يلحظون ما يجرى حولهم . ولم يكن هناك سوى قادة القافلة الذين كانوا يسيرون على جانبيها ، راحوا يقفون تارة ويهرولون اخرى لمساعدة رجال الميليشيا الراكبين والمترجلين فى ارساء النظام وسط النازحين الذين سدّوا الطريق وعاقوا حركة القافلة .

واعترضت احدى النسوة السائرات فى خضم ذلك الحشد طريق مايا وامسكت بيدها ، مما جعل ساشا بونداريفا تتوقف الى جوارهما ، بينما هرولت اوليا الى لجنة الكومسومول تشق طريقها المحاذى للاسوار كما الطائر ، تواجه بصدرها الحشد السائر عكس طريقها .

وتعالى هدير محرك سيارة النقل الخضراء الزاحفة وراء المنحنى الممتد من الوهدة ، تلك السيارة التى دفعت اوليا واناس آخرين الى سور حديقة احد المنازل . ولو لم يكن سور هذه الحديقة لطرحت اوليا ارضا فتاة شقراء قدّة القوام متوسطة ، ذات انف افطس وعينين زرقاوين ضيقتين كانت تقف عند باب السور بين شجيرتى ليلاك تتدليان يعلوهما الغبار .

وكم كان غريبا ان تتخيل اوليا فى تلك اللحظة تلك الفتاة التى كادت ان تطرحها ارضا ، تدور راقصة على انغام الفالس . بل وقد تعالت الى اسماع اوليا موسيقى الفالس تعزفها اوركسترا

آلات النفخ ، وفجأة تسلل هذا المنظر بألم وعذوبة الى قلب اوليا ، مثل رؤيا السعادة .

كانت الفتاة تدور على المسرح تغنى ، تدور فى القاعة تغنى . كانت تدور حتى الصباح دون اية ضوابط ، انها لم تكن تكل ابدا ولم تكن ترفض مراقصة احد . ولقد كانت عيناها الزرقاوان واسنانها البيضاء الصغيرة الجميلة تشع سعادة . متى كان كل ذلك ؟ من المؤكد ان ذلك كان قبيل الحرب ، كان ذلك فى الايام الخوالى ، كان ذلك فى الاحلام !

لم تكن اوليا تعرف لقب تلك الفتاة . كان الجميع يدعونها لوبا ، وكثيرا ما كانوا يدعونها لوبكا . نعم لقد كانت هى لوبكا ، «لوبكا الممثلة» كما كان الصبية يدعونها احيانا .

ومن المدهش ان لوبكا كانت تقف خلف باب السور وسط شجيرتى الليلاك هادئة الجنان تماما ترتدى زيا كما لو كانت تعتزم الذهاب الى النادى . وكان وجهها الوردى الذى كانت دائما تخاف عليه من اشعة الشمس ، وشعرها الذهبى الملفوف بعناية فوق رأسها ، ويداها الصغيرتان البضّتان الرقيقتان كما العاج ، واظافرها اللامعة كما لو كانت قد فرغت على التو من تقليمها وطلائها ، وقدماها الصغيرتان المستقيمتان البضّتان ، بحذائها الخفيف البيج ذى الكعب العالى ، كان كل هذا يجعل لوبكا كما لو كانت فى طريقها الى المسرح لترقص وتغنى .

لكن اكثر ما ادهش اوليا ذلك التعبير المشاكس وفى نفس الوقت الذكى الطيب الذى ارتسم على وجهها الوردى ذى الانف الافطس ، وعلى شفتيها الممتلئتين الاكبر قليلا من ان يتناسبا مع وجهها وفمها الوردى ، والاهم هو ما فى عينيها الضيقتين الزرقاوين الممتلئتين حياة على غير العادة .

ولم تبد عليها اية آثار لدهشة او غرابة من ان اوليا كادت تحطم باب السور ، بل ودون ان تنظر اليها ومضت تتطلع فى هدوء وجسارة الى كل ما يحدث بالشارع حولها وتتفوه بكل ما يرد الى خاطرها . واذ شمخت بانفها وابرقت عيناها الراقدتين فى احضان اهدابها الطويلة صاحت تنهر سائق عربة النقل :

— يا لك من احمق ! الا ترى انك كدت تسحق الآخرين ؟

يبدو ان لوثة اصابت عقلك ، ما دمت لا تستطيع الانتظار ! الى اين ؟ الى اين ؟ آه . . انك لاحمق !

هذا وقد توقف السائق بالعربة امام السور الى ان يتفرق الحشد . وكانت العربة محملة بمتاع الميليشيا ويحرسها بعض رجالها .

واذ وقع نظر لوبكا على هذا المنظر صاحت تقول :

— آه . . ان عددكم لكبير ايها «الحراس» ! وعوضا من ان تدخلوا الهدوء فى قلوب الناس تثيرون الرعب !

ولوحت بيدها الصغيرة بشكل فريد وراحت كما الصبية تصفر .

واجاب الرقيب ، احد قادة الميليشيا بلهجة غاضبة حيث شعر بظلم نزل به :

— ما لهذه الحمقاء تهذى !

وحيّته لوبكا قائلة :

— آه . . الرفيق «هربنجى» ! من اين اتيت ايها الفارس الجميل ؟

— اتسكتين . . ام لا ؟ — قالها فجأة «الفارس الجميل» وهو ياتى بحركة كما لو كان يعتزم القفز الى الارض .

وقالت لوبكا بصوت هادىء دون أدنى غضب :

— انك لن تقفز ، سوف تخاف التخلف !

ولوحت بيدها الصغيرة تودع قائد الميليشيا الذى اشتعل غضبا ولم يبرح العربة فعلا قائلة :

— صاحبتك السلامة ايها الرفيق «هربنجى» !

وكان المراقب لتلك الفتاة التى تتفوه بمثل هذه التعبيرات وتبدو على مثل هذا النحو هادئة الجنان حين يغلى كل شىء حولها ، يظنها «معادية» شريرة تنتظر الالمان تسخر من كوارث المواطنين السوفييت ، لولا امارات الطيبة الطفولية التى ارتسمت على عينيها الزرقاوين ، ولو لم تكن توجه ملاحظاتها الى هؤلاء الذين يستحقونها فعلا .

وصاحت تقول :

— آه . . يا من ترتدى القبعة ! فلتنظروا كم القى على كاهل زوجته بينما يسير هو دون ان يحمل شيئا ! فلتنظر الى زوجتك

كم هى قصيرة ! ومع ذلك تحمل على راسك قبعة ! يا للفضيحة !
وصاحت تخاطب عجوزا تعتلى متن عربة :
– ماذا تفعلين ايتها الجدّة ! حتى خيار المزرعة التعاونية تحملينه فى الخفاء ؟ هل تظنين ان السلطة السوفييتية زائلة ، وليس هناك من يحاسبك ؟ وربك فى السماء ؟ هل تظنين انه لا يراك ؟ انه يرى كل شىء ! . .

ولم يكن هناك من يعير ملاحظاتها انتباها ، ولم تكن هى الاخرى قادرة على تجاهل ذلك – يبدو انها كانت تحاول اقرار العدالة ارضاء لرغباتها الشخصية . ولقد اعجبت اوليا برباطة جاشها وهدوئها ، لدرجة انها شعرت تجاهها بثقة فورا وتوجهت اليها تخاطبها :

– لوبا . . اننى كومسومولية من حى «بيرفومايكا» واسمى اوليانا جروموفا . ارجو ان تشرحى لى كيف بدأ كل ما حدث ؟

واجابتها لوبكا عن طيب خاطر وهى توجه عينيها الجسورتين الزرقاوين اليها بشكل ينم عن حب واعجاب :

– بشكل عادى . . لقد رحلت قواتنا عن فوروشيلوفجراد ، تركتها جميعها عند الفجر . فقد صدر امر باجلاء كل الهيئات والمؤسسات على الفور .

وتساءلت اوليا بصوت واهن :

– وماذا عن لجنة الكومسومول ؟

وصاحت لوبكا بصوت رقيق تخاطب احد الصبية فى الزحام :

– ايه . . ايها الاقرع . . لماذا تضرب الصبيّة ؟ ماذا ايها البائس العاطل . . اننى لو خرجت فسوف تنال عقابك ! – وتوقفت لتتساءل : لجنة الكومسومول ؟ آه . . انها كما هو مفروض ، فى الطليعة . . لقد رحلت عند الفجر . . .

واستطردت تقول بغضب :

– ماذا بك ايتها الفتاة ؟ لماذا تبحلقين هكذا ؟

بيد انها وعلى حين غرة ابتسمت بعد ان وقع نظرها على اوليا وادركت ماذا يدور فى نفسها :

– اننى أمزح . . امزح . من الواضح انها تلقت امرا بذلك . . ولذا رحلت . . انها لم تلذ بالفرار . . هل فهمت ذلك ؟

وتساءلت اوليا فى غضب ومشاعر الانتقام تجتاحها فجأة :

– وماذا لنا نحن ان نفعل ؟

– عليك انت ايضا الرحيل . لقد صدر الامر منذ الصباح ، فاين كنت ؟

وتساءلت اوليا بلهجة تنم عن عناد :

– وانت ؟

– انا ؟ – تفوهت لوبا ثم صمتت ليكتسى وجهها بامارات تنم عن غرابة ولامبالاة . ثم قالت وهى تتهرب من الاجابة :

– اننى سوف اواصل متابعة ما يجرى !

– الست انت الاخرى عضوة بالكومسومول ؟ – تساءلت اوليا فى تصميم . والتقت عيناها الكبيرتان السوداوان وقد اتسمتا بامارات غضب قوية بعينى لوبكا الضيقتين اللتين تتسمان بالحذر .

واجابت لوبكا وهى تضغط على شفتيها قليلا :

– كلا . .

ثم صاحت تنادى «بابا» ، واذ فتحت الباب على مصراعيه اندفعت تجرى فى حذائها ذى الكعب العالى تستقبل مجموعة من الناس ، لتبدو فريدة وسط هذا الحشد ، الذى راح يفسح امامها الطريق فى احترام مشوب بالخوف .

تصدر المجموعة فالكو مدير المنجم رقم ١ ، وهو رجل ربعة حليق الذقن يناهز عمره الخمسين يرتدى سترة وحذاء طويلا ذو وجه مكتئب اسمر كما الغجر ، وجريجورى ايليتش شيفتسوف عامل الحفر الطليعى فى نفس المنجم والذى تعرفه كل المدينة . وسار خلفهما بعض عمال المنجم واثنان من العسكريين . اما على مسافة من هؤلاء سار حشد من مختلف النوعيات . . حشد من محبى الاستطلاع . . – حتى فى احلك اللحظات تجد بين الناس عددا هوايته استطلاع الامور ليس الا .

كان جريجورى ايليتش وعمال المنجم الآخرون يرتدون زى العمل . وكانت ملابسهم ووجوههم واياديهم ملطخة بآثار الفحم . وكان احدهم يعلق لفّة من الاسلاك الكهربائية على كتفه ، بينما كان الآخر يحمل صندوقا ممتلئا بالادوات ، اما شيفتسوف فقد

كان يمسك فى يده بجهاز معدنى غريب تبدو منه نهايات سلـــك عار .

كانوا يسيرون فى صمت ، وكانما يهابون ان تلتقى اعينهم مع بعضهم البعض او مع الآخرين . وراح العرق يسيل على وجوههم الملطخة بالفحم . وكانت امارات الانهاك والتعب مرتسمة على وجوه هؤلاء الناس ، وكانهم يحملون على كاهلهم عبئا ثقيلا لا حدّ له .

وادركت اوليا السر الذى جعل الناس يفسحون لهم الطريق سلفا – كان الطريق خاليا تماما امامهم . لقد كان هؤلاء هم الذين فجروا بأيديهم المنجم الاول – مفخرة الدونباس .

وهرولت لوبكا الى جريجورى ايليتش وامسكت بيدها الصغيرة البيضاء يده الكبيرة الداكنة اللون ، ليضغط عليها ، ويسيران سويا .

وفى ذلك الوقت اقتـــرب عمال المنجم وعلى راسهم فالكـــو شيفتسوف من السور وبارتياح بالغ واضح القوا فى الحديقة عبر السور بالادوات التى كانوا يحملونها – لفّة السلك وصنـــدوق المعدات وذلك الجهاز المعدنى الغريب ، لتسقط جميعها فـــوق الزهور مباشرة . وغدا واضحا ان هذه الزهور التـى زرعت بحب وعناية مثلها مثل الحياة الزاهية الجميلة ، قد انتهى اجلها .

وقد القى هؤلاء بكل ما كانوا يحملونه دون ان ينظر احدهم الى الآخر تنتابهم مشاعر عدم ارتياح .

وخاطب فالكو شيفتسوف دون ان يرفع نظره اليه قائلا :

– هيه يا جريجورى ايليتش ! هيّا بنا بسرعة . . العربـة جاهزة . سوف يركب كل الناس ، ونحن جميعا وراءك .

وراح يسير بخطوات متثاقلة يرافقه العمال والعسكريون . ولم يغادر مكانه عند السور جريجورى ايليتش ولوبكا التى ظل ممسكا بيدها وعامل المنجم العجوز ذو الشارب الخفيف الذى كسته صفرة من اثر التدخين ، واللحية والقدمين الطويلتين الرفيعتين . كما وقفت اوليا الى جوارهم لا يعيرها احد اهتمامه ، كما لو كانت سوف تجد فى هذا المكان بالذات اجابة على السؤال الذى يحيرها .

وقال جريجورى ايليتش بلهجة تنم عن غضب ودون ان يترك يد الفتاة :

– ليوبوف جريجوريفنا . . لمن صدر الامر ؟

وردت لوبكا بلهجة غاضبة :

– لقد قلت اننى لن اذهب !

وقال جريجورى ايليتش بصوت هادئ اتسمت نبراته بقلق واضح :

– لا داعى للحماقة . . لا تكونى حمقـــاء ! كيف لك ان لا تذهبى ؟ . . يا عضو الكومسومول !

ورمت لوبكا بنظرة غاضبة اوليا ، الا ان وجهها سرعان ما اكتسى بامارات تنم عن عناد بل وعن وقاحة . واضافت وهى تعض شفتيها :

– اننى حديثة العهد بالكومسومول . كما واننى لم اسئ الى احد ، ومن ثم فلن يسيء احد الىّ . اننى مشفقة على امى .

«لقد تبرات من الكومسومول» – هذا ما ورد فجأة بخاطر اوليا ، بيد انه فى نفس اللحظة ومضت صورة امها المريضة امام ناظريها لتجتاحها مشاعر الألم .

وقال العجوز بصوت خافت رهيب ، غريب ان يصدر عن مثل هذا الجسد الذى اصابه الضمور :

– هيه . . يا جريجورى ايليتش ! لقد حان لنا ان نفترق . وداعا ! – وحدق فى وجه جريجورى ايليتش الذى كان يقف امامه منكس الراس .

ورفع جريجورى ايليتش غطاء راسه فى صمت ، ليبدو شعره الاشقر . وكان ذا عينين زرقاوين ووجه تغطيه التجاعيد العميقة – وجه صانع روسى تقدم به السن . وبالرغم من انه تجاوز ســن الشباب ، يرتدى زى العمل يكسو الفحم وجهه ويديه ، فقد كان يبدو قويا متين البنيان ، جميلا على النمط الروسى القديم .

وتساءل دون ان ينظر الى العجوز وهو يشعر بحرج ظاهر :

– هل لك ان تخاطر معنا ؟ هيه . . ؟ كوندراتوفيتش ؟

– كيف لنا ان نسافر والعجوزة ؟ فليخلصنا اولادنا والجيش الاحمر !

وساله جريجورى ايليتش :

– وماذا عن ابنك الاكبر ؟

— ابنى الاكبر ؟ ماذا لى ان اقول عنه ؟ — واشاح بيده كما لو كان يود ان يقول : «انك تعلم العار الذى لحق بى . علام السؤال ؟» — وداعا يا جريجورى ايليتش . .

قالها بأسى ومد يده المعروقة يصافح شيفتسوف .

ومدّ جريجورى ايليتش يده . لكنه كان ثمة ما يود كل منهما ان يقوله للآخر ، فتوقفا برهة من الوقت يمسكان بيد البعض .

وقال جريجورى ايليتش بلهجة بطيئة :

— نعم . . ما عسانا ان نقول . . ان زوجتى وابنتى ايضا سوف يبقيان . — وفجاة تقطع صوته — كيف لنا ان نفعل به هكذا يا كوندراتوفييتش ؟ لقد كان مرضعة كل بلادنا ، ان جاز مثل هذا القول . . . آه — تنهد فجاة من اعماق قلبه ، وتساقطت دموعه التى ترقرقت فى مآقى عينيه على وجهه الذى كساه الفحم .

ونشج العجوز ونكس راسه ، وانهمرت لوبكا فى البكاء .

ولم تستطع اوليا وهى تعض شفتيها ، مغالبة البكاء ، فهرولت تجرى الى منزلها فى «بيرفومايكا» .

الفصل الثالث

كان الهدوء يخيم بعض الشىء على المناطق القريبة من وسط المدينة ، وراح كل شىء يبدو اكثر الفة ، فى حين كانت الضواحى تشهد هذه الموجة من الانسحاب والتهجير على عجل . واختفت قافلة الموظفين واللاجئين وعائلاتهم من الشوارع . ووقفت عربات الكارو وعربات النقل طابورا امام مداخل المؤسسات وفى الساحات المجاورة لها . وقام هؤلاء الذين لم يكن عددهم يزيد عن العدد المطلوب ، بتحميل العربات بالصناديق المليئة بالادوات والاكياس المملوءة بالوثائق . وكانت تتعالى الى الاسماع اصوات هادئة تتركز حول ما يمارسه هؤلاء العاملون . كما كانت تتعالى عبر الابواب والنوافذ المفتوحة اصوات شواكيش — واحيانا آلات كاتبة : فقد راح اكثر الاداريين دقة يسجل قوائم المتاع المنقول ، وغير المطلوب . ولو لم يكن هدير المدفعية المدوى بعيدا ، والانفجارات التى تهز الارض

لكان من الممكن ان يبدو ان المؤسسات تنتقل من مبناها القديم الى آخر جديد .

وفى وسط المدينة وعلى تل عال كان مبنى من طابق واحد تصطف على جانبى مدخله الاشجار الصغيرة ، واضحا لكل الراحلين عن المدينة ومن اية نقطة بعيدة . وكان هذا المبنى مقرا للجنة الحزبية للمنطقة ، وللجنة التنفيذية للمنطقة ، وقد تمركزت فيه منذ الخريف الماضى لجنة حزب البلاشفة لمقاطعة فوروشيلوفجراد .

وكان ممثلو المؤسسات والهيئات يدلفون فى غير ما انقطاع الى المبنى عبر المدخل الرئيسى ، كما كانوا يخرجون عبره بخطوات سريعة . وكانت تتعالى عبر النوافذ المفتوحة اصوات اجراس التليفونات التى لا تنقطع ، والتعليمات التى تصدر عبر ابواقها تارة تكون متحفظة عن عمد ، واخرى عالية دون حاجة الى ذلك . كما توقفت الى جوار المدخل الرئيسى بعض عربات الركوب المدنية والعسكرية تشكل نصف دائرة ، تحدها عربة برمائية عسكرية وقد علتها كمية هائلة من الغبار . وكان يحتل المقعد الخلفى لهذه العربة اثنان العسكريين يرتديان سترتين بهت لونهما — احدهما رائد غير حليق الوجه ، والآخر رقيب شاب فارع القامة . وكانت وجوه سائقى تلك العربات وهذين الشخصين تتسم بتعبير عام يتمثل فى ان الجميع «ينتظرون» .

وفى ذلك الحين شهدت تلك الحجرة الواقعة فى الجناح الايمن للمبنى مشهدا كان يمكن ان يغطى جوهره على احداث عظام شهدها الماضى ، لو لم يكن على هذا القدر من البساطة .

فقد كان قادة المنطقة والمقاطعة الراحلون يتوادعون مع زملائهم القادة الباقين للاشراف على التهجير ، على ان يختفى هؤلاء بمجرد وصول الالمان دون اثر وسط الجماهير ويتحولون الى العمل السرى .

وليس هناك ما يجعل الناس اكثر تقاربا من الشدائد التى يتعرضون لها .

لقد عاش هؤلاء الحرب كلها منذ اولى ايامها وحتى يومنا هذا وكانما كانوا مشغولين فى عمل متواصل مرهق لا يقدر عليه سوى صلبى العزيمة .

لقد أعطوا الجبهة اثمن وافضل واحسن ما يملكه المواطنون .

لقد نقلوا الى الشرق اضخم المؤسسات التى كانت مهددة بالوقوع فى براثن العدو او بالتخريب والتدمير ، نقلوا آلاف الماكينات وعشرات الآلاف من العمال ومئات الآلاف من الاسر . الا انهم كالسحرة ، سرعان ما وجدوا ماكينات غيرها وعمالا جددا ، ليبعثوا الحياة الى المناجم والمبانى المقفرة .

لقد حافظوا على الانتاج وعلى البشر فى أعلى درجات الاستعداد للتحرك الى الشرق بمجرد ان تحتم الضرورة ذلك . وفى نفس الوقت كانوا يقومون بواجباتهم تجاه متطلبات الحياة التى لا يمكن تصور معيشة البشر فى الدولة السوفييتية بدونها . . كانوا يقدمون لهم الطعام والملبس ويتكفلون بتعليمهم ، وعلاج المرضى منهم ويعدون المهندسين والمدرسين والزراعيين ويشرفون على المطاعم والمحلات التجارية والمسارح والنوادى والملاعب والحمّامات وصالونات الحلاقة ومحلات غسيل الملابس ، والميليشيا وقوات المطافئ .

كانوا يكدون طوال مدة الحرب ، كما لو كان ذلك يوما واحدا . لقد نسوا ان لهم حياتهم الشخصية ، ذلك لان عائلاتهم كانت قد هجّرت الى الشرق .

لقد كانوا يعيشون وينامون لا فى المساكن بل فى الهيئات والمؤسسات ، وكان يمكنك ان تجدهم فى اية ساعة من ساعات الليل والنهار فى اماكنهم هذه .

لقد سقطت احدى مناطق الدونباس ، ثم سقطت اخرى وثالثة ، الا انهم كانوا يكدون ويعملون جاهدين فى المناطق الباقية . كانوا يعملون بكد بالغ فى آخر مناطق الدونباس ، لانها كانت المنطقة الاخيرة . الا انهم كانوا حريصين حتى النهاية على غرس قوة عملاقة فى نفوس البشر كى يتحملوا كل ما القته الحرب على كواهلهم . وقد كانوا يعملون حين تنفد طاقة البعض على بعثها بطاقتهم الذاتية الروحية والجسمانية . ولم يكن هناك من يدرى حدودا لتلك الطاقة . . فقد كانت لا محدودة .

واخيرا جاءت اللحظة التى تحتمت فيها مغادرة حتى هذه المنطقة من الدونباس . وراحوا فى خلال عدة ايام يرفعون آلاف الماكينات

وعشرات الآلاف من الناس ومئات آلاف الاطنان من مختلف المقدرات . وها هى تحين آخر اللحظات حين لم يكن من المستطاع لهم ايضا البقاء .

لقد وقفوا جميعا مجموعة متراصة فى غرفة كبيرة لسكرتير لجنة الحزب لمنطقة كراسنودون ، حول مائدة الاجتماعات الطويلة التى نزع من عليها قماش الجوخ الاحمر . كان كل منهم يواجه الآخر يتبادلون النكات يربت كل منهم الآخر ، بينما لا يجرؤ اى منهم بعد على التفوه بكلمة الوداع . وكان صعبا ومؤلما وثقيلا على نفس كل من رحل عن المنطقة كما لو كان هناك غراب قد نشب مخالبه فى قلوبهم .

وكان ثقل المجموعة الطبيعى يتركز فى ايفان فيدوروفيتش بروتسينكو رجل اللجنة الاقليمية الذى حوّل للعمل الفدائى السرى منذ خريف العام الماضى ، حين تعرضت المقاطعة لخطر الاحتلال . بيد ان الامر حينذاك كان قد تأجل تنفيذه طبيعيا .

وكان ايفان فيدوروفيتش قصير القامة ربعة فى الخامسة والثلاثين من عمره ذا شعر خفيف احمر ممشط الى الخلف ، أصلع الفودين ، متورد الوجه ، كان قبل ذلك نظيفا حليقا دائما ، بينما يغطيه اليوم شعر داكن اللون نبت هنا وهناك الا انه لم يكوّن بعد ما يسمى باللحية الحقيقية . اذ انه كف عن حلاقته منذ حوالى اسبوعين حين ادرك من سير الامور على الجبهة انه سوف ينخرط حتما فى العمل الفدائى السرى .

ولقد راح يشد فى قوة واحترام على يد الواقف امامه وهو انسان تقدم به السن يرتدى حلة عسكرية لا تميزها رتب . وكان ذلك الانسان يتمتع بوجه نحيف يتسم بالجسارة وتجعيدات بسيطة اسفر عنها الانهاك الدائم ، تبدو عليه أمارات الهدوء والبساطة المختلطة بالاهمية التى يتميز بها القائد الكبير وتبدو من جراء ادراكه والمامه بكل ما يجرى حوله .

وقد وصل ذلك الشخص – احد قادة اركان الفدائيين التى شكلت منذ مدة وجيزة فى اوكرانيا – الى كراسنودون بالامس للتنسيق بين فصائل فدائيى المقاطعة ووحدات الجيش العامل .

ولم يكن هناك من يفكر آنذاك فى ان الانسحاب سوف يصل الى هذا الحد ، فقد كان الجميع يأملون فى وقف زحف العدو ولو حتى

اسفل دونيتس واسفل الدون . وكان من الواجب على ايفان فيدوروفيتش طبقا لتعليمات الاركان توفير الاتصال بين فصيلة الفدائيين ، حيث استقر والفرقة المنقولة الى منطقة كامينسك لتدعيم قواتنا فى شمال الدونيتس . وكانت هذه الفرقة التى عانت كثيرا من المعارك فى منطقة فوروشيلوفجراد ، قد اقتربت على التو من كراسنودون ، بينما كان قائدها قد وصل فى اليوم السابق مع ممثلى اركان الفدائيين والدائرة السياسية للجبهة الجنوبية . ووقف قائد الفرقة الجنرال الذى يناهز عمره الاربعين عاما فى انتظار دوره ليتوادع هو الآخر مع ايفان فيدوروفيتش .

وهز ايفان فيدوروفيتش يد قائد الفدائيين الذى كان رئيسا له فى زمن السلم ، يزوره فى منزله دون اى تكلف ، ويعرف زوجته جيدا ؛ وراح يقول له :

— شكرا ، ثم شكرا يا اندريه يفيموفيتش على العون ، وعلى العلم . واذا ما ساقتك الصدفة الى الاركان الرئيسية فلتتحدث عن حركة الفدائيين التى عمت مقاطعة فوروشيلوفجراد . واذا ما سعدتم يا اندريه يفيموفيتش بلقاء الرفيق ستالين القائد الاعلى فلتقل له اننا سوف نقوم بواجبنا خير قيام .

كان ايفان فيدوروفيتش يتحدث بالروسية ليتحول دون ان يشعر الى لغته الاصلية ، الى اللغة الاوكرانية .

وتحدث اندريه يفيموفيتش يقول وقد اضاءت الابتسامة غضون وجهه :

— سوف تقومون بواجبكم . وسوف يكون عملكم موضع اعجاب الجميع . وليس هناك ادنى شك فى ذلك .

والتفت فجاة الى الذين احاطوا بايفان فيدوروفيتش وقال :

— ياله من ماكر هذا البروتسينكو . انه لم يبدا الحرب بعد ، ومع ذلك يجس النبض حول امكانية الحصول على الامدادات من الاركان الرئيسية !

وضحك الجميع عدا الجنرال الذى كان يقف طوال الوقت جامد الوجه ترتسم عليه امارات كدر بالغ .

وومضت امارات المكر فى عينى ايفان فيدوروفيتش الزرقاوين

الناصعتين ، وومضت عيناه ، العين تلو الاخرى كما لو كانت شرارة لعوب تنتقل من كل منهما الى الاخرى ، وراح يقول :

— لقد اخفيتها . ولئن نفذت فسوف نعيش كما كوفباك الفدائى القديم دون حاجة الى امدادات . . ما تصادره من العدو يغدو ملكا لنا !

وقال ايفان فيدوروفيتش وهو يهز يد قوميسار الفوج العجوز :

— فلتبلغوا شكرنا العظيم للعاملين فى الادارة السياسية بالجبهة ، لقد قدموا لنا عونا عظيما . أمّا انتم ايها الشباب . . فلست ادرى ماذا اقول لكم . . يمكننى فقط ان اغمركم بقبلاتى .

وراح ايفان فيدوروفيتش وقد هزته مشاعره يعانق ويقبل كل الشباب العاملين فى مفوضية الشعب للشئون الداخلية .

لقد كان رجلا حساسا يدرك انه من المستحيل فى اى من الامور نسيان احد سواء كان كبيرا او صغيرا ، ما دام قد ساهم بحكم موقعه فى العمل . وهكذا قدم شكره لكل المؤسسات وكل الافراد الذين قدموا له العون فى تشكيل الفصائل وشبكة العمل السرى . وكان وداعه مع رفاقه العاملين فى اللجنة الحزبية للمنطقة طويلا يتسم بالمرارة . فقد جمعتهم بصلة وثيقة الصداقة والمصير طوال هذه الاشهر الطويلة للحرب والتى مرّت سريعا كما لو كانت يوما واحدا .

وغادر اصدقاءه وقد اغرورقت عيناه بالدموع وراح ينظر حوله يبحث عمن لم يودعه بعد . وانحنى الجنرال — وهو ربعة الجسد قصير القامة — لايفان فيدوروفيتش فى صمت ومد يده اليه ، لتبدو على وجهه الروسى البسيط امارة تنم عن طفولة .

وقال ايفان فيدوروفيتش وقد اخذته المشاعر :

— شكرا ، شكرا لكم ، وما كان واجبا ان تثقلوا على انفسكم بالمجىء .

واستطرد يقول وهو يهز يد الجنرال القوية : — اننا الآن مرتبطان «بحبل» واحد ، كما يقال .

واختفت الامارة الطفولية بسرعة بالغة من على وجه الجنرال . واوما براسه الكبير الذى تغطيه قبعته العسكرية ايماءة تنم عن غضب وعدم رضى ، وتوقفت عيناه الصغيرتان اللتان تنمان عن

ذكاء ، على ايفان فيدوروفيتش وقد اكتسيتا بامارات تعكس بعض القسوة . ربما كان يود الادلاء اليه بشيء هام ، الا انه لم يفعل ذلك .

وحانت اللحظة الحاسمة .

وقال اندريه يفيموفيتش وهو يعانق بروتسينكو :

— حافظ على نفسك .

وراح الجميع ثانية يتوادعون مع ايفان فيدوروفيتش ومعاونه ، وباقى العاملين الذين سوف يظلون فى اماكنهم . ثم اخذوا يخرجون الواحد تلو الآخر ترتسم على وجوههم امارات الشعور بالذنب . ولم يكن هناك سوى الجنرال الذى خرج مرفوع الهامة فى خطوات سريعة كعادته ، تتسم خطواته بخفة غريبة لا تتفق وبدانته . ولم يخرج ايفان فيدوروفيتش ، ليظل بالحجرة يتعالى الى سمعه هدير محركات العربات بالشارع .

وكانت اجهزة التليفون فى الحجرة طوال ذلك الوقت تعلن عن نفسها ، يرفع سماعاتها معاون ايفان فيدوروفيتش ، الواحدة تلو الاخرى يطلب اعادة الاتصال بعد بضع دقائق . وما ان تودع ايفان فيدوروفيتش مع آخر الراحلين ، حتى ناوله معاونه احدى هذه السماعات .

— من المخبز . . لقد اتصلنا عشر مرات تقريبا . .

وامسك ايفان فيدوروفيتش السماعة بيده الصغيرة وجلس على حافة المكتب لتتغير على التو ملامحه يبدو تارة سليم الطوية ساذجا عاطفيا ، واخرى ماكرا مرحا كما كان عند وداع رفاقه . وقد تبدت عليه ملامح السيطرة الهادئة فى حركة يده حين تناول السماعة وفى نبرات صوته حين شرع فى الحديث .

وقال مجبرا محدثه على الطرف الآخر من التليفون على ان يسمعه :

— لا داعى للثرثرة . . وعليك ان تسمعنى . لقد قلت لك ان العربات سوف تصل اليك ، وسوف تصل . سوف تاخذ منك مؤسسة التجارة فى المدينة الخبز ، وتتولى توزيعه على المواطنين فى الطريق ؛ اما اتلاف هذه الكمية الهائلة من الخبز فيعتبر جريمة . لماذا اذن انفقت الليل بطوله فى صناعته ؟ اننى أرى انك على عجلة،

وعليك التمهل ما دمت لم آمرك بالعجلة . هل هذا مفهوم ؟ — ووضع ايفان فيدوروفيتش السماعة ، ليرفع سماعة اخرى دوّت بصوت رفيع حاد .

وعبر النافذة المفتوحة المطلة على المنجم رقم ١ تراءت حركة الوحدات العسكرية ، وعربات النقل الراحلة عن المدينة ، وكذلك قوافل السكان المهجّرين . وفى هذا المكان ، من على التل كان واضحا للعيان بشكل جيد تفرق الحركة الى ثلاثة اتجاهات . كان التيار الاساسى يتجه نحو الجنوب ، الى نوفوتشيركاسك وروستوف ، وكان التيار الثانى وهو اقل قليلا يتجه نحو الجنوب الشرقى الى ليخايا ، اما التيار الثالث وهو اقلهما فكان يتجه نحو الشرق الى كامينسك . وكانت العربات التى غادرت على التو مبنى اللجنة الحزبية للمنطقة تمتد صفا تتجه نحو نوفوتشيركاسك . اما العربة البرمائية للجنرال فقد شقت طريقها عبر الشوارع قاصدة طريق فوروشيلوفجراد .

وفى تلك الآونة كانت افكار الجنرال العائد الى فرقته بعيدة عن ايفان فيدوروفيتش .

وكانت اشعة الشمس الحارقة تلسع وجهه . وكان الغبار يتصاعد ليلف العربة والجنرال والسائق ، وكذلك الرائد غير حليق البشرة والرقيب الفارع القامة اللذين كانا يجلسان فى صمت على المقعد الخلفى . وكانت اصوات المدفعية التى تترامى من بعيد ، وهدير العربات التى تنهب الطريق وهيئة الراحلين عن المدينة تصفد افكار هؤلاء المختلفين سنا ورتبة حيال الواقع الرهيب .

ولم يكن هناك بين مودعى ايفان فيدوروفيتش سوى ممثل اركان فدائيي اوكرانيا والجنرال بوصفهما عسكريين يدركان معنى استيلاء وحدات الدبابات الالمانية على ميلليروفو وثبتها تجاه مدينة مورروزوفسكى الواقعة على سكة الحديد التى تربط الدونباس بستالينجراد . وقد كان هذا يعنى ان الجبهة الجنوبية معزولة عن الجبهة الجنوبية الغربية وان مقاطعة فوروشيلوفجراد والجزء الاعظم من مقاطعة روستوف معزولتان عن مركز البلاد ؛ اما ستالينجراد فمعزولة عن الدونباس .

وقد انحصرت مهمة الفرقة فى ايقاف اطول وقت ممكن ، الالمان

الذين هاجموا ميلليروفو فى الجنوب حتى تتمكن جيوش الجبهة الجنوبية من الابتعاد تجاه نوفوتشيركاسك وروستوف . وقد كان هذا يعنى ان الفرقة التى يرأسها الجنرال كانت معرضة اما للقضاء نهائيا عليها بعد بضعة ايام واما للوقوع فى براثن حصار الاعداء . وكان الجنرال يمقت للنهاية فكرة الوقوع فى الحصار . بيد انه لم يكن يريد ايضا ان يقضى على فرقته نهائيا . وكان يدرك من جهة اخرى انه سوف يؤدى واجبه حتى النهاية . وراح يكرس كل قواه المعنوية لتقرير هذه المشكلة العويصة .

وكان الجنرال ينتمى بحكم السن الى ذلك الرعيل من القادة العسكريين السوفييت متوسطى العمر وليس الى كبار السن منهم ، اولئك الذين بدأوا طريقهم الكفاحى ايام الحرب الاهلية او بعدها مباشرة حين كانوا ما يزالوا فى مقتبل العمر لا يعرفهم احد .

لقد قطع برارى الدونيتس سيرا على قدميه جنديا ، وها هو اليوم يجتازها على متن آلية . لقد بدأ الراعى ذو التسعة عشر ربيعا ، ابن فلاح كورسك ، حياته العسكرية ايام بلغت شهرة بيريكوب الآفاق . وغدا جنديا فى فترة القضاء على عصابات ماخنو فى اوكرانيا ، فى ذلك الحين الذى كان يعتبر صدى ضعيفا اخيرا لمعارك عظيمة ضد اعداء الثورة الاشتراكية . كما قاتل تحت قيادة القائد التاريخى فرونزه . وتميز فى ذلك الحين كمقاتل صلد على قدر كبير من الذكاء . بيد ان ذلك لم يكن السبب الوحيد لشهرته حيث ان المقاتلين الجسورين الاذكياء ليسوا قلة . ورويدا رويدا وعلى نحو غير ملحوظ ، بل وعلى نحو يتسم بالبطء احيانا راح يستوعب كل ما تلقنه لدى مقاتلى الجيش الاحمر الموجهون السياسيون ، وقوميسارات الكتائب والافواج ، ذلك الجيش المجهول الذى لا حصر له من العاملين فى الاقسام السياسية والخلايا الحزبية العسكرية ، اولئك الذين نتمنى لهم الخلود ابد الآبدين . انه لم يستوعب فقط ما علموه اياه ، بل راح يطوّره ويرسّخه فى أعماقه . وفجأة يتميز من بين اقرانه كشخصية بارزة ذات موهبة سياسية فائقة .

كان طريقه فيما بعد بسيطا باهرا ، كطريق اى قائد عسكرى من رعيله .

بدأ الحرب الوطنية العظمى قائدا لفوج وكان قد استكمل قبيل

ذلك دراسته فى اكاديمية فرونزه العسكرية وقاتل المتدخلين اليابانيين فى عام ١٩٣٩ عند نهر خالخين جول ، وشارك فى الحرب الفنلندية فى شتاء ١٩٣٩ - ١٩٤٠ عند خط مانيرجيم . وكان هذا كثيرا جدا لانسان فى مثل سنه واصله . لكن كم كان ذلك قليلا ! لقد جعلت الحرب الوطنية منه قائدا عسكريا . لقد نما ، لكن الاكثر من ذلك يمكن ان يقال انه نمّى . لقد نمّى بفضل خبرة حرب عظمى ، كما نمّى آنذاك فى الكلية العسكرية ثم فى الاكاديمية ، ثم بفضل خبرة حربين صغيرتين .

لقد كان رائعا ذلك الادراك الجديد ، الاحساس بالنفس التى تعززت اثناء الحرب بالرغم من مرارة الانسحاب . ان الجندى السوفييتى افضل من الجندى المعادى ليس فقط من ناحية التفوق المعنوى ، حيث لا مجال للمقارنة ، بل ومن الناحية العسكرية . كما ان قادتنا أسمى بكثير ليس من حيث الوعى السياسى فقط ، بل وعسكريا حيث انهم قادرون على الاستفادة من الخبرة العملية ، يطبقونها بسرعة وتنوع . امّا التكنيك العسكرى فليس فى مرتبة ادنى من تكنيك العدو بل هو افضل فى بعض اشكاله . وينبع الفكر العسكرى ، مصدر كل ذلك ، من الخبرة التاريخية العظيمة ، الا انه فى ذات الوقت ذو نمط جديد جرئ كالثورة التى خلقته ، كالدولة السوفييتية التى لم يشهد التاريخ مثلها ، كالعبقرى الذى صاغ هذا الفكر وطبقه ليحلق على اجنحة النسور . ورغما عن ذلك كله يحتم الموقف علينا الانسحاب . اذ ان العدو ما زال يتفوق علينا عددا . يساعده عنصر المباغتة والقسوة التى تخرج عن اطار كافة الاوصاف التى يعرفها الضمير البشرى ، ويهاجم بكل ما لديه من قوى دون اى تفكير فى ابقاء اية احتياطيات .

ومثل الكثير من القادة العسكريين السوفييت ادرك الجنرال قبل الاوان بوقت كاف ان هذه الحرب ، اكثر من اى حرب فى الماضى ، هى حرب سوف يكسبها من يملك اكبر قدر من الاحتياطيات البشرية والمادية . وكان من الضرورى ايجاد مثل هذه الاحتياطيات اثناء الحرب . كما كان الامر الاكثر تعقيدا يتلخص فى التصرف فيها . . فى توزيعها زمنا ومكانا . ولم يكن سحق العدو عند موسكو وهزيمته فى الجنوب نتيجة لتفوق فكرنا العسكرى ومعداتنا وجنودنا وحسب ،

بل وكان يعكس ايضا ان الاحتياطيات العظيمة لشعبنا ودولتنا فى حوزة اناس عباقرة حريصين قادرين .

ومؤسف . . مؤسف للغاية ان ننسحب امام شعبنا فى الوقت الذى يبدو فيه اننا ادركنا جيدا ماهية العدو وماهية انفسنا .

وكان الجنرال يلتزم الصمت يبدو غارقا فى افكاره . وما كادت العربة التى اجتازت بصعوبة شوارع المدينة تئن تحت وطأة حشود المهاجرين ، تصل الى طريق فوروشيلوفجراد حتى حلقت على ارتفاع منخفض جدا ثلاث قاذفات المانية الواحدة تلو الاخرى . وظهرت الطائرات فجأة لدرجة لم يستطع معها الجنرال ومرافقاه الضابط والرقيب القفز بعيدا عن العربة ليلزموا اماكنهم فيها . وانشق سيل المقاتلين والمهاجرين لينهال الى جانبى الطريق ينبطح البعض فى الخنادق ، بينما البعض الآخر يستند على طنف منزل او يلتصق بجدار .

وفى هذه اللحظة وقع نظر الجنرال على فتاة فارعة القوام ذات ضفيرتين سوداوين طويلتين ترتدى بلوزة بيضاء ، تقف وحيدة على حافة الطريق الذى اقفر تماما . وكانت الفتاة فى رباطة جاش تتسم بالكآبة تتابع بنظرها الطيور المزركشة ذات الصلبان السود المرسومة على اجنحتها والتى حلقت على ارتفاع منخفض فوق هامتها تغمرها برياحها .

وغص حلق الجنرال فجأة مما جعل مرافقيه ينظران اليه فى خوف ؛ وأدار راسه فى غضب كما لو كانت ياقة سترته تضغط على رقبته ، فلم يكن يحتمل رؤية هذه الفتاة تقف وحيدة على الطريق . وانعطفت العربة البرمائية بحدة لتندفع عبر الارض غير المنبسطة الموازية للطريق فى اتجاه فوروشيلوفجراد ، وليس فى اتجاه كامينسك ، من حيث قدمت على التو فرقة الجنرال تشق طريقها نحو كراسنودون .

الفصل الرابع

اطلقت الطائرات التى حلقت فوق راس اوليا جروموفا نيران رشاشاتها فى مكان ما فيما وراء المدينة واختفت تغمرها اشعة الشمس الحارقة . ولم يمض سوى بضع دقائق حتى تعالت لتصل

الى الاسماع اصوات انفجارات ، تؤكد قصف الطائرات للمعبر الكائن على نهر الدونيتس .

وساد الهرج والمرج مستعمرة بيرفومايسكى . فانطلقت عربات الكارو وهرولت عائلات باكملها تصادف اوليا فى طريقها ، لا احد ينظر اليها او يتبادل معها كلمة رغم انها كانت تعرفهم ويعرفونها جميعا .

ولم يترك انطباعا مفاجئا سوى منظر «تلميذة المدرسة الثانوية» زينائيدا فيريكوفا التى كانت تجلس على العربة ، ترتسم على وجهها امارات الرعب القاتل ، بين امراتين وسط الصناديق والاكياس واجولة الدقيق . وبالرغم من حرارة الجو الخانقة كانت فيريكوفا ترتدى معطفا بنى اللون من قماش الجوخ ، عارية الراس تتدلى ضفيرتاها على صدرها .

وكانت مستعمرة بيرفومايسكى اقدم مستعمرات المنطقة ، وعلى اساسها قامت مدينة كراسنودون . وقد سميت هذه المستعمرة «بيرفومايسكى» او بالدارجة «بيرفومايكا» منذ فترة غير بعيدة . وفى ذلك المكان الذى ظهرت فيه المستعمرة كانت توجد قبل اكتشاف الفحم فى هذه المنطقة عزب القوزاق والتى كانت اكبرها عزبة سوروكين .

وقد اكتشف الفحم فى هذه المنطقة فى مطلع هذا القرن . وشيدت المناجم فى منطقة وجود الفحم مباشرة مائلة صغيرة لدرجة انهم كانوا يرفعونه عن طريق رافعات يدوية او اخرى تديرها الخيول . وكانت هذه المناجم فى حوزة ملاك مختلفين ، الا ان المنطقة كانت تسمى بحكم العادة ، منطقة مناجم سوروكين .

وقد استقر عمال المناجم النازحون من المحافظات الروسية الوسطى ومن اوكرانيا فى عزب القوزاق وتزاوجوا منهم ، بل وراح القوزاق ايضا يعملون فى نفس هذا الحقل . وبدأت العائلات تتكاثر ، وتستقل كل اسرة بنفسها لتبنى مسكنها الخاص بها .

وشيدت المناجم الجديدة ، وراء التل الطويل ، حيث يمتد اليوم طريق فوروشيلوفجراد ، وخلف الوهدة التى تفصل اليوم مدينة كراسنودون الى شطرين غير متساويين . وكانت هذه المناجم الجديدة ملكا لاحد كبار الملاك يدعى يارمانكين او «النبيل المسعور»

(«بيشيني بارين») ، مما جعلهم يطلقون على المستعمرة الجديدة التي نشأت حول المناجم «يارمانكين» او «بيشيني» . وكان منزل «النبيل المسعور» الرمادي اللون مبنيا بالآجر من طابق واحد تحيط به حديقة شتوية حافلة بالنباتات المدهشة والطيور الغريبة ، وحيدا على التل العالي خلف الوحـــدة تعصف به الرياح من شتى الجهات ويسمونه ايضا «بيشيني» .

وفي سنوات السلطـــة السوفييتية ، اثنـــاء فترتي الخطتين الخمسيتين الاولى والثانية شيدت المناجم الجديدة في هذه المنطقة وتحول مركز مناجم سوروكين الى هذه الناحية ، حيث ظهرت المنازل المتشابهة ومباني المؤسسات الضخمة ، والمستشفيات والمدارس والاندية . وعلى التل وبجانب منزل «النبيل المسعور» ارتفع مبنى جميل غدا مقرا للجنة التنفيذية للمنطقة . اما نفس المنزل فقد تحول الى مقر للجنة تخطيط مؤسسة «فحم كراسنودون» ، التي لم يكن موظفوها يعرفون تاريخ هذا المنزل الذي يقضون فيه جزءا كبيرا من عمرهم .

وهكذا تحولت منطقة مناجم سوروكين الى مدينة كراسنودون .

وشبت اوليا وصديقاتها ورفاقها في المدرسة في آن واحد مع نمو وازدهار المدينة . في عيد الشجرة شاركوا جميعا منذ ان كانوا تلاميذ صغارا في غرس الاشجار والاعشاب في تلك الاماكن القفرة والمليئة بتلال القمامة ، والتي تحولت بعد ذلك الى حديقة بقرار من مجلس المدينة . وقد ظهرت فكرة ضرورة زراعة الحديقة في اوساط قدامى الكومسومولیین الذين يذكرون «النبيل المسعور» ومستعمرة يارمانكين ، والاحتلال الالماني الاول ، والحرب الاهلية . وثمة من يعمل منهم اليوم في كراسنودون وقد اشتعل الشيب في راسه ووخط شاربه القوزاقي ، الا ان غالبيتهم انتشرت في كل ارجاء البلاد . وقد اشرف على زراعة تلك الحديقة البستاني دانيليتش الذي كان آنذاك متقدما في السن ، وما يزال يعمل حتى اليوم في هذه الحديقة ككبير للبستانيين بالرغم من وهن قواه .

وهكذا اخضوضرت هذه الحديقة وصارت مكان الراحة المفضل للكبار ، اما بالنسبة للشباب فلم تكن مجرد مكان ، بل كانت حياة بضة مزدهرة ، ترعرعت معهم في آن واحد ، فتية مثلهم يتعالى حفيف

اشجارها مع الرياح . اما في الايام المشمسة فقد كانت ملجأ وارف الظلال ، ومكانا جميلا جميلا حين يعتلي القمر كبد السماء . وفي ليالي الخريف كانت الامطار تتساقط لتحمل معها الى الارض اوراق اشجارها الصفراء الذابلة وتعلن عن ذلك بصوت يحمـــل الى نفس المرء في ظلمة الليل بعض الرعب .

هكذا ترعرع الشباب مع حديقته ومدينته وكان يسمي شوارعها واحياءها بطريقته الخاصـــة . وقد فرغـــوا من تشييد البنايات الخشبية ، واطلقوا عليها تسمية «الحي الخشبي الجديد» ، تلك البنايات التي لا اثر لها اليوم بعد ان حلت محلها مبان مشيّدة من الاحجار . الا ان الاسم ظل باقيا بعد رحيل المسمى . كما توجد حتى اليوم ضاحية تسمى «جولوبياتنيكي» («عشش الحمام») ، حيث كان يوجد ثلاث عشش يربي الشباب فيها الحمام بينما هي اليوم عامرة بالمنازل . اما ضاحية «تشوريلينو» فلم تكن ســـوى بيت واحد ، كان يقطنه عامـــل المناجم تشوريلين . وكانت «سينياكي» عبارة عن حوش الدريس . اما ضاحيـــة «ديريفيانايا» («الخشبية») فكانت عبارة عن شارع منعزل يقع خلف مزلقان السكك الحديدية فيما وراء الحديقة ، وظلت منعزلة عن المدينة ، كما ظلت المنازل هناك خشبية كما كانت . وفي هذه الضاحية كانت تعيش فتاة تدعى فاليا بورتس ذات عينين رماديتين داكنتين وضفيرتين ذهبيتين ، شديدة الاعتزاز بنفسها ، ،لا تتعدى السابعة عشرة من العمر . وكان «كامينايا» (الحجرية) هو الشارع الذي شيدت على جانبيـــه اولى المنازل من الآجر ، ورغما عن انها غدت اليوم كثيرة فقد ظل يحمل نفس الاسم . اما «فوسميدوميكي» («ثمانية منازل») فعبارة عن حي باكمله وشوارع شيدت حيث لم يكن يوجد سوى ثمانية منازل من هذا النوع .

كان الناس يتوافدون من شتى ارجاء البلاد الى الدونباس ، وكان اول سؤال يطرحونه : «اين سوف نعيش ؟» . وقد قام الصيني لي فان تشا بتشييد مسكن له من الطين والقش ، ثم راح «يلصق» به الحجرات الصغيرة الواحدة تلو الاخرى كخلايا النحـــل ويؤجرها الى النازحين حتى فطنوا الامر وصاروا «يشيدون» بانفسهم مساكنهم . وهكذا تكوّن الحي الكبير من حجرات طينية اطلق عليها فيما بعد

«شانغهاى» . وبدات هذه الحجرات الشبيهة بخلايا النحل تظهر بمحاذاة الوهدة التى تشطر المدينة ، وفى المناطق الفضاء حول المدينة . كما راح الناس يسمون هذه «الخلايا» «مساكن شانغهاى» .

ومنذ ذلك الحين ، حين تم تشغيل المنجم رقم ١ ، اضخم مناجم المنطقة ، والواقع بين عزبة سووروكين ومستعمرة يارمانكين ، امتدت مدينة كراسنودون لتلتحم بعزبة سووروكين . وهكذا تحولت هذه العزبة التى كانت تضم الى جانبها عزبا اخرى صغيرة ، الى مستعمرة «بيرفومايسكى» - أحد احياء المدينة .

ولم يكن هناك ما يميز هذا الحى عن احياء المدينة الاخرى سوى وجود المنازل الباقية من عزب القوزاق . وكانت هذه منازل شيدها القوزاق كل على هواه . كما كان هناك كثير من القوزاق يعملون فى البرارى وليس فى المناجم ، يمارسون الزراعة تضمهم عدة مزارع تعاونية .

وكان منزل والدى اوليا جروموفا القديم والذى كان من املاك القوزاق يقع فى واد باطراف المستعمرة ، حيث كانت عزبة جافريلوف .

وكان ماتفى ماكسيموفيتش جروموف اوكرانى الاصل ، من محافظة بولتافا ، يسعى منذ صغره برفقة ابيه وراء الكسب . وكان شابا فارع القامة قويا جميلا جسورا ، ينسدل شعره الاصفر فى حلقات على جبهته ، يعرفه الجميع عامل منجم قوى البنية ؛ كما كان موضع اعجاب الفتيات . وليس هناك ما يدعو للدهشة فى انه حين قدم الى هذه الناحية سعيا وراء الكسب فى تلك الفترة التى شهدت افتتاح اولى المناجم ، اسر فى شباك حبه ماترينا سافيليفنا التى كانت آنذاك صغيرة سوداء العينين قوزاقية من عزبة جافريلوف .

وقد خدم جروموف فى فوج موسكو الثامن الذى اشترك فى الحرب الروسية اليابانية ، وجرح ست مرات ، وحصل على العديد من الاوسمة والميداليات آخرها لقاء انقاذه لراية فوجه - راية جورج المقدس .

وقد تدهورت صحته منذ ذلك الحين . وعمل لبعض الوقت فى بعض المناجم الصغيرة ، ثم راح يعمل فيما بعد حوذيا فى احد

المناجم الى ان استقر نهائيا بعد حياة ترحال فى عزبة جافريلوف بمنزل آل الى ماترينا كصداق .

وما كادت اوليا تصل الى السياج المحيط بدارها الحبيبة حتى خانتها قواها . وكانت اوليا تحب امها واباها . وككل قريناتها فى عمر الشباب ولم تكن تتصور ان تحين اللحظة التى سوف يتحتم عليها فيها تقرير مصيرها وحدها بعيدا عن الاسرة . وها هى هذه اللحظة تحين !

وكانت اوليا تعلم ان امها واباها مرتبطان بالبيت وقد تقدم بهما العمر وامسك بهما المرض لدرجة يعجزان معها عن مبارحته . اما الابن فقد كان يخدم بالجيش بينما كانت هى فتاة لم يتحدد طريقها بعد فى الحياة ، وانسانا بلا منصب او وظيفة تكفل لها اعالتهما . وكانت الابنة الثانية زوجة احد موظفى ادارة المنجم الذى تقدم به العمر تكبر اوليا كثيرا وتشاطر الاسرة معيشتها مع عائلته وتعول اطفالها مما يجعلها بدورها عاجزة عن اتخاذ قرار مغادرة الدار . هذا وكانوا جميعا قد قرروا عدم مبارحة هذا المكان الحبيب مهما كان الامر .

وكانت اوليا هى الوحيدة التى لم تحدد حتى تلك اللحظة الحرجة خطة واضحة او هدفا ثابتا . فقد كان يبدو لها انه من المفروض ان يحدد الآخرون قدرها . كانت تود تارة الالتحاق بالجيش وبالطيران بالذات وكتبت الى شقيقها الذى يعمل فنيا فى احد الافواج تسأله عن امكانية عونه لها فى الالتحاق بمدرسة الطيران . وتارة اخرى كانت تتصور ان اسهل شىء هو الانتظام فى دراسات اعداد الممرضات كما فعلت الكثيرات من فتيات كراسنودون ، وبالتالى يصبح من الممكن لها الانتظام بسرعة فى الجيش العامل . وتارة ثالثة كان يراودها حلم غامض حول الانخراط فى العمل الفدائى السرى فى المناطق التى يحتلها العدو . وفجاة يتملكها تعطشها لمواصلة الدراسة ، حيث ان الحرب ليست ابدية وسوف تضع اوزارها ليتحتم على المرء بعد ذلك العيش والكدح . وهنا يغدو من المطلوب اناس محنكون . وهى قادرة على ان تصبح فى القريب مهندسة او مدرسة . بيد انه لم يوجد من يقرر مصيرها ولتاتى اللحظة التى يتحتم عليها فيها فتح الباب و . . .

وهنا فقط احست بفداحة ما يمكن ان تنقلب عنه الحياة . فهى مضطرة لترك والديها عرضة لدنس العدو ، والغوص فى اعماق عالم الترحال والنضال والفاقة ، والمجهول الرهيب . شعرت باقدامها تعجز عن حملها حتى كادت ان تهوى الى الارض . آه لو كانت قادرة فى هذه اللحظة على التسلل الى هذا الكوخ الصغير العامر بالحياة لتغلق نوافذه وتغوص فى فراشها الحبيب لترقد هادئة مستكينة لا تفكر فى اتخاذ اى قرار ! ومن ذا الذى يهمه امر اوليا ، تلك الفتاة السمراء الصغيرة ! نعم . . . فلتنسل الى فراشها وتقرفص قدميها وتعيش بين ذويها ومحبيها وليكن ما يكون . . . وماذا عسى ان يكون ، ومتى يكون . . . وحتى متى ؟ واليس من المحتمل الا يكون الامر رهيبا كما نظن ؟

غير ان الرجفة اعترتها فى تلك اللحظة ازاء مشاعر المهانة التى انتابتها حين ذهب بها تفكيرها الى هذا الحد . ومع ذلك فلم يكن هناك متسع من الوقت للاختيار ، حيث هرعت امها لملاقاتها . كم من جهد بذلته كى تستطيع النهوض من فراشها ! وتقدم فى اثرها ابوها وشقيقتها وزوج شقيقتها وكذلك صغارهما . وكان التأثر الشديد قد ترك بصماته واضحة على وجوههم جميعا ، بينما انفجر اصغر ابناء شقيقتها فى البكاء . وقالت الام والدموع تنساب دون ان تحاول تجفيفها ، على خديها الشاحبين المعروقين واللذين لفحتهما الشمس :

– اين كنت غائبة يا بنيتى ؟ لقد كنت ابحث عنك منذ طلوع النهار . فلتسرعى بالذهاب الى اناتولى ان لم يكن قد بارح المكان بعد . اسرعى يا حبيبتى !

لقد كانت الام ما تزال على مسحة من جمال بالرغم من كبرها واحدوداب ظهرها . كانت جميلة ، مثلما كانت عيناها السوداوان جميلتين مثل عينى طائر برى كبير ، بالرغم من انها كانت قصيرة القامة . كما وكانت ذات طباع تتسم بالاتزان ، ذكية ، يقدر آراءها ماتفى ماكسيموفيتش وبناتهما . لكن ها هى تحين الساعة التى ينبغى فيها على الابنة تقرير مصيرها بنفسها ، مما جعل قوى الام تخور .

وتساءلت اوليا على عجل :

– من الذى بحث عنى ؟ أهو اناتولى ؟

واجاب الاب وهو يقف خلف الام سادلا يديه الكبيرتين :

– لقد جاءوا من لجنة المنطقة يسألون عنك !

لقد بدا الاب عجوزا هرما . تساقط شعر راسه عند المقدم ليبدو اصلع ولم يبق سوى شعيرات جعداء بيضاء على قفاه وفوديه . كما وخط الشيب الغزير شاربه الاحمر ولحيته الكثة ، وغطت التجاعيد وجهه ، وجه جندى حقيقى .

وعادت الام تقول :

– اسرعى يا بنيتى . . اسرعى . لكن . . انتظرى فسوف انادى بنفسى عليه . .

وهرولت هى الصغيرة العجوز بين احواض البطاطس تقصد جيرانها آل بوبوف والذين تخرج ابنهم اناتولى مع ابنتها اوليا من مدرسة بيرفومايسكى الثانوية هذا العام .

– فلترقدى يا اماه . . . سوف اذهب انا بنفسى .

واسرعت اوليا خطاها فى اثر الام ، تركض بين شجيرات الكرز وانطلقتا سويا . . الكبير الى جوار الشباب .

كان مسكنا آل جروموف وبوبوف متجاورين تفصلهما حدائق تنحدر تجاه وهدة جافة محدودة عند الاعماق بسياج من الاغصان المجدولة . وبالرغم من ان اوليا كانت تسكن طوال حياتها متجاورة مع اناتولى الا انها لم تلقه ابدا بعيدا عن المدرسة وعن اجتماعات الكومسومول التى كان يلقى فيها بتقاريره . فقد كانت له ميوله الطفولية الخاصة حين كان صغيرا ، ولما كبر راحوا يمازحونه بأنه يهاب الفتيات . وحقا فقد كان حين يلقى اوليا وغير اوليا فى اى مكان سواء فى المسكن او فى الشارع يفقد السيطرة على نفسه لدرجة لا يستطيع معها المبادرة بالتحية ، وحين كان يفعل ذلك كانت الحمرة تكسو وجنتيه مما ينعكس بالتالى على اية فتاة تصادفه . وكانت الفتيات يتحدثن عن ذلك فيما بينهن ويسخرن بالتالى منه . الا ان اوليا كانت رغما عن ذلك تحترمه نظرا لسعة اطلاعه وذكائه وميله الى العزلة . كما وكان يهوى نفس الاشعار التى تحبها ، ويجمع الجعلان والفراشات والاجسام المعدنية والنباتات .

وصاحت الام التى انحنت عبر سياج الاغصان المجدولة :

– تاييسيا بروكوفيفنا ... تاييسيا بروكوفيفنا ! توليتشكا ! لقد حضرت اوليا . . .

وهناك فى مكان ما تعالى رفيعا صوت شقيقة اناتولى . وها هو نفسه يحث الخطى بين اشجار الكرز ذات الثمار الصغيرة ، يرتدى قميصا اوكرانيا مطرزا ذيله ونهاية كميه مفتوح الصدر ، يغطى راسه بطاقية اوزبكية تشد شعره الاصفر الممشوط الى الوراء كعادته دائما .

كانت امارات الاضطراب تعلو وجهه النحيف الوقور الذى لفحته الشمس . ويبدو انه نسى تماما عادته التى تجعله خجولا فى حضرة الفتيات ، وانه يواجه اوليا . فقد راح يقول على عجل :

– اوليانا . . اننى ابحث عنك منذ الصباح الباكر . لقد طفت على جميع الصبية والفتيات . واحتجزت فيتكا بيتروف خصيصا حتى لا يرحل بدونك . وهم لدينا الآن . ان اباه يواصل صبه اللعنات والشتائم . استعدى فورا للرحيل .

– اننا لم نكن نعلم شيئا . من الذى اصدر هذه التعليمات ؟

– انها تعليمات لجنة المنطقة الحزبية وتقضى برحيل الجميع ، نظرا لان الالمان سوف يصلون هذا المكان فى القريب العاجل . لقد حذرت الجميع ، الا اننى لم اصادف مجموعتكم كلها . وكم عانيت من قلق . وها هو فيتكا بيتروف ووالده يصلان الى هنا من عزبة بوجوريلى . لقد كان ابوه فدائيا هنا فى هذه المنطقة قاتل الالمان ايام الحرب الاهلية . ومن الطبيعى انه لا يجب عليه التاخر دقيقة واحدة . ولك ان تتصورى ان فيتكا عرج خصيصا الى هنا من اجلى . انه صديق صدوق ! ان اباه يواصل اطلاق الشتائم ، بينما اقول له : «انك فدائى قديم وتدرك انه من المستحيل ترك الرفيق وحده ، كما انه من المؤكد انك انسان لا يهاب شيئا» . وها نحن ننتظرك .

راح اناتولى يواصل حديثه فى عجلة ، على نحو يبدو معه راغبا فى مشاطرة اوليا كل معاناته ينظر اليها بعينين رماديتين فاتحتين تارة ، وزرقاوين تارة اخرى اضفيتا الى وجهه الضارب الى البياض سحرا خاصا . كيف لها ان تغفل عن ملاحظة ذلك من قبل ؟ لقد كان وجه اناتولى معبرا عن قوة روحية ، وبالذات قوة تكمن فى طيات شفتيه الممتلئتين وفى تقويرة انفه العريضة .

وقالت اوليا :

– توليا . . توليا . .

وارتجفت نبرات صوتها ، ومدت يدها الرفيعة التى لفحتها الشمس اليه عبر سياج الاغصان المجدولة .

عندئذ اصابته الحيرة والارتباك .

– سريعا . . سريعا .

قالها وهو يخاف ان تلتقى عيناه بعينيها السوداوين ، اللتين تحرق اعماقه .

صارت والدة اوليا تنادى الجمع ، بينما انزلقت الدموع من ماقيها لتنساب على خديها :

– لقد جمعت كل شىء . احضروا العربة الى البوابة . . . احضروها . .

ولم تكن الام تصدق حتى تلك اللحظة ان الابنة سوف تدلف وحدها الى اعتاب هذا العالم الرحب الذى فتح ابوابه على مصاريعها . بيد انها كانت تدرك خطورة بقائها . وها هم اناس طيبون وانسان كبير يعتمد عليه والامور قد سارت على النحو الذى يمكن ان ترتضيه النفس .

وتساءلت اوليا بلهجة تنم عن بعض الحزم :

– هل حذرت يا توليا فاليا فيلاتوفا . انك تدرك انها اعز صديقاتى ولا يمكننى الرحيل بدونها .

وعلت وجه اناتولى امارات حزن عميق لم يستطع اخفاءه ولم يحاول ذلك .

وفقد اناتولى السيطرة على نفسه وقال :

– ان الخيول ليست ملكا لى ونحن اربعة افراد . . . اننى حقا لا اعلم ماذا العمل ؟

– انك تدرك اننى لن اتركها وحدها واذهب .

– ان الخيول قوية بطبيعة الحال ، لكن خمسة افراد على اى حال . . .

– اسمع يا توليا . . اقول لك شكرا . . شكرا على كل شىء . يمكنكم الرحيل ، بينما سوف ناتى وفاليا . . سيرا على الاقدام . واضافت فى حزم – وداعا !

وهنا شهقت الام بالبكاء وهى تمسح وجهها بقبضتيها كالاطفال تقول :

– يا الهى . . . كيف سيرا على الاقدام يا بنيتى ! لقد وضعت لك كافة فساتينك وبياضات الفراش فى الحقيبة . فكيف ستنامين ؟

لم ينظر توليا الى شهامة اوليا حيال صديقتها كامر غريب ، بل كقضية طبيعية ، وعلى النقيض فقد كان غريبا ان يكون سلوكها على نحو آخر . ولذا لم يعلن عن ضجره او تأففه ، بل راح يبحث عن حل لهذا المازق .وصاح يقول :

– فلتسأليها اولا قبل اتخاذ اى قرار . ولربما تكون قد رحلت بالفعل ، وربما تكون قد قررت عدم الرحيل قط . كما انها على اية حال ليست عضوا بالكومسومول .

ودبت الحياة فى ماترينا سافيليفنا ، بعد ان فقدت الشعور بحجم قواها وهيت تقول :

– سوف اجرى لاناديها .

وردت اوليا وقد استشاط غضبها :

– آه . . فلترقدى انت يا اماه ! سوف افعل ذلك بنفسى .

وتعالى صوت فيكتور بيتروف قويا ينادى من عل عند كوخ آل بوبوف :

– تولكا ! الا تحضرون بسرعة ؟

وغدا توليا يفكر بصوت مسموع :

– ان خيولهم قوية بطبيعة الحال . كما يمكننا على اى حال تناوب الجرى وراء المركبة .

ولم يتطلب الامر من اوليا ان تذهب الى فاليا ، فما كادت ترتقى هى وامها الى طرف المنزل حتى وقع نظرهما على فاليا فيلاتوفا ذات الوجه المدبب تقف بين المنزل وملحقاته المتمثلة فى المطبخ وسقيفة البقرة . كان الشحوب يكسو وجهها لا تفلح فى اخفائه لفحة الشمس الشديدة التى تركت آثارها عليه .

وقالت اوليا على عجل :

– فاليوشا . هيًا بنا ، فالخيول موجودة ، وسوف نقنعه بان يحملنا معه .

– فلتنتظرى بعض الشىء . . هناك كلمتان اود ان اسرى بهما اليك .

واخذتها فاليا من يدها وانتحت بها جانبا الى السياج وقالت لها بينما تحدق النظر اليها بعينين صافيتين واسعتين يعبران عن الم دفين :

– اوليا . . اوليا ! اننى لن اذهب الى اى مكان – واضافت بقوة – اننى . . . اوليا . . انت شخص غير عادي . نعم شخص غير عادى . ثمة شىء فيك قوى . . . كبير . انك قادرة على كل شىء . وحقا تقول امى ان الله منحك جناحين . واضافت تقول وحمى الحب تجتاحها – انك يا اوليتشكا سعادتى فى هذا العالم . . . اسعد ما املك فى هذا الوجود . الا اننى لن اذهب معك . اننى انسانة عادية . . واعلم ذلك وكنت احلم دائما بحياة عادية جدا . كنت افكر فى الدراسة ثم العمل ، الى ان اصادف بعد ذلك شخصا طيبا على خلق اتزوجه وانجب اطفالا . . . صبيا وفتاة . . . ونعيش حياة بسيطة صافية ، ولم اكن افكر فى ابعد من ذلك . اننى يا اوليا لا استطيع النضال ، اننى اخاف البقاء وحدي . نعم اننى ارى كل آمالى قد تهاوت ، الا ان امى عجوز ، ولم اسىء الى احد طوال حياتى . اننى انسانة بسيطة وسوف ابقى ... وارجو ان تسامحينى .

وراحت فاليا تبكى وهى تدفن راسها فى منديل كانت تمسك به فى يدها . واحتضنتها اوليا وضمتها اليها ثم شرعت فجاة تذرف الدمع ليتساقط على راس صديقتها اللطيف الذى الفته .

لقد تصادقتا منذ الطفولة والتحقتا بالمدرسة سويا وانتقلتا من صف لآخر سويا ، وتقاسمتا سويا ايضا اولى ايام الفرح والكآبة واولى اسرار سنى الصبا . وكانت اوليا منطوية النفس بطبيعتها لا تفصح عن نفسها الا فى لحظات الصفاء الروحى ، بينما كانت فاليا تحدثها عن كل شىء ، وتشاطرها كل شىء لدرجة انها لا تستطيع بانفعالاتها مواكبة ما تعلن عنه اوليا . ومن ذا الذى يستطيع فى سنى الصبا الاهتمام بالتفاهم المتبادل . ان السعادة تكمن فى مشاعر الثقة وامكانية مشاطرة الآخرين همومهم . وقد بدتا كما لو كانتا على طرفى نقيض ... لكن كم من الايام الخوالى



يشكل عمر صداقتهما الرقيقة المقدسة ، بينما يهوى صخر الفراق يحطم قلبيهما !

وقد ادركت فاليا انها تتخلى عن اعز وانصع ما فى حياتها ، ليبقى لديها شىء ما باهت اللون ، مجهول للغاية يبعث الرعب فى النفس .

اما اوليا فقد كانت تدرك انها تفقد ذلك الشخص الوحيد الذى كان يمكنها ان تبدو معه على حقيقتها فى احلك ساعات ضجرها او فى لحظات سعادتها . اذ انها لم تكن تهتم بما اذا كانت صديقتها سوف تتفهم موقفها ، حيث كانت دائما ما تجد صدى مشاعرها ينعكس فى اعماق نفسها طيبة وطاعة ، وحبا بها وعناية . وقد راحت تبكى حيث حانت نهاية طفولتها ، وبداية صباها ، حيث جاءت لحظة انتقالها الى عالم الكبار . . . وها هى تخرج اليه وحدها .

ولم تتذكر سوى فى تلك اللحظة ان فاليا انتزعت الزنبقة من شعرها والقت بها الى الارض . لقد ادركت اوليا السبب الذى دعا فاليا لان تفعل ذلك ، حيث انها حدست آنذاك ، لحظة تلـــك الصدمة ، مدى غرابة منظر صديقتها التى تزين شعرها بالزهور بينما ثمة من يفجر المناجم ولذا فقد خلصتها منها . وذلك يعنى انها لم تكن على الاطلاق ذلك الانسان العادى ، كما كانت تذكر ، بل كانت شخصا قادرا على تفهم الكثير .

وثمة شعور خفى جعلهما تدركان ان ما تشهده علاقتهمـــا ، تشهده للمرة الاخيرة . ولم يكن ذلك مجرد شعور ، حيث انهمـــا كانتا تدركان كونهما تتوادعان الى الابد على نحو روحى خاص . ولذا فقد شرعتا تبكيان من كل قلبيهما دون حرج من دموعهما ودون ان تحاولا الامساك عن ذرف الدموع .

وكم من الدموع التى ذرفت فى تلك السنين ، ليس فقط فى اراضى دونيتسك بل وفى كل انحاء الاراضى السوفييتية التى عانت الدمار والحرائق وارتوت بالدماء ! فثمة دموع كانت تعبيرا عن مشاعـــر العجز والرعب والالم الجسمانى الذى لا يطاق . لكن كم من الدموع المقدسة السامية النبيلة . . . اقدس واسمى ما ذرفته البشريـــة من دمع !

وما كادت المركبة تقترب من البوابة تقرع عجلاتها واخشاب

جانبيها المائلين تئن تحت وطأة الحقائب وصرر الملابس ، يجرهـا حصانان كماتيا اللون اصيلان يمسك بزمامهما رجل ربعة متقدم فى السن مكتنز الوجه يرتدى سترة اشبه بسترة العسكريين يغطى راسه كاب من الجلد ، حتى انفصلت اوليا عن صديقتها وهى تمسح دموعها براحة يدها ، لتعود قسمات وجهها الى سماتها الطبيعية .

— وداعا يا فاليا . . .

وبصوت حشرجه البكاء اجابتها فاليا :

— وداعا يا اوليتشكا . . .

وتبادلتا القبلات .

وتوقفت المركبة عند البوابة ، لتظهر من خلفها والدة اناتولى تاييسيا بروكوفيفنا فى صحة جيدة ، فارعة القامة قوزاقية بيضـاء فاتحة العينين والشعر ، برفقة شقيقته الصغرى ناتاشا ، وقـد كست الحمرة وجهيهما وتصببا عرقا بعد شوط طويل قطعاه جريـا وهما يبكيان . اما والده فقد التحق بالجبهة منذ اولى ايام الحرب.

وكان اناتولى يجلس على المركبة ، والى جواره فيكتور بيتروف وسيم الملامح داكن الشعر تعكس عيناه الطفوليتان اللتان تتسمان بالجراة مشاعر حزن ، وقد انفرج قميصه على صدره يمسك فى يده جيتارا لف بشىء ما ناعم وربط بدوبارة .

والتفتت اوليا ، ثم اخذت طريقها نحو اسرتها على نحو اشبـه بجمود . بينما حمل اهل الاسرة لها الحقيبـة والمنديـل وصرر الملابس . كما اندفعت اليها امها العجوز قصيرة القامة بعينيها السوداوين الشبيهتين بعينى طائر برى كبير .

ونادتها اوليا :

— ماما . . .

وضربت الام كفا بكف وسقطت مغشيا عليها .

الفصل الخامس

لم تشهد برارى دونيتسك منذ فترة هجرة الشعوب الكبرى مثل تنقلات الجماهير هذه والتى شهدتها فى تلك الايام من يوليـو ١٩٤٢ .

فقد سارت تقطع الطرق المعبدة وغير المعبدة ، تشق البرارى تحت اشعة الشمس الحارقة وحدات الجيش الاحمر المنسحبة بعرباتها ومدفعيتها ودباباتها ، وملاجئ ورياض الاطفال وقطعان المواشى وعربات النقل والنازحون ، تارة فى قولات منتظمة واخرى شتاتا ، يدفعون امامهم عربات اليد تحمل متاعهم وصرر ملابسهم التى استقر فوقها الاطفال .

وراح كل اولئك يسيرون ، يدوسون سنابل الحبوب المزدهرة والتى حان حصادها ، دون ان ياسف اى منهم ، الذى بذرها او الذى يدوسها ، حيث غدت غريبة لايملكونها ، وسوف تئول للالمان ، وكانت حقول البطاطس فى المزارع التعاونية والحكومية فى متناول الجميع . وراح النازحون يفتشون عنها ، ويشوونها فى النيران التى اضرموها فى القش او فى سياجات القرى . كما كان من الممكن للمرء ان يصادف فى ايادى البعض ثمار الخيار والطماطم ، او شطيرة غضة من البطيخ او الشمام . كما انتشر الغبار يلف البرارى لدرجة انه كان يمكن للمرء معها النظر الى الشمس دون ان يرف له جفن .

ولقد كان ما يمكن ان يبدو للانسان الحائر ذى الادراك السطحى المنجذب كذرة رمل فى خضم تيار الانسحاب والمنعكس فى الغالب ما يدور بخلده وليس حوله ، عفويا لا معنى له ، كان فى حقيقة الامر حركة لا مثيل لهاللجماهير الشعبية الضخمة والمقدرات المادية تشرف على تنظيمها ماكينة الدولة للحرب ، المعقدة للغاية والدقيقة ، تحركها المئات والالوف من البشر كبارا وصغارا .

بيد انه وكما يحدث فى الانسحاب الاضطرارى السريع ، وعدا مسيرات العسكريين والمدنيين الرئيسية والكبيرة التى وان كانت عسيرة فقد اتسمت بالمعقولية ، كان يسير النازحون يقطعون الطرق وعبر البرارى نحو الشرق والجنوب الشرقى ، وكذلك المؤسسات الصغيرة والجماعات والفرق غير الكاملة وعربات القوات التى حطمتها المعارك وفقدت الاتصال وضلت الطريق ، ومجموعات العسكريين الذين تخلفوا بسبب المرض او اصابتهم بجراح او لعدم كفاية وسائل المواصلات . وقد سارت هذه المجموعات ، تارة كبيرة واخرى صغيرة والتى لم تكن لديها اية تصورات عما يجرى فى الجبهة فى واقع الامر ، سارت فى الاتجاه الذى بدا لها اكثر صحة وجدوى .

وسدت كافة المنافذ للحركة الاساسية وبادئ ذى بدء المعابر على نهر دونيتس ، حيث راحت تتزاحم مدة يوم باكمله حشود البشر والسيارات والعربات عند العبارات والكبارى العائمة ، بينما قاذفات العدو تقصفها من الجو .

وعلى الرغم من عدم جدوى رحيل المدنيين الى كامينسك فى مثل تلك الظروف التى تعدت فيها الوحدات العسكرية الالمانية نهر الدونيتس الى شاطئه الآخر نحو موروزوفسكى ، اندفع الجزء الاعظم من نازحى كراسنودون الى هذا الاتجاه بالذات ، حيث تحركت مخلفة كراسنودون وراءها طلائع وحدات الفرقة التى ارسلت لدعم دفاعاتنا عند دونيتس جنوبى ميلليريفو . وفى خضم هذا التيار بالذات سارت المركبة التى يجرها حصانان كمانيا اللون جيدان ، والتى كان يستقلها اوليا جروموفا واناتولى بوبوف وفيكتور بيتروف ووالده .

وما كادت تتوارى عن الاعين آخر مبانى المستعمرات وحين تجاوزت المركبة فى خضم العربات والسيارات الاخرى طريق التل المنحدر دوى فى اعماق السماء على حين غرة هدير محرك رهيب ، لتنقشع السماء عن المقاتلات الالمانية تحلق على مسافة قريبة من الرؤوس ، تحجب الشمس وتطلق نيران رشاشاتها على الطريق .

وفجأة علا الشحوب وجه ابى فيكتور ، ذلك الرجل الربعة المفعم حيوية ، مكتنز الوجه ، اجش الصوت والذى كان يغطى راسه كاب من الجلد ، وصاح بصوت تتسم نبراته بالرعب .

– الى البرارى . . . ارقد !

بيد ان الصبيين قفزا بعيدا عن العربة واندفعا الى حقول القمح . كما قفز ابو فيكتور بعيدا ملقيا عنانى الحصانين ليختفى على الفور ويصبح اثرا بعد عين ، كما لو كان روحا هيفاء وليس رجلا متين البنيان يعمل فى قطع الاخشاب ويرتدى حذاء طويلا من الجلد . ولم يبق فى مكانه على العربة سوى اوليا وحدها دون ان تعرف نفسها ما الذى حال دون ذلك . بيد انه فى تلك اللحظة اندفع الحصانان الجامحان على نحو كادا يرديان معه اوليا ارضا .

وحاولت اوليا الامساك باعنة الخيل ، الا انها لم تفلح فى الوصول اليها ، اذ ان الحصانين كادا يصطدمان بالمركبة التى كانت تتقدمهما مما جعلهما يجمحان ويندفعان جانبا على نحو كادا

معه يحطمان عريشها . ومالت بشدة المركبة الطويلة الفسيحة الثقيلة ، الا انها عادت ثانية الى وضعها ، وحفزت اوليا التى امسكت حافة العربة بيد ، بينما تشبثت بالاخرى بحمل ثقيل ، قواها للبقاء مكانها والا كانت قد داستها خيول العربات الاخرى المذعورة فيما حولها .

واذ جمح الحصانان الكبيران كماتيا اللون اندفعا يقطعان الحقول التى اتلفت ، يرغيان ويزبدان وسط الناس والعربات . وفجأة ترك مكانه على العربة الامامية شاب فارع القامة عريض المنكبين اشقر الشعر لا يغطيه شيء ليندفع نحو الحصانين على نحو بدا كما لو كان يلقى بنفسه تحت اقدامهما .

ولم تدرك اوليا على التو كنه ما حدث ، الا انها وبعد لحظة شاهدته بين راسى الحصانين بانيابهما التى كشرا عنها وعرفيهما المنتصبين يقف شامخا تعكس عيناه اللامعتان امارات توتر خارق وجهد وتعلو الحمرة وجنتيه البارزتين ليبدو وجهه فتيا نضرا . واذ امسك بيد قوية بزمام احد الحصانين الجامحين قريبا من لجامه ، استقر فيما بينه وبين العريش الذى خاف ان يضغط عليه ، مما جعله يستند الى الحصان . ووقف الشاب شامخا حسن الهندام يرتدى حلة رمادية حديثة العهد بالمكواة ورباط عنق داكن الحمرة ، يبدو من جيب جاكتته غطاء قلم ابيض اللون . وقد كان يحاول بيده الاخرى الامساك من اعلى العريش بزمام الحصان الآخر . ولم يكن ثمة ما يشير الى كم من الجهد كلفه ذلك سوى تقلص عضلاته تحت الجاكت الرمادى ، وبروز اوردة معصميه اللذين لفحتهما الشمس .

وبنبرة هادئة وان كانت تنم عن لهجة آمرة قال :

— هس . . . هس !

وما كاد يتمكن من الامساك بزمام الحصان الآخر ، حتى سكن الحصانان على الفور وانصاعا له ، بينما واصلا هز عرفيهما يرميانه بنظرات تنم عن وحشية الا انه لم يتركهما الا بعد ان هدآ تماما .

والقى الشاب بزمامي الحصانين من يديه ، وكان اول ما فعله مما اثار غير قليل من دهشة اوليا ، ان راح يسوى بتانق براحتى يديه الكبيرتين شعره الاشقر المفروق على جانب راسه والذى لم

ينكش تقريبا . ثم رفع هامته نحو اوليا وقد تصبب عرقا وجهه والوجنتين البارزتين وبدا اشبه بصبى طفق ينظر اليها بعينين كبيرتين واهدابهما الطويلة الذهبية الداكنة وقد انفرجت اساريره عن ابتسامة تعكس طيبة ومرحا .

— لقد كاد الحـ . . . حصانان الطـ . . . طيبان يحطمان كل شيء !

قالها الشاب بتاتاة خفيفة وقد ندت عنه ابتسامة عريضة بينما ينظر الى اوليا التى كانت ما تزال متشبثة بحافة العربة وبالحمل الثقيل وقد اضطرب منخراها وراحت تنظر اليه بعينيها السوداوين فى اجلال .

راح الناس يعودون الى الطريق بحثا عن عرباتهم وسياراتهم . وفى اماكن اخرى احتشدت النسوة ، من المؤكد الى جوار القتلى والجرحى ، حيث تعالت من هناك التأوهات والنواح .

وقالت اوليا وهى تنشج بمنخريها من تاثير الاضطراب :

— لقد خفت ان يصرعاك بالعريش .

— لقد كنت نفسى خائفا من ذلك . لكن الجوادين طيبان . . .

قالها فى سذاجة ، بينما راح يربت بيده الكبيرة ذات الاصابع الطويلة والتى لفحتها الشمس رقبة الحصان الملساء المعروقة ، الذى كان يقف على مقربة منه .

وهناك بعيدا ، فى مكان ما على دونيتس تعالت الى الاسماع اصوات انفجارات صماء وحادة فى ذات الوقت .

وعلقت اوليا قائلة وهى تتلفت حولها :

— كم انا مشفقة على هؤلاء البشر .

وانسابت العربات ، والناس يسيرون على كلا الجانبين الى ابعد من مرمى البصر كنهر جارف كبير .

— نعم . . . يا للاسف . ولا سيما فيما يخص امهاتنا اللواتى يعانين ! وكم سوف يعانين فى المستقبل ايضا ! — قالها الشاب الذى سرعان ما علت وجهه امارات الجد وتبدت على جبهته غضون حادة لا تتناسب وسنه .

واجابت اوليا بصوت مكتوم :

— نعم . . نعم . .

وسرعان ما تخيلت امها كيف تمددت ناحلة الجسد ضئيلة على الارض التى احرقتها الشمس .

ظهر والد فيكتور بيتروف فجاة ، كما اختفى فجاة ، الى جوار الحصانين وراح باهتمام بالغ يتحسس العنانين والسرجين وكذلك عريش العربة . وبدا من بعده اناتولى بوبوف ، وهو يضحك سخرية ويهز رأسه على نحو يوحى بالذنب فى طاقيته الاوزبكية ، دون ان يفقد مع ذلك امارات الجد التى عادة ما تميز قسماته ، ثم ظهر خلفه فيكتور تعتريه ايضا امارات خجل بعض الشىء .

وسرعان ما سال فيكتور ، فيما يجول بنظراته فى قلق الى العربات :

— اما يزال سليما جيتارى ؟

واذ وقع نظره على الجيتار الملفوف فى البطانية والموضوع وسط صرر الملابس ، نظر الى اوليا بعينين جريئتين ملؤهما الحزن ، وانفجر ضاحكا .

وغطس الشاب الذى كان ما يزال واقفا بين الحصانين ، الى ما تحت العريش ورقبة الحصان ، ليظهر الى جوار العربة مشدود القامة عريض المنكبين اشقر الشعر لا يغطيه شىء تتسم حركته بالمرونة ، وصاح بلهجة تنم عن فرحة :

— اناتولى !

— اوليج !

وشد كل منهما على ذراع الآخر فيما فوق المرفق ، بينما حاد اوليج بنظره فى نفس الوقت نحو اوليا ، ومد اليها يده يصافحها معلنا عن لقبه :

— كوشيفوى .

وكانت كتفه اليسرى تعلو اليمنى قليلا . وبالرغم من انه كان صغير السن للغاية ، حيث ما يزال صبيا بعد ، فقد شعرت اوليا سريعا بالثقة نحوه ازاء وجهه الذى لفحته الشمس وقوامه الفارع وحركته الرشيقة ، وحتى ازاء ملبسه جيد الكى ورباط عنقه داكن الحمرة وغطاء قلمه الابيض ، وعموما ازاء نمط حركته ، كما اضفت تاتاته البسيطة عليه سمات النضارة والقوة والطيبة والصفاء الروحى .

اما اوليج فقد رمى بعينى شاب لفت انظاره رغما عنه ، وفى لمح البصر القد الممشوق والخصر اللدن اللذين تشدهما بلوزة بيضاء وجونلة داكنة اللون ، للفتاة الريفية التى تعودت على اعمال الحقول ، ذات العينين السوداوين المصوبتين نحوه ، وضفيرتيها المتموجتين ومنخريها غريبى التقويرة ، وساقيها الطويلتين الرشيقتين ، اللتين تغطيهما جونلتها الداكنة الى ما اسفل الركبتين قليلا ، لتخفق جوانحه ، ويلتفت فى حدة نحو فيكتور يمد اليه يده وقد اعتلاه الارتباك .

وقد تلقى اوليج كوشيفوى تعليمه فى مدرسة جوركى ، اكبر مدارس كراسنودون الكائنة وسط حديقة المدينة . وكان يرى اوليا وفيكتور لاول مرة ، اما اناتولى ، فقد كانت تربطه به تلك الصداقة العفوية التى تظهر عادة بين نشطاء الكومسومول ، الصداقة من اجتماع لآخر .

وقال اناتولى :

— فلتنظر اين تحتم علينا اللقاء . وهل تذكر يوم هجمنا عليك دفعة واحدة لتروى عطشنا ، وقمت آنذاك بتعريفنا بجدتك !

— وضحك ثم استطرد سائلا — هل هى مسافرة معك ؟

واجاب اوليج وقد كست جبهته ثانية الغضون :

— كلا . . . لقد بقيت ج . . جدتى وكذلك امى . نحن هنا خمسة ، اخو امى ، لا يطاوعنى لسانى باى حال من الاحوال على تسميته بخالى ، وزوجته وابنهما ، علاوة على ج . . الجد الذى يقود مركبتنا — وهنا اومأ برأسه مشيرا الى المركبة التى تسير فى الامام وحيث تعالت الاصوات تناديه من هناك .

وكانت المركبة التى يجرها حصان اصهب خفيف الحركة قصير القامة تندفع نحو الامام ، بينما راح الحصانان كماتيا اللون يطاردانه من الخلف ، لدرجة ان خياشيمها الرطبة بعثت الحرارة الى رقاب وآذان الجالسين فى المركبة .

وكان خال اوليج كوشيفوى ، نيكولاى كوروستيليف او الخال كوليا مهندسا جيولوجيا بمؤسسة «فحم كراسنودون» يرتدى حلة زرقاء اللون وسيم المحيا كثيف الحاجبين ، ذا عينين بندقيتى اللون ، شابا بارد المزاج يكبر ابن شقيقته بسبع سنوات لا

اكثر ، يصادقه كما ترناه ، راح يشاكسه مثيرا موضوع اوليا .
فقد اخذ الخال كوليا يثرثر بصوت يبعث على الملل دون ان ينظر
الى ابن شقيقته :

— ان ذلك ، يا صاح ، امر لا يمكن اغفاله . فحقا تقول انك
انقذت البنت من الموت ! ولن نستطيع هنا يا اخ التغاضى عن
ضرورة ايجاد خطباء . أليس ذلك حقا يا مارينا ؟

— يالك من انسان ! لقد اصابنى الرعب حقا !

وسأل اوليج زوجة خاله الشابة :

— أليست حقا جميلة ؟ انها اعجوبة . . . يا لجمالها الرائع !

وسألته زوجة خاله وهى ترميه بعينيها السوداوين :

— ولينوتشكا ؟ آه منك انت يا اوليج .

وكانت الخالة مارينا من اولئك الخالات الحسناوات اللواتى
شابهن نسوة الصور الشعبية ترتدى بلوزة اوكرانية مطرزة
عقدا ، قمحية البشرة بيضاء الاسنان ، غزيرة الشعر منفوشته ،
م يعقها الاستعداد المفاجئ للرحيل عن التجمل .

وكانت تحمل بين يديها طفلا بدينا يناهز عمره ثلاثة اعوام ،
رحا محبا للحياة بشكل غير عادى يثيره كل ما حوله ، وكل ما
قع عليه عيناه دون ان يراوده الشك ازاء ذلك العالم الرهيب
ذى يحيط به اليوم .

— كلا . . . فلتسمعونى . . . ان لينوتشكا خليقة حقا بان
كون زوجة لاوليج . اما هذه وان كانت جميلة ، فانها لن تحبه
ى حال من الاحوال حيث انه ما يزال بعد صبيا بينما هى فتاة
اية فتاة !

هذا ما قالته الخالة مارينا بلهجة سريعة فى حين راحت تجول
نظر بعينيها السوداوين فى قلق الى ما حولها ، والى السماء من
ن لآخر ، ثم استطردت تقول بنفس اللهجة التى تنم عن خوف :

— ان النسوة الحسنات يحببن الصبية صغار السن ، بيد ان
تاة الصغيرة لا تحب الفتى الذى يصغرها ، واقول ذلك استنادا
تجربتى الخاصة .

وكانت لينا بوزدنيشيفا فتاة تدرس مع اوليج فى صف واحد ،
ادقها واحبها وكرس لها صفحات باكملها من مذكراته اليومية ،

لكنها لم تبارح كراسنودون . اوربما يكون اوليج قد اخطأ فى حقها
بالفعل حين اعلن اعجابه باوليا ؟ وماذا فى ذلك ؟ ان لينوتشكا
سوف تظل الى الابد فى اعماق روحه ولن تكون قادرة على مبارحتها ،
اما اوليا . . . ورآها ماثلة ثانية امامه ، وكذلك الحصانين ، كما
واحس بانفاس الحصان الايسر التى تناهت اليه . وهل من الممكن
ان تكون مارينا محقة بعد كل ذلك ، اى انه يكون من المحتمل الا
تحبه هذه الفتاة لانه ما يزال بعد صبيا . . . لقد كان سريع
الوقوع فى الحب ، وكان يعرف بالفعل ذلك .

واستمرت المركبتان تناوران فترة طويلة عبر البرارى فى
محاولة لتجاوز القول ، بيد انه كانت هناك ايضا المئات والالوف
من البشر الذين كانوا يسعون نحو الامام ، حيث انساب تيار
الناس والسيارات والعربات فى كل مكان اينما يقع البصر .

وتدريجيا راح طيفا اوليا ولينوتشكا يفارقان مخيلة اوليج ،
يحجب كل شىء ذلك التيار الجارف من البشر حيث راحت كقاربين
صغيرين فى عرض المحيط ، تتمايل المركبة التى يجرها الحصان
الاصهب والاخرى التى يجرها الحصانان كماتيا اللون .

وانبسطت البرارى لا حد ولا نهاية لها حتى كافة ارجاء الارض
قاطبة ، وارتفع دخان الحرائق كثيفا يحجب الافق ، ولم يكن هناك
بعيدا بعيدا ، فى الشرق ، سوى سحب بيضاء صافية للغاية تهيم
عالية فى السماء الزرقاء . كما انه لم يكن ثمة ما يثير الدهشة اذا
ما انطلقت من هذه السحب ملائكة بيضاء بمزاميرها الفضية .

وهنا تذكر اوليج امه بيديها الحنونتين الرقيقتين . .

« . . . اماه . . . يا اماه ! اننى اذكر يديك منذ تلك اللحظة
التى وعيت فيها الى نفسى فى هذا العالم . اذكرهما برونزيتى اللون
دائما حيث كانت الشمس تلفحهما صيفا ، لتظل آثارها ثابتة حتى
شتاء ، رقيقة متسقة الا عروقهما التى كانت تبدو داكنة اللون
قليلا . اوربما كانت يداك خشنتين قليلا . . . فكم من الجهد
بذلتا فى هذه الحياة ! ومع ذلك فقد كنت اراهما دائما رقيقتين
احب تقبيلهما ولا سيما اوردتهما الداكنة اللون .

نعم . . . اننى منذ اللحظة التى وعيت فيها الى نفسى وحتى
اللحظة الاخيرة ، حين كنت منهكة القوى ، ورحت فى هدوء تضعين

رأسك على صدرى تودعيننى الى طريق الحياة العصيب . . . اذكر دائما يديك لا تكفان عن العمل . اننى اذكرهما غارقتين فى رغاوى الصابون تغسلان ملاءات سريرى يوم كانت اشبه بالاقمطة . . . اذكرك فى معطفك الفرائى تحملين شتاء العصا على كتفك وقد تدلى منها دلوان ، وبدت يدك الصغيرة فى قفازها على مقدمة العصا ، بينما رحت انت نفسك تبدوين صغيرة موبرة مثل القفاز . اننى ارى اصابعك ذات العقل الكبيرة بعض الشىء تستند الى كتاب تعليم الهجاء بينما اردد وراءك «ب . . . باء ، باء ، باء» . اننى ارى يدك القوية تغمد المنجل فى اسفل سيقان الحبوب بينما الاخرى تضغطها عليه مباشرة . . . ارى ومضة المنجل السريعة التى تحولت فيما بعد الى حركة متسقة . . . ارى حركة اليدين والمنجل التى تنضح انوثة تثنى السنابل على نحو لا تتكسر معه السيقان .

انى اذكر يديك اللتين لا تلينان ، الحمراوين المتجعدتين من برودة المياه وسط الجليد حين كنت تغسلين الثياب ايام كنا نعيش وحدنا – وحدنا على ما يبدو فى كل هذا العالم . . . اذكر يديك حين كانتا تنتزعان بقية شوكة انغرزت فى اصبع الابن ، وحين كانتا تلضمان الابرة فى لمح البصر ، ساعة كنت تحيكين الملابس وتترنمين بالغناء – لنفسك ولى فقط . فلم يكن ثمة شىء فى هذا العالم لا تستطيعانه يداك ، او تعجزان عن اتيانه . لقد شاهدت كيف كانتا تخلطان الطين بروث البهائم لطلاء المنزل ، كما شاهدت يدك تبدو من تحت المخمل والخاتم فى اصبعك حين كنت ترفعين كوب الخمر المولدافى الاحمر . وكم كانت رقة ذراعك البض الابيض فيما اعلى المرفق حين كنت تحيطين به جيد زوجك الذى رفعك بين يديه مزاحا – زوجك الثانى الذى علمته ان يحبنى والذى اوقرته كابى لقاء شىء واحد – هو انك كنت تحبينه !

بيد اننى اذكر اكثر من اى شىء والى ابد الآبدين كيف كانت يداك الخشنتان بعض الشىء ، والدافئتان الحنونتان تمسحان شعرى وعنقى وصدرى ، حين كنت ارقد فى فراشى شبه واع . وقد كنت تقفين دائما اراك متى فتحت عينى تنظرين الىّ وقد غارت عيناك فى الظلمة الحالكة هادئة ناصعة كمن يلبس رداء القداس ،

بينما القنديل يبعث باشعته الوجلة بالغرفة . اننى اقبل يديك الطاهرتين المقدستين !

لقـــد شيعت اولادك الى الحرب ، ولو لم تفعلى انت ذلك ، لفعلته اخرى مثلك ، حيث يمكن ان لا يعود بعضهم ، واذا كان مثل هذا القدر قد تجاوزك فانه لم يتجاوز الاخرى التى لا تتميز عنك بشىء . لكن اذا ما كان الناس يملكون فى ايام الحرب كسرة خبز ، او ما يكسو اجسادهم ، واذا ما كانت اكوام المحاصيـــل تنتصب فى الحقول واذا ما كانت القطارات تنزلق على القضبـــان وتزدهر اشجار الكرز فى الحدائق وتشتعل النيران فى الافران ، وثمة قوة خفيـــة ترفع المقاتل من الارض او الفراش حين يكون جريحا او مريضا ، يكون كل ذلك نتيجة ما بذلته يدا امى ، وامك والامهات قاطبة .

فلتنتظر انت كذلك ايها الشاب ، فلتنتظر يا صديقى مثلمـــا انظر ، ولتعترف من ذا الذى اسات اليه فى حياتك اكثر مما اسات الى امك . الست انا وانت وهو ، اليست اخفاقاتنـــا واخطاؤنا وكوارثنا هى التى اشعلت الشيب فى رؤوس امهاتنا ؟ انه لسوف تحين اللحظة التى يتجلى فيها كل ذلك آلاما نفسيـــة مبرحة تلم بالمرء الى جوار قبر الام .

اماه . . . يا اماه ! فلتصفحى عنى ، لانك انت الوحيدة فى هذا العالم قادرة على الصفح . فلتضعى يدك على راسى ، كما فى سنى طفولتى ، ولتصفحى عنى . . .»

لقد تزاحمت هذه الافكار والمشاعر فى نفس اوليج . فلم يكن قادرا على نسيان ان امه بقيت «هناك» ، وان جدته فيرا «رفيقة ايام المحن العصيبة» والتى كانت ايضا اما ، اما لامه وللخـــال كوليا ، بقيت هى كذلك «هناك» .

وعلت وجه اوليج امارات الجد ، وبدا جامدا تغطى اهدابـــه الذهبية الداكنة غشاوة رطبة . لقد كان يجلس محدودب الظهر يدلى ساقيه يمسك المركبة باصابعه القوية الطويلة بينما استقرت التجاعيد على جبهته .

وقد خيم الهدوء على الخال كوليا ومارينا وحتى على ابنهمـــا الصغير ، كما خيم على المركبة التى كانت تتبعهم . وادرك التعب

الحصان الاصهب والحصانين كماتيى اللون فى هذا الحشد وتحت اشعة الشمس الحارة وشقت المركبتان طريقهما حتى وصلتا الطريق حيث خضم البشر والعربات والمركبات .

ومهما راح الناس فى خضم تيار الكارثة البشرية الهائل يمارسون من عمل او يتبادلون حديثا ، او يفكرون فى شىء ، ومهما تبادلوا النكات ، او غلبهم نعاس ، سواء كانوا يطعمون الاطفال ، او يتعارفون ، او يسقون خيولهم من الآبار التى ندرت مصادفتها ، فقد كان كل ذلك يجرى فى اطار ظل معتم يداهمهم من الخلف بعد ان بسط اجنحته فى اماكن ما من الشمال والجنوب ، وينتشر على البرارى على نحو اسرع كثيرا من هذا التيار .

وقد راح قلب كل امرىء من النازحين يئن تحت وطأة المشاعر التى اجتاحته ازاء رحيله الاضطرارى عن ارضه الحبيبة وعن ذويه ، ازاء رحيله نحو المجهول ، وازاء احتمال ان تلحق به وتدهمه تلك القوة التى دفعت هذا الظل الاسود .

الفصل السادس

بين رتل العربات والنازحين التى كانت تتحرك على جانب الطريق وحيث ظهرت المركبتان ، راحت تتهاوى عربة النقل التابعة للمنجم رقم ١ التى استقلها الى جانب جماعة العاملين ومنقولات ادارة المنجم فالكو مدير المنجم وجريجورى ايليتش شيفتسوف الذى ودعته اوليا منذ عدة ساعات فقط عند سور منزله .

وفى نفس الآن كان ياخذ طريقه «ملجا الاطفال» الخاص بايتام الذين شاركوا فى الحرب الوطنية والذين كانوا يعيشون قبل ذلك فى حى «فوسميدوميكى» — بالاولاد والبنات الذين تناهز اعمارهم من خمسة الى ثمانية اعوام ترافقهم فتاتان — حاضنتان ، والمشرفة على الملجا — المربية التى تقدم عمرها ، ذات عينين ثاقبتين غائبتين ، تغطى رأسها بمنديل احمر عقدته مثل الحاصدات ، وتحتذى فوق جوربها النسائى الخفيف مباشرة حذاء مطاطيا علاه الغبار .

وكانت ترافق «ملجا الاطفال» بعض المركبات تحمل متاعه الذى كان يعتليه على التوالى اولئك الاطفال الذين كان يعتريهم الانهاك .

ومنذ تلك اللحظة التى ادركت فيه عربة المنجم رقم ١ ملجا الاطفال ، راح ركابها يبارحونها ليحتل الاطفال اماكنهم فيها . وقد اعجبت جريجورى ايليتش صبية شقراء زرقاء العينين تعلو وجهها امارات رصانة ، ويعلق خداها عن بدانة جعلته يسميها «البالونة»، لدرجة انه راح طوال الطريق تقريبا يحملها بين ذراعيه يقبل يديها وخديها المنتفخين ، يبادلها الحديث . وقد كان جريجورى ايليتش شانه شان تلك الصبية ازرق العينين ، اشقر .

وعلى الطريق خلف مركب عربات ملجا الاطفال الذى انضمت اليه المركبتان كانت تتحرك رتلا طويلا احدى الوحدات العسكرية بمطابخها الميدانية ورشاشاتها ومدفعيتها . وقد كان يمكن لاى عسكرى محنك ان يدرك على الفور ان الوحدة مزودة على نحو جيد بالمدافع والاسلحة المضادة للدبابات . كما وكانت مدافع الهاون للحرس تتهاوى غريبة الشكل تحت سماء الدونيتس . فلم تكن تبدو على البعد العربات التى استقرت فوقها هذه المدافع ، حيث خيل ان هذه المنشآت غريبة الشكل تنساب من تلقاء نفسها فوق هذا الحشد الجماهيرى من العسكريين والمدنيين الذى امتد كثيرا من الكيلومترات .

وقد اعلن الغبار الكثيف الذى علا احذية المقاتلين والقادة لتغدو بلون الصدأ عن ان الوحدة تقطع طريقا اتصل لعدة ايام . وقد تصدر افراد سرية الرشاشات الرتل خلف المركبتين مباشرة ، يتجاوزونهما حين تمهل السير . كانوا يسيرون وقد كست الحمرة وجوههم لتغدو بلون القرميد الساخن ، يحملون على صدورهم كما الصغار ، رشاشاتهم يسندونها بيد واحدة ادركها التعب ، واحيانا تشدها الضمادات .

وسرعان ما حتمت الظروف العفوية ان تغدو المركبة التى استقلتها اوليا كما لو كانت من متاع سرية الرشاشات ، جزءا من السرية نفسها . فقد كانت دائما فى الحل والترحال فى وسط السرية ، فاينما جالت اوليا بناظريها ، كانتا يلتقيان بنظرات يوجهها اليها فى حياء واحيانا فى جسارة المقاتلون الشبان فى تلك

الاحذية واغطية الرؤوس التى علاها الغبار ، وستراتهم العسكرية التى بللها العرق مرارا لتجف ثم تبتل من جديد ، تحمل آثار الاوحال والرمال والمستنقعات والملاحات واشجار الصنوبر وتشهد على تعرضهم لسيول الامطار ولحرارة الشمس الحارقة .

وعلى الرغم من ان المقاتلين كانوا يعانون محنة الانسحاب ، فقد كانوا ، كعادتهم فى حضرة الفتيات ، فى مزاج مرح لعوب . وشان اية سرية فى حلها وترحالها كان يوجد بها معبودها الذى يجيد المزاح . وقد راح يصيح مناديا والد فيكتور حين كان يحاول الاستفادة من ادنى فرصة للتقدم نحو الامام وهو يحث جواديه السير :

— الى اين . . كيف لك ذلك دون امر ؟ لا . . لا يا عزيزى ، فلن نسمح لكم بعد الآن ان تتقدمون دوننا . لقد سجلناكم الى الابد معنا . لقد سجلناكم على قوتنا ، ولكم كل مستلزماتكم من صابون وملابس وغذاء . اما الفتاة . . فليحفظ الرب جمالها . اننا سوف نقدم لها كل صباح القهوة . . سكر زيادة !

وراح رماة الرشاشات يضحكون وهم ينظرون من آن لآخر نحو اوليا فى مرح :

— بلا ادنى شك يا كايوتكين !

— وماذا فى ذلك ؟ اننا سوف نتحقق من ذلك فور الساعة . ايها الرفيق الرقيب ! فيديا ! هل تتصورون انه نائم ؟ فلتنظروا اليه ايها الاخوة . . انه ينام فى سيره . . . يا رقيب ! لقد فقد اتزانه .

— وانت الم تفقد عقلك ؟

— لقد فقدت العقل الغبى ، وقد ظهر بالصدفة فى راسك ، بينما احتفظت لنفسى بالذكى .

واذ امسك كايوتكين فى حرص براسه الصغير — احدى يديه على ذقنه بينما الاخرى على قذاله اسفل طاقيته التى مالت نحو احد حاجبيه فى غير اكتراث — وجحظ بعينيه ، راح يدور براسه كما لو كان يفك رقبته . وقد كان تمثيل منظر انفصال الراس عن الجسد جيدا لدرجة ان كل السرية ومن جاورها انفجروا ضاحكين . ولم تتمالك اوليا كذلك نفسها فانفجرت ضاحكة لتبدو ضحكتها

طفولية ذات رنين لتساورها امارات الاضطراب . وطفق رماة الرشاشات يرنون نحوها بسرور حيث كانوا يعلمون ان كايوتكين يفعل ذلك من اجلها .

لقد كان هذا الكايوتكين المرح انسانا نحيف الجسد ، الا انه كان يتسم بالمهارة الشديدة فى كل حركة ياتيها . وكانت الغضون الدقيقة تكسو وجهه الذى كان يعبر عن حركة دائمة مما كان يصعب معه تحديد سنه ، اذ كان يمكن ان يتعدى الثلاثين ، ويمكن الا يتجاوز العشرين الا قليلا . كما كان قوامه وحركاته تعكسان كونه ما يزال صبيا بعد . كانت عيناه كبيرتين زرقاوين تحيط بهما شبكة من التجاعيد الدقيقة ، تعكسان فور يلتزم الصمت انهاكا مزمنا ينبع من اعماقه . بيد انه كان يود على ما يبدو الا يلمح من حوله ذلك ، ولذا فقد كان لا يكف عن الكلام . وتوجه نحو رفاق اوليا يسالهم :

— من اين انتم قادمون ايها الشباب ؟

واجاب على سؤاله :

— انكم من كراسنودون . ولنقل ان الفتاة شقيقة احدكما . اليس كذلك ؟ او ... ومعذرة يا والدى ... فلربما تكون ابنتك ؟ . . ماذا يحدث ؟ ان الفتاة حرة طليقة ، ليست ابنة او شقيقة او زوجة احد . وسوف يقومون فى كامينسك بتجنيدها بالتاكيد . سوف يجندونها فى تنظيم الحركة عندما تزدحم وتغص الطرق — وهنا اشار كايوتكين بايماءة نحو كل ما يجرى بالطريق وفى البرارى . — او ليس من الافضل ان تنضم الينا بسرية الرشاشات ! اقسم لكما ايها الاخوان انكما سرعان ما تصلان الى روسيا ، وسوف تجدانها عامرة بالصبايا ، بينما ليست هناك واحدة قط فى سريتنا ونحن فى امس الحاجة الى مثل هذه الفتاة كى تغرس فينا ملكة الحديث والسلوك القويم .

— ان ذلك امر يتوقف عليها وحدها .

هذا ما اجابه اناتولى وقد ندت عنه ابتسامة بينما طفق يرنو فى ارتباك نحو اوليا التى كانت تضحك رغم محاولاتها الامساك عن ذلك ، وتنظر جانبا كى لا يلتقى ناظراها بناظرى كايوتكين الذى صاح قائلا :

— ان كان الامر كذلك فنحن قادرون على اقناعها ! اننا سوف نوكل ذلك الى شباب من سريتنا قادرين على اقناع اية فتاة !

وفجاة راودت خاطر اوليا فكرة انقبض معها قلبها . . «واى شيء يمكن ان يحدث ان ذهبت معهم . . . ان قفزت من المركبة . . . وذهبت ؟!»

ولم يغض اوليج كوشيفوى الطرف عن كايوتكين كمن اسره سحره ، بينما راح يواصل مسيرته الى جوار المركبة . لقد اغرم به وود لو ان الجميع كانوا كذلك . فلم يكن كايوتكين يكاد يفتح فاه حتى ينفجر اوليج ضاحكا ملقيا براسه الى الوراء بحيث تبدو اسنانه كلها . لقد راح يفرك يديه من فرط اعجابه بكايوتكين بيد ان الاخير لم يكن يشعر بذلك ، بل ولم ينظر اليه مرة واحدة ، كما لم ينظر كذلك نحو اوليا او نحو كل هؤلاء الذين راح يرفه عنهم .

وفى احدى تلك اللحظات ، حين تفوه كايوتكين باحدى الكلمات التى تنم عن تهور مما اثار ضحك المقاتلين ، لحقت بالسرية عربة برمائية كانت تقطع البرارى تغطيها الاتربة الكثيفة .

— انتباه ! . .

صدر هذا الامر عن النقيب طويل الرقبة معروقها الذى ظهر من اعماق السرية وهو يضع يده على جراب مسدسه المتارجح ، يسرع الخطى بساقيه النحيفتين نحو العربة البرمائية التى توقفت الى جوارهم ، ومن حيث اطل جنرال بدين يضع كابا جديدا على راسه المستدير الضخم ، معلقا على ذلك بقوله :

— لا داع . . . لا داع . . . استرح !

وغادر العربة ، ليشد على يد النقيب التى ادى بها التحية ، بينما راح يجول بسرعة فى رماة الرشاشات الذين كانوا يسيرون فى الغبار بعينيه الصغيرتين اللتين تلألأتا بوجهه البسيط الذى ينم عن صرامة . وقال فى دهشة واضحة :

— يا للمصادفة . . رجالنا من كورسك ! . . وكايوتكين !

واذ اشار الجنرال بيده الى عربته البرمائية حتى تتبعه بالبرارى ، راح يسير الى جوار رماة الرشاشة فى خطوات رشيقة لا تتناسب مع بدانته ، واستطرد يقول فى مرح بينما يوجه نظراته

نحو كايوتكين ، وان كان حديثه موجها نحو المقاتلين الذين تدافعوا نحوه اثناء السير :

— كايوتكين . . . هذا عظيم . . . فلئن ما يزال كايوتكين على قيد الحياة فان ذلك يعنى ان روح القوات لا تقهر .

— مستعد دوما لخدمة الوطن !

قالها كايوتكين بلهجة تنم عن جدية شديدة ، وليس بتلك التى كان يتحدث بها قبل ذلك وتنم عن مزاح ومزاج رائع مصطنع .

وسال الجنرال قائد السرية الذى يسير الى جواره ، متاخرا عنه بعض الشيء :

— ايها الرفيق النقيب . هل يعلم المقاتلون الى اين نحن متجهون ولماذا ؟

— يعلمون ايها الرفيق الجنرال !

— لقد اظهروا براعتهم آنذاك عند محطة المياه . . هل تذكرون ؟

ورمى المقاتلين المتزاحمين من حوله بنظرة ليستطرد قائلا :

— والاهم من كل ذلك انكم حافظتم على حياتكم . . . وتلك هى القضية !

وقد قال ذلك كما لو كان ثمة من يعارضه — فليس صعبا على المرء ان يفقد حياته .

وكان الجميع يعرفون ان الجنرال لا يغدق المديح بشان الماضى بقدر ما يفعل ذلك فى سبيل تهنئتهم للمستقبل . وفارقت البسمة افواه الجميع ، لتحل محلها سمة مشتركة ذات معنى .

وقال الجنرال :

— انكم مقاتلون فى مقتبل العمر . . فهل تعلمون اية خبرات تملكون ؟ وهل يمكن على سبيل المثال المقارنة بما كان عليه الامر يوم كنت فتيا ؟ لقد مضى ذلك العهد حين قطعت ذلك الطريق . غير ان العدو كان غير عدو اليوم ، والاسلحة كذلك ! ولئن قورنتم بتلك المدرسة التى تخرجت منها ، لوجدتم انفسكم من خريجى الجامعات . .

واوما الجنرال براسه الكبير على نحو يوحى بانه متردد بين

فكرة يود تارة تاكيدها ، وتارة طردها بعيدا . وقد تجلى ذلك فى امارات سخط فى بعض الحالات ، وامارات رضا فى حالات اخرى . ومن المؤكد انه كان يشعر بالارتياح ازاء تذكره ايام صباه ، واسعده منظر رماة الرشاشات فى هيئتهم القتالية التى تعودوا عليها .

وتوجه كايوتكين يسال الجنرال :

– فلتسمحوا لى . . هل ذهب العدو بعيدا ؟

واجابه الجنرال :

– اجل . .

– وهل سوف يستمر الى ما هو ابعد من ذلك ؟

والتزم الجنرال الصمت قليلا ، بينما هو ما يزال يواصل السير .

– ان ذلك يتوقف علينا سويا . لقد راح يشحذ قواه منذ انزلنا به الضربة شتاء . كما جمع العتاد من كل انحاء اوروبا ووجه ضربته نحونا فى مكان واحد . وكان يظننا لن نصمد . كما وانه لا يملك احتياطيات . . وتلك هى القضية !

ووقع نظر الجنرال على المركبة التى كانت تسير بالامام ، ليتعرف فجاة فيما بين راكبيها على تلك الفتاة الوحيدة بالطريق ، والتى حلقت فوقها القاذفات الالمانية . وقد تخيل فيما بين نفسه كل ما كان يمكن ان يطرأ على مصير وروح تلك الفتاة خلال تلك الفترة التى استطاع فيها مستقلا عربته البرمائية تفقد النسق الثانى للفرقة واللحاق بوحدات المقدمة التى تجاوزت كراسنودون. وعلت وجهه امارات لا تنم عن اشفاق صريح بل قلق غامض ، ليعلن عن رحيله سريعا :

– اتمنى لكم التوفيق !

واذ اشار بيده الى العربة البرمائية كى تتوقف ، تقدم سريعا نحوها بتلك الخطوة الخفيفة التى تغرب على بدانته .

وقد كانت تتسم بالجدية كل ايماءات كايوتكين وكل الاسئلة التى وجهها رماة الرشاشات الى الجنرال طوال فترة تواجده بينهم . اذ انه كما يبدو لم يكن يعتقد ضروريا اظهار امام الجنرال تلك السمات التى ميزته بين المقاتلين وجعلته محبوبهم . لكن ما ان

توارت العربة البرمائية عن الانظار حتى عادت الى كايوتكين من جديد حيويته ومرحه المزاحى .

وظهر من بين صفوف القافلة الخلفية جندى مشاة ضخم القامة ذو يدين كبيرتين سوداوين كالمقلاتين ، يلهث ممسكا فى يده بادوات ثقيلة ملفوفة فى خرقة مشبعة بالزيوت ، يسأل :

– ايها الرفاق ! لقد قيل لى ان سيارة المنجم تسير هنا . . . فاين هى ؟ واجابه كايوتكين مازحا وهو يشير الى عربة النقل الغاصة بالاطفال :

– ها هى . . . لكنها واقفة لا تسير !

وكانت القافلة متوقفة حقا لتعطل الحركة فى الامام .

وذكر المقاتل وهو يتقدم نحو فالكو وجريجورى ايليتش الذى انزل عن ركبتيه الفتاة الشقراء الى الارض فى حرص :

– معذرة ايها الرفاق . . . اننى اود اعطائكم ادوات ، فانتم رجال عمل وسوف تفيدكم بينما هى بالنسبة لى عبء ثقيل لا حاجة لى به بالطريق .

وراح يفك امامهم الخرقة المشبعة بالزيت .

ومال فالكو وجريجورى ايليتش يرقبان عمله ، الذى ما ان فرغ منه حتى صاح مزهوا :

– هل تريان ؟

وعرض عليهما طقم من ادوات البرادة الجديدة فى تلك الخرقة التى بسطها على يديه الكبيرتين .

وساله فالكو ، محدقا فيه بعينيه السوداوين ، كعينى غجرى ، من تحت حاجبيه الكثين فى غير مودة :

– لست افهمك . . . هل تود بيعها ؟

وعلت الحمرة وجه المقاتل الذى كان دون ذلك احمر كما القرميد ، لدرجة جعلته يتصبب عرقا . واجابه قائلا :

– كيف استطاع تفكيرك ان يبلغ بك الى هذا الحد ؟ لقد وجدتها بالبرارى ، ملفوفة فى هذه الخرقة . لا بد ان تكون قد ضاعت من احد .

وابتسم فالكو ساخرا :

– اوربما يكون قد القى بها حتى يتيسر له الفرار !

وذكر المقاتل فى برود ، متحولا بحديثه نحو جريجورى ايليتش:
— ان رجل العمل لا يلقى بادوات عمله . لقد فقدها .
— شكرا . . . شكرا ، يا صديق . .
قالها جريجورى ايليتش وراح يساعد المقاتل فى عجل فى اعادة الادوات الى الصرة . وبادله المقاتل القول وقد داخله بعض المرح :
— لقد كان حسنا ان وجدت صاحبها فهى جيدة ، ومن الخسارة ضياعها . انكم تستقلون عربة ، بينما اقطع طريقى مترجلا وحمل ثقيل . تمنياتى بالتوفيق !
واذ صافح المقاتل جريجورى ايليتش وحده عاد مهرولا نحو قافلته التى سرعان ما اختفى فى خضمها .
وراح فالكو يقتفى بنظره اثره بعض الوقت فى صمت ، بينما اتسمت قسمات وجهه بامارات استحسان بالغ . ثم نطق بصوت اجش :
— يا له من انسان حقيقى !
وقد كان جريجورى ايليتش الذى امسك بالادوات فى احدى يديه بينما راح يرتب بالاخرى شعر الفتاة الشقراء ، كان يدرك ان تحفظ المدير ازاء المقاتل لم يكن نتيجة طباع جافة . اذ انه من المؤكد ان يكون قد اعتاد خداع البعض له ، كمدير لمنجم يعمل به الآلاف ، وينتج يوميا الوف الاطنان من الفحم . اما الآن فقد نسف المدير بنفسه ذلك المنجم ، ليرحل بعض عماله ، بينما بقى البعض الآخر يواجه الموت . ولقد راح جريجورى ايليتش يتامل لاول مرة مدى الحزن الذى خيم على نفس المدير .
وعند المساء راح يتعالى الى الاسماع دوى قصف المدفعية .
ولقد غدا هذا القصف مسموعا على نحو اشد ليلا ، لدرجة غدا ممكنا معها تمييز اصوات طلقات الرشاشات . وفى منطقة كامينسك ، كانت تظهر طوال الليل ومضات قصف النيران ، التى كانت تبلغ قوتها فى بعض الاحيان درجة اضاءة القافلة باكملها . وراح لهيب الحرائق يصبغ السماء هنا وهناك باللون الخمرى القانى ، كما بدت قمم التلال وسط البرارى المعتمة تغمرها اطياف ضوء احمر قاتم .

وتحدث والد فيكتور الذى ظل جالسا فى صمت بالمركبة يدخن لفائفه التى انبعثت اشعتها تضىء فى الظلمة وجهه المكتنز ، يقول :
— هذه . . . هى المقابر المشتركة . . . انها ليست بالمقابر القديمة جدا ، انها مقابر ابناء جيلنا . — واستطرد يقول بصوت خافت — لقد وصلنا الى هنا تحت امرة بارخومينكو بل وتحت امرة فوروشيلوف نفسه . . وواربنا اشقاءنا التراب .
وراح اناتولى وفيكتور واوليج واوليا ينظرون الى التلال الغارقة فى خضم هالة النيران .
— حقا . . . كم من الموضوعات الانشائية كتبنا فى المدرسة عن تلك الحرب ، وكم كنا نحلم بالنضال ، ونحسد آباءنا عليه . وها هى تحل بنا كما لو كان عن عمد ، حتى نعلم حقيقة انفسنا . . هذا بينما نحن راحلون !
هذا ما علق به اوليج ، وتنهد .
واثناء الليل طرات بعض التغيرات على ترتيب القافلة . اذ توقفت سيارات ومركبات المؤسسات والمدنيين ورتل النازحين ، لاخلاء الطريق امام الوحدات العسكرية كما قيل . وجاء دور سرية رماة الرشاشات التى راحت تعيد تنظيم صفوفها تحت جنح الظلام تتعالى خافتة اصوات اسلحتها ، ولتتحرك فى اثرها كل الوحدة . وتزاحمت العربات جانبا تزار محركاتها ، كى تفسح الطريق امامها. وراحت اضواء السجائر تغالب الظلمة لتبدو كما النجوم فى اعالى السماء .
ولمس احد السائرين مرفق اوليا ، لتلتفت نحوه ، فاذا به كايوتكين يقف الى جوار المركبة المواجهة لتلك التى يستقلها والد فيكتور ، وحيث وقف الصبيان وهمس اليها بصوت يسمع بالكاد :
— هل استاذنك دقيقة واحدة ؟
وكان صوته ينم عن شىء ما جعلها تهبط اليه ، وليبتعدا سويا بعض الشىء وذكر كايوتكين فى هدوء :
— معذرة للازعاج . لا يجب عليك الرحيل الى كامينسك ، اذ انها وشيكة الوقوع فى حوزة الالمان ، بينما اجتازوا الدونيتس حيث توغلوا بعيدا على الشاطئ الآخر . وارجو الا تخبرى احدا بما ذكرته لك . فلست املك الحق فى ذلك . انكم من ذوينا ،

ويؤسفني ان تهلكوا دونما داع . يجب عليكم التوجه نحو الجنوب ونأمل من الله ان يسعفكم الوقت لذلك .

وقد كان كايوتكين يتحدث مع اوليا فى حذر شديد كمن يمسك بالنار بين يديه ، بينما كانت الظلمة تحجب وجهه بعض الشيء ليبدو صارما يوحي بالطيبة فى آن واحد ، تتألق عيناه دون ان تعلن عن اية امارات ارهاق .

ولم تترك كلمات كايوتكين اثرا على اوليا بمقدار ما اثرت فيها الطريقة التى تحدث بها اليها ، وراحت تنظر اليه فى صمت .

وتوجه كايوتكين يسالها بصوت خافت :

– ما اسمك ؟

– اوليانا جروموفا .

– اليست معك صورة تهديننى اياها ؟

– كلا .

واعاد كايوتكين ما ذكرته فى حزن : – كلا . . .

وتملك اوليا على حين غرة شعور بالشفقة تجاهه ، وفى ذات الوقت رغبة فى المشاكسة ، جعلتها تميل نحوه قريبا ، تهمس اليه :

– ليست لدى صورة ، لكنك اذا ما امعنت النظر جيدا . . . جيدا الىّ – والتزمت الصمت وراحت تحدق فى عينيه بعض الوقت ، ممعنة بناظريها السوداوين ثم استطردت تقول – فلن تنسانى . . .

ووقف لا يحرك ساكنا ، سوى ان راحت عيناه الكبيرتان تلمعان فى الظلام على نحو حزين . وهمس بصوت يسمع بالكاد :

– نعم . . . اننى لن انساك ، لانه لا يمكن نسيانك ! وداعا !

وانطلق يقرقع حذائه العسكرى الطويل ، ليلحق بوحدته التى راحت الظلمة شيئا فشيئا تلفها واضواء سجائرها .

وراحت اوليا تمعن الفكر فى امكانية البوح بما اسر اليها به ، وان كان على ما يبدو خبرا ليس مقصورا عليه وحده ، بل وتنامى الى علم القافلة كلها .

اذ انها وحين اقتربت من المركبة ، شاهدت كثيرا من

السيارات والمركبات تحيد عن الطريق نحو البرارى الى الجنوب الشرقى . وفى ذات الاتجاه انطلقت تسير جموع النازحين .

وتعالى صوت فالكو الاجش يقول :

– يتحتم علينا التوجه نحو ليخايا .

وساله ابو فيكتور عن شيء ما ، ليرد عليه بقوله :

– ولم نفترق ، فلنتحرك سوية ما دامت الاقدار قد جمعتنا .

وادركهم الفجر فى البرارى . وكم كان رائع المنظر فى البرارى ! فقد خيمت السماء الصافية فوق الحقول البكر الشاسعة وغطت اعماق الوديان الاعشاب الخضراء الناصعة ، تتلألأ فوقها قطرات الندى الفضية تعكس اشعة الشمس الرقيقة التى انزلقت تواجه البشر بطول الوديان . بيد ان اوجه الاطفال المرهقين الذين اضناهم النوم ، والكبار التى تنم عن كآبة وحزن وقلق دفين بدت اكثر عبوسا وتجهما تحت وقع اشعة هذا الصباح الباكر .

وشاهدت اوليا مديرة ملجأ الاطفال . فى حذائها المطاطى الطويل الذى علاه الغبار واحتذته على جوربها النسائى الخفيف مباشرة . كانت امارات الارهاق والجهامة تكسو وجهها ، اذ قطعت الطريق كله سيرا على الاقدام ، ولم تستقر على احدى المركبات الا فى الليلة الماضية . ويبدو ان شمس الدونيتس قد جففت وجهها واحرقته تماما . كما يبدو انه لم يغمض لها جفن حتى فى الليلة الماضية ، وراحت دون ان تنبس ببنت شفة تمارس عملها بصورة تلقائية ، تعكس عيناها الثاقبتان الساهمتان امارات غريبة لا وجود لها فى هذا العالم .

وراح هدير المحركات يعم الاجواء دونما توقف منذ الصباح الباكر . الا ان الطائرات لم تكن بادية للعيان ، ولم تكن هناك سوى اصوات انفجارات تدوى فى مكان ما على اليسار تهز ارجاء الجو ، واصوات الرشاشات تطلق نيرانها عالية نحو السماء فى بعض الاحيان .

وهناك ، بعيدا فوق الدونيتس وكامينسك دارت المعارك الجوية التى لم تكن فى مرمى النظر ، وان كانت اصداؤها قد بلغت الاسماع . مرة واحدة فقط هى التى تيسر فيها للنازحين رؤية قاذفة المانية تحلق على ارتفاع منخفض بعد ان افرغت حمولتها .

وفجأة قفز اوليج من على مركبته وانتظر حتى لحقت به المركبة الاخرى ، ليسير الى جوارها ممسكا بحافتها وهو ينظر الى الرفاق وقد اغرورقت عيناه بالدموع قائلا والقلق يتخلل نبراته :

— او يمكننا تصور ذلك . . لا ، فلنتصور انه اذا عبر الالمان الدونيتس ، ولئن كان على هذه الوحدة التى قطعت الطريق الى جوارنا التصدى لهم عند كامينسك فان هذا يعنى هلاكها ، هلاك رماة الرشاشات اولئك ، وهذا الفتى الرائع الذى ادخل المرح الى نفوسنا جميعا وذلك الجنرال . . . الهلاك للجميع ! ولقد كانوا جميعا يدركون ذلك ،. كانوا يدركون بينما يسيرون الى جوارنا .

وبلغت فكرة كون كايوتكين قد ودع اوليا قبيل استشهاده اعماق قلبها ، ليهصر الخجل كيانها حين تذكرت ما قالته له . الا ان صوتا صافيا ناداها من الاعماق مؤكدا لها انها لم تذكر لكايوتكين ما يمكن ان يعكر صفوه حين تدنو ساعته .

الفصل السابع

كان النازحون يواصلون اجتياز مدينة كراسنودون ، التى كانت ما تزال اسيرة سحب الغبار الذى غطى ثيابهم وكذلك الازهار واوراق نبات راعى الحمام ، والقرع بطبقة مال لونها الى الاحمرار المشوب بالقذارة .

وبعيدا فيما وراء حديقة المدينة كانت تسمع اصوات عجلات القطار يسير اماما وخلفا ، يحمل من منجم لآخر ما تيسر حمله من المعدات ، يتعالى الى الاسماع ضجيج قاطرته وصفيرها ، وبوق المحولجى . ومن هناك ، من منطقة المزلقان ترامت اصوات بشرية غاضبة ، ودبيب اقدام تثير الاتربة ، وهدير محركات ، وقرقعة عجلات المدافع تجتاز قضبان السكة الحديدية مما يعنى ان ثمة وحدات عسكرية فى طريق الانسحاب . وخلف الاكمات تعالت هنا وهناك اصوات قصف مدفعية تترامى على البعد ، كما لو كان برميل ضخم فارغ يتدحرج خلف تلك التلال فى فضاء البرارى المترامية الاطراف .

وفى الشارع العريض الذى يفضى حتى بوابة الحديقة والى جوار مبنى حجرى من طابقين حيث كانت مؤسسة «فحم كراسنودون» وقفت عربة نقل يحمل اليها الناس رجالا ونساءا بقايا متاع المؤسسة التى فتحت ابوابها على مصاريعها .

كان الجميع يعمل فى هدوء وصمت ومهارة . وعلا الغبار وقطرات العرق اوجههم التى علتها قسمات قلق يشوبه غضب ، واياديهم التى اضناها حمل الصرر والحقائب . وانتحى جانبا ، اسفل احدى نوافذ مبنى المؤسسة شاب وفتاة استغرقا فى حديث ملك كل اهتمامهما ، على نحو فاق بكل تاكيد اهمية عربة النقل تلك ، والناس الذين علت وجوهم الاتربة والعرق ، وكذلك كل ما كان يدور حولهما .

كانت الفتاة ضخمة الجسد بدينة ذات شعر كستنائى وعينين حولاوين بعض الشىء ، داكنتين يتالقان خفيفا ترتدى بلوزة وردية ، وتحتذى حذاء اصفر اللون على قدميها العاريتين . وقد جعلها هذا الحول الخفيف تنظر الى الشاب وهى تدور براسها الصغير المستند الى رقبة بدينة بيضاء .

وكان الشاب فارع القامة محدودب الظهر قليلا يرتدى قميصا ازراره من الجانب على النمط الروسى ، ازرق اللون قصير الكمين لا تتناسبان مع ذراعيه الطويلتين ، يحيط بخصره حزام غير عريض ، وسروالا قصيرا رمادى اللون ذا خطوط بنية ويحتذى شبشبا على قدميه العاريتين . كما كان شعره الطويل الداكن اللون يتمرد عليه ، حين يتحدث فيسقط على جبهته واذنيه مما كان يجعله من آن لآخر يلقى براسه بحدة الى الوراء ليعيده الى مكانه . وكان وجهه ينتمى الى فصيلة الوجوه الشاحبة التى لا تتاثر باشعة الشمس . علاوة على ان الشاب كان خجولا وعلى نحو واضح . بيد ان قسمات وجهه كانت تعكس طابعا مرحا اصيلا وملكة ايحاء كامنة يمكن ان تفصح عن نفسها مما دفع الاضطراب الى نفس الفتاة التى لم تكف عن النظر اليه .

ولم يكونا يعيران اى اهتمام ما اذا كان من حولهما يسمعانهما او ينظران اليهما . بيد ان ثمة من كان يرقبهما .

وبعرض الشارع والى جوار بوابة مبنى نموذجى توقفت عربة

ركوب سوداء من الطراز القديم يعلو عن الارض كثيرا هيكلهـا المصاب برضوض شديدة وقد خدشت بعض اجزائه الى درجة لمعان معدنه وبدا «كجمل الانجيل الذى اضطر الى العبور من ثقب الابرة» ليتسلخ جانباه . وقد كانت السيارة من باكورة صناعة السيارات السوفييتية والتى لم تعد متداولة فى كل مكان وسميت «جازيك» .

نعم ، لقد كانت عربة «جازيك» من تلك التى قطعت آلاف ، وعشرات آلاف الكيلومترات فى برارى الدون وكازخستان ، وفى سهوب تندرا الشمال ، وتسلقت جبال القوقاز وبامير عبر دروب اشبه بدروب الماعز ، وتوغلت فى غابات التايجا فى الطاى وسيخوتيه-الين ، وخدمت العاملين على بناء سد الدنيبر ومصنع الجرارات فى ستالينجراد ومصنع الحديد والصلب فى ماجنيتوجورسك ، ونقلت تشوخنوفسكى ورفاقه الى مطار الشمال لانقاذ بعثة نوبيل ، وزحفت تجابه العواصف والجليد عبر آمور تعاون اوائل بناة كومسومولسك . وقصارى القول لقد كانت عربة «جازيك» من تلك العربات التى حملت عبء الخطة الخمسية الاولى ، والتى تقدم بها العمر لتخلى اماكنها لمثيلاتها الاكثر عصرية من انتاج تلك المصانع التى ساهمت هى فى انشائها .

وكانت العربة التى توقفت الى جوار المبنى النموذجى من الطراز المغلق «ليموزين» . وقد استقر داخلها فى «الدواسة» امام المقعد الخلفى صندوق طويل ثقيل ، وحقيبتان علت احداهما الاخرى ، وضعتا بعرض المقعد والصندوق ، وفوق الحقيبتين كان كيسان محشوان بلغا سقف العربة ، وقد ركن الى جوارهما رشاشان بعلبتى ذخيرتهما علاوة على علب ذخيرة اخرى استقرت بجوارهما . واتخذت مكانها على الجزء الباقى من المقعد امراة شقراء لفحتها الشمس ، جامدة الملامح ، ترتدى رداء ضاع لونه من تاثير الحل والترحال وقد تركت آثارها عليه الشمس والامطار . ولم يكن ثمة مكان تستقر فيه قدماها ، فوضعت احداهما فوق الاخرى واسندتهما بين الصندوق والباب .

وراحت المراة تنظر فى قلق عبر الثغرات الكامنة فى ابواب العربة — فقد تحطم زجاج تلك الابواب منذ زمن بعيد — تارة نحو درج المبنى ، واخرى نحو العربة يجرى تحميلها عند المؤسسة .

وكان من الواضح ان ثمة من تنتظره ، تنتظره منذ مدة طويلة ، كما كان يسيئها ان انظار اولئك الذين يعملون على تحميل عربة النقل يمكن ان تقع على العربة الليموزين وعليها هى المراة داخلها . وعلت امارات القلق وجهها جامد الملامح ، لتسند ظهرها ثانية الى المسند وتروح تتفرس عبر ثقب فى الباب فى الشاب والفتاة اللذين كانا ما يزالان يواصلان حديثهما قرب المبنى . وشيئا فشيئا اخذت امارات التجهم تفارق وجهها ، لينعكس فى عينيها الرماديتين طيف واهن لابتسامة طيبة تنم عن حزن ، ندت عن شفتيها الجامدتين الواضحتى الرسم .

وكانت المراة تبلغ الثلاثين من العمر ، ولم تكن تعرف ان هذا الطيف الذى تراءى على وجهها حين كانت تنظر الى الشاب والفتاة لم يكن يعنى سوى تعبير عن انها بلغت الثلاثين ، وانها لن تغدو مرة اخرى مثلهما .

وكان الشاب والفتاة يتطارحان الغرام على الرغم من كل ما يحدث حولهما ، وكل ما يشهده العالم اجمع . ولم يكونا قادرين على الامساك عن ذلك ، حيث كان محتما عليهما الفراق . غير انهما كانا يفعلان ذلك كما يفعل قرناؤهما فى سنى الصبا ، اى يتحادثان حول كل شىء عدا الحب .

وصارت تقول بينما ترنو نحوه بعينين نيرتين ، تدور براسها على ذلك النحو الذى لم يكن هناك احب منه الى قلبه فى ذلك العالم :

— كم انا سعيدة يا فانيتشكا بحضورك ، وكانما تخلص قلبى من ذلك العبء الذى كان يرزح تحته . لقد تصورت اننا سوف نرحل دون ان نلتقى .

وتساءلت بصوت اجش وهو ينظر اليها من عل بعينين عكسا ذلك الوحى الذى بدا كامنا فيهما كالجمر :

— اتعلمين ذلك السبب الذى منعنى من التردد عليك طيلة تلك الايام ؟ اننى اعلم رغما عن ذلك انك تدركين كل شىء . لقد كان يجب على الرحيل منذ ثلاثة ايام . لقد اعددت نفسى للرحيل بل وتهيات فى اجمل زينة كى احضر اليك لوداعك ، وفجاة . . استدعيت الى لجنة المنطقة للكومسومول . لقد صدر الامر بالتهجير ، لتنقلب كل الامور راسا على عقب . وكم حزنت على فراق زملائى فى المدرسة

الذين رحلوا ، بينما بقيت . لقد جاؤوا يطلبون العون ، وحقا ارى ضرورة تقديم هذا العون . . . ولقد افرد لى اوليج مكانا بمركبتهم وعرض على الرحيل الى كامينسك . وانت تعلمين مدى صداقتنا ! غير اننى على الرغم من ذلك شعرت بالحرج ولم ارحل .

وقاطعته قائلة دون ان تغض الطرف عنه بعينيهـــا اللامعتين بعض الشيء :

— هل تعلم اننى اشعر نفسى وكانما انزاح ذلك العبء الذى كان يرزح فوق قلبى .

واجابها بصوته الاجش دون يحول نظره عنها ، وقد اسره ذلك الدفء الرقيق الجارف الذى انبعث من وجهها الذى علتــه الحمرة قليلا ، ومن عنقها البدين ومن جسدها المشدود داخل بلوزتهـــا الوردية :

— لقد كنت حقا اشعر بالسعادة تجتاح اعماقى ، حين رحت افكر فى اننى سوف اراك كثيرا ، كثيرا . بيد ان الامر لم يكن كذلك هل لك ان تتخيل . . مدرسة فوروشيلوف ، مدرسة جوركـــى ، ونادى لينين ومستشفى الاطفال ، كل ذلك يدخل فى اطار واجبى . ويا لحسن حظى ان وجدت مساعدا جيدا — جورا اروتيونيانتس . هل تذكرينه ؟ انه من مدرستنا . ويا له من شاب ! لقد استجاب من تلقاء نفسه . اننا لا نذكر ليلة استمتعنا فيها بالنوم ، حيث رحنا ليل نهار نمارس العمل فى تحميـــل العربات والمركبات ، تارة نصلح من شان عجلة سيارة ، واخرى نرسل فيها مركبة الى الحداد لاصلاحها . ويا له من كابوس مزعج ! غير اننى كنت اعلم انك لم ترحلى . وقد اخبرنى ابى بذلك — وهنا ندت عنه ابتسامة استطرد بعدها يقول :

— لقد مررت بالامس الى جوار بيتك حيث علا وجيب قلبى حين راودتنى فكرة طرق بابك . — وضحـــك ثم مضى يقول : — لكننى تذكرت اباك مما جعلنى اخاطب نفسى قائلا . . صبرا يا فانيا !

وشرعت تقول :

— هل تعلم ان ثمة عبثا . .

غير انه قاطعها قائلا :

— واليوم . . قررت المخاطرة . . فلربما ترحلين ! ترحلين دون ان اراك !

وما عساك ان تقولى ؟ لقد اتضح انه لم يهجر بعد ملجا الاطفال الكائن فى «فوسميدوميكى» الذى افتتحوه شتاء للايتام . اذ لجات الى مديرته التى تقطن بجوارى ، تقول والدموع تكاد تنزلق من عينيها : «فلتساعدنا ايها الرفيق زيمنوخوف . فلتحاول ولو عن طريق لجنة الكومسومول الحصول على وسيلة للنقل» . وذكرت لها ان اللجنة قد رحلت واشرت عليها بالتوجه الى قسم التعليم الشعبى ، الا انها اجابت : «لقد كنت مرتبطـــة به طوال هذه الايام ، وقد وعدنى المسئولون بتهجيرنا من ساعة لاخرى ، بيد اننى هرعت اليهم صباح اليوم لاجد انهم انفسهم فى حاجة الى وسيلة تنقلهم . وحالما رحت اجرى هنا وهناك ، اختفى قسم التعليم الشعبى . . . اين وكيف . . لست ادرى ، ولا سيما اذا كان آنذاك بدون وسيلة نقل . لست ادرى كيف اختفى ؟» اختفى قسم التعليم الشعبى . . قالها فانيا زيمنوخوف واستغرق فى الضحك على حين غرة ، تتساقط خصلات شعره الطويل الناعم رغما عنه على جبهته واذنيه ، غير انه القى براسه الى الوراء فى الحال وفى حدة لتعود الى وضعها الطبيعـــى واستطرد يقول ضاحكا :

— يا للغرابة ! لقد ضعت يا فانيا ، ولن ترى كلافا ، كما لا يستطيـــع المرء رؤية اذنيه ! ولك ان تتصورى اننـــا وجورا اروتيونيانتس رحنا نضطلع بهذا العمل ، وتيسر لنا الحصول على خمس مركبات . وهل تعلمين ممن ؟ من العسكريين . وقد تاثرت مديرة الملجا لدرجة انها غمرتنا بدموعها حين ودعتنا . وهل تظنين ان الامر انتهى عند ذلك ؟ لقد طلبت من جورا ان يسرع ليعد جوال حاجياته ، حالما اعد جوالى . ولمحت له بانه يتحتم علىّ العروج على مكان لبعض الوقت ، ورجوته انتظارى ان تطلب الامر ذلك . وبوجه عام فقد اوحيت اليه بما تيسر . . وما كدت افرغ من اعداد جوالى حتى دخل . . هل تعلمين من ؟ توليا اورلوف ، ذلك الذى كنا نلقبه بالرعد .

واستطاعت كلافا فى النهاية ان تعلن بصوت خافت للغايـــة وامارات الشوق تكسو عينيها ، حين توقف سيل حديثه :

— وكانما انزاح ذلك العبء الذى رزحت تحته روحى . كم كان القلق يراودنى خوفا من الا تاتى ، وحيث لم اكن قادرة بنفسى على الذهاب اليك !

وسالها فجاة وقد باغتته هذا الفكرة :

— لماذا ؟

واجابت وقد اعتراها الارتباك والخجل :

— كيف لك الا تفهم ؟ وماذا كان على ان اذكره لابى ؟

ولربما كان ذلك ابعد حد يمكن ان تصل اليه فى حديثها ، اذ سمحت له فى النهاية ان علاقتهما ليست بالعلاقة العادية ، بل ثمة سر يميزها . وكان عليها فى نهاية الامر ان تذكره بذلك ما دام لا ود نفسه الحديث عن ذلك .

والتزم الصمت ونظراليها على نحو جعل وجهها الكبير وعنقها لابيض البدين وحتى فتحة بلوزتها الوردية عند صدرها يتلونان بلون لك البلوزة . وذكرت على عجـــل وهى ترمش بعينيها الحولاوين كستنائيتين :

— لا . . ارجو الا يراودك شـــك فى انه يكن حيالك اطيب مشاعر . فكم من مرة قال فيها «كم هو ذكى زيمنوخوف هذا» ولك ن تعلم — وهنا اتسم صوتها بتلك النبرة الخافتة الرقيقة التى تنفذ الاعماق — انك اذا ما اردت السفر معنا . . فلك ذلك .

ولم تكن قد راودته من قبل تلك الفكرة التى ظهرت فجاة حول مكانية الرحيل مع محبوبته ، وكانت هذه الفكرة مغرية لدرجة انه د السيطرة على نفسه ورنا بنظره نحو الفتاة وندت عنه ابتسامة لا نى لها ، ثم فجاة علت وجهه امارات الرصانة وراح ينظر فى ذهول الشارع . فقد كان يقف مديرا ظهره نحو الحديقة يواجهـــــه شارع الذى امتد نحو الجنوب تغمره اشعة الشمس الحارقة التى حت تلسع وجهه . وقد ظهر ذلك الشارع وكانما انتهى فجاة ، ث كان ثمة منحدر يفضى الى المزلقان الثانى . كما وكانت تتراءى البعد فى البرارى تلال زرقاء ينبعث من خلفها دخان حرائق شبت يدة . بيد انه لم يكن قادرا على رؤية كل ذلك ، حيث كان يعانى قصر النظر الى حد بعيد ، ولم يكن باستطاعته سوى سماع هدير قات المدافع وصفارات القطارات فيما وراء الحديقة ، وذلك الصوت

الصادر عن بوق المحولجى الوديع الذى يعرفه منذ سنى الطفولة يدوى قويا واضحا فى ارجاء البرارى .

— اننى بدون متاع يا كلافا .

قالها بنبرة تنم عن حزن وحيرة ، مشوحا بيديه وكانما يشير الى راسه العارى وشعره الكستنائى الطويـــل الذى يتساقط على جبهته ، وقميصه الباهت ذى الكمين القصيرين وسرواله القديم القصير ذى الخطوط البنية ، وشبشبه الذى يحتذيـــه عـــلى قدميه العاريتين . ثم استطرد يمزح فى تجهم :

— اننى لم احمـــل حتى نظارتى ، مما يجعلنى غير قادر على التمتع بمشاهدتك كما ينبغى .

— اننا سوف نخاطب ابى فى هذا الشان ، ونذهب لاحضار متاعك .

هذا ما علقت به كلافا وهى تنظر اليه بطرف عينيها . بل وهمت بان تتابط ذراعه ، الا انها لم تتجاسر على ذلك .

وكما لو كان عن عمد ، ظهر من وراء العربة والد كلافا يغطى راسه بكاب ، ويرتدى سترة رماديـــة قديمة ويحتذى حذاء طويلا ، يحمل حقيبتين ، والعرق يتصبب منـــه ، يبحث عن مكان يضعهما فيه . الا ان العربة كانت تغص بحملتها . ومع ذلك فقد ظهر موظف كان يقف وسط الصرر والصناديق يقول له :

— ناولنى اياهما ايها الرفيق كوفاليوف وسوف اجد لهما مكانا .

وجثا على احدى ركبتيه وامسك بيده بحافة العربة وراح يتناول الحقيبتين الواحدة تلو الاخرى .

وفى نفس الوقت ظهر والد فانيا ايضا يحمل على يديه النحيفتين المعروقتين اللتين لفحتهما الشمس صرة اشبه بصرة الغسيل . وقد بدا من وراء العربة عاجزا عن حمل تلك الصرة التى استقرت على يديه الممدودتين الواهنتين ، بينما راح يجر ساقيه الطويلتين اللتين تمايلتا تحت جسده . وكان الشحوب يعلو وجهه الطويل الذى لفحته الشمس وكسته التجاعيد وتصبب منه العرق . كما وبرزت بصورة مخيفـــة وعلى هذا الوجه النحيف المرهق عيناه الضارب لونهما الى البياض الشديد واللتان عكستا امارات توعك والم .

وكان والد فانيا الكسندر فيدوروفيتش زيمنوخوف يعمل حارسا

بالمؤسسة . اما كوفاليوف ، والد كلافا فقد كان يشغل وظيفة رئيس قسم الامداد والتموين بالادارة ، ويعتبر رئيسه المباشر .

وكان كوفاليوف احد اولئك الرؤساء الكثيرين الذين يحملون على اكتافهم عبء السخط الشعبى وسخرية واستهزاء الجميع ازاء كافة رؤساء ادارات الامداد والتموين نتيجة تلك المصائب التى يلحقها بالبشرية بعض عديمى الشرف من اشقائهم فى المهنة . لقد كان احد اولئك الرؤساء الذين يجدونهم فى احلك اللحظات خير قدوة لرئيس قسم الامداد والتموين .

وطوال الايام الاخيرة ومنذ تلك اللحظة التى تلقى فيها تعليمات مدير المؤسسة بحزم متاع المؤسسة ، راح يعد وينقل ويشحن كل شىء ذى قيمة وان كانت ضئيلة فى هدوء وثقة دون ان يعير انتباها الى توسلات زملائه الموظفين ونفاق بعض الرؤساء الذين كانوا فيما سبق وفى الايام العادية لا يعيرونه اهتماما شان مكنسة مركونة فى الردهة الى جوار المدفأة . وفى وقت مبكر من ذلك الصباح تلقى امر المفوض عن المؤسسة حول عدم التوانى وضرورة الاسراع وتدمير كل الوثائق التى يتعذر حملها والرحيل توا نحو الشرق .

بيد ان كوفاليوف راح بعد صدور هذا الامر يواصل عمله فى هدوء وسرعة بعد ان اشرف فى بادىء الامر على ترحيل المفوض برفقة متاعه ، ودون ان يدرى احد كيف ومن اين يحصل على كافة وسائل النقل ، حيث لم يكن ضميره يسمح له بغير ذلك . وكان اكثر ما اقلقه ان ثمة من سوف يتهمه حتى فى ذلك اليوم المأساوى ، بانه يهتم بامور نفسه ، ولذا فقد قرر فى حسم الرحيل برفقة اسرته فى آخر عربة ، والتى احتفظ بها لمثل هذا الظرف .

اما العجوز الكسندر فيدوروفيتش زيمنوخوف حارس المؤسسة ، فلم يكن يفكر فى الرحيل ، او يقدر عليه عموما نظرا لسنه المتقدم وصحته العليلة . وقد قام منذ عدة ايام ، شان كل الموظفين ، غير القادرين على الرحيل بتسوية حساباته مع المؤسسة وحصل على مكافاة مالية قدرها اجر اسبوعين . بيد انه طوال تلك الايام والليالى راح يجر ساقيه اللتين انهكهما الروماتيزم يقدم العون الى كوفاليوف فى حزم ونقل متاع المؤسسة لانه تعود الاهتمام به كاهتمامه بمتاعه الخاص .

وقد كان الكسندر فيدوروفيتش عامل منجم قديم فى الدونباس ، ونجارا ماهرا . وكان قد بدا ايام كان شابا قدم من محافظة تامبوف التردد على المناجم بحثا عن الكسب . وقد حقق الكثير من المكاسب فى اعماق مناجم الدونباس وفى اعماق الابار الخطيرة مستعينا فى ذلك ببلطته الرائعة التى راحت فى يديه تغنى وتعزف مثلما الديك الذهبى . واذ راح الكسندر فيدوروفيتش يعمل منذ صباه فى اراض تلفها الرطوبة دائما فقد تسلل الروماتيزم الى مفاصله يؤلمها على نحو دائم ، مما دعاه الى التقاعد والعمل حارسا بالمؤسسة . وكان فى عمله الجديد رائعا ، كما كان فى عمله السابق .

وزار كوفاليوف ينادى ابنته بينما يمسح بظهر يده المتينة القذرة العرق الذى تصبب على جبهته اسفل مقدمة غطاء راسه :

— هيا ، يا كلافا . . فلتساعدى امك !

واذا وقع نظره على فانيا قال على نحو ينم عن لامبالاة :

— آه . . فانيا ! هل ترى ما يجرى ؟

وهز راسه فى غضب ، لكنه توقف فجاة ليمسك بيديه الصرة التى حملها الكسندر فيدوروفيتش معاونا اياه فى نقلها الى العربة ، واستطرد يقول بينما يلتقط انفاسه :

— لقد ساءت احوالنا . . هذا ما يمكن قوله حقا . يا لهم من سفلة ! — وقد ندت عنه هذه الجملة الاخيرة حين ترامت الى سمعه اصوات قصف المدفعية ، ثم استطرد يتساءل :

وانت . . الا تعتزم الرحيل ؟ ماذا سوف يفعل ابنك يا الكسندر فيدوروفيتش ؟

وانصرف الكسندر فيدوروفيتش يواصل نقل الصرر دون ان يجيب ، او ينظر الى ابنه . لقد كانت تجتاحه مشاعر الخوف عليه ، والسخط حياله لانه لم يرحل الى ساراتوف للانضمام الى مدرسة فوروشيلوف للحقوق حيث كان يدرس هذا الصيف .

واذ استمعت كلافا الى كلمات الاب ، اشارت الى فانيا بحركة خفية بعينيها ، بل وجذبته من كمه وهمت بمخاطبة الاب حول امر ما . الا ان فانيا سبقها قائلا :

— كلا . انني لا استطيع الرحيل الآن . انني ملزم بايجاد مركبة

لنقل فولوديا اوسموخين الذى يرقد طريح الفراش بعد عملية الزائدة الدودية .

وصفر والد كلافا ، ثم قال على نحو يوحى بالسخرية والاسى فى آن واحد :

– تجد مركبة !

واجاب فانيا وقد كسا البياض شفتيه فجاة ، متحاشيا نظرات كلافا :

– علاوة على اننى لست وحدى ، فهناك الرفيق جورا اروتيونيانتس ، حيث كنا نعمل سوية وقطعنا على نفسينا وعدا باننا سوف نرحل مترجلين حين نفرغ من كل شىء .

واليوم كان طريق الانسحاب قد سد ، والقى فانيا بناظريه نحو كلافا التى كسا الضباب عينيها الداكنتين .

وذكر كوفاليوف على نحو يتسم باللامبالاة ازاء فانيا ، وازاء جورا اروتيونيانتس ، وازاء الوعد الذى قطعاه على نفسيهما :

– آه . . هكذا الامر ! هذا يعنى . . وداعا الى حين !

وتقدم نحو فانيا ، وقد اقشعر بدنه حين تعالى صوت قصفة مدفعية ، يمد اليه يده العريضة المتينة .

وتساءل فانيا بصوت اجش :

– هل سوف تتجهون نحو كامينسك او نحو ليخايا ؟

وزار كوفاليوف يقول :

– نحو كامينسك ! ؟ ان الالمان سوف يستولون عليها ما بين يوم وآخر . نحو ليخايا نحن ذاهبون . . نحو ليخايا ! اننا سوف نتوجه عبر الدونيتس الى بيلوكاليتفينسكايا . . لنكون اثرا بعد عين .

وثمة شىء تصدع وعلا ضجيجه فوق رؤوسهم ، ثم انهال من عل سيل من النفايات .

ورفعوا هاماتهم ليشاهدوا احدى نوافذ الطابق الثانى فى حجرة قسم التخطيط بالمؤسسة وقد انفرجت على مصراعيها ليطل منها راس ضخم اصلع ، شديد الحمرة يتصبب العرق منه ليبدو وكانما يكاد يغرق الواقفين اسفل النافذة .

واذ عرف كوفاليوف فى ذلك الراس وجه رئيس القسم ساله وقد اعترته الدهشة :

– كيف انك ايها الرفيق ستاتسينكو لم ترحل ؟

واجابه ستاتسينكو بصوت خافت وتادب بالغ كعادته دائما :

– كلا . . اننى افتش هنا فى الاوراق حتى لا اترك شيئا ذا قيمة يستفيد منه الالمان .

وصاح كوفاليوف :

– يالك من محظوظ . اننا نعتزم الرحيل بعد حوالى عشر دقائق .

واجاب ستاتسينكو فى تواضع :

– فلترحلوا انتم ، وسوف اجد وسيلة تنقلنى . ولكن قل لى يا كوفاليوف هل تعلم لمن هذه السيارة الواقفة هناك ؟

واستدار كوفاليوف وابنته وفانيا زيمنوخوف والعامل الذى يقف فوق عربة النقل ، ينظرون جميعا الى العربة «جازيك» .

وعدلت المراة الجالسة بالعربة من وضعها على الفور منحنية نحو الامام كيلا يرونها من ثقب باب السيارة .

واجاب كوفاليوف :

– انه لن ياخذك معه ايها الرفيق ستاتسينكو ، فلديه الكثير من المتاع .

وقد كان يعرف شان ستاتسينكو انه كان يعيش منذ الخريف الماضى ايفان فيدوروفيتش بروتسينكو العامل باللجنة الحزبية للمنطقة وحيدا ، يوجر من ذلك البيت احدى غرفه ، بينما كانت زوجته تعمل فى فوروشيلوفجراد .

وذكر ستاتسينكو :

– اننى لست بحاجة الى هباته !

ورمى كوفاليوف بنظرة من عينيه الصغيرتين الحمراوين اللتين تعكسا امارات تميز من يهوى الشراب .

وسرعان ما اعترت كوفاليوف امارات الارتباك وتحول بنظره الى العامل فوق عربة النقل ، وكانما يساله اذا كان قد فهم شيئا من كلمات ستاتسينكو يعنى مغزى سيئا .

وانفجرت اسارير ستاتسينكو عن ابتسامة تنم عن طيبة ، ليقول :

– لقد كنت اعتقد من وحى بساطتى انهم قد هربوا منذ زمن بعيد ، الا اننى شاهدت هذه العربـة فجاة ، مما دفعنى الى السؤال عنها .

ونظر الحاضرون الى العربة بعض الوقت . ثم ذكر كوفاليوف وقد كست امارات التجهم وجهه :

– هذا يعنى انهم لم يرحلوا جميعا .

وذكر ستاتسينكو بنبرة حزينة :

– آه . . كوفاليوف ، كوفاليوف ! انه يتحتم عليك الا تكون ملكيا اكثر من الملكيين !

ولم يكن كوفاليوف يفهم مغزى هذا القول المأثور ، مما دعاه لان يقول وقد فرد قوامه ورفع ناظريه نحو النافذة تارة ، ونحو العامل الواقف فوق عربة النقل تارة اخرى :

– اننى ايها الرفيق ستاتسينكو انسان بسيط . اننى انسان بسيط ولا افهم مغزى تلميحاتك .

– لماذا تغضب منى ؟ اننى لم اسأ اليك . . ولك تمنياتى بالتوفيق يا كوفاليوف ! وليس من المعتقد ان تجمعنا الظروف ثانية قبل ساراتوف .

هذا ما قاله ستاتسينكو ، قبل ان يغلق النافذة .

وراح كوفاليوف بعينيه الزائغتين وقانيا الذى اعتراه بعض الارتباك ينظران الى بعضهما البعض . وفجأة علا الاحمرار وجه كوفاليوف ليبدو وكانما ثمة من اغضبه ، ليصيح فى شدة :

– هيا . . يا كلافا !

وتجاوز العربة ليدخل الى مبنى المؤسسة . وقد كان حقا يشعر بالضيم والاساءة اللتين لم توجها اليه شخصيا . فلم يكن يقبل من رجل ، ليس بالبسيط مثله هو كوفاليوف ، والذى كان بحكم جهله لمجرى الامور يمكن ان يشكو ويتذمر ، بل رجل على شاكلة ستاتسينكو ، اى قريب من السلطة ، وقاسم ممثليها العيش والملح من الاحيان ، مثنيا عليهم فى السراء اطيب الثناء ، بينما يقوم اليوم بادانتهم فى اللحظة التى لا يملكون فيها الدفاع عن انفسهم .

اما المرأة التى كانت تجلس بالعربة والتى اثار اهتمام الآخرين بها امتعاضها فقد راحت تنظر فى غضب الى مدخل المبنى النموذجى .

الفصل الثامن

جلس ايفان فيدوروفيتش برفقة اثنين آخرين فى احدى الغرف المطلة على الفناء ، وقد فتحوا نوافذها على مصاريعها بغية ان يحمل الهواء الى الخارج الدخان المنبعث من الوثائق التى جرى احراقها . وكانت الغرفة مثلها فى ذلك مثل كافة ارجاء المبنى قفرة كئيبة لا تدعو الى الارتياح . فقد غادرتها النفوس ولم يبق سوى القشور . وكانت الاشياء قد حركت من مواضعها . بينما كان ايفان فيدوروفيتش وسميراه يجلسون لا حول المائدة ، بل على الكراسى فى وسط الغرفة يتبادلون الآراء حول العمل فى المستقبل وعناوين شقق اللقاء .

وقد كان من المحتم على ايفان فيدوروفيتش الرحيل الآن الى قاعدة الفدائيين الى حيث رحل مساعده منذ عدة ساعات مضت ، وحيث ينبغى عليه التواجد بوصفه احد قادة العمل السرى فى المنطقة برفقة فصيلته المتمركزة فى الغابة غير بعيد عن قرية ميتياكينساكيا الكائنة على حدود مقاطعتى فوروشيلوفجراد وروستوف . اما رفيقاه فقد بقيا مكنهما فى كراسنودون ، حيث هما عاملا مناجم اصيلان ، وشارك كلاهما فى الحرب الاهلية ايام ذلك الاحتلال الالمانى وضد فصائل دينيكين المعادية للثورة .

وقد كان فيليب بيتروفيتش ليوتيكوف الذى ابقى سكرتيرا للجنة الحزب بمنطقة العمل السرى يكبر رفيقه قليلا ، اذ كان عمره يتعدى الخمسين ، تسلل الى شعره بعض الشعيرات البيضاء على نحو غير متناسق ، وتبدى الشيب كثيرا عند فوديه وعلى ناصيته ؛ كما وظهر على شاربيه القصيرين الشائكين . وكان قوامه يوحى بانه كان قوى البنية ذات يوم ، الا ان الزمن ترك آثاره عليه فى بداية عليلة ظهرت على جسده ووجهه ، وتهدلت قسمات وجهه مما بدت معه ذقنه ثقيلة بالرغم من ثقلها الطبيعى ، تنجذب نحو الاسفل وقد كان ليوتيكوف متعودا الاهتمام بنفسه ، لدرجة انه حتى فى مثل تلك الظروف يبدو حسن الهندام يرتدى حلة سوداء اللون انيقة مشدودة حول جسده الكبير ، وقميصا ابيض اللون ورباط عنق مشدود الى ياقة القميص المحكم اغلاقها .

وقد شغل ذلك العامل القديم ، الحائز على لقب «بطل العمل»

في اولى سنوات فترة بعث الاقتصاد منصب مدير عدد من المؤسسات الصغيرة في البداية ، ثم الكبيرة فيما بعد . ولقد ظل يعمل في كراسنودون ما يقرب من خمس عشرة سنة ، وكان في السنوات الاخيرة رئيسا لورشة الميكانيكا بمؤسسة «فحم كراسنودون» .

اما رفيقه في العمل السري ماتفي كوستيفيتش شولجا ، والذي كانوا يدعونه غالبا بكوستيفيتش وهو ما يماثل قسطنطينوفيتش بالاوكرانية ، فقد كان من ذلك الرعيل الاول من العمال الصناعيين الذين ارسلوا لتقديم العون الى القرية ، وكان من ابناء كراسنودون ، حيث عاش مطلع حياته ، ثم بدأ يعمل فيما بعد في مختلف مناطق الدونباس ، في وظائف مرتبطة بالقرية . وقد كان يعمل منذ بداية الحرب نائبا لرئيس اللجنة التنفيذية باحدى المناطق الريفية في شمال مقاطعة فوروشيلوفجراد .

وقد كان شولجا على النقيض من ليوتيكوف الذي كان يعلم منذ بوادر خطر الاحتلال بانه سوف يظل لممارسة العمل السري ، قد تسلم التعليمات بشأنه منذ يومين فقط ، وبناء على طلبه الشخصي بعد احتلال الالمان للمنطقة التي كان يعمل بها . وقد وجدوا من الافضل الابقاء عليه للعمل في كراسنودون بالذات لسببين اولهما انه اصلا من هناك ، وثانيهما انه قل من يعرفه في المدينة آنذاك .

وكان ماتفي شولجا او كوستيفيتش ، رجلا يناهز من العمر الخامسة والاربعين عريض المنكبين قوى البنية ، لفحت الشمس وجهه الواضح القسمات ، والذي غطاه بعض النمش الداكن اللون ، وهو ما يدل على مهنته . اذ ان مثل ذلك النمش يظل الى الابد على اوجه اولئك الذين يعملون لفترة طويلة في المناجم او في سباكة المعادن . وقد جلس كوستيفيتش يغطي راسه بكاب مال الى مؤخرته ، بينما كان شعره قصيرا . وقد ظهر راسه الكبير على نحو يندر ان تجده لدى انسان ، وعيناه كعيني ثور .

ولم يكن هناك في كراسنودون ، مثل اولئك الثلاثة الذين اتسموا بالهدوء والتفاؤل في آن واحد .

وذكر ايفان فيدوروفيتش :

— يا له من شعب جيد ! حقا انه شعب حقيقي سوف تتولى

شئونه ، وتستطيع تقوده نحو المآثر . هل لي ان اسألك اين سوف تعيش ؟

واجابه ليوتيكوف :

— هناك حيث كنت اعيش . . لدى بيلاجيا ايلينيتشنا .

وعلت وجه ايفان فيدوروفيتش امارات لا تعني الدهشة بقدر ما تعني بعض الشك ، وتساءل :

— انني لا استطيع ادراك كنه ما تقول .

وذكر ليوتيكوف :

— وماذا يدعونى الى التخفي . ان الجميع هنا بالمدينة يعرفونني ، لدرجة يستحيل معها التخفي . وباراكوف كذلك . — وذكر اسم المشرف الثالث على لجنة المنطقة للعمل السري . — كما ان الالمان سوف يجدوننا على الفور ، وسوف يظنون السوء فيما يخصنا ان شرعنا في التخفي . وليس ثمة ما يدعونا الى ذلك . ان الالمان في امس الحاجة الى عمالنا الماهرين ، بينما نحن هنا . . هنا وليس هناك ! ولنقل ما يلي . . لقد هرب مدير المؤسسة ، واجبر البلاشفة الطاقم الهندسي الفني على الرحيل معهم . اما نحن فقد بقينا للعمل معكم ، مع الالمان . لقد تفرق العمال ، وسوف نتولى جمعهم . اوليس هناك مهندسون ؟ هاكم نيكولاي بيتروفيتش باراكوف — مهندس ميكانيكي ! علاوة على انه يعرف الالمانية .

ثم استطرد فيليب بيتروفيتش يقول دون ان تند عنه ابتسامة :

— اننا سوف نعمل لصالحهم !

وقد اتسمت نظرته التي وجهها نحو ايفان فيدوروفيتش بالصرامة والانتباه ، وعكست امارات استغراق في التفكير تميز عادة اولئك الذين تعودوا على عدم تقبل الامور على عواهنها ، بل تقليبها وامعان التفكير فيها .

وتساءل ايفان فيدوروفيتش :

— وماذا عن باراكوف ؟

— انها خطة وضعناها سوية !

وتساءل ايفان فيدوروفيتش بكل ما يتمتع به من قدرة على رؤية الامور من جانبها ومهما كان مآلها فيما بعد :

– هل تعلم الخطورة التى تهدد كليكما بالدرجة الاولى ؟
واجابه ليوتيكوف :
– نعم ، اعلم . . اننا شيوعيان !
– لا . ليس الامر كذلك تماما . شيوعيان يعرضان العمل لخدمة الالمان . . اوليس ذلك افضل لهم ! ان الوقت لن يسعفهم لادراك جدوى ذلك ، حيث سوف يقومون قبل ان تفرغ من حديثكما ، وتحت تاثير الغضب . . . – وهنا اشار ايفان فيدوروفيتش الى العنق والسقف .
– سوف نقوم بالتخفى فى الايام الاولى ، على ان نظهر حين يحتاجون الينا .
– آه . . هذا هو جوهر الامر . اننى اتساءل . . اين سوف تختفى .
وابتسم ليوتيكوف للمرة الاولى منذ بدأ ذلك الحديث ، لتضيء تلك الابتسامة وجهه البدين الذى تهدل الى اسفل ، وقال :
– سوف تجد بيلاجيا ايلينيتشنا مكانا تخبئنا فيه . . .
وفارقت امارات الريبة وجه ايفان فيدوروفيتش ، اذ كان راضيا عن ليوتيكوف . وتساءل ناظرا نحو كوستيفيتش :
– وماذا عن شولجا ؟
واجاب ليوتيكوف :
– انه ليس شولجا . انه اوستابتشوك يفدوكيم ، كما هو مدون فى بطاقة عمله بقسم بناء القطارات . وقد التحق بالعمل برادا بقسم الميكانيكا منذ ايام . وقصته لا غموض فيها ، حيث كان يعمل بفوروشيلوفجراد وتركها للانتقال الى كراسنودون حين اشتعلت المعارك . فقد كان وحيدا . بعدئذ سوف يبدأ العمال فى العمل ، ويستدعى البراد اوستابتشوك يفدوكيم للعمل فى خدمة الالمان .
واضاف فيليب بيتروفيتش :
– اننا سوف نعمل فى خدمتهم !
والتفت بروتسينكو نحو شولجا ، وشرع يتحدث دون ان يلحظ لا بالروسية ، التى كان يتحدث بها على التو مع ليوتيكوف ، بل بخليط من الروسية والاوكرانية كما كان يتحدث شولجا .
– حدثنى يا كوستيفيتش عما اذا كنت تعرف ولو شخصا واحدا

فى تلك الاماكن التى سوف تختبأ فيها ؟ قصارى القول . . هل تعرف بنفسك هؤلاء الناس . . وعائلاتهم . . ومن يحيط بهم ؟
واجاب شولجا فى تثاقل ، بينما ينظر من آن لآخر وبعينيه الكبيرتين اللتين تتسمان بالهدوء نحو ايفان فيدوروفيتش :
– اننى لا استطيع القول اننى اعرفهم جيد المعرفة . ثمة عنوان . . فى حى جولوبياتنيكى – كما كانوا يسمونه فى الماضى – حيث يعيش كوندراتوفيتش او ايفان جناتينكو . ولقد كان فدائيا جيدا فى عام ١٩١٨ . اما العنوان الآخر ففى حى شانغهاى – حيث فومين اجنات . ولكننى لا اعرفه شخصيا . فقد كان جديدا على كراسنودون . واربما تكونون تعرفونه ، فقد كان من رعيل حركة ستاخانوف * فى المنجم رقم ٤ ، ويقال انه اهل للثقة علاوة على انه قد وافق على الانضمام الينا . والجيد فى الامر انه ليس عضوا فى الحزب ، وعلى الرغم من حسن درايته بالامور فلم يمارس كما يقال ، اى نشاط اجتماعى ، ولم يتحدث فى اجتماعات . وباختصار هو انسان منعزل بطبيعته .
وراح بروتسينكو يواصل استجوابه :
– وهل زرتهما فى مسكنيهما ؟
– لقد كانت آخر مرة زرت فيها كوندراتوفيتش ، اعنى جناتينكو ايفان منذ اثنتى عشرة سنة ، اما فومين ، فلم ازره ابدا . ومتى كانت باستطاعتى زيارته يا ايفان فيدوروفيتش ، حين تعلم انت بنفسك اننى قد وصلت بالامس فقط ، وبالامس ايضا سمحوا لى بالبقاء ، وسلمونى هذين العنوانين . واعتقد ان اولئك الذين اختاروا هؤلاء الناس يعلمون حتما كنههما . – وبدت الجملة الاخيرة على نحو يحمل كلا المعنيين . . السؤال والجواب .
ورفع ايفان فيدوروفيتش اصبعه ونظر نحو ليوتيكوف ثم عاد بنظره الى شولجا وقال :
– هذا هو الامر . لا تصدقا الاوراق . ولا تصدقا ما يقال . . ولا تصدقا تعليمات الغير ! فلتتاكدا من الجميع . . ومن كل شىء من جديد ، واستنادا الى خبراتكما . ان من قاموا بتنظيم عملكما

* نسبة الى الكسى ستاخانوف عامل المنجم الشهير بارقامه القياسية فى مجال رفع انتاجية العمل . **المترجم** .

السرى ، وكما تعلمان ، غير موجودين هنا . فلقد رحلوا مراعاة لقواعد السرية ، تلك القاعدة الذهبية . انهم اليوم بعيدون . واربما يكونون اليوم على مقربة من نوفوتشيركاسك . — وهنا ندت على شفتى ايفان فيدوروفيتش ابتسامة رقيقة وانتقلت شرارة سريعة تنم عن جذل من احدى عينيه الزرقاوين الى الاخرى ، ثم استطرد متسائلا :

— هل تعلمان ما الذى دفعنى الى القاء مثل هذا السؤال ؟ واجاب بنفسه :

— لقد تحدثت عن ذلك لانه قد جرى تنظيم العمل السرى ايام كانت تسود هنا سلطتنا . وسوف ياتى الالمان ، لتجرى مرة اخرى عملية التحقق . . وهى عملية سوف تسفر اما عن حياة واما عن موت . .

ولم يسعفه الوقت لمواصلة حديثه فى ذلك الاتجاه . فقد صفق الباب الخارجى ، وتعالى بالحجرات دبيب خطوات ، لتدلف تلك المرأة التى كانت تجلس بالعربة «جازيك» حين وقفت امام المبنى . وقد كان وجهها يعكس كل ما عانته بينما كانت فى انتظار ايفان فيدوروفيتش .

وتحدث ايفان فيدوروفيتش وقد ندت عنه ابتسامة تنم عن اعتراف بالذنب :

— لقد طال بك الانتظار يا كاتيا . هيا بنا ، — ونهض لينهض الجميع ، ثم استطرد يقول فى سعادة ألمت به فجاة :

— فلنتعارفا . . هذه زوجتى . وتعمل مدرسة .

وشد ليوتيكوف على يدها التى توحى بالنشاط وعلى نحو يعنى الاحترام . وقد كانت تعرف شولجا من قبل مما دعاها الى ان تبتسم له .

— واين زوجتك ؟

وشرع شولجا يقول :

— ان جميع اقاربى . .

غير ان السيدة قاطعته فجاة لتقول :

— انى آسفة . . ارجو المعذرة .

ثم دفنت وجهها بين راحتيها بسرعة . الا ان الحمرة قد ظهرت فيما بين اصابعها ، وتحت راحتيها تكسو كل وجهها .

فلقد ظلت عائلة شولجا باقية بالمنطقة التى احتلها الالمان لا تبارحها ، مما كان احد الاسباب التى دفعت شولجا للبقاء للعمل السرى بالمقاطعة . وكانت الاسرة قد عجزت عن الرحيل لاقتحام الالمان للمقاطعة فجاة ، بينما كان كوستيفيتش يجمع قوافل الماشية بالقرى البعيدة لارسالها نحو الشرق .

وكانت عائلة شولجا تتسم بالبساطة الشديدة شأنها فى ذلك شان ربها وقد عزفت عائلة ماتفى كوستيفيتش والمكونة من الزوجة وفتاة تلميذة وابن فى السابعة من العمر ، عزفت عن الرحيل حين جرى تهجير عائلات العاملين الى الشرق . ولم يصر ماتفى كوستيفيتش على رحيل اسرته . اذ كان برفقة اسرته حين عمل مع الفدائيين فى تلك النواحى ايام كان فى سنى الشباب ، تلازمه زوجته وكذلك ابنه الاول الذى ولد آنذاك ، بينما هو اليوم من قادة وحدات الجيش الاحمر . وقد بدا لهما ، استنادا الى الماضى ، ان العائلات يجب ان تظل فى احلك اللحظات متماسكة يشد بعضها ازر البعض . وعلى هذا النحو كانت تربيتهما لاولادهما . وها هو ماتفى كوستيفيتش يشعر بالذنب ازاء كون زوجته وطفليه قد بقوا تحت سطوة الالمان ، وامل فى تقديم العون لهم ان كانوا على قيد الحياة .

— ارجو المعذرة . .

هذا ما قالته زوجة بروتسينكو وهى ترفع وجهها من بين راحتيها توجه الى كوستيفيتش نظرات ملؤها المواساة والشعور بالذنب .

وشرع ايفان فيدوروفيتش يقول :

— هيه . . ايها الرفاق الاعزاء !

الا انه لم يقل اكثر من هذا . فقد حان وقت الرحيل بينما كانت رغبة جارفة فى عدم الفراق تجتاح الجميع .

ولم تمض سوى بضع ساعات ، منذ رحل رفاقهم ، رحلوا الى ذويهم فى بلادهم ، بينما بقى اربعتهم هنا يعيشون حياة العمل السرى الجديدة المجهولة والغريبة عليهم بعد تلك الاعوام الاربعة والعشرين التى قضوها احرارا فى حلهم وترحالهم . لقد كانوا على التو فى صحبة

رفاقهم ، الذين رحلوا منذ مدة قريبة ، وكان فى استطاعتهم عمليا التحاق بهم . . الا انهم كانوا عاجزين عن ذلك . لقد صاروا ، هم الاربعة ، قريبين من بعضهم البعض ، تشدهم اواصر قرابة حقيقية ، مما جعل الفراق بالنسبة لهم امرا غاية فى الصعوبة .

وراحوا وقوفا يشدون على ايادى بعضهم البعض لفترة طويلة .

وتحدث بروتسينكو يقول :

– فلنر اى المان هؤلاء . . واى اصحاب دار وحكام هم !

وذكر ليوتيكوف على نحو يتسم بالجدية التامة :

– فلتحافظ على نفسك يا ايفان فيدوروفيتش .

– اننى استطيع العيش حيثما اتفق مثل الاعشاب البرية . ولذا فلتحافظ انت على نفسك يا فيليب بيتروفيتش ، وانت يا كوستيفيتش .

وابتسم شولجا بما يوحى بالاسى :

– اننى فى عداء مع الموت .

ورماه ليوتيكوف بنظرة صارمة دون ان يتفوه بشىء .

ثم راح كل منهم يعانق الآخر ، ويبادله القبلات يبذل جهده كيلا تلتقى النظرات .

– وداعا . .

ذلك ما تفوهت به زوجة بروتسينكو ، دون ان تبتسم ، وعلى نحو ما اشبه بالاحتفالى ، بينما ترقرقت الدموع فى مآقيها .

وكان ليوتيكوف اول من خرج ، ثم تبعه شولجا ، وعلى نفس النحو الذى قدما به – من الباب الخلفى ، عبر الفناء ، حيث كانت تختلف البنايات الصغيرة التى تجاوزاها ، دون ان يلحظهما احد ، لواحد تلو الآخر الى الشارع الرئيسى المجاور .

اما ايفان فيدوروفيتش فقد خرج برفقة زوجته الى شارع سادوفايا الممتد حتى بوابة حديقة المدينة ، لتلسع وجهيهما اشعة شمس الظهيرة الحارقة .

وشاهد ايفان فيدوروفيتش عربة النقل المحملة تقف فى الجانب الآخر من الطريق يعتليها احد العمال ، بينما يقف الى جوارها شاب وفتاة يتوادعان . وهنا ادرك سر انزعاج زوجته .

وشرع بروتسينكو طويلا يحاول ادارة محرك السيارة «جازيك»

بواسطة «المنفلة» الا ان السيارة كانت تهتز دون ان يدور المحرك ، مما جعله يتوجه نحو السيارة قائلا فى ارتباك :

– فتحاولى انت يا كاتيا ، وسوف اضغط بنفسى على البنزين .

وامسكت الزوجه «بالمنفلة» فى يدها الرقيقة التى لفحتها الشمس ، وادارتها بقوة غير متوقعة عدة مرات ، دار بعدها المحرك . ثم راحت تمسح بظهر يدها العرق الذى تصبب على جبينها ، والقت «بالمنفلة» تحت مقعد السائق ، ثم استقلت السيارة الى جوار زوجها . وتحركت السيارة فى قفزات كالحصان المخبول تطلق غازاتها العادمة فى شكل دخان ازرق مشوب بالقاذورات ، ليعتدل امرها فيما بعد وهى تنطلق تنهب الطريق . وسرعان ما احتواها المنحدر المفضى الى المزلقان .

واستطرد فانيا زيمنوخوف يقول بصوت رخيم :

– وهنا يدخل توليا اورلوف هذا . هل تعرفينه ؟

واجابته كلافا بصوت خافت :

– كلا . . لا اعرفه . فلربما يكون من مدرسة فوروشيلوف .

– قصارى القول ، لقد جاء يقول : «ايها الرفيق زيمنوخوف . . يسكن على مقربة منك فولوديا اسموخين ، وهو كومسومولى نشيط اجريت له منذ مدة قريبة عملية الزائدة الدودية . وقد بارح المستشفى قبل التئام الجرح تماما ، مما كان سببا فى تفاقم حالته . اولا تستطيع تدبير مركبة لنقله ؟» وهل تدركين موقفى فى مثل هذه الحالة ؟ لقد كنت اعرف فولوديا اسموخين جيد المعرفة . . انه كنز وليس مجرد فتى ! هل تدركين موقفى ؟ لقد اجبته : «حسنا . فلنتوجه الى فولوديا حالما اعرج الى مكان ما بغية مساعدته . وهاانذا اجىء اليه» . فهل عرفت الآن السبب الذى يمنعنى من الرحيل معكم ؟ – وهنا اتسمت نبراته بالاحساس بالذنب ، وراح يحاول التمعن فى عينيها المترقرقتين بالدموع . ثم استطرد يقول : الا اننى وجورا اروتيونيانتس . . .

وقاطعته تناديه ، بينما اقتربت من وجهه تلفه بانفاسها الدافئة :

– فانيا . . اننى فخورة بك . . كم انا فخورة بك . اننى . .

وهنا تنهدت على نحو ابعد ما يكون عن تنهيدة فتاة فى مقتبل العمر ، وراحت ، متغافلة عن كل ما يدور حولها ، تحيط جيده كأنثى حقيقية بيدين بضتين كبيرتين دافئتين وتحتوى شفتيه على نحو ينم عن رغبة جارفة .

وتركت الفتاة فانيا لتعدو نحو المنزل . وقد ظل فانيا ملتزما مكانه بعض الوقت ، ليستدير ثم ينطلق سريعا فى طريقه مبتعدا عن الحديقة بينما اشاح بيديه الطويلتين مصعدا الى الشمس وجهه وشعره الذى تهدل دون ان يحاول تصفيفه ثانية .

وقد تأجج ذلك الالهام الذى كان كالجمر تحت الرماد ، فى اعماقه ، نيران تلقى بأشعتها الوهاجة على وجهه ليبدو رائعا ، فى حين لا تستطيع كلافا او اى امرىء آخر رؤيته ناصعا هكذا . وطفق فانيا يسير وحيدا وهو يشيح بيديه . وكان ثمة من يواصل تفجير المناجم فى بعض المناطق ، ومن يركض هنا وهناك وينتحب ويتبادل الشتائم ، ووحدات منسحبة تسير ، وهدير مدفعية يتعالى ، وضجيج محركات يلف السماء ، ودخان وغبار فى الافق ، وشمس ترسل اشعتها الحارقة دونما رحمة . الا ان فانيا زيمنوخوف لم يكن يحس كل ذلك ، حيث كان يرى كل الوجود فى تلك اليدين البضتين الحانيتين الدافئتين تحيطان بجيده وفى تلك القبلة الحارة المبللة بالدموع والتى ظلت آثارها عالقة بشفتيه .

لم يكن كل ما يدور حوله يدفع الى نفسه ذرة خوف ، حيث كان واثقا من نفسه ومن قدراته على اتيان المستحيل . لقد كان واثقا من قدرته على تهجير ليس فقط فولوديا اوسموخين ، بل وكل المدينة بنسائها واطفالها وعجائزها ، وبكل متاعها .

«اننى فخورة بك . . كم انا فخورة بك !»

لقد ظلت عالقة بذاكرته لا تفارقها هذه الجملة التى ندت عنها بصوت خافت رقيق . ولم يكن ثمة ما يفكر فيه غير ذلك . فلقد كان عمره تسعة عشر عاما .

الفصل التاسع

لم يكن ثمة من يعلم مجرى الامور فى ظل الالمان . ولذا فقد تواعد ليوتيكوف وشولجا مسبقا على اللقاء عن طريق ثالث — صاحب

شقة مركز اللقاء الرئيسية فى كراسنودون ، وعلى اساس اشارة متفق عليها .

فخرجا ليسلك كل منهما طريقا يختلف عن طريق الآخر . هل كانا يتصوران آنذاك انهما لن يلتقيا ابدا ؟

اختفى فيليب بيتروفيتش كما ذكر لايفان فيدوروفيتش . وكان على شولجا ايضا الاختفاء على نحو لا يلحظه احد فى احدى الشقتين اللتين اشاروا عليه بهما — ولربما كان من الافضل فى شقة رفيقه الفدائى القديم ايفان جناتينكو ، او كوندراتوفيتش كما تعود الرفاق مخاطبته . بيد ان شولجا لم يكن قد رآه على مدى اثنى عشر عاما ، وراوده شعور يعكس رغبة قوية ، وقوية جدا فى عدم الذهاب اليه وخاصة فى مثل ذلك الحين .

ومهما تماسك كى يبدو هادىء الجنان ، فقد كان يشعر فى قرارة نفسه بعدم الراحة ، حيث كان فى حاجة الى انسان قريب . وراح ماتفى كوستيفيتش يقلب ذاكرته بحثا عن ذلك الذى بقى فى كراسنودون من اولئك الذين كانوا قريبين منه ايام العمل الفدائى السرى فى الفترة ١٩١٨—١٩١٩ .

وهنا تذكر ماتفى كوستيفيتش ليزا — شقيقة رفيقه ليونيد ريبالوف ، لترتسم ابتسامة رقيقة كابتسامة الاطفال على وجهه العريض الذى تكسوه ندوب الفحم . فلقد تذكر ليزا ريبالوفا التى كانت آنذاك رشيقة شقراء رابطة الجاش ، حادة التصرفات والصوت . لا تعرف عيناها الاستقرار ، تذكرها تحمل الطعام اليه والى ليونيد فى «سيناكى» ، تضحك فاغرة فاها عن اسنان بيضاء حين كان شولجا يمزح معلنا عن اسفه لانه ، على قوله ، تزوج والا لكان قد تودد لها بغية الزواج منها . بينما كانت تعرف هى زوجته جيد المعرفة !

منذ عشرة اثنى عشر عاما قابلها صدفة بالطريق ، كما شاهدها مرة اخرى فى احد الاجتماعات النسائية . ويذكر انها كانت قد تزوجت . . نعم فما كادت الحرب الاهلية تضع اوزارها حتى اقترنت بشخص يدعى اوسموخين ، التحق بالعمل فيما بعد فى المؤسسة . وكان يعمل هو ، ماتفى شولجا ، فى لجنة الاسكان حين تقرر تسليمهما شقة فى منزل كائن بالشارع الذى يفضى الى المنجم رقم ٥ .

وغرق فى ذكرياته يسترجع صور ليزا التى عرفها فى شبابه ،

لتجتاحه هذه الذكريات لدرجة شعر معها بنفسه ما يزال شابا
وبدا له كل ما كان ينبغى عليه القيام به اليوم غارقا ف تـ
شبابه . . وراح يفكر : «لا يمكن ان تكون قد تغيرت . كما ا
زوجها اوسموخين يعتبر صديقا عل اى حال . ومهما يكن الامر
وايا كانت النتائج فسوف اعرج لزيارة ليزا ريبالوفا . فلربما
يرحلا بعد . . ولربما تكون الاقدار قد ساقتنى للقائهما» ! وبشى
من القلق راودته فكرة احتمال كونها وحيدة اليوم ، حين كان يخطو
تجاه المزلقان .

حفل الحى ، عل مدى السنوات العشر التى تغيبت فيها عنه
بالمنازل المشيدة بالآجر ، وغدا من الصعب تمييز ذلك المنزل الذى
يقطنه آل اوسموخين . وطال تجواله ف الشوارع المقفرة ، بين
المنازل المغلقة النوافذ دون ان يجرؤ عل طرق احد الابواب سائلا
حتى فطن الى الاسترشاد بالمنجم رقم ٥ الذى كان يبدو بعيدا وسط
البرارى . وما ان كاد يخطو ف الطريق الذى يفضى الى المنجم حتى
وجد منزل آل اوسموخين .

كانت النوافذ مفتوحة عل مصاريعها تزينها اصص الزهور
تترامى منها اصوات فتية . وشرع يدق الباب ليعلو وجيب قلبه ك
ف سنى الصبا . ويبدو ان احدا لم يستمع الى طرقه ، مما دعاه ل
تكرار طرق الباب ، ليترامى الى سمعه دبيب خفيف لاقدام تخطو
نحو الباب .

لقد وجد نفسه قبالة ليزا ريبالوفا — يليزافيتا الكسييفنا تتنعل
شبشبا ، تبدو عل وجهها امارات غضب ومرارة وقد احمرت عيناها
وانتفختا نتيجة تلك الدموع التى ذرفتها . وفكر ف اسى : «كم انهكتها
هذه الحياة !» .

بيد انه عرفها عل التو ، عرف فيها تلك اللفتة الحادة التى
كانت تبدر عنها ف سنى الصبا تعبيرا عن التأفف تارة ، وعن الغضب
تارة اخرى . ورغما عن ذلك فقد كان ماتفى كوستيفيتش يدرك
مبلغ طيبتها . كما وكانت كعهدها ف السابق ممشوقة القوام ، لم
يعرف الشيب سبيله بعد الى شعرها الاشقر ، الا ان الغضـون
العميقة ، نتاج العمل والمعاناة ارتسمت عل وجهها . هذا وكانت غير
منسقة الهندام ، وتلك سمة لم تكن تميزها ابدا فيما سبق .

ودنت بنظرها ف تساؤل وغير مودة نحو الطارق الذى كان واقفا
عل الدرج . وفجأة ارتسمت عل وجهها امارات الدهشة ، وشىء اشبه
بسعادة تنبعث من اعماق مآقيها التى ترقرقت بالدموع ، لتهتـف
منادية :

— ماتفى قسطنطينوفيتش . . الرفيق شولجا !

وسقطت يدها التى كانت تمسك بمقبض الباب ، ثم استطردت
تتساءل : — اية رياح جاءت بك الينا ؟ وفى مثل هذا الوقت !

— معذرة يا ليزا ، ولربما كان من الافضل ان اناديك ليزافيتا
الكسييفنا . . لست ادرى . اننى راحل نحو الشرق ، ف اطار عملية
التهجير ، وقررت العروج عليكم للسؤال عن احوالكم .

— الى الشرق . . الى الشرق . الجميع الى الشرق ! ونحـن ؟
واطفالنا ؟

تساءلت بحدة ، وسارعت بترتيب شعرها ف حركة تتسـم
بالعصبية ، بينما راحت ترميه بنظراتها التى تنم اما عن غضب او
انهاك ، ثم استطردت تقول :

— انتم مسافرون نحو الشرق ايها الرفيق شولجا ، بينما يرقد
ابنى طريح الفراش بعد خروجه من المستشفى .

ثم كررت عبارة «انكم مسافرون نحو الشرق» وكأنها قد حذرت
ماتفى كوستيفيتش بالذات مرارا من امكانية وقوع ما حدث ، وها
هى تتحقق نبوتها ، لتلقى بتبعة ذلك عليه .

واجابها ماتفى كوستيفيتش بنبرة غاية ف الهدوء ، تتسم بالرضا
بالرغم من اهتزاز وتر حزن مفاجىء ف اعماقه :

— معذرة . . لا تغضبى . «اهكذا انت يا ليزا ريبالوفا ! اهكذا
تستقبليننى يا عزيزتى ليزا !» .

الا انه كان قد خبر كثيرا ف هذه الحياة ، وعرف كيف يمسك
زمام نفسه .

— فلتوضحوا الامر كما يجب . . ماذا الم بكم ؟

وتحدثت تقول بنفس الحدة ، وان عكس وجهها طيف مـودة
قديمة :

— ارجو المعذرة ! تفضل بالدخول . . غير ان ثمة مصيبـة
يشهدها بيتنا !

وكان قرناء فانيا زيمنوخوف يلقبونه فى المدرسة بالبروفيسور . ولم يكن يملك سوى حلة واحدة رمادية ذات خطوط بنية اللون ، يرتديها فى المناسبات ، والتى كانت شان كل ما يرتديه فانيا ، قصيرة لا تناسب طوله . لكنه حين كان يرتدى تحت السترة قميصا ابيض ذا ياقة محكمة الاغلاق ، ورباط عنق بنى ، وقد علت عينيه نظارته ذات الاطار الاسود ، وامتلأت جيوبه بالجرائد ، ليروح يذرع الردهة ممسكا فى يده بكتاب يضرب به كتفه بينما هو شارد البال ، يواصل سيره فى هدوء وصمت ، يلقى بظلاله على وجهه الشاحب ذلك الضوء الناصع الصافى المنبعث من اعماقه ، يفسح له الطريق كل الرفاق ولاسيما تلاميذ الصفوف الاولى ، من يشرف عليهم بحكم كونهم من الطلائع ، فى احترام عفوى وكأنما هو فى حقيقة الامر بروفيسور .

اما جورا اروتيونيانتس فقد كان يقتنى كراسة خاصة جدولها ليحسب فيها اسماء الكتب التى يقرأها ومؤلفيها وتقديراته لها . وعلى سبيل المثال :

«نيكولاى اوستروفسكى . والفولاذ سقيناه . رائع !»

«الكسندر بلوك . اشعار عن السيدة الرائعة . كلمات مبهمة كثيرة» .

«بايرون . تشايلد هارولد . لست ادرى السر الذى جعل هذه الرواية موضع اهتمام العصر ، فى حين انها مملة الى هذا الحد !»

«فلاديمير ماياكوفسكى . جيد ! (لا ملاحظات)» .

«الكسى تولستوى . بطرس الاول . رائع ! تؤكد الرواية ان بطرس كان رجلا تقدميا» .

هذا الى جانب اشياء كثيرة اخرى وردت فى تلك الكراسة المجدولة . وبوجه عام فلقد كان جورا اروتيونيانتس منظما نظيفا صلب الارادة والعقيدة ، تتسم كافة تصرفاته بالانضباط .

وقد راح جورا وفانيا طوال تلك الايام والليالى اثناء عملهما فى تهجير المدارس والمراكز الثقافية وملاجىء الاطفال ، ينهمكان فى الحديث بحرارة عن الجبهة الثانية وعن قصيدة «انتظرينى !» وعن الطريق البحرى الشمالى وعن فيلم «الحياة العظيمة» وعن اعمال عضو الاكاديمية ليسينكو وعن سلبيات حركة الطلائع ، وعن التصرفات

الغريبة لحكومة سيكورسكى فى لندن ، وعن الشاعر شيباتشيف ، وعن المذيع ليفيتان وعن روزفلت وتشيرشل ولم يختلفا فى الراى سوى حول موضوع واحد : اذ كان جورا اروتيونيانتس يعتقد ان مطالعة الجرائد والكتب اكثر فائدة من ملاحقة الفتيات فى حديقة المدينة ، بينما كان فانيا زيمنوخوف يقول انه شخصيا لو لم يكن ضعيف النظر الى هذا الحد لكان قد لاحقهن .

وبينما كان فانيا يودع امه التى كانت تذرف الدمع وشقيقته الكبرى واباه الذى راح يسعل ويشهق فى قلق متحاشيا النظر اليه ، وان كان فى اللحظة الاخيرة رسم على صدره علامة الصليب ولثم جبهته بشفتيه الجافتين ، راح جورا يحاول اقناعه بأنه لا داعى للتوجه الى منزل اوسموخين ما دام لم يستطع تدبير مركبة . غير ان فانيا ذكر انه قطع على نفسه وعدا ازاء توليا اورلوف ومن ثم توجب الذهاب وشرح الامر .

والقى الشابان بكيسيهما على كتفيهما ، فى حين القى فانيا بنظرة اخيرة نحو زاويته الاثيرة عند اعلى سريره ، حيث احتلت مكانها على الجدار صورة بوشكين من اعمال الفنان كاربوف التى نشرتها دار النشر الاوكرانية فى خاركوف ، ورف كتب احتلت مكان الصدارة فيه مجموعة مؤلفات بوشكين واعمال شعراء آخرين من معاصريه من اصدار دار «الكاتب السوفييتى» فى لينينجراد . واذ نظر فانيا نحو كل ذلك شد فى حركة سريعة مبالغ فيها غطاء راسه ليغطى عينيه ، وانطلق مع رفيقه الى اوسموخين .

اما فولوديا فلقد كان نصف متمدد فى فراشه يرتدى قميصا ابيض يغطى نصفه الاسفل بملاءة سرير ، بينما استقر الى جواره كتاب «الوقاية الآلية» المفتوح مما يؤكد انه كان يطالعه فى الصباح .

وفى زاوية الغرفة تكدست على نحو ما مفاتيح ولفة اسلاك وآلة تصوير صنعت يدويا وبعض اجزاء جهاز راديو القيت فى اهمال الى جوار النافذة . فقد كان فولوديا اوسموخين يهوى الاختراعات ويحلم بان يصبح مهندس تصميمات الطائرات .

وقد احتل مقعدا خشبيا الى جوار فراش المريض ، توليا اورلوف اقرب اصدقاء فولوديا الذى كان يتيم الابوين ، لقب «بالرعد» لكونه

يعانى من زكام مزمن يلازمه صيفا وشتاء يجعله يسعل بصوت عال وكانما يصدر عن اعماق برميل فارغ . كما وكان يجلس محدودب الظهر ، مباعدا بين ركبتيه الضخمتين . ونشير هنا الى ان كل مفاصل كوعه ورسغيه وركبتيه وقدميه كانت ضخمة على نحو غير عادى . وتطاير شعره الرمادى الكث فوق راسه الكبير ، وتبدت امارات الحزن فى عينيه .

وسأل زيمنوخوف فولوديا :

– او يعنى هذا انك لا تستطيع السير على الاطلاق ؟

واجاب فولوديا فى وجوم :

– كيف لى السير . . لقد ذكر الطبيب ان الجرح يمكن ان يفتح ، لتتساقط كل احشائى .

ولم تكن امارات الكآبة تعلو وجهه لانه مضطر الى البقاء وحسب ، بل ولان امه وشقيقته ستبقيان ايضا بسببه .

وتدخل جورا اروتيونيانتس يقول فى لهجة آمرة :

– فلترنى الجرح !

– ماذا تقول ! ان الضمادات تلفه !

قالتها لوسيا شقيقة فولوديا بنبرة تنم عن خوف ، بينما كانت تتكأ بمرفقيها على مسند السرير عند قدميه .

وندت عن جورا ابتسامة مهذبة ليقول بلكنته الارمنية الطريفة التى تضفى على حديثه اهمية خاصة :

– لا داعى للقلق ، فلسوف يكون كل شىء على ما يرام . لقد اجتزت برنامج الاسعافات الاولية وفى امكانى فك الضمادات وربطها على نحو رائع .

واعترضت لوسيا قائلة :

– انه امر لا يتفق والاصول الصحية .

واجاب جورا بلهجة لا تقبل الاعتراض :

– لقد اثبت الطب العسكرى الحديث الذى يطبق فى ظروف ميدانية قاسية ان ذلك محض خرافات .

وردت لوسيا فى استعلاء :

– لا بد وانك قرات ذلك فى معرض امر آخر .

بيد انها راحت بعد لحظة وجيزة تنظر ببعض الاهتمام نحو هذا

الصبى الاسمر ، فى حين راح يخاطبها فولوديا بلهجة تنم عن غضب :

– دعك من هذا الهراء يا لوسيا . ان ذلك امر يمكن ان يبدر عن ماما بحكمها متوترة الاعصاب ، فما بالك انت تهتمين بامور لا تعنيك ! فلتخرجى من هنا !

واذ رمى بالغطاء جانبا ، كشف عن ساقيه النحيلتين مفتولتى العضلات ، اللتين لفحتهما اشعة الشمس وبدتا على نحو اكد ان المرض وملازمة المستشفى لم يؤثرا فى سمارهما وقوة عضلاتهما .

واستدارت لوسيا بوجهها ، بينما راح فانيا وتوليا اورلوف يعينان فولوديا على النهوض قليلا . اما جورا فقد نحى سرواله قليلا وشرع فى فك الضمادات التى تحيط بالجرح ، الذى بدا متقيحا فى حالة غاية فى السوء . وعلا الشحوب وجه فولوديا الذى راح يبذل قصارى جهده حتى لا يعكس وجهه امارات احساسه بالآلام .

وعلق جورا قائلا بينما ارتسمت الغضون على جبهته :

– ان الامر لسىء بالفعل . اليس حقا ؟

ووافقه فانيا بقوله :

– انه بالاحرى جد سىء !

وشرعوا يضمدون الجرح ثانية فى صمت ، يتحاشون النظر نحو فولوديا الذى كانت عيناه تعكسان امارات حزن ، تستجديان نظرات رفيقه اليه ، فى حين انهما كانتا دائما فيما سبق تشعان جسارة ودهاء . وها هم الآن مواجهون باصعب الامور . . لقد كان عليهم ترك رفيقهم ، فى الوقت الذى يعلمون فيه ما سوف يحيق به .

وعندئذ تساءل ماتفى كوستيفيتش فى محاولة لتحويل مجرى الحديث :

– واين زوجك يا ليزا ؟

واجابت يليزافيتا الكسييفنا فى لهجة قاطعة :

– لقد مات . توفى فى العام الماضى ، اى قبل اندلاع الحرب ، بعد مرض انتابه طويلا . – ورددت هذه الجملة عدة مرات بنبرة اوحت الى شولجا بان ثمة مسئولا عن هذا . ثم استطردت تقول فى حزن :

– آه يا ماتفى كوستيفيتش ! لقد اصبحتم كذلك من عداد

المسئولين ، ولربما تكونون غير مدركين لكل ما يجرى ، لكل ما نرزح اليوم تحت وطاته . انك اليوم تمثل السلطة التى تمسك بمقاليد امورنا نحن البسطاء . اننى اذكرك من البسطاء مثلنا ، اذكرك يوم رحت واخى تناضلان فى سبيل حياة افضل نعيشها . وليس ثمة ما يمكن اتهامك به ، وادرك انه يستحيل عليك البقاء لتلقى حتفك . لكن الست ترى ان هناك من يرحل حاملا متاعه وشاغلا عربات نقل باكملها بتفاهات فضلها علينا نحن البسطاء ، غير عابىء بنا نحن الصغار الذين صنعنا كل ذلك .

واستطردت تقول وقد اختلجت شفتاها :

— آه يا ماتفى قسطنطينوفيتش ! الا ترى ان هذه الاشياء اثمن لدى هؤلاء الاوغاد ، ومعذرة للتعبير ، منا نحن ؟ ثم وتتعجبون بعد كل ذلك من كون الآخرين يغضبون منكم ! انه ليكفى المرء ان يعانى ذلك مرة واحدة فى حياته ليفقد الثقة فى كل شىء !

وقد تواردت هذه الفقرة الاخيرة مرارا الى خاطر شولجا لتداخله مشاعر الالم والحزن . اذا كان اسوأ ما فى الامر ادراكه فى قرارة نفسه بكنه تلك المشاعر التى راودت هذه المراة ، واحساس قلبه المفعم بالطيبة والحيوية بما يمكن ان يهدا من روعها . بيد انها حين راحت تطلق العنان لنفسها معبرة بذلك عن احزانها وغضبها ، كما بدا له ، ظهرت على نحو مغاير تماما لذلك النحو الذى عرفها عليه ابان صباها . وكم كان مهينا بالنسبة له هو الذى ظل مكانه لا يبارحه ، بينما كانت كل عائلته تحت سطوة الالمان ، وربما تكون قد لقيت حتفها ، ان تتحدث هذه المرأة عن نفسها فقط ودون ان تساله عن اخبار عائلته وزوجته التى كانت صديقة لها . وفجاة ندت عن شفتى شولجا بدوره كلمات اورثته الندم فيما بعد . اذ قال فى برود :

— لقد تماديت فى افكارك يا يليزافيتا الكسييفنا . . تماديت كثيرا ! انه لامر عادى بالطبع ان يفقد المرء ثقته فى سلطته ، حين تكون السلطة الالمانية على الابواب . — واستطرد يتساءل بينما رفع سبابته التى كساها الشعر ، مهددا ، وتعالى الى الاسماع هدير قصف المدفعية الذى اقتحم الغرفة :

— هل تسمعيننى ؟ الم تفكرى لحظة فى ان افضل ابناء شعبنا

البسطاء الذين تقلدوا زمام السلطة ، كما تذكرين ، يلقون حتفهم هناك . ولتدعينى اؤكد لك انهم زهرة رجالنا ، انهم الشيوعيون ! وما دمت قد فقدت ثقتك بهؤلاء ، وفى مثل تلك الساعة التى يدوسنا فيها الالمان باقدامهم فاننى اعرب لك عن اسفى الشديد .

واختلجت شفتاه كطفل صغير ، حين راح يكرر على نحو ينم عن تهديد :

— دعنى اعرب لك عن اسفى ، وحزنى من اجلك !

— ماذا تقول ؟ ماذا الذى تقوله ؟ هل تود اتهامى باننى اجلس فى انتظار الالمان ؟

صرخت يليزافيتا الكسييفنا فى حدة وقد انتابتها مشاعر الحنق لكونه قد فهمها على هذا النحو واستطردت تقول :

— يا لكم من انسان ! . . وابنى ؟ اننى ام ! . . اما انت . . .

— هل نسيت يا يليزافيتا الكسييفنا يوم كنا سويا عمالا بسطاء ، كما تقولين نواجه اخطار الالمان والبيض . هل فكرنا آنذاك فى انفسنا قبل كل شىء ؟ — واستطرد ماتفى كوستيفيتش يقول فى مرارة دون ان يعيرها سمعا :

— اننا لم نكن نفكر فى انفسنا ، بل رحنا نفكر بادىء ذى بدء فى افضل رجالاتنا ، فى زعمائنا . فلتتذكرى اخاك ! لقد كنا نحن العمال نفكر هكذا . . نفكر فى اخفاء زعمائنا ، فى الحفاظ على افضل رجالنا وزهرة شبابنا ، على ان نضطلع نحن بعبء الدفاع . هكذا كان يفكر ، بل وما يزال يفكر على هذا النحو كل عامل ، حيث يعتبر ان النقيض امر معيب مزرى . هل بلغ بك الامر هذا الحد يا يليزافيتا الكسييفنا ؟

— مهلا !

ندت فجاة عن يليزافيتا الكسييفنا ، التى هبت واقفة تصيخ السمع الى ما يجرى فى الغرفة الاخرى . وراح شولجا كذلك يتنصت السمع .

لقد ساد الصمت الغرفة الاخرى ، مما جعل الروع يداخل نفس الام ، التى اندفعت نحو الباب فى طريقها الى ابنها وقد تناست وجود ماتفى كوستيفيتش فى ضيافتها . اما ماتفى كوستيفيتش الذى بدا

ساخطا ، غير راض عن نفسه فقد خرج بدوره الى الردهة يعرك غطاء راسه بيديه اللتين كساهما الشعر الداكن .

استقر ابن يلزافيتا الكسييفنا فى فراشه ، وقد نهض بعض الشيء يصافح رفاقه ، يشد على اياديهم طويلا فى صمت ، تند عنه حركات تنم عن قلق وعصبية وتتمثل فى ايماءاته براسه الحليق والذى بدا يكسوه الشعر . وكم كان غريبا فى مثل حالته هذه ان تتبدى على وجهه امارات المرح والغبطة وتشع عيناه الضيقتان الداكنتا اللون . وقد كان يقف الى جواره احد رفاقه وقد انتفش شعره وتبدت عظام جسده الضخم ، ينظر اليه بحيث لم يكن يظهر سوى مسقط جانبى لوجهه الذى علته امارات بهجة وقد راح يجول بناظريه الواسعين فى النافذة التى فتحت على مصراعيها تستقبل اشعة الشمس .

اما الفتاة فقد كانت ما تزال واقفة عند قدمى المريض والابتسامة تعلو ثغرها . وقد شعر ماتفى كوستيفيتش بالالم يعتصر قلبه فجاة حين عرف فيها ليزا ريبالوفا ايام صباها . نعم لقد كانت هكذا ليزا التى عرفها منذ ما يزيد عن عشرين عاما ، وان كانت هذه اكثر رقة من ليزا العاملة بيديها الكبيرتين بعض الشيء وحركاتها الحادة التى كان يعرفها ويحبها .

«لقد حان وقت الانصراف . .» هذا ما ورد الى خاطره وهو يعرك غطاء راسه بيديه ويتقدم نحو الباب فى ارتباك ، بينما كان صرير اخشاب الارضية يتعالى تحت وقع خطواته .

واندفعت يليزافيتا الكسييفنا نحوه تتساءل بصوت عال :

— هل تعتزم الانصراف ؟

— ليست ثمة حيلة باليد ، كما يقال . لقد آن وقت الانصراف ، فلا تغضبى .

قالها ثم وضع طاقيته على راسه .

— الآن ؟

تساءلت ليزا بصوت ينم عن مرارة واسف ، وربما لم يكن الامر يخرج عن انه تصور ذلك .

واستطردت تقول فيما كانت تسدل يديها :

— لا تغضب ، ولتصحبك السلامة . وارجو الا تنسنا .

وقد كانت نبرات صوتها تعكس ما ينم عن طيبة وامومة مما جعله يشعر بغصة فى حلقه ، وانطلق يخطو خارجا الى الشارع وهو يقول فى كآبة :

— وداعا !

آه . . عبثا رحلت ايها الرفيق شولجا ! عبثا تركت يليزافيتا الكسييفنا وهذه الفتاة التى كانت شبيهة بليزا ريبالوفا فى سنى صباها ! عبثا انك لم تمعن الفكر ، ولم تدن بمشاعرك قريبا مما كان يحدث على مراى منك بين اولئك الشباب ، بل ولم تكلف نفسك حتى عناء معرفة نوعياتهم !

ولقد كان من الممكن ان تسير حياة ماتفى كوستيفيتش على نمط آخر لو لم يسلك ذلك المسلك ! غير انه لم يكن قادرا على ادراك ذلك وحسب ، بل وكان يئن تحت وطاة مشاعر الغضب والمهانة . ولم يكن امامه مفر سوى التوجه نحو الحى الذى كان يسمى فى الماضى «جولوبياتنيكى» بحثا عن مسكن رفيقه فى العمل الفدائى فيما مضى — ايفان جناتينكو او ببساطة كوندراتوفيتش الذى لم يزره طيلة اثنتى عشرة سنة . او كان يدرى آنذاك انه قد خطا اولى خطواته على الطريق الذى افضى به الى الهلاك ؟

وهاكم ما حدث فى اللحظة الاخيرة التى سبقت خروجه فى اثر يليزافيتا الكسييفنا الى الردهة . . ما شهدته تلك الغرفة التى تمدد فى فراشه بها ابن يليزافيتا الكسييفنا . . .

لقد كان ثمة صمت كئيب يسودها ، الى ان هب واقفا توليا اورلوف ، ذلك الذى كانوا يلقبونه «بالرعد» . هب من مقعده ليعلن انه ما دام افضل اصدقائه — فولوديا غير قادر على الرحيل ، فانه اى توليا اورلوف سوف يظل الى جواره .

اصاب الذهول الجميع لحظة من الزمن راح بعدها فولوديا الذى ترقرقت الدموع فى ماقيه يقبل توليا اورلوف ، مما كان مدعاة لدفقة من مشاعر الغبطة تغمرهم جميعا . فقد اندفعت لوسيا نحو «الرعد» تحيط جيده وتغمره بقبلاتها فى وجنتيه وعينيه وانفه . ولم يكن يجد لحظة اسعد من تلك ! ثم القت بنظرة تنم عن غضب نحو جورا اروتيونيانتس . فقد كانت تراودها مشاعر رغبة قوية فى ان يبقى كذلك هذا الفتى الاسمر حسن الهندام !

وعلق فانيا زيمنوخوف على ذلك قائلا بصوت اجش :

– هذا رائع ! يا لك من رفيق . . يا لك من رفيق حقيقى يا توليا ! اننى فخور بك ! – لكنه استطرد معقبا :

– اننى وجورا فخوران بك !

ثم شد على يد توليا مصافحا .

وشرع فولوديا يقول وقد انبعث البريق من عينيه :

– وهل ثمة من يعتقد اننا سوف نعيش فى دعة وخمول ؟ اننا سوف نناضل . . اليس الامر كذلك يا توليا ؟ كما وانه يستحيل الا يكونوا قد تركوا بعض رجال اللجنة الحزبية للمنطقة لتنظيم العمل الفدائى السرى . اننا سوف نجدهم ! اولسنا قادرين على ان نكون ذوى منفعة !

الفصل العاشر

انخرط فانيا زيمنوخوف وجورا اروتيونيانتس بعد ان ودعا فولوديا اوسموخين فى خضم تيار النازحين الذين راحوا يسيرون بمحاذاة السكة الحديدية فى اتجاه ليخايا .

وكانت خطتهما فى البداية تقضى بالتوجه نحو نوفوتشيركاسك حيث يوجد لجورا اروتيونيانتس وكما ذكر بنفسه ، قريب ذو نفوذ يستطيع ان يعينهما على مواصلة الرحلة فيما بعد . وقد كان هذا القريب يعمل اسكافيا بالمحطة . بيد ان فانيا الذى كان جورا يطيعه طاعة الصغير للرفيق الاكبر سنا ، ما ان عرف بأن آل كوفاليوف يعتزمون السفر الى ليخايا ، حتى عرض على جورا فى اللحظة الاخيرة اتباع هذا الطريق قارنا اقتراحه بعدد من الحجج الغامضة . وقد وافق جورا على استبدال خط السير الواضح المعالم الذى اقترحه ، بخط سير زيمنوخوف مبهم التفاصيل حيث كان الامر بالنسبة له سيانا تماما .

وفى احدى مراحل الطريق انضم اليهما رائد قصير القامة ، غير مستقيم الساقين ، كث الشارب يرتدى سترة عسكرية مكرمشة للغاية تعلو شارة «الحرس» جانبها الايمن ، بينما كان حذاؤه فى حال يرثى لها . وكان لباسه العسكرى ولاسيما حذاؤه على هذا النحو

لتكديسه كما ذكر بنفسه ، على مدى خمسة اشهر فى مخزن المستشفى التى ظل طريح الفراش بها طوال تلك المدة .

وقد كان المستشفى العسكرى يشغل فى الآونة الاخيرة احد اجنحة مستشفى كراسنودون المركزى ، وتم اجلاؤه . غير انه ونظرا للنقص فى وسائل النقل عرض على كل من يستطيع مواصلة السير مغادرة المدينة التى بقى بها ما يزيد عن مائة جريح فقدوا كل الامل فى الخروج من مازقهم .

وفيما عدا ذلك الشرح المسهب حول مصيره ومصير المستشفى لم يذكر الرائد شيئا على الاطلاق ، وظل ملتزما الصمت بقية الطريق ، دون ان يوحى حتى بأنه سوف يقول شيئا . هذا علاوة على انه كان مصابا بعرج ؛ الا ان ذلك لم يحل دون متابعته للسير فى حذائه الرث وعلى نحو يوحى بالحماس . وسرعان ما كسب احترام الشابين اللذين راحا يتوجهان اليه دائما فى حديثهما بوصفه شخصية مهيبة صموتة ذات نفوذ .

وقد راح فانيا وجورا يقطعان البرارى سيرا على الاقدام وقد شمرا عن سواعدهما وامسكا فى يديهما بغطائى راسهما ، وقد استقر على ظهريهما كيسا حاجياتهما تفعمهما الهمة والامال ، بينما كانت الغالبية من المسنين والشباب ، من الرجال ، وليس النساء فقط ، تحمل السلاح تعانى وتئن فى خضم تيار الانسحاب الذى لا يتوقف . وقد كانا يتميزان عن الآخرين بكونهما ما يزالان فى مقتبل العمر وحيدين يجهلان مواقع العدو ومواقع ذويهم . لا يعيران سمعا للاشاعات ، وكانما كل هذا العالم بما فيه من مثل هذه البرارى مترامية الاطراف والغارقة فى بحار من اشعة الشمس الحارقة ودخان الحرائق والغبار والسحب المخيمة على الطرق التى يقصفها الالمان تارة هنا ، واخرى هناك . . . وكانما كل هذا العالم فى متناولهما . وراحا يتبادلان الحديث حول امور لا تمت على الاطلاق بصلة تربطها بما يجرى فيما حولهما .

فقد تساءل فانيا بصوته الاجش :

– ما الذى يجعلك تصور مهنة القانونى غير ذات شان فى ايامنا هذه ؟

واجاب جورا على نحو يتسم بالدقة والوضوح كعادته على الرغم من انه كان فى السابعة عشرة من عمره :

— لانه يجب على المرء ان يكون عسكريا ما دامت الحرب دائرة ، وحين تضع اوزارها يجب عليه ان يعمل مهندسا لاعادة بناء البلاد ، اما مهنة الحقوقى فليست بالمهنة الهامة .

— هذا امر طبيعى . اننى اود الانخراط فى سلك العسكرية ما دامت الحرب دائرة ، الا انهم يرفضوننى لضعف نظرى . اننى اراك حين تبتعد قليلا شيئا غير واضح المعالم طويلا . . . اسمر .

واستطرد يقول والابتسامة تعلو شفتيه :

انه من الطبيعى ان يكون المهندس صاحب مهنة ذات شان ، غير ان ميول المرء هى التى تحدد اتجاهه وانت تعرف ميلى الى قرض الشعر .

— عندئذ يجب عليك الالتحاق باحد المعاهد الادبية .

هكذا اجابه جورا بمنتهى الوضوح والدقة ، ونظر نحو الرائد بوصفه الانسان الوحيد القادر على ادراك مدى صحة احكامه . بيد ان الرائد لم يعر كلماته اى اهتمام .

وتحدث فانيا يقول :

— ان هذا هو ما لا اوده . فلم يدرس بوشكين ، ولم يدرس تيوتشيف فى اى من المعاهد الادبية ، بل ولم تكن هناك اية معاهد من هذا النوع آنذاك . علاوة على انه من المستحيل على المرء ان يتعلم كيف يصبح شاعرا فى احد المعاهد التعليمية .

واجابه جورا :

— يمكن ان يتعلم المرء كل شىء .

— كلا . انه من الغباء تصور امكانية تعلم قرض الشعر فى معهد تعليمى . يجب على كل انسان اتمام دراسته وبدء حياته بممارسة مهنة عادية . اما اذا كان موهوبا بطبيعته فى قرض الشعر فسوف تتطور هذه الملكة بالممارسة الذاتية . وهنا فقط اعتقد فى امكانية ان يصبح المرء اديبا . فلقد كان تيوتشيف على سبيل المثال يعمل فى السلك الدبلوماسى ، وجارين يعمل مهندسا ، وتشيخوف طبيبا ، وتولستوى من كبار ملاك الاراضى .

— مهنة مريحة . .

ندت عن جورا بينما توجهت عيناه الارمنيتان السوداوان نحو فانيا بما يعنى المداعبة .

وابتسم كلاهما ، كما وندت ابتسامة على شفتى الرائد الصموت .

وتساءل جورا بلهجة جادة :

— وهل كان هناك اديب احترف مهنة الحقوقى ؟

ولقد كان يناسبه تماما ما اذا كان احد الادباء قد احترف القانون .

واجاب فانيا :

— هذا هو ما لا اعرفه . غير ان معرفة العلوم الحقوقية تيسر للاديب معرفة العلوم الاخرى اللازمة — فى مجال التاريخ والحقوق والعلوم الاجتماعية والاداب .

وقال جورا بنبرة تنم عن شىء من الزهو :

— فلنفترض انه من الافضل دراسة هذه العلوم فى معهد تربوى .

— اننى غير راغب فى ان اصبح معلما ، بالرغم من انكم لقبتمونى بالبروفيسور .

وذكر جورا :

— على الرغم من كل هذا فاننى اعتقد انه من البلاهة ان يلعب المرء دور المحامى فى محاكمنا ، وعلى سبيل المثال فى قضية اولئك الاوغاد المخربين . . هل تذكرها ؟ اننى افكر طوال الوقت فى دور المحامين . . يا له من دور يتسم بالحماقة . . اليس كذلك ؟

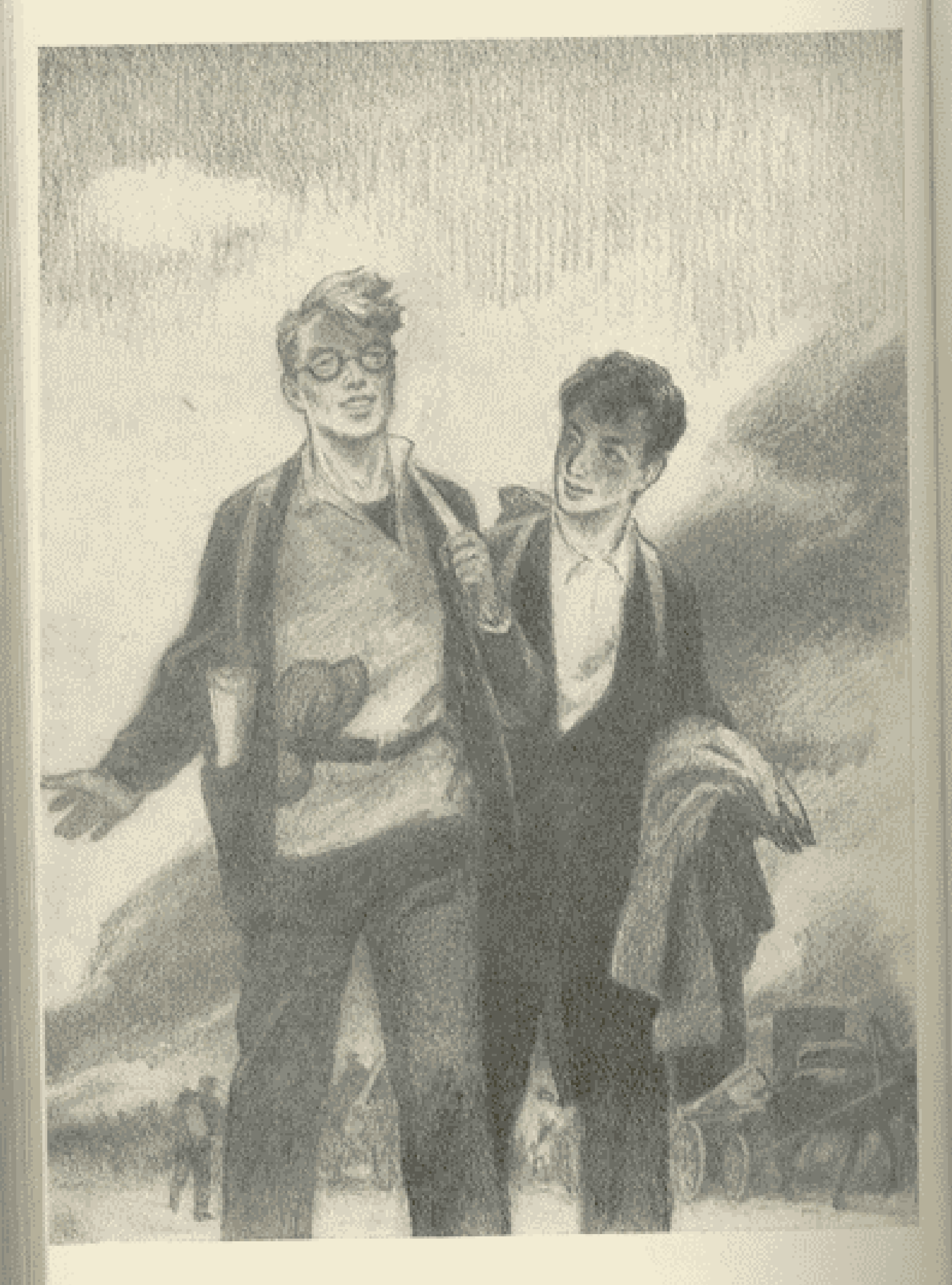
وهنا انفجر جورا ضاحكا لتظهر اسنانه البيضاء الناصعة .

— لا شك فى ان وظيفة المحاماة فى بلادنا ليست ذات شان ، حيث ان محاكمنا شعبية . غير اننى اعتقد ان وظيفة المحقق مهنة غاية فى الطرافة تعين المرء على معرفة نوعيات لا حصر لها من البشر .

وذكر جورا :

— انه من الافضل ان يشغل المرء وظيفة المدعى . هل تذكر فيشينسكى ؟ يا له من رائع . ومع ذلك فاننى شخصيا لا اهوى مهنة الحقوقى .

وهنا قال فانيا :



— لقد كان لينين حقوقيا !
— كان العصر غير العصر .
وهنا ذكر فانيا والابتسامة تعلو شفتيه :
— لقد كان من الممكن الاستطراد فى الجدل ، لو لم اكن على يقين تام من ان النقاش حول اختيار مهنة المستقبل امر غير ذى نفع ويتسم بالحماقة . اذ انه من الواجب على المرء ان يكون متعلما خبيرا فى شئون مهنته ، محبا لعمله . اما اذا كانت لديه موهبة نظم الشعر ، فسوف تظهر من تلقاء نفسها .
— فانيا ! انك تعلم اننى كنت اطالع اشعارك بكل سرور سواء فى جريدة الحائط او فى مجلة «الشراع» التى كنت تصدرها بالتعاون مع كوشيفوى .
وتساءل فانيا فى حيوية :
— اوكنت تقرأ هذه المجلة ؟
واجابه جورا فى لهجة احتفالية :
— نعم لقد كنت اطالع هذه المجلة . كما وكنت اطالع مجلتنا المدرسية «التمساح» .
واستطرد يقول فى نبرة عن اعتزاز بالنفس :
— لقد كنت اتابع كل ما ينشر فى مدرستنا . ويمكننى ان اقول لك بكل تحديد . . انك تملك موهبة نظم الشعر .
وذكر فانيا بينما تحول بنظره نحو الرائد فى ارتباك ، والقى براسه الى الخلف ليعيد شعره الطويل المتهدل الى مكانه :
— اية موهبة . . اننـــى ما زلت اسطر الابيات بعد . . بوشكين . . انه حقا شاعرى المفضل . . الهى !
وهنا صاح جورا وقد فرضت نفسها ثانية لهجته الارمنية عــلى حديثه .
— كلا . . انك تنظمه بشكل رائع . اذكر كيف سخرت مــن لينكا بوزدنيشيفا لتثنيها كثيرا امام المرآة . . ها . . ها . . انه لرائع حقا . ماذا كتبت هل تذكر ؟ . . «وفغرت ثغرها الجميل . . .» ها . . ها .
وذكر فانيا بصوته الاجش فى ارتباك :
— يا له من هراء !

وتساءل جورا فى لهجة مبهمة :

– الم تكتب اشعار الغزل ؟ ثم استطرد يتساءل وهو يغمز للرائد بطرف عينه :

– فلتقرأ لنا شيئا منها !

واعترى الارتباك فانيا تماما ليقول :

– اى غزل تتحدث عنه ؟ ماذا اصابك فى حقيقة الامر !

وقد كان قد كتب بالفعل اشعار غزل كرسها لحبيبته كلافا وعنونها ، مثل بوشكين – «الى ك . . .» . وقد راودته آنذاك ذكرياته معها ، واحلامه بشأنها . لقد كان سعيدا ، نعم سعيدا فى بحر الشقاء والتعاسة . ولكنه لم يكن قادرا بطبيعة الحال الافصاح لجورا عن ذلك .

وراح جورا يواصل الحاحه بينما تتالق عيناه الارمنيتان فى صبيانية :

– كلا . . ان لديك اشعارا منها . فلتقرأ علينا بعضها . هيا . . نستحلفك بالله !

– دعك من هذه الترهات !

وهنا كست امارات الجد وجه جورا ليتساءل فجاة بنبرة المعلم :

– الست حقا تكتبها ؟ وحقا تفعل . فهل هذا هو اوان نظم اشعار الغزل ، كما يفعل سيمونوف هذا ؟ فى حين يجب تربية الشعب فى روح من الحقد وكراهية الاعداء ! انه من الواجب نظم الاشعار السياسية مثلما فعل ماياكوفسكى ، ويفعل سوركوف ! اليس ذلك رائعا ؟ !

واجاب فانيا بنبرة تنم عن استغراق فى التفكير :

– ليس الامر هكذا تماما . اذ يستطيع المرء الكتابة فى كافة الموضوعات فما دمنا قد جئنا هذا العالم ، لنعيش تلك الحياة التى ربما كانت اجيال كاملة تحلم بها وتناضل من اجلها ، فاننا نملك حق التغنى بكل ما نعيشه . . فذلك امر هام من الصعب ان يتكرر ثانية !

وعاد جورا يرجوه :

– استحلفك بالله ان تنشدنا شيئا !

كان الجو حارا خانقا لا يطاق . . الا انهما كانا يسيران تتعالى

ضحكاتهما وصياحهما تارة ، بينما يلتزمان الهدوء ويتبادلان الحديث فى همس تارة اخرى . كانا يسيران ، يلوحان بايديهما يتصبب ظهراهما عرقا ، تحت وطأة احمالهما . كما علا وجهيهما الغبار الذى اختلط بالعرق وجعلهما يبدوان ، جورا الاسمر كما الزنجى وفانيا ذو الوجه المستطيل الشاحب ، بل وكذلك الرائد كث الشارب مثل منظفى المداخن بيد ان كل ذلك لم يكن يعنيهما آنذاك فى شىء ، ولم يكونا يشكان لحظة واحدة فى ان العالم بالنسبة لهما وللرائد ايضا لا يخرج عن اطار ما كانا يتبادلان الحديث حوله .

. حسنا . . سوف اتلو . .

وراح فانيا بصوته الاجش الهادىء يتلو دون ان تبدو عليه اية امارات اضطراب :

نحن لا نعرف اليأس والملل
نحن لا نخاف الحياة
اننا نعرف الثبات
اننا لا نخاف الخطوب

سنواتنا تمضى جريئة صاخبة
ايامنا تمضى جريئة صاخبة
والاحلام بهيجة رائعة
تجيش فى صدورنا الهادرة . . .

نحن لا نمقت المعيشة
نحن لا نعرف الملل
والصبا لا يعرف الشكوك
الصبا يجهل الحياة المقفرة . . .

كومونة العالم تنادينا
وفى جسارة نلبى النداء
انظارنا متعلقة بالاعالى
قلوبنا تواقة للفداء . . .

يا لك من رائع ! انك صاحب موهبة حقيقية !

صاح جورا وهو ينظر فى اعجاب خالص الى رفيقه .

وهنا ندا عن الرائد صوت غريب مما جعل جورا وفانيا يلتفتان

نحوه ، ليخاطبهما بصوت مبحوح بينما راح ينظر اليهما بعينيه المترقرقتين بالدموع الغائرتين تحت حاجبيه الكثين ، تبدو عليه امارات الاضطراب :

– انكما ايها الصبيان . . . انكما لا تعرفان مدى شطارتكما !

واستطرد يقول مهددا بسبابته التى علاها الغبار :

– كلا . . لقد صمدت هذه الدولة فى الماضى ، وسوف تصمد فى الحاضر !

ثم مضى يقول وقد اتسمت بنبرته بالسخرية :

– انه يظن انه قضى على حياتنا . كلا يا صاح . . انك تتشاقى ! ان الحياة تسير . . بينما يظنك اولادنا طاعونا او وباء . كلا . . لقد جئت . . وسوف ترحل ، لتستمر الحياة فى مجراها الطبيعى . . ومن كان يدرس فسوف يواصل دراسته ، ومن كان يعمل فسوف يواصل عمله . اى تفكير كان يراوده ! ان حياتنا سوف تستمر ابد الدهر . . فاين هو من ذلك ؟ انه دمل بسيط ما ان تضغط عليه حتى ينتهى تماما . ان الامر لبسيط ! لقد كدت نفسى ان افقد معنوياتى فى ذلك المستشفى اللعين . كنت اظننا غير قادرين على التصدى له ، حتى انضمت اليكما . . لقد استعدت معنوياتى . اننى اظن ان ثمة كثيرين يلعوننا نحن العسكريين . . فهل يصح هذا ؟ هل بسبب الانسحاب ؟ الم يحشد جل قواه ضدنا ؟ ومع ذلك فما اعظم قوانا المعنوية ! يا الهى ! ان المرء لتنتابه سعادة هائلة حين يصمد مكانه مفضلا التضحية بحياته على التراجع .

واستطرد الرائد يقول وقد اعتراه قلق اصاب جسده النحيل الجاف :

– فلتصدقانى . . لقد كانت سعادة لا حد لها التضحية بالذات من اجل الصبية من امثالكما !

واذ لزم فانيا وجورا الصمت راحا ينظران اليه وقد ارتسمت على وجهيهما امارات الطيبة والارتباك .

واذ فرغ الرائد من حديثه ، رمش بعينيه ومسح شاربه بمنديل قذر ولزم الصمت ، دون ان ينبس ببنت شفة حتى ارخى الليل سدوله . اما ليلا فقد اندفع الرائد مفعما بطاقة وحيوية المت به فجأة

«يزيل» ، على حد قوله ذلك الازدحام الهائل من السيارات والمركبات وعربات المدفعية ، ليغيب عن انظار فانيا وجورا اللذين نسياه على التو .

واستغرق طريقهما حتى ليخايا طيلة يومين كاملين ، اتضح خلالهما ان المعارك تدور فى الجنوب قريبا من نوفوتشيركاسك ، اما على الشاطىء الآخر من نهر الدونيتس فقد كانت تعبث الدبابات والوحدات الالمانية الميكانيكية فى البراري الرحبة فيما بين نهرى الدونيتس والدون .

بيد ان الشائعات كانت تؤكد ان ثمة وحدة عسكرية خاضت نضالا ضاريا بالقرب من كامينسك تقطع الطريق على الالمان نحو ليخايا . وقد تناقلت الافواه اسم الجنرال قائد الوحدة التى كان لها فضل تامين المعابر على الدونيتس الاسفل ، وحرية الحركة فى البرارى حتى الدون ، وكذلك حرية عبوره .

وفى الليلة الاخيرة سقط فانيا وجورا منهكي القوى وبعد مسيرة دامت عدة ايام تحت اشعة الشمس الحارقة ، ليستغرقا فى سبات عميق على كومة من القش فى احد الاكواخ . وقد استيقظا تحت وقع دوى انفجارات القنابل هزت اركان الكوخ .

لم تكن الشمس قد استقرت عالية بعد فوق البرارى ، بيد ان اشعتها الذهبية المشوبة بالزرقة كانت تنعكس فوق حقول القمح مترامية الاطراف لتزيد من حرارة الجو حين ادرك فانيا وجورا مخيما هائلا من السيارات والمركبات والبشر الذين احتشدوا على شاطىء الدونيتس فى مواجهة البلدة الكائنة على الشاطىء الاخر بحدائقها اليانعة ومبانيها الحجرية التى استقرت بها المؤسسات الحكومية والتجارية والمدارس التى اسفر القصف الجوى عن تدمير الجزء الاعظم منها والذى غدا اطلالا يبعث منها الدخان .

وقد راح قوام هذا المخيم الهائل يتجدد على نحو مستمر يؤمه النازحون وتقصده العربات ، يشكل بعض القدامى اساسه يعيش نمطا فريدا من الحياة لا يتكرر منذ ان تكون من اسبوعين تقريبا .

لقد كان ذلك خليطا عجيبا من بقايا الوحدات العسكرية والعاملين فى المؤسسات والهيئات ومن كل انواع وسائل النقل ومن النازحين الذين ينتمون الى مختلف الفئات الاجتماعية والاعمار والاحوال

العائلية . ولم يكن لكل هؤلاء هم او اهتمام سوى محاولة الاقتراب من النهر . . من ذلك المعبر الضيق العائم على نهر الدونيتس .

بيد انه اذا كانت جهود كل هؤلاء الذين احتشدوا فى المخيم قد استهدفت الوصول الى الكوبرى ، فقد كانت جهود العسكريين المسئولين عن المعبر ، تستهدف الحيلولة دون وصول هؤلاء الناس الى الكوبرى العائم بغية السماح بادىء ذى بدء بعبور وحدات الجيش الاحمر التى كانت تنسحب نحو خطوط دفاعات جديدة فيما بين نهرى الدونيتس والدون .

وفى خضم هذا الصراع المحتدم بين الرغبات والجهود الفردية ، وبين ما املته الضرورة العسكرية وامن الدولة ، وفى ظل الخوف من ظهور العدو فى الآونة القريبة على هذا الشاطىء ايضا ، وحين انتشرت الشائعات التى كانت كل منها اسوأ من الاخرى تثير الرغبات والجهود المتناقضة فيما بينها . . . فى اتون ذلك الصراع كانت تسير حياة المخيم اليومية .

وقد كانت ثمة منظمات طال انتظارها فى ذلك المكان ، واسعفها الوقت لحفر الخنادق ؛ بينما نصب آخرون خيامهم واعدوا الافران المؤقتة لاعداد طعامهم . وقد كان المخيم عامرا بالاطفال . هذا بينما كان الدونيتس يشهد رتلا طويلا من السيارات والمركبات والبشر يعتلى المعبر طوال الليل والنهار فى طريقه الى الشاطىء الآخر ، يحده من الجانبين آخرون على متن قوارب واطواف . هذا الى جانب آلاف الماشية التى راحت تموء متزاحمة على الشاطىء لتنطلق تعبر النهر سباحة .

كان الالمان يقصفون المعبر عدة مرات كل يوم ، فى حين كانت المدفعية المضادة للطائرات التى تتولى حراسة المعبر تصلى بنيرانها تلك الطائرات المغيرة ، فيما يتفرق كل المخيم على التو مختفيا فى البرارى . الا ان الجميع كانوا يعودون الى مكانهم فور اختفاء الطائرات .

ولم يكن ثمة شاغل لدى فانيا منذ تلك اللحظة التى وصل فيها الى المخيم سوى البحث عن العربة التى استقلها آل كوفاليوف . فقد كانت تتنازعه مشاعر متباينة . . اذ غدا يدرك مدى هول الخطر ، وصار تواقا كى تكون كلافا برفقة ذويها ليس فقط على الشاطىء

الآخر من الدونيتس ، بل والدون ايضا . هذا من جهة . اما من جهة اخرى فقد كان يسعده ان يصادفها هنا على هذا الشاطىء .

وقد راح فانيا وجورا يذرعان المخيم بحثا عن ذويهم من ابناء كراسنودون ، حتى دوى فجأة صوت يناديهما باسميهما . وقد كان ذلك هو اوليج كوشيفوى رفيق الدراسة الذى لفحته الشمس وبدا كعادته نضرا حسن الهندام ، عريض المنكبين رشيق القوام ، لامع العينين ، ذهبى الاهداب . وقد راح يعانق رفيقيه يشد عليهما بيدين قويتين كبيرتين ويقبلهما فى حرارة .

وقد التقيا كذلك بعربة المنجم رقم ١ التى كان يستقلها فالكو وشيفتسوف ، وكذلك بالمركبتين اللتين كانتا تستقلهما اوليا واقارب كوشيفوى ، وبملجأ الاطفال الذى رحل عن كراسنودون بفضل فانيا وجورا ، ومع ذلك فلم تتعرف عليهما مديرته .

الفصل الحادى عشر

كان النظام سائدا تماما فى ذلك الجزء من المخيم الذى وصل اليه فانيا وجورا وحيث كان يفرض نفسه فالكو مدير المنجم رقم ١ المعروف بصرامته . . فقد كانت العربات والمركبات تقف جانبا فى طابور واحد ، بينما كانت الخنادق قد حفرت فى كل مكان . كما وتكدست بالقرب من عربة النقل التابعة للمنجم احتياطيات الاخشاب – بقايا الاسوار ، بينما راحت مارينا واوليا تطهيان حساء الكرنب الطازج .

لقد كان هذا الغجرى العجوز فالكو اداريا ممتازا . واذ صحب عماله وخمس من شباب الكومسومول توجه فى خطى رزينة يرمى الآخرين بنظراته الصارمة من تحت حاجبيه الاسودين الكثين ليضطروا تحت وقعها الى الافساح له ، ليصل الى المعبر يحدوه امل فرض النظام على كل هذه العملية .

وقد اعجب اوليج بفالكو منذ تلك اللحظة التى بدا فيها ينظم امور المعبر مثل اعجابه منذ بعض الوقت بكايوتكين ، وكذلك باوليا من قبله .

وتملكت اوليج مشاعر التعطش البالغ لبذل النشاط والرغبة فى التعبير عن كل طاقاته والتدخل فى حياة ونشاط البشر بغية ان يضيف اليها شيئا اكثر كمالا وافضل جوهرا ، وتلك امور كانت كامنة فى اعماق كيانه الروحى تشكل جوهره وتفرض نفسها على سلوكه .

وراح اوليج يقول فى مرح بلهجته الاوكرانية التى تشوبها بعض التاتاة وهو يسير الى جوار زيمنوخوف فى اثر فالكو :

– يا لها من صدفة حسنة ان نتقابل سوية يا فانيا ، فلقد اوحشتنى كثيرا . اورايت ذلك ؟ – وهنا اشار اوليج باصبعه وبعينيه الى فالكو على نحو ينم عن احترام ومضى يقول وهو يرمش باهدابه الذهبية : – ان اهم قوة فى هذا العالم هى قوة التنظيم . اذ يستحيل دونها ان يتقدم اى عمل مهما كانت جدواه ، حيث يغدو كنسيج كامل متكامل راح يتفكك لعدم احكام رباطه النهائى . لكن ما ان توجد اليد القوية والارادة حتى . . .

– تجد من يوجه لكمة قوية الى سحنتك !

هذا ما علق به فالكو دون ان يلتفت حتى الى الصبيين .

وادرك الصبيان مرمى هذا المزاح الكئيب .

وكما الوضع حين يصعب على الموجودين فى الانساق الثانية للجيش تقدير حجم وضراوة المعارك التى تشهدها الجبهة ، يستحيل على القابعين فى مؤخرة المخيم الحكم على مدى المأساة التى تشهدها منطقة المعبر .

اذ انهم كلما كانوا يقتربون من المعبر ، كلما كان الموقف يزداد تشابكا وتعقيدا ، ويغدو التوتر اكثر حدة مما يستحيل معه لاية قوة ان تخفف منه او تزيله . فقد تزاحمت وتشابكت السيارات بينما الجماهير البشرية تحاول ان تجد لنفسها طريقا فيما بينها ليصل الامر بالجميع الى وضع يستحيل تحديد اتجاهه او تنظيمه ويغدو حتميا الحل الوحيد ، الذى يكمن فى التقدم على هذا النحو بطيئا بطيئا الى الامام .

وفى مثل هذا الجو الخانق شديد الحرارة ، راحت الجماهير تسير تئن تحت وطأة الغضب ، تتصبب عرقا وتتزايد درجة غليانها الداخلى بحيث بدا ان اى تلامس فيما بينها يمكن ان يفضى الى انفجار .

وقد كان العسكريون الذين يشرفون على ادارة المعبر يواصلون

عملهم الشاق واللاانساني دون ان يغمض لهم جفن على مدى ايام طويلة ، وقد علتهم السمرة من تاثير الارق والشمس التى تلظوا بنيران اشعتها منذ مطلعها وحتى غروبها ، والغبار الذى اثارته آلاف الاقدام والعجلات ، وبحت اصواتهم من اطلاق الشتائم ، والتهبت جفونهم وبلغ بهم الانهاك والتوتر العصبى درجة ان اياديهم السمراء التى علاها الغبار لم تعد قادرة على الامساك بشيء .

ولقد كان من الواضح تماما انه لا يمكن ان يضيف احد شيئا الى ما كان يبذله هؤلاء الرجال ، الا ان فالكو تقدم نحو بداية المعبر ليضيع صوته الاجش فى خضم الاصوات الاخرى وهدير السيارات .

وراح اوليج الذى وصل الى الشاطىء بصحبة رفاقه يحدق باهتمام صبيانى تعلو وجهه امارات خيبة الامل والدهشة ، الى عربات النقل والمركبات المحملة تزحف الواحدة تلو الاخرى وسط هذه الاتربة والجو الملتهب تترك الشاطىء الذى تحول الى مستنقع هائل قاصدة الشاطىء الآخر ، والى اولئك الناس الذين راحو يسيرون ويسيرون يتصبب العرق منهم وتعلوهم الاتربة وتجتاحهم مشاعر الغضب والمهانة . . ومع ذلك يسيرون !

ولم يكن هناك سوى الدونيتس ، ذلك النهر الحبيب منذ الطفولة الذى شهد رحلات الصبية من تلاميذ المدارس للسباحة وصيد الاسماك ، لم يكن هناك سواه ينساب كما كان عريضا هادئا بمياهه الدافئة ، العكرة بعض الشيء .

— كلا . . اننى اود رغما عن ذلك توجيه لكماتى الى سحنة احد ما !

تعالى صوت فيكتور بيتروف فجاة وقد ارتسمت على عينيه الجسورتين امارات حزن بينما راح ينظر نحو النهر وليس نحو المعبر . . لقد كان من عزبة بوجوريلى قضى سنوات طفولته قريبا من هذا النهر .

ومزح فانيا قائلا :

— لربما كان هذا «الاحد» قد عبر النهر منذ زمن !

وضحك الصبية . وذكر اناتولى وهو يومىء براسه التى علتها طاقية اوزبكية نحو الغرب :

— فلتوجه لكماتك الى هناك وليس هنا !

وايده جورا :

— حقا تقول !

وفى تلك اللحظة التى فرغ فيها من جملته هذه دوت صيحة تحذير :

— السماء !

وفجاة اطلقت المدافع المضادة للطائرات والرشاشات نيرانها وتعالى هدير محركات الطائرات فى السماء ، وحفيف القنابل المتساقطة .

وانبطح الصبية ارضا . وهزت الانفجارات القريبة والبعيدة الارجاء وتناثرت الكتل الطينية وشظايا الاخشاب ، وتتالت موجات الطائرات الثانية ثم الثالثة لتتكرر نفس المشاهد . . الهدير واصوات الانفجارات ونيران المدافع المضادة للطائرات والتى ملأت كل الفراغ الكائن فيما بين البرارى والسماء .

لكن ها هى الطائرات تولى ، وشرع الناس فى النهوض من اماكنهم لتتعالى فى تلك اللحظات اصوات مدافع انبعثت من بعيد ، من جهة القرية حيث قضى جورا وفانيا ليلتهما . ومرت لحظة بدأت بعدها القذائف تنهال فوق المخيم ذاته تبعث الى الجو باعماق الارض وشظايا الاخشاب .

وشرع الناس الذين نهضوا من اماكنهم ينبطحون ثانية الى الارض ، بينما تحول بعضهم بانظاره نحو الانفجارات متابعين فى نفس الآن الحركة عند المعبر . وقد ادرك هؤلاء بالنظر الى اوجه وسلوك العسكريين الذين كانوا يشرفون على المعبر ان ما حدث امر لا يمكن تقويمه .

وجال العسكريان اللذان كانا ينظمان حركة المعبر بانظارهما ، ثم لبثا لحظة وكانما يصيخان السمع . انطلق بعدها فجاة احدهما نحو الملجا القريب من المعبر العائم ، بينما اندفع الآخر يطلق اوامره بغية تجميع الوحدة .

وبعد لحظة خرج الاول من الملجا يحمل معطفين عسكريين فى احدى يديه بينما شرع بالاخرى يجر كيسين مملوءين بشتى الاشياء من حزامهما . واندفع العسكريان ومقاتلو الوحدة دون نظام يهرولون

نحو المعبر العائم ، متجاوزين السيارات التى كانت قد بدات تحركها فوق المعبر ونحوه .

اما الامور التى حدثت فيما بعد ذلك فقد تطورت على نحـــو مفاجىء لم يكن هناك من يستطيع ادراك كنهها . اذ اندفع بعض الناس فى اثر العسكريين يتصايحون ، بينما تزاحمت العربات عند المعبر فى محاولة للعبور الا انها اصطدمت فيما بينها وتعالى صوت ارتطامها . وبالرغم من انه كان من الواضح تماما ان تلك السيارات قد اغلقت الطريق فقد تدافعت السيارات الاخرى نحو المعبر يتعالى هدير محركاتها ، لتسقط احداها فى النهر ، وتتبعها اخرى وتوقفت الثالثة التى اوشكت بدورها على السقوط ، اذ جذب السائق بقوة وسرعة فرامل اليد .

وبينما كان فانيا زيمنوخوف يتابع رغم قصر نظره ما يجرى للسيارات انطلق مناديا على حين غرة :

— كلافا !

واندفع نحو المعبر ؛ فقد كانت السيارة الثالثة التى اوشكت على السقوط هى التى تحمل آل كوفاليوف ، حيث كان يعتلى الاب وزوجته وابنته وآخرون المتاع الذى غصت به العربة .

ومرة اخرى صاح فانيا الذى وجد نفسه قريبا من السيارة :

— كلافا !

راح الجميع يقفزون من السيارة ، ومد فانيا يده لتقفز كلافا معتمدة عليها .

وذكر كوفاليوف على نحو جعل البرودة تتسلل الى قلـــب فانيا :

— لقد انتهى الامر ! فلتحل اللعنة !

اما كلافا التى لم يتجاسر فانيا على الامساك بيدها طويلا فقد نظرت اليه بطرف عينها ليخفق قلبها .

وتساءل كوفاليوف بصوت تخنقه العبرات لدى زوجته التى وضعت يدها على قلبها فاغرة فاها كسمكة ، بحثا عن الهواء :

— اولا تستطيعى السير ؟ فلتتحدثى . . او قادرة على السير ؟

واجابت بصوت مخنوق :

— دعنا . . اتركنا . . انهم سوف يقتلونك !

وتساءل فانيا :

— فيم الامر . . ماذا حدث ؟

واجابه كوفاليوف :

— الالمان .

وراحت والدة كلافا تعيد رجاءها :

— فلتنج بنفسك . . اتركنا !

واجاب كوفاليوف باكيا :

— فانيا ! فلتنقذهما . . لا تتركهما ، واذ ما بقيتم على قيد الحياة ، فعليكم التوجه الى نيجنايا الكسندروفكا ، حيث يعيش اقاربنا . . فانيا ! اننى اؤمل عليك كثيرا .

وسقطت احدى القذائف مدوية عند بداية المعبر منفجرة وسط تلك السيارات المتزاحمة .

واندفع الناس المدنيون والعسكريون بعيدا عن الشاطىء نحو المعبر فى صمت . واذ ترك كوفاليوف يد فانيا حاول فى حركة حادة الوصول الى زوجته وابنته ، فى محاولة لوداعهما على ما يبدو ، الا انه اشاح بكلتا يديه فى ياس وهرول مع الآخرين نحو الكوبرى العائم .

وراح اوليج ينادى فانيا زيمنوخوف الذى لم تصلـــه تلك النداءات .

وخاطب فانيا والدة كلافا قائلا فى هدوء وصرامة :

— هيا بنا قبل ان يسحقوننا . . هيا بنا الى الملجا !

وامسك بها من تحت ابطها وهو يقول فى صرامة تمتزج بالرقة:

— هل تسمعينني يا كلافا ؟ هيا بنا !

وقد تسنى له قبل ان ينزل الى الملجا ملاحظة المقاتلين الى جوار المدافع المضادة للطائرات ينزعون فى عصبية بعض اجزائها الثقيلة يحملونها مهرولين نحو الكوبرى حيث القوها بالنهر . وقد راح الناس والماشية يعبرون النهر سباحة بطول كل النهر ، بيد ان فانيا لم يكن يلحظ ذلك .

اما رفاقه فبعد ان فقدوا اثره وفالكو فقد راحوا يهرولون نحو المكان الذى تركوا فيه مركباتهم ، يقاومون ذلك التيار البشرى الذى كان يعترض طريقهم .

وراح اوليج يصيح وهو يشق طريقه بين الجموع مستعينا بمنكبيه القويين يجول بناظريه اللذين اشتعلا غضبا فكستهما الصفرة :

– فلنتماسكوا سويا ! ينبغى علينا البقاء سوية !

ودبت الحركة فى المخيم وبدأ الجميع كل يبحث عن طريقه ، أما العربات فقد تحركت الواحدة الى جوار الاخرى تهدد محركاتها ، وزحف من استطاع منها الخروج من مازقه بمحاذاة الشاطىء نحو النهر .

وفى الوقت الذى اغارت فيه الطائرات كانت زوجة الخال مارينا تجلس القرفصاء ترمى الى النيران قطع اخشاب السور التى قام الخال كوليا بتقطيعها بخنجره العسكرى . اما اوليا فقد كانت تفترش الاعشاب الى جوارها وقد استغرقت فى التفكير على نحو ارتسمت فيه امارات قوة كئيبة كمنت فى زاويتى ثغرها وفتحتى انفها الدقيق ، بينما راحت تنظر الى جريجورى ايليتش الذى كان يجلس على ظهر العربة يحتضن صبية زرقاء العينين بعد ان قدم لها اللبن ، يسر اليها بشىء ما يدفعها الى الضحك . وعلى مسافة حوالى ثلاثين مترا من النيران الموقدة كانت تقف العربة التى راح الاطفال يلعبون فيما حولها تحت اشراف حاضناتهم ، بينما جلست مديرة الملجأ لا تعير كل ذلك اهتماما . وقد كانت مركبات ملجأ الاطفال وكذلك مركبتا بيتروف وكوشيفوى تقف فى صف واحد الى جوار المركبات الاخرى .

وشنت الطائرات غارتها على نحو مفاجىء لم يتيسر معه اللجوء الى الخنادق ، وليكتفى الجميع بالانبطاح ارضا . واعارت اوليا التى استلقت ارضا ، سمعها الى حفيف القنبلة الهاوية كما الاعصار . وفى تلك اللحظة دوى انفجار ذو قوة هائلة وكأنما صاعقة اصابت اعماقها . واعقب ذلك موجة من الهواء قوية ذات صفير تعالى فوقها واتربة تدفقت عليها من عل . وتكرر نفس المشهد . . تعالى هدير المحركات وكذلك الحفيف وان كان فى هذه المرة على مسافة بعيدة، الا انها استمرت فى رقادها منبطحة ارضا . ولم تكن تذكر تماما متى نهضت من مكانها وماذا دعاها الى ضرورة ذلك . غير انها

ووجهت فجأة بذلك العالم المحيط بها لتند عن اعماقها صرخات وحشية رهيبة .

فقد غابت عن انظارها عربة المنجم رقم ١ ، وجريجورى ايليتش وتلك الصبية زرقاء العينين . . لم يكن كل ذلك موجودا عن كثب ، حيث تحول ذلك المكان الذى كانت تقف فيه العربة الى حفرة مستديرة سوداء احترقت حواشيها ، تناثرت حولها اجزاء من العربة المحترقة وجثث الاطفال المشوهة ، وعلى مسافة عدة امتار منها كان ما يزال عامرا بالحياة جزء بشرى غريب يحيط به منديل احمر ، عرفت اوليا فيه الجزء الاعلى من جذع مديرة ملجأ الاطفال . اما نصفها الاسفل بحذائها المطاطى الذى ارتدته على جوربها النسائى الخفيف مباشرة فلم يكن له وجود تماما .

وقد كان هناك صبى يناهز عمره الثامنة قد حنى راسه نحو الارض والقى بيديه الى الخلف كما لو كان يعتزم القفز ، راح يدور فى مكانه ويضرب الارض بقدميه صارخا .

واندفعت اوليا دون ان تدرى بنفسها نحو الطفل تحاول احتضانه الا انه راح يرتعش ويصرخ . ورفعت راسه لتشاهد وجهه المحترق وعينيه الجاحظتين اللتين خرجتا من محجريهما .

وسقطت اوليا على الارض مجهشة بالبكاء .

كان كل شىء يحوم حولها فى رتابة سريعة ، الا انها لم تكن لترى او تسمع شيئا . ولم تستطع سوى ان تشعر بوجود اوليج كوشيفوى الى جوارها وقد راح يحادثها ويربت بيده الكبيرة على شعرها ، محاولا على ما يبدو مساعدتها على النهوض ، بينما كانت تواصل البكاء وقد دفعت راسها فيما بين يديها . وقد كانت اصوات رماية المدفعية وانفجارات الدانات وقصف الرشاشات تتناهى الى سمعها ، الا ان كل ذلك لم يكن يعنى بالنسبة لها شيئا .

سمعت صوت اوليج الفتى الرنان وقد شابته بعض الرجفة يصرخ :

– الالمان . . .

ووصل ذلك الى اعماقها فكفت عن البكاء وانتصبت واقفة فجأة . وقد عرفت على التو اولئك الواقفين الى جوارها – اوليج

وجميع رفاقه ووالد فيكتور والخال كوليا ومارينا التى كانت تحمل طفلها على يديها بل وحتى ذلك الجد سائق مركبة اوليج واقاربه . ولم يكن غير موجود سوى فانيا زيمنوخوف وفالكو .

وقد راح كل اولئك ينظرون فى اتجاه واحد تعلو وجوههم امارات توتر غريب . ووجهت اوليا كذلك انظارها الى هناك ، حيث لم تكن ثمة آثار للمخيم الذى كان موجودا منذ لحظات مضت. لقد انبسطت امامهم البرارى التى غمرتها اشعة الشمس تلمع كهالة بيضاء غبشاء ، بينما راحت تتحرك قاصدة اياهم تلك الدبابات الالمانية ذات الطلاء الاخضر خضرة الضفادع .

الفصل الثانى عشر

احتل الالمان فوروشيلوفجراد فى الساعة الثانية من بعد ظهر ١٧ يوليو بعد معركة حامية الوطيس دارت على ارض المزرعة التجريبية حيث هزم احد جيوش الجبهة الجنوبية الذى تولى مهمة الدفاع فى هذه المنطقة امام قوات العدو فائقة العدد . وقد انسحب من بقى من الاحياء مقاتلا بمحاذاة خط السكة الحديدية حتى محطة فيرخنيدوفانيا تقريبا ، والى ان احتوى ثرى الدونيتس آخر شهدائهم .

وحتى ذلك الحين رحل الى الشرق كل من اراد وكان فى مقدوره ذلك ، من كراسنودون ومن المناطق المجاورة لها . بيد انه وفى منطقة بيلوفودسك البعيدة بقى بعض تلاميذ الصفين الثامن والتاسع بمدرسة جوركى فى كراسنودون والذين كانوا يعملون فى الحقول ، وذلك نظرا لجهلهم بتطور الامور ولنقص وسائل النقل .

وقد اوكل قسم التعليم الشعبى عملية تهجير هذه المجموعة من التلاميذ الى ماريا اندرييفنا بورتس مدرسة الادب الروسى بالمدرسة والمنحدرة اصلا من منطقة الدونباس وتعرف جيدا ظروفها . كما وانها امراة تتسم بالنشاط ويهمها نجاح هذه العملية ، حيث كانت توجد ابنتها فاليا ضمن افراد تلك المجموعة.

ولم يكن ذلك الامر يتطلب اكثر من توفير عربة نقل واحدة ، الا ان ماريا اندرييفنا علمت بهذه المهمة حين اصبح من المستحيل

تدبير مثل تلك العربة . وقد راحت تشق طريقها حتى المزرعة الحكومية بكافة السبل ، واستغرق ذلك ما يزيد عن يوم وليلة . واذ انهكها ذلك الطريق الطويل والقلق البالغ بصدد ابنتها عضو الكومسومول وبقية التلاميذ ، انفجرت باكية تخنقها مشاعر الاضطراب والعرفان بالجميل ازاء ما فعله مدير المزرعة الذى استطاع تسليمها آخر عربة نقل لديه ودون تردد ، رغم الضغط الهائل وقلة وسائل النقل اللازمة لنقل متاع المزرعة ، والذى بح صوته من الشتائم وانهكه السهر وصرفه العمل عن حلاقة ذقنه بضعة ايام .

وعلى الرغم من ان منطقة بيلوفودسك كانت تدرك جيدا مدى تفاقم الاوضاع فى الجبهة ، فقد كان التلاميذ وحتى مقدم ماريا اندرييفنا ، بكل ما يتميز به الشباب فى ريعانه من تواكل وايمان بان الكبار سوف يتصرفون على نحو ملائم فى حينه ، يعيشون ذلك المرح الذى يجتاح من فى سنهم فى ظل الحرية والطبيعة الخلابة والعلاقات الرومانسية الودية ألتى تسود الشباب .

ولم تشأ ماريا اندرييفنا افساد امزجتهم قبل ان يحين الميعاد وعزفت عن مكاشفتهم بحقيقة الاوضاع . بيد انهم ادركوا ان ثمة شيئا يتسم بالخطورة قد وقع حين راحت تجمعهم بسرعة استعدادا للرحيل تكسو وجهها امارات القلق والاضطراب . وعلى الفور هبطت معنوياتهم وراحوا يفكرون فى ذويهم وفى عما سوف تسفر عنه الاقدار .

كانت فاليا بورتس فتاة ناضجة على نحو لا يلائم سنها ، يغطى الشعر الذهبى الخفيف ذراعيها وساقيها لفحتها الشمس ، تعكس قسمات وجهها امارات تتسم بالطفولة ، ذات عينين رماديتين قاتمتين واهداب داكنة تكسبها امارات الاستقلالية والبرود ، شقراء الشعر الذى جدلته ضفيرتين ذهبيتين ، كما وكانت تعلو امارات حب الذات شفتيها المكتنزتين الورديتين . وقد صادقت فاليا اثناء عملها بالمزرعة الحكومية ستيوبا سافونوف الذى يدرس معها فى نفس المدرسة ، والذى كان قصير القامة ، اشقر الشعر ، افطس الانف يغطى النمش وجهه ، وتعبر عيناه عن حيوية وذكاء .

وقد كانت فاليا تدرس بالصف التاسع ، بينما كان ستيوبا فى الثامن وذلك امر كان يمكن ان يحول دون صداقتهما اذا ما كانت تصادق فتيات اخريات ، الا انها لم تكن تصادق منهن احدا ، هذا بالاضافة الى ان احدا من الصبية الآخرين لم يكن يستهويها . لقد كانت فتاة واسعة الاطلاع تجيد العزف على البيانو ، تتميز عن قريناتها وتدرك ذلك ، كما وتعودت على اعلان قرنائها الصبية عن اعجابهم بها . ولم يكن ستيوبا سافونوف يناسبها لانها حازت اعجابه ، بل لانه كان مصدر تسليتها : فقد كان فى حقيقة الامر صبيا يتسم بالذكاء والاخلاص ، تخفيهما شقاوة صبيانية ، علاوة على كونه رفيقا وفيا وثرثارا كبيرا . ولما كانت فاليا لا تهوى الثرثرة ، ولا تبوح باسرارها الا على صفحات مذكراتها ، تحلم بالبطولات حيث كان شأن الجميع ، تود ان تصبح طيارة ، وتتصور فتاها كذلك من الابطال ، فقد كان ستيوبا سافونوف يرفه عنها بثرثرته ونكاته التى لا ينضب لها معين .

وتجاسرت فاليا لاول مرة فى تاريخ صداقتهما وفتحت معه حديثا يتسم بالجدية حيث سألته مباشرة عما سوف يفعل اذا ما احتل الالمان كراسنودون .

وحدقته فى برود بعينيها الرماديتين الداكنتين وكأنما تسبر اغواره ، فى حين راح ستيوبا ذلك الصبى الذى لا يبالى بشىء ، يملك لبه علم الحيوان والنبات يحلم بان يكون عالما شهيرا ، ولم يفكر على الاطلاق فيما سبق حول ما عليه ان يفعله اذا ما حل الالمان ، راح يجيب فى عفوية بانه سوف يمارس ضدهم العمل الفدائى السرى بشكل لا هوادة فيه .

وتساءلت فاليا فى برود :

— اليس ذلك من قبيل الثرثرة ؟ احقا تقول ؟

واجاب ستيوبا دونما تفكير :

— عن اية ثرثرة تتحدثين ؟ بالطبع . . حقا اقول !

— فلتقسم بذلك . . .

— اقسم بذلك . . بالطبع اقسم بذلك . . وماذا علينا ان نقوم به سوى ذلك . اولسنا اعضاء فى الكومسومول ؟

ثم رفع ستيوبا ذو الشعر الاشقر حاجبيه فى دهشة وتساءل بعد ان بدأ اخيرا يمعن التفكير فيما سألته وبلهجة تنم عن حب استطلاع :

— وماذا انت فاعلة ؟

واقتربت بشفتيها من اذنه وهمست اليه على نحو رهيب :

— اقسم !

ثم وضعت شفتيها على اذنه وصهلت فجأة كما الحصان قائلة على نحو كادت تخرق معه طبلة اذنه :

— انك احمق رغما عن كل شىء يا ستيوبا ! وثرثار كذلك !

وتركته مطلقة ساقيها للريح .

وتحركت السيارة عند المساء ، تبعث مصابيحها الامامية التى غطيت باللون الازرق بعض الضوء الذى غمر البرارى . . وانبسطت السماء هائلة حالكة الظلمة الا من بعض النجوم التى تناثرت بها ، تلفهم بينما تعالت رائحة نضرة للحشائش الجافة وحقول القمح التى قرب موعد حصادها والعسل ونبات الشيح ، كما راح الهواء الدافئ يلفح الوجوه مما يصعب معه على المرء تصور ان يكون الالمان فى انتظارهم بكراسنودون .

وكانت العربة تغص بالصبية ، ولو كان ذلك فى غير هذه الظروف ، لتعالت الاغانى طوال الليل ، ولدوت ضحكاتهم ، ولتبادلوا القبلات سرا . اما الآن فقد لزم الجميع الصمت لا يقطعه الا بعض الهمسات المتبادلة من آن لآخر . وسرعان ما غلب النعاس غالبيتهم وقد استقروا فوق امتعتهم ، متلاصقين تتارجح رؤوسهم مع اهتزاز العربة .

وقد احتل ستيوبا وفاليا مكانيهما فى مؤخرة السيارة بوصفهما مكلفين بالحراسة . وراح النعاس يغالب ستيوبا ، بينما صارت فاليا وقد اتخذت مكانها فوق جوال حاجياتها تجول بناظريها فى البرارى التى لفتها العتمة . وبدت شفتاها المكتنزتان اللتان تعكسان عادة امارات حب الذات ، على نحو طفولى يتسم بالحزن والغضب بينما لم يكن ثمة من يراها هكذا . فقد كانت تعانى من كونها لم تقبل بمدرسة الطيران . وكم من محاولة بذلتها ومع ذلك فقد رفضها اولئك الحمقى . هكذا لم يحالفها التوفيق فى

حياتها . . فما العمل اذن ؟ ان ستيوبا ثرثار . انها قادرة بطبيعة الحال على ممارســـة العمل الفدائى السرى ، لكن كيف ، ومن المسئول عن ذلك ؟ وماذا سوف يكون شان والدها اليهودى ، وشان مدرستها ؟ وكم من العواطف الجياشة فى اعماق كيانهـــا ، ومع ذلك فلم تسعفها ان تغرم بأحد ، وانتهى بها الحال على هذا النحو . هكذا لم تجد فى الحياة سعادتها . فلن تستطيع اثبـــات جدارتها والتميز وسط قريناتها وتحقيق الامجاد وانتزاع اعجاب الناس بها . وملأت مآقيها دموع حب الذات ، التى كانت رغما عن ذلك ظاهرة طيبة . فقد كانت فى السابعة عشرة من العمر ، ولم تكن تلك الدموع تعبر عن انانية او جشع ، بل عن احلام غيـــر مفرضة لفتاة ذات طابع يتسم بالقوة .

وتراءى لها فيما خلف ظهرها صوت غريب . وكانما قطـــة تشبثت بالحاجز الخلفى للعربة . والتفتت الى الخلف لتصيبهـــا القشعريرة بعض الشىء .

فقد كان شخصا لم تحدد كنهه صبيا ، او شابا قصير القامة ، نحيلا ، قويا يغطى راسه بكاب ، امسك بكلتا يديه حافة العربة التى انبطح ببطنه عليها بينما رفع ساقه فى محاولة للاستقرار داخل العربة وهو يجيل النظر نحو كل ما حوله .

هل يعتزم سرقة شىء ما ؟ ماذا يريد بالتحديد ؟ وبحركة عفوية حاولت فاليا الاطاحة به بعيدا عن العربة ، ثم فكرت بعض الشىء لتقرر ايقاظ ستيوبا تفاديا لاثارة الهرج والمرج .

بيد ان الصبى او الشاب سريع الحركة كان قد استقر داخل العربة الى جوار فاليا . واذ دنا بوجهه ذى العينين الضاحكتين قريبا من وجهها وضع سبابته على شفتيه . ويبدو ان الشاب لم يكن يعرف بعد ذلك الشخص الجالس الى جواره ، فقد كان من الممكن ان يصيبه بالغ الاذى بعد لحظة واحدة . بيد ان فاليا وخلال تلك اللحظة استطاعت ان تجيل النظر نحوه . كان شابا فى مثل عمرها يغطى راسه بكاب انزلق الى مؤخرة راسه ، ذا وجـــه لم تمسه المياه منذ مدة طويلة وان كان يعبر عن جسارة صبيانية طيبة ، وعينين بارقتين ضاحكتين . ولقد قررت تلك اللحظة التى حدقت فاليا فيها النظر فى الشاب ، الامر بما يتناسب ومصلحته .

لم تند عن فاليا حركة او صوت ، وصـــارت تنظر الى ذلك الشاب على نحو ينم عن استقلالية وبرود كعادتها دائما حين تكون فى حضرة آخرين .

وهمس الشاب متسائلا وقد دنا بوجهه منها :

– اية سيارة هذه ؟

وقد استطاعت فاليا ان تحسن النظر نحو الشاب ، لتراه خشن الشعر ، اجعده بعض الشىء ذا شفتين تتسمان بالقوة رقيقتين بارزتين قليلا ، وقد تورم ما تحت شفته السفلى .

وهمست فاليا تجيب فى برود :

– وماذا يهمك ؟ هل عرضنا عليك عربـــة غير التى كنت تنتظرها ؟

وعلت الابتسامة وجهه ليقول :

– ان عربتى تحت الاصلاح الشامل ، بينما نال منى التعب درجة . . – واشاح بيده وكانما يود ان يقول : «ان الامر سيان !»

وذكرت فاليا :

– معذرة ، فليس هناك اماكن للنوم !

وتحدث الشاب يقول بصراحة ودية لا تحمل معنى الغضـــب منها :

– اننى لم اعرف طعم النوم ستة ايام باكملها ، واستطيع ان اصبر ساعة اخرى !

وعلى نحو سريع جال بناظريه فى كل ما وقع داخل مجال رؤيتهما فى محاولة منه لمعرفة تلك الوجوه المحيطة به .

كانت السيارة تتأرجح فى سيرها ، مما كان يدفع فاليا وكذلك الفتى الى التشبث بحافة العربة . وقد سقطت يد فاليا ذات مرة فوق يد الفتى لتسحبها على التو ، مما دعاه الى ان يرفع رأســـه ويمعن النظر اليها .

وتساءل الفتى بينما دنا برأسه من راس ستيوبا الاشقر الذى راح يتمايل مع اهتزاز السيارة :

– من ذلك النائم ؟

واجاب على سؤاله بصوت عال :

– ستيوبا سافونوف ! لقد عرفت الآن ايـــة سيارة هذه .

اليست سيارة مدرسة جوركي ؟ اولستم عائدين من منطقة بيلوفودسك ؟

– من اين تعرف ستيوبا سافونوف ؟

– لقد تعرفنا قريبا من النهر .

وانتظرت فاليا ان يكمل الفتى حديثه ، الا انه لم يضف شيئا ، مما دعاها الى ان تسأله :

– وماذا كنتما تفعلان عند النهر ؟

– كنا نصطاد الضفادع .

– اوتقول الضفادع ؟

– نعم .

– ولماذا ؟

– لقد كنت اظنه فى البداية يصطادها كطعم لصيد الاسماك ، الا انه اتضح لى انه يفعل ذلك من اجل تشريحها !

وضحك الشاب على نحو يعنى السخرية من تلك الهواية الغريبة التى يمارسها ستيوبا سافونوف .

وتساءلت فاليا :

– ثم ماذا ؟

– لقد اقنعته بمرافقتى لصيد الاسماك ، وذهبنا ليلا من اجل ذلك . وقد اصطدت سمكتين ، احداهما تزن رطلا ، بينما لم تكن الاخرى ذات شان . اما هو فلم يصطد شيئا !

– وماذا بعد ذلك ؟

– لقد اقنعته بعد ذلك بالنزول الى النهر للاستحمام عند الفجر . ووافق ليخرج من الماء ، تعلو الزرقة جسده مؤكدا انه قد تجمد من البرد وامتلأت اذناه بالمياه . وعلمته كيف له ان يبعث الدفء الى جسده ويفرغ اذنيه من المياه .

– وكيف يمكن ذلك ؟

– يضغط المرء على احدى اذنيه ويقفز على ساق واحدة صائحا : «كاتيا يا مناى . . افرغى المياه من اذنى» . ثم يفعل نفس الشىء ضاغطا على الاذن الاخرى .

وذكرت فاليا رافعة حاجبيها بعض الشىء :

– لقد ادركت الآن كيف تصادقتما !

بيد انه لم يدرك تلك السخرية التى تضمنتها تلك الكلمات وراح يمعن النظر فى الظلام وقد علت امارات الرصانة وجهه قائلا :

– لقد تأخرتم كثيرا !

– وماذا فى ذلك ؟

– اننى اعتقد ان الالمان سوف يصلون كراسنودون الليلة او صباح الغد .

وتساءلت فاليا :

– وماذا فى ذلك وماذا يعنى الالمان ؟

ولم تكن تدرى السر الذى دفعها الى الحديث هكذا . . هل كانت تود سبر اغوار ذلك الفتى ، ام اثبات كونها لا ترهب الالمان !

اما هو فقد رماها بنظرة تتسم بالجسارة والصراحة ، ليغض الطرف بعدها دون ان يقول شيئا .

وداخل فاليا احساس عدائى نحوه ، وكم كان غريبا ان يشعر بذلك ليقول لها بلهجة تحمل معنى الرغبة فى المصالحة :

– لا مفر امامنا !

واجابته محاولة اثارته :

– ولماذا الفرار ؟

وقد كان عازفا تماما عن معاداتها ، ليقول فى محاولة لترضيتها:

– حقا تقولين !

لقد كان من الواجب عليه الافصاح عن شخصيته ارضاء لحبها للاستطلاع ، مما كان يمكن معه ان يسود الوفاق علاقتهما بيد انه اما كان لا يود ذلك ، واما لم يكن قد خطر بباله . والتزمت فاليا الصمت فى تكبر ، بينما راح النعاس يغالبه ، ليرفع راسه لحظة اهتزاز العربة ، وحين كانت تند عن فاليا اية حركة عفوية او غير عفوية .

وصارت تتبدى فى حلكة الظلام مبانى ضواحى كراسنودون . وتوقفت السيارة عند اول مزلقان خارج المدينة وقبل ان تصل الى الحديقة . لم يكن هناك من يتولى حراسة المزلقان الذى كان مفتوحا ، بينما كان المصباح مطفئا . واهتزت السيارة وتعالى صرير عجلاتها عند عبورها قضبان السكة الحديدية . واستيقظ

الفتى ليتحسس شيئا ما عند حزامه تحت سترته التى ارتداها على عجل فوق قميص علته الاوساخ وتقطعت ازراره ، ثم قال :

– يسهل الوصول من هنا . . اشكر لك طيبتك !

ونهض من مكانه لتلحظ فاليا ان اشياء ثقيلة كانت تحشو جيوب سترته وسرواله .

وذكر وهو يدنو قريبا من فاليـــا بعينيـــه الضاحكتين الجسورتين :

– لم اشأ ايقاظ ستيوبا . ولتقولى له حين يستيقظ ان سيرجى تيولينين يطلب منه المرور عليه .

واجابت فاليا :

– لست مكتب بريد او مركزا تليفونيا !

وتبدت امارات حزن حقيقى على وجه سيرجى تيولينين ؛ وقد بلغ به الحزن مدى لم يستطع معه ان يجيبها به ، وبدت شفتاه وكأنما غدتا اكثر تورما . وقفز من العربة لتبتلعه الظلمة دون ان ينطق حرفا .

وفجأة اعترت فاليا مشاعر الاسى ازاء كونها قد اساءت اليه . وقد كان اكثر ما اثر فيها ، انها لن تستطيع ابلاغ ستيوبا بكل ما جرى . ورفع الظلم الذى انزلته بذلك الفتى الجسور الذى ظهر فجأة واختفى ايضا فجأة . وقـد ظلت ذاكرتها تذكره بعينيـه الضاحكتين الجسورتين اللتين اتسمتا بالحزن تحت وقع كلماتها ، وبشفتيه الرقيقتين اللتين تورمتا بعض الشىء .

كانت المدينة باكملها غارقة فى ظلام حالك ، لا تنبعث اية بارقة ضوء من اى من نوافذ مبانيها ، او من اكشاك حراســة المناجم او على مزلقانات السكة الحديدية . وكان الهواء البارد يحمل رائحة الفحم المحترق المنبعثة من المناجم التى ما زال الدخـان يتصاعد منها . كما لم يكن ثمة انسان واحد يسير فى الطريق ؛ وكم كان غريبا ذلك الصمت الذى خيم على مناطق العمل فى المناجم وعلى السكة الحديدية ! ولم يكن هناك ســوى الكلاب التى راح نباحها يتعالى من آن لآخر .

واسرع سيريوجا تيولينين الخطى فى هدوء كما القطة بمحاذاة خط السكة الحديدية ، حتى بلغ مكانا مهجورا حيث كانت السوق

تقام عادة ، ليتجاوزه منزلقا نحو المبانى قاتمة اللون التى شيدها لى فان تشى من الطوب الاخضر كخلايا النحل والتى كانت اشجـار الكرز تحيط بها ، ومقتربا من منزل ابيه الذى لم يكن يتميز الا بطلائه الابيض عن المساكن المجاورة التى كانت مغطاة بالقش .

ودلف الى الداخل بعد اغلاقه باب السور ، ثم جال بنظره فيما حوله وتسلل الى الكرار ليخرج حاملا جاروفا ، متوجها فى الظلمة الحالكة دونما صعوبة ، مما يعنى معرفته الجيدة بكل ما يحتويه المنزل من ممتلكات والده ، الى الحديقة التى بلغها بعد لحظات ، وحيث كانت شجيرات الاقاصيا التى بدت داكنـة اللون بجوار السور .

وقام بحفر حفرة عميقة فيما بين شجيرتين ، وساعدته فى ذلك رخاوة التربة ، حيث اودعها ما كان يحمله فى جيوب سترتـه وسرواله – بضع قنابل يدوية ومسدسين من طراز «براونينج» وذخيرتهما . وقد كانت تلك الاشياء ملفوفة كل على حدة فى خرقة لم ينزعها حين اودعها الحفرة . كما وقام بعد ذلك بردم الحفرة ومهدها بيديه حتى تجففها شمس الصباح مزيلة آثار عمله ؛ ثم مسح الجاروف ببطانة سترته فى عناية وعاد الى الفناء ليضعـه مكانه ، ويطرق باب المنزل طرقا خفيفا .

وتعالى صوت صرير مزلاج الدهليز ، وكذلك دبيب خطوات امه – عرفها من وقع قدميها الثقيل ، وقد راحت تسير حافية القدمين فى اتجاه الباب الخارجى تتساءل بصوت تنم نبراته عن قلق :

– من الطارق ؟

واجابها همسا :

– افتحى !

– يا الهى . . . !

همست الام بنبـرات افصحت عن ذلك الاضطـراب الذى راودها . وقد بدا واضحا عدم قدرتها وهى على هذا الحال ، على احكام قبضتها التى اصابتها الرجفة على مزلاج الباب . لكن ها هو الباب ينفرج .

واجتاز سيريوجا عتبة الباب ليعانق ذلك الجسد الحبيب الكبير

ويضع راسه على كتفه حين شعر فى ظلمة الليل برائحة امه الدافئة التى تعود عليها . وظل الاثنان على هذا الحال بعض الوقت حتى شرعت الام تهمس معبرة عن غضبها :

– اين كنت طوال تلك المدة ؟ لقد ظنناك رحلت مع النازحين ، او قتلت . لقد عاد الجميع دونك . او لم تكن قادرا على ابلاغنا عن طريق اى شخص بم حل بك ؟!

وقد كان سيريوجا كغيره من المراهقين الاخرين والنسوة قد ارسل منذ بضعة اسابيع من كراسنودون ، كما ارسل آخرون من مختلف مناطق المقاطعة لحفر الخنادق وبناء المنشآت الدفاعية عند مشارف فوروشيلوفجراد .

واجابها بصوته الطبيعى :

– لقد تاخرت فى فوروشيلوفجراد .

وذكرت الام فى غضب :

– اخفض من صوتك لئلا توقظ الجد .

وقد كانت تقصد «بالجد» زوجها والد سيريوجا . كما وكان لديهما احد عشر طفلا ، علاوة على احفاد فى عمر سيريوجا . ومضت تقول :

– انه سوف يعاقبك .

لم يعر سيريوجا هذه الملاحظة اهتماما ، حيث كان يعلم جيدا ان اباه لن يعاقبه ابدا . وقد كان ابوه حفارا قديما حطمته تماما حتى كاد يفقد حياته ، عربة فحم انفصلت عن القاطرة فى منجم اثنين بمحطة «المازنايا» . وقد كتبت الحياة لذلك العجوز جيد الصحة ، ليمارس مختلف الاعمال فوق سطح الارض ، بيد ان احواله ساءت تماما فى الاعوام الاخيرة . واصبح يتحرك بالكاد ، وغدا عاجزا عن الجلوس بدون ان يتوسد كتفه عكاز خاص حيك خصيصا من الجلد الخفيف ، نظرا لان قطنه لم يعد يتحمل ثقل جسده .

وتساءلت الام :

– هل تريد طعاما ؟

– اريد ، الا اننى منهك القوى وفى امس الحاجة الى النوم !

وراح سيريوجا يخطو على اطرافه متجاوزا تلك الغرفة حيث كان يرقد الاب الذى علا شخيره ، ليصل الى الغرفة الكبيرة التى

كانت ترقد بها شقيقتاه الكبيرتان : داشا وطفلها البالغ من العمر سنة ونصف – وقد كان زوجها يقاتل بالجبهة ونادية محبوبته وصغرى شقيقاته .

وبالاضافة الى هاتين الشقيقتين كانت تعيش شقيقته فينيا فى كراسنودون وحدها مع اطفالها ، والتى كان زوجها يقاتل ايضا بالجبهة . اما بقية اولاد جافريل بيتروفيتش والكسندرا فاسيليفنا فقد شتتهم الحياة فى مختلف الارجاء .

دلف سيريوجكا الى الغرفة حيث الجو الخانق وشقيقتاه اللتان استغرقتا فى سباتهما ، حتى بلغ فراشه والقى بملابسه حيثما اتفق ليرتمى فى سرواله فوق اللحاف دون ان يفكر فى كونه لم يغتسل طيلة اسبوع باكمله .

ودخلت الام التى تعالى دبيب قدميها العاريتين ، حيث ربتت باحدى يديها على رأسه ذات الشعر الاجعد ، بينما دست بيدها الاخرى قريبا من فمه كسرة كبيرة من الخبز الذى توحى رائحته الطازجة بصناعته المنزلية . وسارع يتناول كسرة الخبز بينما قبل يدها على عجل ، وراح رغما عن التعب الذى حل يقضم فى نهم تلك الكسرة اللذيذة المصنوعة من القمح يحدق فى الظلام على نحو ينم عن اضطراب . يالها من فتاة رائعة تلك التى كانت بالسيارة! واية طباع تميزها !.. يالهما من عينين ! انه لم يحز اعجابها ! ليتها كانت تعرف ماذا تحتم عليه معاناته خلال الايام الماضية ! آه . . لو كان ثمة من يمكن مشاطرته ما عاناه ! لكن كم طيب ان يعيش المرء فى بيته الحبيب ، وكم هو رائع ان يتمدد فى فراشه ، فى تلك الغرفة وسط ذويه ، وقضم تلك الكسرة من الخبز الذى صنعته الام ! لقد كان يبدو انه سوف يستغرق فى سبات عميق بمجرد ان يلامس جسده الفراش ، ولمدة يومين على اقل تقدير . غير انه لم يستطع النوم دون ان يسر لاحد ما بما عاناه . ليتها كانت تلك الفتاة ذات الضفيرتين قد عرفت بأمره ! كلا . . . لقد احسن حين لم يقص عليها شيئا ! فمن ذا الذى يعرف اية فتاة تلك ! ولربما يقص ذلك على ستيوبكا سافونوف ، ومنه يعرف ايضا كنه هذه الفتاة ! بيد ان ستيوبكا ثرثار ! كلا . . . لقد كان فى استطاعته ان يقص ذلك على فيتكا

لوكيانتشينكو ، لو لم يكن قد رحل . ولم الانتظار حتى الغد ، حين يمكن فى نفس اللحظة الحديث حول كل الامور مع شقيقته نادية .

وقفز سيريوجكا من فراشه فى هدوء ودنا من سرير اخته ممسكا بكسرة الخبز فى يده . وجلس الى جوارها يدفع كتفها باصابعه ويناديها فى همس :

– نادية . . . نادية . . .

وهبت اخته تتساءل فى خوف تغالب نومها :

– هيه . . من ؟

– هس . . .

ووضع اصابعه التى لم تعرف المياه اياما ، على شفتيها .

بيد انها عرفته لتستيقظ فى سرعة وتعانقه بيديها العاريتين الدافئتين وتقبله فى اذنه . وهمست تقول بصوت يعبر عن سعادتها :

– سيريوجكا . . حى . . انك ما زلت حيا يا اخى العزيز !

ولم يكن قادرا على رؤية وجهها الذى تخيله ضاحكا وقد علت الحمرة وجنتيها الصغيرتين الورديتين من تاثير النوم .

وراح يقول فى اضطراب بينما يقضم كسرة الخبز فى الظلام :

– نادية ! لم يغمض لى جفن منذ الثالث عشر من هذا الشهر . . . منذ صباح الثالث عشر وحتى يومنا هذا . . . كنت فى خضم المعركة .

– او هوه !

همست نادية متعجبة ، ثم لمست يده واستوت فى فراشها مرتدية قميص نوم وقد توسدت ساقيها .

– لقد لقى كل رجالنا حتفهم ، اما انا فقد انسحبت . لا لم يكونوا جميعا قد لقوا حتفهم حين تركت المكان . كان عددهم يناهز خمسة عشر . . وقد ذكر العقيد : «فلتهرب . . . . ما عساك ان تفقد حياتك» . اما هو فقد كان مثخنا بالجراح . . . فى وجهه ويديه وقدميه وظهره . لقد كان غارقا فى الدماء والضمادات . «اننا سوف نستشهد فى كل الاحوال ، فما الداعى لاستشهادك ؟»

وقد تراجعت . . . واعتقد انه لا يوجد الآن من بقى منهم على قيد الحياة .

وهمست نادية بنبرة تتسم بالرعب :

– اوهووه !

– لقد قمت قبل انسحابى بتناول جاروف حيث حفرت حفرة فيما خلف فيرخنيدوفانايا الى جوار تلين يقع حرج الى يسارهما والقيت باسلحة القتلى من بنادق وقنابل يدوية ومسدسات وذخيرة ثم ردمتها وانصرفت . وذلك مكان يمكن الاهتداء اليه . وقد قبلنى العقيد قائلا : «فلتتذكر اسمى . . . سوموف . . . سوموف نيكولاى بافلوفيتش . وعليك حين يرحل الالمان ، او حين تصل الى قواتنا الكتابة الى اللجنة العسكرية فى جوركى حتى يتيسر لهم الكتابه الى اسرتى ، والى من يهمه الامر حول اننى قد مت ، كما يقال ، ميتة الابطال» . وقلت . . .

وهنا توقف سيريوجكا لبرهة من الزمن حابسا انفاسه ، يتناول كسرة الخبز المملحة التى بللتها دموعه .

وشهقت نادية تردد :

– اوهووه . . .

حقا . . . من المؤكد ان شقيقها قد عانى الكثير . فلم تكن تذكره ابدا يذرف الدمع منذ ان بلغ السابعة من العمر . . . اذ كان صلب الارادة منذ صغره . وسألته :

– وكيف التقيت بهم ؟

– لقد لقيتهم على النحو التالى – وهنا عادت اليه حيويته ورفع ساقيه ليستقر فوق سرير شقيقته ومضى يقول :

– كنا قد فرغنا من تشييد التحصينات الدفاعية حين تراجع رجالنا ليلتزموا مواقعهم الدفاعية هناك . وقد انصرف كل ابناء كراسنودون عائدين الى منازلهم بينما توجهت الى ملازم اول قائد السرية اطلب منه تسجيلى على قوتها . الا انه اجابنى بان ذلك مستحيل دون امر من قائد الفوج . ورجوته تعضيد طلبى ، والححت بالرجاء حتى تقدم احد الرقباء يؤيد طلبى . وغرق المقاتلون فى الضحك ، بينما اصر هو على موقفه . وحالما كنا نتجادل حول هذا الامر بدات المدفعية الالمانية فى توجيه نيرانها . واندفعت الى

المقاتلين فى ملاجئهم ، والذين لم يسمحوا لى بالانصراف شفقة على ، الا بعد حلول الليل ، وخرجت من الملجأ ، لالتزم مكانى فيما وراء خندق مجاور . وحين بدأ الالمان هجومهم فى الصباح عدت الى الخندق حيث انتزعت بندقية احد الشهداء ورحت اقتتل كما يفعل الجميع . وهكذا كان الحال لعدة ايام ، وعزف الجميع عن طردى . وقد عرفنى العقيد فيما بعد ليقول : «لو لم تكن فرقة انتحارية ، لكنت قد قيدتك بها . اننا مشفقون عليك ، حيث انك فى مقتبل العمر» . ثم ضحك ليمضى قائلا : «فلتعتبر نفسك احد الفدائيين». وهكذا رحنا نتراجع سوية حتى مشارف فيرخنيدوفانايا . — وهمس بصوت خافت للغاية بدا كما الصفير — لقد شاهدت الالمان وجها لوجه ، كحالنا وانت الآن . كما ورديت اثنين منهم قتيلين . . . وربما اكثر من ذلك . بيد اننى على يقين من اننى صرعت اثنين . — وهنا مط شفتيه الرقيقتين ليمضى مؤكدا — اننى من الآن وصاعدا سوف اقتلهم اينما وجدتهم اولئك الافاعى . ولتتذكرى كلمتى هذه . . .

وقد كانت نادية تدرك ان سيريوجكا يقول الحقيقة . . . حقيقة كونه قد صرع اثنين من الالمان المعتدين ، وكونه سوف يواصل قتلهم . وتوجهت اليه تقول :

— انك سوف تضيع .

— ان الضياع افضل من ان يلعق المرء احذيتهم ، او ان يعيش حياة لا جدوى منها .

— آه . . . ها . . . ماذا سوف يحل بنا ؟!

ندت عن نادية فى اسى حين تخيلت ما سوف يحل بهم صباح الغد وربما فى ذات الليلة . ومضت تقول فى حزن :

— ان لدينا بالمستشفى ما يزيد عن مائة جريح غير قادرين على السير . وقد ظل الطبيب فيدور فيدوروفيتش الى جوارهم . اننا نحيط بهم يراودنا خوف ان يقتلهم الالمان .

وذكر سيريوجكا فى قلق :

— يجب ان يتولى المدنيون رعايتهم . كيف تصرفتم على هذا النحو ؟

— المدنيون ! من ذا الذى يعلم اليوم كنه الآخر ؟ يقال ان

لدينا فى شانغهاى مجهولا يأويه اجنات فومين . ومن يدرى اى شخص ذلك ؟ فلربما يكون الالمان قد بعثوا به لاستطلاع الحال . ذلك لان فومين ليس من اولئك الذين يأوون رجالا حسنى السمعة.

وقد كان اجنات فومين من عمال المناجم الذين كوفئوا مرارا ماديا ، ومعنويا على صفحات الجرائد . وقد جاء الى هذه القرية فى مطلع الثلاثينات حين ظهر كثيرون مجهولون فى كراسنودون وفى الدونباس عموما ، ليستقروا فى شانغهاى . كما وكان فومين مادة لكثير من الشائعات ، والتى ترددها نادية اليوم .

وتثاءب سيريوجكا . والآن ، وبعد ان افرغ ما فى جعبته وانتهى من تناول كسرة الخبز وتدعم شعوره بانه بين ذويه راوده النوم .

— فلتنامى يا نادية . . . !

— لن يغمض لي جفن بعد حديثك هذا !

— اما انا فسوف انام .

قالها سيريوجكا وانتقل الى فراشه . وما ان لامس رأسه الوسادة ، حتى تراءت امام ناظريه تلك الفتاة التى كانت بالعربة . «اننى سوف اعثر عليك فى كل الاحوال» — كان ذلك ما راود سيريوجكا الذى ابتسم ليحتوى الظلام كل ما حوله وما فى اعماقه .

الفصل الثالث عشر

كيف كان لك ان تتصرف ايها القارئ فى معرض الحياة اذا ما كان لديك قلب نسر زاخر بالشجاعة والجسارة والتعطش نحو بذل الفداء فى حين انك ما تزال صغيرا تهرول حافى القدمين تغطى البثور قدميك ، لا تدرك البشرية كل ما تنشده روحك ؟

لقد كان سيريوجكا تيولينين اصغر ابناء الاسرة ، نما كما تنمو الاعشاب فى البرارى . وكان ابوه من تولا ، قدم فى سنى صباه الى الدونباس بحثا عن الكسب ، حيث عمل قرابة اربعين عاما فى المناجم مما اضفى عليه سمات كبرياء ساذجة مشوبة بالاستبداد ، تلك الكبرياء التى لا يصادفها المرء لدى اصحاب اية مهنة اخرى فى مثل هذه البرارى ، والتى لا يتسم بها سوى عمال المناجم والبحارة .

وقد ظل جافريل بيتروفيتش على اعتقاده بانه اهم من بالمنزل حتى بعد ان اصبح عاجزا عن العمل . لقد راح يوقظ كل من فى البيت صباح كل يوم ، بحكم تعوده كعامل منجم على الاستيقاظ فى الفجر وشعوره بالملل ازاء كونه وحيدا . وحتى لو لم يكن يشعر بهذا الملل لكان قد ايقظهم بسعاله الحاد الذى كان ينتابه منذ لحظة استيقاظه ولمدة لا تقل عن ساعة . لقد كانت تخنقه نوبات السعال ليروح ينشق ويبصق ، يتعالى من صدره شخير وصفير ، وكأنما هى اصوات صادرة عن آلة موسيقية غير صالحة للاستعمال .

اما بعد ذلك فقد كان يظل جالسا طوال النهار مستندا بكتفه الى العكاز ذى القرنين المغلف بالجلد ، يبدو نحيفا بارز العظام ، ذا انف طويل مقوس ، كان فيما سبق كبيرا مكتنزا واصبح اليوم مدببا حادا ، بحيث يصلح لتقطيع صفحات كتاب ، ووجنتين غائرتين يكسوهما الشعر الكث الذى خطه الشيب ، وشارب كث مستقيم يوحى بالفخامة تحت منخاريه والذى بدا كشعرة واحدة مستقيمة فى كلا الجانبين مثل الحربة ، وعينين ثاقبتين لا لون لهما يعلوهما حاجباه الموبران . وهكذا كان يلتزم مكانه فى فراشه تارة ، وعلى عتبة المنزل تارة اخرى ، او على مقعد الى جوار البناية الصغيرة الملصقة بالمنزل مستندا الى عكازه تارة ثالثة يصدر اوامره لكل الناس حادة ، مقتضبة ، تحمل معنى الوعيد ، لتتملكه نوبات السعال حتى يتعالى شخيره وصفيره فى كل ارجاء حى «شانغهاى» .

وحين يصبح المرء الذى لم يتقدم به العمر بعد عاجزا عن العمل تقريبا ثم يصل به الامر الى مثل هذا الحال ، يغدو من الصعب عليه تربية ثلاثة شبان وثمانى فتيات ، اى احد عشر نفسا ، وتلقينهم اصول مهنة تكون سلاحهم فى الحياة !

لم يكن جافريل بيتروفيتش قادرا على ذلك لو لم تكن الى جواره زوجته الكسندرا فاسيليفنا ، تلك المرأة الهمامة التى تنتمى الى رعيل فلاحات اوريول ، والى اولئك النسوة اللواتى يسمونهن فى روسيا «بالمرأة المقاتلة» . لقد كانت وما تزال قوية البنيان ، لا تعرف المرض . كما وانها كانت ايضا لا تعرف القراءة والكتابة . بيد انها كانت حين يتطلب الامر ، تبدو صلبة الارادة يمكن ان تبدى ضروب الخداع ، وان تتحلى بالصمت ، وان تدلى بحلو الحديث وان

تكون شريرة وطيبة ومنافقة ومثابرة وثقيلة الظل . هذا الى جانب انها كانت تبدو خصما عركته الحياة حين يعن للبعض مجادلتها حول امرما .

وهكذا وجد العشرة الكبار مكانهم فى الحياة ، بينما لا يزال الصغير سيريوجكا ينمو كما الحشائش فى البرارى ، وان كان يواصل دراسته . ولم يكن يعرف ملبسا او حذاء خاصا به ، بل كان كل ما يرتديه ويحتذيه قد اعيدت حياكتــه للمرة العاشرة بعد اخوته الكبار . وقد كان صلب العود لا تؤثر فيه شمس او رياح ، امطار او صقيع ذا قدمين تجلدت بشرتهما لتغدو كما لدى الجمال ، تلتئم اية جراح تصيبه على التو كما للبطل الاسطورى .

وكان ابوه الذى يغمره اكثر من اخوته الاخرين بشخيره وسعاله وصفيره يعتبره رغما عن ذلك احب اولاده جميعا واقربهم الى قلبه .

وكان يقول بارتياح بينما يمسح بيده شاربه الكث :

— ياله من مقدام ! أليس حقا يا شوركا ! — وقد كانت شوركا هى رفيقة عمره الكسندرا فاسيلييفنا التى بلغت من العمر ستين عاما — فلتنظرى اليه ! انه لا يهاب اية معارك ، كما كنت فى شبابى ! اليس كذلك ؟ — وهنا غلبه سعال استسلم له تماما .

ان لديك ايها القارئ قلب نسر ، بيد انك ما تزال صغيرا تغمر البثور قدميك . . . فماذا انت فاعل فى هذه الحياة ؟ او كنت تقوم بطبيعة الحال على اتيان البطولات بادئ ذى بدء ؟ ومن ذا الذى لا يحلم فى طفولته باتيانها — بيد ان ذلك امر ليس باليسير فى كل الاحوال .

انك اذا ما كنت تلميذا بالصف الرابع تطلق العصافير من درج قمطرك اثناء حصة الحساب ، فلن يعود ذلك عليك بالامجاد . ان ناظر المدرسة سوف يقوم — كالعادة — باستدعاء والديك ، اى ماما شوركا ذات الستين عاما . اما «الجد»*، جافريل بيتروفيتش ، — وقد كان الجميع يدعونه «بالجد» احتذاء بالكسندرا فاسيلييفنا — فكان يسعل ويصفر متمنيا ان يصفعك على قفاك لو لم يكن عاجزا عن الوصول اليك ، ومكتفيا بدق الارض بعكازه الذى لم يكن يستطيع ان يقذفك به حيث هو فى حاجة للاستناد اليه بجسده الضامر . غير ان ماما شوركا كانت حين تعود من المدرسة تلهب خدك بصفعة قوية تظل

تذكرها اياما . هذا وقد كانت قوة الام شورا تتضاعف من يوم لآخر .

وماذا عن رفاقك ؟ اى رفاق ! ليس عبثا ما يقال حول ان الشهرة كما الدخان ، حيث ان الغد سوف يأتى بنسيان مأثرة عصافيرك .

انك تستطيع فى فترة العطلة الصيفية ان تغدو اشد الجميع سمرة ، وامهرهم فى الغطس والسباحة وصيد صغار الاسماك بيديك . كما وتستطيع حين ترى سربا من الفتيات اللواتى يسرن بمحاذاة الشاطئ ، الجرى ثم القفز من على حافة الشاطئ لتطير كما الطائر الذى لفحته الشمس فوق الماء لتغطس فى مياه النهر ؛ ثم وحين تتظاهر الفتيات بعدم الاهتمام ، ويرحن ينتظرن لحظة طفوك ثانية فوق السطح ، تقوم بخلع سروالك تحت الماء ، لتظهر فجاة لهن مؤخرتك البيضاء الوردية ، ذلك الجزء الذى لم تلفحه الشمس من جسدك كله .

انك سوف تشعر بلحظة من الارتياح حين ترى الفتيات يهرولن بعيدا تبدو كعوبهن الوردية ويلفح الهواء ثيابهن وكانما ثمة من نفخ فيهن ليبتعدن عن الشاطئ . كما وسوف تنال اعجاب قرنائك الذين يفترشون الرمال معك معرضين اجسادهم للشمس . انك ستحوز الى الابد اعجاب الصبية الصغار الذين سوف يتبعونك اسرابا يقلدونك ، ويمتثلون لكل كلمة تقولها او اشارة تند عن اصبعك . لقد ولت عصور قياصرة روما ، ومع ذلك فسوف يرفعك الصبية الى مصاف الالهة .

غير ان ذلك لن يكفيك . وسوف تقوم ذات يوم ، لن يختلف عن بقية ايام حياتك ، بالقفز من الطابق الثانى بالمدرسة الى الفناء، حيث يمارس التلاميذ هواياتهم اثناء الفسحة . وسوف تشعر اثناء تحليقك من الطابق الثانى بلحظة ارتياح خاطفة ، ازاء قفزتك ، وازاء خوفك الهائل ، وكذلك وفى نفس الوقت ازاء رغبتك فى الاعلان عن نفسك ، وازاء صرخات فتيات الصفوف من الاول وحتى العاشر . غير ان ما عدا ذلك لن يعود عليك الا بخيبة الامل والحرمان .

ان مواجهة ناظر المدرسة امر عسير . وسوف يسفر ذلك عن فصلك من المدرسة . كما سوف تكون مضطرا لان تغلظ القول

للناظر ، لانك لست على حق . وسوف يزور ناظر المدرسة مسكن والديك فى «شانغهاى» ، ليقول فى لهجة تنم عن اهميته وتأدبه وما يعنى لومهما :

— اننى اود معرفة الظروف التى يعيش فيها ذلك الصبى . اننى اود ان اعرف فى نهاية الامر تلك الاسباب التى تدفعه الى مثل هذا السلوك .

وسوف يرنو والداك — الام بيديها الرقيقتين البضتين اللتين لا تعرف مكانا لهما حيث كانت قد فرغت على التو من سحب الاوانى من الفرن ، ولم تكن ترتدى مريلة تمسح بها السناج العالق بهما ، والاب الذى ارتبك وتلعثم محاولا النهوض احتراما للناظر متكئا على عصاه — سوف يرنوان نحوه وكانما هما مذنبان فى حقيقة الامر .

وحين يرحل ناظر المدرسة ، لن يسبك احد على الاطلاق فى البداية ، وسوف يشيح الجميع بوجوههم عنك . سيجلس «الجد» غير عابئ بك ، يسعل من آن لآخر ، يبدو شاربه على غير عادته مرتخيا مثل شارب رجل انهكته الحياة . اما الام فسوف تروح تمارس اعمالها المنزلية ، بينما يتعالى دبيب قدميها تارة هنا واخرى هناك ، ليقع نظرك عليها فجاة حين تميل بقامتها نحو الفرن الروسى ، وهى تمسح خلسة دمعة انزلقت من عينها بيدها الرائعة التى اصابها الكبر ولوثها السناج . سوف يكونان على نحو وكانما يبغيان ان يؤكدا رغبتهما فى ان يقولا لك : «فلتنظر الينا . . . فلتمعن النظر لتعرف اى اناس نحن !» .

انك سوف تلحظ لاول مرة فى حياتك ان والديك اللذين تقدم بهما العمر لا يملكان ما يرتديانه فى الاعياد . انهما لم يجلسا طوال حياتك تقريبا يتناولان طعامهما حول مائدة واحدة ، بل يفعلان ذلك وحدهما حتى لا يرى احد من ابنائهما ، انهما لا يتناولان سوى الخبز الاسمر والبطاطس كى يوفرا لهم ما يعينهم على الحياة الواحد تلو الآخر ، وحتى تصبح انت كذلك ، اصغر الاولاد ، انسانا متعلما .

وتخترق دموع الام فؤادك ، بينما يبدو لك وجه الوالد لاول مرة حزينا يتسم بالاهمية . وليس ثمة ما يضحك فى انه يسعل ويصفر ، بل على العكس . . . انها مأساة !

وتنم نظرات شقيقاتك التى ترميانك بها وهن منهمكات فى اشغال

الابرة بالغضب والاحتقار ، هذا بينما يتسم بالفظاظة سلوكك حيال والديك وشقيقاتك مما يجعلك لا تنام الليل من فرط احساسك فى آن واحد بمشاعر المهانة ، وبمشاعر ادراك مدى جرمك ، لتروح تمسح براحتك التى لم تغسلها دمعتين وحيدتين انزلقتا على وجنتيك البارزتين الصغيرتين .

ويراودك بعد تلك الليلة احساس بانقضاء عهد الطفولة .

ويمثل امام ناظريك فيما بين تلك الايام الحزينة المفعمة بالصمت والادانة عالم حافل بالتضحيات الرائعة التى لا تخطر على بال .

سوف تجد رجالا يقطعون عشرين الف فرسخ تحت الماء ، ويكتشفون اراضى جديدة . . . يطاون جزرا قفرة يشيدون بها كل ما يلزمهم ، يرتقون اعلى قمم العالم ، بل ويهبطون على سطح القمر ، يواجهون اعتى عواصف المحيط ، يتشبثون بالصوارى التى تتلاعب بها الرياح ، ينسابون على متن سفنهم فوق الصخور الناتئة يصبون براميل زيوت الحيوانات البحرية فوق الامواج الهادرة ، يعبرون المحيطات على متن اطواف صغيرة ، ينهكهم الظما تتلاعب السنتهم برصاصة داخل افواههم الجافة ، يتحملون رياح السموم فى الصحارى ، يتصدون للافاعى والفهود والتماسيح والاسود والفيلة ويصرعونها . ويفعل هؤلاء الناس ذلك سعيا وراء رزق او بغية حياة افضل او حبا فى المغامرة ، او بدافع المشاعر الرفاقية والصداقة المتينة ، بغية انقاذ محبوبة من كارثة ، او لهدف مجرد مثل خير البشرية ومجد الوطن ، ورفع راية العلم . . . كامثال ليفينجستون * واموندسين ** وسيدوف *** ونيفيلسكى **** .

واية بطولات يحققها المقاتلون فى الحروب ! تشهد البشرية

---

* دافيد ليفينجستون (١٨١٣-١٨٧٣) رحالة وعالم انجليزى تخصص فى شئون افريقيا . **المترجم** .

** راؤول اموندسين (١٨٧٢-١٩٢٨) رحالة وعالم نرويجى من مشاهير الباحثين فى القطبين الشمالى والجنوبى . **المترجم** .

*** ج . يا . سيدوف (١٨٧٧-١٩١٤) رحالة روسى من مشاهير الباحثين فى القطب الشمالى . **المترجم** .

**** ج . ا . نيفيلسكى (١٨١٣-١٨٧٦) عالم روسى شهير تخصص فى منطقة الشرق الاقصى . **المترجم** .

الحروب منذ الاف السنين ، ويحقق الالاف الامجاد الخالدة فى مثل تلك الحروب . بيد انك محظوظ حيث ولدت فى زمن السلم . انك تعيش فى تلك الاماكن التى تضم رفات الشهداء الذين بذلوا حياتهم فى سبيل ان تعيش سعيدا ، وتعلن عن نفسها حتى يومنا هذا مدوية صاخبة ، بطولات قادة تلك السنوات المجيدة . وتخفق روحك بشىء يتسم بالبسالة ويوحى بالالهام وكانه نشيد مسيرة ، حين تشدك صفحات تاريخهم الى اعماق الليل دون ان تدرى . وتراودك رغبة جارفة فى العودة اليها كى تسجل روحك صور اولئك العظام ، لتشرع فى تجسيدها — كلا . . . ليس هكذا — انك ترسم صورهم عن طريق نقلها على الورق بقلم اسود تبلله بلعابك حتى تظهر الخطوط على نحو اوضح وتغدو اكثر تعبيرا حتى تصل الى النهاية بعد ان يكون لسانك قد غرق فى السواد لدرجة لا تستطيع معها تنظيفه حتى لو استخدمت حجرا فى ذلك . وتظل هذه الصور معلقة فوق فراشك حتى يومنا هذا .

لقد امنت اعمال ومآثر اولئك الناس حياة جيلك وسوف تظل البشرية تذكرها ابد الدهر . هذا فى حين ان هؤلاء الناس بسطاء لا يختلفون عنك فى شىء . انهم ميخائيل فرونزه ، وكليم فوروشيلوف ، وسيرجو اوردجونيكيدزيه ، وسيرجى كيروف * وسيرجى تيولينين . . . حقا . . . لقد كان اسمه ، اسم عضو الكومسومول العادى ، يمكن ان يسجل الى جوارهم لو اسعفته الحياة لابداء ضروب البطولة . ويا لها حقا لمدهشة وفريدة حياة اولئك الناس . لقد مارسوا العمل السرى ايام القيصر ، وطوردوا واودعوا السجون ونفيوا الى سيبيريا والى الشمال ، الا انهم كانوا يلوذون بالفرار المرة تلو الاخرى ، ويخوضون المعارك ايضا المرة تلو الاخرى . لقد هرب سيرجو اورجونيكيدزيه من النفى . وهرب ميخائيل فرونزه من النفى مرتين . . . وهرب ستالين عدة مرات . وكان يتبعهم فى البداية افراد معدودون ، ثم راحوا يصبحون مئات ، ثم مئات الالاف ، الى ان بلغ تعدادهم الملايين .

لقد ولد سيرجى تيولينين حين لم يكن هناك داع لممارسة

---

* من مشاهير الحزب الشيوعى والدولة السوفييتية . **المترجم** .

العمل السرى . ولم يهرب من اى مكان ، حيث لم يكن امامه ما يفر منه . لقد قفز من نافذة الطابـــق الثانى بالمدرسة ، وكان ذلك حماقة كما غدا واضحا اليوم . كما انه ليس هناك من يتبعه سوى فيتكا لوكيانتشينكو .

بيد انه يستحيل فقدان الامل . فقد حطم جليد المحيط المتجمد الشمالى السفينة «تشيليوسكين» . وكم روعت البلاد باكملها تلك الصدمة التى تعرضت لها السفينة ليلا . بيد ان طاقمها لم يهلك وبارح السفينة ليستقر على جليد المحيط . وراح العالم اجمع يتابع عملية انقاذهم ، تلك العملية التى كان النجاح حليفها . فثمة من يحمل بين جوانحه فى عالمنا هذا قلب نسر زاخر بالبسالة . واولئك اناس بسطاء من امثالك ، راحوا يقاومون العواصف والصقيع يشقون طريقهم على متن طائرات بغية انقاذهم . . . يحملوهـــم بعيدا ، معلقين فى اجنحة طائراتهم . . . ولقد كان هؤلاء طليعة ابطال الاتحاد السوفييتى .

تشكالوف ! انه انسان بسيط مثلك ، لكن اسمه يدوى فى ارجاء العالم اجمع . لقد حقق حلم البشرية – الطيران الى امريكا عبر القطب الشمالى . ويا لهم من ابطال . . . تشكالوف ! جروموف ! مجموعة بابانين * .

وهكذا تسير الحياة عامرة بالبطولات ، وبالاعمال العاديـــة المالوفة .

وكم من الاناس البسطـــاء من امثالك يكدحـــون على الارض السوفييتية ، وفى كراسنودون نفسها ، لا يتميزون الا بمآثرهـــم وامجادهم التى لم تسجلها الكتب فيما سبق . وهناك فى الدونباس ، وليس فى الدونباس وحده ، يعرف كل امرئ اسمى نيكيتا ايزوتوف وستاخانوف ** . كما ويستطيع اى طفل من الطلائع ان يحدثك عن باشا انجيلينا رئيسة اول فرقة نسائية للجرارات ، وعن العامل

* مجموعة بابانين . نسبـــة الى ايفـــان دميتروفيتش بابانين (ولد ١٨٩٤) رئيس العاملين باول محطة ابحاث علمية اقيمت على الجليد العائم فى القطب الشمالى (١٩٣٧–١٩٣٨) . **المترجم** .

** من مشاهير العمال السوفييت ، اصحاب مبادرة تعميم الحركة الجماهيرية لرفع الكفاءة الانتاجية فى الصناعة والزراعة . **المترجم** .

الماهر كريفونوس ومقار مازاى * اولئك الذين يحظون باحترام الجميع .

كما ويطالبه والده بان يطالع عليه مـــا تنشره الجرائد حول هؤلاء الناس ليروح فيما بعد يسعــــل ويشخر طويلا لسبب غير مفهوم ، او ربما يكون ذلك لكونه قد اصبح هرما ، اقعدته عربة الفحم . لقد حمّلت الحياة فى حقيقة الامر «الجد» جافريل تيولينين عبئا ينوء به كاهله . وكان يدرك سيريوجكا مدى ما يعانيه ، من انه اصبح غير قادر على ان يكون فى مصاف اولئك الناس .

حقا . . . ان امجاد هؤلاء مفخرة حقيقية ! بيد ان سيريوجكا ما يزال صغيرا وينبغى عليه مواصلة الدراسة . وسوف يكون قادرا على تحقيق كل ذلك فيما بعد حين يصبح كبيرا . لكنه قادر اليوم تماما على اتيان بطولات مثل بطولة تشكالوف وجروموف ، وينبئه حدسه بكونه قد شب بما يكفيه لذلك . غير ان ماساته فى انه الوحيد ، وليس هناك سواه فى ذلك العالم يدرك ذلـــك . وهكذا يعيش منعزلا باحساسه هذا عن البشرية جمعاء .

وعلى هذا الحال ادركته الحرب ، ليروح يبذل المحاولة تلـــو الاخرى للالتحاق بالمدرسة العسكرية الخاصة ، حيث انه لابد وان يصبح طيارا . وفى كل مرة تبوء محاولاته بالفشل .

وينطلق كافة تلاميذ المدارس للعمل بالحقول ، عداه هو الذى طعن فى فؤاده ، يلتحق بالعمل فى المناجم . وبعد انقضاء اسبوعين غدا قادرا على العمـــل فى استخراج الفحـــم على قدم المساواة مع الكبار .

انه نفسه لا يعرف مدى تقدير الآخرين له . لقد كان يخرج من البئر اسود البشرة تماما لا تبدو منه سوى عينيه اللامعتين واسنانه البيضاء الصغيرة التى ظهرت ناصعة ، يرافق الكبار ، يسير رصينا نحو الحمام ينخر ويسعل مثلما كان يفعل ابوه ، ثم يتوجه عائدا الى منزله فى غير عجلة حافى القدمين حيث كان ما يحتذيه ملكـــا للمنجم .

* مقار مازاى (١٩٠٩–١٩٤١) . من مشاهير العاملين فى مجـــال الحديد والصلب . نفذ فيه الهتلريون حكم الاعدام فى بداية الحرب الوطنية العظمى . **المترجم** .

كان يعود متأخرا بعد ان يكون الجميع قد فرغوا من تناول طعام الغذاء ليقدموا اليه طعامه على حدة . لقد غدا ناضجا مكتمل الرجولة ، عاملا حقيقيا .

وكانت الكسندرا فاسيليفنا تسحب اناء حساء الكرنب من الفرن لتمسك به بكلتا يديها البضتين تملأ له طبقـه الذى يتعالى منه البخار ، وتقدم له الخبز الذى صنعته بنفسها والذى لم يستطعم مذاقه الى هذا الحد فيما سبق . وكان الاب ينظر الى ابنه فيما تبرق عيناه الثاقبتان من تحت حاجبيه الكثين ، ويهتز شاربه ، يحادثه فى هدوء وكانما هو عامل حقيقى دون ان يسعل او يصفر . لقد كان يهمه سماع كل شىء حول العمل فى المنجم ، وكم بلغ مقدار انتاج سيريوجكا والآخرين هناك . كان يتساءل حول المعدات ، حول ملابس العمل ، يتحدث عن المناسيب وعن الاسراب وعن الممرات واماكن الحفر فى المنجم وكانما يتحدث عن حجرات وزوايا مسكنه الشخصى . وكان العجوز قد عمل فى الواقع فى كافة مناجم المنطقة تقريبا ، اما وبعد ان اصبح عاجزا عن العمل فقد ظل على اطلاع تام بكافة الامور عن طريق رفاقه . كان يعلم اتجاهات ومدى النجاح فى استخراج الفحم ، ويستطيع ان يشرح لاى من الآخرين ، مشيرا فى الهـواء بسبابته الطويلة بارزة العظام ، الى مواقع استخراجه تحت الارض والى كل ما يجرى هناك .

وفى الشتاء كان سيريوجكا يتوجه بعد انصرافه من المدرسة مباشرة ودون ان يتناول طعامه ، الى اى من اصدقائه – من رجال المدفعية او سلاح المهندسين او الطيارين ، ويجلس فى الثانية عشرة ليلا لاعداد واجباته المدرسية والنوم يغالبه ، ليستيقظ فى الخامسة صباحا ليتوجه الى ميدان الرماية حيث يعلمه فيمن يعلم من رجاله ، رقيب من اصدقائه الدوريين على الرماية بالبندقية او بالرشاش الخفيف . وقد كان بالفعل يجيد الرماية ، مثل اى مقاتل آخر ، بالبندقية والمسدسات من كافـة الانواع ، والقاء القنابل اليدوية والزجاجات الحارقة ، وكذلك حفر الخنادق وزرع الالغام وتطهير المناطق منها ، ويعرف اشكال كافة الطائرات الموجودة على ظهر البسيطة ، ويستطيع ابطال مفعول اية قنبلة . . . وقد اجتاز كل ذلك برفقة فيتكا لوكيانتشينكو الذى كان يرغمه على مصاحبته

اينما ذهب . وقد كان فيتكا معجبا بسيريوجكا اعجاب الاخير بسيرجو اوردجونيكيدزيه او بسيرجى كيروف .

وقد بذل فى ربيع هذا العام محاولة اخرى ، بل اكثر محاولاته اصرارا للالتحاق بمدرسة الطيران الخاصة بالكبار ، وليس بمدرسة الشباب التخصصية . ولم يحالفه التوفيق مرة اخرى ، حيث اجابوه بانه ما يزال فتيا بعد ، مشيرين عليه بالتقدم فى العام القادم .

ولقد كان حقا فشلا ذريعا ، اذ بدلا من الالتحاق بمدرسـة الطيران ، كان عليه التوجه لبناء التحصينات الدفاعية عند مشارف فوروشيلوفجراد . غير انه اتخذ قرارا بعدم العودة الى منزله .

وكم بذل من محاولات ومناورات للالتحاق بالوحدة العسكرية ! ولم يكن قد قص على نادية حتى جزء من المائة من محاولاته ، ومدى ما تعرض له من اهانات تحتم عليه بذلها وتحملها . وها هو اليوم يدرك معنى المعركة ومعنى الموت وماهية الخوف .

وغطّ سيريوجكا فى سبات عميق لم يقطعه حتى سعال ابيه فى الصباح ، ولم يستيقظ الا بعد ان تربعت الشمس كبد السماء . وبالرغم من ان نوافذ الغرفة كانت مغلقة ، فقد ادرك الوقت كعادته من موقع انعكاس اشعة الشمس الذهبية التى تسللت عبر درف النافذة لتستقر على الارض الطينية ، وعلى اثاثها كما وادرك فور استيقاظه ان الالمان لم يصلوا بعد .

وخرج الى الفناء للاغتسال ، حيث شاهد «الجـد» يجلس فى مقعده ، وعلى مقربة منه كان يجلس فيتكا لوكيانتشينكو . اما الام فقد كانت مشغولة بالعمل فى الحديقة بينما كانت شقيقتاه قد انصرفتا الى عملهما منذ فترة طويلة .

وراح «الجد» يحيى ابنه قائلا :

– أوهوه ! يا لك من مقاتل رائع ! اما زلت حيا ؟ – وغلبه سعال جعله يتوقف قليلا ليمضى قائلا : ان صديقك يجلس فى انتظارك منذ الفجر – وهنا اوما «الجد» فى مودة بالغة نحو فيتكـا لوكيانتشينكو الذى لزم مكانه على نحو يومئ بالاذعان ، ينظر فى جدية بعينيه السوداوين الى وجه صديقه الجسور ذى الوجنتين الصغيرتين ، والذى اثقله النعاس ومع ذلك يبدو متعطشا لاتيان كافة ضروب النشاط . ثم استطرد يقول فى ارتياح : – ياله من

صديق طيب كان يزورنا فجر كل يوم سائلا عنك . . . وكانما سيريوجكا هو كل ما لديه فى هذا العالم .

وهكذا اثبت «الجد» بكلماته هذه ، مدى عمق الصداقة التى تربطهما .

لقد كانا يعملان سويا فى حفر الخنادق عند مشارف فوروشيلوفجراد . وكان فيتكا الواقع كلية تحت تأثير صديقه ، راغبا فى البقاء معه للالتحاق بالوحدة العسكرية . بيد ان سيريوجكا ارغمه على العودة الى منزله ، ليس اشفاقا عليه ، او على والديه من باب اولى ، بل لانهما لن يستطيعان الالتحاق بالوحدة العسكرية سوية ، ولان وجوده يمكن ان يعرقل كذلك قبوله وحده . واضطر فيتكا الى الرحيل مفعما بالحزن والسخط على صديقه الطاغى . ولم يكن مضطرا فقط الى الرحيل ، بل والى ان يقسم بالا يخبر والديه وكذلك والدى سيريوجكا او اى انسان آخر على وجه الارض بما يعتزمه سيريوجكا . وقد كان سيريوجكا فى حاجة الى ذلك للحفاظ على كرامته فى حالة اخفاقه .

ومن الواضح استنادا الى حديث «الجد» ان فيتكا لم ينكص عن وعده .

وجلس سيريوجكا وفيتكا لوكيانتشينكو خلف المنزل على شاطئ نهير عكر المياه تغطيه الطحالب ، كان يتصدر احد المراعى . وتراءت خلف المرعى بناية كبيرة منعزلة شيدت حديثا ، كحمام لعمال المناجم لم يفتح بعد . استقرا مكانهما على حافة الوهدة يدخنان ويتبادلان الاخبار .

لم يبق فى المدينة من رفاقهما بالمدرسة – وكان كلاهما يتلقى تعليمه فى مدرسة فوروشيلوف – سوى توليا اورلوف ، وفولوديا اوسموخين ولوبكا شيفتسوفا التى اتسم سلوكها بالغرابة ، حيث لزمت منزلها لا تغادره الى اى مكان آخر . وقد كانت لوبكا شيفتسوفا تدرس بمدرسة فوروشيلوف الا انها انقطعت عن دراستها بعد الصف السابع فيما قبل الحرب حيث قررت العمل بالفن والتحقت بالعمل فى المسارح واندية المنطقة تمارس هوايتها فى الغناء والرقص . وقد سر سيريوجكا بالذات ببقاء لوبكا فى المدينة ، فقد

كانت فتاة جسورة تتسم بنفس طباعه وكانما هى سيريوجكا فى زى نسائى .

واسر فيتكا الى سيريوجكا بما علمه من ان اجنات فومين يخفى لديه شخصا مجهول الهوية ، وقد راح الجميع فى «شانغهاى» يضربون اخماسا فى اسداس بغية معرفة كنه ذلك الشخص الذى غدوا يرهبونه . كما وجدت فى حى «سينياكى» حيث كانت مستودعات الذخيرة ، بضع عشرات من الزجاجات الحارقة فى قبو مكشوف ، لابد وان يكون ثمة من خلفها حين كان فى عجلة من امره .

ولمح فيتكا بانه من المستحسن اخفاء تلك الزجاجات فى مكان ما ، غير ان سيريوجكا تذكر فجأة امرا ما لتعلو وجهه امارات تنم عن صرامة معلنا انه يجب عليهما التوجه فورا الى المستشفى العسكرى .

الفصل الرابع عشر

التحقت نادية تيولينينا بدراسات التمريض منذ تلك اللحظة التى اصبح فيها خط الجبهة قريبا من الدونباس ، وحين بدأ اوائل الجرحى يتوافدون على كراسنودون . وها هى تعمل للعام الثانى كبيرة للممرضات فى المستشفى العسكرى الذى استقر بالطابق الاسفل من مستشفى المدينة .

وقد استمر مستشفى المدينة يعمل وفق نظامها السابق على الرغم من انه جرى تهجير منذ عدة ايام غالبية الطاقم الطبى لمستشفى المدينة برئاسة كبير الاطباء ، وكل موظفى المستشفى العسكرى باستثناء الطبيب فيدور فيدوروفيتش . وسرعان ما حظيت هذه المستشفى باحترام سيريوجكا وفيتكا ، حين دخلا غرفة الاستقبال ، لتستوقفهما الممرضة المناوبة وتامرهما بمسح حذائيهما بخرقة مبللة ، والانتظار فى الردهة ريثما تنادى نادية .

وبعد برهة من الوقت خرجت نادية فى صحبة الممرضة . الا انها لم تكن شبيهة بنادية التى بادلها الحديث الليلة الماضية فى فراشها . فقد تبدت على وجهها ذى الوجنتين البارزتين والحاجبين الرفيعين ، وكذلك على وجه الممرضة الرقيق الذى تغمره الغضون ، امارات تنم عن جديد غاية فى الرزانة والصرامة والعمق .

وهمس سيريوجكا ، بينما راح يحرك غطاء راسه بيديه ، تبدو عليه سيماء الارتباك لسبب غير معروف :

— نادية ! نادية . . . يتوجب علينا تقديم العون الى الجرحى . وينبغي عليك ادراك ذلك . اننى وفيتكا نستطيع تدبير اماكن لهم بمساكننا . وعليك ابلاغ فيدور فيدوروفيتش بذلك .

وراحت نادية تحدق النظر الى سيريوجكا بعض الوقت فى صمت ، تقلب الامر فيما بين نفسها ، ثم اومات براسها بما يعنى التشكك فى الامر .

وذكر سيريوجكا وقد علت وجهه امارات تجهم :

— فلتنادى على الطبيب ، او فلترافقينا اليه .

وتحدثت نادية الى الممرضة قائلة :

— لوشا ! فلتعطى الشابين معطفين ابيضين .

وفتحت الممرضة صوانا طويلا طلى بالدهان الابيض ، حيث تناولت معطفين سلمتهما الى الشابين ، بل وساعدتهما بحكم العادة ، على ارتدائهما .

وفجاة راحت العمة لوشا تقول فيما تنظر الى نادية بعينين وادعتين :

— حقا يتحدث الفتى . سوف ياوونهم الناس . كما واننى على استعداد لايواء احدهم . ومن ذا الذى لا تراوده مشاعر الشفقة ازاء هؤلاء الجرحى ؟ اننى اعيش وحيدة برفقة ابنتى فى ضواحى المدينة ، بينما ابنائى يقاتلون فى الجبهة . واذا ما جاء الالمان فسوف اقول انه ابنى . ويجب تحذير الجميع حتى يؤكدوا نفس الشىء .

وذكرت نادية :

— انك لا تعرفين الالمان !

واجابت العمة لوشا :

— اننى حقا لا اعرف الالمان ، لكننى اعرف ذوينا . ويمكننى ان ادلكم على اناس شرفاء يعيشون فى ضواحى المدينة .

وتقدمت نادية الشابين عبر ردهة مضيئة تطل نوافذها على المدينة . وكانت رائحة الجروح النفاذة الدافئة والملابس الداخلية غير النظيفة ، والتى لم تستطع رائحة الدواء التغلب عليها ، تفرض نفسها عليهم كلما مروا الى جوار باب عنبر مفتوح . كما وتبدت

عبر نوافذ المستشفى مدينتهم الحبيبة الغارقة فى اشعة الشمس ، وديعة آمنة مضيئة تضفى الراحة على النفوس .

وقد كان الجرحى الباقون فى المستشفى غير قادرين على النهوض من اماكنهم ، سوى قلة كانت تذرع الردهة مستندة الى عكاكيزها . وقد كانت كل الوجوه الفتية والمسنة ، الحليقة وغير الحليقة لعدة ايام ، تنم عن نفس الشىء الذى يتسم بالجد والصرامة والعمق ، والذى اتسم به وجه نادية والممرضة لوشا .

وما ان تعالى وقع خطوات الصبيين فى الردهة حتى راح الجرحى فى اسرتهم يرفعون رؤوسهم يحدوهم امل ، اما اولئك الذين كانوا يتكئون على عكاكيزهم فقد صاروا بدورهم وفى صمت يتابعون باعينهم التى كانت تنم كذلك عن حيوية مشوبة بالغموض ، هذين الصبيين وهما يسيران فى معطفيهما فى اثر الممرضة نادية التى يعرفونها جيدا بوجهها الذى تكسوه امارات الجد والصرامة .

وتقدم الجميع نحو الباب الوحيد المغلق فى نهاية الردهة ، والذى فتحته على مصراعيه نادية بحركة سريعة من يدها الصغيرة الرقيقة دون ان تطرقه . وذكرت مفسحة الطريق امام الصبيين :

— انهما يودان مقابلتك يا فيدور فيدوروفيتش .

واذ ارتبك كل من سيريوجكا وفيتكا بعض الشىء ، دلفا الى مكتب الطبيب الذى نهض يستقبلهما . وقد كان انسانا فارع القامة عريض المنكبين ، جاف العود ، قوى البنية ، حليق الوجه ، تقدم به السن وخط الشيب راسه وكست الغضون العميقة وجهه الذى لفحته الشمس جيدا ، بارز الوجنتين محدودب الانف ذا ذقن واضحة الرسم ، يبدو وكانما صب فى قالب نحاسى . واذ كان الطبيب جالسا عند دخولهما الى جوار منضدة لم يكن موجودا عليها كتاب او جريدة او دواء ، وحيدا فى غرفة مكتبه فقد ادرك الصبيان انه لم يكن مشغولا بشىء سوى بمجرد التفكير فى امور نرجو من الله الا ترد بخاطر احد . كما وادركا ذلك حين شاهدوه كذلك وقد استبدل زيه العسكرى بزى مدنى — جاكتة رمادية اللون يبدو طرف ياقتها بارزا من تحت معطفه الابيض ، وسروال رمادى وحذاء قذر ، يبدو انه لم يكن يخصه .

ونظر الى الصبيين دون ان تعتريه الدهشة ، وفى صرامة

شديدة مثل تلك التى اتسمت بها نادية ولوشا وكل الجرحى فى العنابر .

— فيدور فيدوروفيتش ! لقد جئنا لمساعدتكم فى ايواء الجرحى بمساكن اهل المدينة .

لم يقل سيريوجكا اكثر من هذا ، حيث ادرك على الفور انه ازاء انسان فى غير حاجة الى الاطالة فى الحديث . وتساءل الطبيب :

— وهل سيقبلونهم ؟

واجابت نادية بصوت رخيم :

— سوف نجد من يقبلهم يا فيدور فيدوروفيتش . لقد اعلنت لوشا ، الممرضة فى المستشفى عن استعدادها لاستضافة احدهم ، ووعدت بالبحث عن آخرين للقيام بذلك ، علاوة على ان الصبيين وكذلك انا ، سوف نفعل ذلك . كما وان الآخرين من سكان كراسنودون لن يضنوا بتقديم العون . ولقد كان من الممكن ان نفعل ذلك ، نحن آل تيولينين ، لو كنا نملك مكانا — وهنا علت الحمرة وجنتيها الصغيرتين البارزتين ، وكذلك وجه سيريوجكا على الرغم من انها لم تذكر سوى الحقيقة .

وذكر فيدور فيدوروفيتش :

— فلتنادى على ناتاليا الكسييفنا !

وقد كانت ناتاليا الكسييفنا طبيبة بالمستشفى ما تزال فى مقتبل العمر ، لم تنزح مع بقية الطاقم الطبى حتى لا تترك امها المريضة وحيدة فى مسكنها الكائن بمستعمرة المناجم فى كراسنودون على مسافة ثمانية عشر كيلومترا من المدينة . ولما كان ما يزال هناك بالمستشفى الجرحى ، والمتاع والادوية والمعدات الطبية فقد اخذت ناتاليا الكسييفنا على عاتقها طواعية مهمة القيام باعباء وظيفة كبير الاطباء ، وقد اعتراها الخجل ازاء زملائها النازحين من كونها لم ترافقهم لتظل باقية تحت نير الالمان .

وخرجت نادية . وجلس فيدور فيدوروفيتش فى مكانه الى جوار المائدة ، وطرح جانبا طرف معطفه الابيض بحركة حاسمة تتسم بالحيوية ، واخرج من جيب جاكتته علبة تبغ وجريدة مطوية مجعدة قديمة انتزع طرفها ، وبسرعة فائقة راح يلف بيده الكبيرة المعروقة وشفتيه الورقة التى حشاها بالتبغ . واشعل لفافته ،

قائلا وهو ينظر فى جدية الى الصبيين الجالسين فى هدوء على الاريكة :

— حقا . . . ياله من حل !

وتحول بنظراته من سيريوجكا الى فيتكا ليعود بها ثانية الى سيريوجكا وكأنما يدرك انه اهمهما . وقد فهم فيتكا مغزى هذه النظرة ولم يغضب على الاطلاق لانه كان يعرف ايضا ان سيريوجكا هو الاهم ، وذلك امر كان يريده ويفخر به .

ودلفت الى القاعة بصحبة نادية امرأة قصيرة القوام يناهز عمرها الثامنة والعشرين وان كانت تبدو كطفلة يتسم وجهها ويداها وساقاها بامارات رقة وبدانة تلك التى غالبا ما تخفى الحقيقة عند النساء ، فيما تضفى عليهن طابعا غير حقيقى . فقد قطعت ناتاليا الكسييفنا الطريق من كراسنودون حتى خاركوف سيرا على هاتين القدمين الصغيرتين البدينتين حين اعلن ابوها عن عدم رغبته فى مواصلتها تعليمها بمعهد الطب . كما وكفلت نفسها بفضل هاتين اليدين الصغيرتين البضتين اللتين مارستا غسل وحياكة الملابس للآخرين ، بغية توفير نفقات الدراسة . وحين توفى والدها كفلت هاتان اليدان ايضا اسرة من ثمانية افراد يحارب بعضهم اليوم فى الجبهة ، ويعمل البعض الآخر فى مدن اخرى ، بينما يوجد منهم من يواصل دراسته . وقد اجرت هاتان اليدان وفى جسارة عمليات طبية لم يقبل عليها اطباء رجال يفوقونها سنا وخبرة . كما وكانت ناتاليا الكسييفنا ذات عينين تنطقان بالاستقامة والقوة والروح العملية ، مما يمكن ان تكون معه مثار حسد مديرى المؤسسات الكبيرة .

ونهض فيدور فيدوروفيتش يستقبلها . وواجهته قائلة وهى تضع يديها البضتين على صدرها بما يتناقض مع الروح العملية التى تنطق بها عيناها ومع طريقتها الجافة والمألوفة فى الحديث :

— لا تجهد نفسك . اننى اعلم كل شىء ، ويبدو ان ذلك امر معقول ، بطبيعة الحال .

وتوجهت بنظراتها الى سيريوجكا وفيتكا بما ينم عن لامبالاة بوجودهما ، وان كانت تبحث فى نفس الوقت امكانية استخدامهما . ثم نظرت الى فيدور فيدوروفيتش تسأله :

– وانت ؟
وفهم على التو ما تقصده .
– اننى افضل البقاء معك فى المستشفى بوصفى طبيبا محليا ، وذلك امر يتيح لى مساعدتهم فى كل الظروف – وادرك الجميع ان «هم» هنا تعنى الجرحى – فهل يمكننى ذلك ؟
واجابت ناتاليا الكسييفنا :
– نعم .
– الن يشى بي احد فى هذا المستشفى ؟
واجابته واضعة يديها البضتين على صدرها :
– لن يشى بك احد فى هذا المستشفى !
– شكرا . . . شكرا لكما !
واذ علت الابتسامة عينى فيدور فيدوروفيتش لاول مرة مد يده الكبيرة ذات الاصابع القوية الى سيريوجكا اولا ، ثم الى فيتكا .
وذكر سيريوجكا وهو يحدق النظر الى وجه الطبيب بعينين صافيتين جازمتين وكانما يعنى «يمكنكم وكل الآخرين ان تحكموا على اقوالى كيفما تشاؤون ، الا اننى سوف اقول ذلك ، لاننى اعتبره واجبا علي» :
– فيدور فيدوروفيتش ! انكم يمكنكم دائما الاعتماد علي ، وعلى رفيقى فيتيا لوكيانتشينكو . ويمكنكم ان تعتبروا نادية حلقة الوصل فيما بيننا . كما اود ان اقول لكم باسمي وباسم رفيقى فيتيا لوكيانتشينكو ان سلوككم هذا ، كونكم قد بقيتم الى جوار الجرحى فى مثل ذلك الوقت ، يعد عملا نبيلا .
وهنا تصبب جبينه عرقا .
وذكر فيدور فيدوروفيتش بلهجة جادة :
– شكرا . وما دمتم قد تحدثتم عن ذلك ، فينبغى علي ان اقول انه مهما كانت المهنة التى يمارسها المرء ، فانه يمكن ان يصادف ظروفا تحتم عليه ليس فقط مغادرة اولئك الناس الذين تتوقف مصائرهم عليه ، ينيطون به الرجاء ويسيرون فى اثره ، بل وان يكون ذلك الرحيل اكثر جدوى لان ثمة مصلحة فى ذلك اسمى شانا . واعيد القول ان ذلك وارد بالنسبة لكافة المهن حتى للقادة العسكريين والموجهين السياسيين ، الا مهنة الطبيب ،

ولا سيما الطبيب العسكرى . ذلك لان الطبيب يجب ان يلازم مكانه الى جوار الجرحى . . . ودائما ومهما كانت الاسباب . وليس هناك ما هو اكثر جدوى من ذلك . بل ويمكن حتى عدم الانصياع للنظام والاوامر العسكرية التى تتناقض مع هذا الواجب . اننى لم اكن لانفذ حتى امر قائد الجبهة اذا ما صدر بالرحيل وترك الجرحى . بيد انه ايضا لم يكن ليصدر مثل هذا الامر . شكرا . . . شكرا لكما . – ثم حنى فيدور فيدوروفيتش ازاء الصبيين راسه الذى وخطه الشيب ووجهه الاسمر اللامع ، ذلك الراس الذى بدا وكانما صب فى قالب برونزى .
ولزمت ناتاليا الكسييفنا مكانها فى صمت تضم يديها البضتين الى صدرها ، تعكس عيناها المتعلقتان بفيدور فيدوروفيتش امارات وقار واشراق .
واسفر عن خطة العمل ذلك الاجتماع الذى جرى فى غرفة الانتظار ، ولم يشارك فيه سوى سيريوجكا ونادية والعمة لوشا وفيتكا لوكيانتشينكو ، وكان اقصر الاجتماعات منذ ربع قرن حيث لم يستغرق اكثر من تلك المدة التى خلع فيها الصبيان معطفيهما . وانطلق الصبيان الى الخارج ، غير قادرين على البقاء ما هو اطول من ذلك بالمستشفى ، لتلفح اعينهما اشعة شمس يوليو الحارقة ، تغمرهما مشاعر فرحة مبهمة ، وفخر بنفسيهما وبالبشرية ، وتعطش للعمل .
وقال سيريوجكا وهو ينظر الى صديقه فى حماس :
– يا له من انسان ذلك الشخص ! اليس حقا ؟
واجابه فيتكا لوكيانتشينكو فيما يرمش بعينيه :
– حقا تقول .
وفجاة ذكر سيريوجكا ما لا رابط بينه وبين محور حديثهما ومشاعرهما .
– اننى سوف اعرف كنه ذلك المجهول الذى يختبئ لدى اجنات فومين !
– وكيف ستعرف ذلك ؟
– اننى سوف اعرض عليه استضافة احد الجرحى .
وذكر فيتكا على نحو لا يرقى اليه الشك :

– سوف يشي به لدى الالمان .
– او تظن انني سوف اقول له الحقيقة . انني لا ابغي سوى دخول مسكنه .
وضحك سيريوجكا ، بينما كانت تشع عيناه واسنانه فى دهاء ومرح . وكانت هذه الفكرة قد ملكت كل حواسه لدرجة انه كان على يقين من نجاحها .
وتوقف سيريوجكا امام باب مسكن اجنات فومين ، حيث كانت نباتات عباد الشمس ذات الاوراق السميكة المليئة بالثقوب تتدلى تحت نوافذه ، فى ضاحية «شانغهاى» البعيدة عن موقع السوق .
واذ طرق سيريوجكا الباب ، لزم مكانه فترة طويلة فى انتظار من يستجيب له ، وقد وقف ملتصقا بالباب بحيث تستحيل رؤيته من الداخل بعد ان فطن امكانية معرفة الطارق عبر النافذة . وفى النهاية انفرج الباب عن اجنات فومين يمسك باحدى يديه مزلاجه ، ويتكئ بالاخرى على قائمته ، يميل برأسه نحو الامام – وقد كان ذا قامة طويلة مثل الدودة – ينظر بفضول بالغ الى سيريوجكا بعينيه الرماديتين الصغيرتين الغائرتين فى غضون وجهه الكثيرة المتباينة .
– اشكركم لقاء ذلك . . .
ندت عن سيريوجكا فى هدوء ، وكانما الباب لم يفتح الا لكى يدخل ، وانحنى بقامته الى ما تحت يد اجنات فومين المتكئة الى قائمة الباب ليظهر ليس فقط بردهة المنزل ، بل وتمكن من فتح باب الغرفة قبل ان يتمكن اجنات من التعبير حتى عن دهشته ليدخلها قائلا :
– عفوا ايها المواطن !
وحنى هامته ازاء اجنات فومين الذى وقف حياله فى جاكتة ذات مربعات وصديرى تتدلى منه سلسلة مذهبة على بطنه ، وسروال ذى مربعات كذلك دُست اطرافه فى حذائه الجلدى الطويل اللامع ، فارع القامة ، ذو وجه مستطيل علته اخيرا امارات الدهشة ، بل والغضب احيانا .
وتساءل اجنات فومين وهو يرفع حاجبيه خفيفي الشعر ،

11-2560

لتبدو غضون وجهه الكثيرة المتباينة الشكل حول عينيه على نحو غريب ، وكانما فى اتجاه الزوال :
– ماذا تريد ؟
واجابه سيريوجكا فى حماس وبصوت اجش وعلى نحو فوجئ به كذلك اجنات فومين ، وكانما هو احد اعضاء لجان الادارة ابان الثورة الفرنسية :
– ايها المواطن ! . . . ايها المواطن ! فلتنقذ مقاتلا جريحا !
وجمدت الغضون المحيطة بعينى اجنات فومين على الفور ، وكذلك عيناه المتعلقتان بسيريوجكا ، لتبدو كعينى دمية .
وادرك سيريوجكا ما جعل اجنات فومين يتجمد على هذا النحو ليقول :
– كلا . . . لست جريحا . لقد تراجع المقاتلون ، ليتركوا احد جرحاهم فى عرض الشارع الى جوار السوق . وقد هرعت اليك مباشرة ، فور ان شاهدت والصبية ذلك .
وفجاة علت وجه اجنات فومين المستطيل الكريه الملامح امارات كثير من المشاعر التى اجتاحته ، ليسترق النظر فى عفوية الى باب الغرفة الاخرى الموصد . وتساءل بصوت خافت اقرب الى الهمس ، يحدق النظر غاضبا فى سيريوجكا ، تتحرك من جديد غضون وجهه فيما حول عينيه على نحو مستمر معقّد :
– ولم قصدتني انا بالذات ؟
واجابه سيريوجكا بعينين صافيتين ، طاعنا اياه وفى غير ما شفقة بذلك السهم المسموم :
– ومن عسانا ان نقصده دونك يا اجنات سيميونوفيتش ؟ ان المدينة باسرها تعلم انك اول من استجاب لمبادرة ستاخانوف لدينا .
وتساءل اجنات فومين فيما تشتد دهشته وارتباكه :
– ابن من تكون ؟
– انني ابن بروخور ليوبيزنوف الذى تعرفونه جيدا ، واحد رعيل حركة ستاخانوف .
اجابه سيريوجكا بحسم شديد ، لا يقل عن احتمال عدم وجود اى بروخور ليوبيزنوف فى هذا العالم .

وهنا ذكر اجنات فومين وقد استرد رباطة جاشـــه ، وراح يشيح بيديه دونما داع :

— لست اعرف شخصا بهذا الاسم ، كما ليس هناك مكـان لمقاتلك الجريح علاوة على ان زوجتى مريضة ، ولك ان تعــرف يا صاح ... يا رف . . يا . .

واشاح بيديه نحو الباب الخارجى فى حركة لم تكن تنم صراحة عن ذلك .

وذكر سيريوجكا بصوت تنم نبرته عن ادانة ، محدقا النظر الى فومين بعينين ناصعتين جسورتين كما عينى طفل :

— ان سلوكك غاية فى الغرابة ايها المواطن ، ولا سيما ان الجميع يعرفون انك تملك غرفتين .

وتحرك سيريوجكا فى خطوة لم تتسم حتى بالسرعة ، نحو باب الغرفة المجاورة ليفتحه على مصراعيه ، قبل ان يتسنى لفوميـــن الحركة من مكانه او التفوه بكلمة واحدة .

وفى تلك الحجرة النظيفة ذات النوافذ نصف المغلقة ، والعامرة بالاثاث واصص الزهور كان يجلس الى جوار المائدة انسان يرتدى زى العمال ، قوى المنكبين عريضهما ، ذو رأس حليق ضخم ووجه يغطيه النمش ، رفع راسه لينظر فى هدوء الى سيريوجكا الذى دلف الى الحجرة .

وقد ادرك سيريوجكا على التو انه ازاء رجل جيد المعدن ، قوى البنية هادئ الجنان ، ليداخله الخوف الشديد ، ويفقد على التو رباطة جاشه . لقد بلغ به الخوف درجة انه فقد القدرة على التفوه بكلمة ، والتحرك قيد انملة من مكانه ، بينما ظهر عند البـــاب اجنات فومين تعلو وجهه سيماء السخط والخوف الشديدين .

وذكر ذلك المجهول الذى كان يجلس الى جوار المائدة يخاطب اجنات فومين وقد شاهده يندفع نحو سيريوجكا :

— تمهل يا صاح !

ثم تساءل لدى سيريوجكا :

— ولماذا لم تحمل ذلك المقاتل الجريح الى منزلك على سبيــل المثال ؟

ولزم سيريوجكا الصمت .

— هل ما يزال والدك يعيش هنا ام رحل ؟

واجاب سيريوجكا والحمرة تعلو وجهه :

— لقد رحل مع النازحين .

— وامك ؟

— امى بالمنزل .

— ولماذا لم تذهب اليها قبل الاخرين ؟

ولم يرد سيريوجكا .

— لعلها لا تريد استضافة مقاتل جريح ؟

واوما سيريوجكا براسه علامة الايجاب ، تجتاح اعماقـــه مشاعر مروعة . اذ ومنذ تلك اللحظة التى انتهت فيها اللعبة ، راح يتصور فيما وراء كلمتى «الام» و«الاب» والديه فى حقيقـــة الامر ، وكم تعذب خجلا من كونه يصمهما بهذه الكذبة الدنيئة .

بيد ان الرجل وعلى ما يبدو ، كان يصدقه . وذكر وهو يتمعن النظر فى سيريوجكا :

— لقد ذكر لك اجنات سيميونوفيتش الحقيقة حول انـــه لا يستطيع ايواء المقاتل . غير انك سوف تجد من يأويه . فلتبحث عن مثل ذلك الشخص وسوف تجده . الا انك يجب ان تعتبر الامر سرا ، مما يلزمك بالا تقصد ايا كان . وعليك ان لم تجد احدا ان تعود الىّ ، واذا ما وجدت ذلك الذى يستطيع ايواءه ، فلا تعد . ومن الافضل ان تترك لى الان عنوانك ، حتى استطيع الاهتداء عليك اذا ما تطلب الامر .

وهنا اضطر سيريوجكا الى دفع ثمن شقاوته على اســـوأ نحومعيب محزن . ففى تلك اللحظة التى راودته فيها رغبة ملحة فى ترك عنوانه الحقيقى ، يضطر الى ترك اول عنوان يرد الى خاطره وليقطع بكذبته هذه على نفسه طريق امكانية الاتصال مستقبـــلا بهذا المجهول .

ووجد سيريوجكا نفسه مرة اخرى فى عرض الطريق ، يعانى مشاعر الارتباك والحيرة . بيد انه لم يكن هناك ادنى شك فى ان ذلك المجهول الذى كان مختبئا لدى اجنات فومين شخص جيـــد

المعدن عظيم الاهمية ، كما وانه ليس من الممكن ان يكون مثار شك كون اجنات فومين انسانا غير جيد على اقل تقدير . غير انهما كانا بالتاكيد مرتبطين كل بالاخر ، وذلك امر يتسم بالغموض .

الفصل الخامس عشر

توجه ماتفي شولجا في ذات اليوم الذى غادر فيه منزل آل اوسموخين الى ضاحية «جولوبياتنيكي» كما كانت تسمى قديما ، غير بعيد عن وسط كراسنودون حيث يعيش صديقه الفدائي القديم ايفان كوندراتوفيتش جناتينكو .

وقد كانت مساكن هذه المنطقة شان كثير من مناطق كراسنودون ، قد شيدت على الطراز النموذجي . غير ان ماتفي كوستيفيتش كان يعلم ان كوندراتوفيتش يقطن ، كما في السابق ، بيته الخشبي الصغير واحد تلك البيوت التي كانت مصدر تسمية الحي «جولوبياتنيكي» (عشش الحمام) .

واستجابت لطرق النافذة امراة ظهرت عند الباب ، اشبه بغجرية في مقتبل العمر ، وان كانت متهدلة الوجه قذرة الملابس التي لم تكن رثة بالية . وذكر كوستيفيتش انه عرج الى البيت اثناء عبوره للمنطقة لحاجته الى ايفان كوندراتوفيتش الذى يرجو اذا كان ممكنا ، ان يخرج اليه للحديث بعض الوقت .

وقد جرى لقاء ماتفي شولجا وايفان جناتينكو فيما خلف ذلك البيت الصغير ، وسط البرارى التي هبطا اليها بغية ان يتواريا عن الانظار ، تحت وقع قصف المدفعية الذى تعالى الى الاسماع آنذاك .

وقد كان ايفان جناتينكو ، او باختصار كوندراتوفيتش ، احد احفاد تلك الاجيال من عمال المناجم الذين يمكنهم اعتبار انفسهم وعن حق مؤسسي مناجم الدونيتس . ولقد انعم الله عليه وعلى جده وابيه – اوكرانيي الاصل – بان يكونوا عمال مناجم حقيقيين شيدوا الدونباس ، وغدوا حماة امجاد وتقاليد المهنة ، وذلك الحرس الذى كان صخرة تحطمت عليها جحافل المتدخلين الالمان ، والبيض في عامي ١٩١٨–١٩١٩ .

لقد كان كوندراتوفيتش هو نفسه الذى فجر المنجم رقم ١ برفقة مديره اندريه فالكو وجريجورى ايليتش شيفتسوف .

وها هو ذلك الحديث الذى جرى مع ماتفي كوستيفيتش في تلك الوهدة بالبرارى تحت اشعة الشمس المائلة نحو الغروب .

– اوتدرى يا كوندراتوفيتش سبب مجيئى اليك ؟

واجابه كوندراتوفيتش في حزن دون ان ينظر اليه :

– لست ادرى ، وان كنت اخمن ذلك السبب يا ماتفي قسطنطينوفيتش .

وهب نسيم البرارى في الوهدة يداعب اطراف سترة العجوز الرثة ، التي آلت اليه عن جده ، والتي تدلت فوق جسده النحيل ، وكانما من صليب قائم .

وذكر كوستيفيتش :

– لقد ابقيت هنا للقيام بنفس ما قمت به في عام ١٩١٨ ، وذلك ما دفعني الى المجئ اليك .

وذكر كوندراتوفيتش بصوت مبحوح خافت دون ان ينظر الى شولجا :

– انك تعلم ان حياتي رهن اشارتك يا ماتفي قسطنطينوفيتش ، الا انني لا استطيع ايوائك بمنزلى !

وقد كان ما ذكره كوندراتوفيتش مباغتا ، وغير معقول لدرجة ان ماتفي كوستيفيتش لم يجد ما يقوله ، ولزم الصمت . كما ولزمه ايضا كوندراتوفيتش .

وتحول فجاة شولجا الى اللغة الروسية يتساءل بصوت خافت خائفا النظر الى العجوز :

– ان كنت قد ادركت مقصدك يا كوندراتوفيتش ، فانت ترفض ايوائي في بيتك ، اليس كذلك ؟

واجاب العجوز في اسى :

– انني لا ارفض . . . بل لا استطيع .

وظلا يتبادلان الحديث برهة من الوقت دون ان ينظر احدهما الى الاخر .

وتساءل كوستيفيتش وصدره يجيش غضبا :

– ولم تكن قد ابديت موافقتك ؟

ونكس العجوز راسه .
– الم تكن على علم بما يجب عليك القيام به ؟
ولم يرد العجوز .
– هل تدرك انك تكون بذلك قد ارتكبت ما يعنى الخيانة ؟
وتحدث العجوز بصوت مبحوح خافت للغاية ، بدا وكأنما النباح ، المشوب بالوعيد :
– ماتفى كوستيفيتش . . . لا تفه بما يستحيل تقويمه فيما بعد !
وذكر شولجا فى سخط وحدق النظر فى وجه كوندراتوفيتش الضامر ذى اللحية قليلة الشعر اشبه بالمنتوفة ، اكسبها دخان التبغ صفرة ، بينما احتقنت عيناه بالدم :
– وما عساى ان اخشى ؟ ليس ثمة ما هو افظع مما اسمعه الان !
ورفع كوندراتوفيتش هامته ، وامسك بمرفق ماتفى كوستيفيتش بيد برزت عظامها ، وتشوهت اظافرها السوداء ، قائلا :
– مهلا !
– وتساءل بصوت ملؤه الاسى ، شديد الخفوت وبالغ العمق :
– هل تصدقنى ؟
وحاول شولجا الحديث ، الا ان العجوز ضغط على مرفقه ناظرا اليه بعينين ثاقبتين ، قائلا بصوت يكاد يكون توسلا :
– تمهل . . . فلتسمعنى . . !
وهنا راح كل منهما يحدق فى عينى الاخر .
وهمس العجوز بصوت مبحوح وهو يدنو بوجهه من وجه ماتفى كوستيفيتش :
– اننى لا استطيع ايوائك بمنزلى ، لخوفى من ابنى الاكبر . اننى اخاف ان يشى بك . اوتذكر يوم كنت لدينا فى عام ١٩٢٩ ؟ هل تذكر اخر مرة زرتنا فيها ، يوم احتفلنا والعجوزة بذكرى زواجنا الخامسة والعشرين . . بيوبيلنا الفضى ! انك وعلى ما يبدو لا تذكر ، ولست ملزما بان تذكر ، كل اولادنا . – وضحك العجوز ساخرا – بيد انك لا بد وان تذكر الابن الاكبر منذ عام ١٩١٨ . . .

ولزم شولجا الصمت .
وهمس كوندراتوفيتش بصوت مبحوح :
– لقد انحرف عن الطريق القويم . . . هل تذكر انه قد فقد ذراعه آنذاك فى عام ١٩٢٩ ؟
وتذكر شولجا على نحو مبهم ذلك الصبى مقطب الجبين ، بطىء الحركة شحيح الكلام والذى كان قد شاهده لدى كوندراتوفيتش فى عام ١٩١٨ . بيد انه لم يذكر بالتحديد ذلك الصبى ضمن اولئك الذين احاطوا به فى عام ١٩٢٩ بمسكن كوندراتوفيتش ، ومن ذا الذى كان منهم بلا ذراع . وقد فطن والدهشة تعتريه ، الى انه لا يعى جيدا تلك الامسية . من المؤكد انه ذهب آنذاك الى كوندراتوفيتش بحكم الواجب ، ليبتلع النسيان تلك الامسية ، مثل كثير غيرها من الامسيات المشابهة اضطر الى قضائها بحكم الواجب فى حضرة اخرين وفى ظروف اخرى .
– لقد فقد ذراعه اثناء العمل بالمصنع فى لوجانسك . وقد اورد كوندراتوفيتش الاسم القديم لمدينة فورشيلوفجراد مما ادرك شولجا معه ان الامر كان قديما . ومضى يقول : – وعاد الينا ليعيش فى كنفنا . كما وكان قد غدا فى سن اكبر من ان يلتحق بالمدرسة ، الى جانب اننا لم نفطن الى ذلك فى حينه . ولما لم يجد مهنة مناسبة يحترفها ، انحرف عن الطريق القويم ، وادمن الشراب . على نفقة ابيه ، اى على نفقتى . ولم ترض اية فتاة الزواج منه مما دفعه الى الغلو فى فحشه . وفى عام ١٩٣٠ هبطت عليه تلك الحسناء التى رايتها الان ، ولعبت برأسه ، ولينغمسا سويا فى ممارسة اسوأ الاعمال . فقد شرعت هى تمارس تجارة الكحول المصنعة منزليا ، وانضم اليها يمارسان اعمال المضاربة . كما واعترف صراحة بانهما لا يتورعان عن الاتجار بالمسروقات . لقد اشفقت عليه فى البداية ، ثم صرت اخاف الفضيحة فيما بعد . وقد قررت وزوجتى الصمت . . . وصمتنا . لقد صمتنا امام اطفالنا . . وما زلنا صامتين . لقد حوكم فى ظل السلطة السوفييتية مرتين . وكم كان ضروريا ان تجرى محاكمة تلك الفاسدة ، الا انه كان فى كل مرة يتولى عبء الجريمة وحده . لكنك تعرف ان القضاة يعلمون اننى فدائى قديم وعامل منجم قدير ورجل معروف ، مما جعلهم يوجهون

اليه اللوم فى المرة الاولى ، ثم اصدروا حكمهم فى المرة الثانية مع ايقاف التنفيذ . هذا بينما يغدو اكثر سوءا مع كل عام . هل لك ان تصدق ما اقول ؟ وكيف يمكننى ان استقبلك فى بيتى ؟ انه خليق بان يبيعنا نحن والديه حتى يئول اليه البيت وحده !

وهنا اشاح كوندراتوفيتش بوجهه خجلا من شولجا .

— وكيف استطعت الافصاح عن موافقتك ، فى حين كنت تعرف ذلك ؟

ساله شولجا بنبرة تنم عـــن قلق ، وهو يحدق فى وجـــه كوندراتوفيتش الحاد كالخنجر ، دون ان يدرى ما اذا كان عليه ان يصدقه ام لا ، حيث فقد فى اعماقه كافة المعايير التى يمكن بها التمييز فيما بين اولئك الذين يمكن الركون اليهم ، وبين من لا يستحقون ان يكونوا موضع ثقته فى مثل تلك الظروف التى احاطت به .

واجابه كوندراتوفيتش فى لهجة تتسم بالحزن :

— كيف كان يمكننى الرفض يا ماتفى قسطنطينوفيتش ! او كان يمكننى انا ايفان جناتينكو الرفض ؟ يالعار ! كما وانك تعلم متى جرى ذلك الحديث . لقد ذكروا آنذاك انه ربما لن تستدعى الحاجة ذلك ، وتساءلوا عن موافقتى ، اذا ما استدعى الامر ذلك . لقد كانوا يختبرون استعدادى ... فكيف كان يمكننى ان احدثهم عن ابنى ؟

لقد انقذت ابنى على نحوما من ان يودع السجون ، اذ انه ابنى ايا كانت الظروف . . يا ماتفى قسطنطينوفيتش .

وفجأة تعالى صوت العجوز يقول فى يأس جارف :

— اننى رهن اشارتك ، وعلى استعداد للقيام باى عمل . انك تعلم طابعى . . صموت حتى القبر ، كما واننى لا اهاب الموت . ولتعتمد على ، اعتمادك على نفسك . وسوف اجد مكانا تختبئ به ، حيث اعرف كل الناس ، ولك ان تصدق اننى ساجد اناسا مخلصين . ولقد فكرت انذاك يوم كنا فى لجنة المنطقة فى اننى مستعـــد للقيام باى عمل . اما فيما يخص ابنى فلم اكن ملزما فى لجنـــة المنطقة ، بوصفى غير حزبى ، بالحديث عنه . وهذا يعنى براءتى .

ان كل ما يهمنى هو ان تصدقنى . . . اما عن الشقة المطلوبـة لايوائك ، فسوف اجدها حتما . .

ولم يلحظ كوندراتوفيتش نبرة التملق والمهانة التى اخـذ صوته يتسم بها .

وذكر ماتفى كوستيفيتش :

— اننى اصدقك .

بيد انه لم يذكر الحقيقة كاملة ، حيث كان يصدقه ويكذبه . لقد كان يراوده الشك ، ولم يذكر ذلك الا لانه كان فى مصلحته .

وتغيرت ملامح وجه العجوز على حين غرة ، اذ سرعان ما بدا خائر القوى منكس الراس وراح ينشق فى صمت برهة من الزمن .

اما شولجا فقد اخـــذ ينظر اليه يزن كل ما ذكره لـــه كوندراتوفيتش يقلب الامور تارة فى ذلك الاتجاه ، واخرى فى ذاك . وقد كان يعرف بطبيعة الحال ان كوندراتوفيتش من رجالهم ، الا انه لم يكن يعرف كيف قضى اثنى عشر عاما كاملة ، علاوة على ان ذلك كان فى تلك الفترة التى شهدت فيها البلاد تغيرات كبرى . بيد ان كونه قد حال دون قصاص السلطة السوفييتية من ابنه ، واخفاه حتى فى ظروف على هذا القدر من الاهمية ، وانحداره نحو الكذب فى مثل تلك القضية الحيوية مثل امكانية استخدام مسكنه للعمل السرى فى ظل الالمان ، جعل ميزان الامور يتحول تجاه استحالة الثقة الكاملة فى كوندراتوفيتش .

وهمس كوندراتوفيتش بصوت اجش :

— عليك ان تجلس او ترقد هنا حتى آتى لك بطعام ، ثم انطلق الى مكان ما لتسوية الامور .

وقد كاد ماتفى كوستيفيتش يوافق على اقتراح كوندراتوفيتش لو لم تحن تلك اللحظة التى قرر فيها على الفور الاذعان الى صوت صادر من اعماقه لم يكن يعتبره دعوة الى الحرص وحسب ، بـل وحصاد تجارب اعوام ، جعله يرفض الانصياع الى صوت العاطفة . وتحدث قائلا :

— لا داعى للذهاب . . . اننى اعرف كثيرا من المساكن ، وسوف اجد لنفسى ماوى . اما عن الطعام ، فاننى سوف اصبـــر

فقد يزيد الطين بلة اذا ما داخلت هذه المراة اللعينة وكذلـــك ابنك الريبة فى الامر .

وذكر كوندراتوفيتش فى اسى :

– لك ان تقرر ماترى . وارجو الا تفقد املك فى . . . فسوف انفعك يوما .

وذكر شولجا فى محاولة لترضية العجوز :

– اننى اعلم ذلك يا كوندراتوفيتش .

– اذن فلتقل لى ، مادمت محل ثقتك ، الى من سوف تذهب . وسوف اقول لك ما اذا كان يمكنك الذهاب اليه من عدمه ، كما وسوف اعلم مكانك اذا ما احتاج الامر .

واجابه شولجا فيما تند عنه ابتسامة تنم عن دهاء :

– اننى لا املك حق الافصاح عن مقصدى . انك فدائى قديم وتعرف متطلبات السرية . اما الانسان الذى اقصده ، فاننى اعرفه جيد المعرفة .

وقد هم كوندراتوفيتش بان يقول له : «انك كنت تعرفنـــى كذلك جيد المعرفة وهاك ترى كم يخبئ المجهول لك» ، غير انه خجل من الحديث عن ذلك .

وذكر العجوز فى تجهم ، وقد ادرك تماما ان شولجا فقد ثقته فيه :

– انك حر التصرف .

وتحدث كوستيفيتش بلهجة تنم عن مرح مصطنع :

– هيه ... انى ذاهب يا كوندراتوفيتش ! ورد العجوز فيما هو غارق فى التفكير ودون ان يـــرفع ناظريه الى ماتفـــى كوستيفيتش :

– تصرف كما يحلو لك !

وتقدم كوستيفيتش طريق شولجا عبر الشارع المجاور لمنزله الا ان الاخير توقف قائلا :

– انه من الافضل ان تهدينى الى طريق خلفى والا ترانـــى حسناؤك تلك . . – وابتسم فى سخرية .

وراودت العجوز رغبة فى ان يقول له : «لو كنت تعلم اصول العمل السرى ، لكان ينبغى عليك ان تدرك انه من الافضل العودة

من نفس الطريق الذى جئت منه . فمن ذا الذى سوف يخطر على باله انك جئت الى العجوز جناتينكو فى مهمة سرية» . غير انه كان يعرف انه غدا غير اهل للثقة ، وليس هناك جدوى من الحديث .

وتقدم طريق ماتفـــى كوستيفيتش حتى بلغا احد الشـــوارع المجاورة ، ليتوقفا امام مستودع صغير على ناصيته . وذكر شولجا وقد انقبض صدره على نحو لايطاق :

– وداعا يا كوندراتوفيتش ، وسوف القاك فيما بعد .

واجابه العجوز :

– الامر متروك لك .

وانصرف شولجا ، ليلتزم كوندراتوفيتش مكانه الى جوار ذلك المستودع الصغير برهة من الزمن يقتفى بنظراته اثر شولجا جاف العود طويل الساقين تتدلى على كتفيه ، وكانما على صليب قائم ، سترة قديمة .

وهكذا تقدم ماتفى شولجا خطوته الثانية نحو حتفه .

الفصل السادس عشر

استطاع سيريوجكا تيولينين وصديقه فيتكا لوكيانتشينكو وشقيقته نادية والممرضة العجوز لوشا العثور على ما يزيد عـــن سبعين شقة لايواء الجرحى فى مختلف انحاء المدينة وعلى مدى ساعات قليلة . ورغما عن ذلك ظل حوالى اربعين جريحا بلا ماوى . فلم يكن يعرف سيريوجكا ونادية والعمة لوشا وكذلك فيتكـــا لوكيانتشينكو واولئك الذين قدموا اليهم العون ، مقصدا يمكـــن التوجه اليه بمثل هذا الطلب ، كما لم يكونوا راغبين فى التضحية بنجاح القضية باسرها .

وقد اتسم ذلك اليوم بالغرابة على نحو لا يصادف المرء الا فى منامه . فقد توقفت حركة الوحدات العسكرية عبر الطرقات وهدير المعارك فى البرارى منذ الامس ، وخيم السكون الرهيب على المدينة والبرارى فيما حولها . ومكث الجميع فى انتظار وصول الالمان من لحظة لاخرى . وظلت ابواب المؤسسات والمحلات التجارية مفتوحة

على مصاريعها دون ان يدخلها احد . كما وخيم الهدوء على مقار الهيئات التى اقفرت من موظفيها وكان الدخان ما يزال سابحا فى سماء مواقع المناجم التى جرى تدميرها . . . وخلت المدينة من كافة السلطات ، ومن الميليشيا ، وتوقفت حركتها التجارية ونشاط سكانها . واقفرت الشوارع تماما ، الا من مجرد امراة تهرول سعيا وراء الماء من المضخة او البئر القريب ، او من اجل بعض الخضروات من الحديقة ليعود الصمت ثانية . وتخلو الشوارع . ولم يكن ثمة دخان ينبعث من مداخن المنازل ، حيث لم يكن هناك من يعد طعاما . كما ولزمت الكلاب الهدوء نظرا لانه لم يكن هناك غريب يقض مضاجعها . ولربما كانت تهرول قطة عبر الشارع ، ليعود اليه هدوءه ثانية .

وقد جرت عملية اسكان الجرحى فى ليلة ٢٠ يوليو ، غير ان سيريوجكا وفيتكا لم يساهما فى ذلك . اذ انهما راحا آنذاك ينقلان الزجاجات الحارقة من المستودع الكائن فى «سينياكى» الى «شانغهاى» حيث اودعاها حفرة فى الوهدة تحت الشجيرات . كما واودع كل منهما بعض الزجاجات فى حفرة صنعها فى حديقته كى تكون فى متناول يده لاستخدامها اذا ما تطلب الامر ذلك .

لكن اين اختفى الالمان مع كل ذلك ؟

ادرك الفجر سيريوجكا حين كان ما يزال بالبرارى خارج المدينة . كانت الشمس قد راحت تظهر كبيرة مستديرة خلف سحابة وردية رمادية ، مما يتيح للمرء النظر اليها دون ان يرف له جفن . ثم صارت تتبدى اطرافها خارج تلك السحابة ترسل اشعتها ، لتتلألأ بالبرارى ملايين قطرات الندى ، كل بلون يتباين عن الاخر ، ويكسو اللون الوردى قمم التلال الداكنة ذات الشكل المخروطى والتى انتشرت فوق البرارى تارة هنا ، واخرى هناك . ودبت الحياة فى كل ما يحيط بسيريوجا ، ليبدو ناصعا براقا ، مما جعله يبدو مفعما بالنشاط والحيوية مثل كرة من المطاط فى ارض الملعب .

وكان هناك طريق فرعى يمتد بمحاذاة السكة الحديدية ، تارة يقترب منها واخرى يبتعد عنها . وكان كلاهما ينساب فوق تل صغير تعلو الى جانبيه القمم غير المرتفعة التى تفصلها الوهاد المنبسطة ، والتى امتزجت بالبرارى كما وقد غطت الشجيرات والاحراش تلك

القمم والوهاد غير العميقة ، والتى حملت تسمية دغلة فيرخنيادوفانايا .

وسرعان ما ارتفعت الشمس عالية فوق البرارى ، لترسل اشعتها الحارقة . وراح سيريوجا يجيل النظر فيما حوله ليرى كل المدينة تقريبا . وقد انتشرت مساكنها فوق التلال وفى اعماق الوهاد تتركز غالبيتها الى جوار المناجم بمبانيها المميزة فوق سطح الارض ، وحول مبانى اللجنة التنفيذية للمنطقة ومؤسسة «فحم كراسنودون» . وتبدت قمم الاشجار فوق المرتفعات خضراء ناصعة تلفها اشعة الشمس ، بينما كانت ظلال الصباح ما تزال تخيم فوق الوهاد . وكانت القضبان تلمع تحت اشعة الشمس تتلاقى لتتوغل بعيدا ، بعيدا ثم تختفى فيما وراء التل النائى ، حيث ارتفعت سحابة من الدخان بيضاء وادعة – من محطة فيرخنيادوفانايا .

وفجاة ، تبدت فى اعلى ذلك التل ، وعند تلك النقطة التى بدا وكان الطريق الفرعى انتهى عندها ، نقطة داكنة اللون راحت تمتد سريعا فى شكل شريط ضيق قاتم . ولم تنقض سوى بضع ثوانى حتى انفصل ذلك الشريط عن الافق ليبدو شيئا طويلا كثيفا داكن اللون يندفع من بعيد فى اتجاه سيريوجكا ، مخلفا سحابة مخروطية الشكل من الغبار الذى كسته الحمرة . وقبل ان يتمكن سيريوجكا من امعان النظر فى ذلك الشىء ، حتى ادرك انها فصيلة من راكبى الموتوسيكلات التى تعالى هدير محركاتها فى ارجاء البرارى .

وتسلل سيريوجكا الى الشجيرات الصغيرة ، اسفل الطريق حيث انبطح ارضا فى انتظار مرور فصيلة راكبى الموتوسيكلات . وما كاد ينقضى ربع الساعة حتى دوى هدير محركاتها يملأ كل الارجاء ، ثم مرقت من جانبه لا تبدو منها سوى رؤوسهم–رؤوس رماة الرشاشات الالمان ، راكبى الموتوسيكلات الذين كان عددهم يزيد عن العشرين . كانوا يرتدون زيهم العادى رمادى اللون ، تغطى الكابات رؤوسهم ، بيد ان نظارات كبيرة محدبة كانت تغطى عيونهم وجباههم والجزء الاعلى من انوفهم . وقد اضفى كل ذلك منظرا خرافيا على هؤلاء الذين ظهروا فجاة ، هنا فى برارى الدون .

وتوقف هؤلاء عند البيوت الصغيرة فى اطراف المدينة ، ليقفز جميعهم ، عدا ثلاثة او اربعة ظلوا الى جوار الموتوسيكلات ، وينتشرون

فى شتى الجهات . بيد انه ما كادت تنقضي عشر دقائق حتى راح راكبو الموتوسيكلات يظهرون الواحد تلو الاخر ، ليستقلونها ، مندفعين نحو المدينة .

وغابوا عن ناظرى سيريوجا فيما وراء المنازل الكائنة فى الوهدة ، الا انه كان يدرك انهم اذا ما كانوا يقصدون وسط المدينة ، فى اتجاه الحديقة العامة فانهم سوف يمرون حتما عبر ذلك المرتفع الذى يبدو واضحا للعيان بشكل جيد من هذا المكان ، والموجود بالشارع الواقع خلف المزلقان الثانى مما جعله يركز النظر على ذلك الموقع . وقد اندفع اربعة او خمسة من هؤلاء الجنود فى سرعة فائقة عبر هذا المرتفع ، الا انهم لم يتجهوا نحو الحديقة ، وانما انعطفوا فى اتجاه تلك المجموعة من المبانى فوق التل وحيث مبنيا اللجنة التنفيذية للمنطقة و«بيشيني بارين» . كما وعاد راكبو الموتوسيكلات بعد بضع دقائق ثانية الى المزلقان ، حيث شاهد سيريوجكا مرة اخرى كل افراد الفصيلة وسط البيوت الكائنة فى ضواحى المدينة ، فقد كانوا عائدين الى فيرخنيادوفانايا . وانبطح سيريوجكا ارضا فيما بين الشجيرات الصغيرة ، ليظل هكذا لا يرفع راسه حتى مرقت تلك الفصيلة الى جواره .

وقد انتقل سيريوجا فيما بعد الى ذلك المرتفع الذى تغطيه الاشجار والشجيرات والمشرف على ناحية فيرخنيادوفانيايا من حيث يمكنه رؤية كل المنطقة . وهناك ظل متمددا تحت احدى الاشجار طيلة بضع ساعات . وراحت الشمس تعتلى السماء ، تلفه باشعتها الحارقة مهما جد فى الانتقال من مكان لاخر ، بحثا عن الظل .

وكان النحل يطن فيما بين الشجيرات الصغيرة ، يمتص رحيق ازهار اواخر فصل الصيف والعصير الصافى اللزج من اوراق الاشجار الذى تركته الحشرات عليها ، وما نجمعه فيما بعد مسميين اياه عسل يوليو . وتعالت رائحة اوراق الاشجار والحشائش الكثيفة العالية ، تلف البرارى . وكانت النسمات التى تهب خفيفة فى بعض الاحيان ، تحمل الى الاسماع حفيف اوراق الاشجار . واعتلت كبد السماء بعض السحب الصغيرة التى بدت ناصعة براقة تحت اشعة الشمس .

وادرك سيريوجكا خمول شل كافة اعضائه ، ورزح فوق قلبه ،

مما جعله ينسى لبعض الوقت سبب وجوده فى ذلك المكان . وتواردت الى خاطره ذكريات سنى الطفولة الممتعة الصافية ، حين افترش الاعشاب فى البرارى مغمضا عينيه ، تلسعه اشعة الشمس الحارقة ، تطن الدبابير والنحل فيما حوله ، وتتعالى رائحة الحشائش الدافئة ، ليبدو له الكون حبيبا ، ناصعا خالدا . وتعالى الى اسماعه ثانية هدير محركات الموتوسيكلات ليتراءى امام ناظريه راكبوها بنظاراتهم الضخمة غير الطبيعية وتظهر من خلفهم السماء الناصعة الزرقة ، ليدرك على حين غرة انها لن تعود ابدا مشاعر سنى الطفولة الممتعة الصافية ، ودفقات السعادة المبكرة التى لا مثيل لها ، ليخفق قلبه تارة فى الم ومرارة ، واخرى رغبة جامحة فى خوض المعركة .

ومالت الشمس نحو خط الغروب حين بدا فيما وراء التل البعيد ذلك السهم الطويل القاتم ، ليثير من جديد الغبار كثيفا يحجب الافق . وقد كان ذلك السهم راكبو الموتوسيكلات يسيرون فى رتل طويل لا نهاية له ، يتقدمون السيارات — مئات ، بل الاف عربات النقل ، تتحرك فيما بينها سيارات ركوب القادة . وراحت السيارات تظهر الواحدة تلو الاخرى وبدون انقطاع ، من وراء التل . وقد كان ذلك الرتل مثل افعى طويلة غليظة ، خضراء اللون تلمع قشورها تحت اشعة الشمس ، راسها قريب من ذلك المكان الذى استقر فيه سيريوجكا ، بينما توارى ذيلها بعيدا عن الانظار . وغمر الغبار الطريق ، وتعالى هدير المحركات وكانما ملأ كل الفضاء الرحب فيما بين السماء والارض .

لقد كان الالمان يقصدون كراسنودون ... وكان سيريوجكا اول من وقع نظره عليهم .

وفى حركة خفيفة كما القطة ، عبر الطريق الفرعى وليس ثمة من يدرى كيف ... زحفا ، ام فى قفزات ، ام محلقا فى الجو ثم السكة الحديدية ليهرول عبر الوهدة ، ثم فى الجانب الآخر للتل ، حيث كانت تستحيل رؤيته للرتل الالمانى فيما وراء طريق السكة الحديدية .

وقد ناور سيريوجكا على هذا النحو بغية الوصول الى المدينة قبل الالمان ، واحتلال افضل نقطة للمراقبة فى وسطها ، اى فوق سطح مدرسة جوركى الكائنة فى حديقة المدينة .

وجرى عبر الارض الفضاء الواقعة الى جوار احد المناجم نحو

الشارع الكائن فيما خلف الحديقة ، والذى ظل على شكله القديم ، منعزلا عن المدينة ، يحمل تسمية «ديريفيانايا» .

وهناك وقع نظره على مشهد اذهله لدرجة انه لزم مكانه ساكنا برهة من الوقت ، انزلق بعدها فى هدوء بمحاذاة الاسوار التى تحيط بحدائق السكان المطل على شارع «ديريفيانايا» ليرى فى احداها تلك الفتاة التى ساقته اليها الاقدار فى عربة النقل بالبرارى فى الليلة قبل الماضية .

وكانت الفتاة تفترش بطانية مخططة داكنة اللون ، بسطتها فوق الحشائش تحت شجيرات الاقاصيا ، على بعد حوالى خمس خطوات من سيريوجكا ، وقد اسندت راسها الى وسادة ووضعت ساقا فوق ساق ، لفحتهما الشمس ، منتعلة حذاءها ، تطالع كتابا دون ان تعير اهتماما لما يجرى حولها من احداث . وقد استقرت فوق الوسادة احدى ضفيرتيها الكبيرتين الذهبيتين فى دعة وحرية ، تلقى بظلالها على وجهها البرونزى اللون ، واهدابها الداكنة وشفتها العليا المكتنزة ، والبارزة الى اعلى فى اباء . نعم ، لقد كانت الفتاة تفترش البطانية تطالع كتابا تمسكه بيديها الموحفتين اللتين لفحتهما الشمس بينما كانت تتقدم نحو كراسنودون الاف العربات – جيش المانى باكمله – تملأ كل الفضاء فيما بين السماء والارض بهدير محركاتها وغازاتها العادمة .

واذ حبس سيريوجكا انفاسه التى كانت تنطلق صافرة من صدره ، راح ينظر الى الفتاة وقد امسك بكلتا يديه قائمتى السور تغمره السعادة وتعشى بصره برهة من الزمن . فقد كانت تجسد شيئا يتسم بالسذاجة والروعة ، كما الحياة نفسها وهى تفترش الحديقة ممسكة فى يديها بكتاب فى يوم من اشد ايام البشرية هولا ورعبا.

وقفز سيريوجكا فى جسارة فائقة متخطيا السور ، ليقف عند قدمى الفتاة . ونحت الكتاب جانبا لترتسم على عينيها ذات الاهداب الداكنة امارات دعة ودهشة وسعادة ، واللتين استقرتا على سيريوجكا .

وفى تلك الليلة التى جاءت فيها ماريا اندرييفنا بورتس بالتلاميذ من منطقة بيلوفودسك الى كراسنودون ، ظلت ساهرة حتى الفجر اسرة بورتس – ماريا اندرييفنا ، وزوجها وابنتاها الكبرى فاليا والصغرى ليوسيا ذات الاثنى عشر ربيعا . كانوا يجلسون على ضوء

مصباح يعمل بالكيروسين ، حيث توقفت محطة الكهرباء التى كانت تغذى المدينة منذ السابع عشر من الشهر يحيطون بالمائدة يواجه كل منهم الاخر وكانما فى ضيافة اخرين . وقد كانت الانباء التى يتبادلون الحديث حولها تتسم بالبساطة ، لكنها رهيبة لدرجة كان يستحيل عليهم معها رفع اصواتهم لتخدش ذلك السكون الذى خيم على المنزل والشارع ، وعلى المدينة باسرها . لقد كان اوان الرحيل قد فات ، كما واصبح البقاء كذلك مريعا ! وراود الجميع ، حتى ليوسيا التى كانت ذات شعر اكثر ذهبية من شعر شقيقتها ، وعينين يكبران ايضا عينى شقيقها ، يتوسطان وجهها الشاحب ، شعور بان ما حدث امر لم يعد اصلاحه ممكنا لدرجة ان العقل اصبح عاجزا عن تصور مدى فظاعة الكارثة .

كان الاب فى مظهر يدعو الى الشفقة ، حيث راح يواصل لف سجائره من التبغ الرخيص والتى لم ينقطع عن تدخينها . وغدا صعبا على الاسرة تصوره هكذا ، فى حين كان دائما مثال القوة وعماد العائلة ونصيرها . لقد بدا نحيفا صغيرا ، بلغ نظره الذى كان فيما سبق ضعيفا ، حد النهاية تقريبا فى السنوات الاخيرة ليصبح عاجزا عن اعداد الدروس ببساطة . وكان الاب شان ماريا اندرييفنا يدرس الادب . وغالبا ما كانت تصحح زوجته كراسات تلاميذه بدلا منه . كما وكان لا يرى شيئا فى ضوء المصباح الصغير ، اذ كانت عيناه ، الشبيهتان بعيون الفراعنة المصريين التى سجلتها اثارهم ، تشخصان الى الامام دون ان يرف لهما جفن .

لقد كان كل شىء بالمنزل عاديا مالوفا منذ سنى الطفولة ، ومع ذلك فقد اتسم بالغرابة . مائدة الغداء التى كان يغطيها مفرش ملون ، والبيانو الذى كانت تعزف عليه فاليا كل يوم مقطوعاتها ، والصوان الزجاجى حيث استقرت فى شكل تناسبى الاوانى التى تنم عن ذوق وبساطة منتقيها ، وخزانة الكتب المفتوحة كان كل ذلك عاديا كسابق عهده ، ومع ذلك فقد بدا غريبا غير مالوف . لقد كان المعجبون الكثيرون بفاليا يقولون بان منزل آل بورتس يتسم بالرومانسية ويدعو الى الراحة ، وكانت فاليا تدرك انما هى ، الفتاة التى تقطن ذلك البيت ، سبب اضفاء الرومانسية على كل ما حولها .

وقد تبدى كل ذلك امام ناظريها عاريا مجردا .

لقد كان الخوف يراودهم جميعا ازاء اطفاء المصباح ، والبقاء كل وحيد فى فراشه الا من افكاره ومشاعره ، ليظلوا هكذا على هذا النحو حتى الفجر ، لا يقطع صمتهم سوى صوت الساعة .

ولم يطفئوا المصباح ويفتحوا نوافذ مسكنهم الا بعد ان تعالى صوت الجيران يخرجون سعيا وراء المياه من المضخة او من الصهريج الموجود قريبا من منزلهم . وراحت فاليا تخلع ملابسها ، تثير عن عمد اكبر قدر من الضجيج ، ثم انزلقت فى فراشها تغطى جسدها وحتى راسها باللحاف . وسرعان ما استغرقت فى سبات عميق غلب كذلك شقيقتها ليوسيا . اما ماريا اندرييفنا وزوجها فلم يغمض لهما جفن .

واستيقظت فاليا تحت وقع اصوات فناجين الشاى الذى راح يستعد الاب والام لتناوله فى غرفة الطعام ، اذ ان ماريا اندرييفنا لم تتخل عن عادة تناول الشاى من السماوار رغما عن كل ذلك . وقد كانت الشمس ترسل اشعتها عبر النافذة ، لينتاب فاليا شعور تقزز مفاجىء حين راود خاطرها مشهد جلستهم طوال الليل . فكم كان مهينا ورهيبا ان يصل بهم الامر هذا الحد !

ما شانها بالالمان فى نهاية الامر ! ان لها عالمها الروحى الخاص بها . فليعان اى كان من وطأة الانتظار والرهبة . . . اما هى فلا . وهبت تغسل شعرها بالمياه الدافئة تراودها سعادة بالغة ثم جلست تستمتع باحتساء الشاى . وقامت بعد ذلك فتناولت من المكتبة احد اجزاء مؤلفات ستيفينسون حيث قصتا «الاختطاف» و«كاتريونا» ، وخرجت الى الحديقة لتفترش البطانية وتستغرق فى القراءة .

كان الهدوء يخيم على المكان ، وكانت الشمس مستقرة فوق حوض الزهور المهمل ، وروضة الحشائش . واتخذت مكانها فوق احدى الزهور فراشة بنية اللون تفرد جناحيها تارة ، وتضمهما تارة اخرى . وراح النحل الموبر داكن اللون ذو الخطوط البيضاء العريضة فيما حول البطن ينتقل من زهرة لاخرى ، فيما يتعالى طنينه الى الاسماع . والقت شجرة الاقاصيا القديمة كثيرة الفروع ، ومتعددة الالوان ظلالها على المكان . وتبدت السماء زرقاء زرقة البحار من بين اوراقها التى مالت فى بعض الاماكن نحو الاصفرار . وتداخل ذلك العالم الاسطورى للسماء والشمس والخضرة والنحل والفراشات مع

العالم الاخر الخيالى ، عالم الكتاب والمغامرات والطبيعة البرية ، والبسالة البشرية والنبل والصداقة النقية والحب الصافى .

وكانت فاليا تنحى الكتاب جانبا فى بعض الاحيان ، لتطيل النظر حالمة الى السماء ، تراها فيما بين فروع شجرة الاقاصيا . ففيم كانت تحلم ؟ لم تكن تدرى . لكن كم كان عظيما ان ترقد وحدها مع هذا الكتاب المفتوح فى هذه الحديقة الاسطورية !

وراحت تتذكر رفاقها فى المدرسة . . . «من المحتمل ان يكونوا قد رحلوا . . . اسعفهم الوقت للرحيل . ولربما يكون قد رحل اوليج ايضا» . لقد كانت على صداقة مع اوليج ، شان صداقة والديها مع والديه . لقد نسيها الجميع ، وسافر اوليج . وها هو ستيوبكا لا يظهر . اى صديق هو . . . «اقسم !» . . . ياله من ثرثار . انه من المحتمل لو كان ذلك الفتى الذى قفز الى العربة . . ما اسمه . . آه . . سيرجى تيولينين . . سيريوجكا تيولينين لو كان قد اقسم ، لما حنث بوعده . . .

وتخيلت نفسها فى مكان «كاتريونا» اما بطل قصة الاختطاف المفعم بالبسالة والنبل فقد تمثلته فى ذلك الشاب الذى قفز ليلا الى العربة . وكانت تتصور شعره خشنا لتراودها الرغبة فى لمسه . وراحت تفكر فى حزن بالغ . . «اى صبى هذا ان كان شعره ناعما كشعر الفتيات . اذ يجب ان يكون شعر الصبية خشنا» . وغرقت ثانية فى عالم الكتاب الاسطورى ، والحديقة السابحة فى بحر من اشعة الشمس ، تحلق فى ارجائها الفراشة بنية اللون والنحل الموبر .

هكذا قضت طيلة يومها ، لتعود فى صباح اليوم التالى الى نفس المكان تحمل بطانيتها ووسادتها وكتاب ستيفينسون . انها سوف تعيش هكذا ، بالحديقة فى ظلال الاقاصيا ، مهما حدث فى هذا العالم . . .

ولم يكن مثل هذا النمط من الحياة ، وللاسف ، فى متناول والديها . فلم تكن ماريا اندرييفنا لتصبر على ذلك . اذ كانت امراة مفعمة بالحيوية والنشاط وافرة الصحة ، مكتنزة الشفتين ، ذات اسنان كبيرة وصوت جهورى . كلا . . ان المعيشة على هذا النحو لامر مستحيل . وتوقفت امام المرآة تعدل من هيئتها ، ثم انصرفت قاصدة آل كوشيفوى للسؤال عما اذا كانوا بالمدينة ام غادروها .

وكان آل كوشيفوى يعيشون فى شارع سادوفايا الذى يفضى مباشرة الى المدخل الرئيسى للحديقة العامة ، يشغلون نصف احد المنازل النموذجية المبنية من الاجر والذى كانت مؤسسة «فحم كراسنودون» قد افردته لخال اوليج – نيكولاى نيكولايفيتش كوروستيليف ، او الخال كوليا . وكان يشغل النصف الثانى من المبنى احد المدرسين ، من زملاء ماريا اندرييفنا بالمدرسة ، برفقة اسرته .

كان الهدوء مخيما الا من صوت بلطة تدق راح يدوى فى ارجاء شارع سادوفايا ، مما ادركت معه ماريا اندرييفنا انه يصدر من فناء مسكن آل كوشيفوى . وخفق قلبها وصارت تجيل النظر فيما حولها عما اذا كان ثمة من يراها ، قبل ان تدلف الى الفناء ، وكانما ترتكب عملا خطيرا غير مشروع .

ونهض الكلب الاسمر كث الشعر الذى كان يرقد امام الباب يتدلى لسانه الاحمر من حرارة الجو ، على وقع اقدام ماريا اندرييفنا . لكنه ماكاد يتعرف عليها حتى نظر اليها على نحو يوحى بالاعتراف بالذنب وكانما يريد ان يقول «معذرة ، اننى غير قادر فى مثل هذا القيظ على تحريك ذيلى احتفاء بك» ، ثم عاد الى مكانه .

لقد كانت الجدة فيرا فاسيليفنا ، فارعة القامة ، نحيفة الجسد ، معروقة العود ، تقوم بتكسير الحطب . . وكانت يداها الطويلتان بارزتا العظام ترتفعان بالبلطة عاليا ، ثم تهويان بها فى قوة لدرجة كان يندفع الهواء من صدرها صفيرا مبحوحا . وهكذا يرى المرء انها لم تشك بعد من آلام فى الظهر ، او ربما كانت تعتبر ان العمل خير دواء . كانت الشمس قد تركت اثارها سمرة شديدة على وجه الجدة ، الذى بدا نحيفا . وقد كانت الجدة «فيرا» ذات انف رقيق ، يرتجف منخاراها ، يبدو منظرها الجانبى فى عينى ماريا اندرييفنا اشبه بصورة دانتى اليجيرى التى كانت قد شاهدتها فى طبعة «الكوميديا الالهية» التى صدرت قبل الثورة متعددة الاجزاء . وكان شعرها الرمادى الكستنائى الذى وخطه الشيب يحيط بوجهها ، منسدلا فى حلقات على كتفيها . وكانت الجدة تضع عادة على عينيها نظارة ذات اطار رقيق اسود اللون كانت قد اشترتها منذ زمن بعيد جعل احد ذراعيها يبلى من القدم ، لتثبته ثانية مستعينة فى ذلك

بخيط اسود . بيد انها لم تكن ترتديها فى تلك اللحظة .

كانت تعمل بهمة بالغة ، تضاعفت قوتها مرتين او ثلاث ، لتتطاير قطع الاخشاب فى شتى الجهات ، يتعالى صوتها . وقد كانت التعبيرات التى ارتسمت على وجه الجدة وقوامها وكانما تعنى . . «فليذهب الالمان الى الجحيم ! ولتذهبوا انتم كذلك الى الجحيم مادمتم تخافونهم ! اننى افضل تكسير الحطب . . . هيه هيه ! ولتتطاير قطعه هذه فى شتى الجهات . . الى الجحيم ! نعم انه من الافضل لى ان امارس هذا العمل ، من الانحدار الى وضعكم المهين الى ذلك الحد ! ولئن كان مقدرا لى الهلاك ، فاننى عجوز لا اهاب الموت . . . هه ! هه !»

واذ غرزت الجدة فيرا البلطة فى كتلة الخشب ، رفعتهما والتفتت فجاة لتهوى بهما فى قوة هائلة ، لتنشطر الكتلة شطرين ، كاد احدهما يصطدم بقدم ماريا اندرييفنا ويطرحها ارضا .

وهنا وقع نظر الجدة فيرا على ماريا اندرييفنا ، لتقطب جبينها ، وتلقى بالبلطة جانبا ، لتقول لها بذلك الصوت الجهورى الذى بدا وكانما دوى فى كل ارجاء الشارع :

– آه . . ماريا ، اعنى ماريا اندرييفنا . انه لجميل ، لطيب منك ان تزورينني ، وفى غير ما تكبر ! ها هى ابنتى لينا تدفن راسها فى الوسادة وتجهش بالبكاء لليوم الثالث على التوالى . وكم رحت اتساءل لديها كم من الدموع يمكن ان تذرف ! تفضلى بالدخول.

وداخل الروع نفس ماريا اندرييفنا ازاء صوتها العالى ، وان كان قد ادخل الطمانينة الى قلبها فى ذات الوقت ، اذ انها كانت نفسها تهوى الحديث بصوت عال . لكنها رغما عن ذلك تساءلت بصوت خافت مشيرة الى مسكن المدرس :

– هل رحلوا ؟

– لقد رحل هو الى مكان ما ، بينما بقيت اسرته التى تذرف الدمع ايضا . هل لك ان تتناولى معى طعام الغذاء ؟ لقد اعددت حساء الكرنب الطازج ، ومع ذلك فليس هناك من يرغب فى تناوله .

كلا . . لقد كانت الجدة فيرا كعادتها ، ابية النفس ! وكانت قد ولدت فى اسرة نجار ريفى من محافظة بولتافا . وكان زوجها من كييف ، عاملا فى مصنع بوتيلوف ، استقر فى قريتها بعد عودته

من الحرب العالمية الاولى مصابا بجروح خطيرة . وقد راحت الجدة فيرا تسلك طريقها الخاص ، على الرغم من كونها متزوجة ، فاختيرت مندوبة عن قريتها ، وعملت بلجان فقراء الفلاحين التى تشكلت فى اوكرانيا فى الفترة ١٩٢٠-١٩٣٣ ، ثم التحقت بالعمل فى المستشفى . ولم ينل موت زوجها من عزيمتها ، بل على العكس فقد حفز سمة الاستقلالية فى طابعها . وها هى الان تعيش على راتب تقاعدى بيد انها ما تزال قادرة اذا ما احتاج الامر ، على الافصاح عن قوة شكيمتها . وقد انخرطت الجدة فيرا فى صفوف الحزب الشيوعى منذ ما يقرب من اثنتى عشر سنة .

كانت يلينا نيكولايفنا ، والدة اوليج ، ترقد فى فراشها وقد دفنت راسها فى الوسادة ، مرتدية فستانها المنقوش المجعد ، عارية القدمين تغطى ضفيرتاها المحلولتان الكثتان ذهبيتا الشعر ، واللتان كانتا عادة ما تزينان راسها فى تسريحة كبيرة معقدة ، جسدها الصغير الذى ينم عن جمال وقوة ، لتصلا حتى كعبيها .

ودلفت الجدة فيرا وماريا اندرييفنا الى الحجرة ، لترفع يلينا نيكولايفنا عن الوسادة الغارقة فى دموعها ، وجهها بارز العظام ، والذى ينم عن طيبة وذكاء ورقة ، منتفخة العينين ، ولتلقى بنفسها فى احضان ماريا اندرييفنا ، وقد ندت عنها صرخة . وراحتا تتعانقان وتتبادلان القبلات ، ثم اجهشتا بالبكاء ، الذى تحول الى ضحك . لقد كانتا سعيدتين لكونهما فى مثل هذه الايام العصيبة يستطيعان الابقاء على مثل هذه العلاقة فيما بينهما واقتسام عناء الكارثة التى حاقت بهم جميعا . راحتا تضحكان وتبكيان ، بينما وقفت الجدة فيرا وقد وضعت يديها المعروقتين على خصرها ، تهز راسها الاجعد الشبيه براس دانتى الليجيرى تردد القول :

— يالها من حماقة . . . تارة تبكيان واخرى تضحكان . عن الضحك ليس ثمة ما يضحك ، اما عن البكاء . . فسوف يكون لدينا متسع للبكاء .

وفى تلك اللحظة تعالت الى سمع النسوة من اتجاه الشارع ضجة غريبة آخذة فى التزايد ، وكانما هدير كثير من المحركات يرافقه نباح آخذ كذلك فى التنامى لكلاب المدينة التى غدت اشبه بالتى اصابها السعار .

وانفصلت كل من يلينا نيكولايفنا وماريا اندرييفنا عن الاخرى . بينما اسدلت الجدة فيرا يديها ، ليعلو الشحوب وجهها البرونزى . وقد وقفن على هذا النحو بضع لحظات ، دون ان تجرؤ احداهن على تفسير كنه تلك الضجة ، وان كن يعلمن سببها ، وفجاة رحن يهرولن تتقدمهن الجدة ، ثم ماريا اندرييفنا ، ثم يلينا نيكولايفنا ، نحو البستان ، ودون سابق اتفاق ، ووفق حاسة ادراك امثل السبل ، تحاشين الجرى نحو البوابة مباشرة ، بل عبر فواصل الاحواض ، ونباتات عباد الشمس وشجيرات الياسمين بمحاذاة السور .

وقد كان هدير كثير من محركات العربات يتعالى الى الاسماع من الجزء الاسفل للمدينة ، متزايدا من لحظة لاخرى . وكان صرير عجلاتها يترامى عند المزلقان الثانى الذى لم تكن تبلغه الانظار من هذا المكان . وفجاة ، ظهرت عند نهاية الشارع ، سيارة رمادية مكشوفة راحت تتهادى فى اتجاه النسوة اللواتى اختبئن فيما خلف شجيرات الياسمين ، يعكس زجاجها اشعة الشمس على نحو يعشى الابصار . وكان يجلس بالعربة عسكريون جامدو الوجوه ، صارمون فى زيهم الرمادى ، تغطى رؤوسهم كابات رمادية ارتفعت مقدماتها عالية .

وكانت هذه السيارة تتقدم عدة عربات ركوب اخرى ، انعطفت جميعها عند المزلقان نحو الشارع ، وبدات فى التوجه بطيئة الواحدة تلو الاخرى نحو الحديقة العامة .

وقد قامت يلينا نيكولايفنا دون ان تغض النظر الى هذه العربات ، وعلى حين غرة فى حركة محمومة بالامساك باصابعها الصغيرة الغليظة بعض الشئ باحدى ضفيرتيها ، ثم بالاخرى ، ومكثت تلفهما حول راسها . وقد فعلت ذلك فى حركة سريعة وبصورة عفوية ، واذ فطنت الى عدم وجود دبابيس الشعر ، ظلت واقفة مكانها تنظر الى الشارع ، ممسكة بضفيرتيها فوق راسها بكلتا يديها .

اما ماريا اندرييفنا ، فقد اطلقت صرخة خافتة ، واندفعت خارجة من وراء شجيرات الياسمين حيث كانت ، عائدة نحو البيت ، وليس فى اتجاه بوابة السور المفضية الى الشارع . ودارت حول

البيت من تلك الناحية ، حيث يقطن المدرس ، لتخرج من البوابة الاخرى الى الشارع المقفر والموازى لمثيله الذى كان يتحرك فيه الالمان ، تقطعه مهرولة نحو بيتها . وهناك راحت تخاطب زوجها قائلة :

— معذرة ، حيث لم استطع تحذيرك . . فلتتشجع . . يجب عليك الاختفاء على الفور ! من المنتظر ان يجيئوا من لحظة لاخرى .

ووضعت يدها على صدرها لاهثة ، لكنها كانت كسائر كل الاصحاء ، تتصبب عرقا تعلو الحمرة وجهها ، بعد ذلك المشوار الذى قطعته جريا ، وغدا مظهرها المشوب بالقلق لا يتناسب وهول الفكرة التى كانت تعبر عنها .

— الالمان ؟

تساءلت ليوسيا بصوت خافت اتسمت نبراته بالرعب المشوب بالرصانة ، مما جعل ماريا اندرييفنا تتوقف عن الحديث فجأة ، ترنو نحو ابنتها وتجيل النظر فى ارتباك الى ما حولها . ثم تساءلت :

— اين فاليا ؟

وكان زوج ماريا اندرييفنا يقف فى مكانه صامتا وقد كسا الشحوب شفتيه .

وذكرت ليوسيا بصوت هادىء للغاية يتسم بالجدية :

— ساخبركما عن كل شىء ، حيث شاهدت كل ما جرى . لقد كانت تطالع كتابا بالحديقة ، حين قفز عبر السور الى الحديقة صبى ، بلغ سن الفتوة . وكانت راقدة مكانها ، فاستوت قاعدة ليتبادلا الحديث برهة ، ثم قفزت من مكانها ، ليتسلقا السور الى الخارج ويهرولان بعيدا .

وسالت ماريا اندرييفنا شاخصة بناظريها :

— يهرولان الى اين ؟

— نحو حديقة المدينة . . وتركت البطانية والوسادة والكتاب فى اماكنها . وظننتها سوف تعود بسرعة ، وخرجت فى انتظارها ، الا انها لم تعد ، فجمعت كل ما كان بالبستان لاعود به الى المنزل .

— يا الهى !

ندت عن ماريا اندرييفنا ، لتهوى الى الارض فى تثاقل .

الفصل السابع عشر

اما الجدة فيرا ويلينا نيكولايفنا فقد مكثتا فى مكانهما بين شجيرات الياسمين يواصلان النظر الى السيارات الضخمة العالية الطويلة التى راحت تهدر عند اعلى الشارع ، تزحف الواحدة تلو الاخرى ، يجلس على متنها الجنود الالمان صفوفا فى ستراتهم واغطية رؤوسهم الرمادية يتصببون عرقا ، سمر الوجوه ، يعلوهم الغبار ، وقد وضعوا اسلحتهم فيما بين سيقانهم . وراحت الكلاب تنبح فى كافة الافنية فى غضب ، وتندفع نحو السيارات ، تتقافز حولها فى غمرة الغبار احمر اللون .

وما كادت السيارات الامامية التى تحمل الضباط توازى بستان منزل آل كوشيفوى ، حتى دوى خلف المراتين نباح مسعور ، ليندفع الكلب الاسود طويل الشعر كما البرق الخاطف ، وسط عباد الشمس ، ويثب فوق السور المنخفض للبستان ليتراقص حول السيارة الاولى فى عواء غاضب ، يتعالى نباحه رنانا هادرا .

والتفتت المراتان تنظر كل منهما الى الاخرى فى ذعر . فقد بدا لهما ان ثمة امرا رهيبا وشيك الحدوث . الا ان شيئا لم يحدث . فقد تجاوزتهما العربة فى طريقها نحو حديقة المدينة ، لتتوقف عند مبنى مؤسسة «فحم كراسنودون» ، حيث وصلت فى اثرها سيارات الركوب الاخرى . وما لبثت السيارات التى تحمل الجنود ان ملات الشارع باسره . وراح الجنود يثبون من السيارات يحركون اذرعهم وسيقانهم التى تصلبت ، يملاون الارجاء بلهجتهم الحادة التى لم تالفها الاذن الروسية ، يتدفقون على الافنية والبساتين ، يدقون ابواب المساكن . واستقر الكلب الاسود اشعث الشعر عند البوابة حائرا يملأ ارجاء الشارع بنباحه .

ووقف الضباط الى جوار مبنى المؤسسة يدخنون ، بينما راح الجنود القائمون على خدمتهم ينقلون حقائبهم الى داخل المبنى . وقد وقف يشرف على هذه العملية ضابط قصير القامة مكترش رفع مقدم قبعته عاليا ، عاليا لدرجة ان راسه بدت من تحتها لا معنى لها . وهرول ضابط فى مقتبل العمر طويل الساقين بشكل غير طبيعى يرافقه جندى فارع القامة اهوج الحركة ، ينتعل حذاء ثقيلا ، تغطى

طاقيته شعره الاصفر الناصع ، يجتاز الشارع ليدخل ذلك المبنى الذى كان يقطنه بروتسينكو . وما هى الا دقيقة حتى خرج الضابط وكذلك الجندى من هناك لينعطفا نحو بوابة المبنى المجاور حيث كان يقطن العاملون فى لجنة الاقليم ، الا انهم غادروه برفقة سكانه منذ عدة ايام ، وغادر الضابط والجندى الحديقة ليتوجها نحو فناء منزل آل كوشيفوى .

واخيرا وقع نظر الكلب اشعث الشعر على عدو حقيقى يتحرك نحوه مباشرة فاندفع يثب على الضابط الشاب فيما يتعالى نباحه . وتوقف الضابط مباعدا بين ساقية الطويلتين ، وقد بدت على وجهه امارات صبيانية ، يطلق الشتائم من بين اسنانه ، ثم اخرج مسدسه من جرابه واطلق الرصاص على الكلب . وارتمى الكلب بوجهه على الارض ليزحف قليلا فى اتجاه الضابط وهو يعوى ، ثم تمدد مكانه .

وذكرت الجدة فيرا :

– لقد قتلوا الكلب . . . فما عساهم يفعلون بعد ذلك ؟

والتفت الضباط عند مبنى المؤسسة ، والجنود الواقفون بالشارع ينظرون فى اتجاه مصدر الطلقة ، واذ ابصروا الكلب المقتول انصرف كل منهم الى ما كان يشغله . وتعالى صوت طلقات تدوى تارة هنا ، واخرى هناك . وكان الضابط برفقة الجندى فارع القامة ، قد فتح البوابة المفضية الى بيت ال كوشيفوى .

ومضت الجدة فيرا براسها الاشبه بدانتى الليجيرى الجامدة المستقيمة ، تستقبلهما ، بينما لزمت يلينا نيكولايفنا مكانها بين شجيرات الياسمين تمسك بكلتا يديها ضفيرتيها الصفراوتين الملفوفتين حول راسها .

واذ توقف الضابط طويل الساقين حيال الجدة التى وان كانت فارعة القامة ، فقد راح ينظر اليها من عل بعينين باردتين لا لون لهما يسألها :

– من ذا الذى سوف يدلنا على مسكنكم ؟

وقد ذكر ذلك بلغة توقعها لغة روسية سليمة ، وتحول بنظره من الجدة الى يلينا نيكولايفنا فى مكانها بين شجيرات الياسمين وقد عقدت يديها حول راسها ، ثم عاد به ثانية ليستقر على الجدة .

وذكرت الجدة فى ارتباك وبصوت اجش :

– ماذا بك يالينا ؟ هيا دليه . . .

وتوجهت يلينا نيكولايفنا نحو البيت تشق طريقها فيما بين احواض النباتات ممسكة بيديها ضفيرتيها فوق راسها .

وتاملها الضابط فى دهشة بعض الوقت ، ليحول نظره من جديد فى اتجاه الجدة . وذكر وهو يرفع حاجبيه الناصعين ، يتسم وجهه الفتى المدلل بأمارات جموح وهوائية :

– هيه ؟

وانطلقت الجدة تهرول فى خطوات غير مالوفة نحو البيت ، ليتبعها الضابط ومرافقه .

وكانت شقة آل كوشيفوى تتكون من ثلاث غرف ومطبخ . وكان المطبخ يفضى مباشرة الى الغرفة الكبيرة التى كانت غرفة للطعام ، ذات نافذتين تطلان على الشارع المجاور والموازى لشارع سادوفايا . وفى هذه الغرفة كان يوجد سرير يلينا نيكولايفنا وكنبة كان اوليج يستخدمها عادة فراشا له . وفى الغرفة الواقعة على يسار غرفة الطعام كان يعيش نيكولاى نيكولايفيتش وزوجته وطفلهما . اما فى الغرفة الاخرى الى اليمين فقد كانت صغيرة للغاية ، تعيش بها الجدة . وقد كانت هذه الحجرة ذات جدار مشترك مع المطبخ والذى كان الموقد مستندا اليه . ولذا فقد كانت حرارة الغرفة تصبح على نحو لا يطاق ولا سيما صيفا ، حين يجرى اشعال الموقد . بيد ان الجدة شأن كل عجائز القرى ، كانت تحب الدفء ، وحين كانت تشتد حرارة الغرفة كانت تفتح النافذة الصغيرة المطلة على الحديقة وحيث كانت تنبت تحتها شجيرات الليلاك .

ودخل الضابط الى المطبخ حيث تفقده على عجل ، ثم خرج وقد حنى راسه حتى لا يصطدم بأعلى الباب ، الى غرفة الطعام ، ليقف مجيلا النظر فيما حوله . ويبدو انها نالت اعجابه . فقد كانت نظيفة الجدران ، ناصعة البياض تغطى ارضيتها المدهونة حصر قماشية نظيفة يدوية الصنع ، تتوسطها مائدة يغطيها مفرش ناصع البياض ، اما سرير يلينا نيكولايفنا فقد كان مغطى بملاءة ناصعة البياض كذلك ، عليه وسادات صفت فوق بعضها على نحو مدرج يغطيها مفرش مطرز رقيق . وكانت اصص الزهور تزين النوافذ .

ودلف الضابط على عجل الى غرفة آل كوروستيليف وقد حنى

راسه عند الباب ايضا ، الا ان يلينا نيكولايفنا والتى لم تلحظ متى وكيف ثبتت ضفيرتيها ، فقد ظلت مكانها بغرفة الطعام مستندة الى عارضة الباب وقد مالت براسها المتوجة باكليل من الشعر الاشقر . اما الجدة فيرا فقد اقتفت اثر الالمانى .

وقد نالت اعجاب الضابط هذه الحجرة ايضا ، حيث استقر مكتب صغير عليه محبرة انيقة وادوات كتابية ، وادوات هندسية علقت فى مسمار بعارضة الباب الى جانب المكتب . وقال فى ارتياح :

— Schön ! *

وفجاة وقع نظره على الفراش غير المرتب ، حيث كانت ترقد يلينا نيكولايفنا لحظة دخول ماريا اندرييفنا ، فتقدم نحوه فى خطوة سريعة ورفع اللحاف والملاءة ، ثم تناول المخدة باصبعيه فى تقزز ، ثم مال بقامته يتشمم الهواء . وسال الجدة فيرا مقطب الجبين :

— الا يوجد بق ؟

واجابت الجدة وقد اجتهدت فى تكسير اللغة الروسية ، حتى يفهمها الالمانى وهى تومىء براسها علامة النفى فى غضب :

— لا . . لا يوجد بق !

وذكر الالمانى وقد مال بقامته ليجتاز الباب عائدا الى غرفة الطعام :

— Schön !

واكتفى بالقاء نظرة خاطفة الى حجرة الجدة ، ليلتفت فى حدة الى يلينا نيكولايفنا ، قائلا :

— هنا سوف يسكن الجنرال بارون فون فينتسيل . يجب اخلاء هاتين الغرفتين — واشار الى غرفة الطعام وغرفة آل كوروستيليف . مسموح لكما بسكنى هذه الغرفة — واشار الى غرفة الجدة . — ولكما ان تاخذا الان من هاتين الغرفتين ما يلزمكما . خذا هذا . . هذا .

ولمس باصبعيه فى تقزز الملاءة ناصعة البياض واللحاف والمفرش على سرير يلينا نيكولايفنا . ومضى يقول :

— كما وينبغى اخلاء تلك الحجرة ايضا . . وبسرعة .

* تعنى بالالمانية — رائع .

وقفل خارجا من الغرفة الى جوار يلينا نيكولايفنا التى تراجعت متحاشية اياه .

وطفقت الجدة فيرا تقول بصوت جهورى :

— الا يوجد بق ؟ يالك من افاق ! او يكون هذا ما قدر للجدة فيرا ان تراه فى اخريات سنوات عمرها ! — ثم مضت تقول فى غضب :

— لينا . . . هل تسمرت مكانك ؟ او لم تسمعى بوجوب ترتيب كل شىء لاستقبال البارون ، الذى نتمنى ان تفقأ عيناه ! فتمالكى نفسك يا عزيزتى ! ولعل من حسن حظنا ان يسكن عندنا بارون ، ربما يكول اقل عنجهية من الاخرين .

ومضت يلينا نيكولايفنا تنزع اغطية فراشها فى صمت ، ثم حملتها الى غرفة الجدة التى لزمتها ولم تبارحها . اما الجدة فيرا فقد نقلت السرير الكائن فى غرفة الابن وعروسته ونزعت صور ابنها وحفيدها من على الجدار لتودعها الخزانة (حتى لا يسالونها من هذا . . . ومن ذاك) وحملت الى غرفتها ملابسها وملابس ابنتها (حتى لا تمتد اليها اياديهم . . اولئك الذين نتمنى ان يصيبهم الطاعون) . بيد ان الفضول كان يقض مضاجعها ، فلم تستقر فى مكانها لتنطلق خارجة الى الفناء .

وقد ظهر عند بوابة السور ذلك الجندى فارع القامة ، مكتنز الوجه المغطى بالنمش يحمل فى كلتا يديه حقيبتين طويلتين عريضتين مسطحتين فى كيسيهما المصنوعين من الجلد . وقد سار فى اثره جندى آخر يحمل السلاح المتمثل فى ثلاث بنادق آلية ، ومسدسين ماوزر وسيفا فى جرابه الفضى ، وجنديان آخران يحمل احدهما حقيبة ، بينما كان الاخر يحمل جهاز راديو ثقيل وان كان غير كبير . ودلفوا جميعا الى داخل المنزل دون ان يعيروا الجدة اهتماما .

وبعد برهة اجتاز بوابة السور جنرال ، نحيف الجسد ، فارع القامة ينتعل حذاء مدببا لامعا لم يغطه الغبار الا قليلا ، تغطى راسه قبعة عسكرية ترتفع مقدمتها عالية ، يبدو وقد تقدم به السن ، تغطى الغضون وجهه ، نظيف الوجه والرقبة ، ليدخل الى البستان ، يرافقه على نحو يوحى بالاحترام ذلك الضابط طويل الساقين ، يسير فى اثره منكس الراس .

وكان الجنرال يرتدى سروالا رمـــادى اللـون ذا شريطين مزدوجين ، وسترة ذات ازرار ذهبية لامعة وياقة ســوداء منقوش عليها سعف ذهبى فوق قماش احمر . وقد بدا فى مشيته مرفـوع الهامة الطويلة الضيقة ، يغطى الشيب فوديه ، يتمتـم ببعض الكلمات . اما الضابط الذى كان يتخلف عنه قليلا فقد كان يسير منكس الراس ، مصغيا لكل كلمة يقولها .

واذ دلف الجنرال الى البستان ، توقف يجيل النظر فيما حوله ، يدير فى تثاقل راسه المرتكزة على عنق طويل تشوبه الحمرة مما بدا معه اشبه بالاوزة ، ولا سيما ان مقدمة قبعته كانت طويلة مرتفعة بشدة الى اعلى . وفرغ الجنرال من تفقد ما حوله ، الا ان وجهه الجامد لم يعكس شيئا عن انطباعاته . ثم اشار بيده ذات الرسغ الصغير واصابعه الجافة فى حركة سريعة ، وكانما يصدر حكمه على كل ما وقعت عليه عيناه ، وتمتم ببعض الكلمات . واحنى الضابط راسه على نحو اكثر احتراما .

ودلف الجنرال الى داخل المنزل وقد نكس راسه حتى لا يصطدم باعلى الباب ، تنبعث منه رائحة عطر غريب شملت الجدة فيرا ، التى تعلقت بها لحظة من الزمن عيناه عديمتا اللون واللتان ادركهمـا التعب . واشار الضابط طويل الساقين الى الجنود الذين اصطفوا عند مدخل المنزل بعدم مغادرة المكان ، ثم دخل فى اثر الجنرال . اما الجدة فقد ظلت مكانها بالفناء .

وبعد بضع دقائق خرج الضابط ليصدر امرا مقتضبا مشيرا بيده الى البستان فى حركة دائرية ، مكررا بذلك نفس اشارة الجنرال . واذ استدار الجنود على اعقابهم فى حركة عسكرية ، انطلقوا يغادرون البستان كل فى اثر الاخر ، اما الضابط فقد عاد ادراجه الى المنزل .

مالت نباتات عباد الشمس بزهورها الذهبية نحو الغرب ، لتمتد ظلالها طويلة تغطى الاحواض . وترامت الى الاسماع من ناحيـة الشارع فيما وراء شجيرات الياسمين اصوات ضحكات ولهجة غريبة ، بينما كانت محركات السيارات ما تزال تهدر عند المزلقـان الى اليمين ، الى جانب اصوات طلقات تارة هنا ، واخرى هناك ، وعواء كلاب وقوقأة دجاج .

وظهر عند بوابة السور جنديان من اولئك الذين شاهدتهم الجدة

فيرا فيما قبل ، يحملان فى يديهما ساطورين . ولم تكد الجدة تفكر فى جدوى هذين الساطورين حتى شاهدتهما كل فى ناحية ، يشرعان فى ازالة شجيرات الياسمين المزروعة على طول السور . ولم تتمالك الجدة نفسها فاندفعت نحوهما ، ممسكة باطراف جونلتها :

— ماذا تفعلان . . . وفيم تضايقكما هذه الشجيرات ؟

ومضت تسألهما فى غضب ، بينما تركض من احدهما فى اتجاه الاخر ، تبذل فائق الجهد كى تتمالك نفسهـــا ، فلا تتشبـث بشعرهما :

— انها ازهار ، وازهار جميلة ، فاية مضايقات تسببها لكم ؟

وصار الجنديان ، دون ان يرفعا ناظريهما نحو الجدة ، يواصلان فى صمت ، وهما ينشقان ، قطع الشجيرات . ثم خاطب احدهما زميله ببضع كلمات لينفجر كلاهما ضاحكا . وذكرت الجدة فى احتقار :

— ويتجاسران ايضا على الضحك !

وانتصب الجندى ومسح بكمه العرق الذى تصبب على جبهته ، ونظر الى الجدة مبتسما يقول لها بالالمانية :

— انه امر صادر من اعلى . ضرورة عسكرية . فلتنظرى . انهم يفعلون ذلك فى كل مكان .

واشار بساطوره الى البستان المجاور .

ولم تفهم الجدة ما تفوه به ، لكنها نظرت فى الاتجاه الذى اشار اليه بساطوره لتجد الجنود الالمان يقطعون الاشجار والشجيرات فى كل البساتين المجاورة .

وحاول الجندى الالمانى تفسير ما قاله ، فجلس فيمـا وراء الشجيرات ومد سبابته القذرة ذات الظفر السميك قائلا :

فدالبين . . . بم . . . بم !

واصاب الانهاك الجدة فجاة ، فاشاحت بيدها وابتعدت عـن الجنديين لتجلس امام المنزل .

وعند البوابة ظهر جندى يغطى راسه بطاقية الطباخين ، يرتدى معطفا ابيض يبدو من تحته سرواله الرمادى وحذائه الغليظ ذو النعل الخشبى . كان يحمل فى احدى يديه سلة كبيرة مستديرة تتعالى منها صوت ارتطام اوانى ، بينما يمسك بالاخرى قدرا كبيرا مـن الالومنيوم . وكان يسير فى اثره جندى فى سترته الرمادية التى علقت

بها اثار دهون يحمل اناء كبيرا ممتلئا بشىء ما . وتجاوزا الجدة فى اتجاه المطبخ .

وفجأة تعالت من داخل المنزل ، وكانما من العالم الآخر ، اصوات مقطوعات موسيقية ، وقرقعة ، وازيز ، وكلمات بالالمانية تبعها ثانية ازيز وقرقعة وموسيقى .

قام الجنود بازالة كل نباتات البساتين فى الشارع . وسرعان ما ظهر الشارع واضحا للعيان فى المنطقة الواقعة بين المزلقان وحتى الحديقة العامة ، والتى بدت زاخرة بالجنود الالمان يذرعونها على متن موتوسيكلاتهم .

وفجأة تعالت اصوات موسيقى رقيقة بعيدة من تلك الغرفة التى كانت الجدة تجلس بجوارها . وقد كانت ثمة حياة هادئة تجرى بعيدا . . . بعيدا عن كراسنودون ، لا يربطها رابط مع ذلك الذى يجرى اليوم هنا . لقد كانت هذه الموسيقى قد كتبت لاولئك الذين يعيشون بعيدين عن الحرب ، وعن هؤلاء الجنود الذين يذرعون الشوارع ويزيلون الاشجار ، وبعيدين عن الجدة فيرا كذلك . ومن المؤكد ان هذه الحياة كانت بعيدة وغريبة عن هؤلاء الذين يزيلون الاشجار فى البساتين لانهم لم يرفعوا هاماتهم ولم يكفوا عن العمل ولم ينصتوا السمع ، ولم يتبادلوا كلمة واحدة حول هذه الموسيقى .

ولقد قام الجنديان بازالة كل الاشجار والنباتات حتى نافذة غرفة الجدة فيرا ، حيث جلست يلينا نيكولايفا فى صمت ، ثم شرعا فى اجتثاث نباتات عباد الشمس التى مالت بزهورها الذهبية نحو الغرب . وحين فرغا من اجتثاث نباتات عباد الشمس غدا كل ما حول المنزل واضحا ، بحيث لن يعثر الفدائيون على مكان يطلقون منه . . . بم . . . بم !

الفصل الثامن عشر

تفرق الجنود والضباط الألمان من مختلف انواع وصنوف الأسلحة ، فى الليلة الماضية فى جميع أحياء المدينة ، عدا حى

شانفهاى الكبير وشانفهاى الصغير ، وكذلك حى «جولوبياتنيكى» التالى وشارع ديريفيانايا حيث كانت تقطن فاليا بورتس .

وبدت المدينة التى اقفرت شوارعها من سكانها الأصليين وقد غصت بذوى الأزياء رمادية اللون المشوب بالقذارة ، والكابات والقبعات من ذات اللون والتى يعلوها النسر الألمانى الفضى . وراحت الأزياء الرمادية تنتشر من الافنية والمنازل والحدائق ، وعند أبواب المخازن والمستودعات والمنازل .

وقد كان الشارع الذى تقطنه أسرتا أوسموخين وزيمنوخوف من أول الشوارع التى وصلها المشاة على متن عرباتهم . وهو شارع عريض بما يكفى لايواء تلك العربات ، الا أن الجنود وتنفيذا لأوامر قادتهم قاموا بتحطيم اسوار البساتين المنخفضة لافساح الطريق امام العربات للمرور بحرية الى الأفنية للاختباء بجوار المنازل وبنايات المخازن الملحقة بها خوفا من أن تكون مثار اهتمام الطيران السوفييتى .

وتحركت الى الخلف العربة الطويلة العالية التى غادرها الجنود ، تهدر محركاتها ، وتحطم اطاراتها الثنائية الضخمة سور بستان بيت آل اوسموخين . وتعالى صوت الارتطام ، وتهاوى السور ، لتتهادى العربة فى فناء آل اوسموخين الى جوار جدار البيت وقد داست الزهور وأحواض النباتات ، بينما ملأت الفضاء بغازاتها العادمة وضجيجها .

وتقدم عريف ، تعلوه السمرة ، اسود الشارب ، أجعد الشعر اسوده ، يغطى فوديه وقفاه تحت كابه الذى مال فوق جبهته ، يدفع الباب بقدمه لينفتح على مصراعيه وليجد نفسه فى ردهة مسكن آل أوسموخين ترافقه مجموعة من الجنود .

وكانت يليزافيتا الكسييفنا وليوسيا تجلسان متجاورتين على فراش فولوديا ، تشبه كل منهما الأخرى ، وقد فردتا قوامهما على نحو غير طبيعى . وكان فولوديا يرقد فى فراشه يعتريه القلق ، وان كان يحاول الا يبدى ذلك فى حضرة ذويه ، تغطى الملاءة كل جسده وحتى ذقنه ، يحدق النظر فى تجهم بعينيه الكستنائيتين الضيقتين . بيد أنه وحين تعالى ذلك الضجيج فى مدخل المنزل ، لتبدو تلك الوجوه القذرة التى يتصبب العرق منها ، وجوه العريف وجنوده ، فى الردهة التى كان بابها مفتوحا ، نهضت يليزافيتا

الكسييفنا فى حدة من مكانها ، وخرجت منتصبة القوام لملاقـــاة الألمان تكسو وجهها تلك السمة الحاسمة التى تميزها .

وذكر العريف وهو يضحك فى مرح ، فى صراحة تتسم بالوقاحة ، متاملا وجه يليزافيتا الكسييفنا فى مودة :

– هذا رائع جدا – قالها بروسيـــة ركيكة – سوف يعيش جنودنا فى ذلك المكان . . . ليس اكثر من ليلتين او ثلاث . – وذكر بالالمانية : Nur zwei oder drei Nächte ، رائع جدا .

وكان الجنود يقفون الى الخلف منه فى صمت ، ودون أن تند عن أحدهم ابتسامة ، مكثوا يتاملون يليزافيتا الكسييفنا ، التـى فتحت باب الغرفة ، حيث كانت يعيش هى وليوسيـــا . كانت قد قررت قبل وصول الألمان الانتقال الى غرفة فولوديا ليعيشـــوا جميعا سوية ، اذا ما تم احتلال البيت . بيد ان العريف لم يدخل تلك الغرفة ، بل ولم ينظر اليها ، حيث اخذ ينظر عبر الباب المفتوح الى ليوسيا التى جلست الى جوار شقيقها جامدة لا تبدى حراكا .

– اوهوه – صاح العريف وهو يبتسم الى ليوسيا مشيرا الى مقدمة كابه محييا اياها ؛ ثم اشار باصبعه الأسود نحو فولوديا فى وقاحة :

– أهو شقيقك ؟ هل هو جريح ؟

وهبت لوسيا تجيبه :

– كلا . . . انه مريض .

وذكر العريف ضاحكا ملتفتا نحو الجنود الذين كانوا فى أماكنهم بالردهة لا تند عنهم الابتسامة :

– انها تتحدث الالمانية ! هل تريدين اخفاء كون شقيقك جنديا احمر او فدائيا ، وانه جريح . غير أننا نستطيع دائما التأكد مـن ذلك .

وقد ارتسمت الابتسامة على وجه العريف الذى راح يداعـــب ليوسيا بعينيه اللامعتين السوداوين .

واجابته ليوسيا فى اضطراب :

– كلا . . . كلا ! انه تلميذ لم يتعد عمره السابعة عشرة . انه يلازم الفراش بعد عملية جراحية أجريت له .

– لا تخافى فلن نمس شقيقك بسوء .

ثم ابتسم اليها محييا اياها باشارة الى مقدمة كابه . والتفت يلقى بنظره على الغرفة التى اشارت يليزافيتا الكسييفنا اليها .

– حسنا جدا .

ثم سأل يليزافيتا الكسييفنا :

– الى أين يفضى هذا الباب ؟

ودفعه قبل أن تند عنها اجابة على سؤاله ، ليجد انه يفضى الى المطبخ .

وذكر وهو يبتسم فى مودة ، وبصراحة تتسم بالغباء :

– عظيم ! فلتوقدى الفرن . هل لديكم دجـاج ؟ بيض . . . بيض .

وقد كان من المدهش انه ذكر ما كان محور النكات حول الألمان طوال اشهر الحرب ، وما كان يمكن أن يسمعه المرء من شاهدى العيان او يطالعه على صفحات الجرائد فى تحقيقات المراسلين او تعليقات راسمى الكاريكاتور . ومع ذلك فقد كان هذا هو ما ذكره بالتحديد .

– فريدريك . . . فلتهتم باعداد المائدة !

قالها ودلف فى صحبة الجنود الى الغرفة التى اشارت اليهـــا يليزافيتا الكسييفنا ، لتدوى ضحكاتهم واحاديثهم فى كل أرجـاء البيت .

وهمست ليوسيا :

– ماما . . . هل فهمت ؟ انهم يريدون دجاجا ، كما ويودون اشعال الموقد .

وردت الأم دون أن تغير من وقفتها وفى هدوء يفوق الحد :

– لقد فهمت كل شىء !

وخرج من الغرفة جندى متوسط العمر ، يبرز فكه الأسفل بشكل غير طبيعى ، وقد بدا من تحت طاقيته ندب بلغ حاجبه .

وتساءلت يليزافيتا الكسييفنا :

– هل تكون أنت فريدريك ؟

وذكر الجندى فى تجهم :

– فريدريك ؟ نعم . . . انا فريدريك !

— هيا بنا ، لتساعدنى فى حمل الحطب . أما البيض فسوف أحضره بنفسى .

وتساءل ، حيث لم يفهم شيئا :

— ماذا ؟

بيد أنها اشارت له بيدها وخرجت الى المدخل . وتبعها الجندى .

وذكر فولوديا دون ان يرفع ناظريه الى ليوسيا :

— آه . . . اغلقى الباب .

واغلقت ليوسيا الباب ، ظنا منها ان شقيقها يود أن يدلى اليها بشىء . بيد أنها وجدته ، حين عادت الى فراشه ، يرقد مغمض العينين فى صمت . وفى تلك اللحظة ظهر عند الباب ، ودون ان يطرقه ذلك العريف عاري الصدر يغطيه الشعر ، ويعلوه السواد ممسكا فى يده بصبانة بينما تدلت على كتفه منشفة ، متسائلا :

— اين الحوض ؟

واجابته ليوسيا :

— ليس لدينا حوض ، اننا نستخدم كوزا نصب منه كل للآخر ، فى الفناء .

— يالها من بربرية !

ونظر العريف الى ليوسيا فى مرح مباعدا بين ساقية فى حذائه ذى النعل السميك والذى علاه الاصفرار .

— ما اسمك ؟

— ليودميلا !

— ماذا ؟

— ليودميلا .

— لست افهمك . . . ليو . . . ليو

— ليودميلا .

— أوه Luise — لويزا — صاح العريف فى ارتياح ، ثم مضى يتساءل فى تقزز :

— كيف لك أن تتحدثى الألمانية ، وتغتسلين من كوز . — هذا سىء جدا .

ولم ترد ليوسيا .

وصاح العريف :

— وكيف تفعلون شتاء ؟ ها ها ! يا لها من بربرية ! فلتصبى على اى حال !

ونهضت ليوسيا لتخطو نحو الباب ، الا انه مكث واقفا عند الباب ، مباعدا بين ساقيه ، أسود الشعر ، يحدق النظر مبتسما الى ليوسيا فى صراحة متناهية .

وتوقفت أمامه منكسة الراس وقد اعتراها الخجل .

— ها . . . ها .

ولبث العريف واقفا برهة من الزمن ثم افسح لها الطريق .

وخرجا الى مدخل البيت .

وقد رقد فولوديا الذى كان يفهم حديثهما ، فى فراشه ، مغمض العينين ، يشعر بنبضات قلبه القوية تتردد فى كل اعماقه . آه . . . لو لم يكن مريضا ، لكان قد خرج يصب للعريف الماء بدلا من ليوسيا . لقد كان خبلا من مهانة ذلك الوضع الذى يعيش واسرته فيه اليوم ، يرقد فى فراشه وقد علا وجيب قلبه ، مغمضا عينيه حتى لا يفضح مشاعره .

لقد تعالى الى سمعه دبيب خطوات الجنود الالمان فى احذيتهم الثقيلة التى تنتشر المسامير فى نعالها ، يذرعون الردهة ذهابا الى الفناء وايابا منه . وقد سمع الأم تتحدث بصوتها الحاد فى المدخل . ثم تدخل الى المطبخ لتعود ثانية الى المدخل ، يتعالى وقع خطواتها . ودخلت ليوسيا الى الغرفة لتغلق الباب خلفها ، فقد حلت الأم محلها . وسرعان ما راحت تهمس الى شقيقها :

— فولوديا ! يا له من أمر رهيب ! لقد حطموا الاسوار فى كل مكان وداسوا الزهور ، وغصت الافنية بالجنود الذين راحوا ينظفون ملابسهم من القمل . وها هم يقفون كما ولدتهم امهاتهم يصبون بالدلو المياه كل على الآخر . لقد كاد الغثيان يصيب امنا .

وكان فولوديا يرقد مغمض العينين فى صمت .

وفى الفناء تعالى صياح احدى الدجاجات .

وذكرت ليوسيا فجاة بنبرة تتسم بالسخرية :

— انه فريدريك يذبح دجاجنا !

ودلف العريف الى الغرفة مرورا بالردهة حيث تعالى نخيره

واصوات اخرى متقطعة ، من المؤكد أنه كان يستخدم المنشفة فى مسح ما علق بجسمه من مياه . وبعد برهة من الوقت تعالى صوته الجهورى الذى ينم عن قوة وحب للحياة . لقد ذكرت له يليزافيتا الكسييفنا شيئا ، لتعود بعد قليل الى غرفة فولوديا تحمل اغطية فراش ملفوفة وضعتها فى زاوية الغرفة .

ونفذت حتى عبر الباب المغلق ، رائحة شواء ترامت من المطبخ . كما وتحولت الشقة الى مكان عام يشهد قدوم البعض ورحيل البعض الآخر . وتعالت الضحكات واللهجة الألمانية فى المطبخ والفناء ، وفى الغرفة التى كان يقيم بها العريف وجنوده .

وكانت ليوسيا ، التى تتميز بموهبة خاصة ازاء معرفة اللغات ، قد انكبت طوال سنة الحرب . وبعد تخرجها من المدرسة على دراسة اللغات الألمانية والانجليزية والفرنسية ، اذ كانت تحلم بالالتحاق بمعهد اللغات الأجنبية فى موسكو حتى تتمكن فيما بعد من الالتحاق بالسلك الدبلوماسى . كما واضحت على الرغم منها تسمع وتفهم كثيرا من أحاديث الجنود التى تتخللها النكات والكلمات النابية .

— آه . . . يا صديقى آدم . . . عظيم . ماذا تحمل يا آدم !

— دهن خنزير اوكرانى . اننى اود مشاطرتك اياه !

— رائع . هل لديك كونياك ؟ كلا ؟ فلنشرب اذن ، الفودكا الروسية ، عليك اللعنة — وقد قالها بالالمانية Hol's der Teufel!

— سمعنا أن هناك عجوزا فى نهاية الشارع يملك عسلا .

— سوف أرسل هانسن . يجب اغتنام هذه الفرصة ، فمن ذا الذى يعلم كم من الزمن سوف نقضى هنا ، وما سوف يحل بنا مستقبلا .

— وماذا سوف يحل بنا مستقبلا ؟ فى انتظارنا الدون وكوبان ؛ وربما الفولجا . وأوكد لك أن الحال هناك لن يكون اسوا من هنا .

— اننا هنا احياء على اقل تقدير !

— عليها اللعنة ، مناطق المناجم هذه ! ففيها الرياح والغبار او القاذورات ، وفيها ينظر كل امرىء اليك وكأنك ذئب تواجهه .

— واين رايتهم ينظرون اليك فى حنان ؟ ولماذا تظن انك تجلب اليهم السعادة ؟ ها . . . ها .

ودلف الى الردهة انسان راح يقول بصوت مخنث :

— هايل هتلر !

— اتفو . . . ياللشيطان ، انه بيتر فينبونج ! هايل هتلر ! آه verdammt noch mal — عليك اللعنة ، اننا لم نرك بعد فى مثل هذا الزى الاسود ! هيا . . . أرنا نفسك . فلتنظروا أيها الأخوة . . . بيتر فينبونج ! ياله من أمر . . . اننا لم نلتق منذ كنا على الحدود .

وعلا ذلك الصوت المخنث يقول فى سخرية :

— قد يظن المرء انكم تحرقتم شوقا لرؤيتى !

— بيتر فينبونج ! اية رياح حملتك الينا ؟

— فلتسأل من الأفضل ، الى أين ؟ لقد صدر لنا الأمر باحتلال هذه الحفرة .

— ما هى تلك الميدالية المعلقة على صدرك ؟

— اننى الآن روتينفوهرر !

— اوهوه . . . ليس عبثا أن تصبح بدينا الى هذا الحد . من المؤكد ان الغذاء فى وحدات «اس . اس .» افضل كثيرا .

— بيد أنه من المؤكد ما يزال كما فى الماضى ، ينام مرتديا زيه العسكرى ، ولا يغتسل ، مما يبدو واضحا من رائحته .

وعلا الصوت المخنث يقول :

— لا تمزح هكذا أبدا ، حتى لا تندم فيما بعد .

— معذرة يا عزيزى بيتر . اولسنا اصدقاء قدامى ؟ وماذا يتبقى للجندى ، اذا ما خطر عليه المزاح ! كيف وصلت الينا ؟

— اننى أبحث عن شقة .

— أوتبحث أنت عن شقة ؟ انكم دائما تحظون بأفضل المساكن .

— لقد قمنا باحتلال المستشفى ، ذلك المبنى الضخم . بيد أننى فى حاجة الى شقة .

— اننا سبعة فى هذا المسكن .

— هذا ما اراه — كما فى علبة السردين .

— نعم ، انك تسير نحو المجد . ومع ذلك ، عليك الا تنسى رفاقك القدامى . فلتزرنا طالما نحن هنا .

وتمتم الرجل ذو الصوت المخنث ببعض الكلمات ، انفجر فى اثرها الحاضرون ضاحكين . وخرج يجرجر قدميه فى تثاقل .

— يا له من انسان غريب الأطوار هذا البيتر فينبونج !

— غريب الأطوار ؟ انه يبحث عن المجد ، وهو محق فى ذلك .

— اورأيته مرة واحدة فى حياتك ، ولن اقول عاريا ، بل فى ملابسه الداخلية ؟ انه لا يغتسل ابدا .

— انني اشك فى اصابته بمرض جلدى ، يخجل ان يراه احد فريدريك ، الم يحن الوقت بعد ؟

واجاب فريدريك فى تجهم :

— انني فى حاجة الى ورقة غار لاضافتها الى الطعام .

— او تظن ان النهاية قريبة ، وتود ان تنسج لنفسك اكليلا من الغار ؟

وذكر فريدريك فى كآبة :

— لن تكون هناك نهاية ، لاننا نقاتل العالم باسره .

وكانت يليزافيتا الكسييفنا تجلس الى جوار النافذة متكئة بمرفقها الى اسفل النافذة مستغرقة فى التفكير ، تتراءى امامها ارض فسيحة قفرة تغمرها اشعة الشمس المائلة نحو الغروب . وعند اطراف تلك المساحة كان يبدو مبنيان من الآجر منعزلان عن بعضهما البعض ، احدهما — مدرسة فوروشيلوف ، والآخر ، ويصغر المبنى الأول — مستشفى الأطفال . وكان المبنيان خاليين ، حيث جرى اخلاؤهما . وفجأة نادت يليزافيتا الكسييفنا وهى تستند بفودها الى زجاج النافذة :

— ليوسيا . . . فلتنظرى ، ما هذا ؟

وهرولت ليوسيا نحو النافذة . كان رتل من الناس يقطع الطريق عبر تلك الارض الفضاء ، على مقربة من هذين المبنيين . ولم تدرك ليوسيا فى البداية من يكونون اولئك الناس . رجال ونساء فى ملابس داكنة اللون ، عاريو الرؤوس يتقدمون فى عناء ، بينما يتوكأ آخرون على عكاكيز وكذلك مجموعة ثالثة تسير بالكاد ، ومع ذلك تحمل على النقالات بعض المرضى او الجرحى . وكانت

النسوة يغطين رؤوسهن بمناديل بيضاء ، ويرتدين معاطف بيضاء ، وكذلك المواطنون والمواطنات فى ملابسهم العادية يسيرون محملين بالصرر الثقيلة على اكتافهم . وكان ذلك الرتل البشرى يمتد من تلك الناحية من المدينة التى لم تكن من الممكن رؤيتها من النافذة . وقد راح هؤلاء يتجمعون امام المدخل الرئيسى لمستشفى الأطفال ، حيث كانت امرأتان فى معطفيهما الأبيضين تحاولان فتح الباب .

وذكرت ليوسيا وهى تلتفت الى شقيقها :

— انهم مرضى مستشفى المدينة . لا ريب انهم طردوا من هناك . هل تسمعنى ؟ هل فهمت ؟

واجاب فولوديا بنبرة تعكس ما يجيش بنفسه من اضطراب :

— نعم . . . نعم ، سمعتك . لقد فكرت على الفور فى ماذا سوف يحل بالجرحى ؟ لقد كنت ارقد بينهم فيما قبل . ان ثمة جرحى كانوا يرقدون هناك .

ومكثت ليوسيا ويليزافيتا الكسييفنا تراقبان لبعض الوقت عملية انتقال المرضى ، وتهمسان بما تشاهدانه الى فولوديا ، حتى شغلهما عن ذلك ضجيج الجنود الألمان . فقد تجمع فى غرفة العريف ، وحسبما تدل الأصوات على ذلك ، ما لا يقل عن عشرة او اثنى عشر شخصا . وعلى اى حال ، فقد كان البعض يخرج ، ليدخل البعض الآخر . وقد بدأوا فى تناول طعامهم اعتبارا من السابعة ، وها هو الظلام يسدل ستائره بينما هم ما يزالوا ياكلون ، كما وما يزالوا يشوون شيئا فى المطبخ . وكان يتعالى بالردهة وقع اقدام الجنود ، يذرعونها فى أحذيتهم الثقيلة ذهابا وايابا . ومن غرفة العريف ترامت الى الاسماع اصوات قرقعة كئوس وانخاب وضحكات . وكانت احاديثهم تحتدم تارة ، وتخف اخرى حين يظهر طبق جديد ، كما وبدأت أصواتهم تتخذ نبرات السكارى .

وكان الجو خانقا فى الحجرة التى يقيم بها اهل البيت ، حيث ترامت الحرارة والدخان من المطبخ ، ومع ذلك فلم يتجاسروا على فتح النافذة . علاوة على انهم واستنادا الى اتفاق بلغوه صمتا ، فلم يضيئوا المصباح على الرغم من ان الظلمة قد تسللت الى الغرفة .

كان ظلام احدى ليالى يوليو يسدل ستائره ، بينما ظلوا جالسين

فى اماكنهم دون أن يهيئوا اماكن نومهم ، او يتجاسروا على ذلك . ولم يكن ثمة ما يمكن تمييزه عبر النافذة فى تلك الأرض الخلاء ، ولم يكن باديا سوى قمة التل الطويل داكنة اللون على اليمين ، بما عليها من مبنى اللجنة التنفيذية للمنطقة ، ومبنى «النبيل المسعور» فيما تبدو السماء من خلفها ناصعة بعض الشىء .

وراح الجالسون فى غرفة العريف يترنمون بالأغانى ، على نحو يدل على انهم ليسوا مجرد سكارى ، بل المان سكارى . . . أصوات خافتة غاية فى التشابه ، تتسم بتوتر بالغ ، مبحوحة ، حيث كانوا يؤدون الغناء بصوت منخفض وعال فى آن واحد . وقد تعالت ثانية قرقعة الكئوس ، ثم الأغانى ، ليعودوا الى تناول الطعام ، وليسود الهدوء فى تلك اللحظات .

وفجاة ترامى الى الاسماع وقع احذية ثقيل بالردهة ، يدنو من باب غرفة أصحاب المسكن ، حيث توقف ذلك القادم يتنصت السمع فيما وراء الباب .

وتعالى صوت اصبع يطرق الباب بقوة . واشارت يليزافيتا الكسييفنا بعدم فتح الباب وكانهم قد لزموا مخادعهم . وتعالى الصوت من جديد ، ثم راح الطارق بعد بضع ثوانى يقرع الباب بقبضة يده بقوة ، لينفتح الباب على مصراعيه ، وتبدو منه رأس العريف السمراء الذى تساءل بالروسية :

— من هنا ؟ يا صاحبة البيت !

ونهضت يليزافيتا الكسييفنا من مقعدها متوجهة نحو الباب ؛ وتساءلت بصوت خافت :

— ماذا تريد ؟

واجاب :

— اننى وجنودى نطلب منكم ان تتناولوا معنا قليلا من الطعام . انت ولويزا . قليلا . وكذلك الصبى ! يمكنكما ان تحضراه معكما . قليلا .

وذكرت يليزافيتا الكسييفنا :

— لقد تناولنا طعامنا ، ولا نريد الاكل .

— اين لويزا ؟

تساءل العريف ، دون أن يفهم ما قيل ، بينما يمضغ بقية

طعام ، تفوح منه رائحة الفودكا . ثم قال وتعلو الابتسامة وجهه :

— لويزا . . . اننى اراك . اننى وجنودى نطلب منك أن تتناولى معنا قليلا من الطعام . . . ومن الشراب ، ان لم يكن لديك اعتراض .

وذكرت ليوسيا :

— ان شقيقى فى حالة غير طيبة ، ولست بقادرة على تركه وحيدا .

— لعلكم تريدون رفع الأوانى عن المائدة ؟ هيا بنا ، اننى سوف اساعدكم . . . هيا !

واذ امسكت يليزافيتا الكسييفنا بكم العريف ، خرجت معه الى الردهة ، مغلقة الباب خلفها .

كان الدخان الخانق الأزرق المشوب بالصفرة يملأ كل ارجاء المطبخ والردهة والغرفة ، حيث اقيمت الوليمة . وفى خضم ذلك الدخان كانت تتراقص اشعة صفراء لأضواء تنبعث من مصابيح مستديرة صنعت من علب صفيحية مملوءة بالدهن والشحوم ، لتبدو وكانما فى طريقها الى الزوال . وكانت هذه القناديل البدائية موضوعة على المائدة ، واسفل النافذة فى المطبخ ، وكذلك فى اعلى المشجب المعلق بالردهة ، وعلى المائدة فى الغرفة التى غصت بالجنود الألمان وحيث دخلت يليزافيتا الكسييفنا برفقة العريف .

كان الألمان قد جلسوا حول المائدة التى وضعت قريبا من السرير كانوا يجلسون متلاصقين على السرير وعلى المقاعد ، والكراسى ، بينما اتخذ فريدريك عبوس الوجه ، مكانه فوق كتلة الخشب التى يجرى عليها عادة تكسير الحطب . وكانت هناك على المائدة بضع زجاجات من الفودكا ، وكثير من الزجاجات الفارغة التى استقرت ايضا تحت المائدة وفى أسفل النافذة . كما وكانت المائدة تغص بالأطباق الفارغة وعظام ضان ودجاج ، وبقية خضروات وفتات خبز .

وكان الألمان قد خلعوا ستراتهم ، ليبدون فى قمصانهم غير النظيفة ، مفتوحة الياقات ، تفوح منهم رائحة العرق ، ويكسو الشعر اجسادهم ، فيما كانت سواعدهم حتى المرافق ملوثة بالدهون .

وزار العريف :

— فريدريك ! لماذا تجلس هكذا ؟ أو لا تعرف كيف من الواجب احاطة امهات الحسان بالرعاية والاهتمام ! وانفجر ضاحكا على نحو اكثر بذاءة ومرحا مما كان يفعل قبل ان يغدو مخمورا ، ليضحك كل من بالغرفة .

واذ راود يليزافيتا الكسييفنا شعور بانهم يضحكون سخرية منها ، وتوقعت ان يكون العريف قد تفوه بما هو اسوأ مما قاله ، شرعت فى صمت تجمع بقايا الطعام من على المائدة فى اناء فارغ قذر وقد علت امارات الغضب والشحوب وجهها .

وتساءل جندى شارب تعلو الحمرة وجهه ، وتلعب الخمر برأسه ، فيما تناول على نحو اخرق زجاجة الفودكا من على المائدة ، وشرع يجول بناظرية بحثا عن كوب فارغ ، ليملأ فى نهاية الأمر كوبه :

— أين ابنتك لويزا ؟ فلتشربى معنا . ولتدعيها الى هنا ! ان الجنود الالمان يطلبونها . يقال أنها تعرف الالمانية . فلتعلمنا الاغانى الروسية .

ولوح بيده التى كانت تمسك بزجاجة الفودكا ، ثم بدأ يغنى بصوت عريض وقد جحظت عيناه :

فولجا ... فولجا ، يا امنا الحبيبة
فولجا ... فولجا ، يا نهرنا الروسى ...

ونهض من مكانه وهو يشير كالمايسترو بالزجاجة التى سالت منها الفودكا على الجنود والمائدة والسرير . وقهقه العريف الأسمر ، ثم شرع بدوره فى الغناء ، يحذو حذوه كل الباقين فى أصوات كريهة .

وصاح المانى بدين ، مبلل الحاجبين محاولا ان يسود صوته أصوات الآخرين :

— اننا سوف نصل الفولجا . فولجا ... فولجا ، يا نهرنا الالمانى ! Deutschlands Fluss هكذا يجب الغناء !

ودفع الى المائدة بشوكة فى يده بقوة وعلى نحو يود ان يكون

اشارة لتاكيد كلماته والافصاح عن ذاته ، مما جعل أسنانها تلتوى .

وقد استغرق الالمان فى الغناء لدرجة لم يلحظوا معها يليزافيتا الكسييفنا حين خرجت تحمل الاناء المملوء ببقايا الطعام الى المطبخ . وقد رغبت فى تنظيف الاناء ، الا انها لم تجد ابريق المياه الساخنة على الموقد والذى عادة يضعونه لاعداد الشاى . وهنا ورد بخاطرها ... انهم الآن لا يحتسون الشاى .

واذ فرغ فريدريك من عمله أمام الموقد ممسكا فى يده بمزقة من القماش ، خرج من المطبخ يحمل مقلاة مملوءة بقطع اللحم الضان التى تسبح فى الدهن . وهنا توارد الى ذهنها أنهم من المؤكد قاموا بذبح خروف آل سلوتوف ، بينما راحت تصيخ السمع الى تلك الأصوات النشاز المخمورة التى تترنم بالالمانية بأغنية الفولجا القديمة . غير ان ذلك ، كسائر كل ما جرى فيما حولها ، لم يكن يؤثر فيها لأن معيار المشاعر والتصرفات الانسانية الذى كان يحكم سلوكها وسلوك طفليها فى اطار الحياة العادية لم يكن ليصلح للحكم على ما تحفل به هذه الحياة التى راحوا يعيشونها فى ظل ما يجرى . لقد كانوا يعيشون فى عالم غريب كل الغرابة عن عالم العلاقات البشرية المالوف ، لدرجة بدا معها وكأنما هو عالم وهمى ، يجبرهم على التعامل معه سلوكا وفكرا . وثمة من كان يظن ان المرء ليس فى حاجة سوى الى أن يفتح عينيه ليتبدد ذلك الوهم .

ودلفت يليزافيتا الكسييفنا فى هدوء الى غرفة فولوديا وليوسيا . وكانا يتهامسان ، ليكفا عن ذلك بمجرد ظهورها . وذكرت يليزافيتا الكسييفنا :

— أوليس من الافضل أن تعدى فراشك وتخلدى الى النوم ؟ لعل من الأجدى أن تنامى !

وأجابت ليوسيا بصوت خافت :

— اننى اخاف النوم .

وفجأة ذكر فولوديا الذى نهض قليلا من فراشه نحيفا ، تغطيه الملاءات البيضاء ، متكئا بيديه ، يلف الضباب ناظريه :

– انني ساقتله ذلك الكلب ، اذا ما حاول مرة أخرى . . . نعم ، ساقتله وليحدث ما يحدث !

وفى تلك اللحظة تعالى مرة اخرى صوت الباب يطرق ، لينفتح بطيئا بطيئا ، وليظهر العريف مرتديا قميصا دست أطرافه فى سرواله وممسكا فى يده بقنديل راح يلقى باشعته المتراقصة على وجهه الاسمر البدين . وتوقف يحدق النظر فى فولوديا الجالس فى فراشه ، وفى ليوسيا التى استقرت على مقعدها قريبا من قدمى اخيها . ثم قال فى رصانة :

– لويزا ! ينبغى عليك الا تحتقرى أولئك الجنود المعرضين كل يوم وكل ساعة لان يلقوا حتفهم ! اننا لن نسىء اليك . ان الجنود الالمان ، اناس نبلاء . . . ويمكننى القول ، انهم فرسان . اننا نرجو ان تشاطرينا مجلسنا ، ليس الا .

وذكر فولوديا وهو ينظر اليه فى حقد وكراهية :

–اغرب عن وجهنا !

وذكر العريف فى مودة :

– اوه . . . انك فتى طيب اقعده المرض للأسف !

ولم يستطع العريف فى تلك الظلمة تبين وجه فولوديا ، كما ولم يفهم ما قاله .

وليس ثمة من كان قادرا على التنبؤ بما قد يحدث فى تلك اللحظة ، الا ان يليزافيتا الكسييفنا تقدمت الى ابنها بسرعة لتحتضنه وتضم وجهه الى صدرها ، وترقده فى فراشه قسرا ، بينما تهمس الى اذنه بشفتيها الجافتين الدافئتين :

– اسكت ، اسكت !

وذكر العريف المخمور الذى كان يترنح عند الباب فى قميصه ، الذى برز من تحته صدره كثيف الشعر ، ممسكا بالقنديل فى يده :

– ان جنود جيش الفوهرر فى انتظار اجابتك يا لويزا !

وقد كانت ليوسيا تجلس شاحبة اللون لا تدرى اجابة .

ونهضت يليزافيتا الكسييفنا الى العريف تقول له وهى تومىء برأسها :

– حسنا . . . حسنا جدا : جوت ! انها سوف تاتى حالا . .

هل فهمت ؟ فيرشتين ؟ سوف تغير ملابسها وتاتى . – واشارت بيديها وكانما تشرح له بالحركة ما قالته .

وذكرت ليوسيا بصوت مشوب بالرعشة :

– ماما . . .

وذكرت يليزافيتا الكسييفنا وهى تومىء برأسها وتدفع العريف الى خارج الغرفة :

– فلتسكتى اذن ، طالما لم يهبك الله عقلا !

وخرج العريف . وتعالت بالردهة الأصوات والضحكات وقرع الكئوس . وصار الالمان يغنون من جديد باصواتهم العريضة المتشابهة :

فولجا ... فولجا ! يا امنا الحبيبة !

وسرعان ما تقدمت يليزافيتا الكسييفنا الى صوان الملابس ، وادارت المفتاح فى بابه ، وهمست قائلة :

– ادخلى . . . سوف اغلق الباب عليك . هل تسمعينى ؟

– كيف . . .

– سنقول انك خرجت الى الفناء . . .

وتكومت ليوسيا فى الصوان ، لتغلق الأم بابه بالمفتاح الذى وضعته اعلاه .

انخرط الألمان فى صخب . وخيمت الظلمة الحالكة ، بحيث لم يعد ممكنا عبر النافذة التمييز بين مبنيى المدرسة ومستشفى الأطفال والتل الطويل ، وبين مقر اللجنة التنفيذية للمنطقة وبيت «النبيل المسعور» ؛ ولم يكن هناك سوى بصيص من ضوء تسلل من الردهة عبر باب الغرفة الى الداخل . وفكرت يليزافيتا الكسييفنا «يا الهى . هل يكون كل هذا حقيقة واقعة ؟»

وفرغ الألمان من الغناء ، ليتجادلوا فيما بينهم فى مرح . واندفع الجميع ضاحكين يهاجمون العريف ، بينما راح يحاول التملص منهم بصوت مبحوح يتسم بالمرح ، كجندى لا تعرف روحه الشجن ابدا .

وها هو يعود ثانية ليظهر عند الباب ممسكا فى يده بالقنديل .

– لويزا ؟

واشارت يليزافيتا الكسييفنا قائلة :

— لقد خرجت الى الفناء . . . الى الفناء .

وخرج العريف مترنحا الى المدخل ممسكا فى يده بالقنديل ، فيما تعالى وقع خطواته . وترامت الى الاسماع تلك الجلبة التى واكبت هبوطه السلم المفضى الى الفناء . واذ فرغ الجنود من تبادل الاحاديث بعض الوقت ، توجهوا الى الفناء كذلك تعلو ضحكاتهم ووقع خطواتهم فى الردهة وعند المدخل . وخيم على المكان هدوء لم يقطعه سوى ضجيج ارتطام اوانى كان يرفعها فريدريك بالغرفة المجاورة . وترامى الى الاسماع كيف كان الجنود يتبولون بالفناء الى جوار المدخل مباشرة وسرعان ما عاد بعضهم ثانية فى صخب وجلبة . ولم يظهر العريف بعد ، الا ان دبيب خطواته ترامى فى نهاية الأمر الى الاسماع على السلم وفى المدخل . وانفتح الباب ، ليظهر العريف ، بدون القنديل فى هذه المرة يلفه ضوء خافت والدخان المنبعث من المطبخ . وراح يهمس مناديا :

— لويزا . . .

وظهرت يليزافيتا الكسييفنا قبالته كما الظل تقول :

— كيف هذا ؟ ألم تجدها ؟ انها لم تعد بعد . . . انها غير موجودة .

واخذت تومىء برأسها وتشير بيدها علامة النفى .

وجال العريف بناظريه اللذين لم يكونا يريان شيئا فى الغرفة .

— مو . . . و . . . . و .

وزار فجأة على نحو يوحى بكونه مخمورا غاضبا ، فيما ركز عينيه العكرتين السوداوين على يليزافيتا الكسييفنا . وفى ذات اللحظة وضع يده الكبيرة التى تعلوها الدهون على وجهها ثم قبض اصابعه على نحو كاد يفقا معه عينيها ودفعها بعيدا ، ليغادر الغرفة مترنحا . وهنا سارعت يليزافيتا الكسييفنا باغلاق بابها بالمفتاح .

وظل الالمان يعيشون جلبة وصخب المخمورين حتى غلبهم النوم دون ان يطفئوا الأنوار .

ومكثت يليزافيتا الكسييفنا قابعة مكانها فى صمت الى جوار فولوديا الذى لم يغمض له جفن . لقد كانا يعانيان انهاكا معنويا

لا يطاق ، ومع ذلك فلم يكن النوم يراودهما . وانتظرت يليزافيتا الكسييفنا بعض الوقت ثم افرجت عن ليوسيا . وهمست ليوسيا فى اضطراب .

— لقد كدت اختنق ، وها هو ظهرى ، وحتى شعرى يتصببان عرقا . — ثم مضت تقول وكأنما بعثت هذه المغامرة فيها شيئا من الحيوية :

— انني سوف افتح النافذة فى هدوء ، حيث اكاد اختنق .

وفى هدوء فتحت النافذة القريبة من السرير واطلت برأسها الى الخارج . كان الجو خانقا ، لكنه بدا رطبا عقب تلك الحرارة التى كانت تسود الغرفة ، وبعد كل ما حفل به المنزل من احداث . كما وخيم الهدوء على المدينة ، وكأنما لم تكن تلك المدينة موجودة ، ولا يوجد هناك سوى ذلك البيت الصغير ، حيث يغط الالمان فى نومهم ، يتوسط تلك الارض الفضاء التى يلفها الظلام الحالك . وفجأة ، تعالى وميض نيران هناك فى الناحية الأخرى للمزلقان عند الحديقة العامة ، ليمزق ظلام السماء وكل الأرض الفضاء والتل ومبنيى المدرسة والمستشفى . وماهى الا لحظة اخرى ، حتى تعالى وميض آخر اكثر قوة ليعلن كل شيء فى هذا الظلام عن نفسه ، حتى الغرفة غمرها الضياء لحظة من الزمن واعقب ذلك شيء ليس أشبه بالانفجارات ، بل اهتزازات هوائية لا صوت لها وكأنما نتيجة انفجارات وقعت بعيدا ، يتوالى كل منها الواحد تلو الآخر فوق هذه الأرض الخلاء ، ليعم الظلام من جديد .

وتساءلت يليزافيتا الكسييفنا بنبرة تعكس خوفها :

— ما هذا ؟ ما هذا ؟

حتى فولوديا نهض من مكانه بعض الشيء .

وراحت ليوسيا تحدق النظر وقد انقبض قلبها بشكل غريب فى الظلام الحالك ، نحو تلك الجهة التى تراءى بها ذلك الوميض . وكان ثمة وهج لهيب لا يرى تارة ضعيفا ، واخرى متناميا ، يتراقص هناك فوق التل يمزق الظلام الذى يلف سقفى اللجنة التنفيذية للمنطقة ومنزل «النبيل المسعور» أحيانا ، وينحسر عنهما احيانا اخرى . وفجأة تتعالى هناك ، حيث مصدر ذلك الوهج

الغريب ، السنة اللهيب عالية لتصبغ السماء بلون أرجواني ، وتلقي باضوائها على المدينة بأسرها والارض الفضاء ، وكذلك الغرفة لدرجة غدا ممكنا معها رؤية كل ما بها من أثاث وبشر .

والتفتت ليوسيا الى الداخل تصيح :

— حريق !

وكان صوتها يحمل نبرة المنتصر على نحو غير مفهوم . وقد عادت ثانية تتامل السنة اللهب العالية .

وذكرت يليزافيتا الكسييفنا فى خوف :

— اغلقى النافذة !

واجابت ليوسيا وقد اصابتها الرجفة ، وكانما بتاثير برودة الجو :

— ليس هناك من يرانا .

ولم تكن تعرف ماهية ذلك الحريق وكيفية اندلاعه . بيد ان ذلك اللهيب العنيف الذى ارتفع عاليا يحمل فى طياته سمة انتصار ، كان يحمل شيئا يزيح عن الارواح ما علق بها ، ويعنى امرا ساميا رهيبا . ولم ترفع ليوسيا عينيها عنه ، بينما كان يغمرها بضوئه .

وقد انتشر وهج الحرائق يخيم ليس فقط فوق وسط المدينة ، بل وعلى مسافات بعيدة فيما حوله . ولم يكن بنائى المدرسة ومستشفى الأطفال هما فقط اللذان قد ظهرا كما فى وضح النهار ، بل ومناطق المدينة البعيدة الملاصقة للمنجم رقم ١ فيما وراء الأرض الفضاء . وشكلت تلك السماء الأرجوانية اللون واضواء الحريق فوق اسقف المبانى والتل لوحة خيالية اسطورية ، وكذلك عظيمة فى آن واحد .

وغدا واضحا ان المدينة بأسرها قد استيقظت من سباتها . فقد ترامت الى الاسماع حركة الناس فى وسط المدينة ، وكذلك بعض الأصوات والصيحات وهدير محركات عربات النقل . واستيقظ الألمان وتعالت جلبتهم فى الشارع الذى كان يقطن به آل اوسموخين ، وفى فنائهم . وتعالى نباح الكلاب ، متناسية رعب الامس — ويبدو انهم لم يجدوا متسعا من الوقت لقتلها كلها .

ولم يكن هناك سوى الألمان المخمورين النائمين فى الغرفة المواجهة ، لا يسمعون شيئا .

وقد استمر تاجج النيران ما يقرب من ساعتين ، لتخف فيما بعد شيئا فشيئا . وعادت الظلمة تلف من جديد مناطق المدينة البعيدة والتلال . ولم تكن هناك غير ومضات أخيرة متفرقة كانت تكشف فى بغض الأحيان قمة التل تارة ، ومجموعة الاسقف تارة اخرى ، وهضبة مخروطية الشكل داكنة اللون تارة ثالثة . بيد ان السماء ظلت فوق الحديقة العامة أرجوانية اللون الذى يبهت حينا ، لينصبغ حينا آخر ، وليظهر واضحين ولفترة طويلة مبنيا اللجنة التنفيذية للمنطقة و«النبيل المسعور» فوق التل . الا ان الظلمة بدات تعودهما تدريجيا ، الى ان غرقت كل الأرض الفضاء فى خضم الظلمة الحالكة .

أما ليوسيا فقد لزمت مكانها الى جوار النافذة ، تنظر فى اضطراب الى ناحية الحريق . كما ولم ينم فولوديا ، ويليزافيتا الكسييفنا .

وفجاة تراءى امام ناظرى ليوسيا وكانما قطة قد قفزت فى الأرض الفضاء الى يسار النافذة ، وترامى الى سمعها حفيف غير بعيد عن البيت . كان ثمة من يحاول القفز الى النافذة . وتراجعت ليوسيا الى الوراء فى حركة غريزية تراودها رغبة صفق النافذة . بيد ان همسا تعالى ، جعلها تتوقف عن ذلك . لقد كان هناك من يناديها باسمها :

— ليوسيا . . . ليوسيا . . .

وتجمدت مكانها .

— لا تخفى . . . اننى تيولينين .

وبدا رأس سيريوجكا الذى لم يكن شىء يغطى شعره الأجعد الكث على مستوى اسفل النافذة .

وسالها :

— هل لديكم المان ؟

وهمست ليوسيا وهى تنظر فى خوف وفرح الى عينى سيريوجكا الضاحكتين الجسورتين :

— نعم لدينا ، وانتم ؟

– ليس لدينا بعد .
وتساءلت يليزافيتا الكسييفنا وقد صعقها الرعب .
– من هذا ؟
وكشف وهج الحريق البعيد وجه سيريوجكا لتتعرف عليه يليزافيتا الكسييفنا ، وكذلك فولوديا .
وتساءل سيريوجكا وقد اتكأ ببطنه على أسفل النافذة :
– أين فولوديا ؟
– انني هنا .
– ومن بقي غيرك ؟
– توليا اورلوف . ولست أدرى غير ذلك ، حيث انني الازم الفراش بعد عملية الزائدة الدودية .
وذكر سيريوجكا :
– لقد بقي هنا فيتكا لوكيانتشينكو وليوبكا شيفتسوفا . وقد شاهدت كذلك ستيوبكا سافونوف من مدرسة جوركى .
وساله فولوديا :
– واية صدفة ساقتك الينا ؟ وليلا ؟
– لقد كنت أشاهد الحريق من الحديقة العامة ، ثم رحت عبر بيوت شانغهاى الصغيرة اتلمس طريقى نحو البيت حيث شاهدت من الوهدة نافذتكم مفتوحة .
– وما الذى كان يحترق ؟
– مبنى المؤسسة .
– أحقا ذلك ؟
– لقد تمركزت به رئاسة اركانهم ، ومنه كانوا يتقافزون فى سراويلهم الداخلية .
وضحك سيريوجكا بصوت خافت . وتساءل فولوديا :
– هل تظن أن هناك من أضرم النار ؟
وصمت سيريوجكا فيما برقت عيناه فى الظلمة كما القطة ، ثم قال ضاحكا :
– لا شك أنه لم يحترق من تلقاء نفسه .
ثم سأله فجأة :
– كيف تنوى الاقامة ؟

– وانت ؟
– وكانك لا تعرف كيف !
وذكر فولوديا بارتياح :
– كم انا . . . كم أنا سعيد بك . هل تعلم . . . كم انا سعيد !
وذكر سيريوجكا فى غير ما رغبة ، حيث لم يكن يحب الاعترافات العاطفية :
– وانا كذلك . هل الالمان الموجودون عندكم شريرون ؟
– لقد ظلوا يسكرون طوال الليل ، والتهموا كل دجاجنا .
وقد ذكر هذا ، ليبدو فى نفس الوقت وكأنما يشعر بالفخر ازاء سيريوجكا ، من كونه قد عرف الالمان بنفسه . بيد انه لم يذكر ان العريف كان يغازل شقيقته قسرا .
وذكر سيريوجكا فى هدوء :
– هذا يعنى أن الأمر هين . لقد تمركز رجال «اس . اس» بالمستشفى ، حيث كان باقيا حوالى اربعين جريحا قادوهم جميعا الى دغلة فيرخنيدوفانايا حيث اطلقوا عليهم رشاشاتهم . اما الطبيب فيودور فيودوروفيتش ، فقد تصدى لهم حين راحوا ينقلون الجرحى ، حيث لم يصبر على ذلك ، مما دفعهم الى اطلاق النار عليه فى مكانه بالردهة .
وذكر فولوديا وقد قطب جبينه :
– آه . . . يا للشيطان !كم كان انسانا عظيما . لقد كنت مريضا عنده .
وذكر سيريوجكا :
– ان امثاله قلة .
وذكرت يليزافيتا الكسييفنا فى انين خافت :
– ماذا سوف يحل بنا يا الهى !
– وقال سيريوجكا .
– سامضى سريعا قبل أن ينبزغ الفجر . وسوف نكون على اتصال فيما بيننا .
ونظر الى ليوسيا مشيرا بيده على نحو ينم عن تانق قائلا :
– اوفيدرزين !

فقد كان يعلم ولعها باللغات الاجنبية .
وانزلق جسده النحيف الذى ينم عن مهارة وجسارة لتلفه الظلمة ، ويغدو اثرا بعد عين .

الفصل التاسع عشر

كان اكثر ما يثير الدهشة كونهما قد اتفقا بهذه السرعة . فقد ذكر سيريوجكا وهو يقف عند قدميها حابسا أنفاسه :
– كيف تستطيعين ايتها الفتاة القراءة ؟ ان الالمان يدخلون كراسنودون . الا تسمعين هدير السيارات يتعالى من ناحية فيرخنيدوفاتايا ؟
ونظرت اليه فاليا فى صمت تعلو وجهها امارات الدهشة والهدوء والسعادة ؛ ثم سالته :
– الى اين هربت ؟
وارتبك لحظة من الزمن . كلا . . لا يمكن ان تكون هذه الفتاة شخصا غير جيد .
– اود الصعود الى سقف مدرستكم لاستطلاع ما سوف يسفر عنه ذلك .
– وكيف سوف تفعل ذلك ؟ هل زرت مدرستنا فيما سبق ؟
وذكر سيريوجكا انه زارها مرة واحدة منذ عامين لحضور امسية ادبية ، ثم مضى يقول :
– اننى لن اعجز عن ذلك .
وذكرت فاليا :
– لكن الالمان قد يحتلون المدرسة بالدرجة الاولى .
واجابها سيريوجكا :
– اننى سوف انزل الى الحديقة العامة بمجرد رؤيتهم قادمين نحوها .
وذكرت فاليا وهى تستوى جالسة مكانها تسوى شعرها وبلوزتها :
– انه من الافضل الصعود الى اعلى الجمالون ، حيث يمكن رؤية كل شىء دون ان يراك احد . انى اعلم كيفية الوصول الى هناك وسوف ادلك عليها .

وفجاة داخلت الحيرة نفس سيريوجكا بعض الشىء ، ليقول :
– ان الامر يكمن فى ضرورة القفز من الطابق الثانى ، اذا ما دخل الالمان المدرسة .
واجابت فاليا :
– وماذا عسانا ان نفعل .
– وهل تستطيعين ذلك ؟
– وهل هذا سؤال . .
ونظر سيريوجكا الى ساقيها المتينتين اللتين لفحتهما الشمس وعلاهما الشعر الذهبى الخفيف ، ليغدو على يقين من انها قادرة ، بطبيعة الحال على القفز من الطابق الثانى .
وها هما يهرولان سوية يقطعان الحديقة العامة نحو المدرسة .
وكانت المدرسة الكبيرة ذات الطابقين من الطوب الآجر ، والفصول المضيئة ، وقاعة الرياضة الفسيحة تقع الى جوار المدخل الرئيسى للحديقة العامة وفى مواجهة مبنى مؤسسة «فحم كراسنودون» . وقد كانت مغلقة ، لا يسكنها احد . بيد ان سيريوجكا ، وانطلاقا من اهداف نبيلة ، لم يكن يرى عيبا فى تكسير بعض افرع الاشجار ليستعين بها فى تحطيم زجاج احدى نوافذ الطابق الارضى المطلة على اعماق الحديقة العامة .
وقد انقبض قلباهما حين راحا يعبران احد الفصول على اطراف اصابعهما فى اتجاه ردهة الدور الارضى . وكان الهدوء يخيم تماما على ذلك المبنى فسيح الارجاء ، بحيث تعالى اى حفيف بسيط مدويا كمن يمزق السكون . وقد شهدت الايام القليلة الماضية تغييرات كثيرة فى كل مكان ، وفقد كثير من المبانى كسائر كثير من البشر وظيفته واهميته السابقة ، دون ان يجد بعد بديلا لهما . بيد ان هذا المبنى كان رغما عن ذلك تلك المدرسة التى كان يتعلم بها الاطفال ، تلك المدرسة التى امضت بها فاليا كثيرا من ايام حياتها الناصعة .
ووقع نظرهما على باب معلقة عليه لوحة صغيرة كتب عليها «غرفة المدرسين» ، وباب آخر – «غرفة الناظر» ، وابواب اخرى : «غرفة الطبيب» ، «غرفة علم الفيزياء» ، «غرفة الكيمياء» ، «المكتبة» .

نعم . . لقد كانت المدرسة التى شهدت تعليم المدرسين للاطفال المعارف وانماط الحياة .

وهبت من هذه الفصول المقفرة وقماطر الدراسة العارية ، والمبانى التى ما زالت تحمل رائحة المدرسة المميزة ، رياح تغمر سيريوجكا وفاليا ، لتنقلهما الى ذلك المحيط الذى شهد طفولتهما وغدا بالنسبة لهما جزءا ينتزع ، بينما يفارقهما اليوم ، والى الابد على ما يبدو . وها هو فجاة يصادفهما عالما رائعا مفعما بالعلاقات النقية الصافية التى تتسم بالصراحة بين المدرس وتلميذه . اين هم اليوم . . من كان يعلّم ومن كان يتعلّم ، واين شتتهم الاقدار ؟

وانشرح قلبا سيريوجكا وفاليا للحظة من الزمن مفعمان بالحب والاجلال المبهم والقدسية السامية لذلك العالم الراحل الذى لم يقدراه فى حينه حق تقدير .

لقد كان كلاهما يعيش ذات المشاعر التى يعيشها الآخر ، وكانا يدركان ذلك دونما حديث ؛ كما وجعلتهما هذه اللحظات قريبين من بعضهما البعض الى حد غير معقول .

وتقدمت فاليا سيريوجكا عبر سلم داخلى ضيق يؤدى الى الطابق الثانى ، ثم الى الابواب الصغيرة والتى تفضى الى ما تحت الجمالون . وكانت هذه الابواب مغلقة ، الا ان ذلك لم يثبط من عزم سيريوجكا الذى تحسس جيب سرواله ليتناول منه مطواة تضم الى جوارها مختلف الادوات ، والتى انتقى منها مفكا . واذ قام بفك مسامير اكرة الباب ، رفعها ليبدو عاريا ذلك التجويف الذى كان يستقر فيه لسان القفل . وضحكت فاليا ساخرة :

— انك تعمل بشكل رائع ، مما يبدو معه على الفور انك لص محترف .

والتفت اليها سيريوجكا والابتسامة تعلو وجهه قائلا :

— ان العالم يعرف الى جوار من يحترف تحطيم الابواب ، اولئك الذين يمارسون مهنة البرادة .

وراح ينقب ويحفر فى تجويف القفل الى ان فتح الباب ، لتهب عليهما نسمة حارة من سقف المبنى المعدنى الذى التهب تحت اشعة الشمس ، ورائحة ارضية الجمالون الساخنة والغبار ونسيج العنكبوت .

وحنى سيريوجكا وفاليا راسيهما تفاديا للاصطدام باعلى الجمالون ، وتسللا الى احدى النوافذ التى علاها الغبار ، حيث استندا بوجهيهما الى زجاجها دون ان ينظفا ما علق به من غبار حتى تستحيل رؤيتهما من الخارج ، متجاورين لدرجة كادت وجناتهما تلامس كل منها الاخرى .

وتراءى لهما من مكانهما الى جوار النافذة كل شارع سادوفايا الذى ينتهى عند بوابة الحديقة ، ولا سيما تلك الناحية ، حيث المبانى النموذجية للعاملين فى اللجنة الحزبية للاقليم . كما ومثل امام انظارهما مباشرة مبنى مؤسسة «فحم كراسنودون» ذو الطابقين عند ناصية الشارع .

لقد مر كثير من الزمن منذ تلك اللحظة التى غادر فيها سيريوجكا دغلة فيرخنيدوفانايا ، وحتى تلك التى استندا فيها بوجهيهما الى زجاج نافذة الجمالون الذى يعلوه الغبار . . فقد تمكنت القوات الالمانية فى تلك الفترة من دخول المدينة ، وتزاحمت العربات فى شارع سادوفايا ولينتشر الجنود الالمان هنا وهناك .

«الالمان . . . ها هم الالمان ، فاى قوم هم ! انهم هنا فى كراسنودون» . .

كان هذا ما توارد الى خاطر فاليا ليعلو وجيب قلبها ، ويجيش صدرها اضطرابا .

اما سيريوجكا فقد كان مشغولا بالجانب العملى الظاهرى للقضية ، اذ راحت عيناه الحادتان تسجلان تفاصيل كل ما يقع فى مجال الرؤية دون ان يلحظ ذلك .

لم يكن مبنى المؤسسة يبعد باكثر من عشرة امتار عن مبنى المدرسة الذى فاقه ارتفاعا بحيث تيسر لسيريوجكا مشاهدة سقفه المعدنى وحجرات طابقه الثانى وارضية ذلك الجزء من الطابق الاول القريب من النافذة . كما وشاهد سيريوجكا عدا شارع سادوفايا ، كثيرا من الشوارع الاخرى التى حجبت المنازل بعض أجزائها . . . شاهد الافنية والبساتين التى راح الجنود الالمان يعيثون فيها . وقد استطاع بالتدريج استمالة فاليا الى دائرة اهتماماته قائلا :

— انهم يجتثون الشجيرات الصغيرة . . انظرى ، حتى نباتات

عباد الشمس . وهنا . . يبدو ان رئاسة اركانهم سوف تتمركز فى المؤسسة . فلتنظرى كيف يعملون . . .

مبنى وراح الضباط والجنود الالمان — المشرفون والكتبة — ينتشرون للاقامة فى كلا طابقى المبنى ، يسودهم المرح . وقد قاموا بفتح كافة النوافذ ، وتفقد الغرف التى آلت اليهم ، يفتشون فى ادراج المكاتب ، يدخنون ويرمون بأعقاب سجائرهم الى الشارع المقفر الذى يفصل مبنى المؤسسة عن المدرسة . وبعد برهة من الوقت ظهرت بالحجرات النسوة الروسيات ، الشابات والعجائز يحملن المكانس والاسطال . واذ رفعن اطراف ثيابهن ، رحن يغسلن الارضية ، بينما اخذ الكتبة الالمان حسنو الهندام ونظيفو الملبس يتبادلون النكات بشأنهن .

وقد جرى كل ذلك على مسافة قريبة من سيريوجكا وفاليا ، لدرجة جعلت فكرة واضحة صارمة مؤلمة ، تدخل السعادة الى النفس فى آن واحد ، تطرق قلب سيريوجكا على حين غرة . كما وقد لاحظ ان نوافذ الجمالون يمكن خلعها بسهولة ، اذ كانت اطاراتها خفيفة تستند الى مسامير رقيقة ثبّتت مائلة فى الحائط .

ومكث سيريوجكا وفاليا مكانهما طويلا بما جعلهما يملكان فرصة تبادل الحديث حتى حول موضوعات اخرى .

وقد سألها سيريوجكا :

— هل رأيت ستيوبكا سافونوف بعد تلك الليلة ؟

— كلا .

وتوارد الى خاطره فى ارتياح «ان هذا يعنى ان الوقت لم يسعفها لان تقول له شيئا» .

وذكر سيريوجكا :

— انه سوف يأتى حتما . . انه من اصدقائنا . كيف تظنين العيش بعد ذلك ؟

وهزت فاليا كتفيها بعزة نفس .

— من ذا الذى يستطيع ان يتحدث عن ذلك الآن ؟ ليس هناك من يدرى ماذا سوف يحل بنا .

وذكر سيريوجكا :

— هذا صحيح . هل يمكننى زيارتك فى بعض الاحيان ؟

اولن يغضب والداك ؟

— والدىّ ! . . فلتأت غدا اذا ما اردت ذلك . كما وسوف ادعو ستيوبا .

— ما اسمك ؟

— فاليا بورتس .

وقد ترامى آنذاك الى سمعهما اصوات رشاشات تطلق نيرانها طويلة فى البداية ، ثم قصيرة بعد ذلك هناك فى دغلة فيرخنيدوفانايا .

وتساءلت فاليا :

— انهم يطلقون النار . هل تسمع ؟

وذكر سيريوجكا فى جدية :

— ليس ثمة من يدرى اية مصائب يمكن ان تحل بالمدينة ، ريثما نجلس سويا هنا . ربما يكون الالمان قد استقروا فى شقتنا وشقتكم وكأنما هم فى بيوتهم .

وهنا فقط تذكرت فاليا تلك الظروف التى كان يعيشها بيتها حين رحلت ، وظنت سيريوجكا على حق ، فلربما تكون امها وابوها قلقين بسببها . وقد منعها كبرياؤها من ان تكون البادئة باعلان ضرورة الرحيل ، الاّ ان سيريوجكا لم يفكر ابدا فى ان احدا يمكن ان يسأل عليه . وذكر :

— حان وقت العودة !

وغادرا المدرسة بنفس الطريقة التى لجآ اليها فى طريق الذهاب .

وتوقفا برهة من الزمن الى جوار سور الحديقة . فقد كان كلاهما يشعر بعد تلك الجلسة المشتركة فى اعلى الجمالون بشىء من الارتباك والحيرة . وذكر سيريوجكا :

— سوف اعرج لزيارتك غدا .

وقد علم سيريوجكا حين وصل منزله ما اخبر به ليلا فولوديا اوسموخين : انباء نقل الجرحى الباقين فى المستشفى ، واستشهاد الطبيب فيدور فيدوروفيتش . فقد جرى كل ذلك على مرأى من شقيقته نادية والتى اخبرته بتفاصيله .

وصلت الى المستشفى عربتا ركوب وبعض اللوريات المحملة بجنود «اس اس» . واستقبلتهم ناتاليا الكسييفنا عند المدخل

ليطالبونها باخلاء المبنى فى خلال نصف ساعة . واصدرت ناتاليا الكسييفنا تعليماتها حول ضرورة انتقال كل قادر على السير والحركة الى مستشفى الاطفال ، الا انها راحت رغما عن ذلك تطالب بمد فترة التهجير استنادا الى وجود كثير من الجرحى غير القادرين على الحركة وعدم وجود وسيلة لنقلهم .

وكان الضباط قد اتخذوا اماكنهم ثانية فى عربتهما .

– فينبونج ! اى شىء تريده هذه المراة ؟

تساءل اكبر الضباط رتبة لدى احد ضباط الصف فارع القامة ، هش العود ، ذهبى الاسنان يضع على عينيه نظارة ذات اطار ناصع .

وقد اضفت هذه النظارة على ضابط الصف من قوات «اس اس» ان لم يكن مظهر العالم ، فمظهر الانسان المثقف على اقل تقدير . غير انه وحين تقدمت ناتاليا الكسييفنا اليه برجائها ، بل وحاولت الحديث معه بالالمانية ، رماها بنظرة بدت وكانما لا تعير وجودها اهتماما . وبصوت مخنث دعا ضابط الصف الجنود الذين اخذوا فى القاء المرضى الى الفناء ، دون ان ينتظروا حتى ذلك النصف من الساعة ، الذى وعدوا به كمهلة .

لقد راحوا يجرجرون المرضى فوق الحشايا او يمسكون بهم من تحت الابط ليلقون بهم فوق الاعشاب بالفناء . وهنا اكتشف الالمان فيما بينهم وجود الجرحى فى المستشفى العسكرى .

وقد حاول فيدور فيدوروفيتش الذى اعلن نفسه طبيبا بمستشفى المدينة توضيح ان هؤلاء من ذوى الجراح الخطيرة ولن يصبحوا ابدا قادرين على القتال ، وجرى الابقاء عليهم تحت الرعاية المدنية . بيد ان ضابط الصف ذكر انه اذا كان هؤلاء من العسكريين ، فانهم يعتبرون من الاسرى ، يجب ارسالهم الى حيث يتوجب الامر . وبداوا فى انتزاع الجرحى من الاسرّة فى ملابسهم الداخلية والقائهم فى اللوريات الواحد تلو الآخر ، كيفما اتفق .

واذ كانت ناتاليا الكسييفنا تعرف فيدور فيدوروفيتش انسانا متوقد الطباع ، فقد طالبته بالانصراف ، الا انه لم ينصرف ، وظل واقفا بالردهة الى جوار الحائط فيما بين النافذتين . وتبدى وجهه اللامع الذى لفحته الشمس رمادى اللون ، واختلجت شفتاه ، واصابت الرعشة ركبته لدرجة انه مال بقامته يدعكها بيده .

وخافت ناتاليا الكسييفنا من ان تتركه وحيدا ، فلزمت مكانها الى جواره ، كما وطلبت من نادية البقاء ايضا الى ان ينتهى كل شىء . وكم شعرت نادية بالشفقة والرهبة ازاء كونهم يجرجرون الجرحى فى ضماداتهم الغارقة فى الدماء ، بل واحيانا على ارض الردهة . وقد خافت ان تذرف الدمع ، لكنه انزلق رغما عنها ومع ذلك فقد لزمت مكانها لانها كانت خائفة اكثر على فيدور فيدوروفيتش .

وشرع جنديان المانيان يحملان جريحا كان فيدور فيدوروفيتش قد اجرى له منذ اسبوعين عملية جراحية استاصل فيها احدى كليتيه التى اصابتها شظية من شظايا الالغام . وقد كان ذلك الجريح يشعر بتحسن بالغ فى الايام الاخيرة ، مما كان مدعاة لفخر فيدور فيدوروفيتش . كانا يسيران به فى الردهة حين تعالى صوت ضابط الصف فينبونج ينادى احدهما . والقى الجندى بالجريح الذى كان يمسك بقدميه ليهرول الى ضابط الصف فى غرفته ، بينما راح الجندى الثانى يجر الجريح على الارض .

وفجاة ابتعد فيدور فيدوروفيتش عن الحائط ، بحيث لم يسعف الوقت احدا لملاحظة انه صار بجوار الجندى ، الذى يجر الجريح . ولم يكن هذا الجريح ، مثله فى ذلك مثل معظم الجرحى يئن بالرغم من كل تلك الآلام التى كان يعانيها ، لكنه حين وقع نظره على فيدور فيدوروفيتش قال له :

– هل رايت يا فيدور فيدوروفيتش ماذا يفعلون ؟

هل يكون هؤلاء بشرا ؟

وانفجر فى البكاء .

وذكر فيدور فيدوروفيتش بالالمانية شيئا ما للجندى ، ربما حول استحالة ذلك التصرف ، وربما عارضا عليه المساعدة . بيد ان الجندى الالمانى ضحك مواصلا جر الجريح بعيدا . وفى تلك اللحظة خرج ضابط الصف فينبونج من الغرفة ، ليتوجه فيدور فيدوروفيتش نحوه مباشرة يعلو الشحوب وجهه ويرتجف كل كيانه . لقد اندفع يواجهه ويتحدث اليه فى حدة . وهب ضابط الصف فى زيه الاسود الذى تجمّع فى ثنايات حول جسده النحيف الطويل تلمع على صدره علامة معدنية مرسوم عليها جمجمة وعظمتين متلاقيتين ، فى وجه فيدور فيدوروفيتش يدفعه بمسدسه .

وتراجع فيدور فيدوروفيتش قليلا ، ليقول له شيئا ، اثار غضبه على ما يبدو . عندئذ جحظت عينا ضابط الصف ليطلق النار على فيدور فيدوروفيتش ليصيبه فيما بين عينيه . وشاهدت نادية الدماء تتدفق من جبهته ، ليسقط على الارض . اما ناتاليا الكسييفنا ونادية فقد لاذتا بالفرار من المستشفى . ولم تكن نادية نفسها قادرة على ادراك كيفية وصولها الى المنزل .

وقد جلست نادية منذ ان وصلت من المستشفى فى معطفها الابيض ومنديلها الذى غطت به راسها تقص وتقص ما وقعت عليه عيناها . لم تذرف الدمع ، الا ان وجهها كان شاحبا ، اما عظمتا وجنتيها الصغيرتين فقد اشتعلتا نارا ، بينما شخصت عيناها لا تريا من تحادثه .

وسعل الاب مخاطبا سيريوجكا فى حنق :

— هل سمع ذلك «الصايع» بما حدث ؟ قسما بالله اننى قادر على جلده بالسوط . ان الالمان فى المدينة بينما يتجول حيثما اتفق له . انه لم يقدر بعد فعلته التى كادت تودى بامه الى القبر .

واجهشت الام بالبكاء .

— لقد اضنيتنى . . وظننتهم قد قتلوك .

وفجاة ذكر سيريوجكا بلهجة غاضبة .

— قتلونى ! انهم لم يقتلونى . اما الجرحى فقد قتلوهم . فى دغلة فيرخنيدوفانايا . لقد سمعت ذلك بنفسى . . .

ودلف الى الغرفة حيث ارتمى فى فراشه دافنا راسه فى الوسادة . كانت مشاعر الثار تجتاح كل كيانه ، لدرجة لم يغد معها قادرا على التنفس . لقد راح يتجسد فى تلك اللحظة ما انهكه واضناه اثناء وجوده فى اعلى الجمالون . «عليكم بالانتظار . . . ولتسدل الظلمة ستائرها !» هذا ما كان يفكر فيه وهو متكور فى فراشه . ولم تكن ثمة قوة قادرة على اثنائه عما اعتزم القيام به .

خلد الجميع الى مخادعهم فى وقت مبكر ، دون اضاءة الانوار . غير انهم كانوا فريسة القلق الذى حال دون نومهم . ولم تكن هناك امكانية التسلل الى الخارج على نحو غير ملحوظ ، ولذا فقد خرج على مراى من الجميع وكانما يقصد فناء المنزل ، وانسل الى الحديقة . وراح يحفر بيديه تلك الحفرة التى خبا فيها الزجاجات

الحارقة ، وذلك لانه كان من الخطر ان يحفرها بالمجرفة ليلا . وسمع صوت الباب يصر لتخرج شقيقته نادية تناديه بصوت خافت عدة مرات :

— سيريوجا . . سيريوجا . .

ثم انتظرت قليلا ، لتناديه مرة اخرى . وتعالى صوت صرير الباب . . لقد ذهبت اخته .

ودس سيريوجا فى جيبى سرواله زجاجتين بينما وضع الثالثة فى عبّه ، لينطلق فى عتمة ليلة خانقة من شهر يوليو الى الحديقة العامة متجاوزا وسط المدينة عن طريق مساكن «شانغهاى» الصغيرة .

كان الهدوء يخيم على الحديقة المقفرة ، بيد انه كان مطبقا بشكل خاص على المدرسة التى تسلل اليها عبر تلك النافذة التى حطمها نهارا . وقد كان الهدوء مريعا لدرجة بدت معها كل خطوة وكانما يتعالى وقعها ليس فقط فى ارجاء المبنى بل وفى المدينة باسرها . وتسرب ضوء معتم من الخارج عبر كوات النوافذ العالية يلقى بظلاله على الدرج . وعندما ظهر سيريوجكا بقوامه الى جوار احدى تلك النوافذ ، تراءى له وكانما سوف يشاهده ويطبق عليه انسان ما توارى فى ظلمة احد الاركان . غير انه انتصر على خوفه ، ليجد نفسه سريعا فى نقطة المراقبة التى اختارها نهارا باعلى الجمالون .

وجلس فى مكانه بعض الوقت الى جوار النافذة التى لم يكن يرى من خلالها آنذاك شيئا . جلس لا لشىء الا من اجل التقاط انفاسه . ثم صار يتحسس بيديه تلك المسامير التى كانت تحمل اطار النافذة ، ليثنيها رافعا اياه فى هدوء . وهبت نسمة باردة منعشة تلفحه ، بينما كان الجو ما يزال خانقا فى اعلى الجمالون . كما وغدا قادرا بعد الظلمة التى كانت تعيشها المدرسة ، ولا سيما اعلى الجمالون ، على تمييز كل ما يجرى بالشارع ازاء ناظريه . لقد ترامت الى سمعه حركة السيارات بالمدينة وشاهد انوار مصابيحها التى جرى تعتيمها ولم تنقطع تحركات الوحدات من ناحية فيرخنيدوفانايا حتى فى الليل . فقد تبدت هناك وعلى طول الطريق انوار مصابيح السيارات . وكانت هناك بعض السيارات تسير



بكامل انوار مصابيحها التى تعالت من وراء التل كضوء الكشافات العاكسة تمزق ظلمة السماء او تغمر جزءا من البرارى او اشجار الدغلة التى تبدت اوراقها وكأنها مقلوبة يكسوها اللون الابيض .

وكانت الحياة العسكرية الليلية تتبدى فى كافة صورها عند المدخل الرئيسى لمبنى المؤسسة . كانت تتوافد العربات والموتوسيكلات ، ينتشر الجنود والضباط ما بين داخل وخارج ، فيما يتعالى صليل اسلحتهم ومهاميزهم ، واحاديث مبهمة بلهجة غريبة حادة . بيد ان نوافذ المؤسسة كانت معتمة .

وكانت كل مشاعر سيريوجكا قد توترت وتركزت حول هدف واحد لدرجة ان ذلك الظرف الجديد الذى لم يكن يتوقعه وهو تعتيم النوافذ ، لم يكن ليغير من قراره . وهكذا استقر فى مكانه هذا الى جوار النافذة ما لا يقل عن ساعتين . وقد راح الهدوء يخيم على المدينة ، كما وتوقفت الحركة امام المبنى ، الا ان من بداخله لم يكن قد خلد الى النوم بعد ، وقد ادرك سيريوجكا ذلك استنادا الى بصيص الانوار الذى تسرب الى الخارج من عند اطراف الاوراق السوداء التى تغطى النوافذ . لكن ها هو الضوء يطفأ فى اثنتين من نوافذ الطابق الثانى ، ثم قام احد المقيمين هناك يفتح من الداخل النافذة الاولى ، ثم الثانية . لقد شعر سيريوجكا به يقف الى جوار النافذة تلفه ظلمة المكان . ثم تلاشت الاضواء فى بعض نوافذ الطابق الاول التى فتحت بدورها .

– من هناك ؟

تعالى صوت آمر من نافذة الطابق الثانى ، حيث استطاع سيريوجكا تمييز شبح شخص مال بقامته عبر النافذة ، يكتنفه الغموض . لقد كان يتساءل :

– من هناك ؟

واجابه صوت فتى من اسفل :

– اننى الملازم ماير يا هر اوبرست .

– اننى لا انصحكم بفتح نوافذ الطابق الاسفل .

– ان الجو خانق بدرجة لا تطاق يا هر اوبرست . بيد انه وبطبيعة الحال اذا كنتم تحظرون . . .

– كلا ، اننى لا اود ابدا تحويلكم الى لحوم مشوية .

ذكر ذلك الصوت الآمر من عل ، ضاحكا .

وقد راح سيريوجكا يرهف السمع الى ذلك الحديث بالالمانية ، فيما يعلو وجيب قلبه .

وراحت الاضواء تغيب عن النوافذ التى اخذت الستائر تنحسر عنها ، يفتحونها الواحدة تلو الاخرى ، ليترامى منها الى الاسماع صفير ، واحاديث متقطعة فى بعض الاحيان . وفى احيان اخرى كان ثمة من يشعل عود ثقاب لينعكس ضوؤه على وجهه وسيجارته واصابعه ، لتظل طويلا تلك النقطة المضيئة من السيجارة فى اعماق الغرفة .

وذكر شخص ما يقف الى جوار النافذة يخاطب صديقه فى اعماق الغرفة :

– يا لها من بلاد شاسعة ، لا نهاية لها .

وخلد الالمان للنوم ، وصار الهدوء يخيم على المكان وعلى المدينة بأسرها . ولم يكن هناك سوى بعض الانوار تنبعث من مصابيح العربات التى كانت ما تزال تتحرك من ناحية فيرخنيدوفانايا ، تنزع الظلام من سماء الليل .

وتعالى وجيب قلب سيريوجكا ليبلغ اسماعه ، ويبدو له انه يدوى فى كل ارجاء الجمالون . وقد كان الجو رغما عن كل شىء خانقا للغاية ، جعله يتصبب عرقا .

وتراءى امام ناظريه على نحو مبهم مبنى المؤسسة بنوافذه المفتوحة تلفه الظلمة والنعاس . لقد شاهد النوافذ المفتوحة فى كلا الطابقين لا تغطيها سوى غلالة من الظلمة الحالكة . وهنا ادرك انه من الواجب عليه التصرف فى تلك اللحظة . . . شرع يلوح بيده عدة مرات وكأنما يحاول قياس مدى باعها المحتمل ، ولتحديد الهدف ولو على وجه التقريب .

كانت الزجاجات الحارقة التى اخرجها من جيبه وعبّـه بمجرد وصوله ، موجودة الى جانبه . وتحسس واحدة منها ، وامسك بعنقها مشددا قبضته عليه ثم قاس المسافة بنظره وحسه ، ليلقى بالزجاجة فى قوة نحو النافذة السفلى المفتوحة . واضاء لهيب يغشى الابصار كل النافذة بل وبعض مساحة الشارع الصغير فيما بين مبنى المؤسسة والمدرسة ، وتعالى فى نفس تلك اللحظة صوت

انفجار خفيف ورنين زجاج ، وكانما تحطمت احدى اللمبات الكهربائية . وتعالت من النافذة السنة اللهب . وفى نفس تلك اللحظة القى سيريوجكا بالزجاجة الثانية فى ذات النافذة ، لتنفجر فى النيران بقوة هائلة . وقد تأججت النيران داخل الغرفة ، واشتعلت اطر النافذة ، وتدافعت السنة اللهب تتسلق الجدران تكاد تصل الى الطابق الثانى . وراح احد سكان تلك الغرفة يعوى ويئن ، وتعالى الصراخ يدوى فى كل ارجاء المبنى . وامسك سيريوجكا بالزجاجة الثالثة ليلقى بها فى النافذة المواجهة بالطابق الثانى .

وسمع صوت تحطمها ثم شاهد وميض نيرانها الذى بلغت قوته حد اضاءة كل اعلى الجمالون ، ولكنه كان قد ابتعد عن النافذة فى تلك اللحظة ، حيث كان قد بلغ بداية السلم الخلفى والذى اندفع اليه لا يلوى على شىء . واذ لم يكن ثمة وقت للبحث فى ذلك الظلام عن الفصل ذى النافذة المحطمة ، اندفع الى اقرب حجرة ، ويبدو انها كانت غرفة المدرسين ، ليفتح نافذتها بسرعة ، ويقفز عبرها الى الحديقة حيث راح يركض نحو اعماقها وقد مال بقامته .

لقد كان سيريوجكا منذ تلك اللحظة التى القى فيها بالزجاجة الثالثة وحتى ادراكه انه يجرى فى اعماق الحديقة العامة مسيَّرا بوحى الغريزة ، ولعل ذاكرته لم تكن لتستطيع استيعاب كل ما حدث . بيد انه ادرك آنذاك انه من الضرورى الانبطاح ارضا والتزام الهدوء لحظة للتنصت على ما يجرى حوله .

كان ثمة فار يعبث بالحشائش غير بعيد عن سيريوجكا . ولم يكن يرى من مكانه السنة اللهب ، بيد انه تعالت من هناك ، من الشارع الصرخات ووقع اقدام تهرول . وهب من مكانه يجرى بعيدا الى اطراف الحديقة ، نحو تل من بقايا صخور المنجم المتروك .

وقد تصرف هكذا تفاديا لاحتمال تطويق الحديقة العامة ، وحيث كان قادرا على الهروب فى كل الاحوال .

والآن ، غدت واضحة من مكانه هذا تلك الهالة الضخمة التى صارت تنشر اضواءها الارجوانية فى ارجاء السماء لتبلغ حتى ذلك التل الضخم القديم الواقع بعيدا عن مصدر الحريق ، وقمم اشجار الحديقة . وراود سيريوجكا شعور الاحساس بالراحة وكانما بارح

فؤاده اعماق جوانحه ليحلق فى الاعالى ، وقد اصابت الرعشة جسده ، وراح يمسك نفسه عن الانفجار فى الضحك .

– هذا ما تستحقونه ! زيتسين زى زيغ ! شبريخين زى دويتش ! جابين زى ايتفاس ! –راح يكرر فى اعماقه وفى لهجة تفوق الوصف كل تلك الجمل التى تواردت الى ذهنه من دروس قواعد الالمانية .

وتعالت الهالة تصبغ سماء الحديقة ، وترامى الى الاسماع الصخب والهرج والمرج فى وسط المدينة . وكان ينبغى الانسحاب . وراودته رغبة جارفة لزيارة تلك الحديقة مرة اخرى ، حيث شاهد اليوم فاليا بورتس ، تلك الفتاة التى يعرف الآن اسمها .

وانزلق فى الظلمة بخفة نحو ما وراء شارع ديريفيانايا ، وتسلق سورا صغيرا ليقفز الى الحديقة حيث همّ بالخروج عبر البوابة الى الشارع فى تلك اللحظة التى سمع فيها ضجيج مكتوم لجمهرة من الناس تجمعت هناك . فقد تجاسر السكان على مبارحة منازلهم والخروج لمشاهدة الحريق ، مستفيدين من كون الالمان لم يكونوا قد احتلوا شارع ديريفيانايا . واذ دار سيريوجكا حول البيت من الناحية الاخرى ، قام بالقفز فى هدوء عبر السور متوجها نحو البوابة ، حيث احتشدت مجموعة من النسوة تغمرهن هالة الحريق . وقد اكتشف وجود فاليا ضمن تلك المجموعة ، ليتساءل حتى يوجه اهتمامها اليه :

– ما هذا الذى يشتعل ؟

واجابت احدى النسوة بنبرة تنم عن اضطراب :

– هناك فى شارع سادوفايا . . . وربما تكون المدرسة .

وذكرت فاليا بصوت حاد يحمل نبرة التحدى :

– انه مبنى المؤسسة .

ثم قالت وهى تتثاءب بشكل مصطنع :

– ماما . . اننى سوف انصرف للنوم .

ودلفت الى الداخل . وتحرك سيريوجكا فى اثرها ، الا انه سمع دبيب خطواتها على درج المدخل ، وصوت الباب يصفق بعد دخولها .

الفصل العشرون

اخذت وحدات القوات الالمانية الرئيسية تتحرك على مدى ايام كثيرة عبر كراسنودون والمدن والقرى القريبة . . . وحدات الدبابات ، والمشاة المحمولة ، والمدفعية الثقيلة والهاوتزر ، ووحدات الاشارة ، وارتال العربات ، ووحدات المهندسين والخدمات الطبية واركان التشكيلات ، الصغيرة والكبيرة . وتعالى هدير المحركات عاليا يدوى فى الارض والسماء ، وانتشر الغبار غلالة كثيفة تدثر سماء المدينة والبرارى .

وقد كان ثمة نظام ثابت – Ordnung يفرض نفسه فى خضم تلك الحركة الايقاعية الثقيلة للقوات والمدافع التى لا حصر لها . وبدا انه ما من قوة على ظهر البسيطة يمكن ان تتصدى لتلك القوة ذات النظام الحديدى الثابت .

وانسابت اللوريات العالية مثل عربات السكك الحديدية ، تحمل الذخيرة والمؤن ، وعربات نقل البنزين بصهاريجها الانسيابية المنبعجة تضغط باطاراتها الضخمة الارض بحثا عن اعماقها . وكان الجنود يرتدون زيهم المشدود الى اجسادهم على نحو جيد والذى يبدو متينا ، اما الضباط فقد كانوا حسنى الهندام . وقد كان يسير جنبا الى جنب مع الالمان الرومانيون والمجريون والايطاليون . كما وكانت مدافع ودبابات وطائرات ذلك الجيش تحمل علامات كافة المصانع الاوروبية ، مما كان يجعل عينى المرء الذى لم يقتصر معرفته للغات على الروسية ، تجهران ازاء ماركات عربات الركوب واللوريات فقط ، ليداخله الرعب حين يتصور اية قوة انتاجية فى معظم بلدان اوروبا تتولى تمويل وامداد الجيش الالمانى الذى يقطع اليوم برارى الدونباس فى خضم هدير تلك المحركات ، واطار تلك الغلالة الكثيفة من الغبار التى حجبت السماء .

لقد صار اصغر البشر ، والذى لا يدرى ، عن شؤون الحرب الا القليل ، يشعر ويرى الجيوش السوفييتية تتراجع تحت ضغط هذه القوة نحو الشرق ، والجنوب الشرقى ، بعيدا بعيدا ، على ما يبدو الى غير ما رجعة . . نحو نوفوتشيركاسك ، وروستوف ، الى ما وراء الدون ، نحو الفولجا وكوبان . ومن ذا الذى يعلم الآن موقعها . كما

ولا نستطيع اليوم سوى من نشرات الاخبار الالمانية واحاديث الجنود الالمان ، معرفة تلك الخطوط التى يقاتل عندها ، وربما يكون قد استشهد فيها ، ابنك الحبيب او ابوك . . او الزوج . . او الشقيق !

وفى الوقت الذى كانت فيه الوحدات الالمانية ما تزال تواصل زحفها ، تأكل كما الجراد ، ما لم تات عليه الوحدات التى سبقتها ، كانت قد تمركزت فى كراسنودون ، وكأنما فى بيتها الخاص ، مؤخرات الجيوش الالمانية المهاجمة ، واركانها ، واقسام الامداد والتموين والوحدات الاحتياطية .

ولم يكن ثمة احد من السكان المحليين فى اولى ايام السلطة الالمانية يميز بين الرئاسة الدائمة ، والرئاسة العابرة ، واية سلطة تسود المدينة ، وماذا يجب عليه ان يقدم علاوة على ما يشهده كل منزل من عبث الجنود والضباط العابرين . لقد كانت كل اسرة تعيش وحدها تدرك مع كل يوم جديد مدى هول وعقم اوضاعها ، تحاول التأقلم على النحو الذى يناسبها مع هذا الوضع الرهيب الجديد .

ولقد كان ذلك الجديد الرهيب فى حياة الجدة فيرا ويلينا نيكولايفنا هو تحول بيتهما الى مقر لاحدى هيئات الاركان الالمانية برئاسة الجنرال البارون فون فينتسيل ومساعده وخادمه شاحب الشعر الذى يغطى النمش وجهه . كما ان حارسا المانيا لزم مكانه بصورة دائمة امام المنزل . علاوة على انه غدا عامرا بالضباط والجنرالات الالمان الغادين والرائحين ، وكانهم فى بيتهم ، تارة لحضور اجتماع ، واخرى لمجرد تناول الطعام والشراب ، تترامى فى ارجائه الاصوات الناطقة بالالمانية ، والاناشيد العسكرية الالمانية بالاذاعة . اما اصحاب البيت ، الجدة فيرا ويلينا نيكولايفنا فقد اودعتا فى الغرفة الصغيرة ، خانقة الجو ، المجاورة للمطبخ حيث الموقد مشتعل على الدوام . يقومان منذ الصباح الباكر وحتى وقت متاخر من الليل بخدمة السادة الجنرالات والضباط الالمان .

بالامس القريب كانت الجدة فيرا مواطنة تتقاضى معاشا تقاعديا متميزا ، وتتمتع فى القرية بمكانة اجتماعية مرموقة ، واما لمهندس جيولوجى فى واحدة من اكبر مؤسسات الدونباس ؛ اما يلينا نيكولايفنا

فقد كانت ارملة مشاهير رجال السلطة المحلية ، رئيس قسم الزراعة فى مدينة كانيف ، وام افضل تلاميذ مدرسة كراسنودون ؛ لقد كانتا بالامس القريب شخصيتين مرموقتين تحظيان باحترام الجميع . اما اليوم فتخضعان لسلطان الخادم الالمانى ذى الوجه الذى يغطيه النمش ، يأمر فيهما وينهى كما يشاء .

وقد كان الجنرال البارون فون فينتسيل غارقا فى شؤون الحرب لدرجة لم يلحظ معها الجدة فيرا ويلينا نيكولايفنا . كان يجلس بالساعات منكبا على الخريطة ، يقرا ويكتب ويوقع اوراقا كان يعرضها عليه مساعده ، ويحتسى الكونياك برفقة جنرالات آخرين . كما وكان الجنرال فى بعض الاحيان يحتدم غضبا ، ليصبح وكانما يصدر اوامره فى ساحة التدريب لينتصب الجنرالات الآخرون فى حضرته ، فى وقفة عسكرية صارمة . وقد ادركت الجدة فيرا ، وكذلك يلينا نيكولايفنا انه ووفقا لارادة الجنرال فون فينتسيل تتحرك الوحدات الالمانية بدباباتها وطائراتها ومدافعها ، تعبر كراسنودون لتتوغل فى اعماق البلاد ، وانه يعير اهمية الى تحركها ووصولها الى الهدف المرجو وفى الميعاد المحدد بالذات . اما عن تصرفات جنوده فى تلك النواحى التى يعبرونها فلم تكن تهم الجنرال فون فينتسيل ، مثلما لم يكن يهمه انه يعيش فى بيت الجدة فيرا ويلينا نيكولايفنا .

لقد كانت ترتكب الى جوار الجنرال فون فينتسيل او فيما حوله المئات بل والآلاف من الاعمال الاجرامية البشعة نزولا على امر اصدره ، او استنادا الى موافقته الضمنية . كانوا ينهبون اشياء من كل منزل ، كما نهبوا منزل الجدة فيرا ويلينا نيكولايفنا بما فيه من دهون وعسل وبيض وزبد ، الا ان ذلك لم يكن يحط من قدره ، حيث كان يسير مرفوع الهامة الثابتة الضيقة فوق عنقه القرمزى المرتكز فيما بين سعفتى النخيل المطرزتين على ياقته ، وكانما ليس هناك شئ سيئ او بشع يمكن ان يمس وعيه .

ولقد كان الجنرال شخصا محبا للنظافة ، يغتسل بالمياه الدافئة مرتين يوميا ، صباحا وقبل نومه مساء ، من قمة راسه حتى اخمص قدمه . وكانت غضون وجهه النحيل واعلى عنقه دائما نظيفة ، حليقة ، معطرة . ولقد اقيم له مرحاض خاص ، كان يتوجب على الجدة فيرا تنظيفه يوميا حتى يستطيع الجنرال قضاء حاجته دون ان

يضطر الى الجلوس القرفصاء . وكان ذلك الجنرال يتردد على المرحاض صباحا فى وقت محدد لا يتغير ، بينما كان الخادم يقف قريبا ليناوله ورق خاص يستخدمه للنظافة حين يسمع سعاله . بيد ان الجنرال وبالرغم عن حبه للنظافة لم يكن ليستحى فى حضرة الجدة فيرا ويلينا نيكولايفنا التجشؤ بعد تناول الطعام ، اما وحين كان ينفرد بنفسه فى غرفته ، يفسح المجال لامعائه لتطلق غازاتها دون اعتبار لكون الجدة فيرا ويلينا نيكولايفنا تقطنان الغرفة المجاورة .

اما عن مساعده طويل الساقين فقد كان يحاول التشبه بالجنرال فى كل شئ . وقد بدا له انه قد شب طويل القامة ، لا لشئ الا من اجل ان يكون مناسبا الى جوار جنراله فارع القامة . كما وحاول شان الجنرال ، عدم اعارة ادنى اهتمام لوجود الجدة فيرا ويلينا نيكولايفنا .

فلم تكن الجدة فيرا وكذلك يلينا نيكولايفنا موجودتين سواء كبشر او ادوات ، بالنسبة للجنرال او لمساعده على حد سواء . اما الخادم فقد غدا آنذاك رئيسهما وسيدهما المطلق .

واذ راحت الجدة فيرا تعايش هذا الوضع الجديد الرهيب ، وجدت نفسها منذ اول يوم انها غير قادرة على التعايش مع مثل هذا الحال . وقد ادركت الجدة الماكرة ان الخادم النمش لم يكن يملك السلطة الكافية كى يتجاسر فى حضرة رئيسيه على قتلها . وكانت تغدو مع كل يوم اكثر جراة فى تعاملها معه ، وحين كان يصيح فى وجهها ، كانت ترد له الصاع بمثله . وذات مرة قام الخادم فى اوار غضبه بضربها فى ظهرها بكعب حذائه الثقيل ، فما كان منها الا ان هوت بالمقلاة التى كانت تمسك بها على راسه بكل قوتها ، لتصيب الغصة حلقه . هكذا سادت مثل تلك العلاقات الغريبة المعقدة بين الجدة فيرا والخادم ذى الوجه المغطى بالنمش . اما يلينا نيكولايفنا فقد كانت ما تزال تعيش حالة ذهول نفسى ، تسير دائما مرفوعة الراس المتوجة بشعرها الذهبى الكث ، صامتة تنفذ كل ما يطلب منها ، بصورة آلية .

وذات يوم كانت يلينا نيكولايفنا تسير فى الشارع الموازى لشارع سادوفايا سعيا وراء الماء ، ليقع نظرها فجاة على مركبة

غير غريبة عنها تسير فى اتجاهها ، ويجرها جواد اصهب ، ويسير الى جوارها ابنها اوليج .

وتلفتت يلينا نيكولايفنا فيما حولها ، لتخور قواهـا ويسقط الدلو من يدها ؛ وتفتح ذراعيها مندفعة نحو ابنها .

— اوليجكا * . . يا ولدى !

لقد راحت تناديه وهى تدفن راسها فى صدره تارة ، وتمسح شعره الاشقر الذى اكسبته الشمس ذهبية تارة اخرى ، او تربت براحتها على صدره وكتفيه وظهره تارة ثالثة .

لقد كان يفوقها طولا بعض الشىء ، واكسبتـه الشمس سمرة شديدة خلال تلك الايام ، ونحل وجهه قليلا ، وبدا اشد رجولة . بيد ان تلك الرجولة لم تكن لتخفى تلك السمات التى بدت اوضح من ذى قبل ، وعلقت بذاكرتها الى الابد ، والتى كان يتسم بها يوم بدا فى نطق اولى الكلمات ، والسيـر اولى الخطوات بقدميـه الصغيرتين البضتين اللتين لفحتهما الشمس ، ليترنح جانبا وكانما تدفعه الرياح . لقد كان فى واقع الامر طفلا كبيرا ، راح يعانق امه ، يحيط جيدها بيديه الكبيرتين القويتين ، بينما شعّت عيناه من تحت حاجبيه العريضين ، كما كانتا تشعان طيلة ستة عشر عاما وتصف ، ضياء بنويا ناصعا صافيا .

— ماما . . مامو . . مامو . .

لم يكونا يعيران اهتماما لاى شىء او اى انسان فى تلك اللحظات المعدودات . . لهذين الجنديين الالمانيين اللذين كانا يراقبانهما من الفناء المجاور ، عما اذا كانا يخالفان النظام الحديدى ، وللاقارب الموجودين الى جوار المركبة تجتاحهم شتى المشاعر ازاء رؤية لقاء الام بابنها . . . لقد كان الخال كوليا ينظر ساهما مكتئبا ؛ بينما تنظر العمة مارينا وقد ترقرقت الدموع فى عينيهـا السوداوين الجميلتين المتعبتين ؛ اما الطفل ذو الثلاثة اعوام فقد كان ينظر اليهما فى دهشة وغضب ، ازاء كون العمة لينا لم تعانقه وتقبله قبل اوليج . اما الحوذى العجوز فقد راح يتأملهما تعلو وجهه امارات التأدب وكانما يود القول . . يا لها من احداث يمكن ان يحفل بها هذا العالم . ولقد كان يمكن ان يظن الناس من ذوى الارادة الطيبة ، الذين كانوا

* اسم التدليل لاوليج .

يراقبون خلسة من نوافذ منازلهم لقاء الفتى فارع القامة ذى الشعر الذى صبغته الشمس بلونها الذهبى بالمراة التى كانت فى مقتبل العمر ذات الضفيرتين الكثتين اللتين تحيطان براسها واللذين يشبه كل منهما الآخر الى حد كبير ، ان شقيقا التقى بشقيقته ، حيث لم يكونوا يعلمون بعد ان الفتى ما هو الآ اوليج كوشيفوى قد عاد الى امه ، كما عاد اليوم المئات والالوف من سكان كراسنودون الذين لم يسعفهم الوقت للنجاة من الكارثة ، الى ذويهم فى بيوتهم التى احتلها الالمان .

وكم كان عصيبا فى تلك الايام حال كل من رحل عن ارضـه وبيته وذويه . بيد ان اولئك الذين اسعفهم الوقت للفرار من الالمان ، يسيرون اليوم على ارضهم ، على الارض السوفييتية . اما الوضع فقد كان اكثر ترديا وسوءا بالنسبة لاولئك الذين بذلوا الجهود بغية الفرار من الالمان ، وعاشوا مرارة احباطها ، وواجهوا الموت ، ليعودوا ثانية الى اراضيهم ، التى كانت بالامس القريـب موطنهم ، بينما تصبح اليوم ارضا المانية . . لقد راحوا يهيمون على وجوهم وحيدين دون ماوى او غذاء ، يائسين ، فريسة رحمة المانى منتصر ينظر اليهم وكانهم مجرمون .

وفى تلك اللحظة حين غدا اوليج ورفاقه فى البرارى الشاسعة يغمرهم ذلك الضياء الابيض المعتم ، يواجهون الدبابات الالمانية التى اندفعت فى اتجاههم لا تلوى على شىء ، اصابت الرجفة اعماقهم حين صاروا ازاء الموت وجها لوجه . بيد ان المنية ترافت بهم مؤجلة حكمها .

لقد احاط راكبو الموتوسيكلات الالمان بكل من لم يستطـع العبور ، ليقتادونهم جميعا الى مكان قريب من نهر الدونيتس . وها هم هنا ثانية اوليج ورفاقه ، وفانيا زيمنوخوف برفقة كلافا وامها ، وفالكو مدير المنجم رقم ١ . وقد كان فالكو يتصبب عرقا ، بكل ما تحمل الكلمة من معنى ، لدرجة تشبع سترته وسرواله بمـا يسيل منه ، ليتجمع فى حذائه الطويل .

وقلّ من كان فى مثل تلك البلبلة العامة يعير اهتماما بالآخر . بيد ان كل من كان يتأمل فالكو ، يغدو يفكر . . «حتى هذا لـم يستطع عبور النهر» . اما هو فقد اقتعد الارض تعلو وجهه الاسمر الغجرى غير الحليق امارات غضب مركز ، وخلع حذاءه جيد الصنع

ليفرغه من المياه ، وقام بعصر جوربه ثم انتعل حذاءه والتفت الى الصبية بوجهه المكتئب ، ليغمز بعينيه وكانما يود ان يقول لهم : ما عليكم . . اننى معكم !

وتقدم احد ضباط المدرعات الالمان فى خوذته السوداء ، تعلو امارات الغضب وجهه الإسمر الذى يغطيه الغبار ، يصدر اوامره بلغة روسية ركيكة ليتقدم كل العسكريين الموجودين ، بين المدنيين . وبدأ العسكريون ، فرادى وجماعات ، لا يحملون سلاحا يتقدمون الحشد . وراح الجنود الالمان يقتادونهم جانبا ، يدفعون ظهورهم باعقاب بنادقهم . وسرعان ما ظهرت غير بعيد عن حشود النازحين فى البرارى ، جمهرة من العسكريين اقل عددا .

وقد اتسمت بالحزن والكآبة نظرات ووجوه اولئك الرجال الذين راحوا يتزاحمون جنبا الى جنب ، فى ثيابهم الباهتة القذرة واحذيتهم التى علاها الغبار ، فى اعماق تلك البرارى التى تغمرها اشعة الشمس .

واصطف العسكريون رتلا دفعوا به الى اعلى نهر الدونيتس . اما المدنيون فقد جرى اطلاق سراحهم ليعودوا الى منازلهم .

وانتشر النازحون في البراري مبتعدين عن نهر الدونيتس . وسلك الجزء الاعظم الطريق نحو الغرب ، عبر العزبة التى قضى بها فانيا وجورا ليلتهما فى اتجاه ليخايا .

وقد كان ابو فيكتور بيتروف وكذلك الحوذى العجوز الذى كان يقود مركبة كوشيفوى واقاربه قد انضموا بمركبتهما الى ذويهم حين شاهدا الدبابات الالمانية فى البرارى . اذ انسابت مجموعتهم التى غدت تضم كذلك كلافا كوفاليوفا وامها ضمن خضم التيار البشرى والمركبات الذى تراجع نحو الغرب فى اتجاه ليخايا .

وظل البعض لا يصدق برهة من الزمن ، ان الامر سوف يكون على هذا النحو بالذات ، اى يطلق سراحهم بدون ان تكون فى الامر خدعة ، ولذا فقد راحوا ينظرون فى خوف الى ارتال الجنود الالمان التى كانت تتحرك فى الاتجاه المقابل . بيد ان الجنود ذوى الوجوه المغبرة ، المتعبة اولئك المهمومين الذين كانوا يتصببون عرقا لم يعيروا النازحين الروس اى اهتمام تقريبا .

وحين تلاشت اول موجة من الذهول ، ذكر احد السائرين على نحو ينم عن بعض التشكك :

– ثمة امر اصدرته القيادة الالمانية بعدم التعرض للسكان المحليين . . .

وندت عن فالكو الذى كان البخار يتعالى من ملابسه المبتلة عرقا تحت اشعة الشمس كما الحصان ، ابتسامة كئيبة ليومئ برأسه نحو ارتال الجنود الالمان الغضوبة ، الملطخة بالغبار كالشياطين ، قائلا :

– الا ترى كيف انهم على عجلة من امرهم ، والا لم يكونوا ليتيحون لك حتى فرصة الشرب .

– وكانما تكون قد تناولت ما عنّ لك من شراب !

وقد كان ذلك صوتا تعالى فجأة ، كاحد الاصوات المرحة التى لا يخلو منها حشد روسى ، حتى فى اشد ظروف الحياة رهبة وكآبة . وذكر فالكو موافقا فى كآبة :

– لقد تذوقت ما قدموه !

ثم مضى يقول :

– بيد اننى لم اجترع الكاس حتى النهاية !

وهاكم ما حدث لفالكو منذ اللحظة التى فارق فيها الفتيان وانحدر نحو المعبر . لقد اجبرت هيئته وقسمات وجهه الصارم ، احد اولئك العسكريين الذين كانوا يشرفون على حركة المعبر على تبادل الحديث معه بعض الوقت ، حيث عرف منه ان قيادة المعبر موجودة على الشاطئ الآخر من النهر . «اننى سوف ارغمه ورفاقه على الاضطلاع بعبء تنظيم الحركة كما يجب» — هذا ما توارد الى خاطره بينما يجيش صدره غضبا ، ليروح يثب من احد جانبى الكوبرى العائم الى جانبه الآخر على مقربة من العربات التى تنساب فوقه . وفى تلك اللحظة انقضت القاذفات الالمانية ، ليضطر شان كل الناس ، الى الانبطاح ارضا . ثم شرعت المدفعية الالمانية تقذف بحممها ليسود الهرج والمرج فوق الكبارى العائمة . وهنا تردد فالكو بعض الشيء .

فقد كان وضعه يحتم عليه الاستفادة من فرصة عبور الدونيتس الاخيرة . بيد أنه يحدث احيانا ان ينقاد اقوى الناس شكيمة وعزيمة واشدهم حمية وغيرة الى اهوائهم الشخصية ومصالحهم متناسين فى ذلك واجبهم الاشمل والاعم والاساسى .

وما كاد فالكو يتخيل ما قد يظنه بشأنه العمال – صديقه جريجورى ايليتش شيفتسوف ، والفتية شباب الكومسومول الذين بقوا على الشاطئ حتى اندفع الدم يغلى برأسه ، ليستدير عائدا ادراجه . وفى تلك اللحظة كان النازحون يندفعون فوق الكوبرى العائم ككتلة متراصة تواجهه ، مما جعله يلقى بنفسه الى مياه نهر الدونيتس ، ليسبح فى ملابسه عائدا الى الشاطئ .

وقد راح فالكو يشق الامواج بذراعيه القويين ، يسبح فى اتجاه ذلك الشاطئ الذى كان الألمان آنذاك يقصفونه ويحاصرونه ، فيما يهرول النازحون فوق الكبارى العائمة لا يلوون على شىء ، يتزاحمون عند مداخلها ، يلقى البعض بنفسه الى المياه ليعبر النهر سباحة الى الشاطئ الآخر . لقد كان يدرك انه سوف يكون من اوائل الذين سوف يفتك الالمان بهم ، ومع ذلك فقد راح يسبح لان ضميره لم يكن يسمح له بغير ذلك .

اما الالمان ولسوء حظهم ، قد سلكوا مسلكا يتسم بقصر النظر ، فلم يقتلوه واطلقوا سراحه مع الآخرين . وها هو وبدلا من ان يتجه نحو الشرق الى ساراتوف حيث كان واجبه يحتم عليه التوجه الى هناك ، وحيث كانت تعيش زوجته واطفاله ، فقد راح يتحرك فى خضم النازحين نحو الغرب .

وبدا رتل النازحين يتفرق هنا وهناك قبل ان يبلغ ليخايا . وعرض فالكو على ابناء كراسنودون التجمع بعيدا عن الرتل ، لينطلقوا متجاوزين ليخايا فى طريقهم الى كراسنودون ، عبر القرى الصغيرة واحيانا الاراضى البكر ، دون اللجوء فى ذلك الى الطرق الرئيسية العامة .

وكما يحدث دائما وحين تعانى الشعوب والبلدان المحن العصيبة ، تختلط افكار ابسط الناس بشأن مستقبله ومصيره ، بافكاره حول مستقبل ومصير بلده وشعبه .

وقد كان الكبار والصغار فى تلك الفترة التى اعقبت ما عانوه من محن فريسة حالة نفسية كئيبة ، لا يتبادلون فيها بينهم اية احاديث على وجه التقريب . اذ كانوا يفكرون فيما يخبئ لهم المستقبل وما قد يحل بسائر الارض السوفييتية . بيد ان كلا منهم كان يعانى ذلك على نحو خاص .

وقد كان ابن مارينا ، ذو الاعوام الثلاثة ، وابن خال اوليج اكثر الجميع اتزانا . فلم يكن يراوده ادنى شك فى استقرار ذلك العالم الذى يعيشه ما دامت امه وابوه الى جواره دائما . بيد انه وللحقيقة شعر بالرهبة ذات مرة حين ارعدت السماء وابرقت ، وراح الناس يهرولون مذعورين فيما حوله . بيد انه شب فى زمن كان كل شىء فيه يبرق ويرعد دائما ، ولذا فلم يبك الا قليلا ، وليهدأ روعه حيث بدا كل شىء على ما يرام . الا انه وجد ان الرحلة قد طالت بعض الشىء . وقد سيطر عليه ذلك الشعور على نحو خاص فى منتصف النهار حين شعر بالانهاك وراح يبكى متسائلا عما اذا كان سرعان ما سوف يصل الى جدته . لكنه ما كاد الركب يتوقف للاستراحة ، ليتناول طعامه ، وينهمك فى اللعب بعصاه ، ويدور رافعا هامته حول الجوادين كماتيى اللون ، اللذين كان كل منهما يعلو الجواد الاصهب مرتين ، ثم يغط فى نومه دافنا راسه بين ركبتى امه ، ما كاد يحدث كل ذلك حتى استقر كل شىء فى مكانه ، ليزخر العالم من جديد بكل الروائع والاعاجيب .

وقد كان الحوذى العجوز يظن ان حياته كانسان بسيط تقدم به العمر فى معزل عن الخطر فى ظل السيطرة الالمانية . بيد انه كان يخشى ان يستولى الالمان على حصانه اثناء رحلته هذه . علاوة على انه كان يخشى كذلك ان يحرمه الالمان من معاشه الذى كان يتقاضاه بوصفه حوذيا عمل بالمناجم اربعين عاما ؛ كما وتمادى بتفكيره الى ان الالمان لن يحرموه فقط من تلك المنحة التى كان يتقاضاها عن انخراط اولاده الثلاثة فى وحدات الجيش الاحمر المقاتلة بالجبهة ، بل وسوف يضطهدونه ازاء انه اب لمثل هذا العدد من الابناء المقاتلين فى الجيش الاحمر . هذا وقد كان القلق يساوره ازاء ما اذا كانت روسيا سوف تكسب الحرب . كان الخوف يراوده خشية الا تنتصر روسيا . عندئذ اسف الجد نحيف الجسد رمادى الشعر ، موبره عند مؤخرة رأسه ، ازاء كونه لم يمت فى شتاء العام الماضى حين الم به «النوبة» على حد قول الطبيب . غير انه كان يتذكر فى بعض الاحيان كل مراحل حياته ، تلك الحروب التى خاضها ، ويتذكر ان روسيا عظيمة ، غنيـة ، ازدادت فى السنوات العشر الاخيرة ثراء . . فهل يستطيع الالمان قهرها . . . قهر روسيا ؟ لقد

كان الجد ، حين تراوده مثل هذه الافكار ، يصاب بالرعشة ، وتهتز اعصابه ، مما يدفعه الى حك كعبيه الجافين السوداوين نتيجة الشمس الحارقة ، ويروح يحث الحصان الاصهب بصوته فيما ينفخ بشفتيه كالاطفال .

اما نيكولاى نيكولايفيتش خال اوليغ ، فقد كان آسفا بالدرجة الاولى ازاء كونه قد بدأ العمل بالمؤسسة على نحو جيد ، حيث استطاع كمهندس جيولوجي شاب تحقيق اكتشافات موفقة فريدة فى اولى سنوات عمله ، فيما تضطره الظروف الى الانقطاع عن عمله بمثل هذه الصورة المباغتة الرهيبة . وقد بدا له ان الالمان سوف يقتلونه حتما ، وان لم يفعلوا ذلك فسوف ينبغى عليه اظهار ضروب الخداع حتى يتخلص من الخدمة لديهم . هذا بينما كان يدرك انه لن يعمل لديهم فى كل الظروف ، حيث ان ذلك امر غير طبيعى وغير مريح كالسير على أربع .

وكانت العمة مارينا التى لم يتقدم بها العمر تستعرض فى ذاكرتها مصادر دخل الاسرة قبل وصول الالمان . وقد وجدتها كالتالى . . مرتب نيكولاى نيكولايفيتش ؛ معاش يلينا نيكولايفنا الذى كانت تتقاضاه عن المرحوم زوجها ، زوج ام اوليغ ؛ معاش الجدة فيرا فاسيليفنا ؛ الشقة التى افردتها لهم ادارة المؤسسة ، المزرعة الصغيرة الى جوار بيتهم . واتضح ان البنود الثلاثة الاولى قد فقدت بلا شك بوصول الالمان ، وقد يحرموا كذلك من بقية المصادر الاخرى . كانت تتذكر اولئك الاطفال الذين لقوا حتفهم عند المعبر ، ليتحول اشفاقها عليهم الى طفلها وتشرع فى البكاء . لقد تواردت الى خاطرها تلك الاقاصيص التى يحكونها بشأن تعرض الالمان للنساء بفظاظة ، واغتصابهن ، وعندئذ تذكرت نفسها هى المرأة المليحة التى ربما تتعرض لملاحقة الالمان ، ليصيبها الرعب تارة ، ولتفكر فى انها سوف تتبسط فى ملابسها وتغير من تسريحة شعرها تارة اخرى ، عسى ان يمر الامر بسلام .

اما والد فيكتور بيتروف – ناظر الغابة فقد كان يعلم ان العودة الى بيته تنذر بالخطر القاتل الذى يتهدده هو الانسان المعروف فى المنطقة بمساهمته فى النضال ضد الالمان عام ١٩١٨ ، ويتهدد ابنه عضو الكومسومول . بيد انه لم يجد الى الخلاص سبيلا حين راح

يفكر فيما عسى ان يفعله اليوم . لقد كان يعلم ان ثمة من ابقى حتما من رجال الحزب لتنظيم العمل الفدائى والسرى . بيد انه انسان تقدم به العمر عمل طوال حياته بشرف كناظر الغابة وتعود على كونه سوف يظل الى الابد فى هذه الوظيفة . لقد كان يحلم بان يستطيع منح ولده وبنته الفرصة كى يحصلا على مستوى جيد من التعليم . بيد انه وحين كانت تتسلل الى نفسه فكرة امكانية بقاء ماضيه مجهولا ، وانه سوف يحتفظ بامكانية العمل كناظر الغابة فى ظل السلطة الالمانية كان يشعر بحزن واشمئزاز يجعلاه ازاء رغبة جامحة تجتاحه هو الانسان القوى ، ضخم البنيان على الاشتباك فى عراك مع اى كان .

وفى نفس الوقت كان ابنه فيكتور يعيش مشاعر الاهانة والمرارة لتراجع الجيش الاحمر الذى كان موضع احترامه منذ الطفولة . ولقد كان مشرفا على حلقة النشاط العسكرى بمدرسته ، يعلّم الآخرين فنون القتال ويصقل قدراتهم الجسمانية تحت الامطار وفى الصقيع ، كما اوصى سوفوروف . ولم يكن انسحاب الجيش الاحمر ليحط من مكانته بطبيعة الحال ، لدى فيكتور . غير انه كان حزينا ، لعدم استطاعته فى حينه الانخراط فى صفوف الجيش الاحمر ضابطا ، اذ تصور انه لو كان قد تمكن من الالتحاق ضابطا به ، لما كان الجيش الاحمر قد تورط بالتاكيد فى مثل هذا الموقف العصيب الذى يثير الحزن . اما فيما يخص مصيره فى ظل الالمان ، فلم يكن يفكر فى ذلك ، حيث كان يعتمد كلية فى ذلك على ابيه وصديقه اناتولى بوبوف الذى كان يستطيع فى كل الظروف الحرجة ايجاد المخرج المباغت والسليم تماما .

وقد كان صديقه اناتولى يعانى بكل وجدانه لما تعرض الوطن له ، بينما يقضم اظافره فى صمت ، يفكر طوال الطريق فيما عساه اليوم ان يفعل . لقد قام طوال اشهر الحرب بالقاء سلسلة من المحاضرات باجتماعات الكومسومول حول الدفاع عن الوطن الاشتراكى ، لكنه لم يكن ليستطيع ان يعبر فى اى منها عن ذلك الاحساس بالوطن كشىء كبير صداح مثل امه تائيسيا بروكوفيفنا بقوامها الفارع البدين ووجهها المتورد المفعم طيبة ، واغانيها القوزاقية القديمة العجيبة والتى كانت تصدح بها الى جوار مهده . لقد كان

الاحساس بالوطن امرا لا يفارق كيانه ، يجعله يذرف الدمع حين تترامى الى مسمعه انغام اغنية حبيبة او حين يرى سنبلة قمح تداس ، او كوخ اضرمت فيه النيران . وها هو وطنه يعاني الكارثة ، تلك الكارثة التى لم يكن لينظر اليها او يفكر فيهـا دون ان يهصر الالم قلبه . يجب العمل . . العمل فورا ، لكن اين ، ومع من ؟

لقد كانت هذه الافكار تراوده وتراود كل رفاقه ، بنسـب متفاوتة.

ولم تكن هناك سوى اوليا تملك القدرة على التفكير سواء فى مصير وطنها ، او فى مصيرها الشخصى . فقد كان كل ما عانته منذ تلك اللحظة التى شاهدت فيها برج المنجم رقم ١ يتهاوى . . اى وداعها مع اعز صديقاتها وامها ، وذلك الطريق الذى قطعته عبر البرارى التى احرقتها الشمس واخيرا ، منطقة المعبر حيث جسد كل كيانها ما عانته ازاء منظر الجزء العلوى من جسد المرأة ذات المنديل الاحمر الذى كان يغطى راسها وقد تضرج بالدماء ، والطفل الذى جحظت عيناه من محجريهما ، كان كل ذلك يتجلى ثانية ، وثالثة امام ناظريها ليبدو كخنجر يغمد فى قلبها ثم يدور كرحى طاحونة ، فيما يقطر هذا الفؤاد دما . لقد كانت تسير الى جوار المركبـة صامتة ، وكانما هى هادئة الجنان ، ولم يكن يعكس ما يجيش به صدرها سوى امارات قوة كئيبة تجلت فى عينيها ومنخاريها وشفتيها .

غير ان جورا اروتيونيانتس كان على النقيض منها ، يعرف تماما كيف ستكون حياته فى ظل الالمان . فقد راح يفكر بصوت عال على نحو يوحى بالاعتزاز بنفسه :

— هؤلاء الضوارى ! هل يستطيع شعبنا مهادنتهم ؟ انه سوف يهب دون شك حاملا السلاح كما يفعلون فى المناطق المحتلة اليوم . ان ابى انسان يتسم بالهدوء ، غير اننى لا اشك فى انـه سوف يحمل السلاح . اما امى ، بما تتميز به من طباع ، فسوف تفعل ذلك ايضا وبالتاكيد . وكيف لنا ان نفعل ، نحن الشباب وقد سلك كبارنا هكذا ؟ اننا نحن الشباب ، يجب ان نجتمع ، او نلم اولا شمل بقية الرفاق الذين لم يرحلوا ، ثم نجتمع للاتصال فورا بمنظمة العمل الفدائى السرية . اننى اعلم انه قد بقى بكراسنودون وعلى اقـل تقدير ، فولوديا اوسموخين ، وتوليا اورلوف ، فهل سيقفان مكتوفى

الايدى ؟ اما ليوسيا ، شقيقة فولوديا ، فهى فتاة رائعة — وقد تجلت مشاعر جورا فى هذه الجملة — لن تنتحى جانبا باى حال من الاحوال .

وذكر فانيا زيمنوخوف لجورا فى تلك اللحظة التى لم يكن هناك سوى كلافا يعيرهما سمعا :

— اسمع . . انك ابرك ! ولعمرى نحن جميعا متفقون معك . الا انه يجب عليك الصمت . اولا . . فان هذا الموضوع رهن ضمير كل واحد فينا . وثانيا . . انك قادر على كفالة الجميع . فماذا يمكن ان نفعل ، نحن وانت ، اذا ما تولى هذا الامر آخر ، ثم باح بالسر ؟ وتسائل جورا وقد علت امارات الرضى عينيـه السوداوين :

— ولماذا سميتنى ابرك ؟

— لانك اسمر ، وتتصرف كما الفارس القوقازى .

وهمس جورا بصوت خافت :

— لك ان تعلم يا فانيا اننى سوف اختار كنية «ابرك» حين انضم للعمل الفدائى السرى .

وقد كان فانيا يشاطر جورا افكاره ومشاعره . بيد ان كل ما توارد الى خاطر فانيا كان مشبعا باحساسه بالسعادة ازاء كونه قريبا من كلافا ، وبالفخر حين تذكر سلوكه عند المعبر ، لحظة توجه اليه كوفاليوف قائلا : «فانيا . . انقذهما !» ، حيث تصور نفسه منقذ كلافا . وقد كانت هذه المشاعر فياضة متدفقة لان كلافا كانت تشاطره اياها . ولو لم يكن القلق يساور كلافا بشأن مصير ابيها ، وكذلك نحيب امها ، لكانت قد شعرت بالسعادة ، فى بساطة وصراحة مع محبوبها فى برارى الدونيتس الغارقة فى اشعة الشمس الحارقة وبالرغم من ظهور بروج الدبابات الالمانية تارة هنا واخرى هناك ، ومواسير المدافع المضادة للطائرات وخوذات الجنود الالمان الذين اندفعوا ينهبون حقول القمح الذهبية ، يلفهم هدير المحركات والغبار .

وبين كل اولئك النازحين الذين كانوا يفكرون على نحو متباين فى مصيرهم ومصير شعبهم كان ثمة شخصان متباينى ايضا الطابع والعمر ، لكنهما متشابهان اشد ما يكون التشابه بحماسهما الفائق

وحميتهما المتوقدة . وقد كان اول هذين الشخصين فالكو ، بينما كان الثانى — اوليج .

كان فالكو انسانا صموتا بطبعه ، ولم يكن هناك من يستطيع ادراك ما يجول بخاطره ويخفيه مظهره الفجرى . وقد خيّل ان حياته تشهد تبدلا نحو الاسوأ . ومع ذلك فلم يسبق لاحد ان رآه على هذا القدر من الحيوية والنشاط والمرح . لقد كان يقطع الطريق سيرا على الاقدام ، يغنى بالجميع ، يبادل الصبية الاحاديث عن طيب خاطر ، مع كل على حدة وكانما يختبرهم ، ويكثر من المزاح .

اما اوليج فلم يستقر كذلك فى مكانه على المركبة . كان يعرب علنا عن فروغ صبره ازاء رغبته فى رؤية امه وجدته . كان يفرك اطرافه فى سعادة ، منصتا الى جورا اروتيونيانتس ، بينما يروح تارة اخرى يضحك من فانيا وكلافا ، او يشرع فى تأتأة خفيفة محاولا تهدئة روع اوليا ، او يهدهد الطفل ذا الثلاثة اعوام ، او يفصح عن مشاعره فى حضرة العمة مارينا ، او يخوض حديثا طويلا حول الشؤون السياسية مع الجد . واحيانا كان يشرع فى السير الى جوار المركبة صامتا ، تغطى التجاعيد وجهه ، يند شبح ابتسامة عن شفتيه المكتنزتين اللتين انطبقتا على نحو طفولى مشوب بالعناد ، تشخص عيناه فى شرود ، مفعمة بامارات الاستغراق فى التفكير ، والرقة والقسوة فى آن واحد .

لقد كانوا على مسافة قريبة من كراسنودون حين هبت تلاقيهم مجموعة منعزلة من الجنود الالمان . وشرع الجنود الالمان على نحو عملى لا يتسم بالفظاظة ، يفتشون المركبتين ، لياخذوا كل ما هو حريرى من حقيبتى مارينا واوليا ، وانتزعوا حذائى والد فيكتور وفالكو ، كما صادروا ساعة الاخير الذهبية القديمة التى كانت تعمل على افضل وجه رغما عن انها غرقت فى المياه حين كان فالكو يشق امواج نهر الدونيتس .

وما لبث ذلك التوتر العصبى الذى الم بهم فى اول مواجهة مباشرة مع الالمان ، والتى كانوا يتصورون نهايتها اسوأ من ذلك ، ان تحول الى شعور بالارتباك والحيرة ، توارى فيما بعد لتنتاب الجميع حيوية غير طبيعية . اذ راحوا يقلدون الالمان لحظة تفتيشهم للعربتين ، يسخرون من مارينا التى اسفت كثيرا لفقدان جواربها

الحريرية ، ولم ينج من سخريتهم حتى فالكو ووالد فيكتور ، اللذين كانا اكثر الجميع احساسا بالارتباك والضيق ، بينما ينتعلان شبشبين . ولم يكن هناك سوى اوليج الذى لم يشارك الركب مرحه المصطنع ، تعلو وجهه امارات الحدة والحنق .

ووصل الركب الى مشارف كراسنودون ليلا ، لكنه لم يدخل المدينة وفقا لنصيحة فالكو الذى توقع فرض حظر التجول ليلا ، ولذا فقد توقف الجميع لقضاء الليل فى الوهدة . وكانت ليلة مقمرة لم يغمض لاى من النازحين فيها جفن لمدة طويلة ، حيث اضناهم القلق .

ومضى فالكو يستكشف ارجاء الوهدة ، ليتعالى الى سمعه فجأة دبيب خطوات فيما خلفه . والتفت الى الوراء ثم توقف ليتبين على ضوء القمر الذى عكست قطرات الندى اضواءه الناصعة ، اوليج الذى شرع يقول بصوت خافت مشوب بتأتأة خفيفة :

— ايها الرفيق فالكو ! اننى فى اشد الحاجة للحديث معك بعض الوقت .

واجابه فالكو ضاحكا :

— حسنا ، لكن يتحتم علينا ذلك وقوفا ، حيث الارض مبللة كما ترى !

وذكر اوليج وهو يتأمل عينى فالكو الغائرتين تحت حاجبيه الكثين :

— فلتساعدنى للاتصال باى من القائمين على العمل الفدائى بالمدينة .

ورفع فالكو راسه فى حدة يحدق النظر فى اهتمام الى وجه اوليج . فقد كان يقف حيال انسان من ممثلى الجيل الجديد الناشىء .

وقد كانت تشكل الوجه الناصع لهذا الجيل سمات فريدة لا رابط بينها على ما يبدو . الاحلام والواقع ، الخيال والحقيقة ، حب الخير والقسوة الصارمة ، التسامح والتقدير الدقيق للامور ، الحب الجارف للحياة ومباهجها وضبط النفس ازاء ذلك .

ولقد كان فالكو يدرك جيدا جوهره ، جوهر ذلك الجيل لانه كان جزءا منه على اقل تقدير .

وذكر فالكو مبتسما :

– ربما تكون قد وجدت هكذا احد الفدائيين ، فماذا علينا اذن ان نفعله . . ذلك هو ما سوف نتحدث بشأنه .

وراح اوليج ينتظر صامتا ، ليقول فالكو :

– اننى ارى ان قرارك هذا ليس وليد اليوم .

وقد كان محقا ، اذ انه ما كاد الخطر يحيق بفوروشيلوفجراد حتى توجه اوليج الى لجنة الناحيـــة للكومسومول ، يعرض جهوده للاستفادة بها فى تنظيم مجموعات العمل الفدائى . وقد كانت تلك هى المرة الاولى التى يخفى فيها نواياه عن امه .

ولشد ما اساؤوا اليه حين اجابوه دون تفسير الاسباب :

– اسمع يا اخ ! فلتجمع حاجياتك وترحل سريعا قبل ان تسوء الامور .

لم يكن يعرف ان لجنة المنطقة للكومسومول لم تشكل مجموعات خاصة للعمل الفدائى ، اما اعضاء الكومسومول الذين بقوا تحت تصرف منظمات الفدائيين ، فقد جرى تحديدهم فيما قبل . ولذا فقد كانت الاجابة التى جُوبه بها فى لجنة المنطقة لم تكن فظة بل كانت الى حد ما تعبيرا عن اهتمام بأمره . ولذا فقد اضطر الى الرحيل .

بيد انه وحين تبددت تلك الصدمة الاولى التى اثارتها الاحداث عند المعبر ، وحين ادرك اوليج انه لم يستطع الرحيل ، تواردت الى خاطره فكرة فحواها ان ما كان يحلم به قد غدا قريبا من التحقيق . وانزاح عن كاهله عبء الهروب ، وفراق امـــه ، والحيرة ازاء المستقبل المجهول ، ليترك العنان لكل القوى الكامنة فى اعماقه ، ولكل رغباته واحلامه وآماله ، وكل ما يجيش به صدره من حمية واندفاع الشباب .

ومضى فالكو يقول :

– لقد شعرت بالراحة حين اتخذت مثل ذلك القرار . وذلك امر يجعل طباعك شبيهة بطباعى . اننى وحتى الامس كنت اسير افكار لا تبارح مخيلتى . . كيف قمنا بتفجير المنجم تارة ، وكيف ينسحب جيشنا ويتعذب النازحون والاطفال تارة اخرى .

ثم اردف يقول فى صراحة متناهية : ان قلبى غارق فى دياجير الظلام . لقد كان من المفروض ان أتهلل غبطة لقرب لقاء عائلتى ، التى لم ارها منذ بداية الحرب ، بينما يتعالى وجيب قلبى . . «ماذا

بعد ؟» لقد كان الامر هكذا بالامس . . فماذا يخبئ لنا اليوم ؟ لقد تراجع جيشنا ، وفرض الالمان سيطرتهم علينا . . ولـــن ارى عائلتى . . وقد لا اراها ابدا . هذا بينما قد هدا روعى . . فما السر فى ذلك ؟ ربما لانه لم يصبح امامى سوى طريق واحد ، وذلك امر غاية فى الاهمية .

وكان اوليج يشعر فى تلك اللحظة وبالوحدة الكائنة فى ضواحى كراسنودون التى يغمرها ضوء القمر ، الذى تتلألأ اشعته فوق قطرات الندى ، ان ذلك الرجل صارم القسمات المتحفظ ذا الحاجبين الكثين كما الغجر يتحدث اليه فى صراحة ، وربما لم يكن يفصح عنها مع اى انسان آخر .

وقد ذكر فالكو :

– اسمع يا صديقى . . يجب عليك الآ تفقد الصلة بهولاء الشباب ، فانهم من ذوينا . لا تظهر ما فى مكنونك ، ولا تفقد صلتك بهم . ولتبحث عن شباب آخرين يصلحون للعمل معنا . وحذار ان تتصرف بدون علمى والآ كان الفشل حليفك . اننى سوف اخبرك بماذا يجب عليك ان تفعله ومتى يجب ذلك .

وتساءل اوليج :

– هل تعلم من الذى ابقى للعمل الفدائى بالمدينة ؟

واعترف فالكو صراحة :

– لست ادرى . .. لكننى سوف اجدهم حتما !

– وكيف لى ان اجدك ؟

– لا داعى لان تجدنى . وما كنت لأنبئك بعنوان مسكنى ، ان كان لى مسكن . غير اننى وصراحة لا املك بعد مسكنا .

وكم كان من المؤلم ان يحمل فالكو نبأ استشهاد الزوج والاب ، الآ انه كان قد قرر الاختباء فى الايام الاولى لدى اسرة شيفتسوف ، التى كانت تحبه وتعرفه . كما وكان يأمل عن طريق فتاة جسورة مثل ليوبكا تنظيم اتصالاته والبحث عن مسكن فى منطقة نائية مهجورة .

– من الافضل ان تترك لى عنوانك . وسوف اجدك عند الضرورة .

وراح فالكو يردد عنوان اوليج حتى وعته ذاكرته . ثم قال بصوت خافت :

— لا تخف وسوف اجدك حتما . واذا ما طال الوقت ولم تصلك اخبارى ، فلا تقلق وانتظر .
وأردف يقول وهو يربت براحته العريضة كتف اوليج قائلا :
— والآن . . اذهب !
وذكر اوليج بصوت يسمع بالكاد :
— شكرا لكم !
وتقدم عائدا ادراجه الى الركب تجتاح اعماقه مشاعر اضطراب تحلق به فوق الاعشاب المغطاة بقطرات الندى . كان الجميع قد خلدوا الى النوم ، وليس هناك سوى احصنة تلوك الاعشاب ، وكذلك فانيا زيمنوخوف الذى جلس الى جوار راس كلافا النائمة ، وامها ، وقد احاط ركبته المدببة بذراعيه .
وتوارد الى خاطر اوليج فيما تجتاحه مشاعر الحب والحنان ازاء كل الناس . . «آه ، يا فانيا ايها الصديق الحبيب !» . وتقدم نحو رفيقه ، ليجلس الى جواره مفترشا الاعشاب الغارقة فى قطرات الندى .
واستدار فانيا اليه بوجهه الذى كساه ضوء القمر شحوبا ، يسأله فى حيويه بصوت اجش :
— هيه . . ماذا قال لك ؟
وسأله اوليج وقد اعترته الدهشة والحيرة فى آن واحد :
— عما تسأل ؟
— ماذا ذكر لك فالكو ؟ هل يعرف شيئاً ؟
وتأمله اوليج فى غير ما حسم .
وذكر فانيا فى أسى :
— اوتظن انك قادر على ان تغرّر بى ؟ لسنا بصغار فى حقيقة الامر .
وهمس أوليج متسائلا ، وقد تزايدت دهشته ، محدقا بعينيه اللتين اتسعتا تعبيرا عن ذلك :
— كيف عرفت ؟
وذكر فانيا وهو يضحك ساخرا :
— ليست بالامر الصعب معرفة علاقاتك السرية ، حيث انها لا تتباين عن علاقاتى . اوتظن ان ما جال بخاطرك ، لم يرد الى خاطرى

كذلك .
— فانيا !
وامسك اوليج بيديه الكبيرتين راحة زيمنوخوف الضيقة يشد عليها بقوة ، ليجيبه فانيا بدوره على نفس النحو .
— هل يعنى ذلك اننا معا ؟
— بطبيعة الحال . . معا !
— الى الابد ؟
واجابه فانيا بصوت خافت للغاية وبكل جدية :
— الى الابد ، وطالما تجرى الدماء فى عروقى .
وراح كل منهما يتأمل الآخر ، فيما تشع اعينهما . ذكر اوليج فى فخر :
— اؤكد لك انه لا يعرف شيئا بعد . غير انه ذكر انه سوف يجدهم . . . وحقا يقول . وعليك الا تتأخر كثيرا فى نيجنيا الكسندروفكا .
واجابه فانيا وهو يومئ برأسه فى حسم ، وقد اعترته بعض الحيرة :
— كلا . . عليك الا تفكر فى ذلك . اننى سوف اعينهما فقط على الاستقرار فى البداية .
ومال اوليج الى وجه فانيا يهمس اليه متسائلا :
— هل تحبها ؟
— وهل يمكن الحديث فى مثل هذه الامور ؟
وذكر اوليج بنبرة تنم عما اتسم به وجهه من امارات سعادة مشوبة بالسذاجة :
— لك الا تخجل من ذلك ، حيث أن هذا الامر شىء رائع ، غاية فى الروعة . يا لها من رائعة . . رائعة . اما انت . . فاننى لا اجد ما يعيننى على التعبير عن فضائلك .
وذكر فانيا :
— ان الحياة رائعة رغما عن كل شىء ، وعن كل ما تعانيه ويعانيه سائر البشر .
— صحيح . . صـ . . . صحيح !
ذكر اوليج متأتئا على نحو اكثر من العادة ، بينما ترقرقت

الدموع فى عينيه .

كان قد انقضى اكثر من اسبوع قليلا منذ تلك الفترة التى شاء فيها القدر ان يجمع بالبرارى كل هؤلاء الناس متباينى الطباع ، الشباب منهم والشيوخ . وها هم يجتمعون للمرة الاخيرة وقد نشرت الشمس اشعتها فوق البرارى ، ليخيل اليهم انهم عاشوا حقبة طويلة من عمرهم جنبا الى جنب لتجتاحهم مشاعر الحزن والاضطراب والحنان حين تحين لحظة الفراق .

– هيه . . ايها الشباب ، وايتها الفتيات !

بدا فالكو حديثه هكذا ، حين وقف وسط الوحدة ينتعل شبشبا ، الا انه لم يقل اكثر من ذلك ليشيح بيده التى لوحتها الشمس على نحو غامض .

وتبادل الشباب عناوينهم ، وقطعوا على انفسهم عهودا بالتزاور ، ثم توادعوا فيما بينهم . وافترق الجميع تحتويهم كافة اتجاهات البرارى ، الا انهم كانوا ما يزالوا فى مرمى ابصار كل منهم الآخر ، ليروح البعض يلوح فى اتجاه الآخر بمنديل او بيده . وما لبثوا ان تواروا الواحد تلو الآخر فيما وراء التل او فى الوهدة ، وكانما لم يكن ذلك الطريق الطويل ، وتلك الحقبة الرهيبة تحت اشعة الشمس الحارقة .

وهكذا تجاوز اوليج كوشيفوى عتبة بيته الحبيب الذى احتله الالمان .

الفصل الحادى والعشرون

استقرت مارينا مع صغيرها فى الغرفة الصغيرة المجاورة للمطبخ ، حيث كانت تقيم الجدة فيرا ويلينا نيكولايفنا . اما نيكولاى نيكولايفيتش واوليج فقد صنعا لنفسيهما فراشين من الواح الخشب ، ليستقرا على اى نحو كان فى عنبر خشبى الى جوار المنزل .

وسرعان ما انهالت عليهم الجدة التى اضناها غياب سامعيها (حيث لم تكن لتستطيع ان تعتبر سميرها ذلك الخادم ذا الوجه الذى يغطيه النمش) بفيض من اخبار المدينة .

فمنذ يومين ظهرت المنشورات البلشفية المكتوبة بخط اليد على جدران مداخل اكبر المناجم ، وعلى مبانى مدرستى جوركى

وفوروشيلوف ، واللجنة التنفيذية للمنطقة ، وفى اماكن اخرى كثيرة . وكانت تلك المنشورات تحت توقيع «لجنة الحزب الشيوعى لعموم الاتحاد السوفييتى (البلشفى) بمنطقة كراسنودون» . وكان اكثر ما يثير الدهشة هى تلك الاعداد القديمة من جريدة «البرافدا» ، التى صدرت منذ سنوات تحمل صور لينين وستالين ، وتعلق اليوم جنبا الى جنب مع المنشورات . وتقول الاشاعات التى انتشرت استنادا الى اقوال الجنود الالمان ان الفدائيين يهاجمون خطوط مواصلات الالمان ووحداتهم العسكرية فى مختلف مناطق الاقليم ولا سيما عند الدونيتس وعلى حدود اقليمى روستوف وفوروشيلوفجراد فى منطقتى بوكوفو – انتراتسيتوفسكى وكريمينسكى .

وحتى اليوم لم يمثل اى من الشيوعيين او شباب الكومسومول لتسجيل اسمه لدى الحاكم العسكرى الالمانى (وفكرت الجدة فيما بين نفسها . . هل يمكننى ان امضى كى القى بنفسى فى اشداق الذئاب ؟ فليخنقهم الله كمدا وحسرة !) ، بيد ان هناك الكثيرين الذين افتضح امرهم وجرى القبض عليهم . ولم تكن هناك مؤسسة او هيئة تمارس عملها المعتاد ، بيد ان امر الحاكم العسكرى كان ينص على ضرورة توجه الجميع الى مقار اعمالهم والبقاء هناك طيلة ساعات العمل المحددة . وذكرت الجدة فيرا ان المهندس الميكانيكى باراكوف وفيليب بيتروفيتش ليوتيكوف يترددان للعمل بالورش الكهربائية الميكانيكية المركزية لمؤسسة «فحم كراسنودون» . وتقول الاشاعات ان الالمان لم يمسونهما . علاوة على انهم قاموا بتعيين باراكوف مديرا للورش ؛ اما ليوتيكوف فقد جرى الابقاء عليه فى وظيفته القديمة اى رئيسا للورشة الميكانيكية .

وظلت الجدة تفكر فى دهشة وسخط :

– من ذا الذى كان يتوقع ذلك من هذين الشخصين ؟ انهما عضوان حزبيان قديمان ! كما وكان باراكوف قد نال شرف القتال بالجبهة وجرح . اما ليوتيكوف فقد كان شخصية اجتماعية يعرفها الجميع . فما الذى حل بهما ؟

كما وذكرت ان الالمان يتصيدون اليهود بالمدينة ، لينقلوهم الى ضواحى فوروشيلوفجراد ، حيث اقيم لهم حسبما يقال «جيتو» ، بيد ان الكثيرين يؤكدون انهم ينقلونهم الى دغلة فيرخنيدوفانايا

حيث يعدمونهم ويهيلون عليهم التراب . وقد كانت ماريا أندريفنا بورتس قلقة جدا ازاء احتمال ان يشى احد بزوجها .

وقد تبدد ذلك الذهول الذى وقعت يلينا نيكولايفنا فريسة له ، وتزايد على نحو خاص مع مقدم الالمان ، منذ تلك اللحظة التى عاد فيها اوليج ادراجه الى منزله وكانما مسّتها يد سحرية . وغدت تتسم ثانية بحماسها الفائق وحيويتها البالغة . وراحت تحوم حول ابنها كانثى النسر حول وليدها الذى سقط من عشة . وكثيرا ما كان يشعر بنظراتها التى تتسم بالقلق المشوب بالتوتر والاهتمام متعلقة به وكانها تود ان تساله . . كيف حالك يا بنى ؟ هل فى مقدورك تحمل كل ذلك يا وليدى ؟

اما هو وبعد تلك الموجة من الحماس المعنوى التى اجتاحته اثناء طريقه ، فقد ادركته موجة من الذهول النفسى ازاء شعوره بأن الامور ليست كما تصورها باى حال من الاحوال .

اذ يتخيل الشاب الذى ينخرط فى غمرة النضال ، الحياة عامرة بسلسلة من المآثر والبطولات التى يحققها ضد التعسف والشر . الا ان الشر يبدو بعيدا عن متناول يده ، شيئا يصادفه يوميا دنيئا لا يطاق .

لم يجد اوليج حيا ذلك الكلب الكبير الاسود كث الشعر والذى كان يهوى ملاعبته . وبدا عاريا ذلك الشارع الذى اجتثت نباتات واشجار بساتينه وافنيته ؛ شأن الالمان الذين كانوا يذرعونه عراة ايضا وعلى ما يبدو .

ولم يعر الجنرال البارون فون فينتسيل اهتماما باوليج ومارينا ونيكولاى نيكولايفيتش ، كما لم يكن يعيره الجدة فيرا ويلينا نيكولايفنا .

ولم تكن الجدة فيرا تشعر فى الواقع ، باية اهانة فى تصرفات الجنرال على هذا النحو . وكانت تعلق على ذلك قائلة :

— هذا هو نظامهم ، وهو اشبه بذلك النظام العبودى الذى عاشه جدى وقص على احكامه وظروفه . لقد كان هناك آنذاك المان ، من كبار الملاك لا يقلون غطرسة وتعاليا عن ذلك البارون الذى ارجو ان تفقأ عيناه . فما الذى يجعلنى اعانى مشاعر الحزن والاسى ؟ انه لن يتبدل حتى يجىء رجالنا وينزلون به اقسى العقاب .

بيد ان اوليج كان يعتبر الجنرال بحذائه الضيق اللامع وعنقه المغسول ، المسؤول الرئيسى عن تلك المهانة التى لا تطاق والتى يعيشها اوليج وذووه وسائر البشر فيما حوله . وخيل اليه ان قتل الجنرال هو الامر الوحيد الذى يمكن ان يمحو آثار المهانة ، الا ان غيره سوف يحل محله ، وفى نفس الهيئة — ذو حذاء ضيق لامع وعنق مغسول .

اما مساعده طويل الساقين فقد راح يبدى اهتمامه الذى يتسم بالبرود والتهذيب ، بمارينا التى غدا يجبرها كثيرا على القيام بخدمته وخدمة الجنرال . وقد كانت عيناه عديمتا اللون حين تقعا على مارينا ، تتسمان بامارات الاحتقار والفضول الصبيانى وكانما يتأمل حيوانا غريبا قد يكون قادرا على تسليته كثيرا ، الا انه لا يدرى وسيلة للتعامل معه .

واليوم غدت التسلية المحببة لدى المساعد ، محاولة استمالة ابن مارينا الصغير ، بتقديم قطعة من الحلوى اليه ، ليلقى بها فى فمه حين تمتد يد الطفل اليها . وقد كان المساعد يعيد تلك الحركة مرة واثنتين وثلاث حتى ينخرط الطفل فى البكاء . وعندئذ يجلس المساعد القرفصاء يمد لسانه وقد علقت به قطعة الحلوى ، ليروح يمصها ويلوكها فى حركة استعراضية ، ضاحكا بصوت عال محملقا بعينيه الباهتتين .

وقد كانت مارينا تمقت كل شىء فيه . . . من ساقيه الطويلتين وحتى اظافره البيضاء على نحو غير طبيعى . انها لم تكن تتصوره ليس انسانا وحسب ، بل وحيوانا ايضا . لقد كان يثير فى نفسها الاشمئزاز ، كما يشمئز شعبنا من الضفادع والسحالى . وقد كانت تشعر حين كان يجبرها على خدمته ، بالاشمئزاز المشوب بالرعب ازاء كونها تخضع لسلطان مثل هذا المخلوق .

بيد ان الخادم ذا الوجه الملىء بالنمش هو الذى كان فى حقيقة الامر ، يجعل حياة الشباب صعبة لا تطاق . فقد كان وقت فراغه كثيرا لدرجة تثير الدهشة . وكان يعتبر نفسه رئيسا للخدم الآخرين وجنود الخدمة والطهاة الذين يعملون فى خدمة الجنرال . وقد راح يقضى وقت فراغه فى توجيه الاسئلة الى الموجودين من الشباب حول تفاصيل محاولتهم الهروب من الالمان ، وفشلهم فى

ذلك ، ليعيد عليهم مرارا تصوراته حول انه لا يمكن ان يفر من الالمان سوى المتوحشين والحمقى .

كان يلاحقهم فى العنبر الخشبى ، حيث كانوا يقيمون ، وفى الفناء ، حين كانوا يخرجون اليه لاستنشاق الهواء ، وفى البيت حين يكون الجنرال غائبا . ولم يكن يحررهم من ملاحقته سوى ظهور الجدة .

وكم كان غريبا ان ترهب الجدة فيرا ذلك الخادم ضخم القامة ذو اليدين الحمراوين ، والذى كان يعاملها مع ذلك على نفس النحو الذى يعامل به الآخرين . ولقد كان الخادم الالمانى والجدة فيرا يتفاهمان فيما بينهما بخليط عجيب من اللغتين الالمانية والروسية ، تدعمه ايماءات واشارات وتعبيرات للوجه والجسد ، دقيقة لاذعة عند الجدة ، بليدة ، بذيئة ، تتسم بالحماقة عند الخادم . بيد انهما كانا يفهمان بعضهما البعض على اكمل وجه .

ومنذ ذلك الحين يتجمع كل افراد الاسرة فى العنبر الخشبى صباحا وظهرا ومساء يتناولون طعامهم ، خلسة دون ان يراهم احد تقريبا . كانوا يتناولون حساء الكرنب الطازج والخضروات والبطاطس المسلوقة ، واقراص من دقيق القمح صنعتها الجدة كبديل عن الخبز . فقد افلحت الجدة فى اخفاء كثير من المؤن . بيد انه وبعد ان التهم الالمان كل ما وقعت عليه ايديهم ، راحت الجدة تعد طعاما لا يغنى عن جوع متظاهرة امامهم بأنه لا يوجد لديها ما يؤكل . بيد انها كانت حين يخلد الالمان الى النوم ليلا ، تقوم بالتوجه الى العنبر الخشبى حاملة قطعة من الدهن او بيضة نيئة . وكان ذلك الامر ، تناول الطعام خلسة تحت جنح الظلام ، يثير مشاعر المهانة .

لم يعلن فالكو بعد عن نفسه . كما ولم يظهر ثانيا . وغدا صعبا على المرء تصور تلك الطريقة التى سوف تجمعهم . كان الالمان موجودين فى كل بيت . وكانوا يترصدون بانتباه بالغ كل زائر . كما وكانت تثير شكوكهم اية لقاءات عابرة ، او حديث فى عرض الشارع .

وكان اوليج حين يتمدد فى فراشه مستندا برأسه الى ذراعيه وقد هجع الجميع فيما حوله ، وتسلل نسيم البرارى العذب عبر باب العنبر المفتوح ، وحين يبعث البدر باشعته الفضية يمزق ظلمة السماء ، راسما مثلثا قائم الزاوية من الظلال عند قدميه ، كان يشعر بسعادة مفعمة بالآلام لحظة تفكيره فى ان لينا بوزدنيشيفا

تقطن الى جواره فى نفس هذه المدينة . وقد كان طيفها يحوم حوله غامضا مبهما . . اذ تصور عينيها كثمرتى كرز تتالقان ليلا ، ذهبيتين تحت ضوء القمر . نعم ، لقد شاهد هاتين العينين فى الحديقة العامة ايام الربيع ، وقد يكون ذلك فى منامه . وترامت الى سمعه ضحكتها ذات النبرات الفضية ، والتى بدت على نحو غير طبيعى بحيث يغدو المرء قادرا على تحديد اصواتها ، وكأنما هى اصوات ملاعق ترتطم كل منها بالاخرى فيما وراء الجدار . لقد كان اوليج يرقد فريسة احساسه بقربه منها وافتراقه عنها ، ذلك الاحساس الذى يراود الشباب خاليا من الرغبة وتأنيب الضمير ، يحدوه امل اللقاء بها فى منامه .

وقد كان اوليج ونيكولاى نيكولايفيتش لا يدخلان بيتهما الحبيب الا لحظة تغيب الجنرال ومساعده عنه ، لتلسع انفيهما رائحة عطر معقدة ، ودخان مستورد ، وكذلك تلك الرائحة الخاصة بغير المتزوجين والتى لا يمكن لرائحة عطر او دخان ان تسودها ، وتميز على حد سواء مساكن الجنرالات والجنود الذين يعيشون بعيدا عن عائلاتهم .

ودلف اوليج الى المنزل لزيارة امه فى احدى تلك الساعات التى تتسم بالهدوء . وكان الطاهى الالمانى والجدة فيرا يلزمان مكانهما الى جوار الموقد كل يعد ما يخصه من طعام . اما الخادم فقد كان مستلقيا يدخن على كنبة فى الغرفة التى جرى استخدامها كغرفة للطعام ، دون ان يخلع حذاءه وكابه ، معانيا على ما يبدو من وطأة الملل . لقد كان مستلقيا فوق الكنبة التى كان اوليج يستخدمها عادة فراشا له .

وما كان اوليج يدخل الى الغرفة حتى تعلقت به عينا الخادم اللتان تعلوهما أمارات الكسل والملل . وصاح الخادم :

— قف ! يبدو ان الغرور قد بدأ يراودك . نعم ... اننى الحظ ذلك مع كل يوم . ثم استوى جالسا ، وقد القى الى الارض بقدميه الضخمتين فى حذائه ذى النعل السميك ، ليمضى قائلا :

— فلتسدل يديك جانبا وتضم كعبيك . انك تحادث من هو اكبر منك سنا !

لقد كان الخادم يحاول بذلك اثارة مشاعر الغضب فى نفسه ،

او الحساسية على اقل تقدير ، بيد ان حرارة الجو الخانقة انهكتـه لدرجة لم يعد معها قادرا على ذلك ، ليمضى صائحا :

— فلتنفذ ما تؤمر به ! هل سمعت ؟ هيه ، يا انت . . .

وفجأة تظاهر اوليج الذى كان يفهم كل ما ذكره الخادم وينظر الى النمش الذى يغطى وجهه فى صمت ، بالخوف ، ليجلس سريعا القرفصاء ، فيما يدق على ركبتيه ، صائحا :

— لقد اقبل الجنرال !

وهب الخادم على الفور واقفا ، لينتزع من فمه بسرعة سيجارته التى فركها بين اصابعه . وكست امارات استكانة بليدة وجهـه الكسول ، ودق كعبيه كل بالآخر ، ليقف جامدا . . انتباه !

وعلق اوليج على ذلك بصوت خافت فيما يشعر بسعـادة ازاء كونه قادرا على الافصاح عما يجول بخاطره دون خوف مـن ان يفهمه :

— حسنا . . ايها الاجير ! لقد استلقيت كما يحلو لك ، ما دام سيدك غائبا . . وعليك الآن ان تظل واقفا هكذا !

ومضى الى غرفة امه ، التى كانت تقف الى جوار بابها ، شاحبة الوجه ، ممسكة فى يدها بقطعة قماش كانت تحيكها . وكانت قـد سمعت بكل ما دار هناك ، حيث قالت :

— وهل يصح ذلك يا بنى . .

بيد ان الخادم اقتحم الغرفة فى تلك اللحظـة وقد استشاط غضبا ، ليصيح :

— فلتعد ثانية ! تعال هنا !

وكست الحمرة وجهه لدرجة لم يعد النمش معها باديا للعيان .

وقال اوليج بصوت شابته الرعشة ، ودون ان يرفع ناظريه الى الخادم وكأنما لا وجود له :

— لا تعيرى اهتماما يا اماه الى هذا الابله !

وزأر الخادم غاضبا :

— تعال هنا . .. ايها الخنزير !

واندفع فجأة الى اوليج ، ليمسك بكلتا يديه بتلابيبه ويهزه كما المسعور ، يحدقه بعينين بدتا ناصعتى البياض فى اطار وجهه القرمزى .

وصارت يلينا نيكولايفنا تتوسل الى ابنها ، فيما تحاول بيديها الصغيرتين ابعاد قبضتى الخادم الكبيرتين القرمزيتين عـن صدر ابنها ، قائلة :

— لا داعى . . ! لا داعى . . . ! فلتتنازل يا بنى . . ماذا يدعوك الى هذا . .

واذ كست الحمرة وجه اوليج كذلك ، امسك بكلتا يديه الخادم من حزامه فى اسفل السترة ، ليغمد عينيه البراقتين بكراهية لا حد لها فى وجهه ، مما جعله يرتبك لحظة من الزمن .

— دعنى . . هل تسمع ؟

همس اوليج بنبرة تنم عن الرعب ، فيما يشد الخادم ناحيته ، وقد غدا اكثر هياجا مما جعل الخادم يتردد بعض الشىء ، تعلـو وجهه امارات شىء أشبه بالخوف ، يعنى تشككه ازاء جدوى موقفه وسلوكه .

واطلق الخادم سراحه ، ليقف كل منهما فى مواجهة الآخر ، يلتقط انفاسه .

وراحت يلينا نيكولايفنا تردد :

— انصرف يا بنى . . انصرف !

وطفق الخادم يغمغم محاولا اضفاء معانى الاحتقار الى كلماته :

— همجى . . اشد الهمجيين همجية ! انه من الواجب ترويضكم جميعا بالسوط كما الكلاب .

وذكر اوليج وهو يتأمل عينيه البيضاوين فى كراهية شديدة :

— ليس هناك اشد الهمجيين همجية سواك ، حيث انك خادم المتوحشين ، ولا تستطيع سوى سرقة الدجاج ، والعبث فى حقائب النسوة ، ومصادرة احذية المارة .

كان الخادم يتحدث الالمانية ، بينمـا كان اوليج يتحدث الروسية ، بيد ان وجهيهما ووقفتهما كانت تعبر خير تعبير عن فهم كل منهما لما يقوله الآخر . وقد رفع الخادم راحته الغليظة ، حين كان اوليج يفرغ من سبابه ، لتهوى على وجهـه بقوة كادت ان تطرحه ارضا .

لم ترتفع طيلة حياة اوليج ، على مدى ستة عشر عاما ونصف ، يد لتهوى على وجهه سواء عقابا ، او تحت تأثير غضب او انفعال .

فقد كان الجو المحيط به منذ طفولته ، فى الاسرة وفى المدرسة جوا نقيا ، جو المنافسة الشريفة ، حيث العنف الجسمانى الفظ مرفوض ، شان السرقة والقتل والحنث بالقسم . واندفعت الدماء الحارة الى راس اوليج ، لينقض على الخادم ، الذى نكص نحو الوراء مستندا الى الباب . وتعلقت الام بكتفى ابنها ، تضمه الى صدره ، فيما تلمع عيناها الجافتان ، قائلة :

— اوليج ! عد الى وعيك ! والا فقد يقتلك .

وتحت وقع تلك الضجة هرعت الجدة فيرا ، ونيكولاى نيكولايفيتش والطاهى الالمانى فى طاقيته المميزة ومعطفه الابيض الذى ارتداه فوق سترته العسكرية . وقد كان الخادم ينهق كما الحمار . اما الجدة فيرا فقد راحت تصيح وتقفز حول الخادم ، كالدجاجة قبل ان تضع بيضتها ، تدفعه نحو غرفة الطعام وقد فردت ذراعيها الناحلتين اللتين تغيهما اكمام عريضة مزيّنة برسوم متعددة الالوان .

واخذت يلينا نيكولايفنا تهمس فى اذن ابنها :

— اوليجكا . . يابنى . . ارجوك واتوسل اليك . هناك النافذة مفتوحة . فلتنج بنفسك . . فلتهرب .

واجابها اوليج فى عزة نفس ، فيما ترتجف شفتاه ومنخاراه :

— من النافذة ؟ لن اهرب من نافذة بيتى .

ومضى يقول وقد هدأ روعه :

— لا تخافى يا اماه ! دعينى وسوف امضى رغما عن كل شىء .

ثم اضاف فجأة : اننى سوف اذهب الى لينا .

وتقدم فى خطوات حاسمة خارجا من غرفة الطعام ، ليفسح له الجميع طريقه . والتفت الى الخادم يقول له :

— يا لك من خنزير . . واى خنزير ! تضربنى حين تعلم انه يستحيل الرد عليك بالمثل . .

ثم خرج فى خطوات متثاقلة .

كانت وجنته تستعر نارا ، ومع ذلك فقد كان يشعر بانه حقق انتصارا معنويا . اذ انه لم يستكن ازاء الألمانى وحسب ، بل وادخل الرهبة فى نفسه ايضا . لقد كان عازفا عن التفكير فى عواقب فعلته . ان الامر سيان ! وقد كانت الجدة على حق حين تساءلت : هل لنا ان نرضخ لنظامهم الجديد ؟ كلا ، بحق الشيطان ! انه سوف

يعيش حسبما يتراءى له . وسوف نرى من ذا الذى يقهر الآخر !

وتجاوز بوابة السور الى الشارع الموازى لشارع سادوفايا . وقد التقى عند عتبة البيت بستيوبا سافونوف .

وتساءل ستيوبا القصير القامة ذو الراس الاشقر بنبرة تعكس سعادته بلقاء اوليج الذى راح يشد على يده الكبيرة بكلتا يديه :

— الى اين ؟ اننى قادم اليك . .

واعترى اوليج الارتباك .

— اننى ذاهب لقضاء امور . . .

وقد كان يود ان يضيف «عائلية» ، الا انه لم يجرؤ على ذلك .

وساله ستيوبا فى دهشة ، تاركا يده ، وكانما يتعمد طرح الأسئلة المحرجة :

— ان الاحمرار يعلو وجنتك . . فماذا حدث ؟

وذكر اوليج والابتسامة تعلو وجهه :

— لقد تشاجرت مع احد الالمان .

ونظر ستيوبا الى وجنة اوليج الحمراء فى احترام ليقول :

— ماذا تقول ؟ ان ذلك امر رائع ! ولقد جئت اليك بشان بحث قضية من هذا النوع .

وضحك اوليج متسائلا :

— اية قضية تقصد ؟

وامسك ستيوبا سافونوف باوليج من تحت ابطه قائلا :

— هيا بنا . . سوف ارافقك فى طريقك ، فقد يظن احد الالمان شيئا !

وذكر اوليج فى تأتأة :

— من الافضل ان ارفقك الى حيثما تشاء .

— لعلك تستطيع تأجيل ما اعتزمت القيام به لبعض الوقت لتذهب معى ؟

— الى اين ؟

— الى فاليا بورتس .

وشعر اوليج بتأنيب ضميره ازاء كونه لم يزر فاليا حتى ذلك الوقت .

— الى فاليا ؟ وهل يسكن المان بيتهم ؟

– كلا . . ولذا يغدو الامر اكثر اهمية . ولقد كنت قادما اليك من قبل فاليا فى حقيقة الامر .

يا لها من سعادة حقيقية ان تجلس فى بيت لا يسكنه الالمان ! تجلس فى حديقة وارفة الظلال ، ذات احواض الزهور تبدو وكأنما داخل اطار من الفراء ، بما يجعلها اشبه بطاقية الامير موناماخ وحيث شجرة الاقاصيا الباسقة الاغصان ذات الاوراق الخضراء الندية ، التى ترتفع ثابتة وكأنها التصقت بسماء البرارى الزرقاء .

وكانت ماريا أندرييفنا لا تزال تعتبر تلاميذها صغارا ، فراحت تضم اوليج الى صدرها ، تقبله قائلة :

– هل نسيت اصدقاءك القدامى ؟ انك لم تكلف نفسك منذ عدت ، عناء الظهور . . هل نسيتنا ! من ذا الذى يحبك اكثر منا ؟ من ذا الذى كان يجلس لدينا بالساعات قاطبا جبينه مرهفا السمع الى عزف البيانو ؟ واية مكتبة كنت تستمتع بكتبها وكأنما هى مكتبتك الخاصة ؟ هل نسيت . . يا اوليج ! آه منك يا اوليج . هذا ولك ان تعلم ان لدينا . . . وهنا امسكت براسها – كيف . .انه مختبئ !

وكست امارات الرعب عينيها ، لتهمس بصوت تعالى كما بخار القاطرة ليدوى فى كل ارجاء الشارع :

– نعم . . نعم . اننى لن اخبرك عن مكانه . كم هو مهين ان تختبئ فى بيتك . . يا له من عار ! ويبدو انه سوف يتحتم عليه الرحيل الى مدينة اخرى . ان هيئته لا تدل بوضوح على انه يهودى . . كيف ترى ذلك ؟ قد يشون به هنا . اما فى دونيتسك ، فلدينا أصدقاء اوفياء واقاربى من الروس . واردفت ماريا أندرييفنا تقول بينما علت امارات الحزن والاسى وجهها :

– نعم . . يتحتم عليه الرحيل !

بيد ان ماريا أندرييفنا كانت تتمتع بصحة جيدة ، لا تعكس فى واقع الامر مشاعر الاسى التى تجيش بصدرها والتى ينم عنها وجهها على نحو مصطنع بالرغم من صدق هذه المشاعر واخلاصها اللامحدود .

وتخلص اوليج من احضانها بعناء شديد .

وذكرت فاليا وهى ترفع شفتها العليا المكتنزة فى انفة :

– انها لصفاقة منك فى حقيقة الامر ! كيف لك ان تعود ولا تاتى لزيارتنا !

وذكر اوليج مبتسما على نحو ينم عن ارتباك :

– لقد كان فى امكانك ايضا زيارتنا .

وعلقت ماريا اندرييفنا على ذلك قائلة بصوت عال :

– ان كنت تؤمل على ان تكون الفتيات هن البادئات بزيارتك ، فاننى اضمن لك شيخوخة بلا رفيق !

ونظر اليها اوليج بمرح ، لينفجرا ضاحكين فى آن واحد .

وذكر ستيوبا سافونوف بامتنان :

– هل تعلمون انه تشاجر مع احد الالمان . الا ترون الحمرة تعلو وجهه !

ونظرت فاليا الى اوليج بفضول تسأله :

– هل تشاجرت حقا ؟ ماما ! – والتفتت نحو امها – يبدو لى انهم ينتظرونك بالبيت !

وذكرت ماريا اندرييفنا وهى تشيح بيديها البضتين عاليا :

– يا الهى . . يا لها من اسرار ! اننى ذاهبة . . ذاهبة !

واردفت فاليا تستجوب اوليج :

– مع ضابط ؟ ام مع جندى ؟

لم يكن اوليج يعرف ذلك الصبى الذى كان يجلس بالحديقة برفقة فاليا وستيوبا سافونوف . كان نحيفا عارى القدمين ذا شعر اشقر اجعد مفروق عند الجانب ، وشفتين بارزتين بعض الشيء ، يجلس فى صمت بين اغصان شجرة الاقاصيا ، لم يرفع ناظريه الحادين الثاقبين عن اوليج منذ لحظة وصوله . وكان ثمة ما يوحى فى نظرته ومظهره بالاحترام ، ولذا فقد كان اوليج يختلس النظر اليه من آن لآخر .

وذكرت فاليا بحسم عكسه صوتها وقسمات وجهها ، حين دلفت امها الى داخل المنزل :

– اوليج ! فلتساعدنا على الاتصال بمنظمة العمل الفدائى السرى . – ثم استطردت تقول حين لمحت على وجهه امارات عدم الاكتراث ، وان كان قد ابتسم فى ود :

– كلا . . فلتصغ الى ! لعلك تعرف كيف يتم ذلك ! فقد كان يزوركم كثيرون من اعضاء الحزب ، كما واعلم انك تصادق الكبار اكثر من مصادقتك للصغار .

واجابها اوليج والابتسامة تعلو وجهه :
– لقد فقدت الاتصال بهم للاسف !
وصاحت فاليا تقول وهي تلقى بنظرة سريعة الى ذلك الصبى الذى جلس بين اغصان الاقاصيا فى صمت . .
– فلتقل هذا لآخرين . ليس ثمة غريب بيننا .
لم تضف فاليا شيئا ، الا ان ذلك كان كافيا للاشارة الى ما يتسم به سيريوجا تيولينين .
وتوجه اوليج الى سيريوجا تيولينين ، دون ان يراوده ادنى شك فى انه ، سيريوجا تيولينين صاحب هذه المبادرة ، يقول له :
– انني حقا اقول . انني اعلم بوجود منظمة للعمل الفدائى السرى . اولا . . حيث اصدرت المنشورات ، وثانيا ، ليس ثمة شك فى ان حريق المؤسسة ومبنى الحمام من تدبيرها – وهنا لم يلحظ اوليج تلك الشرارة الصغيرة التى ومضت فى عينى فاليا ، وطيف الابتسامة الذى راود شفتها البضة العليا – . كما وانني اعلم اننا معشر الكومسومول سوف نتلقى التعليمات بشأن ما يتوجب علينا عمله .
وذكر سيريوجكا :
– ان الوقت يمضى ، فيما نتحرق شوقا للعمل !
وراحوا يستعرضون اسماء الفتيان والفتيات الباقين بالمدينة . وشرع ستيوبا سافونوف ، ذلك الودود الذى كان يصادق كل صبية وفتيات المدينة ، يصف كلا منهم على نحو جعل فاليا واوليج وسيريوجكا ينفجرون ضاحكين وقد نسوا اولئك الالمان الذين اثاروا هذا الموضوع بسببهم .
وتساءلت فاليا على حين غرة :
– واين لينكا بوزدنيشيفا ؟
وصاح ستيوبا :
– انها هنا ! لقد شاهدتها ذات مرة بالشارع . . تسير هيفاء القامة وقد عنيت بمظهرها على نحو غير طبيعى ، ترفع هامتها هكذا – ورفع ستيوبا يقلدها راسه بانفه الشامخ الذى يغطيه النمش ، ليبدو وكانما يحلق فى الحديقة ثم مضى يقول :
– لقد رحت اناديها «. . لينكا ! لينكا !» بينما لم تعرنى

اهتماما سوى بايماءة من راسها هكذا . . .
وضحكت فاليا فيما تختلس النظر الى اوليج فى دهاء :
– ليس ثمة شبه على الاطلاق !
وذكر اوليج وقد ندت عن شفتيه ابتسامة حزينة وتعلقت انظاره بفاليا :
– هل تذكرين كيف كنا نصدح بالاغانى فى بيتها على نحو رائع ؟ لم يمر على ذلك اكثر من ثلاثة اسابيع . . فمن ذا الذى كان يتوقع ذلك .
ثم هب من مكانه يعتزم الانصراف . كما ونهض يرافقه سيريوجا ، الذى راح يخاطبه فيما يرميه بنظرة سريعة تتسم بالحيرة :
– لقد حدثتنى فاليا عنك كثيرا يا اوليج . كما وان الارتياح قد داخلنى حين رأيتك . انني اقول لك ذلك للعلم ، ولن اتحدث عن هذا الموضوع فيما بعد . ولتسمع منى الحقيقة . . ليست ثمة منظمة فدائية سرية اشعلت النيران فى المؤسسة والحمام . لقد فعلت ذلك بنفسى !
ونظر اوليج الى سيريوجكا فيما تشع عيناه :
– كيف ذلك . . وحدك ؟
– نعم وحدى .
وسارا دون ان ينبسا ببنت شفة بعض الوقت ، ليقطع اوليج ذلك الصمت وامارات الود المشوب بالقلق فى آن واحد ترتسم على وجهه .
– انه لسيىء ان تفعل ذلك وحدك . انه لعمل رائع يتسم بالجراة ، ومع ذلك فسيىء ان تقوم به وحدك .
ثم استطرد يقول ، دون ان يعير اهتماما ملاحظات سيريوجكا الذى اشاح بيده فى حزن :
– اما عن المنظمة السرية فهى موجودة ، واعلم ذلك . . وليس فقط عن طريق المنشورات . لقد افلحت فى العثور على ما يهدينى اليها . . الا اننى لم اقتنص الفرصة .
وقص على اوليج اخبار زيارته لاجنات فومين بكل تفاصيلها ، ودون ان يخفى كونه قد اضطر الى ترك عنوان وهمى لذلك

الرجل الذى كان يختبئ هناك .
وتساءل اوليج فجاة :
– وهل حكيت لفاليا عن ذلك ؟
واجابه سيريوجكا فى هدوء :
– كلا . اننى لم احك لها عن ذلك !
وامسك اوليج بيده قائلا فى اضطراب :
– حسنا . حسنا جدا ! لعل فى وسعك ان تلتقى بهذا الرجل من جديد ، ما دام قد دار بينكما مثل هذا الحديث .
وذكر سيريوجكا وقد ظهر الى جانب شفتيه الممتلئتين ما ينم عن غضب :
– ان المسالة تكمن فى اننى غير قادر على ذلك ، حيث ان اجنات فومين قد وشى به لدى الالمان . انه لم يفعل ذلك على الفور ، بل انتظر خمسة او ستة ايام بعد وصول الالمان . وثمة من يقول فى «شانغهاى» انه كان يود عن طريق ذلك الشخص اكتشاف امر التنظيم ، الا ان الرجل كان بالغ الحرص . لقد انتظر ، الى ان طال به الانتظار ، ثم وشى به ، لينخرط فيما بعد فى العمل مع شرطتهم .
وهتف اوليج متسائلا :
– اية شرطة ؟
يا لها من امور قد شهدتها المدينة ريثما كان قابعا فى عنبره الخشبى !
– هل تعرف ذلك المبنى الخشبى ، الكائن فيما وراء اللجنة التنفيذية للمدينة ، حيث كانت تتمركز الميليشيا ؟ . . ان الدرك الالمانى يحتله اليوم ، ويقوم هؤلاء بتشكيل شرطة من الروس . ويقال انهم وجدوا وغدا نصبوه رئيسا ، ويدعى سوليكوفسكى ، كان يعمل رئيسا للعمال باحد المناجم الصغيرة فى المنطقة ، بينما يقوم فى الآونة الراهنة بالبحث عن رجال يعملون بالشرطة ، فيما بين حثالة القوم .
وساله اوليج .
– وماذا فعلوا بالرجل ؟ هل قتلوه ؟
وذكر سيريوجكا :
– اننى اعتقد انهم لم يبلغوا بعد هذه الدرجة من البلاهة كى

يقتلوه . انهم يسعون لمعرفة كل ما لديه من اسرار ، بيد انه ليس من اولئك الذين يتكلمون ! لعلهم يكونوا قد احتجزوه بالمبنى يسومونه العذاب ، فى محاولة لارغامه على الاعتراف . كما ان هناك محتجزين آخرين ، لكننى لست ادرى شخصياتهم . .
وفجاة انقبض قلب اوليج ازاء خاطرة مروعة . . فلربما يكون فالكو ذو الروح الفيّاضة والعينين السوداوين رهينة ذلك المبنى الخشبى ، فى زنزانة ضيقة معتمة ، بينما هو قابع مكانه فى انتظار اخباره ، وقد يكون اليوم عرضة لاقسى صنوف العذاب كما ذكر سيريوجكا .
وذكر اوليج بصوت اجش :
– اشكرك . . اشكرك على كل ما ذكرت لى من اخبار .
وقد افضى اوليج الى سيريوجكا بكل ما دار بينه وبين فالكو ، ثم وبين فانيا زيمنوخوف دون ان يراوده ادنى خوف من انه يحنث بوعده الذى قطعه على نفسه امام فالكو ، ولا يفكر الا فيما يجب عمله .
راح سيريوجكا واوليج يتهاديان السير بشارع ديريفياتايا الاول حافى القدمين ، بينما الثانى كعادته فى حذاء نظيف يدق به الارض فى قوة ورشاقة ، مستعرضا امام رفيقه خطة العمل : البحث بداب وبحذر عن الفدائيين البلاشفة وعلى نحو لا يضر بالقضية ؛ وسبر اغوار الشباب فى نفس الوقت ، والتركيز على اكثرهم اخلاصا وصمودا وجدوى ، ومعرفة اسماء الذين جرى اعتقالهم بالمدينة والمنطقة ، ومكان احتجازهم ، والبحث عن امكانية تقديم العون لهم ، واستطلاع كافة اخبار القيادة الالمانية وتحركاتها العسكرية والمدنية .
وسرعان ما انتعش سيريوجكا ، وراح يعرض على زميله تنظيم عملية جمع الأسلحة التى تناثرت كثيرة فى كل ارجاء المنطقة وحتى فى البرارى ، فى اعقاب تلك المعارك .
لقد كان كلاهما يدرك مدى عادية تلك الامور ، التى فى متناول قدراتهما ، لتستيقظ فى اعماقهما مشاعر الاحساس بالواقع .
وذكر اوليج شاخصا بعينيه اللامعتين الواسعتين :
– يجب ان يظل كل ما تبادلنا الحديث حوله ، وكل ما سوف نعرفه ونقوم به ، طى الكتمان لا يعرفه احد مهما كانت صلته

بنا ، وصداقته لنا . – ثم اضاف بنبرة قوية : – فالصداقة صداقة و . . . انها مسالة حياة او موت ! ان الامر يجب الاّ يعرف بـه سوى ثلاثتنا : انت وفانيا وانا . وسوف نعرف ما يتوجب علينا القيام به حين نجد وسيلة للاتصال .

ولزم سيريوجكا الصمت بعض الوقت ، فلم يكن يحب التشدق بالوعود والكلمات الرنانة .

وساله اوليج :

– ماذا هناك اليوم فى الحديقة العامة ؟

– لقد حولوها الى جراج للسيارات ، تحيط بها المدافع المضادة للطائرات ، وحفروا ارضها مثل الخنازير .

– يا لحديقتنا المسكينة ! وهل يقطن بيتكم المان ؟

وضحك سيريوجكا ساخرا وقد ادرك مغزى سؤال اوليج :

– انهم ما بين غادى ورائح ، حيث لم يرق بيتنا فى اعينهم . غير انه يستحيل اللقاء عندنا ، فالبيت عامر بالناس .

– سوف نظل على اتصال عن طريق فاليا .

وذكر سيريوجكا فى ارتياح :

– بالتاكيد .

وظلا يسيران حتى بلغا المزلقان حيث شد كل منهما على يد الآخر . وقد كانا متقاربى السن ، جمعهما ذلك الحديث القصير ، ووطّد علاقتهما وحفز حماسهما .

كانت عائلة بوزدنيشيف تقطن حى «سينياكى» ، تشارك آخرين بيتا نموذجيا ، كما كانت تشاطـر اسرة كوشيفوى بيتهـا آل كوروستيليف . وابصر اوليج على البعد نوافذ مسكنها المفتوحة على مصاريعها ، تغطيها ستائر قديمة من التل ، وترامت الى اسماعه انغام بيانو وضحكات لينا الرنانة ذات النبرات الفضية . وكان ثمة من عزف بقوة وحماس على البيانو مقدمة لحن يعرفه ، بينما شرعت لينا تغنى ، بيد أن العازف اخطأ اللحن ، لتنفجر لينا ضاحكة ، ثم راحت تنشد وحدها تشرح له الخطأ وتبين الصواب ليعود كل شىء من جديد .

وقد داخل الاضطراب اوليج تحت وقع صوت لينا وانغـام البيانو لدرجة جعلته برهة من الزمن عاجزا عن تجاوز عتبة البيت . فقد كانت تلك الاصوات تعيد الى ذاكرته تلك الامسيات الخوالى

التى كان يقضيها فى ضيافة لينا فى دائرة عدد من الاصدقاء كـان يبدو آنذاك كبيرا . كانت فاليا تعزف على البيانو بينما كانت لينا تصدح بالغناء ، اما اوليج فقد كان يرنو الى وجههـا الذى تعكس قسماته بعض الاضطراب ، سعيدا معجبا باضطرابها وصوتهـا وانغام البيانو التى سجلتها روحه الى الابد وملأت كل عالم صباه .

آه ، لو لم يكن تخطى عتبة هذا البيت الى ابد الآبدين !آه . . لو كان قد احتفظ فى اعماق كيانه بتلك المشاعر التى جسدتها انغام الموسيقى وروتق الصبا ، وخفقان قلبه ازاء حبه الاول !

بيد انه كان قد دلف الى المدخل ، ثم الى المطبخ . وفى ذلك المطبخ الضعيف الاضاءة ، والكائن فى الجهة التى لا تزورها الشمس الاّ قليلا ، وقع نظره على ام لينا ، نحيفة القوام ترتدى رداء داكن اللون ، وقد صففت شعرها فى دوائر كما كانوا يفعلون فى الماضى ، تجلس حول مائدة المطبخ الصغيرة برفقة جندى المانى – اشقـر الشعر ، مثل ذلك الخادم الذى تشاجر معه ، ولا يختلف عنه الاّ فى غياب النمش عن وجهه ، قصير القامة ، بدين الجسد ، وتؤكد كل المعايير انه خادم كذلك . كانا يجلسان فى دعة والفة ، بمـا يوحى انهما لا يفعلان ذلك للمرة الاولى ، كل يواجه الآخر . وكان الخادم الالمانى وقد ندت عن شفتيه ابتسامة تنم عن تادب ورضا ، يتناول شيئا من كيس كان يضعه على ركبتيه ، ليمـد به يده يناوله لام لينا ، بينما تحمل نظراته اليها معنى الدلال . اما الأم فقد كانت تتناول ذلك بيديها المرتجفتين لتضعه فيما بين ركبتيها وقد علت وجهها النحيل امارات العرفان النسائى العجائزى بحقيقة ان ذلك امر لا يستهدف سوى ارضائها ، فيما تند عن شفتيهـا ابتسامة تملق ومداهنة . وقد كان كلاهما منهمكا فى هذا الامر غير المعقد ، وان كان قد ملك عليهما كل حواسهما ، لدرجة انهما لم يلحظا دخول اوليج الذى استطاع تمييز ما استقر عـلى ركبتى ام لينا . . . علبة سردين عريضة ، قالب من الشيكولاته ، وعلبة من الصفيح سعة نصف لتر ذات سدادة لولبية ، مستطيلة الشكـل تغطيها ورقة صفراء اللون ازرقه ، مثل تلك التى كان يراها عند الالمان فى بيتهم – انها علبة زيت زيتون .

ولاحظت والدة لينا دخول اوليج لتتحرك يداها بصورة عفوية ،

لتبدو وكأنما تحاول اخفاء ما استقر على ركبتيها ، بينمـــا ابصره الخادم كذلك ليحدق النظر اليه ممسكا بكيسه .

وفى نفس الوقت توقف عزف البيانو وغناء لينـــا ، لتتعالى ضحكتها ، وضحكات رجال آخرين مشوبة بمقاطع جمـــل قيلـــت بالالمانية . وذكرت لينا بصوت انفرط عقد نبراته الفضية :

— كلا . . كلا . . اكرر ، هنا وقفة ، ثم تكرار مرة اخرى ، ثم الاستمرار . . .

وجرت بأصابعها الرقيقة على مدرجات البيانو . ورفعت الام حاجبيها القليلى الشعر تقول فى دهشة بصوت يتسم بحنان مصطنع :

— آه . . لقد جئت يا اوليج ! الم تكن قد رحلت ؟ هل تود رؤية لينا ؟

وبمهارة فائقة ، اخفت ما استقر على ركبتيها فى درج المائدة ، وتحسست شعرها باصابعها المعروقة ، وكأنما تتأكد من تصفيف دوائره ، وهبطت بعنقها ليستقر فيما بين كتفيها ، وشمخت بأنفها وذقنها ، ثم دلفت الى الغرفة ، من حيث تعالى صوت لينا وانغام البيانو .

ولبث اوليج واقفا مكانه فى منتصف المطبخ وقد امتقع وجهه وانسدلت يداه ، ليبدو كما الاهوج الاخرق ، تلسعه نظرات الخادم الالمانى التى تنم عن اللامبالاة .

وتناهى الى سمعه صيحة دهشة وارتباك ندت عن لينا ، التى همست بشىء الى الرجال الموجودين بالغرفة ، وكأنما تعتذر لهم ، ليتعالى دبيب خطواتها تهرول الى الخارج . وبدت لينـــا عند باب المطبخ فى رداء رمادى ذى رسومات داكنة اللون ، يبدو فضفاضا ، يحيط بقدها الاهيف ، عارية العنق الرقيق ، سمراء ، عارية الذراعين اللتين اتكأتا على قائمتى الباب ، لتقول فى ارتباك جعلت الحمرة تكسو وجهها الاسمر :

— اوليج ؟ اننا هنا . . .

بيد انها بدت وكأنما لم تكن قد اعدت ما تفسر به قولهـــا «اننا هنا . .» ، لتندفع نحو اوليج فى طيش انثوى ، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة كاذبة ، لتمسك بيده تجره وراءها ، ثم تتركها

قائلة «هيا ، هيا» ، وتوقفت عند عتبة الباب ، ثم التفتت اليه ، تومىء برأسها ، تدعوه مرة أخرى .

ودلف اوليج الى الغرفة فى اثرها ، وقد كاد يصطدم بامها التى مرت سريعة من جواره . كان ثمة ضابطان المانيان يرتديان لباسا رماديا متشابها ، يجلس احدهما الى البيانو وقد التفت قليلا نحوهما ، بينما كان الآخر يقف فيما بين النافذة والبيانو ، ينظران الى اوليج بلامبالاة ، لا تنم قسمات وجهيهما عن شىء سوى عن تقبل وضع حتمته الظروف .

وذكرت لينا بصوتها الفضى :

— انه احد تلاميذ مدرستنا . فلتجلس يا اوليج . . الا تذكر هذه الاغنية ؟ اننى ابذل قصارى جهدى ساعة باكملها حتى يحفظاها . اننا سوف نكررها ثانية ايها السادة ! فلتجلس يا اوليج . .

ورفع اوليج عينيه ذات الاهداب الذهبية ، يتأملها ليقول بصوت واضح مركز ، لتبدو كل كلمة من كلماته ، صفعة تهوى عـــلى وجهها :

— ماذا يدفعون لك ؟ يبدو . . انهم يدفعون زيت زيتون ؟ يا لك من بخسة الثمن !

ودار على عقبيه ، لينسل الى الشارع متجاوزا امها ، وذلك الخادم البدين ذا الرأس الاشقر الذى يشبه رؤوس كافة الخدم الالمان .

الفصل الثانى والعشرون

وهكذا اختفى فيليب بيتروفيتش ليوتيكوف ، ليظهر على نحو جديد تماما . فماذا شهدته حياته ابان تلك الفترة ؟

اننا نذكر انه كان قد اختير فى خريف العام الماضى للعمـــل الفدائى السرى . وقد اخفى فيليب بيتروفيتش هذا النبأ آنذاك عن زوجته ، وكان سعيدا بقراره هذا والذى يؤكد بعد نظره ، حيث كان خطر الاحتلال قد تلاشى بعض الشىء .

بيد ان فيليب بيتروفيتش كان يذكر ذلك دائما ، كما وكان ايفان فيدوروفيتش بروتسينكو كرجل بالغ الحرص بعيد النظر ، يجعله على استعداد معنوى دائم .

— من ذا الذى يدرى ما يخبئه لنا المستقبل ! ان قضيتنا المشتركة تحتم علينا التمسك كما الطلائع بشعارى «. . كن مستعدا !» ، «انى على استعداد دائما !» .

هذا وقد ظلا فى موقعيهما هذين اللذين جرى اختيارهما فى خريف العام الماضى . . بولينا جورجيفنا سوكولوفا ، ربة منزل ، التى لم تكن عضوا بالحزب ، وتعرفها المدينة كاحدى نشطاء العمل النسائى ؛ ليوتيكوف ، النائب بمجلس المدينة ، الذى يعرفه كل سكان كراسنودون . وقد كانت ظروف العمل السرى تحد من تحركاته واتصالاته بالمدينة . كما وكان من المفروض ان تقوم بولينا جيورجيفنا سوكولوفا بدور حلقة الاتصال . . اى تكون عينيه وذراعيه وقدميه .

وقد تخلت سوكولوفا تماما عن نشاطها الاجتماعى منذ تلك اللحظة التى وافقت فيها على القيام بهذه المهمة ، وبناء على نصيحة ليوتيكوف . وفى بادئ الامر اثارت تلك الظاهرة حيرة النسوة من صديقاتها ، ثم رحن فيما بعد يلمنها ازاء كونها فى مثل تلك المرحلة العصيبة التى يواجهها الوطن تنتحى جانبا ، بعيدا عن النشاط الاجتماعى . بيد ان الامر بدا على النحو التالى . . لم يكن هناك من عيّنها او رشحها لهذه المهمة ، حيث كانت تعمل من تلقاء نفسها ، طواعية ريثما كان ذلك يروق لها . وكم من الامور يمكن ان تشهدها حياة المرء ! فلربما يطرأ على حياته ما يجعله ينغمس فى اموره المعيشية . وقد تكون الحياة العصيبة فى ظل الحرب هى التى دفعته الى مثل هذا النمط . وتدريجيا بدأ سكان المدينة ينسون وجود بولينا جيورجيفنا .

لقد ابتاعت بقرة ، دفعت ثمنها نقودا الى احدى العائلات النازحة نحو الشرق ، وشرعت تتردد على السكان تبيعهم اللبن . ولم تكن اسرة فيليب بيروفيتش تحتاج الى كمية كبيرة من اللبن . فلم يكن تعدادها يتجاوز الثلاثة اشخاص . . هو ، وزوجته يفدوكيا فيدوتوفنا ، وابنته رايا ذات الاثنى عشر ربيعا . كما وكانت تبتاع الحليب لدى بولينا جيورجيفنا ، صاحبة البيت بيلاجيا ايلينيتشنا ، واطفالها الثلاثة وامها العجوز التى كانت تعيش معها . كما واعتاد كل الجيران رؤية مع تباشير صباح كل يوم امراة ذات وجه روسى

صبوح ، متواضعة الملبس ، تغطى راسها بمنديل ابيض كما الريفيات ، تسير فى خطوات متثاقلة نحو بيت بيلاجيا ايلينيتشنا ، تمد اصابعها الرقيقة بين القوائم الخشبية ترفع مزلاج بوابة السور ، تدق فى رفق النافذة المطلة على المدخل . وكانت تهرع تفتح الباب والدة بيلاجيا ايلينيتشنا التى كانت تصحو من نومها مبكرا عن الآخرين ، بينما كانت سوكولوفا تلقى بتحية الصباح فى مودة ، وتدلف الى داخل المنزل ، لتخرج بعد برهة من الزمن حاملة سطل اللبن فارغا .

كانت اسرة ليوتيكوف تسكن ذلك البيت منذ مدة بعيدة . وقد تصادقت زوجة ليوتيكوف يفدوكيا فيدوتوفنا مع بيلاجيا ايلينيتشنا . هذا وكانت رايا وليزا الابنة الكبرى لصاحبة البيت ، والمتقاربتان فى السن ، تدرسان فى صف واحد بمدرسة واحدة . اما زوج صاحبة البيت والذى سافر الى الجبهة منذ اول ايام الحرب ، فقد كان يصغر فيليب بيتروفيتش بحوالى خمسة عشر عاما ، ويعتبر نفسه تلميذه ويعامله بوصفه استاذا له . وقد احيل الى الاستيداع بعد ان كان ضابطا بسلاح المدفعية ، ليعمل فى مجال التجارة .

وقد توصل فيليب بيتروفيتش فى خريف العام الماضى الى معرفة ان بيلاجيا ايلينيتشنا لن تتجاسر وهى صاحبة هذه الاسرة الكبيرة وبدون عائلها ، على مبارحة المدينة وترك بيتها وممتلكاتها اذا ما حل الالمان . وعندئذ بالذات طرأت لدى فيليب بيتروفيتش فكرة ارسال اسرته الى الشرق اذا ما استدعت الضرورة ذلك ، على ان يبقى وحده بمسكنه القديم .

وقد كانت صاحبة ذلك المسكن ، بيلاجيا ايلينيتشنا احدى اولئك النسوة البسيطات الشريفات اللاتى يزخر بهن مجتمعنا . وكان فيليب بيتروفيتش يدرك انها لن تساله عن شئ ، بل وسوف تتظاهر حتى بأنها لا تدرى او تعلم شيئا . وسوف يكون ضميرها بذلك اكثر راحة واستقرارا ، اذ لم تلتزم بشئ ، ومن ثم فهى غير مسؤولة عن اى شئ . كما وسوف تلتزم الصمت ، وتقوم باخفائه ولن تشى به حتى اذا تعرضت للتعذيب ، من وحى ايمانها بالانسان ، وبعدالة قضيته ، بل وشفقة وعطفا بوصفها انثى .

وقد كانت شقتها مكانا يناسب فيليب بيتروفيتش ، اذ كان

بيت بيلاجيا ايلينيتشنا من اوائل البيوت الخشبية التى جرت اقامتها الى جوار منجم تشوريلين ، ولذا فقد سميت المنطقة وحتى اليوم «تشوريلينو» . كما وكانت وهدة «تشوريلينسكايا» ، تمتد فيما وراء المنزل مباشرة الى اعماق البرارى . وبوجه عام فقد كانت المنطقة ، تعتبر منطقة نائية مقفرة ، وان كانت بالفعل كذلك .

وفى تلك الساعة الرهيبة من شهر يوليو ، وحين اضطر فيليب بيتروفيتش رغما عن كل شىء الى مصارحة زوجته يفدوكيا فيدوتوفنا ، اجهشت فى البكاء قائلة :

— لقد تقدم بك العمر ، وصرت مريضا . فلتذهب الى لجنة المنطقة وتعرض عليهم الامر ، وسوف يعفونك حتما . . . فلنرحل الى كوزباس .

قالتها فجاة لترتسم على عينيها تلك الامارة التى كانت تبدو دائما حين تشاطره ذكريات الصبا ، والرفاق الطيبين وما يجيش به صدرها . فقد جرى الى كوزباس تهجير كثير من عمال المناجم برفقة عائلاتهم ، وضمنا اصدقاء فيليب بيتروفيتش وصديقات زوجته منذ سنى الطفولة . . فلنرحل الى كوزباس ! — لقد قالتها وكانما يمكنهم العيش هناك على نحو طيب كما كان حالهم فى موطنهم ايام الصبا .

يا لها من امراة مسكينة ! وكانما لم تكن تعرف زوجها فيليب بيتروفيتش .

وذكر فى صرامة محدقا فى عينيها اللتين كانتا تعكسان امارات التوسل ، بما يعنى انه لن يتحمل توسلاتها ودموعها :

— لا تتحدثى معى حول هذا الموضوع اكثر من ذلك . فلقد تقرر الامر . كما ويستحيل بقاؤكما هنا ، حيث سوف يكون ذلك عقبة فى طريقى . ان وجودكما معى سوف يضنينى روحى . . .

ثم انحنى يقبل زوجته ، وظل فترة طويلة يضم الى صدره ابنته الوحيدة الحبيبة .

كانت اسرته ، شأن عائلات اخرى كثيرة ، قد تاخرت كثيرا فى الرحيل عن المدينة ، وعادت ثانية حتى دون ان تبلغ الدونيتس . غير ان فيليب بيتروفيتش لم يسمح لزوجته وابنته رغما عن ذلك بالبقاء معه ، وبحث لهما عن مكان لاقامتهما فى عزبة بعيدة عن المدينة .

١٩*

وعلى مدى ثلاثة اسابيع ، أسفرت عن تغيرات بالجبهة لصالح الجيوش الالمانية ، شهدت اللجنة الحزبية للاقليم ، ولجنة الحزب بمدينة كراسنودون نشاطا جارفا استهدف استقطاب اعضاء جدد للعمل بالمنظمات السرية وفرق العمل الفدائى . وقد ارسلت للعمل تحت اشراف ليوتيكوف مجموعة كبيرة من قادة منطقة كراسنودون وغيرها من المناطق .

وفى ذلك اليوم المشهود ، حين توادع فيليب بيتروفيتش مع بروتسينكو ، عاد الرجل كعادته فى ايام العمل الى منزله . وكان الاطفال يلعبون بالشارع ، بينما لزمت العجوز الغرفة المعتمة ذات الشبابيك المغلقة اتقاء لحرارة الجو . وكانت بيلاجيا ايلينيتشنا تجلس بالمطبخ وقد وضعت احدى يديها المعروقتين اللتين لفحتهما الشمس فوق الاخرى ، مستغرقة فى تفكير عميق عكسته قسمات وجهها الوسيمة ، لدرجة لم يعدها حضور فيليب بيتروفيتش الى وعيها على الفور ، حيث راحت تشخص ببصرها نحوه دون ان تراه برهة من الزمن .

وراح فيليب بيتروفيتش يحادثها :

— اننى لم ارك تجلسين هكذا ، لا تفعلين شيئا على مدى تلك السنين الطوال التى اعيش فيها لديك . ماذا يدعوك الى الحزن ؟ هوّنى عليك !

ورفعت فى سكون يدها المعروقة لتضعها ثانية فوق اليد الاخرى .

ولزم فيليب بيتروفيتش مكانه بعض الوقت امام صاحبة المسكن ، ثم ولج الى الداخل فى خطوات متئدة ثقيلة . ثم عاد بعد قليل وقد خلع غطاء رأسه ورباط عنقه ، ينتعل حذاء ويرتدى نفس جاكتته الجديدة فوق قميص ابيض مفتوح الياقة . وقد صار اثناء سيره يمشط شعره الكث الذى خطه الشيب على نحو غير متسق ، بمشط اخضر كبير .

واذ فرغ من تمشيط شاربه القصير الشائك ذكر :

— لقد كنت اود الحديث معك يا بيلاجيا ايلينيتشنا . لقد اشتركت فى جريدة «البرافدا» منذ قبلونى عضوا بالحزب فى عام ١٩٢٤ ، تلبية «لنداء لينين» . وقد احتفظت بكافة اعدادها ، حيث استفدت منها كثيرا فى عملى ، فى اعداد التقارير ، والقاء المحاضرات

فى الندوات السياسية . ولعلك كنت تظنين ان الصندوق الكائن فى حجرتى مليء بمختلف الملابس . . . انه مليء فى الواقع بالجرائد .

وابتسم فيليب بيتروفيتش . ولم يكن يبتسم كثيرا ، ولذا فقد اضفت تلك الابتسامة على وجهه ملامح الرقة ، ليبدو على نحو غريب . ومضى يتساءل :

— ماذا انا فاعل بها اليوم ؟ لقد ظللت اجمعها سبعة عشر عاما . كم يؤسفنى ذلك . . .

ولزم كلاهما الصمت بعض الوقت . ثم تساءلت بيلاجيا ايلينيتشنا ، وكأنما توجه الى نفسها ذلك السؤال :

— اين لنا ان نخبئها ؟ يمكن دفنها بالارض . . فلنحفر فى الحديقة ، لنضعها كما هى ، فى صندوقها .

وسأل فيليب بيتروفيتش :

— واذا ما احتجنا اليها ؟ قد نحتاج اليها . .

وكما توقع ، لم تسأله بيلاجيا ايلينيتشنا عن السبب الذى يمكن ان يجعله فى حاجة الى الجرائد السوفييتية فى ظل الالمان ، بل ولم تبد على وجهها امارات الاهتمام بالامر . الا انها سألته فيما بعد :

— انك يا فيليب بيتروفيتش تسكن لدينا منذ زمن بعيد ، ولعلك تعرف كل خبايا بيتنا ، ولذا اسألك عما اذا كنت تستطيع ان تلحظ شيئا اذا ما جئت خصيصا لتفتيش المطبخ ؟

وراح فيليب بيتروفيتش يجيل النظر فى امعان وجدية الى المطبخ . . مطبخ انيق صغير لبيت ريفى صغير . ولم يتوقف نظره كانسان عامل الا على الارضية الخشبية المدهونة ، من الواح عريضة قصيرة صفت متجاورة فيما بين قائمتين ، وليست من الواح طولية كالعادة ، مما يعنى بعد نظر من صاحب البيت الذى وضع فى اعتباره امكانية تأثر الاخشاب تحت ثقل الفرن الروسى ، وحيث يغسلونها كثيرا ، مراعاة للنظافة . وذكر ليوتيكوف :

— ليس ثمة شيء يدعو الى الغرابة !

— هنا قبو قديم تحت المطبخ .

ونهضت بيلاجيا ايلينيتشنا من مكانها ومالت قليلا لتتحسس نقطة داكنة باحد الالواح ، قائلة :

— من المفروض ان تكون هنا حلقة ما . وهناك سلم صغير . . .

وتساءل فيليب بيتروفيتش :

— هل يمكن رؤيته ؟

واغلقت بيلاجيا ايلينيتشنا مزلاج الباب ، ثم سحبت بلطة من وراء الموقد . بيد ان فيليب بيتروفيتش رفض استخدامها ، حتى لا يترك آثارا بالارضية . وتسلح ليوتيكوف بسكين كبير بينما امسكت بيلاجيا بسكين صغير آخر ، وراحا ينظفان فى حرص ما علق باللوح من قاذورات ، الى ان استطاعا فى نهاية الامر وبصعوبة رفع ثلاثة الواح قصيرة ثقيلة ثبتت متشابكة .

وكان ثمة سلم صغير من اربع درجات يفضى الى القبو . وهبط فيليب بيتروفيتش اليه واشعل عود ثقاب ، ليبدو كل شيء فى القبو جافا ، لا اثر للرطوبة فيه . وقد كان من الصعب تصور مدى جدوى ذلك القبو المدهش .

وصعد فيليب بيتروفيتش الدرج الى المطبخ ثم اغلق فتحة القبو فى حرص قائلا :

— ارجو الا تغضبى منى ، الا اننى اود الحديث اليك فى موضوع آخر . اننى سوف اسوى امورى بطبيعة الحال فيما بعد ، ولن يمسنى الالمان ، غير اننى اخاف ان يقتلونى بمجرد وصولهم ، وتحت تأثير الانفعال . ولذا فاننى اذا ما تطلب الامر سانزل الى هناك — واشار باصبعه الى القبو .

— واذا ما حدث واقام الجنود هنا ؟

— لن يقيموا هنا . . انه حى تشوريلينو ! كما واننى انسان متواضع ، وسوف الزم مكانى هنا ! وليس ثمة ما يدخل الحيرة الى نفسك .

وعلت امارات الارتباك والحيرة وجهه ازاء تلك اللامبالاة التى اتسم بها وجه بيلاجيا ايلينيتشنا .

— ليس هناك ما يحيرنى ، حيث ان دورى بسيط .

— اذا ما تساءل الالمان عن ليوتيكوف فلتقولى لهم انه يعيش هنا ، وذهب الى القرية لابتياع المأكولات وسوف يعود حتما . وستعاوننى ليزا وبيتكا على الاختباء . كما وسوف اجعلهما يتناوبان الحراسة بشأنى نهارا .

وتحولت بيلاجيا ايلينيتشنا بنظرها اليه ، لتهز رأسها فجأة

ثم تنفجر ضاحكة . وقد كان فيليب بيتروفيتش صارم المظهر ، مربيا بالفطرة ، يحب الاطفال ويعلم خصائصهم مما يجعله قادرا على ترويضهم . كما وكانوا بدورهم يتوقون اليه . كان يعاملهم كالكبار ، ويستطيع كصانع ماهر وفى حضرتهم الاستفادة من اية مواد ، يصنع منها كل شىء اعتبارا من اللعبة البسيطة وحتى الاشياء المفيدة معيشيا .

لم يكن يفرق على الاطلاق فى معاملاته بين ابنته وابناء اصحاب البيت ، ولذا فقد كانوا جميعا ينفذون فى سعادة بالغة كل ما يشير اليهم به .

وكان زوج بيلاجيا ايلينيتشنا يقول له احيانا :

— لعله من الافضل ان تدعوهم للاقامة لديك يا عم فيليب ، لقد عودتهم عليك ، بينما هم يرون فيك اباهم متناسين والديهم .

— وكان يتساءل فيما ينظر الى الاطفال غاضبا :

— اولا تنتقلون للعيش عند العم فيليب بصفة دائمة ؟

وكانوا يجيبون جوقة واحدة ، وهم يحيطون بالعم فيليب يحتضنونه :

— لا . . لن نذهب !

ويمكن للمرء ان يصادف فى شتى مجالات النشاط ، مختلف الطباع التى تميز القيادات الحزبية ، التى تتسم بصفة خاصة تبدو للعيان على نحو اكثر وضوحا . ولعل الموهبة التربوية هى ما يميز غالبية الشخصيات الحزبية القيادية . ولسنا بمعرض الحديث هنا عن العاملين الذين تعتبر التربية الحزبية ، والتوعية السياسية هى صلب مهمتهم الاساسية ، بقدر ما نتحدث عن نمط المربى الحزبى فى شتى المجالات الاقتصادية او العسكرية او الادارية او الثقافية . ولقد كان فيليب بيتروفيتش ليوتيكوف من اولئك المربين الحزبيين الذين جرى الحديث عنهم .

فلم يكن يحب ممارسة العمل التربوى بين الناس ويعتبره ضروريا فحسب ، بل وكان يشعر بذلك كضرورة طبيعية . لقد كان تعليم الآخرين وتربيتهم ومشاطرتهم معلوماته وخبراته ، امرا يفعله بوحى الفطرة .

وللحقيقة نقول ان ذلك اضفى سمة الوعظ والارشاد على كثير من اقواله . بيد ان عظات ليوتيكوف لم تكن تحمل طابع الارشادات

اللجوجة ، حيث كانت من ثمار عمله وتفكيره ، وقد تقبلها الناس على هذا النحو بالذات .

وكان ليوتيكوف ، شأن هذا النمط من القادة بوجه عام ، يتسم بترافق اعماله مع اقواله . وكانت السمة الاساسية التى جعلت من فيليب بيتروفيتش ليوتيكوف مربيا من طراز جديد ، تكمن فى قدرته على تجسيد كل كلمة يقولها عمليا ، وعلى جمع الناس مختلفى الطباع حول هذا العمل ، وغرس الحماسة فى نفوسهم بهذا الشأن . لقد كان مربيا جيدا لكونه بالذات رجلا يحسن التنظيم ، ويجيد تسيير الامور الحياتية . لم تكن عظاته لتمر دون ان تؤثر فى الآخرين ، ومن ثم دون ان تستحثهم على العمل ، وخاصة فى اوساط الشباب الذين يتميزون بتوقد الانفعالات ولا سيما ازاء الفكرة التى يجدونها مجسدة فى قدوة ماثلة امامهم .

وقد كان يكفيه فى بعض الاحيان ان يتفوه بكلمة واحدة ، او يرنو بمجرد نظرة . هذا وكان ليوتيكوف غير محب للكلام بطبعه ، ان لم يكن صموتا بوجه عام . كما وكان يبدو للوهلة الاولى بطىء الحركة ، بل وخاملا فى نظر بعض الناس ، الا انه كان فى الواقع هادئ الجنان ، متزن التفكير ، واضح الافق ، ينظم وقت فراغه ببراعة فيما بين النشاط الاجتماعى والقراءة والعمل الجسمانى واللهو .

وكان فيليب بيتروفيتش ساكن الطباع ، لا يفقد السيطرة على نفسه ، يستطيع التزام الصمت فى نقاشه مع الآخرين ، يحسن الاصغاء الى الآخرين ، وتلك صفة غاية فى الندرة . ولذا فقد جمع بين سمات السمير الجيد ، والانسان ذى الروح الفياضة ، مما جعل الآخرين يلجأون اليه لبحث امور اجتماعية وشخصية لم يكونوا ليتجاسرون الحديث بشأنها حتى مع ذويهم .

وعلى الرغم من كل تلك السمات التى اتصف بها لم يكن يمكن القول عنه انه انسان طيب ، او ومن باب اولى لين الطباع . لقد كان نزيها ، صارما ، وعنيفا لا يلين ان تطلب الامر ذلك .

لقد كان البعض يكن حياله مشاعر الاحترام ، فيما يكن البعض الآخر مشاعر الحب ، كما وكان هناك من يرهبه . ويجب القول بوجه ادق ان كل من كان يتعامل معه ، وزوجته واصدقاؤه

ضمنا ، كانوا يكنون ازاءه كل تلك المشاعر مجتمعة ، بنسب تتجاوب مع طابع كل منهم على حدة . واذا ما قسمنا هؤلاء الناس وفقا لاعمارهم يمكننا القول ان الكبار كانوا يحترمونه ويحبونه ويرهبونه فى آن واحد ، اما الشباب فقد كانوا يحترمونه ويحبونه ، بينما كان الاطفال يحبونه .

وهذا هو ما دفع بيلاجيا ايلينيتشنا الى الضحك حين ذكر فيليب بيتروفيتش ان «ليزا وبيتكا سيساعداننى» .

وقد قام الاطفال بالفعل وطيلة اولى ايام اختفاء فيليب بيتروفيتش بعد وصول الالمان ، بتناوب مراقبة الشارع وحراسته .

لقد كان سعيد الحظ ، حيث لم يسكن اى من الجنود الالمان منزل بيلاجيا ايلينيتشنا ، اذ كان هناك كثير من المنازل الافضل والاكثر رحابة بالمدينة ، بل وحتى على مقربة منه . كما وكانت الوحدة فيما وراء المنزل تبث الرهبة فى قلوب الالمان الذين كانوا يخشون الفدائيين . وللحقيقة فقد كان الجنود الالمان يعرجون فى بعض الاحيان الى منزل بيلاجيا ايلينيتشنا ، لتفتيشه ، والحصول منه على ما تقع عليه اياديهم . وكان فيليب بيتروفيتش يلجا دائما الى القبو الكائن تحت ارضية المطبخ . بيد انه ما من احد كان يسأل عنه .

وصباح كل يوم وكالعادة ، كانت تاتى بولينا جيورجيفنا متواضعة هادئة تعصب رأسها كالقرويات بمنديل أبيض ، لتصب الحليب فى قدرين من الفخار ، ثم تتوجه حاملة سطلها الى فيليب بيتروفيتش . وقد كانت بيلاجيا ايلينيتشنا تلزم مكانها برفقة امها بالمطبخ ريثما تقوم بزيارته . اما الاطفال فقد كانوا يغطون فى نومهم آنذاك . وكانت بولينا جيورجيفنا تخرج من عند ليوتيكوف لتجالس المراتين بعض الوقت تبادلهما الثرثرة .

وهكذا مرت فترة من الزمن تناهز الاسبوع او ما يزيد قليلا . وذات مرة وقبل ان تفضى بولينا جيورجيفنا بأخبار ما يدور من احداث ، ذكرت بصوت خافت :

— يدعونك للعمل يا فيليب بيتروفيتش . . .

وتغيرت ملامح الرجل فجاة ، حيث تخلت عنه فى لحظة واحدة

امارات الهدوء واللامبالاة ، وتثاقل الحركة التى كانت تبدو احيانا كما الجمود .

وهب فى قوة كما الاسد نحو الباب ، ليجول بنظره فى الحجرة المجاورة تاكدا من ان لا احد هناك ، ثم سالها :

— هل يدعون الجميع ؟

— نعم الجميع . .

— اهو نيكولاى بيتروفيتش ؟

— نعم هو . .

وحدق النظر فى عينى سوكولوفا متسائلا فى فضول :

— وهل كان هو ؟

ولم يكن فيليب بيتروفيتش بحاجة الى ان يشرح لبولينا جيورجيفنا ، كيف لها ان تجد باراكوف ، فقد كانت تعرف كل ذلك ، حيث اتفقت معه فيما سبق حول ذلك الامر . واجابته بصوت يسمع بالكاد :

— نعم كان .

ولم يبد الرجل حراكا ، ولم يرفع عقيرته ، الا ان جسده الضخم ووجهه المتهدل وعينيه وصوته عكسوا دفقة من الطاقة وكانما ثمة مفتاح لولبى قد لُفّ حتى نهايته .

ودس اصبعيه المستقيمين الرقيقين والبدينين فى آن واحد فى جيب سترته الخارجى ، ليتناول قصاصة من الورق صغيرة ، مكتوب عليها بخط دقيق ثم ناولها الى بولينا جيورجيفنا .

— غدا . . صباحا ، وبكمية اكبر !

ودست بولينا جيورجيفنا الورقة فى صدرها على التو ، مخفية اياها .

— فلتنتظرى قليلا بغرفة الطعام ، وسوف ارسل لك اصحاب البيت .

ودلفت بيلاجيا ايلينيتشنا وامها الى الغرفة المجاورة حيث انتقلت فى اثرهما بولينا جيورجيفنا تحمل سطلها . وراحت النسوة يتبادلن وقوفا انباء الشارع ، الى ان نادى فيليب بيتروفيتش على سوكولوفا لتذهب اليه بالمطبخ .

كان فيليب بيتروفيتش يمسك بلفة من الجرائد ، مما جعل

امارات الدهشة ترتسم على وجه بولينا جيورجيفنا . لقد كانت مجموعة من اعداد «البرافدا» طواها مرتين ثم لفّها على شكل اسطوانى ؛ ومد يده بها اليها قائلا :

— فلتضعيها بالسطل ، وعليهم ان يلصقونها هناك فى نفس الاماكن البارزة للعيان .

وعلا وجيب قلب بولينا جيورجيفنا ، حين تصورت للوهلة الاولى ، ومع استحالة ذلك الامر ، ان فيليب بيتروفيتش تسلم آخر اعداد «البرافدا» . ولم تتمالك نفسها صبرا ، حيث القت بنظرها على تاريخها قبل ان تدسها بالسطل قائلة دون ان تخفى مشاعر خيبة الامل :

— انها قديمة .

وذكر ليوتيكوف :

— كلا . . انها ليست قديمة . ان البرافدا (الحقيقة) البلشفية لا تقدم !

وتصفحت على عجل بعض الاعداد ، وكانت فى مجملها اعدادا صدرت ايام الاعياد فى مختلف السنين ، تحمل صور لينين وستالين . وقد ادركت المغزى الذى كان يقصده ليوتيكوف ، لتطوى الجرائد على الفور وتدسها بالسطل .

وذكر فيليب بيتروفيتش :

— وحتى لا أنسى . . فليخرج اوستابتشوك الى العمل اعتبارا من الغد . .

واومات بولينا جيورجيفنا براسها فى صمت . ولم تكن تعرف ان اوستابتشوك هو ماتفى شولجا ؛ كما لم تكن تعرف مكانه ، حيث كان يتوجب عليها نقل تعليمات ليوتيكوف الى مسكن كانت تبيع اللبن اليه ايضا .

ومد فيليب بيتروفيتش يده اليها قائلا :

— شكرا . . هذا هو كل شيء !

وعاد ثانية الى الغرفة ، حيث ارتمى الى المقعد فى تثاقل ، وقد اتكأ براحتيه مفرودتى الاصابع على ركبتيه ليظل هكذا برهة من الزمن . ونظر الى الساعة التى كانت قد تجاوزت السابعة بقليل . وراح يخلع قميصه الذى اتسخ ، فى تثاقل وبطء ، ليرتدى آخر

ابيض نظيفا وربطة عنق . ثم مشط شعره الذى وخطه الشيب عند مقدمه وفوديه ، وارتدى جاكتته وخرج الى المطبخ ، حيث كانت بيلاجيا ايلينيتشنا وامها تجلسان بعد خروج بولينا جيورجيفنا . وذكر يخاطبهما :

— هيه يا بيلاجيا ايلينيتشنا ، فلتقدمى الى قليلا من حليب البقرة المسعورة ، وبعض الخبز ما دام موجودا . اننى سوف انصرف الى العمل .

وبعد عشر دقائق تقريبا راح فيليب بيتروفيتش يخطو فى تثاقل وعلى مشهد من الجميع بشوارع المدينة فى اتجاه الورش المركزية لمؤسسة «فحم كراسنودون» انيقا ، نظيف الملبس ، يغطى راسه بكاب اسود .

الفصل الثالث والعشرون

وصلت الى كراسنودون فى اثر قوات الجيش العامل وحدات «النظام الجديد» الادارية بجنودها وضباطها من مختلف الرتب . وكان واحدا من اولئك الملازم شفيديه ، عجوز ناحل الجسد وخط الشيب راسه ، فنى يعمل بمايسمى بكتيبة المناجم . ولم يكن اى من سكان كراسنودون قد لاحظ وصوله ، حيث كان شان بقية العسكريين الالمان يرتدى نفس الزى الذى لم يكن ثمة من يميز علاماته الدالة على الرتبة العسكرية .

وقد شغل الملازم شفيديه منزلا نموذجيا يتكون من اربع شقق ، به اربعة مطابخ عمرت جميعها بالحركة والنشاط منذ اللحظة الاولى التى ظهر فيها هذا السيد الالمانى . وكان شفيديه قد جاء برفقة عدد كبير من الموظفين الالمان ، الا انهم شغلوا جميعا مساكن اخرى ، ولم يقطن معه سوى عدد من الطباخين الالمان ، ومدبرة منزل المانية وجندى للقيام على خدمته . وسرعان ما تكاثر عدد العاملين لديه بقدوم «السيدات الروسيات» ، كما كان يدعو الخادمات — الغسالة والمترجمة والخياطة ، وكذلك المشرفات على حظائر الابقار والخنازير والطيور ، اللاتى ارسلهن اليه مكتب العمل . وكانت الابقار والخنازير قد ظهرت لدى السيد

شفيديه وكانما استجابة لعصا سحرية ، الا ان تربية الدواجن المنزلية كانت هوايته المفضلة .

بيد ان ذلك لم يجعل ملازم كتيبة المناجم متميزا فى نهاية الأمر عن قرنائه الضباط الالمان الآخرين . ورغما عن كل ذلك فقد أثار اهتمام المدينة بأسرها . فقد شغل الملازم شفيديه والموظفون الآخرون القادمون معه مدرسة جوركى الكائنة بالحديقة العامة ، والتى ظهرت محلها مؤسسة جديدة سميت «بالادارة رقم ١٠» .

وقد اتضح أن «الادارة رقم ١٠» أى تلك المؤسسة العسكرية هى هيئة اقتصادية ادارية رئيسية تشرف على كافة مناجم منطقة كراسنودون والمؤسسات التابعة لها بما فيها من معدات وادوات لم يسعف الوقت العاملين بها لنقلها اونسفها ، وبعمالها الذين لم يسعفهم الوقت للرحيل ، أو الذين عجزوا عن ذلك . وقد كانت هذه المؤسسة احد فروع كثيرة لجمعية مساهمة كبيرة ذات اسم كبير يوحى بالكثير «الشركة الشرقية لتشغيل مؤسسات الفحم والمعادن» . وقد كان مقر الشركة بمدينة ستالينو التى اطلق عليها الألمان «يوزوفسك» ، وقد اعتمدت ماتسمى «بالشركة الشرقية» على «الادارات المحلية لمؤسسات المناجم والتعدين» . وكانت الادارة رقم ١٠ ، شأن الادارات الأخرى تتبع الادارة المحلية بمدينة شاختى .

وقد جرى تنظيم وتخطيط كل شىء على نحو لم يبق معه سوى ان ينساب فحم ومعادن حوض الدونباس السوفييتى ليصب فى جيوب «الشركة الشرقية» الألمانية . وأصدر السيد شفيديه تعليماته بأن يبدأ العمل على الفور كل عمال وموظفى ومهندسى وفنيى مناجم ومصانع مؤسسة «فحم كراسنودون» السابقة .

وكم من الشكوك المضنية انهكت آنذاك روح العامل قبل ان يضطر الى اتخاذ قرار الاستمرار فى العمل ، حين أصبحت مناجمه ومصانعه ملكا لاعداء الوطن ، وحين يستشهد الابناء ، والاخوة ، الازواج والآباء فى ساحة القتال ضد اعداء الوطن . وقد كانت امارات الكآبة والتجهم والحيرة تعلو وجوه العمال والموظفين الذين خرجوا للعمل بالورش المركزية ، كما وكانوا يتحاشون النظر كل الى الآخر ، فيما يلتزمون جميعا الصمت .

كانت أبواب الورش مفتوحة على مصاريعها منذ آخر أيام التهجير . لم يكن ثمة من يغلقها او يحرسها ، حيث لم يكن هناك من يهمه أمر بقاء معدات الورش فى الحفظ والصون . كانت أبواب الورش مفتوحة ، الا انه لم يكن هناك من دخلها . وقد استقر العمال فرادى ، وليس جماعات ، أو ازواجا فيما ندر ، بين الحطام وبقايا المعادن فى الفناء ينتظرون الرئاسة فى صمت .

وهنا ظهر المهندس الميكانيكى باراكوف ، فارع القامة ، قوى البنية يبدو فى سن تقل عن عمره الحقيقى الذى يناهز الخامسة والثلاثين ، يعكس وجهه ، امارات ثقة فى النفس ، متانق الملبس الى حد كبير . كان يرتدى رباط عنق اسود ، يمسك فى يده بقبعته بينما تبدى راسه الحليق لامعا تحت اشعة الشمس . وتقدم باراكوف الى مجموعة العمال المتناثرة بالفناء ، يحييهم فى تادب ، ثم تمهل برهة ، ليندفع فى خطوات حاسمة نحو المبنى الرئيسى . ولم يرد العمال تحيته ليرافقوه بانظارهم صامتين حتى دلف الى المكتب عبر الورشة الميكانيكية .

لم تتعجل القيادة الألمانية الحضور . وكانت الشمس قد اتخذت مكانها عاليا بالسماء ، حين عبر البوابة الى الفناء السيد فيلدنير نائب شفيديه ، برفقة مترجمة روسية صففت شعرها على نحو احتفالى .

وكما يحدث كثيرا فى حياتنا هذه كان السيد فيلدنير يقف على طرفى نقيض مع رئيسه من حيث مقوماته البدنية والنفسية . فقد كان الملازم شفيديه نحيل القوام ، دائم الشك صموتا ، بينما كان فيلدنير عريض المنكبين ، ربعة وثرثارا . وكان صوته جهوريا ، يمكن ان يسمعه المرء على مسافة بعيدة متعدد النبرات بحيث يتصوره مجموعة من الألمان احتدم نقاشها . وكان السيد فيلدنير يرتدى الزى العسكرى تعلو راسه قبعة رمادية ارتفعت مقدمتها عالية .

وتقدم فيلدنير برفقة المترجمة الى العمال الذين راحوا ينهضون من اماكنهم الواحد تلو الآخر ، مما كان مثار ارتياحه بعض الشىء . وطفق يتحدث مع المترجمة ليواصل على الفور حديثه الموجه الى العمال والذى بدأ جملة طويلة ، او بضع جمل قصيرة متصلة . وقد واصل صراخه فيما كانت المترجمة تقوم بعملها ، مما يؤكد انه

لم يكن يعرف فى حياته معنى الصمت . ولربما كان يواصل صراخه منذ تلك اللحظة التى اطلق فيها صرخته الاولى عقب ولادته مباشرة ، لتبدو حياته اشبه بمراحل من الصراخ الدائم بكافة صوره .

لقد كان يتساءل عما اذا كان قد بقى احد من الرئاسات القديمة ، ثم أصدر أوامره للعمال بالانصراف الى الورش لاطلاعه على العمل هناك . ورافق بعض العمال الالمانى الصارخ الذى تقدمهم برفقة المترجمة الى ادارة الورشة الميكانيكية ، حيث كان يوجد باراكوف . ودفع فيلدنير الباب بقبضة يده البدينة ليدخل الى المكتب وقد رفع هامته تغطيها قبعته التى ارتفعت مقدمتها عالية ، فى محاولة لتأكيد الذات . ودلفت المترجمة الى الداخل فى اثره ثم اغلقت الباب ، حيث لزم العمال اماكنهم بجواره ينصتون السمع الى ما يدور بالحجرة .

ترامى الى أسماعهم فى البداية صراخ فيلدنير الذى بدا وكانما هناك عدد من الألمان يتجادلون حول أمرما . وانتظروا أن تشرع المترجمة فى نقل ماذكره ، الا أنهم بوغتوا بباراكوف يرد عليه بالالمانية . كان يتحدث فى لهجة مهذبة وفى هدوء وطلاقة ، كما تصور العمال الواقفون الى جوار المكتب .

وخفت حدة صراخ فيلدنير شيئا فشيئا . ولربما كان ذلك عائدا الى كون باراكوف قد بادله الحديث بالالمانية ، او يكون قد ذكر ما بعث الارتياح الى نفسه . وفجاة حدثت المعجزة . . فقد صمت الالمانى ؛ وصمت بالتالى باراكوف . وبعد برهة صاح الالمانى فى نبرة مسالمة تماما . وخرج ثلاثتهم يتقدمهم فيلدنير ، يتبعه باراكوف ثم المترجمة . ورمى باراكوف العمال بنظرة تتسم بالبرودة ، منبها عليهم بضرورة انتظاره . وتوجهوا على هذا النحو الى البوابة عبر الورشة ، بينما كان باراكوف الوسيم القوى يهرول فى اثر الالمانى القصير المستدير والاشبه بالرسوم الكاريكاتورية يشير له الى الطريق . ولقد كان منظرا يثير الاشمئزاز .

وبعد برهة من الزمن كان باراكوف يجلس فى غرفة المدرسين بمدرسة جوركى والتى أصبحت مكتب رئيس الادارة رقم ١٠ - الملازم شفيديه . وحضر فيلدنير والمترجمة المجهولة اللقاء ، الا ان المترجمة لم تجد فرصة لاظهار مواهبها فى اللغة الالمانية .

وكما ذكرنا فيما سبق ، لم يكن الملازم شفيديه يجيد الحديث ، على النقيض من نائبه الثرثار فيلدنير . وقد كان يبدو متجهم الوجه لعدم قدرته على التعبير عن افكاره ، على الرغم من ان ذلك لم يكن يعكس واقع الحال ، حيث كان يعشق مباهج الحياة ومفاتنها . وقد كان نحيلا على الرغم من شراهته فى تناول الطعام . ويصعب على المرء معرفة اين يمكنه اختزان كل تلك الكميات من الطعام التى كان يلتهمها وكيف لجسده النحيل هذا هضمها . وكان مولها فى حب السيدات والآنسات ، ولاسيما السيدات والآنسات الروسيات فى تلك الاونة . وقد كان يقيم لاستمالة اضعفهن مقاومة ، الامسيات الصاخبة فى مسكنه ذى الاربع شقق ، يقدم اليهن فيها مختلف أنواع الطعام والحلوى والخمور . وكان يقول لطباخيه :

— فلتعدوا أكبر كمية من الاطعمة كى تأكل السيدات الروسيات ، ويشربن بما فيه الكفاية !

وللحقيقة وازاء عدم طلاقته فى الحديث ، كانت هذه الطريقة هى الوسيلة الوحيدة لاستمالة السيدات الروسيات من ذلك النوع الذى كان يمكنه زيارته .

وقد كان عجز السيد شفيديه عن الحديث بشكل منمق وفى طلاقة ، يجعله غير واثق فى كل أولئك الذين يستطيعون ذلك فى سلاسة . فلم يكن يثق فى نائبه فيلدنير ، وللمرء ان يتخيل فى ظل مثل هذا الوضع مدى تشكك شفيديه فى الآخرين من القوميات الأخرى .

وفى ظل مثل هذه الظروف يكون باراكوف قد وقع فى أحرج المواقف . غير أنه كان قد أذهل شفيديه بقدرته على الحديث بطلاقة ليس بالروسية ، بل بالالمانية ، هذا اولا . أما ثانيا فقد اغرق باراكوف السيد شفيديه فى بحر من الثناء والتملق ، مما لم يجد معه السيد الملازم مفرا من تقبله . اذ راح باراكوف يقول دون ان يرفع ناظريه الجامدين عن شفيديه :

— اننى أحد القلائل الباقين على قيد الحياة من رعيل الطبقة المميزة أيام روسيا القديمة . لقد كنت منذ طفولتى مولها بحب المانيا ، ولاسيما فى مجال الاقتصاد ، وبالتحديد فى مجال الانتاج . لقد كان

ابى مديرا لواحد من أكبر مصانع شركة «سيمونز – شوكيرت» فى روسيا القديمة . وكانت اللغة الالمانية هى اللغة الرئيسية الثانية فى اواسط عائلتنا . هذا بالاضافة الى ان تعليمى استند اساسا الى الادبيات الفنية الالمانية . وها انذا سوف أكون سعيدا للعمل تحت رئاسة خبير محنك مثلكم أيها السيد شفيديه . اننى سوف انفذ كل ماتأمروننى به . . .

وفجأة وقع نظر باراكوف على المترجمة تنظر اليه فى دهشة عجزت عن اخفائها . . . ومن ذا الذى يعلم اين وجد الألمان هذه الدودة كثة الشعر ! ولئن كانت هذه المترجمة من سكان المنطقة ، فقد كانت تعلم بالتاكيد ان باراكوف ليس احد القلائل الباقين من ممثلى الطبقة المميزة فى روسيا القديمة ، بل من خير سلالة عائلة باراكوف التى حظيت بشهرة فائقة بين عمال مناجم الدونيتس . وهنا تصبب رأسه الحليق عرقا .

وكان السيد شفيديه ، ريثما يتحدث باراكوف ، يفكر فى صمت وعلى نحو لم تعكسه قسمات وجهه ، ليقول بما يحمل معنى التساؤل والتاكيد :

– أنت شيوعى . . .

واشاح باراكوف بيده ، على نحو توافق مع قسمات وجهه بما يعنى «اى شيوعى اكون !» أو «انك تعلم اننا اضطررنا جميعا لان نكون شيوعيين !» أو حتى «نعم . . شيوعى ، وذلك افضل ما يمكن أن يكون ، اذا ما تقدمت اليكم لخدمتكم» .

وارضت هذه الاشارة السيد شفيديه بعض الوقت . فلقد كان من الضرورى ان يشرح لهذا المهندس الروسى مدى اهمية تشغيل الورش المركزية بغية اصلاح معدات المناجم . وحاول السيد شفيديه توضيح هذه الفكرة المعقدة على النحو التالى اذ قال وهو ينظر الى فيلدنير مستنجدا :

– ليس هناك اى شئ .

واذ كان فيلدنير قد عانى طويلا ازاء صمته هذه المدة الطويلة فى حضرة رئيسه ، فقد هب يصيح بصورة آلية «لا» مؤكدا فكرة الملازم :

– لا معدات ! . . لا سبل نقل ! . . لا آلات ! لا اخشاب ! لا عمال !

كما وكان يأسف اشد الاسف لعدم استطاعته اكتشاف شئ آخر يضيفه الى تلك القائمة المبتدئة «بلا . .» .

واوما الملازم شفيديه بماينم عن ارتياح ، ثم فكر قليلا ، ليقول بالروسية فى صعوبة شديدة :

– لا شئ ! وكذلك لا فحم !

ومال بظهره الى مسند الكرسى وراح يتامل باراكوف ، ثم فيلدنير . واذ ادرك الأخير مغزى هذه النظرة بما يعنى البدء فى العمل ، راح يصيح حول ماتنتظره «الشركة الشرقية» فى نهاية الامر من باراكوف .

واستطاع باراكوف وبصعوبة بالغة ان يجد لحظة صمت فى خضم ذلك الصراخ ليتفوه بجملة قصيرة حول انه سوف يبذل كل ما فى وسعه .

وهنا تملكت مشاعر الشك السيد شفيديه من جديد ليسأله :–

– هل أنت شيوعى ؟

وابتسم باراكوف بما ينم عن سخرية ، واشاح بيده على نفس النحو السابق .

وقام باراكوف حين عاد الى الورش بتعليق اعلان كبير على البوابة يفيد انه مدير الورش المركزية للادارة رقم ١٠ يدعو كافة العمال والموظفين والمهندسين للعودة الى عملهم ، ويقبل كافة طلبات الراغبين فى الالتحاق بالعمل فى بعض التخصصات .

وقد أصاب الذهول حتى آخر اولئك الذين خدروا ضمائرهم حين قرروا الانخراط فى العمل ، ازاء كون المهندس باراكوف الذى خاض الحربين الفنلندية والوطنية ، يوافق طواعية على العمل مديرا لاحدى المؤسسات ، التى تشكل أهمية فائقة للالمان . بيد انه وحتى قبل أن يجف حبر ذلك الاعلان ظهر فيليب بيتروفيتش ليوتيكوف . . . نعم ليوتيكوف الذى كانوا يسمونه الضمير الشيوعى ، ليس فقط بالورش ، بل وفى كل المنظمة الحزبية بكراسنودون .

لقد جاء صباحا على مرأى من الجميع ، انيق الملبس ، حليق الوجه ، يرتدى قميصا أبيض ورباط عنق جميل تحت جاكتة سوداء

اللون . وسرعان ما جرى تسجيله بالورش فى نفس وظيفته القديمة ، اى رئيس الورشة الميكانيكية .

وقد توافق موعد بدء العمل فى الورش مع لحظة ظهور أولى منشورات لجنة الحزب السرية بالمنطقة . وجرى لصق المنشورات وأعداد جريدة «البرافدا» القديمة فى أبرز الأماكن . فلم يترك البلاشفة كراسنودون الصغيرة فى مهب الرياح ، حيث راحوا يواصلون النضال ويدعون كافة السكان لمشاركتهم هذا النضال . . . وقد كان ذلك جوهر ماجاء بتلك المنشورات ! وكم تصور أولئك الذين عرفوا باراكوف وليوتيكوف فى افضل فترات حياتهما ، ماعسى ان يفعلاه حين تعود السلطة السوفييتية الى المدينة ، وكيف لهما أن يرفعا أنظارهما لتأمل عيون الرفاق الطاهرة ؟

وللحقيقة فلم يكن ثمة من يمارس عملا جديا فى تلك الورش . وكان باراكوف يزيد من اتصالاته وعلاقاته بالقيادات الالمانية ، لا يهتم كثيرا بما يجرى داخل الورش . أما العمال فكانوا يتأخرون عن العمل ، ويتسكعون فيما بين المخارط ، ويفترشون الأعشاب بالساعات فى أحد أركان الفناء ، ويدخنون . ومن المؤكد أن ليوتيكوف كان يحاول استرضاء العمال ، اذ راح يشجعهم على القيام باجازات وقضائها بالريف ، ويمنحهم المستندات الرسمية الدالة على انهم فى مهمات رسمية خاصة بشئون المناجم . وكان العمال يقومون بتنفيذ طلبات صغيرة خاصة بالسكان بغية التكسب . كانوا يصنعون بصفة خاصة كثيرا من الولاعات ، حيث اختفى الكبريت . أما عن البنزين اللازم فقد كانوا يحصلون عليه من الجنود الألمان لقاء بعض المأكولات .

كما وكان خدم الضباط يهرولون عدة مرات كل يوم يحملون العلب التى ملأوها بالزبد والعسل بغية اغلاقها باللحام لارسالها الى المانيا .

وحاول بعض العمال الحديث مع ليوتيكوف ، فلم يكونوا قادرين على الوصول الى باراكوف ، فى محاولة لاستيضاح سبب الانخراط فى خدمة الألمان ، وماذا سوف تسفر الحياة عنه مستقبلا . كانوا يحاولون الاشارة من بعيد الى هذا الموضوع ، ويناورون لمعرفة الحقيقة . الا ان فيليب بيتروفيتش كان يقطع عليهم الطريق قائلا :

— لا بأس . . سوف نعمل على خدمتهم !

واحيانا يجيب فى خشونة :

— ان هذا ليس من شانك ياصاح ! ألم تخرج للعمل بنفسك ؟ لقد خرجت بنفسك . من فينا يرأس الآخر ؟ اننى أرأسك . وهذا يعنى أننى ولست أنت املك حق السؤال . انك سوف تفعل ما آمرك به . هل فهمت ؟

كان فيليب بيتروفيتش يخطو بطيئا فى تثاقل لمعاناته من الربو ، يجتاز المدينة نحو طرفها الاخر فى طريق الى العمل ومنه الى البيت فى المساء . ولم يكن هناك من ورد الى خاطره مدى النشاط والطاقة والسرعة والدقة فى آن واحد التى تميز بها فيليب بيتروفيتش فى عمله الأساسى ، الذى حقق شهرة عالمية فيما بعد لكراسنودون — مدينة المناجم الصغيرة .

وكم عانى حين علم فجأة عند بدء نشاطه باختفاء ماتفى شولجا ، احد مساعديه المقربين ، وعلى نحو غامض ؟

لقد كان فيليب بيتروفيتش بوصفه سكرتيرا للجنة السرية للمنطقة يعرف كافة مساكن الايواء واماكن اللقاءات فى المدينة والمنطقة . كما وكان يعرف عنوان مسكنى ايفان كوندراتوفيتش واجنات فومين اللذين كان من المفروض ان يختفى لديهما شولجا . بيد أن فيليب بيتروفيتش لم يكن يملك حق ارسال اى من رجال اتصال لجنة المنطقة ومن باب أولى بولينا جيورجيفنا الى هذين المسكنين . فاذا كان شولجا قد سُلم الى الالمان فى احدى هاتين الشقتين ، فسوف يكون كافيا لصاحبيهما مشاهدة حلقة الاتصال حتى يقتفون أثرها للاهتداء الى مكان ليوتيكوف وبقية أعضاء لجنة المنطقة .

ولئن كان شولجا لم يمس ، فقد كان يمكنه معرفة موعد خروجه الى العمل من مكان اللقاء الرئيسى . لم يكن من المفروض عليه حتى دخول ذلك المسكن ، بل كان يكفيه المرور الى جواره . اذ جرى وضع اصيص زهور فى النافذة المجاورة للباب مباشرة فى نفس اليوم الذى نقلت فيه بولينا جيورجيفنا تعليمات فيليب بيتروفيتش . بيد ان يفدوكيم اوستابتشوك — اى شولجا — لم يخرج الى العمل .

ولقد مرت فترة طويلة للغاية ، حتى علم فيليب بيتروفيتش الذى كان يستقصى الاخبار حول الخونة الذين التحقوا بالعمل فى شرطة

الألمان ، بحقيقة أمر اجنات فومين . من المؤكد ان يكون فومين هو الذى وشى بشولجا . لكن كيف ذلك .. وماذا كان مصير ماتفى كوستيفيتش ؟

كانت لجنة الحزب بالمنطقة فى فترة التهجير وبناء على تعليمات بروتسينكو ، قد دفنت حروف مطبعة المنطقة فى حفرة بالحديقة العامة . وجرى فى اللحظة الاخيرة تسليم ليوتيكوف الرسم التفصيلى لمكانها . وكان ليوتيكوف يخشى وقوع هذه الحروف فى حوزة جنود الدفاع الجوى ، وجنود الجراج الالمان . ولذا فقد قرر ضرورة الحصول على حروف المطبعة باى شكل كان وفى حضرة الحراس الالمان . فمن ذا الذى يستطيع ذلك ؟

الفصل الرابع والعشرون

انقطع فولوديا اوسموخين عن متابعة دروسه بالصف العاشر فى مدرسة فوروشيلوف بعد وفاة أبيه ، ليلتحق فى شتاء اول اعوام الحرب بالعمل فى الورشة الميكانيكية بمؤسسة «فحم كراسنودون» . وقد عمل تحت اشراف ليوتيكوف الذى كان صديقا لعائلة ريبالوف التى انحدرت منها أمه ، ويعرفه جيد المعرفة . وقد ظل فولوديا يعمل بالورشة حتى ذلك اليوم الذى نقلوه فيه الى المستشفى لاجراء عملية الزائدة الدودية .

ولم يكن فولوديا يفكر بطبيعة الحال فى العودة للعمل بالورشة بعد وصول الألمان . بيد انه وبعد صدور امر باراكوف وانتشار اشاعة نفى كافة الرافضين للعمل الى المانيا ، وبعد التحاق فيليب بيتروفيتش بالذات بالعمل جرت المشاورات بين فولوديا وافضل اصدقائه توليا أورلوف بشأن ما ينبغى عمله .

وكانت مسألة العمل فى ظل السلطة الالمانية بالنسبة لفولوديا وتوليا من أصعب القضايا ، شأنهما فى ذلك شأن بقية المواطنين السوفييت . لقد كان الالتحاق بالعمل هو اسهل الطرق لتوفير سبل العيش وتفادى الاضطهاد الذى يلحق بالمواطن السوفييتى الذى يرفض العمل فى خدمة الألمان . هذا علاوة على أن كثيرا من الناس كانوا يؤكدون استنادا الى خبراتهم امكانية عدم العمل والاكتفاء بالتظاهر

به . بيد أن فولوديا وتوليا شأن كل المواطنين السوفييت كانا بحكم تربيتهما عازفين عن العمل ، قليلا او كثيرا ، لصالح العدو ، بل على العكس كانا يشعران بضرورة ترك العمل ، والتصدى بكافة السبل لمقاومته ، والانخراط فى العمل السرى ، فى صفوف الفدائيين . لكن كيف الاتصال بهم ؟ وكيف العثور عليهم ؟ وكيف العيش ريثما يجدان وسيلة للعثور عليهم ؟

ولم يكن ثمة مايفعلانه — توليا ، وفولوديا الذى بدأ يتماثل للشفاء وصار قادرا على السير ، سوى الاستلقاء فى البرارى تحت اشعة الشمس ، وتبادل الحديث حول قضيتهما الاساسية ، حول ما ينبغى القيام به .

وذات مساء عرج فيليب بيتروفيتش بنفسه لزيارة آل اوسموخين فى مسكنهم . وقد وصل فى تلك اللحظة التى كان فيها المنزل يغص بالجنود الالمان ، ليس بأولئك الذين كان يتراسهم ذلك العريف الذى حاول مرارا الفوز بليوسيا ، بل بمجموعة ثانية وربما تكون ثالثة ، حيث كان آل اوسموخين يعيشون فى منطقة يقع عبرها الطريق الرئيسى لمرور القوات الالمانية . وصعد فيليب بيتروفيتش الدرج الى مدخل المنزل فى خطوات بطيئة ، متثاقلة بوصفه رجلا ذا مكانة ، وخلع كابه وحيا فى تأدب الجندى الواقف بالمطبخ ، طرق باب الغرفة التى كانت تعيش فيها يليزافيتا الكسييفنا برفقة ليوسيا وفولوديا .

— فيليب بيتروفيتش ! أوجئت لزيارتنا ؟

واندفعت اليه يليزافيتا الكسييفنا وشدت على يديه بكلتا يديها الجافتين الدافئتين .

وكانت يليزافيتا الكسييفنا من اولئك الذين لم يدينوا فيليب بيتروفيتش ازاء عودته للعمل بالورش . فقد كانت تعرفه جيد المعرفة ، ولم تكلف نفسها حتى عناء بحث أسباب ذلك التصرف . فاذا كان فيليب بيتروفيتش قد تصرف على هذا النحو فان هذا يعنى انه لم يجد مفرا خيرا من ذلك ولربما كانت الضرورة هى التى حتمت ذلك .

لقد كان فيليب بيتروفيتش أول صديق يزور آل اوسموخين منذ احتلال الالمان للمدينة . وقد تجلت تلك السعادة الفائقة برؤيته

في اندفاعة يليزافيتا الكسييفنا نحوه . وادرك ذلك ، كما وكان شاكرا لها في قرارة نفسه على هذا التصرف .

وذكر فيما تعلو وجهه أمارات الصرامة التقليدية :

- جئت لاستدعاء ابنك للعمل . فلتجلسي وابنتك بعض الوقت بحكم العادة ، ثم أرجو ان تخرجا وكأنكما ذاهبتان لقضاء أمر ما ، لنبحث الأمر معه على نحو ما .

وارتسمت ابتسامة على شفتيه ، لتغدو قسمات وجهه أكثر رقة .

لم يرفع فولوديا عنه عينيه منذ تلك اللحظة التي دلف فيها الى الغرفة . وقد كان فولوديا في أحاديثه مع توليا ، يحاول كثيرا الاشارة الى ان ليوتيكوف لم يخرج الى العمل بحكم الضرورة ، ومن ثم ليس جبنا منه ، فلم يكن من أمثال اولئك الجبناء . من المؤكد ان يكون ثمة أمر آخر أكثر عمقا دفعه الى ذلك ، وربما يكون ذلك الأمر غير بعيد عن التصورات التي تدور كثيرا في مخيلتهما ، هو وتوليا . وعلى اى حال فقد كان شخصا يمكن مشاطرته وبكل شجاعة ما عقد عليه النية .

وبدأ فولوديا الحديث بمجرد أن خرجت يليزافيتا الكسييفنا وليوسيا ، وعلى نحو يحمل نبرة التحدي :

- الى العمل ! لقد قلت . . الى العمل ! ان الأمر سيان . . عملت ام لم أعمل . . فسوف يبقى هدفي واحدا في كلتا الحالتين . انني استهدف النضال ، والنضال الذي لاهوادة فيه . ولئن ذهبت للعمل ، فلن يكون ذلك الا من أجل التمويه .

ولم يثر اندفاع الشاب وسذاجته وحدة انفعاله التي كسرها بعض الشيء ، وجود الجنود الالمان فيما وراء الباب ، خوف فيليب بيتروفيتش على مصيره أو حزنه أوسخريته منه ، بل جعل كل ذلك الابتسامة ترتسم على شفتيه . فقد كان رجلا لاتعكس قسمات وجهه ما يجيش به صدره . وراح يقول :

- هذا حسن للغاية . يجب عليك ان تقول ذلك لكل من يجيء اليك ، مثلما فعلت معي . بل ومن الأفضل أن تخرج الى الشارع لتعلن كل من يصادفك عرضا : «انني ذاهب لخوض نضال لاهوادة فيه ، واود التمويه على ذلك . . ساعدوني !» .

وهب فولوديا يقول في تجهم :

- انك لست شخصا قابلته صدفة .

واجابه ليوتيكوف :

- لعلني لا أكون كذلك ، بيد أنك لاتستطيع ادراك ذلك في مثل هذا الوقت .

وادرك فولوديا أن فيليب بيتروفيتش سوف يبدأ في القاء المواعظ عليه . وقد بدأ ليوتيكوف هذا بالفعل :

- ان الثقة في مثل تلك الامور يمكن أن تكلف المرء عمره . لقد تغيرت الظروف ، علاوة على القول السائد . . . «ان للجدران آذانا» . - واومأ ليوتيكوف برأسه نحو الباب . - ان من حسن حظك ان أكون انسانا معروفا ، مكلفا باعادة الجميع الى العمل بالورش ، وذلك ماجعلني أزورك اليوم . وتخبر أمك وشقيقتك بذلك . ولتقل لهؤلاء ذلك - واومأ برأسه تجاه الباب - اننا سوف نعمل في خدمتهم . - وهنا رفع عينيه الصارمتين يتأمل فولوديا الذي ادرك كل شيء على الفور مما جعل الشحوب يكسو وجهه .

وتساءل فيليب بيتروفيتش :

- هل بقي من رفاقك أحد في المدينة يمكن الركون اليه ؟

واشار فولوديا الى اولئك الذين يعرفهم شخصيا : توليا اورلوف ، وجورا أروتيونيانتس وفانيا زيمنوخوف ، ثم اضاف :

- وسوف نجد غيرهم .

- فلتقم علاقات باولئك الذين ترى امكانية الاعتماد عليهم ، بيد انه يجب عليك أن تقيم علاقاتك بكل منهم على حدة . واذا ما تأكدت من اخلاصهم . . .

- انهم مخلصون يافيليب بيتروفيتش .

واستطرد ليوتيكوف يقول وكأنما لم يسمع ملاحظة فولوديا :

- اذا ما تأكدت من اخلاصهم ، فلتشر اليهم في حرص الى انه توجد الامكانية . . . وتسألهم بشكل غير مباشر عن موافقتهم .

- انهم موافقون ، بيد أن كلا منهم سوف يسألني عما يجب ان يفعله .

- فلتجبهم . . سوف تصدر لك التعليمات . أما الآن فسوف اعهد اليك بمهمة . - وتحدث معه بشأن حروف المطبعة ، واشار

له الى مكانها بالتحديد فى الحديقة العامة . – فلتستطلع الأمر ، ولتخبرنى اذا ما كان ذلك مستحيلا .

واستغرق فولوديا فى التفكير . ولم يتعجل فيليب بيتروفيتش الاجابة ، فقد كان يعرف انه لن يتردد ، بل يقلب الامور بوصفه انسانا جاد الطباع . بيد ان فولوديا لم يكن يفكر فى ذلك الذى عرضه عليه ليوتيكوف ، ليقول :

– فلاكن صريحا معك . لقد طلبت أن أتحدث مع كل من الاخوة على حدة . بيد أننى يجب أن اشير فى حديثى الى أننى لا أتحدث باسمى . اذ أن الامر سوف يكون مختلفا اذا كنت أتصرف من تلقاء نفسى ، عنه اذا ما قلت أننى قد تلقيت تعليمات من شخص مرتبط بالتنظيم . اننى لن أذكر اسمك ، بل ولن يسأل احد منهم عن ذلك . أو لا يفهمون ؟

وقد أراد فولوديا بذلك ان يقطع طريق ليوتيكوف للاعتراض ، الا أن فيليب بيتروفيتش لم يعترض مواصلا الانصات الى فولوديا – انهم كانوا ليصدقوننى ايضا ان تحدثت معهم باسمى انا اوسموخين ، غير أنهم كانوا سوف يواصلون البحث عن وسيلة للاتصال بالمنظمة السرية ، حيث لست بالنسبة لهم مرجعا ، وثمة منهم من يكبرنى سنا – وهنا كان يود ان يقول «يفوقنى ذكاء» . – وبوجه عام هناك من يهتم منهم بالسياسة ، ويفهم امورها أفضل منى . ولذا فمن الأفضل مصارحتهم بأننى لا أعمل من تلقاء نفسى ، بل بتكليف من المنظمة . هذا اولا . أما ثانيا . . تلزمنى مساعدة بعض الصبية لتنفيذ المهمة التى أوكلتها الى بشأن المطبعة . وينبغى شرح خطورة هذه القضية والاشارة الى مصدر التكليف . وهنا يحضرنى سؤال . . لدى ثلاثة اصدقاء ، أحدهم قديم وهو توليا اورلوف ، والاخران جديدان : فانيا زيمنوخوف وجورا أروتيونيانتس الا أننى اعرفهما فيما سبق ، ويمكننى الاعتماد عليهما ، حيث أثبتت الحياة مدى اخلاصهما . اننى اثق فيهما ، ثقتى بنفسى . فهل لى ان اجمع ثلاثتهم للتشاور سويا ؟

وصمت ليوتيكوف برهة من الزمن متاملا حذاءه ، ثم رفع ناظريه الى فولوديا ، يعلو شفتيه ظل ابتسامة ، الا أن وجهه اتسم ثانية بقسمات الصرامة المعهودة .

– حسنا . فلتجمع هؤلاء الصبية ، ولتعلنهم صراحة عن الجهة التى كلفتك بهذه المهمة ، لكن دون أسماء بطبيعة الحال .

وأومأ فولوديا برأسه وهو يكاد يتمالك نفسه ازاء ذلك الاضطراب الذى اجتاح كل كيانه .

ومضى فيليب بيتروفيتش يقول ، وكأنما فى حديث مع نفسه ، بينما تتغلغل عيناه الصارمتان فى هدوء وصراحة الى أعماق روح فولوديا :

– لقد اصبت التفكير . اذ ينبغى ان يعلم كل امرئ ان الحزب يقف مؤيدا لكافة أعمالنا . كما وانك ادركت عن حق ضرورة ان يكون لدى تنظيمنا الحزبى مجموعته الشبابية . وقد جئت اليك خصيصا لبحث هذا الأمر . وما دمنا قد اتفقنا بهذا الشأن ، فاننى أود الادلاء اليك بنصيحتى ، بل وان أردت ، فلتعتبرها أمراً . . لا تفعل شيئا على الاطلاق دون التشاور معى بشانه ، حيث ان ذلك يمكن ان يكلفك حياتك ، ويضع تنظيمنا فى وضع حرج . اننى لا افعل شيئا من تلقاء نفسى ، ودون التشاور مع الآخرين . اننى اتشاور مع رفاقى ومع قياداتنا . . نعم هناك قيادات تشرف على عملنا ، فى مقاطعة فورشيلوفجراد . ولتبلغ أصدقاءك بذلك ، وعليكم كذلك التشاور فيما بينكم . ولعلنى اكون قد تحدثت معك بمافيه الكفاية .

وابتسم ليوتيكوف ، ثم نهض قائلا :

– فلتخرج الى العمل اعتبارا من الغد .

وابتسم فولوديا ، ثم قال :

– فليكن . . بعد غد . وهل لى ان ادعو توليا اورلوف معى ؟

وضحك ليوتيكوف :

– كنت اود تحريض واحد للعمل لصالح الالمان ، لأجد أننى قد فعلت ذلك مع اثنين فى آن واحد . فلتدعه . . ان هذا من الأفضل .

وخرج فيليب بيتروفيتش الى المطبخ ليتبادل الحديث مع يليزافيتا الكسييفنا . وليوسيا والجندى الألمانى ، بل ومزح معهم قليلا ثم انصرف . وأدرك فولوديا انه يستحيل كشف ذلك السر الذى أؤتمن عليه ، لذويه . بيد انه كان غير قادر على اخفاء توتره واضطرابه عن عيون امه وشقيقته . وراح

فولوديا يتثاءب على نحو مفتعل ، قائلا أنه يجب عليه النهوض غدا مبكرا ، وان النوم يغالبه بوجه عام . ولم تسأله يليزافيتا الكسييفنا عن شيء على الاطلاق ، مما جعله يشك فى انها قد أدركت ان فيليب بيتروفيتش لم يقتصر فى حديثه معه على العمل فى الورش . وقد كان ذلك طالع سوء . اما ليوسيا فقد سألته صراحة :

– حول ماذا كان حديثكما الطويل ؟

وأجابها فولوديا فى غضب :

– عن ماذا . . عن ماذا . انك تعلمين عن ماذا .

– وهل سوف تذهب ؟

– وما العمل ؟

– هل سوف تعمل فى خدمة الألمان ؟

وقد كانت نبرات صوت ليوسيا تحمل معانى الدهشة والسخط ، لدرجة ان فولوديا لم يجد معها ما يقوله .

– اننا سوف نعمل فى خدمتهم .

وتلك كانت كلمات فيليب بيتروفيتش التى رددها فى تجهم دون ان يرفع ناظريه الى ليوسيا ، بينما كان يخلع ملابسه استعدادا للنوم .

الفصل الخامس والعشرون

سرعان ما اقام جورا اروتيونيانتس بعد فشله فى النزوح وعودته الى المدينة ، علاقات ودية صريحة مع فولوديا وتوليا اورلوف . الا ان علاقته بليوسيا بدت رسمية يشوبها التوتر . وكان جورا يقطن مسكنا صغيرا فى أطراف المدينة ، حيث لم يكن الألمان يترددون على تلك الأماكن . ولذا فقد كان الاصدقاء غالبا ما يلتقون لديه .

وفى اليوم التالى لتلقى فولوديا مهمة استطلاع أمر حروف المطبعة ، تجمع ثلاثتهم لدى جورا اروتيونيانتس فى حجرته الصغيرة التى اتسعت بالكاد لفراشه ومكتبه ، الا انها كانت حجرة مستقلة ، وتلك ميزتها . وهناك لحق بهم فانيا زيمنوخوف الذى عاد لتوه من قرية نيجنى الكسندروفكا . كان فانيا قد غدا اكثر نحافة ، بينما

بليت ثيابه وعلاه الغبار ، فلم يكن قد عرج بعد الى منزله . بيد أنه كان فى حالة نفسية طيبة ، يتحرق نشاطا . وسأل فولوديا :

– هل يمكنك الاتصال مرة اخرى بذلك الرجل ؟

– ولماذا ؟

– لسؤاله التصريح بضم اوليج كوشيفوى الى المجموعة فورا .

– لقد ذكر انه لاداعى لضم احد بعد ، ويجب التدقيق فى اختيار الصبية المناسبين .

وذكر فانيا :

– ولذا أسألك أن تطلب منه الاذن بذلك . هل تستطيع الالتقاء بذلك الشخص اليوم . . ولنقل قبل حلول المساء ؟

وذكر فولوديا بنبرة يشوبها الغضب :

– لست ادرى سر هذه العجلة !

– دعنى ، اقول لك هذا السر . أولا ، لان اوليج شاب ممتاز ، ثانيا ، لانه أعز أصدقائى ، وهذا يعنى أنه فتى مضمون . وثالثا ، انه يعرف على نحو افضل من جورا ، تلاميذ مدرسة جوركى اعتبارا من الصف السابع وحتى التاسع . واولئك اكثر الذين بقوا بالمدينة .

ورمى جورا فولوديا بناظريه السوداوين المتوقدتين قائلا :

– لقد حدثتك بعد محاولتى الفاشلة للرحيل عن اوليج وبكل تفصيل . وعليك أيضا أن تراعى أنه يعيش على مقربة مباشرة من الحديقة العامة ، وبذا يكون افضل من يستطيع المساهمة فى تنفيذ المهمة التى اوكلت الينا .

لقد كانت أحاديث جورا وبفضل موهبته فى صياغة افكاره فى جمل سليمة تبدو اشبه بتعليمات رسمية . وتردد فولوديا بعض الشيء . بيد انه ورغما عن ذلك لم يستطع التنازل ، حيث انه لم ينس تحذيرات ليوتيكوف .

وذكر فانيا :

– حسنا . يمكننى أن اسوق لك حجة اخرى ، لكن على انفراد .

والتفت الى جورا وتوليا اورلوف وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة تتسم بالجسارة والخجل فى آن واحد متسائلا :

– الن تغضبا ؟

واجاب جورا قبل ان يخرج برفق توليا اورلوف :

– ان مراعاة السرية امر يحتم عدم الاهتمام باية ضيوم شخصية ، واعلاء كل ماتطلبه شئون القضية العامة على اى شيء آخر .

وضاعت سمة الخجل فى ابتسامة فانيا زيمنوخوف لتبدو ابتسامة جريئة لانسان حاسم جسور ، وهو ما كان يتسم به ، ثم قال :

– سوف اثبت لك اننى اثق فيك ، اكثر من ثقتك فى . هل ذكر لك جورا اروتيونيانتس ان فالكو عاد برفقتنا ؟

– نعم ، ذكر لى ذلك .

– وهل حدثت ذلك الرفيق عن ذلك ؟

– كلا . .

– حسنا . فلتعلم ان اوليج على اتصال بفالكو ، اما فالكو فيبحث عن منظمة البلاشفة للعمل السرى . فلتحدث ذلك الرفيق بهذا الشأن . ولتنقل له رجاءنا فى آن واحد ، مؤكدا اننا نضمن اوليج .

وهكذا شاءت الاقدار ان يذهب فولوديا الى الورش المركزية قبل الميعاد الذى وعد به ليوتيكوف .

وريثما غاب فولوديا ، كلف فانيا توليا الملقب «بالرعد» معرفة بشكل غير مباشر ما اذا كان ثمة المان يعيشون لدى آل كوشيفوى ، وحول امكانية زيارته .

وشاهد «الرعد» حين اقترب من منزل آل كوشيفوى من جهة شارع سادوفايا ، امراة جميلة ، سوداء الشعر المنفوش ، عارية القدمين ، ترتدى فستانا قديما تخرج مهرولة والدموع على خديها من المسكن الذى يقوم جندى المانى على حراسته ، لتدلف الى عنبر خشبى حيث تعالى بكاؤها ، وصوت رجل يحاول تهدئة روعها . وخرجت عجوز نحيفة الجسد سمراء البشرة تحمل بيدها المعروقة دلوا ملأته بالماء من برميل عند المدخل ، لتعود ثانية الى الغرفة فى سرعة . كان الهرج والمرج يعمان المنزل ، وتعالى صوت احد السادة الالمان فيما يعبر عن غضبه ، وصوت نسوة يقدمن اعتذارهن . ولم يكن توليا قادرا على البقاء اكثر من هذا ، حتى لا يلفت الانظار اليه ، فاستدار حول الحى فيما جوار الحديقة العامة ، ليعود الى المنزل من جهة الشارع الموازى لشارع سادوفايا . بيد انه لم يكن ليرى او يسمع شيئا من ذلك المكان . ولذا فقد استغل كون حديقة المنزل المجاور ،

شأن حديقة منزل آل كوشيفوى ، تطلان على كلا الشارعين ، ليجتاز الفناء المجاور عبر الحديقة ويقف حوالى دقيقة الى جوار جدار العنبر الخشبى المجاور للحديقة . وقد ترامى الى سمعه من الداخل اصوات لثلاث نساء ، ورجل . وكانت امراة فى مقتبل العمر تقول باكية :

– اننى لن اعود الى المنزل ولو قتلتمونى !

وكان الرجل يحاول اقناعها قائلا :

– وما العمل . . اين يذهب اوليج ؟ والطفل ؟ . .

كان اوليج يفكر فيما بين نفسه ، حين كان يعود ادراجه من منزل بوزدنيشيفا وقد امضته الغيرة ومشاعر الاعتزاز بالنفس . . «يالها من بغى ! فى سبيل نصف لتر من زيت الزيتون ! يالها من بغى ! سوف اعلمك قدرى . . سوف تسمعين عنى ! وسوف تندمين لفقدانى !» . وكانت اشعة الشمس المائلة نحو الغروب ، حمراء تلسع عينيه ، اللتين تراءى لهما وجه لينا الاسمر الرقيق ، ينساب فى دوائر حمراء ، تندمج كل منها بالاخرى ، ورداؤها ، والالمان الرماديون ، والبيانو . . رسما داكنا جاثما فوق روحه . كان يردد طوال الوقت : «يالها من بغى ! . . يالها من بغى !» وخنق انفاسه الم ، اشبه بآلام الطفولة .

وادرك مارينا جالسة بالعنبر الخشبى ، تدفن وجهها فيما بين راحتيها ، منكسة الراس ، وقد غطتها سحابة من الشعر الاسود المنكوش ، يحيط بها ذووها من كل جانب .

لقد راودت المساعد طويل الساقين فى غياب الجنرال رغبة الاستحمام بمياه باردة ، واصدر اوامره الى مارينا باحضار طست ودلو مملؤ بالماء ، اليه بغرفته . وحين فتحت مارينا باب غرفة الطعام حاملة دلو الماء والطست ، وقع نظرها على المساعد يقف قبالتها عاريا كما ولدته امه . لقد كان طويلا ، ابيض «كما الدودة» . واستطردت مارينا تصف الموقف باكية انه كان يقف فى الركن الاقصى الى جوار الكنبة ، مما جعلها لا تبصره على الفور . وفجأة ظهر الى جوارها ، ينظر اليها فى فضول واحتقار ووقاحة ، لتتنابها مشاعر الخوف والرهبة والاشمئزاز ، مما جعلها تترك الدلو والطست يسقطان الى الارض ، وتسيل المياه لتملأ ارض الغرفة . اما مارينا فقد هرولت الى الخارج نحو العنبر الخشبى .

وراح الجميع يترقبون ما يمكن ان ينجم عنه ذلك السلوك الذى اقدمت عليه مارينا دون حساب للعواقب .

وذكر اوليج فى فظاظة :

– لماذا تبكين ؟ هل تظنين انه كان يود الاعتداء عليك ؟ انه لم يكن ليرحمك لو كان الأمر فى هذا المكان ، ولكان قد استعان بالخادم فى ذلك . انه لم يكن يفكر سوى فى الاستحمام فى حقيقة الأمر . وان كان قد استقبلك عاريا ، فما ذلك الا لأن الخجل لم يخطر له ببال . اذ أننا أشبه بالمتوحشين فى نظر أولئك الحيوانات . كما ويجب ان تكونى شاكرة ازاء كونهم لايتبولون على مراى منا ، كما يفعل جنود وضباط الصاعقة الألمان فى أماكن اقامتهم . – ثم مضى يقول فى لهجة لاذعة : – كم اعرف اليوم هذا الجنس الفاشى القذر المتعجرف . انهم ليسوا حيوانات ، بل حثالة الحيوانات . وياله من امر مهين يدعو الى الاسى أن نتجمع حولك فى هذا المكان ، بينما تذرفين الدمع . ينبغى علينا احتقار هذه الحثالة ، طالما لانستطيع بعد سحقها وتدميرها . نعم . . يجب احتقارها وليس التونى لنذرف الدمع ، ونغرق فى النحيب والعويل ! انهم سوف يدفعون الثمن !

وغادر العنبر بجيش صدره ضجرا ، لتراوده من جديد مشاعر الاشمئزاز ازاء منظر البساتين الجرداء ، والشارع الذى لا اثر للخضرة فى المسافة الواقعة بين مزلقان السكة الحديدية والحديقة العامة ، ويبدو عاريا يذرعه الجنود الالمان .

وخرجت يلينا نيكولايفنا فى اثره لتسأله شاخصة بناظريها فى اهتمام وتمعن الى وجهه المربد :

– لقد اصابنى القلق ازاء غيابك هذه الفترة الطويلة . كيف حال لينوتشكا ؟

واختلجت شفتا اوليج ليبدو كطفل كبير .

– انها بغى ! لا تعودى للحديث عنها بعد اليوم . .

وراح ، كعادته دائما ، يقص على امه كل ماوقعت عليه عيناه فى بيت لينا ، وكيف كان رد فعله ازاء ذلك . ثم صاح قائلا :

– ياله من موقف فى حقيقة الأمر .

وقالت امه فى لين :

– لاتاسف عليها . ان القلق يساورك لانك آسف عليها ، فلاتاسف . ومادامت قد سلكت هذا المسلك ، فان ذلك يعنى انها كانت دائما هكذا ، وليست كما كنا نظنها . – وقد كادت تقول له : «كما كنت تظنها» ، الا انها لم تتجاسر على ذلك . واستطردت تقول : – انه لعار عليها ، وليس علينا !

كان البدر يرتفع قليلا ، كبيرا ، فوق آفاق الجنوب ، تبدد اشعته الصيفية ظلمة البرارى . ولم يستطع نيكولاى نيكولايفيتش واوليج الخلود الى النوم ، ليجلسا الى جوار باب العنبر المفتوح على مصراعيه ، يسرحان النظر فى ارجاء السماء .

راح اوليج يتامل ذلك البدر المعلق بسماء المساء الزرقاء ، تحيط به هالة تلقى ظلالها على الحارس الالمانى الواقف عند المدخل ، وعلى أوراق القرع النابت بالحديقة . كان اوليج ينظر الى القمر وكانما يراه للمرة الأولى . لقد الف حياة المدينة الصغيرة الواقعة فى احضان البرارى ، حيث يتضح للمرء كل ما على الأرض وفى السماء . وهاهو كل شىء يفارقه . . فلم يلحظ كيف ظهر القمر . . كيف تحول هلالا ثم بدرا استقر فى كبد السماء واضحة الزرقة . ومن ذا الذى يدرى ما اذا كان المرء سوف يعيش ثانية هذه الحقبة السعيدة الزاخرة بكل ما يحفل به عالمنا من بساطة وجمال وروعة ؟ !

واجتاز الجنرال بارون فون فينتسيل ومساعده المدخل ليدلفان الى المنزل فى صمت لايقطعه سوى حفيف سترتيهما . كان النعاس قد خيم على كل ما حولهما . ولم يكن هناك سوى الحارس الذى راح يذرع المكان . اما نيكولاى نيكولايفيتش فلم تطل به جلسته ليغلبه النعاس كذلك ، بينما ظل اوليج شاخصا بعينين طفوليتين ، فى مكانه الى جوار الباب المفتوح على مصراعيه تغمره أشعة القمر .

وفجاة ، ترامى الى سمعه حفيف فيما وراء الجدار ، هناك فى الفناء المجاور . وتعالى همس انسان التصق بجدار العنبر الخشبى :

– اوليج . . هل أنت نائم ؟ فلتستيقظ . . .

وهب اوليج من مكانه على الفور ، ليقفز الى جوار الجدار هامسا :

– من المنادى ؟

- انني فانيا . هل الباب مفتوح ؟
- انني لست وحدى ، كما ان الحارس يذرع المكان .
- انني ايضا لست وحدى . او تستطيع الخروج الينا ؟
- نعم . . استطيع . . .

وقبع اوليج مكانه حتى ابتعد الحارس نحو البوابة المفضية الى الشارع الآخر ، ثم خرج ملتصقا بالحائط ليستدير حول العنبر . وهناك وقع نظره على ثلاثة اشخاص انبطحوا على بطونهم ارضا ، على شكل مروحة فى الحديقة المجاورة ، يلفهم ظل العنبر . . لقد كانا فانيا زيمنوخوف ، وجورا اروتيونيانتس ، اما الثالث فكان مثلهما طويلا ، واسمه بكاب ، جعل من الصعب تبين وجهه .

وذكر جورا ، فيما تبرق عيناه واسنانه :
- ياللشيطان ! ويالها من ليلة نيرة ، جعلتنا نصل اليك بالكاد ! انه فولوديا اوسموخين من مدرسة فوروشيلوف .

ثم مضى يقول بقناعة بالغة حول انه يفصح باسمى توصية يمكن ان ينالها رفيق :
- بوسعك ان تثق به تمام الثقة التى توليها اياى .

وانبطح اوليج ارضا فيما بينه وبين فانيا . ثم همس وابتسامة عريضة تلوح على شفتيه :
- ينبغى الاعتراف باننى لم اكن انتظرك فى مثل هذا الوقت المحظور فيه التجول !

وذكر فانيا ضاحكا فى سخرية :
- اننا يمكن ان نموت ضجرا لو اتبعنا قواعدهم .

وضحك كوشيفوى فيما وضع يده العريضة على كتفى فانيا ، يحتضنه قائلا :
- ايها الصديق الحبيب !

ثم دنا منه قريبا يهمس اليه :
- هل يسرت اقامتهما ؟

وساله فانيا :
- هل يمكننى الجلوس فى عنبركم حتى مطلع الصبح ؟ اننى لم اذهب بعد الى بيتى الذى احتله الألمان .

وتدخل جورا يقول ساخطا :

- لقد ذكرت لك انه يمكنك المبيت عندنا !
- ان بيتك بعيد جدا . انك وفولوديا تعتبران الليلة نيرة جدا ، اما انا فلربما القى حتفى فى احدى الحفر الرطبة .

وادرك اوليج ان فانيا يود الحديث معه على انفراد . وقال فيما يشد على كتفى فانيا :
- يمكنك ذلك حتى مطلع الصبح فقط !

وهمس فانيا بصوت يسمع بالكاد :
- جئنا نزف اليك نبأ بالغ الاهمية . لقد افلح فولوديا فى الاتصال بأحد رجال العمل السرى . وقد جرى تكليفه بمهمة . . . فلتتحدث عنها بنفسك !

لم يكن ثمة شىء يثير حمية أوليج المتوقدة ، مثل ظهور الصبية ليلا على هذا النحو المفاجىء ، ولاسيما بما أسر به اليه فولوديا اوسموخين . وقد راود خاطره للحظة من الزمن ، ان فالكو هو الوحيد الذى يمكن ان يكون قد أوكل الى فولوديا مثل هذه المهمة . ثم راح يدنو بوجهه الى وجه فولوديا يحدق النظر الى عينيـــه الداكنتين الضيقتين ، متسائلا فى الحاح :
- كيف وجدته ؟ ومن هو ؟

وذكر فولوديا مرتبكا بعض الشىء :
- اننى لا أملك حق الافصاح عن اسمه . هل تعرف مواقع الالمان بالحديقة العامة ؟
- كلا .
- انا وجورا نود استطلاع الحديقة الآن ، الا ان ذلك امر يصعب علينا وحدنا . - ثم أضاف ضاحكا : - لقد كان توليــا اورلوف يود مرافقتنا الا انه يسعل كثيرا .

ولبث أوليج ينظر الى ماحوله صامتا برهة من الزمن . ثم قال :
- اننى لا أنصحكما القيام بذلك اليوم . انهم يلحظون كل من يدنو قريبا من الحديقة ، بينما ليس ثمة من يستطيع رؤية ما يجرى بداخلها . ان من الأفضل أن نفعل ذلك نهارا وبدون أيـــة احابيل .

كانت الحديقة العامة محاطة بسور حديدى ، تفضى اليها اربعة

شوارع . وقد عرض اوليج بما عرف عنه من ادراك عملى ، ارسال فى الغد اربعة كشافين يستطلعون الأمر فى أوقات مختلفة من النهار ، كل فى شارع ، وتنحصر مهمتهم فى معرفة مواقع المدافع المضادة للطائرات والملاجىء والعربات القريبة من الشوارع .

وفترت بعض الشىء حماسة الصبية التى كانت تتأجج فى صدورهم لحظة وصولهم عند اوليج . الا انه لم يكن من الممكن الا يذعنوا لوجاهة الحجج التى ادلى بها .

ونسالك ايها القارىء ما اذا كنت قد ضللت ذات مرة طريقك فى غابة غارقة فى ظلام حالك ، أو ألفيت نفسك وحيدا فى بلاد غريبة ، او واجهت خطرا يداهمك وحدك ، او حلت بك كارثة ، جعلت حتى أصدقاءك وذويك يتخلون عنك ، أو صرت تعيش منبوذا ، غريبا بسبب سعيك وراء اكتشاف المجهول ؟ انك لوكنت قد تعرضت يوما لواحد من مثل هذه المواقف ، فانت مدرك حقا مدى السعادة النيرة الجسورة ، وذلك الشعور اللامحدود النابع من القلب بالعرفان ، وتلك الدفقة من القوى التى تطبق على روح الانسان حين يلتقى بصديق لم يتغير وفاؤه واخلاصه وبسالته ! وذلك يعنى انك لست وحيدا بهذا العالم ، انك تشعر بنبض قلب انسان يقف الى جوارك ! لقد كان هذا السيل الفياض من المشاعر هو الذى يتأجج فى أعماق اوليج حين بقى برفقة فانيا ، وحيدين تحت اشعة قمر البرارى الذى يستقر فى مكانه بالسماء ، وحين تأمل وجه صديقه الذى تعلوه أمارات الهدوء والدعة ويبعث المرح فى النفس قليلا ، وعينيه المفعمتين طيبة وقوة .

واحاط اوليج صديقه بيديه الكبيرتين ، يضمه الى صدره ، ضاحكا بصوت خافت مفعم بالسعادة ، يقول فى تأتأة :

– فانيا ! هاأنذا اراك اخيرا ! ماذا جعلك تتأخر هكذا ؟ لقد اضنانى فراقك ! يالك من شيطان !

وضحك فانيا بصوت خافت وهو يحاول الافلات من أحضانه :

– دعنى . . لقد حطمت اضلاعى . اننى لست فتاة حتى تضمنى هكذا !

وذكر اوليج فى خبث :

– اننى لم أكن اظنها تستهويك لهذه الدرجة !

وارتبك فانيا قائلا :

– كيف لك الا تخجل مما تقول ! هل تظننى كنت قادرا وبعد كل ماحدث على التخلى عنهما دون معاونتهما والتيقن من ان خطرا لايتهددهما ؟ هذا علاوة على أنها فتاة رائعة ! – ثم مضى يقول فى وله : – يالروحها الشفافة ! يالارائها الثاقبة !

وللحقيقة فقد استطاع فانيا خلال تلك الايام القليلة التى قضاها فى قرية نيجنى الكسندروفكا الافصاح لكلافا عن كل ما كان يرد بخاطره ويجيش بصدره وكتبه شعرا طيلة عمره البالغ تسعة عشر عاما . وقد كانت كلافا ، تلك الفتاة الطيبة المولهة فى حبه ، تصغى الى ما يقوله فى صمت وأناة . كما وكانت حين يسالها عن شىء تومىء برأسها عن طيب خاطر ، توافقه فى كل ما يقوله . ولم يكن ثمة ما يدعو الى الدهشة فى أن فانيا كلما طالت فترة صحبته لكلافا ، كلما ازداد ايمانا بصحة آرائها .

وتأتأ اوليج وهو يرنو الى صديقه بعينين ضاحكتين :

– ان الامر واضح . . . لقد أسرتك فى حبها !

واذ لاحظ استياء فانيا ، ذكر فى جدية :

– لاتغضب منى . اننى امزح معك ، بينما لايهمنى فى حقيقة الأمر سوى ان تكون سعيدا . نعم اننى سعيد حقيقة من أجلك !

كان اوليج يتحدث بينما تجتاحه المشاعر الفياضة ، وتعلو جبهته الغضون ، ويشخص بنظراته بعض الوقت بعيدا عن فانيا . ثم تساءل بعد برهة من الزمن :

– فلتقل صراحة ما اذا كان فالكو هو الذى أوكل هذه المهمة الى اوسموخين !

– كلا . . لقد طلب هذا الرجل من فولوديا ان يعرف عن طريقك مكان فالكو . ولقد بقيت هنا هذه الليلة خصيصا للحديث معك بهذا الشأن .

واجابه اوليج :

– ان الكارثة تكمن فى اننى نفسى لا أعرف مكانه . اننى خائف عليه . وعلى اى حال فهيا بنا نتسلل عائدين الى العنبر الخشبى .

واغلقا الباب خلفيهما ، ثم استلقيا دون أن يخلعا ملابسهما ، متجاورين على السرير الخشبى الضيق ، يتبادلان الهمس فى حلكة



الظلام ولفترة طويلة ، وقد بدا الامر لهما وكانما ليس هناك وجود لحارس الماني يذرع المكان بجوارهما ، ولا لجنود المان آخرين ينتشرون فى كل مكان حولهما . وكم من مرة رددا فيها :

– كفى . . ينبغى النوم قليلا !

لكنهما كانا يشرعان ثانية فى تبادل الهمس .

وفى الصباح ايقظ الخال كوليا اوليج ، فى حين كان فانيا قد رحل . وتساءل الخال كوليا بسخرية عكستها شفتاه وعيناه :

– لماذا خلدت الى النوم فى ملابسك ؟

وتملص اوليج من الاجابة وهو يتمطى ، ليقول مازحا :

– لقد غلب النوم البطل!

– بطل . . بطل . لقد سمعت حديثكم فيما وراء جدار العنبر ، وكذلك حديثكما انت وزيمنوخوف .

واستوى اوليج فى فراشه بينما ينم وجهه المثقل بالنعاس عن دهشة عميقة ليتساءل :

– هل سمعت حقا ؟ ولماذا لم تنبهنا الى انك لست نائما ؟

– حتى لا اعكر صفوكم .

– اننى لم اكن انتظر منك ذلك !

وذكر نيكولاى نيكولايفيتش بنبرته المتانية :

– يجب الا تنتظر منى الكثير . هل تعرف على سبيل المثال اننى اخفى جهاز راديـــو تحت اقدام الألمان . . تحت الأرض الخشبية ؟

وارتبك اوليج على نحو جعل وجهه يتسم بأمارات تحمل معنى البلاهة .

– كيف ذلك ؟ الم تسلمه فى حينه ؟

– لم اسلمه !

– هذا يعنى انك كنت تخفيه عن السلطة السوفيتية .

– نعم كنت اخفيه !

وذكر اوليج دون ان يعرف هل له ان يضحك أم يغضب :

– آه منك ياكوليا ! لم اكن أعلم انك على هذا القدر من الدهاء .

وذكر الخال كوليا :

– أولا . . لقـــد تسلمت الجهاز كمكافأة على حسن عملى ، وثانيا ، فهو جهاز أجنبى ذو سبع لمبات .

– لقد وعدوا باعادته !

– نعم لقد وعدونى بذلك . لو كنت قد سلمته ، لوقع الآن فى حوزة الالمان ، بينما هو لدينا اليوم تحت الارضية الخشبية . وقد ادركت جدواه حين استمعت الى حديثكم بالأمس . وهكذا اكون محقا من كافة الجوانب .

وذكر أوليج وقد اعتدل مزاجه تماما :

– مهما يكن من أمر فأنت رائع ياخال كوليا ! هلم نغتسل ، ثم نلعب دور شطرنج قبل تناول طعام الافطار . . . ان السلطة السائدة هنا المانية ، ولذلك فليس هناك ما يدعونا للعمل .

وفى تلك اللحظة ترامى الى سمعهما صوت فتاة يدوى رنانا فى كل ارجاء الفناء ، متسائلا :

– فلتقل لى ايها الأبله . . هل يسكن أوليج كوشيفوى هذا البيت ؟

وأجابها الحارس عند المدخل :

– Was sagst du? Ich verstehe nict * !

وعلق الصوت الرنان :

– هلا رأيت يانينوتشكا مثل هذا المعتوه ؟ انه لا يفهم مثقال ذرة بالروسية . فلتنتح اذن جانبا ، أو فلتدع لنا انسانا روسيا اصيلا .

واطل الخال كوليا واوليج براسيهما من عنبرهما ، يستطلعان الأمر .

كانت ثمة فتاتان تقفان عند المدخل قبال الحارس الألمانـــى الذى قد اعتراه بعض الارتباك . وقد كانت تلك الفتاة التى تبادلت الحديث مع الحارس حسنة الهيئة على نحو لفت انظار اوليـــج ونيكولاى نيكولايفيتش . وقد كان أشدما يلفت الأنظار فيها ، رداؤها باهر الألوان . كرز أحمر ونقط خضراء ، وزخارف صفراء بنفسجية على أرضية سماوية زرقاء . كما وكانت شمس الصباح

---

* بالألمانية : ماذا تقولين ؟ اننى لست افهمك !

تنعكس براقة على شعرها المتموج ذهبيا فوق جبهتها ، والمنسدل على رقبتها وكتفيها فى خصل جرى تصفيفها بعناية . هذا الى جانب أن ذلك الرداء كان مشدودا فى احكام حول خصرها ، ومتهدلا فى اناقة وبساطة حول ساقيها اللدنتين المستقيمتين داخل جورب امتزج لونه بلونهما ، وحذاء خفيف عالى الكعبين بيج اللون ، مما جعل الفتاة تبدو رشيقة بسيطة فى غير ما تكلف .

وفى تلك اللحظة التى اطل فيها أوليج والخال كوليا من العنبر ، كانت الفتاة تهم بارتقاء درج المدخل ، الا أن الحارس الواقف الى جانبه ممسكا برشاشة باحدى يديه ، حال دون ذلك بيده الأخرى .

الا ان الفتاة التى لم تجفل لحظة واحدة ، دفعت فى غير اكتراث بيدها الصغيرة البيضاء يده القذرة ، وصعدت سريعة الى المدخل ، لتلتفت الى صديقتها تناديها :

— هيا . . يانينوتشكا . . هيا !

وترددت صديقتها بعض الشئ . كما وقفز الحارس الى المدخل ، يتدلى من رقبته البدينة رشاشة ، ليبسط ذراعيه يسد بهما باب المسكن . وتجمدت على وجه الألمانى غير الحليق ابتسامة تنم عن سعادة مشوبة بالبلاهة تعكس ارتياحه ازاء قيامه بواجبه ، وتعنى فى نفس الآن خوفه ازاء ادراكه ان هذه الفتاة لم تكن لتقدم على معاملته هكذا ، لو لم تتمتع ببعض الحقوق .

وهنا ذكر أوليج خارجا من العنبر :

— اننى كوشيفوى . . تعالى هنا !

والتفتت الفتاة ناحيته فى حدة ، تتأمله برهة بعينين زرقاوين مزرورتين ، وتهبط فى تلك البرهة تقريبا ، الدرج ، تدقه بكعبى حذائها .

ووقف أوليج يستقبلها فارع القامة ، وقد أسدل يديه فيما ينظر اليها على نحو يتسم بالسذاجة المشوبة بالتساؤل ، وبالطيبة وكأنما يود أن يقول لها . . «هاأنذا أوليج كوشيفوى . . فلتخبرينى اية جدوى يمكن ان تعود عليك من تعارفنا : اذا ماكنت تبغين الخير . . فعلى الرحب والسعة ، اما اذا كنت تبغين شرا ، فما الذى يدعوك الى اختيارى انا بالذات ؟ . . .» وتقدمت الفتاة اليه ، حيث تأملته بعض الوقت ، وكأنما تقارنه بصورة مرتسمة له

بمخيلتها . ودنت فى اثر صديقتها ، تلك الفتاة الاخرى التى لم يكن قد اعارها أوليج بعد اهتمامه ، الا انها انتحت جانبا .

وذكرت الفتاة الاولى مؤكدة فى ارتياح ، وكأنما تحدث نفسها :

— حقا . . انه أوليج ! ينبغى أن نتحادث على انفراد .

وغمزت اوليج بعينها الزرقاء .

واذ اعترت مشاعر الاضطراب والحيرة أوليج ، افسح الطريق لهما ، لتدلفا الى داخل العنبر . وامعنت الفتاة ذات الرداء الملون النظر الى الخال كوليا ، وقد زرت عينيها ، ثم انتقلت بنظراتها فى دهشة وتساؤل ، الى أوليج .

وذكر أوليج :

— يمكنك التحدث فى حضرته ، وكأنما أجلس وحدى .

والفتت نحو صديقتها تقول ضاحكة :

— كلا . . انها قضايا غرامية . . أليس ذلك حقا يانينوتشكا ؟

وتوجه أوليج وخاله نيكولاى بنظرهما نحو الفتاة الأخرى . وقد كانت ذات وجه ضخم القسمات ، لوحته الشمس بأشعتها الحارقة ، وذراعين عاريتين حتى المرفقين ، سمراوين ، جميلتين قويتين ، وشعر داكن كثيف ، يتهدل على كتفيها العريضتين محيطا بوجهها كما البرونز . كما وكان وجهها العريض ينطق بالبساطة المتناهية التى تجلت فى شفتيها المكتنزتين وذقنها المستديرة ، وخطوط انفها ، وبالقوة والتحدى والرغبة والتى تتجلى فى جبهتها المقعرة ، وحاجبيها ، وعينيها العريضتين الكستنائيتين ذات النظرات الجسورة الصريحة .

وتوقفت عينا أوليج رغما عنه عند هذه الفتاة ، التى ظل يشعر بوجودها فيما بعد ، ليتاتا فى حديثه .

واذ انتظرت الفتاة حتى تعالى دبيب خطوات الخال كوليا بعيدا عن المكان حتى دنت الفتاة ذات العينين الزرقاوين من وجه أوليج قائلة :

— اننى من طرف العم أندريه .

وصمت أوليج قليلا ليقول مبتسما :

— يالجرأتك . . كيف استطعت التعامل هكذا مع الحارس ؟ !

— لا بأس ، فالخادم يهوى قرع العصا !

– ومن تكونين أنت ؟

وذكرت الفتاة ذات الرداء الملون الناصع :

– اسمى ليوبكا !

الفصل السادس والعشرون

كانت ليوبوف شيفتسوفا تنتمى الى ذلك الرعيل من شباب وفتيات الكومسومول الذين جرى تحديدهم فى خريف العام الماضى ليكونوا تحت تصرف أركان الفدائيين ، لاستخدامهم فى مؤخرة العدو.

كانت على وشك الانتهاء من دراسات التمريض العسكرى فى مدينة فوروشيلوفجراد ، وتتأهب للتوجه الى الجبهة ، الا أنه جرى تحويلها لدراسة اللاسلكى بنفس المدينة .

وبناء على تعليمات الاركان فقد اخفت أمر تحولها الى دراسة اللاسلكى عن ذويها ورفاقها ، فى حين راحت تواصل الكتابة الى ذويها والحديث مع رفاقها حول أنها ما تزال تتابع دراسات التمريض العسكرى . وقد كانت ليوبكا مغرمة بتلك الحياة التى تلفها السرية والكتمان ، اذ كانت تهوى طوال حياتها اللهو والتمثيل ، ولم يكن عبثا ان يدعونها «ليوبكا الممثلة . . الثعلبة الماكرة» !

ففى طفولتها كانت تهوى تقمص دور الطبيبة ، فتروح تلقى من النافذة بدميها ، ثم تشرع فى السير حولها ممسكة بحقيبة صغيرة مرسوم عليها صليب أحمر ، مليئة بالضمادات والشاش والقطن ، فتاة بيضاء بدينة ذات عينين زرقاوين ، وغمازتين بوجنتيها . كانت تقوم بتضميد اباها وامها وكل المعارف كبارا وصغارا ، وكذلك الأطفال والكلاب والقطط .

وذات يوم قفز صبى يكبرها سنا عبر السور ليستقر أخمص قدمه فوق طرف زجاجة مكسورة . وقد كان الصبى مجهولا من شارع بعيد ، وليس ثمة أحد من الكبار يمكن ان يمد له يد العون . وهنا قامت ليوبكا ذات الستة أعوام بغسيل قدمه وسكبت على الجرح صبغة اليود ثم ضمدتها . وانصرف الصبى الذى كان يدعى سيريوجا ليفاشوف دون أن يبدى تجاه ليوبكا أية مشاعر سواء

عرفانا بالجميل أو اهتماما بها . كما ولم يعد ثانية الى فناء بيتها لأنه كان يحتقر الفتيات عموما .

اما وحين انتظمت فى الدراسة ، كانت تدرس فى سهولة ، مثيرة حولها جوا من المرح وكأنما هى ليست تلميذة فى واقع الأمر ، بل تلعب هذا الدور . بيد أنها كانت آنذاك قد تخلت عن احلامها بأن تصبح طبيبة او مدرسة او مهندسة ، لتراودها الرغبة فى ان تصبح ربة بيت ومهما كان العمل الذى تمارسه سواء تنظيف الأرضية أو طهى الطعام – فقد كانت تقوم به على نحو افضل من امها وفى جو يسوده المرح كما وساورتها الرغبة فى ان تصبح تشابايف * ، وتشابايف ، بالذات ، وليس آنكا ** رامية الرشاشات ، لأنها ايضا كانت وكما اتضح ، تحتقر الفتيات . كانت ترسم تحت أنفها شاربا بفليفة محروقة ، متشبهة بتشابايف لتقاتل الصبية الى ان تحرز النصر . بيد أنها وحين كبرت قليلا ، احبت الرقص – الباليه الروسى والأجنبى ، والرقص الشعبى الأوكرانى والقوقازى . هذا علاوة على أنها كانت ذات صوت جميل مما غدا معه واضحا انها سوف تصبح فنانة . وقد راحت تظهر على مسارح قصور الثقافة والمسارح المقامة فى الهواء الطلق بالحدائق العامة ، اما حين بدأت الحرب فقد راحت تؤدى أدوارها الفنية بسعادة بالغة امام الجنود . بيد انها لم تكن على الاطلاق فنانة اصيلة ، بل كانت تؤدى دور الفنانة ، حيث أنها كانت ماتزال تبحث عما يستهويها فى واقع الامر . كانت أعماق روعها جياشة بشئ متعدد الألوان ، يرقص ويغنى تارة ، ليتاجج كما النيران على حين غرة تارة أخرى . ثمة شئ حى كان يجعلها لا تعرف الى الراحة سبيلا . كانت متعطشة لبلوغ المجد ، تراودها رغبة جارفة فى التضحية بذاتها . كانت البسالة اللامحدودة والشعور بالسعادة الطفولية الثاقبة المشاكسة تدعوها وتلح فى الدعوة عليها للتقدم نحو الامام والارتقاء نحو الاعلى ، حتى تحفل حياتها دائما بالجديد ، وما يمكن أن تصبو اليه

* فاسيل تشابايف (١٨٨٧–١٩١٩) بطل شعبى ابان الثورة والحرب الأهلية . **المترجم** .

** آنكا احدى شخصيات الفيلم المعروف «تشابايف» ، كانت مرافقة للبطل الاسطورى ، قائد الفرقة . **المترجم** .

نفسها . لقد كانت تهذى باتيان البطولات على الجبهة ، اذ انها سوف تكون طيارة او ممرضة عسكرية على اقل تقدير . ولكن ها هى تصبح عاملة لاسلكى بقوات الاستطلاع فى مؤخرة العدو . وقد كان ذلك افضل الأمور بطبيعة الحال .

لقد كان شيئا غاية فى السخرية والغرابة أن يدرس معها من ابناء كراسنودون واعضاء الكومسومول سيريوجا ليفاشوف ، ذلك الذى عالجته فى طفولتها ، ليكون جزاءها آنذاك الاحتقار والتجاهل . وهاهى تحين اللحظة لترد له الصاع صاعين بعد ان وقع اسير حبها . اما هى فلم يكن يستهويها وان كانت شفتاه واذناه بالغة الجمال ، كما وكان بوجه عام فتى يتسم بالجدية والروح العملية . لم يكن يجيد على اطلاق طرق التودد الى الفتيات ، ليجلس قبالتها فى صمت وينظر اليها فى استسلام ، بينما كانت تسخر منه ، تضايقه هو عريض الكتفين ، حسبما يحلو لها .

وكثيرا ما كان يحدث أيام كانت تحضر دراسات اللاسلكى ، ان يختفى احد الدارسين ، ليعلم الجميع انه قد جرى ارساله قبل الأوان للعمل فى صفوف العدو الخلفية .

وفى احدى امسيات مايو الخانقة كان القمر يغمر بضيائه حديقة المدينة ، بينما ازدهرت أشجار الأقاصيا لتلعب رائحتها بالرؤوس . وكانت ليوبكا التى يستهويها وجود الكثيرين حولها تدعو سيريوجا الى السينما او التجول فى شارع لينين . اما هو فكان يجيبها بينما تشع عيناه بقوة مبهمة فى ممرات الحديقة التى تكتنفها الظلال :

– انظرى ما اجمل المكان ! أولست سعيدة بذلك ؟

كانا يذرعان ممرات الحديقة ذهابا وايابا ، بينما راحت ليوبكا تضيق ذرعا ازاء صمت سيريوجا ، وازاء عدم استجابته لها .

وفى تلك اللحظات اندفعت الى الحديقة مجموعة من الصبية والفتيات ، يترامى فى ارجائها صدى ضحكاتهم واصواتهم . وقد كان ضمن هؤلاء احد ابناء فوروشيلوفجراد ، ودارس اللاسلكى بوركا دوبينسكى الذى كان هائما بدوره بليوبكا ، يثير ضحكاتها دائما بنكاته .

وصاحت تناديه :

– بوركا !

وعرف على الفور صوتها ليهرول اليها والى سيريجى ، وليغرق على الفور فى الثرثرة على نحو بدا معه من الصعب ارغامه على الصمت . وتساءلت ليوبكا :

– مع من تسير ؟

– انهم رفاقى بالمطبعة . أتودين التعرف عليهم ؟

– طبعا !

وجرى التعارف على الفور ، لتدعوهم ليوبكا الى التجول بشارع لينين . اما سيرجى فقد اعتذر عن مصاحبتهم . واذ ظنته ليوبكا قد غضب ، ورغبة منها فى تلقينه درسا تأبطت ذراع بوركا دوبينسكى ، لينطلقا الى خارج الحديقة ، بسرعة لم يكد سيرجى معها سوى أن يلحظ فستانها يتطاير فيما بين الأشجار .

وفى الصباح لم تقع عيناها على سيرجى فى قاعة الطعام بمساكن الدارسين ، كما لم تره فى قاعة الدرس ، وكذلك عند الغداء وعند العشاء ، وكان من غير المجدى أن تسأل عن مكانه .

وبالطبع فلم تكن تفكر فيما جرى بالحديقة مساء الامس ، حيث ان ذلك لم يكن يعنى لها امرا ذا قيمة . بيد انه وعند المساء راودها الحنين الى بيتها وتذكرت اباها وامها ، وبدا لها انها لن تراهما ابدا . كانت مستلقية فى فراشها فى هدوء ، بغرفة يشاطرها اياها خمس من صديقاتها . وقد كن جميعهن قد خلدن الى النوم ، بينما تغلغلت أشعة القمر الى الداخل عبر النافذة القريبة المفتوحة على مصراعيها ، لتدرك ليوبكا وقد لفها الحزن .

اما فى اليوم التالى فقد فارق سيرجى ليفاشوف مخيلتها الى الأبد ، وكأنما لم يكن .

وفى السادس من يوليو ، استدعى مدير الدراسات ليوبكا لابلاغها بتردى الاوضاع بالجبهة ، وبقرار تهجير مقر الدراسات . اما هى فسوف تبقى تحت امرة اركان فدائيى المقاطعة ، وعليها ان تعود الى مدينتها كراسنودون والى حين استدعائها . واذا ما احتل الالمان المدينة ، يجب الا يكون سلوكها مثار شك . وجرى تسليمها عنوان احد منازل كامينى برود حيث ينبغى عليها الذهاب قبيل الرحيل للتعرف على صاحبة البيت .

وقد قامت ليوبكا بزيارة كامينى برود حيث تعرفت على ربة

البيت ، ثم جمعت حاجياتها وخرجت لتستقل احد اللوريات العابرة الذى توقف استجابة لاشارة من الفتاة الجسورة الشقراء ، والذى كان يمر طريقه عبر كراسنودون .

قضى فالكو بعد توادعه مع رفاقه ، طيلة يومه مستلقيـــا بالبرارى ، وعندما بدأ الظلام يسدل ستائره اتخذ طريقه عبر الوهدة ، نحو اطراف ضاحية شانغاى ، ثم عبر الحوارى والازقة الى منطقة المنجم رقم ١ . فقد كان يعرف المدينة التى شب فيها وترعرع ، جيد المعرفة .

كان يخشى الالمان الذين ربما يكونون قد استقروا لدى آل شيفتسوف . ولذا فقد تسلل خلسة الى الفناء عبر السور ، ثم توارى الى جانب بنايات المخازن الملحقة ، عسى ان يخرج احد الى الفناء . وقد ظل ينتظر طويلا حتى اوشك صبره على النفاد ، والى ان صفق الباب الخارجى لتظهر امرأة تمسك بدلو ، تمر قريبا منه ، عرف فيها يفروسينيا ميرونوفنا زوجة شيفتسوف . وبارح مكانه يستقبلها . وتساءلت بصوت خافت :

– يا الهى . . من هذا ؟

ودنا فالكو قريبا منها ، بوجهه الاسمر غير الحليق ، لتعرفه على الفور ، ثم سألته :

– او تكون انت ؟ واين . . .

لم يكن من الممكن تبين وجه يفروسينيا ميرونوفنا الذى امتقع فى ظلمة الليل التى كان يقاومها ضياء القمر متسللا عبر ضباب خفيف كان يغشى السماء .

وذكر فالكو بصوت اجش ينوء تحت جسامة ما يجب ان يبلغها به :

– انتظرى قليلا . بادىء ذى بدء يجب أن تنسى لقبـــى ! ولتنادينى بالعم أندريه . هل يقيم المان عندكم ؟ كلا . . هيابنا اذن الى الداخل .

وهبت تستقبله ليوبكا التى كانت جالسة فى فراشها تحيك شيئا ، لتبدو بسيطة فى بلوزة رخيصة وجونلة قصيرة حافية القدمين ، هى الفتاة التى تعود فالكو رؤيتها على مسرح النادى انيقة الملبس ، فى فستانها الزاهى وحذائها ذى الكعب العالى . كان شعرها

الذهبى منسدلا على كتفيها وعنقها ، فيما زرت عينيها تحدق فى غير دهشة الى فالكو ، تحت ضوء مصباح صغير من مصابيح المناجم كان معلقا فوق المائدة التى بدت داكنة اللون .

لم يتحمل فالكو نظراتها ، وشرع يجول بناظريه فى ارجاء الغرفة التى كانت ما تزال تحمل امارات يسر أصحابها . وتوقفت عيناه على صورة صغيرة معلقة بالجدار فوق السرير . .

لقد كانت صورة هتلر .

وذكرت أم ليوبكا :

– لا تظن سوءا يا رفيق فالكو !

وصحح فالكو قولها :

– اسمى العم أندريه .

وعادت الام تقول فى غير ابتسامة :

– حسنا . . العم أندريه .

والتفتت ليوبكا فى هدوء نحو صورة هتلر ، وهزت كتفيها فى احتقار . وذكرت يفروسينيا ميرونوفنا توضح الامر :

– لقد علقها ضابط المانى ، اذ كان يعيش بمنزلنا طوال الايام الماضية ضابطان المانيان لم يرحـــلا سوى بالامس الى نوفوتشيركاسك . ما كادا يدخلان آنذاك حتى قالا بروسية ركيكة : «فتاة روسية . . جميلة ، جميلة . شقراء» . وراحا يضحكان ، ويقدمان اليها الشيكولاته والبسكويت . وقد وجدتها تلك الشيطانة تتناول ما يقدمانه ، فى غطرسة وغلظة تارة ، لتغرق فى الضحك تارة اخرى . ويالها من لعبة كانت !

ومضت الام تقول فى لوم حنون لابنتها وثقة كاملة فى ان فالكو سوف يفهم الموقف كما يجب :

– كنت اقول لها «لاداعى للعب بالنار» ، بينما كانت ترد قائلة «هكذا ينبغى أن يكون الامر» . – وعادت يفروسينيا ميرونوفنا تقول : – هكذا ينبغى الامر بالنسبة لها . . يالها من لعبة ديرتها . وهل لك ان تتصور أيها الرفيق فالكو . . .

وصحح ثانية قولها :

– العم أندريه .

– ياعم أندريه . . . انها لم تسمح لى بالافصاح عن انني

امها ، مدعية بأننى مدبرة المنزل . اما هى فقد جعلت من نفسها فنانة . وراحت تقول «كان والداى من الصناعيين ، اصحاب المناجم ، نفتهما السلطة السوفيتية الى سيبيريا» . هل رايت ماذهب اليه خيالها ؟

– ياله من خيال حقا !

ذكر فالكو فى هدوء ، وهو يمعن النظر من باهتمام الى ليوبكا التى وقفت ازاءه ، تمسك ما كانت تحيكه تنظر الى العم اندريه وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة غير ذات معنى .

واستطردت يفروسينيا ميرونوفنا تقول :

– راح الضابط الذى اتخذ فراشا له هذا السرير ، سرير ليوبكا ، حيث انتقلت لننام سوية بالغرفة الاخرى ، راح يفتش فى حقيبته ، ربما بحثا عن ملبس له ، ليتناول هذه الصورة ويعلقها بدبوس بالحائط . اما هى ، ولك ان تتصور ايها الرفيق فالكو ، فقد اندفعت نحوه لتنتزع الصورة عن الجدار قائلة : «انه سريرى ، وليس سريرك ، كما اننى لست اريد هتلر معلقا فوق سريرى» . وظننته سوف يقتلها . الا انه امسك بذراعها ليلويه ، منتزعا الصورة ليعلقها ثانية على الجدار . وجاء الضابط الاخر ليغرقا فى الضحك سويا . راحا يقولان ضاحكين «آه . . يالها من فتاة روسية ماكرة !» وانظر اليها لاجد الغضب يعتريها والحمرة تعلو وجهها ، وكورت قبضتها . . . وآنذاك كدت اموت هلعا . ولست ادرى فى حقيقة الامر ما اذا كانت قد اعجبتهما للغاية ، او يكونان قد بلغا حدا من الحماقة يجعلهما يقفان على هذا النحو . اما هى فقد راحت تدب الارض بقدميها صائحة «ان هتلركم ، قبيح المنظر ، مصاص للدماء ، ولا يستحق سوى اغراقه فى المراحيض !» . كما راحت تطلق الشتائم لدرجة اننى ظننته سوف يتناول على التو مسدسه ليرديها قتيلة . وحين رحلا ، لم تسمح بانتزاع صورة هتلر قائلة : «دعيه معلقا . . فسوف يكون ذلك مفيدا» .

لم تكن والدة ليوبكا بلغت من العمر كثيرا ، الا انها شأن النسوة الطاعنات فى السن ، اللاتى عانين فى شبابهن من ولادة عسيرة ، حيث ترهلت مؤخرتها وخصرها وتضخمت قدماها . وقد شرعت تقص بصوت خافت على فالكو تفاصيل ذلك الحادث ، فيما

تتطلع اليه طوال الوقت فى نظرات تتسم بالتساؤل والحيرة ، بل والتوسل كان يدفن وجهه فيما بين راحتيه . وظلت تتحدث وتتحدث وكانما كانت تود تأجيل تلك اللحظة التى يدلى فيها بما كانت تخشى سماعه . بيد انها كانت قد ذكرت كل ما عندها ، ولبثت تنظر الى فالكو فى انتظار ما سوف يقوله فى اضطراب وحيرة . وذكر فالكو بصوت اجش :

– ربما تكونين يا يفروسينيا ميرونوفنا قد احتفظت ببعض ثياب زوجك البسيطة . اذ اننى لا اشعر بالارتياح فى مثل هذه الجاكتة وهذا السروال والشبشب . ومضى يقول ضاحكا : – والا فسوف يعتبروننى على الفور شخصية ذات اهمية .

واعلن صوته عن شئ ما جعل الشحوب يتسلل الى وجه يفروسينيا ميرونوفنا ، بينما اسدلت ليوبكا يديها ليسقط الى الارض ما كانت تحيكه .

وتساءلت الام بصوت يسمع بالكاد :

– ماذا حدث له ؟

وذكر فالكو بصوت خافت وان كان يتسم بالثبات :

– يفروسينيا ميرونوفنا . . وانت ياليوبا ! اننى لم اكن اظن الاقدار سوف تسوقنى يوما اليكما لازف لكما نبا غير طيب ، الا اننى لا اود خداعكما . كما انه ليس ثمة ما اخفى به عنكما . لقد استشهد جريجورى ايليتش ، زوجك . . وابوك ياليوبا . . واصدق اصدقائى . . صرعته قنبلة القى بها الالمان الملاعين على السكان الآمنين . . . وسوف تظل ذكراه دائمة ، مجيدة فى قلوب ابنائنا !

ولم تصرخ الام ، بل دفنت عينيها فى طرف منديلها الذى كانت تعصب به رأسها واجهشت بالبكاء . اما ليوبكا فقد امتقع وجهها وكانما فارقته الدماء . ولبثت واقفة مكانها بعض الوقت ، لتهوى فجاة الى الارض فاقدة الوعى والقوى .

ورفعها فالكو على يديه ليضعها فى فراشها .

لقد كان يتوقع ان تنفجر الفتاة ، ذات الطابع المتوقد ، عويلا وصراخا مما قد يخفف عنها . بيد ان ليوبكا رقدت فى فراشها جامدة ، ممتقعة الوجه ، شاخصة العينين ، وقد ارتسمت على جانبى شفتيها تجعيدة الم كتلك التى ظهرت لدى امها .

اما الام فقد عبرت عن حزنها فى بساطة وعمق وهدوء شأن النسوة الروسيات البسيطات . كانت الدموع تنهمر من عينيها لتمسحها بطرف منديلها ، او براحة يدها حين كانت تصل الى شفتيها وذقنها . ولما كان حزنها طبيعيا فقد راحت تمارس ما يجب على ربة البيت القيام به حين تستقبل ضيفا . فقد ناولت فالكو ماء للاغتسال ، واشعلت له المصباح وتناولت من الصندوق قميصا قديما وجاكتة وسروالا كان زوجها يرتديها عادة داخل المنزل .

وتناول فالكو المصباح وخرج الى الغرفة الاخرى ، حيث قام بتغيير ملابسه . وقد كانت الثياب ضيقة بعض الشىء ، الا انه كان يشعر فيها بنفسه اكثر حرية ، اذ غدا اشبه بعامل عادى شأن الكثيرين غيره .

وراح يقص تفاصيل استشهاد جريجورى ايليتش ، مدركا انه على الرغم من فظاعتها فانها تعتبر الشىء الوحيد الذى يمكن ان يكون نوعا من العزاء لذويه . ومع انه كان مضطربا مهموما فقد اكل كثيرا وشرب زجاجة كاملة من الفودكا ، اذ كان قد قضى طيلة يومه بلا طعام . وعلى الرغم من انه كان منهك القوى فقد طلب من ليوبكا النهوض من فراشها للتحدث بعض الوقت . وخرجا الى الغرفة المجاورة .

— لقد جرى الابقاء عليك هنا للعمل . وذلك ، امر واضح تماما .

هنا ماذكره فالكو وتراجعت على اثره ليوبكا فيما تغيرت ملامح وجهها ،الا انه تظاهر بعدم ملاحظة ذلك ، ومضى يقول رافعا راحته الثقيلة حين حاولت الاعتراض :

— لا تحملى نفسك هذا العناء . . فلست اسالك اسماء من ابقى عليك وسبب ذلك ، كما انك لست ملزمة بتاكيد او نفى ذلك . اننى ارجوك مساعدتى . . . وسوف افيدك بدورى ذات يوم .

وطلب منها ان تقوم باخفائه فى مكان ما لمدة يوم ، وان تعد له لقاء بكوندراتوفيتش الذى قام معه بتفجير المنجم رقم ١ .

وتاملت ليوبكا فى دهشة وجه فالكو الاسمر الذى عرفته دائما انسانا ذكيا مرموقا . وبالرغم من ان فالكو كان صديق ابيها ،

فقد كان يبدو لها دوما أسمى وارفع منها . وهاهى اليوم مبهورة ازاء نظره الثاقب .

وقد اعدت لفالكو فراشا فى مخزن للدريس ، بجمالون عنبر مجاور كان الجيران يستخدمونه حظيرة للماعز . اما اليوم فقد هاجر الجيران ، واتى الالمان على الماعز ، ليقفر المكان الذى استغرق فيه فالكو فى سبات عميق .

اما الام والابنة فقد استقرتا بفراش الاولى ، حيث راحتا تجهشان بالبكاء حتى مطلع الفجر .

لقد راحت الام تبكى حياتها ، حياة المراة التى ارتبطت منذ صباها بجريجورى ايليتش ، والتى حلت اليوم نهايتها . وقد تواردت الى ذاكرتها تفاصيل تلك الحياة حين كانت تعمل خادمة فى تساريتسين ، بينما كان جريجورى ايليتش يعمل بحارا على متن سفينة تمخر عباب نهر الفولجا . تذكرت كيف كانا يلتقيان بالمرفا الغارق تحت اشعة الشمس او بحديقة المدينة ريثما كان يجرى شحن السفينة بالبضائع ، وكيف عاشا حياة بائسة فى بداية فترة زواجهما ، حين لم يكن جريجورى ايليتش قد وفق بعد فى العثور على وظيفة جديدة . تذكرت يوم انتقلا فيما بعد الى الدونباس ، الى ذلك المكان حيث عاشا فترة عصيبة فى بداية الامر . . . تذكرت كيف راح زوجها جريجورى ايليتش يرتقى سلم الشهرة عاليا عاليا حتى راحت الجرائد تتحدث عنه ، وحصلا على هذا المسكن ذى الغرف الثلاث حيث تحسنت احوالهما وظهرت ليوبكا التى صارت تترعرع كما الاميرة .

لقد حلت النهاية . . نهاية كل ذلك . فقد رحل جريجورى ايليتش ليبقيان هما امراتان لا حول لهما ولا قوة . . احداهما تقدم بها العمر بينما الاخرى ماتزال فى مقتبله .وانهمرت الدموع غزيرة غزيرة من عينى يفروسينيا ميرونوفنا ، بينما كانت ليوبكا لا تفتر عن الترديد فى همس مبهم حنون :

— لا تبكى يا امى العزيزة . . اننى اليوم أجيد مهنة ، سوف تنفعنا حين يطرد الالمان وتنتهى الحرب . فسوف التحق بالعمل فى الاذاعة ، لاغدو عاملة لاسلكى شهيرة وليعينونى فيما بعد مديرة لها . اننى اعرفك تكرهين الضجيج ، وسوف اتكفل باقامتك معى

بالشقة التى سوف يفردها لى العمل ، حيث يخيم الهدوء التام . . .
فالجدران مبطنة لا تسمح بتسلل الاصوات ، علاوة على أن الناس
سوف يكونون قليلين . سوف تكون الشقة غاية فى النظافة ، نقيم
فيها وحدنا . سوف ازرع الحشائش فى الفناء ، وحين تتحسن ا.والنا
سوف نقتنى الدواجن التى ستشغلك تربيتها .

كانت تهمس لامها بذلك وهى تزر عينيها وتطوق عنقها بينما
تلوح فى الظلام بيدها الصغيرة البيضاء ذات الاظافر الرقيقة .

وفى تلك اللحظة تعالى طرق خفيف على زجاج النافذة . وسمعته
الام والابنة فى آن واحد ليشيحا بايديهما ، ويروحان يصيخان
السمع وقد توقفتا عن البكاء .

وهمست الأم متسائلة فى اذعان :

— ألمان ؟

بيد أن ليوبكا تدرك ان الالمان ما كانوا يطرقون النافذة
خفيفا هكذا . وهرولت حافية القدمين نحو النافذة ترفع طرف
البطانية التى كانت تغطيها . كان القمر قد اختفى ، الا انها استطاعت
ان تميز فى الظلمة ثلاثة اشباح بالحديقة ، رجلا يقف الى جوار
النافذة وامرأتين على مقربة منه .

وتساءلت بصوت عال :

— ماذا تريدون ؟

ودنا الرجل بوجهه من زجاج النافذة ، لتتعرف ليوبكا عليه
فورا ، ولتندفع الى حلقها دفقة حارة حبست انفاسها . أو كان يلزمه
ان يظهر الآن ، فى اعصب لحظات حياتها !

ولم تدر كيف هرولت تقطع الغرف لتطير وكأنما على أجنحة
الرياح الى المدخل ، وراحت من كل قلبها المفعم بمشاعر الاسى
والامتنان تحيط جيده الشاب بذراعيها القويتين الماهرتين ، والتصقت
به باكية نصف عارية ، تحمل دفء احضان الام .

ثم تركت احضانه ، ممسكة بيده ، تجره نحو الداخل قائلة :

— هيا . . سريعا . . سريعا .

ثم تذكرت رفيقتيه لتسأله وهى تحدق النظر فى الفتاتين :

— من معك ؟ آه . . أوليا ! نينا ! يا عزيزتاى !

واذ احتضنتهما بذراعيها القويتين راحت تضم رأسيهما اليها

لتغمرهما بقبلاتها الحارة الواحدة تلو الاخرى . ثم راحت تهمس بشكل
محموم :

— هيا . . هيا . . سريعا !

الفصل السابع والعشرون

توقف ثلاثتهم عند عتبة الباب ، لاتواتيهم الجراة على دخول
الغرفة ، بملابسهم القذرة وأجسادهم التى غمرها الغبار . . سيرجى
ليفاشوف غير حليق الوجه ، يرتدى ملابس اشبه بملابس السائق
او عامل التركيبات ؛ وأوليا ونينا قويتا البنية ، الا ان نينا كانت
اضخم قليلا من زميلتها ، بينما كانت كل منهما ذات وجه برونزى ،
سوداء الشعر الذى بدا وكأنما غطى بمساحيق الغبار الرمادى ،
ترتدى ثوبا قاتم اللون ، تحمل على كتفها كيسا .

كانت الفتاتان بنتى عم من آل ايفانتسوف . وكثيرا ما كان
الآخرون يخلطون بينهما لتشابه الاسماء مع الشقيقتين ليليا وتونيا
ايفانيخينا من حى «بيرفومايكا» . كما وتداولوا ذلك القول المأثور
«اذا ما شاهدت بين بنتى العم ايفانتسوف فتاة شقراء ، عليك ان
تعلم انهما الشقيقتان ايفانيخينا» . (كانت ليليا ايفانيخينا التى
التحقت بالجبهة ممرضة عسكرية من حيث اعتبرت من المفقودين ،
هى تلك الفتاة الشقراء) .

لقد كانت أوليا ونينا ايفانتسوفا تقطنان احد البيوت النموذجية
على مقربة من آل شيفتسوف . وكان والدهما يعمل سوية مع
جريجورى ايليتش فى منجم واحد .

— ايتها العزيزتان ، من اين انتما قادمتان ؟

تساءلت ليوبكا وهى تشيح بيديها البيضاوين ، فقد توقعتهما
عائدتين من نوفوتشيركاسك ، حيث كانت الكبرى اوليا تدرس
بمعهد التصنيع . غير انه كان غريبا ان يتواجد سيرجى ليفاشوف
فى تلك المدينة .

واجابت اوليا فى تحفظ وهى تضم شفتيها الجافتين ، ليتقطب
وجهها وحاجبيها واهدابها التى علاها الغبار على نحو لا يتسم
بالسيميترية .

— لقد اختفينا من حيث كنا .

ثم تساءلت وهى تجيل النظر فيما حولها بحكم عادتها التى الفتها فى فترة ترحالها الاخيرة :

– او تعلمين ما اذا كان يقطن الألمان بيتنا ؟

واجابتها ليوبكا :

– كانوا يقطنونه ، شأن بيتنا كذلك . الا انهم رحلوا صباح اليوم .

وازدادت ملامح أوليا تغيرا ، يجمع ما بين السخرية والاحتقار ، اذ وقع نظرها على صورة هتلر المعلقة على الحائط ، تتساءل :

– او من اجل تامين الذات ؟

واجابتها ليوبكا :

– فلنتركها مكانها . انكم ولا ريب جائعون ؟

– كلا . . اننا سوف نعود الى مسكننا ما دام خاليا .

– ليس ثمة ما تخشانه حتى ان لم يكن خاليا . فهناك الكثيرون الذين تصدى لهم الالمان عند الدون او الدونيتس ، يعودون اليوم الى منازلهم . ولكن ان تقولا صراحة انكما عائدتان من نوفوتشيركاسك .

وذكرت أوليا فى تحفظ :

– ليس هناك ما نخشاه .

وريثما كانت الفتاتان تتحادثان ، لبثت نينا التى كانت اصغر سنا من أوليا تقف صامتة على نحو يتسم بالتحدى تنقل نظراتها ما بين أوليا وليوبكا . اما سيرجى فقد القى الى الارض بكيس حاجياته الذى تركت اشعة الشمس الحارقة آثارها عليه ، ووقف مستندا الى المدفأة واضعا يديه خلف ظهره ، ينظر الى ليوبكا تعلو شفتيه بسمة خفيفة .

وتوارد الى خاطر ليوبكا . . «كلا . . انهم لم يكونوا فى نوفوتشيركاسك» . وانصرفت بنتا العم ايفانتسوف . ورفعت ليوبكا ستائر تعتيم النوافذ واطفأت المصباح الصغير ، ليتسم كل شئ باللون الرمادى . . النوافذ والأثاث والوجوه .

– هل تريد الغسل ؟

وسألها سيرجى ريثما هرولت الى العنبر خارج الغرفة لتعود حاملة دلو الماء والطست والكوز والصابون :

– او لا تعرفين ما اذا كان يقيم لدينا ألمان ؟

– لست ادرى . . يذهب البعض ليأتى البعض الآخر ! فلتخلع سترتك وبلا حرج .

كانت القذارة تعلوه لدرجة ان المياه كانت تنسال منه الى الطست شديدة السواد . غير ان ليوبكا تهللت لرؤية يديه القويتين الكبيرتين ، ولرؤيته يغسلهما بالصابون فى نشاط وحيوية بالغة . وكانت اشعة الشمس قد لفحت رقبته لتكسبها سمرة ، بينما تبدت اذناه جميلتين كبيرتين ، تنطق شفتاه بالجمال والرجولة ، اما حاجباه فقد كانا اكثى الشعر قريبا من منبت الانف الذى تغطى كذلك بشعر خفيف ، بينما ندر شعرهما فى طرفيهما اللذين ارتفعا قليلا الى اعلى ، وحيث تبدت التجاعيد على جبهته تنطق بالقوة . لقد تهللت فيما تنظر اليه حين راح يغسل وجهه بيديه القويتين ، يرفع ناظريه نحوها من آن لآخر ، ليرميها بابتسامته .

وسألته :

– اين وجدت بنتى العم ايفانتسوف ؟

واصل اغتساله فى جلبة دون ان يجيبها بشئ .

وذكرت بصوت خافت واقتضاب :

– ما دمت قد جئت الى هنا ، فذلك يعنى انك تأمن جانبى . فعلام ترددك اذن ؟ اننا ورقتان من شجرة واحدة .

وقال سيرجى :

– هاتى المنشفة . شكرا !

وصمتت ليوبكا ولم تعد الى سؤاله ، الا ان عينيها الزرقاوين راحتا تتسمان بامارات تنم عن برودة ، وان كانت قد اخذت تواصل رعايته ، فاشعلت الموقد ووضعت فوقه براد الشاى الكبير ، وقدمت اليه الطعام وبعض الفودكا .

وذكر سيرجى والابتسامة تعلو وجهه :

– هذا ما لم اتذوقه منذ بضعة اشهر .

وصب كأسا من الفودكا ليفرغه جوفه ، ثم شرع فى تناول الطعام فى نهم .

راحت حلكة الظلام تنقشع ، حيث بدأت السماء تبدو وردية

اقرب الى الذهبية فيما وراء غلالة الضباب الرمادية التى كست الافق عند الشرق .

وصار سيرجى يفكر بصوت عال يتسم بالرتابة :

– ما كنت احسب اننى سوف القاك هنا . لقد عرجت اليك على سبيل الصدفة . . وهائنذا اراك . .

لقد كانت كلماته تعنى ضمنا تساؤله عن كيف وصلت ليوبكا التى حضرت معه دورة دراسات اللاسلكى ، لتقيم فى بيتها . الا ان ليوبكا لم تجبه على سؤاله . فقد كانت حانقة ازاء احتمال ان يكون سيرجى ما يزال يظنها كما فى الماضى ، تلك الفتاة الطائشة الهوائية ، بينما هى غارقة فى خضم مشاعر الأسى .

وسالها سيرجى :

– هل انت وحدك هنا ؟ اين ابوك وأمك ؟

واجابته فى برود :

– او ليس الأمر بالنسبة لك سيان ؟

– هل حدث شىء ؟

– كل . . تناول طعامك !

ولبث ينظر اليها بعض الوقت ، ثم صب لنفسه بعض الفودكا وتابع الأكل فى صمت .

واذ فرغ من تناول طعامه ، مسح فمه بطرف كمه قائلا :

– شكرا لك !

لقد لاحظت ما طرأ على حركاته من خشونة طيلة فترة حله وترحاله تلك ، الا انها لم تكن قد تاثرت لهذا السبب بالذات ، بل كانت عدم ثقته فيها مثار استيائها .

وتساءل :

– ليس ثمة بالطبع ، ما يمكن تدخينه ؟

– سوف اجد لك ما تطلبه . .

ودلفت الى المطبخ ، لتعود اليه ببعض اوراق التبغ من حصاد حديقتهم فى العام الماضى . فقد كان ابوها يزرع كل عام بعض شجيراته ، التى يجنى ثمارها عدة مرات فى العام ، ليقوم بتجفيفها وتقطيع ما يلزمه منها بموسى ليحشو بها غليونه .

جلسا الى المائدة فى صمت ليوبكا وسيرجى الذى كانت تلفه

غلالة من الدخان . وكان الصمت يسود الغرفة الاخرى حيث تركت ليوبكا امها ، التى كانت تعرف انها لم تنم بعد ، بل تذرف الدمع هناك .

وذكر سيرجى فى هدوء :

– يبدو ان مصابا حل بكم . ان وجهك ينطق بهذا ، فلم ارك هكذا ابدا !

كانت نظراته عامرة بالدفء والرقة مما بدا غير متوقع على قسمات وجهه الخشن الجميل .

واجابت ليوبكا :

– لقد حلت المصائب اليوم بالجميع !

وذكر سيرجى بمرارة شديدة وسحب الدخان تدثره :

– آه لو تتصورين مدى ما شاهدته من اهوال طيلة تلك الفترة ! لقد نزلنا بالمظلات فى مقاطعة ستالينو . كان الالمان قد القوا القبض على الكثيرين ، مما جعلنا نصاب بالدهشة ازاء عدم افتضاح امر مساكن اللقاء . كانـــوا يعتقلون الآلاف ، المذنبين والابرياء . ولم يكن ذلك نتيجة وشاية ، بل لان الالمان كانوا يسوقونهم بالجملة . ومن الواضح ان من كانت تحوم حوله ادنى الشكوك ، كان يلقى نفس المصير . – ومضى سيرجى يقول بنبرة تنم عن اضطرابه : – لقد ملأوا آبار المناجم بالجثث . كنا بادئ الامر نعمل منفصلين عن بعضنا البعض ، الا ان الصلة كانت قائمة فيما بيننا ، لتنقطع فيما بعد . لقد وقع رفيقى الذى كنت اعمل معه فى قبضتهم ، ليحطموا ذراعيه ويقطعوا لسانه . وقد كان يمكن ان القى نفس المصير لو لم اتلق امر الانسحاب ، ولو لم التق صدفة بنينا فى احد شوارع ستالينو . لقد كانت لجنة مقاطعة ستالينو ايام تمركزها فى مدينة كراسنودون قد ابقت عليها واوليا للقيام باعمال الاتصال . وتلك هى المرة الثانية التى جاءتا فيهـــا الى ستالينو . وقد علم الجميع هنا ان الالمان بلغوا الدون . وادركنا آنذاك ان الذين ارسلوهما ، قد غادروا كراسنودون . وقمت بتسليم جهاز الارسال الى لجنة المقاطعة للعمل السرى وفقا للامر الصادر ، وقررنا العودة . وها نحن هنا .

وهتف بغتة على نحو صادر من القلب :

– كم راودنى القلق بشأنك ! فقد ظننتهم ارسلوك ، شأننا ، الى مؤخرة الاعداء ، لتبقين وحدك هناك ! لقد خلتك قد وقعت فى قبضة الالمان الذين اودعوك سجونهم يذيقونك شتى صفوف العذاب .

كان يتحدث فى هدوء ، محاولا السيطرة على مشاعره بينما كانت نظراته قد افتقدت معا فى الرقة والحرارة ، لتغدو مفعمة بالرغبة .

وهتفت تناديه :

– سيريوجا . . سيريوجا !

واستندت براسها الذهبى الى يديها .

وربت بيده الكبيرة المعروقة فى حرص على راسها ويدها .

وشرعت ليوبكا تقول بصوت خافت دون ان ترفع راسها فيما تعض شفتيها القرمزيتين :

– لقد استبقيت هنا ، وانت تعرف سر ذلك . . امرونى بانتظار الاوامر . وها هو قد مضى ما يقرب من الشهر دون ان يتصل بى احد ، او اتلقى اى امر . يحوم الضباط الالمان حوالى مثل الذباب حول العسل . ولاول مرة اتظاهر فى حياتى بما لست اتسم به فى حقيقة الامر . ويعلم الشيطان كم نافقت وخادعت ، مما كان يهصر قلبى الما ورثاء . اما بالامس فقد عاد الآخرون الذين كانو يعتزمون النزوح ، ليبلغونا ان الالمان قد قتلوا ابى اثناء قصفهم لمنطقة الدونيتس .

اشرقت الشمس لتغمر اشعتها البرارى ، تنعكس ساطعة فوق اسطح المنازل التى غطتها قطرات الندى . والقت ليوبكا براسها الى الوراء ، لتهتز خصلات شعرها قائلة :

– يجب عليك ان تغادر المكان . كيف تظن العيش فيما بعد ؟

وذكر سيرجى ضاحكا :

– كما تظنينه انت . الم تقولى اننا ورقتان من شجرة واحدة ؟!

واذ رافقت ليوبكا سيرجى حتى باب الحديقة ، عادت ادراجها لتصلح هندامها وترتدى ابسط الثياب ، حيث كان عليها الذهاب الى العجوز ايفان جناتينكو الذى يقطن حى «جولوبياتنيكى» .

وقد رحلت فى الوقت المناسب ، اذ ما كادت تغادر المنزل حتى تعالت طرقات عنيفة تهز باب منزلهم الكائن على مقربة من طريق فوروشيلوفجراد . لقد كانوا . . . الالمان .

قضى فالكو طوال يومه فى مكانه بمخزن الدريس ، دون ان يتناول طعاما ، حيث لم يكن من الممكن الدخول اليه . وليلا تسللت ليوبكا عبر نافذة غرفة الام ، لتذهب الى العم اندريه تقوده الى حى «سينياكى» حيث شقة ارملة كان ينتظرهما فيها ايفان كوندراتوفيتش .

وفى ذلك المكان عرف فالكو كل تفاصيل لقاء كوندراتوفيتش وشولجا . وقد كان فالكو يعرف شولجا منذ الصبا بوصفهما من ابناء كراسنودون ، وبوصفهما قد عملا بالمقاطعة سوية طيلة السنوات الاخيرة . ولم يكن يراود فالكو ادنى شك فى ان شولجا احد الذين استبقيوا للعمل السرى بكراسنودون . لكنه لم يكن يعلم وسيلة للعثور عليه .

وتساءل فالكو فى خشونة :

– هذا يعنى انه لم يثق بك . اليس الامر كذلك ؟ ياله من احمق !

فلم يكن فالكو يدرك كنه سلوك شولجا ، ليتساءل :

– وهل تعرف آخرين من الذين استبقيوا للعمل السرى ؟

– كلا . . لا اعرف .

وغمز فالكو بعينه متسائلا فى عبوس :

– وكيف حال ابنك ؟

واطرق كوندراتوفيتش براسه مجيبا :

– لست ادرى حقيقة امره . لقد سالته صراحة «هل سوف تعمل فى خدمة الالمان ؟ فلتقل لى ، لابيك ، بصراحة وبشرف عما يمكننى ان انتظره منك» . ورد على قائلا «او تحسبنى احمق ، حتى اقوم بخدمتهم ؟ اننى سوف اعيش فى ظل سلطتهم ، كما كنت اعيش فى السابق ! ..» .

وضحك فالكو قائلا :

– يبدو انه ذكى ، على النقيض من ابيه . وعليك ان تستفيد من ذلك . فلتعلن على الملأ انه قد حوكم فى ظل السلطة السوفييتية مما سوف يكون من مصلحته ، كما وسيجعل حياتك فى مامن من الالمان الى حد ما .

وذكر كوندراتوفيتش بصوت خافت فى اسى :

– آه ايها العم اندريه ! اننى لم اكن اعلم انك سوف تسخر منى على هذا النحو !

– ايه يا صاح ! يالك من انسان قد تقدم به العمر الى هذا الحد ، ومع ذلك يود منازلة الالمان متحليا بكافة الفضائل ! هل بدات العمل . . ام لا ؟

– اى عمل ؟ لقد نسفنا المناجم !

– او لم تمثل بمكان عملك القديم ؟

– اننى لا افهمك ايها الرفيق المدير . . .

لقد ارتبك كوندراتوفيتش ، اذ بدت اقوال فالكو على النقيض مما تصور ان تبدو حياته عليه فى ظل الالمان .

وذكر فالكو فى هدوء :

– اذن فلم تمثل امامهم بعد ! اننى اشير عليك بالذهاب ، حيث يمكن للمرء العمل على نحو متباين . ان ما يهمنا هو الحفاظ على رجالنا .

قضى فالكو يومه فى ضيافة تلك الارملـــة . الا انه قام فى الليلة التالية بتغيير مسكنه . ولم يكن يعرف مقره الجديد سوى كوندراتوفيتش الذى كان فالكو يوليه ثقته اللامحدودة .

وعلى مدى عدة ايام راح فالكو يتقصى اخبار نشاط الالمان بالمدينة ، ويوطد صلاته باعضاء الحزب الباقين وغيرهم من سكان كراسنودون غير الحزبيين ، يساعده فى ذلك كوندراتوفيتش وليوبكا وكذلك سيرجى ليفاشوف وبنتا العم ايفانتسوف اللتان اوصت بهما ليوبكا . غير انه لم يستطع رغما عن ذلك العثور على شولجا او اى من الآخرين الذين استبقيوا للعمل السرى . وخيل اليه ان ليوبكا هى الخيط الوحيد الذى يمكن ان يفضى به الى مركز العمل السرى بالمقاطعة . غير ان فالكو كان يرى من طباع وسلوك ليوبكا انها فى مهمة استطلاعية ولن تبوح له بشىء قبل الاوان . وقرر العمل وحده على امل انه تلتقى كافة الخيوط ان عاجلا او آجلا . وبعث بليوبكا الى اوليج كوشيفوى الذى قد يفيده اليوم .

وتساءل اوليج وهو يحاول اخفاء اضطرابه :

– هل بوسعى الالتقاء بالعم اندريه بنفسى ؟

واجابت ليوبكا فى ابتسامة غامضة :

– كلا . . انك لا تستطيع رؤيته بنفسك . ان القضية حقا ، غرامية . نينوتشكا . . تعالى هنا وتعرفى على هذا الشاب .

ومدّ اوليج يده يصافح نينا ، ليعترى الاضطراب كليهما .

وذكرت ليوبكا :

– لا باس . سرعان ما سوف يالف بعضكما البعض . اننى سوف اترككما الآن ، ولكما ان تذهبا الى مكان ما للنزهة ، لتتحدثا عما يكنه قلب كل منكما حيال الآخر وحول نمط حياتكما مستقبلا . . . هيا فليتابط كل منكما ذراع الآخر . اتمنى لكما السعادة .

وعلت امارات الدهاء عينيها ، لتغادر العنبر الخشبى فيما يتعالى حفيف ثوبها زاهى الالوان .

ووقف كل منهما قبالة الآخر . . اوليج الذى اعتراه الارتباك والحيرة ، ونينا التى كانت امارات التحدى تعلو وجهها .

وذكرت نينا فى هدوء ، وصعوبة بعض الشىء :

– يستحيل علينا البقاء هنا . ينبغى الانصراف الى مكان ما . وسوف يكون من الافضل ، حقيقة ، ان تابطت ذراعى .

وارتسمت امارات دهشة بالغة على وجه الخال كوليا الذى كان يتجول فى الفناء ، حين وقع نظره على ابن شقيقته يبارح الفناء متابطا ذراع تلك الفتاة المجهولة .

وقد كانا ، اوليج ونينا ، على درجة من الصبا وعدم الخبرة لم تمكنهما التخلص من مشاعر الحيرة التى هيمنت عليهما . كانا يفقدان القدرة على الحديث ازاء اى تلامس ، وكانا يتصوران ذراعيهمـــا اللذين يتابط كل منهما الآخر ، كما الحديد الكاوى .

وقد كان ينبغى على اوليج وفقا لاتفاق الامس الذى عقده مع رفاقه ، استطلاع الحديقة العامة من تلك الجهة التى يفضى اليها شارع سادوفايا ، ولذا فقد سار برفقة نينا فى ذلك الاتجاه . وكان الالمان قد انتشروا تقريبا فى كل البيوت الكائنة بشارع سادوفايا وبمحاذاة الحديقة العامة . بيد انهما ما كادا يتجاوزان بوابة المنزل حتى شرعت نينا تتحدث حول جوهر المهمة ، بصوت خافت وكانما تبحث امورا شخصية غرامية :

– يستحيل عليك رؤية العم اندريه ، وسوف اكون لك حلقة الاتصال به . ولك الا تغضب ، فاننى بدورى لم اره على الاطلاق .

لقد طلب العم اندريه ما اذا كنت تعرف احدا من الصبية يستطيع استطلاع مكان اولئك الذين اعتقلهم الالمان .

وذكر اوليج بسرعة :

– لقد تولى هذا الامر شاب غاية فى الصلابة .

– لقد طلب العم اندريه ان تقص على كل ما تعرفه بشأن رفاقنا ، وبشأن الالمان .

وابلغها اوليج ما سمعه من تيولينين حول رجل العمل السرى الذى وشى به اجنات فومين لدى الالمان ، وما اخبره به فولوديا اوسموخين الليلة الماضية ، وما ذكره زيمنوخوف حول ان رجال العمل السرى يبحثون عن فالكـــو . ثم اعطاهـــا عنوان جورا اروتيونيانتس .

– يستطيع العم اندريه ان يخطره بمكان اقامته دونمـا خوف . كما وانه يعرفه تمام المعرفة ! اما جورا فسوف يقوم عن طريق فولوديا اوسموخين بابلاغ الجهات المعنية بكل الاخبار .

وابتسم اوليج ليمضى قائلا :

– لقد قمت اثناء حديثنا باحصاء ثلاثة مدافع مضادة للطائرات على يمين المدرسة بالداخل ، الى جانب ملجأ هناك . غير اننى لم ار اية عربات .

وسألته على حين غرة :

– الم تر الرشاش المزدوج والالمانيين فوق سطح المدرسة ؟

واجابها اوليج فى دهشة :

– كلا . . لم الحظ شيئا !

وقالت بنبرة تحمل بعض اللوم :

– مع انهم من اعلى ذلك السطح يكشفون الحديقة باكملها !

وبرقت عينا اوليج ليتساءل فى فضول :

– او كنت كذلك تستطلعين المكان ؟ هل عهدوا اليك بمثل هذه المهمة ؟

– كلا . . اننى افعل ذلك من تلقاء نفسى . بحكم العادة !

وهنا افاقت لنفسها ، لتنظر اليه فى تحد ، وكأنما تحاول استطلاع ما اذا كانت قد فضحت امرها بنفسها .

بيد انه كان ما يزال غاية فى السذاجة ، لدرجة لا تسمح له بأن يفطن الى ما تعنيه كلماتها .

ومضى اوليج يقول فى حرارة :

– ها هى السيارات صف بأكمله ! لقد اختفت مقدماتها فى الخنادق ولم يبد منها سوى اعلى صناديقها . او لا ترين الدخان ينبعث من مطبخهم الميدانى ؟ لا تتطلعى الى تلك الناحية !

وذكرت فى هدوء :

– ليست ثمة جدوى من التطلع . . فما دام مركز المراقبة قائما على سطح المدرسة ، فلن يتمكن احد من التنقيب عن حروف المطبعة .

– حقا !

ونظر اليها بارتياح ثم انفجر ضاحكا .

وكانا قد الفا بعضهما البعض ، وراحا يتهاديان فى سيرهما ، بينما استقرت فى هدوء على يد اوليج يد نينا الكبيرة البضة التى تنم عن انوثة . وتجاوزا الحديقة العامة لتظهر الى يمينهما وبمحاذاة الشارع الى جوار البيوت النموذجية العربات الالمانية ما بين لوريات وعربات ركوب ومحطة لاسلكى ميدانية واوتوبيس اسعاف ، بينما انتشر الجنود الالمان فى كل مكان . اما على يسارهما فقد امتدت ارض فضاء يتوسطها الى جوار مبنى حجرى اشبه بالثكنات رقيب المانى تعلو كتفيه علامات رتبته الزرقاء يقوم بتدريب مجموعة صغيرة من الروس فى ملابسهم المدنيـــة ، والمسلحين ببنادق المانية . كانوا يصطفون تارة ، ويتفرقون تارة اخرى ، ويزحفون ويشتبكون بالسلاح الابيض تارة ثالثة . وقد كان العمر قد تقدم بهم جميعا ، يعلقون على اذرعتهم شارة الصليب المعقوف .

وذكرت نينا فيما تبرق عيناها :

– ان الدركى الالمانى يعلم رجال الشرطة كيفية اصطياد ذوينا .

وسألها متذكرا ما قصه عليه تيولينين :

– ومن اين لك معرفة ذلك ؟

– لقد شاهدتهم بنفسى .

وذكر اوليج فى بغضاء مشوبة بالتقزز :

– يا له من وغد ! ينبغى ابادة امثاله دونما رحمة !

وذكرت نينا :
– هذا ما يستحقونه .
وسألها اوليج فجأة :
– او كنت ترغبين فى ان تكونى فدائية ؟
– اننى اتمنى ذلك .
– او تتصورين معنى ان تكونى فدائية ؟ ان عمل الفدائى ليس عملا يتسم بالمظهرية ، بل عمل مفعم بالشهامة والنبل . ان الفدائى يمكن ان يقتل فاشيا واحدا ، ثم ثانيا ، ثم مائة ، الا ان الواحد بعد المائة قد يرديه قتيلا . انه يستطيع ان يقوم بمهمة ، ثم باخرى ، ثم بعشر مهام ، الا ان المهمة الحادية عشرة يمكن ان تقضى عليه . هل تعلمين مدى التضحية التى يتطلبها هذا الامر ؟ ان الفدائى لا يضن بحياته ، ولا يبيع ولا يخون رفيقه بأى حال من الاحوال . وددت ان اصبح فدائيا !

كان اوليج يتحدث فى حرارة تتسم بالعمق والاخلاص والسذاجة ، لدرجة جعلت نينا ترنو نحوه بعينيها المفعمتين ثقة وبساطة .
وسألها اوليج فجأة :
– هل لى ان القاك بعيدا عن جو العمل ؟
واجابته نينا تعتريها بعض الحيرة .
– كلا . . ولم لا . اننا نستطيع ان نلتقى ، فى اوقات فراغنا !
– اين تسكنين ؟
وذكرت على نحو لا يتسم بالثقة فى حقيقة ما تطلبه :
– هل هناك ما يشغلك الآن ؟ هل تستطيع مرافقتى حتى بيتنا ؟ اننى أود ان اعرفك ببنت عمى الكبرى أولجا .

كانت بنتا العم اوليا ونينا تعيشان فى حى «فوسميدوميكى» ، بمنزل نموذجى تقطن نصفه اسرة نينا ، بينما تقطن النصف الآخر اسرة أوليا . وعندما وصلا الى المنزل ، دعت نينا اوليج الى مسكنها لتتركه فى رعاية امها .

وفى بساطة انخرط اوليج الذى بدا اكبر من سنه فى الحديث مع فارفارا دميتريفنا التى كانت صبية الملامح ، تهوى الثرثرة ، تساعده فى ذلك تربيته الاوكرانية التى تؤكد احترام من هم اكبر

سنا . هذا علاوة على انه كان تواقا لان يحوز اعجابها بوصفها اما لنينا .

وريثما عادت نينا ، كان اوليج قد عرف كل شىء تقريبا حول آل ايفانتسوف . كان والدا اوليا ونينا شقيقين يعملان بالمناجم ، اما اليوم فموجودين بالجبهة . وقد انحدرا اصلا من محافظة اوريول الروسية ، وكانا يعملان آنذاك اجيرين عند اغنياء الفلاحين ، لينتقلا فيما بعد الى الدونباس ويتزوجا من اوكرانيتين . وقد كانت والدة اوليا من محافظة تشيرنيجوف البعيدة ، اما فارفارا دميتريفنا فقد كانت من قرية راسيبينى الواقعة بحوض الدونباس . وقد عملت الاخيرة فى صباها بالمناجم مما ترك بصماته عليها . فقد تبدت على نحو متباين مع ربات البيوت البسيطات . اذ كانت تتسم بالجسارة وتميل نحو الاستقلالية ، وتجيد تمييز طباع الآخرين . وقد ادركت على الفور ان الصبى لم يات لمجرد الزيارة ، لتتأمله فى امعان بعينيها المفعمتين دهاء مشوبا بالذكاء ، وتعرف مكنون اعماقه دون ان يدرى .

وعلى اى حال فقد كانا سميرين يناسب كل منهما الآخر ، ادركتهما نينا حين عودتها يجلسان متجاورين على اريكة بالمطبخ فى غاية الحيوية والنشاط . كان اوليج يهز قدميه فى مرح ملقيا برأسه الى الوراء ، وهو يفرك اطراف اصابعه ، فيما يقهقه على نحو جعل فارفارا دميتريفنا لا تمسك بدورها عن مشاركته الضحك . واذ شاهدتهما نينا هكذا ضربت كفا بكف لتضحك هى الاخرى . وقد راح ثلاثتهم يشعرون بالراحة والبساطة وكانما تربطهم صداقة طويلة الامد .

وذكرت نينا ان أوليا مشغولة بعض الشىء ، الا انها الحت فى الرجاء حتى ينتظرها اوليج . وقد انقضت فترة ساعتين ريثما جاءت اوليا ، دون ان يشعر اوليج الذى انهمك فى ثرثرة لا معنى لها . هذا بينما كانت هاتان الساعتان حاسمتين فى حقيقة الامر ، حيث خلالهما وفى النهاية تلاقت خيوط جهاز العمل السرى فى كراسنودون . فقد استطاعت اوليا آنذاك الذهاب الى فالكو الذى كان يعيش فى احد اكواخ «شانغهاى» بعيدا عن «فوسميدوميكى» لتنقل اليه كل ما عرفته نينا من اوليج .

وقد خفت بقدوم اوليا حدة المرح الذى كان يسود شقة بنت عمها ، وان كانت اوليا قد عاملت اوليج بحفاوة وترحاب غريبين على طابعها ، اذ علت ابتسامة طيبة عريضة وجهها ضيق الملامح غير المتناسقة ، بل واتخذت مكانها الى جواره على الاريكة بدلا من نينا . غير انها لم تستطع الانخراط بسهولة فى حديثهم العاصف المشوش الذى لم يكن لامرئ غريب ان يدرك معنى له . كما وكانت ما تزال بعد اسيرة تلك المشاعر التى اجتاحت كيانها بعد لقائها بفالكو . وقد كانت اوليا ذات طابع اكثر جدية من نينا ، وليس من ناحية مدى تأثرها وتقبلها للاحداث ، بل فى قدرتها على تجسيد افكارها ومشاعرها فى خطوات عملية . هذا علاوة على انها وبحكم كونها اكبر سنا ، كانت اكثر اطلاعا على جوهر القضية التى كانتا مشغولتين بها ايام عملتا فى جهاز الاتصالات بلجنة مقاطعة ستالينو .

واتخذت مكانها الى جوار اوليج وهى تفك شعرها الاسمر الذى كانت قد عقدته خلف رأسها ، دون ان تنبس بحرف . وقد علت عينيها امارات الجمود على الرغم من كل ما بذلته من محاولات للتظاهر بالمرح والابتسامة ، مما جعلها تبدو بالفعل اكبر سنا من نينا ، بل ومن ام نينا نفسها .

غير ان فارفارا دميتريفنا كانت ذات طابع مرهف ودبلوماسية التصرف . فقد ذكرت تقترح عليهم :

– ماذا يدعونا الى الجلوس بالمطبخ ؟ هيا بنا الى الغرفة نلعب الورق .

وانتقل الجميع الى غرفة الطعام . ودلفت فارفارا دميتريفنا سريعة الى الغرفة المجاورة ، التى كانت غرفة نومها ونينا ، لتعود «بالورق» داكن اللون يحمل بصمات كثير من الايدى التى تداولته مرارا . وتساءلت اوليا على نحو يبدو وكأنه عن غير قصد :

– سوف تزامل نينا اوليج بطبيعة الحال . اوليس كذلك يا نينا ؟

– كلا . . اننى سوف ازامل امى .

هكذا اجابتها نينا بلهجة قاطعة تحمل معنى التحدى وقد تحولت بناظريها اليها ، حيث كانت فى حقيقة الامر ترغب ذلك الا انها لم تكن لتستطيع الافصاح عن مشاعرها هكذا سريعا .

ولم يفهم اوليج من ذلك الحديث شيئا ، الا انه فطن الى كون والدة نينا سوف تكون لاعبة ورق ممتازة ، بوصفها عاملة مناجم قديمة .

– كلا . . اننى سوف ازامل ماما !

ولما كان اوليج يتأتأ فى حديثه ، فلم يكن يتحدث بصوت عال بل يخور على نحو اثار ضحك الجميع بما فى ذلك اوليا .وذكرت فارفارا دميتريفنا :

– يا له من عجوز وصغير ! فلتحذرناه يا بنتى !

وخيم المرح على الجميع ثانية .

وقد كانت عاملة المناجم القديمة ماهرة حقا فى لعبة «البوكر» ، غير ان اوليج انهمك فى اللعب كعادته بحماس جعلهما يخسران فى البداية . وراحت اوليا التى كانت تجيد السيطرة على مشاعرها ، تثير اوليج فى دهاء . اما فارفارا دميتريفنا فقد راحت رغما عن خسارتهما تتأمله خلسة ، فقد نال شديد اعجابها .

وها هما يكسبان الدور الرابع فى نهاية الامر . ووزعت اوليا الاوراق ، مما جعل اوليج ينظر الى ورقه ليجده لا يوحى باى امل ، وفجأة ومضت فى عينيه امارة تنم عن مكر ودهاء ، ليرفعهما نحو فارفارا دميتريفنا فى محاولة منه للفت انظارها . وما كادت انظارهما تتلاقى حتى مط شفتيه وكأنما يستعد لطبع قبلة ، ليعيدهما ثانية الى وضعهما الطبيعى . وومضت عينا فارفارا دميتريفنا اللتان كانتا ما تزالان تحملان امارات الشباب على الرغم من التجاعيد التى احاطتهما . غير انها لم تحرك ساكنا لتنزل على الفور بالورقة الرابحة «الديناري» وفقا لاشارة اوليج التى فطنت اليها .

وقد تملكت اوليج نوبة من المرح اللامحدود ، حيث ضمن الفوز دائما الى جانبه . وصار «العجوز والصغير» يشيران بعضهما الى البعض فى مرح ، تارة يرفعان انظارهما نحو السماء مما كان يعنى «الاسباتى» ، واخرى يتحولان بها جانبا «مما يعنى «البستونى» ، وثالثة يلمسان ذقنيهما بسبابتهما مما كان يعنى «كوبة» . وقد بذلت الفتاتان الساذجتان جل جهدهما لتفادى الخسارة المتوالية ، الا انهما كانت رغما عن كل ذلك تحل بهما . وكانت نينا تجلس يعتريها الاضطراب وتعلو وجهها الحمرة ، بينما كان اوليج عقب

كل دور يكسبه ، ينفجر فى الضحك وهو يفرك اطراف اصابعه . الا ان اوليا الاكثر خبرة ادركت فى نهاية الامر ان ثمة شيئا غير طبيعى يجرى ، وراحت بما تتسم به من رباطة جاش وقدرة على اخفاء ما يجيش باعماقها ، تتمعن فى تصرفات خصميها . وسرعان ما اتضح لها الامر ، وانتظرت حتى مط اوليج شفتيه المكتنزتين لتخبطهما باوراقها ثم ترمى بها الى المائدة لتتطاير فى شتى الانحاء قائلــة بصوتها الهادئ ذى النبرة الرتيبة :

— ايها النصابان !

وانفجرت فارفارا دميتريفنا فى الضحك دون ان تشعر بالضيم . اما نينا فقد هبت واقفة فى غضب ، الا ان اوليج الذى نهض من مكانه فى اثرها ، امسك بكلتا يديه يدها الرقيقة السمراء واسند جبهته الى كتفها يطلب الصفح . واخيرا انفجر الجميع فى الضحك .

كان اوليج عازفا عن العودة الى منزله ، على الرغم من ان المساء كان قد غدا وشيكا ، وحيث يسود المدينة قانون حظر التجول بعد السادسة . واعلنته اوليا انه من الافضل ان ينصرف الآن ، والا فسوف يكون الوقت متاخرا ؛ ثم ودعت الجميــع وانصرفت الى مسكنها .

وخرجت نينا الى مدخل المنزل الذى غمرته اشعــة شمس الغروب ، تودع اوليج . ليقول اوليج فى اخلاص :

— لا اريد الانصراف !

ثم توقف ليسال فى تجهم :

— هل تحيط ببيتكم حديقة ؟

وامسكت نينا فى صمت بيده تقوده الى ما وراء المنزل . وهناك وجدا نفسيهما فى ظله تحيط بهما شجيرات الياسمين التى ترعرعت وغدت على نحو يكاد يكون شبيها بالاشجار .

— كم جميل هو المكان عندكم . اما لدينا . . فقد اجتث الالمان كل شىء .

والتزمت نينا الصمت .

ومضى اوليج يقول فى توسل وبصوت طفولى :

— هل لى ان اقبلك يا نينا ؟ كلا . . اقصد . . اطبع قبلة على وجنتك . . على وجنتك فقط .

لم تند عنه اية حركة ، مكتفيا بالسؤال ، غير انها جفلت عنه تعتريها الحيرة مما جعلها تفقد القدرة على النطق . غير انه لم يشعر باضطرابها وخجلها ، وطفق يواصل النظر اليها بشكل طفولى طبيعى الى ان قالت له :

— كلا . . انك سوف تتاخر !

ولم يبد غريبا كذلك كون طبعه لقبلة على وجنة نينا يمكن ان تتسبب فى تاخيره . . ولذا فقد اعتبرها محقة بطبيعة الحال ، مما جعله يتنهد مبتسما ويمد لها يده الكبيرة التى احتفظت بها نينا بين يديها الرقيقتين بعض الوقت قائلة :

— كلا . . يجب ان تداوم على زيارتنا .

وعاد اوليج ادراجه سعيدا بتعارفه الجديد وبذلك المجرى الجديد الذى انسابت فيه شئونه ، تنتابه رغبة عارمة فى تناول الطعام . بيد انه لم يكن مقدرا له تناول طعامه آنذاك ، حيث استقبله الخال كوليا عند بوابة المنزل قائلا :

— انى فى انتظارك منذ مدة طويلة ، حيث يبحث الجلفط (هكذا كانوا يسمون الخادم الالمانى) عنك منذ غادرت المسكن .

وذكر اوليج فى غير اكتراث :

— فليذهب الى الشيطان .

وذكر الخال كوليا :

— غير انه من الافضل الابتعاد عنه . هل تعلم ان فيكتور بيسترينوف قد عاد بالامس ؟ لقد اعاده الالمان بعد ان كان قد وصل نهر الدون . هيا بنا اليه ، فمن الجيد ان بيته خال من الالمان .

وكان فيكتور بيسترينوف مهندسا فى مقتبل العمر عمل وتصادق مع نيكولاى نيكولايفيتش . وقد استقبلهمــا بنبأ غايــة فى الغرابة ، حيث صاح مكشرا عن اسنانه فى غضب :

— هل تعلمان ان ستاتسينكو عين رئيسا لبلدية المدينة ؟

واصابت الدهشة حتى الخال كوليا ليتساءل مستفسرا :

— اى ستاتسينكو ؟ رئيس قسم التخطيط ؟

— هو ذاته .

— كفى مزاحا !

– ليس هذا اوان المزاح .

– ان ذلك امر غير معقول ! او يمكن ان يفعل هذا ذلك الوديع الذى لم يؤذ احدا طيلة حياته .

واجاب فيكتور بيستريتوف نحيف القوام رفيعه كما الحربة ، فيما يتلظى غضبا وحنقا ، يغص لعابه حلقه .

– نعم انه نفس ستاتسينكو الوديع الذى لم يسأ الى احد طيلة حياته ، ذلك الذى لم يكن للمرء ان يتخيل بدونه اية حفلة ، او اية امسية طريفة ، والذى كان الجميع يعتبرونه طيب القلب لطيفا طريفا : نفس ستاتسينكو . . اصبح حاكمنا !

وذكر نيكولاى نيكولايفيتش وهو ما يزال غير مصدق لما يقال :

– انه بالشرف لامر لا يصدق ! فلم يكن يعقد دونه جمع او لقاء للمهندسين . وكم شاركته الشراب كثيرا ! لم تند عنه كلمة واحدة تنم عن عدم اخلاصه ، كما ولم اسمعه ابدا يتلفظ بكلمة نابية . آه لو كان ماضيه تشوبه شائبة . . لهان الامر ! ان الجميع يعرفونه جيد المعرفة ، ابنا لموظف صغير ، لم يتورط طيلة حياته فيما يعيبه .

– لقد شاركته الشراب ! اما اليوم فسوف يمسك بخناقنا قبل الآخرين ، وبحكم المعرفة القديمة . . فاما ان تعمل ، واما . . . –

واشار بيستريتوف باصابعه الرقيقة الى السقف وكانما يشد حبل المشنقة ليضيف قائلا : – وها هو انسانك اللطيف !

ودون ان يعيرا اهتماما اوليج الذى التزم الصمت ، ظلا فترة طويلة يقلبان فى معاناة كيف ان رجلا عرفاه اعواما ، واحبه الجميع ، يستطيع ان يشغل مثل هذه الوظيفة فى ظل الالمان . وقد كان ابسط التفسيرات ، يكمن فى ان الالمان اجبروه على ذلك تحت سوط التهديد بالقتل . لكن السؤال الذى يطرح نفسه هو : ولماذا وقع عليه بالذات اختيارهم ؟ وهنا تعالى صوت داخلى ، صوت الضمير النقى الذى يحدد افعال البشر فى اكثر اللحظات حرجا يؤكد لهما انه لو كان قد وقع الاختيار عليهما هما المهندسان السوفييتيان البسيطان ، لكانا قد فضلا الموت عن التدنى الى هذا الحد .

– كلا . . ان ستاتسينكو لم يقبل تلك الوظيفة الا تحت التهديد

بالموت ! ان الامر لم يكن على ما يبدو بمثل هذه البساطة . وها هما ازاء هذه الظاهرة المبهمة ، وجها لوجه يرددان :

– ستاتسينكو ! يا له من امر ! ومن ذا الذى كان يتصور ذلك ؟ ومن ذا الذى يمكن ان يحوز ثقتنا بعدئذ ؟

وهزا اكتافهما واشاحا بايديهما !

الفصل الثامن والعشرون

لم يكن العمر قد تقدم بعد بستاتسينكو رئيس قسم التخطيط بمؤسسة فحم كراسنودون ، حيث كان عمره فيما بين الخامسة والأربعين والخمسين . وقد كان حقا ابن موظف صغير بمؤسسة الضرائب فيما قبل الثورة لم يرتكب طيلة حياته ما يعيبه . كان مهندسا اقتصاديا بحكم دراسته ، كما عمل فى هذه الوظيفة بمختلف المنظمات الاقتصادية .

ويستحيل القول انه قد صعد درجات الترقى سريعا ، الا انه كذلك لم يظل فى وظيفة واحدة فترة طويلة . لقد كان يصعد السلم درجة درجة ، ودونما وثبات . غير انه كان دائما وابدا غير راض عن مكانه فى هذه الحياة .

ولم يكن مبعث سخطه ان حبه للعمل ونشاطه ومعارفه لا يجرى الاستفادة بها على النحو اللائق مما غدا مدعاة لعدم اكتسابه لما يستحقه فى هذه الحياة . لقد كان ساخطا لانه لا يستطيع الاستفادة من كل مباهج الدنيا دون ادنى جهد او نشاط او معرفة . وكان قد لاحظ ان هذه الحياة ممكنة وطريفة فى الأزمان السالفة حين كان ما يزال فى مقتبل العمر ، اما اليوم فقد صار يهوى القراءة حول تلك الحياة ، حول الأزمان الغابرة والحياة فى الخارج .

ويستحيل علينا القول انه كان يود الاثراء الفاحش ، او يرغب فى ان يصبح من ارباب الصناعة الكبار ، او تاجرا او صاحب بنك ، اذ ان هذا يتطلب من المرء بذل كثير من الجهد والطاقة والمعاناة ازاء النضال المستمر ، والمنافسة والاضرابات والأزمات . . . عليها اللعنة ! غير ان هناك ايضا دخولا يمكن الحصول عليها بسهولة مثل ريع الايجار او المرتب الجيد لقاء عمل سهل لوظيفة محترمة ، وتلك

أمور يمكن ان يصادفها المرء فى كل مكان وليس «عندنا هنا» فقط .
وقد اثبت تطور الحياة «عندنا هنا» ان العمر يتقدم بستاتسينكو ، يأخذه بعيدا عن مثله وأحلامه ، ولذا فقد راح يمقت المجتمع الذى يعيش فيه .

غير ان ستاتسينكو وعلى الرغم من سخطه على النظام الاجتماعى وعدم رضائه عمّا سوف يئول اليه مستقبله ، لم يفعل أبدا ما يمكن ان يستهدف تغيير هذا النظام أو ذلك المستقبل لانه كان يخشى كل شىء . كان يهاب الثرثرة كثيرا ، لتقتصر ثرثرته داخل اطار الأحاديث حول علاقات غرامية ومن وكم يشرب ، شأنه فى ذلك شأن البسطاء الآخرين . انه لم يكن ينتقد احدا على الاطلاق ، غير انه كان يهوى الحديث عن البيروقراطية فى المؤسسات ، وعن افتقاد المبادرة الشخصية فى المؤسسات التجارية وعن تدهور تعليم المهندسين الشبان بالنسبة لما كان الحال عليه فى «عهده» ، وعن الخدمة السيئة فى المطاعم والحمامات . لم تكن الدهشة تعتريه ازاء أى شىء ، وكان ميّالا لأن ينتظر من الآخرين كل شىء . وكان ستاتسينكو اذا ما جرى الحديث ذات مرة عن اختلاس او جريمة قتل غامضة أو حتى عن متاعب عائلية ، يقول دائما :

— اننى شخصيا لا أعجب ، حيث يمكن للمرء توقع كل شىء . لقد كانت لي عشيقة ، امرأة متزوجة عالية الثقافة ، ومع ذلك فقد سرقتنى .

وشأن غالبية الناس كانت ملابسه وأثاث منزله وكل ما يستعمله فى استحمامه وتنظيف أسنانه من نتاج الصناعات المحلية . كما وكان ستاتسينكو يهوى حين يجلس لاحتساء كأس من الفودكا فى حضرة مجموعة من المهندسين العائدين من الخارج ، التأكيد قائلا فى بساطة ودهاء :

— انها من انتاجنا ، سوفييتية !

وراح يجذب طرف كم جاكتته المخططة بيده البدينة الصغيرة والتى لم تكن لتتناسب مع بنيته الضخمة . ولم يكن واضحا ما اذا كانت جملته هذه تحمل معنى الفخر ام الادانة . غير انه فى قرارة نفسه كان يحسد رفاقه على ربطات العنق الاجنبية ، وفرش الاسنان ، لدرجة ان رأسه الاصلع الاحمر كان يتصبب عرقا .

— قطعة جميلة للغاية ! فلتتصوروا ولاّعة ومطواة وشاشة فى آن واحد . كلا . . . اننا رغما عن ذلك غير قادرين على صناعة مثلها !

هذا ما كان يقوله مواطن ذلك البلد ، حيث تعمل مئات بل آلاف النسوة البسيطات ، يستخدمن الجرارات وآلات الحصاد فى الحقول .

كان يغدق الثناء على الافلام الاجنبية على الرغم ان انه لم يشهدها ، ويقضى الساعات فى تصفح المجلات الاجنبية ، وليست الخاصة باقتصاديات التعدين التى كانت تصل أحيانا الى المؤسسة حيث لم تكن تستهويه أمثال هذه المجلات لجهله باللغات الاجنبية ، علاوة على انه لم يكن يسعى نحو تعلمها . كان يتصفح ، ولعدة مرات فى اليوم مجلات الموضة التى كان زملاؤه يحضرونها معهم من الخارج ، وكذلك المجلات التى تنشر صورة السيدات الأنيقات ، وغيرهن من أشباه العاريات .

غير ان كل أقوال ستاتسينكو وطباعه وعاداته وميوله لم تكن تميزه كثيرا عن الآخرين ، لان الكثيرين ، والكثيرين جدا من ذوى الاهتمامات والنشاط والافكار والرغبات الاخرى كانوا فى تعاملهم معه بشكل او بآخر يظهرون ما يتشابه معه دونما تفكير فى ان ذلك لا يعنى بالنسبة لهم سوى مسألة عابرة ، بينما هو فى حياة ستاتسينكو تجسيدا لكل طبيعته .

وهكذا كان يمكن ان يعيش ذلك الانسان المترهل ذو الرأس الاصلع أحمر الوجه ، متئد التصرفات هادئ الطباع ، شخصية زئبقية رصينة ، ذو صوت مبحوح خافت وعينين صغيرتين حمراوين تدل على ادمانه بالشراب منذ زمن بعيد . . . كان يمكن ان يعيش هكذا وحتى آخر أيامه دون ان يصادق أحدا ، يستقبله الجميع بالترحاب ليلا ونهارا ، أثناء ساعات العمل الذى كان يكرهه ، واجتماعات اللجنة النقابية التى كان يشغل عضويتها بشكل دائم ، وجلسات الشراب ولعب الورق ، يصعد السلم الوظيفى درجة درجة فى بطء ورغما عن ارادته . . . كان يمكن ان يعيش هكذا ، لو لم . . .

لم تكن الدولة التى يعيش فيها ذلك الانسان الزئبقى لتصمد

ضد المانيا ، كما كان واضحا لستاتسينكو منذ البداية . ولم يكن ذلك لانه على علم بامكانيات كلا البلدين ، ويجيد تحليل العلاقات الدولية ، حيث كان يعزى ذلك الى ان البلد الذى لا يتفق ومثله العليا فى الحياة لم يكن ليستطيع الصمود امام ذلك البلد الذى توقع ان يكون متوافقا مع هذه المثل . وقد شعر ستاتسينكو فى ذلك الأحد من شهر يونيو ، حين استمع الى خطاب مولوتوف بالاذاعة ، ببعض القلق الشبيه بما يراود المرء حين يواجه ضرورة تغيير مسكنه .

كان يدرك ضرورة تغيير هذا المسكن مع كل نبأ جديد يتوارد حول انسحاب الجيش الأحمر من المدن التى تتباعد عن الحدود يوما بعد يوم . اما وفى اللحظة التى سقطت فيها كييف فقد كـان ستاتسينكو أشبه بمن اتخذ طريقه نحو محل اقامته الجديد تدور برأسه الخطط الهائلة بشأن استقراره هناك .

وهكذا وحتى تلك اللحظة التى دخل فيها الألمان كراسنودون ، كان ستاتسينكو قد قطع معنويا ، نفس الطريق الذى قطعه نابليون منذ لحظة هربه من جزيرة آلبا وحتى دخوله باريس .

ظل الحارس ثم الخادم يرفضان طويلا وفى خشونة السمـاح لستاتسينكو بالدخول الى الجنرال فون فينتسيل . ولسوء حظه خرجت الجدة فيرا التى كان يخشاها ستاتسينكو جدا ، ليرفع قبعته منحنيا انحناءة شديدة دون ان يعى كيف جرى كل ذلك ، متظاهرا بانه يعبر فناء البيت فى طريقه الى الشارع الآخر . ولم تلحظ الجدة فى ذلك شيئا . غير انه ورغما عن ذلك لزم مكانه الى جوار السور فى انتظار خروج المساعد الشاب .

وراح ستاتسينكو البدين بعد ان رفع قبعته يتقافز الى جوار الضابط الألمانى الذى تقدمه قليلا . غير ان المساعد ودون ان يفكر فيما كان يقوله ستاتسينكو ، ودون ان يلتفت نحوه أشار اليه بالتوجه الى مقر القيادة الألمانية .

وقد كان حاكم المدينة شتوبى من ضباط الجستابو ، واحد اولئك المتشابهى النمط من رجال الدرك البروسيين المسنين ، والذى كان ستاتسينكو قد شاهد فى شبابه كثيرا من امثاله تجسدهم صور لقاء الأباطرة فى مجلة «نيفا» . وكان شتوبى مصابا

بالصرع ، فتل شاربه الذى وخطه الشيب على نحو بدا أشبه بذيل الحصان ، ذا وجه منتفخ تغطيه شبكة رقيقـة من العروق الصفراء المشوبة بالزرقة ، اما عيناه الجاحظتان فكانتا عكرتى اللون حيث يستحيل تمييز معالمهما .

تساءل شتوبى بصوت مبحوح :

– هل تود الخدمة فى جهاز الشرطة ؟

واومأ ستاتسينكو برأسه فى خجل ، وضم الى فخذيه يديه الصغيرتين البدينتين ذات الاصابع الشبيهة فى لونها وشكلهـا بالسجق الأوروبى ، قائلا :

– انني اقتصادى واعتقد . . .

– الى المساعد بريوكنر !

قاطعه شتوبى محدقا النظر فيه بعينيه باهتتى اللون ، مما جعل ستاتسينكو يتراجع خارجا فى خطوات غير متزنة . كانت ادارة الشرطة تشغل مسكنا خشبيا طويلا من طابق واحد تساقط بياضه ، على حافة التل القريب من مبنى اللجنة التنفيذية للمنطقة فى مكان قفر بعيد عن الحى المسمى «فوسميدوميكى» . وقد كان هذا المبنى فيما سبق مقرا لميليشيا الحى والمدينة . وكان ستاتسينكو قد زار هذا المكان قبيل الحرب بمناسبة حادث السرقة الذى تعرض له مسكنه .

ودلف ستاتسينكو الى المبنى يرافقه جندى المانى يحمـل سلاحه ، يقطعان ممرا غير غريب عليه ، معتما ، لينكص الى الوراء فى خوف ، فقد كاد يصطدم بانسان أطول منه قامة ، يغطى رأسه بسدارة من طراز قديم ، تامله ليعرف فيه اجنات فومين عامل مناجم كراسنودون القديم . وكان اجنات فومين يسير دونما مرافق ، ينتعل حذاء نظيفا ، وفى حلة جيدة مثل تلك التى يرتديهـا ستاتسينكو . واذ رمى كل من السيدين أنيقي الملبس الآخر بنظرة سريعة ، افترقا وكأنما لا يعرفان بعضهما البعض .

وقد شاهد ستاتسينكو فى نفس غرفة الاستقبال التى كانت مقرا لرئيس ميليشيا كراسنودون شوركا ريباند مسؤول مخبز المدينة يغطى رأسه الصغير بارز العظام الذى لفحه الشمس طاقية روسية سمراء لم تكن غريبة عليه . وكانت المدينة بأسرها

تعرف شوركا ريباند لانه كان المسؤول عن توزيع الخبز على مطاعم كافة المؤسسات واكشاك بيع الخبز ومحلات البقالة . ولم يكن ثمة من يناديه بغير شوركا ريباند .

– فاسيلى ايلاريونوفيتش !...

ندت فى دهشة عن شوركا ريباند الذى التزم الصمت فور لاحظ الجندى الواقف خلف ستاتسينكو .

ومال ستاتسينكو براسه الأصلع قليلا جانبا ونحو الأمام ثم قال :

– يا ايها السيد ريباند ! اننى اود تقديم خدماتى .

ونهض السيد ريباند من مكانه فى تثاقل ليلزم مكانه ، بعض الوقت ، ثم ودون ان يطرق الباب دلف بسرعة الى غرفة مكتب الرئيس . وغدا واضحا ان شوركا ريباند قد أصبح اليوم جزءا لا ينتزع من «النظام الجديد» .

وقد لبث ريباند هناك فترة طويلة لم يضع حدا لها سوى جرس الرئيس الذى تعالى بغرفة الاستقبال ، ليسوى الجندى الألمانى هندامه مصاحبا ستاتسينكو الى الداخل .

ولم يكن بريوكتر ضابطا بل مساعدا ، كما ان قسم الشرطة لم يكن قسما كبيرا ، بل مجرد نقطة شرطة كراسنودون . اما المركز الرئيسى فقد كان متمركزا فى مدينة روفينكى .

وحين دلف ستاتسينكو الى الداخل كان المساعد بريوكتر واقفا وقد عقد يديه خلف ظهره ، فارع القامة ضخم البنية ، وقد برز بطنه كثيرا الى الأمام . كما وتهدلت تحت عينيه اكياس دهنية معروقة داكنة اللون يمكن ان تفسر ، اذا ما امعن المرء النظر اليها ، سبب قضاء الرقيب الجزء الأعظم من حياته وقوفا وليس جلوسا ، وذكر ستاتسينكو فى خجل وقد ضم قبضتى يديه مسدلا يديه لاصقا اياهما الى جانبيه :

– اننى مهندس اقتصادى بحكم تعليمى وخبراتى ، واعتقد ...

وقاطعه المساعد بريوكتر قائلا بالألمانية موجها حديثه الى ريباند :

– قل له اننى أعينه رئيسا للبلدية ، بتخويل من الفوهرر .

وفى نفس الثانية تخيل ستاتسينكو نفسه ازاء اولئك الذين

كانوا لا يعيرونه اهتماما او على علاقة غير طيبة به ، يقفون حياله وقد توقفت أمورهم عليه . وحتى رأسه الأصلع كثيرا ، وقد غطته قطرات العرق ، اذ بدا له انه قد لهث بآيات الشكر والعرفان فى حضرة المساعد بريوكتر على الرغم من انه لم يكن فى حقيقة الامر يفعل سوى تحريك شفتيه والميل بهامته .

وقام المساعد بريوكتر بازاحة طرف سترته قليلا ليبدو بطنه المتهدل مستديرا كالبطيخة داخل سروال مشدود حوله ، ويخرج من جيبه علبة سجاير مذهبة ، تناول منها واحدة ليدسها بين شفتيه فى حركة دقيقة . واذ استغرق فى التفكير بعض الوقت تناول اخرى ليمد بها يده الى ستاتسينكو .

ولم يتجاسر ستاتسينكو على رفضها . ثم تحسس المساعد بريوكتر قطعة من الشيكولاته التى فض غلافها على المائدة ، ودون ان يتوجه اليها بأنظاره كسر بعض مربعاتها ومد بها يده اليه فى صمت .

وقد ذكر ستاتسيكنو فيما بعد يخاطب زوجته :

– انه ليس انسانا ، بل مثلا أعلى للانسان !

ورافق ريباند ستاتسينكو الى نائب المساعد السيد بالدر والذى كان شبيها فى قوامه وسلوكه وحتى فى صوته بستاتسينكو لدرجة لم يكن يمكن معها تمييز هذا الأخير عنه اذا ما ارتدى الزى العسكرى الالمانى . وقد تسلم ستاتسينكو منه التعليمات الخاصة بتشكيل بلدية المدينة وتعرف على كل بنية السلطة فى ظل «النظام الجديد» .

ووفقا لذلك القوام كانت بلدية مدينة كراسنودون من اقسام نقطة الشرطة الالمانية .

وهكذا أصبح ستاتسينكو رئيسا للبلدية .

امّا فيكتور بيسترينوف ونيكولاى نيكولايفيتش فقد وقفا قبالة بعضهما البعض يشيحان بأياديهما قائلين :

– من ذا الذى يمكن عندئذ تصديقه ؟

فى تلك الأمسية حين تودع ماتفى شولجا مع كوندراتوفيتش لم يكن امامه سوى ان يتخذ طريقه الى اجنات فومين بحى «شانغهاى» .

ترك فومين لدى ماتفى كوستيفيتش انطباعا طيبا وذلك وفقا للمظاهر الخارجية ، والتى لم يكن الأخير بدونها قادرا على تمييز الأشياء . لقد أعجب كوستيفيتش بكون اجنات فومين وحين أدلى بكلمة السر ، لم يعتره الاضطراب ، ولم يكن فى عجلة من أمره ، بل امعن النظر اليه ، ثم فيما حوله ليسمح له بعد ذلك بالدخول ، وبعد ذلك فقط رد عليه بكلمة السر . وقد كان فومين مقتضبا فى حديثه ، لم يساله عن شىء ، ظل منصتا الى كل ما يقوله ، يجيب على كافة التعليمات قائلا : «حاضر !» . كما واعجب كوستيفيتش بكون اجنات فومين يرتدى فى منزله كامل ملابسه بما فى ذلك الصديرى ، وربطة العنق ، تتدلى من جيبه سلسلة ساعة الجيب ، حيث شاهد فى ذلك بعض سمات العامل المثقف المتحضر الذى تربى فى ظل السلطة السوفييتية .

وللحقيقة فقد كانت هناك بعض صغار الأمور التى لا يمكن القول انها لم تعجب كوستيفيتش ، بل اثارت مجرد امتعاضه حيث كانت تافهة للغاية ، غير ذات تاثير على انطباعه العام . فقد بدا له ان زوجة فومين امراة بدينة قوية ذات عينين حولاوين ضيقتين ، وابتسامة غير طيبة تكشف عن اسنانها الصفراء المتفرقة ، راحت تتملقه وتحاول كسب رضاءه منذ اللحظة الأولى لتعارفهما . كما ولاحظ عن غير قصد ان فومين الذى راح يناديه بشولجا بدا منذ الامسية الاولى بخيلا بعض الشىء . فقد اجاب عـلى طلب كوستيفيتش للطعام صراحة بانه يواجه صعوبات جمّة فى الحصول على المواد الغذائية . وحقا فلم يكن من الممكن القول انهما أحسنا تغذيته على الرغم من يسر أحوالهما . غير ان كوستيفيتش وجد انهما يتناولان نفس الطعام ، مما دعاه الى التفكير فى انه لا يعرف كافة دقائق حياتهما الشخصية .

ولم تكن مثل هذه التفاهات لتغير من الانطباع العام والجيد الذى تركه فومين لدى ماتفى كوستيفيتش ، بينمـا كان أسوأ البشر الذى قد يعرج اليه وبمحض الصدفة يمكن ان يكون افضل من اجنات فومين . ذلك لان اجنات فومين كان اكثر سكان كراسنودون سوء ، كان رهيبا مريعا لانه فقد آدميته منذ زمن بعيد .

لقد كان اجنات فومين ، والذى لم يكن يحمل هذا الاسم قبل

عام ١٩٣٠ فى بلده بدائرة اوستروج التابعة لمقاطعة فورونيج رجلا يجمع بين قوة الارادة وسعة الثراء . لقد كان يملك بشكل مباشر او غير مباشر طاحونتين ، وحصّادتين ، وكثيرا من المحاريث ، ومذراتين وآلة دراس ، وثلاث مزارع وما يقرب من عشرة جياد وست بقرات وحديقة فواكه مثمرة ومنحلا به حوالى مائة خلية . هذا وكان قادرا على تشغيل ، الى جانب الاجراء الاربع الذين كانوا يعملون لديه ، كثير من فلاحى القرى الاخرى الذين كانوا فى حاجة مادية اليه .

لقد كان من الاثرياء فيما قبل الثورة ، بيد ان شقيقيه كانا اكثر ثراء ، ولاسيما الشقيق الأكبر الذى ورث ثروة أبيهم . أما اجنات فومين وبوصفه كان اصغر الاشقاء ، تزوج قبيل حرب عام ١٩١٤ ، وحصل من أبيه على بعض الثروة بما لا يتناسب مع نصيبى أخويه الكبيرين . غير انه وبعد الثورة ، وحين عاد من الجبهة الألمانية استغل فى براعة ما ادعّاه من فقر ، وتسلل هو الذى اساءت اليه السلطة القديمة ، الى كافة أجهزة السلطة السوفييتية والمنظمات الاجتماعية بالقرية ، اعتبارا من لجنة فقراء الفلاحين ، بوصفـه انسانا ليس فقط ثوريا معدما ، بل ورجلا مناضلا بلا هوادة ضد اعداء الثورة . واذ استغل اجنات فومين هذه الأجهـزة ، وكون شقيقيه ، شأنه هو ، من الاثرياء اعداء السلطة السوفييتية ، فقد قدمهما الى المحاكمة حيث حكم عليهما بالنفى بدء بالاكبر ثـم بالاوسط ، وليستولى على ممتلكاتهما ، مشردا عائلتيهما واطفالهما الصغار دونما شفقة نظرا لانه لم يكن لديه اطفال ، الى جانب انه كان غير قادر على الانجاب . وهكذا بقى على وضعه السابق ، وحتى عام ١٩٣٠ حيث راح يعتبره الكثيرون من ممثلى السلطة ورغما عن ثرائه ، ظاهرة فريدة بالارض السوفييتية — ثريا مواليا ، ومالكا مهذبا .

غير ان الفلاحين فى عدد من القرى ، حيث امتد نفوذه كانوا يعرفونه مالكا كبيرا مصاصا للدماء ، وانسانا رهيبا مريعا . وحين بدا تشكيل المزارع التعاونية فى عام ١٩٣٠ ، وراح الشعب بتأييد من السلطة يصادر ثروات الاغنياء ، شملت اجنات فومين الذى كان يعيش آنذاك باسمه الأصلى القديم موجة الانتقام الشعبى . وفقد

اجنات فومين كل شيء وصدر عليه الحكم بالنفى الى الشمال . غير ان السلطة المحلية لم تعتقله قبيل تنفيذ حكم النفى بوصفه شخصا معروفا ، وعلى ما يبدو مسالما . أما اجنات فومين فقد قام ليلا وبمساعدة زوجته بقتل رئيس مجلس القرية وسكرتير الخلية الحزبية هناك ، واللذين لم يكونا يعيشان برفقة عائلتيهما ، بل فى مقر مجلس القرية . وقد أدركهما فومين آنذاك حين عادا مخمورين من ضيافة بعض الاصدقاء ؛ واذ أجهز عليهما لاذ بالفرار برفقة زوجته الى ليسكى ثم الى روستوف على الدون حيث كان يعيش افضل اصدقائه .

وفى روستوف ابتاع الوثائق التى تثبت انه اجنات سيميونوفيتش فومين عامل ورش السكك الحديدية ، وحيث بدا على أساسها عاملا محترما ، ومن ثم حصل فيما بعد على الوثائق المطلوبة لاثبات هوية زوجته . وهكذا انطلق نحو حوض الدونباس ، وقد علم بحاجتهم الماسة هناك الى الأيدى العاملة وحيث لن يجد من يسأله عن هويته واصله .

لقد كان على يقين تام بان ساعته سوف تحين ان عاجلا او آجلا ، ولذا فقد رسم لنفسه نمطا معينا من السلوك . كان يدرك بادئ ذى بدء ضرورة العمل باجتهاد بالغ . أولا . . . لان ذلك سوف يسهّل عليه مهمة الاختفاء ، وثانيا ، سوف يتيح له عمله المتفانى ومهاراته العيش فى يسر ، وثالثا ، كان الكد والعمل من طبيعته ، مهما كان مدى ثرائه فى الماضى . هذا علاوة على انه قرر عدم الظهور كثيرا ، والبعد عن النشاط الاجتماعى ، وطاعة الرؤساء ، وعدم انتقاد الغير . . . لاقدّر الله !

وهكذا وبمضى الزمن نال هذا الشخص الزئبقى احترام السلطات لا لكونه عاملا ماهرا شريفا وحسب ، بل وشخصا غاية فى التواضع والانضباط . وقد استطاع الحفاظ على هذا النمط من السلوك وحتى بعد ان اقترب الالمان من فوروشيلوفجراد . ولم يكن يراوده ادنى شك فى انهم سوف يصلون الى كراسنودون . وقد كاد يفضح نفسه فقط حين سئل الموافقة على تقديم مسكنه لخدمة منظمة العمل السرى اذا ما احتل الالمان المدينة ، اذ اعترته مشاعر حب الانتقام والشماتة .

ولم يكن مظهر فومين بسترته وربطة عنقه وساعته الذى كان موضع اعجاب شولجا ، يعود الى حبه للاناقة ، اذ كان شأن كل العمال يرتدون فى الاوقات العادية ملابس نظيفة تتسم بالبساطة بل لانه كان ينتظر من ساعة لاخرى قدوم الالمان ، وقد ارتدى افضل ما لديه حتى يروق فى انظارهم .

وقد ارتمى ماتفى كوستيفيتش مضرجا فى دمائه بعد ان نزل به اقسى العذاب فى زنزانة معتمة صغيرة فى النصف الثانى من نفس المبنى الخشبى حيث تواجد ستاتسينكو لدى رئيس الشرطة المساعد بريوكنر ثم لدى المساعد بالدر .

وقد كان هذا الجزء من المبنى حيث شيد عدد من الزنزانات تفصل فيما بينها ردهة ضيقة تعتبر امتدادا لردهة مقر الميليشيا ، هو مكان الاعتقالات الوحيد فى كراسنودون .

وقد كان جوهر «النظام الجديد» باديا فى ازدحام عدد من الزنزانات العامة وزنزانات الحبس الانفرادى التى شكلت دار الاعتقال ، بالرجال والنساء والمراهقين والشيوخ . وقد كان هؤلاء من ابناء المدينة والقرى والعزب المجاورة الذين اعتقلوا بتهمة كونهم من العمال السوفييت والفدائيين والشيوعيين واعضاء الكومسومول ، واناسا اهانوا قولا او فعلا الزى العسكرى الالمانى ، اناسا اخفوا اصلهم اليهودى ، واناسا لا يحملون ما يثبت هوياتهم ، وببساطة لانهم اناس .

لم يكونوا يقدمون لهؤلاء الناس طعاما تقريبا ، ولا يسمحون لهم بالخروج للنزهة او لقضاء الحاجة ، مما جعل الرائحة الكريهة التى لا تطاق تنتشر فى كل ارجاء الزنزانات التى تلوثت وتشبعت ارضيتها بالدماء والبول .

غير ان ماتفى شولجا ، او يفدوكيم اوستابتشوك كما جرى اعتقاله تحت هذا الاسم ، استقر فى زنزانة منفردة على الرغم من ان الزنزانات الاخرى كانت غاصة بالمعتقلين . كان قد تعرض للضرب كثيرا حين جرى اعتقاله وان كان قد ابدى ضروب المقاومة ، تساعده فى ذلك قوته البدنية الخارقة التى حالت طويلا دون السيطرة عليه . ثم تعرض للضرب هنا فى السجن . . . ضربه المساعد اول بريوكنر ، والمساعد بالدر وروتنفوهرر قوات الجستابو فينبونج

الذى القى القبض عليه والشرطى اجنات فومين ورئيس الشرطة سوليكوفسكى ، يحدوهم جميعا أمل النيل من ارادته الصلبة وقبل ان يفيق لنفسه . غير انه كان من المستحيل ان يدلى ماتفى كوستيفيتش باية اعترافات فى ظل حالته الطبيعية ، ومن ثم يكون ذلك اكثر استحالة فى خضم نضال ضار يخوض أواره .

كان رجلا قوى البنية ، وها هو اليوم يرقد مضروبا مضرج الدماء ، وليس لان قواه قد انهكت بل طلبا للراحة . غير انه كان قادرا على الصمود ما تطلب الامر ، اذا ما اقتادوه مرة اخرى ... كان وجهه ينضح بالآلام ، تسيل الدماء من احدى عينيه ، بينما اضناه الألم من ضربة قضيب حديدى نزل به صف ضابط فينبونج على اعلى مرفقه . كما واضنته تصوراته بصدد تعذيب الألمان فى مكان ما وعلى نفس النمط لزوجته واولاده وبسببه هو شولجا ، فاقدا كل امل فى انقاذهم .

غير ان كوستيفيتش كان يئن تحت وطأة وعيه بانه وقع فى قبضة الاعداء دون ان يقوم بواجبه ، ونتيجة لخطأ ارتكبه بنفسه ، مما كان يفوق آلامه ومعاناته الجسدية والمعنوية .

وقد بدا له وللوهلة الاولى ان التفسير الطبيعى لما آلت اليه احواله ، يكمن فى خطأ اولئك الآخرين الذين حددوا له مكان اللقاء غير المضمون ، غير انه نفض عن كاهله وبعيدا عن مخيلته هذا التبرير بوصفه سلوى كاذبة للضعفاء .

وقد كان يدرك استنادا الى خبراته ان نجاح اية قضية اجتماعية لا يمكن الا ان يتوقف على مجموعة كبيرة من الناس يمكن للمرء مصادفة من يسىء تنفيذ المهمة الموكلة اليه ، او على الأقل يخطىء فى تنفيذها . غير انه ليس هناك سوى الانسان الضعيف معنويا ، او اليائس هو الذى يعزو فشل القضية الخطيرة الهامة الى آخرين دونه . وقد كان صوت الضمير النقى الذى يجيش فى اعماقه يؤكد له انه شخص غير عادى ذو خبرة فى العمل السرى رشحته للقيام بهذه المهمة الخطيرة فى مثل هذه الظروف الاستثنائية حتى يتجاوز بارادته وخبراته وقدرته التنظيمية كافة الاخطار والمصاعب وسقطات واخطاء الآخرين الذين كان يتوقف عليهم نجاح تلك المهمة . وهذا هو ما جعل ماتفى كوستيفيتش عاجزا عن اتهام

الآخرين ، بل ولم يكن ليعزى اليهم سبب سقوطه . كما وكان وعيه وادراكه لكون انه لم يسقط وحسب ، بل ولم ينفذ واجبه ، يضنيان روحه أكثر من اية آلام اخرى يمكن ان تحيق به .

وقد ظل صوت الضمير الصادق الذى لا يهدأ يلح عليه مؤكدا انه المسؤول عن خطأ ارتكبه ذات يوم وفى مكان ما . وراح يستعيد فى مخيلته المرة تلو الاخرى كافة التفاصيل الدقيقة لسلوكه واقواله ، ومنذ تلك اللحظة التى توادع فيها مع ايفان فيدوروفيتش بروتسينكو وليوتيكوف ودون ان يستطيع ادراك اللحظة والمكان اللذين سجلا خطاه .

لم يكن ماتفى كوستيفيتش يعرف فيما سبق ليوتيكوف ، ومع ذلك فقد اعترته مشاعر القلق والاضطراب بشانه ، ولاسيما ان عليه وحده اليوم يتوقف نجاح المهمة التى اوكلت اليهما غير ان روحه كانت كثيرا ما تتوجه فى خضم آلامه الرهيبة واحزانه اللامحدودة الى بروتسينكو قائدهما وصديقه الشخصى ، وكأنما تتساءل :

«ترى اين انت يا ايفان فيدوروفيتش ؟ او مازلت حيا ؟ او تصارع اولئك الاعداء الملاعين ؟ هل تفوقت عليهم قوة ودهاء ؟ او ربما تكون مثلى عرضة للعذاب والتنكيل ! ربما تكون الغربان تنهش عينيك المغمضتين مرحا ، بينما جسدك مسجى بالبرارى ...» .

الفصل التاسع والعشرون

انضم ايفان فيدوروفيتش بعد ان توادع مع ليوتيكوف وشولجا ، تصحبه زوجته الى فصيل الفدائيين الذى تمركز فى غابات ميتياكين على الضفة الاخرى من نهر الدونيتس . وقد اضطرا الى قطع مشوار طويل للالتفاف حول المساحات التى احتلها الالمان . واستطاع ايفان فيدوروفيتش رغما من ذلك نقل العربة الى الشاطىء الآخر والوصول الى القاعدة ، فى نفس الليلة التى وصلت فيها الدبابات الالمانية الى القرية التى سميت الغابات المجاورة باسمها .

يدور الحديث هنا عن غابات ، فهل يكون من الممكن مقارنة هذه

الادغال التى انتشرت فى تلك المساحة الصغيرة بغابات بيلوروسيا وبريانسك ، وطن المجد الفدائى ؟ ! لقد كانت منطقة غابات ميتياكين غير صالحة لاخفاء فصيل كبير من الفدائيين ، ومن ثم يكون من المستحيل القيام فيها باية عمليات عسكرية .

ولحسن الحظ ، كان الفدائيون قد غادروا القاعدة ليخوضوا المعارك ضد الالمان على طرق الاتجاه الغربى ، حين وصلها ايفان فيدوروفيتش برفقة زوجته .

وكم اسف ايفان فيدوروفيتش فيما بعد ازاء كونه لم يستخلص فى ايام وصوله ، ولم يكن قادرا على استخلاص كافة الاستنتاجات من تلك الفكرة البسيطة الواضحة التى تواردت الى خاطره وهى ان الفصيل الذى يكاد ان يكون اكبر فصائل الفدائيين فى المقاطعة لا يملك قاعدة خاصة به للاختفاء .

كانت مقاطعة فوروشيلوفجراد مقسمة الى عدة دوائر يترأس كلا منها سكرتير لجنة الحزب الاقليمية السرية . وقد كان ايفان فيدوروفيتش احد هؤلاء ، الذين كلفوا بالاشراف على عدد من لجان المنطقة ومجموعات العمل السرى الكثيرة التابعة لها . كما وكانت توجد مجموعات خاصة للاعمال التخريبية يخضع بعضها الى لجنة الحزب المحلية السرية ، بينما يخضع البعض الآخر الى لجنة المقاطعة ، اما البعض الثالث فيخضع مباشرة الى القيادة الاوكرانية او القيادة المركزية .

وقد كانت شبكة العمل السرى المتفرعة تقوم على اساس نظام مساكن اللقاءات واماكن الاختفاء وقواعد المواد الغذائية والتسليح ووسائل الاتصال – الآلية والبشرية . ويعتبر هذا النظام اكثر تعقيدا من حيث طابع الحفاظ على السرية . وقد كانت هناك تحت تصرف ايفان فيدوروفيتش شان غيره من قادة العمل السرى بالمقاطعة ، وعلاوة على مساكن اللقاءات العادية فى الاحياء المختلفة ، مساكن تقتصر معرفتها عليه وحده . . . بعضها للاتصال بقيادة اوكرانيا ، والبعض الآخر ، لاتصالات قادة العمل بالمقاطعة فيما بينهم ، اما البعض الثالث فللاتصال بقادة المناطق او بقادة الفصائل .

وكان يمارس نشاطه فى اراضى كل دائرة عدد من الفصائل الفدائية الصغيرة . علاوة على انه جرى تشكيل فصيل كبير الى حد

ما للعمل فى الدائرة ، وحيث تنص الخطة المبدئية على ان يتواجد بها سكرتير اللجنة الحزبية للمقاطعة المشرف على العمل السرى فى الدائرة ؛ اذ كانوا يعتقدون ان وجوده داخل فصيل الفدائيين الكبير يكفل له الامان النسبى ومن ثم حرية اكبر للحركة .

وقد كان مكان اللقاء الرئيسى لاتصالات قادة العمل السرى فى مقاطعة فوروشيلوفجراد بالنقطة الطبية فى قرية اوريخوفو الكبيرة التابعة لمنطقة اوسبينسكى . وكان ايفان فيدوروفيتش قد عين ربة ذلك المسكن فالنتينا كروتوفا الطبيبة المحلية وشقيقة كسينيا كروتوفا التى كانت تعمل لديه كمراسلة اتصال . هذا وبينما كان ايفان فيدوروفيتش ما يزال فى كراسنودون كانت كسينيا كروتوفا تعيش لدى شقيقتها الطبيبة ، وحيث كان من المفروض عليها ابلاغه باولى انباء الدوائر الاخرى بعد ان يحتلها الالمان .

وتوجه ايفان فيدوروفيتش الى فصيله بعد ان فوض مساعده بالقيام بمهام حراسة المواد الغذائية واسلحة الفدائيين فى غابات ميتياكين ، وفى ذات الوقت بسلطات رئيس الاتصالات بكافة الدوائر الاخرى . وقد قطع ايفان فيدوروفيتش طريقه سيرا على الاقدام ، حيث كانت كل المنطقة تعج بالقوات الالمانية . وكم كان ايفان فيدوروفيتش يمنى نفسه بانه سوف يستخدم عربته فى تنقلاته ، لدرجة انه احتفظ بكمية من البنزين تكفيه لمدة عام على اقل تقدير ، بينما تضطره الظروف الى تخزينها فى احد الكهوف الطينية بالغابة ، والذى اغلق مدخله . وقد ضحكت يكاتيرينا بافلوفنا التى كانت تقوم بمهمة الاتصالات والاستطلاع لدى زوجها ايفان فيدوروفيتش ، ساخرة ازاء هذا الوضع ، وراحا يقطعان سوية الطريق سيرا على الاقدام .

ولم تمض سوى بضعة ايام منذ تلك اللحظة التى قام فيها ايفان فيدوروفيتش بالاتفاق فى مقر لجنة الحزب بكراسنودون مع الجنرال قائد الفرقة حول طرق الاتصال . لكن كم تغيرت الظروف ! وبطبيعة الحال وفى هذه الظروف لم يكن هناك اى حديث عن تنسيق ما مع الفرقة . ذلك لانها كانت قد تمركزت آنذاك على ضفاف الدونيتس قريبا من كامينسك لتلك الفترة التى كان عليها الصمود فيها ، ولتفقد ما يزيد عن ثلاثة ارباع قوامها الذى لم يكن كاملا ، مما

دفعها الى التخلي عن مواقعها والرحيل فيما بعد . كانت خسائرها هائلة لدرجة بدت معها ابعد ما تكون عن الفرقة ، الا انه لم يكن ثمة من يستطيع القول انها «لقيت شر هزيمة» ، او «حوصرت» او «انسحبت» ، بل كان الجميع يقول «تراجعت» . وكانت حقا قد تراجعت حين انتشرت التشكيلات الالمانية الكبيرة فى تلك المساحات الشاسعة الواقعة بين الدونيتس الشمالى والدون .

كانت الفرقة تشق طريقها عبر الاراضى التى احتلها العدو ، تخوض البرارى والانهار والمعارك ، تستخدم الشواطئ شديدة الانحدار لنهيرات البرارى ، تظهر تارة هنا ، واخرى هناك . وفى الايام الاولى كانت الجماهير تردد اخبارها القتالية ايام كانت قريبة من المنطقة ؛ اما اليوم فقد انطلقت الفرقة بعيدا بعيدا نحو الشرق تسعى نحو ذلك الخط الذى حدد لها بعيدا كذلك ، مما جعل اخبارها تنقطع ، ولا تبقى سوى ذكراها فى قلوب افراد الشعب خالدة كما الاسطورة .

وقد راح فصيل الفدائيين الذى يترأسه ايفان فيدوروفيتش يعمل وحده وعلى نحو جيد ؛ اذ قام فى اولى ايامه بتحطيم عدد من وحدات العدو الفرعية الصغيرة فى معركة مكشوفة . . . قتلوا الجنود والضباط الباقين ، واضرموا النيران فى صهاريج البنزين واستولوا على عربات المؤن ، وتصيدوا الاداريين الالمان فى القرى لينفذوا فيهم احكام الاعدام . لم تبلغ ايفان فيدوروفيتش اية انباء عن نشاط فصائل الفدائيين الاخرى ، لكنه ادرك وبناء على الاحاديث التى يتناقلها الناس انها بدات نشاطها كذلك على نحو جيد . ولقد كانت الاقاويل تبالغ فى بطولات الفدائيين ، وتلك امور لم تكن تعنى سوى ان نضالهم يلقى تأييد الشعب .

وحين قام العدو بتوجيه قواته الضخمة للتصدى لفصيل الفدائيين ، رفض ايفان فيدوروفيتش عرض القيادة بالعودة الى القاعدة وقام بارساله عبر الدونيتش الى شاطئه الايمن سرا ، حيث اثار الهرج والمرج فى مؤخرة الالمان .

غير ان الصعوبات بدات تواجهه يوما بعد يوم فى فضاء البرارى ، حيث المنطقة العامرة بالسكان ، وتجاورت المناجم والقرى والنجوع . كان الفصيل فى حركة دائمة تساعده فى الافلات دونما خسائر فطنة ودهاء ايفان فيدوروفيتش ، ومعرفته الممتازة بتضاريس المنطقة

وتسليحه الجيد . فالى متى يمكن المراوحة فى المكان بينما العدو يلاحقنا ؟

ولم تكن فصائل الفدائيين الكبيرة التى جرى تشكيلها على غرار فصائل الغابات او اراضى البرارى الشاسعة غير المأهولة ، تناسب مناطق الدونباس الصناعية الآهلة بالسكان . غير ان ايفان فيدوروفيتش لم يتوصل الى هذا الاستنتاج الا حين اوشكت الكارثة ان تحيق بالجميع .

جاءت كسينيا كروتوفا بتلك الانباء التى اصابته فى الصميم . لقد حوصر وتشتت قوام فصيل الفدائيين الكبير الذى كان يمارس نشاطه على مقربة من فوروشيلوفجراد ، اما سكرتير لجنة الحزب بالمقاطعة ياكوفينكو والذى كان موجودا مع الفصيل ، فقد لقى حتفه . ولم ينج من فصيل كاديفكا الذى جرى تشكيله على غرار فصيل ياكوفينكو وايفان فيدوروفيتش ، سوى تسعة مقاتلين برئاسة قائده . ولقد تكبد العدو ثلاثة اضعاف الخسائر التى الحقها بالفصيل ، غير انه ما من خسائر للعدو يمكن ان تخفف من فداحة الكارثة التى حلت بحرس مناجم كاديفكا الشهيرة ! وقد ابلغ قائد الفصيل ايفان فيدوروفيتش انه يقوم بتجنيد مقاتلين جدد ، الا انه سوف يعمل الآن مع مجموعات صغيرة . اما فصيل بوكوفو انتراتستوفسك فقد استطاع الافلات من الحصار بدون خسائر تذكر ، ليتفرق على الفور الى بعض الفصائل الصغيرة تعمل تحت قيادة موحدة . كما وعملت الفصائل الصغيرة فى مناطق روبيجانسكى ، وكريمينسكى وايفانوفسكى وغيرها من المناطق ،بنجاح ودون خسائر تقريبا . وقد عمل ومنذ البداية فصيل منطقة بوباسنيانسكى ، من اكبر فصائل المقاطعة ، فى مجموعات متفرقة تحت قيادة عامة ، حظيت بشهرة فائقة فى اوساط الجماهير التى اطلقت على الفصيل كنية «الرهيب» . اما الفصائل الجديدة التى تشكلت من تلقاء نفسها فى المناطق من السكان المحليين ومقاتلى وضباط الجيش الاحمر الذين تخلفوا عن وحداتهم ، فقد ظهرت كمجموعات فدائية صغيرة .

وتلك امور فرضتها الحياة .

لقد تلقى ايفان فيدوروفيتش هذه الانباء ، ولم يكن يبقى سوى بضع ساعات يستطيع فيها تقسيم فصيله الى مجموعات صغيرة ،

الا ان القدر لم ينعم عليه بتلك الساعات القليلات . فقد حاصرهم الالمان عند الفجر ، وها هى الشمس تميل نحو الغروب .

كان هناك بذلك المكان وذات يوم نهير تصب مياهـــه فى الدونيتس الشمالى ، الا ان مياهه كانت قد نضبت منذ زمن بعيد لدرجة ان سكان نجع ماكاروف يار القريب منه لم يعودوا يذكرون يوم كانت تجرى به المياه . فلم يبق من ذلك النهير سوى وهدة كثيرة الشجيرات ، ضيقة فى اعلاها ، وعريضة عند المصب مما جعلها تبدو اشبه بالمثلث . لقد كان المكان شريطا عريضا من الغابات التى اشرفت على شاطىء النهر .

رقد ايفان فيدوروفيتش وقد طالت لحيته رمادية الشعر الناعم داكنة ، بين شجيرات قصيرة عند قمة الوهدة ، اى فى اصعب القطاعات الدفاعية . وقد اصابت رصاصة المانية الجانب الايمن من راسه اصابة سطحية ، مطيحة بقطعة من جلده وشعره مما جعل الدم يسيل على فوده ، الا انه لم يشعر بذلك ، ولبث منبطحا مكانه يطلق نيران رشاشه ، بينما تسللت البرودة الى الرشاش المجاور .

كانت يكاتيرينا بافلوفنا ترقد على مقربة من زوجها تطلق النيران وقد علت امارات الشحوب والصرامة وجهها . كانت تحركاتها دقيقة ، نادرة ، مفعمة بالنشاط والرشاقة . وقد ظهرت وكانما توجه رشاشها باناملها ، بينما استقر الى جوارها العجوز ناريجنى وهو مزارع من ماكاروف يار ، و«مدفعجى الحرب العالمية الاولى» ، كما كان يسمى نفسه .

وكان حفيد ناريجنى ، الصبى ذو الثلاثة عشر ربيعا الذى احاطت به صناديق الذخيرة ، يعمّر اسطوانات الرشاشات . اما فيما وراء الصناديق فكان يرقد فى منخفض من الارض ، ممسكا بسماعة التليفون مساعد القائد الذى لم يكن موجودا الى جوار ايفان فيدوروفيتش ، بل على شاطىء النهر يتمتم بلغة الرموز :

— ماما تسمعك . . ماما تسمعك . . من ؟ حسنا . . . يا عمى ! تقول ان البرقوق قليل ؟ فلتاخذ من ابن اخيك . مامـــا تسمعك . . . ماما تسمعك . ان الامر عندنا على ما يرام . كيف الحال عندكم ؟ فلتمنحوهم الحرارة والدفء . ايتها الاخت ! ايتها

الاخت ! ايتها الاخت ! ماذا بك . هل ادركك النعاس ؟ ان شقيقك يطلب امداده بالنيران عند اليسار . . .

لقد كان ايفان فيدوروفيتش فريسة الافكار التى تضنى روحه ، ليس بشأن احتمال هلاكه وهلاك زوجته ، وليس حتى الشعور بالمسؤولية ازاء حياة الآخرين ، بل لانه كان قادرا على التنبؤ بما يجرى لدرجة كانت تسمح له بتفادى هذا الوضع العصيب .

وعلى الرغم من كل شىء فقد قام بتقسيم فصيله الى بضع مجموعات عين لكل منها قائدا ونائبا للشئون السياسية ، وحدد لكل منها موقعها الذى سوف تتمركز به . وكان من المفروض ان يقوم القائد السابق للفصيل مع نائبه ورئيس اركانه بتولى امور احدى هذه المجموعات الصغيرة . وقد كان ينبغى على هؤلاء القيام بواجبات القيادة العامة لكافة الفصائل والتمركز ، نظرا لتعدادها الضئيل ، فى غابات ميتياكين .

وقد هيأ ايفان فيدوروفيتش القادة والمقاتلين لتقبل البقاء هنا فى الوهدة وحتى حلول الليل ، اما فيما بعد فقد قاموا برئاسته باختراق حصار العدو والعبور نحو البرارى . وقام ايفان فيدوروفيتش بغية تيسير الامور بعد اختراق الحصار ، تقسيم الفصائل الى مجموعات صغيرة يبلغ تعداد كل منها من ثلاثة الى خمسة افراد ، يجب ان تتولى امور انقاذ نفسها بنفسها . اما هو وزوجته فقد وعد العجوز ناريجنى باخفائهما لبعض الوقت .

وكان ايفان فيدوروفيتش يدرك ان جزء من رجاله سوف يلقى حتفه اثناء محاولة الافلات من الحصار ، بينما يقع آخرون فى قبضة الاعداء ، الى جانب البعض الذى سوف يتسلل الرعب الى قلوبهم ليدفعهم بعيدا عن قاعدة الفدائيين . وقد جثم كل ذلك العبء المعنوى على كاهل ايفان فيدوروفيتش يقض مضاجعه . غير انه لم يفصح عن معاناته ، بل على العكس كانت ايماءاته ووجهه وكل سلوكه انعكاسا مناقضا لما كان يجيش باعماقه . وراح ايفان فيدوروفيتش يوجه نيرانه الى الاعداء ، فيما يتبادل النكات مع العجوز ناريجنى ربع القامة قصيرها ، تعلو الحمرة وجهه ذا اللحية صغيرة داكنة اللون ، والقابع فى مكانه بين الشجيرات .

اما وجه ناريجنى فقد كان يتسم بامارات مولدافية ، بل هى

اقرب الى التركية ، اذ كانت لحيته شعثاء سمراء ، وعيناه سمراوين سريعتي الحركة . كما كان نحيفا ، كنبتة جففتها الشمس ، عريض المنكبين ، قوى الساعدين ، مفعم بالطاقة على الرغم من انه كان يبدو بطىء الحركة .

وعلى الرغم من حرج موقفهما ، فقد بديا سعيدين بتجاورهما ، وقانعين بحديثهما بسيط الجوهر .

فقد كان ايفان فيدوروفيتش عقب كل نصف ساعة تقريبا يتساءل فيما تومض عيناه دهاء :

– كيف الحال يا كورنى تيخونوفيتش ، اليس الجو حارا ؟

وكان كورنى تيخونوفيتش يجيبه على نفس المنوال :

– لا استطيع القول انه بارد ، علاوة على انه ايضا ليس حارا يا ايفان فيدوروفيتش .

اما وحين كان الالمان يقتفون اثرهما ، ويصبحون قريبين منهما ، كان ايفان فيدوروفيتش يقول :

– آه ... لو كانوا يحملون مدافع الهاون ... لاصبح الجو حارا بالفعل يا كورنى تيخونوفيتش . اوليس ذلك حقا ؟

واجابه كورنى تيخونوفيتش مجاريا اياه :

– انهم كانوا فى حاجة الى خزين هائل من الالغام يمكن ان يكفى كل هذه الغابة .

وعلى حين غرة وفيما بين هدير الرشاشات تعالت اصوات محركات تتنامى على البعد من ناحية مكاروف يار ، مما جعلهما يتوقفان ثانية من الزمن عن اطلاق النيران .

– هل تسمع يا كورنى تيخونوفيتش ؟

– نعم .

وراح ايفان فيدوروفيتش يجيل النظر فى حذر تجاه زوجته ومط شفتيه بما يعنى ضرورة التزام الصمت .

كان فصيل من راكبى الموتوسيكلات يقطع الطريق الذى لم يكن باديا من ذلك المكان . لا ريب ان ثمة من سمع هدير محركات موتوسيكلاتهم فى كافة ارجاء الوحدة ، حيث راح التليفون يعلن عن نفسه بشكل محموم .

كانت الشمس قد بارحت الافق منذ زمن ، الا ان القمر لم يكن

قد اعتلى السماء بعد ، ولم تسدل الظلمة ستائرها ، بينما عمرت السماء بكثير من الالوان الزاهية ، التى تمازجت فيما بينها وانعكست على الارض والاشجار والشجيرات ، وعلى وجوه المقاتلين واسلحتهم والطلقات الفارغة التى تناثرت وسط الاعشاب ، ضوءا غريبا بدا يتلاشى وكانما يستقر فى اعماق الظلمة ، وهكذا ولبضع لحظات لا غير سادت المكان هذه الصورة غير المحددة الاطر ... فلم يكن ذلك نهارا ، كما ولم يكن مساء . وفجاة بدأ الرذاذ او الندى يتبدد بعيدا عن الهواء ليتساقط فوق الشجيرات والارض حيث تتزايد كثافته .

وانتشر هدير محركات الموتوسيكلات من ناحية ماكاروف يار ، ليعم كل ارجاء المنطقة . وتعالى صوت تبادل اطلاق النيران تارة هنا واخرى هناك ، يحتد على نحو خاص قريبا من النهر .

والقى ايفان فيدوروفيتش بنظرة الى ساعته ، ليخاطب مساعده عند التليفون قائلا :

– الانسحاب فى تمام الساعة التاسعة !

وكان ايفان فيدوروفيتش قد اتفق مع قادة مجموعات الفدائيين التى انتشرت بالدغلة على ان تتجمع وفقا لاشارته كل المجموعات فى انحاء الاخدود المطل على البرارى قريبا من شجرة البتولا القديمة ، ومن حيث يتوجب عليها بدء محاولة اختراق الحصار . وكانت اللحظة المناسبة قد حانت .

وبغية خداع الالمان ، كان من المفروض على المجموعتين اللتين توليتا الدفاع عن الدغلة عند مشارف النهر الانتظار بعد رحيل المجموعات الاخرى ، والتحرك كانما فى محاولة اخيرة لعبور النهر .

وجال ايفان فيدوروفيتش بنظره سريعا فيما حوله ، بحثا عمن يمكن ارساله اليهما .

وقد كان هناك شاب عضو بالكومسومول يدعى يفجينى ستاخوفيتش من ابناء كراسنودون موجودا ضمن الفدائيين المدافعين عن قمة الوحدة ؛ وكان قبيل وصول الالمان يدرس فى مدرسة قادة الدفاع الجوى والكيميائى بفوروشيلوفجراد . كما وكان متميزا بين الفدائيين بمعلوماته الغزيرة وسلوكه المتحفظ وسمات رجل النشاط الاجتماعى التى تجلت لديه فى وقت مبكر . وكان ايفان

فيدوروفيتش قد اختبر ستاخوفيتش فى مختلف القضايا على امل الاستفادة منه فى الاتصال برجال العمل السرى فى كراسنودون . وها هو يرى الى يساره وجهه الذى علته امارات الشحوب وقطرات العرق ، منكوش الشعر الاصفرالذى كان يستقر دائما فيما سبق متموجا فوق راسه المرفوع فى تباه . كان القلق يعترى الشاب ، غير انه لم يتراجع الى اعماق الوهدة حتى لا يكون ذلك مساسا بكرامته ، مما كان موضع اعجاب ايفان فيدوروفيتش الذى قام بتكليفه بالمهمة المرجوة .

واذ انتزع يفجينى ستاخوفيتش ابتسامة رسمها على شفتيه ، انطلق نحو شاطئ النهر وقد التصق جسده النحيف بالارض .

وذكر بروتسينكو يخاطب العجوز الجسور الذى بقى مع مجموعة الفدائيين لتامين الانسحاب :

– عليك الا تتاخر يا كورنى تيخونوفيتش !

ومنذ تلك اللحظة التى بدأ فيها الفدائيون الذين كانوا قد اختبئوا قريبا من النهر ، فى استعراض محاولتهم لعبور النهر ، كانت قد احتشدت على شاطئ الدونيتس قوات الالمان الرئيسية ، توجه كل نيرانها الى ذلك الجزء من الغابة ونحو النهر . وتمازجت اصوات وحفيف الطلقات لتشكل هديرا مكثفا مما بدت معه كانما تتساقط من عل ، ليتنفس المقاتلون الاتربة التى تحمل ذرات الرصاص .

واذ ابلغ ستاخوفيتش امر بروتسينكو الى قائد الفصيل ، قام الاخير بارسال الجزء الاعظم من الفدائيين الى نقطة التجمع ، فى الاخدود بينما لزم مواقعه برفقة اثنى عشر مقاتلا لتامين الانسحاب . وقد كان ستاخوفيتش يشعر بالرهبة فى ذلك المكان ، لتراوده رغبة الرحيل مع الآخرين . غير ان ذلك لم يكن لائقا ، ولذا فقد استغل فرصة انشغال الآخرين ، وانبطح بين الشجيرات الصغيرة ، يدفن وجهه بالارض رافعا ياقة الجاكتة بغية سد اذنيه بعض الشئ .

ولقد كان من الممكن ان تترامى الى الاسماع اصوات القادة الالمان يطلقون اوامرهم ، حين تخف حدة تركيز النيران التى كانت تصم الآذان ، وقد توغلت بعض المجموعات الالمانية فى الغابة من ناحية مكاروف يار .

وذكر قائد الفصيل على حين غرة :

– لقد حان الوقت ايها الرجال . هيا سريعا !

وتوقف الفدائيون عن اطلاق نيرانهم واندفعوا خلف قائدهم .

وعلى الرغم من ان العدو لم يخفف من نيرانه وحسب ، بل على العكس زاد من كثافتها . اما الفدائيون الذين كانوا يهرولون بالغابة فقد تخيلوا الصمت المطبق يخيم عليها ، غير انهم شاهدوا بالاخدود اشباح رفاقهم يرقدون متجاورين تدثرهم ظلمة المكان .

وذكر ايفان فيدوروفيتش الواقف الى جوار شجرة البتـولا القديمة ، يعلن استحسانه :

– تمنياتى بالتوفيق ! هل ستاخوفيتش هنا ؟

واجاب القائد دونما تفكير :

– نعم هنا !

وتلفت الفدائيون فيما حولهم بحثا عن ستاخوفيتش الذى لم يكن موجودا .

وراح القائد ينادى بصوت خافت متامـلا وجوه الفدائيين بالاخدود :

– ستاخوفيتش !

غير ان ستاخوفيتش لم يكن موجودا .

واعترى الغضب بروتسينكو ليصيح قائلا :

– ماذا اصابكم ايها الرجال حتى تفقدوا عقولكم . لعل رصاصة اصابته دون ان تشعروا ! ولربما تكونوا قد تركتموه جريحا !

واجاب القائد غاضبا :

– او صغير انا يا ايفان فيدوروفيتش ؟ لقد كان معنا حين غادرنا المكان . كما قطعنا الطريق متجاورين دون ان يفقد اى منا الآخر .

وفى تلك اللحظة شاهد ايفان فيدوروفيتش شبح العجوز ناريجنى يزحف فيما بين الشجيرات على الرغم من تقدمه فى السن ، يتبعه حفيده ذو الثلاثة عشر عاما وبعض المقاتلين الآخرين .

وصاح ايفان فيدوروفيتش يقـول بنبرة لم تخف ما يجيش بكيانه :

– يا لك من صديق صدوق !

والتفت فجاة ليقول بصوت رقيق يسمعه الجميع :
– استعد !
وبدت اشباح الفدائيين الذين انبطحوا ارضا ، وكانما يوجد ما يجمعها بحيوانات الوشق .
وذكر ايفان فيدوروفيتش بصوت خافت :
– كاتيا . . لا تتخلفي عني . انني اذا ما . . . – واشاح بيده ، ليمضي قائلا : اعذريني .
ومالت براسها بعض الشيء لتقول :
– فلتعذرني انت . اذا ما بقيت حيا ، واذا ما حدث لي . . .
وقاطعا قائلا :
– نفس الامر بالنسبة لي . . . فلتذكري لاولادنا ما حدث . لقد كان ذلك كل ما ذكره كل منهما للآخر .
وصاح بروتسينكو بصوت خافت :
– افتح النيران ! الى الامام !
وكان اول من بارح الاخدود منطلقا نحو الامام .
ولم تكن ثمة فرصة لتحديد تعداد من بقي منهم وكم من الزمن تطلبه مشوارهم . وبدا لهم ان الانفاس والقلوب قد فارقتهم ! ليعدو بعضهم في صمت ، بينما واصل البعض الآخر اطلاق النيران من الحركة . وقد التفت ايفان فيدوروفيتش الى الخلف ليقع نظره على كاتيا وناريجني وحفيده مما كان يضاعف من قوته .
وفجاة تعالى من خلفهم وعلى يمين البراري هدير محركات موتوسيكلات حملته رياح الليل بعيدا . كما تعالى الهدير في مكان ما الى الامام مما بدا معه ان ثمة من حاصر المقاتلين من كافة الجهات .
واصدر ايفان فيدوروفيتش اشارته ، لينتشر المقاتلون في كافة الارجاء ، يزحفون كالافاعي في صمت ، تهديهم اضواء القمر الخافتة ، وتساعدهم تضاريس المنطقة . واختفى الجميع الواحد تلو الآخر ليصبحوا على التو اثرا بعد عين .
ولم تمض سوى بضع دقائق حتى بقي ايفان فيدوروفيتش وكاتيا وناريجني وحفيده وحدهم بالبراري تغمرهم اشعة القمر . كانوا قد

وصلوا اراضي المزرعة التعاونية التي امتدت لمسافة عدد من الهكتارات والى ما وراء التل الطويل .
وذكر ايفان فيدوروفيتش مرتميا على الارض :
– انتظر يا كورني تيخونوفيتش . لست قادرا على التقاط انفاسي .
واندفع اليه العجوز يقول له وقد انبعثت انفاسه الدافئة لتغمر وجهه :
– فلتستجمع قواك يا ايفان فيدوروفيتش ! اننا لا نملك حق الراحة ! هناك قرية خلف ذلك التل ، يستطيعون فيها اخفاءنا .
وراحوا جميعا يزحفون في اثر ناريجني الذي كان غالبا ما يلتفت نحو ايفان فيدوروفيتش وكاتيا بوجهه الداكن ذي العينين الثاقبتين واللحية الجعداء السمراء .
وزحف الجميع حتى وصلوا الى اعلى التل حيث انبسطت امامهم القرية ذات المساكن البيضاء والنوافذ السمراء . وقد كانت بداية القرية على مسافة مائتي متر من ذلك المكان الذي بلغوه ، بينما كانت مزرعة البطيخ تمتد حتى الطريق الواقع بمحاذاة اول مساكن القرية . وفي نفس اللحظة التي بلغوا فيها اعلى التل ، اندفعت تنهب نفس ذلك الطريق مجموعة من راكبي الموتوسيكلات الالمان التي انعطفت الى داخل القرية .
كانت نيران الرشاشات تدوي كما في السابق تارة هنا ، واخرى هناك . وكان يبدو احيانا ان ثمة من يرد على هذه النيران بالمثل ، لتدوي تلك الاصوات التي تعالى صداها ليلا في اعماق كيان فيدور فيدوروفيتش الما وحزنا . اما حفيد ناريجني الذي كان لون بشرته ضاربا الى البياض ، لا يربطه بجده ادنى شبه ، يرفع ناظريه الطفوليين في تساؤل وحيرة نحو ايفان فيدوروفيتش الذي كان من الصعب عليه مواجهتهما .
وفي القرية مارت كعوب الرشاشات تدق الابواب واصوات تتعالى بالسباب بالالمانية ، يعقبها صمت يطبق على المكان تقطعه على حين غرة صيحة طفل او عويل امراة يتحول الى بكاء ، ليتعالى ثانية عويلا مشوبا بالتوسل يمزق جدران الصمت . وكان احيانا يتعالى في داخل القرية ، وقريبا منها هدير موتوسيكل وربما بضعة

موتوسيكلات ، تبدو احيانا فصيلا باكمله . وكان القمر قد توسط كبد السماء يرسل اشعته الوضاءة ، بينما كان ايفان فيدوروفيتش وكاتيا التى سحج حذاؤها قدمها مما جعلها تئن من الالم ، وناريجنى وحفيده يرقدون على الارض مبللين ، فيما تسللت البرودة الى اوصالهم ، وليظلوا على هذا الحال حتى اطبق الصمت على القرية والبرارى .

وهمس ناريجنى :

– لقد حان اوان التقدم . سوف نتقدم زحفا الواحد تلو الآخر .

تعالى بالقرية دبيب خطوات الحراس الالمان ، ونادرا ما كانت تومض ولاعة او عود ثقاب ، تارة هنا واخرى هناك . ولبث ايفان فيدوروفيتش وكاتيا مكانهما فى الاعشاب خلف احد المساكن الكائنة فى منتصف القرية . اما ناريجنى وحفيده فقد عبرا السياج الى الداخل ، ليبتلع الصمت بعض الوقت كل اصواتهما .

وتعالت صيحات الديكة ، مما جعل ايفان فيدوروفيتش يضحك سخرية . وهمست كاتيا متسائلة :

– ماذا بك ؟

– لقد ذبح الالمان كل ديوك القرية ، ولم يبق منها سوى اثنين او ثلاثة يتصايحون فى كل انحاء القرية .

وللمرة الاولى يتأمل كل منهما الآخر فى تمعن ، مما جعل الابتسامة ترتسم على انظارهما . وفى تلك اللحظة تعالى همس ينادى من وراء السياج :

– اين انتما ؟ تعاليا الى المنزل .

كانت عجوز فارعة القامة نحيفة تتسم بامارات القوة تعصب راسها بمنديل ابيض ، تتمعن النظر اليهما عبر السياج ، بعينين سمراوين راحتا تومضان تحت اشعة القمر . وقالت :

– فلتنهضا . ليس هنا احد .

ومدت يدها الى كاتيا تعاونها فى عبور السور .

وتساءلت كاتيا بصوت خافت :

– ما اسمك ؟

– مارفا .

وسألها ايفان فيدوروفيتش فيما ترتسم على شفتيه ابتسامة

مشوبة بالسخرية والأسى حين استقر برفقة كاتيا والعجوز وحفيده حول مائدة تضيئها اشعة مصباح زيت :

– كيف حال النظام الجديد ؟

واجابته مارفا فى خجل فيما ترنو الى ايفان فيدوروفيتش بعينيها السوداوين اللتين تتسمان بامارات انوثة برية .

– النظام الجديد . . . لقد جاء المانى من مقر الحاكم العسكرى ، ليفرض علينا تقديم ستة لترات لبن عن كل بقرة يوميا ، وتسع بيضات لقاء كل فرخة شهريا !

كان عمرها يناهز الخمسين ، الا ان كافة ايماءاتها وحركاتها حين كانت تقدم الطعام ، وترفع الاوانى عن المائدة تتسم بما ينم عن شباب ومهارة . وكان المسكن النظيف الذى تزينه المفارش الاوكرانية المطرزة عامرا بالصبية الذين يصغر كل منهم الآخر .

وقد ايقظت مارفا ابنها البالغ من العمر اربعة عشر عاما ، وابنتها ذات الاثنى عشر عاما ليتوليا الحراسة بالشارع الى جوار المنزل . ومضت تقول :

– لقد صدر منذ اسبوعين قرار جديد بتسليم الحيوانات . ولك ان تتصور قريتنا ذات المائة بيت تقريبا ملزمة بتسليم عشرين بقرة . هاكم هو النظام الجديد !

وذكر العجوز ناريجنى :

– لا تبتئسى يا عمة مارفا ! اننا نعرفهم منذ عام ١٩١٨ . انهم سوف يرحلون بسرعة كما حلوا بسرعة !

وانفجر ضاحكا لينفرج ثغره عن اسنان قوية ، وومضت عيناه ذات السمات التركية بوجهه الاسمر الذى لفحته الشمس ، على نحو يتسم بالجسارة والدهاء .

وقد كان من الصعب تصور الجالس الذى يقول ذلك ، هو نفس الشخص الذى كان يواجه الموت وجها لوجه منذ لحظات .

ورمى ايفان فيدوروفيتش كاتيا بنظرة جانبية ، ليجد قسمات وجهها الصارمة قد ذابت فى ابتسامة طيبة . ولاحظ ان هذين العجوزين قد اعادا النضارة والصبا اليه وزوجته بعد تلك الايام الطويلة التى خاضا فيها المعارك ، وبعد ذلك الفرار المريع .

وذكر ايفان فيدوروفيتش وهو يغمز للعجوز بعينه مشيرا

بايماءة من راسه الى المائدة التى غطتها مارفا بالزبد والجبن والبيض المقلى يوحى من مشاعر الكرم الفياض :

– اننى ارى يا عمة مارفا الكثير مما لديك على الرغم من كل ما سلبوه منك !

وعلقت مارفا على ذلك ضاحكة تعلو وجهها حمرة الخجل التى تتسم بها الفتيات ، وبصراحة مشوبة بالخشونة مما جعل ايفان فيدوروفيتش والعجوز يدفنان وجهيهما بين راحاتهما ضاحكين ، بينما ارتسمت الابتسامة على شفتى كاتيا :

– لعلكم لا تعرفون ان المنـــزل الاوكرانى عامر دائمـــا بالماكولات ، وبما لا يمكن سرقته ونهبه ما دامت ربته على قيد الحياة .

ثم اضافت ضاحكة :

– لقد قمت باخفاء كل شىء !

وذكر بروتسينكو وهو يهز راسه :

– يا لك من امراة ذكية . او تعملين حاليا فى المزرعـــة التعاونية ام فضلت الابقاء على الملكية الفردية ؟

واجابت مارفا :

– اننى على ما يبدو فى اجازة من المزرعة التعاونية والى ان يرحل الالمان . اذ انهم يظنون اراضينا المانية ، او كما يقولون تابعة للرايخ ؟ اليس كذلك يقولون يا كورنى تيخونوفيتش ؟

وذكر العجوز ضاحكا فى سخرية :

– فليذهب هذا الرايخ الى الشيطان !

– لقد جرت بالاجتماع تلاوة ورقة ، يبدو ان كاتبها كان يدعى روزينبرج . وقد قال ذلك الروزينبرج ان من يعمل فى خدمة الرايخ سوف يحصل على الارض لاستخدامه الشخصى . كما وكانوا يذهبون بنا لحصاد القمح بالمناجل ليصادروا المحصول ويبعثون به الى المانيا . اما نحن النسوة واللاتى نسين حصاد القمح بالمناجل ، كنا نخرج الى الحقول لنرقد فى ظلال ميدان القمح نستمتع بالنوم .

وتساءل ايفان فيدوروفيتش :

– والعمدة ؟

واجابته مارفا :

– انه من ذوينا !

وعلق بروتسينكو على ذلك وهو يهز راسه :

– يا لك من امراة ذكية . واين زوجك ؟

واجابت فى جدية :

– تسالنى اين زوجى ؟ انه بالجبهة . . زوجى جوردى كورنينكو يقاتل بالجبهة .

وتساءل ايفان فيدوروفيتش فجاة :

– فلتقولى صراحة ... ان لديك عددا كبيرا من الاطفال ، بينما تقومى بايوائنا . الا تخافين على نفسك واولادك ؟

واجابته صراحة وهى تتامله بعينيها السوداوين :

– كلا . . . اننى لا اخافهم ، حتى وان قطعوا راسى . اننى اعلم ثمن تضحياتى . واسالك بدورى . . هل انت على اتصال برجالنا فى الجبهة ؟

واجابها ايفان فيدوروفيتش :

– نعم !

وذكرت بنبرة تنم عن ايمان وثقة :

– اذن فلتقل لهم كى يحاربوا حتى النهاية ، وان لا يضنوا بحياتهم . واقول . . فليضحى ابونا بحياته – لقد قالت «ابونا» وكانما تتحدث باسم اولادها ، فيما تقصد زوجها – له ان يستشهد بالمعركة التى نعرف ما دعاه الى خوضها ، واذا ما عادت السلطة السوفييتية فسوف تكون ابا لاولادى !

وللمرة الثالثة عاد ايفان فيدوروفيتش يقول فى رقة وقد نكس راسه بعض الوقت :

– يا لك من امراة ذكية !

وتركت مارفا العجوز ناريجنى وحفيده لقضاء الليل بالمسكن ، بينما قامت باخفاء الاسلحة ، ودونما خوف . اما ايفان فيدوروفيتش وزوجته كاتيا فقد رافقتهما الى قبو مهجور بارد رطب تغطيـــه الحشائش ، قائلة فى خجل :

– ان المكان رطب بعض الشىء ، ولذا فقد حملت لكما بعض الدريس وبطانيتين .

وليثا مكانهما فوق الدريس يجلسان وحيدين صامتين بعض الوقت ، تلفهما الظلمة الحالكة .

وفجاة احاطت كاتيا بيديها الدافئتين راس ايفان فيدوروفيتش لتسنده الى صدرها ، ولتجتاح كيانه بعض المشاعر الرقيقة . وقال :

– كاتيا ! يجب علينا تدبير كل العمل الفدائى على نحو مغاير .

واضطربت مشاعره ليمضى قائلا وقد تخلص من احضانها :

– على نحو مغاير تماما ! كم تؤلمنى روحي . كم يتمزق فؤادي ازاء اولئك الذين لقوا حتفهم بسبب عدم مقدرتنا على تنظيم العمل ! لعلهم لم يموتوا جميعا ! قد تكون الغالبية قد استطاعت الافلات من الحصار .

كان يقول ذلك على نحو يبحث به عن السلوى والدعم . واستطرد يقول فى حنق دون ان يلحظ تحوله الى اللغة الاوكرانية التى كان يخاطب بها مضيفته ، وعلى الرغم من ان زوجته يكاتيرينا بافلوفنا كانت روسية :

– لا بأس يا كاتيا . . لا بأس ! اننا سوف نجد عوضا عنهم بين افراد الشعب الآلاف من امثال ناريجنى ، ومارفا . . سوف نجد الآلاف ! . . كلا ! ولئن كان هذا الهتلر قد وصم بالحماقة كل الامة الالمانية ، فلا اعتقد انه قادر على خداعى انا ايفان بروتسينكو .

الفصل الثلاثون

تماما على نفس النحو الذى لا تلحظ فيه العين البشرية كيف تنساب المياه الجوفية تحت جذوع الاشجار والاعشاب ، عبر شقوق الارض وممراتها الضيقة ، كانت ملايين الرجال والنساء والاطفال والمسنين من كافة القوميات التى تقطن بلادنا تتحرك من مكان لآخر فى ظل السلطة الالمانية عبر الطرق بالغابات والجبال والبرارى والوهاد واسفل ضفاف الانهار ، وفى شوارع وحوارى المدن والقرى ، وبالاسواق العامرة بالروّاد .

كانوا يسيرون ارتالا لا حصر لها من الفدائيين ورجال العمل السرى وجماعات التخريب ، وافراد الدعاية والاستطلاع فى مؤخرة العدو ، وافراد استطلاع جيش عظيم لشعب عظيم ، طردوا من

اراضيهم ، ليعودوا ثانية اليها ، يبحثون عن مكان لا يعرفهم فيه احد ، يعبرون خطوط الجبهة الى الاراضى السوفييتية الحرة ، ويفلتون من الحصار ، ويهربون من الاسر او معسكرات الاعتقال ، او ارغمتهم الحاجة على الرحيل بحثا عن الماكل والملبس ، يحملون السلاح للتصدى للعدو .

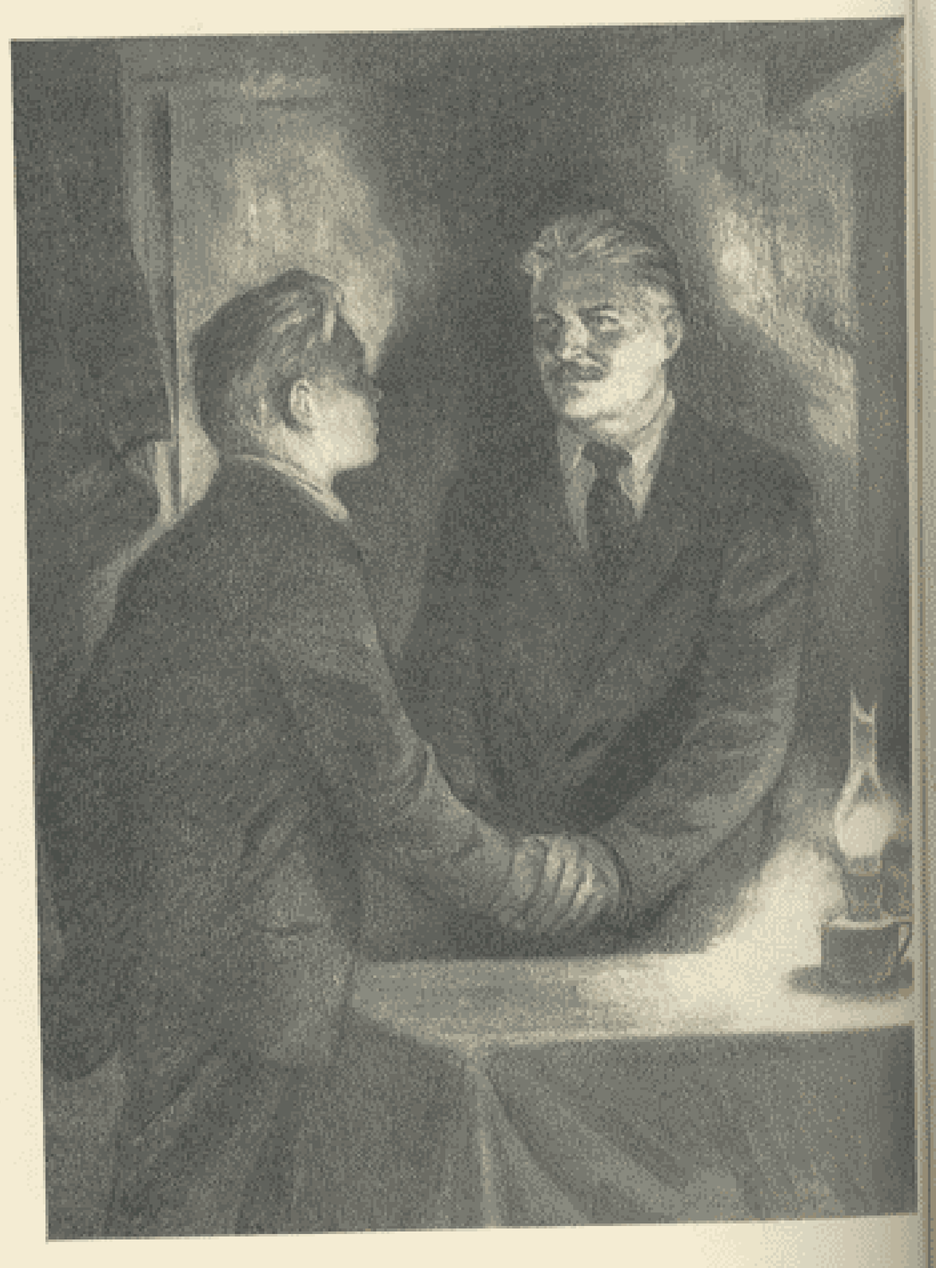
وعبر الطريق الممتد من نهر الدونيتس عبر البرارى وتحت اشعة الشمس الحارقة كان يسير شخص قصير القامة متورد الوجه فى ملابس ريفية بسيطة ، ذو لحية ناعمة داكنة اللون يحمل على ظهره كيسا لقد كان يسير شانه شان الكثيرين ، لا يختلف عنهم فى شيء . فكيف لنا ان نعرف هويته ؟ لقد كان ذا عينين زرقاوين . فهل كان من الممكن تمعن النظر فى اعين الجميع لمعرفة كنه كل منهم ؟ كما وقد تكون عيناه خير تعبير عن الدهاء ، فى نفس الآن الذى تبدوان فيه عينين عاديتين فى انظار صف الضباط بل وحتى الضباط الالمان .

لقد دخل ذلك الرجل قصير القامة ، فى ملابسه الريفيـــة ، ولحيته داكنة اللون مدينة فوروشيلوفجراد ليضيع فى خضـــم زحامها . فما الذى دعاه الى زيارة المدينة ؟ ربما يكون قد جاء الى السوق لتصريف ما يحمله من زبد او جبن او اوزة لقاء مسامير او ملح او قماش ؟ وربما يكون بروتسينكو ذاته ، ذلك الانسان الرهيب القادر على تقويض سلطة الدكتور شولتس مستشار القسم السابع للادارة العسكرية ، تلك السلطة التى غدت فى بشاعتها مضرب الامثال !

وفى البيت الخشبى الكائن فى ضاحية مستعمرة المناجم الصغيرة عند اعلى الوهدة الضيقة داكنة اللون الممتد حتى البرارى ، وبغرفة صغيرة غطت بطانية نافذتها الوحيدة ، وفى ظل اشعة مصباح زيت جلس شخصان . . . رجل متهدل الوجه ، تقدم به السن كثيرا ، وفتى مفعم بالقوة ذو عينين واسعتين واهداب ذهبية .

كان ثمة شيء مشترك يجمع ما بين الفتى وسميره العجوز ، فقد جلس كلاهما انيق الملبس ، بربطة العنق ، فى مثل تلك الساعة المتاخرة من الليل ، وفى مثل هذه الايام العصيبة للاحتلال الالمانى .

وذكر العجوز ، بينما بدا وكانما ليس ضوء مصباح الزيت



الداهن ، بل بصيص اضواء المعارك القديمة ينعكس فى اعماق عينيه :

– فلتعودوا انفسكم ايها الشباب على الفخر باراضينا ... بالدونباس . هل تذكر كيف ناضل رفاقنا القدامى : ارتيم ، وكليم فوروشيلوف وبارخومينكو ؟ هل تذكر ذلك ؟ وهل ستستطيع محادثة رفاقك عن ذلك ؟

وجلس الشاب منكس الراس الى كتفه اليسرى التى علت اليمنى قليلا على نحو ينم عن سذاجة . واجاب يقول فى تأتأة خفيفة :

– اذكر . . استطيع !

ويمضى العجوز فى حديثه قائلا :

– هل تعرف مفاخر اراضى الدونباس ؟ لقد كنا نقوم بواجبنا دائما وبشرف مهما كانت الظروف ، فى سنوات الحرب الاهلية ، وبعدها وفى سنى الخطتين الخمسيتين الاولى والثانية ، واليوم ... وفى غمار هذه الحرب ! عليك ان تذكر كل ذلك للصبية ...

وتوقف العجوز برهة من الزمن ، بينما لبث الصبى ينظر اليه فى احترام وصمت . ومضى العجوز يقول :

– ولتتذكروا دائما ان اليقظة هى ام العمل السرى .

ثم تساءل فى جدية :

– هل شاهدت فيلم «تشابايف» ؟

– نعم ، شاهدته .

– ما سبب استشهاد فاسيلى ايفانوفيتش تشابايف ؟ لقد لقى حتفه لأن النوم غلب حراسه مما جعل الاعداء يصلون اليه . فلتتسلحوا باليقظة ، ليل نهار . كما وعليكم المبالغة فى الحرص . هل تعرف بولينا جيورجيفنا سوكولوفا ؟

– نعم ، اعرفها .

– كيف تعرفت عليها ؟

– كانت تعمل مع امى فى التنظيم النسائى ، علاوة على انهما ما تزالان صديقتين .

– حسنا . يجب عليك اخطار بولينا جيورجيفنا بكل ما يفترض ان يعرفه كلانا . اما حلقة الوصل العادية فسوف يظل اوسموخين شأن اليوم ، حيث يستحيل علينا اللقاء فيما بعد .

وفجأة علت الابتسامة وجه ليوتيكوف وكأنما رغبة منه في الحيلولة دون ان تظهر امارات الغضب او الاسى وربما الاعتراض على وجه الصبي .

غير ان وجه اوليج لم يعكس ايا من هذه المشاعر . فقد بلغت ثقة فيليب بيتروفيتش به حد السماح له بزيارته بمنزله ، وفي مثل هذه الساعة التي يحظر فيها التجول بالمدينة ، مما جعل قلبه مفعما بمشاعر الفخر والوفاء اللامحدود . واضاءت ابتسامة طفولية عريضة وجهه ليقول في مرح بالغ :

— شكرا .

*

استغرق الفتى المجهول وقد اصابت البرودة اوصاله في النوم بمكان منخفض في البرارى ، لتتسلل اشعة الشمس اليه تبعث اليه بدفئها ، وتجعل البخار يتصاعد من ملابسه ؛ كما وجففت آثاره التي تركها على الاعشاب حين خرج من النهر . لا ريب انه كان منهكا بعد ان قطع النهر سباحة ، اذ ادركه النعاس بالبرارى في ملابسه المبتلة .

بيد ان الفتى استيقظ من نعاسه تحت وقع اشعة الشمس ، وطفق يسير وقد تموج على نحو غير متناسق شعره الاصفر الذى بدا جافا جميلا . وقد قضى ليلته الثانية في احدى شقق مستعمرة المناجم ، حيث أواه اصحابها لانه من نفس المنطقـــة ، مـــن كراسنودون ، كان يتلقى تعليمه في فوروشيلوفجراد . وها هو اليوم يعود الى بيته ، يدخل مدينته في وضح النهار . لم يكن يعرف ما حل بوالديه ، وما اذا كان يقيم لديهما المان . ولذا فقد عرج في البداية على رفيق الدراسة فولوديا اوسموخين ، والذى كان يقيم لديه الالمان فيما سبق .

— جينيا ! من اين انت قادم ؟

غير ان رفيق فولوديا تساءل بلهجته الرسمية المشوبة بشيء من التفاخر :

— فلتحدثني باديء ذى بدء عن اخبارك !

لقد كان ذلك الفتى يفجيني ستاخوفيتش ، عضو الكومسومول والذى يمكن الحديث معه بكل صراحة وبطبيعة الحال عن وجهات

النظر والآراء وليس عن شئون التنظيم . وراح فولوديا يتحدث معه عن كل ما يتعلق به شخصيا .

وذكر ستاخوفيتش :

— هكذا الحال . حسنا ؛ فلم اكن اتوقع منك غير ذلك .

وكانت لهجته تتسم بنبرة ابوية ، مما كان يوحى بأن لديه مبررات ذلك . انه تواق للانخراط فى العمل الفدائى السرى شأن فولوديا الذى ذكر له ، دون الافصاح عن السر ، انه ايضا كذلك . لقد قاتل ستاخوفيتش فى صفوف فصيل الفدائيين ، وارسلته قيادة الفصيل رسميا وعلى حد قوله ، لتنظيم هذا العمل فى كراسنودون .

وذكر فولوديا فى احترام :

— ان هذا رائع ! يجب علينا التوجه فورا الى اوليج .

وتساءل ستاخوفيتش بلهجة تتسم بالكبرياء ، حيث نطق فولوديا اسم اوليج باحترام بالغ :

— من يكون ذلك الاوليج ؟

واجاب فولوديا على نحو مبهم :

— انه يا صاح ، فتى واى فتى . . .

كلا . . ان ستاخوفيتش لا يعرف ذلك الفتى ، لكن ولم لا يذهب اليه ما دام فتى جيدا .

طرق خفيفا باب شقة بورتس شخص ذو قوام عسكرى ، فى ملابس مدنية تتسم قسمات وجهه بالجدية .

لم يكن هناك بالبيت سوى الصغيرة ليوسيا . وكانت الام قد قصدت السوق لاستبدال بعض الاشياء لقاء بعض الاطعمة . اما فاليا . . . كلا ، هناك ايضا الاب ، وذلك هو الشىء الرهيب . فلقد دلف على الفور بنظارته الداكنة الى صوان الملابس ، بينما تقدمت ليوسيا نحو الباب وقد توقف وجيب قلبها ، وارتدت قناع الجدية لتتساءل على نحو ينم عن شىء من الاستقلالية :

— من الطارق ؟

واجاب صوت رجولى يتسم بنبرة الخجل :

— هل فاليا موجودة ؟

— كلا ، ليست موجودة .

ولبثت ليوسيا تنتظر ، بينما واصل الطارق حديثه :

— افتحى الباب ، ولا تخافى شيئا . من الذى يرد ؟

— ليوسيا .

— ليوسيا ؟ شقيقة فاليا ؟ افتحى ولا تخافى . . .

وفتحت ليوسيا الباب ، لتجد نفسها ازاء فتى مجهول فارع القامة يتسم بالتواضع ، تصورته رجلا فى مقتبل العمر . وقد كانت عيناه تتسمان بامارات طيبة ، بينما تعلو وجهه سمات الجدية . وعكست الابتسامة عيناه ، بينما راح ينظر اليها مشيرا بيده بالتحية العسكرية ، ومتسائلا فى ادب :

— هل سرعان ما سوف تعود ؟

وتأثرت ليوسيا ازاء هذه اللفتة التى تنم عن احترام ، لتجيبه متأملة اياه من اخمص قدميه حتى قمة راسه :

— لست ادرى .

وبدت خيبة الامل فى عينيه ، ليظل واقفا فى صمت برهة من الزمن ثم اشار بيده بالتحية العسكرية . غير انه ما كاد يستدير منصرفا حتى تساءلت ليوسيا على نحو سريع :

— وماذا يمكن ابلاغها به ؟

وومضت عيناه سخرية ، قائلا :

— فلتبلغيها ان خطيبها قد جاء لزيارتها . . .

وهبط الدرج مسرعا .

وذكرت ليوسيا بنبرة سريعة تعتريها امارات القلق :

— وهل لك ان تنصرف هكذا سريعا ؟ وكيف لها ان تجدك ؟

غير انها كانت تتحدث فى ارتباك بالغ وبعد ان كان الاوان قد فات ، حيث كان قد ابتعد فى طريقـــه نحو المزلقان عبر شارع ديريفيانيا .

يا له من امر . . خطيب لفاليا ! كم اعترت مشاعر القلـــق والحيرة ليوسيا ، التى لم تكن قادرة بطبيعة الحال على ابلاغ والدها بذلك . لقد كان من المستحيل ابلاغ ابيها وامها بذلك . ورددت فيما بين نفسها : «ليس ثمة من يعرفه فى البيت . لكن . . . وربما لم يحن الوقت بعد لزواجهما !»

كانوا يتجولون بالبرارى . . فتاتان وشابان لا يتعدى سنهم

مرحلة الصبا . فما الذى كان يدعو هذين الشابين وهاتين الفتاتين الى التجوال بالبرارى فى مثل ذلك الوقت الرهيب حيث لا يتجول احد على الاطلاق ؟ كانوا يتجولون على مسافة نائية من المدينة ، نهارا ، فى اوقات العمل . بيد ان ذلك كان امرا لم يحظره احد .

كانوا يتجولون ازواجا . . . شاب اجعد الشعر ، حافى القدمين سريع الحركة رشيقها برفقة فتاة برونزية اللون ، عارية الساقين والذراعين يغطيهما الشعر الخفيف ، ذات ضفيرتين ذهبيتين ؛ اما الزوج الآخر . . شاب اشقر الشعر ، قصير القامة ، يغطى النمش وجهه برفقة فتاة هادئة الطباع ، بسيطة الملابس ذات عينين مفعمتين ذكاء تدعى توسيا ماشينكو . وكان الزوجان يبتعدان بعيدا بعيدا كل منهما عن الآخر تارة ، ليلتقيان تارة اخرى . وقد كان هؤلاء يتجولون منذ مطلع الصبح وحتى يدركهم المساء ، يعانون الظمأ واشعة الشمس الحارقة التى زادت من نمش ذلك الفتى الاشقر .

لقد كانوا ياتون فى كل مرة وقد عمرت اياديهم وجيوبهم بالطلقات والقنابل اليدوية ، واحيانا ببندقية المانية ، ومسدس ورشاش روسى . ولم يكن ثمة ما يثير الدهشة فى ذلك ، اذ كانوا يذرعون المنطقة التى شهدت آخر معارك الجيش الاحمر الذى انسحب ، الى جوار محطة فيرخنيدوفانايا . وقد قاموا بايداع هذه الاسلحة حفرة ردموها ، بدلا من تسليمها الى الحاكم العسكرى الالمانى . غير انه ما من احد رآهم .

وذات مرة وجد الفتى سريع الحركة والذى كان يشرف على حركة الآخرين لغما قام بابطال مفعوله بدقة متناهية على مرأى من الفتاة ذات الضفيرتين الذهبيتين .

وقد كانت المنطقة عامرة ولا ريب بالالغام ، ولذا فسوف يعلم الآخرين كيفية ابطال مفعولها ، اذ انها سوف تنفعهم بالتاكيد فيما بعد .

فى المساء عادت الفتاة ذات الضفيرتين الذهبيتين الى منزلها وقد لفحتها الشمس بشدة ، واضناها الارهاق واعترتها مشاعر الاضطراب والقلق . ولم يكن ذلك للمرة الاولى . واستطاعت ليوسيا استدراجها لحظة من الزمن الى الحديقة حيث همست اليها بامر الخطيب فيما ومضت عيناها فى ظلمة المساء .

وتساءلت فاليا غاضبة وقد ارتبكت بعض الشىء :

— اى خطيب ؟ ما هذا الهراء ؟

وراحت تتنازعها فكرة امكانية ان يكون ذلك جاسوسا بعث به الالمان ، واحتمال كونه ممثلا للمنظمة البلشفية للعمل السرى علم بنشاطها وجاء بحثا عنها . الا ان هاتين الفكرتين سرعان ما تلاشتا . وعلى الرغم من ان فاليا كانت مفعمة بذكريات المغامرات الادبية مثل اللغم المحشى بالمتفجرات ، فقد كانت واقعية التفكير شأن كل ابناء جيلها . وراحت تستعرض فى ذاكرتها كل معارفها . وفجأة استضاء وجهها ، حيث تذكرت ربيع العام الماضى حين اقيم الحفل الختامى لحلقة التمثيل بنادى لينين ، وحيث جرى توديع فانيا توركينيتش الذى سافر للالتحاق بكلية سيباستوبول للدفاع الجوى . لقد لعب آنذاك دور الخطيب ، بينما قامت فاليا بدور العروسة . «خطيب» . . نعم لقد كان ذلك حقا !

فانيا توركينيتش ! لقد كان يقوم عادة باداء ادوار المسنين فى مسرحيات الكوميديا . ولم تكن حلقات الهواة تتطلب ما يفرضه مسرح موسكو الفنى على سبيل المثال . ولذا فقد كان فانيا يقول : «ان نمطى يتطلب ان يغرق فى الضحك كل المتفرجين من الصف الاول وحتى الاخير» . وقد كان يحقق هذا الهدف دائما . وكان دائما يهوى تقمص دور البستانى العجوز فى كثير من المسرحيات . لكن فانيا اليوم بالجبهة . فما عساه اليوم يظهر فى كراسنودون ؟ اوليس ملازما بالجيش الاحمر ؟ لقد عرج على كراسنودون فى شتاء العام الماضى فى طريقه الى ستالينجراد ، وحيث جرى ارساله للتدريب على قصف الدبابات بالمدافع المضادة للطائرات .

— دائما تصرين على آرائك يا امى . ان هذا ليس من شانك . كما ولست راغبة فى العشاء .

واندفعت فاليا قاصدة اوليج . فلقـــد ظهر توركينيتش فى كراسنودون .

راحت الفتاة الشقراء الصغيرة تخطو على وجه البسيطة ، تذرع كل مساحات بولندا واوكرانيا ، ذرة رمل فى صحار بشرية لا حد

لها ، الى ان وصلت حي «بيرفومايكا» تدق نافذة احد البيــوت الصغيرة .

«اذا ما شاهدت بين بنتي العم ايفانتسوف فتاة شقراء عليك ان تعلم انهما الشقيقتان ايفانيخينا ...»

لقد عادت الى بيتها ليليا ايفانيخينا التي كانت من المفقودات . وقد ابلغت مايا بيجليفانوفا وساشا بونداريفا بذلك اوليا . لقد عادت ليليا ، تلك الفتاة الطيبة المرحة ، التي كانت تعتبر قلب الجماعة ، ومن فيها الاولى ، التي تركت عائلها ورفيقاتها لتدلف الى عالم النضال الرهيب ، وفقد اثرها ، وووريت الثرى لتبعث من جديد .

الصديقات الثلاث ، ساشا بونداريفا النحيفة ذات التصرفات الصبيانية ، ومايا التي تكسو بشرتها سمرة الغجر مكتنزة الشفة السفلى بارزة على نحو يوحي بالانفة وعزة النفس ، مفعمة بالنشاط دائما ، والتي لم تتخل عن عادتها في الافصاح عن عيوب الآخرين ومحاولة تقويمهم حتى في ظل السلطة الالمانية ، واوليانا ذات الضفيرتين السوداوين المتموجتين اللتين استقرتا على صدرها الذي احتواه رداء ازرق غامق ذو نقاط بيضاء يتسم بالبساطة ، والوحيد الذي سلم من سطوة الجنود الالمان الذين استقروا في بيتها ، رحن يهرولن الى مسكن آل ايفانيخين بوسط المستعمرة السكنية وغير بعيد عن المدرسة .

وقد كان غريبا ان تهرول الفتيات بالمستعمرة التي لم يبق بها الماني واحد ، تجتاحهن مشاعر الحرية ودون ان يلحظن مدى الحيوية التي تملكتهن . وومضت عينا اوليانا السوداوان بابتسامة مرحة اضاءت وجهها على حين غرة ، تجد انعكاسا لها على وجهي صديقتيها وعلى ما يحيط بهن .

وما كدن يقتربن من مبنى المدرسة حتى وقعت اعينهن على صورة كبيرة ملصوقة على احدى ضلفتي باب المدرسة ، وليندفعن جميعا الى المدخل وكأنما وفقا لاتفاق مسبق .

كانت الصورة تمثل اسرة المانية ، حيث يجلس عائلها ، الماني تقدم به السن ، ارتسمت الابتسامة على شفتيه ، وتعلو رأسه قبعة ، يرتدى مريلة العمال وقميصا مخططا وربطة عنق «بيبيونة» ، ويمسك في يده بسيجار ، اما زوجته فكانت شقراء لم يتقدم بها

العمر بعد ، بدينة تعلو الابتسامة شفتيها كذلك ، ترتدى قلنسوة خفيفة وفستانا وردى اللون ، يحيط بها الاطفال من كافة الاعمار ، بدءا من الغلام البدين ذي الوجنتين المنتفختين والذى لم يكن قد اتم سنته الاولى بعد ، وحتى الفتاة الشقراء ذات العينين الزرقاوين .

كانت الاسرة تقف الى جوار باب بيت ريفي ذى سقف عال من القرميد يذرعه الحمام ضخم الحواصل . وقد كانت الابتسامة تعلو وجوه الرجل والمراة وبقية الاطفال الذين مد صغيرهم يده نحو الفتاة التي كانت تتقدم تجاههم تحمل دلوا ناصع البياض ترتدى ثوبا زاهيا ومريلة بيضاء منقوشة ، وقلنسوة شبيهة بقلنسوة ربة البيت ، وتنتعل حذاء انيقا احمر ، بدينة ذات انف افطس ، تكسو الحمرة وجنتيها على غير طبيعي . هذا وقد كانت الابتسامة ترتسم كذلك على شفتيها ، اللتين انفرجتا عن اسنان بيضاء كبيرة . وقد كان يشكل خلفية الصورة جرن وحظيرة ذات سقف عال من القرميد ، استقر فوقه بعض الحمام ، وجزء من السماء الزرقاء ، وبعض مساحة حقول القمح ، وعدد من الابقار الكبيرة المنقطة قريبا من تلــك الحظيرة .

كما وكانت تذيل الصورة عبارة كتبت بالروسية «لقد وجدت هنا الاسرة والبيت» والى اسفل اليمين «كاتيا» .

لقد جمعت ما بين الفتيات الثلاث اوليانا ومايا وساشا وعلى نحو خاص فترة تواجد الالمان بالمدينة . بل وكن حين يقيم الالمان في مسكن احداهن يقضين ليلتهن في مسكن الاخرى اذا ما كان خاليا من الالمان . غير انهن وكأنما وفقا لاتفاق غير معلن ، لم يتحادثن حول اهم واكبر قضايا حياتهن ، اى عن كيفية العيش في ظــل الالمان ، كما لم يبلغ النضج بهن لتفهم مثل تلك الامور . وهكذا ايضا كان حالهن في تلك اللحظة ، حيث رحن يتبادلن النظرات ثم هبطن الدرج في صمت ، يواصلن طريقهن كذلك في صمت ودون ان تنظر كل منهن الى الاخرى ، قاصدين آل ايفانيخين .

وهرعت لاستقبالهن تونيا الشقيقة الصغرى متهللة الوجه ذات الساقين الطويلتين التي يتحير المرء في كونهما لصبية صغيرة ، ام لفتاة في مقتبل العمر ، والانف الضخم وجدائل الشعر داكن اللون . وذكرت وقد انهمرت الدموع من عينيها :

– ايتها الفتيات . . هل سمعتن ؟ كم انا سعيدة !

كان البيت زاخرا بالفتيات . وقد وقع نظر اوليانا فيما بينهن على بنتى العم ايفانتسوف اوليا ونينا اللتين كانتا قد عادتا منذ مدة قريبة الى المدينة ، بعد ان غابتا عنها بضعة اشهر .

لكن ما الذى حدث لليليا ، تلك الفتاة التى كانت تبدو دائما بيضاء نظيفة رقيقة ، شقراء الشعر ، تعكس عيناها امارات المرح والطيبة المتناهية . ما الذى حدث لها حتى تقف هكذا ازاء اوليانا محدودبة الظهر وقد اسدلت يديها الواهنتين الى جانب جسدها الذى اصابه الضمور ، بينما علت وجهها الشاحب سمرة ابعد ما تكون عن الصحة ، ولم يبق من ملامحها سوى انفها الضخم الذى اصابته النحافة ، وامارات الطيبة تكسو عينيها كما كان الحال فى السابق . كلا . . لم تكن تلك امارات الماضى !

اندفعت اوليانا تحتضن فى صمت ليليا تضم وجهها الى صدرها دون ان تتركها طويلا . اما وحين رفعت ليليا وجهها عن صـــدر اوليانا ، بدا خاليا من كل امارات الرقة والتأثر . ولم تكن هناك سوى عينيها اللتين تكسوهما امارات الطيبة تتأملان كل من حولها فى غرابة وكأنما انتزعتها معاناتها بعيدا عن رفيقات الطفولة ، لتغدو غير قادرة على مشاطرتهن مشاعرهن العادية اليومية مهما رحـــن يبدين تجاهها كل ضروب المحبة والمشاعر الفياضة .

واختطفت ساشا بونداريفا ليليا تحتضنها وتدور بها فى ارجاء الغرفة فيما تقول بما تتسم به من قدرة سريعة على الافصاح عن مشاعرها :

– ليليا ! او تكونى انت ليليا ، عزيزتى ، حبيبتى ! كم صرت نحيفة ! لكن لا بأس ، فسوف نتولى تغذيتك . يا لها من سعادة فائقة ان وجدناك ، يا سعادتنا !

وضحكت مايا ، بينما برزت شفتها السفلى المكتنزة فى انفة ، قائلة :

– فلتتركيها يا ساشا !

وامسكت بها تحتضنها غامرة اياها بالقبلات . ثم استطردت تقول :

– فلتحكى لنا عن كل شىء . . هيا !

مضت ليليا التى اقتعدت كرسيا فى وسط الفتيات اللاتى تزاحمن من حولها ، تحكى قصتها بصوت خافت يتسم بالهدوء :

– لقد كان وضعنا عصيبـــا بين الرجال ، غير اننى كنت غاية فى السعادة ازاء كونى متواجدة برفقة الاخوة من مقاتلى الكتيبة . فقد قطعنا طريق الانسحاب سوية ، الا اننا فقدنا الكثير مـــن تعدادنا . هل تعلمن ايتها الفتيات كم من الاسى كان يراودنا حين يستشهد رجالنا . غير انه وحين يتقلص تعداد السرية الى سبعة او ثمانية افراد يعرفهم المرء كلا باسمه ، يصبح كل منهم قريبا ، اشبه بقطعة من القلب . اننى اذكر حين نقلونى جريحة الى احد مستشفيات خاركوف الجيدة فى العام الماضى ، وحين كنت اواصل التفكير فى شئون مقاتلينا بالكتيبة ، وكيف اصبح حالهم بدونى . كنت احرر الرسائل اليهم كل يوم ، ليجيبونى عليها فرادى وجماعة ، مما كان يجعلنى استغرق فى التفكير عن ميعاد خروجى . ثم منحت اجازة ، ارسلونى بعدها الى وحدة اخرى ، مما دعانى الى الالحاح فى طلب الانضمام الى وحدتى السابقة ، وليستجيب القائد لطلبى وساعدنى فى تيسير الوصول الى وحدتى . كمـــا وكنت اسير فى خاركوف مترجلة ، حيث استقللت الترام ذات مرة لينتابنى حزن عميق ازاء اولئك الذين يتدافعون فيما بينهم ، يهين كل منهم الآخر . لقد انتابتنى مشاعر الاسى ازاءهم وليس نتيجة دوافع شخصية . كما وشعرت بالارتباك ازاء كونى من العسكريين ومع ذلك تنهمر الدموع على وجنتى ، رثاء لحال اولئك الناس . لقد كنت اود ان اقول لهم «آه ، لو تعرفون كم من البشر يلقى حتفه كل يوم على الجبهة ، وفى هدوء ، دونما كلمة واحدة ، كيف يحرص كل منهم على الآخر ، وليس على نفسه . اوليس هؤلاء ، هم ازواجكم واباؤكم وابناؤكم ؟ . . انكم ولئن تمعنتم التفكير فى ذلك ، لما كنتم تزاحمتم هكذا ، يهين كل منكم الآخر ، ولرحتم تفسحون الطريق لبعضكم البعض ، تنتقون ارق الكلمات ، يهدىء كل منكم روع من اسىء اليه عن غير قصد ، رابتا على راسه فى رقة . . .»

كانت تقص حكايتها بصوت رتيب هادىء دون ان تنظر الى اى من صديقاتها ، بل تحدق فى الفراغ الكائن بينهن ، بينمـــا رحن يصغين اليها فى هدوء ، دون ان يحولن عنها انظارهن .

– اودعونا معسكرا فى الهواء الطلق . كانت الامطار تتساقط لتحمل البرودة الى اوصالنا . كانوا يطعموننا حساء من النخالـة واحيانا من قشور البطاطس فى حين كان العمل شاقا ، حيث كان علينا تمهيد الطرق ، مما جعل شبابنا يتساقطون الواحد تلو الآخر ، ويوما بعد يوم . اما نحن «النسوة» – نعم لقد قالت ليليا «النسوة» وليس «الفتيات» – فقد كنا اكثر تحملا من الرجال . وقد كان هناك شاب من كتيبتنا ، رقيب يدعى فيديا ، صادقته – وخفت صوتها لتضيف – صادقته عن قرب ، راح يمزح قائلا بشان النسوة «ان النساء يملكن معينا داخليا» . اما هو وحين راحوا يدفعوننا للانتقال الى معسكر آخر ، فقد ادركه التعب مما دفع الحارس المرافق الى اطلاق النار عليه . غير انه لم يلفظ انفاسه الاخيرة على الفور ، بل ظل بعض الوقت حيا ، يقتفى بناظريه اثرى ، بينما لم اكن قادرة على التوقف لمعانقته او تقبيله ، حتى لا اكون عرضة كذلك لنفس المصير» .

وقد ذكرت ليليا قصة نقلهم الى معسكر آخر ، وايداع النسوة فى قسم خاص بهن حيث كانت ثمة حارسة المانية تدعى هرترودا جيبيه ، ذئبة صارت تعذب الفتيات حتى الموت . وتحدثت عن اتفاق النسوة بشان القضاء على هذه الحارسة ، حتى وان فقدن حياتهن لقاء ذلك . لقد استطعن اثناء عودتهن بعد انتهاء العمل ليلا ، خداع الحراس فى الغابة ، ومهاجمة هرترودا جيبيه ، وتغطيتها بمعطف عسكرى ثم خنقها . وراحت بعض النسوة والفتيات يركضن بعيدا ، الا انهن كن مرغمات على التفرق وقطع اراضى بولندا ثم اوكرانيا كل على حدة . وقد سارت ليليا وحدها المئات ثم المئات مـن الكيلومترات ، لياويها ويطعمها البولنديون فى البداية ثم اهالينا فى اوكرانيا .

كانت المتحدثة هى ليليا ، تلك الفتاة العادية من بنـات كراسنودون الشقراء البدينة الطيبة ، شان كل الفتيات اللاتى جاسن يستمعن اليها . وكان من الصعب تخيلها تخنق الحارسة الالمانية ، تقطع اراضى بولندا واوكرانيا التى احتلها الالمان ، سيرا على هاتين القدمين الصغيرتين . وقد راحت كل من سامعاتها تفكر ما اذا كانت

قادرة على تحمل كل ذلك ، وعن سلوكها ان تعرضت لمثل كل تلك المحن .

لقد كانت هى نفس ليليا التى كن يعرفنها فيما سبق ، الا انها كانت فى نفس الآن قد تغيرت كثيرا . ومن غير الممكن للمرء ان يؤكد تحجر قلبها بعد كل ما عانته من اهوال . فلم تشمخ بانفها ولم تتباهى ازاء صديقاتها ، بل على العكس فقد بدت اكثر خبرة ، يجيش صدرها بالمشاعر الفياضة ازاء الآخرين وكانما راحت تقدرهم خير تقدير . وعلى الرغم من كل ما اصابها من ضمور جسدى ومعنوى ان جاز مثل هذا القول ، فقد غمر وجهها النحيف ضياء انسانـى عظيم .

وراحت الفتيات يغمرنها ثانية بقبلاتهن ، تراود كل منهن رغبة فى ان تربت عليها او تلمسها على اقل تقدير . ولم تكن هناك سوى شورا دوبروفينا ، الطالبة واكبرهن سنا ، بدت اكثرهن تحفظا ، حيث راودتها مشاعر الغيرة ازاء تقرب مايا بيجليفانوفا من ليليا .

وصاحت ساشا بونداريفا تقول :

– ماذا حل بكن ايتها الفتيات حتى تكاد كل منكن تذرف الدمع ؟ هيا بنا نغنى !

وراحت تترنم بمطلع اغنية «يلف النعاس التلال السمراء» ، الا ان الفتيات صحن يوقفنها ، خوفا من احتمال تسلل احد رجـال البوليس اليهن ، نظرا لان المستعمرة عامرة اليوم بالناس من مختلف النوعيات . ورحن ينتقين اغنية اوكرانية قديمة . واقترحت تونيا اغنية «المنزل الارضى» قائلة فى نبرة تتسم بالارتباك :

–انها من اغانينا على كل حال ولا اعتقد انُ ثمة من سوف يعترض عليها .

غير ان الفتيات ذكرن ان هذه الاغنية تثير الشجون ، فيما يعشن لحظات ابعد ما تكون عن المرح . وشرعت ساشا التى اشتهرت بين رفيقاتها من حى «بيرفومايكا» بحبها للغناء ، فى ترديد مطلع الاغنية التالية :

جاء يبقى عند الاصيل
يغمز بعينيه ،

تصمت شفتيه ،
ذلك الفتى الجميل ...

وانطلقت الفتيات يكملن تلك الاغنية التى لم تكن تنص على شىء يمكن ان يثير شبهات الآذان البوليسية . غير انها كانت تلك الاغنية التى سمعتها الفتيات كثيرا فى آداء جوقة بياتنيتسكى من اذاعة موسكو ، مما جعلهن من مكانهن بحى «بيرفومايكا» يقطعن الطريق الى العاصمة على نغماتها .

وقد دلفت الى الغرفة وعلى انغام تلك الاغنية كل تلك الحياة التى عاشتها كل منهن ، وترعرعت فى احضانها ، حياة طبيعية مثل حياة الطيور فى الحقول .

واتخذت اوليانا مكانها الى جوار بنتى العم ايفانتسوف ، الا ان اوليا ، الفتاة الكبرى التى استغرقت فى الغناء، صارت تضغط فى قوة وحنان على ذراعها ، بينما شعت عيناها بومضات مشوبة بالزرقة اضفت الملاحة على وجهها ذى القسمات غير المتسقة . اما نينا التى راحت فى تحد تجول بناظريها فيما حولها ، فقد مالت على حين غرة الى اوليانا تهمس اليها قائلة :

– كاشوك يهديك تحياته .

وهمست اوليانا كذلك متسائلة :

– اى كاشوك ؟

واجابت نينا :

– اوليج . انه سوف يكون بالنسبة لنا كاشوك ، اعتبارا من اليوم ودائما .

وشخصت اوليانا بناظريها دون ان تفهم شيئا .

ودبت الحيوية فى الفتيات اللاتى استغرقن فى الغناء ، وعلت الحمرة وجوههن .فكم كن راغبات فى نسيان ، ولو لتلك اللحظة ، كل ما يحيط بهن ... نسيان الالمان والبوليس ، نسيان ضرورة تسجيل اسمائهن فى مكتب العمل ، نسيان الآلام التى تكبدتها ليليا ، نسيان كون امهاتهن يتحرقن قلقا وخوفا على بناتهن اللاتى تأخرن كثيرا عن العودة ! كم كن راغبات فى ان يعود الحال كما كان سابقا ! لقد فرغن من الترنم بالاغنية الاولى ، ليشرعن فى اداء الثانية .

وفجاة صاحت ليليا تقول بصوتها الهادئ النفاذ :

– ايتها الفتيات . انكن لا تتصورن كم تذكرت ايام كنت حبيسة المعسكر ، ايام كنت ليلا اقطع اراضى بولندا حافية القدمين ، اتضور جوعا ، كم تذكرت حينا «بيرفومايكا» ومدرستنا ، كم تذكرتكن ... تذكرت ايام لقاءاتنا وتجوالنا وغنائنا بالبرارى . فما الذى دعاهم الى ذلك ... الى تحطيم وتدمير كل ما داسته الاقدام ؟ ما الذى كان ينقص اولئك الناس فى مثل ذلك العالم ؟

وفجاة تحولت بحديثها لتقول :

– اوليانا فلتلقى بعض الاشعار الجيدة ، كما كنت تفعلين فى السابق ...

وتساءلت اوليانا :

– اية اشعار تريدينها ؟

وراحت الفتيات يتصايحن بعناوين القصائد التى سمعن اوليانا ترددها كثيرا .

وذكرت ليليا :

– فلتلق قصيدة «ديمون» * .

– اى جزء منها ؟

– كما تشائين .

– فلتلقيها كلها .

ونهضت اوليانا من مكانها واسدلت يديها الى جانبيها فى هدوء ، وراحت تردد بصوت هادئ صادر من الاعماق ، وفى غير تردد او ارتباك ، على نحو طبيعى تلقائى شأن اولئك الذين لا يقرضون الشعر ولا يحترفون القاءه من على خشبة المسرح ...

ديمون الحزين . . روح طريدة
تحلق فى اجواء الارض الخاطئة
تذكر افضل ايامه الناصعة
تتزاحم فى المخيلة
تتدافع فى الذاكرة
قوافل رحل
فى فضاء مقفر

* قصة شعرية رومانسية للشاعر الروسى الكبير ميخائيل ليرمونتوف (١٨١٤–١٨٤١) . **المترجم** .

مفعمة بالثقة والايمان
عامرة بالحب والعرفان ...

وكم هو غريب ، ان يتسم بالحيوية البالغة وعلى الفور كل ما رددته الفتيات من اغان ، وكل ما تلته اوليانا من اشعار : وكأنما تنزلق حياتهن التى قدر لهن ان يعشنها اليوم الى عالم المتناقضات بكل ما يتسم به من جمال وبغض النظر عن طابع وتوقيت تجسيد ذلك الجمال . وكانت كل ابيات القصيدة ، كل ما لديمون وما عليه ، تبدو وكأنما تصور مدى الآلام والمعاناة التى يعشنها ، مما جعلها تلمس شغاف قلوبهن .

ماذا تساوى قصة الحرمان
رواية المتاعب والاعمال
لاجيال الماضى والمستقبل
اذا ما قورنت ...
بما اصابنا من آلام ؟

واصلت اوليانا القاء ابيات القصيدة ، بينما راحت الفتيات يتخيلن انه ما من احد على وجه البسيطة يعيش مثل تلك الاهوال التى قدر لهن مواجهتها .

وها هو الملاك يحمل روح الآثمة تمارا على جناحيه الذهبيين ، بينما تلاحقهن روح الجحيم ...

فلتختف يا روح الشك الكئيبة ...

ومضت اوليانا وقد اسدلت يديها بمحاذاة جسدها ، تتلو .

لقد مضت الايام الكئيبة
ومع رداء الارض الثقيل
سقطت عنها قيود الخطيئة
وانتظرناها طويلا
كانت روحها لحظة
مثل حياة الآخرين لحظة
آلام لا تطاق
اهوال لا تقاس

وكان الجزاء لا يحتمل
جزاء الشكوك والاهوال
كانت تعيش الحب والآلام
تذرع رياض الجنة والاحلام ...

وهوت ليليا برأسها الاشقر تدفنه بين يديها وتجهش بالبكاء كما الاطفال . واندفعت الفتيات ليخففن من روعها وقد غلبهن التأثر . وها هو ذلك العالم الرهيب الذى كن يعشنه ، يدلف ثانية الى الغرفة ليسمم روح كل منهن .

الفصل الحادى والثلاثون

منذ ذلك اليوم الذى عاد فيه اناتولى بوبوف واوليانا وفيكتور برفقة والده الى كراسنودون وبعد فشل محاولتهم الهجرة ، ترك اناتولى بيته ليجد مأوى له فى بيت آل بيتروف بنجع بوجوريلى . ولم تكن الادارة الالمانية قد فرضت سيطرتها بعد على النجع مما جعل آل بيتروف يعيشون فى حرية .

ولم يعد اناتولى الى حى «بيرفومايكا» الا بعد رحيل الجنود الالمان .

وقد قامت نينا ايفانتسوفا بابلاغه واوليانا بضرورة المبادرة بتوطيد العلاقات الشخصية باوليج كوشيفوى ، وان كانت تفضل ان تقوم اوليانا بذلك حيث انها تكاد تكون غير معروفة بالمدينة . وقاموا بتحديد الفتيان والفتيات من «بيرفومايكا» الراغبين فى التصدى للالمان والذين يمكن الاعتماد عليهم . ولمحت نينا بان اوليج لا يتصرف بوحى من نفسه وحسب ، واشارت الى بعض نصائحه : الحديث مع كل امرئ على حدة ، عدم الاشارة الى اسماء الآخرين ، عدم الاشارة وبطبيعة الحال الى اوليج ، مع ضرورة التلميح بانهم لا يتصرفون بايحاء ذاتهم .

وانصرفت نينا ، بينما انزلق اناتولى واوليانا الى المنحدر الذى يفضى الى الوهدة التى تفصل ما بين حديقتى عائلتى بوبوف وجروموف ، وحيث اتخذا مكانهما فى ظل شجرة تفاح .

واسدل المساء ستائره على البرارى والحدائق .

وكان الالمان قد امعنوا فى اتلاف حديقة آل بوبوف ، ولا سيما اشجار الكرز التى كسروا فروعها ومع ذلك فقد احتفظت برونقها وجمالها لتبدو كما كانت ايام موضع عناية الاب والابن .

كان مدرس العلوم الطبيعية المغرم بتخصصه قد اهدى اناتولى بعد نجاحه بالصف الثامن كتابا عن الحشرات عنوانه «آفات اشجار الكمثرى» . وكان كتابا بلغ به القدم ، حد ضياع صفحاته الاولى مما لم يكن من الممكن معه معرفة مؤلفه .

وكانت ثمة شجرة كمثرى عند مدخل حديقة آل بوبوف ، اكثر قدما من ذلك الكتاب الذى كان شأنها موضع حب اناتولى .

وكانت اشجار التفاح بحديقة آل بوبوف مفخرة الاسرة . وفى الخريف ، موسم جنى المحصول كان اناتولى يقضى عادة لياليه نائما بممرات الحديقة حتى لا يسرق الصبية ثمارها . اما وفى الايام الممطرة وحين تضطره الظروف الجوية لقضاء ليلته بحجرته كان يلجأ الى نظام الانذار الذى ابتكره على هيئة دوبارة رفيعة يربط بها افرع الاشجار ، متصلة بحبل امتد عبر الحديقة وحتى النافذة ، حيث تعلو سريره مجموعة من علب الصفيح الفارغة تعلن عن نفسها عالية ، اذا ما لمس احد ما احدى اشجار التفاح ، ولينـدفع اناتولى الى الحديقة على التو فى ملابسه الداخلية . وها هما ، اناتولى واوليانا ، يجلسان بتلك الحديقة تعتريهما مشاعر الجدية والتركيز ، والاحساس بانهما تجاوزا اعتاب عالم جديد منذ تلك اللحظة التى شهدت حديثهما مع نينا .

وذكر اناتولى فى ارتباك ازاء كونه قريبا منها :

— لم تسمح لنا الظروف يا اوليانا بالحديث عن مكنون قلبينا ، الا اننى اكن لك مشاعر الاحترام منذ زمن بعيد . واعتقد انه قد حان اوان الافصاح عن مشاعرنا وبكل صراحة . واخال انه ليست ثمة مبالغة فى تقدير دورنا ، او تكبر اذا ما جاز هذا القول ، حين نؤكد اننا ، انا وانت بالذات ، قادران على الاضطلاع بذلك بمهمة لمّ شمل الصبية والفتيات فى حى «بيرفومايكا» . وينبغى علينا ، بادئ ذى بدء ، الاتفاق حول النمط الذى سوف تسير عليه حياتنا مستقبلا . اذ انه وعلى سبيل المثال ، يجرى اليوم تسجيل الاسماء بمكتب العمل . اننى شخصيا لن اقوم بذلك . اننى لا اود

العمل ، ولن اعمل فى خدمة الالمان . — ومضى يقول بصوت مفعم بالقوة ، هادئ النبرة :

— اقسم امامك باننى لن احيد عن هذا الطريق . واذا ما تطلب الامر ، فسوف اقوم بالتخفى ، او بالتحول الى حياة السر ، او الاستشهاد . لكننى لن احيد عن هذا الطريق .

وذكرت اوليانا بصوت خافت :

— هل تذكر يا توليا يدى ذلك العريف الالمانى الذى راح يفتش حقائبنا ؟ . . اننى اراهما دائما امام ناظرى قذرتين سوداوين خشنتين ، قويتين . لقد رايت ثانية حين عدت الى بيتى امثالهما . . كثيرة عبثت بافرشتنا وصناديق ملابسنا ، ومزقت ملابسى وملابس امى واختى لاستخدامها عصبة للرؤوس . انها لم تتورع عن البحث فى تلال الملابس القذرة . لقد كانت تامل فى الوصول الى اعماق ارواحنا . . يا توليا ! لقد قضيت الليالى جالسة فى المطبخ لا يغمض لى جفن . . جلست فى الظلمة انصت الى احاديث الالمان ، والى اوامرهم التى يصدرونها الى امى المريضة يرغمونها على خدمتهم . لقد قضيت اكثر من ليلة على هذا الحال وكأنما اختبر قدراتى . لقد استغرقت فى التفكير حول ما اذا كنت املك ما يكفى من القوة ، املك حق الانخراط فى هذا الطريق . وادركت انه لا خيار امامى . اننى استطيع الحياة على هذا النحو بالذات ، وليس ثمة مفر . اقسم بأمى اننى لن احيد عن هذا الطريق وحتى آخر قطرة فى دمى .

كانت اوليانا تتحدث دون ان ترفع ناظريها السمراوين عن توليا . وقد اعتراهما الاضطراب ، ليلتزما الصمت بعض الوقت .

واذ تملك اناتولى مشاعره ذكر بصوت مبحوح :

— هيا بنا نحدد اسماء من سوف نتحدث معهم بهذا الشأن . ولعل من الافضل ان نبدأ بالفتيات ؟

وراحت اوليانا تعدهن :

— طبعا . . مايا بيجليفانوفا وساشا بونداريفا ، وليليا ايفانيخينا بطبيعة الحال . وسوف تحذو تونيا حذو ليليا . كما واعتقد لينا ساموشينا ونينا جيراسيموفا .

— ونشيطتنا . . المشرفة على الطلائع ، لست اذكر اسمها ؟

— فيريكوفا ؟

واكتسى وجه اوليانا بامارات تنم عن برودة ، ثم مضت تقول :

– فلتسمع ما اقوله لك . كان يحدث احيانا ان نعلن نحن الفتيات آراءنا ، ننتقد فى حدة مختلف الامور فى الاوقات العصيبة . ان ثمة شيئا مقدسا يجب ان يكمن فى اعماق كل امرىء ، يستحيل السخرية منه ، والحديث فى تهكم عنه مثلما لا يمكن ذلك بشأن الام . اما فيريكوفا . . . من ذا الذى يدرى ما يدور فى خلدها ؟ اننى لم اكن لاعيرها ثقة .

وذكر اناتولى :

– فلنتركها جانبا ، على ان نتولى مراقبة سلوكها .

وذكرت اوليانا :

– انه من الافضل اختيار نينا مينايفا .

– تلك الفتاة الشقراء ، الهيابة ؟

– لا تظنها هكذا . . انها ليست هيابة بل خجولة ، شديدة الايمان بافكارها .

– ماذا عن شورا دوبروفينا ؟

وابتسمت اوليانا قائلة :

– يمكننا سؤال مايا عنها .

وتساءل اناتولى فجاة وبنبرة تعكس دهشته :

– لماذا لم تشيرى الى فاليا فيلاتوفا ، اقرب صديقاتك ؟

وجلست اوليانا صامتة بعض الوقت ، دون ان يستطيع اناتولى معرفة كنه المشاعر التى ارتسمت على وجهها . واجابت اوليانا وقد اصابت الرعشة شفتيها ومنخاريها :

– حقا كانت افضل صديقاتى ، وما زالت احبها كسابق عهدى ؛ واعلم احسن من اى شخص آخر مدى طيبة قلبها ، غير انها لا تستطيع سلوك هذا الطريق ، اذ يبدو لى انها غير قادرة سوى على اداء دور الضحية .

ومضت تتساءل وكأنما رغبة منها فى تحويل الحديث :

– ومن يمكن اختياره من الصبية ؟

– يمكن بطبيعة الحال اختيار فيكتور ، وقد تحدثت معه بهذا الشأن . وما دمت قد اشرت وعن حق الى ساشا بونداريفا ، يكون من الواجب الاشارة الى شقيقها فاسيا ؛ وكذلك جينكا شيبيليف

وفولوديا راجوزين . هذا علاوة ، وحسب اعتقادى ، على بوريا جلافان ، هل تعرفينه . . ذلك الفتى المولداف الذى جاء من بيسارابيا .

وهكذا راحا يستعرضان اسماء الصديقات والرفاق . وكان القمر قد اوشك على المغيب ، غير انه كان ما يزال بدرا يلقى باشعته الحمراء فيما وراء الاشجار ، فيما تستقر الظلال كثيفة الى ما جوار الحديقة ينتشر الغموض المشوب بالقلق فى كل ارجاء الطبيعة .

وذكرت اوليانا :

– يا لها من سعادة بالغة ، حيث لا يقطن الالمان مسكننا . اننى لا اطيق رؤيتهم ولا سيما اليوم .

عاشت اوليانا وحيدة منذ عودتها ، فى بناية المطبخ الصغيرة المجاورة للبنايات الملحقة بالمنزل . واذ دلفت الى الداخل ، قامت بايقاد المصباح الصغير الموضوع فوق الفرن ، ثم اقتعدت فراشها بعض الوقت شاخصة بناظريها نحو الامام . لقد كانت تجلس على حدة مع نفسها وحياتها ، تقلب اعماقها فى صراحة متناهية ، لا يبلغها المرء الا فى لحظات الارتياح الروحى العظيم .

وجثت اوليانا الى جوار فراشها لتمد يديها الى حقيبة تناولت منها كراسة قديمة هرئة كانت تعلو ملابسها الداخلية ، لم تكن قد تصفحتها منذ رحلت عن البيت .

وقد كان ما سجلته اوليانا بقلم رصاص على الصفحة الاولى ، ليبدو اليوم واضحا بالكاد اشبه بفقرة مقتبسة ، دليلا على تلك الاسباب التى جعلت اوليانا تقتنى مثل تلك الكراسة ، ومتى فعلت ذلك :

«فى حياة كل امرىء حقبة من الزمن يتوقف عليها مصيره المعنوى ، حين يحدث الانعطاف الحاسم فى تطور اخلاقياته . ويقال ان مثل هذا الانعطاف يحدث حين يبلغ المرء سن الصبا . وذلك امر لا اساس له من الصحة حيث انه يجرى عند الكثيرين فى اوار طفولتهم الوردية . (بوميالوفسكى)» .

لقد اعترتها مشاعر الدهشة المشوبة بالحزن المتمزج بالاسى فى آن واحد حين وجدت نفسها ازاء ما كتبته فى طفولتها ، ويتناسب

مع حالتها المعنوية فى اللحظة الراهنة ، تتصفح كراستها تطالع فقرة من هنا ، واخرى من هناك :

«يجب على المرء الذى يخوض المعركة الاستفادة من كل دقيقة ، والتمتع بقدرة التفكير السريع» .

«ما الذى يمكن ان يكون عائقا دون ارادة الانسان الصلبة ؟ ان فى الارادة تكمن كل الروح . . ان كلمة اريد تعنى القدرة على الكراهية والحب والاسف والفرح والحياة . موجز القول ان الارادة هى القوة الاخلاقية لكل كائن حى ، والطموح الحر نحو خلق او تدمير الاشياء ، والقوة الابداعية التى تستطيع صنع المعجزات من لا شىء !.. (ليرمونتوف)» .

«ان الخجل يعتصرنى . كم اشعر بالخجل من نفسى ، فليس ثمة ما يشين الانسان اكثر من سخريته من ملابس الآخرين ! ولست ادرى متى اكتسبت هذه العادة . وهاكم ما حدث اليوم مع نينا م . — كلا ، اننى لا استطيع الكتابة . . . ان كل ما يرد الى خاطرى يجعل الحمرة تتسلل وجنتى . . اننى اشتعل خجلاً . لقد تصادقت حتى مع ليزا م . ، لاننا رحنا سوية نسخر من ملابس الآخرين ، وعلى الرغم من ان والديها . . لا داعى للكتابة عنهما ، وعلى اى حال فهى فتاة غاية فى السوء . لقد سخرت اليوم وفى غطرسة ، نعم فى غطرسة ، من نينا ، بل وجذبت بلوزتها التى تركت مكانها داخل جونلتها ؛ بينما شرعت تقول ... كلا . . اننى لا استطيع تكرار كلماتها . بيد اننى لم اكن افكر ابدا على هذا النحو السيىء فيما سبق . وقد جاء ذلك نتيجة الرغبة فى ان يكون كل شىء فى هذه الحياة جميلا ، بينما حدث النقيض . اننى لم اكن اظن ان ثمة من يزال يعانى الفاقة ، ونينا م . بالذات . . يا لها من فتاة لا حول لها ولا قوة . . اننىاقسم لك يا نينوتشكا باننى لن افعل ذلك فيما بعد . . ابدا !» .

وفيما بعد وردت تلك الجملة التى كتبت بقلم رصاص ، وعلى ما يبدو فى اليوم التالى :

«وسوف تطلبين منها الصفح . . نعم . . نعم !..»

وبعد صفحتين ورد ما يلى :

«ان الحياة هى اعز ما لدى الانسان . اذ انه يعيشها مرة

واحدة ، وينبغى عليه ان يعيشها على النحو الذى لا يوحى اليه فيما بعد بالندم والآلام لقاء تلك الاعوام التى عاشها عبثا ، وحتى لا يقض الخجل مضاجعه ازاء ماضيه التافه الوضيع . (ن . اوستروفسكى)» .

«كم كومدى هو هذا الرجل م . ن ! ولست اخفى بطبيعة الحال انه يسعدنى فى بعض الاحيان قضاء بعض الوقت معه . كما وانه يجيد الرقص . غير انه يعشق دائما التفاخر باوسمته والاشارة الى رتبته . وذلك بالذات امر لا يعنينى . لقد تحدث بالامس عمّا كنت انتظره منذ زمن بعيد ، وما لم اكن اريده على الاطلاق . لقد سخرت منه ، ولست آسفة على ذلك . اما عما ذكره بشأن انتحاره فذلك امر غير صحيح ويتسم بالنذالة من جانبه . انه بدين جدا ، كان من الواجب عليه التواجد بالجبهة حاملا السلاح . لن اغرم به . ابدا . . ابدا» .

«اننى اذكر الرفيق كوتوفسكى * بوصفه اكثر قوادنا المتواضعين بسالة ، واشد قادتنا البسلاء تواضعا . (ستالين)» .

لبثت اوليانا تجلس منكسة الراس ، تتصفح كراستها المدرسية وحتى ترامى الى مسمعها صوت بوابة الحديقة تنفرج فى هدوء ، ليتعالى دبيب قدمين صغيرتين تهرولان عبر الفناء نحو باب المطبخ . وانفرج الباب عن فاليا فيلاتوفا التى لم تطرقه ، لتهرول سريعة دون ان تلوى على شىء وترتمى على الارض عن قدمى اوليانا تدفن وجهها بين ركبتيها .

ولزمتا الصمت بعض الوقت . وشعرت اوليانا بانفاس فاليا تتعالى ووجيب قلبها يعلن عن نفسه ، لتهمس اليها متساءلة :

— ماذا بك يا فاليتشكا ؟

ورفعت فاليا وجهها ليبدو ثغرها نصف مفتوح ومبلل ، وقالت :

— اوليانا ! انهم سوف يبعثون بى الى المانيا .

وكانت فاليا فيلاتوفا تخشى الالمان الى حد كبير الى جانب تقززها الشديد منهم ، وازاء كل تصرفاتهم بالمدينة . لقد كانت ومنذ اول يوم تنتظر حدثا رهيبا يمكن ان يحل بها او بأمها .

* ج . م . كوتوفسكى بطل الحرب الاهلية وقائد عسكرى فذ . المترجم .

وقد ظلت فاليا بعد ان صدر امر تسجيل اسماء المواطنين بمكتب العمل ، ترفض تنفيذه ، لتعيش فى انتظار القبض عليها ، تراودها مشاعر كونها مجرمة اتخذت طريق النضال ضد السلطة الالمانية .

وقد صادفت صباح اليوم حين كانت فى طريقها الى السوق بعض سكان حى «بيرفومايكا» الذين كانوا قد سجلوا اسماءهم بمكتب العمل ، يتوجهون للعمل فى اصلاح احد المناجم الصغيرة ، التى انتشرت كثيرة فى ذلك الحى .

وآنذاك توجهت فاليا لتسجيل اسمها دون ابلاغ اوليانا حيث خجلت من الاعتراف لها بذلك .

كان مكتب العمل كائنا بمبنى ابيض من طابق واحد فى اعلى التل .

كانت بضع عشرات من المسنين والشباب ، غالبيتهم من النسوة والفتيات ، تتخذ مكانها صفا غير طويل ، امام مدخل المبنى . وقد عرفت فاليا ضمن ذلك الصف ، ومن مكانها بعيدا عن المبنى ، زينائيدا فيريكوفا رفيقتها فى ايام سنى الدراسة فى مدرسة «بيرفومايكا» . لقد عرفتها بقامتها القصيرة وشعرها الذى استقر ناعما فوق راسها ، بينما برزت ضفيرتاها القصيرتان الى الامام ، واقتربت منها لاختصار بعض مسافة ذلك الطابور .

كلا . . انه لم يكن واحدا من تلك الصفوف التى اضطر الناس الى الوقوف بها كثيرا فى ايام الحرب — صفوف الخبز والاغذية وتسلم البطاقات التموينية ، بل وصفوف التجنيد بالجبهة . وقد كان الناس آنذاك ، يتدافعون ويتزاحمون كل يحاول تقدم مكانه ، يعربون عن سخطهم اذا ما استطاع ذلك احد ما مستغلا معارفه او وظيفته . لقد كان ذلك صفا عند مكتب العمل الالمانى ، حيث لم يكن ثمة من يحاول تقدم الآخر . ولذا فقد راحت فيريكوفا تتامل فاليا فى صمت وبعينين مزرورتين تعلنان عن عدم استحسانها ، مفسحة لها مكانا امامها .

كان الصف يتحرك سريعا ، حيث كانوا هناك يستقبلون الزائرين ازواجا . وقد دلفت برفقة فيريكوفا ، فاليا التى كانت تمسك هويتها الشخصية فى يدها المعروقة المضمومة الى صدرها .

وكان باب غرفة التسجيل ينفرج عن مائدة مستطيلة يجلس اليها عريف المانى بدين ، وامراة روسية وردية اللون ذات ذقن طويل على نحو غير طبيعى . وقد عرفت فيريكوفا وفاليا فيها مدرسة اللغة الالمانية التى كانت تعمل بمدارس كراسنودون ، «بيرفومايكا» ضمنا . وكم كان غريبا ان تحمل لقب نيمتشينوفا» * .

والقت الفتاتان عليها بالتحية .

— او هو . . تلميذتاى !

ندت عن نيمتشينوفا ، التى ابتسمت على نحو غير طبيعى ، مسبلة اهدابها الطويلة داكنة اللون .

كانت الآلات الكاتبة تدق بالغرفة ، بينما امتد طابوران غير طويلين الى يسار الباب ويمينه .

وقد سالت نيمتشينوفا فاليا حول سنها ، ووالديها ، وعنوانها لتسجل كافة هذه البيانات فى سجل طويل مفرود امامها . كما وكانت تقوم فى نفس الآن بترجمتها الى العريف الالمانى ، ليتولى بدوره تسجيلها بالالمانية فى سجل آخر .

وبينما كانت نيمتشينوفا توجه اسئلتها ، شاهدت فاليا شخصا يخرج من يمين الغرفة ليحل محله آخر ، لقد كانت امراة فى مقتبل العمر تهدلت تسريحة شعرها ، واصطبغ وجهها بلون احمر غير طبيعى ، تترقرق الدموع فى مآقيها . وتقدمت هذه المراة الى الباب بخطوات سريعة ، بينما تغلق احدى يديها ازرار بلوزتها عند الصدر .

وفى تلك اللحظات ، كانت نيمتشينوفا قد وجهت سؤالا الى فاليا ، لم تنتبه اليه لتتساءل وهى تشيع بنظراتها هذه المراة الشابة ذات الشعر المنكوش .

— ماذا ؟

وسالتها نيمتشينوفا :

— هل انت فى صحة جيدة ؟ او لا تشكين من شىء ؟

واجابت فاليا :

— كلا . . اننى بصحة جيدة .

وفجاة جذبت فيريكوفا بلوزتها من الخلف . والتفتت فاليا

* هنا مشاركة لفظية مع كلمة الالمانية . **المترجم** .

اليها ، الا انها شخصت بناظريها المزرورين اللذين لم يستقرا على شىء .
وذكرت نيمتشينوفا :
– الى المدير !
وتحولت فاليا الى الطابور الايمن على نحو تلقائى والتفتت الى فيريكوفا التى كانت تجيب بصورة آلية على نفس الاسئلة التى وجهت الى صديقتها .
كان يخيم على غرفة المدير هدوء لا يقطعه سوى بعض عبارات مقتضبة بالالمانية . وبينما كانوا يستجوبون فيريكوفا ، غادر الغرفة شاب فى السابعة عشرة من العمر تبدت عليه امارات الحيرة والشحوب ، فيما كان يعيد حال سترته الى ما كانت عليه .
وآنذاك تعالى الى سمع فاليا صوت الصغيرة فيريكوفا تقول :
– انك تعلمين يا اولجا قسطنطينوفنا بمرضى . ولتسمعى ما يعلن عنه صدرى !
وراحت فيريكوفا تتنفس على نحو استعراضى امام نيمتشينوفا والعريف الالمانى البدين ، الذى تراجع الى الوراء بمقعده فيما ينظر اليها بعينيه المستديرتين كعينى الديك . وقد كانت ثمة حشرجة يعلن عنها صدرها فى واقع الامر . ومضت تقول محدقة فى غير خجل تارة فى نيمتشينوفا ، واخرى فى العريف الالمانى :
– اننى فى حاجة الى عناية منزلية ، الا انه اذا ما وجد عمل لى هنا بالمدينة ، فاننى سوف اقوم به وبكل سعادة ، نعم بكل سعادة ! وكل ما ارجوه يا اولجا قسطنطينوفنا ان تجدى لى عملا نظيفا بين اناس مهذبين ! وسوف اعمل فى خدمة النظام الجديد ، وبكل سعادة !
ودلفت فاليا الى غرفة المدير ، يعلو وجيب قلبها ، فيما تفكر «يا الهى . – ماذا تقول تلك المجنونة ؟ !»
وفى الغرفة ، وقفت ازاء المانى بدين ، استقر شعره الاحمر مفروقا لامعا ، يرتدى سترة عسكرية وسروالا قصيرا واصفر من الجلد . وجوربا بنى اللون ، عارى الركبتين يعلوهما شعر شبيه بالصوف . ورمى فاليا بنظرة خاطفة لا معنى لها ، ثم صاح بلغة روسية ركيكة :

– اخلعى ملابسك ! اخلعى !
وجالت فاليا بناظريها فى ذهول . لم يكن بالغرفة سوى كاتب المانى يجلس الى المائدة ، حيث استقرت هويات شخصية قديمة فى كومة كبيرة .
وذكر الكاتب الالمانى بلغة اوكرانية :
– اخلعى ملابسك . هل تسمعين ؟
واعتلت الحمرة فاليا التى غرقت خجلا ، متسائلة :
– كيف ذلك ؟
وذكر الكاتب بلهجة تنم عن سخرية :
– كيف ! كيف ! فلتلقى بملابسك بعيدا !
وذكر الالمانى ذو الركبتين العاريتين اللتين غطاهما الشعر :
– بسرعة !
وفجاة مد يده نحو ثغر فاليا يفتحه باصابعه المغسولة التى غطاها الشعر كذلك ، ويباعد ما بين اسنانها ، ليلقى بنظرة الى داخل فمها ، ثم راح يفك ازرار ردائها .
واذ اجهشت فاليا فى البكاء خوفا ومهانة ، طفقت تخلع ملابسها ، ليعتريها الارتباك عندما بلغت ملابسها الداخلية .
وقد ساعدها الضابط فى ذلك لتبدو عارية تماما الا من حذائها . والقى الالمانى عليها بنظرة سريعة ، ثم تحسس بيديه فى تقزز كتفيها وفخذيها وركبتيها ، ليلتفت الى الجندى قائلا بالالمانية ، وكانما يتحدث عن احد الجنود :
– يصلح !
ومد الكاتب يده ، صائحا دون ان يرفع ناظريه الى فاليا :
– الهوية !
وقدمت فاليا هويتها الشخصية ، بينما راحت تغطى نفسها بثيابها ، باكية .
– العنوان !
وذكرت فاليا عنوانها .
وذكر الكاتب بصوت هادئ كئيب ملقيا بهويتها فوق الهويات الاخرى على المائدة :

– ارتدى ملابسك ! سوف يجرى اخطارك بموعد الامتثال بنقطة التجمع .

ولم تتمالك فاليا نفسها الا عندما خرجت الى الشارع . كانت اشعة شمس منتصف النهار قد استقرت فوق المساكن والطريق المترب والحشائش الجافة . فلم تهطل الامطار لما يزيد عن الشهر ، مما بدا معه كل شيء جافا وكأنما يوشك على الاحتراق . وكان الهواء يتراقص حارا لاسعا . وتوقفت فاليا وسط الطريق ، الذى بلغ ترابه كعبى قدميها . وفجأة هوت جالسة على الارض المتربة صائحة فى الم . وملأ الهواء رداءها لينتفخ مستقرا مستديرا فيما حولها . ودفنت فاليا وجهها بين راحتيها .

وقد ساعدتها فيريكوفا حتى تمالكت روعها ، لتهبطا سوية التل حيث مقر اللجنة التنفيذية للمنطقة تقصدان مسكنهما فى حى «بيرفومايكا» عبر «فوسميدوميكى» والى جوار مبنى الميليشيا . وكانت فاليا تشعر تارة ببرودة الجو ، واخرى بحرارته . وذكرت فيريكوفا :

– يالك من حمقاء ! وهذا هو جزاؤك ، وجزاء امثالك !

ومضت فيريكوفا تقول فى احترام ، بل وبنوع من الاعجاب المبالغ فيه :

– انهم المان ويجب التأقلم وفقا لما تتطلبه الظروف !

وسارت فاليا مطرقة دون ان تعيرها سمعا ، بينما راحت فيريكوفا تقول فى حقد :

– يا لك من حمقاء ! لقد جذبت بلوزتك مما كان يعنى ضرورة التلميح بانك تودين تقديم خدماتك هنا ، وذلك امر يحظى بتقديرهم . كما وكان ينبغى ان تدعى المرض . وهناك بالمستشفى تترأس الطبيبة ناتاليا الكسييفنا لجنة الفحص ، تمنح الجميع الشهادات اللازمة ، حيث ان الالمانى المرافق ممرض لا يفقه شيئا على الاطلاق . انك حمقاء وسوف تظلين هكذا ! لقد وزعونى للخدمة فى مؤسسة اللحوم حيث يصرفون تغذية للعاملين هناك .

وتمثلت اولى تعبيرات اوليانا ازاء ذلك الموقف فى اعلانها عن اسفها وشفقتها . فقد ضمت رأس فاليا الى صدرها وراحت تقبله ،

وشعرها وعينيها فى صمت . ثم تولدت لديها خطط ترمى الى انقاذها ، فتحدثت قائلة :

– يجب عليك الهرب . نعم الهرب !

وذكرت فاليا بنبرة تنم عن ضعف مشوب بالتأفف :

– الى اى مكان . . يا الهى ؟ ! لست املك الآن اية وثائق !

وهمست اوليانا تقول :

– فاليتشكا يا عزيزتى ! اننى اعلم بطبيعة الحال ان الالمان يحيطوننا ، بيد ان هذه الاراضى اراضينا ، وهى مترامية الاطراف ، يقطنها شعبنا الذى نشأنا فى احضانه . ان ثمة حلا سوف نجده بالتأكيد ! اننى سوف اساعدك ، وسوف يفعل نفس الشيء الصبية والفتيات .

– وامى ؟ ماذا تقولين يا اوليانا ؟ ! انهم سوف يسومونها العذاب .

وهنا اجهشت فاليا فى البكاء .

وذكرت اوليانا فيما بين نفسها :

– لا تبكى ايتها الاخت ! او تظنين ان حالها سوف يكون افضل اذا ما بعثوا بك الى المانيا ؟ هل تعتقدين انها سوف تتحمل ذلك ؟

– اوليتشكا . . اوليتشكا ! ما الذى يدعوك الى تعذيبى هكذا ؟

وذكرت اوليانا تعبر عن مشاعرها القاسية الرهيبة :

– مقزز ذلك الذى تتحدثين عنه . . ان ذلك امر مهين يتسم بالدناءة . . اننى احتقرك ! نعم . . احتقر عجزك ودموعك . . . فلتنظرى كم من الكوارث فيما حولك ، وكم من البشر الاصحاء الاقوياء الممتازين يلقون حتفهم بالجبهة وفى معسكرات الاعتقال والسجون . . ولتتمعنى فيما تعانيه زوجاتهم وامهاتهم ، ومع ذلك يواصل الجميع العمل والنضال ! اما انت فتاة فى مقتبل العمر ، ما تزال كافة الطرق مفتوحة امامك ، علاوة على ان ثمة من يعرض عليك العون ، بينما تئنين باكية ، الى جانب انك تودين مواساة الآخرين ، وشفقتهم عليك . اما عن نفسى فاننى لا اشفق عليك . . نعم . . لا اشفق عليك !

وهبت من مكانها واقفة ، وتوجهت نحو الباب تتكئ عليه بيديها اللتين وضعتهما خلف ظهرها لتقف ساهمة بناظريها السوداوين

الغاضبين . وجثت فاليا على ركبتيها فى صمت دافنة وجهها فى فراش اوليانا . وذكرت اوليانا فجأة :

— فاليا ! فاليتشكا ! فلتتذكرى كيف كنا نعيش سوية يا عزيزتى ! يا مهجتى !

وانفجرت فاليا باكية .

— او تذكريننى قد ادليت اليك بنصيحة سيئة ذات مرة ؟ هل تذكرين حادثة البرقوق ، او عندما رحت تصيحين خوفا من عدم امكانية الوصول الى الشاطئ الآخر للنهر سباحة بينما قلت لك اننى سوف اغرقك بنفسى ؟ فاليتشكا . . اننى اتوسل اليك . . .

وذكرت فاليا فيما تجهش بالبكاء :

— كلا . . كلا . . لقد رحلت عنى ! نعم رحلت بقلبك لتنقطع الصلات فيما بيننا . او تظنيننى لم اشعر بذلك ؟ فماذا يحدث اليوم ؟ اننى وحيدة تماما فى هذا العالم . . .

ولم تجبها اوليانا بشىء .

ونهضت فاليا ، لتمسح دموعها دون ان تعير اهتماما اوليانا التى قالت بنبرة هادئة تتسم بالبرود :

— فاليا . . اننى اقول لك للمرة الاخيرة . اما ان تستجيبى لنصيحتى ، ونوقظ اناتولى الآن لمرافقتك الى فيكتور فى نجع بوجوريلى ، واما . . فلا داعى لانهاك قلبى .

— وداعا يا اوليتشكا ! وداعا . . والى الابد !

واذ امسكت فاليا عن ذرف الدمع ، هرولت خارجة من المطبخ الى الفناء الذى غرق فى بحر من ضياء القمر .

وامسكت اوليانا نفسها بالكاد عن اللحاق بها وغمر وجهها البائس الذى بللته الدموع ، بقبلاتها .

واطفات المصباح وفتحت النافذة ، وارتمت فى فراشها دون ان تخلع ملابسها . بيد ان النوم لم يراودها ، لتصيخ السمع الى اصوات تترامى غير واضحة من البرارى والمستعمرة السكنية . وكانت ما تزال تتخيل الالمان وقد وصلوا بالفعل الى فاليا ليقتادوها دون ان تجد المسكينة من يهدئ روعها بكلمة طيبة ، فى ذلك الحين الذى تمددت فيه بفراشها .

وفجاة ترامى الى سمعها دبيب خطوات خفيفة وحفيف اوراق

الاشجار بالحديقة . وتعالى هذا الدبيب قريبا ، ليعلن انه لاقدام كثيرة ، وليس لقدمين وحسب . وكان من الواجب اغلاق النافذة الا ان القادمين كانوا قد وصلوا اسفلها ، وحيث بدت عبرها راس اناتولى البيضاء فى طاقيته الاوزبكية .

وهمس اناتولى متسائلا :

— هل تنامين يا اوليانا ؟

كانت اوليانا قد بلغت مكانها الى جوار النافذة .

وذكر اناتولى :

— كارثة رهيبة . لقد اعتقل ابو فيكتور .

ووقع نظر اوليانا على وجه فيكتور الشاحب الذى تتسم قسماته بالبسالة وعينيه الغارقتين فى الظلال ، فيما راح يتقدم نحو النافذة يغمره ضياء القمر .

— ومتى اعتقلوه ؟

واجاب فيكتور فى حقد :

— لقد جاء مساء اليوم المانى من رجال اس اس يرتدى زيا اسود ، بدين ذو اسنان ذهبية ، نتن الرائحة ، يرافقه جندى روسى يعمل بجهاز الشرطة . وراحوا يكيلون له الضربات ، ثم اقتادوه الى مكتب ادارة الغابة ، حيث كان لورى يغص بالمعتقلين ، الذين جاؤوا بهم الى هنا . وقد رحت اركض وراءهم مسافة عشرين كيلومترا .

ومضى يقول وقد توجه بناظريه الى اناتولى :

— لو لم ترحل اول امس ، لكنت قد اعتقلت كذلك .

الفصل الثانى والثلاثون

طالت كثيرا تلك الفترة التى قضاها ماتفى شولجا بالسجن ، حتى فقد القدرة على حساب الزمن . فقد كانت الظلمة تخيم على زنزانته طوال الوقت تقريبا ، حيث لم يكن الضوء يصلها سوى عبر كوة ضيقة قرب السقف نصف مغطاة ومشدودة بسلك شائك امتد من داخلها الى الخارج .

وقد كان شعور الوحدة يراود ماتفى كوستيفيتش ظنا منه ان الجميع قد نسوه .

كانت هذه المراة او تلك ، سواء كانت والدة او زوجة تستطيع فى بعض الاحيان استمالة الجندى الالمانى من رجال الدرك او احد رجال الشرطة الروس لتسليم ابنها او زوجها المقبوض عليه بعض الطعام او الملابس . غير انه لم يكن يوجد اقارب لكوستيفيتش فى كراسنودون . كما لم يكن ثمة احد من معارفه عدا ليوتيكوف والعجوز كوندراتوفيتش ، يعرف انه قد استبقى فى كراسنودون للعمل السرى ، وانْ يفدوكيم اوستابتشوك المجهول رهين هذه الزنزانة المعتمة هو كوستيفيتش . وقد كان يدرك ان ليوتيكوف قد لا يكون على علم بما حدث له ، كما ولن يستطيع الوصول اليه اذا ما عرف بمكانه . ولذا فلم يكن يؤمّل على عون يقدمه له .

لم يكن على اتصال سوى باولئك الذين كانوا يسومونه العذاب ، اى برجال الشرطة الالمان ، الذين لم يكن يوجد بينهم من يتحدث الروسية سوى اثنين : مترجم المانى تعلو راسه بارز العظام ، طاقية كوبانية ، وسوليكوفسكى رئيس الشرطة الذى كان يرتدى سروالا قوزاقيا واسعا ذا شريطين اصفرين على جانبيه ، ذا قبضتين اشبه بحافرى الجواد ، ومن كان يمكن القول بشانه انه اسوا من رجال الشرطة الالمان ، اذا ما جازت امكانية وجود من هو اسوا منهم .

لم يكن كوستيفيتش منذ اللحظة الاولى التى قبض فيها عليه يخفى شيوعيته وانتماءه الحزبى ، حيث ان اخفاء ذلك لم يكن مجديا ، علاوة ان الصراحة والحقيقة كانتا تدعمان قدرته وقواه فى النضال ضد اولئك الذين كانوا يعذبونه . غير انه لم يذكر سوى انه شخص عادى ، ومع ذلك فمهما كانت درجة غباء معذّبيه ، فقد ادركوا انهم حيال شخص آخر يميزه مظهره وسلوكه . لقد دابوا على تعذيبه حتى يعترف باسماء شركائه . ولذا فلم يكونوا قادرين ، بل وراغبين فى الاجهاز عليه مرة واحدة . وراح المساعد اول شرطة بريوكنر او نائبه بالدر يستجوبانه مرتين يوميا على امل فضح منظمة البلاشفة فى كراسنودون ، وبغية نيل تقدير الجنرال كلير الحاكم العام للمقاطعة .

كانا يستجوبان كوستيفيتش يذيقانه صنوف العذاب حين يفقدهما القدرة على تمالك اعصابهمـــا . غير ان روتينفوهرر فينبونج ، ضابط الصف البدين ، صليع الراس ، ذو الاسنان الذهبية والصوت الأخنث ، والنظارة القرنية كان اكثر من يضربه ويذيقه العذاب تنفيذا لاوامرهما . وكانت تنبعث من ضابط الصف رائحة كريهة جعلت المساعد بالدر والمساعد اول بريوكنر يتحولان بانفيهما بعيدا عنه حين تاتى به الظروف قريبا منهما ، وينظران اليه فى احتقار . وكان ضابط الصف فينبونج يكيل الى كوستيفيتش المكبل والذى امسك به الجنود الى جانب ذلك ، ضرباته ، يسومه صنوف العذاب فى اتقان ولامبالاة . فلقد كانت هذه العملية هى مهنته وتخصصه . اما فى تلك الاحيان التى كان فيها كوستيفيتش حبيس زنزانته غير مقيد ، بعيدا عن قبضة الجنود ، بعيدا عن قبضة فينبونج الذى لم يكن يمسه خوفا منه آنذاك ، صار يبدو ولانه كان فى غير اوقات العمل يقضى راحته فى غرفة خصصت له ولجنوده بفناء السجن .

غير ان ماتفى كوستيفيتش لم يغير من سلوكه شيئا على الاطلاق ومهما كانت الوان العذاب التى تعرض لها ، وطالت فترتها . فقد ظل مستقلا جموحا عنيدا ، انهك الجميع واثار لهم العديد من المشاكل .

ففى ذلك الحين الذى كانت تجرى فيه حياته الجسدية على نمط لا يوحى بالامل ، يغص بالآلام ، كانت حياته الروحية تنمو وتتطور على نحو جارف . وشأن كل العظام الشرفاء فى مواجهة الموت ، تمثلت حياته امام مخيلته بكل الوضوح والشفافية صريحة مفعمة بقوة الحقيقة .

لقد كان يدفع عن نفسه بعيدا واستنادا الى قوة ارادته الافكار التى تراوده بشأن زوجته واولاده حتى لا تتسلل مشاعر الضعف اليه . غير انه راح يفكر فى حب وحرارة حول اولئك الذين يعيشون قريبا منه ، هنا فى المدينة ، اصدقاء شبابه من امثال ليزا ريبالوفا وكوندراتوفيتش ، لتجتاحه مشاعر الاسى ازاء احتمال عدم معرفتهما بنبا موته الذى يمكن ان يجعله بريئا فى انظارهما . نعم . . لقد ادرك السبب الذى جاء به الى هذه الزنزانة ، لتضنيه آلام العذاب

لكونه غير قادر ليس فقط على اصلاح خطاه ، بل وشرح ظروفه للآخرين حتى يهدأ روعه ، ويتخذ الآخرون العبرات من ذلك الخطأ .

وذات يوم وحين خلد كوستيفيتش للراحــة بعد استجواب الصباح ، ترامت الى اسماعه اصوات الى جوار باب زنزانته الذى صرّ منفرجا عن شخص يحمل على ذراعه شارة الشرطة يتدلى من حزامه مسدس ثقيل مربوط بشريط اصفر . لقد دلف الى الداخل ليتوقف عند باب الزنزانة مناوب الردهة الجندى الالمانى من رجال الدرك ذو الشارب الكث .

وقد استطاع كوستيفيتش الذى تعودت عيناه على ظلمــة الزنزانة ، تفحص الشرطى الزائر على الفور . كان ما يزال فى مقتبل العمر ، أشبه بالصبية ، أسمر البشرة ، يرتدى زيا أسود ، غير قادر على النظر طويلا الى كوستيفيتش ، تعتريه مشاعر الحيرة والاضطراب ، يحاول التماسك والظهور بشكل لائق ، يجول فى ارتباك بناظريه الوحشيين ، يتمايل كمن ثبت الى مفصلات .

وذكر جندى الدرك كث الشارب وهو يقهقه عاليا وقبل ان يصفق الباب خلف الشرطى صغير السن :

— وها انت فى قفص الوحش ! وسوف نغلق الباب الآن لنرى ماذا سوف يكون حالك .

وسارع الشرطى بالميل نحو كوستيفيتش الذى افترش الارض متكئا على مرفقيه ، ليهمس اليه موجها اليه نظرة ثاقبة تتسم بالخوف :

— ان اصدقاءك يقظون . فلتنتظر الاسبوع القادم ليلا ، وسوف انذرك مسبقا .

وفى نفس اللحظة انتصب الشرطى واقفا ، وقد ارتدى قناع الوقاحة ، يقول بصوت متردد :

— اننى لن اخافك . لقد تصديت لمن هو اشد ، ايها الالمانى الملعون !

وفتح الجندى الالمانى الباب ضاحكا بصوت عال وصاح بكلمات توحى بالمرح .

وذكر الشرطى الشاب وهو يتمايل بجسده النحيف ازاء شولجا :

26—2340

— هيه . . أوبلغت المراد ؟ من حسن حظك اننى شخص شريف ولا اعرفك .

وصاح فجأة :

— هيه ، يا انت !

ولوّح بيده النحيفة ، ودفع كوستيفيتش خفيفا فى كتفه التى قبض عليها لحظة من الزمن ، ليجعل كوستيفيتش يشعر فى هذه القبضة الضعيفة بشىء ينم عن ود .

وخرج الشرطى من الزنزانة ، ليصفق الباب ويصر المفتاح فى قفله .

قد يكون ذلك بطبيعة الحال امرا من قبل الاستفزاز . بيد انه ما من سبب يدعو الى ذلــك ما دام قد وقــع فى قبضتهم واصبح فى امكانهم قتله فى اية لحظة . لعل ذلك يكون من قبيل التجربة لكسب ثقته حتى يفصح له كوستيفيتش عن مكنونه فى حضرة ذلك الشرطى كما لو كان فى حضرة ذويه . لكن هل من المعقول ان يظنونه ساذجا الى هذه الدرجة ؟

وبزغ وميض الأمل فى قلب كوستيفيتش ، وتحركت الدماء دفقات تجتاح جسده القوى الذى اضنته الآلام .

اويعنى هذا ان فيليب بيتروفيتش ما يزال حيا يعمل ؟ هل يعنى ذلك انهم يذكرونه هناك ؟ حقا . . كم كان من الخطأ ان يفكر على نحو متباين !

وتمازجت فى صدره مشاعر العرفان ازاء اصدقائه الذين عنوا بامره ، والأمل فى نجاة اسرته الذى انتعش من جديد ، وفرحة الخلاص المحتمل من آلامه وافكاره التى لا تطاق ، دفقة هائلة تجتاح روحه تناديه للنضال والتمسك بالحياة . وشعر هو الرجــل المسن الكبير بدموع الفرح تجيش فى صدره حين تخيل نفسه وقد كتبت له الحياة بما يجعله قادرا على الوفاء بواجبه .

وقد تناهت الى اسماعه وعبر الجدران والابواب الخشبية دلائل حياة السجن . . كيف كانوا يجيئون ويروحون بالمعتقلين ، كيف كانوا يعذبونهم ويردونهم قتلى فيما وراء الجدران بالفناء . وذات ليلة استيقظ على وقع ضجة واصوات ودبيب اقدام فى الزنزانات والردهات ، وصيحات رجال الشرطة بالالمانية والروسية ، وقرقعة

اسلحة ونحيب النسوة والاطفال . لقد راوده انطباع حول انه يجرى ترحيل المعتقلين الى خارج السجن . كما وترامى عاليا هدير محركات بعض عربات اللورى التى راحت تبارح المكان الواحدة تلو الاخرى .

وقد كان ذلك حقيقة واقعة ، اذ انه حين اقتيد للاستجواب الصباحى شعر بان السجن غدا مقفرا .

كانت هذه هى المرة الاولى التى لم يزعجه فيها احد ليلا . وقد سمع هدير محرك سيارة لورى تقترب من السجن ، بينما تعالت اصوات رجال الدرك والشرطة بالسباب المكتوم ، يسارعون فى توزيع المعتقلين على الزنزانات فى صمت ، يجرجرون اقدامهم فى الردهات ، على نحو يبدون معه وكانما يخجل كل منهم من الآخر . وقد ظلوا يستقبلون المعتقلين طوال الليل .

كان الوقت ليلا حين ايقظوا كوستيفيتش ، يقتادونه للاستجواب دون ان يقيدوا يديه . وادرك انهم لن يكيلون له العذاب . وبالفعل ، فلم يقتادوه الى الزنزانة المخصصة للتعذيب بل الى مكتب المساعد بريوكنر حيث شاهده يجلس فى سرواله الذى شد الى كتفيه بحمالة (كانت سترته الرسمية معلقة على الكرسى بالغرفة التى كانت تسودها الحرارة الخانقة) ، وكذلك بالدر فى زيّه الرسمى الكامل والمترجم شوركا ريباند وثلاثة جنود المان يرتدون ستراتهم رمادية اللون .

وتعالى فيما وراء الباب دبيب خطوات ثقيلة ، ليدلف الى المكتب وقد حنى قامته حتى لا يصطدم باعلى الباب ، سوليكوفسكى رئيس الشرطة فى قبعة قوزاقية قديمة ثم شاهد كوستيفيتش ، يدخل فى اثره ضابط الصف فيتبونج الذى كان يكيل له اقسى صنوف العذاب ، برفقة جنود اس اس ، يمسكون برجل مسن فارع القوام ذى وجه بدين قوى ، قيدت يداه خلف ظهره ، حافى القدمين تمزقت ملابسه ليبدو نصف عار . وقد عرف ماتفى كوستيفيتش فيه مواطنه الذى شارك فى النضال الفدائى عام ١٩١٨ . لقد كان بيتروف الذى لم يره طيلة خمسة عشر عاما . وكان واضحا ان الرجل لم يسر حافى القدمين منذ مدة بعيدة ، اصابت الجروح قدميه حتى غدا عاجزا عن السير . ولم تكن قسمات وجهه تحمل كثيرا من التغيرات فى اتجاه الكبر منذ تلك اللحظة التى شاهده فيهـا كوستيفيتش للمرة

الاخيرة ، حيث بدا بدينا علته الكدمات ، وكل ما هنالك ان السمنة تسللت الى كتفيه وخصره . كما وكان يقف متجهم الوجه وان كان على نحو ينم عن كبرياء .

وساله المساعد بريوكنر :

— هل تعرفه ؟

وترجم شوركا ريباند السؤال الى كوستيفيتش .

وتظاهر كل من بيتروف وكوستيفيتش بانهما لا يعرفان بعضهما البعض ، حيث يلتقيان هنا للمرة الاولى . وظلا على هذا الموقف طوال فترة الاستجواب .

وصاح المساعد بريوكنر فى بيتروف الواقف امامه حافى القدمين متجهم الوجه :

— يا لك من كاذب . . كاذب ، وفار عجوز !

وراح يدق الارض بحذائه العسكرى النظيف بقوة جعلت بطنه المتهدل يترجرج مكانه .

ثم شرع سوليكوفسكى يوجه لكماته القوية الى بيتروف حتى طرحه ارضا . وراودت شولجا رغبة التصدى لسوليكوفسكى ، غير ان صوتا داخليا الهمه بان ذلك يمكن ان يكون فى غير صالـح بيتروف . كما وشعر علاوة على ذلك بانه قد آن الاوان الذى يكون فيه من الافضل البقاء طليق اليدين . وصار ينظر فى صمت اليهم وهم يوسعون بيتروف ضربا فيما يتمالك نفسه ويرتعش منخاراه .

واقتادوا كليهما فيما بعد الى الخارج .

وعلى الرغم من ان كوستيفيتش لم يتعرض للضرب فى هذه المرة الا ان الذهول اصابه ازاء ذلك المشهد الذى جرى امام ناظريه اثناء هذا الاستجواب الثانى فى ذات اليوم ، لدرجة ان جسده الضخم غدا عاجزا عن تحمل كل ذلك . ولم يذكر كوستيفيتش ، كيف اقتيد الى زنزانته ، حيث سقط فاقد الوعى لم يعده اليه سوى صرير المفتاح فى بابها . لقد تعالى الى سمعه صخب عند الباب ، الا انه لم يكن قادرا على الاستيقاظ ثم خيّل اليه الباب وقد فتح ليدفعوا عبره الى داخل الزنزانة شخصا ما . وضغط كوستيفيتش على نفسه ، وفتح عينيه ليجد نفسه امام شخص

اسمر الحاجبين كثهما ، ذى لحية سوداء كما الفجر مال اليه فى محاولة لتأمله .

وكان القادم شخصا ترك عالم الضوء ليدلف الى الزنزانة المعتمة ، وليبدو عاجزا عن تامل وجه كوستيفيتش ، حيث لم يكن قد تعود بعد على النظر فى عتمة الظلام ، واما لأن كوستيفيتش قد غدا ابعد ما يكون عن منظره الاصلى . بيد ان كوستيفيتش عرف فيه على الفور مواطنه ، واحد الذين خاضوا حرب الفدائيين الاولى . انه فالكو مدير المنجم رقم ١ . وهمس كوستيفيتش :

– اندريه ...

– ماتفى ؟ يا له من قدر . . قدر !

واندفع فالكو يحتضن كتفى كوستيفيتش الذى نهض من مكانه بعض الشىء .

– لقد رحنا نبذل جهدنا لاطلاق سراحك ، بينما تاتى بى الاقدار اليك فى مكانك هذا . دعنى اتاملك .

ومضى فالكو يقول بصوت حاد مبحوح :

– ماذا فعلوا بك !

وترك فالكو رفيقه ، ليروح يذرع الزنزانة . وقد بدا وكانما استيقظت فيه طبيعته الغجرية المتوقدة ، فيما ظهرت الزنزانة ضيقة لدرجة بدا معها اشبه فعلا بالنمر المحبوس فى قفصه .

وذكر كوستيفيتش فى هدوء ، ليجلس وقد احاط ركبتيه بيديه :

– يبدو انهم قد نالوا منك كذلك !

كانت ملابس فالكو غارقة فى الاتربة ، وكم سترته نصف ممزق ، فيما تمزق سرواله عند احدى ركبتيه ، وتفللت خيوطه عند الركبة الاخرى ، وسحجت جبهته . ومع كل ذلك فقد كان فالكو ينتعل حذاء .

وذكر كوستيفيتش بارتياح وقد تخيل ما جرى :

– يبدو انك خضت عراكا ! يالك من رائع ! على اى حال هون عليك ، فليس ثمة ما يدعو الى التاثر كثيرا . فلتجلس لتقص على اخبار الخارج .

واقتعد فالكو الارض قبالة كوستيفيتش متربعا ساقيه ولمس الارض ، مصعرا خده ، ليتحدث عن نفسه فى سخرية :

– يبدو اننى كنت مسئولا كبيرا ، لم اتعود على ذلك . ماذا يمكننى ان اقوله ؟ ان احوالنا على ما يرام . اما عن نفسى ...

وفجأة علت وجه ذلك الشخص الخشن امارات آلام فظيعة ، جعلت القشعريرة تصيب ظهر كوستيفيتش . واشاح فالكو بيده ، ودفن وجهه فيما بين راحتيه .

الفصل الثالث والثلاثون

استطاع فالكو منذ تلك اللحظة التى تيسر له فيها توطيد الاتصالات بفيليب بيتروفيتش ، تجميع كل الخيوط السرية لعمليات التخريب فى المنطقة بوصفه رجلا يعرف جيد المعرفة كافة مناجم مؤسسة «فحم كراسنودون» .

لقد تيسرت لفالكو دائما معرفة كل المبادرات الاقتصادية للادارة عن طريق باراكوف الذى اتاحت له ذلك صلته القريبة منها ، وبالملازم شفيديه بالذات ، ولاسيما بمساعده فيلدنير الذى كان على النقيض من رئيسه الصموت ثرثارا كبيرا .

ولقد كان يصعب على الغريب ، بل واكثر الغرباء دقة فى الملاحظة معرفة الصلة بين لقاء دورى يجرى بين باراكوف وفيلدنير ، وظهور فتاة فى شوارع كراسنودون متواضعة تتسم بالهدوء ، ذات وجه برونزى غير متسق القسمات لفحته اشعة الشمس تدعى اوليا ايفانتسوفا . لقد كانت هذه الفتاة المتواضعة تعرج الى احد البيوت لبيع بعض ثمار الطماطم ، بينما تدلف الى بيت آخر لمجرد زيارة اصحابه ، فيما وبعد برهة قليلة وعلى نحو يتسم بالغرابة تهوى كل مبادرات الادارة الالمانية .

لقد كانت اوليا ايفانتسوفا تعمل بصفة مراسلة خاصة بفالكو .

بيد ان باراكوف لم يكن يعلم من فيلدنير مجرد اخبار الشئون الاقتصادية . فقد كان رجال الدرك المحلى يقضون الليل والنهار حول مائدة الشراب بمنزل الملازم شفيديه . وكان كل ما يثرثرون

به فيما بينهم عن غير قصد ، ينقله فيلدنير كذلك فى اطار ثرثرته وعن غير قصد .

وكم من الليالى سهرها فيليب بيتروفيتش يقلب الامور بحثا عن وسيلة لتخليص ماتفى كوستيفيتش وكل المعتقلين بسجن كراسنودون . غير انه ظل وقتا طويلا عاجزا حتى عن ايجاد وسيلة اتصال بذلك السجن .

ولم يستطع ايجاد هذه الوسيلة سوى ايفان توركينيتش .

وقد انحدر توركينيتش من احدى عائلات كراسنودون التى تتمتع بسمعة طيبة ويعرفها ليوتيكوف . وكان رب هذه العائلة فاسيلى اجناتيفيتش عامل مناجم قديم خرج الى التقاعد بسبب عجز اصابه ، اما زوجته فيونا ايفانوفنا فقد كانت اوكرانية من محافظة فورونيج تروّست ، وانتقلا سويا الى الدونباس فى الايام العجاف من عام ١٩٢١ . وقد كان فانيا آنذاك طفلا رضيعا حملته امه طوال الطريق ، اما شقيقته الكبرى فقد قطعته سيرا على قدميها ممسكة بذيل رداء امها .

لقد كانت الاسرة تعيش فقرا مدقعا لدرجة ان احد اعضاء الجمعية التعاونية ،—رجل مسن وزوجته عاقران ، راحا يقنعان فيونا ايفانوفنا حين استضافاهم فى ميلليريفو ترك الطفل الصغير لهما كى يتوليا تربيته . وقد اصاب التردد الوالدين ، الا انهما وبعد نقاش وجدل وخصام ودموع رفضا تسليم ابنهما الحبيب .

وهكذا راحت الاسرة تسير حتى بلغت منجم سوروكين حيث حطت رحالها . وكان فاسيلى اجناتيفيتش وفيونا ايفانوفنا يهويان ترديد قصة محاولة عضو الجمعية التعاونية تبنى ابنهما فى ميلليريفو ، ورفضهما لها على مسمع ضيوفهما ، وبعد ان كان ايفان قد شب وتخرج من مدرسته الثانوية والتحق بحلقة التمثيل .

واثناء فترة اختراق الالمان لخطوط الجبهة الجنوبية ، تلقى الملازم توركينيتش قائد البطارية المضادة للدبابات امرا بالصمود حتى الموت وراح يصد هجمات الدبابات الالمانية فى منطقة كالاتش على نهر الدون حتى توقفت مدافعه وسقط جريحا . وقد جرى اسره مع فلول السرايا والبطاريات . ولما كان عاجزا عن الحركة فقد اطلق عليه ملازم المانى الرصاص ، ليبقى مكانه . غير انه لم

يكن قد لفظ انفاسه الاخيرة ، لتلتقطه ارملة قوزاقية تولت علاجه . ولم ينقض سوى اسبوعين حتى ظهر فى منزله ، تغطيه الضمادات طولا وعرضا تحت سترته .

وقد تولى ايفان توركينيتش ايجاد الصلة مع سجن المدينة عبر زميلى الدراسة القديمين منذ ايام مدرسة جوركى : اناتولى كوفاليوف وفاسيا بيروجوك .

كم كان من الصعب ان يجد الانسان صديقين متباينى الشكل والطباع الى هذا الحد !

لقد كان كوفاليوف فتى ذا قوة خارقة ربع القامة بطئ الحركة طيبا لدرجة السذاجة . كان يود منذ طفولته ان يصبح من الرباعين المشاهير على الرغم من ان الفتاة التى كان يتودد اليها كانت تسخر منه مؤكدة ان لاعبى الشطرنج يعتلون اسمى درجات عالم الرياضة ، بينما يعتلى الرباعون ادنى درجاته ، وليس هناك من يدنو عنهم سوى خلايا الاميبا . لقد كان يعيش نمطا من الحياة غاية فى الاعتدال . فلم يكن يهوى الشراب والتدخين ، كان يسير عارى الراس دون معطف فى صقيع الشتاء ، يستحم كل صباح فى حوض المياه المحفور بين الجليد ، يتدرب يوميا على رفع الاثقال .

اما فاسيا بيروجوك فقد كان نحيفا سريع الحركة ، متوقد الطباع ذا عينين سوداوين ، موضع اعجاب الفتيات ، يعشقهن فى نفس الآن ، محبا للعراك . ولم يكن يهوى من انواع الرياضة الا الملاكمة . وبوجه عام فقد كان من هواة المغامرة .

وقد بعث توركينيتش بشقيقته الصغرى المتزوجة الى بيروجوك لاحضار بعض الاسطوانات ، لتعود بالاسطوانات وفاسيا فى آن واحد . اما فاسيا فقد وصل برفقة كوفاليوف بحكم الصداقة .

وكم كانت درجة سخط كافة سكان كراسنودون ، ولاسيما الشباب منهم الذين يعرفون شخصيا كوفاليوف وبيروجوك حين شاهدوهما يحملان علامة الصليب المعقوف على كميهما ، بعد ان انخرطا فى عداد رجال الشرطة الذين يتدربون على مهام وظيفتهم الجديدة فى الارض القفرة المجاورة للحديقة العامة وتحت اشراف رقيب ذى علامات كتف زرقاء .

لقد كانا يتخصصان فى المحافظة على النظام بالمدينة . كانا

يتوليان القيام بالمناوبة فى ادارة المدينة ، ادارة المناجم والادارة الزراعية للمنطقة ، وفى مكتب العمل ، والسوق ، وكذلك الدوريات الليلية . وكانت شارة الشرطى دليلا على اخلاصهما اثناء تعاملهما مع الجنود الالمان فى ادارة الدرك . ولذا فقد استطاع فاسيا بيروجوك معرفة مكان شولجا ، بل والتسلل الى زنزانته للتلميح له بان الاصدقاء يسعون من اجل تخليصه .

تخليصه ! لقد كانت الرشوة والدهاء غير كافيين لذلك . فلم يكن اطلاق سراح ماتفى كوستيفيتش والاخرين امرا ممكنـــا الا بمهاجمة السجن .

وقد كانت هذه العملية فى مقدور منظمة العمل السرى بالمنطقة . وفى ذلك الحين كانت المنظمة قد ضمت الى صفوفها ضباط الجيش الاحمر من اولئك الجرحى الذين كانوا بمستشفى كراستودون ، وانقذتهم جهود سيريوجكا تيولينين وشقيقته نادية والممرضة لوشا .

وقد اسفر ظهور توركينيتش عن ان مجموعة الشباب التى شكلها فيليب بيتروفيتش ، لدى لجنة الحزب السرية بالمنطقة صار لها قائد عسكرى ، وعسكرى بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى .

وقد كانوا يودون تشكيل التنظيم الشبابى على غرار لجنة العمل السرى للمنطقة ، بما يعنى تحولها اثناء العمليات العسكرية الى هيئة قيادة ، اما المشرفان على لجنة المنطقة باراكوف وليوتيكوف فيتوليان اعمال قائد وقوميسار الفصيل .

وقد كان باراكوف وليوتيكوف يشرفان خلال تلك الايام من شهر اغسطس على اعداد المتطوعين الذين سوف يقومون بالهجوم على السجن . وقام ايفان توركينيتش واوليج بتفويض منهما باختيار مجموعة الشباب التى سوف تشترك فى هذه العملية . وقد اتخذ فانيا واوليج اعوانا لهما زيمنوخوف وسيريوجكا تيولينين وليوبا شيفتسوفا ويفجينى ستاخوفيتش بوصفه شخصا عمّدته رائحة البارود .

وعلى الرغم من انهماك اوليانا فى دورها الجديد ، وادراكها لاهمية سرعة اللقاء مع اوليج ، لم تكن قد تعودت على خداع ابيها وامها ، علاوة على ان الامور المنزلية شغلتها لدرجة انها لم تستطع

سوى فى مساء اليوم التالى الذهاب الى اوليج بعد حديثها مع فيكتور واناتولى ، حيث لم تجده بالمنزل .

كان الجنرال بارون فون فينتسيل واركانه قد رحلـــوا الى الشرق . اما الخال كوليا الذى فتح الباب لاوليانا ، فقد عرفها على الفور الا انه ، وكما بدا لها ، لم يكن سعيدا بلقائها ، بل ولم يرحب بها بعد كل ما تعرضا له سوية ، وطوال فترة الفراق التى لم ير فيها كل منهما الآخر .

ولم تكن بالمنزل الجدة فيرا ويلينا نيكولايفنا . وكانت مارينا واوليا ايفانتسوفاتجلسان متقابلتين حول المائدة ، تلفان خيوط الصوف .

وما ان شاهدت مارينا اوليانا ، حتى وقعت شلّة الصوف عن يدها واندفعت تعانقها . ثم قالت فى فرح وقد ترقرقت الدموع فى مآقيها :

— اوليتشكا ! اين كنت ؟ فلتحل اللعنة بهم هؤلاء الاشرار ! اننى افك جاكتتى لتصنع منها حلة لابنى الصغير . اذ اننى اظنهم سوف يصادرون الجاكتة على كل حال ، اما ملابس الصغير فلربما يبقون عليها .

وراحت بلهجتها السريعة تستعرض طريقهما المشترك ، ومقتل الاطفال عند المعبر ، وانفجار القنبلة فى مديرة ملجـــأ الاطفال ، ومصادرة الالمان لملابسهما الحريرية .

وراحت اوليا ممسكة بالصوف فى يديها القويتين اللتين علتهما السمرة الشديدة ، تكسو وجهها امارات الغموض والقلق كما بدا لاوليانا ، تشخص بناظريها فى صمت ، ودون ان يرف لها جفن .

ولم تر اوليانا ضرورة لشرح اسباب مجيئها ، ولم تذكر سوى خبر القبض على والد فيكتور . والقت اوليا دون ان تغير وضع يديها ، بنظرة سريعة الى الخال كوليا الذى بادلها اياها . وعلى الفور ادركت اوليانا ان الخال كوليا لم يكن بشوشا مرحبا ، بل كان قلقا لسبب لم تعرف كنهه . وتملكتها مشاعر القلق المبهم كذلك .

وذكرت اوليا ضاحكة دون ان تتخلى عن امارات الغموض التى تبدو عليها ، انها اتفقت على اللقاء مع بنت عمها نينا عند الحديقة العامة ، وسوف تعودان سوية . وقد ذكرت ذلك دون ان توجه حديثها لاحد ، ثم بارحت الغرفة على التو .

وظلت مارينا تواصل ثرثرتها دون ان يراودها ادنى شك ازاء كل ما يجرى حولها .

وعادت اوليا ونينا بعد برهة من الوقت .

وذكرت نينا دون ان تبتسم :

– لقد كنا نتحدث بشأنك . هل تودين ان أعرفك على من كنت اتحدث معه عنك ؟

وصحبت اوليانا فى صمت الى وسط المدينة بعد ان قطعتا طريقهما عبر الشوارع والافنية . ولم تنظر نينا طوال الطريق الى اوليانا ، وكانت امارات التشتت والوحشية تكسو عينيها الواسعتين الكستنائيتين .

وتساءلت اوليانا فى هدوء :

– ماذا حدث يا نينا ؟

– لعلهم يبلغونك هنا بما حدث ، اما انا فلست استطيع ان اقول شيئا .

وذكرت اوليانا :

– هل تعلمين ان ابا فيكتور بيتروف قد اعتقل ؟

واشاحت نينا بيدها قائلة :

– حقا ؟ لقد كان ذلك شيئا متوقعا .

ودلفتا الى منزل نموذجى لا يختلف فى شىء عما حوله من البيوت ، لم تكن اوليانا قد زارته من قبل .

وهناك كان عجوز ضخم الجسد مستلقيا على سرير خشبى عريض يرتدى كافة ملابسه ، استقر رأسه بين الوسائد المنفوشة بحيث لم تظهر منه سوى جبهته وأنفه البدين واهدابه الصفراء الكثيفة ؛ وامرأة تقدم بها العمر نحيفة ، بارزة العظام كستها الشمس صفرة ، اقتعدت كرسيا الى جوار الفراش وانهمكت فى حياكة شىء ما ؛ وامرأتان شابتان جميلتان حافيتا الاقدام الكبيرة ، تجلسان بلا عمل على الاريكة المجاورة للنافذة . وقد توجه كل هؤلاء بانظارهم يستطلعون اوليانا بفضول . والقت اوليانا عليهم بالتحية ؛ الا ان نينا صحبتها بسرعة الى الغرفة الاخرى .

وفى الغرفة الكبيرة وحول المائدة التى استقرت عليها الاقداح وزجاجات الفودكا والطعام جلس عدد من الشباب وفتاة واحدة .

وعرفت اوليانا فى الجالسين اوليج ، وفانيا زيمنوخوف ، ويفجينى ستاخوفيتش الذى كان قد القى قبيل اندلاع الحرب محاضرة امام سكان «بيرفومايكا» . كما وكان هناك شابان غير معروفين . اما الفتاة فكانت «لوبكا الممثلة» التى شاهدتها اوليانا الى جوار سور منزلها فى ذلك اليوم المشهود . وقد كانت ظروف ذلك اللقاء غريبة الى الحد الذى اصابها بالذهول حين وقع نظرها على لوبا هنا فى ذلك المكان . غير انها وفى نفس اللحظة ادركت مغزى سلوكها آنذاك على نحو لا يدع مجالا للشك .

وأدخلت نينا اوليانا الى الغرفة لتتركها وترحل .

ونهض اوليج يستقبل اوليانا وقد اعتراه بعض الارتباك وجال بعينيه بحثا عن مكان لها ، فيما ظهرت على شفتيه ابتسامة واسعة . وقد ادخلت هذه الابتسامة الراحة اليها فجاة ، وقبل سماعها لتلك الانباء الغامضة المريعة .

ففى نفس الليلة التى جرى فيها اعتقال والد فيكتور ، جرت بالمدينة حملة اعتقالات واسعة شملت تقريبا كل من لم يسعفه الوقت للهجرة من اعضاء الحزب ورجال السلطة المحلية وكل من مارس النشاط الاجتماعى بشكل او بآخر ، وكثيرا من المعلمين والمهندسين ومشاهير عمال المناجم وبعض العسكريين الذين تخفوا بالمدينة .

وقد ذاع هذا الخبر الرهيب فى كل انحاء المدينة منذ الصباح . غير انه لم يكن هناك سوى فيليب بيتروفيتش وباراكوف يعرفان مدى الضرر الذى الحقته بالمنظمة السرية تلك العملية التى قام بها الدرك ، ليس نتيجة لفشل احد منا بل لاجل اتخاذ تدابير وقائية . فقد القت الشرطة اثناء «دورياتها العادية» القبض على كثير من اولئك الذين كان من المفروض ان يشاركوا فى عملية الهجوم على السجن .

وهرعت بنتا العم اوليا ونينا ايفانتسوفا الى اوليج ، الذى انتقل اليه وعلى التو شحوب وجهيهما البرونزيين ، حيث ابلغتاه نقلا عن ايفان كوندراتوفيتش نبأ القبض على العم اندريه الليلة الماضية .

لقد تعرضت للتفتيش فجاة الشقة التى كان يختفى بها فالكو والتى لم يكن هناك من يعرفها سوى كوندراتوفيتش . وكما اتضح فيما بعد ، فانهم لم يكونوا يبحثون عن فالكو بل عن زوج صاحبة

الشقة الذى كان قد رحل مع النازحين . وقد جرى التفتيش فى احد مساكن حى «شانغهاى» الصغيرة ، وقام به اجنات فومين الذى عرف فالكو على التو .

وطبقا لاقوال صاحبة الشقة ، اتسم فالكو اثناء القبض عليه بالهدوء . الا انه وحين صفعه فومين على وجهه ، استشاط غضبا ووجه اليه لكمة طرحته ارضا . وعندئذ اندفع جنود الدرك يمسكون بفالكو .

وسارع اوليج ونينا بالذهاب الى توركينيتش بعد ان تركا اوليا هم ذويه . فقد كان غاية فى الضرورة ومهما كان الامر الالتقاء بفاسيا بيروجوك او بكوفاليوف .

بيد ان ما عرفته شقيقة توركينيتش الصغرى والتى ذهبت الى مسكن بيروجوك وكوفاليوف كان امرا مبهما يثير القلق . فقد ذكر اهلهما انهما قد غادرا المنزل فى وقت مبكر من مساء الامس . وقد جاءهما بعد وقت قليل الشرطى فومين الذى يعمل معهما بحثا عنهما ، وتساءل عن مكانهما واغلظ القول بسبب عدم استطاعته العثور عليهما . كما وجاء بعد ذلك ليلا ، وراح يردد «ان جزاءهما سوف يكون عظيما» . وقد عاد كوفاليوف وفاسيا قبيل مطلع الصبح بقليل مخمورين لدرجة شديدة ، مما كان امرا غاية فى الغرابة حيث ان كوفاليوف لم يكن يقرب الخمر ابدا . وقد اخبرا اهليهما انهما كانا يسكران ، وخلدا الى النوم على التو دون ان يعيرا تهديدات فومين التى عرفا بها ادنى اهتمام . وفى الصباح جاءت الشرطة والقت القبض عليهما .

وقد ابلغ اوليج عن طريق نينا كل هذه الانباء بولينا جيورجيفنا سوكولوفا حتى تنقلها فى اول فرصة الى فيليب بيتروفيتش . وجرى استدعاء سيريوجكا تيولينين وليوبكا وفانيا زيمنوخوف وستاخوفيتش لحضور اجتماع بشقة توركينيتش .

وقد استعر جدل بين ستاخوفيتش وفانيا فى تلك اللحظة التى ولجت فيها اوليانا الى الغرفة ، والذى سرعان ما استولى على اهتمامها .

وكان ستاخوفيتش يقول :

— لست افهم ، اين المنطق فى هذا ؟ لقد رحنا نستعد لاطلاق

سراح اوستابتشوك ، وتعجلنا ذلك وجمعنا السلاح وجندنا الشباب ، وحين يلقون القبض على العم اندريه ، اى حين تفاقمت ضرورة التعجيل بالعملية ، يقترحون علينا الانتظار الى ما هو ابعد من ذلك .

يبدو ان ستاخوفيتش كان يتمتع بين الشباب بمكانة جيدة . وتساءل فانيا بصوته الأجش :

— وماذا تقترح ؟

— اننى اقترح مهاجمة السجن فى موعد لا يتعدى بعد غد ليلا . لقد كنا قادرين على القيام بذلك فى هذه الليلة لو كنا قد قمنا بالاستعداد منذ صباح اليوم ، وبدلا من الانخراط فى الاحاديث .

وراح يواصل توضيح مغزى فكرته . وقد لاحظت اوليانا انه تغير منذ تلك اللحظة التى استمعت فيها الى خطابه باجتماع الكومسومول فى «بيرفومايكا» قبيل الحرب . وكان آنذاك يورد فى طلاقة كلمات الكتب من امثال «المنطق» ، و«الموضوعية» و«التحليل» ، الا انه لم يكن يبدو واثقا من نفسه الى هذا الحد . انه اليوم يتحدث فى هدوء ودون اللجوء الى اية ايماءات او اشارات ياتيها بيديه . كان يقف مرفوع الهامة استقر شعره مصففا فوق راسه ، ومتكئا بقبضتى يديه النحيفتين الطويلتين الى المائدة .

ويبدو ان اقتراحه اذهل الجميع ، حيث لم يظهر من يعلق عليه فى الحال .

واخيرا ذكر فانيا فى خجل ، وان كان بصوت يتسم بالقوة :

— انك تتلاعب بمشاعرنا . . هذا ما اقوله لك . وليس هناك داع للمناورة . وعلى الرغم من اننا لم نتحدث ابدا عن ذلك ، الا اننى اظنك ، شان الجميع ، تعرف جيدا ان عملية اعداد الشباب لمثل هذه المسالة الخطيرة لم تجر وفقا لمبادرتنا الشخصية . اذا فذلك امر لن يسفر عن انقاذ المعتقلين ، بل عن اعتقال آخرين

وفجاة مضى يقول فى غضب :

— اننا لسنا صغارا فى نهاية الامر !

وضم ستاخوفيتش شفتيه على نحو يوحى بحب الذات :

— لست ادرى . . ربما يكون ثمة من لا يثق بى ، ومن لا يحدثنى عن كل شىء . وعلى اى حال فلم اتلق بعد اية تعليمات

واضحة صريحة . وما لبثنا ننتظر وننتظر ، وسوف ننتظر حتى يجهزون على المعتقلين ، ان لم يكونوا قد قتلوهم بالفعل .

واتسمت هذه الجملة الاخيرة بشيء من القوة .

وذكر فانيا غاضبا :

— اننا نتالم من اجل هؤلاء الناس وبدرجة متساوية . لكنني اسالك ما اذا كنت حقا تظننا قادرين وحدنا على ذلك ؟

وتوجه ستاخوفيتش يسال فجاة اوليانا ، محدقا فى عينيها على نحو يوحى بالسيطرة :

— هل نستطيع ان نجد شبابا شجعانا مخلصين من ابناء حى «بيرفومايكا» ؟

واجابته اوليانا :

— نعم ، بالطبع !

ونظر ستاخوفيتش الى فانيا دون ان ينبس ببنت شفة .

وجلس اوليج وقد دس راسه فيما بين كتفيه وراح يمعن النظر فى جدية الى ستاخوفيتش ، ثم الى فانيا تارة ، ويشخص بناظريه الكبيرين الى الامام تارة اخرى ، ليبدوان وكانما يترقرقان بالدموع .

اما سيريوجكا فقد التزم الصمت منكس الراس . وركز توركينيتش انظاره على ستاخوفيتش ، دون ان يشترك فى ذلك النقاش ، وكانما يحاول التغلغل الى اعماق افكاره .

وكانت ليوبكا قد انتقلت من مكانها فى ذلك الحين لتستقر الى جوار اوليانا ، متساءلة فى همس :

— هل عرفتنى ؟ او تذكرين والدى ؟

— لقد حدث كل ذلك على مشهد منى . .

وراحت اوليانا تنقل همسا تفاصيل استشهاد جريجورى ايليتش . وذكرت ليوبكا :

— كم من المصاعب والآلام يتحتم على المرء معاناتها !

ومضت تقول وامارات القسوة المشوبة بالسذاجة تبدو فى عينيها :

— آه لو تعلمين مدى الحقد الدفين فى قلبى تجاه اولئك الفاشست ورجال الشرطة . كم اود تمزيقهم باصابعى اربا اربا .

وذكرت اوليانا فى هدوء :

— نعم . . نعم . اننى اشعر احيانا فى قرارة نفسى بمثل شعور الانتقام هذا ، لدرجة تجعلنى اخشى التهور .

وهمست ليوبكا متساءلة :

— هل يروقك ستاخوفيتش ؟

وهزت اوليانا كتفيها .

وذكرت ليوبكا فيما تفكر فى سيرجى ليفاشوف :

— انه يهوى الاستعراض كثيرا . غير انه على حق ، حيث يمكن العثور على الشباب بطبيعة الحال .

واجابتها اوليانا هامسة :

— ان الامر ليس فى العثور على الفتيان ، بل فيمن سوف يتولى الاشراف علينا .

وبدا الامر وكانما تواطات مع اوليج الذى ذكر فى نفس اللحظة ، وبصوت فتى رنان ، لتتزايد تاتاته ويوجه اليه الصبية انظارهم :

— اننا يمكن ان نجد الصبية الجسورين فى كل وقت . غير ان الامر يكمن فى ضرورة توفير الاشراف والقيادة . ذلك لاننا لسنا بمنظمة ! لقد تجمعنا للتشاور وتبادل الاحاديث . ان لدينا حزبا ، ولسنا نملك حق العمل بدون اشرافه ، ورعايته !

وذكر ستاخوفيتش فيما ارتسمت على وجهه امارات الارتباك والاسى :

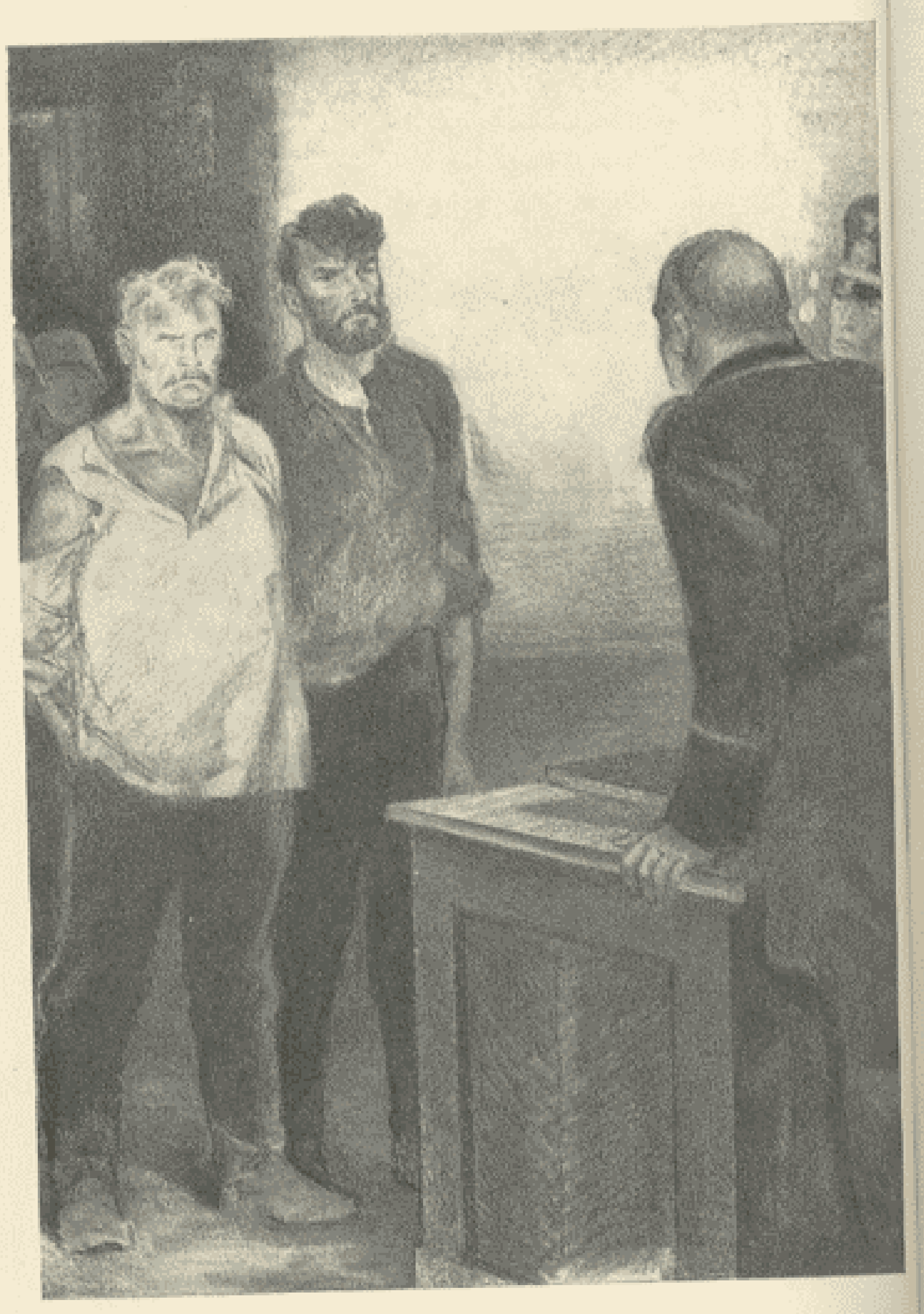
— كان يجب الاشارة الى ذلك ، والا يبدو الامر وكاننى اقف ضد الحزب . لقد كنا قبل ذلك على صلة بك وبفانيا توركينيتش وليس بالحزب . يجب عليكم توضيح الامر بكل التفاصيل والاشارة الى اسباب استدعائنا اليوم ؟

— هاكم السبب !

قالها توركينيتش بنفس صوته الخافت الهادىء حتى التفت الجميع اليه . ومضى يقول :

— يجب ان نكون على استعداد . فمن اين تدرى انهم لن يستدعونا هذه الليلة حقا ؟

واذ القى بهذا السؤال ، توقف بانظاره على ستاخوفيتش الذى لزم الصمت . ومضى توركينيتش يقول :



– هذا اولا . اما ثانيا . . فنحن لا ندرى ماذا حدث لكوفاليوف وبيروجوك . وهل يمكننا العمل دون خطة واضحة ؟ انني لن اسمح لنفسي ابدا النيل من حق الشابين . لكن ما العمل اذا كانا قد اخفقا ؟ وهل يمكننا اتخاذ خطوة واحدة دون اتصال بالمعتقلين ؟

وذكر اوليج بلهجة سريعة :

– انني سوف اتولى ذلك . لا ريب ان احدا من الاقارب سوف يرسل اليهم طعاما ، يمكن ان ندس فيه او فى الاواني قصاصة صغيرة . انني سوف اتولى تنظيم هذا الامر بمساعدة ماما . .

وذكر ستاخوفيتش ساخرا :

– بمساعدة ماما !

وتضرّج وجه اوليج بالحمرة ، وواصل ستاخوفيتش حديثه قائلا :

– يبدو انك لا تعرف الالمان .

وتمالك اوليج نفسه بالكاد وذكر متحاشيا النظر الى ستاخوفيتش :

– لا داعي للتكيف مع ظروف الالمان ، حيث ينبغي ان نرغمهم على التكيف مع ظروفنا . ما رايك يا سيريوجا ؟

وذكر سيريوجكا فى ارتباك :

– هذه هي القضية . لا تخشى فسوف نجد القوى اللازمة لذلك !

وسرعان ما انتعش ستاخوفيتش ، حيث شعر بمن يزيد موقفه .

وتضرجت وجنتا اوليج لينهض قائلا :

– اما انا فاقول اننا لا نملك منظمة ولا انضباطا !

وفى هذه اللحظة فتحت نينا الباب ، ليدلف الى الغرفة فاسيا بيروجوك . وقد كانت الجروح والكدمات تغطى وجهه ، بينما كان ذراعه مربوطا .

لقد كان منظره غريبا عصيبا مما جعل الجميع ينهضون من اماكنهم يندفعون نحوه فى حركة آلية . وبعد صمت وجيز ساله توركينيتش :

– اين فعلوا بك هكذا ؟

– فى مقر الشرطة .

وقف بيروجوك الى جوار الباب ينظر الى الحاضرين بعينيه السمراوين المفعمتين بالأسى والارتباك .

– واين كوفاليوف ؟ الم تر رجالنا المعتقلين ؟
واجاب بيروجوك :
– اننا لم نر احدا . لقد اوسعونا ضربا فى مكتب رئيس الشرطة .
وذكر توركينيتش غاضبا ، دون ان يرفع صوته :
– لا تكن طفلا ، وحدثنا عن الامر بالتفصيل . أين كوفاليوف ؟
واجاب بيروجوك بشيء من التأفف :
– ان كوفاليوف يستريح بعد ذلك العناء فى منزله . وماذا يمكن ان اقوله ؟ لقد استدعانا سوليكوفسكى بالامس ليامرنا بالامتثال فى مكتبه عند المساء ومعنا اسلحتنا ، حيث سوف نتوجه لاعتقال احد المواطنين ، لكنه لم يذكر اسمه . وقد كانت هذه هى المرة الاولى التى يوكل الينا مثل هذا العمل ، كما ولم نكن نعلم بطبيعة الحال ان ذلك كان فى اطار حملة اعتقالات واسعة . وعدنا ادراجنا نفكر «كيف لنا اعتقال احد اخواننا ؟ اننا لن نغفر لنفسينا ذلك ما حيينا !» . .
وذكرت لاناتولى : «فلنذهب الى خمارة سينيوخا لنشرب حتى الثمالة ، وبحيث لا نعود ، على ان نقول فيما بعد ان الشراب قد افقدنا ذاكرتنا» . وقلبنا الامر لنصل الى نتيجة انهم لن يستطيعوا شيئا معنا ، حيث لسنا موضع شكوكهم ؛ ولن يفعلوا بنا ، وعلى اسوا الاحوال ، سوى ضربنا وطردنا من الخدمة .
ومضى بيروجوك يقول فى ارتباك بالغ :
– وقد كان ذلك ما حدث . فقد احتجزونا لبضع ساعات ثم قاموا باستجوابنا . . وضربنا . . وطردنا من خدمتهم .
وكان مظهر بيروجوك ومع كل جدية الامر ، يدعو الى الشفقة والضحك . كما وكان ذلك امرا يتسم بالغباء لدرجة ان الابتسامة علت شفاه الجميع مشوبة بمشاعر الارتباك .
وذكر اوليج بصعوبة بالغة ، بينما علت عينيه امارات الغضب على نحو يتسم بالقسوة :
– هذا بينما يظن بعض الرفاق انهم قادرون على مهاجمة مقر الشرطة الالمانية !
لقد كان يشعر بالخجل ازاء ليوتيكوف حيث ان كثيرا من سمات عدم الانضباط والتنظيم والرعونة الصبيانية شابت اول عمل جدى انيط بالشباب . لقد كان يعانى مشاعر الخجل ازاء رفاقه ، لكونهم

يعيشون نفس المعاناة التى تضنيه . كما وكان ساخطا ازاء كون ستاخوفيتش مغرورا معتزا بنفسه الى هذا الحد . الى جانب انه كان يظن ستاخوفيتش وبخبرته القتالية ، يملك حق الامتعاض من طريقة اوليج فى تنظيم كل هذه العملية . هذا وقد بدا لاوليج ان العملية قد فشلت بسببه ونظرا لضعفه ، مما جعله مفعما بمشاعر الادانة الاخلاقية الذاتية ، يحتقر نفسه اكثر مما يحتقر ستاخوفيتش .

الفصل الرابع والثلاثون

بينما كان اجتماع الصبية جاريا فى شقة توركينيتش كان أندريه فالكو وماتفى شولجا يمثلان امام المساعد بريوكنر ونائبه بالدر فى نفس الغرفة التى جرت فيها مواجهتهما ببعضهما البعض .

كان كلاهما مسنا ربع القامة عريض الكتفين ، يقفان متجاورين مثل شجرتى بلوط تشابكت جذورهما وسط المروج . وقد كان فالكو انحف قليلا ، اسمر البشرة ، قطوبا ، تومض حدقتا عينيه من تحت حاجبيه الكثين على نحو يوحى بالغضب ، اما وجه كوستيفيتش الزاخر بالنمش فقد كان يتسم بما يوحى بالهدوء على الرغم من قسماته الرجولية الواضحة .

وقد كان عدد المعتقلين كبيرا لدرجة انهم راحوا يستجوبونهم وعلى مدى عدة ايام فى مكاتب المساعد بريوكنر ، ونائبه بالدر ورئيس الشرطة سوليكوفسكى . غير انهم لم يستدعوا بعد فالكو وكوستيفيتش مرة واحدة . بل وبلغ الأمر بهما انهم راحوا يحسنون تغذيتهما ، افضل مما كان الامر مع شولجا وحده . وطوال تلك الايام تناهت الى اسماع كليهما فيما وراء الجدران التاوهات والشتائم ودبيب الاقدام والحركة المستمرة وقرقعة السلاح ، ورنين الدلاء والطسوت ، وطرطشة المياه حين كانوا يغسلون الارضية من الدماء . وأحيانا كان يتعالى بكاء طفل فى زنزانة بعيدة .

واخيرا اقتادوهما الى التحقيق ، دون أن يقيدوا اياديهما ، ومن هنا عرفا انهم قد يحاولون رشوتهما وخداعهما بالرقة والدهاء . بيد انهم وحتى يظلا متمسكين بكل اطر النظام الحديدى تواجد بغرفة

المساعد بريوكنر وعلاوة على المترجم ، أربعة جنود مسلحين ، اما ضابط الصف فينبونج الذى اقتاد المعتقلين ، لزم مكانه خلفهما ممسكا بمسدسه .

ويدأ الاستجواب بالتحقق من شخصية فالكو ، والذى ذكر كل البيانات الخاصة به . فقد كان شخصا تعرفه المدينة باسرها ، ومن ثم فقد كان يعرفه شوركا ريباند . وحين كانت تجرى ترجمة أسئلة المساعد بريوكنر ، شاهد فالكو فى عينى شوركا ريباند السمراوين أمارات خوف وفضول حاد .

ثم سأل المساعد بريوكنر فالكو عما اذا كان يعرف الشخص الواقف الى جواره ، ومن يكون . وابتسم فالكو على نحو ينم عن سخرية ، قائلا :

— لقد تعارفنا فى الزنزانة .

— ومن يكون ؟

ذكر فالكو يخاطب ريباند فى عبوس :

— قل لسيدك الا يحاول التلاعب . انه يدرك انني لا اعرف سوى ما ذكره لى هذا المواطن .

والتزم المساعد بريوكنر الصمت بعض الوقت ، واستدارت عيناه كما البومة ، مما بدا معه انه لا يعرف اية اسئلة اخرى يوجهها ، ولا يستطيع توجيه الأسئلة اذا ما كان الشخص الجالس امامه غير موثق اليدين ، ولا يتعرض للضرب . وقد كان ذلك مبعث ملله وضجره . غير أنه قال :

— اذا ما كان يود ان يلاقى معاملة تتفق ووضعه ، عليه ان يذكر اسماء الذين استبقوا للعمل التخريبى .

وترجم ريباند .

— انني لا أعرف هؤلاء الاشخاص . ولست اظن ان الوقت اسعفهم لاستبقائهم . لقد عدت من عند الدونيتس حيث لم يسعفنى الوقت للنزوح . ويستطيع كل امرئ تاكيد ذلك .

وقد كان فالكو يتحدث وهو يحدق ناظريه السوداوين فى ريباند ليحولهما فيما بعد الى المساعد بريوكنر .

تجمعت الغضون السميكة التى تنم عن غطرسة وتعال ، عند أسفل ذقن المساعد بريوكنر . وقد ظل واقفا على هذا النحو بعض الوقت ،

ثم التقط علبة سيجاره من على المائدة ، ليتناول منها سيجارا أمسك به من منتصفه باصبعيه ، ليناوله الى فالكو ، ويسأله :

— هل أنت مهندس ؟

وقد كان فالكو اقتصاديا قديما برز من بين صفوف عمال المناجم منذ أيام الحرب الأهلية ، وتخرج من الاكاديمية الصناعية فى الثلاثينات . غير انه لم تكن هناك أدنى جدوى من اطلاع الألمانى على كل ذلك ، ولذا فقد أجاب على سؤال المساعد بريوكنر بالايجاب متظاهرا بانه لا يلاحظ يده الممدودة اليه بالسيجار .

وذكر المساعد بريوكنر وقد مال برأسه جانبا ، مادا يده بالسيجار :

— ان شخصا فى مستوى تعليمك وخبراتك كان يستطيع ان يشغل مكانة اكثر سموا ، ويحصل على مستوى مادى افضل فى ظل النظام الجديد ، اذا ما رغب فى ذلك .

وهمس شوركا ريباند بنبرة صفيرية تتسم بالخوف :

— خذ السيجار . . خذه !

ولبث فالكو ينظر فى صمت الى المساعد بريوكنر ، فيما تتسم عيناه السمراوان بامارات المرح ، وكأنما لم يسمع ما قيل له .

وبدأت الرعشة تتسلل الى يد المساعد بريوكنر الكبيرة ، الصفراء المعروقة الممسكة بالسيجار .

وذكر بريوكنر :

— لقد انتقلت كل منطقة الدونيتسك بكل مناجمها ومصانعها الى ملكية الشركة الشرقية لتشغيل مؤسسات الفحم والتعدين .

وتنهد على نحو يوحى بانه كان صعبا عليه التفوه بذلك . ثم مال برأسه كثيرا الى جانبه ومد يده بالسيجار الى فالكو فى اشارة حاسمة قائلا :

— اننى وبتفويض من الشركة أعرض عليك منصب كبير المهندسين بالادارة المحلية .

وهنا جمدت أوصال شوركا ريباند ، هابطا برأسه الى ما بين كتفيه ثم قام بترجمة كلمات المساعد بريوكنر بلهجة بدت وكأنما غص حلقه .

ولبث فالكو ينظر فى صمت ولبعض الوقت الى المساعد بريوكنر ، وحتى ضاقت عيناه السمراوان . وذكر :

— اننى أوافق على هذا العرض اذا ما وفرت لى الظروف الملائمة للعمل .

وقد وصل به الامر ان وجد فى نفسه القوة كى يضفى على صوته نبرة الاستعطاف . وكان اكثر ما يخافه ، الا يفهم شولجا أية آفاق يمكن ان يوفرها هذا العرض المفاجئ للمساعد بريوكنر . بيد أن شولجا لم يبد أية حركة تجاه فالكو ، ولم ينظر اليه . ولعله كان يدرك حقيقة الأمر .

وبدت على وجه المساعد ابتسامة سافرة أضفت عليه امارات الوحشية ، ليقول :

— الظروف ؟ ان الظروف طبيعية . . عليك فى البداية أن تفصح عن كل قوام تنظيمكم . . كله . . كله ! عليك أن تفعل ذلك وفى هذه اللحظة !

ونظر بريوكنر الى ساعته ليمضى قائلا :

— وبعد خمس عشرة دقيقة سوف تكون حرا . أما وبعد ساعة واحدة فسوف تحتل مكانك فى مكتبك بالادارة .

وادرك فالكو جوهر الامر على الفور ، ليرد بصوته العادى :

— لست اعرف اى تنظيم ، لقد جئت الى هنا بمحض الصدفة .

— يالك من سافل !

صاح بها المساعد بريوكنر فى شماتة ، وكأنما يتعجل التأكيد على صحة فهم فالكو له . واستطرد يقول بروسية ركيكة :

— انك هنا الرئيس ! اننا نعرف كل شىء .

ولم يستطع تمالك نفسه ، وغرز سيجاره فى وجه العم اندريه ، وانكسر السيجار لتنغرز فى شفتيه اطراف اصابع الشرطى التى فاحت منها رائحة مقززة .

وفى نفس اللحظة لوح فالكو بقبضة يده السمراء القوية فى حدة لتستقر فيما بين عينى المساعد بريوكنر .

وغمغم المساعد بريوكنر ، وسقط السيجار من يده ، ليهوى فى اثره بكل جسده الى الارض .

ومرت بضع لحظات خيم فيها الذهول على الجميع ، واستقر

خلالها بلا حراك جسد بريوكنر وقد برز بطنه عاليا مستديرا ، ثم تمازج كل ما فى غرفة المساعد على نحو لا يمكن تخيله .

كان الرقيب أول بالدر قصير القامة البدين الهادئ يقف طوال فترة التحقيق صامتا الى جوار المائدة ، يجول ببطء بناظريه الزرقاوين الخبيرتين ، المفعمتين بالدموع والنعاس ، يئز فى رتابة ليعلو ويهبط جسده البدين فى سترته الرمادية مع شهيقه وزفيره ليبدو كما العجين المختمر . وعندما افاق الجمع من ذهوله ، انتفض الرقيب أول بالدر فجأة وترجرج فى مكانه صائحا :

— فلتقبضوا عليه !

وهجم ضابط الصف فينبونج والجنود من خلفه على فالكو . وعلى الرغم من أن فينبونج كان اقرب الجميع اليه الا انه لم يستطع الامساك به ، حيث أن ماتفى كوستيفيتش صرخ بصوته المبحوح يعلن امتعاضه الشديد ، ووجه لكمة الى ضابط الصف فينبونج ليطيح به بعيدا الى ركن الغرفة ، واندفع نحو الجنود منكسا راسه العريضة ، كما الثور الحارد .

ذكرها فالكو فى اعجاب ، فيما يحاول تخليص نفسه من قبضات الجنود الألمان ليندفع الى بالدر البدين المضرج بالحمرة والذى مد راحتيه الصغيرتين البضتين الزرقاوين دفاعا عن نفسه ، صائحا :

— لا تطلقوا عليهما الرصاص ! امسكوا بهما . . فلتحل عليهما اللعنة !

وراح ماتفى كوستيفيتش وبقوة خارقة وضراوة يعمل بقبضتيه وقدميه وراسه ، ليطيح بالجنود الواحد تلو الآخر .

واندفع فالكو الذى استطاع التخلص من الجنود نحو بالدر الذى تمكن رغم بدانته وبحركة غير متوقعة من الجرى الى ما حول المائدة .

ومرة أخرى حاول ضابط الصف فينبونج تقديم العون الى رئيسه الا ان فالكو الذى كشر عن أسنانه ركله بقدمه فيما بين ساقيه ليهوى الى الارض .

وذكر ماتفى كوستيفيتش بارتياح وهو يتقلب يمنة ويسرة ليلقى فى كل حركة باحد الجنود بعيدا عنه :

— يالك من رائع يا أندريه ! فلتقفز من النافذة . هل تسمعنى !

— هناك أسلاك شائكة . حاول الاقتراب منى .

— لعنة الله عليهم ! . .

زار كوستيفيتش بهذه العبارة وخلص نفسه فى قوة من قبضة الجنود ، ليندفع مرة واحدة ، ليجد نفسه الى جوار فالكو ، واذ امسك بكرسى المساعد بريوكنر رفعه فوق راسه .

ونكص الى الوراء الجنود الذين كانوا قد اندفعوا فى اثره . وقام فالكو مكشرا عن اسنانه تعلو عينيه السوداوين امارات الشراسة والوحشية ، ببعثرة كل ما كان على المائدة : المحبرة والأقلام والملفات وبقية ادواتها ، فى قوة وضراوة وصخب نحو خصمه لدرجة ان الرقيب بالدر سقط على الارض مغطيا بيديه البدينتين راسه الصليع ، اما شوركا ريباند الذى كان قد التصق بالجدار ، فقد تسلل الى ما تحت الاريكة وهو يعوى فى هدوء .

وفى البداية وحين اندفع فالكو وكوستيفيتش يخوضان هذه المعركة ، كانا أسيرى تلك المشاعر الاخيرة للتحرر التى تعترى البواسل الاقوياء الذين يعرفون ان الموت فى انتظارهم . وقد منحتهم آخر مشاعر الحياة عشرة اضعاف قواهم . غير انهما واثناء المعركة ادركا فجأة ان العدو لا يستطيع ، ولا يملك حق قتلهما دون اوامر الرئاسة ، وقد افعمهما ذلك بمشاعر الحرية وعدم الخوف من العقاب مما جعلهما فوق اية هزيمة .

واستندا بظهرهما متجاورين الى الحائط مضرجين بالدماء رهيبين ، دون أن يجرؤ احد على الاقتراب منهما .

وعندما عاد المساعد بريوكنر الى وعيه امر جنوده بمهاجمتهما مرة أخرى . واستغل شوركا ريباند اشتعال العراك ثانية لينزلق من تحت الأريكة الى خارج الغرفة . وبعد عدة دقائق اقتحم الغرفة بعض آخر من الجنود ليجتمع كل رجال الدرك والشرطة يهاجمون فالكو وكوستيفيتش ؛ وطرحوا الفارسين ارضا ، واطلقوا العنان لغضبهم وراحوا يضغطون عليهما ويضربونهما بقبضات اياديهم وكعوب احذيتهم وركابهم ، وظلوا يعذبونهما حتى بعد ان فقدا وعيهما .

وفى تلك الساعة الهادئة المظلمة من آخر الليل ، وحين غادر الهلال مكانه فى السماء ، بينما كانت نجمة الصباح الناصعة لم تبزغ

بعد ، وحين كانت الطبيعة وكأنما ادركها الانهاك ما تزال تغط فى سباتها ، ولحظة تجثم أحلى لحظات النوم فوق اعين البشر ، حتى الجلادون والضحايا يكونون أسرى ذلك النوم داخل جدران السجون . . .

فى تلك الساعة الهادئة المعتمة قبل مطلع الفجر ، كان ماتفى شولجا أول من استيقظ من سباته العميق الهادئ النائى عما هو فى انتظاره من حياة رهيبة ومصير فظيع . وتقلب قليلا على الارض التى لفتها العتمة ليستقر جالسا فى مكانه . وفى نفس اللحظة تقريبا وفى انين غير مسموع ، بل ولم يكن ذلك انينا ، بل تنهيدة خافتة ، استيقظ اندريه فالكو . وجلس كلاهما على الأرض الغارقة فى الظلمة ودنا كل منهما من الآخر يتمعن فى وجهه الذى تضرج بالدماء وعلته الكدمات .

لم تكن ثمة بارقة ضوء فى تلك الزنزانة المعتمة الضيقة غير انه بدا لهما ان كلا منهما يستمتع برؤية الآخر . لقد كان كل منهما يرى الآخر قويا رائعا . وذكر فالكو بصوته الاجش :

— انك قوزاقى رائع يا ماتفى . فليمنحك الله القوة .

واذ استند بكل جسده على يديه انفجر ضاحكا وكأنما قد اطلق سراحهما . واستجاب شولجا بدوره ليقهقه عاليا ، ثم يقول :

— وانت تملك قوة هائلة يا اندريه . . ويالها من هائلة !

وقد هزت جدران السجن قهقهتهما العالية القوية فى هدوء الليل وعتمته .

وفى الصباح لم يقدموا اليهما طعاما ، ولم يقتادوهما الى التحقيق . ولم يكن هناك من جرى استجوابه فى ذلك اليوم . وخيم هدوء غريب على المبنى ، لا يقطعه سوى حديث مبهم يجرى فيمــا وراء جدران الزنزانة كخرير مياه نهير تحت اوراق الاشجار . وفى منتصف النهار وصلت عربة ركوب ذات محرك هادئ الصوت لتنصرف بعد قليل .

وقد كان كوستيفيتش الذى تعود على تمييز كافة الاصوات التى تتناهى اليه من خلف الجدران ، يعرف ان هذه العربة تصل وترحل حين يغادر المبنى المساعد بريوكنر ، او مساعده ، او كلاهما سوية .

وذكر شولجا بصوت هادئ يتسم بالجدية :

— لقد رحلت الرئاسة .

وتبادل فالكو وكوستيفيتش النظرات دون ان يتفوها بكلمــة واحدة ، بيد ان نظراتهما اكدتا لبعضهما البعض ان كلا منهما يعرف

ان النهاية قريبة وانهما على استعداد لمواجهتها . ويبدو ان كل من فى السجن كان يعرف ذلك ، حيث أطبق الصمت على كل ارجاء المكان .

وهكذا لبثا جالسين على هذا النحو بضع ساعات فى صمت لا يقطع عليهما خلوتهما سوى ضميريهما ، والى ان ذكر شولجا فى هدوء :

— اندريه . . اننى لم احدثك بعد عن كيفيــــة اعتقالى . فلتسمعنى !

لقد توارد كل ذلك الى خاطـــره مرارا حين كان وحده حبيس زنزانته . غير انه وحين تحدث بصوت عال عن ذلك مع ذلك الشخص الذى تربطه به ، اواصر وثيقة طاهرة ليس لها بهذه الارض مثيل ، كاد ان يئن من الاسف المفعم بالآلام حين شاهد امام مخيلته وجه رفيقة شبابه ليزا ريبالوفا الذى غمرته غضون العمل ، ومشاعر الامومة الطيبة ، حين استقبلته ، ولحظة ودعته .

ودون أن يترفق بمشاعره راح يحكى لفالكو عن كل ما ذكرته له ليزا ريبالوفا ، وما ذكره لها حين اجتاحته مشاعر الثقة بالنفس ، وكم كانت تود بقاءه ، ترنو اليه بعينى الام ، بينما تركها ليصدق ما هو غير صحيح بدلا من الانصات لصوت قلبه الطبيعى البسيط .

وكان وجه فالكو يزداد اكفهرارا مع كل كلمة حادة يتفوه بها شولجا ، ليصيح قائلا :

— الورقة ! هل تذكر ما حدثنا بشأنه ايفان فيدوروفيتش . لقد صدقت الورقة أكثر مما صدقت الانسان .

ومضى يقول فى أسى :

— نعم . . هذا ما يحدث عندنا غالبا . اننا نكتبها بانفسنا ، ثم لا نلحظ مدى تأثيرها علينا .

وذكر شولجا فى أسى :

— ليس هذا كل ما فى الامر . اننى أود أن احدثك كذلك بشأن كوندراتوفيتش . . .

وذكر له كيف راوده الشك فى كوندراتوفيتش الذى كان يعرفه منذ سنى صباه . تشكك فى امره حين علم بقصة ابنه ، وبانــه اخفاها حين افصح عن موافقته على تقديم شقته لتكون فى خدمــة منظمة العمل السرى .

وثانية تذكر ماتفى كوستيفيتش كل ذلك ، ليصيبه الذهول ازاء

كون قصة بسيطة من آلاف امثالها فى حياة البسطاء من الناس ، تجعله يفقد ثقته فى كوندراتوفيتش . وفى نفس الآن ، يحوز اعجابه شخص مثل اجنات فومين الذى لم يكن يعرفه على الاطلاق ، وتحفل تصرفاته بالكثير مما لا يروقه .

وتجهم وجه فالكو الذى عرف كل ذلك من كوندراتوفيتش ، ليغدو اكثر عبوسا .

وذكر فالكو بصوته الاجش :

— الشكل ! العادة والشكل . . ان الكثيرين منا قد تعودوا على ان الناس يعيشون افضل مما عاش آباؤنا فى الايام السالفة لدرجة انهم غدوا يحبون رؤية الانسان انطلاقا من شكله ، نظيفا لامعا . لقد فقد كوندراتوفيتش ، صاحب الروح الالهية ، شكله ليبدو فى ناظريك اسود اللون . اما فومين ، عليه اللعنة فقد كان لامعا نظيفا يتناسب مع «الشكل» تماما ، بينما هو فى الواقع أشد سوادا من حلكة الليل . لقد كنا نحن الذين اضفينا عليه البياض ومجدناه وجعلناه يتفق مع الشكل الذى وفيما بعد أعمى بصيرتنا . . . اما الآن فهاك تدفع حياتك ثمنا لذلك .

— انها الحقيقة . . الحقيقة المقدسة يا اندريه !

قالها ماتفى كوستيفيتش بينما ومضت عيناه بضوء ناصع ، ثم مضى يقول :

— كم من الأيام والليالى قضيتها فى ذلك المكان دون أن تمر ساعة واحدة لا افكر فيها بشأن هذا الموضوع . اننى من قاع المجتمع ، ولن اقول كم من المتاعب والآلام اثقلت بها الحياة كاهلى . اننى وحين القى بنظرة على مراحل حياتى ، اكتشف خطئى ، واجد أننى لم ارتكبه اليوم فقط . لقد تعديت اعتاب عامى الخامس والاربعين بينما ما ازال فى وظيفتى المتواضعة التى اشغلها على مدى عشرين عاما . اننى اشغل طوال الوقت وظيفة النائب لانسان آخر . اننى اتهم بذلك . ومضى شولجا يقول فى سخرية :

— لقد كانوا يقولون عنا فى الماضى أننا رجال لجنة الدائرة ، بينما يقولون اليوم — رجال لجنة المنطقة . كم من العاملين فيما حولى صعدوا سلم الرقى ، وكم من الرفاق من أمثالى رجال لجنة المنطقة بلغوا اعلى الدرجات ! هذا بينما أواصل طوال الوقت جر نفس العربة . ولقد

تعودت على ذلك لست أدرى كيف ظهرت هذه العادة ! وما دمت قد تعودت ، فان ذلك يعنى أننى قد تخلفت عن الركب .

وانقطع صوت شولجا فجاة ، ليمسك راسه بيديه الكبيرتين ، تعتريه مشاعر الاضطراب .

وأدرك فالكو ان ماتفى كوستيفيتش يلقى ما علق بروحه قبيل مواجهته الموت ، مما يستحيل معه انتقاده او تبرئته ، ليواصل الاستماع اليه فى صمت . وواصل شولجا حديثه :

— ماذا اعز ما لدينا يمكن ان نعيش من أجله ونضحى بحياتنا فى سبيله ونعمل من اجل رفعته ؟ انه اناسنا . . انه الانسان ! هل ثمة بهذا العالم أسمى وأجمل من الانسان ؟ كم تحمل وقاسى كثيرا من اجل رفعة بلادنا وشعبنا ! لقد كان يقتات اثناء الحرب الاهلية بكسرة من الخبز دون ان يئن ، ويقف فى الصفوف اثناء فترة التعمير ، يرتدى الاسمال دون ان يرتضى استبدال جوهره السوفييتى باى شىء آخر . وها هو فى هذه الحرب الوطنية مستعد لبذل حياته بكل سعادة وفخر ، يتقبل كل الآلام والمصاعب . ان الطفل ، ولسنا نقول المراة ، على استعداد لتحمل كل ذلك ، وكل هؤلاء هم شعبنا شانى وشانك . لقد انحدرنا منهم ، وانحدر منهم افضل واذكى الناس واكثرهم موهبة ومعرفة . وليس ثمة ما يدعونى لان اقول لك اننى وهبت كل حياتى فى سبيلهم . انك تعرف كيف تجرى الامور ، تكد وتكدح فى سبيلها بينما هى تسير هامة عاجلة دون ان تلحظ تلقائيتها ، وبينما يعيش المرء كذلك نمطه الخاص . آه ، لو تعرف يا اندريه ! لقد شاهدت يوم غادرت ليزا ريبالوفا ، ثلاثة شبان وفتاة — ابنتها وابنها وشابين آخرين كما اتصور . اندريه ! يالها من اعين كانت ! كم راحت تتاملنى فى امعان ! لقد استيقظت ذات ليلة هنا فى هذه الزنزانة ، لتصيبنى الرجفة . لقد كانوا من اعضاء الكومسومول ! نعم لقد كانوا على الارجح كذلك . كيف تجاوزتهم ورحلت ؟ وكيف حدث ذلك ؟ ولماذا ؟ اننى اعلم السبب . كم من المرات طلب منى اعضاء كومسومول المنطقة : «يا عم ماتفى . فلتعد محاضرة للفتيان عن سير عملية الحصاد ، عن الزراعة ، عن خطة تطوير المنطقة ، عن مؤتمر سوفيتات المقاطعة . . وعن اشياء اخرى كثيرة» . بينما كنت ارد عليهم . . «ليس هناك وقت لدى ، او

فلتتصرفوا وحدكم بدوني يا اعضاء الكومسومول !» واحيانا كنت اعلن موافقتي لاعاني الصعوبات في اعداد مثل هذه المحاضرة !

وكم كان من الصعب تنفيذ ذلك حيث كان يتوجب اعداد الاخبار لابلاغها الى قسم الزراعة بالمقاطعة ، والمشاركة في اعمال لجنة التنسيق وتخطيط النشاط ، وزيارة مدير ادارة المناجم ولو لساعة واحدة للاحتفال بعيد ميلاده الخمسين ، بينما يجب ايضا حضور عيد ميلاد ابنه الذي اكمل عامه الاول مما يفخر به ، وتلك امور ان تركها المرء تسبب في اغضاب الآخرين . وهكذا كنت اذهب فيما بين تلك الاعمال ودونما استعداد لالقاء المحاضرة ، ولاتحدث الى الكومسومول من الذاكرة «عن عموميات غير دقيقة» ابسط العبارات مما اشعر معه بالضجر ، اما هم الشباب فكانوا يؤملون كثيرا على هذه المحاضرة . ياله من عيب ! – ذكرها فجاة ماتفي كوستيفيتش لتعلو الحمرة وجهه الذي دفنه فيما بين يديه – لقد كانوا ينتظرون كلمة طيبة تنفعهم في حياتهم ، بينما كنت احدثهم عن «عموميات» . من يكون المربي الاول للشباب ؟ انه المدرس . نعم المدرس ! ويالها من كلمة . . لقد تخرجت من المدرسة التابعة للكنيسة ، كما تخرجت انت منها في موعد يسبقني بخمسة اعوام . الا اننا نذكر سوية المدرس نيكولاي بيتروفيتش . لقد عمل لدينا بمنطقة المناجم مدرسا طيلة خمسة عشر عاما ، الى ان وافته المنية اثر سل رئوي اصابه . انني اذكر وحتى اليوم ما ذكره لنا بشأن بنية هذا العالم – الشمس والارض والنجوم . لعله يكون اول من اثر في افكارنا وفتح اعيننا على هذا العالم . المدرس ! كم يسهل النطق بهذه الكلمة ! ان المدرس في بلادنا ، وحيث يتعلم كل طفل من اطفالنا ، يعد الانسان الاسمى . ان مستقبل اطفالنا ، ومن ثم شعبنا في يدي المدرس وقلبه الذهبي . يجب على المرء ان يحني هامته احتراما له حين يراه على البعد . اما انا ؟ كم من المخجل تذكر يوم كان نظار المدارس يلاحقونني من مكتب لآخر يتوسلون الاخشاب والطوب والفحم والجير ، وحين فرض نفسه موضوع اصلاح المدارس وتدفئتها . لقد كنت اتملص منهم بحجة انني لست المسؤول عن ذلك ، موجها اياهم الى قسم التدريب في المنطقة . لم اكن آنذاك اعتبر ذلك عيبا ، ولم اكن افكر سوى في ان خطة استخراج الفحم قد نفذت ، والمحصول

جرى جمعه بما يزيد عن الخطة ، كما وجرت حراثة الارض ، وتسليم كمية اللحوم والصوف المطلوبة ، وارسال برقية تحية الى سكرتير لجنة الحزب بالمقاطعة ، وبذا اكون قد قمت بكل واجبي . اليس ذلك صحيحا ؟ لقد غدا الوقت متاخرا حين ادركت كل ذلك ، لكنني اشعر بالارتياح رغما عن هذا لانني ادركت كل ذلك . وعلى اي حال فمن اكون ؟ – تساءل ماتفي وابتسامة وجلة طيبة تنم عن اعتذار ترتسم على شفتيه ، ومضى يقول : انني من بسطاء الشعب ، من قاع المجتمع ، وابنه وخادمه . انني وفي عام ١٩١٧ ادركت حين سمعت ليونيد ريبالوف ، انه ليس هناك اسمى من خدمة الشعب ، ومن هنا بدأت حياتي ومصيري كعامل شيوعي . هل تذكر عملنا الفدائي السري آنذاك ؟ هل تذكر يوم وجدنا نحن ابناء الاباء والامهات الجهلة ، قوة الروح والبسالة لتحمل وتحقيق النصر على المحتلين الالمان والبيض ؟ وقد بدا آنذاك اننا تجاوزنا الصعب ، وسوف نعيش الحياة الاسهل . بيد انه اتضح ان اصعب الامور ما تزال في انتظارنا . هل تذكر لجان فقراء الفلاحين ولجان توزيع المواد الغذائية ، وعصابات كبار الملاك ، ورجال ماخنو * . . . وفجاة «السياسة الاقتصادية الجديدة» ** ، حيث توجب على المرء اتقان ممارسة التجارة . ورحنا نمارسها ، وعلى خير وجه .

وفجاة ذكر فالكو في حيوية بالغة :

– وهل تذكر كيف اعدنا تشغيل المناجم . كنت آنذاك قد انهيت خدمتي بالجيش ، ليعينوني مديرا لذلك المنجم القديم المائل ، الذي نضب اليوم . وياله من امر كان ! فلم تكن لدى اية خبرات اقتصادية ، الخبراء يعطلون العمل ، الآلات متوقفة ، ولم تكن هناك كهرباء ، والبنك يرفض اقراضنا ، وليس ثمة ما ندفعه للعمال ، بينما لينين يرسل البرقيات – ارسلوا الينا الفحم ، انقذوا موسكو وبتروجراد . وقد كنت اعتبر هذه البرقيات امرا مقدسا . اذ كنت قد رايت لينين كما اراك ماثلا امامي الآن ، في المؤتمر الثاني للسوفييتات

* زعيم احدى العصابات الكبيرة التي ظهرت بعد ثورة اكتوبر ١٩١٧ . **المترجم** .

** سياسة سمحت بالاقتصاد الحرلفترة مؤقتة في العشرينات تحت ظل السلطة السوفييتية . **المترجم** .

ايام ثورة اكتوبر وحين كنت جنديا على الجبهة . اذكر انني اقتربت منه ، وتحسسته بيدى ، حيث انني لم اكن اتصوره شخصا حيا من امثالى . ثم ماذا ؟ لقد ارسلنا الفحم !

وذكر شولجا فى فرح :

— حقا . . كم من الاهوال وقعت على كواهل اخواننا اعضاء لجان الاقليم والمنطقة ! كم من الضربات تلقيناها ! من ذا الذى تعرض للوم ايام السلطة السوفييتية قدر ما تعرض له اعضاء تلك اللجان ؟ اعتقد انه ما من امرئ تعرض لمثل هذا اللوم ولفت النظر من رجال السلطة السوفييتية ، مثلما تعرضنا نحن !

كان ماتفى كوستيفيتش يتحدث وامارات السعادة تعلو وجهه .

وذكر فالكو ضاحكا !

— كلا ! اعتقد ان اخواننا الاقتصاديين لا يقلون شأنا عنكم فى هذا الصدد .

وذكر شولجا بصوت صادر من أعماق قلبه :

— انني حقا اقول . مهما كان مدى انتقاداتى ولومى لنفسى ، فانني اعتقد انه من الواجب ، وعلى كل الاحوال ، اقامة تمثال لرجل اللجنة الحزبية للمنطقة يخلده على مدى الاجيال . لقد كنت دائما اطالب . . الخطة ثم الخطة . بيد انك لا تتصور صعوبة القيام عاما بعد عام ، ويوما بعد يوم وبدقة الساعة بحرث وزرع وحصاد الملايين من هكتارات الاراضى ، لتقديم المحصول الى الدولة ، وتوزيع كل ذلك المجهود حسب خطة تنص على ما يجب القيام به يوميا . هذا بالاضافة الى مسالة طحن الحبوب ، وزراعة البنجر وعباد الشمس ، وتربية الخرفان ، وتوريد اللحوم ، وتنمية الثروة الحيوانية ، واصلاح الجرارات وبقية المعدات التى لا يملك العالم مثلها ، بل وليس ثمة من يحلم بها ! ان كل امرئ من شعبنا يهوى ارتداء احسن الملابس ، وتناول افضل الطعام والشراب . ولذا يكد ويعمل عضو لجنة المنطقة ليل نهار ، لتلبية احتياجات الآخرين . ان مثل هذا الرجل ، ويجوز لنا تأكيد ذلك ، قد حمل عبء توفير الغذاء والمواد الخام طوال الحرب الوطنية .

وقاطعه فالكو محتدا :

— والاقتصادى ؟ ان ذلك من يجب حقا ان يقام له تمثال ! فهو

الذى تولى القيام باعباء الخطتين الخمسيتين الاولى والثانية ، ويحمل على كاهله اعباء الحرب الوطنية ! أليس ذلك حقا ؟ هل خطة القرية تعتبر خطة ذات شأن ؟ كلا . . ان خطة الصناعة هى الخطة الحقيقية . هل تعمل القرية بوتيرة المؤسسات الصناعية ؟ كم نجحنا فى بناء المصانع ! بنيناها نظيفة دقيقة تعمل كالساعة ! وماذا يمكن القول عن مناجمنا ! هل يملك الراسماليون منجما شبيها بمنجمنا رقم ١ ؟ انه قطعة من الحلوى ! انهم ، هم الراسماليون ، قد تعودوا على استلام كل شئ جاهزا ، دون ادنى تعب . اما نحن فنعمل بهذه الوتيرة ، وعلى هذا النطاق فى توتر دائم . . . نقص فى القوى العاملة . . فى مواد البناء ، تخلف وسائل النقل . . الف نقص ، ونقص . . كبير وصغير ، بينما نواصل التقدم فى طريقنا . كلا . . ان الاقتصادى السوفييتى رجل عملاق !

وذكر شولجا وقد ارتسمت الفرحة على أساريره :

— هذه هى القضية ! انني اذكر يوم حضرت مؤتمر مزارعى الكولخوزات بموسكو ، حيث استدعيت الى لجنة اعداد القرارات . وهناك جرى الحديث عن عضو لجنة المنطقة . وراح رجل فى مقتبل العمر يضع نظارة على عينيه ، يبدو انه من رجال التعليم ، لا اذكر اسمه ، يتحدث عن عضو لجنة المنطقة بتعال ، حيث ذكر انه متخلف ، لم يقرأ هيجل ، واشياء اخرى بلغت به وصمه بانه لا يغتسل يوميا . وقد قيل له آنذاك «يجدر بك ان تتوجه الى اعضاء لجنة المنطقة للتدرب على ايديهم ، ولتصبح اكثر ذكاء» وهنا قهقه شولجا عاليا ، ثم مضى يقول : لقد كنت اعتبر آنذاك خبيرا فى شؤون القرية ، وراحوا يبعثون بى من قرية الى اخرى لتقديم العون الى المزارعين للتخلص من قبضة كبار الملاك واقامة المزارع التعاونية الجماعية . كلا . . لقد كانت فترة عظيمة لا يمكن نسيانها ! لقد انخرط كل افراد الشعب فى خضم العمل ليل نهار دون ان يراود النوم اجفانهم . كان التردد يراود البعض ، اما وفيما بعد وقبيل اندلاع الحرب غدا اكثر الناس تخلفا يدرك جدوى الثمار العظيمة لجهود تلك السنين . وحقا . . صرنا نعيش قبيل اندلاع الحرب على نحو افضل كثيرا عن ذى قبل .

وذكر فالكو وهو يومض بعينيه السوداوين :

— وهل تذكر حالة المناجم آنذاك ؟ لقد كنت اقضى الليالى بالمنجم دون ان اعود الى مسكنى طيلة أشهر باكملها . أقسم بالله ان المرء لا يمكن أن يصدق ذلك اليوم حين يتخيل مـا كان يجرى آنذاك فيما يتأمل ما جرى تشييده . ويبدو لى اننى لم اقم نفسى بذلك ، بل قريب لى هو الذى تولى كل تلك الامور . اننى اغمض عينى الآن لاتخيل كل حوض الدونباس ، وكل بلادنا المشغولـة بالبناء ، وكل تلك الليالى التى سهرناها نكد ونكدح .

وذكر شولجا بنبرة طفولية ساذجة :

— نعم ليس ثمة فى التاريخ من وقع على كاهله ما تحملنا نحن اعباءه ، دون ان نئن . واتساءل : اى صنف من الناس نحن ؟

وضحك فالكو ساخرا :

— بينما أعداؤنا الحمقى يظنوننا نهاب الموت . لقد تعودنا نحن البلاشفة مواجهة الموت . وكم من البلاشفة سقط صريع الكفاح ضد العدو ! لقد قتلوا الكثيرين جلادو القيصر ورجال الدرك والشرطـة وطلبة الكليات العسكرية أيام ثورة اكتوبر ، والبيض والمتدخلون من كافة بلدان العالم ورجال عصابات ماخنوا وانطونوف ، كما واطلق كبار الملاك نيرانهم علينا . . ومع ذلك فنحن نعيش استنادا الى حب الشعب لنا . ولربما يقتلنا الالمان الفاشيست ، ومع ذلك فلن يورى علينا التراب . . او ليس حقا ذلك يا ماتفى ؟

— انها الحيقيقة العظمى . . . الحقيقة المقدسة يا أندريه ! اننى سوف اظل الى أبد الابدين فخورا بان قدرى انا الانسان العامل البسيط قد جعلنى اشق طريق حياتى فى اطار صفوف حزبنا ، الذى مهد طريق الحياة السعيدة للآخرين .

وذكر فالكو تعتريه مشاعر قلما يتسم بها مثل ذلك الشخص الخشن الطباع :

— انها الحقيقة المقدسة يا ماتفى ، انها سعادتنا العظمى ! كما وقدر لى ان أحظى بهذه السعادة ، لكونى اواجه الموت الى جوار رفيق مثلك يا ماتفى !

— اننى اعلنك بامتنانى الشديد الجزيل لقاء ذلك الشرف الذى شملتنى به . لقد أدركت على الفور مدى جمال روحك يا اندريه .

وذكر فالكو بصوت هادئ :

— فلينعم الله بالسعادة على كل من يبقى بعدنا مـن افراد شعبنا .

وهكذا وفى لحظاتهما الاخيرة كشف كل من أندريه فالكو وماتفى شولجا عن مكنون نفسيهما أمام بعضهما البعض ووجها لوجه مع ضميريهما .

الفصل الخامس والثلاثون

رحل المساعد بريوكنر ونائبه بالدر الى مقر ادارة الشرطـة للدائرة فى مدينة روفينكى والكائنة على مسافة ثلاثين كيلومترا من كراسنودون . أما بيتر فينبونج ، روتنفوهرر فرقة «اس اس» والذى كان قد جرى تكليفه بنقطة شرطة كراسنودون ، فقد كان يعرف أن بريوكنر وبالدر قد توجها الى ادارة شرطة الدائرة ومعهما مواد التحقيق ، وحيث سوف يتسلمان التعليمات الخاصة بشأن المعتقلين . غير ان بيتر فينبونج كان يعرف استنادا الى خبرته جوهر الاوامر التى سوف تصدر هناك ، كما عرفه رئيساه . ذلك لأنهما وقبيل الرحيل ، اصدرا تعليماتهما اليه بمحاصرة جنود «اس اس» للحديقة العامة وعدم السماح بدخولها لاى امرئ كان . كما وجرى ارسال جماعة جنود الشرطة برئاسة الرقيب ادوارد بولمان الى الحديقة لحفر حفرة كبيرة تتسع لثمانية وستين شخصا متجاورين وقوفا .

وكان فينبونج يعرف أن رئيسيه لن يعودا قبل وقت متأخر من المساء ، ولذا فقد أرسل جنوده الى الحديقة العامة تحت رئاسـة مساعده بينما بقى فى الدار الملحقة بالسجن .

وفى الايام الاخيرة كان غارقا فى العمل ، لدرجة بدا معها دائما غير قادر على البقاء وحده دقيقة واحدة ، يستطيع خلالها ليس فقط الاغتسال من رأسه وحتى أخمص قدميه . ، بل ولتغيير ملابسـه الداخلية لانه كان يخشى أن يوجد ثمة من يرى ما يرتديه تحت هذه الملابس .

وحين رحل المساعد بريوكنر ونائبـه بالدر ، وانصرف جنود «اس اس» وجنود الشرطة الى الحديقة العامة توجه ضابط الصف فينبونج الى مطبخ السجن يطلب من الطباخ وعاء به ماء ساخـن

وطست ، اما عن الماء البارد فقد كان متيسرا فى البرميل الموجود بالمدخل .

ولاول مرة منذ تلك الأيام الحارة هبت رياح باردة حملت معها بعيدا تلك السحب المنخفضة التى كانت تنبئ بالامطار ؛ وكان النهار أشبه ما يكون بايام الخريف ، لتبدو فى أسوأ صورها كل طبيعة منطقة مناجم الفحم ، ناهيك عن المستعمرة المكشوفة من جميع الجهات بمبانيها النموذجية وغبارها المشبع بذرات الفحم . وكان المبنى مضئيا بما يكفى فينبونج للاغتسال ، غير أنه وحتى لا يفاجئه احد على حين غرة ، لينظر اليه من النافذة ، قام باغلاقها واسدل الورق الأسود يغطيها واضاء نور الغرفة .

ومهما كان قد تأقلم على العيش على هذا النمط منذ اندلاع الحرب ، ومهما كان قد تعود على رائحته غير الطيبة ، الا انه كان يشعر براحة فائقة حين استطاع فى نهاية الأمر خلع ملابسه ، ليظل بعض الوقت عاريا من ذلك العبء الذى اثقل كاهله . كان بدينا بطبيعته ، ومع مرور السنين غدا اكثر بدانة ، وصار جسمه يفرز كميات اكبر من العرق تحت زيه الاسود . وقد كانت ملابسه الداخلية التى لم يغيرها طيلة اشهر كاملة ، مشبعة بعرقه اللزج ذى الرائحة غير الطيبة ، صفراء اللون المشوب بسواد سترته العسكرية .

خلع بيتر فينبونج ملابسه الداخلية ليبقى عاريا تماما ، ليبدو جسده الذى لم تلمسه المياه طويلا ، الا انه أبيض اللون بطبيعته ، يكسوه الشعر الاصفر عند صدره وساقيه واعلى ظهره . ولقد اتضح حين تخلص من ثيابه انه يحيط جسده باحزمة ذات نمط فريد . لم تكن هذه احزمة ، بل شيئا أشبه بشريط لحمل الطلقات ، مثل ذلك الذى كان يحمله الجنود الصينيون فى القدم . لقد كان ذلك شريطا طويلا مقسما الى عدة جيوب صغيرة ذات أزرار ، مصنوعا من قماش لا تنفذ منه المياه يحيط بجسد بيتر فينبونج من اعلى كتفيه وحتى وسطه على شكل صليب ، تشده من الجانبين اشرطة بيضاء ربطت فى نهايتها «كفيونكة» . وقد كان الجزء الاعظم من هذه الجيوب الصغيرة ممتلئا تماما ، بينما كان الباقى فارغا .

وفك بيتر فينبونج هذه الاشرطة ليخلع عن نفسه شريط الطلقات . وكان ذلك الشريط قد احاط بجسده فترة طويلة ، لدرجة

انه ترك على ذلك الجسد الابيض البدين أثرا داكن اللون ، اشبه بما تحمله أجساد المرضى الذين يضطرون الى الرقاد طويلا . وخلع بيتر فينبونج الشريط فى دقة وحرص ، فقد كان طويلا وثقيلا فى واقع الامر ، ليضعه على المائدة ، ثم راح يهرش جسده بقوة ، باصابعه القصيرة . . صدره وبطنه وساقيه ، محاولا الوصول الى ظهره تارة من عند كتفه اليمنى ، واخرى من عند كتفه اليسرى ، وثالثة بثنى ذراعه الأيمن من اسفل . كان يقوم بذلك فيما يئن ويتأوه اعلانا عن سعادته البالغة .

وبعد ان ارضى رغبته بعض الشىء ، فك فى حرص زرار جيب سترته الداخلى ليتناول كيسا صغيرا من الجلد اشبه بكيس التبغ وقلبه ليسقط منه حوالى ثلاثين سنا ذهبية . وقد كان يود توزيعها على جيبين او ثلاثة من جيوب شريطه الفارغة . غير أنه وما دام قد اسعده الحظ ليبقى وحيدا ، فلم يستطع امساك نفسه عن الاستمتاع بمحتويات الجيوب الاخرى ، فلم يكن قد حظى برؤيتها منذ زمن بعيد . واذ راح يفك ازرار تلك الجيوب الزرار تلو الآخر ، أخذ يفرغ محتوياتها على المائدة اكواما سرعان ما ملأت كل المائدة . وحقا . . لقد كان ذلك شيئا يستحق النظر اليه .

لقد كانت عملات كثير من بلدان العالم . . الدولار الأمريكى والشلنج الانجليزى والفرنك الفرنسى ، والبلجيكى ، والكرونة النمساوية والتشيكية ، والنرويجية ، واللى الرومانى ، والليرة الايطالية . وقد جرى تجميعها وفقا لبلدانها ، الذهبية وحدها ، والفضية وحدها ، واوراق البنكنوت كذلك ، التى كانت تضم ضمنا الورقة السوفيتية الزرقاء اى من فئة المائة وربل . ولم يكن حقا ينتظر من تلك اية جدوى مادية ، لكنه رغما عن ذلك فقد استبقاها ، حيث تحولت شراهته الى هواية جمع العملات التى بلغت به حد الهوس . هذا وكانت مجموعته تضم كذلك بعض المصوغات الذهبية الصغيرة مثل الخواتم والدبابيس ، والدبل ، والبروشات المرصعة بالاحجار الثمينة ، الى جانب أحجار ثمينة اخرى واسنان ذهبية .

كان الضوء الكهربائى المنبعث من مصباح فى أسفل السقف لوثه الذباب بمخلفاته ، ينبعث خافتا يضىء هذه النقود والمجوهرات الملقاة على المائدة ، بينما جلس فينبونج قبالتها عاريا صليع الراس

يضع على عينيه نظارة قرنية فاتحة مباعدا بين ساقيـــه ، يهرش جسده من آن لآخر ، وقد ثارت حميته ، راضيا عن نفسه .

وعلى الرغم من كثرة هذه الاشياء الصغيرة والنقود المختلفة ، فقد كان فى امكانه ان يحكى قصة كل منها متى وكيف وفى ظل اية ظروف اقتناها ، وممن أخذها او انتزعها ، وممن انتزع تلك الأسنان الذهبية ، ذلك لانه ومنذ تلك اللحظة التى قرر فيها الاثراء من هذه الحرب ، ركز كل قواه وحواسه لخدمة ذلك الغرض ، اما ما بقى من مظاهر حياته فلم يكن سوى من قبيل المراء .

لم يكن ينتزع الاسنان من جثث الموتى وحسب ، بل من افواه الاحياء ايضا ، غير أنه كان يفضل انتزاعها من افواه الموتى حيث لم يكن ذلك يسبب له المتاعب . وحين كان يقع نظره على أشخاص من ذوى الاسنان الذهبية ضمن مجموعة من المعتقلين ، كان يركز كل حواسه حول الرغبة فى سرعة انهاء كافة اجراءات التحقيق ، حتى يتمكن من الاجهاز عليهم فى أقرب فرصة .

وكم كانوا كثيرين أولئك الرجال والنسوة والاطفال الذيـن قتلوا وعذبوا وسرقوا ، ليصبحوا مصدر تلك النقود والاسنـان والمجوهرات ، ولدرجة ان بعض القلق كان يشوب مشاعر فرحته ورضاه عن نفسه حين كان ينظر اليها . غير ان القلق لم يكن نابعا منه شخصيا ، بل من جنتلمان آخر تخيله انيق الملبس ، يضع خاتما فى خنصره ، وقبعة خفيفة غالية الثمن على راسه ، حليـق الوجه ، تجيش بصدره مشاعر الادانة تجاه بيتر فينبونج .

لقد كان شخصا بالغ الثراء ، أكثر ثراء من بيتر فينبونج بكل مجوهراته . بيد ان هذا الشخص ورغما عن ذلك كان يعتبر نفسه على حق فى ادانة بيتر فينبونج بسبب طريقته فى الاثراء ، معتبرا انها طريقة دنيئة . وقد دار بين ذلك الجنتلمان وبيتر فينبونج جدل لا نهاية له ، يتسم بالهدوء لانه قد دار من جانب بيتر فينبونـج وحده ، والذى يتصور نفسه مستندا الى اسس اسمى واشد منطقية ، كانسان عملى معاصر خبرته الحياة .

وكان بيتر فينبونج يقول «هيه . . هيه ! اننى فى نهاية الامر لا أصر على ممارسة ذلك طوال حياتى . اننى سوف اصير فى نهاية الامر من رجال الصناعة او التجارة ، او صاحب حانوت اذا ما راق لك

هذا . غير اننى يجب ان ابدأ بشىء ما . نعم اننى اعرف جيد المعرفة انك مشغول بالتفكير فى شانى ، وشأن نفسك . انك تفكر : اننى جنتلمان ، يعرف الجميع كافة شركاته ، ويرى كـل انسان مصدر ثرائه : ان لدى اطفالا وأسرة ، اننى نظيف الجسم ، أنيق الملبس ، مهذب فى علاقاتى مع الآخرين . اننى قادر على مواجهتهم . اننى اقف احتراما للمراة التى اتحدث معها اذا كانت واقفة ، اننى اطالع الصحف والكتب واشغل عضوية جمعيتين خيريتين ، وتبرعت بمبالغ كبيرة لبناء المستشفيات العسكرية ايام الحرب ؛ اننى أهوى الموسيقى والزهور ومشاهدة ضوء القمر فى عرض البحر . هذا بينما بيتر فينبونج يقتل الآخرين من اجل اموالهم ومجوهراتهم التى يصادرهـا لنفسه . انه لا يتورع عن انتزاع اسنان الناس ، ليخفيها مع بقية ما يصادره حول جسده حتى لا يراها احد . انـــه مضطر الى البقاء اشهرا كاملة دونما اغتسال ، تفوح منه الرائحة غير الطيبـة ولذا املك حق ادانته» . . . هيه . . فلتسمح لى يا صديقى العزيـز والمحترم ! لا تنس ان عمرى خمسة واربعين عاما . كنت بحارا جبت كافة بلدان العالم ، حيث شاهدت كل ما يحفل به هذا العالم ! انك لا تعرف ما استطعت كبحار مشاهدته مرارا فى تلك البلدان النائية . كم من ملايين البشر تموت هناك فى امريكا اللاتينيـة والهند او فى الهند الصينية ، جوعا وعلى مرأى من اولئك السادة المحترمين ؟ وعلى اى حال ، لماذا نبتعد هكذا وراء الأمثلة ! ان سنوات ما قبل الحرب المزدهرة تشهد على وجود احياء باكملها فى كافة عواصـم العالم تقريبا ، تغص بالعاطلين الذين يتضورون جوعا على مشهد من السادة المحترمين ، يلفظون انفاسهم الاخيرة حتى على اعتاب الكنائس القديمة . كم يصعب على المرء تصديق القول القائل انهم يموتون وفقا لارادتهم . ومن ذا الذى لا يعرف أن بعض السادة المحترمين يلقون خارج مؤسساتهم بملايين الرجال والنسوة الاصحاء اذا ما كان ذلك يعود عليهم بالنفع . ولما كان هؤلاء الرجال والنسوة لا يستكينون لاوضاعهم ، تقوم الشرطة والجنود بايداع الاعداد الهائلة منهـم السجون ، او بقتلهم فى الشوارع والميادين وبشكل لا يتعارض فى ادنى صوره مع القانون . . . ! لقد اوردت لك بعض النماذج الحية وكنت استطيع الاستشهاد بالكثير غيرها ، من تلك الملايين مـن

الرجال الاصحاء ، بل والنسوة والاطفال والشيوخ الذين يلقون حتفهم لكي تزداد ثراء . كما واننى لا اتحدث بعد عن الحروب التى تهلك الكثيرين لصالح اثراء امثالك . صديقى المحترم والعزيز ! ما الذى يدعونا الى اخفاء الحقيقة والمناورة ؟ فليصارح كل منا الآخر بحقيقة انه اذا ما كنا نريد من الآخرين العمل لصالحنا ، يجب ان نقوم سنويا ، بشكل او بآخر ، بقتل بعضهم . انك تخشانى لكونى اقف عن اسفل مفرمة اللحم ، اذا ما جاز هذا القول . اننى من صغار خدم هذه العملية ، وبحكم وظيفتى مضطر الى عدم الاغتسال ، لتفوح منى هذه الرائحة النتنة . غير انك يجب ان تتفق معى فى انك لم تكن لتستطيع ان تكون غير ذلك ، وكلما ينقضى الزمن وتمر الايام ، كلما يزيد احتياجك لامثالى . اننى ثمرة من شجرتكم ، اننى ظلك . . اننى الوجه الآخر لك ، اذا ما اراد الآخرون رؤيتك من الداخل ، ومعرفة جوهرك الحقيقى . وسوف يسعفنى الوقت لاغتسل ، وابدو أنيقا ، صاحب حانوت صغير ، اذا ما راقك ذلك ، ابيع لك السجق الجيد طعاما يزّين مائدتك . . .»

خاض بيتر فينبونج هذا الحوار المبدئى مع ذلك الجنتلمان الذى تصوره فى مخيلته حليق الوجه مليح القسمات ، نظيف السروال جيد الكى . وقد اضفى كسبة لذلك الحوار فى هذه المرة ايضا وكالعادة ، عليه مزاجا طيبا . وراح يخبئ النقود والمجوهرات فى الجيوب الخاصة بها ، واحكم اغلاقها ، ثم انصرف للاغتسال وهو يتاوه ويصرخ سعادة ، وحين اخذ يسكب المياه الممتزجة برغاوى الصابون على الأرض مما لم يكن يعنيه على الاطلاق ، حيث سوف ياتى الجنود ويتولون تنظيف المكان .

وفرغ من الاغتسال ، وان لم يكن الى حد النظافة التامة ، الا انه شعر ببعض الراحة . ثم شرع ينز فيما يلف الشريط حول جسده ، وارتدى ملابسه الداخلية النظيفة ، ليخفى القذرة ، ويرتدى سترته العسكرية السوداء . ورفع نهاية الورقة السوداء التى تغطى النافذة ، ليلقى بنظره الى الخارج ، حيث لم ير شيئا . فقد كانت الظلمة تخيم على فناء السجن . وقد أدرك بخبرته التى تحولت الى شئ اشبه بالغريزة أن رئيسيه على وشك الوصول . وخرج الى الفناء ، ليلزم مكانه الى جوار المبنى بعض الوقت حتى تتعود

عيناه على ظلمة الليل . غير أنه لم يكن قادرا على ذلك . فقد جاءت الرياح الباردة بتلك السحب الداكنة تغطى المدينة وبرارى الدونيتس ، لا يصل النظر اليها ، وان كانت بدت وكأنما تتسابق فيما بينها تحاول كل منها تجاوز الاخرى ، ليصدر عنها حفيف اصطدام جوانبها الموحفة الرطبة ببعضها البعض .

وفى تلك اللحظة سمع بيتر فينبونج هدير محرك خافت لسيارة آخذة فى الاقتراب ، ووقع نظره على وميض مصباحيها المضيئين اللذين جرى تعتيمهما ، حين هبطت التل الى جدار مبنى اللجنة التنفيذية سابقا والادارة الزراعية للمنطقة حاليا ، والذى كشف ضوء المصباحين عن احد جناحيه . كان رئيساه يعودان من ادارة شرطة الدائرة . ودلف بيتر فينبونج الى مبنى السجن عبر الفناء، والممر السرى الذى كان يحرسه جندى الشرطة والذى أدى التحية له حين عرف هويته .

كما وترامى الى اسماع المعتقلين هدير محرك السيارة التى وصلت الى مبنى السجن . وبدد ذلك الهدوء غير العادى الذى خيم على السجن طيلة النهار ، دبيب خطوات يتعالى بالردهة ، وصرير مفاتيح فى الاقفال ، وصفق أبواب ، وضجيج بالزنزانات ، وبكاء ذلك الطفل الذى يمزق القلوب ، يتعالى من زنزانة بعيدة . وفجاة دوى ذلك البكاء عاليا ليتحول الى صراخ لا يطاق ، لقد كان الطفل يصرخ فى توتر بالغ ، وبكل قواه حتى بح صوته .

وسمع ماتفى كوستيفيتش وفالكو تلك الجلبة التى سادت الزنزانات المجاورة ، وبكاء الطفل فى الزنزانة البعيدة . وقد خيل اليهما احيانا انهما يستمعان الى صوت امراة ، تتحدث فى حرارة ، تصرخ وتتوسل ، بل وتبكى على ما يبدو . ثم تعالى صرير المفتاح فى القفل ، ليغادر جنود الشرطة الزنزانة حيث أودعت المراة مع طفلها ، ليدلفوا الى الزنزانة المجاورة التى سادتها الجلبة على الفور . بيد انه وفى خضم تلك الجلبة تعالى ذلك الصوت الحزين الرقيق لامراة تحاول تهدئة طفل اخذ بالفعل يعود الى حالته الطبيعية تدريجيا وكأنما يهدئ نفسه بنفسه .

وولج جنود الشرطة الى الزنزانة المجاورة لتلك التى يجلس بها فالكو وماتفى كوستيفيتش ، اللذان أدركا على التو سبب ذلك الصخب

الذى يتعالى مع دخول رجال الشرطة . . لقد كانوا يوثقون أيادى المعتقلين .

لقد حانت ساعتهم الاخيرة .

كانت الزنزانة المجاورة غاصة بالمعتقلين ولذا فقد استغرق رجال الشرطة هناك وقتا طويلا . واخيرا خرجوا من هناك ليغلقوا الباب وراءهم ، لكنهم لم يدخلوا على التو الى فالكو وكوستيفيتش ، فقد لبثوا فى الردهة يتبادلون الملاحظات السريعة ، ثم هرول احدهم نحو المخرج . وخيم الهدوء بعض الوقت ، لم يقطعه سوى اصوات رجال الشرطة يتبادلون الاحاديث فى غمغمة . ثم تعالى بالردهة دبيب خطوات بعض الأشخاص يقتربون من الزنزانة ، ودوت صيحة بالالمانية تنم عن ارتياح ، ليدلف الى الزنزانة بعد اضاءة مصباحها الكهربائى بعض رجال الشرطة وعلى راسهم ضابط الصف فينبونج . كانوا ممسكين بمسدساتهم فى وضع استعداد لاطلاق النار ، ولزم مكانهم عند الباب حوالى خمسة جنود . يبدو ان رجال الشرطة كانوا يخشون ان يبدى هذان المعتقلان ضروب المقاومة . غير أن ماتفى كوستيفيتش وفالكو لم يسمحا لنفسيهما حتى بالسخرية منهم ، فقد كانت روحاهما بعيدة عن كل ذلك البهرج الباطل . وسمحا لهم وفى هدوء بتقييد أياديهما خلف ظهريهما ، وحين اشار فينبونج بضرورة الجلوس حتى توثق اقداماهما ، سمحا بذلك ليربطوا اليها الاصفاد حتى لا يمكنهما سوى السير فى خطوات قصيرة ، ومما يستحيل معه الهرب .

ثم تركوهما وحدهما ، ليجلسا فى الزنزانة بعضا آخر من الوقت ، وحتى فرغ الألمان من تقييد كل المعتقلين .

وهاهو دبيب اقدام تخطو سريعة فى رتابة ، يتعالى شيئا فشيئا حتى ملأ كل ارجاء الردهة . وراح الجنود يتحركون «محلك سر» ثم صدر الأمر لهم بالوقوف ثم الالتفاف وانزال السلاح من على اكتافهم ليستقر الى جوار اقدامهم . وتعالى صرير أبواب الزنزانات تنفرج عن المعتقلين الذين جرى اخراجهم الى الردهة .

وعلى الرغم من الضوء الخافت الذى كان يخيم على الردهة فقد زر ماتفى كوستيفيتش وفالكو اعينهما رغما عنهما ، نظرا لذلك الوقت الطويل الذى قضياه فى الظلمة . ثم راحا فيما بعد يتاملان النظر فى

جيرانهما ومن لزم مكانه فى الصف الممتد على يمنتهما ويسرتهما فى الردهة .

وعلى مبعدة معتقل واحد وقف رجل عارى القدمين تحيط بهما الاصفاد شأنهما ، فارع القامة وقد تضرجت ملابسه الداخلية بالدماء . واصابت المفاجأة كلا من فالكو وماتفى كوستيفتش حين عرفا فيه بيتروف . لقد كان جسده محطما لدرجة ان ملابسه الداخلية التصقت به ، كما تلتصق بالجرح الكبير ، لتجف عليه . ومن المؤكد ان كل حركة كان ياتيها كانت تعود عليه هو الانسان القوى بالآلام التى لا تطاق . كانت احدى وجنتيه متهدلة حتى تبدت عظامها اثر ضربة سكين او سونكى ، واصابها الصديد . كما وعرفهما بيتروف بدوره ليحنى هامته تحية لهما .

غير أن ماذا جعل الرجفة تتسلل الى كيانى فالكو وماتفى كوستيفيتش شفقة وغضبا ؟ لقد كان ذلك اثر مشاهدتهما لتلك التى تقف فى نهاية الردهة البعيدة الى جوار باب السجن وحيث تعلقت انظار كل المعتقلين ، تنم عن الآلام والرعب والدهشة . لقد كانت تقف هناك امرأة كست وجهها أمارات الانهاك ، وان ظل يتسم بالقوة ترتدى فستانا احمر اللون تحمل على يديها طفلا ، بينما كانت تحيط الحبال بهاتين اليدين وبالطفل الذى كانت تحتضنه ، مما بدا معه أن الطفل قد ثبت الى جسد امه وحتى أبد الآبدين . لم يكن ذلك الطفل قد بلغ بعد عامه الاول وكان رأسه الرقيق ذو الشعر الخفيف الذى تجعد بعض الشىء أعلى قفاه مستقرا على كتف امه ، مغلق العينين . غير انه لم يكن ميتا بل مستغرقا فى سباته .

وفجأة تخيل ماتفى كوستيفيتش زوجته واطفاله لتملأ الدموع مآقيه . وقد كان يخشى ان يرى جنود الشرطة وكذلك مواطنوه المعتقلون هذه الدموع ليظنوا شيئا غير صحيح بشأنه . وكان سعيدا حين فرغ ضابط الصف فينبونج من عد المعتقلين ، ليقتادوهم الى الخارج يحيط بهم صفان من الجنود .

كانت الليلة معتمة الى حد ان الواقفين لم يكونوا قادرين على رؤية بعضهم البعض . وجرى تصفيفهم طابورا عرضه اربعة أشخاص ، احاطوا به ، ثم اقتادوهم عبر البوابة نحو الشارع المفضى الى التل ، فيما كانت المصابيح الكهربائية تضىء الطريق وتلقى بأشعتها

عليهم تارة من الأمام وأخرى من الخلف ، وثالثة من الجانبين . ولفتهم برطوبتها الرياح الباردة التى كانت تهب على المدينــــة فى رتابة ، وتعالى الى اسماعهم فى خضم ذلك الهدوء حفيف تلك السحب التى حلقت فوق رؤوسهم منخفضة الى الحد الذى بدا معه ان المرء يستطيع التقاطها من مكانه . وراح المعتقلون يستنشقون الهواء فى فمهم ، بينما يسيرون فى خطوات متثاقلة دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة . ونادرا ما كان ضابط الصف فينبونج الذى كان يسير فى مقدمة الطابور يلتفت الى الخلف ، يوجه اليه اشعة المصباح المعلق بيده ، لتظهر من جديد فى اطار هذه العتمة تلك المراة التى أوثق الطفل الى جسدها تسير فى طرف الصف الاول ، تطيح الرياح بذيل ثوبها الاحمر .

كان ماتفى كوستيفيتش وفالكو يسيران متجاورين ، يتلامس كتفاهما . وكانت الدموع قد بارحت مآقى ماتفى كوستيفيتش . وكلما كان الطريق يمتد بهما بعيدا ، كلما كانت تبتعد ابعد فابعد تلك المشاعر الشخصية ، ولتكن اهم المشاعر واعزها والتى مست شغاف قلبيهما حتى اللحظة الاخيرة ، تود عدم السماح لهما بمفارقة هذا العالم . وفردت العظمة والجلال اجنحتهما تخيم عليهما . وخيم على روحهما هدوء ناصع لا يمكن التعبير عن كنهه . هذا بينما راحا يسيران يصعدان وجهيهمـــــا للرياح ، فى هدوء وصمت يواجهان نهايتهما ، تظللهما تلك السحب التى كانت تحف فوق رأسيهما .

وتوقف الطابور عند مدخل الحديقة . ولبث ضابط الصف فينبونج ورقيب الشرطة ادوارد بولمان ، وروتنفوهرر الثانى الذى كان يترأس جنود «اس اس» الذين يتولون حراسة الحديقة ، يتفحصون تحت ضوء المصباح الكهربائى الورقة التى تناولها فينبونج من جيب سترتــه الداخلى .

ثم قام الرقيب يعد المعتقلين فى الطابور فيما يلقى عليهم اشعة مصباحه المتقطعة .

وانفرجت بوابة الحديقة فى صرير على مصراعيها . واعيد ترتيب الطابور ليصبح عرضه شخصين ، ليقتادوه عبر الممر الرئيسى للحديقة فيما بين بنائى نادى لينين ، ومدرسة جوركى ، حيث كانت قد تمركزت اليوم ادارة المؤسسات المتحدة التى كانت تضمها فيما سبق مؤسسات «فحم كراسنودون» . غير ان ضابط الصف فينبونج

والرقيب بولمان انحرفا الى ممر جانبى فيما خلف المدرسة تقريبا ، وانعطف الطابور كذلك خلفهما .

كانت الرياح تتمايل بالاشجار تطيح باوراقها فى اتجاه واحد ، ليتنامى حفيفها متعدد النغمات رتيبها ، عاليا لا يسكن يملأ كل ارجاء العتمة المحيطة .

اقتادوهم الى طرف الحديقة المهجور ، الذى قل من كان يزوره فى أيام السلم ، حيث كانت تشرف على الأرض الخلاء التى توسطها مبنى مدرسة الشرطة الالمانية ذو الطابق الواحد . وفى ذلك المكان ، فى وسط ذلك المرج المستطيل الذى تحيط به الاشجار من كل جانب كانت قد حفرت حفرة طويلة . وقد تعالت رائحة الأرض الرطبة التى جرى حفرها ليسمعها جميع من كان بالطابور حتى قبل ان تقع انظارهم عليها .

وقاموا بتشتيت طابور المعتقلين فى ارجاء الحفرة ، ليفترق فالكو وماتفى كوستيفيتش . وراح هؤلاء يتعثرون فى أكوام الاتربـة التى جاورت الحفرة ، ليتساقطوا ارضا ، لكن الشرطة كانت تجبرهم على النهوض فورا ، تحت وقع ضربات كعوب البنادق .

وفجاة توجهت اشعة عشرات المصابيح تضئ تلـــك الحفرة الطويلة ، وما علا جانبيها من اتربـة ، واوجه أولئك المعذبين ، والسناكى اللامعة لاسلحة الجنود الألمان الذيـــن احاطوا بالمرج جدارا هائلا . وقد شاهد كل من وقف الى جوار الحفرة ، انه قــد استقر عند نهايتها المساعد بريوكنر ونائبه بالدر وقد القيا على كاهليهما بمعطفى مطر اسودى اللون . اما وعلى مسافة قريبة خلفهما انتحى جانبا حاكم المدينة فاسيلى ستاتسينكو ، بدين الجسد ، متضرج الوجنتين منفوخ العينين .

واشار المساعد بريوكنر بيده ، ليرفع ضابط الصف فينبونج المصباح المعلق بيده عاليا ، واصدر امره بصوت مختنث مبحوح . وتقدم الجنود خطوة الى الامام وراحوا بسناكيهم يدفعون المعتقلين نحو الحفرة . وراح المعتقلون يعتلون فى هدوء أكوام الأتربة على جانبيها ، لتتعثر اقدامهم ، ويتساقطون ، ثم ينهضون لتنفيذ الامر . واطبق الصمت على المكان لا يقطعــه سوى حفيف أوراق الأشجار وانفاس الجنود .

واعتلى ماتفى شولجا التل وبخطوات متثاقلة بقدر ما سمحت بها قدماه المكبلتان . وشاهد على أضواء المصابيح كيف راحوا يدفعون المعتقلين الى الحفرة . كانوا يقفزون اليها او يتساقطون فيها ، يلتزم بعضهم الصمت ، بينما يعلن البعض الآخر احتجاجاته أو توسلاته .

وكان المساعد بريوكثر ونائبه بالدر يقفان جامدين تحت الاشجار ، بينما راح ستاتسينكو ينحنى فى حرارة الى أولئك الذين يلقى بهم الى الحفرة . . لقد كان مخمورا .

ومرة أخرى شاهد شولجا تلك المرأة ذات الرداء الاحمر التى شد الى جسدها طفلها الذى لم يكن يسمع أو يرى شيئا ، لا يحس سوى بدفء الام ، يواصل نومه وقد استقر رأسه الى كتفها . وقد هوت الأم الى الأرض لتجلس على حافة الكوم ، فى محاولة منها لعدم ايقاظ طفلها ، وراحت تزحف بساقيها حيث كانت موثقة اليدين ، لتنزل الى الحفرة . بعد ذلك لم يرها والى الابد ماتفى شولجا !

وصاح شولجا بصوت قوى اجش ساد كل ما حوله من جلبة واصوات :

— ايها الرفاق ! يا رفاقى الرائعين ! فليكن المجد والخلود قدركم ! يعيش . . .

وهنا انسل السونكى فى ظهره الى ما بين اضلعه . واستجمع شولجا كل قواه الهائلة حتى لا يسقط ، بل قفز الى الحفرة التى تعالى منها صوته ينادى :

— يعيش الحزب الشيوعى الذى هدى الناس الى طريق العدالة !

وهتف اندريه فالكو الذى شاء القدر أن يجمعه ثانية الى جوار شولجا :

— الموت للاعداء !

غصت الحفرة بالمعتقلين لدرجة انه لم تكن هناك أدنى امكانية للتحرك او الالتفاف . وحانت لحظة آخر التوترات الروحية . . فقد راح كل منهم يعد نفسه لتلقى الرصاص . بيد ان الموت على هذا النمط لم يكن مقدرا لهم . فقد انهالت اكوام الاتربة فوق رؤوسهم واكتافهم وفى افواههم واعينهم ، ليدركوا أنهم يدفنون احياء . وتعالى صوت شولجا يغنى :

فلتهب يا عالم الجياع والعبيد
فلتهبوا يا من وصمكم العار

وراح فالكو يردد من خلفه وبصوت خافت ، الاغنية ، التى أخذ الآخرون ينشدونها ، لتتعالى أنغام «الأممية» من تحت الارض الى السماء الداكنة العامرة بالغيوم .

وفى تلك الساعة الرهيبة المظلمة ، انفرج فى هدوء باب منزل صغير بشارع ديريفيانايا ، تخرج ماريا أندرييفنا بورتس وفاليا ، وشخص آخر متوسط القامة يرتدى الكثير من الثياب ، يحمل على كتفه كيسا ويمسك فى يده بعصا ، يهبطون درج المدخل .

وامسكت ماريا أندرييفنا وفاليا بالرجل من تحت ابطيه وقادتاه عبر الشارع الى البرارى . وراحت الرياح تتمايل بفستانيهما .

وبعد بضع خطوات توقف الرجل يقول بصوت كاد يكون همسا :

— ان الظلمة حالكة ، ومن الافضل أن تعودى !

واحتضنته ماريا أندرييفنا ، ليقفا على هذا الحال بعض الوقت . وذكر ملوحا بيده فى وهن :

— وداعا يا ماريا !

وبقيت ماريا أندرييفنا وحدها ، بينما انصرف الاب والابنة التى لم تترك يده . فقد كان من الواجب أن ترافق فاليا أباها وحتى يعلن الصباح عن نفسه . أما وفيما بعد وعلى الرغم من ضعف نظره فقد كان عليه وحده تقع مهمة الوصول الى مدينة ستالينو ، حيث كان يفترض امكانية الاختفاء لدى اقارب زوجته .

وترامت الى اسماع ماريا أندرييفنا خطواتهما بعض الوقت ، لتضيع فيما بعد بعيدا . كانت الظلمة الباردة الحالكة تطبق على كل ما حولها . اما ما راح يجثم على روحها فقد كان أكثر حلكة وسوادا . فقد ضاعت وتحطمت وتبددت كل حياتها بما فيها من عمل واسرة واحلام وحب واطفال ، بينما لا يحمل لها المستقبل شيئا .

لزمت مكانها غير قادرة على الحركة ، بينما راحت الرياح مصفرة تلف فستانها حول ساقيها ، وتناهى الى اسماعها حفيف السحب المنخفضة التى تعلو راسها .

وفجاة بدا لها . . . انها تفقد عقلها . . . واصاخت السمع . . .

كلا انه لم يخيّل لها ، فلقد كان ثمة من يعلو صوته بالغناء ! انهم ينشدون «الأممية» . . .

لقد كان مستحيلا تحديد مصدر تلك الاصوات . فقد تمازجت مع الرياح وحفيف السحب لتتطاير بعيدا فى كل ارجاء الكوكب المظلم .

وبدا لماريا اندرييفنا ان قلبها قد توقف وجيبه ، لتعترى الرجفة كل اوصالها . . .

لقد تعالى الى اسماعها وكأنما من تحت الأرض :

انا سوف نحطم عالم العنف
نجتث كل جذور عالم العنف
نشيد صروح الحياة الجديدة
نمنح الجميع الحياة السعيدة ...

محتويات

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكى بولفار ، ١٧
موسكو – الاتحاد السوفييتى



alexandra.ahlamontada.com
منتدى مكتبة الأسكندرية
الكسندر فادييف
الحرس الفتي

الحرس الفتى

الجزء الثانى

ترجمة الدكتور سامى عماره

Александр Фадеев

МОЛОДАЯ ГВАРДИЯ
КНИГА II

На арабском языке

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب وترجمته ، وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكى بولفار ، ١٧
موسكو ، الاتحاد السوفييتى

طبع فى الاتحاد السوفييتى

Ф $\frac{70302-492}{014(01)-81}$ 532—81 4702010200

الفصل السادس والثلاثون

– انا ، اوليج كوشيفوى ، اذ انضم الى صفوف الحرس الفتى وفى حضرة رفاقى فى السلاح وازاء ارضنا المعذبة ، وأمام شعبنا كله ، اقسم فى مهابة . . ان انفذ دون أعتراض اية مهام توكلها الى المنظمة ، وأن احافظ على كل ما يتعلق بعملى فى الحرس الفتى سرا مكتوما . اقسم ان أنتقم بلا رحمة للمدن والقرى التى خربوها واحرقوها ، ولدماء ابناء شعبنا ولموت الشهداء ابطال المناجم . واذا ما تطلب هذا الانتقام التضحية بحياتى فسوف اقدمها فداء ودون اى تردد . ولئن حنثت بهذا القسم المقدس تحت وقع التعذيب او الجبن ، فلتحل اللعنة باسمى وباهلى الى ابد الآبدين ، ولتنل منى يد رفاقى الصارمة . ان الدم بالدم والموت بالموت !

– انا ، اوليانا جروموفا . اذ انضم الى صفوف الحرس الفتى وفى حضرة رفاقى فى السلاح وازاء ارضنا المعذبة ، وامام شعبنا كله اقسم فى مهابة . .

– انا ، ايفان توركينيتش ، اذ انضم الى صفوف الحرس الفتى وفى حضرة رفاقى فى السلاح وازاء ارضنا المعذبة وامام شعبنا كله اقسم فى مهابة . .

– انا ، ايفان زيمنوخوف ، اقسم فى مهابة . . .

– انا سيرجى تيولينين ، إقسم فى مهابة . .

– انا ليوبوف شيفتسوفا ، اقسم فى مهابة . .

. . . .

. . . .

من المؤكد ان هذا السيرجى ليفاشوف لم يكن قد فهمها

تماما حين جاءها آنذاك وللمرة الأولى يدق نافذتها ، فتهرع اليه ليتبادلا الحديث فى الهزيع الأخير من الليل – ومن ذا الذى كان يمكنه أن يعرف ما فى مكنون نفسه !

وعلى اى حال فان أولى المصاعب التى واجهتها فى تلك الرحلة ، كانت قد نجمت هنا فى ذلك المكان مع سيرجى ليفاشوف . اذ كانا ، وبطبيعة الحال رفيقين قديمين ، ومما جعل ليوبكا غير قادرة على الرحيل دون اخطاره . وكان سيرجى ليفاشوف قد التحق بالعمل فى جراج الادارة كسائق لاحدى سيارات اللورى وفقا لنصيحة العم اندريه يوم كان لا يزال طليق السراح . ولذا فقد ارسلت ليوبكا اليه احد الصبية الصغار الذين كانوا يلعبون بالشارع ، وتربطهم بها صلة صداقة بحكم تشابه طباعها مع طباعهم .

وفى وقت متاخر وصل سيرجى بعد انتهائه من العمل مباشرة ، وفى نفس الزى الخاص الذى عاد به من ستالينو . ولم يكن الألمان يصرفون الملابس الخاصة حتى لعمال المناجم . وكان متجهم الوجه ، نال منه التعب كثيرا وعلته القاذورات .

ولم يكن من عادته الاثقال عليها بالأسئلة حول مقصدها وسبب رحيلها ، غير ان ذلك وعلى ما يبدو كان قد شغله طوال تلك الأمسية . وقد التزم سيرجى الصمت المطبق مما اثار ليوبكا ، لتفقد فى النهاية قدرتها على التحمل ولتنفجر فيه متساءلة حول العلاقة التى تربطهما . . . عما اذا كانت حبا متبادلا ، أم علاقة زوجية ؟ انها غير قادرة على الاستكانة لمشاعر الحب حيث أن الحياة ما زالت تحمل فى طياتها الكثير الذى ينتظرها . فاى شىء يراود مخيلته اذن حتى يمضى فى تعذيبها ؟ انهما رفيقان وحسب ، وبذا تكون غير ملزمة بالافصاح عن شؤونها . انها راحلة الى حيث يلزم ذلك ، ولقضاء شؤون عائلية .

وعلى الرغم من كل ذلك فقد كانت تشعر بانه لا يعير اهتماما كبيرا لجدوى نشاطها ، تراوده مشاعر الغيرة بشانها مما جعلها سعيدة الى حد ما .

وقد كان من الضرورى أن تتمتع بقسط جيد من النوم ، بينما لبث سيرجى يلتزم مكانه دون ان يفكر فى الرحيل . وكان

يتسم فى سلوكه بالاصرار ، على النحو الذى يقدر معه على البقاء مكانه طوال الليل غير راغب فى الرحيل ، وحتى تقوم ليوبكا بطرده . وعلى اى حال فقد كانت تشعر بالشفقة حياله ، اذا ما استولت عليه مشاعر الكآبة ، ولذا فقد رافقته الى الحديقة حتى وصل بوابتها فتابطت ذراعه ، ثم دنت منه بجسدها قريبا قريبا ومضة من الزمن ، ثم تركته مهرولة الى داخل البيت حيث خلعت ملابسها على الفور وخلدت الى فراش أمها .

ولم يكن الأمر هينا كذلك ، وبطبيعة الحال مع امها . فقد كانت ليوبكا تدرك مدى صعوبة موقف الأم حين تبقى وحيدة فى مواجهة نكبات الحياة لا حول لها ولا قوة . غير انه كان من السهل جدا خداعها ، ولذا فقد احتضنتها ليوبكا وراحت تسر اليها بكل ما اخذته الأم على محمل الجد ، وحتى غلبها النعاس فى مكانها الى جوار امها .

واستيقظت ليوبكا عند مطلع الفجر وراحت تجمع حاجياتها للرحيل فيما تترنم بلحن اغنية . وقررت ان تبتسط فى ثيابها ، وحتى تحتفظ بافضل فساتينها ، الا انه كان من الواجب عليها ، ان ترتدى أنصع الثياب حتى تلفت اليها الأنظار . اما افضل وافخم فساتينها الأزرق الناصع وحذاءها الأزرق وملابسها الداخلية المطرزة بالدنتلا وجواربها الحريرية فقد وضعتها فى حقيبتها . وراحت تصفف شعرها امام مرآتين صغيرتين بسيطتين تدور فيما بينهما تكاد تتبين فيهما صورتها ، فى ملابسها الداخلية ، تميل براسها تارة هنا واخرى هناك وقد اتكئت بقدمها البضة العارية القوية ذات الأصابع الصغيرة والقوية كذلك ، فيما تترنم باغنية فى محاولة منها للقضاء على التوتر الذى اصابها . ثم قامت بارتداء حزامها الخاص بشد جوربها الذى كان من لون يميل الى لون بشرتها ، بعد ان دعكت براحتيها اخمصى قدميها ، وانتعلت حذاءها البيج ، والقت على كاهلها ثوبها الخفيف ذا النقاط الكرزية والوان اخرى ليس ثمة من يدرى كنهها .

هذا وكانت فى نفس الآن تمضغ شيئا ما ، دون ان تكف عن ترنمها .

كان تعيش بعض الاضطراب الذى لم يكن يساعدها على ارتخاء

اعصابها وحسب بل وعلى تنشيط أوصالها . وقد انتابتها فى نهاية الأمر مشاعر السعادة حيث حانت لحظة العمل ، ولن يقدر لهـا فيما بعد استنفاد قواها فيما لا يعنى شيئا .

فمنذ يومين ، توقفت صباحا امام منزل آل شيفتسوف عربة نقل صغيرة خضراء ذات صندوق مستطيل من تلك التى كانت تنقل المواد الغذائية من فوروشيلوفجراد لضباط الادارة الألمانيـة . وهمس جندى الشرطة الذى كان يجلس الى عجلة القيادة الى الجندى الجالس الى جواره مسلحا بالرشاش ، بشىء ما جعله يقفز مـن العربة ليدلف الى البيت . وهرعت ليوبكا تستقبله حين كان قد وصل الى غرفة الطعام يجول فيما حوله بناظريه . والقى بنظرة سريعة على ليوبكا ، وقبل أن يتمكن من التفوه بكلمة واحدة ، استطاعت استنادا الى بعض قسمات وجهه وسلوكه معرفة هويته الروسية . وكان ذلك حقا ، حيث قال بروسية فصيحة :

– هل يمكن ان اجد لديكم ماء تصبه فى رادياتير العربة ؟

روسى فى زى الشرطة الألمانية . . ياله من أمر ! انه لا يعرف اى بيت قصده سعيا وراء ذلك الماء ! واجابته ليوبكا وهى تتمعن النظر اليه بعينيها الزرقاوين :

– فلتذهب الى الشيطان ليعطيك ماء ! هل فهمت ؟

لقد وجدت وعلى الفور ، دون أدنى تفكير ما تنطقه شفتاها ازاء ذلك الروسى فى زيه الألمانى . كما وكانت تفكر فى أنها ، اذا ما راودته الرغبة فى النيل منها ، قادرة على الهرولة مولولـة الى الشارع ، تجمع كل اهل الحى تخبرهم بانها لم تقل لذلك الجندى سوى انه يمكنه التوجه للحصول على الماء من مكان آخر ، بينما راح يوسعها ضربا . بيد أن هذا السائق – الجندى الغريب لم يفعل شيئا سوى أن ابتسم قائلا :

– ان عملك لا يتسم بالرقة . وذلك امر يمكن أن يعود عليك بالضرر .

ثم التفت فيما حوله حتى يتاكد انه ليس ثمة من يسترق السمع ، ليقول فى لهجة سريعة :

– لقد طلبت فارفارا تعوموفنا أن أبلغك بأنها مشتاقة اليك كثيرا .

واعترى الشحوب وجه ليوبكا لتخطو نحوه دونما وعى . غير انه سبقها محذرا حين وضع أصابعه السمراء الرقيقة الى شفتيه .

وخرج الجندى فى اثر ليوبكا التى حملت على صدرها دلو الماء تحتضنه بيديها وهى تحدق النظر فى عينيه . غير انه لم يبادلها النظر وتناول دلو الماء ، وخرج الى الشارع .

ولم تتبعه ليوبكا عن عمد ، بل راحت تراقبه من فتحة الباب الذى لم يحكم اغلاقه ، يحدوها امل ان تعرف منه شيئا حين يعود اليها بالدلو الفارغ . غير أن السائق قام بعد أن سكب المياه فى رادياتير السيارة ، بالقاء الدلو بحديقة المنزل ، لياخذ مكانه خلف عجلة القيادة فى سرعة ويصفق باب العربة التى انطلقت تغادر المكان .

وهكذا تطلبت الأمور رحيل ليوبكا الى فوروشيلوفجراد . غير انها كانت وبطبيعة الحال مرتبطة بما يقتضيه نظام «الحرس الفتى» ، وذلك امر جعلها غير قادرة على الرحيل دون ابلاغ اوليج بذلك . وللحقيقة نقول انها اعتبرت فيما سبق انه يمكنها التلميح لـه بوجود معارف لها فى فوروشيلوفجراد يمكن أن يقدموا المعونة اليهم ، وها هى اليوم تبلغه بأن الظروف قد غدت موائمة للرحيل الى هناك . بيد ان اوليج لم يسمح لها على الفور بذلك طالبا منها الانتظار بعض الوقت .

وكم كانت دهشة ليوبكا ازاء انه لم ينقض اكثر من ساعة أو ساعتين منذ لحظة حديثهما بالشقـة ، حتى جاءت اليها نينـا ايفانتسوفا تبلغها بصدور التصريح لها بالرحيل . علاوة على أنها اضافت قائلة :

– لقد طلب منى الكبار ابلاغك بضرورة اخطارهم هناك ، الى حيث انت راحلة ، باستشهاد رفاقنا ، وبالقابهم وكيف دفنوهم بالحديقة احياء . كما وينبغى عليك ابلاغهم بأن الأمور تسير نحو الأحسن ، وكذلك بانباء الحرس الفتى .

ولم تمسك ليوبكا نفسها عن السؤال :

– كيف استطاع كاشوك معرفة مـا اذا كان من الممكـن ابلاغهم هناك بكل ذلك ؟

ولم تجب بشىء نينا التى تتسم بحرصها الذى اكتسبته منذ أيام

العمل السرى فى ستالينو ، سوى ان هزت كتفيها . الا انها
وحين توارد الى مخيلتها احتمال ان تحجم ليوبكا عن ابلاغ كل
ذلك ، ذكرت بصوت ينم عن لامبالاة :

– أعتقد أن الكبار يعرفون اولئك الذين تقصدينهم .

ودهشت ليوبكا ازاء كونها لم تعر هذه الفكرة البسيطة
اهتماما .

ولم تكن ليوبكا شيفتسوفا شأن اعضاء «الحرس الفتى»
الآخرين عدا فولوديا اوسموخين ، تعرف ، او تحاول ان تعرف
اولئك الذين يتصل بهم اوليج كوشيفوى . غير ان فيليب
بيتروفيتش كان يعرف جيدا سبب استبقاء ليوبكا فى كراسنودون ،
واسماء أولئك الموجودين على صلة بها فى فوروشيلوفجراد .

كان الجو باردا ، بينما تمرق السحب منخفضة فوق البرارى .
وقد وقفت ليوبكا على طريق فوروشيلوفجراد تمسك بحقيبة
ملابسها الصغيرة فى احدى يديها ، وبمعطف صيفى خفيف فى اليد
الأخرى ، دون أن تشعر بتلك الرياح الباردة التى حملت الحمرة
الى وجنتيها واطاحت بذيل ثوبها الزاهى .

وكان الجنود والعرفاء الألمان الذين يمرون بجوارها على متن
عربات النقل المارقة بمحركاتها الهادرة ، تنهب الطريق ،
يدعونها ، فيما يضحكون عاليا ويشيرون اليها فى بعض الأحيان ،
مما ينم عن مجونهم . غير انها لم تكن تعيرهم ادنى اهتمام .
ووقع نظرها فيما بعد على عربة ركوب طويلة فاتحة اللون يجلس
بها ضابط الى جوار السائق ، لترفع يدها مشيرة اليها فى
استهتار .

والتفت الضابط الى داخل كابينة السيارة لتظهر سترة
عسكرية شاحبة اللون ، من المؤكد انها كانت لضابط سامى
الرتبة ، يتخذ مكانه على المقعد الخلفى للسيارة .

– هيا سريعا . . اجلسى !

قالها الضابط بالألمانية وهو يفتح باب السيارة فيما ترتسم
على شفتيه ابتسامة باهتة . وصفق باب السيارة الأمامى ، ليتحول
بيده بغية فتح بابها الخلفى .

واذ حنت ليوبكا هامتها ممسكة فى يدها بحقيبتها الصغيرة ومعطفها

وولجت الى داخل السيارة فى رشاقة لتصفق الباب من خلفها .

وانطلقت السيارة تنهب الطريق .

وجلست ليوبكا الى جوار عقيد نحيف أصابه الضمور ، حليق
الوجه على نحو جيد ، ذى بشرة لا تتسم بالنضارة متهدل الوجنتين
تعلو راسه قبعة عسكرية باهتة اللون . وراح العقيد الألمانى
وليوبكا يتبادلان النظرات على نحو يتسم بالجسارة المتباينة ، مما
يعنى ان نظرات العقيد كانت تتسم بجسارة من يملك زمام
السلطة ، بينما تتسم نظرات ليوبكا بجسارة من لا يملك شيئا
يفقده . اما الضابط الشاب الذى كان يحتل مقعده الى جوار السائق
فقد التفت بدوره الى الخلف ينظر الى ليوبكا .

وتساءل بالألمانية ذلك العقيد حليق الوجه وقد ندت عنه
ابتسامة أشبه بتلك التى ترتسم على شفاه النذل :

– الى اين تامرين بنقلك ؟

ودمدمت ليوبكا :

– لست افهم حرفا . فلتتحدث بالروسية او تلتزم الصمت !

وذكر العقيد بالروسية وهو يشيح بيده :

– الى اين . . الى اين . .

وذكرت ليوبكا :

– لقد نطق اخيرا . . الى اين . . الى اين . حمدا لك يا
الهى ! الى فوروشيلوفجراد او لوجانسك . . هل فهمت ؟

ولقد فارقت الرهبة ليوبكا بمجرد ان بدات حديثها ، لتبدو
طبيعية سلسة التعامل مما يجعل كل امرىء ، بما فى ذلك العقيد
الالمانى ، يتقبل كل ما تقوله او تفعله بوصفه امرا عاديا .

– قل لى . . كم الساعة . . الساعة ايها الأحمق !

تساءلت ليوبكا وهى تدق معصمها باصبعها .

ومد العقيد يده الطويلة الى الأمام حتى يستطيع تشمير كمه ،
ثم قام يثنى مرفقه حيث دنا من وجه ليوبكا بساعته المربعة
المشدودة على معصم يده التى كان يعلوها بعض الشعر الخفيف .

وفى نهاية الأمر ، يمكن للمرء اذا ما اراد فهم الآخر ان يبلغ
ذلك ، دون أن يستلزم ذلك الأمر معرفة لغة أجنبية .

من تكون هذه الفتاة ؟ انها فتانة . كلا انها لا تمثل فى

المسارح ، بل ترقص وتغنى . ان لديها بطبيعة الحال فى فوروشيلوفجراد كثيرا من المعارف الذين يمكنها الاقامة لديهم ، وحيث يعرفها الكثيرون من ذوى المكانة هناك : اذ انها ابنة احد المشاهير من رجال الصناعة ، وصاحب مناجم فى جورلوفكا ، الذى جردته السلطة السوفييتية للاسف ، من كافة ممتلكاته ليلقى حتفه بائسا فى سيبيريا ، ويترك زوجة واربع بنات يتمتعن جميعا بقدر بالغ من الجمال . نعم ، هى اصغرهن . كلا ، انها لا تستطيع الاستفادة من كرم ضيافته ، حيث أن ذلك يمكن أن يلوث سمعتها فى حين أنها ليست من تلك الفتيات . عنوانها ؟ انها يمكن ان تتركه بالتاكيد ، الا انها لا تعرف بعد مكانا لاقامتها : واذا ما سمح العقيد فيمكن أن تتفق مع الملازم المرافق له حول امكانية اللقاء .

— يبدو انك اكثر حظا منى يارودلف !

— اذا ما كان ذلك صحيحا ، فسوف أحاول من اجلك ياهر اوبرست !

هل خط الجبهة بعيد ؟ ان الامور على الجبهة على نحو يجعل مثل تلك الفتاة الحسناء فى غنى عن الاهتمام بها . وعلى اى حال يمكنها أن تنام قريرة البال . فسوف نستولى بعد أيام على ستالينجراد . ولقد اقتحمنا القوقاز . . أو يرضيها ذلك ؟ . . من الذى ذكر لها أن الجبهة عند أعالى الدون ليست بعيدة عن هذا المكان ؟ يا لأولئك الضباط الالمان ! هذا يعنى أنه ليس الثرثار الوحيد . يقال ان كل الفتيات الروسيات الجميلات يعملن بالجاسوسية . هل ذلك صحيح ؟ حسنا . . لقد حدث ذلك لانه يعمل مجريون فى هذا القطاع من الجبهة ، وهم افضل بطبيعة الحال من الرومانيين والايطاليين آكلى المكرونة ، نتنى الرائحة ، الا انه يستحيل الاعتماد عليهم جميعا . لقد امتد خط الجبهة طويلا الى الحد الذى لا يطاق ، فى حين تقضى ستالينجراد على الكثيرين . فهل ثمة من يستطيع امداد كل تلك المناطق بما فيه الكفاية ؟ دعينى اريك ذلك على خطوط راحتك . هاتى يدك الصغيرة . هذا الخط الكبير — الى ستالينجراد ، وهذا الخط المتقطع الى موزدوك . . . ان طابعك لا يتسم بالاستقرار ! . . والآن عليك مضاعفة كل ذلك مليون

مرة حتى يمكنك ادراك ضرورة أن يتسم المسؤول عن امدادات الجيش الالمانى باعصاب حديدية . كلا . . ينبغى الا ينحصر تفكيرها داخل اطار كونه لا يعنى بشىء سوى سراويل الجنود . ان لديه ما يمكن ان يغدو قيم المنفعة لفتاة حسناء ، اشياء جيدة . . تصلح لقدميها . انها لم تكن تفهم عمّ يتحدث . لعله يسالها عما اذا كانت تريد قطعة من الشيكولاته . لقد كانت تراوده رغبة فى تناول جرعة من النبيذ : حيث الغبار يلف الطريق . انه من الطبيعى الا تتناول الفتاة الخمر : ولكن ما رأيها فى النبيذ الفرنسى ! اوقف السيارة يا رودلف . . .

وتوقفت العربة على مسافة حوالى مائتى متر من النجع الكبير الذى انبسطت مساكنه على جانبى الطريق . وترك الجميع امكنتهم بالسيارة ، حيث توقفوا الى جوار طريق فرعى ترابى امتد عند طرف الوهدة ، العامرة باشجار الصفصاف والغارقة فى الأعشاب التى اصابها الجفاف عند منحدرها البعيد عن مواجهة الرياح . واشار الملازم الى السائق بالانعطاف الى الطريق الفرعى نحو الوهدة . وتلاعبت الرياح بفستان ليوبكا ، التى امسكت بذيله وراحت تتقدم الضابطين مهرولة خلف العربة وهى تغوص بحذائها فى اتربة الطريق التى سرعان ما ملأته .

وكان الملازم الذى لم تكن ليوبكا قد شاهدت وجهه تقريبا ، حيث جلس لا يبدو منه سوى ظهره الذى كسته سترته الباهتة ، والجندى السائق قد تناولا من السيارة حقيبة جلدية وسلة رفيعة الجدائل عامرة بالماكولات .

واتخذت المجموعة أماكنها على الأعشاب التى نبتت كثيفة واصابها الجفاف على المنحدر البعيد عن مواجهة الرياح . غير أن المفرش كان عامرا بكل ما لذ وطاب ، مما كان رفضه يعد من ضروب الغباء ، وخاصة لكونها فنانة وابنة لأحد كبار الصناعيين ، ولذا فقد تناولته ما شاءت من طعام .

وكان التراب الذى تسلل الى حذائها يضايقها كثيرا ، وانخرطت فى التفكير فى عما اذا كانت من اللائق كابنة أحد كبار الصناعيين ان تخلع حذاءها لنفض ما علق به من أتربة ، لينتهى بها الأمر ان تخلعه ، ولتمسح براحتها أخمص قدميها اللتين

استقرتا فى جوربها ذى اللون الفاتح ، ولتظل على هذا الحال ريثما هى جالسة . ولربما كان ذلك صحيحا ، حيث وعلى أى حال تقبله الألمان كأمر من قبيل العادة .

وقد كانت على الرغم من كل ذلك تواقة لان تعرف عما اذا كان هناك الكثير من الفرق على ذلك القطاع من الجبهة القريب من كراسنودون والممتد بمحاذاة الجزء الشمالى من مقاطعة روستوف . اذ كانت ليوبكا قد عرفت من الضباط الألمان الذين اقاموا لديهم بعض الوقت أن جزءا من مقاطعة روستوف ما يزال تحت امرة القوات السوفيتية . وراحت طوال الوقت تعرب عن تخوفاتها ازاء احتمال اختراق الجبهة فى هذا القطاع لتقع من جديد فى هوة العبودية البلشفية ، ذلك الأمر الذى جعل العقيد الألمانى الذى تصور أنه سوف يقضى وقتا شاعريا ، يعيش مشاعر السخط والتبرم .

كما وقد أثارت تشككاتها بصدد فعالية السلاح الألمانى ضجر العقيد الذى اضطر فى نهاية الأمر الى ارضاء فضولها .

وريثما كانوا يتناولون الطعام والشراب ، تعالى الى اسماعهم من اتجاه النجع دبيب أقدام تقطع الطريق ، على نحو لا يتسم بالرتابة ، لم يعيروه اهتماما فى البداية . غير أن ذلك الدبيب ترامى من بعيد ، ليتنامى عاليا ، يملأ كل أرجاء الفضاء فيما حولهم ، وكأنما يسير قول بشرى طويل لا نهاية له . وقد تراءى لهم حتى من مكانهم عند منحدر الوهدة الغبار الذى حملته الرياح الى جانبى واعلى الطريق . وتناهت الى اسماعهم أصوات وصرخات السائرين ، خشنة عند الرجال ، تتسم بالتأوهات والشكوى عند النسوة ، وكأنما ينتحبن حدادا على وفاة .

وهب العقيد الألمانى والملازم وليوبكا ، يمدون رؤوسهم من مكانهم بالوهدة ، لتقع انظارهم على قول كبير من الأسرى العسكريين السوفييت يمتد بمحاذاة الطريق الممتد من النجع ، يتولى حراسته الجنود والضباط الرومانيون . وكانت النساء القوزاقيات من مختلف الأعمار يهرولن بمحاذاة القول ، يتجاوزن فى بعض الاحيان الحرس الرومانى ، يلقين كسرات الخبز والطماطم ، والبيض واحيانا الأرغفة الكاملة أو حتى صرة ما الى الأيادى التى امتدت من القول سمراء نحيفة ، فيما ينتحبن ويولولن .

كان الأسرى يسيرون نصف عراة ، لا تكسو اجسادهم سوى بقايا سراويل وسترات عسكرية ممزقة علتها السمرة والغبار ، ما بين حفاة ومنتعلين لبقايا أحذية مهترئة ، وقد طالت لحاهم واصابهم الضمور حتى يخيل للناظر اليهم وكأن ملابسهم علقت على هياكل عظمية . وكان من الرهيب أن يشاهدهم المرء وقد علت شفاههم ظلال ابتسامات موجهة الى النسوة اللائى رحن يهرولن بمحاذاة القول ويبكين ، بينما كان الجنود يطردونهن بعيدا يدفعونهن بقبضات أياديهم وكعوب أسلحتهم .

ولم تنقض سوى لحظة واحدة منذ تطلعت ليوبكا من مكانها بالوهدة الى القول السائر ، حيث كانت فى اللحظة التالية ، ودون أن تذكر متى وكيف تناولت من على المفرش رغيفا أبيض وطعاما آخر ، قد راحت تهرول فى جوربها النسائى الخفيف ، حافية القدمين تقطع ذلك الطريق الفرعى غير الممهد حتى اعتلت الطريق الواسع واقتحمت القول تناول الخبز والطعام الأسرى الذين امتدت أياديهم السمراء هنا وهناك . وحاول ضابط الصف الرومانى الامساك بها الا أنها تملصت منه ، ليهوى عليها بقبضتيه ، بينما حنت رأسها تدافع عن نفسها بمرفقيها ، الأيسر تارة ، والأيمن تارة أخرى وهى تصرخ :

— لك أن تضربنى أيها الكلب الحقير . . اضرب ، لكن حذار رأسى !

واجتذبتها الأيادى القوية من داخل القول ، لتجد نفسها فى عرض الطريق ، تشاهد الملازم الألمانى يصفع ضابط الصف الرومانى بقوة ، بينما وقف معتدل القامة ضابط جيش الاحتلال الرومانى فى زيه الأخضر الفاتح ازاء العقيد الهائج شديد الشبه بالكلب الضامر ، يتمتم ببعض كلمات بلغة الروميين القدماء فى غير ترابط .

غير أنها عادت الى وعيها تماما حين وجدت حذاءها البيج قد استقر فى قدميها ، داخل سيارة الضابطين الألمانيين التى أخذت تنهب الطريق فى اتجاه فوروشيلوفجراد . وكان أكثر مما يثير الدهشة هو أن الضابطين لم يجدا فى تصرف ليوبكا أى غرابة .

وتجاوزت العربة نقطة المراقبة الألمانية دون أدنى عقبات ، لتدخل الى المدينة .

والتفت الملازم الى ليوبكا يسالها عن مقصدها . واشارت له ليوبكا التى هدأ روعها تماما الى الشارع بما يعنى الاستمرار فى السير ، وحتى ظهر منزل بدا لها مناسبا لابنة أحد أصحاب المناجم ، لتشير اليه بالتوقف عنده .

ودلفت ليوبكا الى مدخل ذلك البيت المجهول تحمل على يدها معطفها ، يتبعها الملازم الذى حمل حقيبة ملابسها . وهنا ترددت بعض الشىء ، فى حيرة من أمرها . هل لها ان تحاول التخلص من الملازم أم تطرق فى حضرته باب أول شقة تصادفها ؟ ورنت اليه بناظريها فى وداعة ليسىء فهم تلك النظرة ويروح يضمها اليه بيده الخالية . وفى تلك اللحظة ودون ان يراودها الغضب لطمته فى قوة على خده وهرولت ترتقى الدرج . وتقبل الملازم تلك الصفعة بوصفها أمرا طبيعيا ودون ان تتلاشى تلك الابتسامة التى كانوا يسمونها فى الروايات القديمة بالمصطنعة ، ليصعد السلم فى اثرها حاملا حقيبتها فى اذعان .

وتوقفت عند الطابق الثانى أمام شقة طرقت بابها بقبضتها فى حسم ، وكأنما هى عائدة الى بيتها بعد غيبة طويلة . وفتحت الباب سيدة فارعة القامة ، نحيفة ، تنم عن غضب وهيبة قسمات وجهها الذى ظل يحمل مسحة من جمال الماضى ، أو اعتنائها الشديد بنفسها فيما قبل . لقد وقف الحظ فى هذه المرة الى جانب ليوبكا ، وبكل تأكيد .

— دانك شين هر ليفتنانت * .

نطقتها ليوبكا بالمانية ركيكة وبجهد جهيد حيث حاولت استعراض كل ما تعرفه من كلمات تلك اللغة ، ومدت يدها تتناول حقيبتها .

وراحت السيدة التى فتحت الباب تنظر الى الملازم الألمانى والى تلك الألمانية ذات الرداء زاهى الألوان ، تكسو وجهها امارات الرعب الذى لم تستطع اخفاءه .

— لحظة !

ندت عن الملازم الذى وضع الحقيبة وتناول بسرعة من حقيبته

* شكرا ايها سيد الملازم . بالالمانية . الناشر .

الميدانية المعلقة الى كتفه مفكرة سجل فيها بقلم رصاص سميك بعض الكلمات ثم انتزع منها تلك الورقة ليناولها الى ليوبكا .

وكانت الورقة تحمل عنوانه . ولم يسعف الوقت ليوبكا لا للاطلاع على ذلك العنوان ، ولا للتفكير فيما كان يمكن أن تسلكه ابنة صاحب المناجم اذا ما كانت فى مثل وضعها الحالى . ودست الورقة بسرعة فى صدرها ، وأومأت فى لامبالاة الى الملازم الذى ادى التحية العسكرية لها ، ودلفت الى الردهة . وترامى الى سمع ليوبكا كيف أوصدت السيدة من خلفها الباب بمختلف اقفاله وسلاسله .

وتساءلت الفتاة الصغيرة من مكانها داخل الغرفة :

— ماما ! من الذى كان فى زيارتنا ؟

واجابتها الأم :

— اخفضى صوتك . سوف أشرح لك الآن !

وولجت ليوبكا الى الغرفة تحمل الحقيبة باحدى يديها ، بينما القت بمعطفها على يدها الأخرى .

— لقد وجهونى للسكنى معكم فى هذه الشقة . الن اضايقكم ؟

تساءلت ليوبكا وهى تنظر الى الفتاة الصغيرة فى مودة ، وتجول بناظريها فى الشقة الكبيرة ، جيدة التأثيث ، وان كانت تبدو كما المهجورة . قد تكون مسكنا لطبيب او مهندس أو بروفيسور ، الا انه كان يبدو أن الشخص الذى جرى تأثيث الشقة على هذا النحو من اجله ، يغيب عنها اليوم .

وسألت الفتاة الصغيرة بنبرة تتسم ببعض الدهشة :

— طريف أن نعرف من الذى وجهكِ الينا ؟ الألمان ، أم من ؟

كان من الواضح ان الفتاة الصغيرة قد عادت على التو من الخارج ، اذ كانت رياح الشارع قد ضرّجت وجنتيها حمرة ، كما وانها لم تكن قد خلعت بعد البيريه ، بنى اللون الذى كان يعلو رأسها . وكان عمرها يناهز الرابعة عشرة ، تتسم بالبدانة ، قواما ورقبة ووجنتين ، قوية البنية ، ذات عينين كستنائيتين .

وذكرت الأم فى صرامة :

— تاموتشكا ! ان هذا الأمر لا يعنينا على الاطلاق .

— كيف لا يعنينا ، اذا كانت سوف تقيم فى شقتنا .

وسألت السيدة فى ارتباك :

— معذرة . هل انت المانية ؟

واجابت ليوبكا فى تردد :

كلا ، اننى روسية . اننى فنانة !

وخيّمت برهة من الصمت ، تمالكت فيها الفتاة الصغيرة روعها تماما ، وليبدو كل شىء واضحا فيما يخص ليوبكا .

— لقد هاجرت كل الفنانات الروسيات !

واستشاطت الفتاة غضبا لتترك الغرفة على التو .

وهكذا تحتم على ليوبكا احتساء كاس المرارة حتى الثمالة ، والتى تقض مضاجع كل غاز فى الأراضى المحتلة . لكنها كانت تدرك انه من الأفضل لها ان تتشبث بهذه الشقة ، وبنفس الهوية التى تقبلها بها أصحاب المسكن .

وذكرت ليوبكا :

— اننى لن اقضى بينكما فترة طويلة ، حيث سوف ابحث لنفسى عن مقر دائم للاقامة .

وقد كانت تواقة لأن تلقى معاملة طيبة فى هذا المسكن ، ومضت تقول :

— اقسم اننى سوف أجد لنفسى وبسرعة مكانا للاقامة ! اين لى ان اغيّر ملابسى ؟

وبعد نصف ساعة خرجت الفنانة الروسية فى فستانها الأزرق وحذاء من نفس اللون ، وقد ألقت على ذراعها بمعطفها ، تتخذ طريقها نحو مزلقان السكة الحديدية ، عند المنخفض الذى يشطر المدينة الى جزئين . وقطعت طريقا ترابيا ارتقى بها الى التل حيث شارع كامينى برود . لقد وصلت الى تلك المدينة لتقديم بعض العروض الفنية ، وتقوم اليوم بالبحث عن مقر دائم لسكناها .

الفصل السابع والثلاثون

فضّل ايفان فيدوروفيتش كانسان يتسم بالحرص ، عدم اللجوء بقدر الامكان الى شقق اللقاءات التى افردت له بما فيها الموجودة فى فوروشيلوفجراد . بيد انه كان غاية فى الضرورة ان يتوجه ايفان

فيدوروفيتش الى فوروشيلوفجراد ، ولا سيما بعد استشهاد ياكوفينكو أول السكرتيرين الاقليميين . ولما كان رجلا يتميز بالجسارة والجراة فقد غامر باللجوء الى عون معارفه القدامى ، اى بالذهاب الى صديقة زوجته ، وهى امراة وحيدة هادئة لم يسعدها الحظ على الصعيد الشخصى ، تدعى ماشا شوبينا . وكانت تعمل رسامة هندسية فى مصنع بناء قاطرات السكك الحديدية . ولم تكن قد نزحت ضمن المهجّرين من المصنع لا مع الدفعة الأولى ولا مع الثانية ، نظرا لحبها للمدينة ، واذ كانت رغما عن كل شىء على ثقة من انها لن تسقط ، ومن ثم يمكن ان تكون ذات جدوى .

وقرر ايفان فيدوروفيتش التوجه الى ماشا شوبينا ، وفقا لنصيحة زوجته ، وبعد ان تشاورا فى الامر خلال تلك الليلة التى قضياها فى قبو مارفا كورنينكو .

ولم يكن ايفان فيدوروفيتش ليستطيع اصطحاب زوجته ، حيث كان كلاهما قد عمل فترة طويلة فى فوروشيلوفجراد ، مما قد يجعلهما موضع انظار الجميع هناك . كما وكان من الأفضل لمصالح العمل ان تبقى يكاتيرينا بافلوفنا كى تكون على صلة بمجموعات الفدائيين ومنظمات العمل السرى فى المنطقة . ولذا كانا ليلة مبيتهما فى القبو قد اتفقا حول انه الافضل ان تبقى يكاتيرينا بافلوفنا فى ضيافة مارفا متذرعة بصلة القرابة ، لتعيش معها ، واذا ما تيسر الأمر يمكن أن تعمل كمدرسة باحدى القرى المجاورة .

وحين اتخذا هذا القرار ، توارد الى خاطريهما انهما يفترقان لأول مرة منذ بدء حياتهما الزوجية ، وفى مثل تلك الظروف التى يمكن ان تفرقهما الى الأبد .

وظلا طويلا لا ينطقان حرفا يعانق كل منهما الآخر . وفجاة راودتهما مشاعر السعادة والارتياح ازاء كونهما يجلسان متعانقين هكذا فى مثل ذلك القبو الرطب المظلم .

ولم يكونا فى حاجة الى الافصاح عن مشاعرهما ، شان كثير من العائلات القائمة منذ زمن بعيد وعلى نحو وطيد بفضل وحدة وجهات النظر ، وعمل الزوج والزوجة ، وكذلك الأطفال . وكانت المشاعر تتاجج فى أعماقهما مثل النار تحت الرماد ، تعلن عن نفسها فجاة لحظة المحن والمصاعب ، وفى السراء والضراء . وكم اجتاحتهما آنذاك

ذكريات لقاءاتهما الأولى فى حديقة لوجانسك ، وتلك الرائحة المنبعثة من أشجار الاقاصيا تغمر أرجاء المدينة ، والسماء المرصعة بالنجوم التى انبسطت فوق صباهما واحلامهما اللامحدودة ، والسعادة بمولد الطفل الأول وأوائل الخلافات الناجمة عن تباين طباعهما ! ويالها من خلافات فاتت ! اذ ليس هناك سوى النفوس الضعيفة هى التى تتهاوى ازاء مواجهة مثل هذه الخلافات ، امّا القوية فهى تلك التى تلتئم وتتلاحم الى ابد الآبدين .

ان الحب يتطلب مواجهة المحن العصيبة ، وكذلك الذكريات الحية للحظات بدايته . ذلك لأن المحن تدعم أواصر العلاقات البشرية بينما تقف الذكريات حاجزا دون تقدم السن . كم هى عظيمة قوة كلمتى «هل تذكر ؟ . .» فى معرض الطريق المشترك ، اذا ما كانت تؤرق المرء مشاعر الذكريات . ان هاتين الكلمتين لا تعبران عن الذكريات ، بقدر ما تعنيان ضوء الشباب الخالد ، والدعوة الى مواصلة الطريق نحو المستقبل . وياله من انسان سعيد ذلك المرء الذى استطاع التمسك بهما !

وقد عاش تلك المشاعر ايفان فيدوروفيتش وكاتيا حين كانا يجلسان فى قبو مارفا كورتينكو المظلم .

لقد كانا يجلسان فى صمت ، بينما تتردد فى أعماقهما . . «هل تذكر ؟ . .» كانا يذكران على نحو خاص ذلك اليوم الذى افصح كل منهما فيه عن حقيقة مشاعره . ظلا يلتقيان على مدى شهور عديدة ، مما جعلها تعرف كل شىء تقريبا عن حقيقة تلك المشاعر من تصرفاته وأحاديثه . غير أنها لم تكن تسمح له أبدا بالافصاح صراحة عنها ، علاوة على انها لم تكن تعده بشىء .

كان قد اقنعها بالمرور عليه فى اليوم التالى ، فى فناء مسكن الطلبة الذى كان يعيش فيه أيام كان يدرس بالمدرسة الحزبية . واعتبر موافقتها انتصارا باهرا حققه ، حيث أنها تعنى كونها لا تخجل من أن يراها رفاقه الطلبة الذين كان يغص بهم الفناء فى مثل تلك الساعة التى تنتهى فيها دراستهم .

ودلفت الى فناء المسكن المزدحم بالطلبة . وكان يتوسط الفناء بعض الطلبة الذين راحوا يمارسون لعبتهم المفضلة ، حيث شاهدته ضمنهم يرتدى قميصا أوكرانيا مفتوح الصدر ، مفعما بالمرح

والنشاط . وهرول يستقبلها آنذاك قائلا «انتظرى ، سوف نفرغ من اللعب حالا . .» وتوجه الطلبة نحوهما بانظارهم ، ثم افسحوا لها مكانا لتجلس تشاهد اللاعبين ، الذين لم يكن هناك سواه استأثر بانتباهها .

وقد كانت تشعر دائما بالاستياء بعض الشىء ازاء كونه قصير القامة ، الا أنها وكأنما للمرة الأولى شاهدته قويا ماهرا لعوبا . وادركت انه يمعن الاجادة فى اللعب والاستعراض ، لكونها جالسة تشاهده كما وظل طوال الوقت يسخر من خصومه .

وآنذاك كانت قد انتهت عملية تغطية شارع لينين بالأسفلت لأول مرة . وكان الجو حارا ، لدرجة ان اسفلت الشارع انصهر تحت اشعة الشمس ، فى حين كانا يسيران مفعمين بالسعادة . وقد سار الى جوارها فى قميصه الأوكرانى الذى اغلق صدره ، فيما استقر شعره الأشقر موجات على رأسه . وعرج الى احد الاكشاك حيث ابتاع منه فى سرعة بعض البلح المجفف الذى حمله فى جريدة استقرت على يديه . وكان البلح ساخنا ، حلوا راحت تتناوله وحدها ، حيث انغمس هو فى حديث لا ينقطع . وكان أكثر مما علق بذاكرتها هو عدم وجود سلة للقمامة فى ذلك الشارع النظيف المغطى بالاسفلت ، مما جعلها تبقى نوى البلح فى فمها على أمل التخلص منه فى أول شارع يصادفهما يكون أسوأ حالا .

وفجأة توقف عن الحديث ، وصار يتأملها بعينيه وحتى تملكتها الحيرة ؛ ثم ذكر :

– انني سوف اقبلك الآن ، وعلى مرأى من الجميع !

وهنا استيقظت فى أعماقها مشاعر التمرد والجموح ، لتنظر اليه شزرا من تحت اهدابها قائلة :

– اياك أن تحاول . . . والا سوف أبصق فى وجهك بكل النوى !

وسألها فى جدية :

– وهل هو كثير ؟

– حوالى اثنتى عشرة نواة !

– هيا بنا الى الحديقة ! ركضا !

وامسك بيدها ليهرولا سويا ودون ان يتيح لها فرصة

التفكير ، يقصدان الحديقة ، ضاحكين دون ان يعيرا اهتماما الى البشر المحيط بهما .

هل تذكر ؟ . . هل تذكرى اية ليلة كانت آنذاك فى الحديقة؟ . .

واليوم وفى ذلك القبو المظلم مثلما كان الحال فى حديقة لوجانسك تحت اضواء النجوم ، دفنت كاتيا وجهها الدافئ على نحو يوحى بالثقة ، فيما بين رقبة زوجها وخده الذى نبت به بعض الشعر الخفيف ، وكتفه القوية . ولبثا يجلسان هكذا حتى مطلع الفجر دون أن يغمض لهما جفن . ثم قام ايفان فيدوروفيتش يضم زوجته اليه على نحو أكثر قوة ثم دفعها فى رقة قائلا :

— لقد حان الوقت ياعزيزتى . . هيا بنا يا حبيبتى !

بيد أنها لم ترفع راسها ، وظلا يجلسان على نفس النحو وحتى سيطر الضوء على كل أرجاء المكان .

وبعث ايفان فيدوروفيتش بالعجوز كورنى تيخونوفيتش وحفيده الى قاعدة ميتياكين لمعرفة مدى خسائر الفصيل . وظل ايفان يشرح للعجوز فى اسهاب كيفية العمل فى مجموعات صغيرة ، وطريقة تشكيل المجموعات الفدائية الجديدة من الفلاحين والقوزاق والعسكريين القدامى الذين استقروا بالقرى .

وريثما كانت مارفا تقدم لضيوفها الطعام استطاع احد الكهول من اقاربها البعيدين تجاوز خط حراسة الصبية ، والوصول الى المائدة فى اللحظة المناسبة . وقد تشبث ايفان فيدوروفيتش المحب للاستطلاع بالجد رغبة منه فى معرفة رأيه فى الوضع القائم . وقد كان الكهل هو ذلك الحوذى المحنك الذى تولى نقل كوشيفوى واقاربه ، والذى صادر الجنود الالمان الذين صادفوهم ، حصانه فاتح اللون مما دفعه للعودة الى اقاربه بالقرية . وادرك الكهل على الفور أنه ازاء شخص غير عادى ، ولذا فقد راح يتلاعب فى اجاباته بالأوكرانية :

— لك أن تتصور مجمل الأمور . هاك قواتهم تزحف علينا لليوم الرابع على التوالى . ويالها من قوات هائلة ! ان الحمر لن يستطيعوا على ما يبدو العودة من جديد . وماذا يمكن قوله ، حيث المعارك تدور فيما وراء الفولجا وبالقرب من كويبيشيف ، علاوة على حصار

موسكو وسقوط لينينغراد ! ولقد ذكر هتلر أنه سوف يستولى على موسكو بعد ان يضنيها الجوع .

وذكر ايفان فيدوروفيتش فيما تومض عيناه بقوة :

— او تظننى أصدق أنك تثق فى هذه الأكاذيب ! فلتسمع ياصديقى المحنك ! لعل قوام كل منا لا يختلف عن الآخر ، ولذا فلتعطنى ملابسك وحذاءك ، على أن أترك لك ملابسى .

واذ ادرك الكهل جوهر الأمر نطق بالروسية يقول :

— آه . . هكذا الحال ! فلتنتظر لحظة أعود لك بعدها بالملابس .

وفى غرفة ماشا شوبينا بشارع كامينى برود ارتمى ايفان فيدوروفيتش يرتدى ملابس ذلك الكهل ، يحمل على كتفه كيس ملابسه ، قصير القامة ، جعلته لحيته الكثة أشبه بالعجوز على الرغم من أنه لم يكن كذلك .

وراودته المشاعر الغريبة لحظة كان يرتدى ذلك القناع غير المألوف ، يذرع شوارع مدينته الحبيبة .

لقد ولد ايفان فيدوروفيتش فى تلك المدينة ، وعمل بها سنوات عديدة . كما وحضر وساهم بشكل فعال فى بناء كثير من المؤسسات والهيئات والنوادى والمبانى السكنية . وتذكر على سبيل المثال كيف اقر اجتماع هيئة رئاسة مجلس المدينة زراعة هذه الحديقة ، وكيف تولى بنفسه عملية تخطيطها وغرس الشجيرات فيها . وكم من الجهود التى بذلها شخصيا لتحسين أحوال مدينته الحبيبة ، ومع ذلك كان يتعرض للوم فى اللجنة الحزبية للمدينة بسبب عدم نظافة افنية المنازل والشوارع ، حيث كان ذلك الأمر حقيقة واقعة .

وها هو اليوم يرى المبانى وقد تهاوى وتداعى بعضها نتيجة القصف الجوى ، ولم يكن يبدو واضحا للعيان كثيرا ، وفى خضم الدفاع عنها كون ذلك قد شوه منظر المدينة . غير أن الأمر لم يكن فى ذلك وحسب . فقد أقفرت المدينة على مدى بضعة اسابيع ، لدرجة يصعب معها ان يكون سكانها الجدد يصدقون انهم استقروا بها الى الابد . فلم يكن ثمة من يكنس أو يرش شوارعها ، وذبلت الخضرة والزهور فى الحديقة ، ونمت الأعشاب الطفيلية فى ارجائها

وتطايرت القمامة واعقاب السجائر مختلطـــة بالغبار الأحمـر الكثيف .

هكذا كانت احدى عواصم منطقة مناجم الفحم ، التي كانت تحظى بقدر من البضائع اكبر من ذلك الذى تحظى به كثير من المناطق الأخرى بالبلاد ، وحيث كانت شوارعها تغص بالمارة بملابسهم الأنيقة متباينة الألوان . وكانت هذه المدينة الواقعـة فى جنوب البلاد ذات طقس دافئ ، كثيرة الفواكه والزهور والحمام . اما اليوم فقد ندر من يذرع شوارعها ، بينما بدا أولئك الذين يشاهدهم المرء بها كالحى الوجوه وكأنما عن عمد ، فى ملابس متشابهـة النمط والألوان انتقيت فى لامبالاة . أما المنظر العام للشارع فكان يشكله جنود وضباط الاعداء بستراتهـم العسكرية وعلامات اكتافهـم وشاراتهم ، والذين كانوا فى غالبيتهم من الألمان والايطاليين وكذلك الرومانيين والمجريين ، تترامى الى الأسماع اصواتهم وهدير محركات وابواق سياراتهم التى تنهب الشوارع تثير الزوابع الترابية . ولم يحدث أبدا أن شعر ايفان فيدوروفيتش طيلة حياته بمثل هذا الأسى والشفقة والحب تجاه مدينته واهلها .

لقد اجتاحته مشاعر أشبـه بتلك التى يعيشهـا المرء حين يطردونه من بيته ، ليتسلل خلسة عائدا اليه ، وليجـد ان الاصحاب الجدد ينهبون كل ما فيه ، يستولون بايديهم القذرة على كل ما هو عزيز لديه ، يهينون ذويه ، فيما لا يستطيع شيئا سوى النظر اليهم ، عاجزا عن التصدى لكل ذلك .

وقد تركت هذه الهموم والكآبة بصماتها على صديقة زوجته فى ردائها الأسود البالى ، والتى عقدت شعرها الأصفر فوق راسها فى غير مبالاة ، تنتعل شبشبا فى قدميها اللتين لم تمسهما المياه منذ زمن بعيد . وكان باديا انها تنام هكذا غير نظيفة القدمين .

ولم يتمالك ايفان فيدوروفيتش نفسه ليصيح :

— ماشا ! هل يمكن التدنى الى هذا الحد !

وتطلعت الى نفسها فى فتور ثم قالت :

— أحقا تقولون ؟ اننى لم ألحظ فى ذلك شيئا غريبا . وعلى أى حال فان ذلك أفضل ، حيث ليس ثمة من أسترعى انتباهه على هذا النحو . علاوة على أن المياه مقطوعة عن المدينة .

وصمتت ، ليتأملها ايفان فيدوروفيتش وليجد انها قد غدت نحيفة تعيش فى غرفة ليس بها ما يدعو الى الراحة ؛ وظنها تكون قد واجهت بالتأكيد الجوع الذى ارغمها على بيع كل ما تملكها .

وشرع يقول فى ارتباك وقد استقر الى جوار كيس حاجياته :

— هيا بنا نتناول طعامنا . لقد اعدت لى احدى السيدات الطيبات الذكيات ما يمكن أن يكفينا شر الجوع .

ودفنت وجهها بين راحتيها قائلة :

— يا الهى . . هل تظن ان هذا السبب ؟ فلتأخذونى معكم الى كاتيا ، اننى على استعداد لخدمتكم جميعا ، وتقديم كل ما فى وسعى ! اننى مستعدة للقيام باعباء خادمة ، حتى اتخلص مـن تلك المهانة اليومية ، ومن ذلك الموت البطئ بلا عمل أو هدف فى هذه الحياة !

لقد كانت تخاطبه كعادتها بصيغة الاحترام ، على الرغم من انها كانت تعرفه منذ تزوج كاتيا ، صديقتها منذ سنى الطفولة . وقد كان يعرف فيما سبق انها لا تستطيع مخاطبته بصيغة المفرد ، حيث هى عاجزة عن التخلص من تلك المسافة التى تفصل فيما بينهـا هى الرسامة الهندسية وهو الشخصية القيادية المرموقة .

وكست تجعيدة عميقة طويلة جبهـة ايفان فيدوروفيتش الذى اتسمت عيناه الزرقاوان بامارات قلق مشوب بالصرامة ، وصار يقول دون أن ينظر اليها :

— اننى سوف اتحدث معك بصراحة ، وربمـا فى خشونة . ماشا ! لو كان الأمر يخصك ويخصنى وحدنا ، لاستطعت أن آخذك معى الى كاتيا لاخفاء كليكما ، والاختفاء بنفسى .

ثم ضحك فى مرارة ، ليمضى قائلا :

— نعم ، اننى خادم الدولة وأود أن تقومى انت كذلك بخدمة دولتنا . اننى لن آخذك معى وحسب ، بل وارغب فى القائك الى أتون الجحيم . فلتجيبى صراحة . . هل انت موافقة ؟ هل ستجدين فى نفسك القوة الكافية لمواجهة ذلك ؟

واجابته :

— اننى موافقة على كل شئ ، وكى لا اعيش مثل هذه الحياة التى أعيشها .

وذكر ايفان فيدوروفيتش فى صرامة :
— كلا . . ان هذه ليست اجابة — اننى لا أقترح عليك حلا للتخفيف عن همومك . اننى اسألك عما كنت على استعداد لخدمة الشعب والدولة .
وأجابت فى هدوء :
— اننى موافقة !
ومال بسرعة تجاهها ليمسك بيدها فيما يجلسان حول المائدة .
— ينبغى الاتصال برجالنا فى المدينة ، بيد ان بعض الشقق قد سقطت ، ولذا فلست على يقين بعد على أية من الشقق يمكن الاعتماد . يجب أن تجدى فى نفسك الجسارة والدهاء ، وعلى نحو يفضل الشيطان نفسه . ينبغى التأكد من الشقق التى سوف اعطيك عناوينها . هل تستطيعين ذلك ؟
— نعم ، أستطيع .
— ان اكتشفوا أمرك فسوف يعذبونك على نار هادئة . الن تشى بنا ؟
ولزمت الصمت بعض الوقت وكأنما تراجع روحها ، ثم قالت :
— لن اشى بكم .
— اذن فلتسمعينى . . .
وعلى ضوء مصباح الزيت الخافت للغاية ، مال قريبا منها بحيث استطاعت أن تلحظ آثار ذلك الندب الحديث على فوده الصليع ، ليهمس اليها بعنوان احدى الشقق فى نفس منطقة كامينى برود ، والتى تصورها اكثر أمانا من غيرها . وكانت هذه الشقة تشكل اهمية خاصة بالنسبة له حيث كان يستطيع عن طريقها الاتصال بقيادة فدائيى أوكرانيا ، ومعرفة كل ما يدور ليس فى المقاطعة وحدها ، بل وفى الأراضى السوفييتية ، وفى العالم أجمع .
وأعلنت ماشا عن استعدادها للذهاب توا الى هناك : ومست شغاف قلب ايفان فيدوروفيتش تلك التضحية الساذجة المشوبة بعدم الخبرة . وومضت عيناه فى دهاء ، ليقول معاتبا فى مرح وطيبة :
— وهل يعقل هذا ! ان ذلك عمل يتطلب دقة متناهية كما

فى بيوت الأزياء . انك سوف تذهبين فى حرية وفى وضح النهار ، وسوف أعلمك كيف وماذا . . اننى ملزم بحمايتك ! من صاحب ذلك البيت ؟
كانت ماشا تستأجر احدى غرف ذلك المنزل الصغير الذى يئول الى أحد العمال القدامى بمصنع بناء قاطرات السكك الحديدية ، والمشيد من الأحجار ، يشطره قسمين دهليز ذو مدخلين ، يفضى احدهما الى الشارع ، والآخر الى الفناء الذى يحيط به جدار حجرى منخفض . وكان أحد هذين القسمين مكونا من غرفة ومطبخ ، اما القسم الآخر ، فمن غرفتين صغيرتين كانت ماشا تستأجر احداهما . وكان للكهل صاحب المنزل أولاد كثيرون فارقوه جميعا ، انخرط احدهم فى صفوف الجيش ، بينما هاجر الآخر ، وتزوجت بناته ورحلن الى مدن اخرى . وذكرت ماشا ان صاحب المنزل كان متيسر الحال بعض الشىء ، منطويا على نفسه ، يهوى القراءة ويتسم بالأمانة والشرف .
— اننى سوف اقدمكم بوصفكم خالى ، شقيق امى الأوكرانية القادم من القرية ، بعد أن كتبت لكم للحضور ، حيث تصعب على الحياة وحدى .
وذكر ايفان فيدوروفيتش ساخرا :
— حسنا ، فلتعرفى خالك على صاحب البيت ، ولننظر الى مدى انطوائه !
— اى عمل يمكن القيام به ؟ عن اى عمل تتحدث ؟
دمدم ذلك «المنطوى» على نفسه ، فيما يحدق بناظريه الكبيرين فى لحية ايفان فيدوروفيتش والندب الذى علا فوده الأيمن ، ثم مضى يقول :
— لقد قمنا باخلاء المصنع من آلاته مرتين ، بينما قصفه الألمان عدة مرات . كنا نصنع قاطرات السكك الحديدية ، والدبابات والمدافع ، أما اليوم فنقوم بتصليح وابورات الجاز و«الولاعات» . غير انه وبطبيعة الحال بقيت بعض المعدات ، واذا ما بذل الانسان جهده جيدا يمكن ان يجد كثيرا من الآلات هنا وهناك ، وذلك امر يتطلب رب عمل جاد . اما أرباب العمل الحاليون — واشاح بقبضة قوية ليده الصغيرة المعروقة — فهم قوم غير جادين ! انهم لصوص

صغار ! هل تصدق أنه قد جرى تقسيم المصنع فيما بين ثلاثة من الملاك : كروب – الذى اشترى اسهم هارتمان الذى كان من قبل يملك المصنع ، وادارة السكك الحديدية ، وشركة الكهرباء التى آلت اليها محطة الكهرباء الحرارية ، وان كان رجالنا قد فجروها قبل الرحيل . وقد راح هؤلاء الملاك يذرعون المصنع ذهابا وايابا ، ثم اتفقوا فيما بينهم على تقسيم المصنع الى ثلاثة اقسام . وشر البلية ما يضحك . لقد راحوا يقسمون ذلك المصنع الذى تداعت جدرانه بوضع الشواهد كحال الفلاحين أيام القيصر حين كانوا يحددون مساحات أراضيهم ، كما وبلغ بهم الأمر أن فعلوا ذلك حتى عبر الطرق التى تربط أجزاء المصنع ، وحفروا فيه الحفر مثل الخنازير . هكذا جرى تقسيم المصنع ! وراح كل منهم ينقل معدات الجزء الخاص به الى المانيا ، أما المعدات البسيطة غير ذات القيمة فقد راحوا يتجرون بها هنا وهناك كالمضاربين فى الأسواق ، فى حين راح عمالنا يسخرون منهم قائلين : «لقد أنعم الله على الملاك الجدد !» . انك تعلم اية احجام من العمل تعودنا عليها فى السنوات الأخيرة ، ولذا يصعب علينا ليس فقط الوقوف امام مثل هذه المعدات ، بل والنظر اليها أيضا . وهكذا يصبح الأمر حقيقة . . شر البلية ما يضحك !

لقد تجمع حول مصباح الزيت الخافت ايفان فيدوروفيتش بلحيته الطويلة ، وماشا التى التزمت الصمت ألما كامراة عجوز ، وذلك الرجل «المنطوى» ، فيما راحت ظلالهم تتلاقى لتفترق وتضيع على جدران الغرفة وسقفها . وبدا جميع الجالسين وكأنما هم من أهل الكهف . كان «المنطوى» يبلغ من العمر حوالى السبعين ، قصير القامة ، نحيف البنية ، ضخم الراس يصعب على بنيانه تحملها ، تتسم نبراته بالرتابة والكآبة لتبدو كل كلماته متشابكة غير واضحة . أما ايفان فيدوروفيتش فقد كان يرتاح لسماع حديث العجوز ، حيث كان يتسم بالذكاء والاخلاص ، وكذلك لأنه راق له أن يجد عاملا يتحدث هكذا فى اسهاب ، ويشرح بالتفصيل كافة الشؤون الصناعية فى ظل الألمان لانسان قابله بمحض الصدفة .

ورغما عن ذلك فلم يطق ايفان فيدوروفيتش صبرا ، ليدلى بوجهة نظره :

– اننا فى القرية نتصور ان الالمان ليسوا فى حاجة الى تطوير الصناعة هنا فى اوكرانيا ، حيث يهمهم تطويرها هناك فى المانيا . انهم لا يحتاجون منا سوى الحبوب والفحم ، يتصورون اوكرانيا مستعمرة لهم ، أما نحن فنوع من العبيد .

وتصور ايفان فيدوروفيتش ان «المنطوى» ينظر اليه فى دهشة ، لتند عن شفتيه ابتسامة ساخرة ثم مضى يقول :

– ليس ثمة ما يدعو الى الدهشة ازاء تفكير شعبنا على هذا النمط . فلقد نمى وعيه كثيرا .

وذكر الرجل دون أن تند عنه أية من أمارات الدهشة ازاء احكام ايفان فيدوروفيتش :

– هذه هى القضية . حسنا . . فلنفترض أنها مستعمرة ، فهل هذا يعنى أنهم اهتموا بتطوير اقتصاديات القرية ؟

وضحك ايفان فيدوروفيتش ليقول فى هدوء :

– اننا نقوم بأنفسنا ببذر البذور وحراثة الأرض دون الاستعانة بمعدات أو جرارات ، وانت تدرك أن هذا من يعود بالكثير .

ولم تعتر الدهشة «المنطوى» ازاء ذلك أيضا ليقول فى هدوء :

– هذه هى القضية كذلك . انهم لا يجيدون الادارة . لقد تعودوا قطف ثمار عمل الآخرين كقطاع الطرق . هكذا يعيشون فيما يظنون أنهم قادرون على اخضاع العالم بمثل هذه الثقافة . يا لهم من أغبياء !

وفكر ايفان فيدوروفيتش فيما بين نفسه بارتياح :

«آه ، منك يا عجوز ! كم أنت اكثر قوة ومهارة منى انا الفلاح !»

وتساءل الرجل دون أن تتغير نبرته :

– هل رآك احد حين جئت الى ابنة شقيقتك ؟

– ليس هناك من رآنى ، كما انه ليس ثمة ما اخافه . اننى احمل الوثائق المطلوبة .

وذكر الرجل فى دهاء :

– انتى افهم هذا . بيد ان النظام يحتم ابلاغ الشرطة بوجودك ، الا انه اذا ما كنت لا تنوى الاقامة طويلا ، فمن الأفضل الا نفعل ذلك . ولذا اقول لك صراحة يا ايفان فيدوروفيتش انتى عرفتك على التو ، حيث كنت قد زرت مصنعنا مرارا ، واخشى ان يراك احد ضعاف النفوس .

كلا . . لقد أصابت زوجته حين ذكرت أنه محظوظ منذ الولادة !

وفى وقت مبكر من صباح اليوم التالى ذهبت ماشا الى العنوان المطلوب لتعود الى ايفان فيدوروفيتش بمجهول القى بالتحية على صاحب البيت وكأنما هما صاحبان قديمان مما أذهل ايفان فيدوروفيتش وماشا . وقد عرف ايفان فيدوروفيتش من ذلك الشخص ان صاحب البيت «المنطوى» احد اولئك الذين استبقيوا للعمل السرى .

كما وعلم ايفان فيدوروفيتش من هذا الشخص ولاول مرة بمدى توغل الألمان فى أعماق بلادنا ، اذ كانت قد بدأت آنذاك معركة ستالينجراد العظمى . وقضى ايفان فيدوروفيتش الأيام التالية فى مراجعة الأمور ، وبعث الاتصالات فى المدينة وكافة ارجاء المقاطعة .

وجاء نفس الشخص الذى استطاع ايفان فيدوروفيتش الاتصال عن طريقه بمنظمة العمل السرى بالمدينة ، بليوبكا – الفتاة حين كان منكبا على تصريف أمور العمل .

واذا استمع ايفان فيدوروفيتش الى كل ما استطاعت ليوبكا ان تقصه عليه بشأن استشهاد المعتقلين فى سجن كراسنودون ، جلس مكتئبا بعض الوقت غير قادر على ان يلفظ حرفا . لقد كان حزينا ، وحزينا للغاية بسبب استشهاد ماتفى كوستيفيتش وفالكو . وراح يفكر : «كم كانا قوزاقيين يتميزان بالطيبة» . ثم تواردت الى خاطره فجأة فكرة بشأن ما قد يحدث لزوجته التى بقيت وحدها هناك . ثم قال :

– حقا . . يا لصعوبة العمل السرى ! ان العالم لم يشهد قط أمرا على هذا القدر من الصعوبة .

وراح يذرع الغرفة ويتحدث مع ليوبكا وكأنما يتحدث مع نفسه :

– ان ثمة من يقارن عملنا السرى بمثيله أيام فترة التدخل الأجنبى وتسلط البيض ابان ثورة أكتوبر . . فهل هناك وجه للمقارنة ؟ ان قوة ارهاب هؤلاء الأوغاد تبلغ حدا يجعل البيض الى جوارهم اطفالا . انهم يقتلون البشر بالملايين ! غير اننا نملك عنصر تفوق لم يكن موجودا آنذاك ، ذلك ان رجالنا للعمل السرى ، وفدائيينا يعتمدون على كل قدرات حزبنا ودولتنا ، وقوة جيشنا الأحمر . كما ويملك فدائيونا وعيا أسمى ، وقدرة تنظيمية أفضل ومعدات واسلحة وسبل اتصال أكثر حداثة . وينبغى علينا ان نوضح للشعب كل ذلك . ان اعداءنا يتسمون بنقطة ضعف لا توجد عند اى امرئ آخر . انهم اغبياء لا يتصرفون الا وفقا للتعليمات وحسب جدول واطار محددين ، يعيشون بين أبناء شعبنا فى ظلمة تامة ، لا يدركون شيئا . وتلك أمور يجب علينا استغلالها .

ثم توقف ايفان فيدوروفيتش قبالة ليوبكا برهة ، مضى بعدها ثانية يذرع الغرفة من اقصاها الى اقصاها قائلا :

– ينبغى شرح كل ذلك للشعب ، حتى لا يخشاهم وكى يتعلم خداعهم ينبغى تنظيم الشعب ، وسوف يجد بنفسه فى نفسه القوة اللازمة . يجب تشكيل مجموعات العمل السرى الصغيرة فى كل مكان ، والتى يمكن ان تعمل فى المناجم والقرى . يجب على الناس الا تتخذ الغابات مخبأ لهم . . اننا ويا للشيطان ، نعيش فى أراضى الدونباس ! يجب علينا أن نقصد المناجم ، والقرى بل والمؤسسات الألمانية نفسها . . مكتب العمل ، ومكاتب الادارة والمديريات ، ومجالس الحكم فى الارياف ، والشرطة ، بل والجستابو نفسه . يجب ان تنشر الارهاب وان نقوم بالأعمال التخريبية فى الداخل ، ودون ادنى شفقة ! ينبغى تشكيل المجموعات الصغيرة من السكان المحليين ، من العمال والقرويين والشباب ، جماعات تتكون فى حدود خمسة افراد ، لكن فى كل مكان ، وكل زمان . أليس ذلك صحيحا ؟

ثم مضى يقول فيما تجتاحه مشاعر تنم عن رغبته الجارفة فى الانتقام والثأر ، انتقلت تلقائيا الى ليوبكا حتى ضاق صدرها :

– سوف تصطك أسنان هذا العدو رعبا !

وهنا تذكر ايفان فيدوروفيتش ما أبلغته به ليوبكا بناء على «تكليف من الكبار» :

— هذا يعنى ان الامور لديكم تسير نحو الأفضل ؟ انها تسير فى المواقع الأخرى كذلك . وليس ثمة عمل كهذا يمكن أن يتم دونما تضحيات . ما اسمك ؟ آه . . هكذا الحال . كلا . . لا يمكن أن تكونى قد بلغت من النضج هذه الدرجـــة ، ومع ذلك يدللونك بليوبكا . انك ليوبا ! — وهنا ومضت عيناه على نحو يوحى بالمرح ، ثم مضى قائلا : فلتقصى ما لديك من اخبار أخرى !

وعلى نحو بالغ النصاعة تخيلت ليوبكا نفسها وقد وقفوا هم السبعة صفا واحدا فى تلك الغرفة ، بينما كانت السحب الواطئـة تسبح فى السماء فيما وراء النافذة . كان الشحوب يعلو وجه كل من يتقدم ذلك الصف ، بينما كان صوته يعلو مرددا القسم فى نبرات رنانة ، تخفى تلك الرجفة المبجلة . وفجأة انفصل ذلك القسم الذى وضع كلماته أوليج وفانيا زيمنوخوف واقره جميعهم ، ليحوم فوق رؤوسهم ، يفوق القانون قوة وصرامة . وتذكرت ليوبكا كل ذلك ، ليمتقع وجهها اضطرابا ، وتبدو عيناها الزرقاوان الطفوليتان أكثر تعبيرا ، ثم قالت :

— نحن فى حاجة الى العون والمشورة .

— من هم نحن ؟

— نحن «الحرس الفتى» . ان قائدنا هو ايفان توركينيتش ، ملازم الجيش الأحمر ، وقع فى الحصار لاصابته بجراح . أمـــا القوميسار — المسؤول السياسى — فهو أوليج كوشيفوى من تلاميذ مدرسة جوركى . ويبلغ عددنا اليوم ثلاثين تقريبا ، اقسموا يمين الاخلاص . وقد جرى تقسيمنا فى مجموعات كل منها خمسة أفراد ، كما ذكرتم . وكان أوليج هو الذى اقترح ذلك .

— ربما يكون الكبار هم الذين أشاروا بذلك .

وهنا استدرك ايفان فيدوروفيتش الأمر ليقول :

— ان أوليج انسان جيد على كل حال !

واعترت ايفان فيدوروفيتش دفقة من النشاط غير عادية ليجلس قبالة ليوبكا التى اجلسها امامه يطلب منها ان تذكر أسماء كل اعضاء القيادة ورأيها فى كل منهم .

2—2422

وحين بلغت ليوبكا اسم ستاخوفيتش ، زرّ ايفان فيدوروفيتش عينيه ، ولمس يدها متسائلا :

— انتظرى . . ما اسمه ؟

— يفجينى .

— هل كان معكم طوال الوقت ، أم جاء اليكم من مكان ما ؟

وقصت ليوبكا عليه كيف ظهر ستاخوفيتش فى كراسنودون ، وماذا ذكر عن نفسه .

— عليكم أن تأخذوا حذركم من هذا الفتى ، وأن تضعـــوه فى اطار مراقبتكم .

وحدّث ايفان فيدوروفيتش ليوبكـــا عن ظروف اختفـــاء ستاخوفيتش من فصيل الفدائيين ، ثم ذكر على الفور :

— ربما يكون قد وقع فى قبضة الألمان .

وارتسمت امارات القلق على وجه ليوبكا ، ولا سيما لأنها لم تكن تحب ستاخوفيتش . ورنت بنظرها بعض الوقت فى صمت الى ايفان فيدوروفيتش ، ثم انشرح وجهها وومضت عيناها لتقول فى هدوء :

— كلا ، ان ذلك مستحيل . لعله جبن ولاذ بالفرار .

— لماذا تظنين الأمر هكذا ؟

— ان الشباب يعرفونه منذ زمن بعيد كعضو فى الكومسومول ، وهو فتى ذو كرامة ، ولن يقبل مثل ذلك السلوك . كما وأنه من أسرة جيدة . أبوه عامل مناجم قديم ، اشقاؤه أعضـــاء فى الحزب يقاتلون فى صفوف الجيش .

واذهلت ايفان فيدوروفيتش نصاعة وبراءة تفكيرها .

وذكر وامارات حزن مبهم ترتسم على عينيه :

— انك فتاة طيبة ! لقد كنا نفكر مثلك ذات يوم .

ثم مضى يقول فى بساطة وكأنما يخاطب طفلا :

— فلتسمعينى ! ما زالت الأرض عامرة بالكثيرين من ضعاف النفوس الذين يتصورون الافكار مثل الملابس ، وربما الاقنعة . كما وتربى الفاشية الملايين من أمثال أولئك فى أرجاء الارض قاطبة . هذا علاوة على أنه يوجد الضعفاء الذين يمكن قهر ارادتهم .

واجابت ليوبكا ، وهى تقصد ستاخوفيتش :

– كلا . . ان ذلك مستحيل .
– ارجو هذا من الله ! عموما . . اذا كان قد جبن مرة ، فانه قد يجبن بعد ذلك مرات .
وذكرت ليوبكا فى اقتضاب :
– سوف اذكر ذلك لأوليج .
– هل فهمت كل ما قلته ؟
واومات ليوبكا براسها .
– هكذا يجب أن تعملون . هل أنت على اتصال فى المدينة بذلك الشخص الذى رافقك الى هنا ؟ فلتداومى الاتصال به .
وذكرت ليوبكا وهى تتأمله بناظريها الناصعين :
– شكرا .
ونهض كلاهما من مكانه .
– فلتبلغى الرفاق أعضاء الحرس الفتى تحياتنا البلشفية الكفاحية الحارة .
وامسك بيديه الصغيرتين دقيقتى الحركة ، راسها ثم قبل عينيها على التوالى ، ودفعها خفيفا ، وهو يقول :
– فلتذهبى .

الفصل الثامن والثلاثون

ظلت ليوبكا طوال تلك الايام القليلة التى قضتها فى فوروشيلوفجراد تحت امرة ذلك الشخص الذى عرّفها بايفان فيدوروفيتش . وكان ذلك الشخص مهتما الى درجة كبيرة بكون ليوبكا قد اقامت مثل تلك العلاقات مع العقيد مسئول الامدادات الالمانية ومساعده ، واستقرت بشقة حيث يتصورها اصحابها على غير حقيقتها .

ولم تتحتم عليها دراسة الشفرة ، حيث ظلت كما كانت قبيل انصرافها عن دراستها اللاسلكية ، بيد انه يجب عليها اليوم ان تاخذ جهاز الارسال ، لصعوبة استخدامه المتناهية فى فوروشيلوفجراد .

وقد درّبها ذلك الشخص على طريقة تغيير اماكن الارسال حتى لا يكتشفون مواقع وجودها . كما وينبغى الآ تظل مقيمة لفترات طويلة فى كراسنودون ، اذ يجب ان تقوم بالترحال الى فوروشيلوفجراد وغيرها من المراكز . علاوة على توطيد صلات مع معارف جدد بين الضباط الالمان والرومانيين والايطاليين والمجريين وعدم الاكتفاء بمعارفها الحاليين .

هذا وقد استطاعت ليوبكا الاتفاق مع صاحبتى الشقة التى كانت تقيم فيها حول انها سوف تقيم عندهما عندما تزور فوروشيلوفجراد حيث لم تعجبها تلك الشقق التى عرضوها عليها. وظلت تلك الفتاة الصغيرة ابنة صاحبة الشقة تعامل ليوبكا فى احتقار شديد ، غير ان امها كانت تدرك ان اقامة ليوبكا ورغما عن كل شىء اهون كثيرا ممّا لو كان قد حلّ محلها ضباط المان .

لم يكن ثمة مفر امام ليوبكا سوى الرحيل على متن عربة المانية . غير انها اليوم لم تكن راغبة فى ان تستقل عربة ركوب ، بل وعلى العكس ، كانت تفضل عربة نقل غاصة بالجنود . فقد كان الجنود يعتبرون اكثر طيبة واقل فطنة ، وحيث كانت تحمل فى حقيبتها جهاز الارسال .

وفى نهاية الامر ، استطاعت ركوب عربة اسعاف ، استقر بصالونها الكبير علاوة على خمسة او ستة من الجنود الممرضين ضابط ، رئيس الخدمات الطبية برفقة بعض الضباط الصغار . غير انهم كانوا جميعا سكارى ، فيما كانت ليوبكا قد غدت على يقين ومنذ زمن بعيد من انه يسهل عليها كثيرا خداع الضباط السكارى ، عن اتيان ذلك مع امثالهم غير المخمورين .

واتضح انهم ينقلون فى تلك العربة زجاجات عريضة مملوءة بالسبرتو ، مما جعل ليوبكا تفكر فجأة فى ضرورة الحصول على كمية كبيرة منه ، حيث ان السبرتو يفتح كل الابواب المغلقة ويمهد كافة الطرق ، ويمكن مقايضته باى شىء كان .

وقد انتهى كل ذلك بان اقنعت رئيس الخدمات الطبية بعدم جدوى السفر بتلك العربة الضخمة تحت جنح الظلام ، وبالبقاء لقضاء الليل عند احدى معارفها الجيدات فى كراسنودون ، التى

– كلا . . ان ذلك مستحيل .

– أرجو هذا من الله ! عموما . . اذا كان قد جبن مرة ، فانه قد يجبن بعد ذلك مرات .

وذكرت ليوبكا فى اقتضاب :

– سوف أذكر ذلك لاوليج .

– هل فهمت كل ما قلته ؟

وأومات ليوبكا برأسها .

– هكذا يجب أن تعملون . هل أنت على اتصال فى المدينة بذلك الشخص الذى رافقك الى هنا ؟ فلتداومى الاتصال به .

وذكرت ليوبكا وهى تتأمله بناظريها الناصعين :

– شكرا .

ونهض كلاهما من مكانه .

– فلتبلغى الرفاق اعضاء الحرس الفتى تحياتنا البلشفية الكفاحية الحارة .

وأمسك بيديه الصغيرتين دقيقتى الحركة ، رأسها ثم قبل عينيها على التوالى . ودفعها خفيفا ، وهو يقول :

– فلتذهبى .

الفصل الثامن والثلاثون

ظلت ليوبكا طوال تلك الايام القليلة التى قضتها فى فوروشيلوفجراد تحت امرة ذلك الشخص الذى عرّفها بايفان فيدوروفيتش . وكان ذلك الشخص مهتما الى درجة كبيرة بكون ليوبكا قد اقامت مثل تلك العلاقات مع العقيد مسئول الامدادات الالمانية ومساعده ، واستقرت بشقة حيث يتصورها اصحابها على غير حقيقتها .

ولم تتحتم عليها دراسة الشفرة ، حيث ظلت كما كانت قبيل انصرافها عن دراستها اللاسلكية ، بيد انه يجب عليها اليوم ان تاخذ جهاز الارسال ، لصعوبة استخدامه المتناهية فى فوروشيلوفجراد .

وقد درّبها ذلك الشخص على طريقة تغيير اماكن الارسال حتى لا يكتشفون مواقع وجودها . كما وينبغى الاّ تظل مقيمة لفترات طويلة فى كراسنودون ، اذ يجب ان تقوم بالترحال الى فوروشيلوفجراد وغيرها من المراكز . علاوة على توطيد صلات مع معارف جدد بين الضباط الالمان والرومانيين والايطاليين والمجريين وعدم الاكتفاء بمعارفها الحاليين .

هذا وقد استطاعت ليوبكا الاتفاق مع صاحبتى الشقة التى كانت تقيم فيها حول انها سوف تقيم عندهما عندما تزور فوروشيلوفجراد حيث لم تعجبها تلك الشقق التى عرضوها عليها.

وظلت تلك الفتاة الصغيرة ابنة صاحبة الشقة تعامل ليوبكا فى احتقار شديد ، غير ان امها كانت تدرك ان اقامة ليوبكا ورغما عن كل شيء اهون كثيرا ممّا لو كان قد حلّ محلها ضباط المان .

لم يكن ثمة مفر امام ليوبكا سوى الرحيل على متن عربة المانية . غير انها اليوم لم تكن راغبة فى ان تستقل عربة ركوب ، بل وعلى العكس ، كانت تفضل عربة نقل غاصة بالجنود . فقد كان الجنود يعتبرون اكثر طيبة واقل فطنة ، وحيث كانت تحمل فى حقيبتها جهاز الارسال .

وفى نهاية الامر ، استطاعت ركوب عربة اسعاف ، استقر بصالونها الكبير علاوة على خمسة او ستة من الجنود الممرضين ضابط ، رئيس الخدمات الطبية برفقة بعض الضباط الصغار . غير انهم كانوا جميعا سكارى ، فيما كانت ليوبكا قد غدت على يقين ومنذ زمن بعيد من انه يسهل عليها كثيرا خداع الضباط السكارى ، عن اتيان ذلك مع امثالهم غير المخمورين .

واتضح انهم ينقلون فى تلك العربة زجاجات عريضة مملوءة بالسبرتو ، مما جعل ليوبكا تفكر فجاة فى ضرورة الحصول على كمية كبيرة منه ، حيث ان السبرتو يفتح كل الابواب المغلقة ويمهد كافة الطرق ، ويمكن مقايضته باى شيء كان .

وقد انتهى كل ذلك بان اقنعت رئيس الخدمات الطبية بعدم جدوى السفر بتلك العربة الضخمة تحت جنح الظلام ، وبالبقاء لقضاء الليل عند احدى معارفها الجيدات فى كراسنودون ، التى

تقصدها ليوبكا لتقديم بعض عروضها الفنية . وقد ارهبت امها كثيرا حيث دعت الى شقتهما ذلك العدد الكبير من الضباط والجنود الالمان المخمورين .

وراح الالمان يعاقرون الشراب طوال الليل ، واضطرت ليوبكا الى الرقص امامهم حيث كانت قد زعمت انها فنانة . لقد كانت تلعب بالنار ، ومع ذلك استطاعت خداعهم ، حيث راحت تداعب الضباط ومن يقلون عنهم رتبة فى آن واحد . وصار صغار العسكريين بوحى من مشاعر الغيرة يضايقون الضباط الذين راحوا يتوددون الى ليوبكا ، مما دعا رئيس الخدمات الطبية لان يركل احد الجنود بحذائه فى بطنه .

وبينما كان الجميع غارقين فى لهوهم ، تناهى الى سمع ليوبكا صوت صفارة رجل شرطة راح يطلقها فى قوة وبشكل مستمر ، من مكانه على مقربة من نادى جوركى .

ولم تدرك ليوبكا على الفور ان هذه الصفارة كانت اشارة تحذير ، الا ان صوتها تنامى عاليا مقتربا من البيت . وتعالى فيما خلف النافذة فجاة ، دبيب اقدام سرعان ما اختفى . لقد كان ثمة من راح يقطع الشارع عدوا تجاه مساكن شانغهاى الصغيرة التى اصطفت بمحاذاة الوهدة . وبعد برهة تناهى الى اسماعها وقع الخطوات الثقيلة للشرطى الذى صار يصفر بكل قوة .

وهرولت ليوبكا ومن استطاع الحركة من الالمان المخمورين الى مدخل المنزل لاستطلاع الامر . وكانت ليلة هادئة دافئة اطبقت فيها الظلمة على المكان . وحدد الصفير الثاقب المتباعد وضوء المصباح الكهربائى طريق الشرطى الذى راح يعدو نحو نهاية الشارع . وتعالت ، وكانما ترد عليه ، صفارات رجال الشرطة القائمين بالحراسة عند السوق وفيما خلف الارض المقفرة والوهدة ، بل وعند مزلقان السكة الحديدية الثانى الذى كان يقع على مسافة نائية من ذلك المكان .

ولبث الممرضون العسكريون الالمان يقفون عند المدخل برهة من الوقت يلفهم الصمت المطبق ، وقد اذابت الخمر محاور ارتكازهم ، ليروحوا يترنحون . وبعث اكبر الضباط رتبة احد الممرضين لاحضار مصباح كهربائى تناوله منه ليوجه اشعته الى

الحديقة ذات احواض الزهور المهجورة وشجيرات الليلاك التى داستها الاقدام واطلال السور المتداعى ، ثم الى عربة الاسعاف فى الفناء ليعود الجميع ادراجهم الى الغرفة .

وفى تلك الحين شاهد اوليج الذى كان قد تقدم كثيرا مطارده ، اشعة مصابيح رجال الشرطة الذين هرولوا فى استقباله من ناحية مركز الشرطة ، تضئ الارض الخلاء فيما وراء الوهدة . وادرك على الفور انه لن يستطيع الاختفاء فى مساكن شانغهاى الصغيرة ، حيث الكلاب التى لا وجود لها بالمدينة سوى فى هذه المنطقة التى عزف الالمان عن الاقامة فى مساكنها الطينية ، ولانها سوف تكشف عن وجوده بنباحها . وفى نفس اللحظة انعطف اوليج الى اليمين تجاه قوسميدوميكى ، والتصق بجدار اقرب منزل نموذجى صادفه . ولم تمر سوى دقيقة او دقيقتين حتى هرول رجل الشرطة الى جواره . وقد تجاوزه سريعا وعلى مسافة قريبة ، حتى صم الصفير اذنى اوليج .

وانتظر اوليج بعض الوقت ، ثم عاد ادراجه عبر نفس الشارع الذى اتخذه طريق الذهاب ، نحو التلال التى بدأ من عندها خط سيره ، فى محاولة منه للتمويه .

وحلت مشاعر القلق محل الاضطراب المشوب بالمرح اللامحدود الذى انتابه حين وقع نظره على رجل الشرطة يظهر عند مدخل النادى ثم يعدو الشارع . وسمع اوليج الصفارات تتعالى عند السوق ومركز الشرطة والمزلقان الثانى ، ليدرك ان هفوته لم تضعه وحده فى موقف حرج عصيب ، بل سيريوجا وفاليا ، وستيوبا سافونوف وتوسيا ماشيتكو كذلك .

وكانت تلك اولى طلعاتهم بالمنشورات التى كتبها اوليج وفاليا زيمنوخوف ، والعملية الاولى التى كان من المفروض ان تعلن السكان بمولد «الحرس الفتى» .

وكم من الجهود تطلب بذلها حتى يرفض الجميع اقتراح ستاخوفيتش الذى كان يظن امكانية لصق المنشورات فى كل ارجاء المدينة خلال ليلة واحدة مما يمكن ان يترك تاثيرا فعالا . ولم يكن اوليج يشك فى اخلاص ستاخوفيتش بعد ان عرفه عن كثب ؛ غير انه كان مندهشا ازاء كونه لا يدرك انه كلما زاد عدد

المشتركين فى العملية ، كلما كان الفشل اكثر احتمالا . وكان من المحزن ان يميل سيريوجا تيولينين وكعادته دائما ، الى الاجراءات المتطرفة .

بيد ان توركينيتش وفانيا زيمنوخوف ايدا اقتراح اوليج الذى يقضى بلصق المنشورات فى حى واحد ، ثم وبعد بضعة ايام فى حى آخر ، ثم فى حى ثالث ، وحتى تفقد الشرطة الاثر الصحيح .

واقترح اوليج ان يسير الصبية والفتيات ازواجا ، كل فتى ترافقه فتاة ، يتولى احدهما تناول المنشور ليقوم الآخر بصب العسل عليه ، وريثما يفرغ الاول من لصق المنشور يكون الثانى قد اخفى الزجاجة . واذا ما قبض الشرطى عليهما ، يمكنهما تفسير نزهتهما فى مثل هذا الوقت المتاخر من الليل باسباب غرامية .

وكانوا قد قرروا استخدام العسل اللزج بدلا من النشاء ، الذى كان ينبغى تجهيزه فى مكان ما ، ذلك الامر الذى كان يمكن ان يهدى الشرطة الى مكانهم ، علاوة على تلك الآثار التى يمكن ان يتركها على الملابس . كما وكان النشاء يتطلب الحصول على فرش واوان يصعب حملها . اما العسل فقد كان يسهل نقله فى زجاجة ذات سدادة ، تيسر سكب القليل منه على وجه المنشور الآخر .

وعلاوة على لصق المنشورات ليلا ، اعد اوليج خطة لاتتسم بالتعقيد لتوزيع المنشورات فى وضح النهار فى اماكن تجمع السكان ، مثل السينما والسوق ومكتب العمل .

وللعملية الليلية الاولى جرى اختيار منطقة المنجم رقم ١ ، وحى «فوسميدوميكى» المجاور له والسوق . وتولى سيريوجا وفاليا منطقة السوق ، وستيوبا سافونوف وتوسيا حى «فوسميدوميكى» ، اما منطقة المنجم رقم ١ فقد اخذها اوليج على عاتقه .

وقد كان يود بطبيعة الحال مرافقة تينا فى هذه العملية ، الا انه قال انه سوف يذهب مع مارينا ، زوجة خاله الجميلة .

وكان من المقرر ان يلزم توركينيتش المنزل ، حتى يتمكن كل زوج من اخطاره بكل ما حدث عقب انتهاء عمله ، نظرا لانها كانت العملية الاولى ، وحيث لم تكن قد توفرت بعد ادنى خبرة لاى واحد منهم .

غير ان اوليج غرق فى التفكير بعد انصراف الجميع حول انه لا يملك اى حق فى توريط ام طفل عمره ثلاثة اعوام فى مثل هذه العملية الخطيرة ، ودون التشاور مع خاله كوليا ، واب ذلك الطفل .

ولم يكن طيبا بطبيعة الحال تجاوز ذلك النظام الذى وضعه بنفسه ، الا انه انساق وراء حماس الصبا ، ليقرر الذهاب وحده .

وعند حلول المساء وحين كانت المدينة ما تزال عامرة بالحركة دس بعض المنشورات فى جيب سترته الداخلى ، اما زجاجة العسل فوضعها فى جيب سرواله ثم غادر المنزل . واذ عبر ذلك الشارع الذى كان يقطنه اوسموخين وزيمنوخوف بلغ الوهدة عند الطريق المفضى الى المنجم رقم ٥ . وقد كانت تلك الوهدة هى نفسها التى انبسط امتدادها الايمن فيما بين «فوسميدوميكى» والارض القفرة حيث مركز الشرطة . كما وكانت مهجورة تماما ، انعطف اليها اوليج ، وقبل ان يصل مساكن شانفهاى الصغيرة ، راح يرتقى التلال التى امتدت سلسلة انبسط فوقها طريق فوروشيلوفجراد واشرفت على كل تلك المنطقة من المدينة .

واذ اتخذ اوليج التلال ستارا ، وصل حتى ملتقى طريق فوروشيلوفجراد بالطريق الممتد من وسط المدينة والذى يفضى حتى «بيرفومايكا» ، وحيث انبطح ارضا فى انتظار ان تسدل الظلمة ستائرها . وكان يرى جيدا من مكانه وعبر الحشائش الطفيلية تقاطع الطرق ، وضاحية «بيرفومايكا» على الجانب الآخر من الطريق ، والمنجم رقم ١ الذى جرى تفجيره ، ونادى جوركى بالشارع الذى كانت تقطنه ليوبا شيفتسوفا ، وحى «فوسميدوميكى» والفضاء المقفر حيث مدرسة فوروشيلوف ومقر الشرطة .

وكانت نقطة الشرطة التى تهدد اوليج بشكل مباشر تقع عند مفترق الطرق ، ويتمركز بها شرطيان ، لزم احدهما مكانه عند مفترق الناحية لا يبارحها الا للسير لحظات يقضى فيها على ملله ، وغير بعيد عن طريق فوروشيلوفجراد . اما الثانى فراح يذرع المسافة بين التقاطع والمنجم رقم ١ ، ونادى جوركى على طول هذا الشارع

الذى تقطنه ليوبا شيفتسوفا وحتى مساكن شانغهاى الصغيرة .

اما نقطة الشرطة المجاورة فكانت تقع فى منطقة السوق ويشرف عليها ايضا شرطيان ، يتواجد احدهما بصورة دائمة فى ارض السوق ، بينما يتولى الآخر الحراسة من موقع السوق وحتى تلك النقطة التى تلتقى عندها مساكن شنغهاى الصغيرة بشنغهاى الكبيرة .

وجاءت الليلة بظلمة حالكة ، يخيم عليها هدوء بالغ يتعالى فيه ادنى حفيف ، وحيث غدا واجبا على اوليج الاعتماد فقط على حاسة سمعه .

كان ينبغى عليه لصق بعض المنشورات عند مدخل المنجم رقم ١ ، وعلى جدران نادى جوركى . (وكانوا قد قرروا عدم لصق المنشورات على جدران المبانى السكنية حتى لا يعرضوا ساكنيها للخطر) . وهبط اوليج التلال خلسة ، قاصدا ذلك البيت النموذجى الكائن عند ناحية الشارع الذى تقطنه ليوبا شيفتسوفا . وكان الكشك القائم عند مدخل المنجم رقم ١ يقع مباشرة قبالة اوليج على الجانب الآخر من الميدان .

وترامى الى سمعه حديث رجل الشرطة وزميله الواقف هناك ، بل واستطاع تمييز وجهيهما حين انحنيا يشعلان سيجارتيهما . ولقد كان من المفروض عليه ان ينتظر حتى يبتعد رجل الشرطة ، الذى كان يمكنه ان يطبق عليه فى ارض الميدان . غير ان رجلى الشرطة ظلا فى مكانهما فترة طويلة يتبادلان الحديث همسا .

واخيرا ، انصرف الشرطى فيما يضيئ طريقه بمصباحه الكهربائى من آن لآخر . ولبث اوليج مكانه خلف المنزل يعير سمعه خطواته . وما كاد يشعر بانه غدا على مسافة بعيدة منه ، حتى خرج الى الشارع ، وحيث ظلت تترامى الى سمعه خطواته الثقيلة . وكان رجل الشرطة ما يزال يضيئ طريقه بمصباحه ، مما جعل اوليج قادرا على رؤيته وقد تجاوز نادى جوركى . واختفى الشرطى فى نهاية الامر ، حيث احتواه ذلك المنحدر الذى اتخذ بدايته من عند منزل آل شيفتسوف فى اتجاه الوهدة ، ولم تكن هناك سوى انعكاسات بعض الاضواء تعلن عن ان الشرطى يواصل اضاءة طريقه بمصباحه من آن لآخر .

كان المنجم رقم ١ شان كافة المناجم الكبيرة التى جرى تفجيرها اثناء الانسحاب ، معطلا عن العمل . غير انه وتنفيذا لامر الملازم شفيديه جرى تشكيل مجلس للادارة من افراد كتيبة المناجم الالمانية . وكان بعض العمال من اولئك الذين لم يسعفهم الوقت للرحيل ياتون صباح كل يوم للعمل فى «اعادة البناء» — هكذا كانوا يسمون فى الوثائق الرسمية عملية تنظيف الفناء المكدس بالقمامة ، وحيث كانت بضع عشرات من العمال تتسكع فى الفناء ، تنقل القمامة والخردة على عربات اليد الخشبية .

وها هو المكان يسوده اليوم الهدوء والكآبة .

ولصق اوليج المنشورات على الجدار الحجرى المجاور لفناء المنجم ، ثم على الكشك القائم عند المدخل وعلى لوحة الاعلانات فوق كافة الاوامر والتعليمات المعلقة . وقد كان يستحيل عليه البقاء طويلا فى مكانه ، وليس خوفا من ان يلحظه الحارس ، حيث كان يغط فى نوم عميق ، بل خشية ان يراه الشرطى فى طريق العودة حين يمر الى جوار المنجم ويضيئ الكشك بمصباحه . غير انه لم يكن يسمع دبيب خطوات الشرطى الثقيلة ، او يشاهد اضواء مصباحه ، مما كان يعنى انه هناك قريبا من مساكن شنغهاى الصغيرة .

وعبر اوليج الميدان وهبط نحو مبنى النادى الذى كان اكثر مبانى المدينة سعة وبرودة ، لا يوحى بالراحة ولا يصلح للسكنى، ولذا فقد كان آنذاك مقفرا . كانت واجهته تطل على الشارع الذى يذرعه الناس منذ الصباح الباكر فى اتجاه السوق قادمين من «فوسميدوميكى» و«بيرفومايكا» ، والنجوع المجاورة ، ويعتبر الشريان الرئيسى الذى يفضى الى مدينتى فوروشيلوفجراد وكامينسك .

وصار اوليج يلصق المنشورات على واجهة النادى ، ليترامى الى سمعه فجاة وقع اقدام الشرطى قادما من اتجاه الوهدة . والتف حول المبنى ليختفى وراء جهته المقابلة . وتعالى دبيب اقدام الشرطى شيئا فشيئا . غير انه وما ان اخذ يذرع الشارع الى جوار المبنى حتى ابتلع الهدوء وقع خطواته . وجمد اوليج مكانه فى

انتظار ان يتجاوز الشرطى المبنى ، دقيقة ثم اخرى ، ثم خمس دقائق ، دون ان يسمع وقع خطواته .

او ربما يكون الشرطى قد وجه اشعة مصباحه الى واجهة النادى ، ليلحظ وجود المنشور ، فيتوقف لقراءته ؟ نعم . . . انه سوف يشرع توا فى انتزاعه ليجد انه قد لصق منذ لحظات . وعندئذ يمكن ان يدور حول المبنى حاملا مصباحه ، اذ ان الشخص الذى قام بلصق هذا المنشور منذ لحظات لم يكن ليستطيع الاختفاء الا خلف المبنى .

واصاخ اوليج السمع حابسا انفاسه ، الا انه لم يسمع سوى نبضات قلبه . وقد راوده هاجس قوى يدفعه للانفصال عن ذلك الجدار والفرار بعيدا ، غير انه كان يعرف ان ذلك لا يمكن ان يعود عليه الا بالضرر . كلا . . . ان الحل الوحيد يكمن فى ضرورة التأكد من مكان اختفاء ذلك الشرطى !

ومد اوليج رأسه من وراء الجدار ، ليكتشف عدم وجود ثمة شىء يثير الشك . واذ تشبث بالجدار راح يتحرك فى صمت بالغ ، يرفع اخمص قدمه عاليا ليهوى بها فى هدوء وهكذا ، قاصدا نحو الشارع . وكان قد توقف عدة مرات يصيخ السمع ، الا ان الصمت كان مخيما على كل ما حوله . وهكذا ظل يتقدم حتى وصل نهاية المبنى . وهناك امسك بزاوية الجدار باحدى يديه ، بينما تشبثت به يده الاخرى . وفجأة هوت تحت يده قطعة من بياض الجدار الذى اذابته الامطار لترتطم بالارض محدثة ضجة هائلة كما تصور اوليج . وفى نفس اللحظة شاهد اوليج ضوء سيجارة عند اسفل درجات سلم المدخل ليدرك ان الشرطى جلس طلبا للراحة والتدخين ليس الا . وارتفع ضوء السيجارة على النور ، وحدثت ثمة ضجة عند السلم ، فى حين انفصل اوليج عن زاوية الجدار ليفر عدوا يقطع الشارع فى اتجاه الوهدة . ودوت صفارة حادة ، ووقع اوليج لجزء من اللحظة فى حيز ضوء مصباح الشرطى ، غير انه ببضع وثبات خرج منه على الفور .

وللحق نقول ان اوليج وحتى لحظة نجوم ذلك الخطر المباشر لم تشب تصرفاته هفوة واحدة . لقد كان قادرا على تضليل الشرطى وخلال دقيقة واحدة بالاختباء عند ليوبكا او آل ايفانتسوف فى حى

«فوسميدوميكى» ، الا انه لم يكن يملك حق التعريض بهم . كما وكان قادرا على التظاهر بانه يجرى نحو السوق ، ليعرج فى حقيقة الامر الى شنغهاى ، حيث لم يكن الشيطان نفسه ليستطيع ان يجد اثره . لكنه قد يعرض بذلك سيريوجكا وفاليا للخطر . ولذا فقد لاذ بالفرار الى مساكن شنغهاى الصغيرة .

وها هو فى تلك اللحظة وحين اضطرته الظروف رغما عن كل شىء العروج على حى «فوسميدوميكى» ، لم يتوغل هناك بعيدا حتى لا يسىء الى وضع ستيوبا سافونوف وتوسيا . لقد عاد ادراجه الى التلال ، نحو تقاطع الطريق ، وحيث يمكن لرجل الشرطة الامساك به .

كان يضنيه القلق على رفاقه ، واحتمال فشل كل العملية . ومع ذلك فقد اجتاحته من جديد مشاعر الشقاوة الصبيانية ، حين ترامى الى سمعه نباح الكلاب المستمر فى منطقة مساكن شنغهاى الصغيرة . ذلك لانه تخيل الشرطى الذى راح يتعقبه وقد التقى برجال الشرطة الآخرين ، ليقفوا يناقشون امر اختفاء ذلك المجهول ، فيما يفتشون المنطقة بمصابيحهم .

انقطع الصفير الذى تعالى من عند السوق . وشاهد اوليج من فوق قمة التل الذى اعتلاه من جديد اضواء مصابيح رجال الشرطة الذين كانوا يطاردونه ، ليدرك انهم عائدين ادراجهم الى مركز الشرطة عبر الارض القفرة ، بينما لبث مطارده الشرطى واقفا مكانه فى نهاية الشارع يوجه اشعة مصباحه الى احد المنازل .

فهل لاحظ الشرطى وجود المنشورات التى لصقت على مبنى النادى ؟ كلا . . . بطبيعة الحال ، والا ما كان يستطيع الجلوس على الدرج للتدخين ! ولكان رجال الشرطة قد قلبوا «فوسميدوميكى» رأسا على عقب بحثا عنه ، اى عن اوليج .

وعاوده الهدوء من جديد .

لم يكن الفجر قد لاح بعد حين طرق ضلفة نافذة ايفان توركينيتش ثلاث مرات بهدوء متناه حسبما كان متفقا حوله . وفى هدوء ايضا فتح توركينيتش باب المسكن قليلا ليدخل اوليج ، ويتسللا سويا فى خفة عبر المطبخ وغرفة كان بها عدد من النائمين ، الى الغرفة التى كان ينام فيها ايفان وحده . كان

مصباح الزيت يرسل ضوءه من فوق صوان صغير ، مما يعنى ان فانيا لم يكن قد خلد الى النوم بعد . ولم تند عنه اية امارة تعبر عن سعادة لرؤية اوليج ، فيما كان وجهه ممتقعا يتسم بالصرامة .

وتاتا اوليج متسائلا وقد علا الشحوب وجهه :

— هل سقط احدما فى قبضتهم ؟

واجاب توركينيتش متحاشيا النظر اليه :

— كلا . . انهم جميعا الآن فى سلام . اجلس . واشار الى مقعد خشبى صغير ، بينما استقر هو على فراشه . وكان يبدو انه ظل طوال الليل يذرع الغرفة تارة ، ويجلس على ذلك الفراش تارة اخرى .

وسال اوليج :

— هيه . . هل نجحت عمليتنا ؟

واجابه توركينيتش دون ان ينظر اليه :

— نعم . لقد توافد الجميع الى هنا . . سيريوجا وفاليا وستيوبا وتوسيا . هذا يعنى انك ذهبت وحدك ؟

ورفع توركينيتش عينيه ينظر اليه ثم خفضهما ثانية .

وتساءل اوليج بنبرة تحمل يعنى الاعتراف بالذنب على نحو صبيانى :

— وكيف عرفت ذلك ؟

وذكر فانيا مراوغا :

— لقد راودنا القلق بسببك ، ولم اتحمل كثيرا مما جعلنى اذهب الى خالك نيكولاى نيكولايفيتش حيث وجدت مارينا هناك . وكان الجميع يودون انتظارك هنا ، لكننى اقنعتهم بالذهاب ، قائلا انه اذا كان قد سقط فى قبضتهم فان الامر سوف يكون اسوأ اذا ما جاؤوا ووجدونا هنا جماعة واحدة . هذا بالاضافة الى ان الصبية ينتظرهم غد عصيب وانت تعرف تلك . . فسوف ينطلقون من جديد الى السوق ومكتب العمل .

وراح اوليج يقص فى اقتضاب كيف تعجل الذهاب من عند المنجم الى النادى ، وماذا حدث هناك ، فيما يتزايد عنده الشعور بالذنب الذى لم يكن يعيه تماما . ومع ذلك فقد اعترته دفقة من نشاط حين صار يتذكر كل ما حدث .

— وحين انقضى كل شيء على ما يرام ، تشاقيت وللاسف ، قليلا ، حيث قمت فى طريق العودة بلصق منشورين على مبنى مدرسة فوروشيلوف .

وتأمل اوليج توركينيتش وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة .

ونهض توركينيتش الذى كان يصغى الى اوليج فى صمت ، ثم دس يديه فى جيبيه وراح يحدق النظر فيه بعض الوقت ثم قال بصوته الهادئ :

— فلتسمع ما اقوله لك شريطة الا تغضب . ان هذه هى المرة الاولى والاخيرة التى تذهب فيها الى مثل ذلك العمل . هل فهمت ؟

واجاب اوليج :

— كلا . . لم افهم ! لقد انتهى الامر على ما يرام ، وليس ثمة امر دون متاعب . ان ذلك ليس نزهة ما ، بل كفاح ونضال ضد عدو موجود .

وذكر توركينيتش :

— ان الامر ليس فى وجود العدو . يستحيل عليك ان تكون صبيا صغيرا ، كما ويستحيل ذلك بالنسبة لى . نعم ، اننى وان كنت اكبرك سنا فاننى اطبق ذلك على نفسى . اننى احترمك وانت تعرف ذلك ، ولذا اتحدث معك حول هذا الموضوع . انك فتى جيد قوى تملك من المعارف ما هو اكثر من معارفى على ما اعتقد ، ومع ذلك فانت ما زلت طفلا ! لقد استطعت بالكاد اقناع الصبية حتى لا يهرعوا لتقديم العون اليك . رحت اقنعهم بذلك بينما كدت اذهب بنفسى . او تظن ان القلق راودنا نحن الخمسة بسببك فقط ؟ كلا . . لقد كنا قلقين بسبب القضية باسرها . لقد حان الوقت يا صاح كى تفكر فى انك لست ملكا لنفسك ، كما اننى ايضا لا املك حق التصرف فى نفسى . لقد رحت طوال الليل اعانى الندم لاننى قمت بارسالك . هل نملك حق التضحية بانفسنا دونما داع ولقاء تفاهات ؟ كلا . . ياصاح . اننا لا نملك مثل هذا الحق . ومعذرة ان استصدرت امرا من القيادة بذلك ؛ بمعنى حظر

اشتراكك واشتراكى فى العمليات بدون تعليمات خاصة تنص على ذلك .

وظل اوليج يرنو اليـــه فى صمت طفولى وجديـــة ، يخفف توركينيتش من لهجته قائلا بنبرة تنم عن بعض الشعور بالذنب :

— لا تعتقد يا صديقى اننى اخطات حين قلت انك ربما تكون متمتعا بقدر من المعارف يفوق ما اتمتع به . ان ذلك امر يتوقف على التربية . لقد قضيت طفولتى ارتع فى الشوارع حافى القدمين ، شأن سيريوجكا . وعلى الرغم من اننى انخرطت فى الدراسة فاننى لم احظ بالمعارف الا عندما صرت كبيرا . ان امك رغما عن كل شىء مدرسة ، بينما كان زوجها شخصا عالى الثقافة السياسية ، اما والدى . . فانت تعرفهما . — وهنا اشار توركينيتش الى الغرفة على نحو ينم عن طيبـــة ، ثم مضى يقول : لقد آن اوان الاستفادة من معارفك وثقافتك اليوم . هل فهمت ؟ اما موضوع اثارة رجال الشرطة فذلك من عداد الامور التافهة . ان الصبيـــة لا ينتظرون منك هذا . واذا ما رحنا نتحدث بشىء اكثر جدية ، اقول لك ان هؤلاء الناس يعلقون عليك امالا كبرى . — واشار بسبابته عاليا الى ما وراء ظهره بما يعنى الكثير .

وذكر اوليج فى دهشة ، وهو ينظر اليه فى مرح :

— انك فتى طيب يا فانيا ! كما انك محق . . ومحق جدا . — ثم هز راسه مضيفا :

— ويمكنك ان تستصـــدر من القيادة ما شئت من اوامر ، ما دام الامر لذلك .

وانفجرا ضاحكين ، بينما مد توركينيتش اليه يده قائلا :

— ومع ذلك يجب ان اهنئك بالتوفيق ، فلقد نسيت هذا .

وصل اوليج منزله مع مطلع الفجر ، وفى اللحظة التى كانت تقوم فيها ليوبكا باخراج الالمان معتزمة الذهاب اليه . ولم تكن قد نامت طوال الليل ، ومع ذلك فلم تكن لتستطيع الامساك عن الضحك وهى تنظر الى عربة الاسعاف التى غصـــت بالالمـــان المخمورين وسائقها الذى راح يقودها مخمورا فى خط متعرج .

وراحت الام تؤنب ليوبكا ، الا ان الابنة جاءت اليها باربع زجاجات كبيرة مليئة بالسبرتو استطاعت سرقتها ليلا من العربة .

وادركت الام على الرغم من بساطتهـــا الشديدة ان ليوبكا كانت تتصرف على اساس تصور مسبق لديها .

الفصل التاسع والثلاثون

«يا أبناء مدينتنا ! يا سكان كراسنودون ! يا عمال المناجم ! يا ايها المزارعين !

ان الالمان يكذبون ! لقد كانت موسكو وسوف تظل عاصمتنا السوفييتية ! ان هتلر يكذب حين يقول أن الحرب قد انتهت . انها ما تزال فى بدايتها ، وسوف يعود الجيش الأحمر ثانية الى الدونباس .

ان هتلر يسوقنا الى المانيا للعمل بمصانعه وكى نصبح قتلة الآباء والأزواج والأبناء والبنات .

لا تسافروا الى المانيا ، اذا ما كنتم تريدون أن تلتقوا فى القريب العاجل باراضيكم وفى بيوتكم بالزوج والابن والأخ !

ان الألمان يعذبوننا ويقتلون افضـــل أولادنا حتى يدخلوا الرعب الى قلوبنا وكى نجثو مذلة ومهانة .

فلتناضلوا ضد المحتلين الأوغاد . ان الموت فى ساحة النضال افضل من الحياة فى اسار العبودية .

ان الوطن فى خطر ؛ غير أنه يملك القوى الكافيـــة لسحق العدو . وسوف يقوم «الحرس الفتى» فى منشوراته بنقل الحقيقة كلها ، ومهما كانت مرارتها بالنسبة لروسيا . وســـوف تعلو الحقيقة !

فلتقرأوا منشوراتنا ، ولتقوموا باخفائها وتقل مضمونها من بيت لآخر ، ومن قرية لأخرى .

الموت للمحتلين الألمان !

«الحرس الفتى»

ترى من اين ظهرت تلك الورقة الصغيرة التى انتزعت من كراسة مدرسية ، عند اطراف ميدان السوق الذى يغص دائمـــا بالناس ، على لوحة الاعلانات حيث كانت تعلق فيما قبل جريدة «الوطن الاشتراكى» المحلية ، بينما يعلق الألمان اليوم عليهـــا اعلاناتهم ذات اللونين الأصفر والأسود ؟

كان الناس يتوافدون منذ مطلع فجر الأحد الى السوق حاملين سلالهم واكياسهم . فهناك المرأة التى جاءت تحمل دجاجة لفتها فى قطعة من القماش ، والآخر الذى توافد للاتجار فى خضروات فاضت عن حاجته ، او بقايا حبوب من محصول العام الماضى على متن عربة يد صغيرة . فلم تكن هناك ثيران حيث أن الألمان قد صادروا كل الحيوانات ، فضلا عن الجياد .

اما عربات اليد هذه فهى التى ستبقى لأصحابها ذكرى لسنين طوال ! ولم تكن من ذلك الطراز ذى العجلة الواحدة الذى يستخدم فى نقل الاتربة ، بل من ذات العجلتين الضخمتين والتى راح اصحابها يدفعونها امامهم معتمدين على عريشها . ولقد كان هناك الآلاف من الناس الذين راحوا يدفعونها ، يقطعون أراضى الدونباس من اقصاها الى اقصاها فى القيظ والصقيع ، تحت وقع الأمطار والثلوج ، يخوضون الأوحال والأتربة بحثا فى اغلب الأحيان عن مأوى أو مقبرة تضم رفاقهم ، ومتوجهين الى السوق فى أندرها .

كان الناس من سكان القرى المجاورة يتقاطرون منذ مطلع الفجر الى السوق يحملون الخضروات والحبوب والدواجن والفواكه والعسل . اما اهالى المدينة فكانوا يجيئون مبكرين ، منهم من يحمل قبعة أو منديلا او جونلة او حذاء أو مسامير أو فاسا أو ملحا واحيانا اقمشة قطنية او فستانا قديما مطرزا كان حبيس صندوق الجدّة .

ويندر أن يصادف المرء انسانا يتوجه الى السوق فى مثل هذه الظروف سعيا وراء الكسب الا اذا كان وضيعا أحمق . ان العوز والجوع هما اللذان يدفعان الانسان الى الذهاب الى السوق . ويجرى اليوم تداول المارك الألمانى على الأرض الأوكرانية ، وليس ثمة من يدرى ما اذا كان هذا المارك حقيقيا ، ام مزوّرا ، وهل سوف يستمر تداوله طويلا ، علاوة على انه وللحقيقة قل من كان يملكه . ليس هناك افضل من المقايضة – طريقة الاجداد القديمة ، فكم من مرّة اثبتت فعاليتها فى الأيام العصيبة . ومنذ الصباح الباكر راح الناس يتوافدون الى السوق ، كل يدور حول الآخر آلاف المرّات .

وقد شاهد الجميع لوحة الاعلانات القائمة عند طرف السوق ،

لم يتغير مكانها شأن أعوام كثيرة مضت ؛ وشأن كل الأسابيع الأخيرة كانت تحمل الاعلانات الألمانية . وفجأة ، وفوق واحد من تلك الاعلانات حيث انتشرت على شكل مروحة صور تمثل استعراض القوات الألمانية فى موسكو ، والضباط الألمان الذين يستحمون فى نهر نيفا الى جوار قلعة بطرس وبافيل فى لينينجراد ، والذين يتأبطون أذرع الفتيات الروسيات على كورنيش الفولجا فى ستالينجراد ، فوق كل ذلك ظهر منشور أبيض ، كتب فى عناية بحبر جرت صناعته منزليا .

واثار الفضول فى البداية واحدا من رواد السوق ، ثم اقترب منه اثنان ثم توافد آخرون وآخرون ، وها هى مجموعة من البشر تشكل غالبيتها النسوة والكهول والمراهقون تتجمع حول لوحة الاعلانات يمطون رقابهم فى محاولة منهم لقراءة المنشور . ومن ذا الذى يمكن أن يمر مرور الكرام الى جوار مجموعة من البشر تتعلق انظارها بمنشور سجل على ورقة بيضاء ، ولا سيما اذا كان ذلك بالسوق !

احتشدت مجموعة كبيرة من الناس الى جوار لوحة الاعلانات . كان المتقدمون منها يقفون فى صمت دون أن يبارحوا أماكنهم ، تدفعهم قوة خارقة لاعادة قراءة المنشور مرات ومرات . اما من كان يقف خلفهم محاولا الوصول قريبا من المنشور ، فقد راح يثير الجلبة ويعلن عن غضبه متسائلا عما هو مكتوب فيه . وعلى الرغم من انه لم يكن هناك من مجيب ، ومن استحالة الوصول الى لوحة الاعلانات فقد عرف الحشد بمضمون تلك الورقة الصغيرة التى انتزعت من كراسة مدرسية . «لم يكن حقيقة استعراض القوات الألمانية بالميدان الأحمر ! ولم يكن حقيقة استحمام الضباط الألمان فى نهر النيفا ! ولم تكن حقيقة نزهتهم مع الفتيات الروسيات فى شوارع ستالينجراد ! لم يكن حقيقة ما يقال عن أنه لا وجود للجيش الأحمر بهذا العالم ، فى حين يقوم بدعم الجبهة المنغوليون الذين استأجرهم الانجليز .» كل ذلك ليس حقيقة . وتكمن الحقيقة فى أن بمدينتنا بقى اناسنا الذين يعرفون الحقيقة ، الحقيقة الوحيدة التى يبلغون بها الشعب دونما خوف .

وظهر رجل يحمل على ذراعه علامة الشرطى ، فارع القامة ،

يرتدى سروالا ذا رسوم مربعة دس نهايتيه فى حذائه الجلدى الطويل ، وجاكته ذات رسوم مربعة أيضا ، تدلى من تحتها جراب مسدس مربوط بشريط اصفر ، قام بالولوج الى داخل الحشد الذى احتواه بحيث لم تبد منه سوى راسه الضيق تعلوه سدارة من الطراز القديم . وعرف الناس فى ذلك الشخص اجنات فومين ، ليفسحوا له الطريق وقد اعترتهم لومضة من الزمن مشاعر الخوف أو المداهنة .

واذ قام سيريوجكا تيولينين بجذب غطاء راسه حتى حاجبيه والاختفاء خلف الحشد حتى لا يراه فومين ، راح يجول بناظريه بحثا عن قاسيا بيروجوك . وما ان وجده حتى غمز له بعينه وأوما براسه فى اتجاه فومين . غير ان بيروجوك كان يعلم ماذا يجب عليه القيام به وراح يشق طريقه خلف فومين فى اتجاه لوحة الاعلانات .

وعلى الرغم من طرد بيروجوك وكوفاليوف من الشرطة ، فقد ظلا محتفظين بعلاقات طيبة مع كافة رجال الشرطة الذين كانوا يعتبرون ان فعلتهما لا تستحق ذلك الجزاء . والتفت فومين الى الوراء لتقع عيناه على بيروجوك ، الا أنه لم يقل له شيئا . ووصلا سوية الى لوحة الاعلانات ، حيث حاول فومين باظافره انتزاع المنشور الذى التصق بالاعلان الألمانى المعلق ، بحيث لم يتيسر له ذلك الا بعد ان احدث ثغرة فى ذلك الاعلان لينتزع المنشور وجزءا منه ثم كوّره ودسه فى جيبه .

والتفت الى الجمهور بوجهه الأصفر شان وجوه الطواشية ، وقد برزت عيناه الرماديتان الصغيرتان من بين الغضون العديدة التى احاطت بهما ، ليفح قائلا :

— لماذا تتجمعون هكذا ؟ ماذا تودون رؤيته ؟ هيا بعيدا !

وراح بيروجوك يلف ويدور حول فومين مثل الأفعى السوداء وهو يصيح بصوت صبيانى :

— هل سمعتم ؟ فلتتفرقوا أيها السادة . . فسوف يكون ذلك من الأفضل .

وباعد فومين ما بين يديه فى محاولة لتشتيت الجمع المحتشد،

فيما التصق به بيروجوك ومضة من الزمن . وانفرط عقد الحشد الذى بدا فى التشتت ، يتقدمه بيروجوك .

واخذ فومين يذرع السوق فى حذائه الجلدى الطويل يكسو التجهم قسمات وجهه . واذ القى كل من بالسوق ما كان يمارسه من شئون تجارية ، راح ينظر الى ظهر فومين وقد تباينت مشاعر الجميع ما بين خائف ومندهش وشامت . فقد ثبت الى جاكتة فومين ذات الرسوم المربعة منشور كتب عليه بحروف كبيرة : «انك تبيع شعبنا للألمان لقاء قطعة من السجق ولقاء جرعة من الفودكا وعلبة من التبغ . انك سوف تدفع حياتك الوضيعة ثمنا لذلك . حذار !»

ولم يكن ثمة من حذّر فومين بشان ذلك المنشور المعلق على ظهره والذى قطع به كل أرجاء السوق وحتى وصل الى مركز الشرطة .

وراح راس سيريوجكا بشعره الأصفر الأجعد ، وراس بيروجوك بشعره الأسود يظهران تارة فى وسط ذلك الحشد ، ليختفيا تارة أخرى ، وهما يشقان طريقهما عبر الأجساد المتزاحمة التى راحت تدور هنا وهناك مثل المذنبات فى أفلاكها الغامضة . ولم يكونا وحدهما هناك ، حيث كان قد ظهر عند أحد المنعطفات رأس توسيا ماشينكو تلك الفتاة الهادئة ، متواضعة الملبس ذات الشعر الأشقر والعينين اللتين تشعان ذكاء . وما دام قد ظهر فى ذلك المكان رأس توسيا ماشينكو فذلك يعنى وجود على مقربة منها رفيق طريقها ستيوبا سافوتوف ذى الشعر الأصفر . وراحت تتلاقى وتتباعد نظرات عينى سيريوجكا الثاقبتين مع عينى فيتكا لوكيانتشينكو الداكنتين المخمليتين . كما وصارت تدور طويلا حول الأكشاك وعربات الباعة فاليا بورتس ذات الضفيرتين الذهبيتين ، تحمل سلة مغطاة بمفرش سميك ، لا يعرف أحد ماذا تبيع أو تشترى .

وكان الناس يجدون فى الركائب أو فى الأكياس الفارغة ، واحيانا تحت ثمار الكرنب او البطيخ المنشورات التى كانت فى بعض الأحيان عبارة عن قصاصة صغيرة سجلت عليها جملة كهذه:

«يسقط نظام البطاقات التموينيــة الالمانى ، وليعش نمط الحياة السوفييتى !»

ويعلو وجيب قلب الانسان ازاء مثل هذه الجملة .

وها هو سيريوجكا يدور حول صفوف الموائد متجاوزا اياها المرة تلو الأخرى ليظهر أخيرا فى داخل الحشد الذى وقف حاملا بضاعته فى يديه ليصطدم وجها لوجه بناتاليا الكسييفنا طبيبـة مستشفى المدينة . كانت تنتعل حذاء من الكاوتشوك تقف الى جوار عدد من النسوة ممسكة فى يديها البضتين الصغيرتين حذاء نسائيا باليا عتيقا . وقد اعتراها الارتباك حين وقع نظرها على سيريوجكا، الذى ارتبك كذلك ، ليلقى التحية وهو يرفع غطاء راسه .

وومضت عينا ناتاليا الكسييفنا بتلك السمة المألوفة لديه والتى تنم عن فرحة مشوبة بالقسوة . ولفت الحذاء بحركة خاطفة من يديها البضتين ثم قالت :

— حسنا جدا . يهمنى أن أراك !

وكان من المفروض ان ينتقل سيريوجكا وقاليا من منطقـة السوق الى مكتب العمل حيث سوف تأخذ المجموعـة الأولى من الشباب طريقها من هناك الى ألمانيا تنفيذا للأوامر الصادرة بذلك. وها هى قاليا تشاهد فجأة سيريوجكا يصطحب فتاة ممتلئة — كما بدا من بعيد — ليخرجا من الحشد المجتمع بالسوق فى اتجـاه مساكن لى فان تشى الطينية وحيث اختفيا فيمـا خلفها . وحالت كبرياء قاليا دون اقتفائها لآثارهما . وأصابت الرعشة شفتهـا العليا البضة ، وومضت عيناها بما ينم عن برود . وراحت قاليا تتخذ اتجاهها نحو مكتب العمل تحمل سلتها التى احتوت تحت ثمار البطاطس المنشورات المطلوب توزيعها هناك ، تسير فى خطوات وئيدة ، مرفوعة الهامة .

كان الجنود الألمان يحيطون بالمساحة الكائنة أمام المبنى ذى الطابق الواحد فوق التل . واحتشد الشباب الذين كان ينبغى عليهم اليوم الرحيل عن مدينتهم الحبيبة ، وأمهاتهم وآباؤهم واقاربهم ، يحملون صرر الملابس والحقائب . وكذلك الفضوليون عند منحدر التل قريبا من تلك المساحة المطوقة . وكانت سماء تلك الأيام ملبدة بالغيوم ، تنذر بالامطار . غير أن الرياح التى هبت قوية

منذ الصباح لم تدع لتلك السحب الفرصة لتفرغ ما فى جوفها من امطار وصارت تدفعها بعيدا . كمـا وراحت تتلاعب بفساتين النسوة والفتيات متباينة الألوان عند منحدرات التل ، وتثير الغبار على الطريق المجاور لمبنى اللجنة التنفيذية للاقليم ومنزل «النبيل المسعور» .

وخلق انطباعا كئيبا ذلك الحشد من النســوة والفتيـات والمراهقين الذين لزموا اماكنهم فى صمت وظهروا وكأنما حجّرتهم الكارثة . لقد كانوا جميعـا لا يتجاوزون الصمت أو الهمس ان تحادث بعضهم ، بل وكانوا يخشون البكاء بصوت عال . كانت الأم تمسح دموعها بكمها ، اما الابنة فكانت تدفن عينيهـا فى منديلها .

توقفت قاليا عند طرف الحشد الى جوار منحدر التل ، من حيث شاهدت منطقة المنجم رقم ١ وجزء من خط السكة الحديدية .

كان الناس يتوافدون الى المكان من مختلف أرجاء المدينة . كما وتقاطر غالبية الصبية الذين كانوا يوزعون المنشـورات بالسوق الى هناك . وفجأة وقع نظر قاليا على سيريوجكا يسير على جسر السكة الحديدية ، منكس الراس حتى لا تطيح الرياح بغطاء راسه . ثم اختفى برهة من الزمن ليظهر من جديد فيما وراء التل . كان يسير دونما هدى يرمى الحشد بنظراته التى وقعت على قاليا ايضا لترتجف شفتها البضـة العليا بما ينم عن اعتزاز بالنفس .

ولم تبادله قاليا النظر ، كما ولم تساله عن شىء . وادرك سيريوجكا أن قاليا قد غضبت ولذا قال فى هدوء :

— ناتاليا الكسييفنا . .

ثم مال الى أذنها يهمس :

— ثمة مجموعة كاملة من الصبية فى مستعمرة كراسنودون . . مجموعة مستقلة . . . فلتحدثى أوليج بشأنهم .

وكانت قاليا مراسلة اتصال للقيادة . وأومأت براسها بما يعنى الايجاب . وفى تلك اللحظة شاهدا أوليانا جروموفا تسير من ناحية «فوسميدوميكى» برفقة فتاة مجهولة ترتدى معطفـا وبيريه على راسها . وقد كانتا تسيران تعاون كل منهما الأخرى

في حمل حقيبة ، تحاولان تفادى الريح وتشيحان بوجهيهما اتقاء للغبار .
وهمس سيريوجكا :
– هل انت موافقة اذا ما تطلب الأمر ذهابك الى هناك ؟
واومأت فاليا براسها .
وفى نهاية الأمر أدرك الملازم اول شبريك مدير مكتب العمل ان الشباب سوف يظلون مكانهم خلف «كردون» الجنود الألمان ، الى جوار اقاربهم اذا ما لم يحثهم على الانصراف . وخرج الى طنف المبنى برفقة الكاتب ، حليق الوجه يرتدى زيّه الرسمى الكامل ، وليس فى ذلك السروال الجلدى الذى كان يرتديه فى الأيام شديدة الحرارة اثناء عمله بالمكتب وسيره بالشارع ، ليصيح على الراحلين بضرورة تسلم الوثائق الخاصة . واعاد الكاتب ذلك على الأسماع بالأوكرانية .
لم يسمح الجنود الألمان بتجاوز الأقارب والمودعين الى ما خلف «الكردون» . وبدأت عملية الوداع . وتعالى صوت بكاء الأمهات والبنات اللاتى لم يستطعن الامساك عن ذلك . اما الصبية فقد استطاعوا التجلد ، غير انه كان رهيبا للمرء أن ينظر الى وجوههم حين راحت الأمهات والجدّات والشقيقات يلطمن صدورهم بينما وقف الآباء الذين تقدم بهم السن كثيرا ، والذين كانوا قد واجهوا الموت وجها لوجه اكثر من مرة اثناء عملهم بالمناجم ، وقفوا جميعا يمسحون دموعهم التى انزلقت على شواربهم وقد نكسوا رؤوسهم .
– آن الأوان .
قالها سيريوجكا فى صرامة فى محاولة منه كيلا ترى فاليا اضطرابه .
وتحركت فاليا تشق طريقها فى صورة آلية عبر الحشد نحو مكتب العمل وهى تمسك نفسها بالكاد عن البكاء ، دون أن تعيره سمعها . وفى صورة آلية أيضا راحت تتناول من تحت البطاطس ، المنشور الذى طوى مرتين لتدسه فى جيب معطف أو سترة أو تحت مقبض حقيبة أو سلّة .
وعند «الكردون» دفع فاليا الى الخلف ذلك التيار البشرى الذى

تقهقر فجأة الى الوراء بعيدا عن مكتب العمل وقد أصابه الذعر . وكان بين المودعين كثير من المراهقين والفتيات وصغار النسوة ، حيث وبمحض الصدفة وقع شخص ما منهم ، كان يودع شقيقته او شقيقه الى ما وراء الكردون ليعجز عن العودة ثانية . وقد أثار ذلك المشهد المرح فى نفوس الجنود الألمان ، لدرجة انهم راحوا يمسكون بمن تقع عليهم أياديهم من الصبية والفتيات يجذبونهم الى ما وراء «الكردون» . وتعالت الصيحات والتوسلات والبكاء . واصابت الهستيرية احدى النسوة . واندفع الشباب فى رعب بعيدا عن المكان .
واذ ظهر سيريوجكا فجأة تكسو وجهه امارات المعاناة والغضب جذب فاليا من يدها الى خارج الحشد يقودها نحو نينا ايفانتسوفا .
وامسكت نينا يديهما ، بيديها الضخمتين اللتين تنمان عن انوثة قائلة :
– حمداً لله . . . والا كان هؤلاء الطغاة . . . اليوم فى الخامسة عند كاشوك . – وهمست لفاليا تقول : – ابلغى زيمنوخوف وستاخوفيتش بذلك . هل رأيتما اوليانا ؟
وهرولت تبحث عن أوليانا . وقد كانت نينا شأن فاليا مراسلة اتصال لدى القيادة .
ولبثت فاليا وسيريوجكا واقفين بعض الوقت كل يجاور الآخر ، فلم يكونا راغبين فى الفراق . وكان سيريوجكا يبدو وكأنما على وشك الافصاح عن شىء غاية فى الأهمية ، غير انه لم يقل شيئا .
وذكرت فاليا برقة :
– انى سوف أذهب .
ومع ذلك فلم تبرح مكانها برهة من الزمن ، ثم ابتسمت لسيريوجكا والتفتت الى الخلف ليعتريها الخجل وتروح تهرول حاملة سلتها تهبط التل ، تقطعه بقدمين قويتين لفحتهما الشمس .
كانت أوليانا تتخذ مكانها الى جوار «الكردون» مباشرة فى انتظار ان تخرج فاليا فيلاتوفا من مبنى مكتب العمل . وامسك الضابط الألمانى الذى أفسح الطريق امام فاليا حاملة حقيبتها ، بيد أوليانا . الا انها رمته بنظرة هادئة باردة . والتقت عيونهما

ومضة من الزمن ، لينِد عن عينى الجندى ما يشبه أمارة انسانية . وترك يد أوليانا ، ليلتفت الى الوراء ويصيح فجاة وعلى نحو ينم عن حقد مناديا على امراة شقراء عارية الرأس تحتضن ابنها المراهق الذى يناهز عمره السادسة عشرة . وتركت الأم ابنها فى نهاية الأمر ليتضح انها هى التى يجرى تسفيرها وليس ابنها . وراح الابن ينظر اليها والدموع تنهمر من عينيه كما الطفل ، وقد ابتعدت عنه تحمل صرة الملابس فى يدها ، تتجه نحو باب مكتب العمل الذى توقفت عند عتبته تبتسم لابنها للمرة الأخيرة ، ثم تخطو الى الداخل .

جلست فاليا واوليانا طوال الليل متعانقتين فى حجرة صغيرة بشقة آل فيلاتوف ، تزينها زهور الخريف . وكانت والدة فاليا التى تقدم بها العمر تقترب منهما تمسح راسيهما براحتيها وتقبلهما تارة ، أو ترتب محتويات حقيبه فاليا تارة اخرى ، أو تقتعد فى صمت مطبق كرسيا فى زاوية الغرفة تارة ثالثة . لقد كانت سوف تبقى وحيدة تماما بعد رحيل فاليا .

وكانت فاليا التى اضنتها الدموع والتزمت الهدوء والصمت ، ترتجف فى بعض الأحيان وهى تجلس فى احضان أوليانا . أمّا أوليانا التى استكانت فى رعب لحتمية ما كان يجب أن يحدث ، راحت ترتب فى صمت راس فاليا الاشقر وقد بدت رقيقة تقدمت بها السن قليلا .

وقد بددت اشعة مصباح الزيت ظلمة الغرفة بالكاد بحيث لم يكن باديا سوى وجوه وايادى الفتاتين والأم العجوز .

كم كان طيبا لو لم تر ذلك ابدا ! هذا الوداع بين فاليا وامها ، وذلك الطريق الذى لا نهاية له حاملة حقيبتها ، تصفر الرياح فى اذنيها ، وذلك العناق الأخير عند «كردون» الجنود الألمان !

غير أن كل ذلك حدث على مرأى منها . . كما وما يزال يحدث حتى الآن . لقد توقفت أوليانا عند «كردون» الجنود الألمان ، وقد تعلق ناظراها بباب مكتب العمل ترتسم على وجهها أمارات قوة مفعمة بالكآبة .

وبالساحة المجاورة لمبنى مكتب العمل ترك الشباب والفتيات

وصغار النسوة الموجودون داخل «كردون» الجنود صرر ملابسهم وحقائبهم ، حيث قيل انه سوف يجرى نقلها على متن احدى العربات ، ودلفوا الى داخل المبنى . وكانت نيمتشينوفا تصرف لهم تحت رقابة الملازم الألمانى البطاقات التى كانت الوثائق الوحيدة لاثبات شخصياتهم لأى ممثل للسلطة الألمانية طوال الطريق باكمله . ولم يكن هناك مكتوبا اسم او لقب حامل مثل تلك البطاقات ، بل رقم واسم المدينة فقط . وكانوا يخرجون من المبنى يحملون مثل تلك البطاقات ، بينما راح وكيل العريف يصفهم طابورا بمحاذاة الميدان المجاور للمكتب .

وها هى فاليا فيلاتوفا تخرج من المبنى ، لتجول بناظريها بحثا عن صديقتها ، ثم تقدمت ببضع خطوات تجاهها ، غير أن وكيل العريف امسك بيدها ودفعها نحو الطوابير المصطفة . واستقرت فاليا فى نهاية الطابور الثالث أو الرابع ، لتغيب كل من الصديقتين عن انظار الأخرى .

وقد منحت كارثة هذا الفراق الأليم الناس حق ابداء ما يجيش بنفوسهم من حب . فقد حاولت النسوة المحتشدات الاندفاع وتجاوز «الكردون» ، ورحن يصحن بآخر كلمات الوداع أو النصائح لأولادهم . أما الشباب الذين اتخذوا أماكنهم فى الطوابير ، والذين كانوا فى غالبيتهم من الفتيات ، فقد كانوا يبدون وكأنهم قادمون من العالم الآخر ، يجيبون بصوت خافت او باشارة من منديل أو يتأملون ويحدقون فى الأوجه الحبيبة فى صمت بينما تنهمر الدموع من أعينهم .

وها هو الملازم اول شبريك يخرج من المبنى يحمل فى يده ظرفا أصفر . وصمت الحشد الذى تعلقت انظاره به . وأصدر امره :

— انتباه !

واعاد وكيل العريف البدين الأمر بصوت رهيب :

— انتباه !

وجمدت الصفوف . وراح الملازم اول شبريك يتفقد الصف الأول ، فيما يدفع اصبعه البدين الى جسد كل فرد فى الطابور الذى

تشكل من اربعة افراد يقفون كل وراء الآخر ، يحصى تعدادهم الذى بلغ ما يزيد عن مائتى شخص .
وسلم الملازم اول الظرف الى وكيل العريف وأشاح بيده .
وهنا اندفعت مجموعة من الجنود تفسح الطريق الذى احتشد به الجمهور . واصدر وكيل العريف أمره لتستدير الصفوف الى الخلف ثم تتحرك من مكانها فى بطء وكانما عن غير رغبة ، يرافقها الحراس الذين تقدمهم وكيل العريف .
وانشق الحشد الذى شطره الجنود الى كلا جانبى الطريق الذى اتخذه طابور الراحلين ، مصحوبا بالبكاء والنحيب والصراخ الذى تمازج فى أنين متصل حملته الرياح بعيدا .
وراحت اوليا تتابع الحشد ، تشب على اطراف قدميها محاولة العثور بناظريها على فاليا التى وجدتها اخيرا ، لتصيح فيما يدفعها السائرون :
— اننى هنا يا فاليا . . اننى هنا .
غير ان فاليا لم تكن تراها او تسمعها حين صارت تلتفت الى الوراء تكسو وجهها امارات الألم والعذاب .
وكانت اوليا التى راح الحشد يتلاعب بها يمنة ويسرة قد شاهدت وجه فاليا عدة مرات ، وحتى انحدر قول المسافرين فيما خلف مبنى «النبيل المسعور» فى اتجاه المزلقان الثانى ، لتغيب فاليا عن الأنظار .
وظهرت نينا ايفانتسوفا فجاة امام اوليانا لتقول :
— اوليانا ! اننى ابحث عنك . اليوم فى الساعة الخامسة عند كاشوك . . . لقد وصلت ليوبكا .
ولم تعر اوليانا سمعها لما ذكرته نينا ، بل راحت ترنو اليها بعينيها السوداوين الرهيبتين فى صمت .

الفصل الاربعون

امتقع وجه اوليج قليلا حين تناول من جيب سترته الداخلى مفكرته ، وطفق يتصفحها فى امعان ، ثم جلس الى المائدة التى استقرت فوقها زجاجات الفودكا والأقداح والأطباق الفارغة ، يجلس

الآخرون أيضا ، بعضهم الى المائدة ، والبعض الآخر على الأريكة تعلو وجوههم امارات الجد ، ينظرون اليه فى صمت .
لقد كانوا بالأمس فقط رفقاء مدرسة ، يتشاقون ويمرحون دونما اية مسئولية ، اما ومنذ قطعوا على انفسهم ذلك العهد ، فقد بدوا وكأن كل منهم توادع مع ذاته ، وفرغ من علاقاته الودية القديمة غير المسئولة لينخرط فى غيرها جديدة أسمى من سابقاتها . . . صداقة الفكر الواحد ، والتنظيم الواحد ، والدم الذى اقسم كل منهم بذله فداء لتحرير الأرض الحبيبة .
كانت كبيرة تلك الغرفة فى شقة كوشيفوى شأن كل الغرف فى البيوت النموذجية ، ذات قواعد النوافذ غير المطلية التى استقرت فوقها ثمار الطماطم التى لم تنضج بعد ، وحيث الكنبة المصنوعة من خشب الجوز التى كان يفترشها اوليج لنومه ، وسرير يلينا نيكولايفنا بوسائده الكثيرة المنفوشة التى غطيت بمفرش . كما وكانت هذه الغرفة تحمل الى الذاكرة تلك الحياة الوادعة فى ظل رعاية الوالدين ، بينما تعتبر اليوم وفى نفس الآن مقر التنظيم السرى .
اما اوليج فقد غدا يحمل اسم كاشوك وهو لقب زوج أمه ، الذى كان فى شبابه فدائيا شهيرا فى اوكرانيا ، ورئيسا لأحد الأقسام الزراعية بكانيف فى آخر سنوات حياته . وقد أخذ اوليج كنية لنفسه ذلك اللقب ، الذى ارتبطت به فى مخيلته بطولات النضال الفدائى وكل تلك التربية الجسورة التى لقيها على يدى زوج امه ، مثل العمل فى الحقول والصيد ، والنزهة على متن القوارب ، وظهور الجياد .
وتوقف عند تلك الصفحة التى كان مسجلا فيها كل شىء بعلامات رمزية ، واعطى الكلمة لليوبا شيفتسوفا .
ونهضت ليوبكا من مكانها على الأريكة وزرّت عينيها متخيلة كل ذلك الطريق المفعم بالأهوال والمخاطر واللقاءات والمغامرات والتى لم يكن بوسعها الحديث عنها على مدى ليلتين كاملتين .
فقد كانت بالأمس فقط تقف عند مفترق الطرق تحمل تلك

الحقيبة التى كلّت يدها عن حملها ، بينما هى اليوم بصحبة أصدقائها من جديد .

وكما اتفقت مع أوليج مسبقا ، ابلغت اعضاء القيادة وبادئ ذى بدء كل ما ذكره لها ايفان فيدوروفيتش حول ستاخوفيتش . بيد انها لم تذكر بطبيعة الحال ايفان فيدوروفيتش باسمه ، على الرغم من انها كانت قد عرفته على التو ، قائلة أنها قابلت بمحض الصدفة شخصا كان يقاتل برفقة ستاخوفيتش فى فصيل واحد .

وكانت ليوبكا شخصا صريحا يتسم بالجسارة ، بل وحتى بالقسوة ولا سيما مع اولئك الذين لم تكن تحبهم . ولذا فلم تخف توقعات ذلك الشخص بشأن احتمال وقوع ستاخوفيتش فى قبضة الألمان .

وريثما كانت ليوبكا تفضى بكل ذلك ، كان اعضاء القيادة يتحاشون النظر الى ستاخوفيتش الذى جلس محاولا التمسك بالهدوء وقد استقرت يداه النحيفتان على المائدة يحدق بعينيه فيما قبالته ، بينما كانت قسمات وجهه تنم عن قوة . غير ان احواله سرعان ما تغيرت ، حين سمع آخر ما نطقت به ليوبكا ، وزال توتره الذى كان يعيشه ، لترتخى شفتاه وتنبسط يداه ، وليجول فجاة بناظريه يتامل الجميع فى دهشة وغضب ليبدو وكانما عاد الى سنى الطفولة من جديد .

— هل قال ذلك ؟ . . هل استطاع التفكير على هذا النحو ؟

وراح يردد هذين السؤالين عدة مرات وهو ينظر الى عينى ليوبكا فى غضب طفولى . ثم قال موجها حديثه اليها ، ثم نقل عنها نظراته لتستقر صريحة واضحة على الجميع :

— لقد غدوت موضع شك لاننى . . . لماذا لم يقل لك اننا طوردنا لمدة اسبوع باكمله ، وانه قيل لنا بضرورة التفرق جماعات ؟ لقد كنت أظن حين اتخذت مكانى بين الشجيرات ، أنهم سوف يحاولون اختراق الحصار بغية النجاة ، وأن الجزء الأعظم منهم ان لم يكونوا جميعهم ، سوف يلقون حتفهم ، ولربما لقيت حتفى كذلك معهم ، بينما يمكننى انقاذ نفسى ، وقد اكون مفيدا فيما بعد . هكذا فكرت آنذاك ، اما الآن فاننى اعرف ان ذلك

كان وبطبيعة الحال مجرد ذريعة . ومضى ستاخوفيتش يقول فى سذاجة :

— لقد كانت النيران شديدة الى الحد الذى ادخل الرعب فى قلبى . غير أننى ورغما عن ذلك لا أظننى قد ارتكبت جريمة كبيرة الى هذه الدرجة . أو لم ينقذوا هم كذلك أنفسهم ؟ . وحين حلت الظلمة فكرت فيما يلى . . اننى اجيد السباحة ، وقد لا يلحظنى الألمان حين اسبح وحيدا . وحين لاذ الجميع بالفرار ، لبثت راقدا مكانى بعض الوقت ، وتوقف اطلاق النيران فى ذلك المكان ليتعالى قويا فى مكان آخر . واعتقدت أن الوقت قد حان ، ورحت أسبح على ظهرى لا يظهر سوى أنفى فوق سطح الماء ، وذلك حيث أجيد السباحة . وصرت أسبح هكذا حتى منتصف النهر ، ثم أسلمت نفسى للتيار . وهكذا أنقذت نفسى . . ويا لها من ريبة . هل يمكن ان يبلغ الأمر هذا الحد ؟ أو لم ينقذ ذلك الشخص نفسه فى نهاية الأمر كذلك ؟ لقد فكرت انه طالما اجيد السباحة ، فسوف أستغل ذلك . ورحت أسبح على ظهرى . . وهكذا أنقذت نفسى !

وقد كان ستاخوفيتش يجلس أشعث الشعر أشبه بصبى صغير . وذكر فانيا زيمنوخوف :

— فلنفترض أن الأمر كذلك . . لقد انقذت نفسك . . فلماذا اذن قلت لنا أنك مبعوث من قبل قيادة الفصيل ؟

— لأنهم كانوا حقا يودون ارسالى . . وظننت أنه طالما بقيت حيا ، فان شيئا لم يتغير . كما واننى فى نهاية الأمر لم أنج بنفسى لمجرد النجاة ، لقد كنت وما ازال اود التصدى للمحتلين . ان لدى الخبرة اللازمة حيث ساهمت فى تنظيم الفصيل ، واشتركت فى المعارك . . وهذا ما جعلنى أصوّر الأمر على ذلك النحو .

خيّم على نفوس الجميع عبء ثقيل ، مما جعلهم يشعرون بعد التفسيرات التى ادلى بها ستاخوفيتش بشئ من الارتياح . ومع ذلك فقد كانت تلك القصة أمرا لا يدعو الى الارتياح . أو كان ضروريا أن تشهد الحياة مثلها !

لقد كان الجميع يعرفون أن ستاخوفيتش يقول الصدق ، الا انهم كانوا يشعرون أنه أساء التصرف ، وبسوء الحديث عن

فعلته ، وكان ذلك أمرا مبهما يدعو الى الأسى والغضب ، جعلهم لا يعرفون كيفية التصرف معه .

ولم يكن ستاخوفيتش فى حقيقة الأمر شخصا غريبا على المجموعة ، يبحث لنفسه عن وظيفة مرموقة أو عن مجد شخصى . لقد كان من اولئك الشباب الذين وجدوا أنفسهم منذ سنى طفولتهم قريبين من رجال يحتلون مراكز هامة ، افسدتهم استعارتهم لبعض مظاهر السلطة ، فى حين انه لم يكن يدرك بعد الجوهر الحقيقى للسلطة الشعبية واهميتها ، وكذلك كون أولئك الناس قد حظوا بحق التمتع بتلك السلطة بفضل عملهم الدؤوب وطباعهم التى عمّدها النضال .

لقد كان ذلك الصبى النابه الذى كان فى وسعه اتيان كل شىء ببساطة ، موضع اهتمام كبار رجالات المدينة منذ سنى الدراسة ، بفضل اخوته الشيوعيين الذين كانوا أيضا من مشاهير الرجال ، واذ تعوّد الصبى على التعامل مع امثال هؤلاء الناس منذ طفولته ، يتحدث عنهم فى اوساط اقرانه ، وكأنما يتحدث عن أناس من سنه ، كان يجيد التعبير قولا وكتابة عن تلك الأفكار التى لم يكن قادرا على الوصول اليها بنفسه ، القريبة عنه والتى كان يسمع عنها من الآخرين . ولقد كان ذلك الشخص الذى لم تسعفه الحياة بعد للقيام بشىء يذكر ، يعد فى أنظار العاملين فى لجنة المنطقة للكومسومول من نشطائه . اما أعضاء الكومسومول العاديون الذين لم يكونوا يعرفونه وان كانوا يشاهدونه فى كافة الاجتماعات اما وراء المنصة واما ضمن الخطباء ، يعدونه من العاملين فى لجنة المنطقة او لجنة المقاطعة . وقد كان ستاخوفيتش دون أن يدرك المغزى الحقيقى لنشاط اولئك الذين يدور بين أوساطهم ، يفهم جيدا العلاقات الشخصية والعملية السائدة بينهم ، من منهم ينافس الآخر ، ومن يؤيد الثانى . ولذا فقد تصور أمام مخيلته وهما كاذبا حول فن السلطة وكأنما ينحصر لا فى خدمة الشعب ، بل فى المناورة الماهرة للبعض ازاء البعض الآخر ، وفى ضرورة أن يحظى بتأييد أكبر عدد ممكن .

لقد استعار من هؤلاء الناس طريقة تعاملهم التى لا تتسم بالليونة وصراحتهم المشوبة بالخشونة واستقلالية أحكامهم دون

ان يدرك مدى صعوبة وضخامة تلك الحياة التى تكمن وراء مثل ذلك السلوك . ولذا فقد تخلى عن سمات الحيوية وتدفق المشاعر التى يتميز بها الشباب ليبدو دائما متحفظا عن عمد ، يتحدث بصوت هادئ مصطنع ولا سيما اذا كان يتحدث تليفونيا مع شخص غريب ، وبوجه عام كان قادرا على تأكيد تفوقه فى حضرة رفاقه .

وهكذا تعوّد ستاخوفيتش منذ الطفولة اعتبار نفسه شخصية بارزة غير ملزمة بالتقيد بقواعد السلوك الانسانى الطبيعية .

فما الذى يرغمه فى حقيقة الأمر على الاستشهاد ، وليس محاولة النجاة كما فعل الآخرون مثل ذلك الفدائى الذى قابلته ليوبكا ؟ وأى حق يملكه هذا الشخص كى يوجه اليه مثل ذلك الأتهام ؟ ذلك انه ، أى ستاخوفيتش ، لم يكن مذنبا فى وقوع الفصيل فى مثل هذا الموقف ، بل ينبغى سؤال آخرين ، اكثر مسئولية منه ، عن ذلك .

وريثما كان الصبية يلتزمون الصمت فى غير ما حسم ، اجتاحت ستاخوفيتش بعض سمات النشاط والمرح . بيد ان سيريوجكا هب فجأة ليقول فى حدة :

— لقد بدأ اطلاق النيران فى مكان آخر ، بينما استلقى هو على ظهره وراح يسبح ! ولقد جرى ذلك لأن الفصيل حاول اختراق الحصار ، وحيث كانت الأمور تتطلب وجود كل فرد . أولا يعنى ذلك أن الجميع قد انخرطوا فى القتال بغية انقاذه ؟

كان الضابط فانيا توركينيتش يجلس مكانه مفرود القوام ، دون أن يتعلق ناظريه بأحد ، تتسم قسمات وجهه بأمارات الطهارة والبسالة ، ليشرع قائلا :

— ينبغى على الجندى تنفيذ الأوامر ، بينما لُذت بالفرار أثناء المعركة . قصارى القول . . هربت . وتعاقب الجبهة على مثل هذه الفعلة بالاعدام رميا بالرصاص أو الحاق الهارب بكتيبة المعاقبين . لقد كان الآخرون يكفرون عن اخطائهم بدمائهم !

وذكر ستاخوفيتش ، فيما يعلو الشحوب وجهه :

— اننى لا أهاب بذل الدماء . .

وذكرت ليوبكا :

– انك وببساطة من المغرورين . هذه هي كل القضية .

وركز الجميع أنظارهم على اوليج عسى ان يعرفوا وجهة نظره في هذه القضية . وذكر أوليج بنبرة غاية في الهدوء :

– لقد ذكر فانيا توركينيتش كل شيء ، وليس ثمة ما يقال افضل من ذلك . ونظرا لأن ستاخوفيتش ما زال يحاول تبرير موقفه ، فانه يكون بذلك وعلى ما يبدو شخصا غير منضبط . . فهل يمكن لمثل هذا الشخص أن يبقى في قيادة فصيلنا ؟

وهنا افصح كل من الحاضرين عما يجول بخاطره . اذ راح الجميع يغرقون في مهاجمة ستاخوفيتش حيث كانوا قد قطعوا عهدا على أنفسهم ، كل امام الآخر . فكيف استطاع ستاخوفيتش ان يقسم على ذلك بينما يخفي ضميره هذه الفعلة ؟ وكيف استطاع ايضا اخفاء مثل هذا الأمر ؟ يا له من رفيق ذلك الذي يسمح لنفسه بتدنيس ذلك اليوم المقدس . انه يلزم وبطبيعة الحال عدم الابقاء على مثل ذلك الشخص في القيادة دقيقة واحدة بعد ذلك . اما الفتاتان ليوبا واوليانا واللتان لم تتفوها بحرف واحد ، فقد عبرتا بصمتهما عن احتقارهما الشديد الذي جعله اكثر احساسا بالمهانة .

لقد فقد السيطرة على نفسه تماما ، وراح يرنو الى الجميع في ذلة محاولا التعلق بنظراتهم فيما يكرر :

– اولا تصدقونني ؟ فلتجربوني ولو مرة اخرى ! . .

وهنا اثبت اوليج انه ليس ذلك الصبي صغير السن ، بل كاشوك الخبير المحنك ، حيث ساله :

– هل تعلم انه من المستحيل الابقاء عليك في القيادة ؟

واضطر ستاخوفيتش الى الاعتراف بانه يستحيل بالفعل الابقاء عليه في القيادة .

وذكر أوليج :

– انه من المهم أن تدرك بنفسك ذلك . وسوف نوكل اليك مهاما كثيرة . اننا سوف نختبرك ، وسوف نبقى على جماعتك معك ، لتتاح لك الامكانيات الكثيرة كي تمحو ما علق باسمك من عار .

اما ليوبكا فقد ذكرت :

– أنه ينحدر من أسرة طيبة . . ويا له من أمر مؤسف .

وجرى التصويت على فصل يفجيني ستاخوفيتش من قيادة «الحرس الفتي» . وجلس منكس الرأس ثم نهض متثاقلا وقال :

– ان وضعي عصيب بالفعل وانتم تدركون ذلك . بيد انني اعلم انكم لم تكونوا لتتصرفوا على نحو مناقض لذلك . كما وانني لست غاضبا منكم . واقسم . . .

وهنا اختلجت شفتاه وهرول خارجا من الغرفة . واطبق الصمت على الجميع بعض الوقت ، حيث كان من العسير عليهم تحمل صدفة فقدان الثقة في رفيقهم ، كما كان قاسيا ومؤلما على النفس حين تضطر الى تعذيب الآخرين .

غير أن ابتسامة عريضة ارتسمت على شفتي اوليج ليقول في تأتأة خفيفة :

– اقسم بالله انه سوف يكون قويا .

وايده فانيا توركينيتش قائلا بصوت هادئ :

– هل تظنون أن مثل هذه الأمور لا تحدث بالجبهة ؟ ان المقاتل الشاب يجبن في البداية ليتحول فيما بعد الى واحد من عمالقة المقاتلين !

وادركت ليوبكا انه قد حان الوقت للحديث باسهاب عن لقائها مع ايفان فيودوروفيتش . الا أنها لم تتحدث في الواقع عن ذلك الطريق الذي قطعته للالتقاء به . وبوجه عام فلم تكن تملك حق التحدث عن الوجه الآخر لنشاطها ، بيد أنها راحت تذرع الغرفة تقلده ، تصف كيف استقبلها ، وماذا قال لها . ودب النشاط في الجميع حين ذكرت ليوبكا أن ممثل قيادة الفدائيين رحب بعملهم ومدح أوليج ثم قبّلها عند الفراق . وهذا يعني أنه راض عنهم في حقيقة الأمر .

واعترت الجميع مشاعر الاضطراب والسعادة وبعض الدهشة ، حيث اكتشفوا أنفسهم في نمط جديد ، وراحوا يصافحون بعضهم البعض ، يتبادلون التهاني .

وخاطب اوليج زيمنوخوف فيما تعكس قسمات وجهه سعادة مشوبة بالسذاجة :

– كم عظيم يا فانيا ذلك . . يا له من أمر عظيم . ان «الحرس

الفتي» منظمة موجودة وبلغ بها الأمر انها حظيت باعتراف قيادة المقاطعة .

امّا ليوبكا فقد راحت تعانق اوليانا التى تصادقت معها منذ ذلك الاجتماع الذى عُقد لدى توركينيتش ، وحيث لم يكن الوقت قد اسعفها بعد لالقاء التحية عليها ، وتقبلها فى حرارة كما لو كانت شقيقتها .

وعاد اوليج ثانية الى مفكرته ، ليتولى فانيا زيمنوخوف الذى كان قد اختير بالاجتماع الماضى منظما للخلايا الخماسية ، تحديد قادتها ، مراعاة لأن المنظمة آخذة فى التوسع .

وذكر فانيا فيما ينظر الى أوليانا فى مرح من وراء نظارته الشبيهة بنظارة البروفيسور :

— لعلنا نبدأ بحى بيرفومايكا !

ونهضت أوليانا وقد اسدلت يديها الى جوار جذعها ، لتعكس وجوه الجالسين على الفور تلك المشاعر النقية الطاهرة غير المغرضة التى لا يمكن الا ان يؤججها جمال الأنثى . الا ان اوليانا لم تلحظ اعجاب الآخرين بها ، لتقول :

— نحن ، اى انا وتوليا بوبوف نرشح فيكتور بيتروف ومايا بيجليفانوفا .

وفجاة وقع نظرها على ليوبكا التى كانت تنظر اليها فى قلق ، لتمضى فى حديثها بصوت هادىء مبحوح :

— ولندع ليوبا تنتقى من تراه فى حى فوسميدوميكى .

وعلت الحمرة وجنتى ليوبكا ، لتشيح بيديها البيضاوين بما يعنى عدم قدرتها على التنظيم قائلة :

— اى كلام تقولين !

واعلن الجميع تاييدهم لأوليانا ، مما دعا ليوبكا الى الرضوخ بسرعة لتلك الرغبة ، وتخيل نفسها فى دور زعيمة التنظيم فى حى «فوسميدوميكى» ، مما جعلها فريسة مشاعر الفخر والخيلاء .

ووجد توركينيتش ان الوقت قد غدا مناسبا لطرح الاقتراح الذى اتفق بشأنه مع أوليج الليلة الماضية . وتحدث عما وقع لاوليج وعن العواقب التى كان يمكن ان تنجم عن مثل هذا السلوك وتؤثر ليس عليه فحسب بل وعلى التنظيم باكمله ، وعرض اصدار

قرار يحظر اشتراك اوليج فى اية من العمليات دون اذن من القيادة . ثم اضاف قائلا :

— واعتقد انه ليس هناك ما يدعونى لتوضيح ذلك . كما ويجب ان يشملنى هذا القرار ايضا ، وبطبيعة الحال .

وذكر أوليج :

— انه محق فى ذلك .

ووافق الجميع على هذا القرار بالاجماع . ثم نهض سيريوجكا تعتريه مشاعر الحيرة والقلق ليقول فى تجهم ضاما شفتيه المكتنزتين :

— ثمة خبران أود اعلانهما .

وتملكت الجميع مشاعر المرح دون سابق مقدمات لدرجة انهم لم يعيروه سمعهم بعض الوقت . الا أنه هب فجأة يقول وقد تضرجت وجنتاه :

— كلا . . اننى أود فى البداية الحديث عن هذا الاجنات فومين . الى أى مدى سوف نتحمل هذا الوغد ؟ لقد خان هذا الحيوان أوستابتشوك وفالكو ، ولسنا ندرى بعد كم من عمالنا اودى بهم ضميره الأسود . اننى اعرض الآتى . . اننى اقترح قتله . ولذا فلتوكلوا الى هذه المهمة ، لأننى سوف أقوم بقتله على كل حال .

وفجاة غدا واضحا للجميع ان سيريوجكا سوف يقوم فى حقيقة الأمر بقتل اجنات فومين .

وكست امارات الجدّية وجه أوليج ، لتغطى الغضون السميكة جبهته . وخيم الهدوء على كل اعضاء القيادة ، حتى ذكر فانيا توركينيتش بصوته الهادىء :

— وماذا فى ذلك ؟ انه يقول الحق ، لأن اجنات فومين خائن شرير لقومنا يجب شنقه فى مكان عام على مرأى من الجميع ، وتعليق لافتة على صدره توضح سبب شنقه حتى يتعظ الآخرون .

واتسم صوته بصرامة مفاجئة ليمضى قائلا :

— اننى اعتقد أنهم لن يرحمونا . فلتكلفونى وسيريوجكا تيولينين بهذه المهمة . . .

وشعر الجميع براحة بالغة ازاء تأييد توركينيتش لتيولينين .

فكم كان حقدهم هائلا على الخونة ! وقد كان صعبا عليهم للوهلة الأولى الاقدام على هذه الخطوة ، الا ان توركينيتش افصح عن رايه القاطع بهذا الشأن . ولما كان توركينيتش رفيقا كبيرا وضابطا بالجيش الأحمر فقد كان ذلك يعنى أن هذا هو ما يجب أن يكون . وذكر اوليج :

— يجب علينا بطبيعة الحال انتظار الاذن بذلك من رفاقنا الكبار . بيد انه ينبغى قبل ذلك التوصل الى راى واحد . اننى سوف اطرح للتصويت فى البداية اقتراح تيولينين بشأن فومين ، ثم اسماء من سوف توكل اليهم هذه المهمة .

وذكر فانيا زيمنوخوف :

— ان الموضوع واضح تماما .

وعلّق أوليج على ذلك فى اصرار مشوب بالتجهم :

— نعم . . ان الموضوع واضح ، بيد أننى سوف أعرض موضوع فومين منفصلا .

وادرك الجميع سبب اصرار أوليج على ذلك .

لقد قطعوا على أنفسهم عهدا ، وينبغى على كل منهم بحث هذا الأمر مع نفسه . وفى صمت رهيب أفصحوا عن موافقتهم بشأن اعدام فومين وأوكلوا هذه المهمة الى توركينيتش وتيولينين .

وذكر سيريوجكا فيما تومض عيناه ، تعكس مشاعره الجارفة :

— لقد أحسنتم اتخاذ القرار ! هكذا يجب التصرف مع أمثال أولئك الأوغاد . ولأنتقل الى النبأ الثانى الذى كنت أود ابلاغكم به . . .

كانت ناتاليا الكسييفنا طبيبة المستشفى ، تلك المرأة ذات اليدين البضتين الصغيرتين والعينين المفعمتين صرامة ، والتى تعكس قسمات وجهها حبها للحركة والنشاط ، قد تحدثت مع سيريوجكا حول أنه فى المستعمرة التى تحمل كذلك اسم كراسنودون والكائنة على مسافة ثمانية عشر كيلومترا من المدينة قد تشكلت مجموعة من الشباب لمقاومة المحتلين الألمان . ولم تكن ناتاليا الكسييفنا منضمة الى هذه المجموعة ، بل عرفت بوجودها من جارتها فى الشقة التى كانت تقيم بها والدتها . وقد

كانت هذه الجارة معلّمة تدعى انطونينا يليسينكو ، وعدتها بالاتصال بالمدينة بهذا الشأن .

وأوكلت القيادة ، وفقا لاقتراح سيريوجكا ، الى فاليا بورتس مهمة الاتصال بهذه المجموعة . وقد جرى ذلك غيابيا لأن مراسلات الاتصال نينا وأوليا ايفانتسوفا وفاليا لم يحضرن اجتماع القيادة حيث جلسن فى الفناء مع مارينا يحرسن المنزل حيث يدور الاجتماع .

واستغلت قيادة «الحرس الفتى» كون يلينا نيكولايفنا والخال كوليا قد رحلا بضعة أيام الى المنطقة التى يعيش بها أقارب مارينا ، لمقايضة بعض الأشياء بالخبز . هذا بينما قامت الجدة فيرا فاسيليفنا التى تظاهرت بتصديقها أن الصبية تجمعوا لمجرد قضاء وقت فراغهم ، بارسال مارينا وابنها الصغير الى العنبر الخشبى الملحق بالمنزل .

وريثما كان الاجتماع ما يزال دائرا ، أسدلت الظلمة ستائرها ، لتدلف الجدة فيرا الى داخل الحجرة فجاة . وتطلعت الجدة من فوق نظارتها التى كان أحد ذراعيها مكسورا ، ومثبتا بخيط أسود ، الى زجاجة الفودكا التى لم يمسها أحد ، والأقداح الفارغة . ثم قالت لتنتاب الحيرة والارتباك شباب العمل السرى :

— فلتشربوا شايا على الأقل ، ولقد أعددته لكم . أما مارينا فقد أقنعتها بقضاء الليلة مع ابنها فى العنبر الخشبى ، حيث أن الهواء هناك أنقى مما فى الداخل .

وقادت الجدة فاليا ونينا وأوليا الى الداخل ، وأحضرت براد الشاى ثم تناولت من قاع أحد الأدراج بعض الحلوى ، وأغلقت النافذة وأشعلت مصباح الزيت وانصرفت .

والآن وحين بقى الشباب وحدهم ، تبدّد ظلمة الحجرة التى يجلسون بها أشعة المصباح الذى تراقص لهبه خافتا ، لتبدو بعض تفاصيل وجوههم وملابسهم وأثاث الغرفة مما جعلهم أشبه فى حقيقة الأمر بالمتآمرين ، كما وخفتت أصواتهم لتبدو مبهمة غامضة ، فيما همس أوليج متسائلا :

— هل تودون سماع موسكو ؟

وتصوره الجميع يمزح بعرضه هذا ، فيما عدا ليوبكا التى ارتجفت بعض الشىء متسائلة :
- كيف موسكو ؟
- على شريطة . . الا تسالوا عن اى شىء .
وخرج اوليج الى الفناء ، ليعود على الفور قائلا :
- فلتصبروا بعض الوقت .
واختفى بغرفة الخال كوليا المظلمة .
ولزم الجميع اماكنهم فى صمت لا يعرفون ما اذا كان يمكنهم تصديق اوليج فى حقيقة الأمر . غير انه لم يكن قادرا على المزاح بهذه الصورة ، وفى مثل ذلك الوقت . وتعالى صوت اوليج ينادى :
- نينا . . فلتساعدينى !
وذهبت نينا ايفانتسوفا اليه .
وفجاة ترامى الى الاسماع من غرفة الخال كوليا صوت خافت غير غريب عليهم ، وان كانوا قد نسوه . . قرقعة خفيفة ثم موسيقى . . لقد كان ثمة من يرقص تحت وقع هذه الموسيقى .
كانت المارشات الالمانية تفرض نفسها على الأثير طوال الوقت . وكان هناك صوت هادئ* لمذيع تقدم به السن يعلن بالانجليزية اعداد القتلى فى مختلف الجبهات ، وآخر يتحدث بالالمانية دون انقطاع وعلى نحو سريع بدا معه وكانما يخشى ظهور من يمنعه عن استكمال حديثه .
وفجاة وبين هذه القرقعة الخفيفة تعالى صوت المذيع ليفيتان يدلف الى الحجرة موجات قادمة من الفضاء الرحب واضحا حرا ، يعلن فى نبرة احتفالية عادية :
«من مكتب الاعلام السوفيتى . . بيان العمليات عن السابع من سبتمبر : انباء المساء . . .»
وهمس فانيا زيمنوخوف فجاة فيما امسك بقلمه على الفور :
- اكتبوا . . اكتبوا . اننا سوف نصدره غدا !
وكان هذا الصوت الحر القادم من الأراضى الحرة يتعالى الى الاسماع عبر آلاف الكيلومترات .
«. . . خاضت قواتنا فى السابع من سبتمبر معارك ضارية ضد العدو غربى ، وجنوب غربى ستالينجراد وكذلك فى منطقتى

نوفوروسيسك وموزدوك . . ولم تشهد الجبهات الأخرى اية تغيرات جوهرية . . .»
وبدا الأمر وكانما يتسلل صدى المعركة العظيمة الى الداخل ليفرض نفسه على الاسماع .
وراح الصبية والفتيات يصغون الى ذلك الصوت المعبر عن الأرض الحرة وقد مالوا الى الأمام مفرودى القوام تبدو وجوههم تحت اشعة المصباح مثل رسومات الأيقونات ، واعينهم كبيرة داكنة اللون .
وعند عتبة الباب وقفت الجدة فيرا متكئة الى قائمته ، لا يلحظها احد ، بوجهها البرونزى النحيف الذى خطته التجاعيد ليغدو اشبه بوجه دانتى الليجيرى .

الفصل الحادى والاربعون

لم يكن هناك سوى المنشآت الالمانية يحظى بالتيار الكهربائى . وكان الخال كوليا قد استفاد من كون خط الكهرباء الموصل الى الادارة ومقر الحاكم لا يمتد عبر الشارع ، بل عبر المساحة التى تفصل بين البيت والفناء المجاور ، حيث كان احد الأعمدة كائنا الى جوار غرفة آل كوروستيليف . وكان جهاز الراديو موجودا بحجرته تحت الواح الأرضية الخشبية فيما تحت صوان الثياب . أما السلك الذى كان يستخدم لتشغيل الجهاز فقد كان يمتد عبر الضلفة العليا للنافذة ، يلتف حول عصا طويلة تنتهى بخطاف ، يتصل بالسلك الكهربائى الاساسى قريبا من العمود .
بلاغ مكتب الاعلام . . . يجب الحصول على مطبعة باى شكل كان !
وكان فولوديا اوسموخين وجورا اوروتيونيانتس وتوليا الملقب «بالرعد» قد استطاعوا الحصول على بقايا احرف المطبعة المدفونة بالحديقة ، اذ انه ربما كان اولئك الذين دفنوها آنذاك قد القوها فى الحفرة ، واهالوا التراب عليها نظرا لعدم امكانيتهم

الحصول على صناديق تحفظها . أما الجنود الألمان الذين راحوا يحفرون لاخفاء العربات والمدافع المضادة للطائرات ، فقد كانوا يجهلون ماهية تلك الحروف ، مما جعلهم يلقون ببعضها بعيدا مع التراب الناتج عن الحفر . ، اما فيما بعد وحين افاقوا لأنفسهم ، ابلغوا القيادة بذلك . ومن المحتمل ان يكونوا قد سلموا جزءا من هذه الحروف ، الا أن جزءا آخر قد بقى فى قاع الحفرة . وعلى مدى بضعة ايام وبعد جهد مضنى عثر الصبية على بقايا تلك الحروف فى مكان قريب من ذلك الذى حددته الخطة المرسومة ، وقاموا بتجميع كل ما كان هناك . بيد ان هذه الحروف لم تكن تصلح لما كان يخطط ليوتيكوف بشانه ، ولذا فقد سمح لفولوديا باستخدامها «للحرس الفتى» .

كان الكسندر شقيق فانيا زيمنوخوف الأكبر والموجود حاليا بالجيش قد عمل فترة طويلة فيما قبل بمطبعة جريدة «الوطن الاشتراكي» المحلية وحيث كان فانيا يتردد عليه كثيرا . وهكذا صمم فولوديا وتحت اشراف فانيا مطبعة صغيرة . وكان فولوديا قد اعد خلسة الاجزاء المعدنية للمطبعة فى الورشة الميكانيكية ، اما جورا فقد اعد الصندوق الخشبى للآلة ، والصناديق اللازمة لصف الحروف .

وقد كان أبو جورا يعمل نجارا . بيد ان وللحقيقة لم يهب للنضال بعد احتلال الألمان للمدينة ، كما ولم تفعل نفس الشيء امه على الرغم مما عرف عنها من طباع ، وعلى النقيض مما كان يتوقع . بيد انه لم يكن يشك فى انه سوف يستميلهما تدريجيا الى نشاطه . وبعد تفكير متان طويل وجد ان امه على درجة بالغة من النشاط ولذا فقد أجّل مفاتحتها فى الموضوع على أن يبدأ بوالده . وكان والد جورا شخصا تقدم به السن ، هادئ الطباع ، قصيرا ، تعلو قامته كتفى ابنه قليلا ، مما يعنى أن الابن قد شب شبيها بأمه طباعا وقامة وحتى لون شعره الاسود . وكان الأب غير راض تماما عن كون رجال العمل السرى قد أوكلوا هذه المهمة الحساسة الى ابنه الذى لم تتعد سنه عمر المراهقة بعد ، ومع ذلك فقد أعد دون علم زوجته الصندوق الخشبى للآلة والصناديق اللازمة لصف الحروف . ولم يكن يعلم بطبيعة الحال

ان جورا وفولوديا أصبحا اليوم من كبار المسئولين ، حيث يشرفان على خليتين خمسيتين .

وقد تطورت صداقة الصبية حتى بلغت درجة أنهم أصبحوا غير قادرين على الحياة دون أن يرى كل منهم الآخر يوميا . ولم يكن هناك سوى ليوسيا اوسموخينا التى ظلت علاقاتها بجورا رسمية مشوبة بالتوتر ، كما كان الحال فى السابق .

ولا ريب أن هذه الحالة كانت وضع فردين متباينى الطباع . ولقد كان كلاهما من هواة القراءة ، الا أن جورا كان يهوى الكتب العلمية ذات المضمون السياسى ، اما ليوسيا فكانت تفضل أساسا الكتب الغرامية ، كما ويجب القول انها كانت تكبره سنا . ويجدر بنا الاشارة الى أن جورا حاول التغلغل بناظريه فى مجاهل المستقبل ، وكان سعيدا بأن ليوسيا سوف تتقن ثلاث لغات أجنبية ، غير انه كان رغما عن ذلك يعتبر مثل هذا النوع من التعليم غير كاف ومن ثم فقد حاول تغيير اتجاه ليوسيا الى دراسة الهندسة المعمارية ، وان كان ذلك أمرا يبدو غير لائق .

وبوجه عام ، فقد تعامدت كنصلين معدنيين منذ اللحظة الأولى للقائهما نظراتهما . . ملتهبة مشرقة لدى ليوسيا ، وحاسمة داكنة لدى جورا . وكان كل منهما يهاجم الآخر طالما كانا يتواجد سوية ، فى حضرة آخرين فى غالبية الوقت ، حيث تنازله ليوسيا بجمل مقتضبة لاذعة ، بينما يجيبها جورا بعبارات ارشادية تتسم بالموعظة وضبط النفس .

واخيرا جاء ذلك اليوم الذى تجمع فيه الفتيان الأربعة فى حجرة جورا ... صاحب المكان وفولوديا أوسموخين وتوليا الملقب «بالرعد» ، وفانيا زيمنوخوف رفيقهم الأكبر ورئيسهم الذى كان اكثرهم اهتماما بأمر المطبعة ، ليس لكونه شاعرا وحسب ، بل ولأنه كان كاتب غالبية منشورات وشعارات «الحرس الفتى» . وها هى المطبعة قد أعدت للعمل . وقام توليا فيما يسعل ويئز ، بحمل الآلة ، ليذرع الغرفة ذهابا وايابا بغية التأكيد على انه فى امكانية شخص واحد نقلها اذا ما دعت الضرورة الى ذلك .

كما وكانت توجد لديهم فرشة عريضة وبكرة لتسوية الأوراق . واعد ابو جورا الذى كان يعمل طوال حياته فى مجال

كانت الحروف قد أعدت وقام فولوديا بصف بعض الأسطر . وغمس جورا الفرشة فى ذلك «الخليط الفريد من نوعه» ، أما فولوديا فقد اعد الأوراق وسوّاها بالبكرة . وظهر النص المطبوع فى اطار اسود ، لم يعتن فولوديا ببرد قالبه المعدنى بما فيه الكفاية لحظة صنعه فى الورشة الميكانيكية . هذا علاوة على ان الحروف لم تكن ذات أحجام متساوية ، بيد أنهم رضخوا لذلك ، حيث أن المهم هو كونهم اليوم حيال نص مطبوع ، قادرين على قراءة ما قام فولوديا أوسموخين بتصفيفه :

«لا تذهب بعيدا لتنفرد بفانيا ولا ترهق اعصابك فاننا نعلم على الرغم من كل شىء مكنون قلبك . . اى ياى ياى» .

واوضح فولوديا أنه يكرس هذين السطرين لجورا أروتيونيانتس وأنه حاول استخدام الحرف «ى» كثيرا ، بل وصف «أى ياى ياى» خصيصا بسبب وجود ذلك الحرف الذى نملك منه فى مطبعتنا أكثر من اى حرف آخر . اما علامات الترقيم فلم يصفها ، لا لشىء الا لأنه نسى ضرورة ذلك ، شأن بقية الحروف .

وتوقد أوليج ليتساءل محدقا فى الجميع بعينيه الكبيرتين :

— هل تعرفون أن ثمة فتاتين فى حى بيرفومايكا تطلبان الانضمام الى الكومسومول ؟

وذكر جورا :

— ثمة فتى فى خليتى كذلك يطلب الانضمام الى الكومسومول .

وقد كان يتحدث عن راديك يوركين حيث ان خلية جورا اروتيونيانتس لم تكن تضم بعد سوى ذلك الفتى . وصاح أوليج :

— اننا نستطيع فى مطبعة «الحرس الفتى» طباعة بطاقات عضوية مؤقتة . أولسنا نملك الحق فى منح عضوية الكومسومول ؟ لقد جرى الاعتراف بمنظمتنا رسميا !

ومهما كانت تحركات ذلك الرجل ذى القامة الفارعة والرأس الصغير الذى تغطيه سدارة قديمة الطراز ، والعينين الصفراوين اللتين اختفيتا فيما بين ثنايا الجلد الكثيرة ، فقد كان محكوما عليه بالموت .

لقد كان الثأر يقتفى أثره فى كل مكان ، ليل نهار ، أثناء قيامه بأعمال المناوبة او بمهام التفتيش . كان يتابعه عبر النافذة ، ينظر اليه حين يجلس برفقة زوجته يتفحصان الأشياء والملابس التى صودرت من بيت أحد القتلى . . يعرف كل جريمة يرتكبها ويحصيها فى سجله . نعم كان يتتبعه فى شخص صبى سريع الحركة كالقطة ، ذى عينين تستطيعان تمييز كل شىء حتى فى حلكة الظلام . ولو كان فومين يدرك مدى قسوة ذلك الثأر حافى القدمين ، لتوقف على الفور ، وكف عن اية حركة توحى بالحياة .

وقد كان محكوما على فومين بالموت لأنه راح يعيش فى كل تصرفاته وافعاله ليس حتى خضوعا لمشاعر التعطش للثروة والانتقام ، بل تحت وقع الحقد الهائل اللامتناهى على حياته وعلى كافة الناس بما فيهم الألمان .

وقد حمل الحقد الى أعماقه الخواء الذى أصاب روحه ، بيد أنها لم تكن أبدا على هذا النحو من الخواء واللاأمل كما هى اليوم حيث تهاوت تلك الركيزة المعنوية الأخيرة ، التى كان يعتمد عليها فى بقائه وعلى الرغم من دناءتها . ومهما كانت فداحة الجرائم التى ارتكبها فقد كان يأمل فى أن يصل الى السلطة بما يكفل له خوف الناس منه ، مما يجعلهم يحترمونه ويحنون هاماتهم فى حضرته . كما كان يتصور نفسه موضع احترام الآخرين ، شأن الأثرياء فى العهد القديم ، سوف يصل الى شاطئ الرضا والاستقلالية . واتضح أنه لم يستفد ماديا من نشاطه هذا ، بل وفقد حتى الأمل فى ذلك . لقد صار يسرق متاع ضحاياه من المعتقلين والقتلى ، فى حين كان الألمان يتجاهلون ذلك على الرغم من علمهم به ، يحتقرونه كأجير وتابع ، وكوغد ولص . وكان يعلم أن الألمان فى حاجة اليه طالما يساعدهم ويعمل من أجل اقرار سيادتهم ، اما وحين سوف يتم ذلك ، ويستقر النظام الحديدى الجديد فسيطردونه او يدمرونه ببساطة .

وللحقيقة ، كان الكثيرون يخشونه ، بيد أن هؤلاء كانوا شأن الآخرين يحتقرونه ويتحاشون التعامل معه . اما وحين يفقد مكانته فى هذه الحياة وبدون احترام الآخرين له ، فلم تكن الأشياء والملابس التى كانت تؤول الى زوجته ، لتعود عليه بأية راحة

نفسية .. وكان يعيش مع زوجته على نحو أسوأ من معيشة الحيوانات ، ذلك لأن الحيوانات تعرب عن سعادتها ازاء الشمس والطعام ، علاوة على أنها تعيش حياتها الطبيعية .

اما اجنات فومين فلم يكن يعرف سوى الاعتقالات وحملات التفتيش التى يشارك فيها ، شأن كل رجال الشرطة الآخرين ، يقوم باعمال الحراسة والمراقبة بالشوارع والى جوار المؤسسات . وقد كان فى تلك الليلة يقوم بالحراسة الى جوار الادارة التى كانت تشغل مبنى مدرسة جوركى بالحديقة العامة .

كانت الرياح تهب متقطعة تضرب جذوع الأشجار تطيح باوراقها المبتلة التى تتناثر فى ممرات الحديقة ، فيما صارت الأمطار تتساقط رذاذا ، وبدت السماء داكنة يلوح خلف غيومها القمر او النجوم ، وظهرت قمم الأشجار نقاط معتمة تداخلت اطرافها مع السحب على نحو بدت معه وكأنما ذابت فى خضمها .

واستقر مبنى المدرسة الحجرى ، ومبنى المسرح الصيفى الخشبى الضخم كصخرتين داكنتين يواجه كل منهما الآخر على جانبى الممر .

وكان فومين يذرع الممر فيما بين المبنيين ذهابا وايابا دون ان يتوغل كثيرا فى داخل الحديقة وكأنما هو مربوط بسلسلة ، يرتدى معطفا خريفيا أسود ، طويلا زررت ياقته باحكام . كان يتوقف احيانا الى جوار احد اعمدة البوابة ، يحدق فى الظلمة التى اسدلت ستائرها على شارع سادوفايا حين اطبقت على عنقه من الخلف وبقوة هائلة يد راحت تضغط عليه لدرجة انه لم يكن قادرا حتى على اصدار اى صوت ، ثم مالت به الى الخلف حتى طقطق عموده الفقرى ، وطرحته ارضا . وفى نفس اللحظة شعر فومين بعدة اياد تطبق على جسده . وكانت احدى هذه الأيادى ما تزال مطبقة على عنقه ، بينما ضغطت اخرى على انفه ، ودست ثالثة كمامة فى فمه المفتوح ، ثم شدت رابعة فوطة حول الجزء الاسفل من وجهه .

وحين عاد الى وعيه ، وجد نفسه موثق اليدين والقدمين مستلقيا على ظهره الى جوار البوابة تعلو راسه السماء الملبّدة بالغيوم المشوبة بالضباب الذى اخذ فى التلاشى .

ولم يستطع تبين وجوه أولئك الذين وقفوا يلفهم الظلام يحيطون به من كلا الجانبين .

ونظر أحدهم الى اطار البوابة ، ليقول بصوت هادئ :

– ان المكان هنا مناسب جدا .

وتسلق الغلام النحيف الصغير اطار البوابة فى مهارة ، وظل برهة من الزمن مشغولا بشىء ما عند منتصفها ، وحتى وقع نظر فومين فجأة على أنشوطة حبل سميك تتمايل تحت ضوء السماء الكالح .

وذكر الصبى الأكبر سنا الذى علت مقدمة غطاء رأسه الى السماء :

– فلتربطها عقدة مزدوجة .

وحين استمع فومين الى ذلك الصوت ، تذكر على الفور غرفته فى شنغهاى التى كانت عامرة بأصص النباتات والشخص مجدور الوجه قوى البنية الذى اتخذ مكانه حول المائدة ، وذلك الصبى الذى أعلن عن نفسه بتلك الجملة . واذ راح فومين يتململ فى مكانه ، زحف من مكانه الذى طرحوه فيه أرضا . غير أن الشخص الذى كان يرتدى سترة كبيرة شبيهة بسترة البحارة ذا اليدين الضخمتين ، عريض المنكبين دفعه بقدمه الى مكانه السابق .

وقد عرف فومين فى ذلك الشخص كوفاليوف الذى كان يخدم معه بالشرطة ، وجرى طرده من صفوفها . كما وعرف غير كوفاليوف ، أحد سائقى الادارة ، وهو فتى عريض المنكبين كذلك قوى البنية كان قد شاهده اليوم فى الجراج ، الى حيث عرج لاشعال سيجارته قبيل تسلمه المناوبة .. وكم كان غريبا أن يروح فومين فى مثل وضعه ذلك يفكر على الفور فى أن هذا السائق هو المسئول حتما عن حوادث عربات الادارة المتكررة ، والتى كانت الادارة الالمانية تشكو منها كثيرا ، وفى ضرورة الابلاغ عن ذلك . بيد أنه سمع فى تلك اللحظة صوت هادئ يعلن بلهجة أرمنية خفيفة وعلى نحو احتفالى :

– باسم اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية . . .

وسكن فومين على الفور ورفع عينيه الى السماء حيث شاهد من جديد أنشوطة الحبل السميك تحت ضوء الليل الخافت والصبى

النحيف الذى اعتلى فى هدوء أطار البوابة ، يحتضنه بقدميه وينظر الى أسفل . وها هو ينقطع ذلك الصوت الذى كان يتحدث بلهجة ارمنية . يتملك فومين الرعب الشديد ويروح يزحف على الأرض على نحو مشوب بالرهبة والرعب . وامسكت به عدة أياد قوية ترفعه الى وضع راسى ، اما الغلام الصغير فى أعلى البوابة فقد انتزع الفوطة التى كانت مشدودة على فكيه ، ووضع أنشوطة الحبل حول عنقه .

حاول فومين القاء الكمامة من فمه وتقلص فى الهواء عدة مرات ، دون أن تصل قدماه الى الأرض ، ليتارجح فى معطفه الاسود الطويل الذى كان قد احكم كل ازراره . وادار فانيا توركينيتش وجه اجنات فومين فى اتجاه شارع سادوفايا وعلق على صدره الورقة التي تحمل أسباب اعدامه .

وتفرق الشباب كل فى طريقه ، عدا راديك يوركين الذى رافق جورا ليقضى ليلته عنده .

وهمس جورا فيما تومض عيناه السوداوان فى الظلمة يسأل راديك الذى ألمت به الرجفة :

— كيف حالك ؟

واجابه راديك فيما ينظر اليه بعينين تتسمان بالهدوء :

— تراودنى رغبة شديدة فى النوم ، حيث تعودت على الرقاد مبكرا .

ولزم سيريوجكا تيولينين مكانه تحت أشجار الحديقة العامة مستغرقا فى التفكير . اذ تحقق فى النهاية ما كان قد اقسم على اتيانه يوم عرف أن فومين قد سلم الى السلطات الألمانية ذلك الشخص الطيب قوى البنية الذى شاهده عنده . ولم يكن سيريوجكا قد اصر فقط على تنفيذ ذلك الحكم بل وبذل لقاء ذلك كل قواه الجسمانية والمعنوية ، ليبلغ مراده فى نهاية الأمر . كانت تتنازعه مشاعر الارتياح ، وسعادة التوفيق وبقايا الاحساس بضرورة الثأر والانهاك المضنى والرغبة فى الاستحمام بماء دافئ والتعطش الشديد لحديث ودى طيب حول شىء يتسم بالسذاجة والرقة كحفيف أوراق أشجار ، وخرير غدير ماء ، أو اشعة شمس تداعب الجفون الناعسة المتعبة . وكم كان توافا لأن يجد نفسه

الى جوار فاليا . بيد انه لم يكن قد تجاسر أبدا على زيارتها ليلا ولا سيما مع وجود أمها وشقيقتها الصغرى . هذا علاوة على ان فاليا كانت قد غادرت المدينة الى مستعمرة كراسنودون .

وهكذا راح سيريوجكا تيولينين يطرق نافذة فانيا زيمنوخوف فى تلك الليلة المشهورة حالكة الظلمة ، فيما يتساقط الرذاذ خفيفا ، وقد تجمدت أوصاله فى ذلك القميص المبتل الذى لم يكن يرتدى سواه ، وقدماه العاريتان اللتان خاض بهما القاذورات والأوحال .

جلس سيريوجكا وفانيا بالمطبخ ذى النافذة المعتمة تحت ضوء مصباح زيت خافت . كانت النيران تقرقع تحت اناء الماء حيث قرر فانيا رغما عن كل شىء اتاحة الفرصة لصديقه كى يستحم . اما سيريوجكا فقد جلس القرفصاء الى جوار النيران يستمتع بدفئها ؛ فيما كانت الرياح تعصف بالنافذة التى كان المطر يتساقط عليها رذاذا . وقد جعل وقع تساقط الرذاذ على زجاج النافذة وصفير الرياح التى تلاعبت بلهب المصباح داخل المطبخ ، جعل الشابين يتصوران مدى وحشة الانسان الوحيد فى البرارى ، وعذوبة الجلوس سوية ، يرتعان فى دفء المطبخ .

وفى صوت اجش تحدث فانيا عارى القدمين الذى يضع نظارة على عينيه :

— اننى اتخيله فى ذلك الكوخ الخشبى الصغير ، الذى تعصف به الزوبعة الثلجية من كل جانب ، بينما تجلس الى جوار الحاضنة أرينا روديونوفنا . تهب العاصفة الثلجية ، فيما تجلس الحاضنة الى جوار المغزل الذى يدور ويدور ، وفى الوقت الذى تقرقع فيه النيران بالموقد . اننى اقدر حاله خير تقدير ذلك لاننى انحدر من القرية ، كما وأن امى فلاحة أمية شأن أمك . اننى اذكر بيتنا هناك . . اذكر يوم كنت اتخذ الفرن فراشا فى السادسة من عمرى ، فيما كان اخى الأكبر ساشا يعود من المدرسة ليحفظ الشعر . كما واذكر حين كانوا يسوقون الخرفان من المرعى ، فيما كنت أعتلى ظهر أحدها احثه على السير ، ليلقى بى بعيدا عن كاهله .

وفجأة اعترى الارتباك فانيا ليتوقف عن الحديث بعض الوقت ليعود اليه ثانية :

– لقد كان يشعر وبالطبع بسعادة بالغة حين يزوره احد اصدقائه . انى اتمثله فى مخيلتى وقد جاءه بوشين لزيارته . كان صوت الجرس يتعالى ، ليجعله يتساءل فيما بين نفسه عن القادم ، خوفا من ان يكون من رجال الشرطة . غير ان القادم لم يكن سوى صديقة بوشين . او اتخيله حين كانا يجلسان مع الحاضنة ، هناك فى القرية النائية التى تغمرها الثلوج ، غارقة فى حلكة الظلام . . . هل تذكر اشعار «العاصفة تلف السماء بغلالة من الظلام . .» ؟ لعلك تذكرها . اننى اتاثر كثيرا بذلك المقطع .

وثمة سبب جعل فانيا يهب واقفا قبالة سيريوجكا ، لينشد بصوته الأجش :

فلنشرب يا صديقتى العزيزة
يا رفيقة شبابى البائس
فلنشرب كى ننسى احزاننا . .
هاتى كاسك ، ففيها راحة قلوبنا
وانتشدى بصوتك الرقيق
حياة عصافير ما وراء البحار ،
فلتنشدى كيف راحت الفتيات
تنهلن صباحا من عذب المياه . .

كان سيريوجكا يجلس الى جوار الموقد فى صمت يمط شفتيه المكتنزتين ، بينما تكسو عينيه اللتين ترنوان الى فانيا ، امارات صرامة ممتزجة بالرقة . وتقافز غطاء اناء الماء فوق الموقد ، حيث راحت المياه تنز معلنة عن غليانها بما يدعو الى المرح .

– كفى أشعارا !

قالها فانيا وكانما عاد الى وعيه ، ليمضى قائلا فى مرح :

– هيا اخلع ملابسك ! اننى يا صاح سوف احممك على افضل ما يكون . . هيا اخلع ملابسك كلها . . كلها ، ولا داعى للخجل . فقد اعددت ليفة مناسبة لذلك .

وريثما كان سيريوجكا يخلع ملابسه ، قام فانيا برفع اناء

الماء من على الموقد وتناول طستا ، وضعه على كرسى خشبى صغير ، ثم وضع الى جواره قطعة صغيرة من صابون الغسيل غير جيد الرائحة . وذكر فانيا فيما يقتعد الكرسى مباعدا ما بين قدميه العاريتين :

– كان يسكن قريتنا فى مقاطعة تامبوف عجوز عمل طوال حياته فى احد الحمامات بموسكو لدى التاجر ساندونوف . وهل تعرف ماذا يعنى عامل الحمام ؟ اذن فلتسمعنى . . لقد جئت على سبيل المثال الى الحمام . ولنقل انك من كبار النبلاء ، او من اولئك الكسالى غير القادرين على تنظيف انفسهم . عندئذ تكترى احد عمال الحمام ليدعك لك جسمك كما تشاء . هل فهمت ؟ وقد ذكر ذلك العجوز انه حمّم ما يزيد عن مليون ونصف مليون شخص طوال حياته . وماذا تظن ؟ لقد كان يفخر بذلك . . يفخر بذلك الكم الكبير من الناس الذين جعلهم نظيفين ! وتلك طبيعة البشر . . . اذ انك بعد ، اسبوع سوف تعود قذرا من جديد .

والقى سيريوجكا بآخر قطعة من ملابسه وهو يضحك ، ثم راح يصب الماء الساخن الى الطست الملىء بالمياه الباردة بغية جعلها اكثر سخونة ، وهبط فيها برأسه ذى الشعر الخشن .

وذكر فانيا وهو يعلق ثياب سيريوجكا المبللة بالقرب من الموقد :

– ليس ثمة من يحسدك على ملابسك . انها اسوأ مما امتلك . كما وارى انك من هواة النظام . فلتصب الماء هنا فى هذا الدلو . . هيا ، مرة اخرى ولا تخف الطرطشة ، فسوف امسح الارضية !

وفجأة علت وجهه أمارة صرامة وان كانت تعنى الاستكانة فى نفس الوقت . فقد زاد من انحناءة ظهره واسدل راحتيه على نحو بدتا معه وكانهما غدتا اكثر ثقلا وقال بصوت اكثر حدّة :

– فلتستدر يا صاحب السعادة حتى ادعك لك ظهرك !

ومسح سيريوجكا الليفة بالصابون فى صمت ، ثم نظر شزرا الى صديقه معلنا عن تافف . وناول الليفة الى فانيا واتكا بيديه على الكرسى مستديرا اليه بظهره النحيف الذى لفحته الشمس ، كثير العضلات ، وناتىء الفقرات .

ولما كان فانيا ضعيف النظر فقد راح يدعك ظهر صديقه بلا

مهارة ، ليعلن سيريوجكا فى تذمر وبنبرة يقلد بها كبار النبلاء :
– ما لك يا صاح ؟ هل اصابك الوهن ؟ أو انك تتكاسل ؟ اننى غير راض عنك . .
واجاب فانيا بمنتهى الجدية بصوته الأجش ، وبنبرة تحمل معنى الاعتراف بالذنب :
– ما العمل اذا كان الغذاء لا يسعفنى بما هو اكثر من ذلك؟ فلتحكم سعادتك على الموقف بنفسك !
وفى تلك اللحظة انفرج باب المطبخ ، حيث التفت فانيا الذى كان يقف فى نظارته القرنية مشمر الساعدين ، وسيريوجكا عارى الجسم يغطى الصابون ظهره ، لتقع انظارهما على والد فانيا فى ملابسه الداخلية ، يتخذ مكانه الى جوار الباب ، فارع القامة نحيف البنية ، وقد اسدل يديه القويتين اللتين حاول فانيا أن يملك مثلهما ، ينظر الى الشابين بعينين ضاربتين الى البياض مما جعل الرهبة تتسلل الى نفسيهما . ولبث واقفا مكانه بعض الوقت دون ان يقول شيئا ثم قفل خارجا من الغرفة وقد اغلق بابها قليلا . وتعالى الى سمعيهما دبيب خطواته بالردهة بما يعنى انه فى طريقه الى غرفته .
وذكر فانيا فى هدوء فيما يواصل دعك ظهر سيريوجكا دون حماسه السابق :
– لقد مرّت العاصفة ؛ ولك أن تدفع البقشيش يا صاحب السعادة .
– فليعطك الله !
قالها سيريوجكا بنبرة تعنى عدم الثقة فيما كان يمكن مخاطبة عمال الحمامات على هذا النحو ثم تنهد .
وذكر فانيا فى جدية حين جلس سيريوجكا حول المائدة الى جوار الموقد نظيفا متورد الوجنتين ممشط الشعر :
– اننى لا اعلم عن أوضاعك شيئا ، ولذا اقول أن ثمة مصاعب تنتظرنا مع الآباء بل ومع الأمهات أيضا .
بيد ان سيريوجكا لم يكن يهاب مواجهة المشاكل مع والديه ، وراح يرنو الى فانيا فى شرود ، ثم قال :

– أعطنى ورقة وقلما لأكتب رسالة ما ، حيث سرعان ما سوف أرحل .
وهاكم ما كتبه بينما كان فانيا ضعيف البصر يتظاهر بضرورة تنظيف المطبخ . .
«فاليا . . اننى لم اكن اعتقد ابدا اننى سوف اعانى ازاء كونك قد رحلت وحيدة . اننى أفكر طوال الوقت فى احوالك . فلنتفق على عدم الافتراق أبد الدهر ، وعلى العمل سوية ! فاليا . . اننى اطلب منك ان استشهدت ، أمرا واحدا . . لك أن تزورى قبرى لتذكرينى بكلمة طيبة هادئة !»
وراح يقطع حافى القدمين ، الطريق الدائرى حول مساكن شنغهاى ، والوهدة والحفر المنتشرة هنا وهناك ، تعصف به تلك الرياح الشديدة وتحت ذلك الرذاذ الثلجى ، ليصل الى الحديقة العامة ثم شارع ديريفيانايا بغية تسليم ليوسيا شقيقة فاليا هذه الرسالة عند مطلع الفجر .

الفصل الثانى والاربعون

كان التفكير فى الام يقض مضاجع فاليا ، يفسد عليها كل بهجة الرحلة فى هذا الوقت المبكر من صباح ذلك اليوم المعتم ، حين راحت تسير عبر البرارى برفقة ناتاليا الكسييفنا ، التى صارت تحث الخطى بقدميها البضتين فى حذائها الكاوتشوك تذرع الطريق الذى اكسبته قطرات الندى لمعانا .
ولقد كانت تلك هى المهمة الاولى التى تقوم بها وحدها ، فيما تواكبها المخاطر ، وبينما لا يشغل بالها سوى . . . ماما ، ماما ! كيف طفقت تنظر الى ابنتها فاليا حين أعلنت انها وببساطة سوف تنتقل لبضعة ايام لتعيش فى ضيافة ناتاليا الكسييفنا ! ولا ريب فى أن تكون الام قد عاشت لحظات الاحساس بالخواء الروحى الصارم ازاء أنانية الابنة . وماذا هى فاعلة اليوم بعد أن رحل الاب كذلك لتبقى وحيدة ! وماذا يمكن ان يكون اذا ما راودتها الشكوك ؟ . . .

وذكرت ناتاليا الكسييفنا مؤكدة كعادتها على ما تعنيه هذه الكلمات ، دون مراعاة لتاثيرها على من تحادثه :

— تعمل توسيا يليسيينكو التى سوف اعرفك عليها ، مدرسة ، وهى جارة لأمى ، او بالادق تعيش هى وامها مع امى فى شقة واحدة من غرفتين . وهى فتاة ذات طابع يتسم بالاستقلالية والقوة ، تكبرك بكثير ، واقولك صراحة ان الاستياء سوف يعتريها ازاء كونى قد اتيت اليها بفتاة جميلة بدلا من احد رجال العمل السرى المحنكين ذوى اللحى . اننى اعرف سيريوجكا جيد المعرفة بوصفه فتى يتسم بالجدية ، واثق فيه اكثر من ثقتى فى نفسى ، بكل ما تعنى هذه الكلمة من معان . وما دام سيريوجكا قد ذكر لى انك من منظمة المنطقة ، فان ذلك يعنى الحقيقة . اننى اود تقديم العون اليكم . واذا ما حدث وكانت توسيا غير صريحة بما فيه الكفاية معك ، فعليك التوجه الى كوليا سومسكوى واعتقد انه رئيس تنظيمهم ، وذلك استنادا الى علاقة توسيا به . انهما يحاولان فى حقيقة الامر تصوير علاقتهما فى حضرة ام توسيا وامى وكأنها علاقة حب ، بيد اننى وان كنت لانشغالى بالعمل ، لم اعر اهتماما لحياتى الشخصية ، اعلم جيدا قضايا حياة الشباب . كما واعلم ان كوليا سومسكوى يحب ليدا اندروسوفا وهى فتاة متدللة — قالتها ناتاليا الكسييفنا بنبرة تعنى امتعاضها ، وان مضت تقول احقاقا للحق : انها ولا ريب عضو فى تنظيمهم . واذا ما تطلب الأمر اتصال كوليا سومسكوى بمنظمة المنطقة ، فسوف استخدم حقى كطبيب لمكتب العمل وامنحه اجازة مرضية لمدة يومين تعفيه من عمله بأحد المناجم الصغيرة .

وتساءلت فاليا :

— وهل يعترف الالمان بشهاداتك ؟

وصاحت ناتاليا الكسييفنا :

— الألمان ! انهم لا يعترفون وحسب ، بل ويذعنون لكل ورقة تصدر عن شخصية رسمية . كما ان ادارة ذلك المنجم الصغير ، ادارة روسية ، وان كان يوجد رقيب المانى من الفرقة الفنية ، احمق لا يدرى شيئا يلازم المدير ، شان الحال فى كل

مكان . اننا الروس بالنسبة لهم متشابهو الوجوه ، بحيث لا يستطيعون ادراك من منا حضر الى العمل ، ومن غاب عنه .

وقد سارت الامور على نفس النحو الذى تنبات به ناتاليا الكسييفنا . ذلك لان فاليا اضطرت الى قضاء يومين كاملين فى تلك المستعمرة التى تناثرت مبانيها الضخمة كالثكنات العسكرية وابراج مناجمها السوداء العالية ، وحيث لا اثر للخضرة فيها ، بين قوم يصعب اقناعهم ان النفوذ القوى «للحرس الفتى» يتمثل فى هذه الاهداب الداكنة الطويلة والضفيرتين الذهبيتين .

وكانت والدة ناتاليا الكسييفنا تعيش فى الجزء القديم الاكثر حركة بالمستعمرة والذى تشكله عدة نجوع متصلة ، وحيث كانت توجد بعض الحدائق التى ذبلت شجيراتها . كما وخلقت الامطار الاوحال التى ارتفعت تغطى الشوارع ، مما بدا معه انها سوف تظل هكذا حتى حلول فصل الشتاء .

وخلال تلك الايام ظلت تتقاطر عبر المستعمرة قوات وحدة رومانية متجهة نحو ستالينجراد . وكانت مدافع تلك الوحدة ومركباتها ذات الجرارات التى تجرها الخيول النحيفة تتعطل بالساعات فى تلك الاوحال ، لترتفع اصوات الحوذية مدوية بالسبات والشتائم بالروسية .

وكانت توسيا يليسيينكو فتاة فى الثالثة والعشرين من العمر ، ذات قد اوكرانى اهيف ، وعينين سوداوين متوقدتين ، على قدر بالغ من الجمال . وقد ذكرت لفاليا صراحة انها تتهم مركز العمل السرى بالمنطقة بالتقصير فى تقديره لاهمية مستعمرة مثل كراسنودون . والا فما السبب الذى يجعلهم هناك وحتى يومنا هذا لا يبعثون بأى من ممثليهم لزيارتنا ؟ ولماذا لم يرسلوا تلبية لطلبنا شخصا مسؤولا كى يتولى تدريبنا على العمل ؟

وقد رات فاليا انها لا تملك سوى حق الافصاح عن كونها تمثل التنظيم الشبابى «الحرس الفتى» والذى يعمل تحت اشراف اللجنة الحزبية السرية للمنطقة .

وذكرت توسيا فيما تومض عيناها بما ينم عن الريبة :

— ولماذا لم يحضر الينا اى من ممثلى قيادة الحرس الفتى ؟

ثم اضافت فى تباه :

– فلدينا ايضا تنظيمنا الشبابى .

واجابت فاليا على نحو ينم عن أنفة وعزة نفس :

– اننى مفوضة من قبل القيادة ، فقد يكون ارسال احد أعضاء القيادة الى منظمة لم تقم بعد باى نشاط ، عملا متهورا لا يتسم بمراعاة اصول السرية . . . اذا ما كان بالطبع ثمة من يفطن الى ذلك !

وصاحت توسيا فى غضب :

– لم نقم بعد باى نشاط ؟ يالها من قيادة جيدة تلك التى لا تدرى شيئا عن نشاط منظماتها ! ولست حمقاء حتى اتحدث عن نشاطنا الى شخص لا تعرفه .

ولربما كان يمكن لهاتين الفتاتين الجميلتين ، عزيزتى النفس الا تصلا الى اى اتفاق لو لم يصل كوليا سومسكوى .

وللحقيقة فقد حاولت توسيا حين أشارت فاليا الى لقبه ، ادعاء كونها لا تعرف انسانا بهذا اللقب . بيد ان فاليا ذكرت على الفور ان «الحرس الفتى» تعرف الدور القيادى لسومسكوى فى المنظمة ، وانه اذا ما لم تساعدها توسيا فى الوصول اليه ، فسوف تبحث عنه وحدها .

وذكرت توسيا بنبرة تحمل بعضا من القلق :

– طريف ان اعرف كيف ستجدينه وحدك !

– ولو عن طريق ليديا اندروسوفا .

– ليس ثمة ما يدعو ليديا اندروسوفا الى معاملتك على نحو آخر .

– وذلك من اسوأ الأمور . . . حيث أننى سوف أتولى البحث عنه بنفسى ، ويمكن ان يؤدى جهل بعنوانه الى كشف أمره عن غير قصد .

وهنا استسلمت توسيا ازاء منطق فاليا .

وتغيرت الامور تماما حين تجمعوا فى ضيافة كوليا سومسكوى . وقد كان يعيش فى اطراف المستعمرة ، بمنزل خشبى واسع ليس هناك من خلفه سوى البرارى . وكان والده يعمل فيما سبق حوذيا باحد المناجم ، كما وكانت عائلته تعيش نمطا من الحياة أشبه بالريفى .

ولبث كوليا الاسمر ذو الانف الكبير والوجه الذى تنم قسماته عن ذكاء متوقد ، وبسالة ودهاء ، وكذلك الصراحة مما كان يضفى عليه سحرا خاصا ، يستمع فيما يزر عينيه ، الى ما تقوله فاليا فى غطرسة ، والى ما تتحدث عنه توسيا فى توقد . ثم قام بدعوتهما فى صمت الى خارج البيت . وارتقت الفتاتان فى اثره سلما متنقلا ، ليدلف ثلاثتهم الى الجمالون ، حيث تطاير الحمام فى جلبة ، وليستقر بعضه على رأس وكتفى سومسكوى ، تحاول أحداها اقتعاد راحتيه ، ليفرد يده ، التى استقرت على راحتها حمامة ناصعة البياض .

اعترى الارتباك الشديد ذلك الشاب ضخم البنية الذى كان يجلس داخل الجمالون حين وقع نظره على تلك الفتاة المجهولة ، وسارع يغطى بالدريس شيئا ما الى جواره ، الا ان سومسكوى اشار له بان كل شىء على ما يرام . ورفع ذلك الهرقل الدريس فيما تعلو الابتسامة شفتيه ، لتشاهد فاليا جهازا للراديو الى جواره .

وذكر سومسكوى فى جدية بينما كان الحمام يحيط به من كل جانب ، يداعبه بأجنحته :

– هذا هو فولوديا جدانوف . . . وهذه هى فاليا . . . المجهولة ! ما رأيك ؟ . . . اننا نحن الثلاثة توسيا وفولوديا . . . و«محسوبك» . . . قادة تنظيمنا .

وريثما كانوا يحاولون الاتفاق بشأن امكانية ذهاب سومسكوى برفقة فاليا الى المدينة ، احست فاليا بنظرة ذلك الهرقل تتوقف عليها لتعتريها مشاعر الارتباك والحيرة . ولقد كانت فاليا تعرف اناس اقوياء ضمن اعضاء «الحرس الفتى» مثل كوفاليوف الذى اطلقوا عليه لقب القيصر بسبب قوته الفائقة وطيبة قلبه . بيد ان ذلك الشخص كان ضخما بكل المعايير . . . وجها وجسدا . لقد بدا عنقه وكأنه منحوت من البرونز ، تنم قسماته عن قوة وهدوء وجمال . وازاء ذلك لم تدر فاليا ما الذى جعلها تتذكر فجأة سيريوجكا نحيف القوام ، عارى القدمين ، لتشعر فى قرارة نفسها بألم تشوبه السعادة والرقة ، مما جعلها تلتزم الصمت .

واقترب رباعيهم من طرف الجمالون ليمسك كوليا سومسكوى بالحمامة التى استقرت على راحة يده ويقذف بها بكل قوة لتحلق

في السماء الغائمة . وارتفع الحمام من على كتفيه ، فيما راح الجميع يتابع عبر ثقب النافذة تلك الحمامة التي احتوتها السماء كـروح مقدسة .

وجلست توسيا يليسييتكو فيما تفرك راحتيها في سعـادة ، مما جعل الآخرين ينظرون اليها ضاحكين . وقد كانت أمارات تلك السعادة التي تبدت في عينيها وصوتها تعني وكأنما تود ان تقول : «هل ثمة من يظن انني غير طيبة ؟ فلتنظروا الي وتحكمـوا على مدى طيبتي !» .

ادرك الصباح فاليا وكوليا سومسكوى فى البرارى ، حين كانا فى طريقهما الى المدينة . وكانت السحب قد انقشعت ليلا ، بينما راحت اشعة الشمس تنال من كل ما حولهما تبعث اليه بالجفاف . وانبسطت البرارى بعيدة وقد ذبلت كل نباتاتها ، ومع ذلك فقد بدت جميلة تحت اضواء تباشير الخريف الذهبية . كما وامتدت خيوط العنكبوت رفيعة فى كثير من الاماكن ، وملأ أرجاء السهل هدير محركات طائرات النقل الالمانية التى كانت تحلق قاصـدة نفس الاتجاه ، اتجاه ستالينجراد ، اعقبه هـدوء مطلق اطبق على المكان .

وفى منتصف الطريق استلقى فاليا وسومسكوى على منحـدر التل كى يستريحا ، تغمرهما الشمس باشعتها الدافئة . وشرع سومسكوى يدخن .

وفجأة تناهت الى اسماعهما انغام اغنية حملها الاثير لتحوم فوق البرارى ، وسرعان ما تأججت اصداؤها فى اعمـاقهما . . . «يلف النعاس التلال الداكنة . . .» وقد كانت تلك اغنية يعرفها كل سكان حوض الدونيتس ، اغنية حبيبة لم يكن احد منهما يدرى كيف راحت تتعالى هنا فى مثل ذلك الصباح ! واتكأ كوليا وفاليا على مرافقهما ، فيما يرددان دون ان ينبسا ببنت شفة ، كلمات تلك الاغنية التى راحت تطرق آذانهما قريبا ، على لسانى شاب وفتاة فى مقتبل العمر ، بصوت عـال وكأنهما يتحديان العالـم أجمع . . .

يلف النعاس التلال الداكنة
تغمرها الشمس الساطعة ،

تتعاقب كل فى اثر الأخريات . . .
غلالات الضباب البيضاء . . .
هاكم فتى فى ريعان الشباب ،
هاكم يصل الى برارى الدونيتس
بعد طريق الخمائل الصاخبة
بعد طريق الحقول المزهرة . . .

وزحفت فاليا بسرعة الى قمة التل لتختلس النظر من هناك ، ثم استوت جالسة وانفجرت ضاحكة .

لقد كان يقطع الطريق نحوهما فولوديا اوسموخين وشقيقتـه ليودميلا كل منهما يمسك يد الآخر ، فيما تتعالى عقيرتهما بالغناء او بالادق ، بالصراخ .

وانزلقت فاليا على التل وراحت تركض نحوهما سريعة شأنها ايام الطفولة . وتبعها سومسكوى فى خطوات متثاقلـة دون ان تعتريه الدهشة .

— الى أين تقصدان ؟

— الى جدي بالقرية سعيا وراء الخبز . ومن ذا الذى يثقـل الخطى وراءك ؟

— انه من فتياننا . . . كوليا سومسكوى من المستعمرة .

وذكر فولوديا :

— استطيع تقديم واحدة اخرى من الموالين لنا . شقيقتـى ليودميلا . لقد شرحت لها الامر هنا فى البرارى .

— فاليا . . . فلتحكمى على الامر بنفسك . اليس ذلك خسة؟ ان الجميع يعرفوننى ، بينما يخفى شقيقى الامر عنى . هذا على الرغم من اننى اعلم كل شىء ، بل وعثرت فى حوزته على حروف مطبعة ، ووسائل ذى رائحة نتنة كان يستخدمه فى تنظيفها . لقد فرغ من تنظيف بعضها ، بينما ظل البعض الاخر على حاله وحتى حدث اليوم فجأة . . . هل تعرفين يا فاليا ماذا حدث اليوم ؟

وقد ند السؤال الاخير فجأة على لسان ليوسيـا التى القت بنظرة سريعة على سومسكوى الذى غدا قريبا منهم .

وذكر فولوديا فى جدية :

— تمهل قليلا . لقد شاهد عمال ورشتنا الميكانيكية بانفسهم

كل شيء ، وحدثوني عن ذلك . قصارى القول . . . كانوا يسيرون الى جوار الحديقة العامة حين وقعت انظارهم على شخص معلق بالبوابة فى معطف اسود وقد ثبتت على صدره قصاصة من الورق . وظنوه فى البداية واحدا من رجالنا شنقه الالمان . وحين اقتربوا منه تعرفوا فيه على فومين ! هل تعرفينه ؟ انه ذلك الوغد . . . الشرطى . بينما قرأ هؤلاء فى تلك القصاصة – «هذا سوف يكون جزاء كل من يشى برجالنا» .

وخفض فولوديا من صوته ليهمس قائلا :

– هذه هى كل القضية . هل فهمت ؟

ثم صاح مضيفا :

– ويالـه من عمل ! لقد ظل معلقـا على مدى ساعتين فى الصباح ! لقد كان ذلك المكان موقع حراسته ولذا فلم يكن هناك غيره من رجـال الشرطة . كمـا وشاهده جمع غفير من الناس ، وليصبح مادة لحديث الجميع بالمدينة .

ولم يكن فولوديـا وكذلك فاليا يجهلان وحسب قرار القيادة بشأن اعدام فومين ، بل ولم تخطر لهما ببال امكانية تنفيذ مثل هذا القرار . وكان فولوديا على يقين من ان المنظمة البلشفية للعمل السرى هى التى تولت هذه العملية . بيد ان الشحوب اعترى فاليا فجأة لدرجة انه فرض نفسه على لونها البرونزى . . . اذ كانت تعرف شخصا جسورا ، قد يكون هو الذى نفذ مثل ذلك الحكم . وتساءلت فيما تحاول السيطرة على شفتيها المرتجفتين :

– هل مر كل شيء بسلام . . . او لم تقع ضحايا من جانبنا ؟

وصاح فولوديا :

– نجاح رائع ! ان كل شيء على افضل ما يرام ! ليس ثمة من يعرف اى شيء ! بيد ان الامور فى بيتى غير طبيعية ، حيث ان امى مقتنعة تمام الاقتناع باننى الذى شنقت ذلك الحشرة الملعونة ، وقد راحت تتنبأ لى بنفس المصير . ولذا رحت ادعو ليوسيا قائلا : «انت ترين ان امنا لا تريد ان تفهم شيئا ، ويبدو انها غدت فريسة للمرض . . . وبوجه عام فقد حان وقت الذهاب لجدتنا» .

وفجأة خاطبت فاليا سومسكوى قائلة :

– هيا بنا ياكوليا !

وقد بذل كوليا كثيرا من الجهد كي يستطيع مواكبة فاليا التى جدت فى سيرها دون ان يدرى كنه تلك التغيرات التى طرأت عليها . وها هو دبيب خطواتها يتعالى على درج منزلها ، ليدلف سومسكوى فى اثرها الى غرفة الطعام ، تعتريه مشاعر الاضطراب والحيرة .

وهناك كانت ماريا اندرييفا تجلس في ردائها داكن اللون الذى لف جسدها البدين فى احكام ، قبالة ابنتها الصغرى ليوسيا ممتقعة الوجه ، التى تهدل شعرها الذهبى على كتفيها ، فيما يخيم على المكان الصمت والتوتر وكأنما تجلسان فى حفل تأبين .

وما ان شاهدت ماريا اندرييفنا ابنتها الكبرى حتى سارعت بالنهوض من مكانها ، وكأنما كانت تود ان تقول شيئا ، الا ان الغصة اصابت حلقها ، واندفعت نحو ابنتها تنظر بشك اليها تارة ، والى سومسكوى تارة أخرى . بيد انها لم تتمالك نفسها وراحت تغمر ابنتها بقبلاتها . وهنا فقط ادركت فاليا ان امها قد عاشت نفس تلك المشاعر التى عاشتها ام فولوديا . فقد كانت تشك فى ان ابنتها ، فاليا بورتس شاركت في عملية اعدام فومين ، وذلك بالذات هو ما دعاها الى التغيب عن المنزل طيلة هذين اليومين .

واذ نسيت فاليا سومسكوى الذى وقف فى ارتباك الى جوار الباب ، راحت تنظر الى امها وكأنما تود ان تقول لها : «ماذا يمكنني ان اقول لك . . . يا أماه ! ما عساى ان اقوله لك ؟»

وفى تلك اللحظات تقدمت الصغيرة ليوسيا نحو فاليا فى صمت ، تناولها رسالة . وفضت فاليا الرسالة بحركة تلقائية ، لتعرف كاتبها من خطه دون ان يسعفهـا الوقت لقراءة مضمونهـا . وهنا اضاءت ابتسامة طفولية وجهها الاسمر الذى غطاه غبار الطريق . والتفتت بسرعة الى سومسكوى ، لتكسو الحمرة ليس وجنتيهـا وحسب ، بل ورقبتها واذنيها . ثم امسكت بيد امها تقودها الى الغرفة المجاورة . وراحت تقول :

– ماما . . . ماما ! ان ما تظنينه محض اشياء لا اساس لها من الصحة . غير اننى اسالك . . . او لا تعرفين ذلك الهدف الذى نعيش جميعـا من اجله ؟ او لا تدركين اننى ورفاقى لا نستطيع الحياة على نحو آخر ؟ ماما . . !

كانت الحمرة تكسو وجه فاليا التى غمرتها مشاعر السعادة فيما كانت تخاطب امها ، تتأمل بناظريها وجهها .
واعترى الشحوب وجه ماريا اندرييفنا الذى يؤكد صحتها الجيدة ، مما بدا وكأنما يوحى بالالهام .
— ليحرسك الله يابنيتى . . .
ندت هذه الجملة عن ماريا اندرييفنا ، وراحت تكررها فيما انهمرت الدموع من عينيها :
— فليحرسك الله يا بنيتى !

الفصل الثالث والاربعون

كم تصعب الحياة على الاباء والأمهات غير العارفين والعارفات بعالم أبنائهم الروحى ، حيث يخالونهم قد تورطوا فى نشاط سرى مبهم خطير ، بينما لا يستطيعون التغلغل الى اعماق عالم ذلك النشاط ، او حظره !
وفى الصباح حين تجمعت الأسرة لتناول الشاى ، شعر فانيا بدنو العاصفة من قسمات وجه أبيه التى اتسمت بالكآبة والتجهم . وقد هبت العاصفة بالفعل حين جاءت شقيقته التى كانت قد ذهبت الى البئر من أجل الماء ، بنبأ اعدام فومين وما يقوله الناس بهذا الشأن .
فقد ذكر الأب بنبرة لاذعة دون أن ينظر الى ابنه :
—اعتقد اننا نستطيع الحصول على قدر افضل من المعلومات دون ان نبارح منزلنا هذا . لماذا لا تتحدث ؟
ثم خفض الاب من صوته ، ليقول :
— هيا . . . تكلم ! الست هناك من المقربين ، كما يقال !
وامتقع وجه فانيا ليقول :
— من المقربين الى من ؟ الى الشرطة ؟
— لماذا جاء اليك تيولينين بالامس ؟ وفى ساعات حظر التجول . . .
— من ذا الذى يراعى هذا الحظر . . . وكأنما لا تخرج نينا

فى مثل هذا الوقت . لقد جاء لمجرد الثرثرة والحديث . وليست هذه هى المرة الاولى التى يزورنى فيها .
وزار الاب ودق المائدة بقبضته :
— لا تكذب ! ان السجن جزاء ذلك ! واذا كنت تخال حياتك رخيصة فلماذا تحملنا نحن والديك مثل تلك المسئولية ؟
— انك يا والدى تتحدث عن أشياء لا صلة لها بالموضوع .
قالها فانيا بصوت هادئ دون أن يعير اهتماما لكون والده راح يضرب المائدة مرة اخرى بقبضته صائحا : «كلا . . . انها متعلقة به» ، ثم مضى يقول :
— انك تود معرفة ما اذا كنت عضوا فى تنظيم سرى . اليس ذلك صحيحا ؟ كلا . . . لست عضوا . اما عن موضوع فومين فلم اسمع به سوى هذه اللحظة من نينا . ومع ذلك اقول انه لقى جزاءه كنذل وضيع ! وانت ترى ، ووفقا لحديثها ، ان الآخرين يشاطروننى الراى . كما وانك لا تخالفنا اياه . اننى لا اخفى كونى اساعد رجالنا بكل ما استطيع تقديمه . وذلك امر واجب علينا جميعا . هذا بينما انا عضو فى الكومسومول ، ولم احادثك وامى فى هذا الشان حتى لا اثير قلقكما عبثا .
ونظر الاب الى زوجته ليقول وقد استشاط غضبا :
— هل سمعت يا ناستاسيا ايفانوفنا ؟ هذا هو سبب احزاننا ! انك لا تستحى ! لقد بذلت جل حياتى فى سبيلكم . . . هل نسيت كيف كنا نعيش اثنى عشرة عائلة فى بيت واحد ، كان يتمرغ على ارضيته من الاطفال فقط ثمانية وعشرون طفلا ؟ لقد بذلنا انا وامك كل ما لدينا من قوة فى سبيلكم ! فلتنظر اليها . حاولنا تعليم الكسندر ولم نفلح . . . حاولنا تعليم نينا ، فلم تكمله وكرسنا كل ما فى وسعنا من أجلك ، بينما انت تتورط فى اعمال جزاؤها المشنقة . فلتنظر الى امك ! لقد ضعف بصرها من فرط البكاء من أجلك ، بينما أنت لا تلحظ شيئا !
— وماذا تشير به علىّ ؟
— فلتلتحق بالعمل ! ان نينا تعمل ، وعليك انت كذلك ان تعمل . انها تمارس عملا بسيطا ، بينما هى محاسبة فى حقيقة الامر . فماذا تود انت ؟

وأجاب فانيا فى سخط :

– العمل لصالح من ؟ لصالح الالمان ؟ حتى يتمكنوا من قتل اكبر عدد من رجالنا ؟ اننى سوف اكون أول الملتحقين بالعمل حين تعود سلطتنا من جديد . ان ابنك ، اى شقيقى ، يحارب فى صفوف الجيش الاحمر بينما تطلب منى العمل لصالح الالمان حتى يعجلون بقتله !

كان الاب والابن يقفان يواجه كل منهما الآخر . وصاح الاب :

– وماذا علينا أكله ؟ هل من الافضل ان يخونك ذلك الذى تعمل من أجله ؟ سيشى بك لدى الالمان ! هل تعلم نوعيات من يسكن شارعنا ؟ اننى اعرفها . . . ان هؤلاء يعيشون اهتماماتهم وقضاياهم . وليس هناك سواك يعمل من اجل الجميع .

– ان هذا غير صحيح ! هل كانت لديك قضاياك حين بعثت بمتاع الدولة الى مؤخرة البلاد ؟

– ان الحديث لا يدور بشانى .

وذكر فانيا وهو يتكئ باصابع احدى يديه على المائدة منكس الراس فى نظارته القرنية :

– كلا . . . ان الحديث يخصك انت . لماذا تظن نفسك افضل من الآخرين ؟ المنفعة الشخصية ! كل يعمل من أجل نفسه ! اننى اسالك اية منفعة شخصية كنت تبتغيها آنذاك حين تسلمت مستحقاتك ، فيما كنت تعلم انك سوف تبقى ، وان ذلك امر يمكن ان يعود عليك بالضرر ، وقمت بالرغم من مرضك ، تسهر الليالى فى تحميل متاع لا يخصك ؟ هل ليس ثمة من يماثلك فى هذا العالم ؟ حتى العلم يؤكد عكس ذلك !

كانت الاخت نينا ، تجلس فى مثل تلك الساعة من يوم الاحد ، فى فراشها مقطبة الجبين تتحاشى النظر الى أبيها وشقيقها ، دون ان يستطيع احد ، وكالعادة ، معرفة ما يدور بخلدها . اما الام التى اصابها الكبر سريعا وترك آثاره واضحة عليها ، الطيبة التى انحصرت دائرة اهتماماتها فى العمل بالحقول وممارسة الشؤون المنزلية ، فقد كانت تخشى ان يبلغ غضب الكسندر فيدوروفيتش حد طرده لابنه . وحين كان الاب يتحدث ، كانت تتملقه مومئة براسها ، فيما كانت ترسم على شفتيها ابتسامة مصطنعة وتنظر

الى الاب حين كان الابن يشرع فى حديثه ، مما كان يعنى أنها ترجوه موافقته والعفو عنه ، على الرغم من أنهما كعجوزين كانا يدركان مدى خطأ منطقه .

كان الاب يقف وسط الحجرة فى سترته الطويلة التى ارتداها فوق القميص ذى الازرار الجانبية ، وسرواله القديم الذى رقع عند الركبتين ينتعل حذاء تثنت حوافيه عند الكعبين ، وقد كور قبضتيه يضمهما فى رعشة الى صدره تارة ، ويسدلهما الى جانبيه تارة اخرى فيما يصيح :

– اننى لا أثبت لك ذلك استنادا الى علم ، بل الى خبرة حياتية !

وذكر فانيا فى حدة مفاجئة :

– أو لا يستند العلم الى الحياة ؟ انك لست وحدك تبحث عن العدالة ، فثمة آخرون يفعلون نفس الشيء . كما وانك تخجل من الاعتراف بمحاسنك !

– ليس هناك ما يخجلنى !

– فلتثبت لى عندئذ اننى لست على حق ! كما ويستحيل اقناعى بالصياح والصراخ ، اذ انه يمكننى الصمت ، بيد اننى سوف أتصرف حسبما يمليه على ضميرى .

وسرعان ما استكان الوالد لتخف حدة توقده التى ارتسمت على عينيه ، الا انه صرخ قائلا :

– هاك يا ناستاسيا ايفانوفنا . . . لقد ربينا الابن . . وربيناه ليصبح فى غير حاجة الينا . . . وداعا !

قالها مشيحا بيديه ليستدير خارجا من الغرفة .

وتبعته ناستاسيا ايفانوفنا فى خطى متثاقلة . اما نينا فقد ظلت مكانها بالفراش تجلس منكسة الراس فى صمت .

وراح فانيا يذرع المكان ذهابا وايابا دونما هدف ، وحتى استقر جالسا مثقل الضمير . وقد حاول ، شأن الحال فى الماضى ، التنفيس عن همومه فى رسالة شعرية يبعث بها الى اخيه :

صديقى الوفى الامين
ساشا . . شقيقى العظيم . . .

كلا . . .

يا افضل الاصدقاء
يا اعز الاشقاء . . .

لم يستطع شحذ حواسه الفنية لنظم مثل هذه الرسالة ، كما وكان يستحيل عليه ارسالها الى شقيقه .

وعندئذ فطن فانيا الى ما ينبغى عليه عمله . . . زيارة كلافا فى نيجنى الكسندروفسكى .

كانت يلينا نيكولايفنا كوشيفايا تعانى مضاعفا ازاء كونها لم تستطع بنفسها تقرير ما اذا كان ينبغى عليها مساعدة ابنها فى نشاطه ، او الحيلولة دون ذلك . كما وكان الحزن والخوف على الابن يقضان مضاجعها شأن الامهات الاخريات ، يوما بعد يوم يفقداها القدرة على العمل والنوم ، يحملان التجاعيد والغضون الى وجهها . وكان الخوف يتخذ فى بعض الاحيان طابعا حيوانيا ، اذ كانت تراودها الرغبة فى الصراخ والاندفاع ، وانتزاع ابنها بالقوة من براثن المصير الرهيب الذى يتجه نحوه .

بيد أنها كانت تتسم أيضا بما كان يميز زوجها الراحل ، الذى كان حبها الوحيد الملتهب ، حيث كانت تتاجج فى اعماقها مشاعر الكفاح التى كانت تدفعها نحو التعاطف مع نشاط ابنها .

كانت كثيرا ما تشعر بالغضب ازاء محاولاته ابقاء اموره طى الكتمان ، دون ان يخبرها هى امه ، باخباره ، على الرغم من انه كان دائما معها ، صريحا مهذبا مطيعا ! وكان أكثر ما يغضبها كون امها ، الجدة فيرا ، مشتركة على ما يبدو فيما يفعله الحفيد ، دون أن تبلغها بذلك . كما وكان شقيقها كوليا واستنادا الى كافة الظواهر شريكا كذلك فى تلك المؤامرة . هذا علاوة على ان امراة غريبة مثل بولينا جيورجيفنا سوكولوفا ، او العمة بوليا كما كانت عائلة كوشيفوى تدعوها ، اصبحت على ما يبدو اقرب الى اوليج من امه الحبيبة . فكيف ومتى حدث كل ذلك ؟

ففى سالف الازمان كانت يلينا نيكولايفنا والعمة بوليا صديقتين لا تفترقان ، لدرجة ان الآخرين لم يكونوا ليتحدثوا عن احداهما دون الاشارة الى الاخرى . لقد كانتا صديقتين حميمتين شأن من

تربطهما علاقات مشتركة فى العمل والفكر ، ناضجتين خبرتهما الحياة كثيرا . اما وحين اندلعت الحرب انطوت العمة بوليا على نفسها فجاة وكفت عن زيارة آل كوشيفوى . كما وحين كانت يلينا نيكولايفنا تزورها بحكم الصداقة القديمة ، كانت تبدو وكانما هى خجلة من بقرتها وبيعها للحليب ، وازاء احتمال ان تلومها يلينا نيكولايفنا بسبب تفرغها لحياتها الشخصية وابتعادها عما يمكن ان يرفع من شان الوطن . ولم تجد يلينا نيكولايفنا ما يعنيها على بحث ذلك الموضوع معها ، لينفرط عقد صداقتهما من تلقاء نفسه .

وها هى بولينا جيورجيفنا تظهر من جديد فى بيت آل كوشيفوى ، حين صار الالمان يسيطرون على مقاليد الامور فى المدينة . لقد جاءت بوجه يحمل امارات الصراحة والمعاناة ، لتعرف يلينا نيكولايفنا فيها صديقتها القديمة . وصارتا اليوم يتقابلان كثيرا ، لتروّح كل منهما عن نفسها ، بيد ان يلينا نيكولايفنا ، وكعادتها دائما ، كانت الاكثر حديثا ، فى حين كانت العمة بوليا الهادئة المتواضعة تنظر اليها بعينين منهكتين تتوقدان ذكاء . وعلى الرغم من كل ذلك ومهما حاولت العمة بوليا التمسك بهدوئها ، فلم تكن يلينا نيكولايفنا قادرة على الا تلحظ انها ، صديقتها القديمة ، قد استمالت اوليج الى جانبها . فقد صار يظهر الى جوارها كلما كانت تاتى الى بيتهم ، وكثيرا ما كانت يلينا نيكولايفنا تلحظ نظراتهما المتبادلة الخاطفة ، والتى تنم عن ان ثمة ما يود كل منهما اطلاع الآخر عليه . وحقا كان ذلك ، حيث ما كانت يلينا نيكولايفنا تكاد تفارقهما قليلا لتظهر من جديد حتى تشعر بان حديثا خاصا بينهما قد انقطع . وحين كانت يلينا نيكولايفنا تخرج لوداع صديقتها حتى كانت الاخيرة تقول فى عجلة وحياء : «كلا . . . لا داعى للتعب يا لينوتشكا . . . اننى سوف اذهب وحدى» ، بينما لم تكن تقول ذلك ابدا اذا ما كان أوليج هو الذى يعرض مرافقتها .

كيف حدث كل ذلك ، كيف يمكن لقلب الام تحمل ذلك ؟ من ذا الذى يستطيع من البشر وفى كل أرجاء الكون ان يفهم الابن ويشاطره اموره وافكاره ويشمله بحبه ليدرأ عنه الخطر حين

يداهمه ، أفضل من الام ؟ وهمس صوت الضمير اليها بأن ابنها لا يثق فيها ، ومن ثم يخفى عنها ، ولاول مرة أموره .

وشأن كل الامهات اللاتى لم يتقدم السن بهن بعد ، كانت تركز اساسا على الجوانب الايجابية فى شخصية طفلها الوحيد ، بيد أن ذلك لم يحل دون معرفتها الجيدة بابنها .

ومنذ تلك اللحظة التى ظهرت فيها المنشورات ذات التوقيع الغامض «الحرس الفتى» ، لم تشك يلينا نيكولايفنا فى صلة ابنها بهذه المنظمة ، بل وكذلك فى انه يلعب بها دورا قياديا . وقد كانت تنتابها مشاعر القلق والفخر والمعاناة ، الا انها لم تكن تظن انه من الممكن ارغام ابنها عن غير طيب خاطر على الحديث فى هذا الشأن .

الا انها سألته ذات مرة ، وكأنما عرضا :

— من تصادق فى الفترة الاخيرة ؟

وتملص من الاجابة بما يتسم به من دهاء فورى ، ليتحول بالحديث وكأنما هو استكمال لحديث سابق حول لينا بوزدنيشيفا ، قائلا فى تأتأة وقليل من الارتباك :

— أصادق نينا ايفانتسوفا . . .

واستجابت الام لدهائه فى خبث :

— ولينا ؟

وتناول مفكرته فى صمت ليقدمها اليها ، حيث راحت تطالع ما كتبه بشأن آرائه اليوم فى لينا بوزدنيشيفا ، وحول تعلقه بها فيما سبق .

بيد انها وفى ذلك الصباح حين أبلغها جيرانها بنبأ اعدام فومين ، كادت تطلق صرخة حيوانية أمسكت نفسها عنها مستلقية فى فراشها ، مما دعا الجدة فيرا التى بدت مبهمة غامضة كالمومياء ، الى وضع منشفة مبللة على جبينها .

لم تكن يلينا نيكولايفنا شأن كافة الامهات ، تشك لحظة واحدة فى براءة ابنها من ذلك العمل . بيد ان ذلك الحادث جرى فى نفس الاطار الذى يدور ابنها فى فلكه . فهذا امر من سمات النضال العصيبة ! فاى عقاب ينتظره ؟ ولم يكن فى وسعها بعد ايجاد الوسيلة التى تكفل لها سبر اغوار ابنها ، غير انه كان من

الضرورى تمزيق كل غلالات الاسرار الخفية الرهيبة ، حيث اصبح العيش على هذا النحو مستحيلا !

وفى ذلك الحين كان ابنها يجلس على الفراش ، انيق الملبس كعادته ، نظيف البشرة التى تركت اشعة الشمس آثارها عليها ، وقد هبط بعنقه فيما بين كتفيه اللتين علا أحدهما الاخر ، بالعنبر الخشبى الملحق بالمنزل فى مواجهة كوليا سومسكوى كبير الانف ، برونزى البشرة رشيق الحركة ، الذى افترش الارض يتنازله الشطرنج .

وركز كلاهما انتباهه على قطع الشطرنج ، لا يقطع صمتهما سوى بعض الكلمات المقتضبة التى راحا يتبادلانها من آن لآخر ، والتى كان يمكن ان تبدو فى نظر غريب يسمعهما كحديث لشخصين عريقين فى الجريمة .

سومسكوى : هناك بالمحطة مستودع للحبوب . وقد قام كوليا ميرونوف وبالاجوتا بنشر السوس فى تلك الكميات التى جاؤوا بها الى هناك . . .

فترة صمت . . .

كوشيفوى : هل جرى حصاد القمح ؟

— يرغمون الناس على الحصاد ، غير أن الجزء الاعظم من المحصول ما يزال فى الاجران . ليست هناك آلات لدراسه ، وعربات لنقله .

فترة صمت . . .

كوشيفوى : يجب اضرام النار فى الاجران . طابيتك فى خطر .

فترة صمت . . .

كوشيفوى : حسنا أن تجد فتياننا جيدين فى المزرعة الحكومية . لقد بحثنا فى القيادة ذلك الامر ، واتخذنا قرارا بضرورة تشكيل الخلايا فى النجوع . هل لديكم اسلحة ؟

— القليل .

— يجب تجميع الكثير .

— من أين ؟

— فى البرارى . فلتسرقوها من الالمان . . . انهم يعيشون كيفما اتفق !

سومسكوى : آسف . كش ملك !
كوشيفوى : سوف يـــرد عليك ياصاح ، كمـــا يردون على المعتدين !
— لست انا المعتدى .
— هذا بينما تشمخ بانفك كما العملاق .
وذكر سومسكوى ضاحكا :
— اننى شأن الفرنسيين فى تصرفاتهم .
فترة صمت . . .
سومسكوى : معذرة اذا ما وجهت اليك ذلك السؤال . . . هل شاركتم فى عملية الشنق ؟
كوشيفوى : من ذا الذى يمكنه معرفة ذلك !
وذكر كوليا فى ارتياح ظاهر :
— حسنا . اننى اعتقد ضروريا قتل اكبر عدد منهم . ينبغى علينا قتل السادة وعدم الاكتفاء بالخدم .
— هذا حق . انهم يعيشون دونما هموم .
وذكر سومسكوى :
— أعتقد انه من الافضل الاستسلام . . . فالوضع عصيب ، علاوة على ان وقت العودة قد حان .
وجمع أوليج قطع الشطرنج فى اعتناء ثم نهض متوجها الى الباب حيث القى نظرة الى الخارج ليعود أدراجه .
— فلتقسم . . .
لم يفصل شيئا بين تلك اللحظة حيث كانا ما يزالان مكانهما يلعبان الشطرنج ، وحين وقف كوشيفوى وسومسكوى ، يواجه كل منهمـا الاخر ليبدو أوليج اعرض كتفين ، وقد أسدل يديـه الى جانبيه ، يرنو كل منهما الى الآخر فى بساطة .
وتناول سومسكوى من جيب سترته الصغير قصاصة صغيرة ليكسو الشحوب وجهه ، يطالع فى صوت مبحوح :
— انا ، نيكولاى سومسكوى ، اذ انضم الى صفوف الحرس الفتى وفى حضرة رفاقى فى السلاح وازاء ارضنا الحبيبة المعذبة ، وحيال كل الشعب اقسم . . . — وهنا تملكته مشاعر الاضطراب ، ليعلو صوته رويدا رويدا ، غير انه خفضه خوفا من ان يكون ثمة من

يسمعه بالفناء — باننى اذا ما حنثت بهذا القسم المقدس تحت وقع التعذيب أو الجبن ، فلتحل اللعنة باسمى وباهلى الى ابد الابدين ، ولتنل منى يد رفاقى الصارمة . . . الدم بالدم والموت بالموت !
وذكر اوليج وهو يشد على يده :
— اهنئك . لم تعد حياتك ملكـا لك من الآن فصاعدا ، بل ملكا للحزب وللشعب بأسره . عليك ان تتولى مسئولية القاء اعضاء جماعة كراسنودون للقسم .

شغل اوليج نفسه بالتفكير فى كيفية دخول المنزل حين تكون امه قد نامت ، أو تظاهرت بالنوم ، كى يخلع ملابسه ويستلقى فى فراشه ، وحيث يمكن عندئذ ان يكون فى غير حاجة الى تفادى نظراتها التى تتسم بالقلق ، والتظاهر بانه ليس ثمة ما تغير فى هذه الحياة .
وعلى أطراف قدميه راح يخطو الى داخل المطبخ ، يفتح باب الغرفة بعض الشىء ليدلف الى داخلها فيما يشعر بوطاة ارتفاع قامته . كانت النوافذ مغلقة كالعادة ، اسدلت عليها ستائرهـا السوداء . كما كان الجو حارا لا يطاق ، حيث جرى اشعال الفرن نهارا . وكانت اشعة مصباح الزيت الذى وضع فوق علبة قديمة من الصفيح حتى لا يتسخ غطاء المائدة وحتى يزيد انتشارهـا ، تنتزع من براثن الظلمة زوايا الاثاث المالوف لديه .
وكانت امه التى عرف عنها حبها للنظام والنظافة ، تجلس فى الفراش المعد للنوم فى كامل ملابسها وهيئتها ، وقد وضعت يديها الرقيقتين السمراوين الصغيرتين فيما بين ركبتيها ، ترنو بانظارها الى اشعة المصباح .
ياله من هدوء ساد المنزل ! لقد عاد الخال كوليا الذى صار يمضى معظم الايام تقريبـا لدى صديقه المهندس بيستريتوف ، ليستلقى فى فراشه ، كما واوت الى فراشها كذلك مارينا وابنها الصغير الذى غلبه النعاس منذ زمن بعيد . وها هى الجدة فيرا كذلك تنام فى فراشها دون ان يعلو شخيرها . حتى دقات الساعة صارت لا تطرق الاذان . . . لم يكن ساهرا سوى أمى . . . امى العزيزة !

لكن حذار الانسياق وراء العواطف . . . يجب الاستمرار فى السير على اطراف الاصابع فى صمت وحتى الوصول الى الفراش ، ثم الخلود اليه فى سرعة ، ومن ثم التظاهر بالنوم !

وما هو فارع القامة ، متين البنية يقترب من امه ، ويجثو على ركبتيه ليدفن وجهه فيما بين ركبتيها . وهنا راح يشعر بيديها تلامسان وجنتيه ، يحس بدفئها الذى لا يعوض ، ورائحة الياسمين التى تعالت بعيدة تشوبهـــا رائحة تتسم ببعض المرارة ، اشبه برائحة الشيح او الباذنجان .. وعلى اى حال فالامر سيان !

وطفق يهمس فيما يرنو اليها بناظريه من اسفل :

– يا عزيزتى ! يا رائعتى ! انك تدركين كل شىء . . . كل شىء ياحبيبتى !

ومالت اليه براسها تقول دون أن تنظر اليه :

– أنى ادرك كل شىء !

واخذ يبحث عن عينيها اللتين دفنتهما فى شعره الحريرى ، وراحت تهمس . . وتهمس :

– اينما كنت . . . ووقتما كنت ، عليك الا تخشى شيئا ، فلتكن قويا يانسرى الصغير ! وحتى آخر قطرة من دمك !

وهمس قائلا :

– سوف اكون كذلك . . . حان وقت النوم . . . هيا . . . هل تودين ان اساعدك فى اطلاق سراح شعرك ؟

وراح ، كما كان الحال فى طفولته ، يتحسس بيديه دبابيس شعرها ، يتناول الواحد تلو الاخر ، فيما صارت تدس راسها بين يديه وهى تخبأ وجهها ، غير أنه فرغ من انتزاع دبابيس شعرها لينفرط عقد ضفيرتيها ، وتسقطان كما يسقط التفاح من اشجاره بالحديقة ، وليتهدل شعرها يدثر جسدها .

الفصل الرابع والاربعون

كان ينبغى على فانيا زيمنوخوف الحصول على اذن من القيادة يسمح له بالغياب بضعة ايام يزور فيها نيجنى الكسندروفسكى . ولذا فقد راح يقول لاوليج ببعض الارتباك :

– ان الامر لا يتلخص فقط فى مسالة زيارة احدى الفتيات ، اننى انوى منذ زمن بعيد تكليفها بامر منظمة الشباب فى كافة نجوع القوزاق .

بيد ان اوليج بدا وكانما لم يسمع تلك الاسباب الوجيهة التى اوردها فانيا ، وقال :

– فلتنتظر يوما او يومين . فلربما يجرى تكليفك بمهمـــة اخرى .

ثم اضاف فجاة وابتسامة عريضة ترتسم على شفتيه ، حيث شاهد فانيا وقد تجهم وجهه :

– كلا . . . لا تخف . هناك ايضا !

ولقد كان فانيا يتجهم عادة حين يكون عازفـا عن ان يعرف الآخرين حقيقة مشاعره .

وفى الأيام الاخيرة كانت بولينا جيورجيفنا تطالب اوليج فى الحاح بترشيح احد الشباب كى يكون تحت تصرف ليوتيكوف ، للعمل مراسلا فيمـا بين كراسنودون ونيجنى الكسندروفسكى . وكان اوليج قد توقف بافكاره عند زيمنوخوف .

وكانت العمة بوليـــا تؤكد عند الحديث عن طلب فيليب بيتروفيتش ليوتيكوف قائلة :

– ينبغى ان يكون ذكيـا موثوقا منه ، بل وغاية فى الذكاء وخير من يمكن الوثوق بهم .

وفى اليوم التالى مباشرة ، وبعد الحديث مع اوليج ، انطلق فانيا زيمنوخوف ضعيف البصر ينتعل حذاءه دون جورب ، يعصب راسه بمنديل عقده على نحو مربع يخطو باحد ممرات البرارى وسط ما ندر من حقول قمح لم يجر حصادها بعد ، تحت اشعة الشمس الحانية .

واذ كان يعيش اهمية ذلك الدور الذى اوكل اليه ، وكل ما يمكن ان ينجم عن آدائه لمثل هذا الدور . ولم يكن غريبا بالنسبة لمثل فانيا ضعيف البصر ان يركز حواسه حول افكار محددة ، ولذا فقد راح يذرع البرارى ، يجتاز الكفور والنجوع دون ان يلحظ كل ما صادفه فى طريقه .

لقد كان الانسان ، اذا ما كان فى الامكان ان يوجد ، يجد نفسه

مذهولا حيال تباين وكآبة الاشياء التى يقع عليها ناظراه فى تلك الاماكن الريفية الرازحة تحت وطأة الاحتلال الالمانى . فلقد كان يمكن ان يصادف عشرات ومئات الاماكن التى سجلت احتراق القرى والنجوع والكفور ، والتى لم يكن ليجد فيها سوى جذى النيران ورماد الحرائق ، وقطة شاردة تربعت عند مدخل منزل نصف محترق تغمره اشعة الشمس الدافئة ، وقد نبتت به الحشائش الطفيلية الطويلة . كما وكان يمكن ان يجد نجوعا لم تطأها قدم المانى ، اذا ما لم ناخذ فى اعتبارنا ، القليلين من الالمان الذين يضلون طريقهم .

كما وكانت هناك القرى ، حيث توطدت سلطة الالمان ، التى اعتبرتها اكثر ملائمة لها ، حيث سرقات الجيوش السافرة ، اى السرقات التى تقوم بهـا وحدات الجيوش العابرة ، وكل انواع الاغتصاب والوحشية التى لـم تكن بالامر الغريب على سلطات الاحتلال الالمانية كما شهدتها روسيا ، قد تجلت فى انصع صورها .

وكان نجع نيجنى الكسندروفسكى ينتمى الى تلك النجوع التى عاشت مثل ذلك المصير ، وحيث وجدت كلافا وامها مكانا للاقامة لدى اقارب الام .

وكان خالها القوزاقى الذى اقامتا فى ضيافته يعمل مزارعا بسيطا بالمزرعة التعاونية قبيل وصول الالمان . ولم يكن الخال رئيسا لمجموعة ، او سائسا بالمزرعة ، بل مزارعا عاديا يعمل مع أسرته ضمن افراد الجمعيات التعاونية بالحقول العامة ، يعيش من دخل ذلك العمل ومما تدره عليه قطعة الارض المجاورة لمنزله .

وقد عانى خال كلافا ، ايفان نيكانوروفيتش وكل افراد اسرته ما قدّر لأية عائلة ريفية ان تعانيه تحت وطأة الاحتلال الألمانى . فقد نهبتهم وحدات الجيش الالمانية العابرة ، حيث صادر الجنود كل ما وقعت عليه أياديهم من ماشية ودواجن وماكولات . بيد ان ذلك لم يكن يعنى أنهم قد سرقوا كل ما تملكه الأسرة ، حيث لا يوجد مزارع فى العالم اجمع حنكته التجارب وخبرته الحياة لدرجة يستطيع معها اخفاء بعض الاطعمة فى ايام المحن ، مثل المزارع الروسى .

وبعد عبور الجيوش الالمانية وبدء استقرار «النظام الجديد» ،

جرى اعلان ايفان نيكانوروفيتش شأن الآخرين ، بان الارض التى كانت ملكا لجمعية نيجنى الكسندروفسك التعاونية ، قد غدت مثل كافة الأراضى الاخرى ملكا للدولة الالمانية . وقد ذكرت تعليمات كوميسار النظام الجديد الواردة من كييف انه سوف يجرى تقسيم هذه الارض التى جرى تجميعهـا فى حوزة جمعية تعاونية كبيرة وبصعوبة بالغة ، الى مساحات صغيرة يجرى منحهـا لكل فلاح قوزاقى للاستغلال الفردى . على شريطة ، . . . ا لن يتم ذلك الا عندما يملك القوزاق والفلاحون ادواتهم الزراعية وماشيتهم الخاصة بهم . ولما كانوا لا يستطيعون ذلك اليوم ، فسوف تظل الأرض ملكا للدولة الألمانية . وسوف يجرى لزراعة هذه الأراضى تعيين عمدة للقرية ، روسى يعينه الالمان — وقد جرى بالفعل تعيينه — وتقسيم النجع الى مجموعات يتكون كل منها من عشرة بيوت . كما وسوف يجرى تعيين رئيس لكل مجموعة من هذه المجموعات ، — روسى يعينه الالمان — وقد تـم تعيينهم . اما المزارعون فسوف يحصلون على الخبز وفقا لحصص معينة . وكى يحفزون الفلاحين للعمل ، ابلغوهم أن من يعمل منهم اليوم على خير ما يرام ، سوف يتملك قطعة ارض يفلحها لصالح نفسه .

ان الدولة الالمانية عاجزة عن ان تكفل عملا جيدا فى هذه الارض الشاسعة ، ما لم توفر الآليات وما يستلزمها من وقود ، وكذلك الخيول اللازمـة . لقد كان من المفروض ان يستخدم المزارعون الآلات الزراعية اليدوية ، وابقارهم الخاصة . وعبثا يؤمل كل من سوف يشفق على ابقاره ، فى الحصول على قطعة ارض مستقبلا . وعلى الرغم من ان مثل هذا النمط من العمل يتطلب قوة بشرية عاملة اكبر ، لم تبذل السلطة الألمانية جهدها للابقاء على هذه القوى العاملة فى مكانها وحسب ، بل وبذلت كل ما فى وسعها لارسال اكثر السكان قدرة على العمل واوفرهم صحة الى المانيا .

ونظرا لأن الدولة الألمانية لم تستطع فى الآونة الراهنة تقدير احتياجاتها من اللحوم واللبن والبيض ، فقد استولت مبدئيا على بقرة واحدة من كل خمسة منازل وخنزير من كل منزل وخمسين كيلوجراما من البطاطس وعشرين بيضة وثلاثمائة لتر من اللبن من كل بيت فى نجع نيجنى الكسندروفسكى . بيد ان الامر لم يقتصر

على ذلك ، اذ انـــه وازاء احتمال تزايد طلباتها ، وتلك حقيقة واقعة ، يحظر على القوزاق والمزارعين ذبح ماشيتهم ودواجنهم ، واذا ما تطلب الأمر ذلك ، يجرى التصريح بذبيحة واحدة لكل اربعـة منازل ، على ان تقوم هذه المنازل بتقديم ثلاثة مثلها الى الدولة الألمانية .

وللاشراف على هذه العملية ، اى مصادرة كل ما تقدمت الاشارة اليه من منزل ايفان نيكانوروفيتش وابنـاء نجعه ، جرى تشكيل ادارة زراعية للمنطقة يراسهـا الضابط ساندرز الى جانب عمدة النجع ورؤساء مجموعـات المنازل العشارية . وقد راح الضابط ساندرز شأن المـلازم اول شبريك يتجول بين القرى والنجوع لا يرتدى سوى سترته وسرواله القصير ، نظرا لحرارة الجو ، مما كان مدعاة لامتعاض القوزاقيات اللاتى رحن يبصقن ويرسمن علامة الصليب على صدورهن عند رؤيته ، وكانما يشاهدن فيه صورة الشيطان . وكانت الادارة الزراعية بالمنطقـة تتبع بدورها ادارة زراعية للدائرة اكبر حجما ، يراسها الضابط جليوكر الذى كان يفضل السروال الطويل فى ملبسه ، على النقيض من زميله السابق . اما هذه الادارة فكانت تتبـع بالتالى المجموعـة «يا» والتى يراسها الرائد شتاندر . وقد كانت هذه المجموعة بعيدة عن اتصالات الآخرين لدرجة انه لم يكن ثمة من يستطيع الاتصال بها . وحتى هذه المجموعة لم تكن سوى احد أقسام الادارة «فيكدو ٩» برئاسة الدكتور ليوديه ، والتى كانت تابعة الى جهتين احداهمـا ادارة الشرطة فى فوروشيلوفجراد ، والأخرى الادارة المركزية للممتلكات الحكومية فى مدينة كييف والتى يشرف عليهـا قوميسـار الرايخ بنفسه .

واذ كان ايفان نيكانوروفيتش وابناء نجعه يشعرون يوميـا بوطأة تلك السلسلة من مختلف العاطلين واللصوص الذين يتحدثون لغة غير مفهومة ومع ذلك يطالبون بتوفير المأكل والمشرب ، فقد ادركوا ان السلطة الألمانية الفاشية ليست سلطة وحشية وحسب — حيث كان ذلك واضحا منذ البداية — ، بل وسلطة مجموعـة من المستهترين واللصوص ، ويمكن تسميتها وببساطة ، سلطـة الأغبياء .

وهكذا بدأ ايفان نيكانوروفيتش وأبنـاء نجعه ، شأن سكان الكفور والنجوع المجاورة — جوندوروفسكايا ، ودافيدوف وماكاروف يار وغيرها ، يتعاملون مع السلطة الالمانية كما يستطيع كل انسان يحترم نفسه التعامل مع سلطة غبية ، مما يعنى انهم دأبـوا على خداعها .

وكان خداع السلطة الألمانية يتركز اساسا فى التظاهر بالعمل وتبديد ، وان تيسرت الأمور ، تحويل كل ما قد ينتجونه الى المنازل ، وكذلك فى اخفاء الماشية والدواجن والمواد الغذائية . وامعانا فى الخداع حاول القوزاق والمزارعون ان يكون رؤساء مجموعات المنازل العشارية وعمد القرى والكفور من انصارهم . وشأن اية سلطـة وحشية كانت السلطة الألمانية الفاشية تجد حيوانات بما فيـه الكفاية توكل اليها بالقوة مناصب العمد . بيد أن الانسان ، وكما يقال لا يعيش ابدا . كان عمدة ذات يوم ، ليصبح أثرا بعد عين .

كانت كلافا كوفاليوفا فى الثامنة عشرة من العمر لا شأن لها بكل هذه الامور . ولم تكن تعانى سوى من تقليص حرياتها واستحالة ذهابها لتلقى العلم ، وغياب صديقاتها ، وجهلها بمصير ابيها . كانت تسلى نفسها بالتفكير فى فانيا ، وفى حياتها التى سوف تغدو ناصعة طيبة معه ، حيث ان النهاية هى مصير كل ازمة او فوضى ، مما يعنى أنهما سوف يتزوجان وينجبان الأطفال ليعيشوا جميعا فى أفضل حال .

كما وكانت تقضى وقت فراغها فى قراءة الكتب التى كانت تجد صعوبة كبيرة فى الحصول عليها فى نيجنى الكسندروفسكى . وحين علمت كلافا أن مدرسة جديدة تابعة للسلطة الألمانية بالمنطقة قد وصلت بدلا من المدرسة القديمة التى اسعفهـا الوقت للنزوح ، قررت انه ليس من المعيب فى شىء أن تطلب استعارة بعض الكتب منها .

وقد كانت هذه المعلمة تقطن غرفة المعلمة القديمة الملحقـة بالمدرسة ، تستخدم اثاثها وحاجياتها ، استنادا الى ثرثرة جاراتها . وراحت كلافا تطرق بابها ، ودون انتظار لاجابتها مدت يدها القوية البضة تدفعه لتجد نفسها داخل الحجرة الكائنة فى الجزء الغربى من المدرسة والتى أسدلت ستائر نوافذها ، لتتأمـل من بالحجرة

شزرا . والتفتت بعض الشيء المدرسة التى كانت تنظف قاعدة النافذة بمنفضة من ريش الدجاج ، فيما ارتفع أحد حاجبيها الكثين ، لتجفل الى الوراء ، تستند الى قاعدة النافذة ، ثم فردت قوامها وراحت تحدق النظر فى كلافا .

— أنت . . .

ولم تكمل حديثها ، حيث ندت على شفتيها ابتسامة تنم عن الشعور بالذنب ، وتقدمت الى الامام تستقبل كلافا .

لقد كانت امراة شقراء ، هيفاء القامة ترتدى فستانا بسيطا ، تند عن عينيها الرماديتين نظرات تتسم بالصرامة ، ذات شفتين واضحتى المعالم ، ومع ذلك فقد كانت الابتسامة الناصعة التى تعبر عن بساطتها ، ترتسم عليهما من آن لآخر .

وذكرت فى روسية طليقة ، شأن كل مدرسة جيدة للغة الروسية :

— لقد تحطم صوان مكتبة المدرسة ، التى اتخذها الالمان مقرا لهم . يمكنك ان تصادف بعض صفحات الكتب فى غير موضعها . الا ان ثمة ما بقى منها . وسوف نبحث عنها سويا . هل انت من سكان هذا النجع ؟

وأجابت كلافا فى غير حسم :

— يمكن القول . . . نعم !

— ولماذا تتلجلجين ؟

واعترى الارتباك كلافا .

وركزت المدرسة ناظريها عليها .

— تفضلى بالجلوس .

وظلت كلافا واقفة مكانها .

وذكرت المدرسة :

— لقد شاهدتك فى كراسنودون .

وراحت كلافا تنظر اليها شزرا وفى صمت .

وذكرت المدرسة دون ان تفارقها ابتسامتها الناصعة :

— لقد ظننتك رحلت .

— اننى لم ارحل الى اى مكان .

— هذا يعنى ان ثمة من كنت تودعينه .

ونظرت كلافا اليها فى خوف وفضول :

— ومن اين علمت بذلك ؟

— اعلم ذلك . . . وليس ثمة مدعاة للارتباك . وقد تظنيننى قادمة بتكليف من السلطة الالمانية و . . .

— اننى لا اظن شيئا .

وضحكت المدرسة ، لتكسو الحمرة وجهها :

— لا . . انك تظنين بالفعل . من كنت تودعينه ؟

— والدى .

— لا . . ليس والدك .

— كلا . . والدى .

— حسنا . ومن هو والدك ؟

وأجابت كلافا وقد زادت حمرة وجهها :

— موظف بالمؤسسة .

— تفضلى بالجلوس ولا داعى للخجل .

ومست المدرسة يدى كلافا فى رقة ، لتستجيب الى دعوتها بالجلوس .

— وهل رحل صديقك ؟

— وعلا وجيب قلب كلافا التى تساءلت :

— اى صديق ؟

وفارقت أمارات الصرامة عينى المدرسة التى انفجرت ضاحكة ثم قالت :

— لا داعى للانكار . اننى أعرف كل شيء .

واجتاح الغضب كلافا فجأة لتقول فيما بين نفسها «لن اقول شيئا وان فصلت راسى عن جسدى» . ثم قالت وهى تنهض من مكانها ، استعدادا للانصراف :

— لست أدرى ماذا تقصدين . ان هذا امر غير طيب !

ولم تستطع المدرسة التحكم فى نفسها لما هو اكثر من ذلك فانفجرت تقهقه بصوت عال فيما تميل براسها ، تارة الى اليمين واخرى الى اليسار وتفرك يديها فى حبور ، ثم قالت :

— يا عزيزتى . . أن قضايا قلبك واضحة تماما للعيان .

ثم نهضت على عجل لتجذب كتفى كلافا ، ثم مالت اليها ، ومضت تقول :

— اننى امزح معك . ولا داعى للخوف منى . اننى مدرسة روسية وليس اكثر من ذلك . أو ليس ضروريا للمرء ان يعيش ؟ كما انه ليس من الضرورى تعليم الشر للآخرين ، حتى فى ظل السلطة الألمانية .

وكان ثمة من يطرق الباب بقوة .

واذ تركت المدرسة كلافا ، توجهت بسرعة نحو الباب تفتحه بعض الشيء ، لتهتف فى فرحة عبرت عنها بصوت خافت قائلة :

— مارفا . . .

ودلفت الى الغرفة امراة فارعة القامة متينة البنية ، على رأسها منديل ابيض لدرجة تعشى الأبصار ، لفحت الشمس قدميها اللتين علاهما الغبار تحمل صرة ملابس تحت ابطها ، لتنظر الى كلافا فى دهشة . وبعد أن القت عليها التحية ، توجهت بقولها الى المدرسة وقد كشفت ابتسامتها عن أسنان قوية :

— نعيش متجاورين ومع ذلك فلم آت سوى اليوم لزيارتك.

— ما اسمك ؟ كلافا . . سوف أصحبك الى أحد الفصول لتنتقى لنفسك كتابا . لكن أرجو انتظارى حيث سرعان ما سوف أفرغ من امورى .

وعادت يكاتيرينا بافلوفنا لتتساءل وقد اعتراها الاضطراب :

— ماذا ؟ فيم الأمر ؟

جلست مارفا ، وقد غطت عينيها بيديها الكبيرتين اللتين لفحتهما الشمس وترك العمل آثاره عليهما ، وظهر غضن يتسم بالمرارة على زاويتى شفتيها اللتين ما تزالان تعبران عن الشباب . ثم رفعت يديها عن عينيها لتقول بالاوكرانية :

— لست أدرى ما اذا كان على ان افرح أم أحزن ! لقد جاء يزورنى شاب من نجع بوجوريلى ليقول أن زوجى جوردى كورنينكو ما يزال على قيد الحياة ، أسير لدى الالمان .

ثم رفعت رأسها لتمضى قائلة بالروسية :

— حدثينى يايكاتيرينا ، ماذا على أن أفعل . ان الاسرى ومن ضمنهم زوجى ، يعملون فى بوجوريلى ، ،يقطعون اشجار الغابات

لصالح الجيش الالمانى تحت حراسة يبلغ تعدادها ما يقرب من الستين . ويسكن هؤلاء عنابر خشبية ، لا يستطيعون الفكاك منها ، بينما يتساقطون جوعا . ما العمل ؟ هل يتوجب على الذهاب الى هناك ؟

—وكيف استطاع ابلاغك بذلك ؟

— ثمة ماجورون يعملون معهم . وقد استطاع زوجى أن يهمس الى احدهم بذلك . كما ويجهل الالمان انه من هذه المنطقة .

وطفقت يكاتيرينا بافلوفنا تنظر اليها فى صمت بعض الوقت . فقد كان ذلك احد المواقف التى يتعذر فيها على الآخرين اسداء النصيحة . فقد كان يمكن ان تقضى مارفا اسبوعا باكمله فى نجع بوجوريلى دون ان تستطيع رؤية زوجها . وعلى افضل الاحوال فقد كانا يستطيعان رؤية كل منهما الاخر من بعيد ، مما يمكن أن يضيف الى آلام زوجها الجسدية آلاما معنوية لا تطاق . علاوة على انها لن تكون قادرة حتى على ارسال الاطعمة اليه . اذ يمكن للمرء تخيل النظام الذى يسود العنابر الخشبية التى يقيم فيها الاسرى !

— فلتفعلى ما يمليه عليه ضميرك .

وسألتها مارفا :

— وماذا انت فاعلة ، اذا ما كنت مكانى ؟

وتنهدت يكاتيرينا بافلوفنا قائلة :

— لقد كان يمكننى الذهاب . . . وسوف تذهبين أنت كذلك ، لكن ما جدوى الذهاب ؟

— اننى ارى كذلك أنه لا جدوى من الذهاب . . . ولذا فلن اذهب .

ودفنت مارفا عينيها فيما بين راحتيها .

— وهل يعرف كورنى تيخونوفيتش ذلك ؟

— نعم ، ويقول أنه اذا ما صرحوا له ومجموعته بشن الهجوم لاستطاع اطلاق سراحهم .

واعترت أمارات القلق والاسى وجه يكاتيرينا بافلوفنا ، حيث كانت تعلم استحالة استخدام المجموعة الفدائية التى يقودها كورنى تيخونوفيتش فى مثل هذه الامور الفرعية .

فقد اصبحت خطوط مواصلات الجيش الالمانى تقع عبر مقاطعة

فوروشيلوفجراد فى الايام الاخيرة . كما وراح ايفان فيدوروفيتش يضع كل ما كان تحت تصرفه ، وكل ما قام باعداده بغية كسب معركة ستالينجراد التى تدور رحاها على مسافة المئات والمئات من الكيلومترات بعيدا عن الدونباس . فقد صارت كل الفصائل الفدائية التى جرى تقسيمها الى مجموعات صغيرة تمارس نشاطها على الطرق الكبيرة وثلاثة من خطوط السكك الحديدية التى تفضى الى الشرق والجنوب . وعلى الرغم من كل ذلك كانت القوات ما تزال قليلة التعداد . ولذا فقد قام ايفان فيدوروفيتش الذى لم يكن يعرف محل اقامته اليوم سوى يكاتيرينا بافلوفنا ومارفا كورنينكو ومراسلة الاتصال كروتوفا ، بتوجيه نشاط كل لجان المناطق للعمل السرى بالمقاطعة الى عمليات التخريب على الطرق .

وقد كانت يكاتيرينا بافلوفنا تعلم كل ذلك ، حيث كانت فى يديها الصغيرتين الدقيقتين كل خيوط الاتصال شلة واحدة ينبعث منها خيط واحد الى ايفان فيدوروفيتش . وكان ذلك ما جعلها تعزف عن الاجابة على عرض كورنى تيخونوفيتش غير المباشر الذى نقلته مارفا اليها ، وعلى الرغم من أنها كانت تعلم مدى رغبة مارفا فى تحقيق ذلك الحلم .

وكانت يكاتيرينا بافلوفنا على اتصال غير مباشر بزوجها ، اى عن طريق مارفا ، وبالادق شقة مارفا . غير ان يكاتيرينا بافلوفنا لم تسالها عن ايفان فيدوروفيتش ، حيث كانت تعرف أنه ما دامت مارفا لم تذكر عنه شيئا فان ذلك يعنى عدم وجود اخبار لديها .

وقفت كلافا الى جوار صوان الكتب . . . وقد كانت كتبا طالعتها فى سنوات طفولتها مما جعل الاسى يتسلل الى قلبها ازاء لقائها بتلك الفترة من عمرها . كما واعتراها الحزن حيال المقاعد الدراسية الخالية . وكانت اشعة شمس الغروب تتساقط مائلة على نافذة الغرفة ، تحمل فى طياتها ابتسامة الوداع التى تشوبها امارات الحزن والنضوج . ولم تشغل كلافا نفسها كثيرا بموضوع كيف تعرفت المدرسة عليها ، حيث كان الاسى يستولى على مشاعرها عموما .

— هل اخترت شيئا ما ؟

تساءلت المدرسة فيما تنظر الى كلافا وقد ضمت شفتيها

واضحتى المعالم ، تكسو عينيها الرماديتين امارات حزن دفين ، ثم مضت تقول :

— ها هى الحياة ، وكما ترين ، تمارس عادتها فى التفرقة بين الناس ، تترك بصماتها قاسية فى بعض الاحيان . اننا نعيش فى شبابنا نمطا يجعلنا لا نعرف ما قدر لنا أن نعيشه ، وعلى مدى الحياة . ولو كنت استطيع العودة الى سنك ، لكان فى امكانى معرفة ذلك . بيد أننى غير قادرة حتى على أن انقل اليك ذلك . يجب عليك تعريفى بصديقك اذا ما حضر اليك .

ولم تكن يكاتيرينا بافلوفنا لتستطيع ان تتوقع وصول فانيا زيمنوخوف الى نيجنى الكسندروفسك فى تلك اللحظة ، يحمل رسالة خاصة بها ، اى بيكاتيرينا بافلوفنا .

وقد ابلغها فانيا بالشفرة — تقرير حول نشاط لجنة المنطقة للعمل السرى فى كراسنودون . اما يكاتيرينا بافلوفنا فقد أبلغته شفويا بطلب ايفان فيدوروفيتش حول ضرورة تحويل منظمة كراسنودون للعمل السرى الى فصيل فدائى كفاحى وحول تشديد الاعمال التخريبية على الطرق .

وذكرت يكاتيرينا بافلوفنا وهى تحاول تمعن النظر فى ذلك الشاب الجالس قبالتها وكانما تود معرفة ما يكمن وراء نظارته :

— فلتبلغه بأن الاحوال على الجبهة ليست سيئة . ربما يحين الوقت وفى القريب العاجل ، لنحمل فيه السلاح .

كان فانيا يجلس فى صمت ، يتململ فى غير انقطاع يسوى شعره الذى تهدل على جبينه . ويا ليت تلك المرأة عرفت المشاعر التى كانت تتاجج فى اعماقه !

ومع ذلك فقد راحا يتحادثان فى نهاية الامر . اذ قالت يكاتيرينا بافلوفنا حين أبلغها فانيا بالنبأ المحزن حول استشهاد ماتفى كوستيفيتش وفالكو :

— كم هى رهيبة مصائر البشر . ان عائلة اوستابتشوك ، وكما تعلم ، تعيش فى الاراضى التى يحتلها الالمان ، وقد تكون تواجه العذاب ، أو ترحل من مكان لآخر زوجته برفقة اطفالهما يحدوها أمل اللقاء به فى يوم من الايام ، فى حين أنه فارق الحياة . وهاك

قصـــة أخرى . . . لقـــد كانت فى ضيافتى امرأة . . . — وراحت يكاتيرينا بافلوفنا تتحدث عن مارفا وزوجها — انه قريب منها ومع ذلك فهى غير قادرة على رؤيته . ولربما يسوقونه فيما بعد الى مكان ناء، ليهلك هناك . — ثم مضت تقول وقد كورت قبضة يدها القوية الصغيرة :

— كم هو الاعدام عقوبة عادلة لاولئك . . . لهم !

وقال فانيا وقد تذكر فيتيا بيتروف ، لتجتاحه فكرة مبهمة :

— ان بوجوريلى نجع يقع غير بعيد عنا وحيث يسكن احـــد اصدقائنا . هل الاسرى كثيرون ؟ هل الحراسة مشددة ؟

وفجاة تساءلت :

— حاول ان تتذكر من الذى بقى على قيد الحياة من رجالنا فى كراسنودون ، ويستطيع تنظيم الآخرين .

وراح فانيا يستعرض اسماء الرجال .

— ومن بقى من العسكريين بعد حصار أو نتيجة لاسباب أخرى ؟

— كثيرون !

فقد تذكر فانيا العسكريين من الجرحى الذين جرى اخفاؤهم فى مساكن المواطنين ، وكان قد عرف من سيريوجكـــا ان ناتاليـــا الكسييفنا تواصل علاجهم سرا .

وذكرت يكاتيرينا بافلوفنا :

— فلتبلغ من بعث بك ضرورة الاتصال بهم واستمالتهم للعمل . فسوف تحتاجونهم قريبا . . . فى القريب العاجل . انكم سوف تكونون فى حاجة الى اشرافهم عليكم انتم الشباب . وانتم قوم جيدون ، الا انهم يفوقونكم خبرة .

واوجز فانيا خطته بصدد استخدام شقة كلافا كمكان للقاء، ومركز اتصال «الحرس الفتى» بشباب القرية ، وطلب تقديم العون اليها فى ذلك .

وابتسمت يكاتيرينا بافلوفنا قائلة :

— من الافضل ان تظل على غير علم بحقيقتى . وسوف اظل على صلة صداقة بها .

ولم يطق فانيا صبرا ليتساءل :

— من اين لك معرفتنا ؟

واجابته فيما علت امارات الدهاء وجهها :

— هذا ما لن اقوله لك أبدا ، والا فسوف يعتريك الاضطراب .

جلس فانيا الى جانب كلافا فى احدى غرف منزل ايفـــان نيكانوروفيتش التى خيمت عليها الظلمة الحالكة ، وحيث كانت تنام على حشية منفوشة والدتها التى راحت تعتبره مقربا ومنذ زمن بعيد ، وخاصة بعد الاحداث التى جرت عند محاولة عبور الدونيتس . وسالته كلافا بنبرة تحمل معنى الغيرة :

— ما هى تلك الاسرار التى بينكما ؟

وهمس متسائلا :

— هل تستطيعين اخفاء السر ؟

— وهل هذا سؤال ؟

— فلتقسمى !

— اقسم !

وذكر فانيا :

— لقد ابلغتنى بان احد رجال كراسنودون يختبئ على مقربة من هنا ، وطلبت اخبار اقاربه بذلك ، ثم تحادثنـــا حول مختلف الامور التى لا اهمية لها .

ثم اضاف بنبرة احتفالية وقد امسك بيدها :

— لقد شكلنا فى كراسنودون تنظيمـــا للشباب للنضال ضد المحتلين . هل ستقبلين الانضمام اليه ؟

— وهل انت احد اعضائه ؟

— بالطبع .

ومالت بشفتيها الدافئتين الى اذنه لتهمس اليه :

— اقبل بطبيعة الحال ! او لست حبيبتك ؟ هل تفهم ذلك؟

— لك ان تؤدى فى حضرتى ، ذلك القسم الذى كتبته واوليج ، والذى احفظه عن ظهر قلب . وينبغى عليك كذلك حفظه .

— سوف احفظه . ان قدرى فى يديك !

— يجب عليك تجميع الشباب هنا وفى النجوع المجاورة .

— سوف افعل كل شىء تأمرتى به .

— يجب عدم النظر الى مثل هذه الامور باستخفاف ورعونة .

فالفشل يعني الموت .

– وموتك أيضا ؟

– نعم .

– انني على استعداد للاستشهاد معك .

– لكنني اظن انه من الأفضل ان تبقى على قيد الحياة .

– طبعا . . . هذا أفضل كثيرا .

– لقد أعد اصدقائي فراشا للنوم عندهم ، ويجب الذهاب ، والا كان ذلك أمرا لا يتسم باللياقة .

وهمست كلافا اليه بشفتيها الدافئتين :

– لا داعي للذهاب . انني ملك لك . . . هل تفهم . . . انني لك . . .

الفصل الخامس والاربعون

في اواخر سبتمبر كانت منظمة «الحرس الفتي» قد اصبحت في منطقة منجم بيرفومايسك و«فوسميديوميكي» ومنطقة المنجم رقم ١ واحدة من أكبر المجموعات الشبابية للعمل السري . وقد انضم اليها الشباب من تلاميذ الصفوف النهائية بمدرسة بيرفومايسك ، والذين كانوا يتسمون بالحيوية والنشاط .

وقد ملك شباب الحي جهاز راديو خاصا بهم ، وراحوا يصدرون بلاغات مكتب الاعلام السوفييتي والمنشورات التي كانوا يكتبونها بالحبر الصيني على اوراق الكراسات المدرسية .

وكم من المتاعب واجهها الشباب بسبب ذلك الجهاز ! فقد وجدوا في مختلف المنازل المهجورة أجهزة راديو قديمة القى بها اصحابها منذ زمن بعيد في سلال المهملات . وكان بوريس جلافان مولدافي هرب مع والديه من بيساربيا ليستقر في كراسنودون ، يدعوه رفاقه «اليكو» ، قد شرع يصنع من بقايا تلك الأجهزة جهازا جيدا . غير أن الشرطي القى القبض عليه بالشارع حيث كان يحمل معه بعض قطع تلك الأجهزة .

وراح جلافان يتحدث الرومانية في مركز الشرطة ، ويصيح قائلا أن الشرطة تحرم اسرته من موارد العيش ، حيث انها صادرت

كل ما كان يستخدمه لصناعة الولاعات ، ويقسم بانه سوف يتقدم بالشكوى الى قيادة الجيش الروماني ، فقد كان ثمة من يسكن كراسنودون من الضباط الرومانيين الذين يشرفون على عبور الوحدات . وعثرت الشرطة في مسكن جلافان على بعض الولاعات التي كان قد فرغ من تصنيعها ، وبعض آخر كان في طور التصنيع ، مما كان يعني حقيقة ادعاءاته ، مما جعل الشرطة تطلق سراحه بوصفه ممثلا لدولة حليفة ، وان كانت قد صادرت أجزاء أجهزة الراديو التي عثرت عليها معه . غير انه استطاع رغما عن ذلك ، صناعة جهاز راديو من تلك القطع التي بقيت في حوزته .

كان شباب بيرفومايسك على اتصال بالنجوع المجاورة عن طريق ليليا ايفانيخينا التي استعادت صحتها بعد عودتها من الاسر ، وانخرطت في العمل مدرسة في نجع سوخودول . كما وكانوا المصدر الرئيسي للأسلحة التي صاروا يجمعونها من البراري يصلون في رحلات بحثهم عنها الى ساحات المعارك ، قريبا من نهر الدونيتس ، ويسرقونها من الجنود والضباط الألمان والرومانيين الذين اقاموا عندهم . وكانت الأسلحة التي فاضت عن حاجة تسليح كل الشباب اعضاء المنظمة من ابناء حي بيرفومايسك ، قد سلمت الى سيريوجكا تيولينين الذي اودعها مكانا لا يعرفه غيره وسوى عدد قليل من زملائه . وقد كانت اوليانا جروموفا واناتولي بوبوف القلب النابض للمنظمة في حي بيرفومايسك ، شأن أوليغ كوشيفوي وايفان توركينيتش في كل منظمة «الحرس الفتي» ، وكوليا سومسكوي وتوسيا يليسيينكو في تنظيم مستعمرة كراسنودون .

وكانت القيادة قد عينت أناتولي بوبوف قائدا لمجموعة بيرفومايسك . وقد غرس روح المسؤولية والانضباط والجسارة الحاسمة في شباب حي بيرفومايسك ليتجلى ذلك في كل ما يقومون به ، مما كان نتيجة لخبراته التنظيمية التي اكتسبها من نشاطه في الكومسومول ، وبما اتسم به من جدية .

اما أوليانا جروموفا فقد كانت صاحبة كل المبادرات ، ومؤلفة غالبية النداءات والمنشورات التي يصدرها شباب الحي . ولم تستطع سوى اليوم فقط ادراك مدى النفوذ المعنوي البالغ

الذى كانت تتمتع به بين صديقاتها ورفاقها ، والذى اكتسبته منذ تلك الأيام التى كانت تذهب فيها الى المدرسة معهم ، وتتنزه فى البرارى ، وتغنى وترقص ، كما يفعل الجميع ، وتلقى الاشعار وترشد الطلائع . . تلك الفتاة فارعة القامة ممشوقة القد ذات الضفيرتين السوداوين الكثتين والعينين اللتين تتالقان تارة ، وتتسم بالغموض والابهام تارة أخرى ، والأقرب فى طباعها الى الصمت ، غير الميالة الى الانفعال ، وان كانت تجمع احيانا بين المتناقضات .

ويتسم الشباب بكونه يحكم على الاشياء استنادا الى نظرته الأولى ، دون خبرة او دراسة ، يلجأ فى ذلك الى أول ما تصادفه من حركة او كلمة لتكون معياره فى الحكم على الخيال والواقع ، على المؤنس والمزعج ، على الكذب والصدق . ولم تكن ثمة صديقات مقربات لدى اوليانا فى الآونة الأخيرة ، حيث أصبحت تعتنى بالجميع توليهن اهتمامها ورعايتها وتقسو فى طلباتها منهن جميعا وبدرجة واحدة . بيد ان الفتيات كن ما يكدن يتبادلن معها كلمتين او ثلاث حتى يتاكدن ان روحها ليست خاوية الى ذلك الحد ، بل هى عامرة بزخر هائل من المشاعر والأفكار والآراء بشأن مختلف الناس ، ووجهات النظر حيالهم ، يمكن أن يعلن عن نفسه وبقوة مباغتة ، ولاسيما اذا ما استحق المرء ذلك الجزاء المعنوى . وتلك طبيعة بعض الناس الذين تعتبر مجرد علاقتهم الطبيعية المتزنة شيئا اشبه بالجزاء والمكافاة . وماذا يمكن للمرء أن يقول اذن ، اذا ما افصحت مثل تلك النفوس عن نفسها ولو للحظة واحدة ؟

كما وكانت علاقاتها بالفتيان تتسم بنفس الدرجة من الحياد . فلم يكن هناك من يستطيع القول انها تصادقه اكثر من الآخرين ، بل ولم يكن قادرا حتى على تصور ذلك فيما بين نفسه . وقد كان كل منهم يدرك من نظراتها وتصرفاتها انه ليس حيال فتاة معتزة بنفسها ، مبالغة فى تقدير شخصيتها ، ومن ثم فتاة ضحلة المشاعر ، بل ازاء عالم كامل زاخر بالمشاعر الفياضة التى لم تجد بعد من يستطيع احتوائها ، وغير القادرة على التسرب قطرة قطرة . ولذا

فقد غدت أوليانا محط اهتمام ورعاية الفتيان غير المغرضة والتى قل من الفتيات من كن يتمتعن بها .

وقد كان هذا بالذات ما جعلها طبيعية فى تصرفاتها ، تلقائية ، تستولى على مشاعر صديقاتها ورفاقها فى حى بيرفومايسك لدرجة بدت غير ملحوظة حتى بالنسبة لها ، وليس فقط لأنها كانت ذكية واسعة الاطلاع .

اجتمعت الفتيات عند الشقيقتين ايفانيخينا ، وحيث رحن يجتمعن كثيرا ، ينهمكن فى اعداد الأكياس التى تحتوى على مواد التضميد الخاصة بالجرحى .

وكانت ليوبكا قد استولت على مواد التضميد من ضباط وجنود الخدمات الطبية الألمانية الذين قضوا ليلتهم فى ضيافتها ، ودون أن تعير ذلك اهتماما . بيد ان أوليانا حين علمت بذلك ، شرعت فى الاستفادة منها على الفور قائلة :

— يجب على كل واحد من شبابنا ان يحمل معه كيسه الخاص، حيث انهم ، على خلافنا ، سوف يخوضون المعارك .

ومن المؤكد انها كانت تعرف بعض المعلومات حين قالت :

— سرعان ما سوف يحين الوقت الذى نخوض فيه جميعا القتال . وعندئذ سوف نكون فى حاجة ماسة الى الكثير ، والكثير جدا من هذه المواد .

ولم تكن اوليانا فى حقيقة الأمر قد ذكرت اكثر مما تحدث عنه فانيا زيمنوخوف فى اجتماع القيادة . غير انها لم تكن تعرف مصدر تلك المعلومات .

وهكذا انكبت كافة الفتيات على اعداد تلك الأكياس بما فيهن شورا دوبروفينا الطالبة التى كانت تعد فى سالف الأزمان شخصا لا تهوى النشاط الاجتماعى ، فردية فى سلوكها ونمط حياتها ، والتى انضمت الى «الحرس الفتى» حبا فى مايا بيجليفانوفا . وقد كانت ساشا بونداريفا النحيفة تقول :

— هل تعلمن ايتها الفتيات بمن نحن أشبه ؟ اننا اشبه بالعجائز اللاتى كن يعملن ذات يوم فى المناجم ، وخرجن الى التقاعد او ليعشن فى كنف اولادهن . وكم شاهدت الكثيرات منهن فى ضيافة جدتى . لقد كن يحضرن الواحدة تلو الأخرى ، ليتجمعن

لديها ، فتمارس احداهن اشغال الأبرة ، بينما تنشغل الأخرى فى حياكة الملابس ، وتساعد الثالثة جدتى فى تقشير البطاطس، وتنهمك الرابعة فى نشر اوراق الكوتشينة . . . وكلهن صامتات ، ويرحن يجلسن على هذا النحو فى سكون لا يقطعه سوى صوت احداهن تقف قائلة : «هيه أيتها العجائز . . . هل لنا ان نمرح !» وتضحك الجدات فى حياء ، لترد اخرى قائلة : «ليس من العيب ان نمرح !» وهنا تبدأ عملية المشاركة . . لتلقى كل منهن بخمسة عشر كوبيكا . وما ان تمر لحظات حتى تكون المائدة قد فرشت . وهل تعتقدن انهن كن فى حاجة الى الكثير من الطعام والشراب ؟ لقد كانت كل منهن تتناول كاسا واحدة صغيرة جدا ، ليجلسن فيما بعد وقد سندت كل منهن خدها الى يدها ويشرعن فى الغناء : «يا خاتمى الذهبى . . .» .

وضحكت الفتيات ، لتقول احداهن :

— يا لها من فتاة هذه الساشكا* ! او يجب علينا كذلك الغناء شأن تلك العجائز ؟

بيد أنه وفى تلك اللحظة دخلت نينا ايفانتسوفا ، والتى كان يندر فى الفترة الأخيرة حضورها الى الفتيات لمجرد زيارتهن وقضاء الوقت . فقد اصبحت تجئ دائما كمراسلة اتصال لدى القيادة ، التى لم تكن الفتيات يعرفن مكانها او أعضاءها . وكن يتصورن كلمة «قيادة» تعبيرا عن اناس كبار يجلسون فى مكان ما تحت الأرض ، ربما فى ملاجئ غطت الخرائط جدرانها ، مدججين بالسلاح قادرين على الاتصال لاسلكيا بالجبهة بل وربما بموسكو . وها هى نينا ايفانتسوفا تجئ لتدعو اوليانا الى الخارج ، ولتدرك الفتيات انها جاءت تحمل مهمة جديدة . وقد عادت اوليانا بالفعل بعد بضع لحظات لتقول انه يتحتم عليها الانصراف لبعض الوقت . ثم دعت مايا بيجليفانوفا لتبلغها بضرورة توزيع الأكياس الخاصة على المنازل ، واحضار سبعة او ثمانية منها اليها لأن الأمر قد يحتاجها فى القريب العاجل .

* ساشكا او ساشا اسم التدليل لألكسندرا والكسندر ، والمقصود هنا الكسندرا بونداريفا . **المترجم** .

ولم يمض اكثر من ربع ساعة حتى كانت اوليانا ترفع جونلتها لتخطو بساقها اليمنى ثم باليسرى عبر السياج الفاصل بين حديقتها وحديقة آل بوبوف ، حيث كان يفترش عشبها الجاف فى ظل شجرة كرز قديمة اناتولى فى طاقيته الأوزبيكية التى غطت شعره الأشقر ، وفيتيا بيتروف ذو الشعر الداكن يواجه كل منهما الآخر ، يفحصان خريطة المنطقة .

وتعلقت انظارهما باوليانا القادمة من بعيد ، وحين اقتربت منهما ، مضى كل منهما يمعن النظر فى الخريطة يحادث الآخر فى صمت . وفى غير اكتراث امسكت اوليانا براحة يدها ضفيرتها التى سقطت على صدرها لتلقى بها الى ما وراء ظهرها ، ثم امسكت بذيل ثوبها وهوت الى الأرض تجلس الى جوارهما القرفصاء ، وقد ضمت ركبتيها وراحت بدورها تنظر الى الخريطة .

وقد كانت العملية التى استدعى اناتولى وفيكتور اوليانا من اجلها اول تجربة حقيقية لشباب بيرفومايسك ، فقد قررت قيادة «الحرس الفتى» أن توكل اليهم مهمة تحرير الأسرى العسكريين الذين كانوا يعملون فى قطع الأخشاب قريبا من نجع بوجوريلى .

وتساءل اناتولى :

— هل يعيش الحراس بعيدا عنهم ؟

— ان الحراس يعيشون على الجانب الأيمن من الطريق ، داخل النجع . وهل تذكر العنبر الخشبى المنعزل الكائن الى جوار الدغلة ؟ لقد كان ثمة مستودع فى ذلك المكان قبل ذلك . كما وان هذا المكان ليس سوى الواح من الخشب احيطت بها الأسلاك الشائكة ، ولا يتولى حراستها غير حارس واحد . . واعتقد انه ليست هناك حاجة للقضاء على الحراس ، حيث من الأفضل أن نكتفى بالحارس المناوب .

ثم مضى فيكتور يقول فى غضب :

— وذلك امر مؤسف حقا . . اذ ينبغى القضاء عليهم جميعا .

طرأت كثير من التغيرات على فيكتور بيتروف منذ استشهاد ابيه . كان يفترش الأرض فى سترته المخملية داكنة اللون ، يرنو

بعينيه الجسورتين فى كآبة الى اناتولى فيما يقضم قليلا من العشب ، ثم ذكر فى نبرة يشوبها الأسف :

— ان ثمة قفلا يحكم اغلاق باب المعتقل ليلا ، بيد انه يمكننا اصطحاب جلافان ومعه ما يلزم من ادوات ، حيث يستطيع فتحه دونما ضجة .

ورفع اناتولى عينيه الى أوليانا متسائلا :

— ما رايك فى هذا ؟

وعلى الرغم من ان اوليانا لم تحضر بداية حديثهما ، فقد فطنت على الفور الى سبب سخط فيكتور ، استنادا الى ادراكها الفورى للأمور ، والذى تعود الجميع عليه منذ بدء نشاطهم المشترك ، واجابت بصوت هادئ نابع من الأعماق :

— اننى افهم ما يوده فيكتور على افضل نحو ؛ اذ تجتاحنى كذلك رغبة القضاء على الحراس . بيد اننا لم ننضج بعد لمثل هذه العمليات .

وذكر اناتولى :

— اننى اؤيد ذلك . ينبغى القيام بابسط الأمور وبما يفضى الى غايتنا باقصر الطرق .

وفى مساء اليوم التالى دلف الشباب فرادى الى داخل الغابة المجاورة لنجع بوجوريل على شاطئ الدونيتس . وكانوا خمسة . . . اناتولى وفيكتور ورفاقهما منذ سنى الدراسة فولوديا راجوزين وجينيا شيبيليف الذى كان اصغرهم عمرا ، وبوريس جلافان . وقد كانوا جميعا مسلحين بالمسدسات . كما وكان فيكتور يحمل خنجرا ورثه عن ابيه ، والذى كان يحمله دائما فى حزامه تحت سترته المخملية . اما بوريس جلافان فقد كان يحمل معه كماشة ومقصا للمعادن ومفكا .

كانت احدى امسيات الخريف بما تتميز به فى المناطق الجنوبية ، ذات طقس معتدل ، يغيب فيها القمر عن السماء . وافترش الشباب اسفل المنحدر الأيمن لشاطئ النهر ، فيما كانت تتمايل فوقهم الشجيرات التى عمر بها المكان حتى مياه النهر التى كانت تتلألأ وتنساب فى غير جلبة ، لا يعلو خريرها سوى هناك بعيدا عند اجزاء الشاطئ الناتئة التى كانت تعترض طريقها ، او حين تجذب

فروع شجرة صفصاف لتجرها معها ، ثم تتركها بعد بضعة امتار . كما وكان الضباب الفضى الكثيف يحتوى الشاطئ المنخفض الآخر للنهر .

ولبث الجميع ينتظرون منتصف الليل حين تجرى عملية تغيير المناوبين .

هكذا كانت تلك الليلة الخريفية ، رائعة مبهمة ، بغلالتها الضبابية الفضية التى احتوت ما وراء النهر ، وخرير المياه الذى تعالى كصوت طفل يرضع ثدى أمه ، مما جعل كلا من الفتيان غير قادر على التخلص من ذلك الشعور الذى يجتاحه . . . أو ينبغى عليهم حقيقة الابتعاد عن ذلك النهر وهذا الخرير وخوض القتال ضد الحارس الألمانى ، وتجاوز تلك الأسوار والأسلاك الشائكة ؟ . . انهم يعرفون ذلك النهر وخرير مياهه ، بينما يتوجب عليهم مبارحة ما هو غير غريب ، للاندماج فيما سوف يفعلونه لأول مرة فى حياتهم ، فيما لا يتصور أى منهم عنه اى شىء . بيد ان كلا منهم لم يفاتح الآخر فيما تجتاحه من مشاعر ، ليتبادلوا جميعا الأحاديث حول أشياء مشتركة مختلفة .

وتساءل اناتولى :

— هل تذكر يا فيتيا ذلك المكان ؟ انه نفس المكان . . أو ليس ذلك حقا ؟

— كلا . . ان ذلك المكان أبعد قليلا ، حيث يتعالى خرير المياه . لقد اضطررت الى السباحة انطلاقا من الشاطئ الآخر . . وكم كنت أخشى أن تجرفك المياه بعيدا . . الى الدوامة .

وذكر اناتولى وقد ندت عن شفتيه ابتسامة طفولية :

— الآن . . وقد قضى الأمر أستطيع القول أن الرهبة انتابتنى لدرجة مخيفة . لقد كدت أغرق .

وتدخل فى الحديث فولوديا راجوزين ، وهو شاب فارع القامة ، نحيف البنية ، جذب مقدمة كابه الطويلة الى عينيه لتغطى كل ملامح وجهه :

— لقد بارحت وجينكا موشكوف الغابة و . . . ويا للشيطان ، فلم اكن قد تعلمت السباحة بعد ! كلا . . لو لم يلق جينكا

موشكوف بنفسه الى المياه بكامل ثيابه فلم تكن لتستطيع الخروج من المياه .

واعترف فيكتور :

— نعم ان ذلك لم يكن باستطاعتى . ما هى اخبار موشكوف ؟

واجاب راجوزين :

— لا شيء . انه ملازم ثان بسلاح المشاة ! وتلك أصغر رتب القادة . انهم هناك يستشهدون بالجبهة جماعات !

واتكأ يوريا جلافان على مرفقه ليقول وقد لمعت أسنانه فى ظلمة الليل :

— كلا . . نهركم . . نهر الدونيتس هادىء ، اما نهرنا دنيستر ، فيا له من نهر ! سريع ، جميل ! وهناك ان سقط المرء فى مياهه ، فلا مفر من هلاكه . ثم اية غابات هذه ؟ اننا نسكن السهوب كذلك ، الا ان غاباتنا الواقعة على ضفاف الدنيستر تمتد الى ما بعد مرمى البصر ، كثيفة هائلة ، ترتفع قمم اشجارها ، تناطح السحب !

وذكر جينيا شيبيليف :

— كان من الأفضل لك ان تبقى هناك ! وكم هو امر يثير السخط أن لا يستطيع الناس الاقامة حيث يريدون . يا لها من حروب تلك ! والا كان كل امرىء يستطيع العيش حيثما اتفق له . فاذا ما كان يود الاقامة بالبرازيل ، فعلى الرحب والسعة ! أما عن نفسى فاننى افضل الاقامة فى الدونباس ، حيث يروقنى ذلك كثيرا !

وعلق جلافان على ذلك ضاحكا فى هدوء :

— كلا . . فلتسمعنى . . اذا ما كنت تريد العيش حقا فى هدوء ، عليك أن تزورنا فى وقت السلم ، بمدينة سوروكا ، ويكون افضل من ذلك ان جئت لزيارة قريتى ذات الاسم التاريخى الرنان . . «مدينة القيصر» . تعال لزيارتنا ، ويجب الا تقنع يوما بوظيفة غير ذات قيمة . ولتحذر كذلك وظيفة المفوض بشأن شراء الحيوانات . فلتحضر الينا كرئيس لجمعية الصليب الأحمر المحلية ، حيث لن يتعدى نطاق عملك سوى الاشراف على أحد صالونات الحلاقة ؛ قصارى القول لن تجد عملا لك سوى احتساء الخمر .

ثم ضحك جلافان قائلا :

— اقسم أنها وظيفة يحلم بها كل امرىء !

وذكر اناتولى فى رقة :

— أخفض صوتك . كم اغرقت فى مرحك !

وتعالى من جديد الى أسماع الفتيان خرير المياه بعيدا اشبه بصوت ذلك الطفل الذى يرضع ثدى امه .

وذكر اناتولى :

— لقد آن الأوان !

وسرعان ما بارحتهم تلك المشاعر البسيطة الغريزية ، والسعادة الفياضة التى كانت تجتاحهم منذ لحظات .

ودلفوا الى الدغلة التى كانت تقع خلف العنبر الخشبى ، يتوغلون فى المساحات كثيفة الشجيرات منها ، ويتجنبون الأماكن المكشوفة ، يتقدمهم فيكتور الذى كان يعرف كل شبر فى ذلك المكان . ثم افترشوا الأرض برهة من الزمن يصغون الى ما حولهم . كان الصمت المطبق يخيم على المكان . واشار فيكتور اليهم ، ليشرع الجميع فى الزحف الى الأمام .

وها هم يرقدون عند اطراف الدغلة ، حيث يواجههم العنبر الخشبى ، ذو سقف تدرج الى جانب واحد ، تلفه الظلمة ، و ليس فيه ما يدعو الى الغرابة ،الا فى كونه يضم بين جدرانه اسرى مما جعله يتسم بالكآبة والرعب . وكان ذلك العنبر واقعا وسط أرض مكشوفة ، وظهر الى يساره شبح الحارس فى حلكة الظلام ، كما وظهر الى يسار الحارس الطريق الذى يتصدر مساكن النجع التى لم تكن تبلغها الأنظار من مكانهم .

كان باقيا من الزمن حوالى نصف ساعة ، وحتى يحين موعد تغيير المناوبين ، ليظلوا خلالها ممددين فى اماكنهم ، وقد تعلقت انظارهم بشبح الحارس الذى لم يفارق مكانه .

واخيرا تعالى دبيب خطوات الى اسماعهم من جهة اليسار ، راح يتنامى شيئا فشيئا ، ليدركوا دون أن تقع انظارهم على شيء ، أن شخصين وصلا الى الطريق ليصبحا قريبين منهم . لقد كانا الحارس المناوب ومرافقه . واقترب شبحاهما من الحارس الذى ما أن سمع وقع خطواتهما حتى استوى واقفا «انتباه» .

وترامى الى الأسماع أمر صدر بالألمانية ، وقرقعة سلاح ،

ودبيب كعوب تطرق الأرض . وابتعد شبحان ، ليتعالى دبيب خطواتهما من جديد على الطريق الترابى ، بعيدا بعيدا وحتى احتواه صمت الليل .

واستدار اناتولى براسه بعض الشىء فى اتجاه جينيا شيبيليف ، الا ان الاخير كان قد بدأ الزحف متراجعا الى اعماق الدغلة . فقد كان ينبغى عليه الالتفاف حول النجع واحتلال موقع المراقبة الى جوار منزل الحراس الصغير .

كان الحارس يذرع المكان بمحاذاة السور ذهابا وايابا ، كما الذئب داخل قفصه . كان يسير فى خطوات سريعة ، وقد علق بندقيته الى كتفه ، يفرك راحتيه ، مما يعنى احتمال كونه يشعر بالبرودة ، حيث استيقظ من نومه منذ قليل .

ومد اناتولى يده يتحسس يد فيكتور التى وجدها ساخنة دونما سبب مما دفعه الى أن يشد عليها فى هدوء .

وهمس اليه ، وقد دنا بشفتيه فجاة من اذنه :

— او ربما نذهب سويا ؟

كانت تلك الجملة تعبيرا عن ضعف الصديق ازاء صديقه . الا ان فيكتور هز راسه علامة الرفض وتقدم زاحفا .

وصار اناتولى وبوريس جلافان وفولوديا راجوزين يتابعونه والحارس بانظارهم فى آن واحد وقد حبسوا انفاسهم .وكانوا يتصورون اى حفيف ينبعث عن حركة فيكتور وكانما هو ايذان بالكشف عن موقعه . بيد أن فيكتور كان يبتعد عنهم شيئا فشيئا ، ليمتزج لون سترته بلون الأرض التى يزحف عليها ، وليغدو بعيدا عن الأنظار ، والأسماع كذلك . وكانوا يتصورون من لحظة لاخرى وقوع ما كانوا فى انتظاره ، وركزوا انظارهم على شبح الحارس ، الا انه كان يواصل سيره ذهابا وايابا بمحاذاة السور ، دون ان يحدث شىء ؛ وخيل اليهم ان حقبة طويلة من الزمن قد انقضت وان الفجر سرعان ما سوف يلوح .

وشان العابنا ايام الطفولة ، التى يكاد النسيان يلفها ، وحيث كنا فى سن الطلائع ، نحاول خداع الرفيق الذى يقوم بدور الحارس ، كان فيكتور لا يزحف على الأرض ، بل ينقل الذراع ثم الساق ، ثم الذراع مرة اخرى لتعقبه الساق ثانية فى مرونة

9—2422

فائقة . وحين كان الحارس يسير فى اتجاهه كان يتوقف عن الحركة ، ليواصلها حين يلتفت الحارس الى الاتجاه الآخر متمالكا حواسه حتى لا يسرع الحركة .

كان وجيب قلبه يتعالى سريعا ، بيد أن الخوف لم يجد مكانا فى أعماقه . فقد أرغم نفسه وقبل أن يتحرك من مكانه عند طرف الدغلة ، على التفكير فى أبيه ، حتى يحفز مشاعره المرة تلو الأخرى على الثار والانتقام . بيد انه نسى كل ذلك فى هذه اللحظة ، حيث تركزت كل حواسه حول الوصول خلسة حتى مكان الحارس .

وهكذا ظل يزحف حتى بلغ زاوية الأسلاك الشائكة ، المحيطة بالعنبر الخشبى ، ثم جمد مكانه . وبلغ الحارس الزاوية المقابلة ، واستدار عائدا من جديد . وتناول فيكتور خنجره ليمسك به بين أسنانه وزحف فى اتجاه الحارس . وكانت عيناه قد تعودتا على ظلمة الليل لدرجة أنه لحظ الأسلاك الدقيقة الممتدة بالمكان ، وخيل اليه أن الحارس قد تعود كذلك على الظلمة وسوف يكتشف وجوده حين يغدو قريبا منه . بيد أن الحارس بلغ فجوة فى الأسلاك الشائكة ، ليتوقف عن السير . وكان فيكتور يعرف أن هذا المكان ليس مجرد فجوة فى سور ، بل احصنة خشبية لفت باسلاك شائكة . ولبث فيكتور مكانه فى توتر ، غير ان الحارس وضع يديه فى جيبى سرواله دون أن يرفع البندقية عن كتفه ، وجمد مكانه دون حراك ، منكس الرأس قليلا يواجه ظهره العنبر الخشبى .

وفجاة تخيل فيكتور ما تخيله أصدقاؤه الذين كانوا ينتظرونه فى لهفة . . فقد تخيل أن حقبة طويلة من الزمن قد انقضت ، وأن الفجر سرعان ما سوف يلوح . وبدا فيكتور يزحف فى اتجاه الحارس دون أن يفكر فى كون هذا الأخير سوف يراه بسهولة ويسمعه كذلك حيث أن وقع خطواته كان يتناهى الى الآذان . لم تكن المسافة التى تفصل فيما بينهما تزيد عن المترين ، بينما ظل الحارس جامدا مكانه ، ويداه فى جيبى سرواله وبندقيته تتدلى من كتفه ، يميل بعض الشىء براسه التى تعلوها طاقية عسكرية . ويصعب على فيكتور تحديد ما اذا كان قد واصل زحفه أم هب يهاجمه ، لكن الذى يذكره هو انه انتفض واقفا الى يسار الحارس

ليطعنه بخنجره . وفتح الحارس عينيه واستدار برأسه سريعا ، ليراه فيكتور المانيا نحيفا تقدم به العمر كثيرا ، غير حليق الذقن ، كشفت عيناه امارات رعب جنونى ، لم يسعفه الوقت لاخراج يديه من جيبيه ولتند عنه صيحة مبحوحة غريبة :

— آه . . .

فقد طعنه فيكتور بكل قوة فى رقبته الى اليسار من ذقنه ، ليغمد خنجره وحتى مقبضه فيما خلف الترقوة . وسقط الألمانى ، ليجثم فيكتور فوقه ، رغبة منه فى طعنه ثانية الا ان الرجفة كانت قد تملكت الألمانى ، ليندفع الدم غزيرا من فمه . وانتحى فيكتور جانبا ليلقى بالخنجر الغارق فى الدماء بعيدا . وفجأة شعر بقىء شديد جعله يسد فمه بكمه الأيسر حتى لا يتعالى صوته .

وفى تلك اللحظة وجد أناتولى الى جواره يمد اليه يده بالخنجر هامسا اليه :

— امسك ، كى لا نبقى اثرا .

واخفى فيكتور الخنجر ، بينما امسك به راجوزين من تحت ابطه قائلا :

— الى الطريق !

وتناول فيكتور مسدسه وهرول برفقة راجوزين نحو الطريق حيث كمنا مكانهما هناك .

واذ خاف بوريا جلافان التعثر فى الأسلاك الشائكة فى جنح الظلام الحالك ، راح وبمهارة وسرعة المحترف يفتح لنفسه ثغرة بين عمودين امتدت الأسلاك الشائكة بينهما . واندفع برفقة أناتولى الى باب العنبر الخشبى ، حيث تحسس بيديه المزلاج ليجده ترباسا حديديا عاديا يحكم اغلاقه قفل ، دس فيه مفكه محطما اياه ، لينفرج الباب عن تيار من الهواء الساخن كريه الرائحة . واستيقظ الأسرى ، وشعر أناتولى وبوريا بأناس تتحرك الى اليسار واليمين والأمام ، ليتساءل عن الأمر احدهم وعيناه ما تزالتان مثقلتين بالنعاس ، فى نبرة مشوبة بالخوف .

— ايها الرفاق . . .

لم يستطع اناتولى ان يقول اكثر من هذا حيث اعترته مشاعر الاضطراب .

وارتفعت بعض الأصوات تعبر عن فرحتها ، الا ان اصواتا اخرى اجبرتها على الصمت .

وتملك أناتولى زمام نفسه ليقول :

— فلتفروا عن طريق الغابة نحو النهر ، حيث عليكم ان تتفرقوا هناك يمنة ويسرة . هل يوجد هنا من يدعى جوردى كورنينكو ؟

واجابه صوت مبحوح :

— نعم !

— فلتذهب الى بيتك حيث تنتظرك زوجتك !

وخرج أناتولى من العنبر ولبث واقفا الى جوار بابه .

وتعالت الأصوات تقول :

— شكرا . . يا عزيزى . . شكرا يا محررينا !

وهرول من تقدم من الأسرى نحو الأحصنة الخشبية الملفوفة بالأسلاك الشائكة ، بيد ان جلافان اعترض طريقهم موجها اياهم الى الثغرة التى فتحها فى الأسلاك الشائكة . وفجأة شعر أناتولى بمن يمسك كتفيه وهو يهمس اليه فى سعادة بالغة متسائلا :

— توليا ؟ . . توليا ؟

واعترت الرجفة أناتولى ليدنو بوجهه قريبا من وجه ذلك الشخص الذى أمسك به ، ليقول فى غير دهشة :

— موشكوف جينيا !

وذكر موشكوف :

— لقد عرفتك من صوتك .

— انتظر . . فسوف نذهب سوية .

كان الفجر ما يزال بعيدا ، حين انفصل عن الآخرين ، أناتولى وفيكتور وجينيا موشكوف حافى القدمين رث الثياب ، ملبد الشعر ، ليجلسوا فى قاع وهدة ضيقة عامرة بالشجيرات ، بغية الراحة .

وخيل للجميع أعجوبة هائلة انقاذ موشكوف الذى كان مادة لحديثهم لحظة كانوا على شاطىء الدونيتس . وقد كان أناتولى بادى السرور على الرغم من ارهاقه ، راح يتذكر لحظات العملية التى كللت بالنجاح تارة ، ليتفرغ لاغراق المديح على فيكتور

وجلافان والآخرين تارة أخرى ، ليعود تارة ثالثة الى اعـــلان دهشته بصدد اطلاق سراح موشكوف . وكان فيكتور يجيب على ما يوجه اليه من أسئلة فى تجهم ، وباقتضاب ، بينما كان موشكوف يلتزم الصمت ، مما دعا أناتولى فى نهاية الأمر الى السكوت كذلك . وكانت الوهدة غارقة فى هدوء تام وظلمة حالكة .

وفجأة تعالت ألسنة اللهب بعيدة فيما وراء الدونيتس ،لتبدد ظلمة مساحات هائلة بالسماء ، لتبدو كستار مخملى يغطى ذلـــك المكان الذى اندلعت به الحرائق . كما وبلغت أضواؤها الوهدة التى كانوا يجلسون بها .

وسأل فيكتور بصوت خافت :

— أين هذا الحريق ؟

واجاب أناتولى بعد برهة من الصمت :

— الى جوار جوندوروفسكايا .

ثم أضاف بصوت خافت :

— انه سيريوجكـــا ... يحرق الأجران . وهو يفعـــل ذلك كل ليلة .

وفجأة تدخل فيكتور قائلا بكل قوة :

— لقد رحنا نتلقى العلم بالمدارس ، لتتفتح امامنا آفـــاق الحياة ناصعة واسعة ، بينما تضطرنا الظروف اليوم الى ممارسة مثل هذه الأمور . ولا مفر أمامنا !

وذكر جينيا موشكوف بصوت مبحوح وقد دفن وجهه فيما بين راحتيه وارتمى على الأعشاب الجافة :

— أيها الأخوة ! أو حقا أكون حرا طليقا ؟ أيها الأصدقاء !

الفصل السادس والاربعون

وأخيرا حان الوقت الذى بدأ فيه الجميع بما فيهم المشردون بعرباتهم يخافون التنقل عبر الطرق العامة والترابية ، ليتخـــذوا الممرات والبرارى طريقا لهم حيث صارت الألغام تنفجر فى كثير من الأحيان تحت عجلات عربات النقل والركوب وصهاريج الوقود .

وكانت الأخبار حول حادث كبير فى مكان ما على الطريق بين تل ماتفييف ونوفوشاختينسك بالجنوب ما تكاد تنتشر ، حتـــى تعقبها أخرى حول تدمير قول باكمله من عربات البنزيـــن على الطريق بين ستاروبيلسك وبيلوفودسك فى الشمال .

وفجأة تطايرت فى الهواء أجزاء كوبرى من الأسمنت المسلح كان يصل بين شاطئ نهير كريبينكا والكائن على طريق رئيسى يفضى الى ستالينجراد ، دون ان يدرى أحد كيف حدث ذلك ، فقد كان الكوبرى يقع فى منطقة بوكوفو — بلاتوفو الآهلة بالسكان ، وفى موقع شدد الألمان حراستهم عليه . وبعد بضعة أيام تهاوى الى النهر كوبرى ضخم للسكك الحديدية قريبا من كامينســك على طريق فورونيج — روستوف . وقد كان انفجار ذلك الكوبرى الذى تحرسه فصيلة من رماة الرشاشات الألمان تدعمها اربعة مدافع خفيفة ، قويا لدرجة أن دويـــه بلـــغ أسماع سكان كراسنودون .

وتوارد الى ذهن أوليج أن المنظمتين الحزبيتين للعمل السرى فى كراسنودون وكامينسك قد تعاونتا حتما فى تفجير الكوبرى . وقد خمن ذلك لأن بولينا جيورجيفنا طالبته على لسان ليوتيكوف قبل يوم انفجار الكوبرى بيومين بتوفير مراسل اتصال كى يبعث به الى كامينسك .

وكان أوليج قد رشح أوليا ايفانتسوفا .

وغابت أوليا طيلة أسبوعين كاملين عن العمل فى فلك «الحرس الفتى» ، على الرغم من ان اوليج علم من نينا أنهـــا جاءت الى كراسنودون عدة مرات لترحل عنها ثانية . وها هى تظهر من جديد فى بيت أوليج بعد انفجار الكوبرى بيومين ، وشرعت تمارس فى تواضع مهامها اليومية كمراسلة اتصال لدى قيـــادة «الحرس الفتى» . وكان أوليج يدرك استحالة سؤالها عن أى شىء ، بيد انه كان يجد نفسه احيانا يتأمل وجهها فى فضول واهتمام . الا أنها بدت هادئة طبيعية صموتة وكانها لا تلحظ شيئا مما يجرى حولها . وقد بدا وجهها جامد التعبيرات ، حاد القسمات غير المتناسقة التى يندر أن تضيئها الابتسامة ، وكانه قد خلق على هذا النحو خصيصا لحفظ الأسرار .

وفى هذا الحين كانت تعمل على طرق المنطقة وبعيدا عنها ثلاث مجموعات قتالية دائمة من شباب «الحرس الفتى» .

كانت المجموعة الأولى تعمل على الطريق الكائن بين كراسنودون وكامينسك ، تهاجم فى غالبية الأوقات عربات الركوب التى يستقلها الضباط الالمان ، ويراسها فيكتور بيتروف . وتعمل المجموعة الثانية على الطرق الموصلة بين فوروشيلوفجراد . وليخايا تهاجم صهاريج نقل البنزين ، تقتل السائقين والحراس وتسكب البنزين على الأرض ، ويراسها ملازم الجيش الأحمر جينيا موشكوف الذى جرى اطلاق سراحه .

اما المجموعة الثالثة فيراسها تيولينين وتعمل فى كافة الاتجاهات . كانت تتصدى للوريات الألمانية التى تنقل الأسلحة والمواد الغذائية والملابس ، وتتصيد الجنود الألمان الفرادى فى الطرق وداخل المدينة نفسها .

كان المقاتلون يتجمعون عند آداء المهمة ويتفرقون بعدها كل فى طريق ، كما وكان كل منهم يخفى سلاحه فى مكان ما بالبرارى .

وقد كان موشكوف الذى اطلق سراحه مكسبا جديدا «للحرس الفتى» بوصفه قائدا ذا خبرة .

وكان موشكوف الذى شفى من كل الآلام التى لحقت به ، متين البنية ، بدين الجسد ، يسير فى تثاقل ، يحيط برقبته شال من الصوف جعله يبدو غاية فى البداثة ، ينتعل حذاء شتويا طويلا كان قد انتزعه من قدمى الشرطى الذى قتل أثناء القضاء على مركز الشرطة فى نجع شيفيريفكا . كما وكان يبدو صارم الطباع على الرغم من انه كان غاية فى الطيبة فى قرارة نفسه . وقد علمته حياته بالجيش ضبط النفس والانضباط ، ولاسيما بعد قبوله عضوا بالحزب اثناء وجوده بالجبهة .

وقد التحق بالعمل برادا فى الورشة الميكانيكية التابعة للادارة رقم ١٠ ، وجرى ضمه الى قيادة «الحرس الفتى» بناء على اقتراح ليوتيكوف .

وعلى الرغم من أن «الحرس الفتى» كانت قد قامت بعدد من العمليات الكبيرة التى تلفت الأنظار ، لم يكن ثمة ما يدل على أن الألمان قلقون بصدد وجود مثل هذه المنظمة .

وشأن حركة المياه الدفينة فى أعماق الأرض والتى لا تلحظها العين ، والتى تسفر عن نبوع الأنهار والجداول ، كانت عمليات الحرس الفتى تندمج على نحو غير ملحوظ فى خضم تحركات الملايين الذين يسعون نحو العودة الى حياتهم الطبيعية التى كانوا يعيشونها قبيل الاحتلال الألمانى . وفى خضم العمليات الكبيرة والصغيرة لم يلحظ الألمان اثرا يذكر لمنظمة «الحرس الفتى» .

كان خط الجبهة قد غدا بعيدا اليوم ، لدرجة أن الألمان المقيمين فى كراسنودون تصوروا تلك المدينة وكأنها محافظة نائية عن محافظات الرايخ الألمانى . ولو لم تكن عمليات الفدائيين قد انتشرت تعلن عن وجودهم على مختلف الطرق ، لكان يمكن للمرء أن يتصور أبدية «النظام الجديد» هناك !

ساد الهدوء جبهات الحرب ، فقد لبث الجميع فى الشرق والغرب ، فى الشمال والجنوب يصيخ السمع الى ما يجرى هناك حيث دارت رحى معركة ستالينجراد العظيمة . ولم تحمل البلاغات اليومية المقتضبة عن سير المعارك فى منطقتى ستالينجراد وموزدوك اية أنباء جديدة طوال شهرى سبتمبر ثم اكتوبر ، حتى صار المرء يتخيل الوضع وكأنما سوف يظل هكذا الى الأبد .

وتوقف تماما تدفق الأسرى الذين كانوا يقودونهم من الشرق نحو الغرب عبر كراسنودون . بيد أن الوحدات الألمانية والرومانية وقوافل العربات والمدافع والدبابات كانت ما تزال تتحرك فى طريقها نحو الشرق ، حيث تضيع فى غياهبه ، لتتوالى غيرها اخرى جديدة . اما فى كراسنودون نفسها فقد كان الجنود والضباط الألمان والرومانيون يقيمون ليل نهار ، مما بدا الأمر معه وكأنه سوف يظل دائما .

وتوقف فى البيت الذى تقطن به عائلتا كوروستيليف وكوشيفوى ولعدة أيام ضابط المانى ، طيار ماهر عائد الى الجبهة بعد اجازة قضاها للاستشفاء بعد الاصابة ، فى آن واحد مع ضابط رومانى برفقة خادمه ، شاب مرح يتحدث الروسية ويسرق كل ما تقع عليه يداه ، حتى الثوم واطارات الصور العائلية .

كان الضابط الرومانى فى زيه الأخضر القاتم ، ورباط عنقه

وعلامات كتفيه الذهبية المضفرة ، قصير القامة ، أسود الشارب والعينين جاحظهما ، نشيط الحركة التى بلغت حد مقدمة أنفـه كذلك . واذ استقر فى غرفة الخال كوليا ، كان يقضى طوال يومه بعيدا عنها ، يذرع شوارع المدينة فى ملابسه المدنية ، يتفقد المناجم والمؤسسات والوحدات العسكرية .

وسأل الخال كوليا الخادم الرومانى الذى ارتبط به بعلاقـة أشبه بعلاقة الأصدقاء :

– لماذا يسير سيدك فى ملابسه المدنية ؟

ونفخ الخادم المرح وجنتيه ثم طرقهما براحتيه لينفـخ الهواء بصوت عال كما يفعلون فى السيرك ثم قال :

– جاسوس ! . . .

وبعد ذلك لم يكن الخال كوليا يستطيع ابدا العثـور على غليونه .

اما الطيار الألمانى الماهر فقد أقام فى الغرفة الكبيرة ، لتنتقل يلينا نيكولايفنا الى غرفة الجدة ، بينما انتقل أوليج الى العنبـر الخشبى الملحق بالمنزل . وكان هذا الضابط رجلا أبيض البشرة ، ضخم الجثة ، أحمر العينين ، تغطى صدره الأوسمة التى نالها فى المعارك التى خاضها فى فرنسا وبالقرب من خاركوف . وقد كان مخمورا حين جاؤوا به من مقر حاكم المدينة ، وظل يلازم مكانـه بالمنزل بضعة أيام لأنه راح يواصل الشراب ليل نهـار دون أن يفيق من حالته . وقد حاول استمالة الى الشراب كل من بالمنزل ، عدا الرمانيين اللذين لم يكن يعيرهما أدنى اهتمام ، وحيث كان غير قادر على البقاء دقيقة واحدة دون سمير . وشرع يؤكد بلغـة المانية – روسية لا تطاق انه سوف يقتل البلاشفة ثم الانجليز ثم الأمريكيين ، ليعود الحال على أفضل ما يرام كما كان فيما قبل . بيد ان مشاعر الكآبة اجتاحته فى أواخر أيام اقامته .

ورفع سبابته الحمراء قائلا بروسية ركيكة :

– ستالينجراد ! ها . . ! ان البلاشفة يطلقون النار . . بم ! وقتلونى !

وترقرقت الدموع الكئيبة فى عينيه الحمراوين .

وقبيل الرحيل افاق لنفسه قليلا لدرجة سمعت له باطلاق

نيران مسدسه على الدجاج فى الأفنية . ولم يجد مكانا لتخبئتهـا فيه ، ليقيده واضعا اياها عند مدخل المنزل وحتى يفرغ من جمع متاعه .

واستدعى الخادم الرومانى اوليج ، ثم نفخ وجنتيه واطبـق عليهما براحتيه ، ليطلق الهواء المحبوس فيهما بصوت عال كما يفعلون فى السيرك ثم قال فى دعة :

– يا لها من حضارة !

وهكذا فقد أوليج مطواته الى الأبد .

تشكلت فى كراسنودون فى ظل «النظام الجديـد» «صفوة المجتمع» كما الحال فى هايدلبرج او بادن بادن ، وهى سلسلة طويلة من الألقاب والمراكز الاجتماعية . وقد كان يتصدر هـذه السلسلة الضابط بربوكنر ومساعده بالدر والملازم شفيديـه رئيس الادارة . ولما كان هذا الملازم قد تعود على العمل فى جـو المؤسسات الألمانية الذى يتسم بالدقة والنظافة ، فلـم يلحظ كيف قام بنفسه بتغيير شؤون الادارات الفرعية التابعة للمؤسسة لتعمل وفق نمط فريد ، وبما يتفق وحيرته التى افصح عنها فى حديثه مع باراكوف . حيث أنه ما دام هناك فى حقيقة الأمر عجز فى الآلات والعمال والمعدات ووسائل النقل والأخشاب اللازمـة للمناجم ، فلن تكون هناك مناجم ، وبالتالى لن يوجد الفحم فى مثل هذه الأحوال . ولذا فقد راح يقوم بمهام وظيفته على خير ما يرام فى كونه يراجع كل صباح ما اذا كان السواس الروس يقدمـون الشوفان لخيول الادارة الألمانية ، ويوقع مختلف الأوراق . امـا بقية وقته فقد كان يكرسه وبهمة اكبر للاعتناء بدواجنه وخنازيره وابقاره ، وتنظيم السهرات لكبار رجال الادارة الألمانية .

ويأتى فى المرتبة التالية من حيث الأهمية فيلدنير ، نائـب شفيديه والملازم أول شبريك وزوندرفوهرر ساندرز بسروالـه القصير ، ثم يعقب هؤلاء سوليكوفسكـى رئيس الشرطـة ، وستاتسينكو عمدة المدينة الذى كان يتسم بالوقار ، يبدو مخمورا منذ الصباح ، يخطو فى تثاقل فى نفس الساعة من كـل يوم ، يحمل مظلته ويسير فى الأوحال متجها نحو عمله بمديرية المدينة ، ليعود منها على نفس النحو ، وكأنما يمارس عملا فى حقيقة الأمر .

ويجيء في نهاية هذه السلسلة من الألقاب والمراكز المساعد فينيبونج وجنوده ، والذين كانوا يقومون بكل شيء في واقع الأمر .

وكم بدت مقفرة كئيبة تلك المدينة الحبيبة ، مركز المناجم حين هطلت أمطار الخريف . فقد غمرتها الأوحال ، وافتقرت الى الوقود والكهرباء ، تداعت أسوارها ، واجتثت نباتات حدائقها ، وتحطمت نوافذ منازلها المهجورة التي سلب الجنود العابرون ما بها من متاع ، وصادر كبار رجال الادارة الألمانية أثاثها لاستخدامه في مساكنهم . ولم يعد سكان المدينة يعرفون بعضهم البعض اذا ما تقابلوا صدفة بشوارعها ، حيث هزلت أجسادهم ورثت ثيابهم ، وترك الشقاء بصماته واضحة على معالمهم . وكان يحدث حتى مع أبسط الناس ، أن يتوقف عن سيره بالشارع أو يستيقظ من نومه في الفراش ليفكر . . «أحقيقة ذلك الذي يجري ؟ أو ليس ذلك حلما ؟ أو لا يكون ذلك مجرد أوهام ؟ أو ربما يكون الجنون قد ألم بي ؟»

ولم يكن هناك سوى منشور يشاهده المرء فجأة معلقا على عمود التلغراف أو على جدار أحد المباني ، صغيرا بللته الأمطار ، يشعل نيران أعماقه بالكلمة الملتهبة «ستالينجراد» ، ودوى انفجار ما ، كما يحدث عادة ، على الطريق ، يؤكد له ولغيره «أن ذلك ليس حلما أو وهما ، بل حقيقة واقعة ! وأن رحى النضال ما تزال دائرة !»

وفي ذات يوم من تلك الأيام التي هطلت فيها أمطار الخريف شديدة تواكبها الرياح العاصفة ، وصلت ليوبكا من فوروشيلوفجراد على متن عربة ركوب رمادية اللون ، هبط منها ملازم شاب ليفتح بابها مفسحا لها الطريق ومؤديا لها التحية العسكرية ، في حين هرولت تحمل حقيبتها في يدها نحو مدخل بيتها الحبيب .

وفي هذه المرة لم تتحمل أمها يفروسينيا ميرونوفنا ، لتقول لها حين خلدا الى فراشهما :

— يجب ان تكوني حذرة يا بنيتي ! هل تعرفين ما يقوله بسطاء الناس ؟ . . يقولون «انك تختلطين بالألمان كثيرا . . .».

— هل يقول الناس ذلك ؟ هذا حسن . . ان ذلك يناسبني جدا يا ماما .

وضحكت ليوبكا ، ثم غطت في نومها وقد تكورت تحت الغطاء .

وفي صباح اليوم التالي وحين علم فانيا زيمنوخوف بوصولها ، انطلق يجري يقطع الأرض الخلاء الفسيحة التي تفصل ما بين شارعه وحي «فوسميدوميكي» ، ليصل الى بيت آل شيفتسوف وقد غطى الوحل ساقيه حتى ركبتيه ، ويدلف على هذا النحو الى غرفة المعيشة دون ان يطرق الباب .

كانت ليوبكا تجلس وحدها تمسك باحدى يديها مرآة صغيرة ، فيما تصفف بالأخرى شعرها الذي تهدل تارة ، وتمسح ردائها المنزلي الأخضر حول قدمها تارة أخرى ، تذرع ارض الغرفة حافية القدمين ، تقول ما يعني :

— آه ليوبكا . . يا ليوبكا ! ما الذي يجعلك موضع اعجاب الصبية الآخرين ؟ انني لا أفهم سر ذلك . . . بم تتميزين عن الأخريات ؟ ان ثغرك واسع ، وعينيك صغيرتان ، وقسمات وجهك غير متناسقة ، وقوامك . . . كلا . . ان قوامك وللحقيقة لا بأس به ! واذا ما تمعنا في بحث الأمر . . . هل بذلت جهدا من أجل استقطاب اعجابهم ؟ كلا . . لم تفعلي ذلك ! وهل يمكن الجري وراء الصبية ! بالطبع لا . . وذلك أمر لا افهمه .

واذ راحت تميل برأسها أمام المرآة تارة الى اليمين ، وأخرى الى اليسار ، وتهز شعرها ، أخذت تضرب الأرض بقدميها العاريتين ، فيما تدندن :

ليوبكا . . يا صغيرتي
ليوبكا . . يا عزيزتي

ورأى فانيا الذي كان يراقبها في هدوء بالغ ، أنه قد آن الأوان ليطلق سعلته حتى تنتبه الى وجوده .

ولم تعتر الدهشة ليوبكا ، بل على العكس فقد علت قسمات وجهها أمارات التحدي ، وهبطت يدها بالمرآة في بطء ، ثم استدارت نحو فانيا ، وزرت عينيها الزرقاوين وأطلقت ضحكة رنانة .

وذكر فانيا بصوته الأجش :
— ان مصير سيريوجكا ليفاشوف قد غدا واضحا تماما ، اذ يتحتم عليه احضار حذاء الملكة * كي يرضى أهواءك .
وذكرت ليوبكا فى شىء من الارتباك :
— هل تعلم يا فانيا مدى غرابة الأمر ؟ اننى أحبك أكثر مما احب هذا السيريوجكا !
فقال فانيا بدون ارتباك :
— هذا بينما أنا ضعيف البصر ، ولذا أقول لك حقيقة ، أننى اتخيل كافة الفتيات ذوات وجه واحد ، ولا أستطيع تمييزهن سوى باصواتهن . وتعجبنى الفتيات ذوات الصوت المنخفض كصوت الشماس فى الكنيسة ؛ بينما يذكرنى صوتك بالأجراس . هل هناك احد بالمنزل ؟
— كلا . . فقد ذهبت امى لزيارة آل ايفانتسوف .
— فلنجلس اذن ، ولتلقى بالمرآة جانبا حتى لا تثيرى اعصابى . ليوبوف جريجوريفنا ! هل توارد الى خاطرك أثناء مشاغلك اليومية ، ان الذكرى الخامسة والعشرين لثورة أكتوبر العظمى سوف تحل قريبا ؟
— بالطبع !
ندت هذه الاجابة عن ليوبكا التى وللحقيقة كانت قد نسيت هذا الأمر .
ومال فانيا نحوها ليهمس اليها بشىء ما .
— آه . . كم هذا رائع ! يا لكم من أبطال . . كم كان التوفيق حليفكم !
وطبعت قبلة على شفتى فانيا وضعت فيها كل ما اجتاح اعماقها ، ليعتريه الارتباك لدرجة ان نظارته كادت تسقط الى الأرض .

. . . — ماما ! هل تأتت لك ذات يوم صباغة اشياء الالبسة ؟
وتأملت الأم ليوبكا فى دهشة .

* من قصة نيكولاى جوجول «سهرة عيد الميلاد» . **المترجم** .

— لنقل على سبيل المثال . . . كانت لديك بلوزة بيضاء ، وراودتك الرغبة فى ان تصبح . . . زرقاء .
— طبعا . .تأتى لى ذلك يا بنيتى .
— وهل حدث وقمت بصباغتها باللون الأحمر ؟
— ان الأمر سيان . . فاللون لا يهم .
— فلتعلمينى ذلك يا أمى ، فقد أود صباغة بعض الملابس لنفسى .
. . . وسأل فولوديا أوسموخين عمته ليتفينوفا التى كانت تعيش مع أولادها غير بعيد عن بيت آل أوسموخين :
— هل حدث أيتها العمة ماروسيا وقمت بصباغة بعض الثياب ؟
— نعم يا فولوديا . حدث ذلك .
— هل يمكنك أن تساعدينى فى صباغة اثنين أو ثلاثة من اغطية الوسائد باللون الأحمر ؟
— قد تترك الصبغة آثارها على وجنتيك وأذنيك !
— اننى لن أنام عليها ، حيث سوف أضعها بالنهار فقط لمجرد الجمال .
. . . وتحدث جورا أروتيونيانتس يخاطب والده :
— بابا . . لقد تأكدت من أنك تستطيع صناعة الألوان ليس فقط لصباغة الخشب بل وللمعادن كذلك . فهل تستطيع صباغة ملاءة سرير باللون الأحمر ؟ ان رجال العمل السرى هم الذين يطلبون منى ذلك . انهم يطلبون ملاءة حمراء فبم تجيبهم ؟
وأجاب الأب فى شىء من التخوف :
— ان الصباغة أمر هين . . اما الملاءة . . . ؟ وماذا تقول امك ؟
— عليكما فى نهاية الأمر ان تحددا من منكما رب العائلة ؟ أنت أم أمى ؟ عليكما ذلك فى نهاية الأمر ! والأمر واضح . . مطلوب ملاءة حمراء قانية ! . .

لم تتحدث فاليا بورتس الى سيريوجكا بشأن الرسالة التى بعث بها اليها ، كما ولم يفاتحها بدوره فى ذلك الأمر . بيد أنهما صارا ومنذ ذلك اليوم صديقين حميمين لا ينفصل أحدهما عن الآخر . كان كل منهما يسعى نحو صديقه منذ أن تشرق الشمس ؛ وكان

سيريوجكا فى اغلب الأحيان هو الذى يسارع بالذهاب الى شارع ديريفياناتايا ، وحيث لم يتعود أهل البيت فقط على ظهور ذلك الشاب النحيف ذى الشعر الأجعد حافى القدمين حتى فى ايام اكتوبر الخريفية الممطرة ، بل واحبوه أيضا . . فقد احبته ماريا اندرييفنا وكذلك ليوسيا الصغيرة التى أعجبها كثيرا ، وعلى الرغم من أنه كان يلتزم الصمت فى حضورهما وفى كثير من الأحيان .

وقد سالته ليوسيا الصغيرة ذات يوم :

– لماذا تكره انتعال الأحذية الى هذه الدرجة ؟

واجاب سيريوجكا ضاحكا :

– يسهل الرقص لعارى القدمين !

بيد أنه راح بعد ذلك يزورهم وقد انتعل حذاءه ، الذى لم يسعفه الوقت لاصلاحه .

واثناء ذلك الحين الذى ملكت فيه صباغة الاقمشة كل حواس اعضاء «الحرس الفتى» ، كان ينبغى على سيريوجكا وفاليا توزيع المنشورات للمرة الرابعة ، فى احدى الحفلات السينمائية التى كانت تجرى فى مبنى المسرح الصيفى .

وقد كان المسرح الصيفى ، والذى كان يسمى فيما سبق بنادى لينين ، كائنا بمبنى خشبى عال ، ذى خشبة مكشوفة دائما ، لا تدعو الى الراحة ، تغطيها فى أيام الحفلات قطعة من القماش . وكان المتفرجون يجلسون على ارائك طويلة دفنت قوائمها فى الأرض ، يرتفع مستوى الصفوف الخلفية منها . وكان يجرى بهذا المسرح بعد احتلال الألمان للمدينة عرض الأفلام الألمانية ، وغالبيتها من الأفلام التسجيلية العسكرية ، كما وكانت تقدم الفرق الفنية المتجولة فيه عروضها التى تتضمن العاب السيرك فى غالبيتها . ولم تكن مقاعد المسرح مرقمة ، واسعار التذاكر واحدة ، مما كان يجعل احتلال المقعد الأفضل أمرا مرهونا بقوة ومهارة المتفرج .

جلست فاليا كعادتها فى الجهة الأخرى من المسرح بالصفوف الخلفية ، فيما بقى سيريوجكا الى جوار المدخل قريبا من الصفوف الأمامية . وفى تلك اللحظة التى اطفات فيها الأنوار ، وراح المتفرجون يقتتلون من أجل المقاعد قاما بالقاء المنشورات على الجمهور .

وتعالت الصيحات والتأوهات ، والتقط الجالسون المنشورات .

والتقى سيريوجكا بفاليا عند مكانهما المالوف الى جوار العمود الرابع بعد خشبة المسرح والذى يستند اليه سقف المبنى . وكان المتفرجون وكالعادة اكثر عددا من المقاعد الموجودة . ولبث سيريوجكا وفاليا يقفان وسط المتفرجين فى الممر . وحين بدا الضوء الأزرق ينبعث من كشك العرض فى اتجاه الشاشة لمس سيريوجكا بمرفقه مرفق فاليا مشيرا اليها بعينيه نحو يسار الشاشة ، وحيث كان معلقا علم الألمان الفاشيست الأحمر الداكن بدائرته البيضاء وصليبه المعقوف فى الوسط يتدلى مغطيا جزءا كبيرا من المسرح ، يتلاعب به الهواء بعض الشىء .

وهمس سيريوجكا الى فاليا قائلا :

– سوف أعتلى خشبة المسرح ، بينما عليك الانصراف مع المتفرجين ، وصرف انتباه الحارسة بحديث ما . كما وينبغى عليك تعطيلهم ولو لمدة خمس دقائق اذا ما أرادوا كنس القاعة .

واومات فاليا براسها فى صمت .

وظهرت على الشاشة فوق عنوان الفيلم الألمانى ترجمة روسية بخط ابيض «العذاب الأول» .

وتساءل سيريوجكا بشىء من الارتباك :

– هل يمكن الذهاب الى بيتك بعد ذلك ؟

واومات فاليا براسها علامة الايجاب .

وما كاد الضوء ينطفىء استعدادا لعرض الجزء الأخير حتى ابتعد سيريوجكا عن فاليا ، ليختفى دون أثر وعلى النحو الذى لم يكن ثمة سواه يستطيعه . فلم تند اية حركة فى اى مكان بالممرات التى كانت تغص بالمتفرجين . وكم كانت تود معرفة الكيفية التى يختفى بها هكذا . وصارت فاليا تشق طريقها نحو الباب دون أن يفارق عينيها الباب الصغير المجاور للشاشة ، والذى لم يكن هناك غيره يستطيع سيريوجكا عبره الوصول الى خشبة المسرح خلسة . وانتهى العرض ، واندفع الجمهور فى جلبة نحو الباب ، واضيئت الأنوار ، بينما لم تستطع فاليا رؤية اى شىء .

وغادرت المسرح مع الجمهور لتتوقف الى جوار الباب . وكانت الظلمة والبرد والرطوبة تلف الحديقة العامة ، حيث لم تكن اوراق

الأشجار قد تساقطت جميعها ، لتتلاعب الرياح بما بقى منها ليعلو حفيفها اشبه بالتنهيدة . وها هم آخر المتفرجين يبارحون القاعة ، ولتتقدم فاليا نحو حارسة ، تميل بقامتها وكانما تبحث عن شيء فى ذلك المكان الذى تسللت اليه اشعة مصابيح قاعة العرض عبر الباب المفتوح .

– أو لم تجدى هنا كيس نقودى ؟

واجابت حارسة الباب المسنة :

– كيف تسنى لى يا بنيتى ان اجده . لقد غادر الجمهور القاعة توا .

ومالت فاليا وراحت تتحسس بيديها تارة هنا واخرى هناك القمامة التى داستها أقدام المتفرجين .

– لقد سقط منى حتما فى هذا المكان . لقد تناولت منديلى من جيبى حين خرجت ، ولم أبتعد سوى قليلا حين اكتشفت ضياعه .

وراحت الحارسة تبحث بدورها معها عن الكيس .

وفى ذلك الآن كان سيريوجكا الذى دلف الى خشبة المسرح عبر السور الذى يفصل الأوركسترا عن القاعة ، وليس عن طريق الباب الصغير ، يجذب بكل قواه العلم الألمانى فى محاولة لانتزاعه من مكانه ، الا انه كان ثمة ما حال دون ذلك . وتمزق العلم على نحو كاد يسقط سيريوجكا معه الى مكان الأوركسترا .

وقد وقف وحيدا على خشبة المسرح فى مواجهة القاعة الخالية ضعيفة الاضاءة ، ذات الابواب المفتوحه على مصاريعها والتى تفضى الى الحديقة العامة ، يلف على مهل العلم الفاشى الكبير طيتين ثم اربع ثم ثمان حتى يتمكن من اخفائه تحت ملابسه .

وتوجه الحارس الذى اغلق كشك العرض من الخارج ، نحو حارسة الباب وفاليا اللتين كانتا تبحثان عن كيس النقود ، تحت الضوء المنبعث من قاعة العرض ، ليقول فى غضب :

– الضوء ! اولا تعرفين جزاء ذلك ! هيا أطفئى الأنوار ، حتى نغلق الأبواب .

واندفعت فاليا نحوه وامسكت بسترته تتوسل اليه قائلة :

– ارجوك . . لحظة واحدة ! لقد فقدت كيس نقودى . ولن استطيع البحث عنه . لحظة واحدة .

وذكر الحارس وقد لانت لهجته ، وراح يجيل بناظريه فيما حوله ودون ارادة :

– اين للمرء ان يجده هنا ؟

وفى تلك اللحظة مرق الى جوارهم شاب يغطى راسه بكاب هبط كثيرا حتى عينيه ، شديد الاكتراش لدرجة شديدة ، نحيف الساقين بحيث لم تكونا تتناسبان مع اكتراشه ، يهرول بعيدا حتى احتوته الظلمة .

واسعف الوقت فاليا حتى تقول :

– آه . . ياللأسف !

بيد أن الضحك راح يغالبها لتدفن وجهها بين راحتيها ، واندفعت بعيدا عن المسرح وهى تكاد تختنق .

الفصل السابع والاربعون

لم يعد ثمة ما يحول دون نشاط اوليج بعد حديثه الصريح مع امه ، حيث اصبح كل افراد البيت وعلى راسهم امه يساهمون فى نشاطه ، يقدمون اليه كافة أنواع الدعم .

ولم يكن هناك من يعرف كيف انصهرت فى بوتقة قلب ذلك الشاب ذى الستة عشر ربيعا خلاصة خبرات الأجيال السابقة والمعارف الكامنة فى صفحات الكتب واقاصيص زوج امه ، وخاصة ما اوحى به اليوم اليه قائده المباشر فيليب بيتروفيتش ليوتيكوف ، كيف انصهرت فى قلبه خبراته الشخصية وخبرات رفاقه ، وما وعاه من الفشل والنجاح اللذين اصابا اولى عملياتهم . بيد أن نفوذ اوليج راح يتزايد بين رفاقه شيئا فشيئا مع تزايد نشاط «الحرس الفتى» ! وقد شعر بنفسه بذلك .

وقد كان اجتماعيا بطبعه ، محبا للحياة ، غير متكلف لدرجة انه كان يكره فكرة السيطرة على رفاقه ، وعدم الاهتمام بهم وبآرائهم وخبراتهم . بيد انه كان يعى مع كل يوم ان نجاح أو فشل نشاطهم يتوقف بالدرجة الأولى على مدى حسن تقديره هو قبل الآخرين ، للمواقف .

كان دائما شعلة من النشاط يتسم بالمرح وبالدقة فى نفس الآن ، وبحسن تقدير الأمور والصرامة ازاء نفسه والآخرين . وقد كانت علامات الصبا تتجلى واضحة فيه حين يتعلق الأمر به وحده ، حيث كان تواقا للصق المنشورات واضرام النار فى الاجران وسرقة الأسلحة وقتل الألمان عند نواصى الشوارع . بيد أنه كان يعى جسامة المهمة الملقاة على عاتقه ، ولذا فقد راح يستكين للواقع .

كانت تربطه أواصر صداقة بفتاة تكبره سنا ، غاية فى البساطة ، جسورة لا تهاب شيئا ، ورومانسية صموتة ، ذات شعر اسمر كث تهدل على كتفيها القويتين المكتنزتين ، وذراعين جميلين لفحتهما الشمس حتى السمرة وعينين واسعتين كستنائيتين يعلوهما حاجبان مستديران بما يعنى التحدى والشوق . لقد كانت نينا ايفانتسوفا تعرف مغزى كل نظرة من نظراته ، وكل حركة أو ايماءة ، لتقوم بتنفيذ اية مهمة توكل اليها فى جسارة ودقة ودون اى تردد .

ولقد كانا يستطيعان التحلى بالصمت ساعات باكملها حين كانا يجلسان متجاورين دون اى شعور بالملل ، فيما ينهمكان تارة فى المنشورات وأخرى فى البطاقات المؤقتة لعضوية الكومسومول ، وثالثة فى وضع خريطة لموقع ما . وكانا اذا ما تحدثا عن شىء ارتقيا بنفسيهما عاليا يتصوران أمام ناظريهما كل ما استطاعت بلوغه النفس البشرية السامية ، وما تستطيع مخيلة الطفل الوصول اليه . كما وكانا يشعران فى بعض الأحيان بالمرح ليغرقا فى الضحك دونما سبب لذلك ، وليروح اوليج يفرك انامله كما الصبية الصغار وحتى تنزلق دموعه ؛ اما هى فكانت متحفظة فى ابداء بهجتها التى كانت تتجلى فى هدوء وغموض وكانما تخفى فى أعماقها شيئا ، وعلى النحو الذى تتسم به الفتيات ، وتشوبه أحيانا وفجأة بعض مظاهر الأنوثة .

وذات مرة طلب اوليج فى ارتباك ان يقرأ عليها بعض الأشعار ، لتساله فى دهشة :

— اية أشعار ؟ . أشعارك ؟

— كلا . . فلتسمعيها . .

وبدأ ينشد وقد زادت تأتأته التى خفت فيما بعد حين تملك روعه فجأة :

فلتنشدى يا صديقتى اغنية الكفاح
ولتتركى الحزن والاسى جانبا
وسرعان ما سوف يجيئونا
نسورنا الحمر الاعزاء . .
سوف يفتحون الابواب ،
ابواب السجون والمعتقلات
سوف تسطع الشمس عالية
تمسح ما علق من دموع بالاهداب
سوف ترفرف رايات الحرية
سوف نعيش عيد العمال
هيا بنا نسعى للانتقام
لارضنا الحبيبة رمز الجمال . .

وتوقف اوليج ليقول فى ارتباك :

— اننى هنا لم انته بعد . . اذ كان يجب اضافة مقطع حول انخراطنا بصفوف الجيش سوية . أو كنت تودين ذلك ؟

— هل كرست هذه الأشعار لى ؟

ثم عادت تساله وقد تالقت عيناها :

— هل كتبتها من أجلى ؟ لقد أدركت على الفور أنها من تاليفك . ولماذا لم تخبرنى قبل ذلك بأنك تنظم الشعر ؟

وأجاب فيما ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة ، حيث كان راضيا لكون أشعاره قد حازت اعجابها : —

— كنت خجلا . اننى انظم الشعر منذ زمن بعيد ، لكننى لا أعرضه على احد . اننى أخجل من فانيا كثيرا ، فهو يجيد نظمه ، بينما انا . . فلا ! — ثم مضى يقول وقد أسعده كثيرا اعترافه لنينا بنظمه الشعر :

— اننى اعلم أن الأوزان غير مضبوطة ، كما أن القافية ليست دائما على أفضل حال .

وهكذا كانت احوال اوليج الذى تفتحت مواهبه فى ريعان شبابه وحين كانت البلاد تعانى اقسى فترات تاريخها .

وفى السادس من نوفمبر ، قبيل عيد ثورة اكتوبر ، اجتمعت كل قيادة «الحرس الفتى» فى مسكن كوشيفوى بحضور مراسلات الاتصال فاليا بورتس ، ونينا واوليا ايفانتسوفا . وكان اوليج قد قرر الاحتفال بهذا اليوم بقبول راديك يوركين عضوا فى الكومسومول .

ولم يكن راديك يوركين قد ظل نفس ذلك الصبى ذا العينين الوديعتين الهادئتين والذى ذكر لجورا اروتيونيانتس آنذاك «لقد تعودت النوم مبكرا» . فقد جرى ضمه الى مجموعة تيولينين القتالية بعد ان شارك فى عملية اعدام فومين ، وساهم فى مهاجمة اللوريات الالمانية ليلا . كان يجلس الى جوار الباب واثقا من نفسه ، ينظر فى هدوء عبر النافذة ، بينما كان اوليج يفتتح الجلسة ، ثم أعقبه تيولينين بالقائه نبذة من سلوكه وخصائله . وكان يشعر فى بعض الأحيان بفضول يجعله يتساءل فيما بين نفسه حول ماهية أولئك الذين يقررون مصيره . وراح ينقل نظراته الهادئة من تحت أهدابه الرمادية الطويلة ، يتمعن فى أعضاء القيادة الذين اتخذوا مقاعدهم حول المائدة الكبيرة التى حفلت بمختلف أنواع الطعام . بيد أن ثمة فتاتين ، احداهما شقراء والأخرى سمراء ، راحتا تبتسمان اليه فى رقة . ولما كانت هاتان الفتاتان على قدر كبير من الجمال فقد شعر راديك فجأة بمشاعر الارتباك والحيرة تجتاحه ليحول ناظريه عنهما .

وتساءل أوليج :

— هل ثمة من يريد توجيه اسئلة الى الرفيق راديك يوركين ؟

ولم يرد أحد .

وذكر فانيا توركينيتش :

— فليقص علينا تاريخ حياته !

وطلب منه اوليج ان يقص تاريخ حياته .

وينهض راديك يوركين ليقول بصوته الرنان ، فيما كانت نظراته متعلقة بالنافذة كما كان يفعل أيام المدرسة :

— ولدت فى مدينة كراسنودون فى عام الف وتسعمائة وثمانية وعشرين . والتحقت للدراسة بمدرسة جوركى . . . — ولم يكن ثمة ما يستطيع راديك يوركين اضافته الى تاريخ حياته أكثر من ذلك ، الا أنه شعر بمدى ضآلة تاريخه ، ليستطرد فى غير ثقة قائلا : وحين وصل الألمان . . انقطعت عن الدراسة .

والتزم الجميع الصمت مرة أخرى ليقطعه فانيا زيمنوخوف متسائلا :

— او لم تقم باى نشاط اجتماعى ؟

وتنهد راديك يوركين فى عمق قائلا :

— كلا . . .

وتساءل فانيا مرة أخرى وقد ركز ناظريه على المائدة :

— هل تعرف واجبات عضو الكومسومول ؟

وذكر راديك يوركين بوضوح :

— ان مهمة عضو الكومسومول تتلخص فى التصدى للألمان الفاشيست المحتلين وحتى القضاء على آخر رجل منهم .

وذكر توركينيتش :

— انني أرى أن الصبى على وعى سياسى جيد .

وهتفت ليوبكا التى كانت تود أن ينتهى كل شىء لراديك يوركين على ما يرام ، تقول :

— يجب قبوله بالطبع !

وراح بقية أعضاء القيادة يكررون :

— نعم يجب قبوله . . يجب قبوله .

وسأل أوليج وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة ، ورفع يده :

— من يؤيد قبول الرفيق راديك يوركين عضوا بالكومسومول ؟

ورفع الجميع أياديهم .

وذكر أوليج :

— بالاجماع !

ثم نهض مضيفا :

— تعال هنا !

واعترى الشحوب وجه راديك بعض الشىء وتقدم نحو المائدة ليفسح له توركينيتش وأوليانا جروموفا مكانا فيما بينهما وهما يتأملانه فى جدية .

وذكر أوليج :

— راديك ! بتفويض من القيادة أسلمك بطاقة مؤقتة لعضوية الكومسومول . فلتحافظ عليها ، محافظتك على شرفك . وسوف

تقوم بدفع اشتراكات العضوية فى خليتك الخماسية . وحين يعود الجيش الأحمر ، سوف تقوم لجنة الكومسومول بالمنطقة باستبدال بطاقتك المؤقتة بأخرى دائمة .

ومد راديك يده النحيفة التى لفحتها الشمس ليتناول البطاقة . وكانت البطاقة من حجم البطاقات العادية ، صنعت من ورق مقوى يستعمل فى رسم التصميمات والخرائط وطويت الى قسمين مطبوعة على غلافها بأحرف صغيرة جملة : «الموت للمحتلين الألمان» ، وأسفلها قليلا : «اتحاد الشباب الشيوعى اللينينى لعموم الاتحاد السوفييتى» ، ثم أسفل وبحروف أكبر قليلا : «بطاقة مؤقتة لعضوية الكومسومول» ، وفى داخل البطاقة كتب الى اليسار لقب راديك واسمه واسم أبيه وتاريخ ميلاده ، ثم تاريخ انضمامه الى الكومسومول : «٦ نوفمبر ١٩٤٢» ، وتحته عبارة «صرفت من منظمة «الحرس الفتى» للكومسومول بمدينة كراسنودون . السكرتير : كاشوك» . اما الجهة اليمنى فقد قسمت الى اعمدة لتسجيل سداد اشتراكات العضوية .

وذكر راديك بصوت يسمع بالكاد فيما يخفى بطاقته فى جيب سترته الداخلى :

— اننى سوف أحملها دائما داخل جيب سترتى الذى سوف أحيكه حولها .

وذكر أوليج :

— يمكنك الانصراف .

وقام الجميع بتهنئة راديك يوركين وشد كل منهم على يده .

وخرج راديك الى شارع سادوفايا ، ولم تكن ثمة امطار تتساقط بعد ، الا ان الرياح كانت شديدة والجو باردا . كما وكان المساء قد كان يسدل ستائره . وكان من الواجب على راديك فى تلك الليلة تزعم مجموعة من ثلاثة أشخاص للقيام بمهمة كبيرة بمناسبة العيد . وراح يذرع الشارع قاصدا بيته ، يشعر صدره بملمس بطاقته ، تعلو السعادة والفرح قسمات وجهه . وعند المنحدر المتجه الى المزلقان الثانى ، قريبا من مبنى اللجنة التنفيذية للمنطقة حيث تمركزت اليوم الادارة الزراعية ، رفع راسه قليلا ثم

باعد بين شفتيه ليصدر صفيرا حادا ، لا يستهدف به شيئا سوى ان يعلم الالمان بوجوده فى هذا العالم .

وفى تلك الليلة لم يكن راديك يوركين وحده مكلفا باداء مهمة الاحتفال بالعيد ، بل كان كافة افراد المنظمة تقريبا مشغولين بنفس الشىء .

وذكر اوليج :

— ارجو الا تنسوا . . يجب ان يحضر الى كل منكم فور الانتهاء من آداء مهمته ، عدا شباب بيرفومايسك .

وقد كان شباب بيرفومايسك يحتفلون بعيد ثورة اكتوبر فى مسكن الشقيقتين ايفانيخينا .

ولبث مكانه بالغرفة اوليج وتوركينيتش وفانيا زيمنوخوف ومراسلتا الاتصال نينا واوليا . واعترى الاضطراب وجه اوليج فجاة ، ليقول وقد اشتدت تاتاته :

— ايتها الفتيات . . يا عزيزاتى . . لقد حان الوقت !

وتقدم نحو باب غرفة نيكولاى نيكولايفيتش يطرقه مناديا :

— لقد حان الوقت يا خالة مارينا !

وخرجت مارينا فى معطفها وهى تعقد منديلها حول راسها اثناء السير فى اثر الخال كوليا . كما وخرجت الجدة فيرا ويلينا نيكولايفنا من حجرتهما .

واذ ارتدت مارينا واوليا ونينا ما يقيهن شر البرد غادرن البيت لأداء مهمة الحراسة بالشوارع المجاورة .

ويالها من جسارة مشوبة بالخطورة . . القيام بتلك المهمة فى مثل تلك الساعة من المساء حين كان الناس لم يخلدوا بعد الى النوم ، ولا يزال بعضهم يذرع الشوارع . بيد أنه لم يكن من الممكن تفويت مثل هذه المناسبة !

كان المساء قد أسدل كل ستائره ، لتسدل الجدة فيرا بدورها ستائر تعتيم النوافذ واشعلت المصباح . وخرج اوليج الى الفناء فى اثر مارينا التى كانت قد ابتعدت عن المنزل .

— لا أحد . .

وانحنى الخال كوليا ينظر الى الشارع عبر الضلفة العليا للنافذة ، ليجيل النظر فيما حوله ثم ناول اوليج نهاية السلك .

وقام اوليج بتثبيته الى عصا علقها بالسلك الى جوار العمود بحيث لا يمكن تمييزها منفصلة عنه فى عتمة الليل .

كان اوليج وتوركينيتش وفانيا زيمنوخوف يجلسون فى غرفة الخال كوليا حول المكتب كل يمسك فى يده بقلم رصاص ، فيمـا جلست على الفراش الجدة فيرا مفرودة القامة واضحة القسمات ، ويلينا نيكولايفنا التى مالت بجسدها الى الأمام ، تعلو وجهها أمارات السذاجة المشوبة بالرهبة ، وقد تعلقت أنظارهما بالمذياع .

ولم يكن هناك سوى الخال كوليا قادرا على ضبط المذياع على الموجة المناسبة بدقة وهدوء وسرعة . وقد فعـل ذلك فى نفس اللحظة التى تعالت فيها عاصفة من التصفيق . ولم تساعدهم الضجة والتشويش على سماع بوضوح الصوت الذى كان يعلن :

— ايها الرفاق ! اننا نحتفل اليوم بالذكرى الخامسة والعشرين للثورة السوفييتية فى بلادنا . لقد مرت خمس وعشرون سنة منذ ارساء النظام السوفييتى فى وطننا ، ونقف اليوم على أعتاب السنة السادسة والعشرين من قيام نظامنا السوفييتى . .

وكان توركينيتش بوجهه الرصين الجاد وفانيـا الذى انحنى بنظارته قريبا من الكراسة ، يسجلان فى سرعة ما يسمعانه . ولم يكن ذلك يشكل صعوبة لهما ، حيث ان ستالين كان يتحدث على مهل . كان يصمت بعض الوقت ليتعالى صوت الماء الذى كان يفرغه فى كوبه الذى يعيده مرة أخرى الى مكانه . وقد شحذ الجميـع اسماعهم فى بادئ الأمر حتى لا تفوتهم اية كلمة تقال . ثم اعتادوا على رتابة الخطاب ، ليدرك وعى كل منهم مدى غرابة بل واستحالة ما يفعلونه .

ولن يدرك ابدا المشاعر التى كانت تجتاح أعماقهم حين كانوا يستمعون الى الخطاب المذاع من موسكو نفسهـا كل من لم يقض ليلته على ضوء مصباح زيت صغير فى غرفة باردة او ملجأ ، وحين تعصف رياح الخريف الباردة بكل ما فى الأفنية ، ويوم يعيش الانسان مذلا ومهانا وفقيرا ؛ ومن لم يحاول ضبط المذياع المخبأ على موجة وطنه الحر بأصابع جمدها البرد القارس .

— . . ان هتلر ، آكل لحوم البشر يقول : «اننا سوف نقضى

على روسيا نهائيا حتى لا تقوم لها قائمة بعد اليوم» . اعتقد ان ذلك امر واضح ، وان كان يتسم بالغباء .

وتعالى الى أسماعهم صوت ضحك الحاضرين فى القاعة التى كان يخطب فيها ستالين ، ليجعل الابتسامات ترتسم على شفاههم لحظة من الزمن ، حتى ان الجدة فيرا وضعت يدها على شفتيها .

— أما نحن فلا نستهدف مثل تلك المهمة ، للقضاء على المانيا ، لان ذلك أمر مستحيل ، بنفس درجة استحالة القضاء على روسيا . اما القضاء على الدولة الهتلرية فامر ممكن ، وواجب . وهذه هـى مهمتنا الأولى ، والتى تكمن فى القضاء على الدولة الهتلريـة وعلى زعمائها .

وانطلقت عاصفة من التصفيق ، كانت تدفعهم الى الافصاح عما يجول فى أعماقهم ، الا أنهم لم يفعلوا ذلك ، وراح كل منهم يتأمل الآخرين بناظريه .

فقد كان يجتاح أعماقهم كل ما اعتلج عن غير وعى فى قلوبهم من مشاعر وطنية بدءا من الصبى ذى الستة عشر ربيعا وحتى المرأة المسنة ، ليتجلى واضحا فى حقيقة الوقائع والارقام الناصعة .

لقد كانوا هم البسطاء الذين وقع على كاهلهم ما لا يطاق من آلام وعذاب ، يقولون للعالم أجمع :

— ان السفاحين الهتلريين . . يغتصبون ويقتلون المدنيين فى الأراضى المحتلة من بلادنا ، الرجال والنساء ، الأطفال والشيوخ ، اخواننا واخواتنا . . . وليس هناك سوى الحقراء والانذال هم الذين يسمحون لأنفسهم بالقيام بمثل هذه الأعمال الوحشية ضد الابرياء والعزل من السلاح . . . اننا نعلم المسؤولين عن هذا ، نعرف بناة «النظام الجديد فى اوروبـا» ، كل هؤلاء الجـدد من الجنرالات المحافظين ، والحكام العسكريين ومعاونيهم ، والذين يعرف عشرات الآلاف من الضحايا أسماءهم . وليعلم هؤلاء الجلادون أنهم لن يفلتوا من تبعات جرائمهم ، ولن ينجون من انتقام الشعوب المعذبة . . .

لقد كان صوت الأمل والانتقام هو الذى يعلن ذلك . واندفعت انفاس العالم الكبير المحيط بمدينتهم الصغيرة ، التى وطأتها اقدام جنود الأعداء ، واهتزاز الأرض الحبيبة ونبضات ليل موسكو ، تملأ

كل أرجاء الغرفة ، تغمر قلوبهم بسعادة ادراك كونهم ينتمون الى ذلك العالم .

وكانت ضجة التصفيق تطغى على كل كلمة «يعيش !» .

– المجد للفدائيين رجالا ونساءا !

وهتف اوليج يقول وقد تالقت عيناه بمشاعر السعادة :

– هل سمعتم ؟

واغلق الخال كوليا جهاز الراديو ، ليخيم على الحاضرين فجاة الصمت المطبق . فقد اختفى ما كان موجودا منذ لحظات . وها هى ضلفة النافذة تعلن عن نفسها تحت تاثير رياح الخريف ، فيما كانوا يجلسون وحدهم فى تلك الغرفة ضعيفة الاضاءة تفصلهم مئات الكيلومترات من الاحزان ، عن ذلك العالم الذى كان يضج معلنا عن نفسه منذ بعض الوقت .

الفصل الثامن والاربعون

كانت الليلة حالكة السواد لدرجة يتعذر معها على من يلتقى بآخر وجها لوجه ، تمييز شخصيته . وكانت الرياح الباردة الممتزجة بالرطوبة تمرق بالشوارع ، تزأر عند النواحى ، تعصف بأسقف المنازل ، وتئز بالمداخن وتصفر حين تصطدم بالأسلاك والأعمدة . وقد كان على المرء معرفة المدينة بشكل جيد حتى يستطيع الوصول فى دقة متناهية الى كشك الحراسة عبر الأوحال التى يصعب خوضها ، والظلمة التى خيمت على المدينة . كان الشرطى المناوب يقوم بعمله عادة فى المكان الواقع بين طريق فورشيلوفجراد ونادى جوركى . الا انه وعلى ما يبدو فضل الاحتماء بسقف ما ، تفاديا لتلك الأوحال والبرودة .

وكان كشك الحراسة مشيدا من الأحجار ، أشبه ببرج قلعة ، يوجد فى الطابق الأرضى منه مكتب وممر للدخول الى منطقة المنجم ، متصل بسور حجرى عال الى يمينه ويساره .

ولقد كانا قد خلقا على نحو بديا معه وكانما خصيصا للقيام سوية بتلك العملية . . سيرجى ليفاشوف متين البنية عريض

المنكبين ، وليوبكا نشيطة الحركة ذات الساقين القويتين . ومد سيرجى ركبته وفرد ذراعيه يهيئهما لمساندة ليوبكا التى مدت يديها الصغيرتين لتصطدم بهما دون ان تراهما ، لتضحك فى هدوء . ثم وضعت قدمها على ركبته لتعتلى فى نفس اللحظة كتفيه وتمد يديها الى السور الحجرى . وامسك فى قوة بساقيها أعلى حذائها حتى لا تسقط ، فيما راحت الرياح تتلاعب بثوبها فوق راسه ليخفق كالعلم . وارتمت على بطنها فوق السور ممسكة بجانبه الآخر بيديها اللتين اتكئت بصدرها عليهما . ولم تكن يداها قويتين للدرجة التى تمكنها من مدهما لمعاونة سيرجى ، الا انها استطاعت الثبات على ذلك النحو وحتى قفز سيرجى متعلقا بخصرها ومستندا بقدميه الى الجدار ، ليمد يديه اللتين نقل احداهما ثم الأخرى فى قوة ليتعلق بالجدار . ولم يبق على ليوبكا سوى أن تفسح له مكانا الى جوارها . .وقد كان ذلك .

كان اعلى الحائط السميك مدببا بعض الشىء ومبللا ، مما كان يسهل معه الانزلاق عليه . بيد ان سيرجى لبث مكانه فى ثبات وقد استند بجبهته الى جدار البرج باسطا يديه عليه . وفى هذه المرة اعتلت ليوبكا دونما مساعدة ظهره ثم كتفيه مما كان يؤكد مرة أخرى قوته الجسمانية الفائقة . وبلغ صدرها حافة الجدار لترتقى البرج فى سهولة . وراحت الرياح تتلاعب بثوبها وسترتها بقوة لتبدو وكانما على وشك الاطاحة بها بعيدا . غير أن الاصعب كان قد ولى وانقضى .

وتناولت من صدرها لفة ، ثم تحسست الدوبارة المثبتة الى حاشيتها لتربطها الى صارية البرج دون أن تترك تلك اللفة عرضة للرياح . وما كادت ترفع يدها حتى أطاحت الرياح بها بكل قوة ليخفق قلبها اضطرابا . وتناولت لفة أخرى أصغر قليلا ثبتتها الى أسفل نفس الصارية فيما تحت الحافة الداخلية للسور . ثم هبطت الى الجدار على نفس النحو مستندة الى ظهر سيرجى ، الا انها لم تجرؤ على القفز فى الأوحال ، لتجلس وقد تدلت ساقاها . اما سيرجى فقد قفز الى الأرض وراح يناديها بصوت خافت ، ترامى الى اسماعها ، دون أن تراه . وفجأة تعالى وجيب قلبها لتمد يديها الى الأمام ، وتزر عينيها وتقفز الى الأرض ، لتسقط بين ذراعيه

وتحيط برقبته ، ليمسك بها على هذا النحو بضع لحظات . بيد أنها تخلصت من احضانه وقفزت الى الأرض ، لتهمس اليه فيما تلهب وجهه بانفاسها الدافئة :

– سيريوجكا . . فلتحضر الجيتار . . هيه ؟

واجابها فى سعادة :

– حسنا . كما وسوف اغير ملابسى التى اتسخت . وضحكت فى مرح :

– كلا . . انهم سيستقبلوننا بملابسنا هذه !

اما فاليا وسيريوجكا تيولينين فقد كان عليهما العمل فى وسط المدينة ، وهو اخطر الأماكن . فقد كان الحراس الألمان يقومون بمهام عملهم الى جوار مبنى اللجنة التنفيذية للمنطقة ومبنى مكتب العمل ، كما وكان ثمة شرطى يقوم بمناوبته بجوار مبنى الادارة ، علاوة على مركز الشرطة الكائن على مسافة قريبة . بيد أن الظلمة الحالكة والرياح الشديدة يسرت الظروف الملائمة لهما .

ووقع اختيار سيريوجكا على منزل «النبيل المسعور» ، وريثما كانت فاليا تقوم بالحراسة عند الجهة الأخرى من المنزل والمواجهة لمبنى اللجنة التنفيذية للمنطقة ، كان سيريوجكا قد ارتقى الدرج القديم الذى يفضى الى الجمالون والذى يعود بلا ريب الى عهد «النبيل المسعور» ، ليفرغ من مهمته فى خمس عشرة دقيقة .

وكانت البرودة قد المت باطراف فاليا ، لتشعر بالسعادة حين فرغ سيريوجكا من مهمته بهذه السرعة . بيد أن سيريوجكا مال قريبا الى وجهها ليقول ضاحكا :

– معى علم آخر . . فلنرفعه على مبنى الادارة !

– وما عسانا أن نفعل مع الشرطى ؟

– هل نسيت سلم المطافئ ؟

وكان سلم المطافئ موجودا فى حقيقة الأمر فى الجهة المقابلة للمدخل الرئيسى ، ولذا فقد أجابته :

– هيا بنا !

وتوجها فى حلكة الظلام الدامس نحو خط السكك الحديدية ، يذرعان فلنكاته فترة طويلة من الزمن ، لدرجة بدا لفاليا معها أنهما سرعان ما سوف يصلان الى فيرخنيدوفانايا . الا أن الأمر لم

يكن كذلك حيث كان سيريوجكا يجيد النظر فى الظلام كالقطة ، ليقول :

– هنا . . فلتتبعينى ، الى اليسار من هنا . وسرعان ما سوف نصل الى مدرسة الشرطة .حذار المنحدر !

كانت الرياح تعصف بأشجار الحديقة العامة ، تهز اغصانها العارية ، تسقط ما علق بها من قطرات الأمطار الباردة على فاليا وسيريوجكا ، الذى اقتادها فى سرعة وثقة عبر الممر تلو الآخر ، لتخمن فاليا أنهما قد أصبحا قريبين من المدرسة حيث ثمة جلبة تعالت من سقفها .

وها هو السلم الحديدى يكف عن الاهتزاز تحت وقع اقدام سيريوجكا الذى غاب فترة طويلة ، لتظل فاليا واقفة وحدها أسفله .

وكم كانت مريعة رهيبة تلك الليلة ، التى تعالى فيها صوت اصطدام اغصان الأشجار ببعضها البعض ! وكم كان مدى الضعف والضياع اللذين تعيشهما أمها وشقيقتها الصغرى ليوسيا فى ذلك العالم المظلم الرهيب ! وماذا عن أبيها ؟ كيف حاله ان كان ضعيف البصر قد ظل مشردا حتى اليوم دون مأوى ؟ وتصورت فاليا أمام مخيلتها ذلك الفضاء الشاسع لبرارى الدونيتس والمناجم التى جرى تفجيرها والمدن الصغيرة والقرى التى اغرقتها الأمطار وغابت عنها الأضواء ، وغصت برجال الشرطة . وفجأة خيل اليها أن سيريوجكا لن يعود أبدا من ذلك السقف الذى تعالى ضجيجه ، لتخونها شجاعتها . بيد أنها شعرت فى تلك اللحظة باهتزاز السلم ليتسم وجهها بامارات الاستقلالية والبرودة .

وابتسم فى الظلمة يسألها :

– أو ما تزالين واقفة ؟

وشعرت بيده تمتد اليها ، لتمد اليه يدها كذلك . كانت يده باردة كما الجليد . فكم عانى ذلك النحيف فى حذائه العامر بالثقوب والذى خاض به ساعات بأكملها فى الأوحال ، والذى ربما يكون ممتلئا بالمياه ، وفى سترته القديمة المرتقة المفتوحة على صدره ! وامسكت وجنتيه بكلتا يديها لتجدهما باردتين كالجليد أيضا .

وقالت دون أن ترفع يديها عن وجنتيه :

– لقد تجمدت من البرود !

وسكن هنيهة ، ليقفا هكذا بعض الوقت لا يقطع سكونهما سوى صوت الأغصان العارية المتمايلة ، وحتى همس يقول :

– لن نقوم بدورات اخرى . . فلنبتعد قليلا . . ولنمر عبر السور .

ورفعت يديها ، لينطلقا سويا نحو بيت أوليج من تلك الناحية التى كان يقطن بها جيرانه . وفجأة أمسك سيريوجكا بيد فاليا ليلتصقا بالجدر . ودنت فاليا التى لم تدرك شيئا ، بأذنها قريبا من شفتيه ، ليهمس اليها قائلا :

– كان ثمة شخصان يسيران فى اتجاهنا .

– خيل اليك !

– كلا . . انهما يقفان . . .

– هيا بنا الى الفناء !

بيد أنهما ما كادا يلتفان حول المنزل من جهة الجيران ، حتى أوقف سيريوجكا فاليا مرة اخرى . . فقد خطا المجهولان فى نفس الاتجاه المقابل لهما .

– قد تكون واهما !

– كلا . . انهما واقفان هناك .

وانفرج باب بيت آل كوشيفوى ، ليخرج من اصطدم بهذين المجهولين اللذين وجل منهما سيريوجكا وفاليا .

وتعالى صوت يلينا نيكولايفنا :

– ليوبكا ؟ لماذا لا تدخلين ؟

– هس . . !

وذكر سيريوجكا فيما يجذب فاليا من يدها متقدما :

– انهما من شبابنا !

وتعالت فى ظلمة الليل ضحكات ليوبكا الهادئـــة . وراحت وسيرجى ليفاشوف الذى حمل جيتاره ، وسيريوجكا وفاليا يمسك كل منهم بيد الآخر ضاحكا ، يندفعون نحو مطبخ آل كوشيفوى . كانوا مبللين بالمياه ، ملطخين بالأوحال مفعمين بالسعادة ، لدرجة ان الجدة فيرا رفعت يديها النحيفتين فى كميها الملونين لتصيح قائلة :

– انقذونا يا أفضل الناس !

لم يشهدوا فى حياتهم قط مثل تلك السهرة التى يقضونهـــا تحت ضوء مصباح زيت صغير فى غرفة باردة بمدينة رازحة تحت سطوة الألمان لما يزيد عن ثلاثة اشهر .

وكم كان غريبا ان يستطيع اثنا عشر من الشباب الجلوس متجاورين على كنبة واحدة ! وراح كل منهم فى مكانه الملاصـــق لزميله يقدم تقريره ، لتعبر الوجوه فى عفوية ، عن كل ما عانته اليوم سواء الى جوار الراديو او أثناء الترحال عبر الأوحال . لقد كانت الوجوه تنم فى آن واحد عن مشاعر الحب الذى يربط بين بعضهم البعض لتمتد كما التيار الكهربائى الى الآخرين ، والسعادة الفياضة ازاء الاحساس بالوحدة حول فكرة بشرية واحدة ، ولا سيما تلك الفكرة التى تعبر اليوم عن اهم ما فى حياتهم جميعـــا . كانت وجوههم تعكس مشاعر الصداقة وسنوات الصبا المشرق وكل ما يؤكد ان حياتهم سوف تكون على افضل حال . ووصـــل الأمر بيلينا نيكولايفنا كذلك ان راحت تشعر بنفسها شابة سعيدة فى صحبتهم . ولم تكن هناك سوى الجدة فيرا التى اتكات بوجهها النحيف على راحتها الحمراء يعتريها الخوف والاحساس بالشفقـــة تجاه الآخرين ، وقد جمدت نظراتها اليهم بما يعكس فارق السن .

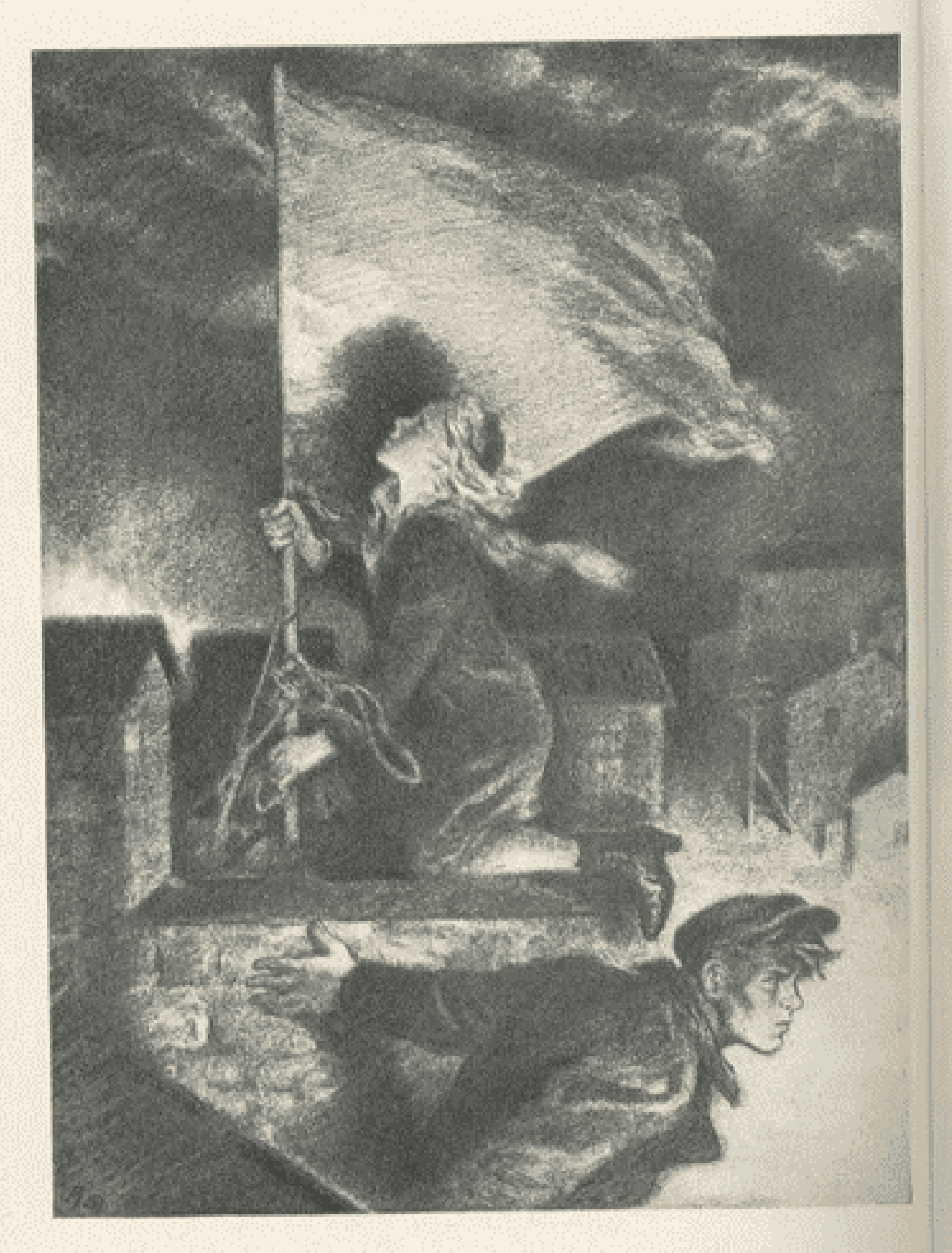
وقام الشباب بتلاوة تقرير ستالين حول عيد الثـــورة ، لينصرفوا الى افكارهم ، فيما اعترى وجه الجدة ما ينم عن دهاء ، لتقول بالأوكرانية :

– اننى أنظر اليكم ايها الشباب وايتها الفتيات فيما افكر . . كيف يمكن ذلك ؟ فى مثل ذلك العيد الكبير . . . هل توضـــع الخمر لتزيين المائدة ؟ او ليس واجبا احتساؤها !

وصاح اوليج :

– آه يا جدتى . . انك زينتنا ! هيا بنا الى المائدة .

وكان من الواجب الا تعلو الأصوات ، وكان الجميع يشعرون بالسعادة حين يهمسون جوقة واحدة على من يعلو صوتـــه . . . هس ! وقد اتفقوا رغما عن ذلك على القيام بالحراسة الى جوار المنزل بشكل دورى . وكانوا يضحكون حين يأتى دور من أغرق



فى مداعبته لجاره أو لجارته ، أو من يكون قد أطلق العنـــان لسروره .

وكان ستيوبا سافونوف أشقر الشعر يستطيع فى الأحوال العادية التحدث فى كافة الموضوعات ، غير أنه وحين كان يشرب قليلا من الخمر لا يغدو قادرا الا على الحديث حول موضوعـــه المفضل وهكذا راح صاحب الأنف المغطى بالنمش الذى غطته حبات العرق يقص على جارته نينـــا ايفانتسوفا ما يعرفـــه عن طائر الفلامينجو . وهمس الجميع اليه ليخفض من صوته ، ثم طاردوه تدريجيا للقيام بدوره فى الحراسة . وقد عاد فى تلك اللحظة التى اقتربوا فيها من المائدة ، وحين تناول سيرجى ليفاشوف جيتاره .

وكان سيرجى ليفاشوف يداعب أوتار جيتاره بنفس الطريقة الروسية المنتشرة فى أوساط العمال الروس ، حين يبدو العازف ولاسيما وجهه وكأنما لا صلة له بالعالم المحيط ، وحيث لا يكترث بالراقصين الذين يتمايلون على انغامـــه أو بالمستمعين الذين يصغون اليه ، بل ولا ينظر الى جيتاره او الى أى شىء محدد ، بينما تتراقص أصابعه من تلقاء نفسها فوق الأوتار على نحو يجعـــل المستمع مدفوعا عن غير ارادته الى الرقص .

وتناول سيرجى ليفاشوف جيتاره ليعزف لحنا أجنبيا راقصا حديثا انتشر فى سنوات ما قبل الحرب . واندفع ستيوبا سافونوف نحو نينا يراقصها ليدورا سوية بالغرفة .

وكانت ليوبكا – الفنانة أفضل من يؤدى هذه الرقصة بطبيعة الحال . اما فانيا توركينيتش فكان أفضل الرجال فى هذا الامر . . فهو فارع القامة ممشوق القوام ظريف الطبـــاع ، كأى ضابط حقيقى ! وقد راحت ليوبكا تراقصه فى البداية ، ثم تحولت الى أوليج والذى كان يعتبر كذلك ، من أفضل الراقصين بالمدرسة .

أما ستيوبا سافونوف فلم يترك طوال الوقت نينـــا التى استكانت صامتة تراقصه فيما يشرح لها الفرق بين ريش أنثى وذكر الفلامينجو ، وكم من البيض يمكن أن تضعـــه أنثى هذا الطائر .

وفجأة كست الحمرة وجه نينا الذى تغيرت قسماته نحـــو الأسوأ :

– انني يا ستيوبا لست أشعر بالراحة فى مراقصتك ، اذ انك قصير ، تدوس قدمى ، ولا تكف عن الثرثرة .

وتخلصت من ذراعيه لتهرول بعيدا .

واندفع ستيوبا سافونوف نحو فاليا ، الا انها راحت تراقص توركينيتش . وعندئذ توجه للامساك باوليا ايفانتسوفا ، تلك الفتاة الهادئة الرصينة التى كانت اكثر صمتا من شقيقتها ، مما جعل ستيوبا ينهمك فى الحديث اليهـــا كما يحلو له حول طائره الغريب .

ولم يكن قد نسى الاهانة ، وراح يتحين الفرصة المناسبـــة ليبحث بناظريه عن نينا التى كانت تراقص أوليج ، فيمـــا كان الأخير يدور فى ثبات وثقة بجسدها البض القوى ، وبينما كان ثغرها ينفرج عن ابتسامة تلقائية وعيناها تتألقان بالسعادة ، لتبدو باهرة الجمال .

ولم تتحمل الجدة فيرا لتصيح قائلة :

– اى رقصات هذه ! وما عساكم تعجبون بمثل هذه الألحان الأجنبية ؟ فلتعزف لنا يا سيرجى موسيقى «هوباك» الأوكرانية .

وتحول سيرجى ليفاشوف الى «هوباك» الأوكرانية دون ان يحرك ساكنا . وقفز اوليج ليصل الى الجدة فى خطوتين ، ويمسك بخصرها ، لتدور معه فى خفة تطرق الأرض بكعبيهـــا دون ان يعتريها اى اضطراب . وراح ذيل ثوبها داكن اللون يدور ليؤكد مهارة الجدة فى الرقص ، التى تجلت فى حركات قدميها ، وتألقت على نحو اكثر فى حركة ذراعيها وقسمات وجهها .

وليس ثمة ما هو افضل تعبير عن الطابع الشعبى اكثر من الأغانى والرقصات . لقد كان اوليج يرقص فى مهارة فائقة فيما تتجلى امارات الدهاء فى نهايتى حاجبيه اللتين أصابتهما الرجفـــة وليس فى شفتيه أو فى عينيه ، وقد فك أزرار ياقة قميصـــه ، وندت حبات العرق على جبينه تحت شعر رأسه الكبيرة التى جمدت مكانها مثل كتفيه ، ليبدو عريق الأوكرانية مثل جدته .

أما الحسناء مارينا ذات الأسنان البيضاء والعينين السوداوين والتى تزينت بمناسبة العيد بكل ما لديها من حلى ، فلم تتمالك نفسها وراحت تدق بكعبيها ثم اشاحت بيديها ودارت حول اوليج .

بيد أن الخال كوليا لحق بها ، ليمسك أوليج من جديد بجدته ، لينهمك رباعيهم فى الرقص يدقون الأرض باقدامهم .

وفجأة صاحت الجدة وقد اعترت الحمرة وجهها ، لترتمى فوق الكنبة ، فيما تروح عن نفسها بمنديل :

— لقد كادت العجوز تموت !

وضج الجميع ، وعمت الحركة المكان ، فيما علا تصفيق الحاضرين وتوقف الراقصون ، الا ان سيرجي ليفاشوف اللامبالى بكل ما حوله ، واصل عزفة للموسيقى الأوكرانية ، وكأنما لا يعنيه كل ما يجرى فى الغرفة ، ثم وفجأة وضع راحته على الأوتار لينقطع اللحن الذى لم يكتمل .

فقد صاحت ليوبكا تقول :

— لقد تغلبت الأوكرانية . سيريوجا ! هيا نرقص رقصة روسية !

ولم تكد أنامله تداعب الأوتار حتى كانت ليوبكا تؤدى رقصة روسية ، تدق الأرض بقدميها لدرجة كان يستحيل على المرء معها النظر الى أى شىء آخر عدا قدميها . وهكذا راحت تتقدم نحو سيريوجكا تيولينين مرفوعة الهامة مفرودة الكتفين لتدق الأرض بكعبها أمامه ، وتتراجع ثانية الى الوراء لتفسح له المكان .

وتقدم سيريوجكا فى غير اكتراث نحو ليوبكا ، جامد القسمات شأن العمال الروس حين يعزفون وحين يرقصون ، يدق الأرض خفيفا بحذائه الذى أعيد رتقه أكثر من مرة . وهكذا راح يسير حتى بلغ ليوبكا ليدق الأرض بقوة ثم يتراجع الى الوراء . وهنا تقدمت ليوبكا نحوه ممسكة فى يدها بمنديل ، لتدق الأرض ثم تنساب راقصة مرفوعة الهامة على نحو يتسم بالمهارة غير الملحوظة . واندفع سيريوجكا اليها يدق الأرض تارة بيمناه ، ثم بيسراه ، فيما أسدل يديه ودون أن تعكس قسمات وجهه اية من حركاته ، الا أن ذلك كان يعنى اندماجه فى الرقص بشكل تام ، بينما كانت قدماه تعكسان مثابرته التى كانت تتسم باللامبالاة والفكاهة .

واستدارت ليوبكا فجأة نحو سيريوجكا الذى واصل التقدم

نحوها ، فيما يدق الأرض بقوة وحمية بحذائه حتى راح يتطاير منه بعض ما علق به من أوحال .

وكان أكثر ما يميز أداء سيريوجكا احساسه المرهف بالنغم ، وجسارته الكامنة بعيدا فى أعماقه . اما ليوبكا فلم يكن ثمة من يعلم أى شىء ذلك الذى كانت تؤديه بقدميها القويتين البضتين ، فيما علت الحمرة وجهها ، واهتزت خصلات شعرها الأصفر التى بدت وكأنها من الذهب الخالص ، لتعلن وجوه الحاضرين ما يدور فى خلدهم . «هكذا الأمر يا ليوبكا — الفنانة !» . ولم يكن هناك سوى سيرجي ليفاشوف الذى كان مغرما بها ، لا يعيرها ناظريه ، تنم قسمات وجهه عن عدم اكتراثه بكل ما يجرى حوله ، ولا تعلن عن نفسها غير أنامله القوية التى راحت تداعب الأوتار فى سرعة .

واذ أشاح سيريوجكا بيده فى قوة وكأنما يضرب الأرض بقبعته تقدم فى حسم تجاه ليوبكا ، وراح تحت وقع أنغام الموسيقى يضرب ركبتيه وكعبيه براحتيه وحتى دفع بها الى دائرة المتفرجين ، ليتوقفا سويا وهما يدقان الأرض بكعوبهما . وانفجر الجميع فى الضحك وراحوا يصفقون . اما ليوبكا فقد ذكرت فجأة فى نبرة تتسم بالأسى :

— هذه هى رقصتنا الروسية !

وقد كفت ليوبكا بعد ذلك عن الرقص لتجلس الى جوار سيرجي ليفاشوف وقد اتكأت على كتفه بيدها الصغيرة البيضاء .

وفى ذلك اليوم قامت قيادة «الحرس الفتى» وبتصريح من لجنة المنطقة للعمل السرى بتوزيع مساعدات مالية لبعض عائلات المقاتلين بالجبهة ، التى تعانى عوزا شديدا .

ولم تكن موارد «الحرس الفتى» تتكون من اشتراكات العضوية فحسب ، بل ومن بيع السجائر والكبريت والثياب ومختلف المنتوجات ولا سيما السبرتو ، والتى كان الفتيان يغنمونها من لوريات الألمان .

وكان فولوديا اوسموخين قد ذهب نهارا الى عمته ليتفينوفا ليسلمها مظروفا به أوراق مالية سوفيتية ، كان يجرى استعمالها الى جانب الماركات الألمانية ، وان كان بقيمة تقل عن قيمتها الحقيقية .

وقد ذكر فولوديا :

– يا عمة ماروسيا . لقد بعث رجال العمل السرى بهذا المظروف اليك والى كاليريا الكسندروفنا . فلتشترى شيئا للأولاد بمناسبة العيد الكبير .

وكانت كاليريا الكسندروفنا زوجة احد ضباط الجيش الاحمر تقطن بجوار العمة ليتفينوفا ، وكانت كلتاهما اما لكثير من الأطفال ، تعانيان من عوز شديد ، حيث لم يكتف الألمان بمصادرة ما كان لديهما ، بل ونهبوا كذلك جزءا كبيرا من اثاث منزليهما .

وقررت كاليريا الكسندروفنا والعمة ليتفينوفا الاحتفال بالعيد ، بتجهيز عشاء جيد ، فابتاعتا قليلا من الشراب واعدتا فطيرة من دقيق القمح محشوة بالكرنب والبطاطس .

وفى الثامنة مساء تجمع بمسكن كاليريا الكسندروفنا حيث كانت تعيش مع امها واطفالها ، يليزافيتا الكسييفنا – ام فولوديا ، وشقيقته ليودميلا والعمة ماروسيا مع طفلتيها . اما الفتيان فقد اكدوا انهم سوف يحضرون متاخرين بعض الشيء ، استنادا الى ارتباطهم برفاقهم . وشرب الكبار قليلا من الخمر ، ليعلن عن تذمرهن بصدد الاحتفال بالعيد خلسة . وراح الصغار يترنمون بصوت خافت ببعض الأغانى السوفيتية ، لتترقرق الدموع فى مآقى الكبار . وكانت ليوسيا تشعر بالملل الشديد . وبعد قليل خلد الصغار الى مضاجعهم .

وكان الوقت قد تاخر كثيرا حين جاء جورا أروتيونيانتس . واعتراه كثير من الاضطراب حين دخل الغرفة التى يغمرها الضوء فيما كانت ملابسه ملطخة بالأوحال ، ولانه لم يكن هناك غيره بالحجرة من الشباب ، وحيث اضطر الى الجلوس بجوار ليوسيا . وفى محاولة منه لتملك روعه افرغ جوفه نصف كوب من الخمر كانت قد ناولته ليوسيا اياه ، لتدور راسه . وحين وصل فولوديا وتوليا أورلوف كانت امارات الكآبة والتجهم بادية على وجهه ولدرجة أن وصول رفيقيه لم يصلح من شأنه .

وشرب الفتيان كذلك بعض الخمر ، بينما انصرف الكبار

للحديث . وادركت ليوسيا من بعض العبارات التى تبادلها الفتيان فيما بينهم انهم لم يكونوا فى ضيافة آخرين .

فقد همس فولوديا الذى انتقل الى جورا متخطيا توليا الملقب «بالرعد» ، يسأله :

– أين ؟

واجابه جورا فى كآبة :

– المستشفى . وأنت ؟

ومال فولوديا يهمس الى اذن جورا وقد تالقت عيناه بأمارات الجسارة والدهاء :

– مدرستنا . . .

وسأله جورا وقد فارقه تجهمه لحظة من الزمن :

– كيف ؟ احقا تقول ؟

وذكر فولوديا :

– كلا . . انها الحقيقة . كم آسف أنا على مدرستنا ، لكننا سوف نشيد غيرها .

وذكرت ليوسيا تخاطب شقيقها وقد اغضبها كونهما يتبادلان الاسرار دون اطلاعها عليها :

– ما دمت تحدد مواعيدا للآخرين ، فيجب عليك البقاء بالمنزل لاستقبالهم . لقد جاءك اليوم كثيرون من الفتيان وكذلك بعض الفتيات ، يسألون جميعا عنك .

وضحك فولوديا قائلا :

– لاننى كما الأمير فاسكا بوسلاى * الذى يسعى الجميع الى قصره .

ونهض توليا الملقب «بالرعد» فجأة من مكانه ليقول فى تردد :

– اقدم تهنئتى للجميع بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لثورة اكتوبر العظمى .

وكان الخمر قد فك عقدة لسانه ، وكسا وجهه حمرة ، واتسمت

* فاسيل بوسلاى احد أبطال المعارك الروسية نهاية القرن الرابع عشر ، مطلع الخامس عشر ، فقد اتزانه بعد وفاة والده وأغرق فى اللهو والشراب . المترجم .

عيناه بأمارات الدهاء وراح يعاكس فولوديا مشيرا الى فتاة تدعى فيموتشكا .

أما جورا فقد صار يحدق بعينيه السمراوين فى المائدة ليقول دون أن يتوجه بحديثه لأى من الحاضرين بالتحديد :

— ان هذا بطبيعة الحال امر لا يتسم بالعصرية ، الا اننى افهم بيتشورين * . ولا ريب كذلك فى أن هذه الخطوة لا تتناسب وروح العصر . بيد أنهن فى حالات أخرى يستاهلن مثل هذه المعاملة بالذات .

ثم صمت برهة من الوقت ليضيف فى تجهم :

— انهن النساء .

ونهضت ليوسيا من مكانها فى حركة استعراضية وتقدمت نحو توليا الملقب «بالرعد» لتقول له فيما تقبله فى أذنه فى رقة :

— انك مخمور جدا يا توليتشكا !

وهكذا بدأ عقد الجمع ينفرط ، حتى نهضت يليزافيتا الكسييفنا بما عرف عنها من حدة وحنكة لتعلن أنه قد حان وقت الانصراف .

استيقظت العمة ماروسيا كعادتها مع مطلع الفجر لتمارس شؤون المنزل والعناية بأطفالها ،لتدس قدميها فى شبشبها وترتدى ثوبا منزليا ، ثم سارعت باشعال الموقد الذى وضعت عليه براد الشاى . واذ استغرقت فى التفكير هنيهة من الوقت تقدمت نحو النافذة المطلة على الأرض الخلاء . وقد كان مبنى مستشفى الأطفال ومدرسة فوروشيلوف يقعان الى يسارها ، فيما كان يقع الى يمينها فوق التل مبنى اللجنة التنفيذية للمنطقة ومنزل «النبيل المسعور». وفجأة ندّ عنها صوت خفيف . . . فقد وقع نظرها على علم احمر يخفق فوق مبنى مدرسة فوروشيلوف يتصدر السماء التى تمزقت سحبها ، لتتناثر هنا وهناك . كانت الرياح تجذبه تارة بقوة لدرجة يبدو معها فى كامل حجمه وتارة أخرى تتركه ليلتف حول صاريته ، فيما تتطاير أطرافه .

* احدى شخصيات «بطل من هذا الزمان» لميخائيل ليرمونتوف . المترجم .

كما وكان ثمة علم آخر أكبر حجما يخفق فوق مبنى «النبيل المسعور» . وكانت مجموعة كبيرة من الجنود الألمان وبعض الأشخاص فى ملابس مدنية يقفون الى جوار المنزل قريبا من سلم خشبى متنقل ، وقد تعلقت أنظارهم بالعلم . كما وكان يعتلى ذلك السلم جنديان ، احدهما عند نهايته التى ارتكزت الى السقف ، بينما وقف الآخر يدنوه ببضع درجات ، ينظران الى العلم حينا ، ويتبادلان الحديث مع الواقفين أسفل السلم حينا آخر . بيد انه لم يكن ثمة من صعد أكثر من ذلك لانتزاع العلم من مكانه ، وحيث كان يخفق فى تلك النقطة العالية فى جلال لتراه المدينة بأسرها .

وسارعت العمة ماروسيا دونما وعى ، بالقاء شبشبها جانبا وانتعال حذائها تهرول دون أن تمشط شعرها ، أو تغطيه بمنديل ، نحو جارتها .

وجثت كاليريا الكسندروفنا فى قميص نومها ، متورمة القدمين ، على ركبتيها متكئة الى قاعدة النافذة ، وقد امسكت ضلفتيها بيديها ترنو الى العلم وأمارات البهجة ترتسم على وجهها فيما انهمرت الدموع غزيرة من مآقيها على وجنتيها السمراوين . وقالت :

— ماروسيا ! ماروسيا ! لقد فعلوا ذلك من اجلنا نحن المواطنين السوفييت . انهم يذكروننا . ان أهلنا لم ينسونا . اننى . . اننى اهنئك !

واندفعت كل منهما نحو الأخرى تتبادلان الأحضان .

الفصل التاسع والاربعون

لم تكن الاعلام الحمراء تخفق فوق منزل «النبيل المسعور» ومدرسة فوروشيلوف وحسب ، بل وكانت ترفرف عالية ايضا فوق مبنى الادارة ، ومقر الجمعية الاستهلاكية للمنطقة فيما سبق ، والمناجم الثانى عشر والسابع والثامن والتاسع والعاشر والثانى والاول ، ومناجم حى بيرفومايكا ومستعمرة كراسنودون .

وهرع الناس من كافة أرجاء المدينة ينظرون الى الأعلام . وتجمعت الجماهير حول تلك المباني واكشاك الدخول . واحتار رجال الشرطة فى أمرهم لا يعرفون ما عسى يمكنهم عمله ، وراحوا يحاولون تفريق تلك الحشود ، ودون ان يجرؤ اى منهم على انتزاع الأعلام ، حيث كانت هناك لافتة صغيرة مثبتة الى اسفل كل علم مكتوب عليها بحروف سوداء «هنا يوجد لغم» .

وصعد ضابط الصف فينبونج الى سطح مبنى مدرسة فوروشيلوف ، ليكتشف سلكا يصل ما بين العلم ونافذة الجمالون ، حيث كان يوجد لغم بالفعل ، لا يخفيه شيء .

ولم يكن ثمة فى مركز الشرطة او فى فرقة اس اس من يستطيع ابطال مفعول الالغام . وبعث بريوكنر سيارته الى مركز الشرطة بالدائرة فى روفينكي لاحضار عدد من الاخصائيين فى ازالة الالغام . بيد أنه لم يكن هناك في روفينكي أمثال هؤلاء الاخصائيين ، لتنطلق العربة الى فوروشيلوفجراد .

وفى الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم وصل اخصائيو ازالة الالغام ليرفعوا اللغم الموجود فوق مبنى المدرسة ، الا انهم لم يجدوا الغاما فى كافة المواقع الأخرى .

انتشر خبر رفع الأعلام الحمراء فى كراسنودون احتفالا بعيد ثورة اكتوبر العظمى ، فى كافة ارجاء مدن وقرى حوض الدونيتس ، ولم يكن هناك من استطاع اخفاء ذلك العار الذى لحق بالشرطة الالمانية عن الميجور جنرال كلير الحاكم العسكرى للمقاطعة فى يوزوفكا . وتلقى بريوكنر امرا يقضى بضرورة كشف منظمة العمل السرى والقبض على اعضائها مهما كان الثمن ، والا فسوف يجرى تجريده من رتبته ليعود الى الجيش جنديا عاديا .

ولما كان الضابط بريوكنر لا يملك اى تصور حول المنظمة التى كلف بالقبض على أعضائها ، فقد تصرف كما رجال الشرطة والجستابو ، اذ لجأ الى طريقة القبض على كل «من هب ودب» كما وصفها سيرجي ليفاشوف آنذاك . فقد اعتقل عشرات الأبرياء فى المدينة والمنطقة . بيد أنه وعلى الرغم من الامعان فى تنفيذ هذه الطريقة ، فلم يجر اعتقال اى من افراد المنظمة الحزبية للمنطقة والتى جرى رفع الاعلام بناء على تكليف منها ، ولا اى من اعضاء

«الحرس الفتى» . ولم يكن الالمان قادرين باى حال من الاحوال على اعتقاد ان المنظمة التى تولت القيام بهذه العملية تتكون من الشبان والفتيات .

وحقا كان صعبا على المرء تصور مثل هذا الأمر ، اذا ما اخذنا فى اعتبارنا ان عضوا بارزا فى منظمة العمل السرى مثل ستيوبا سافونوف سجل فى مفكرته ليلة الاعتقالات الرهيبة ما يلى :

«جاء سينكا لزيارتي فى حوالى الخامسة ليدعونى الى حى "جولوبياتنيكى" قائلا أنه سوف تكون هناك فتيات جميلات . وذهبت الى هناك برفقته ، حيث جلسنا بعض الوقت . كانت هناك اثنتان او ثلاث لا بأس بهن . اما الباقيات فكن قبيحات ...»

وفى النصف الثانى من شهر نوفمبر عرفت «الحرس الفتى» من انصارها فى النجوع ان الالمان يسوقون من مقاطعة روستوف قطيعا كبيرا من الماشية يبلغ عدده حوالى الف وخمسمائة راس . وكان القطيع قد عبر نهر الدونيتس قريبا من كامينسك ، الى شاطئه الايمن ويتحرك فى المنطقة الواقعة بين النهر والطريق الترابى الكبير كامينسكجوندوروفسكايا تحت حراسة بعض الرعاة الاوكرانيين من الدون وحوالى اثنى عشر او ثلاثة عشر جنديا المانيا مسنا من فرق الامداد والتموين ، مسلحين بالبنادق .

وفى تلك الليلة ، وكما اتضح فيما بعد ، احتلت مجموعات تيولينين وبيتروف وموشكوف مواقعها مسلحة بالرشاشات والبنادق فى وهدة وفيرة الاحراش على شاطئ نهير صغير يصب فى نهر الدونيتس الشمالى الى جوار كوبرى خشبى يصل ما بين جزئى الطريق الترابى عبر النهير . وجاء افراد الاستطلاع بنبأ ان القطيع وحرسه يقضى الليل على مسافة خمسة كيلومترات تقريبا بين الاجران التى بعثرها الرعاة والجنود لاطعام المواشى .

كانت الامطار الباردة تهطل محملة بالثلوج التى كانت تذوب بمجرد هبوطها الى الارض لتشكل الاوحال . وكان الفتيان الذين حملت نعالهم كثيرا من اوحال البرارى التى قطعوها ، يتزاحمون كل الى جوار الآخر سعيا وراء الدفء يمزحون قائلين :

— يا له من طقس ... لقد جئنا للاصطياف !

ولاح الفجر رماديا مربدا ناعسا ، ليظل فترة طويلة فى غير

هيئته المألوفة وكأنما يفكر «هل من الضرورى النهوض فى مثل هذا الطقس السيىء ، او ليس من الأفضل العودة ثانية للاستمتاع بالنوم ؟» بيد ان الشعور بالواجب نحىّ جانبا تلك الافكار الكسولة التى تواردت الى مخيلته ، لينبلج فوق اراضى الدونيتس . وكانت الرؤية فى ظل تلك الامطار والثلوج والضباب واضحة لمسافة ما يقرب من ثلاثمائة قدم .

وتنفيذا لأمر توركينيتش الذى كان يقود المجموعات الثلاث ، انبطح الشباب يمسكون باسلحتهم فى وضع استعداد وقد تجمدت اطرافهم ، على الشاطئ الايمن للنهير من تلك الناحية التى كان من المفروض ان يظهر الالمان منها فى اتجاه الجسر .

وكان اوليج الذى يساهم كذلك فى هذه العملية ، وستاخوفيتش الذى اصطحبوه معهم اختبارا لقدراته فى الاعمال العسكرية ، يرقدان على نفس الشاطئ ، الى جوار منعطف النهير .

وكان ستاخوفيتش ، ومنذ تلك اللحظة التى ابعد فيها عن قيادة «الحرس الفتى» ، قد شارك فى كثير من اعمال المنظمة وتمكن تقريبا من استعادة سمعته الطيبة . وقد كان ذلك امرا سهلا بالنسبة له ، حيث لم يكن قد فقدها ابدا ، فى نظر غالبية اعضاء «الحرس الفتى» .

ان السمة الطيبة للطبيعة البشرية التى تميز فى بعض الاحيان حتى ذوى المبادئ تجعل من الصعب على المرء تغيير طباعه ، حيث يظن انه من غير المستحسن تغيير ما قد غدا طبيعيا مألوفا فى علاقاته الانسانية ، على الرغم من ان الحقائق التى لا تدحض تؤكد ان ذلك المرء يتباين مع النحو الذى كان يبدو عليه . ويقال فى هذا الصدد : «لا بأس . . سوف ينصلح حاله ! فمن منكم بلا خطيئة ؟»

ولم يظل على علاقته بستاخوفيتش وكأن شيئا لم يحدث ، اعضاء «الحرس الفتى» العاديون وحسب ، بل وغالبية القريبين من القيادة كذلك .

رقد اوليج وستاخوفيتش فى صمت فيما بين الشجيرات ، يفترشان الاوراق الذابلة ، يتفحصان الارض المكشوفة المبللة ، نادرة التضاريس ، فى محاولة للوصول بانظارهما الى ابعد نقطة

ممكنة عبر ستار الامطار والثلوج التى تساقطت فى الضباب ، بينما كان خوار مئات الابقار يتعالى فى اتجاههما ، يشكل نشازا موسيقيا غير مألوف وكأنما ينفخ الشيطان فى مزماره .

وذكر اوليج بصوت خافت :

— انها تعلن عن عطشها . وسوف يأتون بها الى النهير كى تروى ظمأها ، وذلك امر يفيدنا .

وهتف ستاخوفيتش يقول فى اضطراب :

— انظر ! انظر !

وظهرت الى يسارهما حيوانات حمراء يغمرها الضباب . . الاول ثم الثانى ، فالثالث . . . عشرة وعشرون . . . كثير من ذوى القرون التى ارتفعت عمودية ثم مالت الى الداخل باطرافها المدببة . وكانت هذه الحيوانات اشبه بالابقار ، الا ان الأبقار ليست ذات قرون وان كانت ذات نتوءات بين الآذان تنمو منها القرون عادة . امّا هذه الحيوانات التى لم تكن تبدو منها سوى رؤوسها عبر ذلك الضباب الكثيف ، فقد كانت قرونها تنبت من رؤوس ملساء . كما وكانت تلك الحيوانات تبدو فى خضم ذلك الضباب كما الاشباح .

ولم تكن هذه الحيوانات بلا ريب مقدمة القطيع ، بل اطراف جناحه الأيسر ، فقد تعالى من ورائها خوار هائل ، وضجة تخبط اجسامها ، ودبيب آلاف حوافرها الذى كان يهز الارض .

وفى تلك اللحظة تعالت الى اسماع اوليج وستاخوفيتش اصوات تتحدث الالمانية تقترب منهما الى يمين الطريق . وقد كانت تلك الاصوات تعكس مدى نشاط وحيوية اصحابها بعد قسط جيد من الراحة . كما وكانت اقدامهم تخوض الاوحال دونما وهن .

وانتقل اوليج وستاخوفيتش فى خطوات سريعة وقد مالا بقامتيهما ، الى موقع بقية رفاقهما .

كان توركينيتش يقف الى جوار نتوء الشاطئ لا يبعد عن الكوبرى باكثر من عشرة امتار يحمل رشاشه الذى تعلق بكتفه اليسرى ، يجول بناظريه بعيدا وقد ظهر رأسه بالكاد بين الشجيرات والاعشاب الجافة المبللة . وعند قدميه كان يجلس جينيا موشكوف ذلك الشاب الاشقر الساخط والذى لف شالا من

الصوف حول عنقه ، يحمل رشاشا تدلى من كتفه اليسرى ، فيما تعلق ناظراه بالكوبرى . اما بقية الشباب فكانوا يرقدون بمحاذاة الشاطئ الواحد تلو الآخر ، فى صف اوله سيريوجكا ، ونهايته فيكتور اللذان كانا مسلحين كذلك برشاشين .

وانبطح اوليج وستاخوفيتش ارضا بين موشكوف وتيولينين .

وبدا صوت الجنود الالمان المسنين وكانما يطرق آذانهم عن قرب ، فى نبرة هادئة لا تنم عن قلق . وجثا توركينيتش على احدى ركبتيه وامسك برشاشه فى وضع الاستعداد ، وانبطح موشكوف وسوى سترته القطنية المبللة ، ليضع رشاشه كذلك فى وضع الاستعداد .

وراح اوليج ينظر فى سذاجة طفولية الى الكوبرى ، حيث تعالى فجاة دبيب الاقدام ، لتظهر مجموعة من الجنود الالمان الذين تلطخت معاطفهم بالاوحال وقد تدلت بنادق البعض فى غير اكتراث من الاحزمة بينما استقرت على ظهور البعض الآخر .

وكان عريف طويل القامة كث الشارب أصفره ، يسير ضمن من تقدم من الجنود يقص امرا ما فيما يستدير احيانا ، موجها حديثه الى من تخلف عنه . وقد كان يلتفت براسه فى ذلك الاتجاه الذى تمدد فيه الشبان على الشاطئ ، كما وهامت انظار الجنود فى فضول الانسان الذى يعبر احدى المناطق للمرة الاولى ، تتفحص فى غير وعى ما على يمين ويسار الكوبرى . ولما كانوا لا يتوقعون وجود الفدائيين فى مثل هذا المكان فلم تقع انظارهم عليهم .

وفى تلك اللحظة انطلقت فى صوت يصم الآذان نيران رشاش توركينيتش ثم موشكوف ، لتتبعهما طلقات البنادق فى غير انتظام .

وقد حدث كل ذلك مباغتة وعلى غير ذلك النحو الذى تصوره اوليج ، لدرجة انه راح ينظر للوهلة الاولى فى دهشة الاطفال الى ما يجرى وحتى شعر بدفقة داخلية تؤكد ضرورة مشاركته اطلاق النيران ، الا ان كل شيء كان قد انتهى . فلم يكن هناك جندى واحد على الكوبرى ، حيث سقطت غالبيتهم ، فيما استطاع الهرب اثنان لم يكونا قد اعتليا الكوبرى بعد . الا ان سيريوجكا وموشكوف الذى هرول فى اثره وستاخوفيتش بعدهما ، راحوا

يهرولون على الشاطئ ليردوهما قتيلين .

وتسلق توركينتش وبعض الفتيان الكوبرى ، حيث وجدوا احدهم لم يلفظ بعد انفاسه الاخيرة ، ليجهزوا عليه . وصاروا بعد ذلك يجرونهم من اقدامهم ليخفون جثثهم فيما بين الشجيرات ، فيما صادروا اسلحتهم . اما القطيع الذى كان يمتد لبضعة كيلومترات فقد توقف يروى ظمأه ، حيث كان بعضه يشرب من مكانه على الشاطئ ، فيما يفعل البعض الآخر ذلك وقد دلف باقدامه الامامية واحيانا بالخلفية كذلك الى داخل النهير ، فيما يتعالى صوت نفخ خياشيمها الذى بدا كصوت بضع مضخات لسحب المياه .

وقد كان ذلك القطيع الضخم يجمع ما بين ثيران العمل العادية الحمراء والرقطاء ، وذات القرون السميكة ، عريضة الصدور وكانما نحتت من معدن ، والابقار من مختلف الانواع ، ذات الارداف المستديرة والضروع الحمراء التى لم تمس ، وغيرها من ذات القرون التى نبتت على جباهها الملساء ، متعددة الالوان ، والابقار الهولندية السمراء والحمراء متباينة الالوان ، والتى يكسبها اللون الابيض احتراما لتبدو وكانما ذات مرايل واغطية رؤوس .

وكان الرعاة رجالا طاعنى السن تاقلموا على السير فى تمهل خلف حيواناتهم ، او تعودوا على الحياة فى سنوات الحرب ، حتى انهم لم يعيروا اهتماما لاطلاق الرصاص الذى جرى الى جوارهم ، حيث افترشوا الارض المبللة على شكل دائرة خلف القطيع وراحوا يثرثرون . غير انهم سرعان ما هبوا واقفين حين وقعت انظارهم على المسلحين .

ورفع الشباب اغطية رؤوسهم الشتوية عن رؤوسهم فى احترام محيين اياهم .

وذكر عجوز قصير القامة مفلطح القدمين يرتدى صديريا من جلد الغنم فوق جلبابه القصير :

– تحية أيها السادة الرفاق !

واستنادا الى ذلك السوط المجدول الذى كان يحمله ، على خلاف الآخرين الذين كانوا يحملون سياطا عادية طويلة ، ادرك

الشباب كونه رئيسا لهم . وقد استدار الى رفاقه رغبة منه فى طمانتهم ، ليقول :

– انهم كذلك من الفدائيين .

وذكر اوليج فيما يرفع غطاء رأسه قليلا ليرتديه من جديد :

– معذرة أيها الطيبون . لقد قضينا على الحراس الالمان ، ونرجو مساعدتنا فى تفريق القطيع فى كل ارجاء البرارى حتى لا يستفيد منه الالمان .

وبعد برهة من الصمت ذكر عجوز آخر قصير القامة مفعم بالحركة :

– اه . . نفرق القطيع ! أليست هذه ماشيتنا جئنا بها من اراضى الدون ؟ كيف لنا تفريقها فى أراض غريبة ؟

وذكر اوليج وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة :

– وهل سوف تعودون بها مرة أخرى ؟

واعلن الجد موافقته على الفور قائلا :

– هذا صحيح . . . فليس ذلك بالامر الممكن .

– اننا اذا ما فرقناها ، فيمكن ان تئول الى مواطنينا .

وفجاة امسك العجوز برأسه ليقول فى يأس ودهشة :

– آه . . وآه . يالها من ثروة كبيرة !

وهكذا اتضح للشباب مدى معاناة الكهول الذين اضطروا الى ان يسوقوا مثل هذه الثروة الهائلة من المواشى من اراضيهم الى الارض الالمانية الغريبة ، ليشفقوا على الكهول ويتأسفوا على الماشية ؛ بيد انه لم يكن ثمة وقت لديهم !

وذكر اوليج فيما يتناول السوط من يد العجوز القصير متوجها نحو الماشية :

– هات يا جدى ذلك السوط .

وكان القطيع يتحول تدريجيا الى الشاطىء الآخر للنهير بعد ان تروى الابقار والثيران ظمأها ، يبحث بعضها عن بقايا الاعشاب الجافة ، فيما يتشمم الارض القفرة المبللة ، بينما وقف البعض الآخر يعرض ظهوره للامطار او يتلفت حوله وكأنما يتساءل : اين انتم ايها الرعاة ؟ ما عسانا ان نفعل بعد ذلك ؟

وراح اوليج فى ثقة وهدوء بالغين شأن من يعيش حياته

الطبيعية يشق طريقه بين الماشية ، يدفع احداها ، ويربت بطن او رقبة الاخرى ، ويلهب بسوطه الثالثة ، وحتى عبر النهير ليبلغ المكان الذى تجمع فيه اكثر عدد منها . وتبعه الجد ذو الصديرى الفرائى كى يقدم له العون ، فيما يحمل سوطه المضفر . كما وهرع اليهما بقية الكهول والشباب .

وراحوا يصيحون ويطرقعون بسياطهم حتى استطاعوا بعد جهد جهيد تقسيم القطيع الى قسمين ، مما استنفذ منهم وقتا كثيرا .

وذكر العجوز ذو الصديرى الفرائى:

– كلا . . ان هذا الامر لن يجدى . فلتطلقوا عليها نيران رشاشاتكم فقد خسرناها فى كل الاحوال .

تأوه اوليج وزرّ عينيه وكأنما يشعر بألم ، ثم ما لبث ان علت وجهه فى نفس اللحظة امارات وحشية ، ليتناول رشاشه من على كتفه ويطلق دفعة واحدة من نيرانه على القطيع .

وسقطت بعض الابقار والثيران ، لتندفع اخرى جريحة تئن نحو البرارى . وما أن وصلت رائحة البارود الى خياشيم ذلك الجزء من القطيع حتى اندفع فى البرارى يزلزل الارض تحت حوافره . وقام سيريوجكا وجينيا موشكوف على التوالى باطلاق نيران رشاشاتهم على الجزء الثانى من القطيع ليتفرق بدوره .

وهرول الشباب فى أثره يطلقون نيرانهم على كل مجموعة من الماشية تتوقف متجاورة . وهكذا خيّمت على البرارى اصوات اطلاق النيران وخوار الماشية ودبيب حوافرها وطرقعة السياط وصراخ البشر الرهيب . وكان الثور حين تصيبه الرصاصة اثناء ركضه يتوقف فجاة ، يثنى ساقيه الاماميتين بطيئا ثم يسقط فى قوة على خيشومه . اما الابقار المصابة فقد كانت ترفع رؤوسها الجميلة لتخور عاليا ثم تهوى بها فى عجز . وهكذا انتشرت الجثث فى كافة الارجاء، تبدو حمراء فى خضم الضباب ، تغطى الارض السمراء .

وحين راح الشباب يتفرقون كل منهم فى اتجاه ، كان كل منهم يصادف فى طريقه تارة هنا واخرى هناك بعض الابقار والثيران انتشرت فى البرارى .

وبعد بعض الوقت تصاعد الدخان عاليا فوق البرارى . فقد قام سيريوجكا تيولينين بتكليف من توركينيتش باضرام النيران فى الكوبرى الخشبى الذى كان قائما حتى ذلك اليوم مما يدعو الى الدهشة .

وانصرف اوليج وتوركينيتش سوية .

وتساءل اوليج فى حيوية :

– هل لاحظت قرون تلك الابقار التى نمت على جباههـا الملساء ، فيما تنحنى اطرافها الى الداخل وحتى تلتقى تقريبا ؟ انها من شرق برارى سالسكايا ، وقد تكون من برارى استراخان . وهى ماشية هندية ، يعود تاريخها الى زمن المغول .

وتساءل توركينيتش فى ريبة :

– ومن اين عرفت ذلك ؟

– لقد كان زوج امى يصطحبنى معه ايام كنت طفلا ، حين كان يخرج لقضاء امور تتعلق بها . وهو انسان ذو حنكة وخبرة فى هذا المجال .

وذكر توركينيتش :

– لقد ابلى ستاخوفيتش اليوم بلاء حسنا .

وذكر أوليج فى غير ثقة :

– نعم . . . لقد قمت آنذاك مع زوج أمى برحلات كثيرة . ولك أن تتصور الدنيبر والشمس والقطعان الكبيرة فى البرارى . ومن ذا الذى يمكنه ان يتصور آنذاك ، أننى . . . أننا . . .

وهنا زرّ اوليج عينيه تعبيرا عن الألم واشاح بيديه ، ليلتزم الصمت حتى بلغ بيته .

الفصل الخمسون

فطن الناس ، بعد أن استطاع الالمان بالحيلة ارســال اول مجموعة من سكان المدينة للعمل بالمانيا ، الى ما يتهددهم من جراء ذلك وراحوا يتهربون من تسجيل اسمائهم فى مكتب العمل .

وكان الالمان يقومون باصطياد السكان فى الشوارع وفـى

المنازل كما كانوا يفعلون فى زمن العبودية حين كانوا يتصيدون الزنوج فى الادغال .

وكانت جريدة «الحياة الجديدة» التى تصدر فى فوروشيلوفجراد عن القسم السابع لدى الادارة العسكرية تنشر دائما خطابات بعث بها المرحّلون الى المانيا الى ذويهم يشرحون لهم فيها وحسبمـا تدعى الجريدة مدى طيبة وهناء الحياة هناك ، وكذلك حول كونهم يتقاضون اجورا جيدة .

كما وكانت نادرا ما تصل الى كراسنودون خطابات الشباب الذين كان يعمل بعضهم فى بروسيا الشرقية كعمال اجراء او خدما بالمنازل . ولم تكن الرسائل تحمل علامات رقابة البريد ، وكان من الممكن معرفة الكثير الذى يتوارد فيما بين سطورها ، الاّ انها لم تكن تتحدث وفى ايجاز سوى عن مظاهر الحياة الخارجية ، وفيما كانت غالبية الأهالى لا تتلقى اية رسائل على الاطلاق .

وقد ذكرت المراة التى تعمل بمركز البريد لأوليا ان الرسائل الواردة من المانيا تخضع لرقابة شرطى المانى يعرف الروسية عين خصيصا لهذا الغرض . وذكرت انه يحجز الرسائل ليلقى بها فى درج المكتب حيث يغلقه بمفتاحه ، وحتى تتجمع اكبر كمية منهـا فيقوم باحراقها .

وبتفويض من قيادة «الحرس الفتى» تولت اوليانا جروموفا كل شئون العمل ضد تعبئة وترحيل الشباب ، فراحت تكتب وتوزع المنشورات ، وتساعد من كان مهددا بالترحيل فى الالتحاق بالعمل فى المدينة ، او فى اعفائه بحجة المرض عن طريــق ناتاليــا الكسييفنا ، بل وكانت تقوم احيانا باخفاء من جرى تسجيلهــم للترحيل ومن هرب منه ، فى النجوع .

ولم تكن اوليانا تقوم بذلك لأنها فوضت بالقيام به وحسب ، بل وانطلاقا من وازع داخلى ، حيث كانت تشعر ببعض الذنـب ازاء كونها لم تستطع تجنيب فاليا ذلك المصير الرهيب . وقد راح هذا الشعور يتعقبها مع كل يوم ، يعلن عن نفسه اكثر حـدة لأنها لم تتلق هى وام فاليا اية رسالة منها .

وفى مطلع ديسمبر وبمساعدة تلك المراة العاملة بمركـز

البريد ، استطاع الشباب سرقة الخطابات من مكتب الرقيب ، لتجدها اليوم ماثلة امامها .

ومع حلول الشتاء عادت أوليانا تعيش فى مسكنها الصغير برفقة كل اعضاء اسرتها . وكانت شأن غالبية اعضاء «الحرس الفتى» تخفى انتماءها لتلك المنظمة عن أهلها .

وكم كانت معاناتها رهيبة حين راح والداها خوفا عليها يحاولان الحاقها بالعمل . وكانت الأم من مكانها بالفراش ترنو اليها فى تضرع بعينيها السوداوين الكبيرتين تارة ، فيما تهم بالبكاء تارة اخرى . اما الأب ماتفى ماكسيموفيتش فقد صرخ ينهر ابنته لاول مرة منذ اعوام عديدة . وتدفق الدم الى وجهه حتى بلغ أعلى جبهته الصليعة . غير ان ثمة ما ينم عن شفقة تبدى فى ما تبقى من شعيرات براسه ، وفى عجزه عن السيطرة على ابنته رغما عن جسده الضخم بارز العظام وقبضتيه الرهيبتين .

وقد ذكرت اوليانا انها سوف ترحل عن البيت اذا ما سمعت مرة اخرى تأنيبا من أمها او من أبيها .

واعترى الارتباك والحيرة ماتفى ماكسيموفيتش وماترينا سافيليفنا ، حيث كانت ابنتهما المفضلة . وشعر الوالد للمرة الاولى بانه فقد سيطرته على ابنته ، اما الأم فقد كانت تئن تحت وطأة المرض لدرجة لم تكن تسمح لها بالاصرار على موقفها .

وقد كانت اوليانا امعانا فى محاولتها اخفاء نشاطها ، تقوم فى حيوية باداء الشئون المنزلية ، اما وحين كانت تضطر الى الغياب عن المنزل ، كانت تتذرع بمدى وطأة وظلمة حياتها التى لا تجد فرصة للترويح عن نفسها فيها سوى مع صديقاتها . وكثيرا ما كانت تشعر بنظرات امها الحزينة تلسعها وكأنما تتسلل الى اعماقها . اما الأب فقد غدا يشعر بالخجل فى حضرة ابنته ، ويلتزم الصمت فى وجودها فى غالبية الأحيان .

اما وضع اناتولى فقد كان على النقيض . فحين رحل الأب الى الجبهة ، تولى اعباء رب العائلة ، حيث كانت الأم تانيسيا بروكوفيفنا وشقيقته الصغرى تلبيان كل اشارة تند عنه وتستجيبان لكل كلمة يقولها . وها هى أوليانا تجلس امام كيس الخطابات فى بيت اناتولى ، وليس فى بيتها ، وحيث كان صاحب

البيت قد ذهب آنذاك الى ليليا ايفانيخينا فى سوخودول . وراحت تدس أصابعها الطويلة فى الأظرف التى قصها الرقيب لتتناول الخطابات وتقرأ اولى سطورها على عجل ثم تضعها على المائدة .

كانت الاسماء والالقاب ، وكلمات التحية التقليدية الى الوالدين والشقيقات ، والتى تمس شغاف القلوب بسذاجتها ، تتوالى امام ناظرى اوليانا كثيرة ، كثيرة ، استغرقت مطالعة سطورها الاولى فقط زمنا كثيرا . الا انها لم تجد فيما بينها خطابا من فاليا .

وكانت اوليانا تجلس وقد تقوس ظهرها ووضعت راحتيها على ركبتيها ، وتعلق ناظريها بالفراغ فى وهن . كان الهدوء والصمت يخيمان على المنزل ، حيث كانت تانيسيا بروكوفيفنا وشقيقة اناتولى الصغرى قد خلدتا الى النوم . وكان ضوء المصباح الصغير الذى يشوبه خيط رفيع من الدخان يتموج تحت تأثير أنفاس اوليانا تارة هنا وأخرى هناك . وكانت ساعة الجدار العتيقة المعلقة فوق راسها تحصى الثوانى فى صوت شابه الصدا «. تريك تراك — تريك . . تراك» . وقد كان منزل آل بوبوف شأن منزل أوليا يقع منعزلا عن مساكن الحى . وقد ترك هذا الاحساس بالعزلة بصماته على أوليانا منذ طفولتها ، ولاسيما فى ليالى الخريف والشتاء الباردة . وكان بيت آل بوبوف متين البنيان لدرجة ان الرياح القوية فى الخارج والتى تؤذن بقدوم الشتاء ، لم تكن تصل الى الاسماع الا بالكاد من وراء ضلف النوافذ .

وكانت اوليانا تشعر بنفسها وحيدة لا أنيس لها فى هذا العالم الصاخب بكثير من الاصوات المبهمة غير الطيبة ، والذى تضيئه اشعة ذلك المصباح الصغير التى تتراقص عالية واطية .

لماذا خلق العالم على هذا النحو الذى يتعسر على المرء فيه منح الآخرين قلبه حتى النهاية ؟ واذا كانت قد ارتبطت بفاليا منذ طفولتها المبكرة وتمازجت روحاهما فلماذا لم تقم ، هى اوليانا ، بهجرة بيتها بكل ما يحفل به من مشاغل يومية ، وبالتخلى عن كل عاداتها ورفاقها وذويها ، كى تكرس كل حياتها من أجل انقاذ فاليا ؟ لماذا لم تذهب اليها كى تكون الى جوارها ، تمسح دموعها وتفتح امامها طريق الحرية ؟ وكان صوت من الاعماق يتردد معلنا

«لان ذلك أمر مستحيل . . . ولأنك وهبت قلبك لما هو أكبر من فاليا وحدها . . . لقد كرسته لتحرير الأرض الحبيبة» . وراحت تقول فيما بين نفسها : «كلا . . كلا . . لا تبحثى عن المبررات . انك لم تفعلى ذلك حين لم يكن الوقت قد فات بعد ، ولأن قلبك كان آنذاك خاليا من العواطف والمشاعر شأن الآخرين !»

وفكرت اوليانا : «اوليس من الممكن اتيان ذلك اليوم ؟» . واستغرقت فى احلام طفولية ، لتجد البواسل القادرين على تلبية ندائها ، وتخطى كافة العقبات ، وخداع الحكام الألمان ، ولتصل فى النهاية الى فاليا وتقول لها : «لقد بذلت كل ما فى وسعى ، ولم اضن بجهد لانقاذك . . . وها أنت حرة طليقة . . .» . آه . . لو كان ذلك ممكنا ! غير أن ذلك مستحيل ، فلا وجود لأمثال اولئك البواسل ، علاوة على أنها أضعف من ان تقوم بمثل تلك المهمة ... كلا ... لقد كان يستطيع ذلك الصديق ... لو كان لفاليا صديق !

وهل لديها هى ، اوليانا ، مثل هذا الصديق ؟ من ذا الذى يمكن ان يفعل ذلك من اجلها اذا ما وجدت نفسها فى مثل هذا الوضع ؟ كلا . . . ليس لديها مثل هذا الصديق . ولربما يكون لا وجود فى هذه الدنيا لأمثال هؤلاء الاصدقاء !

اوليس هناك من سوف تحبه فى هذا العالم ؟ ومن يكون ؟ انها لم تره بعد ، وان كان يعيش فى أعماق روحها كبيرا ، صدوقا ، قويا ، ذا نظرات جسورة تتسم بالطيبة . وراح الظمأ للحب يقض مضاجعها . آه لو كانت تستطيع اغماض عينيها ونسيان كل ما حولها ، كى تهب نفسها لمن تحب . . . لقد تالقت عيناها السوداوان اللتان عكستا ضوء المصباح الصغير المشوب بالدخان ، باشعة الشوق الجارف الذى راح يضطرم تارة ، ويخبو تارة اخرى .

وفجأة تعالى الى اسماع أوليانا تاوه خافت اشبه بصوت يناديها ، لتعتريها الرجفة وليرتعش انفها الرقيق . آه . . لقد كانت شقيقة اناتولى الصغرى تتنهد اثناء نومها . كانت كومة الخطابات ملقاة امامها على المائدة ، بينما كانت خيوط الدخان الرقيقة تتصاعد من شريط المصباح ، وترامى من وراء ضلف

النوافذ صوت الرياح رفيعا ودقات ساعة الحائط تواصل احصاء الثوانى «تريك — تراك . . . تريك — تراك» .

وكست الحمرة وجنتى اوليانا ، بحيث لم تستطع هى نفسها تفسير سر خجلها . . . هل لكونها رفضت العمل جريا وراء الاحلام ، ام لأنها لم تفصح فى أحلامها عما يمكن ان يكون مدعاة للخجل . وراحت تعود من جديد لتصفح الخطابات ، وهى غاضبة من نفسها ، تبحث فيها عما يمكن ان يعود عليها بالنفع فى نشاطها .

وقفت أوليانا قبالة اوليج وتوركينتش تخاطبهما قائلة :

— اه . . لو قراتما هذه الخطابات ! انه لأمر رهيب ! . . لقد ذكرت ناتاليا الكسييفنا ان الألمان قاموا طوال تلك الفترة بترحيل ما يقرب من ثمانمائة من سكان المدينة ، واعدوا قائمة سرية باسماء الف وخمسمائة ، تتضمن العناوين وغير ذلك من المعلومات . كلا . . . يجب القيام بتدبير مضاد ، قد يكون بمهاجمتهم اثناء عملية الترحيل ، او بقتل هذا الالمانى المدعو شبريك .

وذكر اوليج :

— ان قتله لن يجدى ، حيث انهم سوف يقومون بارسال غيره .

وذكرت فيما تعكس امارات وجهها مشاعر الثار وعلى حين غرة :

— احراق القوائم . . . واعرف كيفية ذلك . ينبغى اضرام النار فى مكتب العمل .

وقام بهذه العملية التى تعد واحدة من عمليات «الحرس الفتى» الخرافية سيريوجكا تيولينين وليوبكا شيفتسوفا بالتعاون مع فيتيا لوكيانتشينكو .

كان الطقس يميل فى تلك الايام الى البرودة يعلن عن قدوم الشتاء ، حيث كانت درجة الحرارة تنخفض كثيرا عند الليل ، لتتجمد الأوحال وآثار عجلات العربات بالشوارع ، لتظل على هذا النحو وحتى تذيبها شمس منتصف النهار .

كانت نقطة التجمع بحديقة منزل فيتيا لوكيانتشينكو . وعبر الثلاثة خط السكة الحديدية ثم ساروا فى اتجاه التل ، متفادين الطريق والممرات فى تحركاتهم . وكان سيريوجكا وفيتكا يحملان صفيحة ممتلئة بالبنزين ، وبعض زجاجات السائل الحارق ، بالاضافة الى سلاحهما الشخصى . اما ليوبكا فقد تسلحت بزجاجات ممتلئة بالعسل ، وبعض أعداد جريدة «الحياة الجديدة» .

كان الصمت مطبقا الى حد احتمال سماع اى صوت يصدر ، او اية عثرة ، أو حركة غير محسوبة لمن يحمل تلك الصفيحة المعدنية الممتلئة بالبنزين ومما كان يمكن أن يكشف عن وجودهم . وقد كانت الظلمة حالكة لدرجة أنهم كانوا يجهلون احيانا تحديد موقعهم على الرغم من معرفتهم الجيدة للموقع . كانوا يتقدمون خطوة ، ثم يتوقفون يصيخون السمع ، ثم يتقدمون الأخرى وهكذا . . .

هكذا مر الوقت بطيئا وكأنما لا نهاية له . وكم كان غريبا أنه وحين تعالى الى اسماعهم دبيب خطوات حارس المبنى ، خفت حدة رهبتهم . وكان وقع خطوات الحارس يتعالى بوضوح اثناء الليل احيانا ، وينقطع احيانا اخرى ، حين يتوقف فى محاولة لسماع ما قد يجرى حوله ، او ربما بغية الراحة بعض الوقت عند مدخل المبنى .

وكان مبنى مكتب العمل ذا واجهة طويلة تشرف على مقر الادارة الزراعية . ولم يكونوا قد بلغوه بعد ، الا ان خطوات الحارس كانت تؤكد انهم وصلوا جانبه ، ليلتفوا حول جانبه الايسر حتى يستطيعوا الدخول عبر جداره الخلفى الطويل .

وهنا ، توقف فيتكا لوكيانتشينكو على مسافة عشرين مترا تقريبا من المبنى ، حتى تقل الجلبة المحتملة ، فيما تقدم سيريوجكا وليوبكا الى النافذة فى هدوء .

وسكبت ليوبكا العسل على أسفل زجاج النافذة المستطيل ، ثم لصقت عليه احدى صفحات الجريدة . وضغط سيريوجكا على الزجاج الذى انكسر دون أن يتساقط على الأرض . ثم راح ينتزعه من مكانه فى صبر واناة كما وفعلا نفس الشىء مع زجاج الاطار الثانى للنافذة .

وبعد أن فرغا من ذلك توقفا لالتقاط أنفاسهما . وكان الحارس

يدق الأرض بقدميه عند المدخل وكأنما سعيا وراء الدفء ، ولذا فقد اضطرا الى الانتظار طويلا وحتى ينصرف من مكانه . وقد كانا يخشيان أن يسمع من مكانه عند المدخل خطوات ليوبكا داخل المبنى . وحين انصرف الحارس هبط سيريوجكا بقامته قليلا لترتقى ليوبكا يديه المتشابكتين باحدى قدميها لتنقل الأخرى عبر النافذة التى أمسكت باطارها . واذ امسكت بالحائط من الداخل جلست على قاعدة النافذة فيما شعرت بحافة الأطار السفلى تشق ساقيها . الا انها لم تكن لتعير هذه الأمور التافهة اهتمامها وراحت تنزلق بقدمها نحو الأرض وحتى بلغتها اخيرا ، لتصبح بكامل قوامها داخل المبنى .

وناولها سيريوجكا صفيحة البنزين .

وقد قضت بالداخل فترة طويلة من الزمن مما اثار قلق سيريوجكا خوفا من أن تصطدم فى الظلام بكرسى او مائدة .

وحين ظهرت ليوبكا من جديد الى جوار النافذة كانت رائحة البنزين تنبعث نفاذة منها . ونظرت الى سيريوجكا والابتسامة ترتسم على شفتيها ثم رفعت ساقها تتجاوز بها قاعدة النافذة ثم مدت يدها وراسها ليمسك سيريوجكا بهما من تحت ابطها ويساعدها فى الخروج .

كان سيريوجكا يقف وحيدا الى جوار النافذة التى انبعثت منها رائحة البنزين ، ولبث فى مكانه برهة من الزمن تكفى وفقا لحساباته ، فيتكا وليوبكا للابتعاد المسافة المناسبة .

وعندئذ تناول من تحت ثيابه زجاجة السائل الحارق والقى بها بكل قوة عبر النافذة المفتوحة . بلغت درجة الاشتعال قوة اعشت ناظريه . ولم يلق ببقية الزجاجات وانطلق يهرول فى اتجاه التل نحو خط السكة الحديدية .

وصار الحارس يصيح ويطلق النيران فى أثره ، لتصفر احدى الرصاصات عالية فوق راسه . وكانت المنطقة تغرق تارة فى الأضواء الشاحبة ، لتعود تارة اخرى الى الظلمة التى تلفها من جديد . وفجأة اندفع عمود من اللهب الى عنان السماء ليغمر الضوء المكان وكأنما الوقت نهارا .

خلدت أوليانا فى تلك الليلة الى مخدعها دون أن تغير ثيابها .

وكانت تتوجه الى النافذة فى هدوء حتى لا توقظ أحدا لترفع ستارة تعتيمها بعض الشيء ، الا أن الظلمة كانت تخيم على كل ما حولها . وقد اعترت مشاعر القلق ازاء ليوبكا وسيريوجكا ، ليخيل اليها انها عبثا قد فكرت فى ذلك الامر . ومرت الثوانى بطيئة بطيئة ، حتى شعرت اوليانا بالانهاك والى ان غلبها النعاس .

وفجاة استيقظت من نومها لتندفع نحو الباب ، وقد اصطدمت باحد المقاعد فى طريقها . وهبت الأم مذعورة تسالها ، الا انها لم تجب شيئا وخرجت فى فستانها ودون معطف الى الفناء .

فقد تعالى وهج الحريق فوق المدينة فيما وراء التلال ، وترامت الى الأسماع طلقات بعيدة ، وصراخ كما خيّل لأوليانا . وكانت اضواء اللهب بعيدا فى تلك المنطقة النائية عن المدينة تمزق غلالات الظلام حول أسقف المنازل والمبانى الخشبية الملحقة بها فى الأفنية .

بيد ان هالة الحريق لم تثر فى نفس اوليانا ما كانت تتوقعه . فقد تمازجت الهالة واضواؤها والصراخ وطلقات الرصاص وصوت الأم الوجل ، لتثير فى روحها شعورا مبهما يتسم بالقلق . وقد كان ذلك تعبيرا عن القلق ازاء ليوبا وسيريوجكا وخاصة ازاء منظمتها فى ذلك الوقت حين يبحثون عنها . كما وكان قلقا ازاء عدم فقدان اكبر واسمى واطيب ما فى هذا العالم ، وما وعته روحها ، حين يضطر المرء الى ممارسة التخريب والدمار . وقد كانت اوليانا تعانى مشاعر القلق هذه لأول مرة فى حياتها .

الفصل الحادى والخمسون

فى الثانى والعشرين من نوفمبر ١٩٤٢ التقطت موجات عشرات اجهزة الراديو السرية فى مختلف مناطق مقاطعة فوروشيلوفجراد بلاغ مكتب الاعلام السوفييتى «آخر ساعة» حول تمكن القوات السوفييتية من قطع خطين من خطوط السكة الحديدية التى تغذى الجبهة الالمانية عند ستالينجراد ، واسر اعداد كبيرة من الالمان . وفجاة ظهر الى النور كل ما قام به واشرف عليه ايفان فيدوروفيتش بروتسينكو يوما بعد يوم من عمل سرى مجهول ،

وبدا يتسم بطابع الحركة الشعبية العامة ضد «النظام الجديد» .

وكان كل يوم جديد يأتى بانباء جديدة حول تطوير القوات السوفييتية لانتصاراتها عند ستالينجراد . وفجاة تحول كل ما كان يجول مبهما فى نفس كل انسان سوفييتى كالترقب والأمل ، الى دم فوار يغلى فى قلبه معلنا : «انهم قادمون !» .

وفى وقت مبكر من صباح ٣٠ نوفمبر جاءت بولينا جيورجيفنا وكعادتها ، الى ليوتيكوف باللبن فى سطلها . وكان فيليب بيتروفيتش متقيدا بنفس الجدول اليومى الذى اتبعه منذ التحق بالعمل فى الورش . وكان الوقت صباح الاثنين . وقد وجدت بولينا جيورجيفنا فيليب بيتروفيتش يرتدى حلته القديمة التى تحمل آثار المعادن وزيوت الماكينات ، حيث كان فى طريقه الى العمل . وقد كانت تلك الحلة هى نفسها التى كان يرتديها ايام العمل فيما قبل الاحتلال . وحين كان يصل الى مقر عمله كان يرتدى فوق تلك الحلة معطفا أزرق مخصصا للعمل . ولم يكن ثمة فرق الاّ فى كونه كان يحتفظ فيما سبق بذلك المعطف فى صوان بالمكتب ، اما اليوم فيحمله معه تحت ابطه كل يوم . وقد كان فيليب بيتروفيتش قد لف المعطف ووضعه على مقعد خشبى بالمطبخ وحتى يفرغ من تناول طعامه .

وادرك فيليب بيتروفيتش بالنظر الى وجه بولينا جيورجيفنا انها جاءت اليه باخبار ، وفى هذه المرة باخبار ذات فال حسن . واذ مزح قليلا مع بيلاجيا ايلينيشنا ، وان لم يكن ثمة داع لذلك حيث انها وطيلة تلك الاشهر التى عاشها فى بيتها لم تبد اية بادرة تدل على أنها ترى شيئا ، دلف الى غرفته برفقة بولينا جيورجيفنا .

وذكرت بولينا جيورجيفنا فى شىء من الاضطراب وهى تتناول من تحت بلوزتها قصاصة من الورق مكتوب عليها بخط دقيق :

– لقد احضرت لك خصيصا هذا . . . ما جرى التقاطه مساء الأمس .

كانت قد جاءت اليه صباح الأمس ببلاغ مكتب الاعلام السوفييتى «آخر ساعة» حول الهجوم الكبير للقوات السوفييتية فى قطاع الجبهة الرئيسى عند منطقة فيليكى لوكى ورجيف ، واليوم حول وصول قواتنا الى الشاطئ الشرقى للدون .

ولبث فيليب بيتروفيتش ينظر الى الورقة جامد القسمات هنيهة من الزمن ، ثم رفع عينيه الصارمتين ينظر الى بولينا جيورجيفنا يقول لها :

— كابوت . . . هتلر كابوت . . . خلاص . . . خلاص !

لقد لفظ نفس الكلمات التى كان الجنود الالمان ووفقا لأقوال شهود العيان ، يقولونها حين يستسلمون للأسر . لكنه لفظها بنبرة جادة ثم عانق بولينا جيورجيفنا التى ترقرقت دموع الفرحة فى مآقيها . وقالت تسائله :

— هل نطبع منها الكثير ؟

ولم يكونوا فى الآونة الاخيرة يصدرون المنشورات ، بل يوزعون بلاغات مكتب الاعلام السوفييتى المطبوعة والتى كانت الطائرات السوفييتية تلقى بها فى الاماكن المتفق عليها . بيد ان بلاغ الأمس كان على درجة كبيرة من الاهمية ، بحيث سمح فيليب بيتروفيتش باصدار المنشور اللازم . وقال :

— فليصدروهما فى منشور واحد ، وسوف نعلقه هذه الليلة .

وتناول من جيبه ولاعته ليشعل النار فى تلك القصاصة بمنفضة سجائره ، ثم فرك رمادها وفتح الضلفة العليا من النافذة لينفخه عبرها الى الشارع .

ولفح الهواء البارد وجه فيليب بيتروفيتش ، ليتوقف بنظراته على الندى المتجمد الذى كسا اوراق عباد الشمس والقرع بحديقة المنزل . ثم تساءل بنبرة مشوبة بالقلق :

— هل كان الصقيع شديدا ؟

— مثل الأمس . لقد تجمدت البرك حتى قاعها ، ولم تذب مياهها بعد .

وتجمعت الغضون على جبين فيليب بيتروفيتش ، ليلبث واقفا برهة قصيرة يفكر فيما بين نفسه . وكانت بولينا جيورجيفنا تقف فى انتظار تعليمات اخرى الا انه بدا وكانما نسى وجودها ، لتخاطبه قائلة :

— انى ذاهبة .

واجابها على نحو بدا كالذى استيقظ توا من نومه ، وتنهد فى عمق :

— نعم . . . نعم .

وظنته بولينا جيورجيفنا غير معاق .

وحقا ذلك . . . فلم يكن فيليب بيتروفيتش جيد الصحة ، حيث كان مصابا بالنقرس يعانى من ضيق التنفس . بيد ان هذا المرض كان قديما ، كما انه لم يكن مبعث استغراقه فى التفكير .

وقد كان فيليب بيتروفيتش يدرك ان الكارثة فى مثل تلك الأوضاع التى يعيشونها تحل من حيث لا يدرى المرء .

كما وكان ليوتيكوف كرئيس للمنظمة فى وضع جيد ، حيث انه لم يكن على علاقة مباشرة بالادارة الالمانية مما يسمح له بالعمل ضدها دون ان يتحمل ادنى قدر من المسئولية . فقد كان باراكوف هو المسئول الأول قبل السلطة الألمانية . وكان ذلك هو السبب الأساسى الذى جعل باراكوف وبناء على تعليمات ليوتيكوف يبذل قصارى جهده فيما يخص الانتاج حتى يبدو ازاء الادارة والعمال مديرا يجد فى عمله لصالح الالمان . لقد كان عليه ان يفعل كل شىء شريطة التغاضى عن كل ما يفعله ليوتيكوف ضد الألمان .

وقد كان الأمر يبدو على النحو التالى ... يبذل باراكوف الرجل النشيط المفعم حيوية كل جهده من أجل الابداع والعمل وعلى نحو يلحظه الجميع ، فيما يقوم ليوتيكوف الرجل المتواضع غير الملحوظ للآخرين بتخريب كل شىء ، دون ان يراه احد . هل هذا يعنى أن العمل لا يجرى فى انتظام ؟ كلا . . . انه يجرى بوجه عام ، لكن فى بطء شديد يتباين مع رغباتهم . اما عن الأسباب فهى ذاتها كما كانت فى السابق . . . «لا عمال ، ولا آلات ، ولا معدات ، ولا وسائل نقل ، ومن ثم فلا انتاج» .

وكان تقسيم العمل القائم بين باراكوف وليوتيكوف يقضى بان يقوم الأول بعد تلقيه التعليمات والأوامر ، بابلاغ الثانى بها ثم يشن نشاطا مسعورا يستهدف تنفيذها . اما ليوتيكوف فقد كان عليه القيام بافساد كل شىء يجرى .

وقد كان نشاط باراكوف واسع الاطار والذى يرمى الى بعث

الانتاج لا يعود بأدنى نتيجة . بيد أنه كان يغطى على نحو رائع النشاط المثمر كثيرا لباراكوف كقائد ومنظم لغارات وعمليات الفدائيين التخريبية على الطرق التى تمر عبر منطقة كراسنودون وما جوارها .

وكان ليوتيكوف قد اخذ على عاتقه بعد استشهاد فالكو تنظيم العمليات التخريبية فى كافة مؤسسات انتاج الفحم وغيرها من المؤسسات بالمدينة والمنطقة ، وفى الورش الكهربائية المركزية بالدرجة الأولى ، حيث يتوقف عليها أساسا تصنيع واعداد المعدات اللازمة للمناجم وغيرها من المؤسسات .

وقد كان عدد المؤسسات فى المنطقة كبيرا ، بحيث لم تكن الادارة الألمانية قادرة على الاشراف عليها وحدها دون عون عدد من الموالين لها . وحدث ما كان الناس منذ سالف الأزمان يسمونه بالتظاهر و«الكروتة» * ، حيث راحوا جميعا يتظاهرون بالعمل دون أن يفعلوا شيئا .

كما وكان ثمة من يتولى من تلقاء نفسه المبادرة «بالكروتة» حتى يتبعه الآخرون .

وهاكم على سبيل المثال ، فيكتور بيسترينوف ، زميل نيكولاى نيكولايفيتش الذى كان يعمل بالادارة فى وظيفة اشبه بوظيفة السكرتير او الكاتب . لقد كان مهندسا بحكم تعليمه وعمله ، لم يقتصر على التكاسل وعدم العمل بالادارة ، بل وراح يجمع حوله كل من لا يقوم بشىء فى المناجم ، يعلمهم ماذا عليهم ان يفعلوا حتى يجعلوا الآخرين لا يقومون بشىء . وقد راح يتردد عليه منذ بعض الوقت العجوز كوندراتوفيتش ، الذى بقى حيا بعد استشهاد رفاقه شيفتسوف وفالكو وكوستيفيتش ، كشجرة وحيدة فى مهب الرياح . ولم يكن ذلك العجوز يشك فى ان الألمان لم يقربوه بسبب ابنه الذى راح يمارس تجارة المحرمات ويصادق رجال الشرطة .

وعلى أى حال ، فقد اعترف له ابنه ذات مرة وفى احدى لحظات

* تعنى بالعامية المصرية عدم القيام بالعمل على خير وجه . المترجم .

الصفاء الروحى النادرة ، بان السلطة الالمانية اقل نفعا له من السلطة السوفييتية ، معترفا بشىء من الحزن :

— لقد بلغ الفقر بالناس أشده ، واصبح الآخرون بلا نقود !

وذكر العجوز بصوت أجش خافت يشوبه الهدوء :

— فلننتظر حتي يعود أشقاؤك من الجبهة ، لتذهب انت الى العالم الآخر ، حيث لا عذاب ولا تنهدات .

ولم يكن العجوز كعهده سابقا ايام السلطة الالمانية ، يعمل فى اى مكان ، الا انه راح يقضى ايامه متجولا بين المناجم الصغيرة وكذلك بين مساكن عمال المناجم ، ليغدو دون أن يدرى موسوعة لوضاعات واخطاء وهفوات الادارة الألمانية بالمناجم . وقد كان بوصفه عاملا قديما ذا حنكة ومهارة يحتقر الاداريين الالمان ، وكان احتقاره هذا يتزايد مع كل يوم جديد يكون فيه على يقين اكثر من جهلهم بشئون الادارة والانتاج .

وكان يخاطب بيسترينوف والخال كوليا قائلا :

— فلتحكما على الامر بنفسكما ايها المهندسان الشابان ! انهم يسيطرون على كل شىء فى كل أرجاء المنطقة ، ومع ذلك . . . ليس اكثر من طنين فى اليوم ! اننى اعلم انهم يتبعون النظام الراسمالى ، اما نحن ، وكما يقال : نعمل لأنفسنا . او لا يرجع عمر تجربتهم الى مائة وخمسين عاما ، بينما لا يتعدى عمر تجربتنا خمسة وعشرين عاما . ماذا فعل هؤلاء ؟ لقد قام السادة المشاهير والاقتصاديون الأمجاد بتنظيم السرقات على مستوى العالم اجمع .

ويصق العجوز قائلا بصوته الذى بح تماما :

— معذرة أيها السادة !

وذكر بيسترينوف وقد زلّ لسانه يعبر عن حنقه :

— انهم افاقون . انهم لا يستطيعون السرقة فى القرن العشرين ، لقد ضربوا فى عام ١٩١٤ وسوف يضربون اليوم . انهم يحبون السرقة لكنهم لا يستطيعون التفكير . . . برجوازيون صغار ، ضيقو الافق يعيشون على هامش الحياة ! ان البشرية باسرها شاهد على عدم كفاءتهم الاقتصادية التى تبدو واضحة للعيان !

وراح المهندسان والعامل العجوز ودون مجهود يذكر يعدون

الخطط لكل يوم والرامية الى تدمير تلك الجهود الضئيلة التى يبذلها الملازم شفيديه بغية استخراج الفحم .

وهكذا استند نشاط العشرات من الناس على نشاط اللجنة الحزبية للمنطقة للعمل السرى .

وقد كان أصعب واخطر كثيرا على فيليب بيتروفيتش القيام بكل ذلك فى الورش التى يعمل فيها بنفسه . لقد كان يتبع القاعدة التالية : تنفيذ بكل دقة وامانة كافة الأعمال البسيطة التى لا تعنى اى دور هام فى الانتاج ، والمماطلة الى أطول حد ممكن فى تنفيذ الطلبات الكبيرة . ومنذ أولى ايام العمل قامت الورش فى ظل السيطرة الالمانية باليده فى اصلاح عدد من المكابس ، ومعدات الضخ فى بعض المناجم الكبيرة ، الا أنها وحتى اليوم لم تفرغ من اصلاح او أعداد اى منها .

بيد انه كان يستحيل فى نفس الوقت تشويه سمعة المدير باراكوف بحيث تظهر كافة تدبيراته عقيمة النتائج . ولذا فقد كان يجرى تنفيذ بعض الأعمال حتى النهاية ، او حتى ما يقارب النهاية ، الا ان حادثا يطرأ عرضا ليتوقف الامر كله . كان المحرك يتعطل دائما ، حيث كان ثمة من يلقى الى داخله بذرات الرمل . وريثما كان يتم اصلاح المحرك ، كانوا يضعون آخر سرعان ما يتعطل فجاة . . . تسخّن اسطوانته ، ويسكب عليها الماء البارد . وقد كان يقوم بكل تلك الأعمال التخريبية البسيطة رجال فيليب بيتروفيتش المنتشرون فى كافة الورش ، والذين يتبعون شكليا رؤساء ورشهم ، الا انهم لا ينفذون سوى تعليمات ليوتيكوف .

وفى الآونة الاخيرة قام باراكوف باستئجار عدد كبير من العمال الجدد – من قدامى العسكريين . ففى ورشة الحدادة عمل شيوعيان كانا ضابطين بالجيش الأحمر . وقد كانا يترأسان مجموعات الفدائيين التى تقوم بالاعمال التخريبية على الطرق . وكان يجرى لتبرير تغيب الرجال عن الانتاج ، اللجوء الى الماموريات الوهمية الى المؤسسات الكائنة فى المناطق الاخرى بحجة احضار المعدات اللازمة او استكمال الآلات . كما وكان يجرى ارسال العمال غير المشتركين فى منظمة العمل السرى فى ماموريات مشابهة حتى لا يثيروا ظنونهم . وكان العمال يغدون على يقين من استحالة الحصول

على اية معدات او آلات ، بينما كانت الرئاسة ترى ان المدير ورؤساء الورش يبذلون جهودهم . وهكذا توقف العمل استنادا الى اسس مشروعة .

وقد تحولت الورش الى مركز رئيسى لمنظمة العمل السرى فى كراسنودون ، وكانت القوى التى يجهل الآخرون موقعها متركزة فى مكان واحد ، رهن الاشارة ، وحيث كان الاتصال بها سهلا بسيطا . بيد أن ذلك كان أمرا محفوفا بالخطورة .

كان باراكوف يتسم فى عمله بالجراة وضبط النفس والتنظيم . لقد كان بوصفه عسكريا ومهندسا يراعى كافة التفاصيل الدقيقة .

وكان يخاطب فيليب بيتروفيتش فى لحظات الانشراح قائلا :

– لقد اعددت كل شىء بحيث لا يقبضون علينا فى حالة تلبس . لماذا ينبغى علينا الاعتماد فى نشاطنا على كوننا اغبى منهم ؟ وما دمنا أذكى منهم ، ينبغى علينا خداعهم . وسوف نخدعهم !

وهبط فيليب بيتروفيتش بذقنه الكبيرة ، بحيث بدا وجهه وكأنما انتفخ نحو الأسفل مما كان يعد دليلا على امتعاضه ، ثم قال :

– انك تتبسط كثيرا فى الحكم على الأمور . انهم المان فاشيست . انهم ليسوا أذكى او اكثر دهاء منك ، وهذا حقيقة . وما الذى يجعلهم فى حاجة الى معرفة ما اذا كنت على حق ام لا ؟ انهم ما ان يتاكدوا من ان الامور لا تسير على ما يرام ، حتى يقتلونك دون أدنى تفكير ، ليجيئوا بنذل ينصبونه مكانك . اما نحن فسوف يكون نصيبنا اما الشنق واما الفرار . ولسنا نملك حق الفرار . كلا . . . يا صاح ، اننا نخاطر كثيرا ، واذا ما كنت حريصا ، فيجب أن تضاعف حرصك ثلاث مرات .

هذا ما كان يقض مضاجع فيليب بيتروفيتش حين يتململ فى فراشه بحجرته المظلمة فيما يرفض النوم النزول ضيفا عليه ليظل يفكر فى كل ذلك ، وفى ان الوقت يمضى ويمضى .

وكلما كان يتاخر تنفيذ الطلبات ، كلما كانت تزيد قائمة الأعطال والحوادث والمتاعب الواردة فى سجل باراكوف مما يجعل موقفه اكثر اهتزازا ازاء الادارة الالمانية . بيد ان الأخطر من كل

ذلك هو أنـــه ومع مرور الوقت راح عدد كبير من عمـال المؤسسة ، ومن بينهم كثيرون من العمال ذوى الخبرة ، يدرك ، حيث لم يكن من الممكن عدم ادراك ، ان ثمه من يقوم بالاعمال التخريبية عن عمد .

وقد كان باراكوف وثيق الصلة بالالمان ، يتحدث لغتهـم ، ويبدو غاية فى الصرامة بين العمال حول ما يخص الانتاج ، يعتبر رجلا المانيا . وكان العمال بالورش يتحاشون التعامل معه ، ومن ثم فلم يكن هناك من يشك فيه على الاطلاق . اما مظاهر الريبة فقد تجمعت حول فيليب بيتروفيتش ، حيث انه ندر من كان يصدق فى كراسنودون امكانية انخراطه فى خدمة الألمان . لقد كان فيليب بيتروفيتش ليوتيكوف من رعيل عمال روسيا الذين كانوا يسمونهم فيما قبل ضمير الطبقة العاملة . كان الجميع يعرفونه ويثقـون فيه . . . والشعب عادة لا يخطىء !

كان يعمل عشرات العمال بالورشة تحت الاشراف المبـاشر لفيليب بيتروفيتش . ومهما كان يحاول التزام الصمت ، والتظاهر بالتواضع امامهم فلم يكونوا ليغفلوا عن أن تعليماته التى يلقى بها عرضا ، وكأنما يعبر بها عن بعض التردد او الارتباك ، تعنى الاضرار بالانتاج .

كان نشاطه تعبيرا عن مجموعة من توافه الامور ، لا يعنى كل منها على حدة شيئا يذكر . بيد أن الوقت كان يمر ، وتتراكـم التوافه لتتحول الى شىء كبير ، كما يغدو فيليب بيتروفيتش نفسه اكثر وضوحا . وقد كان المحيطون به فى غالبيتهم الساحقة مــن انصاره ومعارفه . وكان يعتقد فى وجود الكثيرين بينهم من امثال صاحبة مسكنه بيلاجيا ايلينيتشنا ، والذين يلحظون كل شىء ، ويتعاطفون معه دون ان يظهروا ذلك له او للآخرين ، بل وحتى لأنفسهم . بيد أن امر الافصاح عن هويته لم يكن متعلقا بالكثير من الأنذال ، اذ يكفى لذلك وضيع واحد يمكن أن يودى به .

وكانت الورش مكلفة بالعمل أساسا لاصلاح أكبر مضخة مياه فى كراسنودون ، والتى تتولى امداد مجموعة المناجـم ووسط المدينة ، بما فى ذلك الورش نفسها بالمياه . وقد جرى منذ حوالى

شهرين القاء مهمة اصلاحها على عاتق باراكوف الذى اوكلها بدوره الى فيليب بيتروفيتش .

وكانت هذه العملية البسيطة ، شأن كل العمليات الأخـرى تجرى خلافا للعقل السليم . بيد أن الحاجة كانت ماسة لضـخ المياه . ولذا فقد قام السيد فيلدنير بنفسه عدة مرات بمراجعة العمل ، واعلن عن امتعاضه الشديد لبطء التنفيذ . وبلغ الأمـر بفيليب بيتروفيتش أن رفض تسليم المضخة حتى بعد تجهيزها للعمل بحجة ضرورة تجربتها قبل التسليم . وكان الصقيع يفرض نفسه صباح كل يوم بقوة شديدة على غير العادة فى مثل تلـك الايام من كل عام ، بينما كانت كافة المواسير ممتلئة بالميـاه التى تكون قد تجمدت بطبيعة الحال .

ومع نهاية عمل يوم السبت جاء فيليب بتروفيتش لاستلام مضخة المياه . وراح يعلن عن تعنته ازاء تسرب المياه مـن الصهريج والمواسير ، واخذ فى دقة متناهية يحكم ربط الصواميل والصنابير . وصار رئيس العمال يسير من خلفه صامتا فيما يرى ان كل شىء على ما يرام . امـــا العمال فقد كانوا ينتظـرون بالشارع .

واخيرا خرج فيليب بيتروفيتش برفقة رئيس العمـال الى الشارع . وتناول من جيب سترته علبة تبغ وبضع اوراق للف السجائر قطعت من صحيفة «الحياة الجديدة» ، واخذ يقرى العمال تبغا من ذلك الذين يزرعونه محليا ، جرى اعداده مشوبا بجذور نباتاته . وراح العمال يتناولونه فى حيوية ونشاط . هذا وكان حتى هذا النوع من التبغ نادرا . لقد راحوا يدخنون تبغا مخلوطا بالدريس ، كانوا يسمونه «حشايا الجدة» .

وراح الجميع يدخنون فيما يقفون الى جوار مضخة الميـاه . وكان العمال يتأملون بما يعنى التساؤل رئيس العمال تـارة ، وليوتيكوف تارة اخرى . والقى فيليب بيتروفيتش بسيجارتـه قبل أن يفرغ من تدخينها وراح يفركها بحذائه قائلا :

— الآن ، وعلى ما يبدو ، خلاص ! فليس ثمة من نسلمـه اياها اليوم ، حيث غدا الوقت متاخرا . فلننتظر حتى يوم الاثنين .

وشعر بنظرات الآخرين اليه والتى تحمل معنى الارتباك ، اذ أن الصقيع يتزايد مع حلول المساء .

وذكر رئيس العمال فى تردد :

— ربما كان من الأفضل تصفية مياه المواسير ؟

وذكر فيليب بيتروفيتش فى صرامة :

— هل نحن فى فصل الشتاء ؟

لم يكن يود على الاطلاق أن تلتقى نظراته مع عينى رئيس العمال ، الا أن ذلك حدث صدفة ، ليدرك انه قد فطن كذلك الى الأمر . ومن المؤكد ان يكون الآخرون قد فطنوا الى ذلك ، حيث ساد الموقف فجأة شىء من التوتر . الا أن فيليب بيتروفيتش رابط الجاش ذكر فى غير اكتراث :

— هيا بنا . . .

وانصرف الجميع فى صمت مطبق .

تذكر فيليب بيتروفيتش كل ذلك حين فتح الضلفة العليا للنافذة ، ووقع ناظراه على الندى الكثيف الذى كسا اوراق عباد الشمس والقرع التى اكسبها الصقيع سمرة .

وكما توقع فيليب بيتروفيتش ، كان العمال يقفون فى انتظاره الى جوار المضخة . ولم تكن ثمة ضرورة لابلاغه بفساد شبكة المياه ، حيث انتفخت المواسير وتشققت مما كان يتطلب بدء عملية الاصلاح من جديد .

وعلق فيليب بيتروفيتش على ذلك قائلا :

— يا للأسف . . . من ذا الذى كان يمكن ان يتوقع ذلك ! يا له من صقيع ! . . لن يصيب الوهن عزائمنا . ينبغى تغيير المواسير . حقا أنها غير موجودة ، لكننا سوف نسعى من أجل الحصول عليها . . .

كان الجميع يتاملونه فى شىء من الحيرة ، ليدرك ان الجميع يحترمونه لجسارته ، ويهابون ما أقدم عليه ، بل ويهابون أكثر هدوءه .

حقا . . . لقد كان اولئك الذين يعملون مع فيليب بيتروفيتش من انصاره ، لكن الى متى سوف يستمر فى المغامرة بمصائرهم ؟

ووفقا للنظام غير المكتوب السائد فيما بين باراكوف

وليوتيكوف ، لم يكونا يلتقيان فى غير أماكن العمل كيلا يثيرا الظنون بشأن احتمال صداقتهما ، ومن ثم احتمال تعاملهما على أساس لا صلة له بالعلاقات الوظيفية . واذا ما كان الأمر يحتم ضرورة التحادث بشأن امر عاجل كان باراكوف يستدعى فيليب بيتروفيتش الى مكتبه ، بينما يقوم باستدعاء بقية رؤساء الورش قبل وصوله وبعده .

وفى تلك المرة ظهرت ضرورة ملحة للحديث .

دلف فيليب بيتروفيتش الى مكتبه بالورشة والقى على المكتب بمعطفه الأزرق الملفوف الذى كان يحمله دائما تحت ابطه ، ورفع غطاء رأسه وخلع معطفه ومسح براحتيه على شعره الأشيب وسوى بمشطه شاربه القصير وذهب الى باراكوف .

وكانت ادارة الورش كائنة فى مبنى حجرى صغير بالفناء .

وعلى النقيض من غالبية المؤسسات والمساكن الشخصية فى كراسنودون والتى كان الجو فيها مع حلول الشتاء يغدو أكثر برودة من الشارع ، كانت ادارة الورش تنعم بدفء شأن ما تنعم به المؤسسات والمساكن التى يعمل بها ويعيش الألمان . كان باراكوف يجلس فى مكتبه الدافىء يرتدى سترة فضفاضة عريضة الياقة مفتوحتها ، تبدو من تحتها ياقة قميص سماوى جيدة الكواء ، وربطة عنق ناصعة اللون . وكان باراكوف يبدو أكثر نحافة مما كان عليه ، اكسبته الشمس سمرة مما أضفى عليه مسحة الشباب . وقد ترك شعره ينمو ليقوم بتمشيطه على نحو بدا معه متموجا كثا فوق جبهته . وقد أثار هذا الشعر المتموج على جبهته والغمازة فى ذقنه ، وفى نفس الآن نظرته الواضحة المباشرة الجسورة وعيناه الكبيرتان وشفتاه المضمومتان المكتنزتان ، انطباعا متباينا لدى الآخرين فى مثل هذا الموقف .

كان باراكوف يجلس فى مكتبه لا يفعل شيئا بكل ما يحمل ذلك من معنى . وسعد كثيرا لمقدم ليوتيكوف .

وتساءل فيليب بيتروفيتش وهو يجلس قبالته يلتقط انفاسه :

— هل تعلم الأمر ؟

وانفرجت شفتا باراكوف المكتنزتان عن شبه ابتسامة ليقول :

– فلتذهب الى الجحيم !

– كلا انني اتحدث بشأن نشرة الأنباء !

وكان باراكوف يملك مذياعا خاصا به ولذا فقد أجابه :

– اعرف كذلك .

وتساءل ليوتيكوف بالاوكرانية ضاحكا فى سخرية :

– وهل سرعان ما يصلون حقا الى اوكرانيا ؟

– هكذا سوف نفعل . . سنعد حركة «عامة» .

ورسم باراكوف بكلتا يديه دائرة واسعة ، بحيث غدا واضحا لفيليب بيتروفيتش ماذا تعنى «الحركة العامة» التى سوف يعدها باراكوف . ثم دار براحة يده على المكتب وحرك أصابعه على نحو غير محدد قائلا :

– بمجرد أن يصل رجالنا . . .

وذكر فيليب بيتروفيتش بنبرة تعكس ارتياحه الى زميله :

– حقا . .

– سوف احضر لك غدا كل الخطة . . . اننا نعانى من نقص فى الجمال والحبال والأموال وليس فى الأطفال . . .

وهنا ضحك باراكوف حيث راقه ما استشهد به من سجع بمحض الصدفة . وقد كان يقصد ان المقاتلين موجودون ، بينما تنقصهم البنادق والذخيرة .

– سابلغ الشباب بضرورة احضار ما تريد .

ذكر فيليب بيتروفيتش هذا ثم تحول فجاة الى ما يقض مضاجعه فى حقيقة الأمر :

– ان الأمر لا يتعلق بالمضخة . بل يتعلق . . . انك تعرف باى شىء !

وظهرت تجعيدة واضحة على جبهة باراكوف ، ليقول فى حسم :

– فلتسمع ما اقترحه عليك . . . ما رايك ان اقلتك من عملك ؟ سوف اتذرع بانك تسببت فى تجمد شبكة المياه ، لافصلك من العمل .

واستغرق فيليب بيتروفيتش فى التفكير ، حيث كان ذلك حلا معقولا . لكنه ذكر بعد برهة من الوقت :

– كلا . . . ليس ثمة مكان احتمى به . وحتى اذا ما وجدت هذا المكان ، فانه من المستحيل ذلك ، حيث ان الجميع سوف يفطنون الى الأمر ، ليلحقك الأذى ، كما ويلحق الآخرين . – ثم اضاف فى حسم : – يستحيل علينا اليوم أن نفقد مثل هاتين الوظيفتين . سوف نواصل متابعتنا لأحوال قواتنا على الجبهة . اذا ما كانوا متقدمين ، فعلينا العمل بحماس لصالح الألمان حتى يكتشف من كانت تراوده الريبة بشأننا ، انه قد اخطا ، حيث يجد ان وضع الألمان قد تدهور ، فى حين نمارس عملنا بنشاط ! وسوف يكون الأمر سيان ، لأن ما نقوم به ، سوف يئول الى مواطنينا .

واذهلت هذه الفكرة باراكوف للوهلة الأولى نتيجة بساطتها ، الا انه ذكر :

– لو اقتربت الجبهة كثيرا سوف يجرى تحويلنا لاصلاح الأسلحة .

– اذا ما اقتربت الجبهة سوف نلقى بكل شىء الى الشيطان ونتحول الى العمل الفدائى !

وتوارد الى خاطر باراكوف فى ارتياح : «كم هو عظيم ذلك العجوز» .

وذكر فيليب بيتروفيتش :

– يجب تشكيل مركز آخر للقيادة خارج الورش يمكن ان يكون احتياطيا لك ولى .

وقد راودته رغبة فى ان يقول ما يكون مواساة او اشبه بالمواساة . . . «ربما لا تكون فى حاجة الى مثل هذا المركز . . .» لكنه شعر بعدم ضرورة الافصاح عن ذلك ليمضى قائلا :

– لقد اصبح رجالنا اليوم ذوى خبرة وحنكة ، ويستطيعون الاضطلاع بمهام العمل دوننا . اوليس ذلك حقا ؟

– حقا !

وذكر فيليب بيتروفيتش فيما تأمل باراكوف فى صرامة ثم رمش له بحاجبه :

– يجب عقد اجتماع للجنة المنطقة . لقد كانت آخر مرة

اجتمعنا فيها قبل وصول الالمان . واين مبدا الديمقراطية فى العلاقات الحزبية ؟

وانفجر باراكوف ضاحكا . فلم يكن اجتماع للجنة المنطقة قد عقد بالفعل ، حيث كان ذلك امرا مستحيلا فى مثل ظروف كراسنودون . بيد انهما لم يكونا يقرران شيئا هاما بدون التشاور مع القادة الآخرين فى المنطقة .

وشاهد فيليب بيتروفيتش فى طريق عودته الى مكتبه عبر الورشة ، موشكوف وفولوديا اوسموخين وتوليا اورلوف الذين كانوا يعملون على المناجل .

وتظاهر فيليب بيتروفيتش بانه جاء من أجل الاشراف على العمل ، وسار بمحاذاة المائدة التى امتدت الى جوار الحائط لمسافة تقرب من نصف طول الورشة ، والتى كان يعمل البرادون عليها . وقام الشباب الذين كانوا يدخنون ويتسكعون دون عمل ، بتناول مباردهم متظاهرين بالعمل .

وحين اقترب فيليب بيتروفيتش ، رفع اليه موشكوف عينيه ليقول بصوت خافت وابتسامة تتسم بالغضب :

— هيه . . أو نالك عقاب ؟

وادرك فيليب بيتروفيتش ان موشكوف يعرف موضوع المضخة ويسال عن باراكوف . فلم يكن شان الشباب الآخرين يعرف الحقيقة بشأن باراكوف معتبرا اياه رجلا المانيا .

وهز فيليب بيتروفيتش راسه وكانما قد ناله فى حقيقة الأمر عقابا :

— لا داعى للحديث . . .

ثم مضى يسال اوسموخين وهو يميل نحوه وكانما يتفحص عمله :

— كيف الحال ؟

ثم استطرد يقول بصوت خافت :

— ابلغ أوليج كى يزورنى هذه الليلة ، كما فعل آنذاك . . .

وكانت تلك حلقة ضعيفة أخرى فى سلسلة منظمة «الحرس الفتى» فى كراسنودون .

الفصل الثانى والخمسون

كلما كان يتوسع الجيش الاحمر فى تحقيق انتصاراته ليس فقط فى منطقة ستالينجراد وعلى نهر الدون ، بل وفى شمال القوقاز ومنطقة فيليكيه لوكى ، كلما كان يتزايد نشاط «الحرس الفتى» ويتخذ ابعادا اعرض .

كانت «الحرس الفتى» منظمة كبيرة انتشرت فى كافة ارجاء المنطقة ، تضم ما يزيد عن مائة عضو ، الى جانب انصارها ومعاونيها .

وتنامت المنظمة ، حيث كان ذلك امرا طبيعيا نتيجة تطويرها لنشاطها ، وهو ما كان واجبا عليها . بيد انه وللحقيقة بدا الشباب اعضاء المنظمة يشعرون بانهم غدوا اكثر وضوحا عن تلك الفترة التى بداوا فيها نشاطهم . وقد كان ذلك امرا محتوما .

غير انه كلما ازداد نشاط المنظمة ، كلما كانت حبال شبكة «القبض على كل من هب ودب» التى فرضتها الشرطة والجستابو ، تضيق حول عنقها .

وفى احد اجتماعات القيادة تساءلت اوليانا فجاة :

— من منا يعرف الابجدية اللاسلكية ؟

ولم يسالها احد عن سبب توجيه مثل ذلك كما ولم يكن ثمة من سخر منها . وقد يكون ذلك نتيجة ان اعضاء القيادة كانوا يفكرون آنذاك ولاول مرة منذ بدء نشاطهم ، فى احتمال القبض عليهم . بيد ان تلك الافكار كانت مجرد خواطر لم تصمد كثيرا . فلم يكن هناك ما يهددهم بعد .

وفى تلك الفترة بالذات جرى استدعاء اوليج لحديث شخصى مع ليوتيكوف .

ولم يكونا قد التقيا منذ ذلك اللقاء الاول ليجد كل منهما ان تغييرات كبيرة قد طرات على الآخر .

فقد شاخ فيليب بيتروفيتش كثيرا ، وغدا أكثر بدانة . الا ان ذلك وكما بدا ، لم يكن نتيجة الصحة الجيدة . فقد كان اثناء حديثهما ينهض كثيرا من مكانه يذرع الحجرة ذهابا وايابا بعض الوقت ليعود الى مكانه من جديد . وكانت انفاس ليوتيكوف تتناهى عالية الى سمع

اوليج . وتمثل الصعوبة التى يكابدها ليوتيكوف فى حمل جسمه الكبير . ولم يكن هناك سوى عينيه اللتين راحتا تنظران اليه فى صرامة دون أن تبدو فيهما اية امارات للتعب او الانهاك .

اما ليوتيكوف فقد شاهد اوليج كبيرا ، فارع القامة ، شابا ناضجا يعيش أحسن فترات حياته . وقد غدت واضحة قسمات وجهه بارز العظام ، ولم يبق من امارات طفولته سوى ما تنم عنه عيناه وثنية شفتيه المكتنزتين ولاسيما حين كانتا تفتران عن ابتسامة . بيد انه بدا فى ذلك اللقاء اكثر استغراقا فى التفكير ، يجلس متململا فى مكانه وقد هبط براسه فيما بين كتفيه ، وظهرت الغضون العريضة على جبينه .

وراح فيليب بيتروفيتش يغرق فى استفساراته وتساؤلاته المرة تلو الأخرى عن مجموعات «الحرس الفتى» القديمة والجديدة . وقد شعر اوليج انه غير مهتم بالجانب الظاهرى للمنظمة والذى كان يعرفه جيد المعرفة عن طريق بولينا جيورجيفنا بقدر اهتمامه بالوضع الداخلى لها ، ولاسيما تصور اوليج عنها وعن حالة اوضاعها .

لقد كان فيليب بيتروفيتش مهتما بمدى معرفة اعضاء المنظمة كل للآخر ، وبكيفية اتصال القيادة بالاعضاء ، واتصال المجموعات بعضها البعض والتنسيق فيما بينها . وتذكر عملية مهاجمة قطيع الماشية ، وتساءل طويلا حول كيفية ابلاغ القيادة للمجموعات بشأن العملية المرتقبة ، وكيف ابلغ قائد كل مجموعة اعضاءها ، وكيف التقى هؤلاء الاعضاء . كما واعلن اهتمامه بامور اكثر اعتيادية مثل لصق المنشورات ، من وجهة نظر الاشراف والاتصال كذلك .

ونعود هنا لنقول أن فيليب بيتروفيتش كان يتميز بانه فى حديثه مع اى من الآخرين بالقدرة على الاصغاء الى حديثه حتى النهاية ، دون أن يتعجل ابداء رايه . ولم يكن ابدا يتظاهر بمجاراة لهجة وطريقة سميره فى الحديث ، بل كان يتحدث مع الصغير والكبير حديث الند للند .

وقد شعر اوليج بذلك ، حيث كان فيليب بيتروفيتش يتحدث معه وكأنما مع موجه سياسى يصغى الى كل ما يقوله فى انتباه . ولا ريب فى ان مثل هذه العلاقة كانت يمكن ان تكون فى اى وقت آخر

مصدر فخر وسعادة اوليج . بيد انه كان يشعر اليوم بان فيليب بيتروفيتش غير راض عن «الحرس الفتى» . فقد راح يسأله ويسأله ثم نهض من مكانه فجأة وصار يذرع الغرفة على غير عادته . ثم كف عن توجيه اسئلته ليستغرق فى سيره فقط ، بينما لزم اوليج الصمت .

واخيرا استقر فيليب بيتروفيتش فى مقعده قبالة اوليج ليرفع اليه عينيه الصارمتين ، ثم قال :

– لقد كبرت المنظمة ، كما كبرتم أنتم ، وهذا شىء جيد . فالفائدة منكم جمة ، وقد شعر الشعب بوجودكم ، وسوف يحين الوقت الذى يعلنكم فيه عن شكره . اما انا فسوف اقول لك ما لا يعجبنى . عليكم عدم قبول اى شخص آخر فى هذه المنظمة بدون اذنى . . كفى ! فقد جاء الوقت الذى يقوم فيه بتقديم العون الينا اكثر الناس كسلا واضطرابا ، دون أن يستلزم الامر انخراطه فى المنظمة . واضح ؟

وذكر اوليج فى صوت خافت :

– واضح !

– الاتصالات . .

قالها فيليب بيتروفيتش ثم لزم الصمت برهة ليستطرد قائلا :

– انكم تعملون بصورة بدائية . لقد افرطتم فى التزاور ، وفى الانتقال من مسكن لآخر . ولاسيما فى مسكنك ومسكن توركينيتش . ان ذلك امر محفوف بالخطورة . لقد كنت قادرا على ملاحظة ذلك ، لو كنت احد سكان شارعك العاديين . لماذا يهرول الشباب والفتيات اليكما فى كثير من الاوقات وليلا فى بعض الاحيان ، فى ساعات حظر التجول ؟ لماذا يجيئون اليكما ؟ هكذا يمكن ان يفكر المواطن العادى . هذا بينما يجرى البحث عنكم . فان الذين سيوكلون اليهم البحث عنكم سيلتفتون الى ذلك قبل غيرهم . انكم شباب ، ولكم ان تجمعوا احيانا ، لا من أجل السياسة ، بل لمجرد الترفيه .

وقد نطق فيليب بيتروفيتش هذه الجملة الاخيرة بنبرة رقيقة فيما انفرجت شفتاه عن ابتسامة تنم عن دهاء .

واعترت مشاعر الارتباك اوليج ليبتسم مومئا براسه .

وذكر فيليب بيتروفيتش بنبرة غاية فى الجدية :

– ان هذا لا يصلح . يجب عليكم التحمل قليلا ، وحتى يأتى

رجالنا وحين يمكن لنا ان نمرح كما نشاء . كما ويجب التقليل من اجتماعات القيادة . ان الحرب دائرة ، ولديكم القائد العسكرى والقوميسار السياسى ، فلتعملوا كما يعملون فى الجبهة . اما عن الاتصالات فيجب ان يكون على مستوى منظمتكم . من الجيد ان تفكروا فى مكان يمكن لكل فرد التردد عليه فى حرية دون ان يثير دهشة وريبة الآخرين . ماذا يوجد اليوم فى نادى جوركى ؟

واجاب اوليج :

— لا شىء . مبنى مهجور ، لا يصلح مقرا لمؤسسة ولا مكانا للاقامة ، ولذا يظل مهجورا .

وهنا تذكر يوم لصق على جداره منشوراته ، حين كاد يقع فى قبضة الشرطى ، وتخيل مدى قدم ذلك الحادث .

— يمكن ان تطلبوا من رئاسة المدينة السماح لكم باستخدامه ناديا .

ولبث اوليج صامتا برهة من الوقت ، لتتجمع الغضون على جبهته ، ثم قال :

— لا افهم .

وذكر ليوتيكوف :

— ليس ثمة ما يجب فهمه . ان النادى مقر للشباب وللسكان . فلتنظموا الشباب والفتيان ممن ليست لهم اية اهتمامات سياسية ، من اولئك الذين يفكرون فى اللهو وحسب ، ولتشكلوا مجموعة للمبادرة بمشاركتكم ، ولتتوجهوا الى السيد عمدة المدينة بطلب السماح لكم بافتتاح المبنى ناديا حيث يمكن وكما يقال ، تقديم النشاط الثقافى للترفيه عن الناس فى اطار «النظام الجديد» . فلتتذرعوا بضرورة افتتاحه حتى يتخذه الشباب مكانا للرقص بدلا من التسكع هنا وهناك ، وكيلا يصبحوا فريسة للافكار الضارة . وسوف يتردد ذلك النذل فى اتخاذ القرار ، حيث لا يستطيعه ، وليرفع طلبكم الى رئاسته التى يمكن ان تسمح بذلك . فهى نفسها تكاد تموت ضجرا .

وسرعان ما فطن اوليج بما اتسم به من تقدير كبير للامور لا يتناسب وسنه ، الى امكانية تعيين بعض اعضاء القيادة فى ادارة النادى حتى يمكن عن طريقهم الاتصال برؤساء الخلايا الخماسية .

بيد ان احتمال تورطه رغما عن ارادته فى حياة لا تتسم بالانسانية ، واشتراكه فى امور ذلك العالم الوضيع كان يؤرق ضميره . هل له ان يدعم الاخلاق الدنيئة فى الناس او يساعد على ذلك وان كان بطريق غير مباشر . . . كلا . . انه قادر على القيام باى شىء عدا المساهمة فى ذلك الامر ! وظل ساكتا لا يقول شيئا ، منكس الراس ، غير قادر على النظر الى فيليب بيتروفيتش .

وذكر ليوتيكوف فى هدوء :

— هكذا ظننتك ! انك لم تدرك جوهر القضية ! وان كنت قد ادركته ، لكان يمكنك تقديم هدية كبيرة لى وللمنظمة . — ونهض ليوتيكوف من مكانه وخطا فى الغرفة بضع خطوات ثقيلة . — انك صبى صغير ، ومع ذلك تخاف . . . تلويث سمعتك ! ان نظيف النفس لن يغدو قذر الملبس ! اية دعاية تظنونهم سوف يوجهونها من النادى ؟ هل سيضعون مكبرا للصوت به ، انهم يفعلون ذلك بدون ناد . يجب علينا بذل الجهد حتى يظل النادى تحت اشرافنا . وسوف تكون دعايتنا خافتة الصوت ، الا انها سوف تكون اقوى من دعايتهم . ولاقل لك صراحة . . اننا سوف نكون على اتصال خفيف بهذه المسالة . . الا ان ذلك سوف يتم ، ومعذرة . . دون ان تلحظوا . اما عن البرنامج . . فلكم اعداده محايدا . واذا ما اوكلت هذه المهمة الى الشباب من امثال موشكوف وزيمنوخوف او اوسموخين ، ويا حبذا لو اوكلت ذلك الى ليوبا شيفتسوفا ، فسوف يقومون بها على افضل نحو .

وظل العجوز ليوتيكوف يقنع رفيقه الصغير طويلا باهمية القضية ، حتى بعد ان اعلن اوليج عن موافقته . بل وكان اوليج غير راض عن انسياقه وراء العواطف الكاذبة .

وذكر ليوتيكوف مواصلا تعليم اوليج :

— اننى اقول ذلك حتى تستطيع ان تقنع رفاقك اذا ما ساقوا لك الحجج التى افصحت عنها الآن .

وحصل فانيا زيمنوخوف وموشكوف وفتاتان لا صلة لهما بالمنظمة على توصية ادارة المنجم رقم ١ ، ليذهبوا جميعا الى عمدة المدينة ستاتسينكو . وكانوا حقا يمثلون مجموعة الشباب الذين استطاعوا استقطابهم حول هذه الفكرة .

واستقبلهم ستاتسينكو فى مقر بلدية المدينة البارد غير النظيف . وقد كان كعادته مخمورا . واذ وضع يديه الصغيرتين متورمتى الاصابع على مفرش المائدة من الجوخ الاخضر راح يحدق النظر فى فانيا زيمنوخوف الذى اتسم بالتواضع واللباقة والتادب مما جعله لا يبادله تلك النظرات مكتفيا بالنظر الى مفرش المائدة الأخضر .

وذكر فانيا وهو يحرك اصابعه فى الهواء على نحو غير محدد :

— ثمة اشاعات كاذبة تنتشر فى المدينة تدعى أن الجيش الالمانى يلقى الهزائم عند ستالينجراد . وقد لوحظ بعض الارتباك فى صفوف الشباب بهذا الصدد . وقد جئنا اليكم بتوصية من السيد باول — وكان ذلك لقب مفوض كتيبة المناجم بالمنجم رقم ١ ، والسيد . . . — وذكر لقب رئيس قسم التربية والتثقيف فى بلدية المدينة ، والتى يجب ان تكونوا على علم بها ايها السيد عمدة المدينة ، وباسم شباب المدينة الموالى للنظام الجديد نطلب منكم شخصيا يا فاسيلى ايللاريونوفيتش ، ونحن نعرف طيبة قلبكم . .

وفجاة صاح ستاتسينكو فى رقة :

— من جهتى ايها السادة . . . الشباب . . . ان بلدية المدينة . . .

وترقرقت الدموع فى مآقيه .

فقد كان ستاتسينكو ، والسادة ، والشباب يعلمون أن بلدية المدينة لا تستطيع تقرير شىء ، حيث تتوقف كل الامور على رئيس الشرطة . بيد أن ستاتسينكو نفسه كان مؤيدا ، وقد اصاب فيليب بيتروفيتش فى ذلك ، حيث كان «يموت ضجرا» .

وهكذا وفى التاسع عشر من ديسمبر ١٩٤٢ اقيم اول حفل فى نادى جوركى وبموافقة بريوكنر .

كان المتفرجون يجلسون ويقفون فى ملابسهم الشتوية ومعاطفهم الصوفية والفرائية ، حيث كان النادى غير مدفأ ، الا أن الحاضرين كانوا ضعف ما يتسع النادى لدرجة أن قطرات الماء سرعان ما أخذت تتساقط من سقف القاعة المشبع بالرطوبة .

وقد احتل المقاعد الامامية الضابط بريوكنر ومساعده بالدر والملازم شفيديه ونائبه فيلدنير وساندرز برفقة كل موظفى الادارة

الزراعية ، والملازم اول شبريك برفقة نيمتشينوفا ، وعمدة المدينة ستاتسينكو ورئيس الشرطة سوليكوفسكى برفقة زوجته ، والمحقق كوليشوف الذى أرسل لمعاونته منذ مدة قريبة . وقد كان ذلك الشخص انسانا يتسم بالهدوء واللباقة ذا وجه يغطيه النمش وعينين زرقاوين وحاجبين يندر شعرهما الاصفر يرتدى معطفا أسود طويلا وغطاء راس شتوى أحمر القاع تحيط به حواش ذهبية . كما وحضر الحفل باول وبونير وبيكير وبلوشكيه وشفارتس وغيرهم من مساعدى كتيبة المناجم ، وكذلك المترجم شوركا ريباند وطباخ بريوكنر ، وكبير طباخى الملازم شفيديه .

واحتل بعض المقاعد البعيدة فيما بين الحاضرين من السكان المحليين بملابسهم القاتمة واغطية رؤوسهم الرثة ، جنود الوحدات الالمانية والرومانية العابرة ، ورجال الشرطة الذين كانوا يتميزون عن الآخرين بمعاطفهم وستراتهم العسكرية . ولم يحضر فينبونج الحفل ، نظرا لمشاغله الكثيرة ، وعدم حبه للهو .

كان كبار الضيوف يجلسون قبالة الستار السميك القديم الذى يحمل فى كل أرجائه شعارات الاتحاد السوفييتى بعلامات المنجل والمطرقة . بيد انه وحين ارتفع الستار شاهد المتفرجون فى نهاية المسرح صورة ملونة كبيرة للفوهرر جرى رسمها محليا مع بعض الخلافات فى مقاييس الوجه ، لكنها شديدة الشبه بهتلر .

وبدا الحفل بفوديفيل فولكلورى ، لعب فيه فانيا توركينيتش دور العجوز والد العروس ، والذى جرى وفقا لتقيده بالمبادئ والقواعد الفنية وضع المكياج له ليغدو شديد الشبه بالبستانى دانيليتش . واستقبل جمهور كراسنودون ممثله المحبوب ، كما ودّعه بالتصفيق الحار . ولم يضحك الألمان لأن بريوكنر لم يفعل ذلك . بيد أن بريوكنر قام عند انتهاء هذه الرواية الصغيرة يخبط كفا بكف . وعندئذ انخرط الألمان فى التصفيق .

وقام اوركسترا الآلات الوترية مطعما بافضل عازفى جيتار فى المدينة ، فيتيا بيتروف وسيرجى ليفاشوف ، باداء فالس «حلم ليلة خريفية» ، و«هل لى أن أخرج الى النهير» .

واعتلى خشبة المسرح ادارى النادى ومقدم الحفل ، ستاخوفيتش

في حلته داكنة اللون وحذائه اللامع ، نحيف القامة ، رابط الجاش ، ليعلن :

– الفنانة الاستعراضية بمقاطعـــة لوجانسك . . . ليوبوف شيفتسوفا .

وصفق الحاضرون .

وظهرت ليوبكا في فستانها الأزرق وحذائها سمـــاوي اللون ، تصاحبها فاليا بورتس على بيانو عتيق ، لتغني بعض الأغاني الحزينة والمرحة . وقد نالت اعجاب المتفرجين لدرجة أنهم استدعوها كثيرا الى المسرح . واندفعت من جديد الى المسرح كما الاعصار في فستان ملون وحذاء بيج تمسك في يدها بهارمونيكا ، لترقص رقصا عاصفا . وضج الألمان مودعين اياها بعاصفة من التصفيق .

وظهر ستاخوفيتش من جديد في حلته الداكنة :

– محاكاة شعرية هجائية غجريـــة . . فلاديمير اوسموخين . يصاحبه على الجيتار سيرجي ليفاشوف !

واذ قام فولوديا يلي يديه ومط رقبته على نحو غير طبيعي ، والاندفاع احيانا الى رقص عاصف ، راح يغني «آه يا أماه . . اموت ضجرا يا أماه» . وصار سيرجي ليفاشوف يتابعه في تجهم .

وضحك الجمهور ، وكذلك الألمان .

واخذ فولوديا يدندن بما غناه ، يمط رقبته ، ويدور برأسه على ذلك النحو غير الطبيعي ، في اتجاه صورة الفوهرر في غالبيـــة الأحيان .

فلتقل لنا أيها الصعلوك
من أهلك ومن أين قدمت ؟
صدقني أن الجزاء قريب قريب
والشمس آتية – ساطعة حامية
لتفط في نومك . . الى أبد الآبدين

وصار الحاضرون يقفزون في أماكنهـــم ، يصيحون اعجابا ، يعيدون فولوديا الى المسرح مرات ومرات .

وانتهى الحفل ببعض العاب السيرك التي قدمتها فرقـــة كوفاليف .

وريثما كان الحفل مقاما بالنادي ، استطاع اوليج ونينـــا

التقاط بلاغ «آخر ساعة» حول الهجوم الكبير للقوات السوفييتية في المنطقة الوسطى من الدون ، وحول تحريرها لنوفايا كاليتفا وكانتيميروفكا وبوجوتشار ، اى تلك المواقع التي احتلهـــا الألمان قبيل وصولهم الى الجنوب في يوليو من العام الحالي .

وظل أوليج ونينا ينسخان هذا البلاغ وحتى مطلع الفجر . وفجأة تعالى الى سمعهما هدير محركات ، جعل الذهول يعتريهما . واندفعا الى الفناء ، ليريا باعينهما القاذفات السوفييتيـــة تحلق واضحة في سماء المدينة التي لفها الصقيع . كانت تطير بسرعة غير كبيرة تملأ أرجاء الجو بهدير محركاتها ، لتلقي بقنابلها في مكان ما قبل فوروشيلوفجراد . وترامت اصوات انفجـــارات القنابل لتبلغ كراسنودون . ولم تتصد اية طائرات معاديـــة للقاذفات السوفييتية ، كما ولم تطلق المدافع المضادة للطائرات نيرانها عليها الا بعد برهة من الزمن . الا أن القاذفات السوفييتية ورغما عن ذلك راحت تعبر سماء كراسنودون في الاتجاه المعاكس وفي سرعة بطيئة .

الفصل الثالث والخمسون

في تلك الايام التاريخية المشهودة – أيام نوفمبر وديسمبـــر ١٩٤٢ – لم يكن المواطنون السوفييت ، ولاسيما الذين يرزحـــون تحت وطأة الاحتلال الالماني ، قادرين على تصور الأبعاد الحقيقية للأحداث التي تمثلت في ذاكرة الشعوب بكلمة رمزية واحدة . . . ستالينجراد .

ستالينجراد . . انها ليست فقط دفاعا لا مثيل له في التاريخ ، عن قطعة أرض ضيقة على ضفاف الفولجا ، بمدينة تحطمت حتى النهاية ، ضد عدو ملك قوات هائلة مزودة بكافة انواع الأسلحة والمعدات العصرية الكثيرة ، لم يحدث وشاركت مثلها في اى من المعارك طوال تاريخ البشرية .

ستالينجراد . . انها مرآة عظيمة للعبقرية العسكرية التـــي كان يتمتع بها اولئك القادة الذين شبوا في ظل النظام السوفييتي .

ففى برهة وجيزة لم تتعد شهرا ونصف الشهر استطاعت القوات السوفييتية وفق خطة واحدة جرى تنفيذها على ثلاث مراحل فى مساحات هائلة من برارى الدون وما جوار الفولجا ، محاصرة اثنتى وعشرين فرقة وتدمير ست وثلاثين من فرق العدو . ولم يتطلب الامر اكثر من شهر واحد ليجرى القضاء على الفرق المحاصرة واسر قواتها !

ستالينجراد . . انها خير شهادة على العبقرية التنظيمية لأولئك الذين شبوا فى ظل النظام السوفييتى . ولادراك تلك الحقيقة يكفى للمرء أن يتصور الأعداد البشرية الهائلة والمعدات العسكرية التى جرى تحريكها وفق خطة واحدة ، وارادة واحدة ؛ والاحتياطيات البشرية والمادية الضخمة التى جرى توفيرها واعدادها لتنفيذ هذه الخطة ، والجهود التنظيمية والثروات المادية التى جرى بذلها لنقل تلك الحشود الى الجبهة وامدادها بالمواد الغذائية والملابس والذخيرة والوقود ، واخيرا . . النشاط التعليمى والتربوى ذا الأهمية التاريخية العالمية الذى بذل من أجل أن تتزعم مئات الآلاف من القادة العسكريين من الرقيب وحتى المارشال ، المحنكين ذوى الخبرة من وجهة النظر العسكرية والتربية السياسية ، هذه الحركة وتحويلهم لها الى حركة واعية للملايين من المسلحين .

ستالينجراد . . انها دليل سامى على تفوق اقتصاديات المجتمع الجديد بخطته الموحّدة ، على المجتمع القديم بفوضاه الانتاجية . فما من دولة واحدة من دول الطراز القديم كانت لتستطيع فى خلال عام ونصف من توغل الى أعماق اراضيها قوات العدو التى يقدر تعدادها بالملايين ، تسلحها وتمدها صناعة وزراعة غالبية بلدان اوروبا ، وبعد ذلك الدمار والخراب اللذين لحقا بها ، —ما من دولة واحدة من دول الطراز القديم كانت لتستطيع من وجهة النظر الاقتصادية التصدى لمثل هذا الهجوم .

ستالينجراد . . انها تعبير عن القدرة المعنوية والوعى التاريخى للشعب الذى تخلص من اغلال الراسمالية ، ليدخل التاريخ من أوسع أبوابه .

وشأن كل المواطنين السوفييت لم يكن ايفان فيدوروفيتش بروتسينكو قادرا على معرفة الأبعاد الحقيقية للأحداث التى شهدها

وشارك فيها . لكنه وبحكم ارتباطه عبر الراديو وكذلك مراسل الاتصال مع قيادة فدائيى اوكرانيا والمجلس العسكرى للجبهة الجنوبية الغربية التى كان يتوجب عليها البدء فى دخول الاراضى الاوكرانية ، كان يعرف اكثر من المواطنين السوفييت الآخرين ، المناضلين ضد العدو فى اراضى مقاطعة فوروشيلوفجراد ، طابع وأبعاد العمليات الهجومية للقوات السوفييتية .

ولبث ايفان فيدوروفيتش يعيش فى فوروشيلوفجراد تلك المدة التى لزمته لتنظيم نشاط اللجان الاربع للعمل السرى بالمنطقة . بيد انه استطاع تغيير محل اقامته بضع مرات قبل ان يصله نبأ اختراق القوات السوفييتية للجبهة الالمانية فى اواسط الدون . وقد استقر فى غالبية الاوقات بالمناطق الشمالية للمقاطعة اعتبارا من نهاية نوفمبر .

لم يكن ثمة من أبلغ ايفان فيدوروفيتش بضرورة تواجده فى تلك المناطق الشمالية بالذات فى تلك الآونة . بيد ان تفكيره السليم او حدسه قد جعله يفطن الى ضرورة تواجده فى تلك المنطقة التى سوف تكون قريبة من جبهة القوات السوفييتية ، وحيث تستطيع فصائل الفدائيين التنسيق عسكريا مع قوات الجيش السوفييتى النظامية .

واقترب الوقت الذى انتظره ايفان فيدوروفيتش طويلا ، وحيث كان يمكن تشكيل الفصائل من مجموعات الفدائيين الصغيرة ، لتغدو قادرة على القيام بالعمليات الكبيرة .

وكان ايفان فيدوروفيتش قد استقر اخيرا فى احدى قرى منطقة بيلوفودسك لدى أقارب مارفا كورنيينكو ، وحيث اختبأ كذلك زوجها الرقيب جوردى كورنيينكو الذى جرى تحريره من الأسر . وكان كورنيينكو قد قام بتشكيل مجموعة فدائية فى القرية تولت الى جانب واجباتها الاساسية مهمة حماية ايفان فيدوروفيتش من كافة ما يمكن أن يتعرض له بمحض الصدفة . وكان يقوم بالاشراف على كافة مجموعات الفدائيين بمنطقة بيلوفودسك مدير تلك المزرعة الحكومية التى عمل بها تلاميذ مدرسة جوركى بكراسنودون ، والذى افرد عربة نقل لتهجير التلاميذ ، يوم طلبتها منه ماريا اندرييفنا بورتس . وكان ايفان

فيدوروفيتش قد اصدر امره الى ذلك المدير بالذات لتشكيل فصيل كبير من مجموعات الفدائيين بمنطقة بيلوفودسك يبلغ عدد افراده ما يقرب من المائتين .

ولم يكن العالم قد عرف بعد بالهجوم الجديد الكبير للقوات السوفييتية فى منطقة اواسط الدون ، حين التقط عامل اللاسلكى لدى ايفان فيدوروفيتش اشارة اخبارية حول اختراق الجبهة الألمانية لمسافة عميقة من الشمال الشرقى عند قطاع نوفايا كاليتفا – موناستيرشينا ، ومن الشرق ، فى منطقة بوكوفسكويه على نهر تشير . وقد صدر فى نفس الوقت أمر الى ايفان فيدوروفيتش بتوجيه كل القوات الفدائية الموجودة تحت تصرفه لقطع خطوط اتصالات العدو فى الشمال ، فى اتجاه كانتيميروفكا وماركوفكا ، وفى الشرق نحو ميلليروفو وجلوبوكايا وكامينسك وليخايا . وقد كان ذلك الأمر صادرا عن المجلس العسكرى للجبهة .

وذكر ايفان فيدوروفيتش فى نبرة احتفالية ، معانقا عامل اللاسلكى :

– لقد حانت ساعتنا !

وتبادلا القبلات كالشقيقين . وفجأة دفع ايفان فيدوروفيتش عامل اللاسلكى فى رقة ، ليهرول الى خارج المنزل فى نفس هيئته ، بملابسه المنزلية .

كان الصقيع شديدا والنجوم واضحة تضىء ظلمة الليل . كما وكانت الثلوج قد تساقطت فى الايام الاخيرة تغطى اسطح البيوت ، والتلال البعيدة التى راحت تغط فى سبات عميق متدثرة بها . ولبث ايفان فيدوروفيتش واقفا دون أن يشعر بتلك البرودة القارسة وقد فك أزرار قميصه ليبدو صدره عاريا ، يستنشق فى نهم الهواء البارد دون أن يمسك دموعه التى انزلقت من عينيه لتتجمد على وجنتيه .

وقطع ايفان فيدوروفيتش طريقه الى مسكنه فى حوالى ساعة . وكان قد صحب معه عامل اللاسلكى بجهازه . كما وكان جوردى كورنيينكو المقاتل العظيم يغط فى سبات عميق بعد عودته من عملية تدمير مراكز الشرطة فى النجوع . بيد ان النوم فارق

عينيه على التو بمجرد ان هز ايفان فيدوروفيتش كتفه وابلغه بما لديه من اخبار ، ليصيح وقد توقدت عيناه :

– الى جوار موناستيرشينا ! اننى من تلك الجبهة ، وهناك وقعت فى الأسر . . . ان رجالنا سوف يصلون الى هنا بعد بضعة ايام . . لا تنس كلمتى !

واعترى الاضطراب الجندى القديم ليشرع فى ارتداء ملابسه .

فقد كان جوردى كورنيينكو يشرف على كل مجموعات الفدائيين الشمالية ، ولذا كان عليه العمل فورا فى منطقة ماركوفكا – كانتيميروفكا . اما ايفان فيدوروفيتش برفقة عامل اللاسلكى بجهازه واثنين من الفدائيين ، فقد كان ينبغى عليهم الوصول الى قرية جوروديشى حيث كان يتمركز مدير المزرعة الحكومية وفصيله ، وحيث ادرك ايفان فيدوروفيتش انه قد حان الوقت الذى ينبغى فيه ان يكون الى جوار الفصيل .

وفى ايام ترحاله تلك كانت ترافقه باستمرار مراسلة الاتصال ماشا شوبينا ، صديقة زوجته ، التى صحبها معه من فوروشيلوفجراد . وقد اتضح انها ، وكما كان يتوقع من أولئك الناس الذين يتسمون بالصمود والوفاء ، يعيشون فى تواضع على هامش الحياة ، بحيث لا يمكن اكتشافهم بين الجماهير الغفيرة سوى حاد النظر والحواس من المشرفين . بيد أنه وحين يتوقف الاختيار عليهم ، يتفانون فى العمل الى أقصى حد ، ويروحون يعيشون ذلك العمل بكامل حواسهم بحيث يضطلعون عمليا بتنفيذ كل المهام الوظيفية لرؤسائهم ومديريهم . ولولا عون اولئك الناس لظلت المهام حبرا على ورق ، لا تعرف طريقا الى التنفيذ .

وقد فقدت ماشا شوبينا لانشغالها القدرة على تمييز الليل من النهار . ولو حاول اولئك الذين كانوا يعملون الى جوارها تصور اهم ما تتسم به حياتها وعملها ، لاصابتهم الدهشة ازاء كونهم لم يشاهدوها ذات يوم تخلد الى النوم . وكانت حين تفعل ذلك ، لا تستغرق كثيرا من الوقت ، والأهم ، على نحو غير ملحوظ وكانما لم تنم قط .

كان حب العمل يتاجج فى اعماق تلك المراة . وكانت سعادتها الشخصية الوحيدة التى تبعث الدفء الى نفسها تكمن فى شعورها

بانها ليست وحيدة ؛ وان كانت للحقيقة غير قادرة على معايشة صديقتها كاتيا ، التى كانت مارفا كورنيينكو حلقة اتصالها بها . بيد ان ماشا كانت تعرف ان صديقتها الحبيبة الوحيـــدة تعيش قريبة منها فى مكان ما ، وانهما تعملان لصالح قضية مشتركة واحدة . اما عن علاقتها بايفان فيدوروفيتش ، فقد كانت شديدة الاخلاص له ، تتفانى فى شكره لقاء كونه قد لحظها من بين الكثيرين واولاها ثقته التى يمكن ان تدفع حياتها ثمنا لها .

وقام ايفان فيدوروفيتش الذى استولت عليه ضخامة الأحداث التى ساهم بما استطاع بذله من جهد على تطورها ، باصدار آخر تعليماته الى ماشا :

– سوف تلتقين لدى مارفا بقائد فصيل ميتياكينسكـــى شخصيا . وتقع منطقة عملياته فى اطـــار الطرق المفضيـــة الى جلوبوكايا وكامينسك . فلتبلغيه بضرورة البدء فورا فى العمل والاستمرار فيه ليل نهار ، دون ان يسمح للعدو بفرصة يلتقط فيها انفاسه . كما ويجب ان تقوم مارفا بابلاغ كاتيا بضرورة ترك التدريس والعودة توا الى هنا . . .

وأعادت ماشا سؤاله :

– الى هذا المسكن ؟

– نعم . . اما أنت فعليك ، دون توان ، الذهاب الى كسينيا كروتوفا . هل تعرفين الطريق ؟

– نعم .

وكان ايفان فيدوروفيتش حين شرح لماشا دائرة واجباتها ، قد سلمها هذا العنوان : قرية أوسيبينكا ، النقطة الطبية . الطبيبة فالنتينا كروتوفا . وكانت كسينيا شقيقة فالنتينا تعمل آنذاك مراسلة اتصال بين يكاتيرينا بافلوفنا ، زوجة بروتسينكـــو ، وكافة لجان المنطقة الكائنة الى جنوب الدونيتس .

– فلتبلغى كسينيا : منطقة العمل – على الطرق المؤدية الى ليخايا ، وشاختى ، ونوفوتشيركاسك وروستوف وتاجانروغ . –

ومضى ايفان فيدوروفيتش يقول : – العمل ليل نهار . دون اعطاء العدو اية فرصة لالتقاط انفاسه . يجب الاستيلاء على النقـــاط الآهلة بالسكان واستمالة العدو الى ناحيتنا فى كل مكان قريب من

الجبهة . وتلغى شقة كاتيا كمكان رئيسى للقاء . والمكان الرئيسى للقاء الآن . . مسكن مارفا . سوف يجرى تغيير كلمة السر . . –

ومال الى اذن ماشا وادلى اليها بكلمـــــة السر الجديدة . – الن تنسيها ؟

– كلا .

وفكر برهة قليلة ثم قال :

– هذا هو كل شىء .

ورفعت عينيها اليه متسائلة :

– هل هذا هو كل شىء ؟

ولقد كان هذا السؤال يعنى فى جوهره «وانا ؟» ، الا ان عينيها لم تقولا شيئا .

وقام ايفان فيدوروفيتش فيما بين نفسه بوصفه انسانا قوى الذاكرة ، بمراجعة ما اذا كان قد نسى شيئا . وتذكر ما يجب ان تفعله ماشا :

– ينبغى عند وصولك الى كسينيا ، العمل تحت اشرافها . سوف تعملين مراسلة اتصال بمارفا . أرجو ان تبلغيها عـــن لسانى كى لا يرسلوك الى اى مكان .

واسدلت ماشا عينيها . فقد راحت تتخيل كيف سوف تذهب اليوم وحيدة ، بعيدا بعيدا عن تلك الاماكن التى سوف تصـــل اليها قواتنا ان لم يكن اليوم فغدا . نعم فبعد بضعة ايام ، لـــن يكون فى ذلك المكان الذى تقف فيه اليوم مع ايفان فيدوروفيتش عدو واحد ، ليعود من جديد ذلك العالم الناصع المضىء الـــذى انتظروه طويلا ، مضحين بحياتهم فى سبيله .

وذكر ايفان فيدوروفيتش بالأوكرانية :

– هيه يا ماشا . لا وقت لديك . . ولدىّ كذلك . شكرا لك على كل ما قمت به من مجهود !

واحتضنها بقوة ، ثم طبع قبلة على شفتيها ، لتعتريها مشاعر الهدوء والسكون وتغدو غير قادرة على مبادلته عواطفه .

وبارحت المسكن فى ملابسها التى لم تكن تتباين فى شىء عن تلك الأسمال البالية التى كان يرتديها سكان المناطق المحتلة ، لتتخذ طريقها الطويل فى مثل تلك الساعة المبكرة قبيل طلـــوع

الفجر ، تخطو بين الثلوج ، تحمل قسمات وجهها الذى تقدم به العمر امارات الصبا ، امرأة عادية لا يلحظها احد ، وان كانت ذات ارادة حديدية .

وبعد برهة قليلة من الوقت اتخذ ايفان فيدوروفيتش طريقه برفقة مجموعته غير الكبيرة . كان الهدوء والصقيع يغمران ذلك الصباح . وتبدت خيوط الفجر شتوية صارمة فيما بين غلالات الضباب الكثيف ، وساد السكون الأرض والسماء ، حيث انقطعت الأصوات وتوقفت الرياح فى ذلك الفضاء الرحب الذى لم تكن الأنظار تبلغ مداه ، والصحراء الثلجية التى انتشرت الشجيرات فى بعض وهادها ومنحدرات تلالها . كان كل شىء قد غط فى نوم عميق متدثرا بالثلوج ، ليحمل الى النفس البرودة وعدم الارتياح يعكس الفقر والندرة البشرية ، ليبدو وكأنما سوف يظل هكذا ابد الدهر . أما ايفان فيدوروفيتش فقد راح يقطع هذه الصحراء مترامية الأطراف ، فيما تدوى أصوات الانتصارات فى أعماق صدره الرحب .

انقضى من الزمن ما يزيد بقليل عن خمسة أيام منذ ذلك الصباح الهادىء الذى اتخذ فيه ايفان فيدوروفيتش طريقه الى فصيل الفدائيين ، وذلك الوقت المتأخر من المساء الذى وصل فيه اليه احد الفدائيين يرتدى معطفا غنمه من الألمان ، يرافق زوجته كاتيا الى كوخه المهجور الواقع قريبا من نجع جورروديشى . وكان دوى المعارك الهائلة يزلزل أرجاء الأرض والسماء يملأ كل الفضاء الرحب مترامى الأطراف . وجلس ايفان فيدوروفيتش الذى اكسبه البارود سوادا يتأمل وجه زوجته الجميل .

كان كل شىء يلف ويدور متمازجا مترفعا متألقا . وكان وميض صواريخ الاشارة ، ونيران المدافع يبدو واضحا فى الليل على مسافة عشرات الكيلومترات . وكان دوى القنابل يتعالى فى الارض والسماء . واندلعت المعارك الجوية ومعارك الدبابات الهائلة . ولم يستطع افراد فصيل ايفان فيدوروفيتش الذين بلغهم خبر تقدم فيلق المدرعات الذى حاز على لقب الحرس منذ مدة قصيرة ، التخلص من اوهامهم التى تمثلت فى تصورهم انهم يسمعون اصوات اصطدام القذائف بالدبابات . كما وكانت الطائرات

السوفييتية والمعادية ترسم فى الجو خطوطا حلزونية بيضاء تظل عالقة ساعات طوال بالسماء التى غمرها الصقيع .

كانت وحدات الشئون الادارية للقوات الالمانية التى اختلطت فيما بينها ، تزحف عبر الطرق الرئيسية فى اتجاه الغرب والجنوب الغربى ، بينما كانت الطرق الترابية التى لا حصر لها تحت سيطرة ايفان فيدوروفيتش . وكما يحدث عادة حين تقع الهزائم الفادحة ، وحين يروح المنتصر يشدد من هجومه ، كانت كل القوات الالمانية المسلحة التى ما تزال قادرة على المقاومة منصرفة الى مهمة صد هذا الخطر الرئيسى الرهيب ، دون ان تجد فرصة للرد على هجمات الفدائيين !

كانت الحاميات الالمانية متمركزة فى النقاط الصغيرة والكبيرة الآهلة بالسكان ، ولاسيما على ضفاف انهار كاميشنايا وديركول ويسفوج التى تصب فى الدونيتس الشمالى وحيث كان قد جرى فيما قبل تشييد التحصينات طويلة الأمد . وقد دارت رحى المعارك الضارية حول كل من تلك التحصينات حتى وحين كانت تجرى محاصرته ليصبح تحت امرة القوات السوفييتية المهاجمة . كما وكانت الحاميات الالمانية تقاتل حتى آخر جندى تنفيذا للأمر الذى اصدره هتلر بعدم التراجع وعدم الاستسلام . أما من كان يتخذ الطرق الترابية الفرعية ملاذا للفرار من مجموعات الجنود والضباط الالمانية المشتتة فقد كان يقع فريسة لنشاط الفدائيين .

وقد كان يمكن الحكم على مدى انتشار هجوم القوات السوفييتية استنادا الى ان المطارات الالمانية الكائنة فى المناطق المحتلة ، والتى كانت مقفرة تقريبا طوال بضعة اشهر ، تحولت فى هذه الايام الخمسة الى مطارات تعج بالحركة ، ولتصبح هدفا للطيران السوفييتى . ولذا فقد سارعت القوات الالمانية الجوية الاستراتيجية بالانتقال الى مطارات تقع على مسافة أعمق من تلك المواقع .

كانا يجلسان وحيدين فى كوخ منعزل .. كاتيا التى القت على التو بمعطفها الفرائى ، تحمل وجنتاها حمرة الصقيع ، وايفان

فيدورروفيتش الذى حمل السهاد السمرة الى وجهه . وكانت الشرارات تتقافز من عين لأخرى فيما يقول :

— اننا نقوم بكل ما يشير علينا به قسم الشئون السياسية لدى فيلق الحرس للمدرعات وحسنا نقوم بواجبنا .

ثم ضحك ليستطرد قائلا :

— كاتيا . . لقد استدعيتك لأوكل اليك مهمة لا استطيع ان اثق فى غيرك القيام بها . هل تعرفينها ؟

لقد كانت ما تزال تشعر بوقع عناقه الحار وقبلاته ، حيث كانت تعكس ذلك عيناها التى بللتها الدموع وتالقت فيما تنظر اليه . اما هو فلم يكن قادرا على الافصاح عن اى شىء عدا تلك المهمة التى كانت تملك كل حواسه . ولذا فقد خمنت على الفور سر استدعائه لها . كلا . . انها لم تكن فى حاجة الى التخمين ، حيث كانت قد ادركت ذلك بمجرد ان وقعت عليه عيناها . فلن تنقضى سوى بضع ساعات حتى يتوجب عليها مبارحته من جديد لتمضى . . وكانت تعرف الى اين . ولم تكن تعرف سر معرفتها لذلك ، والذى لم يكن يخرج عن اطار كونها تحبه . ولذا فقد اجابت على سؤاله بايمائة من رأسها ، ورفعت اليه من جديد عينيها المتالقتين اللتين بللتهما الدموع ، وكانتا بالغتى الجمال داخل اطار وجهها واضح القسمات صارمها بعض الشىء .

وقفز من مكانه فى سرعة ليتاكد من احكام اغلاق الباب ، ليتناول من حقيبته الميدانية بعض اوراق رقيقة صغيرة الحجم ، وفردها فى حرص على المائدة ليقول :

— انظرى . . لقد كتبت النص ، وكما ترين بالشفرة . اما الخريطة فلا يمكن رسمها بالشفرة !

وحقا . . كانت الكتابة قد غطت الاوراق من كلا وجهيها بقلم رصاص رفيع ، دقيقة لدرجة يتعذر على المرء معها تصور ان تكون يد بشرية هى التى فعلت ذلك . وكانت احدى هذه الاوراق تعكس خريطة مقاطعة فوروشيلوفجراد وقد غطتها المربعات والدوائر والمثلثات . ويمكن تخيل ضخامة الجهد الذى تطلبه هذا العمل المضنى اذا ما اشرنا الى ان اكبر هذه العلامات كان طولها نصف سنتيمتر ، واصغرها بحجم رأس الدبوس . لقد كانت

معلومات جمعت وروجعت فى دقة على مدى خمسة اشهر وجرى استكمالها باحدث التغيرات ، حول مواقع الخطوط الرئيسية لدفاعات العدو ونقاطه المحصنة ، ومواقع نيرانه ، ومطاراته وسرايا الدفاع الجوى وجراجات العربات وورش الاصلاح وتعداد القوات والحاميات وتسليحها وغير ذلك من المعلومات .

— فلتبلغيهم ان كثيرا من البيانات سوف يتغير لصالح العدو فى منطقتى فوروشيلوفجراد والدونيتس ، عما جاء فى قوائمى . اما كل ما جاء من بيانات قبل الدونيتس فسوف تظل دون تغييرات . كما ويجب ابلاغهم أنه يجرى تدعيم ميوس بشكل قوى . وسوف يستخلصون النتائج اللازمة بنفسهم . فلست معلما لهم . اما انت . . فاقول لك انهم ما داموا يدعمون ميوس ، فان ذلك يعنى ان هتلر فقد الثقة فى امكانية الاحتفاظ بروستوف . هل فهمت ؟

وضحك ايفان فيدورروفيتش بصوت رنان ينم عن مرح ، وكما كان يفعل عادة فى نطاق اسرته مع اطفاله ، حين لا يكون هناك ما يشغله . ونسى كل منهما للحظة من الزمن ما سوف ينتظرهم . وامسك ايفان فيدورروفيتش راس زوجته بكلتا يديه ، ومال به قليلا يتامل بعينين مفعمتين بالرقة وجهها قائلا :

— آه . . يا عزيزتى . . يا عزيزتى . . اننى لم ابلغك باهم الأخبار : لقد دخلت قواتنا الارض الاوكرانية . انظرى . . .

وتناول من حقيبته الميدانية خريطة عسكرية كبيرة لصقت اجزاؤها وفردها على المائدة . وكان اول ما وقعت عليه عينا كاتيا خطوط حمراء وزرقاء ، عريضة تمثل النقاط الآهلة بالسكان فى شمال شرقى مقاطعة فوروشيلوفجراد ، التى حررتها القوات السوفييتية . واجتاحت موجة من الدفء قلبها ، حيث كان الكثير من هذه النقاط قريبا جدا من جوروديشى .

جرى لقاء ايفان فيدورروفيتش وكاتيا فى تلك الايام ، حين لم تكن قد انتهت بعد المرحلتان الثانية والثالثة لعملية ستالينجراد العظيمة وحين كان خط الحصار الثانى لم يتصل بعد ليعلن احكام الحصار حول الالمان . بيد انه فى تلك الليلة كان قد ذاع نبأ القضاء على القوات الالمانية التى اندفعت لعون الالمان المحاصرين

في منطقة كوتيلنيكوفو ، ووصلت اولى الانباء حول مهاجمة قواتنا لشمال القوقاز .

وذكر ايفان فيدوروفيتش في مرح :

— لقد قطعت قواتنا خط السكة الحديدية ليخايا — ستالينجراد في موقعين ، هنا . . عند تشيرنيشيفسكايا ، وعند تاتسينسكايا . اما موروزوفسكي فما تزال تحت سيطرة الالمان . وهنا على نهر كاليتفا . . تسيطر قواتنا على كافة النقاط الآهلة بالسكان . وجرى عبور خط السكة الحديدية ميلليروفو — فوروونيج من هذه النقطة شمالي كانتيميروفكا ، بينما ما تزال ميلليروفو نفسها تحت سيطرة الالمان الذين قاموا بتحصينها بشكل جيد . ويبدو ان قواتنا قامت بتجاوزها . . انظرى الى اتجاه الدبابات .

ومر ايفان فيدوروفيتش باصبعه فوق نهر كاميشنايا غربي ميلليروفو ونظر الى كاتيا .

كانت كاتيا تتمعن النظر في الخريطة بتوتر ، ولاسيما في اقرب الاماكن الى جوروديشي ، لتعلو عينيها امارات صرامة بالغة . وفطن ايفان فيدوروفيتش الى سر تلك النظرات دون ان يقول شيئا . ورفعت كاتيا عينيها عن الخريطة لتنظر بعض الوقت الى الفراغ القائم امامها . وكانت تلك هي نظرتها العادية التي تتسم بالذكاء والاستغراق في التفكير والشعور ببعض الأسى . وتنهد ايفان فيدوروفيتش ووضع الورقة الخفيفة التي رسمت عليها الخريطة فوق الخريطة العسكرية الكبيرة ، ثم قال :

— انظرى الى هنا . يجب عليك ان تتذكرى كل ذلك ، اذ انك سوف تكونين ملزمة بعدم النظر اليها اثناء الطريق . يجب تخبئة الاوراق على نحو يجعلك قادرة اذا ما تطلب الأمر . . . قصارى القول . . ابتلاعها . وعليك ان تذكرى جيدا من انت ؟ انك هاربة . . مدرسة هاربة ، فلتقل من قرية تشير ، حتى لا يلاحقك الحمر . هذا ما سوف تقولينه للالمان ورجال الشرطة . اما عن الأهالي المحليين ، فسوف تقولين لهم انك من تشير في طريقك الى اقاربك في ستاروبيلسك ، لانه من الصعب عليك ان تعيشي وحدك .

ثم مضى ايفان فيدوروفيتش يقول بصوت خافت دون ان ينظر الى زوجته :

— سوف يقدم الانسان الطيب لك المأكل والمأوى ، اما الانسان السيئ فلن يجد ما يمكن ان يؤذيك به . ولتتذكرى ان خط الجبهة كما يفهمونه هنا غير موجود . . . ان دباباتنا تهاجم هنا وهناك . . يجب عليك تجاوز النقاط الالمانية المحصنة بحيث لا يلحظ وجودك احد . بيد ان ثمة المانا يمكن ان تصادفيهم عرضا في كل مكان ، وهؤلاء هم من يجب عليك ان تحذريهم اكثر من اى امرئ آخر . وحين تصلين الى ذلك الحد ، يجب ان تلزمي مكانك . . في انتظار قواتنا . وانت ترين انني لم اشر بشيء على الخريطة في هذا المكان لاننا لا نعرف شيئا عنه ، كما ويحظر عليك سؤال اى احد هناك ، لأن ذلك امر محفوف بالخطورة . فلتبحثي لنفسك عن امراة عجوز وحيدة او اية امراة اخرى لتقيمي عندها . وان اشتعلت المعركة ، عليك ان تلزمي مكانك بالقبو هناك حتى النهاية .

لقد كان قادرا على عدم ذكر كل ذلك لزوجته الا أنه كان تواقا لتقديم يد العون اليها ولو بمجرد النصيحة . وكم كان يمكنه ان يغدو سعيدا لو كان قادرا على الذهاب بدلا منها .

— سوف ابلغهم هناك بذهابك اليهم بمجرد أن تبارحي هذا المكان . ولئن لم تجدى من يستقبلك ، عليك الاتصال بأول فرد يصادفك من قواتنا تجدينه مناسبا كي يرافقك الى قسم الشئون السياسية بفيلق المدرعات .

وهنا ظهرت شرارة لعوبة تتقافز في عينه ليقول :

— وهناك بقسم الشئون السياسية ، أرجو الا تنسيك الفرحة ان ثمة زوجا لك ، واطلبي منهم ابلاغي . . «وصلت . . وكل شيء على ما يرام !»

— انني لن اقول هذا وحسب . انني سوف اقول لهم . . اما ان تتعجلوا بهجومكم لانقاذ رجلي ، واما ان تتركوني اعود له من جديد .

هذا ما قالته كاتيا وانفجرت ضاحكة .

واعترت مشاعر الارتباك ايفان فيدوروفيتش دون سابق مقدمات ، ليقول فيما كانت قسمات وجهه تتسم بالصرامة :
– لقد كنت اود عدم الحديث عن هذا الموضوع لكننى وعلى ما يبدو لن استطيع ذلك . فمهما كان هجوم قواتنا سريعا ، فلن اكون قادرا على انتظارها . حيث اننا ملزمون بالتراجع مع الألمان. وحين تصل قواتنا الى هذا المكان ، سنكون نحن الى جوار الألمان، اذ سوف نكون معهم ضفتين لنهر واحد . وطالما لم يرحل آخر جندى المانى عن اراضى فوروشيلوفجراد سوف اضربهم من الجانب الآخر . والا ماذا يمكن ان يظنه مناضلو المقاومة السرية فى ستاروبيلسك ، وفوروشيلوفجراد وكراسنودون وروبيجانسك وكراسنى لوتش وكذلك الفدائيون ؟ أما انت فلا داعى لعودتك ثانية الىّ ، فذلك أمر لا يتسم بالمنطق ، ولتسمعينى . . .

ومال اليها ليضع راحته الكبيرة على اصابع يدها الرقيقة ويضغط عليها فيما يمضى قائلا :
– ليست هناك حاجة لبقائك فى الفيلق ، ولذا فلتطلبى منهم توزيعك على المجلس العسكرى للجبهة . وهناك سوف تجدين نيكيتا سيرجيفيتش لتطلبى منه اجازة لقضائها مع أطفالنا . وليس ثمة شىء معيب فى ذلك ، حيث تستحقينها وعن جدارة . وما ذنب الاطفال ؟ كما واننا لا نعرف اين هم اليوم . . فى ساراتوف ام فى مكان آخر . . على قيد الحياة ام فارقوها ؟

كانت كاتيا تنظر اليه دون ان تقول شيئا ، فيما كان دوى المعركة الليلية البعيدة يزلزل ارجاء هذا المسكن المنعزل عن النجع .

وكان قلب ايفان فيدوروفيتش مفعما بحب لها والشفقة عليها، هى صديقته ومعشوقته . فهو الانسان الوحيد الذى يعرف مدى رقة زوجته كاتيا وطيبتها ، وكم استطاعت بقوة طابعها الخارقة تجاوز كل المخاطر والمتاعب والمذلة والمهانة ، ووفاة واستشهاد الأقارب ! وقد كان يود لو استطاع التعجيل بنقل حبيبته كاتيا الى هناك حيث يعيش الأحرار ، ينعمون بالدفء والضوء ، وحيث يوجد اطفالهما . بيد ان زوجته كاتيا لم تكن تفكر فى ذلك .

فقد ظلت تنظر اليه ، تتامله هو ايفان فيدوروفيتش ، ثم

تخلصت بيدها من تحت راحته لتمسح شعره الأصفر الممشط والذى بدأ خلال تلك الشهور يفارق فوديه يوما بعد يوم لتتخذ جبهته العريضة أبعادا اكبر . وربتت بيدها الرقيقة على هذا الشعر الأصفر الناعم وقالت :
– لا تتحدث . . لا تقل لى شيئا . . لا تقل شيئا ، حيث اعرف كل شىء . فليبعثوا بى الى حيث يشاؤون ، ولن اطلب منهم اى شىء . وطالما سوف تكون هنا ، سأظل قريبة منك ، ما دام ذلك ممكنا .

وقد أراد معارضتها ، الا ان أسارير وجهه سرعان ما تفتحت لينتزع يديها ، يدفن وجهه فى راحتيها ، ليظل على هذا النحو هنيهة قليلة ثم رفع اليها عينيه الزرقاوين ليقول فى صوت خافت :
– كاتيا . .

وردت عليه فيما تنهض من مكانها :
– لقد حان وقت الرحيل .

الفصل الرابع والخمسون

رافقها عجوز فارع القامة ضخم البنية اشبه بالدب ، من سكان المنطقة ، كان الجميع يدعونه «العجوز فوما» . وفى بداية الرحلة وحين كان ما يزال فى مقدور يكاتيرينا بافلوفنا والعجوز فوما تبادل بعض الكلمات ، استطاعت كاتيا معرفة ان لقبه هو كورنيينكو ، احد الكثيرين الذين يحملون هذا اللقب ، وسليل اوائل العائلات الاوكرانية التى استوطنت هذه البرارى ، وشأن كل آل كورنيينكو ، على قرابة بعيدة مع جوردى كورنيينكو .

وقد غدا حديثهما غير ممكن فيما بعد .

راحا يسيران طوال الليل ، تارة يقطعان الطرق الترابية الجانبية ، واخرى يشقان البرارى . وكانت الثلوج لم تهطل بعد غزيرة لتغطى تلك الأراضى ، مما جعل السير امرا غير صعب . وكانت انظارهما تقع أحيانا على اضواء مصابيح سيارات تبدو الى شمالهما والى جنوبهما ، سرعان ما تختفى . بيد ان هدير محركات

تلك السيارات كان يتعالى الى اسماعهما على الرغم من بعد المسافة . كانت تتراجع عند الجنوب الوحدات الألمانية التى جرى تحطيمها فى منطقة ميلليروفو ، اما فى الشمال فقد كانت تنسحب الوحدات من عند بارانوفكا ، اول نقطة آهلة بالسكان فى مقاطعة فوروشيلوفجراد استعادتها قواتنا .

واتخذت يكاتيرينا بافلوفنا والعجوز فوما طريقهما نحو الشرق، بيد انهما كانا كثيرا ما يغيران اتجاههما لتجاوز القرى والنقاط المحصنة الكائنة بالبراري . وبدا الطريق لكاتيا طويلا طويلا ، الا انهما كانا وعلى الرغم من ذلك يقتربان اكثر فاكثر من منطقة المعارك ؛ فقد تناهت الى اسماعهما عالية تأوهات المدافع وتبدى واضحا لأنظارهما وميض نيرانها تارة هنا واخرى هناك . وعند الفجر بدأت الثلوج الخفيفة الجافة تتساقط لتخف حدة تلك الأصوات ، ويختفى عن الأنظار ما كانت تراه .

كانت كاتيا تنتعل حذاء شتويا قديما وتحمل على ظهرها مخلاة من الخيش غطتها الثلوج . وبدا لها كل ما حولها وهميا لا اساس له . . العجوز فوما بجسده الضخم وغطاء راسه الذى ارتفعت حافتاه دون أن يربطهما ، ودبيب الخطوات ، وهذه الثلوج التى تتساقط وتتطاير أمام ناظريها . وغطت روح كاتيا فى شبه سبات او فيما أشبه بالنعاس . وفجأة شعرت بقدميها تطئان ارضا صلبة . وتوقف العجوز فوما . ودنت كاتيا بوجهها قريبا منه ، لتشعر بوخزة بسيطة فى قلبها . . فقد كانا عليهما أن يفترقا فى هذا المكان .

وراح العجوز فوما يتأمل وجهها فى رقة وقلق ، بينما أشاح بيده السمراء مشيرا الى محاذاة الطريق الترابى الذى وصلا اليه . ونظرت كاتيا الى حيث يشير بيده . وكان ضوء الفجر قد بدا يلوح مبددا ظلمة الليل . وأمسك العجوز كتفيها بيديه الكبيرتين وضمها قليلا اليه ليهمس اليها بصوته الدافئ ، تداعب أذنها شعيرات شاربه ولحيته :

— يبقى حوالى مائتى متر . . هل فهمت ؟

وهمست تجيبه :

— وداعا !

وما ان تقدمت قليلا عبر هذا الطريق الترابى حتى توقفت تجيل النظر الى ما خلفها ، لتجد ان العجوز فوما كورنيينكو ما يزال واقفا هناك . وادركت كاتيا انه سوف يظل هكذا وحتى تختفى عن ناظريه . وكان ذلك حقا ، حيث ما ان ابتعدت حوالى خمسين مترا، وكانت ما تزال قادرة على تمييز شبحه ، حتى وجدته ايضا ما يزال يقف مكانه تغطيه الثلوج ليبدو أشبه ببابا نويل . اما وحين التفتت الى الوراء للمرة الثالثة لم تقع عيناها عليه . وقد كانت تلك هى آخر قرية ، تستطيع أن تجد فيها أنصارها الذين يمكن ان يقدموا لها يد العون . اما وفيما بعد فقد صار ينبغى عليها ان تعتمد على نفسها . كانت القرية تقع خلف التحصينات العالية التى شيدها الألمان لتشكل جزءا من الخط الدفاعى الذى اقيم على عجل فى ذلك المكان . وكان ايفان فيدوروفيتش قد ذكر لكاتيا ان افضل منازل القرية قد شغلها الضباط وقادة الوحدات الصغيرة التى اتخذت مواقعها فى تلك النقاط المحصنة .

كما وكان ايفان فيدوروفيتش قد حذر زوجته من ان وضعها يمكن ان يسوء اذا ما غصت القرية عند وصولها هناك بتلك الوحدات التى ابعدت عن الحد الدفاعى الألمانى على نهير كاميشنايا . وكان ذلك النهير الذى يصب فى نهر ديركول احد روافد الدونيتس ، يجرى من الشمال الى الجنوب قريبا من حدود مقاطعة روستوف موازيا تقريبا لخط السكة الحديدية كانتيميروفكا — ميلليروفو . وقد كان من الواجب على يكاتيرينا بافلوفنا الوصول الى احدى تلك القرى الكائنة على ضفاف نهير كاميشنايا ، وحيث ينبغى عليها انتظار قواتنا .

ووقع نظر كاتيا عبر غلالات الثلوج على خيال كوخ قريب ، لتنحرف عن الطريق الترابى ، تذرع الحقول لتتجاوز تلك القرية ، دون ان تترك سطح الكوخ يفلت من ناظريها . وقد قيل لها ان كوخها هو ثالث كوخ يصادفها . وبدا الضوء يلقى باشعته ، ليساعد كاتيا على الاقتراب من ذلك الكوخ الصغير الذى التصقت بنافذته المغلقة . كان الهدوء يخيم على الكوخ . ولم تطرق كاتيا النافذة بل خربشتها كما علموها .

ولم يجبها احد فترة طويلة ، ليتعالى وجيب قلبها قلقا . وبعد

بعض الوقت تعالى صوت صبى صغير يرد عليهـــا فى خفوت . وخربشت كاتيـــا النافذة مرة أخرى . وتعـــالى دبيب قدمين صغيرتين ، لينفرج الباب وتدلف كاتيا الى الداخل .

كانت الظلمة تسود المكان تماما .

وتساءل ذلك الصوت الطفولى :

— من اين انت ؟

ونطقت كاتيا بالجملة المتفق عليها .

وذكر الصبى :

— هل تعرفين ، يا ماما ؟

وترامى صوت امرأة خافت ، تقول همسا :

— اخفض صوتك . أو لا تعرف الروسيـــة ؟ انهـــا امرأة روسية . . الم تسمع ذلك ؟ تعالى هنا . . تفضلى على الفراش . أرشدها يا ساشكا .

وامسك الصبى بيده الباردة يد يكاتيرينا بافلوفنا الدافئـــة وراح يتقدم طريقها . لكنها قالت له :

— انتظر حتى اخلع معطفى .

بيد أن يد المرأة امتدت اليها تتناول راحتها من يد الصبى ، لتضمها بعض الشىء قائلة :

— فلتجلسى بمعطفك ، حيث الجو بارد عندنا . هل صادفت حرسا المانيا ؟

— كلا .

والقت يكاتيرينا بافلوفنا المخلاة عن كاهلها ، وخلعت المنديل الذى كانت تعصب به راسها ، ونفضت ما علق به من ثلوج ، ثم فكت ازرار معطفها ، وامسكت بذيله ترفعـــه عاليا لتجلس على الفراش الى جوار مضيفتها . وفى صمت جلس الصبى الى جوارها من الناحية الأخرى ، ليلتصق بأمه يستمتع بدفئها . ولم تكن كاتيا قد سمعت او شاهدت شيئا ، بل أحست بذلك انطلاقا من مشاعر الأمومة . وتساءلت :

— هل يوجد بالقرية كثير من الألمان ؟

— ليسوا بالكثيرين . انهم لا ينامون فى هذه الأيام هنا ، بل هناك فى الأقبية .

وضحك الصبى ليقول :

— الأقبية ! . . أنهم هناك فى الملاجىء !

— الأمر سيان . يبدو أنهم فى انتظار امدادات ، بغية تثبيت خط الجبهة هنا .

وتساءلت كاتيا :

— هل اسمك جالينا الكسييفنا ؟

— فلتناديني بجاليا . فلم يتقدم العمر بى بعد ، جاليـــا كورنيينكوفا .

وكانوا قد ذكروا لكاتيا فيما قبل أنهـــا سوف تذهب الى شخص آخر من آل كورنيينكو .

وتساءل الصبى :

— هل أنت ذاهبة الى قواتنا ؟

— نعم ، الى قواتنا . هل يمكن العبور اليهم ؟

وصمت الصبى بعض الوقت ليجيب فى غموض :

— لقد عبر البعض . .

— منذ زمن بعيد ؟

ولم يجب الصبى بشىء .

وتساءلت المرأة :

— كيف لى أن أناديك ؟

— اسمى وحسب الوثائق . . فيرا .

وقالت المرأة بابتسامة طيبة :

— فليكن الأمر كذلك . فيرا . . ان الناس هنا بسطاء وسوف يصدقونك . ومن لن يصدقك فلن يقول شيئا . لربما كان من الممكن أن يوجد فيما قبل ذلك السيىء الذى يشى بك ، بيد انه من ذا الذى يستطيع ذلك اليوم ؟ ان الجميع يعلمون بقرب قدوم قواتنا . . هيا اخلعى ملابســـك وارقدى وسوف اغطيك حتى تشعرين بالدفء . اما نحن فسوف ننام سويا ، حتى يستمتع كل منا بدفء الآخر .

وردت كاتيا تقول بحيوية :

— هل سببت لكم ازعاجا ؟ كلا . . كلا . . انني أستطيـــع

النوم ولو على اريكة خشبية ، او على الأرض . وعلى اى حال فلن يغمض لى جفن .

— سوف تنامين . اما نحن فقد حان وقت استيقاظنا .

وقد كان الجو فى الكوخ حقا غاية فى البرودة ، يؤكد انه لم تجر تدفئته منذ بداية الشتاء . وكانت كاتيا قد تعودت على عدم تدفئة الأكواخ الرازحة تحت وطاة الاحتلال الالمانى ، اما عن طعام القوم فى ظل هذه الظروف فلم يكن يتعدى شوربة او عصيدة او بطاطس يجرى اعدادها على وجه السرعة .

وخلعت كاتيا معطفهـــا وحذاءها الشتوى لترقد بالفراش ، ولتقوم ربة البيت بتغطيتها بلحاف من القطن وضعت فوقه المعطف الفرائى ، ولتستغرق على التو فى نوم عميق .

وقد استيقظت على وقع دوى عنيف زلزل جسدها ، اكثر مما ترامى الى اسماعها فيما كانت تغط فى سباتها .

ودون ان تفطن الى شىء بعد ، نهضت من فراشهـــا قليلا ، ليتناهى الى سمعها كيف راحت تدوى قوية بعض الانفجارات تزلزل ارجاء الفضاء الرحب وتملؤه بالأصوات العنيفة . وتعالى الى اسماعها هدير كثيف للمحركات . . فقد كانت الطائرات تمرق فوق القرية على مسافة منخفضة الواحدة تلو الاخرى حيث سرعان ما ترتفع الى اعلى فى قوس يصعب على المرء تخيله . ولم تكن كاتيا قد فهمت بل ادركت من اصوات المحركات انها طائرات «ايل» السوفييتية . وصاحت تقول :

— قواتنا !

وفى تحفظ ذكر الصبى الذى كان يجلس على الاريكة الى جوار النافذة :

— نعم . . انها طائراتنا .

وذكرت جاليا فيما تقف وسط الغرفة وهى تمسك بمكنسة فى يدها :

— ارتدى ملابسك يا ساشكو ، وانت ايضا يا فيرا ، فلست اعرف لك اسما آخر ! نعم . . طائراتنا لكن قذائفها قد تصيبنا فى مقتل .

وعلى الرغم من برودة المسكن ، فقد كانت جاليــا تقف على

الارض الطينية حافية القدمين ، عارية الذراعين ، كما وكان الصبى يجلس كذلك شبه عار ، يقول وهو يشعر بتفوقه على المرأتين :

— ان قذائفها لن تصيبنا . انها تقصف تحصيناتهم .

كان يجلس على الاريكة مفترشا قدميه المتعامدتين العاريتين ، صبيا نحيفا تحمل عيناه امارات جدية الانسان الناضج .

وذكرت كاتيا فى اضطراب :

— طائراتنا «ايل» . . فى مثل ذلك الجو !

وذكر الصبى عندما أدرك نظراتها التى تعلقت بالنوافذ التى كساها الصقيع :

— ان ذلك بسبب صقيع الأمس . الجو لا باس به . فان لم تشرق الشمس بعد ، ولكن الثلوج قد توقفت عن التساقط .

ولما كانت كاتيا قد تعودت اثناء عملها كمدرسة على التعامل مع المراهقين من امثال هذا الصبى ، فقد شعرت انه مهتم بها ، ويود ان توليه اهتمامها . كما وكان الصبى فى نفس الآن يتسم باكبار النفس لدرجة انه لم يبد فى تصرفاته او حديثه ما يمكن ان يعنى الغرور .

وتناهت الى اذنى كاتيا اصوات نيران الرشاشات المضادة للطائرات هناك فيما قبل القرية . ومهما بلغت درجة اضطراب كاتيا فلم تكن لتغفل عن ملاحظة ان الألمان لا يملكون فى هذا المكان المدافع المضادة للطائرات ، مما يعنى ان خط التحصينات القائم هنا لم يكتسب اهمية كخط للدفاع سوى الآن وعلى حين غرة .

وذكرت جاليا :

— يا ليت قواتنا تعجل بالوصول . فليس لدينا حتى قبو فى هذا الكوخ . لقد كنا نهرع الى قبو جيراننا حين كانت تتراجـــع قواتنا هربا من قذائف الطائرات الالمانية ، بل واحيانا كنا نرتمى فى الحقول . . ننبطح أرضا بين الحشائش الطويلة ونسد آذاننا ونظل ننتظر وننتظر . . .

وها هى القنابل تتساقط . . الأولى والثانية والثالثة ، تزلزل الكوخ ، ثم تمرق طائراتنا فوق القرية من جديد لترتفع عاليا .

وصاحت جاليا ، ثم جلست القرفصاء وسدّت اذنيها :

— آه . . يا أعزائى ! . .

لقد كانت تلك المرأة التى جلست القرفصاء خوفا من اصوات الطائرات هى صاحبة المقر الرئيسى للفدائيين فى تلك المنطقة . فعبر مسكن جاليا كورنيينكو كان يمر التيار الأعظم من جنود الجيش الأحمر الهاربين من الأسر او الخارجين من الحصار . وكانت كاتيا قد عرفت ان زوج جاليا قد استشهد فى اول ايام الحرب وأن اثنين من اولادها قد توفيا مصابين بالدوسنتاريا اثناء الاحتلال . وكانت تلك الحركة العفوية التى ندت عن جاليا تعبيرا عن شىء يتسم بالسذاجة البالغة والانسانية المتفجرة . . . الانبطاح ارضا والبحث عن ملاذ ، ولو بسد الأذنين ، بعيدا عن الخطر . واندفعت كاتيا نحوها تحتضنها ، تقول لها بنبرة تعكس عواطفها :

— لا تخافى . . لا تخافى !

ورفعت جاليا وجهها الهادئ الذى تغطيه الشامات داكنة اللون تقول ضاحكة :

— اننى لست خائفة . أوليس ذلك من سمات النسوة ؟ !

قضت يكاتيرينا بافلوفنا فى هذا الكوخ طيلة يومها . وقد تطلب الأمر التمسك بضبط النفس ، وملازمة المكان حتى حلول المساء ، حيث كانت تواقة للخروج لملاقاة قواتنا . وظلت طوال اليوم طائراتنا من طراز «ايل» ترافقها مقاتلاتنا تدك تحصينات العدو المقامة امام القرية . وكان عدد «الايل» قليلا ، وربما لا يزيد عن مجموعتين كل منها تتكون من ثلاث طائرات ، وتقوم بالانقضاض مرتين او ثلاث ، لتنطلق تتزود بالذخيرة والوقود عائدة من جديد . وظل الحال على هذا النحو منذ تلك اللحظة التى استيقظت فيها كاتيا على وقع قذائفها وحتى حلول المساء .

وقد دارت طوال اليوم فى سماء القرية المعارك الجوية بين مقاتلاتنا وطائرات «الميسير» الألمانية . وكان يترامى الى الأسماع عاليا هدير محركات القاذفات السوفييتية التى تحلق على ارتفاع شاهق فى طريقها الى حدود دفاعات الألمان البعيدة . ولربما كانت تقصف دفاعاتهم على نهر ديركول الذى يصب فى الدونيتس الى جوار قاعدة فصيل ميتياكينسكى وحيث توجد هناك عربة ايفان فيدوروفيتش «جازيك» التى جرى اخفاؤها داخل سرداب طينى .

ومرقت عدة مرات طوال النهار طائرات الهجوم الالمانية ، التى القت قنابلها فى مكان ما ، قريبا من نهير كاميشنايا ، وحيث كانت المدفعية الثقيلة تطلق نيرانها .

وذات مرة أطلقت المدفعية نيرانها فى غير انتظام على المنطقة القريبة من التحصينات الألمانية ، حيث يمتد الطريق الذى يتوجب على يكاتيرينا بافلوفنا قطعه . وتعالت النيران وكأنما من مسافة بعيدة ، ثم راحت تقترب شيئا فشيئا ، لتبلغ ذروتها ثم تخفت فجأة . وبدأت عند المساء تستعر من جديد ، حيث بدأت الدانات تنفجر على مسافة قريبة جدا من القرية . وعلى مدى بضع دقائق أخذت المدافع الالمانية ترد على النيران بنيران مستمرة جعلت من الصعب تبادل الحديث داخل الكوخ .

وتبادلت يكاتيرينا بافلوفنا وجاليا النظرات التى تحمل كثيرا من المعانى . ولم يكن هناك سوى الصغير ساشكو الذى راح يحدق النظر فى الفراغ القائم قبالته على نحو مبهم .

وقد دفعت هذه المعارك وقصف المدفعية سكان القرية الى الاحتماء بمنازلهم والالتجاء الى الاقبية ، وخلّصت يكاتيرينا بافلوفنا من فضول الزوّار . أما الجنود الألمان وعلى ما يبدو ، فقد كانوا مشغولين بأمرهم المباشر . وبدت القرية أشبه بالمهجورة ، لا يسكنها سوى ثلاثتهم فى هذا الكوخ . . امرأتان وصبى .

وكلما دنت تلك اللحظة الحاسمة وربما القاضية ، حين كان يتوجب على كاتيا الرحيل ، كلما غدا من الصعب عليها تمالك روعها . وراحت تسهب فى سؤال جاليا حول تفاصيل الطريق الذى يجب ان تقطعه ، وهل يمكن ان يوجد من يدلها عليه ، بينما كانت جاليا ترد عليها :

— لا داعى للقلق . . استريحى فسوف تقلقين فيما بعد كثيرا .

ربما لم تكن جاليا نفسها تعرف شيئا ، تعرب عن اشفاقها عليها مما كان يزيد من حدة قلق كاتيا . بيد انه لو كان ثمة غريب دخل الى الكوخ فى تلك اللحظة ليتبادل حديثا مع كاتيا ، لم يكن ليقدر على اكتشاف ما تعانيه من قلق واضطراب .

أسدل المساء ستائره ، وأنتهت طائرات «الايل» من عزف آخر موسيقاها ، وهدأت الرشاشات المضادة للطائرات . وساد الصمت

المكان . بيد ان الهدوء لم يكن ليخيـــم هناك بعيدا فى ذلك الفضاء الرحب حيث يوجد من يواصل حياة العمل والكفاح . وهبط ساشكو بقدميه من على الأريكة الى حذائه الشتوى الذى كان يرتديه كذلك نهارا واقترب نحو الباب وراح يرتدى فى صمت معطفا فرائيا مرقعا غير نظيف ، وان كان يبدو أنه كان ابيض ذات يوم .

وذكرت جاليا :

— لقد حان وقت الرحيل يا فيرا . انها اللحظة المناسبة ، حيث انهم هؤلاء الملاعين ، سوف يخلدون الآن الى الراحة بعض الشىء . كما ويحتمل ان يجىء بعض جيراننا لزيارتنا . ومن الأفضل الا يراك احد .

وكان من الصعب تمييز قسمات وجهها فى تلك الظلمة ، كما وكان صوتها يعلو مبحوحا .

وتساءلت كاتيا فيما تعتريها بعض أمارات القلق والغموض :

— الى أين يزمع الصبى ؟

وذكرت جاليا على عجل ، فيما راحت تهرول هنا وهناك تساعد كاتيا وابنها فى ارتداء ملابسهما :

— لا بأس . . لا بأس . .

وتوقفت نظرات كاتيا لحظة من الزمن على وجه ساشكو الشاحب فيما تجتاحها مشاعر الأمومة . آه . . لقد كان ذلك هو الدليل الشهير الذى استمر طيلة خمسة أشهر من الاحتلال الألمانى يرافق عبر كل عمق تحصينات العدو الأفراد والجماعات ، والفصائـــل . . المئات وربما الآلاف من اناسنا ! هذا بينما لم يرفع الصبى عينيـــه الى كاتيا . كان يواصل ارتداءه لمعطفه الفرائى القديـــم ، تعنى كل ايماءاته وحركاته وكانما يود أن يقول : «لقد كان امامك كثير من الوقت كى تتامليننى ، الا أنك لم تكونى تتوقعين ذلك . ولذا فمن الأفضل الا تضايقيننى الآن» .

— انتظرا بعض الوقت ، وسوف أخرج لاستطلاع الطريق ثم اشير لكما .

ثم ساعدت جاليا يكاتيرينا بافلوفنا على أن تجد يديها كمـــى المعطف وعدلت مخلاتها على ظهرها ثم مضت تقول :

— هيا نتوادع حيث لن يكون لدينا وقت . فلينعم الله عليك بالسعادة !

وتبادلا القبلات ، لتخرج جاليا ، فيما وقفت كاتيا غير مندهشة ازاء كون الأم لم تقبل ابنها بل ولم تودعه . فقـــد كفت عن ابداء دهشتها ازاء اى شىء . كما وكانت تدرك ان كلمتى «لقد تعودا» غير كافيتين لتفسير ذلك الموقف . فلم تكن هى نفسها لتستطيع الصبر قبالة ابنها ، ولغمرته بقبلاتها واحضانها ، لو كان قدره قد حتم عليه الخروج فى مثل هذه المهمة المحفوفة بالهلاك . بيد انها كانت تدرك كذلك ان جاليا تتصرف على خير نحو ومن المؤكد انها لو كانت تصرفت على النقيض من ذلك لكان ساشكو قد تخلص من احضانها ورقتها ، لان ذلك يمكن ان يضر به من حيث يمكن ان يضعف من عزائمه فى تلك اللحظات .

كانت كاتيا تشعر ببعض الحرج من وجودهـــا مع الصبى على انفراد . فقد كانت تشعر بان كل ما يمكن ان تقوله سوف يبدو متسما بطابع النفاق والتكلف . لكنها ورغما عن ذلك لم تستطـــع الامساك عن ذلك وذكرت فى نبرة عملية هادئة :

— لا داعى لذهابك معى بعيدا . عليك فقط ان تشير لى الى الطريق بين هذه التحصينات ، اذ اننى اعرف الطريق فيما بعد .

ولم يرد ساشكو ، كما ولم يرفع ناظريه اليها . وفى تلك اللحظة انفرج الباب قليلا لتهمس الأم :

— هيا . . لا يوجد احد . . .

كانت الليلة هادئة غائمة ، الا انها لم تكن باردة كثيرا ، وحالكة الظلمة ، حيث كان القمر ساطعا فيما وراء غلالات ضبـــاب الشتاء تعكس الثلوج ما تسرب من اشعته .

وسار ساشكو يغطى رأسه بسدارة قديمة رثة يكبر حجمها عن حجم رأسه ، دون قفاز ، ينتعل حذاء شتويا ، يمضى قدما الى الحقول دون أن يلتفت يمنة او يسرة . ويبدو انه كان على يقين من ان امه لن تخدعه . فما دامت قد ذكرت «لا يوجد احـــــد» فان ذلك يعنى بالفعل انه «لا يوجد احد» .

وكانت سلسلة التلال المتشابكة ، التى كان عليهما عبورها ، تمتد من الشمال الى الجنوب تفصل مـــا بين نهر ديركول ورافده

كاميشنايا . وكانت القرية كائنة فى تلك المنطقة المنخفضة الواقعة بين هضبتين صغيرتين تمتدان نحو ديركول وتضيعان فى البرارى . وقد توجه ساشكو الى الحقول مباشرة بعيدا عن القرية لعبور احدى هاتين الهضبتين . وفهمت كاتيا سر اختيار ساشكو لهذا الاتجاه ، فمهما كان ارتفاع الهضبة منخفضا فقد كان يستحيل رؤيتهما من ورائها ، وقد أدركت ذلك بالفعل بعد أن عبراها . وما ان اجتازا تلك الهضبة حتى انحرف ساشكو بمحاذاتها نحو الشرق ليسيرا متعامدين مع سلسلة التلال التى تقع عندها التحصينات الالمانية .

ومنذ تلك اللحظة التى بدآ فيها رحلتهما لم يلتفت ساشكو مرة واحدة ليرى ما اذا كانت رفيقته تتبعه . وراحت كاتيا السير فى اثره دون اعتراض . وكانا يسيران عبر وهدة منخفضة تغطيها جذامات قليلة برزت من تحت ثلج خفيف كانت أشبه بموقع القرية . وشأن الليلة الماضية تعالت جلبة القوات الالمانية التى كانت تتراجع عبر الطرق الرئيسية فى مكان ما الى الشمال والى الجنوب . كما وندر تعالى اصوات المدافع وان كانت قد غدت أكثر شدة وكثرة جنوب شرقى ميلليروفو . وهناك ، على مسافة بعيدة جدا ، وربما فوق نهير كاميشنايا ظهرت أضواء صواريخ الاشارة الالمانية . ولما كانت المسافة نائية جدا فقد اتسمت تلك الاضواء بالشحوب ، وغدت غير قادرة على تبديد تلك الظلمة الخفيفة التى سادت مكانهما . ولو كانت هذه الاضواء فى مكان ما فوق أحد التلال القريبة من ساشكو وكاتيا ، لكانا قد ظهرا واضحين كالشمس .

وكانت الثلوج اللينة تهبط تحت اقدامهما دونما جلبة ، فيما يتعالى وقع حذائيهما الشتويين المخشخشين على الجذامات والتفت ساشكو يشير الى كاتيا بالاقتراب . وحين اقتربت منه ، جلس القرفصاء واشار اليها أن تفعل نفس الشىء . واقتعدت الثلوج فى معطفها الفرائى . وسرعان ما أشار ساشكو باصبعه اليها ثم الى نفسه ورسم على الثلوج خطا فى اتجاه الشرق . وكان كما معطفه يغطيان معصميه ، ليشمرهما ويشرع فى تكويم الثلوج مشكلا تلا مرتفعا بعرض ذلك الخط الذى رسمه . وفهمت كاتيا أنه رسم خط سيرهما والحاجز الذى يتوجب عليهما اجتيازه . ثم رفع حفنتين من ثلوج ذلك التل الوهمى كل منهما من احد جانبيه وكأنما يشق ممرين

عبره ، واشار باصابعه الى النقاط المحصنة على جانبى الممرين ثم رسم خطا يعبر الممر الاول ، ثم الثانى . وأدركت كاتيا انه يشير الى وجود احتمالين لطريقهما .

وضحكت كاتيا حين تذكرت مقولة سوفوروف * : ينبغى على كل جندى ادراك المناورة التى سوف يقوم بها . فقد كان ذلك السوفوروف البالغ من العمر عشر سنة يرى كاتيا جنديه الوحيد . واومأت برأسها بما يعنى أنها فهمت «مناورتها» ، ثم انطلقا فى طريقهما .

وقاما بمناورة التفاف فى اتجاه الشمال الشرقى ، وحتى وصلا حاجزا من الاسلاك الشائكة الكثيفة . واشار ساشكو الى كاتيا بالانبطاح أرضا ، بينما راح يواصل طريقه بمحاذاة الأسلاك الشائكة . وسرعان ما غاب عن أنظارها .

وامتد امام ناظرى كاتيا خط حواجز الاسلاك الشائكة والذى يتكون من حوالى اثنى عشر صفا . وكان القدم قد بلغ بالخط درجة أن علا الصدا اسلاكه التى تحسستها كاتيا بيديها . ولم تكن طائرات «ايل» قد تركت اية آثار فى هذا المكان . ومن المؤكد ان يكون الالمان قد أقاموا هذا الخط من الحواجز حماية للتل من هجمات الفدائيين من اتجاه المؤخرة ، والذى يقع اليوم بعيدا عن التحصينات الرئيسية .

لم تكن كاتيا قد عاشت معاناة الترقب والانتظار منذ مدة طويلة . فقد مضى من الزمن ساعة ثم اخرى بينما لا يزال الصبى غائبا . بيد أنها ولسبب لا تدريه لم تكن قلقة بشأنه ، هو الصبى المقاتل الذى يمكن الاعتماد عليه .

ولبثت راقدة مكانها فترة طويلة من الزمن ، لدرجة ان البرودة بدأت تتسلل الى جسدها . وراحت تتململ على جنبيها ، لتفقد الصبر فى نهاية الأمر وتستوى جالسة مكانها . كلا . . فليدنها سوفوروف الصغير ، لكنه ما دام قد تركها وحدها لهذه المدة الطويلة ، فانها سوف تحاول استطلاع المنطقة فيما حولها ، وذلك على اقل تقدير .

---

* الكسندر سوفوروف (١٧٣٠–١٨٠٠) قائد عسكرى روسى عظيم ، واحد كبار مؤسسى الفنون الحربية الروسية . **المترجم** .

وما دام الصبى قد سار على قدميه وليس زحفا ، فليس ثمة مانع يحول دون أن تقف لتتمشى قليلا محدودبة القامة .

وما كادت تبتعد لمسافة تقرب من خمسين مترا ، حتى وقع نظرها على شيء جعل الرجفة تملك أوصالها ، من فرط المفاجاة السارة . فقد شاهدت حفرة ناتجة عن انفجار دانة منذ مدة قريبـــة ، كانت اعماقها الطينية قد تناثرت على الثلوج هنا وهناك . نعم لقد كانت هذه الحفرة نتيجة انفجار دانة وليست قنبلـــــة القت بها احدى الطائرات . وكان من الممكن معرفـــة ذلك من وضع الحفرة وناتج الانفجار – فى اتجاه واحد أساسا ، وهو نفس الاتجاه الذى قدم منه ساشكو وكاتيا . كما وكان واضحا ان ساشكو قد لحظ ذلك ايضا ، حيث أنه تفحصها قبل ان يواصل سيره ذلـــك الامر الذى كانت تؤكده آثار اقدامه .

وراحت كاتيا تجيل النظر الى الثلوج فيما حولها بحثا عن حفر اخرى . ولم يقع نظرها على شيء ، فلم تكن هناك حفر اخرى ، او على اقل تقدير فى المنطقة القريبة منها . وتملكتها مشاعر الاضطراب والقلق والتى لا يمكن للمرء تخيلها . . فقد كانت تلك الحفرة نتيجة انفجار دانة سوفييتية . الا انها لم تكن نتيجة انفجار دانة مدفعية ثقيلة طويلة المدى . فلم يكن ناتج الحفر هذا سوى اثر انفجـــار قذيفة مدفع متوسط المدى ، مما يعنى أن قواتنـــــا كانت تطلق نيرانها من مسافة قريبة . ولربما كان ذلك اثرا واحدا من آثار قصف المدفعية الشديد الذى تعالى دويه الى اسماع ثلاثتهم بكوخ جاليا قبيل المساء .

ان قواتنا قريبة ! انهم قريبون ! باية كلمات يمكن التعبير عن مشاعر تلك المرأة التى عاشت خمسة اشهر بعيدة عن أطفالها تخوض نضالا رهيبا مستمرا ، لا يفارقها أمل مشاهدة ذلك **الانسان** المضرج بالدماء يعود فى معطفه العسكرى الى أرضنا الحبيبة التى دنستهـــا اقدام الاعداء ليستقبلها بالاحضان ؟ وكم كانت روحها تواقة للقاء ذلك **الانسان** الذى كان فى تلك اللحظة اقرب اليها من زوجهـــــا وشقيقها !

وتناهى الى سمعها وقع كاد يسمع لحذاء شتوى على الثلوج ، ليقترب منها ساشكو . ولم تلحظ للوهلة الاولى ان الاوحال وليست

الثلوج قد غطت صدر معطفه وركبتيه وحذاءه . وكان الصبى يسير وقد وضع يده اليسرى فى كمه الأيمن واليمنى فى كمه الأيسر الى جوار المعصمين مما كان يعنى انه قد قطع مسافة طويلة زحفا ، وتسللت البرودة الى أوصاله . واخذت تتامل وجهه فى نهم تستطلع منه ما جاء به من اخبار . بيد ان قسمات وجهه التى اختفت تحت غطاء راسه الكبير الذى تدلت حافتاه على اذنيه ، كانت جامدة لا تعبر عن شيء . فلم يفعل شيئا سوى أن خلص معصميه من كميه مشيرا بالنفى . . «يستحيل علينا المرور من هنا» .

وصرعتها هذه الاشارة . ونظر الصبى الى الحفرة ثم الى يكاتيرينا بافلوفنا ، لتلتقى نظراتهما ، ولتعلو الابتسامة شفتيه فجاة . من المؤكد ان تكون هذه الحفرة قد اثارت لديه فيمـــا سبق نفس انطباعاتها بهذا الصدد . لقد أدرك الصبى كل مـــا يعتلج فى نفس يكاتيرينا بافلوفنا ، وكانت ابتسامته تعنى : «لا بأس . . يستحيل المرور من هنا ، لكننا سوف نمر من مكان آخر» .

وبدات علاقاتهما تدخل مرحلة جديدة ، فقد صار كل منهما يفهم الآخر . ولم يكونا ، كما فى السابق ، يتبادلان اى حديث ، الا ان اواصر الصداقة صارت تربطهما .

لقد تخيلته كيف راح يزحف على الارض المتجمدة متكئا على يديه الرقيقتين العاريتين . بيد ان الصبى لم يسمح لنفسه بالراحـــة دقيقة واحدة . واشار الى كاتيا كى تتبعه ، ليتقدمهـــا فى الاتجاه الآخر ، من حيث جاءا .

وكان من الصعب تحديد كنه المشاعر التى اجتاحت كاتيا ازاء ذلك الصبى . لقد كانت مشاعر الرفاقية والثقة والطاعة والاحترام ، لكنها وفى نفس الوقت مشاعر الأمومة . لقد كانت مزيجا من كل تلك المشاعر مجتمعة .

ولم تساله عما حال دون مرورهما ، ولم يدر بخلدها لحظة واحدة انه عائد الى البيت ، بل يتخذ طريق الالتفاف نحو الممر الثانى عبر التحصينات . ولم تعرض عليه قفازها كيلا تتجمـــد يداه من البرد ، لانها كانت تعرف انه لن يقبل .

وبعد برهة من الوقت انحرفا من جديد نحو الشمال ، ثم نحو الشمال الشرقى ليصلا من جديد الى حواجز الاسلاك الشائكة ، ملتفة

حول التل الثانى . وذهب ساشكو وحده بينما لبثت كاتيا تنتظره طويلا ، وحتى ظهر فى النهاية ملطخا بالأوحال أكثر من ذى قبل ، تغطى سدارة راسه اذنيه ، بينما كان يضع راحتيه فى كميه ، كما فى السابق . وكانت كاتيا قد افترشت الثلج فى انتظاره . ودنـا بوجهه الى وجهها وغمز لها باحدى عينيه ثم ابتسم .

وعرضت عليه رغما عن توقعاتها ، قفازها الا انه رفض تناوله .

وقد اتضح لها أن ما كانت تتصوره أصعب الأمور ، بدا فى الواقع وكما يحدث دائما فى الحياة ، أبسط مما يمكن أن يتوقعه المرء . حقا ، انها وببساطة ، لم تلحظ كيف قطعا طريقهمـا بين نقطتين محصنتين . لقد كان ذلك أبسط ما صادفته خلال رحلتها هذه . ولم تدرك سوى فيما بعد سر بساطة ذلك الأمر . كما وانها لم تستطع تذكر ما اذا كانا قد استغرقا وقتا طويلا فى سيرهما ، ثم فى زحفهما . انها لم تدرك سوى أن الأرض كانت قد قلبت راسا على عقب نتيجة قصف طائرات «ايل» ، وقد فطنت الى ذلك لأن معطفها الفرائى وحذاءها وقفازها كانت حين وصلت برفقة ساشكـو الى الحقول ، ملطخة بالاوحال ، شأن دليلها .

استمرا طويلا فيما بعد فى سيرهما عبر الحقول التى انتشرت بها الهضاب وغطتها الثلوج البيضاء ، وحتى توقف ساشكـو اخيرا ثم التفت الى الوراء ينتظر كاتيا . ثم همس قائلا وهو يشير بيده :

— هذا هو الطريق . هل ترينه ؟

واشار اليها كيف تصل الى الطريق الترابى الذى يربط ما بين القرية التى خرجا منها والنجع الذى يمر طريقها عبره . وادركت أنها وصلت الى تلك المنطقة التى تقل بها التحصينات الالمانية ، حسبما جاء بخريطة ايفان فيدوروفيتش ، لكنهـا وحسب تعبيره يمكن أن تشهـد فى غمرة انسحاب الالمان أفظـع الأمور . اذ أن الوحدات المنسحبة المشتتـة يمكن ان تتمسك فى هذه المنطقـة بخطوط تحصينات مؤقتة تخوض منها معارك المؤخرة . كما ويمكن فيها ان يصادف المرء وحدة فرعية المانية منسحبة او جنديـا غدا وحيدا بمحض الصدفة . علاوة على ان اية من النقاط الآهلة بالسكان يمكن ان تصبح فجأة الحد الأمامى لدفاعات الالمان . وقد كان ايفان فيدوروفيتش يعتبر هذا الجزء من الطريق أخطر مراحله .

بيد أنه واذا ما اغفلنا التحركات غير المنظمـة للوحدات المنسحبة على الطرق الرئيسية واستمرار القصف عند جنوب شرقى ميلليروفو ، لم يكن ثمة ما يشير الى الوضع الذى وصفـه ايفان فيدوروفيتش .

وأسدل ساشكو يده قائلا :

— مع السلامة !

وهنا طغت مشاعر الأمومة تجاهه على كل ما عداها . لقد راودتها رغبة حمله على يديها وضمه الى صدرها ، انتظل على هذا الحال طويلا طويلا ، تخفيه عن العالم أجمع . بيد أن ذلك كان يمكن أن يسيء تماما الى علاقتهما .

وخلعت قفازها لتمد يدها اليه قائلة :

— وداعا . . اشكرك .

وعاد الصبى يقول :

— مع السلامة .

وتساءلت كاتيا وقد انفرجت شفتاها عن ظل ابتسامة :

— لقد نسيت أن أسألك . لماذا استحال علينا المرور من هناك ؟

وتجهم وجه ساشكو ليقول :

— كان الفاشيسـت يدفنون موتاهم . . . حفروا هنـاك حفرة . . . كبيرة ، كبيرة .

وارتسمت على وجهه ابتسامة تنم عن مدى نضجه .

ظلت كاتيا تسير فيما تلتفت خلفها برهـة من الوقت حتى تستطيع التمتع برؤية الصبى اكبر فترة ممكنة . بيد أن ساشكو لم يلتفت مرة واحدة ليحتويه الظلام .

وهنا وقع ما زلزل كيانها ، وظل عالقا بذكراها مدى الحياة . فقد كانت كاتيا قد قطعت مسافة لا تزيد عن مائتى متر ، فيما أخذت تتصور فى مخيلتها أنها سوف تصل الى الطريق ما بين لحظة واخرى . لكنها ما كادت تصعد الهضبـة حتى وقع ناظراها على دبابة ضخمة تحتل موقعها وراءها ، تمتد ماسورة مدفعها الطويلة تعترض طريقها . وفجأة تحرك ذلك الظل الغريب الغامض الداكن اللون فوق برج الدبابة والذى وقع ناظراها عليه قبل أى شىء

آخر ، لتكتشف فيه جنديا يقف فى كوتها المفتوحة ، تغطى رأسه خوذة مضلّعة .

ووجه الجندى رشاشه اليها بسرعة بدا معها وكأنه كان فى انتظارها ، ليقول فى صوت غاية فى الهدوء :

— قف .

لقد ندت هذه الصيحة بصوت هادئ ، وعال فى نفس الوقت ، تحمل صيغة الأمر ، والنبرة المهذبة كذلك حيث كان يتعامل مع امرأة . لكن الأهم من كل ذلك انه نطقها بروسية سليمة .

ولم تستطع كاتيا التفوه بحرف واحد ، لتنهمر الدموع غزيرة من عينيها .

الفصل الخامس والخمسون

كانت الدبابتان اللتان وصلت اليهما يكاتيرينا بافلوفنا مقدمة مفرزة مدرعات أمامية . وقد كانت الدبابة الثانية تختفى فيما وراء الهضبة الكائنة على الجانب الآخر من الطريق ، مما جعلها تغيب عن انظارها . اما العسكرى الذى استوقفها فلم يكن سوى قائد الدبابة وقائد الدورية ، وذلك امر كان يصعب عليها تمييزه لانه كان فى ملابس القتال العادية . وقد عرفت كاتيا كل تلك المعلومات فيما بعد .

وامرها القائد بالتقدم فيما قفز من مكانه بالدبابة ، ليتبعه جندى آخر . وريثما كان القائد يستوضح شخصيتها ، راحت هى تتمعن النظر الى وجهه ، حيث شاهدته ما يزال فى ريعان شبابه ، نال منه التعب والانهاك كثيرا ، ويبدو أن النوم لم يمس منذ فترة طويلة جفنيه اللذين كانا يهبطان على عينيه رغما عنه ليرفعهما بصعوبة بالغة .

واخذت كاتيا تشرح له هويتها ومقصدها . وكانت قسمات وجه الضابط تعبر عن تصديقه وربما عدم تصديقه لكل ما تقوله . بيد ان كاتيا لم تلحظ تلك التعبيرات التى ارتسمت على وجهه ، حيث كانت لا ترى قبالتها سوى ذلك الوجه المنهك والجفنين اللذين اضناهما السهاد ، لتدور الدموع فى مآقيها .

وظهر فى خضم تلك الظلمة جندى وصل على متن موتوسيكل ، وتوقف الى جوار الدبابة يسأل بصوت عادى :

— ماذا حدث ؟

وأدركت كاتيا من ذلك السؤال أنه قد جرى استدعاء ذلك الجندى بسببها . فقد تعودت طيلة تلك الاشهر الخمسة التى عاشتها فى الاراضى المحتلة على ملاحظة توافه الأمور التى لا يعيرها المرء أدنى أهمية فى الايام العادية . كيف استدعى الجندى ؟ انه لم يكن ليصل هكذا سريعا لو كان جندى الدبابة اتصل لاسلكيا بتلك النقطة التى كان موجودا بها .

وفى تلك اللحظات وصل قائد الدبابة الثانية ، ليلقى بنظرة سريعة الى كاتيا ، ثم ينتحى جانبا برفقة الضابط الآخر وراكب الموتوسيكل ، ليتناقشوا فيما بينهم برهة من الوقت ، اندفع الاخير بعدها على متن موتوسيكله لتحتويه الظلمة .

وتقدم القائدان نحو كاتيا ، ليسألها اقدمهما عما اذا كانت تحمل اية وثائق . وذكرت كاتيا أنها لا تملك حق ابراز الوثائق التى تحملها سوى الى القيادة العليا .

ولبث ثلاثتهم يقفون فى صمت برهة من الوقت ، وحتى راح الضابط الثانى وهو شاب يصغر كثيرا عن الأول ، يتساءل بصوته الأجش :

— أين عبرت الخطوط الألمانية ؟ هل هى جيدة التحصينات ؟

وذكرت كاتيا كل ما عرفته عن هذه التحصينات وشرحت لهما كيف عبرت تلك الخطوط برفقة صبى فى العاشرة من عمره . كما وذكرت لهما كيف دفن الألمان موتاهم ، وحدثتهما عن الحفرة التى احدثتها القذيفة السوفيتية .

وصاح الضابط الثانى ينظر الى الاكبر وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة طفولية :

— أو هوه . . هل ترى أين سقطت احداها ؟

ولم تدرك كاتيا سوى فى هذه اللحظة ان قصف المدفعية الذى كان يتعالى تارة ، ثم يخفت اخرى طوال ذلك النهار ثم قبيل حلول المساء حين كانت ما تزال فى كوخ جاليا ، كان نيران دبابات المفرزة الأمامية التى كانت تهاجم تحصينات العدو .

ومنذ تلك اللحظة غدت علاقة الضابطين بكاتيا أكثر ودا .
وبلغ بها الأمر ان تجاسرت على سؤال قائد المفرزة الأمامية عن كيف استدعى راكب الموتوسيكل . وذكر القائد انه استدعى باشارة ضوئية نتيجة اضاءة لمبة صغيرة فى مؤخرة الدبابة .

وربما كانوا يتحادثون ، وصل راكب الموتوسيكل على متن موتوسيكل آخر ذى عربة جانبية ، ليؤدى التحية العسكرية لكاتيا مما كان يعنى انه يعتبرها شخصا على قدر كبير من الأهمية ، وليس مجرد انسانا من ذوينا .

وقد راحت كاتيا تعيش منذ تلك اللحظة التى استقلت فيها تلك العربة احساسا جديدا تماما ، ظلت تعيشه ولبضعة أيام بعد وصولها الى ذويها . وقد خمنت انها وصلت الى وحدة مدرعات فرعية تقدمت الى الأراضى التى ما زال العدو يسيطر عليها . بيد انها لم تعد تعير قوى العدو اية اهمية ، حيث أصبح العدو وكل حياتها التى عاشتها طيلة تلك الأشهر الخمسة ، وكافة العقبات التى واجهتها فى طريقها ، فى طى النسيان ، تكمن بعيدا بعيدا فى وعيها .

وقد حملها ذلك الخط المعنوى العظيم بعيدا عن كل ما كان يحيط بها . وراح يعانقها ذلك العالم الذى يحفل باولئك الذين يعيشون نفس مشاعرها ومعاناتها وطابع تفكيرها ويشاطرونها وجهات نظرها . وقد كان رحبا ، بما يجعله بالمقارنة مع ذلك العالم الذى كانت تعيشه حتى هذه اللحظة مترامى الأطراف لا نهاية له . كانت تستطيع السفر على متن ذلك الموتوسيكل يوما آخر وسنة اخرى ، حيث يحيط بها نفس ذلك العالم الذى لا حاجة لها فيه الى التخفى والكذب وبذل الجهود المعنوية والجسمانية غير الطبيعية . لقد غدت كاتيا من جديد ، كاتيا الحقيقية والى الأبد .

كانت الرياح الباردة تلسع وجهها ، أما روحها فقد كانت تتاجج بتلك المشاعر التى يمكن أن تدفعها الى ان يعلو صوتها بالغناء .

ولم يستمر طريقهما يوما ، او حتى ساعة ، بل فترة لا تزيد عن دقيقتين خفض بعدهما راكب الموتوسيكل من سرعته لينحرف الى كوبرى صغير غطته الثلوج يعلو نهيرا ربما تكون مياهه قد

نضبت صيفا . وفى ذلك المنخفض ذى الجانبين المنحدرين والذى يشكل مجرى النهير شاهدت كاتيا ما يقرب من عشر دبابات وبعض عربات النقل التى امتدت على طول الطريق . وقد اتخذ مكانه بالعربات والى جانبها رماة الرشاشات السوفييت من وحدات المشاة الآلية ، وهم رماة رشاشات عاديون يرتدون ستراتهم المبطنة بالقطن تغطى رؤوسهم الطواقى الفرائية الشتوية .

وفى ذلك المكان كانوا ينتظرون كاتيا . فما كاد الموتوسيكل يعبر الكوبرى الصغير ، حتى تقدم نحوها اثنان من جنود المدرعات فى زيهما يساعدانها على الهبوط من مكانها .

— معذرة أيتها الرفيقة . . .

ونطق جندى المدرعات المسن بعد تادية التحية العسكرية ، ينادى كاتيا بلقب تلك المدرسة القادمة من تشير وحسبما جاء فى الوثيقة المزورة ، ثم مضى يقول :

— معذرة ، حيث ينبغى على تنفيذ هذه الشكليات .

والقى بضوء بطاريته يتفقد هويتها التى ناولها اياها فيما بعد . ثم التفت الى زميله الآخر الذى كان وجهه قد خط بندبة طويلة من جبينه وجسر انفه حتى خده الايسر . وكانت الندبة ما تزال طرية قد اندملت لتوها .

— تمام أيها الرفيق النقيب !

— هل تشعرين بالبرد ؟

تساءل النقيب الذى ادركت كاتيا انها تقف ازاء قائد مفرزة الدبابات استنادا الى نبرته الرقيقة المهذبة والذى يبدو متواضعا . ثم مضى يقول وهو يمد يده الثقيلة فى تردد الى ما وراء ظهره يتناول الزمزمية التى تدلت من كتفه ، يفتح غطاءها :

— لا وقت لدينا لاتاحة فرصة الاستمتاع بالدفء ، اذ يجب علينا الرحيل . وعلى أى حال . . ان لم تكونى تانفين . . .

وتناولت كاتيا الزمزمية فى صمت بكلتا يديها لتفرغ فى جوفها جرعة كبيرة .

— شكرا .

— يمكنك المزيد !

— كلا . . شكرا .

وذكر النقيب ضاحكا :
– ثمة تعليمات بنقلك فورا الى اركان الفيلق فى دبابة . اذ اننا وان كنا قد قضينا على العدو فى هذا الطريق الا ان المنطقة غير مأمونة .
وتساءلت كاتيا فيما تشعر بوقع نيران جرعة الكحول المخلوط بالمياه :
– كيف عرفتم لقبى ؟
– ينتظرونك هناك .
هذا يعنى ان كل ذلك من اعداد ايفـــان فيدوروفيتش ، من اعداد حبيبها فانيا ! وبدات الحرارة تتسلل الى اوصالها .
واضطرت كاتيا الى الحديث مرة أخرى عن كل ما تعرفه حول التحصينات الكائنة امام القرية . وكانت تخمن أن الدبابات سوف تقوم الآن بالاستيلاء على تلك المرتفعات . وكان ذلك حقا ، فريثما كانوا يساعدونها فى الصعود الى برج الدبابة للهبوط الى داخلها البارد ، والتى ادركت ضخامة حجمها حين أصبحت على مقربـــة مباشرة منها ، حتى دارت محركات الدبابات فيمـــا حولها وعلا هديرها بينما اندفع رماة الرشاشات الى عرباتهم .
وكان طاقم الدبابة التى كان عليها استقلالهـــا فى طريقها ، يتكون من اربعة افراد ، لكل منهم مكانه . وقد قام هؤلاء بافساح مكان لجلوس يكاتيرينا بافلوفنا فى قاع الدبابـــة الى جوار قدمى قائدها لضيق المكان . ولم يكن هناك سوى سائق الدبابة قد سلم من الاصابة .
كان قائد الدبابة مصابا فى رأسه ، التى لفها بضمادة علت طبقة عريضة من القطن جعلت من الصعب عليـــه ارتداء خوذته ، وليغطيها بطاقية فرائية عسكرية عاديـــة . كما وكانت ذراعـــه مصابة ، تدلت من حمالتها . وقد كان فى حركة لا ارادية يحاول تجنيبها اية صدمة ، يتجعد وجهه حين يمسّها شىء .
وكان شأن بقية افراد الطاقم لا يود على الاطلاق العودة الى المؤخرة وترك رفاقه ، ولذا فقد عاملوا كاتيا فى البدايـــة ببرود بوصفها المسؤولة عن ذلك . وكما اتضح فيما بعد كان قائـــد الدبابة وسائقها من الطاقم الأساسى . أما الشخصان الآخران فقد

نقلا اليها ، على الرغم من مقاومتهما الشديدة ، من دبابتين اخريين ليحل محلهما اثنان سليمان من طاقم هذه الدبابة . وقد حدثت فى تلك اللحظة التى جرى فيها نقل كاتيا الى الدبابة ، بين قائد الدبابة والنقيب مشادة كلامية بسيطة ، التى وان كانت غير ظاهرة من نبرات الرجلين التى اتسمت بالتأدب الشديد ، فقد عكستها قسمات وجهيهما الواضحة . بيد أن النقيب ذا الندب الذى غطى وجهه ولم يلتئم بعد أصر على موقفه . فقد استغل رحيل كاتيا حتى يخلص المفرزة من الجرحى .
بيد أن الدبابة ما كادت تتحرك من مكانها ، ليرى طاقمهـــا امرأة شابة تستقلها برفقتهم حتى تغيرت معاملتهم لها . فقـــد اتضح لهم أن كاتيا عبرت توا تلك التحصينات التى كان يجب على مفرزة المدرعات الاستيلاء عليها . ودبت الحركة والنشـــاط فى نفوس أفراد طاقم الدبابة ، الذين كانوا فى مقتبل العمر يصغرون كاتيا بخمسة او سبعة أعوام .
وسمح قائد الدبابة بفتح «الجبهة الثانية» ، وهى علبة اللحوم الامريكية المحفوظة التى كانوا يطلقون عليها هذه التسمية . وفتح جندى الرماية والاشارة «الجبهة الثانية» فى لحظـــة واحدة ، وقام بتقطيع الخبز كسرا كبيرة ، وقدم القائد بيده اليسرى زمزميته الى كاتيا . ورفضت كاتيا الزمزمية ، الا انها وبشهية طيبة تناولت الخبز واللحم المحفوظ . وراح أفراد الطاقم يتناولون جرعـــات الشراب من زمزمية القائد الواحد تلو الآخر . وساد الدبابـــة جو العلاقات الودية .
وكانت الدبابة تجد فى السير بأقصى قدر تستطيعـــه ، تهز كاتيا يمنة ويسرة . وفجأة هبط جندى الرماية الذى كان يقف فى كوته المفتوحة يهمس تلامس شفتاه أذن القائد :
– أيها الرفيق الملازم اول . . الا تسمعنى ؟
وسأل قائد الدبابة بصوته الأجش فيما يمس بقدمـــه كتف السائق :
– هل بدأوا ؟
وأوقف السائق الدبابة ، ليعلو فى فترة الصمت الذى خيم

عليهم ، قصف المدفعية ، يملأ أرجاء الليل ، يتناهى الى اسماعهم من تلك الجهة التى جاءت منها كاتيا .

وذكر الرامى بارتياح وقد أطل برأسه مرة أخرى من كوته :

— او هوه . . لا يملك الفاشيست صواريخ اشارة . كما وتسير قواتنا على خير ما يرام . انني ارى نيران مدافعها . .

— افسح لى مكانا . .

وتبادل الملازم اول مكانه مع الرامى ليطل برأسه التى تغطيها الضمادات ، بعد ان اخرجها فى حرص . وطالما كان منهمكا فى النظر ، راح بقية افراد الطاقم ، وقد تناسوا وجود كاتيا يناقشون كافة التوقعات حول سير القتال ، معبرين من جديد عن أسفهم لعدم وجودهم هناك .

وعاد القائد ، يهبط برأسه فى حرص عبر الكوة ، الى مكانه داخل الدبابة وقد ارتسمت على وجهه امارات الالم . بيد أنه لم يتناسى وجود كاتيا وامر بالكف فورا عن ذلك الحديث . ومع ذلك فقد ادركت كاتيا من قسمات وجهه مدى معاناته بسبب عدم اشتراكه فى المعركة . كما واضطر الى السماح للجميع على التوالى بالنظر الى ما يجرى هناك قبل ان يأمر باستئناف السير .

وبوجه عام ، فقد سادت معنوياتهم جميعا . بيد ان يكاتيرينا بافلوفنا كانت امرأة نابهة ، سرعان ما راحت تسهب فى اسئلتها الى افراد الطاقم حول الشؤون القتالية . وقد كان صرير الدبابة عاليا لدرجة كان يصعب معها الحديث بنبرة عادية ، وليعلو صراخ الجميع . واججتهم الذكريات من جديد . وكونت يكاتيرينا بافلوفنا من احاديثهم اول صورة تقريبية عن العمليات القتالية فى تلك المنطقة التى وصلت اليها .

لقد عبرت وحدات المدرعات السوفيتية خط السكة الحديدية فورونيج — روستوف عند القطاع الكبير بين روسوش وميلليريفو وطردوا الالمان من خطهم الدفاعى على نهير كاميشنايا ، ليصلوا الى شمالى منطقة قرية نوفوماركوفكا عند أعالى نهر ديركول . وعجلت الوحدات الالمانية المنسحبة بتحويل الجزء الفاصل بين كاميشنايا وديركول ، بما فيه تلك الهضاب التى استطاعت كاتيا المرور الى جوارها ، الى خط دفاعى امامى . وكان الخط الجديد يمر عبر

ليماريفكا وبيلوفودسك وجوروديشى ، تلك الأماكن التى نشطت فيها فصائل الفدائيين بقيادة ايفان فيدوروفيتش وحتى نهر الدونيتس حيث توجد قاعدة فصيلة ميتياكينسكى . ولما كانت كاتيا تعرف جيدا تلك الأماكن ، فقد أدركت الآن مدى حجم الضربة التى وجهتها القوات السوفيتية . كما وفهمت فى نفس الوقت كل تلك الصعاب التى تواجه قواتنا . فقد كان عليها اجتياز الضفاف المحصنة لأنهار ديركول ويفسوج وايدار وبوروفايا ، وخط السكة الحديدية ستاروبيلسك — ستانيتشنولوجانسكايا واخيرا نهر الدونيتس نفسه .

وكانت مفرزة المدرعات المتقدمة التى وصلت اليها كاتيا قد انفصلت يومين كاملين عن وحدتها التى كانت تتبعها على مسافة خمسة عشر كيلومترا . وقد قامت المفرزة فى طريقها نحو الاتجاه الغربى بسحق كافة نقاط مقاومة العدو التى صادفتها ، واحتلت بعض القرى والنجوع ، بما فيها تلك القرية التى كان من المفروض ان تصل اليها كاتيا وفقا لتعليمات ايفان فيدوروفيتش .

اما الدبابة التى كانت تستقلها كاتيا فقد شاركت نهارا ضمن المفرزة المتقدمة فى مهاجمة تلك الهضاب . واذ اصطدمت المفرزة فجأة باحد تحصينات العدو ، فتحت نيران مدافعها ورشاشاتها ، تستميل الى اتجاهها كل نيران العدو . وقد أصيبت الدبابة فى ذلك الهجوم وجرح قائدها فى رأسه وذراعه .

وقد ابتعد الجميع عن موقع المعركة ، وذلك أمر اصبح غير قابل للتغيير لدرجة أن الانهاك والنوم راحا يغالبان كل افراد الطاقم عدا سائق الدبابة وكاتيا ، شأن ما يحدث للمقاتلين الذين ابتعدوا عن ساحة القتال لتناول قسط من الراحة . وكانت كاتيا تحس بالعطف والشفقة عليهم وشعور الحنان اليهم .

وهكذا تجاوزوا عددا من النقاط الآهلة بالسكان . وفجأة ، التفت سائق الدبابة الى كاتيا ليصيح :

— قواتنا قادمة !

وخرج السائق عن الطريق ، لينحرف نحو الحقول ويوقف الدبابة .

كانت الليلة قد ابتعدت كثيرا عن بدايتها ، يخيم عليها صمت

مطبق لا تقطعه سوى أصوات المعارك القريبة والبعيدة ، والتى تعودت عليها آذان المقاتلين . وفى خضم ذلك الهدوء تعالى رويدا رويدا يقترب اكثر فاكثر هدير وصرير الكتل المعدنية التى تسير فى اتجاههم . واشار السائق بمصابيح دبابته التى جرى تعتيمها . وبارح الدبابة قائدها ورامى الرشاش ، بينما وقفت كاتيا مفرودة القوام تطل من كوة البرج .

ومرق راكبو الموتوسيكلات الى جوارهم ، وتبدت واضحة الدبابات والعربات المدرعة تقطع الطريق والحقول . وملأ هدير محركاتها كل ارجاء الليل . وصمت كاتيا اذنيها بقفازها فوق المنديل الذى عصبت به رأسها . وتهادت الدبابات تصر جنازيرها وتعلو اصوات غازاتها العادمة ، الى جوارهم ضخمة ثقيلة بمدافعها داكنة اللون ، تشكل انطباعا رهيبا هائلا تزيد ظلمة الليل من حدته .

وتوقفت عربة مدرعة صغيرة الى جوار دبابتهم الوحيدة ، ليهبط منها اثنان يرتديان معطفيهما العسكريين . ولبثا يتحادثان برهة من الوقت مع قائد الدبابة يصيح كل منهم فى أذن الآخر فيما تندر نظراتهم الى كاتيا التى وقفت فى برج الدبابة . واستقل الشخصان فى زيهما العسكرى العربة المدرعة من جديد لتندفع تنهب البرارى متجاوزة رتل الدبابات .

وكانت حركة الدبابات تتناوب مع حركة عربات النقل والمشاة الآلية . وكانت العربات والدبابات تتهادى على الطريق ، بينما كان رماة الرشاشات ينظرون فى اتجاه الدبابة التى تقف وحيدة بالبرارى ، تحتل برجها امرأة تنظر اليهم فيما تغطى اذنيها بقفازها .

وقد اذهلت كاتيا حركة الكتل الحديدية الثقيلة والجماهير البشرية التى بدت فى حلكة الظلام وكأنما تمازجت فيما بينها . ومن المؤكد ان يكون شعور جديد لم تستطع التخلص منه طويلا قد امتزج منذ تلك اللحظة بشعور التحرر الداخلى الذى كان يراودها . وبدا لها ان شخصا آخر وليست هى ، يرى كل ذلك ، مما استطاعت معه أن ترى شخصيتها بعينى ذلك الآخر ، وكأنما تعيش حلما . وقد شعرت لأول مرة فى حياتها بانها قد اقلعت بعيدا عن

ذلك العالم الذى اقتحم روحها بقوة هائلة . ولبثت فترة طويلة تبحث عن نفسها فى خضم تلك الوجوه والوقائع والاحاديث ، واخيرا المفاهيم البشرية التى وجدت فيما بينها الجديد ، وكذلك القديم الذى فارق ذاكرتها منذ زمن بعيد .

وبمثل تلك القوة الهائلة اجتاحتها رغبة مشاهدة ايفان فيدوروفيتش والشعور بقربه منها . وقد كان قلقها عليه مشوبا بالألم والمعاناة . وكانت مشاعر حبها له وشوقها اليه تجرح قلبها ، وتقض مضاجعها ولاسيما انها نسيت البكاء منذ زمن طويل .

وقد كان الجيش الأحمر الذى التقت يكاتيرينا بافلوفنا به ، جيشا يعلم انه جيش مظفر .

فبعد عام ونصف من القتال لم ينضب معين ذلك الجيش المظفر وحسب ، بل وظهر امام ناظرى يكاتيرينا بافلوفنا يملك قدرة عسكرية تفوق قدرة العدو ، حتى فى تلك الايام التى ستظل حبيسة الذكريات ابد الدهر ، حين كان العدو مسلحا بكل ما يمكن ان تجود به افضل مصانع اوروبا المحتلة ، يدوس كل ما يصادفه ، يذرع بلا رحمة برارى الدونيتس الحامية . بيد ان اكثر ما هز كيان كاتيا ، كانوا اولئك الذين قادتهم الاقدار فى طريقها . لقد كانوا اناسا من نمط جديد . انهم لم يستوعبوا قدرة المعدات الجديدة وحسب ، بل وبدوا بانماطهم الروحية وكأنما انتقلوا الى طبقة جديدة سامية من طبقات التاريخ الانسانى .

وقد بدا مؤلما لكاتيا احيانا انهم قد سبقوها لدرجة انها لن تستطيع اللحاق بهم ابدا .

وجاءت الدبابة بطاقمها «المشترك» وبقيادة الملازم اول المصاب فى راسه وذراعه ، تحمل كاتيا الى اركان لواء الدبابات الذى صادفهم اثناء رحلتهم . ولم يكن هذا المكان وعلى وجه العموم بمقر اركان ، حيث لم يكن هناك سوى قائد اللواء برفقة مجموعة العمليات . وكان هؤلاء قد استقروا بنجع أصيب كثيرا فى المعركة مع العدو فى وقت لم يتعد صباح الأمس .

وفى البيت الوحيد الذى سلم من الدمار استقبلها عقيد شاب متوقد العينين ذو وجه كساه السهاد سمرة ، شأن كافة افراد الاركان الذين قطعوا الطريق برفقته . واعتذر لأنه لا يستطيع

استقبالها على نحو افضل ، حيث عرج الى هذا المكان لبرهة قليلة ، وسوف يواصل طريقه الآن . ومع ذلك فقد عرض عليها الانتظار فى ذلك المكان والنوم بعض الوقت . وتحدث قائلا :

— سرعان ما سوف يصل الى هنا نسقنا الثانى ، لتجدى من يرعاك ويهتم بشئونك .

وكان المنزل قد جرت تدفئته لدرجة ان الجو غدا حارا . وارغم الضباط كاتيا على خلع معطفها والاستمتاع بدفء المكان .

وعلى الرغم من الدمار الشديد الذى لحق بالنجع فقد كان سكانه كثيرين ، غالبيتهم من النساء والاطفال والمسنين . وقد فرح هؤلاء كثيرا بمقدم الجنود السوفييت ، وشعروا بالبهجة اذ ان هؤلاء الجنود من رجال المدرعات بالذات . وراح السكان يحتشدون فى كل مكان يظهر فيه العسكريون ولاسيما القادة .

واخذ جنود الاشارة يمدون فى ذلك البيت وما جاوره من بيوت شبه مهدمة اسلاك التليفون ، يعدون كل ما يلزم القيادة وشؤونها الادارية .

وشربت كاتيا بعض الشاى . وكان شايا حقيقيا . وبعد نصف ساعة اوصلتها عربة القائد البرمائية المغلقة الى اركان الفيلق . ولم يرافقها فى هذه المرة سوى رقيب من رماة الرشاشات . وها هما وجها الملازم اول قائد الدبابة ذى الراس التى تغطيها الضمادات ، والعقيد الأسمر ذى العينين المتوقدتين وغيرهما من عشرات الأوجه تختفى من ذاكرة كاتيا .

كان الصقيع شديدا فى ذلك الصباح ، والضباب يكسو المنطقة بأسرها ، بيد ان الشمس كانت تلوح بعيدا فى مكان ما خلف ذلك الضباب ، تقصدها كاتيا مباشرة على متن تلك العربة .

وقد سارت العربة عبر طريق كبير ، تصادف القوات السائرة فى الاتجاه المعاكس . ولو لم تكن تلك العربة البرمائية قد راحت تنحرف كثيرا الى تلك البرارى المغطاة بالثلوج الخفيفة ، لما استطاعت كاتيا الوصول هكذا سريعا الى اركان الفيلق . وسرعان ما خاضت العربة البرمائية مياه نهير كاميشنايا الضحلة شديدة العكر ، التى كانت تسحب فى تيارها الثلوج الخفيفة والجليد

والرمال التى أثارتها الدبابات والمدافع التى عبرتها فى كثير من الاماكن .

وانقشع الضباب بعض الشىء ، لتعلو الشمس الافق على مسافة منخفضة ، غير ساطعة بكل قوتها بعد لتتيح للمرء النظر اليها . وقد شاهدت كاتيا على امتداد ضفتى النهر التحصينات الالمانية التى احتلتها اليوم قواتنا . وكانت الارض فيما حولها تحمل آثار انفجارات القذائف وتحركات الدبابات وعربات الجر التى كانت تسحب المدافع الثقيلة الى مواقع جديدة .

اصبحت الحركة فيما وراء النهر اكثر صعوبة لغزارة القوات التى راحت تتحرك نحو الجنوب الغربى ، وتدفق سيل الأسرى من الجيوش المحتلة الذى يتوجه فى الاتجاه المعاكس ، افواجا كبيرة واحيانا جماعات صغيرة . وقد صار هؤلاء يثقلون الخطى فى معاطفهم العسكرية المحترقة غير حليقى الوجوه تعلوهم القاذورات، يقطعون الطرق التى اثير غبارها ، او يشقون البرارى ، يجثم على كواهلهم عار الهزيمة والأسر .

وقد كانت الاراضى التى يسيرون عبرها تحمل آثار الدمار والخراب الرهيبة نتيجة افعالهم نفسهم . وبدت السهوب المثمرة التى كانت تاتى بالغلال والحبوب على مدى قرون باكملها ، وقد اضناها العذاب والآلام فيما ظهرت آثار الحرائق فى القرى التى تداعت مساكنها وبدا معظمها اطلالا . وكانت تنتشر هنا وهناك هياكل الدبابات التى اندلعت بها النيران وعربات النقل المحطمة ، وماسورة مدفع اعطب ، او جناح طائرة اسقطت يحمل علامة الصليب المعقوف الاسود . كما وتناثرت جثث جنود الأعداء المتجمدة بالبرارى وفى عرض الطريق مباشرة ، فلم يكن ثمة آخرون او وقت يكفلون رفعها ، فيما كانت الدبابات والمدافع الثقيلة تزحف فوقها لتحولها الى خليط رهيب .

ولم يعر اهتماما الى جثث الأعداء اولئك الذين كانوا يسيرون فى ارتال المهاجمين ، يستقلون الدبابات وعربات النقل ، اولئك الذين اضناهم التعب والهمتهم تقلبات المعارك ، البطولية والقاسية والتى تستمر بلا انقطاع حوالى عشرة ايام . ولم تكن

هناك سرى كاتيا التى اخذت تنظر اليها احيانا فى عدم اكتراث مشوب بالتقزز .

اما المعركة ، احدى اكبر المعارك فى التاريخ ، والتى اعتبرت احدى حلقات سلسلة المعارك الخالدة التى ادت الى تحطيم القوات الهتلرية عند ستالينجراد ، فقد اخذت تتطور بنجاح كبير نحو الجنوب الغربى . ووسط الضباب الذى بدأ يتلاشى تدريجيا كانت تندلع المعارك الجوية تارة هنا ، واخرى هناك ، وتدك المدفعية الثقيلة كل ارجاء البرارى ، فيما كانت تبدو فى كل مكان يصل اليه البصر صور الارتال الضخمة من القوات والمعدات والمواد الغذائية والذخيرة ، تلك الارتال التى رافقت العمليات العسكرية الكبيرة .

وعند منتصف النهار الذى كان غاية فى الوضوح ، ان لم تأخذ فى حسباننا دخان الحرائق الذى راح يتلاشى فى خضم تبخرات الضباب، وصلت كاتيا الى مقر اركان فيلق الحرس للدبابات . ولم يكن المكان اركانا حقيقيا بل مقر قيادة مؤقت لقائد الفيلق استقر فى مبنى حجرى لاحدى محطات السكة الحديدية شمالى ميلليروفو ، سلم صدفة من الدمار . اما المستعمرة التابعة للمحطة فقد تحولت الى انقاض . بيد ان المكان شان كل المناطق المحروقة ، كان يعكس للوهلة الاولى التمازج المدهش بين العمليات العسكرية المستمرة وعودة الحياة المدنية السوفييتية .

وكان اول من وقعت عليه عينا كاتيا بين العسكريين بمقر القيادة شخص اعاد الى ذاكرتها على الفور تلك الحياة السلمية وايفان فيدوروفيتش وكل اسرتها وعملها ، كمدرسة ، ثم النشاط المتواضع للتعليم العام .

واندفعت الى ذلك الشخص تعانقه صائحة :

— اندريه يفيموفيتش ! يا عزيزى !

لقد كان احد قادة فدائيى اوكرانيا ، والذى قام منذ ما يزيد عن خمسة اشهر بتوجيه ارشاداته وتعليماته الى ايفان فيدوروفيتش قبيل نزوله الى العمل السرى .

وذكر الجنرال النحيف الذى يبدو اصغر من سنه فيما ينظر اليها بعينيه الرماديتين اللتين تتوقدان ذكاء تحت اهدابه الطويلة :

— فلتعانقينا جميعا !

وشاهدت كاتيا وجه الجنرال الاسمر صارم القسمات ، والذى حلقه بعناية ، بينما بدأ الشيب يخط فوديه قليلا ، لتدفن وجهها بين يديها وتميل برأسها الذى عصبته بمنديل ريفى داكن اللون .

ولبثت تقف هكذا فى معطفها الفرائى وحذائها الشتوى بين اولئك العسكريين مفرودى القوام ، وهى تغطى وجهها بيديها .

وذكر اندريه يفيموفيتش والابتسامة ترتسم على شفتيه :

— هاكم قد أحرجتم المرأة !

وضحك الضباط .

ولمس الجنرال كتفها بيده الرقيقة قائلا :

— معذرة .

ورفعت يديها من على وجهها ، فيما تألقت عيناها ، لتقول :

— لا بأس . . لا بأس !

وساعدها الجنرال فى خلع معطفها الفرائى .

وقد كان قائد الفيلق شأن معظم القادة العصريين آنذاك فى سن صغير لا يتناسب مع وظيفته ورتبته . وعلى الرغم من ذلك الموقف الذى يعيشه فى تلك اللحظة فقد كان طبيعى التصرفات هادئا ، لبقا عمليا محبا للمزاح الفظ وان كان مهذبا فى ذات الوقت . هذا وقد كان الهدوء والنشاط والتأدب والنظافة هى السمات العامة التى تميز بها العسكريون المحيطون به .

وبينما كانوا يفكون شفرة رسالة ايفان فيدوروفيتش وضع الجنرال بحرص وفوق الخريطة العسكرية الكبيرة المفروشة على المائدة الورقة الخفيفة التى تمثل خريطة مقاطعة فوروشيلوفجراد فى خطوط غاية فى الدقة ، كما فعل ايفان فيدوروفيتش فى حضرة كاتيا . وكم كان صعبا على المرء تخيل أن ذلك حدث الليلة قبل الماضية فقط !

ومسح الجنرال على الورقة بأصابعه الرقيقة وقال بارتياح ظاهر :

— يا له من عمل رائع . . يا للشيطان !

ثم صاح فجأة :

— انهم يحصنون ضفاف ميوس من جديد . انظر يا اندريه يفيموفيتش . .

ومال اندريه يفيموفيتش نحو الخريطة لتبدو على وجهه القوى

وبشكل واضح التجاعيد التى أظهرته اكبر من سنه . واقتـــرب الآخرون كذلك من الورقة الصغيرة التى استقرت فوق الخريطـــة العسكرية .

وذكر الجنرال فيما ينظر من تحت أهدابه الطويلة فى مرح الى اندريه يفيموفيتش :

– اننا وبوجه عام لن نصطدم بهم هناك فى ميوس . لكن هل تعرفون ماذا يعنى ذلك ؟ انهم ليسوا اغبياء الى هذا الحد . . فهم يدركون ضرورة الرحيل عن شمال القوقاز وكوبان !

وضحك الجنرال ، بينما علت الحمرة وجه كاتيا ، حيث توافقت كلمات الجنرال مع تصورات ايفان فدوروفيتش .

– والآن فلننظر الى الجديد فى هذه الورقة . .

وتناول الجنرال العدسة التى استقرت فوق الخريطة العسكرية وراح يتمعن العلامات والدوائر التى رسمها ايفان فيدوروفيتش فى دقة متناهية على مثل هذه الورقة الرقيقة ، ليمضى قائلا :

– هذا معروف . . هذا معروف ، هكذا . . هكذا .

لقد كان يفسر معانى علامات ايفان فيدوروفيتش بدون تلـــك الشروح التى لم يكن قد جرى فك شفرتها بعد ، ثم مضى يخاطب فى نبرة مشوبة بالسخرية الخفيفة ، العقيد رئيس اركان الفيلق ، ضخم البنية أسود الشارب قائلا :

– هذا يعنى أن رجلنا فاسيلى بروخوروفيتش ليس سيئا ، بينما تقولون «استطلاعنا غير جيد . . استطلاعنا غير جيد» .

وسارع أحد العسكريين ، بدين البنية ربع القامة ، صليـــع الراس ذو وجه تندر فيه شعيرات حاجبيه ، يقول فى دهاء عكسته عيناه الناصعتان المفعمتان حيوية ، قبل أن يجيب العقيد :

– لقد جاءتنا هذه المعلومات يا ايها الرفيق قائد الفيلق ، من نفس المصدر .

لقد كان المتكلم فاسيلى بروخوروفيتش ، رئيس استطـــلاع الفيلق .

وذكر الجنرال فى نبرة تنم عن خيبة أمل :

– بينما كنت اعتقد انكم قد جئتم بها بانفسكم .

وانفجر الضباط ضاحكين بيد أن فاسيلى بروخورفيتش لم يعر

اهتماما لا الى ملاحظة قائد الفيلق الساخرة ، ولا الى ضحكات رفاقه فى الخدمة ، اذ بدا وكأنما تعود على ذلك . وقال فى هدوء :

– فلننظر ايها الرفيق الجنرال الى هذه المعلومات ، بشأن المنطقة أمام ديركول . أوليست معلومات ناقصة ! اننا نملك اكثر منها .

وشعرت كاتيا ان ملاحظة فاسيلى بروخوروفيتش تنال من اهمية المعلومات التى جمعها ايفان فيدوروفيتش ، والتى قطعت من أجلها كل ذلك الطريق . وذكرت فى صوت حاد :

– لقد طلب منى الرفيق الذى سلم الىّ هذه المعلومات ، أن ابلغكم بأن كل المعلومات الجديدة المتعلقة بانسحاب العدو سوف يبعث بها مستقبلا ، واعتقد انه يقوم بذلك الآن . اما عن هـــذه الخريطة فهى تعطى صورة كاملة للوضع فى المقاطعة .

وذكر الجنرال :

– هذا صحيح .

– انها لازمة أكثر للرفيق فاتوتين ، وسوف نقوم بارسالهـا اليه . أما نحن فسوف نستفيد مما يخصنا .

ولم تستطع يكاتيرينا بافلوفنا سوى فى وقت متأخر من الليل ان تجد الفرصة لتتحدث مع اندريه يفيموفيتش عن كل ما يعتلج بنفسها .

ولم يجلسا بل وقفا فى غرفة مقفرة وان كان الدفء يسودها على ضوء مصابيح الزيت الالمانية التى غنموها ، لتتساءل كاتيا :

– كيف جئت الى هنا يا عزيزى اندريه يفيموفيتش ؟

– وماذا يدعوك الى الدهشة ؟ أولم تدخل اراضى اوكرانيا ! انها ارضنا على الرغم من انها لا تزال صغيرة المساحة ! ان الحكومة تعود الى الارض الحبيبة لارساء النظم السوفييتية . – ثم ضحـــك اندريه يفيموفيتش ، ليعود الصبا الى وجهه الذى كسته الغضون الدقيقة ليمضى قائلا :

– ان قواتنا وكما تعلمين تنسق مع فدائيي اوكرانيا . فكيف العمل هنا بدوننا ؟

وتأمل كاتيا من قمة رأسها حتى اخمص قدميها فيما تلألأت عيناه ، الا أن أمارات الصرامة كست وجهه فجأة :

– اود توفير الفرصة كي تستمتعين بقسط من الراحة على ان نتحادث فى الامر غدا . انك انسانة تتسم بالبسالة وقوة التحمل !

وارتبك بعض الشيء الا ان عينيه ظلتا تحدقان فى كاتيا يمضي قائلا :

– ونحن نود ان نبعث بك ثانية الى فوروشيلوفجراد نفسها ، اذ اننا فى حاجة الى الكثير الذى ليست هناك سواك قادرا على معرفته .

ثم صمت برهة قليلة ليقول بصوت هادىء مشوب بالتساؤل :

– وبالطبع ان كنت قد ارهقت تماما . . .

بيد ان كاتيا قاطعته ليتوقف عن حديثه . فقد كان قلبها مفعما بمشاعر الفخر والشكر . وراحت تقول بصعوبة بالغة :

– شكرا ! شكرا يا اندريه يفيموفيتش . . لا داعى للحديث اكثر من هذا .

وتالق وجهها الأسمر ذو القسمات الواضحة الذى ظللته خصلات شعرها الأصفر لتقول فى اضطراب :

– ليس ثمة ما يسعدنى اكثر مما قلتم . وطلبى الوحيد هو ان ترسلونى غدا ، وارجو عدم توجيهى الى الادارة السياسية للجبهة ، فلست فى حاجة الى الراحة !

واستغرق اندريه يفيموفيتش فى التفكير برهة ، وهز راسه ثم ابتسم قائلا :

– اننا لسنا فى عجلة من الامر . سوف نسوى خطوطنا بعض الشيء ، ونقوى مواقعنا . اذ انه من غير الممكن الاستيلاء من الحركة على ديركول ، ومن باب أولى الدونيتس . كما ان ميلليروفو وكامينسك يعطلاننا . اما انت . . فهناك ما يمكن الادلاء به فى الادارة السياسية . وهكذا لسنا فى عجلة من الامر بعد . سوف نبعث بك بعد يومين ، او ثلاثة .

وصاحت كاتيا ، فيما تدفقت الدماء الى قلبها من الحب والأسى :

– آه . . ولماذا لا يمكننى ذلك غدا ؟

ووصلت يكاتيرينا بافلوفنا فى مساء اليوم الثالث الى تلك القرية المعروفة لتدلف من جديد الى كوخ جاليا ، فى نفس معطفها الفرائى ومنديل راسها الداكن تحمل نفس الهوية الدالة على انها مدرسة من تشير .

وقد كانت قواتنا قد فرضت سيطرتها على تلك القرية . بيد ان المرتفعات الكائنة فى الاتجاهين الشمالى والجنوبى كانت ما تزال تحت سيطرة العدو . وكان خط التحصينات الالمانية يمر عبر الفاصل الكائن بين نهيرى كاميشنايا وديركول وعمقا نحو الغرب ، وكذلك بطول ديركول نفسه .

وقاد كاتيا الصغير ساشكو ، نفس الصبى الصموت الدقيق ، تحت جنح الليل عبر نفس الطريق الذى كان قد صحبها فيه العجوز فوما قبل ذلك ، لتصل الى نفس المنزل المنعزل الذى جلست فيه برفقة ايفان فيدوروفيتش يوم ادلى اليها بنصائحه قبيل الرحيل .

وهناك ابلغها احد اولئك الكثيرين الذين يحملون لقب كورنيينكو بان ايفان فيدوروفتش حى معافى يعلم بوصولها ، الا انه لا يملك فرصة لرؤيتها .

وراحت كاتيا تقطع الطريق ليل نهار ، لا تخلد الى الراحة اكثر من ساعتين او ثلاث يوميا ، لتصل فى النهاية حتى مارفا كورنيينكو . وهناك اذهلها سماعها لنبأ استشهاد صديقتها ماشا شوبينا .

فقد اكتشف الالمان مقر التنظيم السرى فى النقطة الطبية بقرية اوسبينسك . واستطاعت الشقيقتان كروتوفا اللتان حذرهما احد الوطنيين العاملين فى الشرطة ، الرحيل فى الوقت المناسب وابلاغ منظمات العمل السرى المرتبطة بهما بنبأ اكتشاف امر المقر . بيد أن خبر اكتشاف امر المقر لم يبلغ مارفا كورنيينكو الا بعد ان اتخذت ماشا طريقها الى اوسبينسك .

ولم تسفر محاولة اللحاق بماشا عن اية نتيجة ، لتقع فى قبضة رجال الشرطة هناك فى اوسبينسك حيث اذاقوها كل صنوف التعذيب . وقد تم التوصل عن طريق شخص موثوق به ، الى معرفة ان ماشا شوبينا أنكرت حتى النهاية وجود اية صلة تربطها بالعمل السرى ، ولم تشِ باى احد .

وكان نبأ مفجعا ! بيد ان كاتيا لم تكن تملك حق الانغماس فى الحزن حتى توفر قواها لتنفيذ المهمة المنوطة بها .

وما هى تصل بعد يومين الى فوروشيلوفجراد .

الفصل السادس والخمسون

كان كل انسان يعيش فى الاراضى المحتلة ، ومهما بلغ جهله بالامور العسكرية يدرك أن نهاية الهتلريين قد حانت .

وقد ادرك سكان تلك المناطق البعيدة عن الجبهة ، مثل كراسنودون ، هذه الحقيقة استنادا بالدرجة الاولى الى فرار شركاء الهتلريين الصغار ، شركائهم فى السلب والنهب . . . المرتزقة المجريين ، والايطاليين وفلول جيش أنطونيسكو * .

وكان الضباط والجنود الرومانيون يفرون بكل الطرق دون عربات او مدفعية . كانوا يواصلون فرارهم ليل نهار فى عرباتهم التى تجرها خيول اضناها البرد ، وسيرا على الأقدام فى معاطفهم العسكرية التى احترقت اطرافها واغطية الرؤوس الشتوية المصنوعة من فراء الماعز او طواقيهم العسكرية ، وقد تجمدت وجناتهم التى لفوها بالمناشف والملابس الداخلية النسائية الصوفية .

وتوقفت احدى العربات الى جوار فناء بيت آل كوشيفوى ، ليغادرها ضابط سبق ان زار ذلك المكان ، ويدلف الى البيت فى سرعة . وتبعه الخادم يحمل حقيبة الضابط الكبيرة ، وحقيبته الشخصية الصغيرة ، وقد مال برقبته حتى يخفى أذنه التى تجمدت .

وكان الضابط متورم اللثة وبدون شارات كتفه الذهبية ودخل المطبخ على عجل ليدفىء يديه الى جوار الموقد .

وسأله الخال كوليا :

— هيه . . كيف الحال ؟

ويصعب علينا القول أن الضابط حرك مقدمة أنفه ، حيث كان غير قادر على تحريك أنفه المتجمد ، الا انه جعل قسمات وجهه قريبة الشبه من هتلر . وقد ساعده فى ذلك شاربه القصير ونظرات عينيه التى تتسم بالجنون . واذ شب على اطرافه راح يقلد هتلر وكأنما يود تصوير عملية الفرار ، دون أن تعلو الابتسامة وجهه مما يعنى انه لم يكن يمزح .

* انطونيسكو رئيس الحكومة الملكية فى رومانيا وقائد الجيش فى الحرب العالمية الثانية . **المترجم** .

وذكر الخادم فى نبرة رقيقة ، فيما ينظر شزرا الى الضابط بما ينم عن حذر ويغمز للخال كوليا :

— هيا ندخل غرفة ربة البيت .

وهناك استمتعا بالدفء وتناولا بعض الطعام . وما كادا يبارحان المنزل بحقيبتيهما ، حتى رفعت الجدة بوازع مفاجىء بطانية فراش يلينا نيكولايفنا ، لتكتشف ضياع ملاءتى السرير .

واعترت الجدة مشاعر الغضب لدرجة انها بدت اكثر شبابا ، لتندفع فى اثر الضيفين وراحت تصيح عند بوابة المنزل ، ليدرك الضابط انه سوف يصبح ما بين لحظة واخرى هدفا لفضيحة نسائية . وهنا أمر خادمه بفتح الحقيبة الصغيرة حيث كانت قد استقرت بالفعل احدى الملاءتين . واختطفتها الجدة لتصيح :

— وأين الثانية ؟

ودار الخادم بعينيه فى غضب فى اتجاه سيده ، الذى سارع بتناول حقيبته ، يستقل عربته . وهكذا حمل معه الملاءة الى رومانيا ، ان لم يكن قد استفاد منها أحد الفدائيين ، اوكرانى او مولدافى أرسل الى العالم الآخر سليل الرومان القدماء ، برفقة خادمه .

تنجح فى بعض الاحيان العمليات القتالية التى تتسم بالمغامرة والخطورة ، اكثر من مثيلاتها التى تجرى الاعداد لها بكل دقة وحذر . وذلك أمر يعود بالدرجة الاولى الى عامل المفاجأة . بيد أن اكبر العمليات يمكن أن تفشل فى بعض الاحيان بسبب هفوة واحدة .

ففى مساء ٣٠ ديسمبر شاهد سيريوجكا وفاليا اللذان كانا يسيران بصحبة بعض الرفاق فى طريقهم الى النادى عربة نقل ألمانية تقف الى جوار احد المنازل محملة بالاكياس ، دون حراسة ودون سائق .

ودلف سيريوجكا وفاليا الى العربة يتحسسان الاكياس . لقد كانت فيها على ما يبدو هدايا العام الجديد . وكانت بعض الثلوج قد تساقطتها فيما قبل ، ليغدو الجو باردا ، والضياء منتشرا . وكانت حركة الناس لم تنقطع بعد ، ومن ذلك فقد غامرا بالقاء بعض

الأكياس من العربة ، والتي أودعها الرفاق الأفنيـــة والاكواخ المجاورة .

واقترح جينيا موشكوف – مدير النادى ، وفانيا زيمنوخوف – المشرف الفنى على الصبية بعد انصراف الآخرين نقل تلك الاكياس الى النادى ، حيث يوجد مختلف الاقبية المعزولة .

كانت تعلو بالشتائم الأصوات المخمورة للجنود الالمان الذين احتشدوا الى جوار العربة ، ولاسيما عن عريف يرتدى معطفا فرانيا وحذاءا شتويا ، بينما وقفت صاحبة البيت دون معطف تؤكد كونها غير مسؤولة عن ذلك . وكان الالمان يدركون انها ليست مذنبة ، ليستقلوا فى نهاية الامر سيارتهم ينحرفون بها فى اتجاه الوحدة نحو مركز الشرطة .

ونقل الشباب الأكياس الى النادى حيث أودعوها القبو .

وفى الصباح قرر فانيا زيمنوخوف وموشكوف حين التقيـا فى النادى ، ببيع جزء من تلك الاكياس ، ولاسيما السجائر فى السوق ، اليوم وقبيل حلول العام الجديد ، حيث كانت المنظمة فى حاجـة الى النقود . وقد ايد ذلك الاقتراح ستاخوفيتش الذى كان بالنادى بمحض الصدفة .

ولم يكن الاتجار سرا فى البضائع الالمانية البسيطة ظاهرة غير عادية بالسوق ، فقد كان يمارسها وبالدرجة الاولى الجنود الالمان الذين كانوا يقايضون السجائر والتبغ والشموع والبنزين ، بالفودكا والملابس الصوفية والمواد الغذائية . وكانت المنتجات الالمانية تباع من شخص لآخر ، على مسمع ومرأى من رجال الشرطة الذين كانوا يتغاضون عن ذلك . وقد كان موشكوف يملك شبكة واسعة من الصبية الجائلين الذين كانوا يبيعون السجائر عن طيب خاطر لقاء نسبة معينة .

بيد ان الشرطة فى ذلك اليوم ، وبعد ان فتشت المنازل القريبة من مكان اختفاء الهدايا ولم تجد شيئا ، راحت تراقب عملية البيع والشراء فى السوق . وقد استطـاع رئيس الشرطة سوليكوفسكى بنفسه الامساك بأحد الصبية الذين كانوا يتجرون فى السجائر .

وعند الاستجواب اعترف الصبى بانه اخذ هذه السجائر من احد الرجال لقاء الخبز . بيد ان ذلك الصبى كان من اولئك الصبية

الجائلين الذين كانوا قد تعرضوا فى حياتهم للضرب أكثر من مرة ، علاوة على أنه قد جرت تربيتـه فى اطار لا يسمح له بالوشاية برفاقه . وقد أودعوا الصبى الذى ضرب وذرف من الدمع الكثير ، الزنزانة حتى المساء .

وقد ربط الضابط بريوكنر الذى ابلغه فى عداد أمور اخرى سوليكوفسكى رئيس الشرطة بالقبض على الصبى الذى كان يبيع السجائر الالمانية ، ربط بين هذه الفعلة وبين سرقة الهدايا من عربة النقل واعلن عن رغبته فى استجوابه بنفسه .

وفى وقت متأخر من المساء ، جرى ايقاظ الصبى الذى استسلم للنعاس فى زنزانته ، واقتياده الى غرفة الضابط بريوكنر حيث مثل بين اثنين من كبار رجال الشرطة . . رئيس الشرطة والمترجم .

وتمسك الصبى بموقفه .

وهنا احتد الضابط بريوكنـر وامسك بأذن الصبى وراح يجرجره فى الردهة .

وظهر الصبى فى الزنزانة التى وقع ناظراه بها على اريكتين خشبيتين غارقتين فى الدمـاء وحيث تدلت الحبال من السقف ، واستقرت على المائدة الطويلة غير المطلية ، القضبان والمخاريز والسياط التى ضفرت من الاسلاك الكهربائية ، وبلطة ، وحيث اشتعلت النيران فى الموقد الحديدى ؛ وظهرت الدلاء المملوءة بالمياه فى زاوية المكـان الذى شاهد الصبى فى ارضيته بالوعتين شأن بالوعات الحمامات .

وجلس يدخن على مقعد خشبى الى جوار المائدة شرطى المانى بدين صليع يضع على عينيه نظارة ذات اطار ناصع ، يرتدى زيه الاسود ، ذو يدين كبيرتين علتهما الحمرة والشعر الاصفر .

وما ان نظر الصبى اليه حتى أصابه الذهول ، واعترف بانه اخذ هذه السجائر من موشكوف وزيمنوخوف وستاخوفيتش .

وفى نفس اليوم التقت فى السوق فيريكوفا احدى فتيات حى «بيرفومايسكى» ، بصديقتها ليادسكايا التى كانت تدرس معهـا ذات يوم ، والتى لم تكن قد رأتها منذ بداية الحرب ، حيث جرى نقل ابيها ليادسكى للعمل بمستعمرة كراسنودون .

ويمكننا القول انهما كانتا صديقتين ، حيث نشأت كل منهما

على اساس التركيز حول المنفعة الشخصية وهو ما يتعارض مع مفهوم الصداقة . الا انهما كانتا تفهمان بعضهما البعض بمجرد الاشارة ، ذواتى مصلحة مشتركة ، تستفيد كل منهما من الاخرى . ومنذ سنى صباهما استقتا من والديهما ومن اولئك الناس الذين كانوا يتعاملون معهم ، تلك الفكرة حول العالم التى تؤكد ان كل البشر لا يسعى الا من اجل مصلحة شخصية ، وان هدف الانسان ووظيفته يكمنان فى نضاله من اجل تفويت الفرصة على الآخرين ، واقتناصها بما يعود عليه بالنفع .

وكانت فيريكوفا وليادسكايـــا تقومان بمختلف النشاطات الاجتماعية فى المدرسة ، تتشدقان ببساطة وحرية بتلك الكلمات التى تعنى كافة المفاهيم الاجتماعية والاخلاقية . بيد انهما كانتا على يقين من ان هذه الواجبات ، وكل تلك الكلمات بل والمعارف التى يتلقيانها بالمدرسة ابتدعها البشر للتستر على مساعيهم من اجل المصلحة الشخصية والتسلق على ظهور الآخرين .

وقد اعترتهما مشاعر الارتياح الشديد حين رات كل منهمـا الاخرى ، وان لم يبد على قسمات وجهيهما ما ينم عن حيوية او نشاط . ومدت كل منهما يدها تدسها فى يد الاخرى . . فيريكوفا قصيرة القامة ترتدى غطاء راس فرائى ، تتدلى ضفيرتاها على ياقة معطفها الصوفى ، وليادسكايا فارعة القامة ، شقراء الشعر ، بارزة عظام الوجه ، يغطى الطلاء اظافرها . وانتحتا جانبا بعيدا عن زحمة السوق كى تتبادلا الاحاديث .

وذكرت ليادسكايا :

— فليذهب هؤلاء الالمان . . اى منقذين هؤلاء . . يتشدقون بالثقافة ، فيما هم يحاولون التهام ما لذ وطاب ، وكذلك اللهو على حساب الآخرين . . كلا لقد كنت أتصورهم على النقيض من ذلك . وانت . . أين تعملين ؟

— فى مكتب اعداد اللحوم السابق .

وهنا اتسم وجه فيريكوفا بامارات الغضب والأسى . لقد صادفت اخيرا ذلك الشخص الذى يستطيع ادانة الالمان من وجهة نظر سليمة . ومضت تقول :

— لكنهم لا يدفعون سوى مائتى جرام من الخبز . يا لحماقتهم !

انهم لا يقدرون اولئك الذين تقدموا لخدمتهم طواعية . لقد خيبوا امل فيهم !

وذكرت ليادسكايا :

— اما انا ومنذ الوهلة الاولى وجدت الامر غير مجد . ولذا فلم اذهب لخدمتهم . وقد عشت فى بداية الامر على نحو طيب . كانت لدينا فى البداية جماعة مرحة ، وكنت استند اليها فى تجوالى بالعزب والنجوع استبدل مختلف الاشياء . بيد ان احدى الفتيات ولأسباب شخصية وشت بى ، لأننى لـم اسجل نفسى فى مكتب العمل . الا اننى لم اهتم بذلك . . فقد كان مفوض مكتب العمل لدينا انسانا مسنا يدعو الى الضحك ، ويبدو انه ليس المانيا ، حيث كان يدعى لارينجى على ما يبدو ، لهوت معه بعض الوقت حتى راح يحضر لى بنفسه فيما بعد الكحول والسجائر . اما فيما بعد فقد مرض ليحل محلـــه شاب اهوج ، ارسلنى على الفور للعمل بالمناجم . وانت تعلمين ان العمل هناك ليس بالشىء الهين . ولذا فقد جئت الى هنا ، بحثا عن فرصة افضل بمكتب العمل . اليست لديك واسطة هناك ؟

ومطت فيريكوفا شفتيها بما ينم عن جموح .

— اتظنيننى فى حاجة اليهـم ؟ اننى اصارحك القول . . من الأفضل ان يكون المرء على علاقـة بالعسكريين حيث يقيم الفرد منهم بصفة موقتــة ، وسوف يرحل ان عاجلا او آجلا ، ولست ملزمة حياله بشىء . كما وانهم ليسوا بخلاء . . حيث يعلم كل منهم انه قد يقتل غدا ، ولا يضن بشىء فى سبيل اللهو . ويمكنك زيارتنا عندما تستطيعين .

— كيف لى ذلك . ان مسافة ثمانية عشر كيلومترا تفصل ما بين المستعمرة والمدينـــة ، علاوة على تلك المسافة التى يجب قطعها حتى حيكم «بيرفومايسك» .

— هل اصبح هذا الحى حينا فقط منذ مدة بعيدة ؟ وعلى اى حال فلتزورينا ، لنعرف اخبارك . وثمة ما استطيع عرضه عليك ، بل وقد اعطيك شيئا . هل تفهمين ؟ ونحن فى انتظارك !

ومدت فيريكوفا اليها راحتها الصغيرة فى عدم اكتراث .

وعند المساء سلمت احدى الجارات اللاتى زرن مكتب العمل

في ذلك اليوم ، سلمت فيريكوفا رسالة صغيرة ، كتبت فيهـــا ليادسكايا «ان موظفى مكتب العمل لديكم اكثر حماقة من اولئك الذين يعملون عندنا بالمستعمرة» وانها لم توفق فى شىء وسوف تعود الى بيتها «محطمة تماما» .

وفى ليلة راس السنة جرى بحى «بيرفومايكـا» شان الاحياء الاخرى بالمدينة تفتيش عفوى لبعض المنازل . ووجدت الشرطة تلك الرسالة لدى فيريكوفا ، حيث كانت قد دستها فى غير اكتراث بين الكراسات المدرسية القديمة . ولم يبذل المحقق كوليشوف الذى اشرف على عملية التفتيش اى جهد لتعترف فيريكوفا بلقب صديقتها ، مع اضافات لا معقولة جاءت بها تحت وقع الخوف ، حول ميولها المعادية للالمان .

واخذ كوليشوف تلك الرسالة وطلب من فيريكوفا المرور عليه بمركز الشرطة بعد عيد راس السنة .

كان سيريوجكـا اول من عرف بنبأ القبض على موشكوف وزيمنوخوف وستاخوفيتش . وهرول قاصدا اوليج بعد ان ابلغ ذلك شقيقتيه ناديا وداشا وصديقه فيتكا لوكيانتشينكو ، وقد وجد هناك فاليا وشقيقتى ايفانتسوفا . فقد كانوا يتجمعون صباح كل يوم فى ضيافة اوليج ، حيث يتولى توزيع مهام اليوم عليهم .

وكان اوليج والخال كوليـا قد التقطا وسجلا الليلة الماضية بلاغ مكتب الاعلام السوفييتى حول نتائج هجوم الجيش الاحمر فى منطقة ستالينجراد الذى استمـــر ستة اسابيع ، وحول تطويق مجموعة الجيوش الالمانية عند ستالينجراد فى حلقة مزدوجة .

وقد اندفعت الفتيات نحو سيريوجكا ، يضحكن ويجذبنه من يديه ، يبلغنه ذلك النبا . وعلى الرغم من قوة سيريوجكا البدنية ، فقد اختلجت شفتاه حين تفوه بذلك النبأ الرهيب .

وجلس اوليج برهـــة من الوقت وقد علا الشحوب وجهـــه وتشابكت اصابعه ، بينما غطت التجاعيد جبينه . ثـم نهض من مكانه فيما اتسمت قسمــات وجهه بالنشاط والحيوية ليقول فى هدوء :

— اسمعن ايتها الفتيات . فلتتصلن بتوركينيتش واوليانا . ولتحذّرن كل الشباب الذين تربطهم صلة قريبة بالقيادة بغيـــة

اخفاء كل ما لديهم ، واحراق ما لا يستطيعون اخفاءه . ابلغنهم اننا سوف نخطرهـــم بعد حوالى ساعتين بما يجب عملــه . فلتحذرن اهاليكـــم . . ولا تنسوا أم ليوبـــا — فقد كانت ليوبكـــا فى فوروشيلوفجراد . أما انا فسوف أعود بعد قليل .

وارتدى سيريوجكا كذلك سترته المبطنة بالقطن ، وطاقيته الخفيفة التى كان يرتديها على الرغم من الصقيع الشديد .

وتساءل اوليج :

— الى اين انت ذاهب ؟

وتضرجت وجنتا فاليا خجلا ، فقد تخيلته يعتزم مرافقتهـــا . واجاب سيريوجكا :

— سأراقب الطريق حتى يجتمع الباقون .

وشعر الجميع للمرة الاولى بان ما حدث مع فانيا وموشكوف وستاخوفيتش يمكن ان يحدث معهم فى اى وقت ، بل وربما فى تلك اللحظة .

وخرجت الفتيات بعد ان اتفقن الى اى من الآخرين سوف تذهب كل منهن . واوقف سيريوجكا فاليا بالفناء ، ليقول لها :

— فلتكونى حذرة . ان لم تجدينا هنا ، فلتذهبى الى ناتاليا الكسييفنا بالمستشفى . وسوف أجىء اليك هناك ، فلن أرحل دونك .

واومأت فاليا براسها وهرولت تقصد توركينيتش .

وقصد اوليـــج فى خطوات حاول ان تكون عادية ، بولينـــا جيورجيفنا التى كانت تقطن منزلا باحد الشوارع القريبة من مكتب العمل . وقد وجد اوليج بولينا جيورجيفنا لحظة دخوله تمارس عملا لا علاقة له بالمقاومة ، فقد كانت تنظف البطاطس ، وتلقى بها الى الاناء الذى يتصاعد منه البخار فوق الموقد . وقد امتقع وجه تلك المرأة التى كانت تتسم دائما بالهدوء والقدرة على ضبط النفس ، حين ابلغها اوليج بنبأ القبض على رفاقه . وسقط السكين من يدها ، ولبثت برهة من الوقت غير قادرة على التفوه بكلمة واحدة . بيد انها تمالكت روعها فيما بعد .

وقد كان اليوم عطلة ، اول ايام السنة الجديدة . وليس جيدا ان تذهب الى منزل فيليب بيتروفيتش فى وضح النهار ، وبعد ان

كانت قد حملت اليه الحليب صباحا . بيد ان التأجيل كان كذلك مستحيلا ، فقد كانت الساعات ، بل والدقائق يمكن ان تعنى الكثير .

واسهبت بولينا جيورجيفنا ، على الرغم من علمها بكل شئون «الحرس الفتى» فى سؤال اوليج عما اذا كان يعلم احد من المعتقلين عن علاقته وتوركينيتش بلجنة المنطقة . وكان الجميع يعلمون بالطبع ان ثمة علاقة تقوم بطبيعة الحال ، الا انه لم يكن اى منهم يعلم مع من بالذات تقوم هذه العلاقة . وقد كان موشكوف على اتصال بلجنة المنطقة ، الا انه كان انسانا يعتمد عليه تماما . كما وكان زيمنوخوف على اتصال باللجنة عن طريق بولينا جيورجيفنا التى كانت تعرفه جيد المعرفة لدرجة انه لم تراود خاطرها اية فكرة حول احتمال ان يشى بها .

وكان الامر السيىء هو ان ستاخوفيتش كان يعرف الكثير جدا عن «الحرس الفتى» . وقد وصفه اوليج بانه شخص شريف ، لكنه ضعيف الارادة .

وتركت بولينا جيورجيفنا اوليج فى منزلها واوصته بما يجب ان يرد به اذا ما جاء غريب لزيارتها . ويمكن تخيل كم كانت تلك الساعة من الزمن طويلة بالنسبة لأوليج . ولحسن حظه فلم يات اى احد الى البيت . ولم تكن هناك سوى اصوات الجيران فيما وراء الجدار .

وعادت بولينا جيورجيفنا اخيرا ، وقد اكسب الصقيع وجهها حيوية . ويبدو ان فيليب بيتروفيتش وجد ما يبعث فى نفسها الأمل .

ورفعت المنديل الذى كانت تعصب به راسها وفكت ازرار معطفها وهبطت تجلس على مقعد خشبى قبالة اوليج تقول له :

— فلتسمعنى . طلب منى ابلاغك بضرورة الاحتفاظ بروح معنوية عالية . كما وطلب ان يبارح المدينة ، ودون توان . . كل اعضاء القيادة ، ومن هم قريبون منها او من المعتقلين . فلتتركوا لقيادة المنظمة اثنين او ثلاثة من الموثوق فيهم ، وليكن رئيسهم على اتصال بى ، ولترحلوا . . اذا ما كان احدكم يستطيع الاختفاء فى القرية او فى المدن الاخرى ، فليفعل ذلك . كما وينصح اعضاء

القيادة والقريبين منهم بالرحيل الى المناطق الشمالية ، الى ما خلف الدونيتس من حيث يمكن عبور خط الجبهة او انتظار قواتنا هناك .

وهمّ اوليج يسال ، الا انها قاطعته قائلة :

— انتظر ليس ذلك كل ما لدى . فقد طلب منى اعطاك عنوانا ، ولتصغ الى بانتباه . — وهنا اتسم وجه بولينا جيورجيفنا بالجمود لتمضى قائلة : — انك لا تملك حق ابلاغ هذا العنوان الا الى توركينيتش . كما ولا يملك حق الاستفادة منه احد غيركما .

— واستطردت تقول فيما تمعن النظر الى اوليج : — يستحيل ابلاغ الآخرين به ، مهما كانت درجة قرابة ومعزة الصبية ، او . . الفتيات منكما . هل فهمت ؟

وفطن اوليج الى من تقصده بذلك .

ولبث يجلس مكانه بعض الوقت وقد هبط براسه الى ما بين كتفيه ، وبدت التجاعيد تغطى جبينه مثل الكبار . وتساءل بصوت هادئ :

— هل نحن انا وتوركينيتش ملزمان بالذهاب الى هذا العنوان ؟

— كلا . . بالطبع لا . بيد ان ذلك العنوان هو اضمن الاماكن ، حيث انهم هناك لن يخفوكما وحسب ، بل وسوف يوكلون اليكما بعض المهام .

وشاهدت بولينا جيورجيفنا وجه اوليج الذى عكست قسماته مدى النضال الرهيب الذى يتاجج بداخله . بيد انه توجه بسؤال يتباين عن ذلك الذى كانت تتوقعه منه :

— وماذا عن المعتقلين ؟ كيف لنا الرحيل حتى بدون محاولة تقديم العون اليهم ؟

وذكرت بولينا جيورجيفنا فى صرامة مفاجاة :

— لن تستطيعوا الآن ، وعلى اى حال ، تقديم العون لهم . وسوف تبذل لجنة المنطقة كل ما فى وسعها لمعاونتهم . كما وسوف نستفيد من بقية شبابكم الذين سوف يبقون هنا . من ذا الذى ترشحونه رئيسا ؟

وبعد برهة من التفكير ذكر اوليج :

– سيبقى اناتولى بوبوف . واذا ما حدث شيء له ، فسوف يحل محله كوليا سومسكوى . هل تعرفينه ؟

والتزما الصمت برهة من الزمن . ولما كان واجبا عليه الرحيل ، فقد سالته بولينا جيورجيفنا بصوت هادىء :

– الى اى مكان سوف تذهب ؟

وقد وجهت اليه ذلك السؤال فى هذه اللحظة بوصفها امرأة غير غريبة تحبه وكل اسرته . وأدرك مدى القلق الذى يجتاحها . واكفهر وجه اوليج وعلا الأسى قسماته لدرجة انها أسفت على توجيه مثل ذلك السؤال .

واجاب اوليج بصعوبة بالغة :

– بولينا جيورجيفنا ! انك تعلمين السبب الذى ليجعلنى لا استطيع استخدام ذلك العنوان .

نعم . . لقد كانت تعلم .. نينا ! . . انه لم يكن قادرا على ترك نينا .وذكر اوليج :

– سوف نحاول سوية عبور خط الجبهة . وداعا .

وتعانقا .

وريثما كان اوليج غائبا ، وصل الى مسكنه فانيا توركينيتش ، ثم وبعد برهة قصيرة ، وبدون اى استدعاء ستيوبا سافونوف وسيرجى ليفاشوف ، ثم جاء بعدهما جورا اروتيونيانتس الذى وصل بدون اوسموخين . فقد اتم فولوديا صباح اليوم اول يناير عامه الثامن عشر ، واهدته شقيقته ليوديلا زوجين من الجوارب الصوفية كانت قد صنعتهما خصيصا لهذه المناسبة ، ليرحلا سويا الى جدهما بالقرية .

وارسل توركينيتش الصبية لمراقبة كل الطرق المفضية الى المنزل .

وبدا توركينيتش وسيريوجكا الاجتماع دون انتظار اوليانا التى كانت تقطن على مسافة بعيدة .

ماذا عليهم ان يفعلوا ؟ – كان هذا السؤال هو الوحيد المطروح عليهم ، وينبغى ايجاد اجابة له ، وعلى وجه السرعة . وكانا يدركان ان القضية لا تتوقف وحسب على مصير الرفاق المعتقلين ، بل وعلى مصير المنظمة باسرها . هل يجب انتظار ما

سوف تسفر عنه الاحداث ؟ كلا . . اذ انه قد يقبض عليهم فى اية لحظة . الاختفاء ؟ ليس ثمة مكان يمكن اللجوء اليه ، حيث يعرفهم الجميع اينما حلوا .

وعادت فاليا ، ثم وصلت اوليانا برفقة اوليا ايفانتسوفا ونينا التى صادفتهما فى طريقها . وذكرت نينا ان رجال الشرطة الالمان يتولون حراسة النادى ولا يسمحون لأحد بدخوله ، كما ويعلم الجميع بنبأ القبض على ادارة النادى ، والعثور فى قبوه على هدايا رأس السنة التى فقدها الالمان .

وافصح توركينيتش ونينا عن احتمال ان يكون ذلك الامر هو السبب الرئيسى للقبض على الشباب . ومهما كان هذا الامر عصيبا ، الا انه لا يعنى سقوط المنظمة .

وذكر توركينيتش بما عرف عنه من ثقة :

– ان الشباب لن يشوا باحد .

وهنا دخل اوليج ، ليجلس الى المائدة دون ان يقول شيئا ، ينم وجهه عن امارات الاستغراق فى التفكير . ثم دعا توركينيتش الى غرفة الجدة ، حيث ذكر اوليج العنوان الذى تحدثت عنه بولينا جيورجيفنا وتبادلا الحديث بعض الوقت ثم خرجا الى الفتيات وسيريوجكا الذين كانوا ينتظرونهما فيما يخيم عليهم صمت رهيب . ونظر الجميع الى اوليج نظرة التساؤل ، وبما يعكس آمالهم وآلامهم .

وكست الصرامة قسمات وجه اوليج حين راح يقول فيما يرنو الى الجميع بعينين تتسمان بالجسارة والوضوح :

– لا يجب علينا ان نعلق آمالا حول احتمال مصادفة نهاية طيبة للوضع . ومهما كان ذلك عصيبا ، ومهما كان ذلك رهيبا يجب علينا التخلى عن فكرة امكانية البقاء هنا حتى وصول الجيش الاحمر ، وتقديم العون اليه ، بل وعن كل ما كنا نود تنفيذه غدا . والا فسوف نهلك ونقضى على كل رجالنا .

كان يتحدث فى نبرة تتسم بضبط النفس ، بينما كان الآخرون يستمعون اليه جامدين شاحبين . ثم مضى يقول :

– ان الالمان يبحثون عنا منذ بضعة اشهر . وهم يعرفون بوجودنا . لقد اصابوا قلب المنظمة . – واكد قائلا : – انهم

حتى وان لم يكونوا يعرفون ، او سوف يعرفون شيئا غير موضوع الهدايا ، فسوف يلقوا القبض علينا جميعا ، وعلى كل من اجتمع حول النادى ، الى جانب عشرات الابرياء . فما العمل ؟ — وصمت هنيهة مضى بعدها يقول : — الرحيل . . مبارحة المدينة . نعم . . يجب علينا الافتراق ، وليس علينا جميعا بطبيعة الحال . واعتقد ان الفشل لن يمس شباب مستعمرة كراسنودون ، وكذلك حتى بيرفومايسك . ولذا فهم قادرون على العمل .

ونظر فجاة الى اوليانا بمنتهى الجدية ليضيف :

— ما عدا اوليانا ، فهى بوصفها عضوا بالقيادة يمكن ان تسقط فى اية لحظة . لقد ناضلنا بشرف ، ونملك حق التفرق ونحن على يقين من اننا قمنا بواجبنا . لقد فقدنا ثلاثة رفاق منهم افضل الفاضلين — فانيا زيمنوخوف . غير اننا ملزمون بالتفرق دون ان تخور قوانا وتهبط قدراتنا المعنوية . لقد بذلنا كل ما كان بوسعنا .

ولزم الصمت . ولم يكن ثمة من اراد او استطاع الحديث اكثر من ذلك .

خمسة اشهر باكملها ساروا جنبا الى جنب . . . خمسة اشهر باكملها كانوا فيها كل يوم تحت سطوة الالمان ، وبما يصحب ذلك من آلام جسدية ومعنوية وبما يتطلب من جهود تبذل ليس مجرد يوما من ايام الاسبوع . . . خمسة اشهر باكملها . . كيف مرت تلك الايام ! فكم شاهدوا من اعمال سامية ورهيبة ، طيبة وشريرة ، وكم بذلوا اثناءها من جهود ناصعة رائعة لصالح القضية المشتركة ، وكم من الاحساسات والمشاعر التى حملها كل منهم للآخر ! لقد أصبح اليوم فقط واضحا ماذا تعنى منظمة «الحرس الفتى» ، وكم هم مدينون لها ! وها هم ملزمون بتركها !

وانخرطت الفتيات فاليا ونينا واوليا فى بكاء خافت . وجلست اوليانا فى هدوء ظاهرى ، بينما تالقت عيناها بضوء قوى يوحى بالرهبة . اما سيريوجكا فقد استند بوجهه الى المائدة ومط شفتيه المتورمتين وراح يرسم باظافره نقوشا على المفرش . ولزم توركينيتش الصمت فيما يحدق فى الفراغ القائم بعينيه الناصعتين، بينما عكست شفتاه دقيقتا المعالم الصرامة وقوة الارادة .

وسأل أوليج :

— هل ثمة آراء اخرى ؟

ولم تكن هناك آراء اخرى ، الا ان اوليانا ذكرت :

— لست أرى داعيا لرحيلى اليوم . اننا شباب بيرفومايسك لم نكن على ارتباط كبير بالنادى . اننى سأنتظر فقد استطيع العمل فيما بعد . كما وسوف التزم بالحذر .

وتاملها اوليج بنظرة غاية فى الجدية ثم قال :

— يجب عليك الرحيل !

وفجاة تحدث سيريوجكا الذى كان قد التزم الصمت طوال اجتماعهم :

— يجب عليها حتما الرحيل !

وعادت اوليانا تقول :

— اننى سوف اكون حريصة .

وفى صعوبة بالغة استقر الرأى فيما بينهم ، ودون ان ينظر كل منهم الى الآخر ، على تسليم مقاليد الامور الى ثلاثى للقيادة يتكون من اناتولى بوبوف ، وسومسكوى واوليانا اذا لم ترحل . واذا ما عادت ليوبا وكان فى وسعها البقاء ، فسوف تكون رابعتهم . وجرى اتخاذ هذا القرار : يجب على الجميع الرحيل باكبر سرعة ممكنة . وذكر اوليج انه لن يرحل والفتيات مراسلات الاتصال حتى القيام بتحذير الجميع والاتصال ببوبوف وسومسكوى . بيد انه ينبغى على كل اعضاء القيادة والقريبين منهم عدم قضاء الليلة فى منازلهم .

وجرى استدعاء جورا وسيرجى ليفاشوف وستيوبا سافونوف حيث ابلغوهم بقرار القيادة .

ثم راحوا يتوادعون . . وتقدمت اوليانا نحو اوليج ليتعانقا . وذكر اوليج بتاتاته المعهودة :

— شكرا . . شكرا لأنك كنت وما زلت موجودة !

ومسحت شعره براحة يدها فى رقة .

بيد أن أوليج وحين بدأت الفتيات تتوادعن مع أوليانا ، لم يستطع تماسك اعصابه ليخرج الى الفناء ، وليتبعه سيريوجكا .

ولبثا واقفين سوية في الصقيع دون معاطف ، تحت اشعة شمس ١٩٤٣ التي كانت تعشي الابصار .

وسأله أوليج بصوت خافت :

– هل فهمت كل شيء ؟

واوما سيريوجكا برأسه .

– لقد انتهى كل شيء . قد يضعف ستاخوفيتش هناك . . . أوليس كذلك ؟

– نعم . . لكن ليس طيبا الحديث عن ذلك . ليس طيبا ان يفقد المرء ثقته في الآخرين قبل ان تكون لديه البراهين . لربما يكون الآن يذوق صنوف التعذيب ، بينما نحن طلقاء .

ولزم كلاهما الصمت برهة ليتساءل سيريوجكا بعدها :

– الى اين تنوي الرحيل ؟

– سوف احاول عبور خط الجبهة .

– وانا كذلك . . . فلنحاول سوية ؟

– طبعا . . لكن نينا واوليا سوف تذهبان معي .

وذكر سيريوجكا :

– واعتقد ان فاليا سوف تذهب كذلك معنا .

وتقدم سيرجي ليفاشوف يودع توركينيتش بوجه مكفهر تعلو قسماته امارات الحيرة . وذكر توركينيتش فيما ينظر اليه في تمعن :

– انتظر . . ماذا ستفعل ؟

واجاب ليفاشوف في تجهم :

– سوف ابقى الى حين .

وذكر توركينيتش بصوت هادىء :

– انها حماقة ، فلن تستطيع تقديم العون اليها او الدفاع عنها . كما وانهم سوف يعتقلونك قبل ان تعود هي . علاوة على انها فتاة تتميز بالمهارة فاما ان تلوذ بالفرار او تخدعهم .

وذكر ليفاشوف :

– لن ارحل .

وذكر توركينيتش بحدة :

– سوف تذهب الى قواتنا عبر خط الجبهة . انني لم انحَّ بعد ، واصدر أمري اليك بذلك .

وصمت ليفاشوف .

ودلف أوليج الى الداخل ليواجهه توركينيتش يسأله :

– هيه أيها الرفيق القوميسار . . هل ستعبر خط الجبهة ؟ هل هذا قرارك النهائي ؟

وقد كان توركينيتش غير راض عن ان أوليج رفض استخدام ذلك العنوان الذي سلم الى كليهما ، لكنه لم ير ضرورة لاقناعه بالعكس . وحين علم بان تعداد المجموعة التي سوف تعبر خط الجبهة خمسة افراد ، هز رأسه قائلا :

– جماعة كبيرة . . حسنا . الى اللقاء فسوف نلتقي جميعنا هنا في صفوف الجيش الأحمر .

وامسك كل منهما بيدي الآخر يدنو منه ليقبله . الا ان توركينيتش افلت يديه فجأة واشاح بهما وهرول الى الخارج ، ليتبعه سيرجي ليفاشوف بعد ان قبل أوليج .

قرر ستيوبا سافونوف التوجه الى اقاربه في كامينسك ، للاقامة عندهم وحتى وصول الجيش الاحمر . اما جورا فقد كان يعاني اضطرابا نفسيا داخليا لم يستطع الافصاح عنه لأي من اصدقائه . بيد انه كان يدرك استحالة بقائه . فمن المؤكد انه سوف يكون مضطرا رغما عن كل شيء للرحيل الى نوفوتشيركاسك حيث يعيش عمه الذي لم يصل اليه يوم سافر قاصدا اياه برفقة فانيا زيمنوخوف . وهنا تذكر جورا رحلتهما ، لتترقرق الدموع في مآقيه ويخرج الى الشارع .

ولبثوا مجتمعين برهة من الوقت . . أوليج وسيريوجكا وفتيات الاتصال الثلاث . كما وتقرر انه لا داعي لعودة سيريوجكا الى منزله ، وعلى اوليا تحذير أهله عن طريق فيتيا لوكيانتشينكو . ثم انطلقت فاليا ونينا واوليا لابلاغ من ينبغي اخطاره بالقرار المتخذ ، اما سيريوجكا فقد ارتدى سترته وخرج لمراقبة الشارع . فقد كان يدرك ضرورة بقاء أوليج وحده مع اسرته . وفي نفس الوقت وحين جرت هذه الاجتماعات في غرفة الطعام وغرفة الجدة



كانت اسرة أوليج قد عرفت بنبأ القبض على زيمنوخوف والآخرين وأدركت ان الصبية مجتمعون لهذا السبب .

وقد كانت هناك بالمنزل اسلحة واقمشـــة حمراء للاعلام ومنشورات ، قامت يلينا نيكولايفنا والخال كوليا باخفاء بعضهـــا واحراق البعض الآخر . اما جهاز الراديو فقد دفنه الخال كوليا فى القبو تحت المطبخ ، وسوى الارضية التى وضع فوقها برميل الكرنب المخلل .

وبعد ان تم القيام بكل ذلك تجمع افراد الاسرة بغرفة الخال كوليا يتابعون بوجى العادة والحتمية تصرفات ابن مارينا الصغير البالغ من العمر ثلاثة سنوات ، ينتظرون كما المحكوم عليهم مـا سوف يسفر عنه ذلك الاجتماع .

وصفق الباب خلف آخر الرفاق الذين بارحوا المكان ، ليدلف اوليج الى الغرفة . والتفت الجميع نحوه ، حيث كانت امارات الصراع النفسى والنشاط قد فارقت وجهه ، كما فارقته كذلك تلك الامارات الطفولية التى كانت ترتسم عليه لتحل محلهـا علامات الحزن والأسى . وذكر أوليج :

— ماما . . وانتِ يا جدتى العزيزة . . وانت يا كوليا ويا مارينا . . — وهنا وضع يده الكبيرة على رأس الطفل الذى صار يصرخ محتضنا قدمه : — اننى مرغم على مفارقتكم . ساعدونى فى جمع حاجياتى . . ولنجلس قبيل الرحيل برهة كما فعلنا ذات يوم . . منذ مدة بعيدة .

وارتسمت على شفتيه وعينيه ظلال ابتسامة رقيقة بعيدة .

ونهض الجميع واحاطوا به .

ها هما يدا الأم تعملان وتجدان ! تحومان كما الطائر ، تعدان ارق الملابس الرقيقة ، حين لم يكن ثمة من يرتديها بعد ، وحين كان يعلن عن نفسه فى احشائها بما يجعلها تحس بضرباته الرقيقة التى تجعل وجيب قلبها يتوقف . تعملان ليخرج الى نزهته الاولى ، تدثرانه حين يأخذ طريقه الى المدرسة ثم من اجل رحيله الاول ، ومن اجل رحلته البعيدة . وها هى حياتها : فراق ولقاء . . لحظات نادرة مفعمة بالسعادة ، كثيرة مشوبة بالآلام . تعملان فى سبيله

طالما يحدوها الأمل ، بل وتعملان حين تفقد هذا الأمل ، تلفه لتودعه مثواه الاخير .

وقد كان ثمة ما يفعله كل من الحاضرين . فقد راح يتفحص الخال كوليا مختلف الاوراق . واضطروا الى احراق مفكرته . واودع احدهم بطاقة الكومسومول وبعض البطاقات الموقتة لعضوية الكومسومول بطانة سترته . واصلحوا من حال بعض ملابسه الداخلية ، ووضعوا كل حاجياته فى كيس : اغذية وصابون وفرشة اسنان وابرة وخيوط سوداء وبيضاء . كما ووجدوا غطاء راس فرائى قديم يصلح لسيريوجكا تيولينين . كما اودعوا كيسا آخر المواد الغذائية ليحمله سيريوجكا . فقد كان عدد الراحلين خمسة .

بيد انهم لم يستطيعوا الجلوس قبيل الرحيل كما كانوا يفعلون ذات يوم . وكان سيريوجكا ما بين آت وذاهب ، كما وعادت الفتيات الثلاثة : فاليا ونينا واوليا . وها هو المساء يسدل ستائره ، ليحين ميعاد الوداع .

لم يذرف الدمع أحد . وراحت الجدة فيرا تصلح من حال الجميع . . تسوى سترة أحدهم ، وتعدل حقيبة الآخر . ثم اخذت تضم كلا منهم ثم تدفعه فى اضطراب ، اما اوليج فقد احتضنته طويلا وقد استندت بذقنها الى غطاء راسه الفرائى .

وامسك اوليج بيد امه ، يقودها الى الغرفة الاخرى ، ثم قال :

— سامحينى يا أمى !

وهرولت الأم خارجة الى الفناء ليصفع الصقيع وجهها وقدميها ، تقف الى ان خرج الصبية ، يتناهى صرير الثلوج تحت اقدامهم الى سمعها دون ان ترفع ناظريها نحوهم ، وحتى ابتلع السكون ذلك الصرير . ولبثت تقف هكذا طويلا تحت السماء الداكنة المرصعة بالنجوم .

وعند الفجر سمعت يلينا نيكولايفنا التى لم يغمض لها جفن طوال الليل صوت طرقات على الباب . وسارعت بارتداء فستانها متسائلة :

— من الطارق ؟

كانوا اربعة . . رئيس الشرطة سوليكوفسكى وضابط الصف فينبونج برفقة جنديين آخرين . وسألوا عن اوليج لتجيبهم يلينا

نيكولايفنا بانه رحل يجول القرى لاستبدال الملابس بالمـــواد الغذائية .

وقام هؤلاء بتفتيش المسكن والقوا القبض على جميع ساكنيه ، حتى الجدة فيرا ومارينا وصغيرها البالغ من العمر ثلاثة اعوام . واستطاعت الجدة بصعوبة بالغة ان تطلب من الجيران رعايـــة المنزل فى غيابهم .

وفى السجن اودعوهم زنزانات مختلفة . وجرى ايداع مارينا وطفلها زنزانة غصت بالنسوة اللاتى لم تكن ثمة علاقة تربطهن بمنظمة «الحرس الفتى» . بيد انها كانت تضم ماريا اندرييفنا بورتس ، وفينيا شقيقة سيريوجكا تيولينين التى كانت تعيش وحدها بمعزل عن اسرتها . وقد عرفت مارينا منها انه قد جرى ايضا اعتقال الوالدين الكسندرا فاسيليفنا ، و«الجد» المقعد بعكازه ، اما الشقيقتان ناديا وداشـــا فقد أسعفهما الوقت للرحيل فى وقت سابق .

الفصل السابع والخمسون

جرى اعتقال فانيا زيمنوخوف عند الفجر . وقد كان يعتـــزم الرحيل لزيارة كلافا فى نيجنى الكسندروفسك ، ولذا فقد نهض فى الهزيع الاخير من الليل ، وتناول بعض الخبز ثم ارتدى معطفه وغطاء رأسه الشتوى وخرج الى الشارع .

كان الأفق ناصعا للغاية ، تظلله هالة الفجر الصفراء ، تعلو غلالات وردية رمادية تمازجت مع السماء ذات اللون الشاحب . وقد استقرت فوق المدينة بعض السحب ما بين وردية وصفراء . ولم يكن فانيا يرى كل ذلك ، الا انه كان يذكر منذ طفولته فجر الشتاء ، لتبدو امارات السعادة على وجهه الذى غابت عنه نظارتـــه والتى اودعها جيبه الداخلى حتى لا يكسوها الندى . وهكذا ، وبهذا الوجه الذى ارتسمت امارات الغبطة عليه صادف اولئك الاربعة الذين كانوا فى طريقهم اليه قريبا من بيته ، والذين لم يكن قد ادرك هويتهم بعد . . ثلاثة من رجال الشرطة الالمان يرافقهم كوليشوف محقق الشرطة الجديد .

وقد عرفهم فانيا حين صاروا على مقربة منه ، كما وفطن من

سؤال كوليشوف الى انهم جاؤوا للقبض عليه . وفى تلك اللحظة شانه فى كل اللحظات الحاسمة فى حياته ، غدا باردا متماسكا ليجيب على سؤال كوليشوف الذى كان قد وجهه اليه :

— نعم . . انا .

وذكر كوليشوف :

— لقد سقطت اخيرا .

وذكر فانيا :

— سوف أخبر اهلى .

لكنه كان يعلم انهم لن يسمحوا له بدخول منزله واستدار ليطرق أقرب النوافذ اليه ، يخبط بقبضته اطار النافذة وليس زجاجها .

وفى نفس تلك اللحظة امسك رجل الشرطـــة وكوليشوف بيديه ليقوم الاخير بتحسس جيوب معطفه ، وجيوب سروالـــه دون ان يرفع المعطف .

وانفرجت الضلفة العليا للنافذة ، لتطل منها شقيقته ، الا ان فانيا لم يستطع تبين ملامح وجهها ، ليقول لها :

— فلتبلغى بابا وماما بان الشرطة قد جاءت لاستدعائى ، فلا داعى للقلق ، حيث سرعان ما سوف أعود .

وابتسم كوليشوف سخرية ، وهز رأسه ثم ارتقى مدخـــل المنزل برفقة احد الجنود الالمان ، حيث كان ينبغى عليهما تفتيش المنزل . اما الرقيب والجندى الالمانيان الآخران فقد اقتادا فانيا عبر ممر ضيق داسته الاقدام وسط الثلوج الى جوار المنـــازل الكائنة بذلك الشارع المقفر . واضطر الرقيب والجندى خوض الثلوج على جانبى الممر بينما افسحاه لفانيا الذى تقدمهما .

ودفعوا بفانيا فى معطفه وغطاء رأسه وحذائه الرث الى زنزانة صغيرة مظلمة غطى الصقيع جدرانها ، ذات ارضية زلقة ليبقـــى وحيدا بداخلها بعد ان غلقا بابها بمفتاح .

وتسلل ضوء الصباح بالكاد الى داخل الزنزانة من تحـــت سقفها ، وحيث لم تكن هناك اسرة او ارائك خشبية ، فيمـــا تصاعدت رائحة حادة من دلو فى زاوية الغرفة .

وهاجمته الهواجس والافكار تراوده بشان سبـــب القبض عليه . . . او قد عرفوا شيئا عن نشاطه ، او ربما بغية التحقق

من بعض الشكوك ، اويكون وشى به احد ، وكذلك بشأن والديه وكلافا ورفاقه . بيد انه استجمع قواه وكانما يود ان يقول : «اهدا يافانيا . . تمالك روعك يا صديقي» ، ليصل الى نتيجة مفادها . . «فلتصبر وسوف تتضح الأمور» .
ودس فانيا يديه اللتين تجمدتا فى جيبى معطفه ومال الى الحائط يسند راسه اليه ليظل هكذا واقفا فترة طويلة لم يدر مدتها ، قد تكون بضع ساعات ، بما اتسم به من صبر .
وتعالى دبيب خطوات ثقيلة لعدة اشخاص او شخص واحد كانوا يذرعون الردهة من اقصاها الى اقصاها ، يصفقون ابواب الزنزانات . كما وتناهت الى اسماعه اصوات بشرية ترامت من بعيد ، وعن قريب .
ثم تعالى وقع اقدام توقفت الى جوار زنزانته ، ليتساءل صوت اجش :
– افى هذه الزنزانة ؟ فليذهب الى الضابط !
وقد بارح صاحب الصوت المكان ليصر المفتاح في قفل الباب .
وابتعد فانيا عن الجدار ودار براسه . ودلف الى الداخل جندى المانى ، غير ذلك الذى رافقه ، قد يكون مناوب الردهة ، يحمل مفتاح القفل ، وشرطى لم يكن غريبا على فانيا لانه كان قد تعرف فى ذلك الوقت على كافة رجال الشرطة . وجرى اقتياده الى غرفة بريوكنر ، حيث شاهد فى حراسة شرطى آخر احد الصبية الذين ارسلهم لبيع السجائر .
والقى على فانيا بنظرة ، ذلك الصبى ضامر الوجه ، قذره ، ثم هز كتفيه واغترف بانفه جرعة كبيرة من الهواء .
وشعر فانيا ببعض الارتياح . لكنه ورغما عن كل شىء سوف يكون مضطرا لانكار كل شىء ، اذ انه ولئن اعترف بسرقته للهدايا بغية كسب بعض المال فسوف يطلبون منه الوشاية بشركائه . كلا . . يجب عليه العزوف عن التفكير فى ان الامر يمكن ان ينتهى على خير .
وخرج الكاتب الالمانى من مكتب بريوكنر وتنحى جانبا فيما يسند بابه .
ودفعه الشرطى نحو الباب على عجل وقد ارتسمت على وجهه امارات الخوف ، قائلا :

– ادخل . . ادخل .
كما ودفع الشرطى الآخر الصبى الصغير ، ممسكا بقذاله .
ودلف فانيا والصبى الى المكتب في لحظة واحدة ، ليصفق الباب من خلفهما . ورفع فانيا غطاء راسه .
كان يوجد بالمكتب بضعة اشخاص ، عرف فانيا فيهم الضابط بريوكنر الذى جلس الى المكتب وقد تدلت ثنيات رقبته على ياقة سترته ، يحملق فى فانيا بعينيه المستديرتين كعينى البومة .
– تقدم قليلا ! كم غدا هادئا . . .
هذا ما نطق به بصوته الأجش وكانما صدر عن قماش يتمزق ، سوليكوفسكى الذى تقدم جانب مكتب الضابط يمسك فى يده الضخمة بسوط مجدول .
اما المحقق كوليشوف الذى كان يتقدم المكتب من الجانب الآخر فقد مد يده ليمسك بالصبى الصغير من تحت ابطه يدفعه نحو المكتب .
وتساءل مبتسما فى هدوء وهو يغمز فى اتجاه فانيا :
– هو ؟
واجاب الصبى بالكاد وهو يشهق ليجمد مكانه :
– نعم .
ونظر كوليشوف في ارتياح ظاهر الى الضابط ثم الى سوليكوفسكى . ومال المترجم الذى وقف الى الناحية الاخرى للمكتب يشرح للضابط ما حدث هنا . وقد عرف فانيا فيه شوركا ريباند الذى كان يعرفه جيد المعرفة شأن كل سكان كراسنودون .
ونظر سوليكوفسكى الى فانيا بعينيه الضيقتين الغائرتين عميقا داخل عظام وجنتيه ، وكانما تظهران من وراء الجبال ، ليتساءل :
– هل فهمت ؟ هيا . . حدّث السيد الضابط عن شركائك . تكلم ! بسرعة !
وذكر فانيا بصوته الأجش فيما يتأمله بعينيه :
– لست أدرى عم تتحدث .
وخاطب سوليكوفسكى كوليشوف قائلا فى دهشة وامتعاض :

– هل ترى ؟ هيه ! هذا هو التعليم الذى منحته اياه السلطة السوفييتية .

اما الصبى فقد نظر فى خوف الى فانيا اثناء حديثه وهز كتفيه وكانما اصابته البرودة .

وذكر كوليشوف يلوم فانيا فى هدوء :

– الا تخجل من نفسك ؟ فلتشفق على الصبى الذى يتعذب بسببك . فلتنظر الى ذلك الموجود هنا ؟

والتفت فانيا الى حيث أشارت نظرة كوليشوف ، ليقع نظره على كيس بجوار الجدار ، تبدو منه الهدايا التى تبعثر جزء منها على الأرض .

وذكر فانيا فيما راح يبدو هادئا اكثر فاكثر :

– لست أدرى ما علاقتى بذلك . كما واننى ارى هذا الصبى للمرة الاولى .

ويبدو ان بريوكنر الذى كان شوركا ريباند يترجم له كل ما يقول ، قد اصابه الملل ، ليلقى بنظرة خاطفة على ريباند فيما يتمتم ببعض الكلمات . والتزم كوليشوف الصمت فى اذعان . بينما فرد سوليكوفسكى قوامه واسدل يديه الى جانبيه .

وذكر شوركا ريباند فى برود وهو ينظر الى جانب فانيا :

– السيد الضابط يطلب منك الحديث عن كم مرة قمت فيها بالسطو على السيارات وباى هدف ومن هم شركاؤك ، وماذا فعلوا .. وكل شئ آخر .

وذكر فانيا :

– كيف لى ان اسطو على السيارات ، فى حين اننى ضعيف النظر ، وانت تعلم ذلك .

– ارجو ان تجيب السيد الضابط .

بيد ان السيد الضابط لم يكن ، على ما يبدو ، فى حاجة الى ايضاحات ، ليقول مشيرا باصابعه :

– سلموه الى فينبونج !

وتغير كل شئ فى لحظة واحدة . اذ امسك سوليكوفسكى بيده الضخمة فانيا من ياقته يهزه فى غضب ، يجره الى قاعة الاستقبال وادار وجهه ليضربه بسوطه «ذهابا وايابا» بكل قوة . وغطت

الخطوط الحمراء وجه فانيا . وقد اصابت احدى الضربات زاوية عينه اليسرى لتبدأ فى الانتفاخ على الفور . وامسك الشرطى الذى جاء به ، بياقته وراح بمساعدة سوليكوفسكى يجرجرانه بالردهة فيما يدفعانه ويضربانه بركبهما .

وكان يجلس بالغرفة التى دفعاه اليها صف الضابط فينبونج وجنديان من فرقة الاس اس ، يدخنون فيما تعلو امارات الارهاق وجوههم .

وصاح سوليكوفسكى بصوت صفيرى رهيب وقد امسك بوجه فانيا بيده الكبيرة ، حيث بدت واضحة اصابعه ذات الأظافر الحديدية :

– ان لم تعترف ايها السافل وعلى الفور باسماء شركائك ...

واذ فرغ الجنديان من تدخين سيجارتيهما والقيا بعقبيهما الى الارض ليفركاهما بكعبيهما قاما وعلى نحو هادئ وبارع بتجريد فانيا من معطفه وكل ملابسه ، والقيا به على الاريكة الخشبية الملطخة بالدماء .

وعلى مهل تناول فينبونج بيده الحمراء التى غطاها الشعر الأصفر سوطين مجدولين من الاسلاك الكهربائية ، ناول احدهما سوليكوفسكى بينما احتفظ بالثانى لنفسه . وراحا يضربانه بالتناوب على جسده العارى بينما كان الجنديان يمسكان به من قدميه ورأسه . وانبثقت الدماء من جسد فانيا بعد اولى الضربات .

وما كادا يكيلان الضربات لفانيا حتى اقسم على عدم فتح فمه ، لا اجابة عن سؤال ولا تعبيرا عن شعور بالألم .

وهكذا ظل على هذه الحال طوال تلك الفترة التى كانا يضربانه فيها وقد كانا يتوقفان من آن لآخر برهة من الوقت ليتساءل سوليكوفسكى :

– هل ثبت الى رشدك ؟

وكان فانيا يرقد صامتا دون ان يرفع وجهه ليستانفا ضربه من جديد .

هذا وكان موشكوف قد نال نفس المصير على نفس الأريكة الخشبية منذ نصف ساعة مضت . الا انه شأن فانيا نفى اية علاقة تربطه بحادث سرقة الهدايا .

اما ستاخوفيتش الذى كان يعيش بعيدا فى اطراف المدينة ، فقد القى القبض عليه بعدهما .

وقد كان ستاخوفيتش مثل كل الشباب على شاكلته ، والذين يتخذون الاعتزاز بالنفس اساسا لكل تصرفاتهم بالحياة ، يمكن ان يصمد على اى نحو ، بل وكان يستطيع القيام بعمل بطولى يتسم بالمغامرة على مرأى من الآخرين ولاسيما اذا كانوا من معارفه او من ذوى الثقل المعنوى . بيد انه كان يجبن حين يواجه المخاطر او المصاعب وجها لوجه .

لقد فقد نفسه فى تلك اللحظة التى قبض عليه فيها . بيد انه كان يتمتع بذلك الذكاء الذى يكمن فى القدرة على ايجاد عشرات ومئات الحجج المعنوية توا لتبرير موقفه .

وقد ادرك ستاخوفيتش على الفور حين ووجه بالصبى ، ان هدايا راس السنة هى القرينة الوحيدة ضده وضد رفاقه الذين لا يمكن ان يفلتوا من نفس مصيره . وقد راودته توا فكرة تحويل كل ذلك الامر الى قضية سرقة عادية ارتكبها ثلاثتهم ، والاعتراف صراحة وذرف الدموع بسبب العوز الشديد والجوع وقطع الوعود بشأن الكسب مستقبلا من عمل شريف . وبنفس هذا الاخلاص أوجز ذلك الأمر فى حضرة بريوكنر والآخرين مما جعلهم يدركون جوهر ذلك الماثل امامهم . وقد راحوا يكيلون له الضربات فى نفس المكتب ، يطالبونه بكشف شركائه الآخرين . اولم يكن ثلاثتهم بالامس فى النادى ، مما يعنى انهم لم يكونوا قادرين على تفريغ السيارة !

ولحسن حظه حان موعد غداء بريوكنر ومساعده بالدر ، ليتركاه حتى المساء .

وفى المساء عاملوه بلطف قائلين انهم سوف يفرجون عنه ان افصح عن اسماء سارقى الهدايا . وذكر ان ثلاثتهم هم الذين قاموا بذلك . وعندئذ جرى تسليمه الى فريق فينبونج حيث راحـــوا يعذبونه وحتى نطق بلقب تيولينين . اما عن الآخرين فقد ذكر انه لم يتعرف عليهم فى حلكة الظلام .

لم يكن ذلك المأسوف عليه يعرف انه بالاعتراف على تيولينين ، يكون قد ورط نفسه فى خضم من التعذيب الرهيب حيث ان اولئك

الذين وقع فى ايديهم كانوا يعلمون ضرورة مواصلة كسر ارادته حتى النهاية فى هذه اللحظة بالذات التى اعلن فيها عن ضعفه .

كانوا يعذبونه حتى يغمى عليه ، ويصبون عليه المياه الى ان يفيق ليواصلوا تعذيبه . وهكذا حتى فقد قبيل مطلع الصباح كل السمات الانسانية ليركع طلبا للصفح والغفران . انه لم يكن يستحق كل ذلك التعذيب . لقد كان مجرد اداة فى ايدى آخرين ، ويجب أن يتحملوا هم لا هو ، مسئولية ذلك ! وهكذا وشى بقيادة «الحرس الفتى» وبمراسلات الاتصال ، الا انه لم يذكر اسم أوليانا جروموفا ، لسبب مجهول . فقد ومضت بمخيلته سريعا عيناها السوداوان الرائعتان ، ليغفل ذكر اسمها .

وفى نفس تلك الايام جيئ* بليادسكايا من مستعمرة كراسنودون الى مركز الشرطة ، حيث جرت مواجهتها بفيريكوفا . وكانت كل منهما تعتبر الاخرى مسئولة عما حدث ، توجه لها فى حضرة بالدر الرصين وكوليشوف الفكيه اقذع اشكال السباب شأن تاجرات الاسواق الفاحشات .

وقد صاحت ليادسكايا التى تضرجت وجنتاها لدرجة لم يعد يظهر معها النمش على وجهها بارز العظام ، تقول :

– معذرة اولم تكونى مرشدة طلائع !

وردت عليها فيريكوفا وقد كورت قبضتها وبرزت ضفيرتاها ، تقول :

– ان كل سكان بيرفومايسكى يذكرون كيف كنت تجمعين اشتراكات جمعيات اصدقاء الطيران .

وكادتا أن تشتبكا فى عراك ، الا ان الحاضرين حالوا دون ذلك واودعوهما رهن السجن يوما . ثم قاموا باستدعائهما كل على حدة لاستجوابهما فى غرفة بريوكنر . وامسك كوليشوف بيد فيريكوفا ثم بيد ليادسكايا على نفس النحو ، يهمس اليهما بنفس الجملة :

– هل ستصورين نفسك ملاكا ؟ فلتتحدثى عن اسماء المنظمة !

وراحت فيريكوفا ، ثم ليادسكايا فيما بعد ، تذرفان الدمع تقسمان بانهما ليستا عضوين فى المنظمة وحسب ، بل وكانتـــا طيلة حياتهما تكرهان البلاشفة ، كما كان البلاشفة يكرهونهما ، وذكرتا اسماء كافة اعضاء الكومسومول وكل مشاهير الشباب الذين

بقوا فى بيرفومايسكى وفى مستعمرة كراسنودون . وكانتا تعرفان جيد المعرفة رفاقهما فى المدرسة وفى مقر الاقامة ، ومن منهم كان يمارس النشاط الاجتماعى ، وكذلك ميول كل منهم . وافصحت كل منهما عن اسماء حوالى عشرين من اولئك الذين يعكسون بدقة دائرة اعضاء الشباب المرتبطين «بالحرس الفتى» .

وذكر المساعد بالدر لكل منهما فيما يدور بعينيه بشكل محموم ، بانه لا يثق فى عدم انتمائهما للمنظمة ، وانه ملزم بتسليمهما كى يكيلوا لهما اقسى صنوف التعذيب على قدم المساواة مع اولئك المجرمين الذين وشيتا بهم . بيد انه مشفق عليهما ، ويعرض عليهما مخرجا لأمرهما .

وجرى الافراج عن فيريكوفا وليادسكايا فى وقت واحد ، وكانت كل منهما تجهل ، وان كانت تتوقع ، ان الاخرى لم تخرج بشرف . وقد جرى تخصيص راتب شهرى لكل منهما يقدر بثلاثة وعشرين ماركا . ودست كل منهما فى يد الأخرى يدها الخشبية وكأنما لم يحدث فيما بينهما شىء .

وذكرت فيريكوفا :

— لقد نجونا بثمن بخس . تعالى لزيارتنا وقتما تسمح ظروفك .

واجابت ليادسكايا :

— لقد كان الثمن بخسا حقا ، ولسوف ازورك يوما .

وافترقتا .

الفصل الثامن والخمسون

جرت عملية الاعتقالات وفق سمة غريبة ، حيث كانت اخبارها تنتشر على الفور فى كل ارجاء المدينة . كانوا يعتقلون فى البداية اهالى اعضاء القيادة الذين بارحوا المدينة ، ثم اهالى اروتيونيانتس وسافونوف وليفاشوف ، اى اولئك القريبين من القيادة والذين رحلوا ايضا عن المدينة .

وفجأة قاموا بالقاء القبض على توسيا ماشينكو ، وعلى بعض اعضاء «الحرس الفتى» . لكن ما السر فى اختيار هؤلاء بالذات ؟

لم يكن بوسع أحد من الباقين خارج نطاق الاعتقالات ان يتوقع ان تكون الاعتقالات الجديدة وما شابها من مد وجزر ، متوقفة على اعترافات ستاخوفيتش الرهيبة . فقد كانوا يسمحون له بتناول قسط من الراحة عقب كل اسم جديد يشى به ، ليشرعوا فى تعذيبه مرة أخرى ليعود فيشى بآخرين .

بيد أنه لم يجر اعتقال اى من رجال منظمة العمل السرى التى يتزعمها ليوتيكوف وباراكوف على الرغم من مرور بضعة ايام منذ القبض على موشكوف وزيمنوخوف وستاخوفيتش . وظل كل شىء على حاله فى السابق فى الورش المركزية .

وفى الرابع من يناير خرج الى عمله فولوديا اوسموخين الذى قضى الايام الثلاثة الاولى من العام الجديد لدى جده بالقرية . وكان قد عرف منذ مساء الأمس من امه بانباء الاعتقالات وبتعليمات قيادة «الحرس الفتى» . بيد انه رفض الرحيل رغما عن ذلك .

وقد ذكر لأمه التى لم يكن ثمة سبب يجعله يخفى عنها اموره اليوم :

— ان الشباب لن يشوا بنا .

وقد كانت هناك كثير من الاسباب التى كمنت وراء رفض فولوديا الرحيل عن المدينة . لقد كان يصعب عليه الرحيل وترك امه وشقيقته ، ولاسيما حين تذكر انهما لم ترحلا آنذاك يوم كان مريضا . بيد ان السبب الرئيسى كان يرجع الى انه ونظرا لعدم حضوره الاجتماع الذى جرى بمسكن اوليج ، لم يكن يقدر الخطر الذى يهدده وحسب ، بل وكان يعتبر ان القيادة تعجلت فى اتخاذ هذا القرار . كما وقد كان الصبية الثلاثة المعتقلون من اقرب الناس اليه علاوة على ثقته الكبيرة بهم . وبزغت فى اعماق نفس فولوديا (انى شأن فاسكا بوسلاى) مخططات انقاذ رفاقه ، والتى كان كل منها اكثر خرافة من الآخر .

بيد أن فولوديا ما كاد يصل الى الورش حتى استدعاه ليوتيكوف الى مكتبه متذرعا بسبب ما . وقد كان فيليب بيتروفيتش يعزه كثيرا ، حيث كان اقرب الشباب الآخرين اليه ، الى جانب علاقته القديمة باهله . ولم تكن الخبرة والعقل فقط بل والقلب كذلك هى تلك العوامل التى اوحت الى الرجل بوجود خطر رهيب يهدد تلميذه وصديقه الصغير . وعرض فيليب بيتروفيتش على فولوديا الرحيل

فورا ، ورفض حتى سماع اية تفسيرات بهذا الشأن . وقد كان قاسيا صارما فى ذلك حيث كان ما قاله أمرا وليس مجرد نصيحة .

بيد ان الوقت كان متأخرا . فلم يسعفه الوقت للتفكير فى موعد ومقصد الرحيل ، حيث جرى اعتقاله فى مكان عمله بالورش .

وكانت جهود السفاحين الذين كانـــوا يسمون ستاخوفيتش العذاب ، تستهدف ليس فقط معرفة كافة اعضاء «الحرس الفتى» ، بل والعثور على ذلك الخيط الذى يفضى الى منظمة البلاشفة للعمل السرى بالمدينة . فقد كانت المعلومات الكثيرة ، بل واى منطق عادى توحى لكبار وصغار رجال الشرطة بأن الشباب يعمل تحت اشراف الكبار ، وان مركز المؤامرة فى كراسنودون يكمن فى منظمة البلاشفة للعمل السرى .

بيد ان ستاخوفيتش لم يكن يعرف حقا طريقة اتصال اوليج بلجنة المنطقة ، ولم يكن قادرا سوى على تأكيد وجود مثل هذه الصلة . وحين راحوا يستنطقونه من كان من الكبار اكثر زائرى مسكن آل كوشيفوى ، ذكر بعد أن استعاد فى ذاكرته كل الأسماء ، لقب سوكولوفا .

وقد كان ستاخوفيتش يصادف للحقيقة كثيرا بولينا جيورجيفنا فى مسكن آل كوشيفوى أيام نشاطه كعضو بالقيادة ثم وفيما بعد حين كان يزور اوليج لأمور خاصة بالمنظمة . ولم يكن فيما سبق يربط ما بين وجودها ونشاط «الحرس الفتى» ، لكنه تذكر اليوم ان اوليج كان ينفرد احيانا ببولينا جيورجيفنا حيث يتبادل معها الحديث همسا ، مما جعله يفصح عن اسمها .

وافضت الخيوط عن سوكولوفا بالدرجة الاولى الى ليوتيكوف ذلك الانسان الصموت الغامض الصارم . وقد خيل الى بريوكنر انه ليس من قبيل الصدفة ان يعمل المعتقلان موشكوف واوسموخين فى ورشة ليوتيكوف . وجرى تجميع كافة المعلومات بشأن تاريخ حياته وكل وقائع التخريب والحوادث فى الورش المركزية .

وفى فجر الخامس من يناير جاءت بولينا جيورجيفنا وكعادتها ، الى فيليب بيتروفيتش تحمل له الحليب ، لتغادره وقد حملت معها تحت بلوزتها منشورا كتبه فيليب بيتروفيتش تحت توقيع «الحرس الفتى» . ولم يشر المنشور باى شىء عن اعتقالات الاعضاء ، حيث

كان فيليب بيتروفيتش يود اثبات ان العدو لم يصب مركز المنظمة ، اذ ان «الحرس الفتى» ما تزال موجودة تمارس نشاطها .

وفى المساء عندما عاد من عمله وجد زوجته يفدوكيا فيدوتوفنا وابنته رايا تجلسان بالمطبخ لدى بيلاجيا ايلينيتشنا ، حيث جاءتا من النجع لزيارته . ويالها من سعادة حقة ! واستبدل فيليب بيتروفيتش ملابسه بأخرى نظيفة وارتدى قميصا أبيض ورباط عنق أزرق تشوبه خطوط رمادية وحلة كانت بيلاجيا ايلينيتشنا قد تولت تنظيفها . وجلس فى هذه الحلة النظيفة هادئا طيبا رزينا مع اقرب الناس اليه ، يمزح وكان شيئا لم يحدث .

فهل كان يعرف أن خطر الهلاك قد راح يحوم حوله ايضا ؟

كلا . . لم يكن يعرف ، ولم يكن ليستطيع معرفة ذلك . بيد انه كان يفترض دائما هذا الاحتمال ، يستعد دائما لمواجهته ، كما وصار يشعر فى الآونة الاخيرة أن درجة الخطر قد تزايدت .

وراح الملازم الصموت شفيديه حين تلم به نوبة الغضب الشديد ، يتهم باراكوف بالتخريب . ومن يستطيع تقديم الدليل على أن الالمانى لم يكن يملك بعد القرينة الدالة على ذلك ؟

فمنذ بضعة ايام انطلقت اربع عربات محملة بالفحم الى القرى المجاورة لاستبداله بالخبز حسبما ادعوا . وكان نقل الفحم من داخل الورش انتهاكا فظا «للنظام الجديد» لم يسبق له مثيل . بيد أن باراكوف وفيليب بيتروفيتش لم يجدا آنذاك اى حل آخر ، كما ولم يكونا يملكان حق الانتظار ، حيث كانت الاسلحة الخاصة بمجموعة كراسنودون للفدائيين ذات الصلة بفصيل ميتياكينسكى موجودة تحت ذلك الفحم . ومن ذا الذى كان يستطيع أن يكفل بقاء هذه العملية الجريئة طى الكتمان ؟

وقد ألقى العدو القبض على اعضاء «الحرس الفتى» الواحد تلو الآخر . ومن كان يستطيع معرفة الاسباب الحقيقية التى أدت الى سقوط حلقات باكملها من هذه المنظمة ؟

كان العجوز فيليب بيتروفيتش يدرك ويشعر بكل هذا . بيد انه لم يكن يملك ما يدفعه الى التراجع وما يعينه عليه . فقد كانت روحه الهادرة بعيدة عن هذا المكان تحوم هناك عبر الانهار والبرارى ، وعبر الثلوج والصقيع برفقة جيش التحرير العظيم .

وكان كل حديثه مع ابنته وزوجته مهما تشعب ، يعود ليشير الى هجوم قواتنا الضخم . فكيف له ان يترك موقعه فى تلك اللحظة التى تتطلب تضافر جهود الجميع ، استنادا الى مجرد افتراضات لم تثبت ؟ لقد بقيت اسابيع معدودات ، ولربما ايام قلائل حين يستطيع فى نهاية الأمر أن ينفض من على كاهله عبء التظاهر والتصنع الذى اثقله ، ليفصح للآخرين عن وجهه الحقيقى ! اما اذا لم يسعفه مصيره للعيش حتى ذلك اليوم المضىء الناصع ، فسوف يبقى اناس يواصلون العمل بدونه وحتى النهاية . وقد جرى منذ ذلك الحديث المشهود فى مكتب باراكوف تشكيل اللجنة الثانية «الاحتياطيـــة» للمنطقة من اناس شرفاء مخلصين جرى ابلاغهم بكل الاتصالات واطلاعهم على عناوين المراكز .

وهكذا كان يجلس فيليب بيتروفيتش انيق الملبس مرحا ، يبدو اكثر طيبة وحبا للحديث عن ذى قبل . وراحت الابنة ترنو الى ابيها بعينين تتسمان بالمرح . اما زوجته يفدوكيا فيدوتوفنا التى قطعت معه شوطا طويلا من الحياة ، وتستطيع أن تدرك ابسط التقلبات التى تطرأ عليه ، كانت تتأمله فى قلق وخوف وتساؤل وكأنما تود أن تقول : «انك ترتدى اليوم افضل الملابس ، وتبدو امرح من اى وقت مضى . . وهذا ما لا يروق لى !» .

واستغل فيليب بيتروفيتش لحظة انصراف زوجته الى المطبخ لتنهمك فى حديث نسائى مع بيلاجيا ايلينيتشنا ، ليقص على ابنته رغما عن كل شىء انباء اعتقال بعض اعضاء «الحرس الفتى» . وكانت رايا قد بلغت الثالثة عشرة من العمر منذ قليل ، وعرفت بوجود «الحرس الفتى» ، وخمنت حقيقة عمل والدها ، وراحت تحلم بانها سوف تساعده الا انها لم تجرؤ على طلب ذلك منه .

وذكر فيليب بيتروفيتش فى صوت خافت :

— عليكما عدم الجلوس هنا طويلا ، فلن استبقيكما لقضاء الليل . كما وسوف يتحتم عليكما العودة عبر البرارى ، ولن يراكما احد ليلا . ولتقولى لامك ان ذلك امر افضل .

ثم اضاف الوالد ضاحكا :

— فلست قادرا على أن اشرح لها سر ذلك .

وتساءلت رايا وقد امتقع وجهها :

— هل ثمة خطر يتهددك ؟

واجاب فيليب بيتروفيتش فى هدوء :

— ليس هناك شىء محدد . اما عن الخطر فهو قائم دائما ، كما وقد تعودت على وجوده ، حيث منحت حياتى لقاء ذلك واود ان تكونى على شاكلتى .

واستغرقت الابنة فى التفكير برهة من الوقت ثم احاطت بيديها الرقيقتين عنق والدها ومالت بوجهها الى وجهه . ودلفت الأم الى الداخل لتنظر فى استغراب اليهما على هذا النحو . وصار فيليب بيتروفيتش يطلب من زوجته وابنته الرحيل فيما ينتقى لذلك اكثر العبارات مرحا وفكاهة . وكانت الأسرة قد تجمعت مرارا اثناء فترة الاحتلال . ولذا فقد تعودت يفدوكيا فيدوتوفنا على أن زوجها يغدو صارما حين تصبح الأمور العائلية عائقا يحول دونه وعمله ، ولم تكن قادرة على تبين صحة موقفها من خطئه ، لتنزل على ارادته حتى حين كانت تشعر بالأسف والألم .

وشاهدت يفدوكيا فيدوتوفنا زوجها فى هذه المرة ، وكأنما بعينين جديدتين فى سترته جيدة الكى التى احتفظت بروتقهـــا ، واستقرت تلف جسده الكبير ، لتندفع اليه فجأة تطبع قبلاتها على وجهه الحليق بشكل جيد وان كانت شعيراته ما تزال تعلن عن نفسها ، وحتى على رباط عنقه ومالت برأسها على صدره . واعترت الرجفة اسفل وجهه لينحى زوجته جيدا فى رفق ، فيما يقول بعض الكلمات الضاحكة . وترقرقت الدموع فى مآقى الابنة لتلتفت الى الخلف تجذب امها من كميها .

وفى تلك الليلة جرى اعتقال بولينا جيورجيفنا ، وفى صباح السادس من ينايـــر جرى القاء القبض على فيليب بيتروفيتش وباراكوف فى مقر عملهما ، وليس فى بيتيهما . كما وجرى القاء القبض على بعض العشرات من عمال الورش . ولم يكن العدو فى حاجة الى قرائن كما كان يتوقع فيليب بيتروفيتش حيث أن كثيرا من المعتقلين لم يكونوا على ادنى صلة بالمنظمة .

ولم يجر القبض على توليا الملقب «بالرعد» لا فى ذلك اليوم الذى جرى فيه اعتقال فولوديا ،ولا فى يوم الاعتقالات الجماعية التى



عمت الورش . وما كاد ينتهى من عمله حتى ذهب الى يليزافيتا الكسييفنا وليوسيا اللتين كانتا قد عرفتا بما حدث .

وصاحت يليزافيتا الكسييفنا فى قمة يأس الأم :

— ماذا تفعل بنفسك ؟ انك تودى بنفسك الى التهلكة ! عليك الرحيل فورا .

واجاب توليا فى هدوء :

— لن أذهب . وماذا سوف يجدى الرحيل ؟

واشاح بيده التى كان يمسك بها غطاء رأسه الفرائى .

كلا انه لم يكن قادرا على الرحيل طالما أودعوا فولوديـــا السجن .

وراحت يليزافيتا الكسييفنا وليوسيا تقنعانه بالبقاء لقضاء الليل ، الا انه رفض ذلك . ورحل الى فيتكا لوكيانتشينكو للتشاور معه بشأن ما يجب عمله للافراج عن رفاقهما المعتقلين . واتخذ طريقه ليلا ، بعيدا وكعادته ، عن نقاط الشرطة . وكم كان يشعر بنفسه وحيدا فى مدينته الحبيبة حيث غاب عنه فولوديـــا ، وزيمنوخوف وموشكوف وجورا أروتيونيانتس وآخرون . وراحت مشاعر اليأس والرغبة فى الثأر تتمازج فى روحه .

وفى وقت مبكر من الصباح تعالت طرقات قوية لباب مسكن آل أوسموخين . وهبت يليزافيتا الكسييفنا بما عرف عنها من جسارة تفتح الباب دون أن تسأل عن الطارق . وكادت تتراجع الى الوراء حين وجدت نفسها حيال توليا اورلوف الذى تجمدت اطرافه ، وضمر وجهه لدرجة غدا معها التعرف عليه من ضروب المستحيل ، وانتفخت عيناه اللتان راحتا تشعان نارا .

وقال فيما يمد يده الى يليزافيتا الكسييفنا وليوسيا بورقة مجعدة :

— فلتقرآ !

وريثما انهمكتا فى القراءة واصل حديثه يقول فى حمية :

— كلا ، استطيع ان اقول لكما كل الحقيقة ، بل وملزم بقول الحقيقة كلها . لقد تسلم فيتيا هذه الورقـــة من احد الجرحى العسكريين ، كان قد آواه فى بيته ذات يوم . وقمنا بنسخ هذا المنشور ورحنا نلصقه فى كل ارجاء المدينة طوال الليل ، وبتكليف

من لجنة الحزب بالمنطقة . كما وراحت العشرات من الناس تلصقه كذلك . وها هي المدينة باسرها وكل النجوع والقرى تطالع اليوم هذا المنشور .

وقد كان توليا يتحدث بحماس بالغ دون ان يستطيع الكف عن حديثه نظرا لأنه كان يظن نفسه لم يدل بعد بأهم شيء .

بيد أن يليزفيتا الكسييفنا وليوصيا لم تكونا تعيرانـــه اسماعهما حيث انهمكتا في قراءة المنشور :

«يا مواطني كراسنودون ! يا أيها العمال والفلاحون والموظفون! يا كل المواطنين السوفييت ! يا أيها الاخوة والأخوات !

لقد حطم جيشنا الأحمر القوى قوات العدو التي راحت تلوذ بالفرار ! ان هذا العدو يقوم شأن الحيوان الجريح الذي الم به الغضب بالقبض على الابرياء يسومهم أقسى صنـــوف التعذيب . فليذكر هؤلاء الانذال اننا موجودون هنا ! وسوف يدفعون حياتهم الوضيعة لقاء كل نقطة دم يريقونها من دماء المواطن السوفييتي . فلترتعد فرائص الاعداء . . ان ثارنا لقريب ! فلتنزلوا عقابكم بالعدو . . فلتدمروه ! الدم بالدم ! والموت بالموت !

قواتنا قادمة ! قواتنا قادمة ! قواتنا قادمة !

لجنة حزب البلاشفة لمنطقة كراسنودون للعمل السرى» .

الفصل التاسع والخمسون

لم تقض أوليانا الليالي الاولى التي اعقبت موجة الاعتقالات في منزلها . بيد أن هذه الموجة وكما تنبأ أوليـــج ، لم تمس «بيرفومايكا» ومستعمرة «كراسنودون» . ولذا عادت اوليانا ثانية الى بيتها .

واذ استيقظت اوليانا في فراشها ، بعد عدة ليالى قضتها حسبما اقتضى الحال ، راحت مدفوعة برغبة خفية لالهاء نفسها عن التفكير في امور عصيبة ، تمارس الشئون المنزلية من كنس واعداد للفطور . وقد نهضت الأم من فراشها لتجلس الى المائدة وقد اضاء مقدم الابنة كل أسارير وجهها . اما الأب فكان مكتئبا صموتا . وطوال الايام التي غابت فيها أوليانا عن المنزل ولم تكن لتظهر الا لساعة او

بعض ساعات لرؤية ذويها او لأخذ ما قد تحتاج اليه ، لم يكن لماتفى ماكسيموفيتش ولماترينا سافيليفنا حديث سوى عن موجة الاعتقالات التى عمت المدينة ، فيما يحاول كل منهما تفادى النظر الى وجه الآخر .

وحاولت اوليانا التحدث حول موضوعات مختلفة لا معنى لها ، بينما راحت الأم تحاول مبادلتها اطراف الحديث . الا ان ذلك كان مصطنعا لدرجة انهما كفتا عن مواصلته . بل ولم تلحظ اوليانا انها جمعت الاطباق من على المائدة وغسلتها وجففتها .

وخرج الأب بعد الافطار لتصريف شئونه .

اما اوليانا فقد وقفت الى النافذة تدير ظهرها الى الأم ، ترتدى فستانا أزرق به نقط بيضاء ، كانت تهوى دائما ارتدائه بالمنزل . واستقرت ضفيرتاها المتموجتان الكثتان على ظهرها ، طويلتين بلغتا خصرها اللدن القوى ، كما تسلل ضوء الشمس القوى عبر زجاج النافذة الذى بدأت الثلوج تنقشع من عليه ، ليداعب شعرها المتموج المتطاير .

وقفت اوليانا تنظر عبر النافذة الى البرارى وتغنى . وكانت قد انقطعت عن الغناء منذ حل الالمان . اما الأم فكانت ترتق بعض الملابس وهى نصف راقدة بالفراش . كانت الدهشة تملؤها وهى تعير سمعها الى الابنة ، حتى انها أرجأت ما كان يشغلها . كانت الابنة تترنم بكلمات ما لا تعرفها الأم ، وبصوت صادر من الاعماق :

كم كان عمر نضالك قصيرا . . . كم كان شريفا . .
نضالك باسم مجد الارض الحبيبة . . .

ولم تكن ماترينا سافيليفنا قد سمعت هذه الكلمات ابدا قبل ذلك . لقد كان ثمة الم وحزن فى غناء الابنة .

وسوف ينهض المنتقم الجبار
وسوف يكون اقوى الاقوياء . . .

وتوقفت اوليانا عن الغناء ، بينما لم تبرح مكانها عند النافذة تواصل النظر الى البرارى .

وسألتها الأم :

– اية اغنية كنت تترنمين بها ؟

وأجابتها أوليانا دون أن تلتفت اليها :

– كلمات خطرت ببالى . . لا أذكرها !

وفى هذه اللحظة انفتح الباب لتمرق منه الى الحجرة شقيقة اوليانا الكبرى وهى تلهث . وكانت اكثر بدانة من اوليانا ، وردية الوجه شقراء ، أشبه بأبيها ، الا ان الشحوب علا وجهها فى تلك اللحظة .

وهمست كما لو كان يمكن سماعها من مسكن بوبوف :

– لقد وصلت الشرطة الى آل بوبوف !

والتفتت اوليانا لتقول بصوت هادئ دون ان يبدو عليها اية امارات تغيرها :

– هكذا الامر ! من الأفضل الابتعاد عنها !

وتقدمت الى الباب وارتدت معطفها على مهل والقت بمنديل على راسها .

بيد انها فى تلك اللحظة سمعت وقع اقدام ثقيلة تخطو عبر الباب ، لتجفل الى الوراء قليلا تستند الى ستارة ملونة كانت تغطى الملابس الشتوية ، واستدارت بوجهها الى الباب .

وهكذا التصقت صورة وجهها ابد الدهر فى ذاكرة الأم ، تتصور هذه الستارة الملونة . بدا وجهها وقد اصابت الرجفة انفها وتدلت رموشها الطويلة على ما يبدو فى محاولة لاطفاء النيران المنبعثة من عينيها ، بينما استقر المنديل الابيض يتدلى على كتفيها ، حيث لم تكن قد شرعت فى لفه حول راسها .

ودلف الى الغرفة سوليكوفسكى رئيس الشرطة والرقيب فينبونج برفقة جندى يحمل بندقية .

وقال سوليكوفسكى :

– آه . . هذه هى . . انها هى جميلتنا !

واستطرد يقول وهو يلتهم بنظره قوامها الفارع وقد ارتدت معطفها ومنديلها هذا يتدلى على كتفيها لم يعصب بعد :

– الم يسعفك الوقت ؟ أوه . . هوه !

وهمست الأم وهى تحاول النهوض من فراشها :

– آه يا اعزائى ! يا احبائى !

ورمتها اوليانا بنظرة غاضبة على حين غرة ، مما جعل الأم تتوقف عن متابعة الحديث ، بينما اخذ فكها الأسفل يختلج رعشة .

وبدأ تفتيش المنزل ، واندفع الأب نحو الباب ، الا ان الجندى حال دون ذلك .
وكان المحقق كوليشوف يتولى فى هذه اللحظة مهمة التفتيش فى بيت اناتولى .
كان اناتولى يقف وسط الغرفة ، مفتوح المعطف لا يغطى راسه شيء ، بينما امسك الجندى الالمانى بيديه من الخلف . وراح الشرطى يصيح فى تايسيا بروكوفيفنا :
— أعطينى حبلا . . هيا !
واجابته تايسيا بروكوفيفنا ، فارعة القوام وقد كسا احمرار الغضب وجهها :
— هل اصابتك لوثة . . هل يمكن ان أعطيك حبلا لتقيد به ابنى الحبيب ؟
وقال اناتولى وقد انتفخت أوداجه :
— اعطيه يا امى حبلا حتى لا يعوى . انهم ستة افراد . . وكيف لهم أن يقتادوا واحدا دون أن يقيدوه !
وانخرطت تايسيا بروكوفيفنا فى البكاء وخرجت من الغرفة لتعود بعد قليل ، وتلقى حبلا عند اقدام الابن .
وتم ايداع اوليانا فى زنزانة عامة كبيرة ، حيث كانت تجلس مارينا وابنها الصغير ، وماريا أندرييفنا بورتس ، وفينيا — شقيقة تيولينين ؛ ومن «الحرس الفتى» كانت هناك آنيا سوبوفا من جماعة ستاخوفيتش ، وهى فتاة شقراء ضعيفة ، ممتلئة النهدين ، ضربوها ضربا مبرحا جعلها لا تستطيع الرقاد الا بالكاد . وقد أخلوا الزنزانة من الغرباء ، لتمتلئ بفتيات «بيرفومايكا» — مايا بيجليفانوفا ، ساشا بونداريفا ، شورا دوبروفينا ، وبنتا العم ليليا وتونيا ايفانيخينا وغيرهن . . .
ولم تكن هناك اية اسرة او كنب ، مما جعل الفتيات والنسوة يفترشن الارض . وكانت الزنزانة مكتظة لدرجة بدأ الجليد يذوب فيها ويقطر ماء من السقف .
وكانت الزنزانة المجاورة كبيرة كذلك ، تدل كل الشواهد على انها مخصصة للصبية ، المقبوض عليهم . وراحت اوليانا تدق الحائط تسأل عمن هناك . وجاءها رمز مورزه يسألها من هناك عن

نفسها . وأعلنت اوليانا شخصيتها . وكان اناتولى هو الذى يجيبها من وراء الحائط . وكانت الزنزانة المجاورة تضم غالبية صبية حى «بيرفومايكا» : فيكتور بيتروف وبوريا جلافان وراجوزين وجينيا شيبيليوف ، وفاسيا شقيق ساشا بونداريفا حيث جرى القبض عليهما سويا . ولما كان الامر كذلك ، فقد احسّت الفتيات بالدفء لوجود صبية الحى الى جوارهن .
واعترفت تونيا ايفانيخينا وهى تواجه الفتيات ذوات الاقدام الطويلة والقسمات الطفولية الكبيرة واللاتى جلسن الى جوارها :
— اننى خائفة جدا من التعذيب ! اننى بالطبع ، استطيع الموت دون ان أنبس ببنت شفة ، كل ما هنالك اننى خائفة جدا . . .
وقالت ساشا بونداريفا :
— لا داعى للخوف ! فقواتنا قريبة منا ، بل ومن المحتمل ان نلوذ بالفرار .
وفجأة تدخلت مايا فى الحديث تقول :
— انكن أيتها الفتيات لا تعرفن الديالكتيك !
الا ان الفتيات انفجرن بالضحك بالرغم من كل ما كان يجيش بصدورهن ، حيث لم يكن يتصورن سماع هذه الكلمات فى السجن . واستطردت مايا تقول دون ان تفقد السيطرة على نفسها :
— يمكن بالطبع التعود على اية آلام !
وعند المساء خيم الهدوء على السجن . كان يتدلى من السقف مصباح كهربائى تحيط به اسلاك مضفرة يلقى باشعته الباهتة الى وسط الحجرة بينما غرقت اركانها فى ظلام حالك . وكان يصل الى الاسماع احيانا صياح بالالمانية ودبيب اقدام تهرول الى جوار العنابر . واحيانا كان هناك من يدق بأقدامه الممر ، وتتعالى قرقعة سلاح . وذات مرة استيقظ الجميـــع على صياح بربرى رهيب — وكان هذا صياح رجل ، مما جعل الرهبة تزداد حدة .
ودقت أوليانا الحائط تسأل الصبية :
«أهذا الصياح فى عنبركم ؟»
وجاءها الرد :
«لا . . انه من عنبر الكبار» — هكذا كان الكود الداخلى الذى اطلقوه على رجال العمل السرى الكبار .

واستمعت الفتيات الى اصوات اقدام تنبئ عن اقتياد أحد نزلاء العنبر المجاور . وعلى التو دق فيكتور الحائط :

«اوليانا . . اوليانا» . . .

واجابته اوليانا .

«انني فيكتور . . لقد اقتادوا توليا» .

وفجاة تصورت اوليانا وجه اناتولى وعينيه الجادتين اللتين كانتا تشعان دائما بريق السعادة ، واصابتها الرجفة حين تخيلت ما سوف يحل به . بيد انه فى تلك اللحظة دار مفتاح فى قفل الباب لينفتح ، ويدوى صوت ينادى :

– جروموفا ! . .

وهذا ما وعته ذاكرتها . . ظلت برهة من الوقت فى حجرة استقبال سوليكوفسكى . كان هناك من يتلقى الضربات فى حجرة المكتب . وفى حجرة الاستقبال كانت زوجة سوليكوفسكى ذات الشعر المجعد الباهت والعينين الناعستين تجلس على الاريكة فى انتظار زوجها تمسك فى يدها بصرة وبجانبها جلست بنت صغيرة ذات نفس الشعر والعينين وتقضم فطيرة محشوة بمربى التفاح . وانفتح الباب ليخرج منه فانيا زيمنوخوف وقد انتفخ وجهه بحيث يصعب على المرء معرفته . وكاد فانيا يصطدم بأوليانا التى كادت هى الاخرى تصيح .

بعد ذلك وقفت الى جوار سوليكوفسكى امام الضابط بريوكنر الذى سالها فى لامبالاة ، تؤكد انها ليست المرة الاولى له فى هذا الموقف ، عن أمر ما . وقد ترجم هذا السؤال شوركا ريباند الذى راقصته فى النادى قبل الحرب وحاول آنذاك التقرب اليها ، بينما يتظاهر فى هذه اللحظة بانه لا يعرفها . بيد انها لم تعر ما ترجمه لها انتباها ، لأنها كانت قبل القبض عليها قد اعدت ما سوف تقوله حين تواجه مثل هذا الموقف . وبوجه جامد التعبيرات باردها ذكرت ما يلى :

– اننى لن اجيب على اية اسئلة لأننى لا اعترف لكم بحق محاكمتى . افعلوا ما شئتم بى ، لكنكم لن تستمعوا الى اكثر مما قلته لكم . . .

لكن الضابط بريوكنر ، الذى ربما يكون قد استمع الى كثير

من مثل هذه الكلمات فى غضون تلك الايام ، لم يغضب واشاح بيده قائلا :

– الى فينبونج ! . .

كان الالم فظيعا ، لكنه لم يكن الم التعذيب – فقد كانت قادرة على تحمل أبشع صنوف التعذيب ، بل ولم تع ذاكرتها كيف كانوا يضربونها – كان رهيبا حين اندفعوا اليها يحاولون تجريدها من ملابسها ، واضطرت حتى تتخلص من اياديهم لأن تخلع ملابسها بنفسها امامهم . . .

وفى طريق العودة الى زنزانتها ، شاهدت اناتولى بوبوف محمولا على الايدى وقد تدلت راسه الشقراء ويداه حتى وصلتا الارض ، بينما سالت الدماء من جانب فمه .

كانت اوليانا تذكر ضرورة السيطرة على نفسها حين تعود الى الزنزانة ، وربما كانت قد فعلت ذلك . دلفت الى الزنزانة ، بينما صاح الشرطى المرافق لها :

– ايفانيخينا انطونينا ! . .

والتقت اوليانا وتونيا عند الباب ، وقد نظرت اليها الأخيرة بعينين ملؤهما الرعب . وانغلق الباب ليضم اوليانا داخل الزنزانة . بيد انه فى ذلك الوقت تعالى صوت طفل ، لا صوت تونيا ، مدويا فى كل ارجاء السجن .

وصاحت ماريا اندرييفنا بورتس :

– لقد اقتادوا ابنتى الصغرى !

واندفعت كما النمرة الى الباب تدقه وتصيح :

– لوسيا . . لقد امسكوا بك يا عزيزتى ! اتركوها ! . . اتركوها ! . .

واستيقظ طفل مارينا الصغير وراح يبكى .

الفصل الستون

فى تلك الايام كانت ليوبكا تشاهد فى فوروشيلوفجراد وفى كامينسك وفى روفينكى ، بل وقامت ذات مرة بزيارة ميلليروفو المحاصرة . وتزايدت دائرة معارفها من الضباط لدرجة كبيرة . وكانت

تملأ جيوبها الهدايا من البسكويت والحلوى والشيكولاته ، التى كانت تقدمها لاول عابر بنفس راضية .

كانت تدور على شفا الهاوية ببسالة بالغة وعدم اكتراث ترتسم على شفتيها ابتسامة طفولية ، ذات عينين ضيقتين زرقاوين تتالقان فى بعض الأحيان بشىء من القسوة .

وقد اتصلت ثانية بذلك الانسان الذى كان رئيسها المباشر ، اثناء رحلتها فى هذه المرة الى فوروشيلوفجراد ، والذى ابلغها ان الالمان قد زادوا من اعمال العنف فى المدينة . ولقد كان يقوم بتغيير مسكنه كل يوم تقريبا . لم يكن قد اغتسل منذ مدة طويلة ، غير حليق الذقن ، يكسو الاحمرار عينيه من السهر ، الا أنه كان مضطربا من جراء سماعه لانباء الاحداث على الجبهة . كان فى حاجة الى معلومات حول احتياطيات الالمان وحول الامدادات وبعض الوحدات ، وباختصار كان فى حاجة الى سيل من المعلومات .

واضطرت ليوبكا الى الاتصال ثانية بعقيد الامدادات . وحلت لحظة راودتها فيها مشاعر استحالة الخروج من هذا المازق . فقد كانت كل ادارة الامداد والتموين برئاسة ذلك العقيد خامل الوجه متهدل الوجنتين ، تغادر فوروشيلوفجراد بسرعة لا مثيل لها . ولذا فقد صار العقيد كلما اسرف فى الشراب كلما يبدو اكثر برودة وتجمدا ، بينما تملكت مشاعر الياس الضباط الآخرين . ولم تكن ليوبكا لتستطيع التملص وانقاذ نفسها من براثنهم لو لم يكونوا كثيرى العدد . فقد كان كل منهم يعترض طريق الآخر ، كما وكانوا يتشاجرون ويتخاصمون ، لتبلغ هى فى نهاية الامر المسكن الذى كانت تقطنه فى ضيافة تلك الفتاة الصغيرة وامها . هذا وقد حملت ليوبكا علبة مربى حلوة المذاق كان قد اهداها اياها ملازم كان لا يزال يحدوه بعض الأمل بشأنها .

خلعت ليوبكا ملابسها وخلدت الى الفراش البارد فى غرفة غير مدفأة ذات سقف عال . وفى تلك اللحظة تعالت طرقات الباب قوية . ورفعت ليوبكا رأسها . كما استيقظت الفتاة الصغيرة وامها بالغرفة المجاورة . كان ثمة من يطرق الباب بقوة وكأنما يبغى تحطيمه . وقفزت ليوبكا من الفراش وطرحت الغطاء بعيدا — حيث كان البرد قد اضطرها الى النوم فى صديريتها ، وجوربها الطويل — ودست قدميها

فى الحذاء وارتدت فستانها على عجل . كان الظلام الدامس يسود الغرفة . وسالت صاحبة المسكن وهى تقف فى المدخل عن الطارق . واجابتها اصوات تتسم بالجفاء — لقد كانوا الألمان . وراحت ليوبكا تفكر فى السبب الذى دعا هؤلاء الضباط المخمورون للبحث عنها ، وفقدت السيطرة على نفسها تماما . ولم تكد تفرغ من التفكير فى ماذا عساها ان تفعل حتى دلف الى الغرفة ثلاثة اشخاص يدقون ارضيتها ، ووجه احدهم الى ليوبكا ضوء بطاريته وهو يصيح بالالمانية :

— الضوء !

وعرفت ليوبكا فيه الملازم .

نعم لقد كان هو برفقة اثنين من رجال الشرطة . كان وجهه يتقد غضبا وهو يتفقد ليوبكا ممسكا فى يده بالمصباح الذى ناولته اياه صاحبة المسكن . وسلم الملازم المصباح الى احد مرافقيه ولطم وجه ليوبكا بقوة بالغة . وراح يعبث باصابعه فى ادوات الزينة البسيطة يبعثرها على المنضدة المجاورة للفراش كما لو كان يبحث عن شىء . ووقعت الهارمونيكا التى كان يغطيها منديل الى الأرض ، ليدوس عليها الملازم بكعبه يحطمها بعناد بالغ .

وقام رجلا الشرطة بتفتيش المسكن ، بينما رحل الملازم . وادركت ليوبكا انه ليس هو الذى رافق الرجلين ، بل كانا هما اللذان اكتشفاها عن طريقه ، وبدا شىء ما يسقط فى مكان ما . لكن ما هو هذا الشىء ؟ هذا ما لم تستطع معرفته !

وارتدت صاحبة المسكن وكذلك الفتاة ملابسهما وراحتا تتابعان عملية التفتيش فيما ترتجفان بردا . وبقول ادق كانت السيدة هى التى تراقب عملية التفتيش بينما راحت الفتاة تتامل ليوبكا فى فضول واهتمام بالغ . وفى اللحظة الاخيرة اخذت ليوبكا تضم الفتاة الى صدرها وتقبلها بحرارة فى خدها الجامد .

واقتاد رجلا الشرطة ليوبكا الى مركز شرطة فوروشيلوفجراد . وبحث احد الرؤساء هناك وثائقها وراح يسالها عن طريق مترجم ، عما اذا كانت هى حقا ليوبوف شيفتسوفا وفى اية مدينة تقطن . وقد حضر هذا الاستجواب شخص ما لم تتبين ليوبكا وجهه ، حيث كان يجلس فى زاوية الغرفة . لم يستقر الصبى فى مكانه طوال

الوقت . وصادر المسئولون حقيبة ليوبكا وكل فساتينها وحاجياتها ، عدا بعض الاشياء البسيطة ، وعلبة مربى ، ومنديل كبير ملون كانت تلف به احيانا رقبتها ، والذى طلبت منهم تسليمه اليها حتى تجمع فيه كل ما تبقى لها .

وهكذا ظهرت فى فستانها الملون تحمل فى يدها تلك الصرة التى احتوت ما تبقى لديها من ادوات زينة وعلبة المربى ، فى زنزانة شباب بيرفومايسكى .

وفتح الشرطى باب العنبر ودفع بها الى الداخل وهو يقول :

– استقبلوا فنانة فوروشيلوفجراد !

وراحت ليوبكا التى كسا الصقيع وجنتيها حمرة تتأمل بعينيها اللتين زرتهما الجالسين فى الزنزانة ليقع ناظراها على اوليانا ومارينا وطفلها وساشا بونداريفا وكل صديقاتها . واسدلت يديها التى كانت تمسك باحداهما صرة حاجياتها ، لتفارق الحمرة وجنتيها اللتين كساهما شحوب شديد .

وشهدت الفترة التى سبقت اقتياد ليوبكا الى سجن كراسنودون اعتقال الكثيرين من الكبار ومن اعضاء «الحرس الفتى» على حد سواء ، وكذلك اقاربهم لدرجة ايداع بعضهم مع اطفالهم ممرات السجن ، علاوة على انه كان من المفروض اعتقال كل اعضاء مجموعة مستعمرة كراسنودون .

وتتابعت بالمدينة موجات الاعتقالات والتى توقفت كذلك على اعترافات ستاخوفيتش العفوية . واذ غدا مثل الحيوان الذى خارت قواه تحت وقع التعذيب راح يشترى بضع ساعات من الراحة لقاء الوشاية برفاقه ، بيد ان كل خيانة جديدة كانت تجر عليه عذابا جديدا . فقد كان يتذكر تارة ان صديقا لتيولينين ، لم يعرف لقبه وان كان يذكر ملامحه وانه يسكن حى شنغهاى ، ليحكى تارة اخرى كل قصة كوفاليف وبيروجوك .

وفجأة يتذكر ستاخوفيتش أن ثمة صديقا لأوسموخين يدعى توليا اورلوف . وها هما فولوديا الذى انهكه التعذيب وتوليـــا الجسور يواجه كل منهما الآخر فى مكتب بالدر .

ذكر توليا بصوت هادئ :

– كلا ، اننى اراه للمرة الأولى .

اما فولوديا فقد ذكر :

– كلا ، انني لا اعرفه على الاطلاق .

ويتذكر ستاخوفيتش أن فتاة يحبها زيمنوخوف تسكن نيجنى الكسندروفسك . وبعد بضعة ايام يشهد مكتب بريوكنر زيمنوخوف الذى صار بعيد الشبه عن صورته الحقيقية ، وكلافا ذات العينين الحولاوين التى قالت بصوت يسمع بالكاد :

– كلا . . لقد كنا ندرس سويا ذات يوم . اما ومنذ بداية الحرب فلم اره ، حيث انتقلت للاقامة بالنجع .

اما زيمنوخوف فلم يرد البتة .

واودعت الشرطة كل مجموعة مستعمرة كراسنودون السجن المحلى للمستعمرة . ولم تكن ليادسكايا التى وشت بالمجموعـــة تعرف دور كل اعضائها ، لكنها كانت تعرف وعلى سبيل المثال ان ثمة علاقة تربط ما بين ليدا أندروسوفا وكوليا سومسكوى ، وكذلك بحب ليدا له .

وها هم يوسعون ضربا ليدا أندروسوفا ، تلك الفتاة الجميلة ذات الذقن المدبب والاشبه بالثعلبة بالسيور التى انتزعوها من البنادق ، يطلبون منها الحديث عن نشاط سومسكوى بالمنظمة . اما ليدا فقد راحت تحصى الضربات بصوت عال دون ان تفصح عن اى شىء .

وقد جرى ايداع الكبار مكانا منعزلا عن الصغار لتحاشى تأثيرهم عليهم ، وحرصوا على الا يحدث اى اتصال فيما بينهم .

بيد ان النهاية الحتمية سوف تاتى بـــلا ريب حتى لنشاط الجلادين الاجرامى الوحشى .

ولم يقتصر انكار امر الانتماء الى المنظمة والوشاية بالرفاق على كل البلاشفة الجسورين الصامدين وحسب ، بل وسلك نفس السبيل كل المعتقلين من اعضاء «الحرس الفتى» . وقد كان الصمود والذى لم يشهد التاريخ مثله لحوالى مائـــة من الفتيان والفتيات الذين كانوا أقرب فى أعمارهم الى الاطفال هو ما ميزهم بين غيرهم من الابرياء المعتقلين ، وبين أقاربهم وذويهم . وشرع الالمان فى محاولة للتخفيف من اوضاعهم يفرجون تدريجيا عن كل من اعتقل بمحض الصدفة ، وعن اولئك الاقارب الذين جرى ايداعهم السجن

كرهائن . وهكذا جرى الافراج عن اقارب كوشيفوى وتيولينين واروتيونيانتس وآخرين . وجرى كذلك الافراج عن ماريا أندرييفنا بورتس والصغيرة ليوسيا التى اخلى سبيلها قبلها بيوم واحد . ولم تتأكد ماريا أندرييفنا من أن احساسها الامومى لم يخدعها حين عرفت بان صغيرتها رهينة السجن الا بعد عودتها الى بيتها ، فيما ذرفت كثيرا من الدمع . والآن لم تبق فى ايدى الجلادين غير جماعة رجال العمل السرى الكبار برئاسة ليوتيكوف وباراكوف واعضاء منظمة «الحرس الفتى» .

وكان اقارب المعتقلين يحتشدون امام مبنى السجن منذ مطلع الصبح وحتى يحل المساء يتخاطفون أيادى رجال الشرطة والجنود الالمان الداخلين او الخارجين يطلبون منهم معرفة خبر او تسليم بعض المأكولات . وكانوا يفرقونهم ليحتشدوا من جديد ، وقد ضاعف عددهم المارة وكذلك الفضوليون . وكانت تأوهات وصياح المعذبين تتعالى فى بعض الاحيان عبر الجدران الخشبية ، مما جعلهم يلجأون الى تشغيل الحاكى بغية خنقها . وكانت المدينة تموج قلقة كما المحمومة ، فلم يكن ثمة انسان واحد لم يذهب الى مبنى السجن فى تلك الايام ، ومما اضطر بريوكنر الى اصدار تعليماته بالسماح بتسليم ما يبعث به الاهل الى المعتقلين . وهكذا استطاع فيليب بيتروفيتش وباراكوف معرفة ان لجنة المنطقة التى شكلاها موجودة وتعمل ، وتبحث عن السبل الرامية الى اخلاء سبيل «الكبار» و«الصغار» .

ومهما كانت حياة الشباب المتباينة مع نواميس الطبيعة ، فى غياهب اكثر سجون الاحتلال الالمانى وحشية ، فقد قبعوا بين جدرانه طيلة اسبوعين ، ليظهر نمطهم الفريد من حياة السجون الحافلة بمثل ذلك التعسف الرهيب والعبث بأجساد وأرواح الفتيان والفتيات ، وليروحوا يعيشون كل العلاقات الانسانية المفعمة بالحب والصداقة بل وبضروب التسلية .

واقتعدت ليوبا وسط الزنزانة تفك صرتها قائلة :

— هل تردن مربى أيتها الفتيات ؟ ياله من أحمق ! لقد دهس احمر الشفاه . وكيف العمل الآن بلا هارمونيكا ؟

وذكرت شوركا دوبروفينا :

— فلتنتظرى ، حتى يعزفون على أوتار ظهرك ، وعندئذ سوف تفقدين الرغبة فى نفخ الهارمونيكا .

— انك لا تعرفين ليوبكا ! هل تظنين اننى سوف أبكى او التزم الصمت حين يضربوننى ؟ اننى سوف امطرهم بوابل من الشتائم والصياح ... هكذا : «آه .. آآه .. آه . يا أيها الحمقى ! لماذا تضربون ليوبكا ؟» .

وانفجرت الفتيات فى الضحك .

وذكرت ليليا ايفانيخينا :

— حقا أيتها الفتيات . فلماذا نشكو هناك ؟ ومن يعيش اليوم حالا أفضل ؟ ان اهالينا يتعذبون اكثر . ان المساكين لا يعرفون اى شىء عنا . علاوة على ما قد يتحملونه مستقبلا .

ويبدو أن تلك الفتاة الشقراء ذات الوجه المستدير ، كانت قد تعودت على حياة معسكرات الاعتقال ، فلم تشك من شىء ، وراحت تهتم بكل الآخرين ، لتغدو الملاك الحارس لكل الزنزانة .

وعند المساء جرى استدعاء ليوبكا الى مكتب بريوكنر للتحقيق . ولم يكن ذلك الاستجواب عاديا ، حيث حضره كل رؤساء الشرطة . ولم يوسعوها ضربا ، بل وكانوا رقيقين معها غاية الرقة . اما ليوبكا التى تمالكت روعها تماما ، وجهلت ما يعرفونه عنها ، فقد راحت بحكم مخالطتها السابقة للالمان تمعن فى الدلال وتضحك معربة عن جهلها بم يريدونه . وقد لمحوا لها بأن من مصلحتها تسليمهم جهاز الارسال وكذلك الشفرة .

وقد كان ذلك مجرد افتراض لم يملكوا عليه الدليل ، الا انهم لم يكونوا يشكون فى ان هذه هى الحقيقة . فقد كان يكفيهم معرفة انتماء ليوبكا للمنظمة لادراك طابع تنقلاتها وتجوالها بالمدن وكثرة مخالطتها للالمان . وقد كانت المخابرات الالمانية تملك المعلومات التى تؤكد وجود عدة اجهزة ارسال تعمل سرا بالمقاطعة . كما وان الشاب الذى حضر استجواب ليوبكا فى شرطة فوروشيلوفجراد ، وكان أحد اصدقاء بوركا دوبينسكى ، صديقها اثناء دراسات اللاسلكى ، اكد كون ليوبكا قد حضرت تلك الدراسات السرية .

وابلغوا ليوبكا بضرورة التفكير فى الأمر وبأن الاعتراف من مصلحتها ، ثم اعادوها الى الزنزانة .

وكانت امها قد بعثت اليها بكيس عامر بالماكولات ، لتقتعد الارض وهى تضع الكيس بين ركبتيها ، تتناول منه بعض الخبز المجفف والبيض وتترنم فيما تهز راسها :

ليوبا ، يا عزيزتى . . ليوبا يا صغيرتى
انى لست قادرة على اطعامك

وذكرت تخاطب الشرطى الذى جاء اليها بالكيس :

— فلتبلغ ماما بان ليوبكا حية معافية ، وانها تطلب المزيد من حساء الكرنب .

ثم التفتت الى الفتيات تصيح :

— ايتها الفتيات . . . هيا !

وفى نهاية الامر جاؤوا بها الى فينبونج الذى اوسعها ضربا . بيد انها كانت عند وعدها . . فقد علا صوتها بوابل من الشتائم ليبلغ ليس فقط كل ارجاء السجن بل وكل الفضاء المحيط به :

— يا ايها الأحمق ! يا ايها الأحمق الاقرع . . يا ابن الكلب !

وقد كانت تلك ارق الشتائم التى كافات بها فينبونج .

اما وفى المرة التالية حين انهال فينبونج عليها فى حضرة بريوكتر وسوليكوفسكى بسوطه المجدول ، لم تستطع ليوبكا الامساك عن ذرف الدمع على الرغم من كل محاولاتها وعضها لشفتيها . وعادت الى الزنزانة لتنبطح على الارض فى صمت وقد اتكات بوجهها على يديها حتى لا يرى الآخرون وجهها .

وجلست فى زاوية الغرفة اوليانا التى ارتدت بلوزة فاتح اللون من الصوف أرسلها اليها ذووها ، والتى كانت تتناسب مع لون شعرها وعينيها الاسود . وقد راحت عيناها تتالقان فيما كانت تحكى للفتيات اللاتى احطن بها قصة «سر دير القديسة ماجدولين» . وها هى قد اعتادت على ان تقص عليهن يوميا حكاية ما ، تستانفها فى اليوم التالى . وهكذا استمعت الفتيات الى «ذبابة الخيل» و«بيت من الجليد» و«الملكة مارجو» .

وكان باب الزنزانة قد ترك مفتوحا بغرض التهوية ، بينما كان

احد رجال الشرطة الروس يجلس قبالته على مقعد خشبى صغير يصغى الى قصة «سر الدير» .

واستوت ليوبكا جالسة بعد ان نالت قسطا من الراحة ، فيما كانت تصغى دون اهتمام الى حكاية اوليانا ، ثم انتقلت بنظراتها الى مايا بيجليفانوفا التى افترشت الارض طيلة ايام كاملة . فقد ابلغتهم فيريكوفا ان مايا كانت ذات وقت سكرتيرة خلية الكومسومول بالمدرسة ، ليروحوا يسومونها العذاب اكثر من الآخرين . وعندما شاهدت ليوبكا مايا على هذا الحال ، راحت مشاعر الانتقام تتاجج فى اعماقها تبحث عن مخرج .

وبصوت خافت نادت صديقتها التى احاطت مع زميلاتها اوليانا :

— ساشا . . ساشا . ما عسى فتياننا قد التزموا الصمت .

— حقا . . .

— او يكونوا قد فقدوا شجاعتهم ؟

واجابت ساشا :

— انت تعلمين أنهم يتعرضون للتعذيب اكثر منا .

وتنهدت ساشا بوندريفا ، تلك الفتاة ذات الصوت والتصرفات الصبيانية ، والتى بدأت معالم انوثتها تتكشف فجاة فى السجن ، وبدت وكانما هى خجلة من كونها قد ظهرت متاخرة هكذا .

واعترى النشاط ليوبكا لتقول :

— هيا نبعث فيهم بعض النشاط . فلنرسم لهم الآن رسوما كاريكاتورية .

وتناولت ليوبكا فى سرعة ورقة وقلما نصفه أحمر ونصفه الآخر ازرق ، لترقد هى وساشا كل تواجه الاخرى ، تفكران همسا فى موضوع الكاريكاتير . ثم تعالت ضحكاتهما وراحت كل منهما تنتزع القلم من يد الاخرى ، ليصورا شابا نحيفا هزيلا ذا انف ضخم ، ومطتا راسه الى اسفل حتى تقوست قامته ولامس أنفه الارض . وقد رسمتا الشاب باللون الأزرق وتركتا وجهه ابيض ، اما انفه فقد لونتاه بالاحمر وكتبتا أسفل الصورة :

ما للحزن يا شباب يلم بكم
ما للحزن يظهر على انوفكم

وانتهت اوليانا من قصتها ، لتنهض الفتيات تفرد كل منهن قوامها ، وتنصرف الى مكانها فى ارجاء الزنزانة . وقد التفت البعض الى ليوبكا وساشا اللتين ناولتاهن الرسم الكاريكاتورى فراحت كل منهن تنظر اليه وتضحك .

– يا لهذه الموهبة المدفونة !

– وكيف لنا تسليم هذه الصورة اليهم ؟

وتناولت ليوبكا الورقة ثم توجهت نحو الباب ، لتنادى الشرطى فى نبرة مشوبة بالتحدى .

– دافيدوف ! فلتسلم الشباب صورتهم .

واجاب الشرطى فى تجهم :

– ومن اين لكن الورقة والقلم ؟ اقسم بأننى سوف أبلغ الرئيس حتى يقوم بتفتيشكن .

وكان شوركا ريباند يمر عبر الردهة ليقع نظره على ليوبكا الى جوار باب الزنزانة ، فيقول مداعبا اياها :

– هيه كيف الحال يا ليوبكـــا ؟ هـــل سوف نذهب الى فوروشيلوفجراد فى القريب العاجل ؟

– اننى لن اذهب معك ... كلا . . سوف اذهب ان سلمت الشباب تلك الصورة التى رسمناها لهم .

ونظر ريباند الى الرسم الكاريكاتورى لترتسم الابتسامة على وجهه ناتئ العظام ، ثم دسه فى يد دافيدوف قائلا فى عدم اكتراث :

– سلمه . . ليس ثمة شىء يذكر .

ثم واصل طريقه .

وقام دافيدوف الذى كان يعرف العلاقة القريبة التى تربط بين الرئيس وريباند ، وشأن كل رجال الشرطة الذين يتملقونه ، يفتح فى صمت باب زنزانة الصبية ليرمى الى داخلها بالورقة . وتعالت اصوات ضحكات من هناك أعقبها بعد برهة قصيرة طرق للجدار .

– لقد خيل اليكن ايتها الفتيات . ان سكان منزلنا يسلكون السلوك القويم ... انا فاسيا بونداريف . . تحياتى الى شقيقتى العزيزة .

وتناولت ساشا اناء زجاجيا كانت الأم بعثت اليها فيه حليبا ، وهرولت الى الجدار تطرقه :

– فاسيا . . هل تسمعنى ؟

ثم وضعت قاع الاناء على الجدار ، لتدنو بشفتيها من حوافيه ، وتترنم باغنية «سوليكو» التى كان يحبها شقيقها .

لكنها ما كادت تشرع بالغناء حتى تحولت كافة الكلمات الى تذكرة للماضى مما جعل صوتها يختنق . ودنت ليليا منها تمسح على يدها وتقول بصوتها المفعم هدوء وطيبة :

– لا داعى . . لا داعى . فلتهدئى روعك ...

وذكرت ساشا فيما تضحك بعصبية :

– اننى أكره شخصيا انسياب تلك القطرات المالحة عـــلى الخدود .

وتعالى صوت سوليكوفسكى الاجش ينادى بالردهة :

– ستاخوفيتش !

وعلقت أوليانا على ذلك قائلة :

– ها هى البداية !

وصفق الشرطى الباب مغلقا اياه بالمفتاح .

وذكرت ليليا :

– من الافضل الا نعيرهم اسماعنا . انك تعلمين يا اوليانا ما احبه . فلتنشدى قصيدة «الشيطان الحزين» كما فعلت آنذاك . هل تذكرين ؟

وبدأت أوليانا فيما ترفع يدها :

من هم الناس . . ما هى الاقدار والاعمال
لقد مضت . . كما سوف تمضى .
والامل قائم . . والقضاء العادل على الابواب
قادم ليغفر . . وقادم ايضا ليدين !
ولكن حزنى سوف يبقى هنا . .
ولن تحين له شانى ، نهاية
يبقى لينساب كما الافعى تارة ،
ليضج ويضطرم كما اللهيب اخرى ،
وليجثم ثقيلا كما الصخر ثالثة . .
بيد ان قبر الاشواق بلا رجاء
سوف يظل قائما بلا فناء . .

وكم ترددت تلك الأبيات فى اعماق الفتيات وكأنمـــا تود

اعلانهن : «انها حولكن وحول اشواقكن التى لم تولد بعد واحلامكن التى وئدت» .

وانشدت اوليانا كذلك تلك الابيات التى جرى الحديث فيها عن الملاك الذى حمل روح تمارا الآثمة . وذكرت تونيا ايفانيخينا :

– هل رايتن ! لقد انقذها الملاك على الرغم من كل شيء . وهذا شيء طيب .

وذكرت اوليانا وقد تألقت عيناها فى حدة كما كانت منذ برهة :

– كلا . . كلا ! اننى افضل الرحيل مع الشيطان . فلقد ثار حتى ضد العالم كله .

وذكرت ليوبكا فجأة فيما تشع عيناها رغبة :

– وماذا فى ذلك ! ليس ثمة من سوف يستطيع قهر شعبنا ! هل يوجد مثل هذا الشعب فى العالم اجمع ؟ من ذا الذى يتمتع بمثل هذه الروح الطيبة مثل شعبنا ؟ من كان يمكنه تحمل كل هذا ؟ قد نلقى حتفنا ، لكن ذلك امر لا يرهبنى . نعم ان ذلك امر لا ارهبه على الأطلاق .

واضافت تقول بنبرتها القوية التى دفعت الرجفة الى جسدها :

– اننى اود . . اننى اريد تسوية حسابى معهم . . مع هؤلاء ! هل لنا ان نغنى ! اعتقد ان شعبنا هناك ، فى الارض الحرة قد وضع كثيرا من الاغانى الجديدة طيلة تلك الفترة ! لقد مضى علينا ستة أشهر نرزح تحت نير الالمان ، وكأننا كنا حبيسى القبور . . لا اغانى ولا ضحك بل تأوهات ودماء ودموع .

وصاحت ساشا بونداريفا تقول فيما تشيح بيدها الرقيقة السمراء :

– اننا سوف نغنى الآن وليذهب هؤلاء الى أسفل السافلين . . .

ها هم الجنود والقوات
تتقدم عبر الاودية والروابى . .

ونهضت الفتيات ليحطن بساشا يرددن معا تلك الاغنية التى انسابت فى كل ارجاء السجن . وتعالت الى اسماعهن اصوات الشباب فى الزنزانة المجاورة تترنم بنفس الاغنية .

وانفرج باب الزنزانة فى جلبة ليهمس الشرطى الذى علت امارات الغضب والخوف وجهه ، فى فحيح عال :

– هل اصابتكن لوثة ! فلتلتزمن الصمت .

لن تخمد اليوم جذوة المجد
لن تخبو ابد الدهر . .
وسوف يجيء الفدائيون
الى المدن محررين

وصفق الشرطى الباب ليهرول سريعا .

وتعالى بعد برهة قصيرة دبيب خطوات ثقيلة وظهر عند الباب الضابط بريوكنر بكرشه المتهدل تغطى وجهه الاصفر الداكن الاكياس الدهنية ، فيما استقرت ثنايا رقبته السميكة على ياقة سترته ، ممسكا بسيجار مشتعل فى يده المرتجفة :

– ثبات ! الصمت !

ندا هذان الامران عنه بالالمانية فى قوة تصم الآذان وكأنما الانفجار .

كما النيران الداعية . . .
وليالى سباسك . . ليالى الهجوم
ونهار فالاتشايف . . نهار الهجوم .

وهكذا لم تكف الفتيات عن الغناء .

واقتحم رجال وجنود الشرطة الزنزانات . وشهدت زنزانة الشباب عراكا ، وتراجعت الفتيات الى جدران زنزانتهن .

اما ليوبكا التى ظلت تقف وحدها وسط الزنزانة فقد وضعت يديها على جانبى خصرها ، ثم تقدمت مباشرة نحو بريوكنر تدق الارض بكعبيها فى قوة وقد توقدت عيناها اللتان راحتا تحدقان فى لا شيء .

– اوه . . يا ابنة الطاعون !

قالها بريوكنر وقد غص حلقه ، ثم امسك بيده الكبيرة ليوبكا ليلوى ذراعها ويقودها الى خارج الزنزانة .

وكشرت ليوبكا عن اسنانها ومالت فى سرعة براسها لتغرز اسنانها فى يده الكبيرة ذات الجلد الاصفر .

– يا للعنة !
زار بها بريوكنر وراح يضرب رأسها بقبضة يده الاخرى بينما لم تترك ليوبكا يده .
وانتزع الجنود ليوبكا بصعوبة بالغة بعيدا وراحوا بمساعدة بريوكنر نفسه الذى اخذ يلوح بقبضته فى الهواء ، يجرجرونها عبر الردهة .
وامسك الجنود بها لينزل بريوكنر وصف الضابط فينبونج بسوطيهما المجدولين من الاسلاك الكهربائية على جسدها الذى غطته آثار الضربات التى لم تكن قد التامت بعد . وعضت ليوبكا على شفتيها دون ان تند بشىء . وفجأة ترامى الى أذنيها صوت محركات يحوم فوق الزنزانة . وقد عرفت ماهية ذلك الصوت ليتأجج قلبها فرحة جعلتها تصيح :
– يا اولاد الكلاب ! هيه ! اضربوا . . اضربوا . فهاكم قواتنا تسمعكم صوتها .
لقد اقتحم الزنزانة أزيز محركات الطائرات ، ليتوقف بريوكنر وفينبونج عن تعذيب ليوبكا . وسارع احد ما باطفاء الانوار . كما وترك الجنود ليوبكا التى راحت تضرب بكعبيها فى ضراوة حيث لم تكن قادرة على التحرك فوق الاريكة المضرجة بالدماء ، بينما يعلو صوتها بالسباب :
– آه ايها الجبناء ! يا ايها الملاعين ! لقد حانت ساعتكم يا أسفل السافلين !
وهزت جدران السجن الخشبية موجات هدير الطائرات التى راحت تقصف المدينة .
ومنذ ذلك اليوم شهدت حياة اعضاء «الحرس الفتى» داخل السجن ذلك الانعطاف الذى جعلهم لا ينكرون انتماءهم للمنظمة وينخرطون فى النضال صراحة ضد جلاديهم . كانوا يغلظون القول لهم ، يسخرون منهم ، يتغنون بالاناشيد الثورية داخل السجن يرقصون ، ويضجون حين يقتادوا احدهم الى التعذيب .
وقد اصبح العذاب الذى راحوا يكيلونه لهم اليوم قاسيا لا يتخيله عقل بشرى ، ولا يتصوره الضمير والوعى الانسانى .

الفصل الحادى والستون

قاد اوليج وهو اكثر الآخرين اطلاعا على التحركات بالجبهة ، المجموعة فى اتجاه الشمال تقريبا ، وحتى يستطيع فى مكان ما بمنطقة جوندوروفسكايا عبور الدونيتس الشمالى الذى تجمدت مياهه والوصول الى محطة جلوبوكايا على خطة السكة الحديدية فورونيج – روستوف .
وراحت المجموعة تسير الليل باكمله ودون ان يبارح مخيلتها الرفاق والاقارب ودون ان ينبس احدهم ببنت شفة .
وعند الفجر كانت المجموعة قد عبرت الدونيتس بعد ان التفت حول محطة جوندوروفسكايا دون عقبات ومضت تقطع الطريق العسكرى الممهد قاصدة نجع دوبوفى بحثا عن مسكن ما يقيها شر البرد والجوع .
وكانت الرياح قد هدات وبزغت الشمس فى الافق تغمر الارض باشعتها الدافئة ، بينما كانت البرارى بوهادها وتلالها ناصعة البياض . اما ثلوج الطريق الممهد فقد بدات فى ذوبانها ، فيما ظهرت اطراف القنوات ، وتعالى البخار وفاحت رائحة الارض .
وكانت انظار الرفاق تقع فى طريقهم احيانا ، وهناك على الطرق البعيدة والجانبية احيانا اخرى ، ولا سيما حين يعتلون التلال ، على فلول وحدات المشاة الالمانية والمدفعية وقوات الخدمات والامدادات التى نجت من حلقة الحصار العظيمة عند ستالينجراد ، والتى جرى تحطيمها فى معارك اخرى . لقد كانوا المانا لا يشبهون اولئك الذين كانوا يقطعون تلك الطرق على متن آلاف اللوريات منذ خمسة اشهر ونصف . لقد كانوا يسيرون فى معاطفهم الرثة يلفون رؤوسهم واقدامهم كيفما اتفق لهم اتقاء للبرد ، غير حليقى الذقون تغطى الاوساخ وجوههم واياديهم السمراء ، ليخيل للمرء انهم خارجون على التو من احدى مداخن الافران .
وذات مرة التقى الشباب فى طريقهم بمجموعة من الجنود الايطاليين تتخذ طريقها من الشرق نحو الغرب ، تسير غالبية افرادها بلا سلاح ، ومن يحمله منها كان يضعه متدليا من كتفه وقد تدلت فوهته الى الارض كما العصا . وقد كان بينهم ضابط يرتدى

سترته الصيفية يغطى راسه بقبعة اشبه بالطاقية مالت جانبا ، يلفها بسروال طفل ، اعتلى جحشا صغيرا بلا سرج ، يكاد يحرث الارض بساقيه اللتين تدلتا على جانبى الجحش . وكم كان منظره مضحكا ، يرمز الى اشياء كثيرة ، ذلك الضابط بمخاطه الذى تجمد تحت انفه ، ساكن البلاد الحارة فى ثلوج روسيا ، مما جعل الشباب يلتفتون اليه ويضحكون .

كان كثير من المواطنين العزل يقطعون الطريق بعد ان حالت الحرب دونهم ودون منازلهم واوطانهم . ولم يعر احد انتباهه الى شابين وثلاث فتيات كانوا يسيرون فى نفس الطريق الذى غطته الثلوج يحملون متاعهم .

وكان ذلك امرا يرفع من معنوياتهم ، وكانت جسارة الشباب التى لا تدرك ابعاد الخطر تجعلهم يتصورون انفسهم فى الناحية الاخرى من الجبهة .

وحرك السير الدماء فى اطراف نينا التى ارتدت حذاء شتويا طويلا وغطاء راس تدلت من تحته خصلات شعرها الكث على ياقة معطفها الدافئ . ولم يحول اوليج نظره عنها ، ليبتسم كل منهما للآخر حين التقت عيناهما . اما سيريوجكا وفاليا فقد شغلهما اللعب بالثلوج وراح كل منهما يحاول اللحاق بالآخر ليتركا الركب خلفهما بمسافة كبيرة . اما اوليا اكبر المجموعة سنا فقد كانت ترتدى ملابس داكنة اللون ، هادئة صموتة تنظر اليهم كالام المتسامحة . وقضى افراد هذه المجموعة فى نجع دوبوفى بعض اليوم يتساءلون عن اخبار الجبهة . ونصحهم احد العجزة - انسان قعيد فقد يده من المؤكد انه كان من «المحاصرين» ، بمواصلة السير شمالا الى قرية دياتشكينو .

وفى تلك القرية وفى العزب المجاورة لها قضت المجموعة بضعة ايام وسط وحدات المؤخرة الالمانية المختلطة والناس الذين اختبأوا فى اقبية المنازل . وها هم على مقربة مباشرة من خط الجبهة التى تعالى دوى مدافعها ، وتوهجت ليلا نيرانها . كانت الطائرات تقصف مؤخرة الالمان ، ويبدو ان الجبهة اخذت تتراجع تحت ضغط القوات السوفييتية ، حيث ان القوات الالمانية راحت تتقهقر فى طريقها الى الغرب .

كان كل جندى عابر ينظر اليهم شزرا ، بينما خاف الناس السماح لهم بالدخول دون ان يتحققوا من شخصياتهم وكان خطيرا ليس فقط المرور عبر الجبهة بل والبقاء فى مكانهم ذلك . وفى احد الاكواخ ، تركتهم صاحبة المسكن التى كانت تنظر اليهم بغير مودة ، وارتدت ملابسها وخرجت ليلا . وايقظ اوليج الذى لم يكن نائما رفاقه ليغادروا المسكن الى البرارى . وضايقتهم الرياح التى كانت تهب منذ الامس ، ولم يكن هناك مكان يلتجئون اليه . ولم يسبق لهم ابدا ان راودهم الاحساس بانهم عاجزون منسيون كما شعروا فى ذلك الحين . وحينئذ شرعت اوليا وهى اكبرهم سنا ، تقول دون ان تنظر اليهم ، وتحجب الرياح بكمها عن خدها :

- لا تغضبوا مما سوف اقوله ! اننا لن نتمكن من عبور الجبهة ونحن مجموعة هكذا . ومن المؤكد انه من الصعب جدا على الفتاة او المراة عبور الجبهة - وهنا نظرت الى اوليج وسيريوجا فى انتظار اعتراضهما ، بيد انهما التزما الصمت حيث كان ذلك حقيقة واقعة . واستطردت اوليا تقول فى حزم :

- اننا يجب علينا نحن الفتيات اعفاء رفاقنا الصبية ! يمكن لنينا ان تعترض ، بيد ان امك قد اوكلت الىّ الاشراف عليك . اننا سوف نذهب الى قرية فوكينو ، حيث تعيش صديقتى منذ ايام المعهد ، والتى سوف تأوينا وعندها ننتظر قواتنا .

ولاول مرة لم يجد اوليج ما يقوله ، بينما التزم سيريوجكا وفاليا الصمت .

وقالت نينا وهى على وشك البكاء :

- لماذا اعترض ؟ لا . . اننى لن اعترض !

وهكذا وقف الخمسة صامتين وقد انتابتهم الحسرة ، لا يملكون جراة اتخاذ الخطوة الاخيرة . وعندئذ قال اوليج :

- ان اوليا على حق . لماذا تعريض الفتيات للمخاطرة ، اذا كان لديهن حل آخر اكثر بساطة . كما انه سوف يكون الامر لنا اكثر سهولة . هذا حقا .

واستطرد يقول وقد اصابته اللعثمة :

- اذ . . ذ . . ذ . . هين . . !

وعانق اوليا الكبيرة . ثم اقترب من نينا ، ليدير الجميع لهما

ظهورهم . واحتضنته نينا بعنف وراحت تغمر وجهه بقبلاتها . واحتضنها اوليج وقبلها في شفتيها ، وراح يهمس في اذنيها بسعادة بالغة :

– هـ . . هل تذكرين يوم رحت اتعقبك ا . . ا . . اطلب منك قبلة في خدك . . . هـ . . هل تذكرين كيف كنت اقـول لك . .» في خدك . . فقط . . ف . . فقط في خدك !» وهاقد حانت هذه اللحظة لنتبادل القبلات . . هل ت . . تذكرين ؟

وهمست تجيبه :

– انني اذكر . . اذكر كل شيء ، بل اذكر اكثر مما تتصوره . . انني سوف اظل اذكرك . . انني سوف انتظرك .

وقبلها مرة اخرى ثم تركها .

واذ ابتعدت عنهما اوليا ونينا لمسافة قليلة ناداهما ثم سرعان ما اختفيا عن الانظار بعيدا ، لا اثر لهما ولا صوت سوى صوت الرياح الثلجية تمسح الجليد .

وسأل اوليج فاليا وسيريوجكا :

– وماذا سوف تفعلان ؟

واجاب سيريوجكا بلهجة تنم عن اسف :

– اننا سوف نحاول سوية رغما عن كل شيء ! سوف نسير بمحاذاة الجبهة ، ربما نجد مكانا نتسلل منه . وانت ماذا سوف تفعل ؟

وقال اوليج :

– انني سوف احاول ذلك هنا في ذلك المكان ، حيث اعرف هذه المنطقة على كل حال .

وخيمت لحظة صمت كئيب عليهم مرة اخرى .

واذ ادرك اوليج كل ما يجول بخاطر سيريوجكا قال يخاطبه :

– يا صديقي العزيز ، لا تخجل . . ولا تيأس . . هيه . . ؟

واحتضنت فاليا اوليج بعنف . اما سيريوجكا الذي لم يكن يحب الرقة ، مد يده يصافح اوليج ، ثم ربت بكفه على كتفه ، وتركه ومضى . واسرعت فاليا الخطى تلحق به .

كان ذلك في السابع من يناير .

بيد انهما لم يستطيعا ايضا عبور الجبهة سوية . فقد راحا

يسيران من قرية لاخرى حتى وصلا الى كامينسك . وكانا يقولان انهما اشقاء تخلفا عن الاسرة في منطقة المعارك في الدون الاوسط .

وكان الناس يشفقون عليهما ، ويفرشون لهما على الارض كي يقضيا الليل بينما كانا ينامان متعانقين كاشقاء في محنة ليواصلا المضي في طريقهما عند طلوع الصباح . وكانت فاليا تطلب عبور الجبهة من اى منطقة ، الا ان سيريوجكا كان واقعي التفكير ، راح يرفض ذلك .

وفي النهاية ادركت فاليا ان سيريوجكا لن يحاول عبور الجبهة طالما ترافقه . فقد كان قادرا على عبور الجبهة من اية منطقة ، الا انه كان يخاف عليها . وحينئذ قالت له :

– انني استطيع الاقامة في اى مكان هنا في القرية ، والانتظار حتى يمر خط الجبهة بهذه المنطقة .

بيد انه لم يكن يريد حتى سماع ذلك .

ومع ذلك فقد استطاعت ان تخدعه . لقد كانت تعطيه زمام القيادة منذ التعارف ، وقد تجلى ذلك بصفة خاصة حين بقيا وحدهما . لكنها كانت تاخذه منه فيما يخص امورهما الشخصية ، ولم يكن يلاحظ ذلك ويسير وفق ما تهوى . وهذا ما حدث حين قالت له انه يمكنه الوصول الى احدى وحدات الجيش الاحمر يخبرها بان ثمة شباب يلقون حتفهم في كراسنودون ، ومرافقتها لانقاذ هؤلاء الشباب ، وبالتالي انقاذها . واستطردت تقول :

– انني سوف انتظرك على مقربة من ذلك المكان .

وادرك التعب فاليا فنامت نوما عميقا ، وحين استيقظت قبيل الفجر لم تجد لسيريوجكا اثرا . لقد اشفق عليها ولم يوقظها كي يتوادعا . . لتبقى وحيدة .

سوف تظل يلينا نيكولايفنا تذكر ابد الدهر ليلة الثاني عشر من يناير قارسة البرودة . كان كل اعضاء الاسرة قد خلدوا الى مخادعهم حين طرق النافذة طرقا خفيفا شخص ما ادركت يلينـا نيكولايفنا هويته على الفور .

وسقط اوليج بخدين قد جمدهما البرد الى الكرسي من تأثير

التعب ودون ان يخلع غطاء راسه . واستيقظ الجميع ، واشعلت الجدة المصباح ووضعته تحت المنضدة حتى لا يتسلل الضوء الى الخارج : فقد كانت الشرطة تزورهم عدة مرات فى اليوم الواحد .

وجلس اوليج تكشفه اشعة المصباح المنبعثة من اسفل ، يرتدى غطاء الراس الشتوى وقد كساه الصقيع ، وبدت على عظام وجنتيه بقع سوداء . لقد غدا نحيفا عن ذى قبل .

لقد حاول مرارا عبور الجبهة ، الا انه لم يكن يعرف النظام العصرى للنيران وتمركز الوحدات والجماعات فى الدفاع . كما كان كبير الحجم يرتدى ملابس داكنة تجعله ملحوظا لو حاول الزحف على الثلوج . كما انه لم يكف ابدا عن التفكير فى رفاقه الذين تركهم فى المدينة . وفى نهاية الامر اقنع نفسه بامكانية التسلل الى المدينة ، بعد برهة من الوقت .

وتساءل :

– ماذا حل بزيمنوخوف ؟

واجابت الام وهى تتحاشى النظر اليه :

– نفس الشئ . .

وخلعت الام عنه غطاء راسه وسترته . ولم يكن هناك ما يمكن تسخين الشاى عليه . كما وراح الاقارب يجولون بانظارهم خشية ان يدركه رجال الشرطة بينهم .

وتساءل عن احوال اوليانا ، الا ان الجميع التزموا الصمت وحتى اجابت الام بصوت خافت :

– لقد قبضوا على اوليانا !

– وماذا عن لوبا ؟

– قبضوا ايضا عليها .

وتغيرت ملامح وجهه ، وصمت قليلا ثم تساءل :

– وماذا عن الاحوال فى كراسنودون ؟

وكان من الصعب تعذيبه على مراحل ، ولذا تحدث الخال كوليا يقول :

– من الاسهل ذكر اسماء من لم يقبض عليهم بعد . .

وراح يتحدث عن القبض على مجموعة كبيرة من عمال الورش المركزية وعلى ليوتيكوف وباراكوف . والآن ليس هناك فى

كراسنودون من يشك فى ان هذين الرجلين كانا من رجالنا الذين جرى الابقاء عليهم فى مؤخرة الالمان للقيام بواجبات خاصة .

ونكس اوليج راسه ولم يسال عن شىء اكثر من ذلك .

واذ تشاور الحاضرون فى امر اوليج ، قرروا ارساله الى اقارب مارينا فى القرية فورا ، وقبل ان ينبلج الصباح . واخذ الخال كوليا على عاتقه تنفيذ هذه المهمة .

وراحا يسيران عبر الطريق المؤدى الى روفينكى ، عبر البرارى القفرة المكشوفة ، والثلوج الغارقة فى ضوء النجوم الازرق الباهت .

وبالرغم من ان اوليج لم ياخذ قسطه من الراحة بعد ايام الترحال الطويلة وكثيرا ما دون طعام او شراب ، وبعد كل ما سمعه من اخبار سيئة بالمنزل ، كان ما يزال ممسكا بزمام نفسه ، وراح يسال الخال كوليا حول كل تفاصيل سقوط «الحرس الفتى» والقبض على ليوتيكوف وباراكوف . كما اخذ يقص عليه مغامراته .

ولم يلحظا نهاية المنحدر التدريجى وكيف بلغا اعلى نقطة فيه وراحا يهبطان التل على مسافة خمسين مترا تقريبا من القرية الكبيرة التى احتواها الظلام .

وقال الخال كوليا :

– علينا فى البداية الالتفاف حول القرية .

وتركا الطريق وتحركا تجاه الطرف الشمالى للقرية على مسافة خمسين مترا تقريبا بعيدا عنها – كانت الثلوج غزيرة فى الاماكن التى تكومت فيها فقط .

وعبرا احد الطرق الجانبية المؤدية الى القرية فى الوقت الذى خرج فيه لملاقاتهما بعض الاشباح . وكان هؤلاء يهرولون ويصيحون بالالمانية باصوات مبحوحة .

وانتحى كل من الخال كوليا واوليج جانبا دون اتفاق مسبق .

وكان اوليج يشعر بالانهاك الشديد وعدم القدرة على مواصلة الجرى ، بينما يوجد من يلاحقه . ولذا استجمع آخر قواه الا ان قدمه زلت فهوى الى الارض . وانكبوا عليه وقيدوا يديه الى خلف ظهره . اما الخال كوليا فقد راح يلاحقه اثنان يطلقان مسدسيهما فى اثره . وبعد برهة من الوقت رجع هذان الاثنان وهما يسبان ويسخران ، حيث لم يستطيعا الامساك به .

واقتيد اوليج الى منزل كبير ، من المؤكد انه كان مقـــرا للمجلس المحلى بينما يشغله اليوم مكتب العمدة . وكان هناك بعض رجال الشرطة يرقدون على الارض يفترشون القش . وادرك اوليج انه قد اقتيد الى مركز الشرطة . وكان هناك على المائدة جهاز تليفون ميدانى يغطيه غلاف داكن اللون .

ورفع العريف شريط المصباح وراح يفتش اوليج وهو يرغى ويزبد . واذ لم يجد معه ما يدعو الى الريبة ، نزع سترته وراح يتحسسها شبرا شبرا . راح يفعل ذلك باصابعه الكبيرة العريضة المفلطحة عند الاظافر ، وبشكل ماهر محنك . وهكذا وصلت هذه الاصابع الى غلاف بطاقة الكومسومول . وادرك اوليج ان كل شىء قد انتهى .

وراح العريف يصيح فى سماعة التليفون بصوت مبحوح بينما غطى بيده بطاقة الكومسومول واستمارات بطاقات الكومسومول المؤقتة الموضوعة على المائدة . ثم اعاد السماعة الى موضعها وادلى بشىء ما الى الجندى الذى اقتاد اوليج .

وفقط فى مساء اليوم التالى وصل اوليج برفقة العريف والجندى الذى حل محل الحوذى الى مقر الشرطة فى مدينة روفينكى ، ليتسلمه هناك الجندى المناوب .

وجلس اوليج وحيدا فى الزنزانة يحتضن ركبتيه . كان وجهه ، اذا ما تيسر لك رؤيته ، يتسم بامارات الهدوء والصرامة . لم تفارقه الافكار والخواطر حول نينا وامه وحول الطريقة التى سقط بها فى غباء ، طوال الفترة التى امضاها فى مكتب العمدة والتى قطع فيها الطريق الى المدينة . هذا بينما فارقته كل هذه الافكار الآن . ولم يكن يفكر ايضا فيما ينتظره ، حيث كان يدرك ذلك . لقد كان هادئا صارما لانه كان يضع خطا تحت كل حياته غير الطويلة .

«فليكن عمرى ستة عشر عاما . ليس ذنبى ان تغدو حياتى قصيرة هكذا ... ماذا يمكن ان يرهبنى ؟ الموت ؟ التعذيب ؟ اننى قادر على تحمل ذلك ... اننى بطبيعة الحال اود ان اموت بحيث تظل ذكراى عالقة بقلوب الناس . لكن فلاموت مغمورا لا يعرفنى احد ... وماذا فى ذلك .. فهكذا اليوم تموت الملايين مفعمة بالقوة وحب الحياة . فيم يمكن تانيب نفسى ؟ اننى لم اكذب ولم ابحث

عن طريق سهل للحياة . ربما كنت هوائى الطبع بعض الاحيان ضعيفا لطيبة قلبى الزائدة عن الحد .. اوه يا عزيزى اوليج .. ان ذلك ليس ذنبا كبيرا لامرئ فى السادسة عشرة من عمره . اننى لم اذق حتى طعم كل السعادة التى كانت متاحة امامى . ورغما عن كل ذلك فاننى سعيد . لاننى لم اتزلف الى احد كالدود .. لقد ناضلت وكانت ماما تنادينى دائما .. «يا ايها النسر» .. اننى سوف اكون موضع ثقتها وثقة الرفاق الآخرين . وليكن موتى نقيا نقاء حياتى – اننى لن اشعر بالحرج فى ان اقول لك ذلك .. انك سوف تموت ميتة مشرفة ، يا عزيزى اوليج ...» .

وانبسطت اسارير وجهه ، وافترش الارض الزلقة المتجمـــدة ساندا راسه الى غطائه الشتوى ليغط فى نوم عميق . وفتح عينيه ليجد ان هناك من يقف الى راسه . فقد حل الصباح .

وكان ذلك عجوز ربعة ذو انف ضخم وعينين كبيرتين دامعتين يغطى النمش وجهه يرتدى معطفا قوزاقيا وكابا بولنديا يكاد يغطى راسه الكبيرة ذات الشعر الاحمر ، يقف الى الباب يكاد يسده .

وجلس اوليج يحدق فيه فى دهشة :

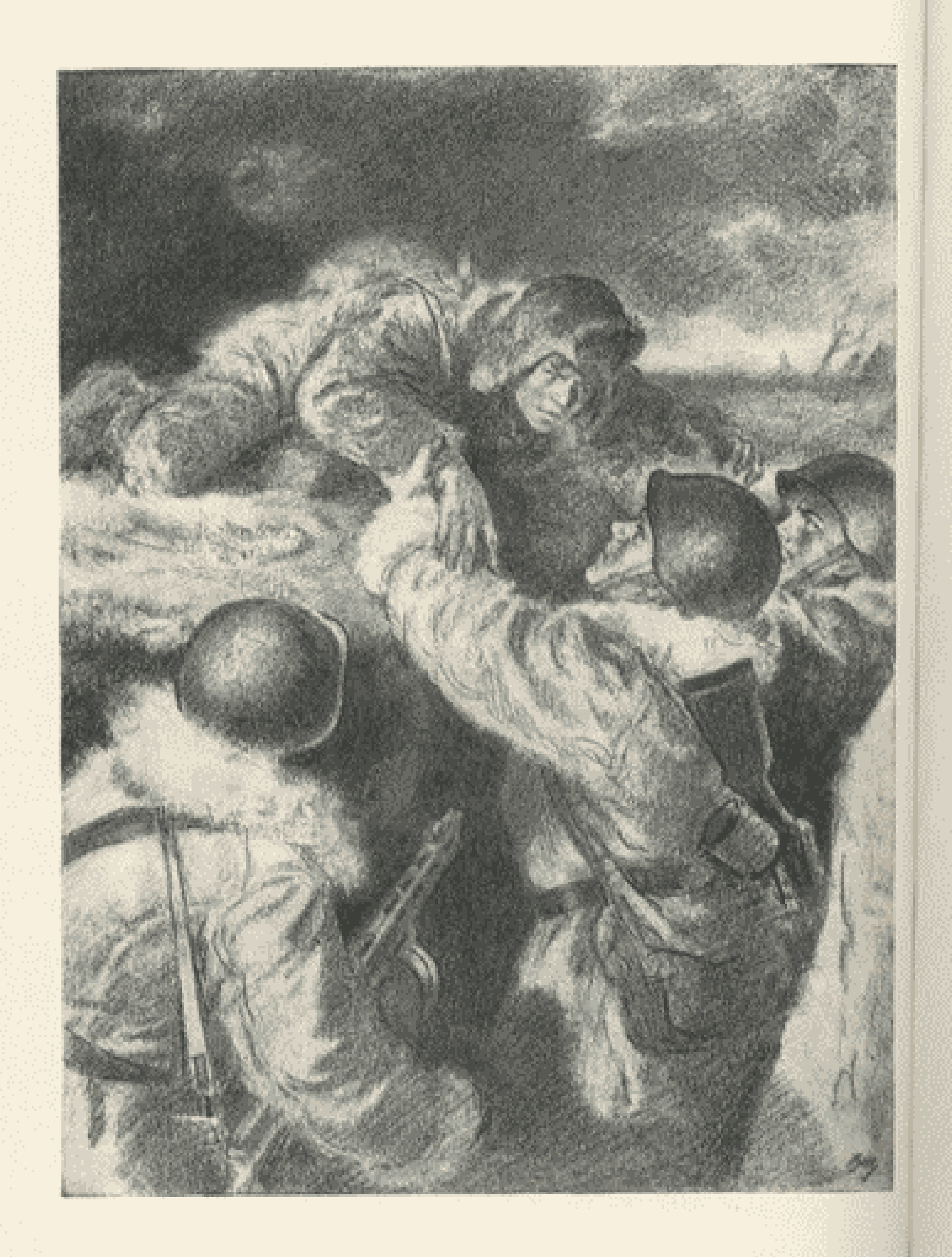
– لقد كنت اظن كوشيفوى على خلاف ما ارى .. وها هو الآن ماثلا امامى .. ثعبان .. حيـــة رقطاء ! من المؤسف ان الجستابو هو الذى سوف يتولى امرك ، والا كنت قد فعلت ذلك هنا بنفسى . اننى لا اضرب الا فى الاحوال الطارئة . هاك تمثل قبالتى .. هيه ! ان شهرتك قد جابت الافاق شان دوبروفسكى . ولا ريب فى ان تكون قد قرات رواية بوشكين هذه . يا ايهـــا الثعبان ! – ومال العجوز نحو اوليج وزر احدى عينيه الدامعتين فيما تعالت منه رائحة الفودكا ، ليهمس فى غموض : – لعلك تفكر فى السبب الذى دعانى الى زيارتك هكذا مبكرا . – وغمز بعينيه بما ينم عن ثقة وابهام : – اننى مسؤول اليوم عن ترحيل مجموعة الى هناك ... – ودار باصبعه ثم رفعه مشيرا الى السماء – وقد جئت بحلاق ، حيث يقص لهم شعورهم دائما قبل تنفيذ ذلك – ثم فرد قوامه وصاح فيما يرفع ابهامه عاليا – بشكل مهذب ! اما انت فسوف يجرى ارسالك الى الجستابو . ولا احسدك حظـــك . اوريفوار !

ورفع اصبعه المنتفخ ليشير به الى مقدمة كابه محييا وخرج ليصفق احد الجنود فى اثره باب الزنزانة .
وعندما نقل اوليج الى العنبر العام ، حيث كان هناك اناس آخرون من اقصى الأقاصى لا يعرفهم ، عرف ان من كان يخاطبه هو اورلوف رئيس شرطة روفنكى ، واحد ضباط عصابة دينيكين (ايام الحرب الاهلية) سفاح رهيب يجيد فن التعذيب .
وبعد ساعتين او ثلاث اقتيد لاستجوابه ، وقد قام بذلك رجال الجستابو وحدهم حتى المترجم كان عريفا المانيا .
كانت الحجرة التى تم فيها استجوابه غاصة بضباط الشرطة الالمان الذين راحوا فى حب استطلاع بالغ ودهشة يحدقون النظر فيه ، بل وكان بعضهم يقف امامه باعين مفتوحة دهشة كما لو كانوا ينظرون الى وجه انسان غاية فى الاهمية . ولم يكن ادراكه الطفولى فى كثير من الاحيان يسمح له بتصور الى اى مدى ذاعت شهرة «الحرس الفتى» ، وكيف تحول هو الى شخصية اسطورية بفضل اقوال ستاخوفيتش واولئك الذين لم يستطيعوا فترة طويلة القبض عليه . وكان يستجوبه المانى لين البنية كما لو كان بدون عظام ، ذو وجه اضفت عليه منظرا خارقا للعادة ، نصف الدوائر البنفسجية تحت عينيه القابعتين اسفل جفنيه السمراوين ، وعظام وجنتيه الملوية لتمتزج بخديه النحيفين ، بحيث بدا انه من غير الممكن ان يصادف المرء مثل هذا الشخص الا فى كابوس يزوره ليلا .
وردا على طلب حول ضرورة التحدث عن كل نشاط منظمة «الحرس الفتى» والارشاد عن كل اعضائها والمتعاملين معها اجاب اوليج :
— لقد كنت اشرف على «الحرس الفتى» وحدى ، واننى مسئول عن كل ما فعله اعضاء هذه الجماعة بناء على تعليماتى . . . اننى يمكننى الحديث عن نشاط الحرس الفتى اذا ما حوكمت محاكمة علنية . بيد انه من غير المجدى للجماعة الحديث عن نشاطها امام اولئك الذين يقتلون الابرياء — وصمت بعض الوقت ورمى الضباط بنظرة تتسم بالهدوء ثم استطرد يقول : نعم . . انكم اموات ايضا . .
ورغما عن ذلك تساءل الالمانى ، الذى يشبه الاموات حقا ، عن

شىء ما ليجيبه اوليج قائلا :
— ان كلماتى هذه ، هى آخر ما عندى — وهبط باعدابه .
القى اوليج بعد ذلك فى غياهب سجون الجستابو ، لتبدأ حياة لا يقدر انسان لا على تحملها بل ولا يستطيع تصورها اى امرئ ذى روح .
بيد ان اوليج تحمل هذه الحياة حتى نهاية الشهر ، ولئن كانوا لم يقتلوه فلم يكن ذلك الا لانهم كانوا فى انتظار قومندان المقاطعة الميجور جنرال كلير الذى كان تواقا لاستجواب قادة هذه المنظمة بنفسه ، وللتصرف فى مصائرهم . ولم يكن اوليج يدرى ان فيليب بيتروفيتش ليوتيكوف قد احضر هنا ايضا الى جستابو روفنكى كى يقوم قومندان المقاطعة باستجوابه . كما ان الاعداء لم يستطيعوا اكتشاف حقيقة رئاسة ليوتيكوف لمنظمة بلاشفة كراسنودون ، الا انهم كانوا يشعرون ويدركون انه اهم من فى حوزتهم من معتقلين .

الفصل الثانى والستون

كانت الرشاشات الثلاثة تطلق نيرانها من ثلاث نقاط كما من زوايا المثلث ، فى اتجاه الوحدة الواقعة بين التلال الشبيهة بسرج الجمل ذى السنمين . وكانت الرصاصات تخترق الثلوج المختلطة بالطين مدوية يعلو ازيزها . بيد ان سيريوجكا كان قد وصل الجانب الآخر من الوحدة لتختطفه الايادى القوية وتجذبه الى الخندق .
وقال رقيب شاب ذو عينين كبيرتين بلهجة اهل كورسك :
— الست خجولا من ذلك ؟ ما هذا ؟ ! انك شاب روسى . . فهل هددوك ام وعدوك ؟ !
واجاب سيريوجكا وهو يضحك فى عصبية :
— اننى مواطنكم . . ابنكم ؛ معى وثائقى فى «باطنة» السترة . ارجو مقابلة القائد فلدى الهام من الاخبار .
وقف رئيس اركان الفرقة وسيريوجكا امام القائد فى الكوخ الوحيد السليم الواقع على مقربة من السكة الحديد . وكانت هذه القرية عامرة بنباتات الاقاصيا قبل ان تدمرها الطائرات والمدفعية ؛



وحيث اليوم مركز قيادة الفرقة ، وفيها ايضا كان ممنوعا على العربات والوحدات التنقل والحركة . اما الكوخ والقرية كلها فكان يسودها الهدوء التام ، اذا ما لم ناخذ فى اعتبارنا بطبيعة الحال هدير المعركة الدائرة بعيدا فى الجنوب خلف التلال .

وتحدث رئيس الاركان الشاب ذو الشعر الاجعد :

– اننى لا احكم على اساس المستندات ، بل على اساس ما يقوله . ان الصبى يعلم كل شيء . . الارض المحيطة ، ومواقع النيران ، بل وحتى نقاط النيران فى المربعات ٢٧ و٢٨ و١٧ . . – ونقاط اخرى ذكرها – وكثير من هذه المعلومات يتفق وما جاءت به قوات الاستطلاع ، وقد قام بتدقيق بعضها . وبالمناسبة ان الشاطئ عامر بالحفر المضادة للدبابات . هل تذكرون ؟

وكان رئيس الاركان يرتدى سترة حملت رتبته ينفخ الهواء من جانب شفتيه حيث كان يشعر بآلام الاسنان .

وتفحص قائد الفرقة بطاقة الكومسومول الخاصة بسيريوجكا ، وكلمات مخطوطة باليد على استمارة بدائية الطباعة ، يذيلها امضاء كل من القائد توركينيتش والقوميسار كاشوك . وكانت هذه البطاقة تفيد ان سيرجى تيولينين احد اعضاء قيادة منظمة «الحرس الفتى» السرية فى مدينة كراسنودون . ومدّ يده بعد ذلك بالبطاقتين يعطيهما لا لرئيس الاركان الذى سلمهما له ، بل الى سيريوجكا ، بينما راحت عيناه تتفحصاه بسذاجة من قمة راسه الى اخمص قدمه، قائلا :

– هكذا . . .

وتقلص وجه رئيس الاركان من الالم ، واستنشق الهواء باحد جانبى فمه وقال :

– ان لديه اخبارا هامة لا يود الافضاء بها الا لكم .

وتحدث سيريوجكا عن نشاط «الحرس الفتى» وذكر لهما تصوراته عن ضرورة تدخل الفرقة لتخليص الصبية حبيسى السجون .

واذ استمع رئيس الاركان الى الخطة التكتيكية للفرقة فى حركتها الى كراسنودون ، فغر فاه عن ابتسامة ، الا انه سرعان ما انّ من الالم فى هدوء ووضع يده على خدّه . بيد ان القائد لم يبتسم ،

ربما لانه لم يكن يعتبر تحرك الفرقة الى كراسنودون امرا مستحيلا ، ثم سأل :

– هل تعرف كامينسك ؟

– اعرفها . لكن ليس من هذه الجهة . . بل من الجهة الاخرى . . من حيث اتيت .

– فيدورينكو !

صاح القائد بصوت جعل الاطباق تصدر صوتا فى مكان ما . لم يكن هناك فى الغرفة سواهما ، الا ان فيدورينكو ظهر فى ذات اللحظة كما لو كانت الارض قد انشقت عنه ليقف امام القائد يدق كعبيه بشكل اثار ضحك الجميع .

– تمام ! فيدورينكو .

– عليك بصرف حذاء للصبى . هذا اولا . . ؛ ثانيا . . اطعامه . ثم عليك ان تدعه يخلد الى الراحة فى مكان دافىء حتى احتاج اليه .

– تمام . . صرف الحذاء . . تمام . . اطعام الصبى . . تمام . . النوم حتى تحتاجون اليه .

ورفع القائد اصبعه محذرا :

– فى مكان دافىء ! وماذا عن الحمام ؟

–سوف اعده ايها الرفيق الجنرال .

– تفضل . .

وخرج سيريوجكا والرقيب فيدورينكو الذى احتضنه من كتفيه بشكل ينم عن الود .

وقال القائد مبتسما :

– ان القائد العام سوف يحضر .

وعلق رئيس الاركان وقد بشّ وجهه ناسيا للحظة الم الاسنان :

– هل هذا صحيح ؟

واستطرد قائد الفرقة يقول وابتسامة عريضة تعلو وجهه :

– سوف نضطر الى الانتقال الى الملجأ . اصدر اوامرك لتجهيز المكان بالتدفئة ، والا فسوف تعاقبك «البقجة» .

كان ما يزال نائما القائد العام للجيش الذى اطلق عليه قائد

الفرقة «البقجة» ذلك اللقب المحبب لدى الجنود . كان نائما فى مركز قيادته الكائن لا فى بيت او فى اى نقطة آهلة بالسكان ، بل فى ملجأ الماني قديم وسط الدغلة . وبالرغم من تقدم هجوم الجيش بمعدلات سريعة فان القائد ظل متمسكا بالمبدأ القائل بعدم الاقامة فى النقاط الآهلة بالسكان ، بل بضرورة الاقامـــة فى الملاجئ الالمانية . وفى الحالات التى وجدت فيها هذه الملاجئ مدمرة كان يامر بحفر ملاجئ جديدة له ولكل الاركان كما يحدث فى الايام الاولى للحرب . وقد راح يتمسك بهذا المبدأ بعد ان لقى عددا ليس بالقليل من رفاقه كبار القادة حتفهم اثناء القصف الجوى المعادى . وكان هؤلاء لا يعيرون اهتماما لحفر الملاجئ .

وكان القائد العام للجيش قائدا للفرقة التى وصل اليها سيريوجا تيولينين ، وذلك منذ مدة غير بعيدة . وكانت هذه الفرقة هى نفسها التى كان من المفروض منذ ستة اشهر ان ينسق معها فصيل الانصار الذى يراسه ايفان فيدوروفيتش بروتسينكو . اما قائد الجيش ، وقائد الفرقة سابقا ، هو نفس الجنرال الذى اتفق معه ايفان فيدوروفيتش بنفسه فى مبنى لجنة منطقة كراسنودون والذى اشتهر ببسالته فى الدفاع عن فوروشيلوفجراد ثم عن كامينسك ، وفى معارك المؤخرة التى دارت بشكل رائع اثناء الانسحاب الشهير فى يوليو واغسطس ١٩٤٢ .

وكان لقب القائد الذى ورثه عن ابيه وجده لقبا شائعا بين الفلاحين . وقد تميّز هذا اللقب بعد تلك المعارك ليغدو اكثر شهرة عن القاب القادة العسكريين الآخرين وتحفظه ذاكرة سكان شمال الدونيتس واواسط الدون . والآن وعلى مدى شهرين من المعارك التى دارت فى الجبهة الجنوبية الغربية ، غدا اللقب معروفا للبلاد باسرها ، مثله مثل القاب القادة العسكريين الامجاد فى ملحمة ستالينجراد العظيمة . وكانت «البقجة» هى لقبه الجديد ، الذى لم يكن يشك فيه .

وكان هذا اللقب يتفق ومظهره من الناحية الشكلية . فقد كان قصيرا عريض المنكبين ذا صدر واسع ووجه ممتلئ قوى الملامح بسيط كاوجه الروس . وكان رغما عن هذا المظهر خفيف الحركة سريعها ، ذا عينين صغيرتين تشعان ذكاء ومرحا ، مفعما بالنشاط

والحيوية . بيد ان لقب «البقجة» لم يطلق عليه بسبب هذا المظهر .

وقد اقتضت الظروف ان يهاجم نفس تلك الاماكن التى انسحب منها فى يوليو واغسطس . وبالرغم من قسوة المعارك فى تلك الاماكن الخالدة ، فقد انطلق بعيدا عن العدو آنذاك فى اتجاه لم يعثر له العدو على اثر .

واذ التحم بقوام الوحدات التى شكلت فيما بعد الجبهة الجنوبية الغربية ، اختفى معهم «تحت الارض» ، ولم يغادروا جميعا المكان حتى خفت حدة هجوم العدو وتكسرت على صلابتهم الحديدية . وعندما حانت اللحظة المناسبة خرج من تحت الارض وتراس اولا هذه الفرقة ثم الجيش واخذ يطارد العدو ويأسر الآلاف منه ويغنم مئات المدافع ملتفا حول وحدات العدو المشتتة ليتركها فى المؤخرة ، يقف اليوم فى الدون ، وغدا فى تشير . . ثم مرة اخرى فى الدونيتس وهكذا .

وآنذاك وفى لحظات مرحة فى حياة الجنود ولد ذلك اللقب «البقجة» * الذى غدا يعرف به . كما وكان شبيها فى تصرفاته بتلك «البقجة» التى راحت تتدحرج متقدمة .

وصل سيريوجكا الى القوات السوفييتية فى تلك الايام التى شهدت انعطافا هائلا ، فى منتصف يناير حين بدات حركة الهجوم الكاسح على جبهات فورونيج ، والدون والجنوبية الغربية ، والجنوبية وشمال القوقاز ، وما وراء القوقاز وفولخوف ولينينجراد ، تلك الحركة التى اسفرت عن تحطيم واسر القوات الالمانية الفاشيـــة المحاصرة بالقرب من ستالينجراد ، وعن كسر حصار لينينجراد الذى دام ما يزيد عن عامين ، وعن تحرير مدن مثل فورونيج وكورسك وخاركـــوف وكراسنودار وروستـــوف ونوفوتشيركاســـك وفوروشيلوفجراد فى مدة شهر ونصف الشهر فقط .

لقد وصل سيريوجكا الى القوات السوفييتيـــة فى يناير حين بدا هجوم الدبابات الكاسح على دفاعات الالمان عند خطوط انهار

---

* البقجة ـ «كولوبوك» من الفولكلور الروسى . قصة رغيف اعد على شكل بقجة ، قطع الغابة وحده متحديا رغبات وحوشها فى التهامه ليصل الى غايته سليما . **المترجم** .

ديركول وايدار واوسكول – وهى الروافد الشمالية للدونيتس ، وحين تم القضاء على مقاومة الحامية الالمانية فى ميلليروفو المحاصرة عند قطاع السكة الحديد كامينسك – كانتيميروفكا . كما كان قد تم قبل ذلك بيومين احتلال محطة جلوبوكايا حيث راحت وحداتنا تستعد لعبور الدونيتس الشمالى .

وكان قائد الجيش ما يزال نائما ، بينما راح قائد الفرقة يتبادل الحديث مع سيريوجكا . وقد كان شأن كافة القادة يعد كل الامور الهامة الخاصة بادارة قواته ليلا حين يخلد للنوم كل اولئك الذين لا علاقة لهم بتلك المسائل ، حتى لا يزعجونه ، وكى يكون بعيدا عن كل الامور اليومية العادية الخاصة بحياة قواته . بيد ان الرقيب اول ميشين ذا القوام الفارع كما بطرس الاول ، والذى كان يعمل فى خدمة الجنرال فى نفس الموقع الذى كان يشغله فيدورينكو بجانب قائد الفرقة ، راح ينظر الى ساعة اليد التى آلت اليه كغنيمة ، فى انتظار الوقت الملائم لايقاظ القائد .

وكان من المفروض على القائد الذى لم يكن يأخذ قسطه الكامل من النوم دائما ، الاستيقاظ اليوم مبكرا على غير العادة . وحسبما اقتضت الظروف ، وذلك يحدث كثيرا فى الحروب ، كان على الفرقة التى دافعت عن كامينسك تحت قيادته فى يوليو ، ان تحررهـا اليوم . وللحقيقة لم يكن هناك فيها كثير من «المتقدمين فى السن» . فقد كان قائدها آنذاك قائدا للفوج قبل ان يرقى الى رتبة الجنرال . وقد كان امثاله من «كبار السن» ما يزالون ضباطا ، بل ومقاتلين الا ان ذلك كان نادرا : فقد كانت تسعة اعشار الفرقة من الامدادات التى وصلت اليها قبيل الهجوم على اواسط الدون .

واذ نظر الرقيب اول ميشين الى ساعته للمرة الاخيرة تقدم الى الرف الذى كان ينام عليه الجنرال . وقد كان ذلك رفا بالمعنى الحرفى للكلمة ، حيث كان الجنرال يخاف الرطوبة ولذا كانوا يجهزون له مثل هذا الرف كما فى عربات القطارات .

وراح ميشين ، كالعادة ، يهز الجنرال بشدة فى البداية ، وكان ينام على جنبه وقد ارتسمت امارات الطفولة على وجهه الكبير مما ينبئ عن راحة الضمير . بيد ان ذلك لم يكن بالطبع بالامر الذى يوقظه من نومه العميق ، بل مجرد اعداد لما سوف يفعله ميشين

بعد ذلك . لقد دس يده تحت جنب الجنرال ، بينما احتضنه باليد الاخرى من تحت ابطه وراح يرفع برفق وبحرص جسده كما يُرفع الطفل .

وفى الحال استيقظ الجنرال الذى كان ينام مرتديا الروب ، ووقع نظره على ميشين بوضوح ينم عن حالة لا تشير ابدا الى انه كان نائما .

– شكرا لك !

قالها وقفز بخفة مفاجئة من على الرف وسوّى شعره وجلس على المقعد وهو ينظر حوله بحثا عن الحلاق . ودفع ميشين الحذاء تحت قدم الجنرال .

كان الحلاق يرتدى حذاء ضخما ومريلة بيضاء فوق السترة يقف فى جزء الملجأ الذى كان مفردا للمطبخ يعد صابون الحلاقة . وكما النسمة الخفيفة وجده الجنرال واقفا الى جانبه يضع له المنشفة خلف ياقة الروب ، وراح على التو يغطى بالصابون وجهه الذى طالت شعيراته بشكل كث .

ولم يمض من الوقت سوى ربع ساعة حتى كان الجنرال فى كامل هيئته يجلس الى المائدة يتصفح الاوراق الموضوعة فى ملف من الجلد المبطن بالجوخ الاحمر والتى يقدمها له مساعده ، بينما كان ميشين يقدم له الافطار . وكانت اولى هذه الاوراق تنبئ باستيلاء قواتنا على ميلليروفو ، الا ان ذلك لم يكن خبرا جديدا للجنرال ، حيث كان متأكدا من انها حتما ستسقط اما فى المساء او عند الصباح . بعد ذلك كانت بقية الاوراق تتحدث عن امور عادية .

– يا للشيطان . . فليدعوا هذا السكّر طالما ملكوه . . . انهم يطلبون منح سافرونوف ميدالية «لقاء البسالة» . اننا سنطلب منحه وسام «الراية الحمراء» ! انهم يعتقدون هناك ان الميداليات للجنود ، اما الاوسمة فقاصرة على الضباط ! . . الم يجر اعدامه بعد ؟ انها ليست محكمة عسكرية ميدانية بل هيئة تحرير مجلة اطفال ! يجب تنفيذ حكم الاعدام والا فسوف تقدمهم للمحاكمة ! . . آه . . يا للشيطان ! «يطلبون ان ندعوهم لتنفيذ تبديـل القوات . .» اننى وعلى الرغم من كونى جنديا سابقا ، الا اننى

لا استطيع القول ان ذلك اسلوب جيد . قل لكليبيكوف الذى وقع هذه الورقة دون الاطلاع على مضمونها ، كى يطالعها من جديد ويصحح ما جاء بها من اخطاء بقلم ازرق او احمر ويجىء الىّ بنفسه بها . . . كلا . . كلا . . لقد اتيت الى اليوم بخليط عجيب .

ثم توقف الجنرال ليتحول الى تناول افطاره قائلا :

— كفى . . كفى . يمكن لما تبقى ان ينتظر .

كان القائد على وشك الانتهاء من احتساء القهوة حين وقف يحمل فى يده الملف الى جوار المكتب الجنرال قصير القامة ، قوى البنية ذو الجبهة البيضاء العريضة التى تبدو اكبر من حجمها نظرا لصلعه على ما يبدو ، والشعر الابيض المقصوص عند فوديه والذى كان يبدو هادئا منضبطا غير متكلف . وكانت هيئته شبيهة بهيئة العالم اكثر منها شبيهة بهيئة العسكريين . ودعاه القائد للجلوس .

وكان رئيس الاركان قد جاء بأوراق اكثر اهمية من تلك التى قدمها مساعده الى القائد . بيد انه وقبل ان يشرع فى العمل ناول القائد والابتسامة ترتسم على وجهه آخر عدد من اعداد جريدة صدرت فى موسكو وحملتها الطائرات الى اركان الجبهة صباح اليوم لتوزيعها على اركان الجيوش .

كانت الجريدة تسجل على صفحاتها قائمة باسماء الذين تمت مكافآتهم وترقياتهم من الضباط والجنرالات ، وفيما بينهم اولئك الذين طلب لهم ذلك من قوام جيشه .

وطالع القائد باهتمام بالغ يتسم به عادة العسكريون ، وبسرعة وصوت عال القائمة ، تصادفه اسماء اناس عرفهم اثناء دراسته فى الاكاديمية او اثناء الحرب الوطنية ، وينظر من آن لآخر الى رئيس الاركان تارة فى دهشة واخرى فى تشكك وثالثة بشكل ينم عن فرح طفولى — وذلك عندما يتعلق الامر بافراد من جيشه .

كانت القائمة تضم اسم قائد الفرقة التى كان يراسها «البقجة» والتى كانت تضم ايضا رئيس الاركان الحالى . وكان هذا القائد الذى كوفىء مرارا ، يكافأ هذه المرة لبطولة قام بها منذ مدة طويلة ، واستغرقت اجراءات مكافآته وقتا طويلا ، وحتى وصلت الى الصحافة اخيرا .

وقال القائد :

— ليس هذا هو الوقت المناسب لمعرفة ذلك النبأ ، حيث يتحتم عليه اليوم الاستيلاء على كامينسك ولعله لا يخلد الى الهدوء !

وذكر رئيس الاركان والابتسامة ترتسم على شفتيه :

— على العكس فسوف تحفزه المكافأة !

— نحن نعلم نقاط ضعفكم . اننى سوف ازوره اليوم واقدم له التهنئة . وسوف ابعث الى تشوفيرين ببرقية تهنئة ؛ والى خارتشينكو كذلك . اما كوكوليوف فيجب ان نبعث اليه بشىء رقيق انسانى وليس كلمات رسمية . اننى سعيد من اجله ، سعيد حقا . لقد ظننته غير قادر على اصلاح الحال بعد اخفاقه فى فيازما .

ثم اضاف القائد فجأة :

— وماذا عن شارات الكتف ؟

واجاب رئيس الاركان والابتسامة ترتسم ثانية على شفتيه :

— فى الطريق .

وكان خبر تعميم شارات الكتف بالنسبة للضباط والجنود وكذلك الجنرالات قد نشر منذ زمن قريب وغدا حديث كل رجال القوات المسلحة .

كما كان يكفى لانتشار خبر زيارة القائد العام فى كل ارجاء الفرقة ان يبلغ به قائد الفرقة رئيس اركانه . فلقد كان هذا الخبر يطير حتى ذلك الذى يتخندق وسط الثلوج التى اختلطت بالتراب فى البرارى المكشوفة على شاطىء الدونيتس ، حيث بدا واضحا الشاطىء الايمن المنحدر ومبانى مدينة كامينسك حيث كان الدخان يتصاعد فى كثير من الاماكن ، وكذلك ظلال طائرات الهجوم التى كانت تقصف المدينة الغارقة فى الضباب .

كان يود رؤيته بل ويود اكثر ان يراه كل من مر بطريقة القائد العام عند النسق الثانى للفرقة فى عربته ، حيث استقبله القائد ليترجلا يسيران تجاه نقطة القيادة ، اولئك الذين تفرقوا ما بين فرادى ومجموعات متكاملة من المقاتلين والضباط . كان الجميع يدقون بكعوب احذيتهم ترتسم على وجوهم امارات الجراة والبسالة

والافتخار ، والابتسامات المرحبة وكذلك ما يعنى جدهم وعدم تقاعسهم .

وقال القائد العام محاولا ان يكشف مناورة قائد الفرقة :

– فلتعترفوا انكم لم تنزلوا الى الخنادق الا منذ ساعة . . ان جدران هذه الملاجئ لم تحمل بعد رائحتكم .

– حقا . . لقد نزلنا منذ ساعتين . ولن نخرج منها ما لم نحرر على كامينسك .

قالها قائد الفرقة وهو يقف فى احترام امام القائد العام ، ترتسم على عينيه امارات الدهاء ، وبشفتين تسجلان هدوءه وثقته بنفسه يقول فى نفسه : «اننى هنا الآمر فى فرقتى واعلم ما يمكن ان توبخنى بشأنه ، اما ذلك ، فهو من توافه الامور» .

هنأ القائد العام بالوسام قائد الفرقة الذى انتهز الفرصة السانحة وقال غير عابئ كما يبدو :

– ما دمنا لم نبدأ بعد فى العمل . . يوجد على مقربة من هذا المكان حمام فى القرية لم تصبه مدافع الاعداء ، ونحن نستخدمه . واعتقد انكم ايها الجنرال لم تستحموا منذ زمن بعيد !

واجاب الجنرال بمنتهى الجدية :

– احقا تقول ؟ وهل هذا الحمام جاهز ؟

– فيدورينكو !

اتضح ان الحمام لن يغدو جاهزا الا عند المساء . ورمى قائد الفرقة فيدورينكو بنظرة تعنى انه سوف يلقى جزاء ذلك .

– عند المساء – راح القائد العام يفكر عما اذا كان من الممكن تأجيل شىء والغاء آخر ، لكنه تذكر على الفور شيئا آخر ، ليقول :

– يتحتم علينا تأجيل ذلك الى لقاء آخر .

واعد قائد الفرقة بناء على نصيحة من رئيس اركان الجيش الذى كان يعتبر شخصية عسكرية فذة لا مثيل لها فى كل الجيش ، خطة الاستيلاء على كامينسك وراح يعرض هذه الخطة على القائد العام .

استمع القائد العام اليه واعترض معلنا عدم الرضى :

– هنا مثلث : النهر ، والسكة الحديدية ، وضاحية المدينة . . وكل ذلك جيد التحصين .

– لقد اعلنت عن مخاوفى ، الا ان ايفان ايفانوفيتش اشار بحق . . .

كان ايفان ايفانوفيتش هذا هو رئيس اركان الجيش .

وشرع القائد العام يقول دون الاشارة الى ايفان ايفانوفيتش بلباقة شديدة :

– انك سوف تعبر النهر ولن تجد مكانا للانتشار بعد ذلك . وسوف تواجه بالعدو يضربك بمجرد الاقتراب منه .

بيد ان قائد الفرقة كان يدرك ان شخصية ايفان ايفانوفيتش تعزز موقفه ، وراح يؤكد ثانية :

– ان ايفان ايفانوفيتش يقول ان العدو لا يستطيع توقع الضربة من هذا الاتجاه ، وسوف يظن ذلك تهويشا ، وهذا ما تؤكده وحدات استطلاعنا .

– حالما تخترقون المدينة من هذا الاتجاه سيستقبلونكم ببوابل من الرصاص فى الشوارع ومن المحطة .

– ايفان ايفانوفيتش . . .

ادرك القائد العام انهم لن يتقدموا ، مالم يزح العقبة المتمثلة فى شخصية ايفان ايفانوفيتش ، فقال :

– لقد اخطأ ايفان ايفانوفيتش .

بعد ذلك راحت يده تتحرك فى خفة على الخريطة ، تدور حول الارض التى سيتم عليها الالتفاف حول المدينة واقتحامها من مكان آخر تماما .

وتذكر قائد الفرقة ذلك الصبى الذى وصل عند الصباح بعد ان عبر الجبهة قادما من ضواحى المدينة التى حدد القائد العام عندها اتجاه الضربة الرئيسية . وهكذا فجأة وعى رأسه خطة اقتحام المدينة دونما جهد او صعوبة .

ومع حلول الليل كانت اركان الفرقة قد فرغت من تقرير كل ما يتطلب تقريره وحسمه ، وبعثت به الى الافواج . وانطلق القادة يقصدون الحمام الذى سلم صدفة فى المكان المجاور الذى كان موقعا لقرية صغيرة .

وفى الساعة الخامسة صباحا خرج قائد الفرقة ونائبه للشئون السياسية لتفقد الافواج ودرجة استعدادها .

كان خندق الرائد كونونينكو قائد الفوج عامرا بالحركة طوال الليل ، حيث منه كانت تصدر الاوامر والتعليمات حتى المستوى الادنى حول شتى المهام البسيطة الصغيرة والتي تعتبر حاسمة في جوهر الامر .

وبالرغم من ان الاوامر والتعليمات الواضحة شملت كل الامور راح قائد الفرقة باسلوب تعليمي غير عاد وصبر واناة يكرر كل ما قيل قبل ذلك ، ويراجع ما قام به الرائد كونونينكو .

وكان الرائد كونونينكو قائدا شابا وعسكريا فحا ذا وجه نحيل يشع نشاطا وجسارة ونبرة صوت هادئة ، يجلس مرتديا معطفه القصير المحشو بالقطن وسرواله القطني ايضا . ولم يكن يرتدي معطفه الشتوي الثقيل حتى يغدو خفيف الحركة . وكان كونونينكو ينصت الى القائد في صبر ودون اهتمام شديد ، حيث كان يعرف ما يقال ، ويجيب بانه قد فعل ما يوصى به قائده .

ويا له من فوج كان ذلك الفوج الذي حل سيريوجكا ضيفا عليه . لقد عاد ثانية عبر ذلك الطريق من اول اركان الفرقة حتى قائد السرية حيث تسلم رشاشا وقنبلتين يدويتين وجرى الحاقه بقوام مجموعة الاقتحام التي كان يجب ان تكون اول من يهاجم مزلقان السكة الحديدية بالقرب من كامينسك .

راحت عاصفة ثلجية دافئة تهب طوال الايام الاخيرة على المنطقة المكشوفة المجاورة لكامينسك والعامرة بالتلال وحيث تنـدر الشجيرات ، ثم حملت الريح القادمة من الجنوب الضباب ليسود المنطقة . وبدات الثلوج الخفيفة في المنطقة المكشوفة تذوب لتغمر الاوحال الاراضي والطرق .

كانت المدفعية والطائرات قد شددت قصفها للقرى والعزب على جانبي نهر الدونيتس ، حتى لم يبق منها شيء . كان المقاتلون قد تمركزوا في الملاجئ القديمة والحفر والخيام بل وفي الهواء الطلق ، ودونما نيران يشعلونها للتدفئة .

وطوال اليوم الذي سبق الاقتحام كانت محط انظارهم على الضفة الاخرى من النهر تلك المدينة الكبيرة نسبيا والغارقة في الضباب ، بشوارعها المقفرة المتقاطعة ومداخن المصانع التي سلمت من القصف وابراج الكنائس المحطمة وقد كان المرء يستطيع بعينه المجردة

رؤية نقاط الالمان المحصنة على التلال المحيطة بالمدينة وضواحيها .

وكانت المشاعر الغامضة المعقدة تجتاح نفس المرء السوفييتي الذي ارتدى المعطف العسكري ، قبيل المعركة من اجل تحرير مثل هذه المدينة . كان يتأجج باعماقه شعور الحماس المعنوي حيث يقوم هو الانسان ذو المعطف العسكري بالهجوم وتحرير ما يخصه ويمتلكه . كما كان يعاني مشاعر الاشفاق تجاه المدينة وسكانها ، تجاه الامهات والاطفال المختبئين في اقبية المنازل الباردة والملاجئ الرطبة ، وكذلك الحقد على العدو الذي سوف يستميت ، كما هو معروف ، في المقاومة بقوة باذلا اقصى الجهود خوفا من العقاب الذي سوف ينزل به واحساسا بوقع تلك الجرائم التي ارتكبها . كما وكان المقاتلون السوفييت يعيشون كذلك حالة معنوية تتارجح بين الاحساس بالموت الذي يتهددهم ، وجسامة المهمة الملقاة على كواهلهم . وكم من القلوب التي تضنيها المشاعر الطبيعية التي تعرب عن الخوف ! بيد انه لم يكن هناك احد من المقاتلين افصح عن مثل هذه المشاعر ، حيث كانوا جميعا مرحين يتبادلون النكات في شيء من التوتر .

وكان المقاتلون يقولون :

— ما دام «البقجة» قد تولى هذا الامر فسوف يتقدم حتما .

كانوا يقولون ذلك وكانما سوف يتقدم «البقجة» وحده ، وليسوا هم انفسهم .

وكان يترأس مجموعة الاقتحام التي انضم اليها سيريوجكا ، نفس ذلك الرقيب الذي استقبله حين تعدى خط الجبهة . وقد كان رجلا قصير القامة نشط الحركة يتسم بالمرح ، ذا وجه كثير التجاعيد وعينين كبيرتين زرقاوين تلمعان دائما لتبدوان وكانهما تغيران لونهما باستمرار . وكان لقبه كايوتكين .

وتساءل الرقيب مرة اخرى ، بنبرة تجمـع ما بين السرور والتشكك :

— هل انت من كراسنودون حقا ؟

وساله سيريوجكا :

— وماذا في الامر . هل زرت تلك المدينة فيما سبق ؟

وذكر كايوتكين في شيء من الحزن :

— لقد كان لى صديق هناك . . فتاة ، رحلت منذ مدة عنها . وكنت قد تعرفت عليها فى الطريق . وكم كانت فتاة عظيمة . كنت قد عبرت كراسنودون . . كما ودافعت عن كامينسك فيما قبل . هذا وقد استشهد البعض واسر البعض الآخر من اولئك الذين دافعوا عن المدينة ، وها انذا فيها من جديد . هل سمعت تلك الابيات ؟

وراح ينشد فيما تعلو امارات الجدية وجهه :

اصيب فى المعارك كثيرا
والتامت جراحه دون ان تترك اثرا كبيرا
ووقع فى الحصار مرات ثلاث
وخرج ظافرا دون ان يمس
وبالرغم من ان الوضع كان عصيبا
فقد ظل دون ان يصاب
رغم الرصاص والنيران
رغم القنابل والاهوال
وكم قطعت طريقى هذا . .
كم قطعته مع الارتال
بعضنا «مشتت»
وبعضنا صريع . . .

وذكر كايوتكين ضاحكا فيما يغمز بعينه لسيريوجكا :

— لقد كتبها عن امثالى * .

وهكذا مضى نهار ليحل ليل . وريثما كان قائد الفرقة يشرح للرائد كونونينكو مهمته من جديد ، كان المقاتلون الذين سوف يضطلعون بتنفيذها ، يغطون فى نومهم . كما وكان سيريوجكا يغط فى نومه كذلك .

وفى السادسة صباحا ايقظهم جنود الخدمات اليومية . وتناول المقاتلون قليلا من الفودكا وبعض حساء اللحوم المخلوط بالحنطة ، وما شاء لهم من عصيدة الدخن . وتحت ستار الضباب ، والمنخفضات والشجيرات راحوا يتقاطرون على خطوط الابتداء التى سوف يشنون منها هجومهم .

* بعض ابيات من قصيدة «فاسيلى تيوركين» عن المحارب السوفييتى للشاعر السوفييتى الكبير الكسندر تفاردوفسكى (١٩١٠-١٩٧١) . **المترجم** .

وبدات الثلوج تذوب تحت اقدام المقاتلين وتختلط بالاتربة . كما وكانت الرؤية غير واضحة لما يبعد اكثر من مائتى متر . وبدات المدفعية الثقيلة تطلق قذائفها ، بينما كانت المجموعات الاخيرة من المقاتلين تتوافد الى شاطئ الدونيتس لتنبطح ارضا فى تلك الاوحال ، خليط الثلوج بالاتربة . وكانت المدافع تطلق نيرانها بانتظام ، بيد ان عددها كان كبيرا لدرجة ان اصوات الطلقات وانفجارات الدانات اختلطت فيما بينها فى هدير متصل .

وانبطح سيريوجكا ارضا الى جوار كايوتكين ، ليرى من مكانه تلك الكرات النارية ذات الاذناب الحمراء التى تشق الضباب عبر النهر ، الى يمينهما وفوقهما ، ويسمع حفيفها وكذلك الانفجارات الحادة على الناحية الاخرى من النهر ، ودوى الانفجارات البعيدة هناك بالمدينة . وقد راحت هذه الاصوات تبعث الحماس فى نفسه وفى نفوس غيره من المقاتلين .

وكان الالمان يطلقون نيرانهم نحو تلك الاماكن التى يعتقدون وجود حشود المشاة بها . وكانت طلقات مدفع الهاون ذى المواسير الست تنطلق فى بعض الاحيان من داخل المدينة ، ليعلن كايوتكين بحذر :

— لقد بدأ يعلن عن نفسه .

وفجأة تعالت من وراء ظهر سيريوجكا ، اصوات النيران التى راحت تتزايد شيئا فشيئا ، تنتشر فى ارجاء الافق . كما وبدات تعلن عن نفسها فوق رؤوس المقاتلين الدفقات النيرانية الرهيبة التى لفتها غلالات الدخان الكثيفة تغطى كل ضفة النهر المواجهة لهم .

وذكر كايوتكين فيما يعد نفسه للوثوب ، وتعلو امارات الصرامة وجهه الذى غطته التجاعيد :

— لقد بدات الكاتيوشا تعزف الحانها . وسيقتحم الآن المشاة . . وعندئذ . . .

ولم تكن النيران من خلفهم قد انقطعت بعد ، كما وكانت الانفجارات ما تزال تدوى على الشاطئ الآخر حين شاهد سيريوجكا الذى لم يكن قد سمع ما اذا كان الامر قد صدر ام لا ، كايوتكين يهب من مكانه ليجرى الى الامام ، مما جعله يقفز من خندقه ليندفع فوق جليد النهر .

وراح الجميع يركضون فوق الجليد ، وخيل اليهم ان الصمت مطبق على المكان . بينما كان الواقع يؤكد ان النيران راحت تستهدفهم من الشاطئ الآخر ليتساقط البعض فوق الجليد . وتصاعدت موجات الدخان الاسمر المشوبة برائحة الكبريت تدثر اولئك الذين انطلقوا يشقون غلالات الضباب . بيد ان الاحساس بان كل شىء كان وسوف يكون على ما يرام ، كان يراود جميع المقاتلين .

واستعاد وعيه سيريوجكا الذى غرق فى ذلك الهدوء الذى خيم فجاة ، حين وجد نفسه ممددا الى جوار كايوتكين فى حفرة الضفة الاخرى للنهر لا يزال الدخان يتصاعد منها . وقد كانت قسمات وجه كايوتكين تتسم بالصرامة الرهيبة حين راح يطلق نيران رشاشه نحو الامام . ووقع نظر سيريوجكا على ماسورة رشاش يطلق نيرانه من حفرة لا تبعد اكثر من خمسين قدما ، ليركز نيرانه ايضا عليه . ولم يكن رامى ذلك الرشاش يرى سيريوجكا او كايوتكين ، بل كان نظره متجها نحو مكان بعيد ، مما جعل نيرانهما تخرسه على الفور .

وكانت المدينة لا تزال بعيدة تنبسط على اليمين من المقاتلين ، لا يوجهون منها اليهم النيران وصاروا يبتعدون منها شيئا فشيئا الى اعماق البرارى . وبعد برهة طويلة من الوقت فقط بدات القذائف الموجهة من المدينة تنهال على البرارى فى طريق حركتهم .

وبدات نيران الرشاشات تستقبلهم عند تلك النجوع التى حجبها الضباب عن الانظار والتى كان سيريوجكا يعرفها جيدا . وانطبح المقاتلون ارضا ، ولبثوا طويلا على هذا الحال وحتى بلغتهم المدافع الخفيفة التى راحت تصلى النجوع بنيرانها . واخيرا اقتحم المقاتلون تلك النجوع برفقة المدافع التى راح يدفعها جنود المدفعية الاقوياء المرحون . وهناك سرعان ما ظهر قائد الكتيبة وبدا جنود الاشارة يمدون اسلاكهم فى قبو منزل حجرى اصابته القذائف .

وهكذا نجح كل شىء وحتى بداية التقدم نحو المزلقان ، الذى كان يعتبر النقطة الاخيرة فى عمليتهم الصغيرة . ولو صاحبت الدبابات تلك القوات لكانت قد وصلت تلك النقطة منذ زمن بعيد .

الا انه كان قد جرى عدم استخدامها لان جليد نهر الدونيتس لم يكن ليتحملها .

والآن بدا المقاتلون هجومهم فى حلكة الظلام . واضطر قائد الكتيبة التى تراس بنفسه هذه العملية الى بدء الهجوم مع جنوده الذين كانوا الى جواره بمجرد ان فتح العدو نيرانه ، وقبل ان تصله القوات الرئيسية التى كانت فى طريقها اليه . واقتحم المقاتلون ذلك النجع ، وتوغلت مجموعة كايوتكين بعيدا حيث اشتبكت فى معركة باحد الشوارع من اجل مبنى المدرسة .

وفتح العدو نيرانه القوية من داخل المدرسة ، ليكف سيريوجكا عن اطلاق نيرانه ويدس وجهه فى الاوحال . فقد اصابت الرصاصة ذراعه اليسرى فيما فوق المرفق ، بيد انها لم تصب عظامه ، ولذا فلم يشعر بالالم فى حينه . وحين رفع راسه اخيرا لم يجد احدا الى جواره .

وفى مثل هذه الحالة كان ينبغى عليه اعتقاد ان رفاقه لم يتحملوا نيران العدو التى اضطرتهم الى الانسحاب فى اتجاه قواتهم . بيد ان سيريوجكا لم يكن يملك الخبرة بعد ، حيث خيل اليه انهم قد لقوا حتفهم ، ليجتاحه الرعب . وراح يزحف نحو ناصية المبنى يصيخ السمع الى ما حوله . وهرول المانيان الى جواره . وتعالت الى اسماعه اصوات الجنود الالمان الى يمينه ويساره وخلفه . كما وتوقف تبادل اطلاق النيران فى هذا المكان ، لكنه كان ما يزال جاريا عند الضواحى التى سرعان ما توقف عندها كذلك .

وهناك بعيدا فوق المدينة بدا الضياء مغمورا بغلالات الدخان الكثيف الاسود ، لا يصل الى ارجاء السماء ، وتعالى دوى يصم الآذان .

ورقد سيريوجكا الجريح وحده فى تلك الاوحال الباردة بالنجع الذى يسيطر الالمان عليه .

الفصل الثالث والستون

يا صديقى ! يا صديقى العزيز ! .. اننى ابدا اكثر صفحات قصتى لوعة واسى ، لأجد نفسى مدفوعا نحو التفكير فيك .

آه ، لو كنت تعرف مدى الاضطراب الذى كان يجتاحنى فى تلك

الايام البعيدة من طفولتى ، يوم انطلقنا للدراسة سوية بالمدينة ! لقد كان يفصلنا ما يزيد عن خمسين كيلومترا . وحين كنت أبارح بيتى ، كانت مشاعر الخوف تدور بأعماقى خشية الا اراك ، حيث تكون قد رحلت . . . ذلك لاننا لم نلتق الصيف بأكمله !

لقد كان يقض مضاجعى احتمال وقوع تلك الكارثة فى تلك اللحظات التى كان يئن فيها جوادنا المنهك يجر عربتنا فى اتجاه قريتكم ، بينما أعتلى متنها الى جوار أبى . لقد كنت اقفز من مكانى بالعربة قبل أن تصل الى كوخكم ، أبحث عنك فى مخزن الدريس الذى كنت دائما تهوى النوم فيه على كومة الدريس ، وحيث ان لم أجدك هناك ، فان ذلك سوف يعنى رحيلك دونى . لكن هل فعلت ذلك مرة واحدة ؟ هل رحلت بدونى ؟ اننى على يقين من أنك كنت تفضل التأخر عن المدرسة ، على الا تذهب وحدك . لم يكن جفن يغمض لنا حتى مطلع الفجر ، فيما كنا نعتلى كومة الدريس ، تتدلى اقدامنا العارية من عليها نثرثر ونثرثر ونضحك . وكانت رائحة الدريس تملأ المكان ، فيما صارت اشعة شمس الخريف التى اطلت من وراء الغابة تستقر على وجهينا ليدرك كل منا آنذاك كيف تغير الآخر على مدى ذلك الصيف الماضى .

اننى اذكر كيف حدث ذات مرة ان شمرنا نحن الشبان عن سيقاننا لنخوض النهر ، حتى بلغت مياهه الخضراء ركبنا لتعترف لى آنذاك أنك غارق فى الحب . ولم تكن هذه الفتاة تعجبنى ، الا اننى ذكرت لك :

— انك العاشق ولست أنا ! فلتصحبك السعادة !

وانفجرت ضاحكا لتجيبنى :

— الحقيقة أننا نستطيع قطع العلاقة حتى نحول دون ارتكاب المرء لفعلة سيئة ، لكن هل يمكن للآخرين ادلاء النصيحة فيما يخص الحب ؟ وكم يحدث كثيرا أن يتدخل أقرب الناس ، يدلون بنصائحهم فيما يتعلق بالحب ، يقربون ويباعدون بين المحبين ، وينقلون اليـــك ما هو سيئ عمن تحب . آه لو كانوا يعرفون مدى الضرر الذى يلحقونـــه بمثل تلـــك التصرفات ، ومدى الاساءة التى يسممون بها اطهر اللحظات التى لا تتكرر فى حياتنا امثالها ! . .

كما وأذكر حين جاء ذلك الذى لا أود الاشارة الى اسمه ، ذلك ن . وراح يثرثر فى غير اكتراث حول شئون أصدقائه فيما ترتسم ابتسامة السخرية على شفتيه : «هذا موله فى حب فلانة ، انه يتذلل فى حضرتها ، بينما هى قذرة الأظافر . . لكن فليظل هذا سرا بيننا . . . اما ذلك وانتم تعرفونه فقد شرب امس حتى الثمالة اثناء كان فى ضيافة آخرين، ولدرجة انه راح يتقيأ . . لكن فليظل هذا سرا بيننا . . . أما هذا فيسير دائما رث الثياب ، متظاهرا بالفقر ، بينما هو فى حقيقة الأمر بخيل ، وذلك أمر أعرفه جيدا . انه لا يخجل من احتساء البيرة على حساب الآخرين . . . لكن فليظل هذا سرا بيننا . . .»

لقد نظرت اليه آنذاك قائلا :

— فلتسمع يا ن . فلتغرب عنا . . وبأسرع ما يمكن . .

وقد اعترت الدهشة ن . آنذاك ليتساءل :

— كيف أغرب عنكم ؟

— فلتغرب عنا . . وببساطة . اى امر يمكن ان يكون احقر من ذلك الذى لا يستطيع الحديث عن الآخرين وجها لوجه ، حيث انه لم يقو على مواجهتهم يوما ؟ بل وهل هناك أحط من الشاب الذى لا همّ له الا الثرثرة ؟ !

وكم كان اعجابى بك كثيرا ! لقد كنت أفكر فى نفس الشىء الا اننى ربما كنت غير قادر على الافصاح عن ذلك بمثل هذه الحدة .

بيد ان أفضل ما علق بذاكرتى كان ذلك الصيف الذى تأكدت فيه حين كنت لا أزال بعيدا عنك انه لا طريق آخر امامى سوى الانضمام الى صفوف الكومسومول . . .

وها نحن نلتقى كعادتنا فى الخريف وعلى نفس كومة الدريس . لقد شعرت بأنك مرتبك مستغرب بعض الشىء ، بينما كنت اعانى نفس المشاعر تجاهك . لقد كنا نجلس كما فى صبانا ، تتدلى اقدامنا العارية من على كومة الدريس دون أن ينبس احدنا ببنت شفة ، وحتى قطعت ذلك الصمت قائلا :

— قد لا تفهمنى ، بل ربما تديننى لأننى اتخذت قرارى دون التشاور معك . بيد أننى أدركت حين قضيت الصيف وحدى هنا ،

انه ليس ثمة طريق اخر امامى . ولذا فقد قررت الانضمام الى الكومسومول .

وقلت لك كى امتحن مدى قوة صداقتنا :

— سوف تكون ملتزما بواجبات جديدة ، ومرتبطا باصدقاء جدد . . فما عساى أنا ؟

واجبت آنذاك فى اسى :

— حقا . . ان ذلك الأمر سوف يكون . اننى ادرك بطبيعة الحال ان هذا الأمر يتوقف على الضمير ، لكن كم يكون عظيما لو انضممت انت كذلك الى الكومسومول !

وعندئذ كففت عن تعذيبك ، حيث راح كل منا يحدق فى عينى الآخر وحتى انفجرنا ضاحكين .

قد يكون حديثنا الآخر أعذب الأحاديث التى تبادلناها فى مخزن الدريس العامر بذلك الدجاج وتلك الشمس التى كانت تطل علينا من وراء أشجار الحور ، وحين اقسمنا بأننا لن نحيد عن الطريق الذى اخترناه ، وبأننا سوف نبقى أوفياء لصداقتنا .

الصداقة ! كم من البشر فى هذا العالم ينطقون هذه الكلمة فيما يعنون بها مجرد حديث ودى حول زجاجة نبيذ ، والتسامح ازاء ضعف كل منهم ! فاية علاقـــة تلك التى تربط ذلـــك بالصداقة ؟ . .

كلا . . لقد كنا نتجادل فى كثير من المناسبات ، ولم يكن أى منا يراف بعزة النفس . نعم لقد كان كل منا يصطدم بالآخر حين يظهر الخلاف فيما بيننا . هذا بينما كانت صداقتنا تزداد وتنمو وتصبح اكثر عمقا وارجح ثقلا .

وكم كنت ابدو كثيرا غير عادل بالنسبة لك ، بيد اننى حين كنت ادرك خطئى ، لم اكن أحاول التملص من مسئوليتى ازاء ذلك الخطا . وللحقيقة اننى لم اكن قادرا آنذاك ، وفى مثل تلك الحالات ، الا على الاعتراف بالخطا . بينما كنت تجيبنى :

— هون عليك . . ذلك امر لا يجدى . وما دمت قد أدركت ، فلتنس . . وهذا يحدث كثيرا . انه الصراع !

كما وكنت تعتنى بى افضل من اطيب وارق الممرضات ، بل وقد يكون افضل من امى لانك كنت خشنا لاعاطفيا .

واليوم يجىء ذلك اليوم الذى أتحدث فيه عن فقدانى لك . .

لقد كان هذا منذ زمن بعيد ، يبدو لى انه لم يحدث أثناء الحرب الماضية بل فى الحرب الحالية . لقد رحت أجرك بعيدا عن البحيرة عبر القصف ، فيما كان دمك ينزف على يدى ، والشمس تلقى بأشعتها الحارقة ، وحيث لم يكن على ما اعتقد قد بقى من الأحياء أحد على الشاطىء . فلقد انهالت النيران قوية فوق ذلك المكان الضيق العامر بالقصف . لقد سحبتك لأننى لم اكن اتخيلك تفارق حياتنا . وها أنت تفترش القش ، ما تزال فى وعيك ، بيد ان شفتيك كانتا جافتين فيما رحت تقول :

— اود أن اشرب . . اعطنى ماء !

غير أنه لم يكن بالمنطقة ماء ، ولم اكن احمل وعاء او زمزمية حتى أستطيع الذهاب الى البحيرة من أجل الماء . وعندئذ قلت لى :

— فلتخلع عنى حذائى بحرص . انه ما يزال متينا .

وقد ادركت ما تقصده . وخلعت عنك حذاءك العسكرى الكبير الذى قطع كثيرا من الطرق . فكم من الأيام قضيناها سويا فى الطريق دون أن يسعفنا الوقت لتغيير لفائف اقدامنا غير اننى ذهبت بهذا الحذاء الى البحيرة ، ثم بدأت زحفى فيما كان الظما يعذبنى كذلك . وقد كان يستحيل التفكير فى امكانية رى الظما تحت هذا الوابل من النيران . وقد استطعت باعجوبة بالغة ملء الحذاء بالماء والعودة به اليك زحفا .

بيد اننى وحين عدت اليك وجدتك قد فارقت الحياة ، فيما كانت امارات الراحة تبدو على وجهك . ولأول مرة اراك ضخـــم البنية . ولم يكن عبثا أن يخلطوا بيننا . وانهمرت الدموع غزيرة من عينى . وشعرت بالظما الشديد لأدنو من حذائك ، اشرب حتى الثمالة الكاس المرة لصداقة الجندية ، بينما اذرف الدمع . . .

راحت فاليا تهيم من نجع لآخر بمحاذاة خط الجبهة ، تقضى ليلتها فى بعض الأحيان بالبرارى ودون ان تشعر ببرد او خوف منهكة ، جائعة ، تجمدت اطرافها . وكانت موجات الألمان المنسحبين تضطرها شيئا فشيئا الى الاقتراب من مدينتها الحبيبة .

لقد صارت تهيم يوما واثنين وسبعة دون أن تدرى سببا لذلك . ربما كان يحدوها أمل عبور الجبهة ، الا أنها بدأت تصدق ما أوحت به نفسها الى سيريوجكا . وما الذى يمنعه حقا من العودة اليها مع احدى وحدات الجيش الأحمر ؟ لقد ذكر : «انني سوف أعود حتما» . ولم يسبق له أن حنث بوعد .

وقد وجدت فاليا لنفسها مأوى فى أحد النجوع الكائنة على مسافة خمسة عشر كيلومترا من مدينة كامينسك التى دارت بشوارعها فى نفس الليلة رحى المعركة ، وحيث تصاعدت أعمدة الدخان الأسمر التى غمرها وهج الحرائق ، وظهرت واضحة لعشرات الكيلومترات . ولم يكن بالنجع المان ، ولذا فقد ظلت فاليا شأن كل السكان ، ساهرة تنظر الى اللهيب المتصاعد . فثمة شيء جعلها تنتظر وتترقب .

وفى حوالى الحادية عشرة صباحا علم سكان النجع بنبأ دخول قوات الجيش الأحمر مدينة كامينسك ، وبأن المعركة تدور بشوارع المدينة ، وكذلك بانحسار الألمان عن الجزء الأعظم منها . وهذا يعنى أنه سرعان ما سوف يعود الى هنا أسوأ أنواع الأعداء ، أى العدو الذى حطمته المعركة . وحملت فاليا كيسها الذى ألقت به صاحبة البيت كسرة خبز شفقة عليها ، ورحلت عن النجع .

وراحت تسير على غير هدى . وكانت الثلوج ما تزال تذوب بيد ان الرياح كانت قد غيرت اتجاهها وغدت أكثر برودة ، وانقشع الضباب وراحت الغيوم الثلجية غير محددة الأطر تغطى صفحة السماء . وتوقفت فاليا فى منتصف الطريق ، طويلا طويلا ، بقامتها النحيفة وكيسها الذى حملته على ظهرها بينما صارت الرياح الباردة الرطبة تتلاعب بخصلات شعرها . ثم اتخذت طريقها الذى غمرته مياه الثلوج قاصدة كراسنودون .

وفى ذلك الحين كان سيريوجكا أعزل السلاح يطرق نافذة أول كوخ من الجانب الآخر لهذا النجع ، بينما أسدل يده الجريحة يلفها كمه المضرج بالدماء .

كلا . . لم تشأ الأقدار أن يلقى سيريوجكا حتفه هذه المرة . لقد ظل طويلا ممددا على تلك الثلوج غير النظيفة وسط ذلك النجع القريب من المزلقان وحتى تمالك الألمان روعهم . وقد كان

من المستحيل توقع هجوم القوات السوفييتية على النجع فى نفس تلك الليلة . ولذا فقد كان ينبغى عليه الانسحاب فى اتجاه الجبهة . وكان يرتدى ثيابا مدنية ، ويمكنه دفن سلاحه فى ذلك المكان . هذا علاوة على أن هذه المرة ليست الأولى التى سوف يحاول فيها اختراق مواقع العدو !

كانت الظلمة لم تنقشع بعد حين راح يجرجر يده الجريحة فى صعوبة بالغة يزحف عبر السكة الحديدية . وفى مثل هذا الوقت تنهض ربة البيت النشيطة ، تشعل الضوء قبيل مطلع الفجر . بيد أن ربات البيوت النشيطات كذلك يجلسن اليوم مع أطفالهن فى أقبية المنازل .

وزحف سيريوجكا بعيدا عن خط السكة الحديدية بمسافة مائة متر ثم انتصب واقفا يجد فى السير وحتى وصل النجع .

وقامت احدى الفتيات ، كانت قد جاءت على التو بدلو ماء ، بتضميد ذراعه بقطعة قماش قديمة ، وغسلت له كمه المضرج بالدماء . وكان أصحاب الكوخ يخشون قدوم الألمان ، ولذا فلم يقدموا له الطعام الساخن بل اكتفوا باعطائه بعض الطعام زادا له فى طريقه .

أما سيريوجكا الذى لم يذق طعم النوم طوال الليل فقد راح يذرع النجوع المحاذية لخط الجبهة بحثا عن فاليا .

وشأن طقس البرارى بدأ الجو فى التحول نحو برودة الشتاء . وبدأت الثلوج تتساقط ، ليعقبها صقيع شديد . . . وفى أواخر شهر يناير وجدت فينيا شقيقة سيريوجكا التى كانت تعيش وحدها برفقة أسرتها ، حين عادت من السوق باب مسكنها مغلقا . وتساءل ابنها الأكبر من الداخل :

— ماما . . هل قادمة وحدك ؟

كان سيريوجكا يجلس الى المائدة وقد اتكأ عليها بأحد مرفقيه ، بينما تدلت يده الجريحة الى جواره . لقد كان نحيف القامة بطبيعته الا أنه غدا اليوم أكثر نحافة ، وتقوس ظهره ، ولم تبق سوى عينيه اللتين استقبلتا شقيقته بنفس الحيوية والنشاط السابقين .

وأخبرته فينيا بأنباء القبض على بعض عمال الورش المركزية

وحول ان الجزء الأعظم من اعضاء «الحرس الفتى» رهين السجون . كما وكانت قد عرفت من مارينا خبر اعتقال كوشيفوى كذلك . ولبث سيريوجكا جالسا فى صمت ، بينما كانت عيناه تتالقان ، وحتى ذكر اخيرا :

— اننى سوف ارحل ، فلا داعى للقلق !

فقد كان يشعر بأن فينيا قلقة عليه وعلى اولادها فى آن واحد . وضمدت شقيقته جراحه ، والبسته فستانا ، لتجمع كل ما كان يرتديه فى صرة ، وعندما خيم المساء راحت ترافقه الى بيته .

وكان الحرمان الذى قاساه والده فى السجن قد اثر عليه كثيرا لدرجة انه غدا طريح الفراش طوال الوقت تقريبا . اما امه فقد كانت ما تزال متماسكة . كما وكانت شقيقتاه داشا وناديا غير موجودتين ، حيث كانتا قد رحلتا الى مكان ما فى اتجاه الجبهة .

وراح سيريوجكا يتساءل ما اذا كانوا قد سمعوا شيئا بشأن فاليا بورتس .

وقد قربت تلك الفترة ما بين اهالى المعتقلين من اعضاء «الحرس الفتى» ، الا ان ماريا اندرييفنا لم تقل شيئا لوالدة سيريوجكا عن ابنتها .

وسأل سيريوجكا فى تجهم :

— أو ليست موجودة هناك ؟

كلا . . ان فاليا لم تودع السجن ، وهذا ما كانوا يرجحونه .

وخلع سيريوجكا ثيابه ليخلد الى النوم لأول مرة منذ شهر باكمله فى فراش نظيف . . فى فراشه .

وكان مصباح الزيت يرسل اشعته من فوق المائدة ، فيما ظل كل شىء على حاله منذ ايام طفولته ، الا انه لم يكن يرى شيئا من ذلك . فقد كان والده يرقد بالغرفة المجاورة ، يسعل بقوة تهز جدران الغرفة ؛ بينما كان سيريوجكا يتصور ان الهدوء الذى يسود الغرفة امر غير طبيعى ، فلم يكن هناك وجود لشقيقتيه بما يعنيه ذلك من جلبة وحركة ، بل كان ابن شقيقته الصغير يزحف على ارضية غرفة الجد يتمتم بكلمات غير مفهومة .

وخرجت الأم لقضاء بعض الأمور . وجاءت جارتهم ، وهى امراة فى مقتبل العمر لتدلف الى غرفة الجد . وكانت قد اكثرت فى الآونة

الأخيرة من التردد على هذا المنزل ، يوميا تقريبا . ولم يكن والدا سيريوجكا لسذاجتهما وطيبة قلبيهما يفكران ابدا فى علة هذه الزيارات المتكررة . وقد دخلت تلك المراة وتبادلت حديثا قصيرا مع «الجد» .

وراح الطفل يزحف ، ثم التقط شيئا ما وواصل زحفه فى اتجاه غرفة سيريوجكا مناديا:

— خالى . . خالى !

ورمت الجارة الغرفة بنظرة سريعة حيث شاهدت سيريوجكا ، ولتتبادل بضع كلمات اخرى مع «الجد» ثم تنصرف .

وتململ سيريوجكا فى فراشه قليلا ثم كف عن الحركة .

وكان الوالدان قد خلدا الى النوم ، بينما خيم الهدوء والظلمة على المنزل فى حين لم يكن سيريوجكا قد نام بعد ، يئن تحت وطأة الحزن .

وفجأة تعالى قرع عنيف للباب المفضى الى الفناء :

— افتح ! . .

ومنذ ثانية واحدة مضت كان يخيل للمرء ان تلك القوة العارمة وحب الحياة اللذين صاحباه طوال حله وترحاله ، قد غادراه الى الأبد ، ليبدو محطما منهكا . بيد انه وفى نفس اللحظة التى تعالى فيها ذلك الطرق ، عادت اليه ليونته ومرونته ليقفز فى خفة من فراشه ويقترب من النافذة يرفع زاوية ستارة تعتيمها . وبدا كل شىء ناصع البياض فى الخارج ، يدثره ضياء القمر . ولم يكن قوام الجندى الألمانى برشاشه الذى امسك به فى وضع الاستعداد الى جوار النافذة ، يبدو وكأنه قد رسم وحده على صفحة الثلوج ، بل وبدا كذلك ظله وعلى نفس النحو .

واستيقظ الأب والأم يتبادلان فى خوف بعض الكلمات التى شابها النعاس ، ثم التزما الصمت ينصتان الى طرق الباب . وارتدى سيريوجكا بيد واحدة وكما تعود اخيرا ، سرواله وقميصه وانتعل حذاءه الذى تسلمه فى الجيش الأحمر ، الا انه لم يستطع احكام رباطه الجلدى وخرج الى الغرفة التى كان ينام بها ابوه وامه .

وذكر فى هدوء :

— فليفتح احدكما الباب . ولا داعى لاشعال الضوء .

وبدا الكوخ وكأنما سوف تتداعى جدرانه تحت وقع تلك الضربات .

وراحت الام تذرع الغرفة ذهابا وايابا ، وقد فقدت السيطرة على نفسها تماما . اما الأب فقد نهض من فراشه فى هدوء ، مما جعل سيريوجكا يشعر انه غدا عاجزا عن الحركة ، حيث اثقلته كل تلك الهموم . وقال بصوت رقيق :

– لا خيار امامنا . ونحن مضطرون الى فتح الباب .

وادرك سيريوجكا أن والده يبكى .

وخرج الأب الى الردهة يدق ارضيتها بعكازه وهو يقول :

– سنفتح . . سنفتح !

وانزلق سيريوجكا فى خفة فى اثر والده .

وهرولت الأم الى الردهة ، حيث حركت شيئا معدنيا من مكانه ، لتفوح رائحة الصقيع وعلى ما يبدو . وفتح الأب باب المدخل وانتحى جانبا فيما ظل ممسكا به .

ودلف الى الداخل ثلاثة اشباح لفها الظلام ، الواحد تلو الآخر ، من تلك الزاوية التى تسلل منها ضوء القمر . واغلق آخرهم الباب من خلفه ، ولتغمر المدخل اشعة مصباح كهربائى كبير ووقع الضوء فى البداية على الأم التى كانت تقف الى جوار الباب المفضى الى البناية الملحقة بالمنزل – زريبة الأبقار . وقد شاهد سيريوجكا من مكانه الذى خيمت عليه الظلمة ، الباب الذى انزلق ترباسه مفتوحا بعض الشىء ، وفطن الى ان امه قد فتحته خصيصا من اجله . بيد أن اشعة المصباح الكهربائى استقرت فى تلك اللحظة على الأب وسيريوجكا الذى اختفى وراءه . . حيث لم يكن يظنهم سوف يسلطون اضواء مصباحهم على الردهة ، وكان يحدوه امل الانزلاق الى الفناء حين يدلفون الى داخل الغرفة .

وامسك به جنديان من يديه ، لتعلن آلام ذراعه عن نفسها فى صيحة اطلقها . وصارا يجرجرانه الى داخل الغرفة .

وصرخ سوليكوفسكى فى الأم :

– فلتشعلى الضوء . ما لك تقفين هكذا كما الأميرة !

وارتجفت يدا الأم لتفشل طويلا فى اشعال المصباح ، ليقوم

سوليكوفسكى بنفسه باشعاله من ولاعته . وكان احد جنود الاس اس وفينبونج هما اللذان امسكا بسيريوجكا .

وما كادت الأم تراهم على هذا الحال حتى انفجرت فى البكـــاء وارتمت تحت اقدامهم . وقد اخذت تزحف على الأرض بقوامها الكبير تتشبث فى الأرض بيديها البضتين اللتين حملتا آثار الكبر . اما الأب فقد لبث واقفا وقد مال بقامته حتى الأرض متكئا على عكازه فيما تعترى الرجفة جسده .

وفرغ سوليكوفسكى من تفتيش المنزل بسرعة ، حيث لم تكن تلك هى المرة الأولى التى يقوم فيها بتفتيش مسكن آل تيولينين . وتناول الجندى من جيب سرواله حبلا وراح يقيد به يدى سيريوجكا خلف ظهره .

– انه ابنى الوحيد . فلتشفقوا علينا . خذوا كل ما نملك . . البقرة ، والملابس .

ويعلم الله وحده كل ما قالته آنذاك . . وما اشد شفقة سيريوجكا عليها ، لدرجة انه خاف التفوه بشىء خشية الانفجار فى البكاء .

وامر فينبونج الجندى باقتياده .

وصارت الأم تحاول الحيلولة دون ذلك الا انه دفعها بقدمه فى تقزز .

ودفع الجندى سيريوجكا ثم تقدمه ، بينما انصرف فينبونج وسوليكوفسكى فى اثرهما . والتفت سيريوجكا يقول :

– وداعا يا ماما . . وداعا يا والدى .

واندفعت الأم نحو فينبونج وراحت تضربه بقبضتيها اللتين كانتا ما تزالان قويتين فيما تصيح :

– يا ايها القتلة . . ان قتلكم ليس كافيا . . فلتنتظروا حالما تجىء قواتنا !

– آه منك . . يبدو انك تريدين العودة من جديد . .

زار سوليكوفسكى بتلك الجملة واخذ يجر ، على الرغم من توسلات «الجد» بصوته المبحوح ، الكسندرا فاسيليفنا الى الشارع فى ردائها الخفيف التى كانت ترتديه دائما أثناء نومها الى الشارع . الا ان «الجد» استطاع بالكاد ان يرمى اليها بمعطفها وشالها .

الفصل الرابع والستون

ولزم سيريوجكا الصمت حين راحوا يضربونه ، ولزمه ايضا حين راح فينبونج يلوى ذراعيه ، يدفعه نحو التعذيب ، ولزمه كذلك متحملا تلك الآلام الرهيبة التى راحت تعلن عنها ذراعه . ولم يصر سيريوجكا على أسنانه الا عندما طعن فينبونج جرحه .

وكم كان مفعما بالحيوية والنشاط لدرجة مذهلة . فقد اودع زنزانة انفرادية ، الا انه سرعان ما اخذ يدق جدرانها ، يحاول معرفة جيرانه بالزنزانتين المجاورتين . وشب على اطرافه يتمعن النظر الى ذلك الشق الكائن تحت السقف وكأنما يفكر فى امكانية توسيعه والانزلاق عبره ولو الى فناء السجن . فقد كان على يقين من قدرته على الهرب اذا ما خرج من هذا المكان . وجلس يتذكر مواقع النوافذ فى تلك الغرفة التى جرى بها استجوابه وتعذيبه ، وما اذا كان باب الردهة الذى يفضى الى الفناء مغلقا بالقفل . آه لو لم تكن ذراعه مصابة ! كلا . . انه لم يكن يعتقد بعد فى انه خسر كل شىء . فقد ترامى هدير المدفعية على نهر الدونيتس الى داخل الزنزانات فى تلك الليالى القمرية الباردة .

وفى الصباح جرى مواجهته بفيتكا لوكيانتشينكو .

— كلا . . لقد سمعت انه يسكن الى جوارنا ، الا اننى لم اره قبل ذلك .

هذا ما قاله فيتكا فيما يتحاشى النظر الى سيريوجكا بعينيه المخمليتين الداكنتين ، اللتين لم يتبق له سواهما ينمان عن حياة . اما سيريوجكا فقد لزم الصمت .

وقادوا فيتكا لوكيانتشينكو الى الخارج ، لتدخل بعد برهة قصيرة أم سيريوجكا برفقة سوليكوفسكى .

وانتزعوا ملابس المراة المسنة ، ام الاثنى عشر طفلا ، ورموا بها الى الأريكة الخشبية المضرجة بالدماء وراحوا يجلدونها بالأسواط المجدولة من الأسلاك الكهربائية على مرأى من ابنها .

ولم يدر سيريوجكا وجهه ، بل اخذ ينظر كيف يجلدون امه ، دون أن يقول شيئا .

ثم راحوا يجلدونه على مرأى من امه ، دون ان يقول شيئا

كذلك ، ولدرجة ان فينبونج فقد السيطرة على نفسه ليمسك بقضيب حديدى يضرب به مرفق يد سيريوجكا السليمة . وامتقع وجه سيريوجكا وتلألأت قطرات العرق على جبينه ليقول :

— والآن . . انتهى كل شىء .

وفى ذلك اليوم جاؤوا الى السجن بكل مجموعة المعتقلين من مستعمرة كراسنودون . وكانت غالبيتهم غير قادرة على السير ، مما جعلهم يجرونهم ممسكين بهم من تحت ابطهم ليلقوا بهم الى تلك الزنزانات المكتظة عن آخرها . وكان كوليا سومسكوى ما يزال قادرا على الحركة ، الا ان احدى عينيه كانت قد فقئت وتورمت . اما توسيا يليسيينكو ، تلك الفتاة المفعمة بحب الحياة والتى صاحت يوم شاهدت الحمامة البيضاء تشق الأجواء الى أعالى السماء ، فلم يكن بامكانها سوى التمدد على بطنها . ذلك لأنه قد جرى اجلاسها فوق موقد ساخن قبيل اقتيادها الى هذا المكان .

وما كاد الجدد يدخلون حتى دلف جندى الشرطة الى زنزانة الفتيات لاقتياد ليوبكا . وكانت كل الفتيات وكذلك ليوبكا على يقين من انه سوف يجرى اعدامها ، ولذا فقد توادعت معهن قبيل اقتيادها.

بيد انهم لم يعدموها ، بل جرى ارسالها الى روفنكى ، وفقا لطلب الحاكم العسكرى للمقاطعة الميجور جنرال كلير الذى اراد استجوابها بنفسه .

وكان يوم تسليم المأكولات والرسائل الى السجناء ، شديد البرودة يخيم عليه الهدوء الذى تتعالى فيه أصوات البلطة حين تضرب الأخشاب ، والدلو حين يصطدم بالمياه ، ودبيب خطوات المارة ، يحملها الهواء الذى تألق تحت الشمس وضياء الثلوج .

وقامت يليزافيتا الكسييفنا وليوديميلا ، بربط صرة المأكولات ، وقد كانتا تفعلان ذلك سوية دائما ، وتناول الوسادة التى طلبها فولوديا فى آخر رسالة بعث بها ، وانطلقتا تقطعان الممر الذى مهد عبر الثلوج فى الأرض القفرة تقصدان مبنى السجن المستطيل الذى بدا بجدرانه البيضاء وسقفه الذى غطته الثلوج وكأنما تمازج مع ما حوله .

وكانت الأم والابنة على درجة من النحافة جعلتهما قريبتى الشبه ، كل من الأخرى مما غدا معه ممكنا اعتبارهما شقيقتين . كما

وتحولت الأم التى كانت دائما متوقدة الحركة ، حادة التصرفات الى مجرد نسيج من الأوتار العصبية .

وقد ادركت يليزافيتا الكسييفنا وليوسيا ان شيئا غير طيب على وشك الحدوث ، حيث اعلنت عن ذلك نبرات النسوة اللاتى احتشدن الى جوار السجن ، ولأنهن كن يحملن الصرر دون ان تتحرك اى منهن الى بوابته . وقد وقف كعادته عند مدخل السجن حارس المانى يتحاشى النظر الى النسوة ، بينما اعتلى الشرفة شرطى يرتدى معطفا فرائيا اصفر ، الا انه رفض تسلم اية رسائل .

ولم تلتفت يليزافيتا الكسييفنا او ليوسيا الى الواقفات الى جوارهما حيث كن جميعهن يلتقين يوميا فى نفس المكان .

ووقفت ام زيمنوخوف ، وهى عجوز نحيفة صغيرة ، الى جوار درج المبنى تمسك فى يديها صرة ولفة ، تمدهما الى الأمام قائلة :

– فلتسلمه ولو بعض الماكولات . . .

وذكر الشرطى دون ان ينظر اليها :

– لا داعى . . اننا سوف نطعمه بانفسنا . . .

– لقد طلب ملاءة .

– اننا سوف نصرف له اليوم فراشا طيبا .

وتوجهت يليزافيتا الكسييفنا الى المدخل لتتساءل بصوتها الحاد :

– لماذا لا تتسلمون الرسائل ؟

ولم يجب الشرطى بشىء ، دون ان يعيرها اهتماما .

وذكرت يليزافيتا الكسييفنا فيما تنظر الى النسوة حولها :

– لسنا فى عجلة من امرنا ، وسوف ننتظر حتى يخرج من يجيبنا .

وهكذا ظلت النسوة يقفن امام السجن وحتى تعالى وقع اقدام كثيرة فى الفناء وتقدم من يفتح البوابة . وكانت النسوة تستفدن دائما من تلك الحالات لتوجهن انظارهن الى النوافذ التى تطل على هذا الجانب من السجن . وقد كن احيانا يستطعن رؤية اولادهن القابعين فى تلك الزنزانات . واندفعت النسوة نحو الجانب الأيسر من البوابة التى خرج منها بعض الجنود تحت امرة الرقيب بولمان لتفرقتهن وطردهن بعيدا .

وتراجعت النسوة ليعدن الى اماكنهن من جديد . كما وعلت اصوات بعضهن وتنحت يليزافيتا الكسييفنا وليوسيا جانبا تراقبان فى صمت ما يجرى .

وذكرت ليوسيا :

– سوف يجرى اعدامهم اليوم .

وذكرت يليزافيتا الكسييفنا بصوت مبحوح اجش فيما تشع عيناها على نحو يتسم بالرهبة :

– لا اطلب من الله سوى شىء واحد . . اننى اطلب منه الا يدعه مهيض الجناحين ، والا تعتريه الرجفة امام هؤلاء الكلاب ، وان يبصق فى وجوههم .

وفى تلك اللحظات كان اولادهن يعيشون آخر مراحل عذابهم ، واكثرها هولا .

وقد وقف زيمنوخوف فاقد القوى امام بريوكنر فيما تسيل الدماء على وجهه ، ويميل راسه فى وهن لكنه كان يبذل قواه ليرفعه ، وحتى استطاع فى نهاية الأمر ذلك ليتكلم بعد اربعة اسابيع من الصمت المطبق :

– هيه أوعجزتم عن ذلك ؟ انكم عاجزون ! . . كم من البلدان استوليتم عليها . . وتخليتم عن الشرف والضمير ، ومع ذلك فانتم عاجزون . . انكم لا تملكون القوة .

ثم انفجر ضاحكا .

وفى وقت متأخر من المساء جاء جنديان المانيان الى الزنزانة باوليانا التى امتقع وجهها ، وتدلت ضفيرتاه على الارض والقيا بها الى جوار الحائط .

وتاوهت اوليانا لتنقلب على بطنها ، ثم نادت ايفانيخينا الكبرى :

– ليليتشكا . . فلترفعى بلوزتى . . يلسعنى ظهرى . . .

وتقدمت ليليا التى كانت تتحرك بالكاد ، والتى كانت رغما عن ذلك قد واصلت عنايتها برفيقاتها حتى اللحظة الأخيرة ، ترفع فى حرص بلوزتها المضرجة بالدماء ، لتتراجع الى الوراء فى فزع وتنفجر باكية ، فقد وقع نظرها على نجمة خماسية تلتهب دامية على ظهر اوليانا !

لن ينسى سكان كراسنودون تلك الليلة وحتى يوارى الثرى آخر فرد من ذلك الجيل . كان القمر بدرا يطل ناصعا يعشى الأبصار من مكانه فى كبد السماء . وكانت الرؤية واضحة لمسافة عشرات الكيلومترات ، بينما خيم الصقيع شديـــدا لا يطاق . وتوهجت الأضواء هناك بالشمال وعلى طول نهر الدونيتس ، وترامى الى الاسماع هدير المعارك الكبيرة والصغيرة تارة قويـــا ، واخرى ضعيفا .

ولم ينم احد من الأقارب فى تلك الليلة ، كما وليس الاقارب وحدهم ، حيث كان الجميع يعلمون انه سوف يجرى اعدام اعضاء «الحرس الفتى» . والتف السكان حول المصابيح الصغيرة ، واحيانا فى ظلمة الليل التى لفت شققهم ومنازلهم الباردة ، بينما كان البعض يهرول الى الفناء ، ليظل واقفا لفترة طويلة فى ذلك الصقيع يصيخ السمع ، فقد يتناهى اليه صوت ما او هدير محرك او طلقات رصاص .

كما ولم ينم احد فى الزنزانات عدا اولئك الذين كانوا قد فقدوا وعيهم . وقد شاهد آخر اعضاء «الحرس الفتى» الذين اقتيـــدوا للتعذيب ، وصول عمدة المدينة ستاتسينكو . وكان الجميع يعلمون ان العمدة يصل دائما قبيل عمليات الاعدام والتى تتطلب توقيعه على الحكم الخاص بها .

كما وكان المعتقلون بالزنزانات يسمعون هدير المعارك التى تدور رحاها على نهر الدونيتس .

واخذت تدق جدار زنزانة جيرانها الشباب اوليانا ، التى تمددت على جانبها نصف راقدة ، مستندة الى الجدار براسها :

— هل تسمعون يا شباب . . هل تسمعون ؟ تجلدوا . . قواتنا قادمة . انها قادمة رغما عن كل شئ .

وتعالى بالردهة دبيب اقدام الجنود وصفق ابواب الزنزانات . وبدات عملية اخراج المعتقلين الى الردهة ثم الى الشارع عبر المدخل الرئيسى ، وليس عبر الفناء . وبدات الفتيات اللاتى كن يجلسن فى الزنزانة فى معاطفهن وستراتهن تساعد كل منهن الأخرى فى ارتداء غطاء الراس او عصب المناديل . وقامت ليليا بمساعدة انيا سوبوفا ، اما شورا دوبروفينا فقد ساعدت صديقتها الحبيبة مايا .

وكتبت بعض الفتيات آخر الرسائل وقمن باخفائها وسط الملابس المستعملة .

وكانت اوليانا قد تسلمت مع رسالة المرة الماضية الملابس الداخلية النظيفة ولذا فقد بدات اليوم تجمع ملابسها المستعملة فى صرة . الا ان الدموع خنقتها فجاة ، ولدرجة انها لم تستطع التحكم فيها فتناولت ملابسها المضرجة بالدماء ، وغطت بها وجهها ثم لزمت مكانها فى زاوية الحجرة لتظل بلا حراك بعض الوقت .

وجرى نقلهم الى الأرض المقفرة التى تغمرها اشعة القمر ، واجلسوهم على متن عربتى نقل . وكان اول من القى به الى العربة ستاخوفيتش الذى حملوه فاقد الوعى والقوى تماما . ولم يكن كثير من اعضاء «الحرس الفتى» قادرين على السير بانفسهم . وقد حملوا كذلك الى العربة اناتولى بوبوف الذى كانوا قد قطعوا خف قدمه . كما وقام راجوزين وجينيا شيبيليف بمساعدة فيتيا بيتروف الذى فقئت عيناه . اما فولوديا اوسموخين فقد سار بنفسه مبتور الذراع . وحمل توليا اورلوف وفيتيا لوكيانتشينكو زميلهما فانيا زيمنوخوف . وخرج سيريوجكا تيولينين يسير مترنحا فى اثرهم .

وجرى نقل الصبية فى عربة والفتيات فى العربة الأخرى .

وصفق الجنود حافتى صندوقى العربتين المكتظتين ، ثم تسلقوا ليعتلوا متنهما عبر حوافيها الجانبية ، بينما احتل فينبونج مكانه الى جوار سائق العربة الأولى . وتحركت العربتان تنهبان الطريق عبر الأرض المقفرة الى جوار مبنى مستشفى الأطفال ومدرســة فوروشيلوف . وكانت العربة الأمامية تحمل الفتيات . وبدات اوليانا وساشا بونداريفا وليليا يغنين :

عذبك الاسر طويلا
لكن استشهادك كان مجيدا . . .

وانضمت الفتيات اليهن ؛ كما وبدا الصبية بالعربة الثانية فى الغناء كذلك ، ليحمل الهواء البارد الساكن غناءهم بعيدا بعيدا .

واتخذت العربتان حين انعطفتا الى يسار آخر البيوت طريقها نحو المنجم رقم ٥ .

واخذ سيريوجكا الذى اتكأ بظهره على حافة صندوق العربة



الخلفية يستنشق الهواء البارد فى نهم . وها هما العربتان تتجاوزان المنعطف المفضى الى ضواحى المدينة ، مما يعنى انهم سرعان ما سوف يتجاوزون الوهدة . كلا . . لقد كان سيريوجكا يدرك انه ليس قادرا على ذلك ، الا ان زميله كوفاليف كان يجثو امامه على ركبتيه فيما قيدت يداه خلف ظهره . لقد كان ما يزال قويا ولذا قيدوا يديه . ودفعه سيريوجكا براسه ليلتفت اليه ، وهمس سيريوجكا مومئا براسه جانبا :

– تولكا . . . الوهدة قريبة .

والقى توليا كوفاليف بنظرة جانبية نحو كتفه وهز يديـه المقيدتين . وهبط سيريوجكا يقترب من وثاقه باسنانه . وقد كان سيريوجكا على حالة من الضعف الشديد جعلته يستند من آن لآخر الى حافة العربة وقد غطت قطرات العرق جبينه . لكنه راح يقاوم وكانما يقاوم فى سبيل بقائه . وها هو الوثاق يفك . وقام كوفاليف بتحريك يديه اللتين ظلتا خلفه كما فى السابق .

وتعالى غناء الصبية والفتيات :

سوف ينهض المنتقم الجبار
وسوف يكون اقوى الاقوياء

وهبطت العربتان الى الوهدة ، وبدات الأولى تصعد المنحدر الآخر . كما وراح هدير محرك الثانية يعلو فيما تدور عجلاتها باسرع ما يمكن ودون تقدم يذكر ، وحتى بدات اخيرا فى صعود ذلك المنحدر . وقفز كوفاليف من العربة وهرب عبر الوهدة .

ومضت اولى لحظات الارتباك لتكون العربة قد غادرت الوهدة ، وليغيب كوفاليف عن الأنظار . ولم يتجاسر الجنود على القفز من العربة حتى لا يهرب المعتقلون الآخرون ، واخذوا يطلقون نيرانهم كيفما اتفق . وما ان سمع فينبونج صوت طلقات الرصاص حتى توقف بعربته الأولى وقفز من مكانه بها وتوقفت العربة الأخرى كذلك . واخذ صوت المخنث فينبونج يعلو بالسباب .

– لقد هرب ! . . لقد نجا !

صاحها سيريوجكا بصوته الرقيق فى فرحة هائلة ، ثم اخذ

يطلق اقذع الشتائم التي كان يعرفها . بيد ان هذه الشتائم بدت على لسان سيريوجكا كما القسم المقدس .

وها هو برج المنجم رقم ٥ يبدو مائلا بعد تفجيره .

وبدأ الصبية والفتيات ينشدون «الأممية» .

وجرى انزالهم جميعا الى مبنى الحمام التابع للمنجم ، حيث لبثوا جميعا ينتظرون قدوم بريوكنر وبالدر وستاتسينكو . وشرع رجال الشرطة فى تجريد من كان يرتدى ثيابا جيدة وينتعل احذية لم تبل بعد ، ليصادرها لنفسه .

واستطاع أعضاء «الحرس الفتى» توديع كل منهم الآخر . كما وتوجهت كلافا كوفاليفا نحو فانيا لتجلس الى جواره وتضع يدها على جبينه ، لتظل معه الى الأبد .

وجرى اقتيادهم فى مجموعات صغيرة ، حيث راحوا يلقون بهم الواحد تلو الآخر الى بئر المنجم . وقام كل من استطاع منهم برفع صوته ببضع كلمات ودّ ان يتركها لهذا العالم .

وقد خشى الألمان الا يكون ذلك نهاية عشرات المعتقلين الذين القوا بهم الى اعماق البئر ، فقاموا بالقاء عربتى ترولى لتستقرا فوقهم تسدان فوهة ذلك البئر . بيد ان الأنين راح يترامى لبضعة أيام من بئر المنجم .

مثل فيليب بيتروفيتش ليوتيكوف وأوليج كوشيفوى قبالة الحاكم العسكرى كلير ، وقد أحكم وثاق معاصمهما . ولم يكونا يعرفان أنهما رهينى سجن واحد فى روفينكى طوال تلك الفترة التى قضياها معا . بيد أنهم جاؤوا بهما اليوم سويا مقيدى الأيدى ، مشدودين احدهما الى الآخر ، لمواجهة كل منهما بالآخر على أمل ارغامهما على الاشارة الى كل شبكة العمل السرى ، وليس فى المنطقة وحسب ، بل وفى المقاطعة بأسرها .

وعن السبب الذى دعاهم الى تقييدهما تقول أنهم كانوا يخشونهما مفكوكى الوثاق . كما وكان الأعداء يودون اثبات أنهم يعرفـــون دورهما فى المنظمة .

كانت شعيرات راس فيليب بيتروفيتش التى خطها الشيب قد

التصقت بجبهته المضرجة بالدماء الجافة ، كما والتصقت كذلك بجراحه ثيابه التى تمزقت ، لتسفر كل حركة تند عنه عن آلام رهيبة ، الا انه لم يبد اى شيء من ذلك . وقد جعلته الآلام الفظيعة والجوع اكثر نحافة ، لتبدو واضحة قسمات وجهه المفعمة بالقوة والتى كانت تميزه فى سنى صباه ، وتدل على مدى قدراته المعنوية العظيمة . اما عيناه فقد كانتا كالعادة تتسمان بالهدوء والصرامة .

وقف اوليج وقد اسدل ذراعه المصاب فى وهن ، بوجه لم تتغير ملامحه تقريبا سوى ان الشيب كان يغطى فوديه . وكانت عيناه الكبيرتان اللتان تظللهما الأهداب الذهبية الداكنة ، تنظران على نحو اكثر تالقا مما مضى .

وهكذا لبثا يقفان قبالة الحاكم العسكرى كلير — زعيمان شعبيان ، احدهما شاب والآخر عجوز .

وقام كلير الذى كان قد اغرق فى ارتكاب جرائم القتل ولم يكن يجيد غير ذلك بانزال اقسى صنوف العذاب بهما . بيد انه يجدر بنا القول انهما لم يعودا يشعران بشيء ، حيث تبخرت روحاهما عاليا عاليا الى اسمى درجة يمكن ان تصل اليها روح الانسان العظيمة الخلاقة .

ثم جرت التفرقة فيما بينهما ، حيث اعيد فيليب بيتروفيتش ثانية الى سجن كراسنودون . فلم يكن التحقيق فى مسالة الورش المركزية قد استكمل بعد .

غير ان رفاق العمل السرى لم يستطيعوا تقديم العون للمعتقلين ، وليس فقط لتشديد الحراسة حول السجن ، بل ولأن المدينة كانت قد اكتظت بقوات العدو المنسحبة .

وقد لقى فيليب بيتروفيتش ونيكولاى باراكوف ورفاقهما نفس مصير اعضاء «الحرس الفتى» ، حيث جرى القائهم الى غياهب بئر المنجم رقم ٥ .

اما اوليج كوشيفوى فقد جرى اعدامه رميا بالرصاص فى نهار الحادى والثلاثين من يناير ، والقى بجثته مع جثث الآخرين الذين جرى اعدامهم فى نفس اليوم ، الى حفرة عامة .

هذا وقد ظلوا يعذبون ليوبا شيفتسوفا حتى السابع من فبراير

فى محاولة لمعرفة الشفرة والحصول على جهاز الارسال . كما واستطاعت قبيل اعدامها ارسال رسالة الى امها تقول فيها :

«وداعا يا امى . . ان ابنتك سوف تودع اطيب الثرى» .

وقد راحت ليوبا حين جرى اقتيادها لتنفيذ حكم الاعدام بترديد واحدة من أحب الأغانى الى نفسها . .

هناك فى شوارع موسكو الرحبة . .

وقد اراد ضابط الاس اس الذى ساقها لتنفيذ حكم الاعدام فيها أن تجثو على ركبتيها حتى يستقر الرصاص فى ظهرها ، الا انها رفضت ذلك لتواجه الرصاص وجها لوجه .

الفصل الخامس والستون

لم يسمح فيليب بيتروفيتش حين طلب من بولينا جيورجيفنا تسليم العنوان الذى كان من المفروض ان يلجأ اليه اوليج وفانيا توركينيتش ، بابلاغهما عمن هو كائن هناك وقد كان ذلك من باب الحذر والحيطة . كما وكان على علم بأن مارفا كورنيينكو التى كانت تقيم هناك سوف تخطر بروتسينكو او زوجته بقدومهما ، وحتى يستطيعا الاستفادة من جهود قائدى «الحرس الفتى» .

وقد كان ابلاغ فيليب بيتروفيتش هذا العنوان السرى للغاية لأوليج وتوركينيتش يعنى ضمنا مدى ثقته فيهما ، وتقديره لهما ، وقلقه على مصيرهما .

بيد أن فانيا أدرك على الفور أن هذا المكان يفضى الى الفدائيين على الرغم من ان بولينا جيورجيفنا لم تشرح لأوليج ماهية ذلك المكان الذى يبعث به وبتوركينيتش اليه .

كان توركينيتش وموشكوف الوحيدين بين اعضاء «الحرس الفتى» اللذين كانا قد بلغا مرحلة النضج والرجولة . وقد عانى كثيرا فانيا توركينيتش شأن كافة الرفاق ، من عملية القبض على زملائهم . وقد انصرف بكل روحه الى التفكير فى كيفية انقاذهم . بيد انه وعلى النقيض من رفاقه كان يرى الأحداث بشكل واقعى . ولذا فقد كان تفكيره بهذا الصدد يتسم بالطابع العملى .

ان اقرب الطرق للافراج عن أصدقائه هو الطريق الذى يفضى الى الفدائيين . وقد كان توركينيتش يعرف أن القوات السوفييتية موجودة فى أراضى مقاطعة فوروشيلوفجراد ، وانها تتقدم ، وكذلك حول الاستعداد للقيام فى كراسنودون بانتفاضة مسلحة . ولم يكن يشك قيد انملة فى انهم سوف يوكلون اليه ، هو الانسان ذو الخبرة العسكرية ، قيادة فصيل أو على الأقل ، يوفرون له امكانية تشكيل مثل هذا الفصيل . ولذا وبدون اى تردد لجا توركينيتش الى ذلك العنوان الذى سلمه اليه أوليج .

ولم ينف توركينيتش احتمال معرفة ادارات ونقاط الشرطة للقبه ، ولذا فلم يخاطر بحمل اية وثائق تدل على هويته . كما وانه لم يكن يملك اية وثائق باسم آخر ، ولم يسعفه الوقت للحصول على مثلها . واتخذ فانيا طريقه نحو الشمال دون اية وثائق . ولما كان معصمه الأيسر يحمل منذ طفولته الحرف الأول من اسمه ، فقد ظل اسمه كما هو ، ليغير لقبه فقط ويصبح : كرابيفين .

كان وضعه عصيبا ، حيث كان قوامه العسكرى المفرود وسنه لا يسمحان له بالاندراج فى زحمة أولئك الذين يستطيعون التنقل من مكان لآخر دون وثائق ودون عمل يمارسونـــه فى المؤخرة الألمانية ، ولا سيما فى تلك المناطق الكائنة على مقربة مباشرة من الجبهة . اما الأعذار التى كان يمكنه أن يسوقها لتبرير موقفه اذا ما وقع فى قبضة الجستابو او الشرطة فقد تصورها على النحو التالى . . لاذ بالفرار بعيدا عن الحمر الذين احتلوا الخوفوى روج بمقاطعة روستوف ، حين داهمت دباباتهم النجع بحيث لم يسعفه الوقت لأخذ ما يثبت هويته معه . بيد ان هذه الأعذار كانت تعنى كذلك حتمية الحاقه بالعمل فى مؤخرة الألمان او ارسالـــه الى المانيا .

وراح فانيا يسير ليل نهار متحاشيا تلك المناطق الآهلـــة بالسكان التى يمكن ، وفقا لتقديراته ، أن يصادف فيها رجال الشرطة ، تارة عبر البرارى واخرى عبر الطرق العامة ، ينتقى اكثر الأماكن بعدا عن الأنظار . وقد كان حين يشعر بنفسه مكشوفا من كافة الجهات ، يلجأ الى النوم نهارا حيث يواصل السير ليلا . كما

وتجمدت أطرافه فى ذلك الحذاء الذى انتعله ، ولا سيما حين كان يضطر الى التوقف عن الحركة ، علاوة على أنه لم يكن يتناول طعاما على وجه التقريب . هذا وقد صلبت الآلام المعنوية نفسه . اما عن قدراته الجسمانية ، فقد كان جلدا ذلك الجلد الذى يستطيعه العامل الروسى ، وخاصة اذا كان شابا ، عاش خبرات مدرسة الحرب الوطنية .

وهكذا كان حاله حتى وصل الى مارفا كورنيينكو .

كانت القرية التى تسكنها مارفا ، بل ومنزلها نفسه وكذلك النجوع المجاورة دافيدوفو وماكاروف يار وغيرهما ، تغص بالقوات الألمانية . وكانت التحصينات الدفاعية القوية ترتفع على الشاطئ الأيمن من الدونيتس الشمالى ، كحالها على شاطئه الايسر . وقد فصلت الاستحكامات الدفاعية الألمانية بين الجزئين الشمالى والجنوبى لمقاطعة فوروشيلوفجراد ، ولدرجة أن الاتصال بين مارفا كورنيينكو وايفان فيدوروفيتش غدا مستحيلا تقريبا . كما وانه لم يكن هناك داعى لهذا الاتصال اليوم حتى اذا كان ممكنا . فقد قامت فصائل المناطق الشمالية بالمقاطعة بالتنسيق المباشر مع وحدات الجيش الأحمر ، واخذت تقاتل وفقا لأوامر قادة تلك الوحدات ، وليس تنفيذا لتعليمات ايفان فيدوروفيتش . أما فصائل المناطق الجنوبية التى لم يقترب منها خط الجبهة الا فى منتصف فبراير فقد كانت تقاتل وفقا لما تقتضيه الظروف . ذلك لأن بروتسينكو الذى كانت تفصله عنها عشرات بل ومئات الكيلومترات لم يكن قادرا على تقدير تلك الظروف ، وعلى قيادة تلك الفصائل .

ورحل فصيل بيلوفودسكى الذى كان موجودا به ايفـــان فيدوروفيتش بعيدا عن قاعدته فى قرية جوروديشى ، التى احتلها الألمان . وهكذا أصبح لا يملك قاعدته الدائمة ، ليقوم بالعمل فى مؤخرة الألمان وفقا لتعليمات القيادة السوفييتية . وفقدت مارفا الاتصال بايفان فيدوروفيتش وبزوجها كذلك . كما وفقدت الاتصال بكورنى تيخونوفيتش وبكل رجال فصيل ميتياكينسكى عموما ، حيث كان قد ترك قاعدته أيضا ، ذلك لأن القوات الألمانية استقرت فى منطقة ميتياكينسكايا التى راحت تشيد فيها تحصيناتها . هذا علاوة على أن توركينيتش وصل الى مارفا حين كانت يكاتيرينا بافلوفنا

قد رحلت منذ مدة بعيدة الى فوروشيلوفجراد ، وحيث انقطعت كافة الاتصالات بها .

كما وان لقاء مارفا وتوركينيتش لم يكن ليتم لولا جسارته وفطنته . وقد أسعده الحظ بأن مارفا صدقته على التو ، ودون اية وثائق . فلم تكن لديها اية فرصة للتحقق من كلمـــات توركينيتش . لقد استقبلت فى عدم اكتراث مصطنع نظرته الهادئة التى تتسم بالجدية التامة . كما ولحظت على التو وجهه النحيف الذى عكست قسماته الانهاك والجسارة ، وكذلك قوامه العسكرى المفرود وسلوكه المتواضع . لقد صدقته كما تصدق النسوة السلافيات . . على التو وبدون خطأ . وللحقيقة فلم تبد له على الفور انها تصدق ما يقوله . الا ان ثمة اعجوبة اخرى قد حدثت . فحين اثبتت كونها مارفا كورنيينكو ، تذكر فانيا موضوع جوردى كورنيينكو واطلاق سراحه من معسكر الأسرى العسكريين ، والذى كان قد علم به من ايفان زيمنوخوف ومن الذين شاركوا فى تلك العملية ، وسألها ما اذا كانت صلة قرابة تربط فيما بينهما .

وذكرت مارفا وقد تألقت بالحيوية على حين غرة عيناهـــا السوداوان اللتان ما زالتا تحملان امارات الشباب :

— ربما كذلك .

— لقد كان هؤلاء من شبابنا اعضاء «الحرس الفتى» هم الذين قاموا باطلاق سراحه . . .

وراح يقص عليها ما حدث .

وكانت مارفا قد استمعت الى هذه القصة من زوجها اكثر من مرة ، لتفرغ كل ما كان يتأجج من مشاعر العرفان فى قلبها ، قلب المرأة الأم ، تجاه اولئك الشباب الذين لم يكن فى استطاعتهـــا ملاقاتهم ، لتغمر به فانيا كوركينتش . ولم يكن ذلك فى عبارات مجردة او ايماءات ، بل قامت وببساطة باعطائه عنوان اقاربها فى ضواحى جوروديشى قائلة :

— ان خط الجبهة هناك على مسافة قريبة وسوف يقدمون لك العون هناك لعبوره .

واوما فانيا برأسه ، حيث لم يكن يسعى من أجل عبور خط الجبهة ، بل كان يأمل فى الاتصال بالفدائيين الذين ينسقون مع

وحداتنا العسكرية . وقد كان قادرا على العثور عليهم هناك فى ذلك المكان الذى وجهته مارفا اليه .

كانا يتبادلان الحديث وراء التل فى البرارى وليس فى بيت مارفا بالقرية . واخذت الدنيا تظلم وقد ابلغته انها سوف ترسل اليه شخصا يرافقه فى عبور الدونيتس هذه الليلة ، ثم رحلت . ومنعه كبرياؤه وتواضعه عن أن يطلب منها طعاما . الا أن مارفا لم تكن ذلك الشخص الذى يمكن ان ينسى مثل هذه الأمور . وجاء ذلك العجوز قصير القامة الذى تبادل معه ايفان فيدوروفيتش ذات يوم ملابسه ، يحمل الى فانيا بعض الخبز المجفف فى غطاء رأســه الشتوى ، وقطعة من الدهن . وراح العجوز الثرثار يهمس موضحا لفانيا انه لن يرافقه عبر الدونيتس لأنه لا يوجد اليوم مثل ذلك الشخص الذى يمكن ان يخاطر بحياته ليس فقط لمرافقة احد الفدائيين ، بل ولعبور النهر بنفسه . بيد انه ، اى العجوز ، سوف يشير له الى الطريق الأقرب والأسهل لعبور الدونيتس .

واستطاع توركينيتش عبور الدونيتس ، ليصل بعد بضعة ايام الى قرية تشوجينكا الثانية والواقعة على مسافـــة حوالى ثلاثين كيلومترا جنوبى جوروديشى . وراح يسير فى تلك المناطق التى صادفته فيها كثيرا تحصينات العدو ، ولاحظ بها التحركات الكبيرة للقوات الالمانية . وعرف فانيا من السكان المحليين ان نقطة شرطة غير كبيرة موجودة بالقرية التى كثيرا ما تعبرها الوحدات الألمانية تارة ، والرومانية تارة أخرى . كما وعرف فانيا أن تشوجينكا هى اقرب المناطق الآهلة بالسكان الى قرية فولوشينو التى تحتلها قواتنا ، والكائنة على شاطىء نهير كاميشنايا غير بعيدة عن مصبه فى نهر ديركول . ولذا فقد قرر الوصول الى تلك القرية مهما كلفه ذلك من جهد . وتوقع ان تكون ثمة اتصالات تربط ما بين السكان المحليين وقواتنا .

وهنا لم يكن حظه جيدا ، حيث القت الشرطة القبض عليه . وجرى اقتياده الى مبنى «الادارة الريفية» ، حيث شاهد ما يتعذر وصفه ، من مظاهر الانحطاط الانسانى — عربدة وسكر رجال الشرطة الروس القائمين على خدمة الألمان .

وجردوا توركينيتش من ملابسه ، ليتركوه فى ثيابه الداخلية ،

وقيدوا يديه وقدميه والقوا به الى القبو ذى الجدران التى حملت آثار الصقيع . وقد كان فانيا منهكا واهن القوى بعد تلك الرحلة ، ومعاناته ، وما هز كيانه اخيرا ، لدرجة انه وعلى الرغم من تلك البرودة الرهيبة التى دفعت الرجفة والقشعريرة الى جسده ، غفا مكانه فوق تلك الحصيرة عفنة الرائحة التى وجدها بعد زحفه على ارضية هذا المكان الحقير .

واستيقظ فانيا على اصوات الغازات العادمة للسيارات والتى تصورها تحت تاثير النوم طلقات رصاص . كما وترامى الى سمعه دوى بعض العربات الكبيرة التى توقفت الى جوار الحائط . واهتزت الأرض فوق راسه ، وبعد برهة قصيرة انفرج باب القبو ليقع نظر فانيا تحت ضوء ذلك الصباح على رماة الرشاشات السوفييت الذين اقتحموا القبو فى ستراتهم المبطنة بالقطن . ووجه الرقيب الذى تقدمهم ضوء مصباحه الكهربائى نحو فانيا .

كانت مجموعتنا للاستطلاع التى اقتحمت القرية على متن ثلاث عربات المانية مدرعة غنمتها من العدو هى التى قامت باطلاق سراح توركينيتش . وقد كان هناك بالقرية علاوة على رجال الشرطة الذين جرى احكام وثاقهم جميعا ، سرية من الجنود الألمان لم يكـن تعدادها يزيد عن سبعة مقاتلين وضابط وطباخ . وحين ظهرت العربات الألمانية المدرعة لم يعرها اى اهتمام الطباخ الذى كان يستعد لطهى بعض الطعام ، بل فرد قوامه قليلا ، وعلى اى حال ، استعدادا لاحتمال قدوم القيادة على متنها . أما وبعد بضع دقائق وحين غدا أسيرا ، قام بمنتهى الرغبة بالاشارة الى مكان نوم قائد السرية . واذ تقدم رماة الرشاشات السوفييت على اطراف أصابعه فى حذائه الغريب المصنوع من القش ، غمز بعينيه فى دهاء ، ووضع اصبعه على شفتيه قائلا «هس !»

وقد اقترح على توركينيتش العودة معهم الملازم أول قائد سرية الاستطلاع التى كان ينبغى عليها العودة الى وحدتها نظرا لنقص الوقود . غير أن فانيا رفض ذلك . وكان ذلك الحديث قد جرى فى تلك الساعة التى احاط فيها السكان المحليون بالعربات المدرعة ، يلاطفون جنود الجيش الأحمر ، يتوسلون اليهم حتى لا يغادروهم . وهنا يتضح أن ثمة شخصا سوف يبقى . . الناس ؟

ها هم ! وسوف يجد غيرهم الكثيرين الذين يتطلبهم الأمر . الاسلحة ؟ سوف يبدأ بتلك التى غنموها من الأسرى الألمان ، ثم يحصل على الباقى بنفسه ! ونرجو تقديم المساعدة فى الاتصال بوحداتنا عند كاميشنايا . . .

وهكذا بدأ فصيل ايفان كرابيفين الفدائى الذى بدأت شهرته تجوب كل ارجاء المقاطعة . وبعد أسبوع واحد كان الفصيل يضم ما يزيد عن أربعين مقاتلا مسلحين بأحدث الأسلحة عدا المدافع . واتخذ الفصيل قاعدة له معمل البان بقرية الكسندروف ، مدافعا عن منطقة تشمل بضع قرى تقع فى مؤخرة الجبهة الألمانية . وقد فشل الألمان فى تطهير هذه المنطقة من فدائيى ايفان كرابيفين وحتى وصلت قواتنا .

غير أن فانيا لم يستطع انقاذ «الحرس الفتى» . فقد استقر خط الجبهة عند هذا القطاع وحتى العشرين من يناير . كما ولم تعبر القوات السوفييتية الدونيتس الشمالى الا فى فبراير ، علاوة على انه قد عبرته فى البداية تلك الوحدات التى راحت تعمل عند اعالى النهر ، فى منطقة كراسنى ليمان ، وايزيوم ، وبالاكليا .

لم يكن فانيا قد علم بالمصير المأساوى الذى لقيته غالبية زملائه اعضاء «الحرس الفتى» . بيد انه كلما طالت مدة تأخر رحلته الى كراسنودون ، كلما زادت معاناته الروحية ، وكلما ارتقى فى نظره نحو الأسمى والأطهر والأشرف اولئك الفتيان والفتيات الذين قام معهم بكثير من الأعمال المجيدة والذين منحهم جزءا من قلبه .

وذات مرة ترددت عاملات معمل الألبان فى تنفيذ احد اوامره ، واعترفن صراحة بأنهن يخشين الألمان . وعندئذ ذكر كرابيفين الذى هو ايفان توركينيتش ، بدلا من اعلان غضبه من الفتيات ، وفى نبرة ملؤها الأسى :

– آه . . أيتها الفتيات ! هل فتياتنا هكذا حقا ؟

وقام متناسيا كل شىء ، يحدثهن عن اوليانا جروموفا وعن ليوبا شيفتسوفا وغيرهما . وسكتت الفتيات ، وقد اعتراهن الخجل وان كن فى نفس الوقت وقعن اسرى نظرة عينيه المفاجئة المفعمة

بالسعادة . وتلعثم فانيا على حين غرة ، ليشيح بكلتا يديـــه ينصرف دون ان يكمل حديثه .

وفى فبراير فقط اقترب من كراسنودون فانيا توركينيتش الذى اندمج بفصيله فى وحدات الجيش الأحمر النظامية ، التى عبرت الدونتس الشمالى فى اثر عدد من المعارك .

وكان سكان كراسنودون قد عاشوا طيلة هذه الفترة كـل الكوارث التى كان قد جاء بها الجيش الألمانى الهارب . فقد كانت وحدات الاس اس المنسحبة تنهب وتطرد السكان من اراضيهم وتفجر المناجم والمؤسسات وكل المبانى الضخمة الكائنة بالمدينة وفى كل ارجاء المنطقة .

وقد لقيت ليوبا شيفتسوفا حتفها قبل دخول الجيش الأحمر كراسنودون وفوروشيلوفجراد باسبوع واحد فقط ، حيث كانت الدبابات السوفييتية قد اقتحمت مدينة كراسنودون فى الخامس عشر من فبراير ، لترسى السلطة السوفييتية دعائمها عقب ذلك مباشرة .

وعلى مدى عدة ايام طويلة مضنية وفى حضرة حشد هائل من الناس ، قام عمال المناجم باخراج جثث البلاشفة واعضاء «الحرس الفتى» الشهداء من بئر المنجم رقم ٥ . وطوال تلك الأيام لم تبارح اماكنهن امهات وزوجات الشهداء ، تستقبل كل منهن جثمان طفلها او زوجها المشوه لتحمله على يديها .

وكانت يلينا نيكولايفنا قد رحلت الى روفينكى فى تلك الأيام التى كان اوليج ما يزال فيها حيا . بيد انها لم تستطع ان تفعل شيئا لابنها . كما ولم يكن يعرف ان امه موجودة الى جواره .

واليوم وفى وجود ام اوليج وكل اقاربه قام سكان مدينة روفينكى باخراج جسدى اوليج وليوبا شيفتسوفا من الحفرتين اللتين ووريا فيهما .

ولقد كان من الصعب معرفة يلينا نيكولايفنا كوشيفايا فى تلك المراة المسنـــة الصغيرة ذات الوجنتين السمراوين المتهدلتين والعينين اللتين تعبران عن ذلك الأسى العميق الذى يهدم بقوة شديدة اناسا مخلصين ذوى قلوب طيبة . غير انه ولما كانت طوال تلك الأشهر عونا لابنها ، ولا سيما ان استشهاده كان سببا فى تلك الآلام ، فقد جسدت تلك القوى المعنوية التى جعلتها اقوى من

الالم والمعاناة . وبدت وكانما قد تهاوى قبالتها ستار المشاغل اليومية الذى كان يحجب عنها ذلك العالم الكبير الحافل بالنضال والجهود والرغبات البشرية ، لتدلف اليه فى اثر ابنها وتجد نفسها على الطريق الكبير ، طريق الخدمات الاجتماعية .

وفى تلك الأيام اتضحت تفاصيل جريمة اخرى من جرائـــم الألمان . فقد جرى الكشف عن مقبرة عمال المناجم فى ارض الحديقة العامة . وحين بداوا فى رفع التراب فى محاولة الكشف عنهـم وجدوهم ، وقد ظهرت رؤوسهم فى البداية ثم اكتافهم ثم اجسادهم واياديهم . وبين هؤلاء كانت جثث فالكو وشولجا وبيتروف وتلك المراة التى ظهرت تحمل طفلها بين ذراعيها .

وقد جرى دفن جثث اعضاء «الحرس الفتى» والكبار التى جرى استخراجها من بئر المنجم رقم ٥ فى مقبرتين جماعيتين بالحديقـــة العامة .

وشارك فى مراسم الدفن كل الباقين من اعضاء منظمة البلاشفة للعمـــل السرى بكراسنودون واعضاء «الحرس الفتى» : ايفان توركينيتش وفاليا بورتس ، وجورا اروتيونيانتس واوليا ونينا ايفانتسوفا وراديك يوركين وغيرهم .

وحصل توركينيتش على اجازة من وحدتـــه التى بارحت كراسنودون فى اتجاه نهر ميوس كى يتمكن من توديع رفاقـــه الشهداء .

اما فاليا بورتس فقد تركت ضواحى كامينســك لتعود الى منزلها ، ولتبعث بها ماريا اندرييفنا الى اقاربهما فى فوروشيلوفجراد حيث استقبلت هناك الجيش الأحمر .

ولم يكن على قيد الحياة كذلك سيرجى ليفاشوف الذى لقى حتفه عند محاولته عبور خط الجبهة .

كما واستشهد ستيوبا سافونوف كذلك ، حيث كان موجودا فى ذلك القطاع من مدينة كامينسك الذى كان يسيطر عليه الجيش الأحمر ؛ وشارك فى الليلة الأولى لعملية الاقتحام ضمن قوام احدى الوحدات الفرعية فى المعارك ليلقى حتفه .

اما اناتولى كوفاليف فقد اخفاه احد العمال فى ضواحى المدينة . وقد كان جسده الضخم مصابا بالجروح فى كل مكان لدرجة انها

بدت وكأنما جرح واحد . ولم تكن هناك اية امكانية لتضميد تلك الجروح ، ولذا فقد حمموه بماء دافئ ولفوا جسده بملاءة . وقد لبث كوفاليف مختفيا بهذا المكان بضعة أيام ، الا أن الاستمرار فى ذلك كان أمرا محفوفا بالخطورة ، ولذا فقد رحل قاصدا اقاربه وليعيش فى ذلك الجزء من الدونباس الذى لم يكن قد حرر بعد .

وكان ايفان فيدوروفيتش بروتسينكو يتحرك طوال الوقت مع فصيله ، يتقدم القوات الألمانية المنسحبة يقاتلها بشكل مباشر فى مؤخرتها وحتى احتل الجيش الأحمر فوروشيلوفجراد . وهناك التقى ايفان فيدوروفيتش أخيرا مع زوجته كاتيا لأول مرة بعد فراقهما بالقرب من جوروديشى .

وقامت مجموعة الفدائيين بقيادة كورنى تيخونوفيتش وبتكليف من ايفان فيدوروفيتش باخراج العربة «جازيك» الشهيرة من تحت اطلال المحجر الكائن قريبا من قرية ميتاكينسكايا ، حيث كانت واقفة على اهبة الاستعداد ببنزينها ، بل وبصفيحة احتياطية كذلك ، خالدة مثل تلك الفترة التى صنعت فيها .

واستقل ايفان فيدوروفيتش وكاتيا هذه العربة وحتى كراسنودون . كما وصحبا معهما جوردى كورنيينكو للاقامة قليلا لدى زوجته مارفا . وهناك قامت مارفا بابلاغهم اخبار الألمان فى ايامهم الأخيرة بالقرية .

وقد قامت مارفا قبيل وصول القوات السوفييتية الى القرية بيوم واحد ، وبمرافقة ذلك الجد الذى رافق ذات يوم على عربته اقارب كوشيفوى ، واعطى ملابسه الى ايفان فيدوروفيتش ، بالذهاب الى الادارة الريفية حيث اقام مؤقتا رجال وجنود الشرطة الألمانية الهاربون من وراء الدونيتس . وهناك احتشد الى جوار المبنى كثير من السكان الذين كانوا يودون معرفة ما اذا كانت قوات الجيش الأحمر قريبة أم بعيدة ، بل وللاستمتاع بمنظر هؤلاء الألمان الهاربين .

وريثما كانت مارفا والجد يقفان الى جوار المبنى ، وصل أحد رجال الشرطة على متن زلاقة عريضة ، تركها ليتقدم نحو الجد يسأله فى عجلة فيما تدور عيناه اللتان اتسمتا بمظاهر الجنون :

– اين السيد الرئيس ؟

وزر الجد عينيه مجيبا :

– السيد يقال انه سيد ، بينما انت ترى ان الرفاق يجدون فى اثره !

وعلا صوت رجل الشرطة الألمانى بالسباب ، لكنه كان على عجلة من أمره جعلته ينصرف دون أن يضرب الجد .

وهرول رجال الشرطة الى خارج المبنى فيما يمضغون شيئا فى افواهها ، ليعتلوا المزالق مسارعين بالهرب ، وقد تصاعدت الثلوج متطايرة فى اثرهم .

أما فى اليوم التالى فقد دخلت قوات الجيش الأحمر القرية .

وقد وصل ايفان فيدوروفيتش وكاتيا الى كراسنودون لتمجيد ذكرى البلاشفة واعضاء «الحرس الفتى» الشهداء .

كما وكانت ثمة امور اخرى تنتظر ايفان فيدوروفيتش ، فقد كان ضروريا الاهتمام باعادة بناء مؤسسة «فحم كراسنودون» ، وبعث المناجم من جديد . وعلاوة على ذلك فقد كان يود بنفسه معرفة تفاصيل استشهاد رجال العمل السرى وأعضاء «الحرس الفتى» ، وكذلك مصير جلاديهم .

لقد استطاع سوليكوفسكى وستاتسينكو الهرب مع اسيادهما .

اما المحقق كوليشوف فقد تعرف عليه سكان المدينة وجرى احتجازه وتقديمه للمثول أمام القضاء السوفييتى . وقد اتضحت عن طريقه اعترافات ستاخوفيتش والدور الذى لعبته فيريكوفا وليادسكايا فى القضاء على «الحرس الفتى» .

وقد اقسم من بقى حيا من رفاق البلاشفة واعضاء «الحرس الفتى» الشهداء ، عند مقبرتيهم على الانتقام لزملائه . كما وجرى تشييد نصبين مؤقتين عند هاتين المقبرتين يتمثلان فى مسلتين خشبيتين بسيطتين . وقد سجل احد هذين النصبين المقامين عندمقبرة رجال العمل السرى اسماءهم وعلى راسهم فيليب بيتروفيتش ليوتيكوف وباراكوف ، اما نصب «الحرس الفتى» فقد سجل اسماء كافة اعضائها المقاتلين الذى استشهدوا فى سبيل الوطن .

وها هى اسماؤهم :

اوليج كوشيفوى ، ايفان زيمنوخوف ، أوليانا جروموفا ، سيرجى تيولينين ، ليوبوف شيفتسوفا ، أناتولى بوبوف ، نيكولاى

سومسكوى ، فلاديمير اوسموخين ، أناتولى أورلوف ، سيرجى ليفاشوف ، ستيبان سافونوف ، فيكتور بيتروف ، أنطونينا يليسيينكو ، فيكتور لوكيانتشنكو ، كلافديا كوفاليفا ، مايا بيجليفانوفا ، الكسندرا بونداريفا ، فاسيلى بونداريف ، الكسندرا دوبروفينا ، ليديا أندروسوفا ، أنطونينا ماشينكو ، يفجينى موشكوف ، ليليا ايفانيخينا ، أنطونينا ايفانيخينا ، بوريس جلافان ، فلاديمير راجوزين ، يفجينى شيبيليف ، أنا سوبوفا ، فلاديمير جدانوف ، فاسيلى بيروجوك ، سيميون اوستابينكو ، جينادى لوكاشيف ، انجيلينا ساموشينا ، نينا مينايفا ، ليونيد داديشيف ، الكسندر شيشينكو ، أناتولى نيكولايف ، دميان فومين ، نينا جيراسيموفا ، جيورجى شيرباكوف ، نينا ستارتسيفا ، ناديجدا بيتليا ، فلاديمير كوليكوف ، يفجينيا كييكوفا ، نيكولاى جوكوف ، فلاديمير زاجورويكو ، يورى فيتسينوفسكى ، ميخائيل جريجوريف ، فاسيل بوريسوف ، نينا كيزيكوفا ، أنطونينا دياتشينكو ، نيكولاى ميرونوف ، فاسيل تكاتشيف ، بافيل بالاجوتا ، دميترى اوجورتسوف ، فيكتور سوبوتين .

١٩٤٣-١٩٤٥-١٩٥١

محتويات